

تاريخ مصر والشام

في ألف عام

علي يعرب

الكتاب: تاريخ مصر والشام في ألف عام
المؤلف: علي يعرب

رقم الإيداع: ٢٠٢٤ / ١٣١٧٩
الترقيم الدولي: 978-977-493-808-5
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

تاريخ مصر والشام في ألف عام

علي يعرب

الإهداء

إلى أبي وأمي - رحمهما الله -
الذين جاهدوا في سبيل نجاحي،
والذين انتقلوا إلى دار المقامة، وهما يدعوان لي

محتويات الكتاب

• مقدمة ٢١

• الباب الأول: الغزوات المتتالية على سوريا

- الفصل الأول: الغزوات على سوريا منذ فجر التاريخ ٢٧
- الفصل الثاني: الفتح العربي الإسلامي لسوريا ٣٥
- الأسباب التي هيأت للعرب المسلمين فتح سوريا ٣٥
- أولاً: أبو بكر يرسل الجيوش ٣٧
- ثانياً: تمرد جبال لبنان ٤١
- ثالثاً: المردة في المصادر الغربية ٤٦

• الباب الثاني: سوريا بين قرنين

- الفصل الأول: سوريا والطولونيون ٥٥
- أولاً- الطولونيون وظهور القرامطة ٥٥
- ثانياً- الحمدانيون وعلاقتهم بسوريا ٥٩
- ١- حمدان بن حمدون وولده الحسين ٥٩
- ٢- قتال القرامطة في سوريا ٦١
- ٣- عودة الحسين بن حمدان إلى قتال القرامطة ٦٢
- ٤- ثورة الحسين بن حمدان على المقتدر ٦٦
- ٥- تمرد الحسين بن حمدان ونهايته ٦٨
- ٦- أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ٧٠
- ٧- ناصر الدولة الحسن بن حمدان أمير الأمراء ٧٣
- الفصل الثاني: الحمدانيون وبنو بويه ٧٩
- ١- نشأة دولة بني بويه ٧٩
- ٢- العلاقة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعر الدولة بن بويه ٨٠
- ٣- القبض على ناصر الدولة ونهاية دولة بني حمدان في الموصل ٨٢

- الفصل الثالث: دولة الحمدانيين في حلب ٨٨
- ١- سيف الدولة والولاية على سوريا ٨٨
- ٢- ترتيب سيف الدولة أوضاع حلب ٩٠
- ٣- سيف الدولة وقاتل الروم ٩٤
- ٤- الروم يدخلون حلب ١٠٢
- ٥- نتائج دخول الروم إلى حلب ١٠٦
- ٦- وفاة سيف الدولة وتدهور حلب من بعده ١٠٩
- ٧- قرعويه ملك على حلب ١١١
- ٨- ملك سعد الدولة لحلب ١١٤
- الفصل الرابع: الدعوة العلوية وقيام الدولة الفاطمية ١١٦
- ١- كيف بدأت الدعوة الفاطمية ١١٦
- ٢- موقف العباسيين من الفاطميين ١٢٢
- ٣- توجه الفاطميين شرقاً ١٢٤
- ٤- تطلع الفاطميين نحو سوريا ١٢٥
- ٥- الصراع بين الفاطميين والقرامطة ١٢٦
- ٦- تمرد دمشق على الفاطميين ١٢٨
- ٧- ألفتكين والفتنة المذهبية ١٢٩
- ٨- دمشق وقسام التراب ١٣٤
- الفصل الخامس: العلاقة بين الفاطميين والحمدانيين ١٣٦
- ١- حلب والفاطميون ١٣٦
- ٢- وفاة سعيد الدولة وزوال دولة بني حمدان ١٤١
- ٣- الفاطميون يأخذون حلب ١٤٢
- الفصل السادس: الدولة الكلائية في حلب والفاطميون ١٤٧
- ١- صالح بن مرداس ١٤٧
- ٢- حلب بعد صالح ١٤٨
- ٣- مقتل شبل الدولة وعودة الحكم الفاطمي إلى حلب ١٥٠
- ٤- تذبذب الحكم الفاطمي في حلب ١٥٣

- الفصل السابع : ظهور السلاجقة وعلاقتهم بالفاطميين ١٥٧
- ١- نشأة الغُز ١٥٧
- ٢- الغُزو بغداد ١٦٢
- ٣- تدخل الفاطميين ضد الغُز ١٦٤
- ٤- إقامة الدعوة الفاطمية في بغداد ١٦٨
- ٥- عودة طغرل بك إلى بغداد ١٧١
- ٦- نهاية أبي الحارث البساسيري ١٧٢
- الفصل الثامن : صراع الأخوة الكلايين على مُلك حلب ١٧٤
- ١- معز الدولة ثمال يتنازل عن حلب للفاطميين ١٧٤
- ٢- الصراع بين محمود بن نصروألب أرسلان ١٧٩
- ٣- هجمات الغُز على حلب ١٨١
- الفصل التاسع : الحُكم العقيلي في حلب ١٨٤
- ١- نشأة العقيليين ١٨٤
- ٢- الصراع بين تاج الدولة وشرف الدولة على ملك حلب ١٨٨
- ٣- شرف الدولة يملك حلب ١٨٩
- ٤- مقدمو جبل البهرا يفدون على شرف الدولة ١٩٠
- ٥- تاج الدولة تتش يستولي على دمشق ١٩٠
- ٦- شرف الدولة العقيلي وإمارة شيزر ١٩٢
- ٧- تحالف القوى في سوريا ضد شرف الدولة ١٩٣
- ٨- الصراع بين شرف الدولة وملك شاه ١٩٥
- ٩- الصراع بين شرف الدولة وسليمان بن قتلمش ١٩٨
- ١٠- مقتل شرف الدولة وانتهاء الحكم العقيلي في حلب ١٩٧

• الباب الثالث : الغزو الصليبي للشرق

- الفصل الأول : الاستعداد للحروب ٢٠٣
- ١- الظروف التي هيأت للغزو الصليبي للشرق ٢٠٣
- ٢- بدء الزحف نحو الشرق ٢٠٨
- ٣- الاستيلاء على نيقية وما بعدها ٢١٠

- ٤- تأسيس إمارة الرها الصليبية ٢٥٥
- ٥- احتلال انطاكيا ٢١٥
- ٦- اجتماع التُّرك على الصليبيين ٢٢٦
- ٧- انسياب الصليبيين في سوريا ٢٣٣
- ٨- تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية ٢٤١
- ٩- توسع الصليبيين في فلسطين ٢٤٣
- الفصل الثاني: العلاقة بين الفاطميين والصليبيين ٢٤٧
- أولاً- مرحلة السعي إلى التعاون ٢٤٧
- ثانياً- مرحلة الصراع ٢٤٩
- ١- الأفضل يخرج على رأس جيشه لقتال الصليبيين ٢٥٠
- ٢- الأفضل يرسل سعد الطواشي ٢٥٢
- ٣- الأفضل يرسل جيشاً جديداً إلى فلسطين ٢٥٥
- ٤- شرف المعالي يتجه بجيش جديد إلى فلسطين ٢٥٩
- ٥- بلدوين يغزو مصر ٢٦٢
- ٦- متابعة قتال الصليبيين ٢٦٢
- ٧- إعانة الفاطميين على الجهاد ٢٦٤
- ٨- سقوط طرابلس ٢٦٦
- ٩- سيطرة الصليبيين على اللاذقية وبانياس ٢٧٦
- ١٠- سيطرة الصليبيين على جبلة ٢٧٨
- ١١- سيطرة الصليبيين على بيروت ٢٧٩
- ١٢- سيطرة الصليبيين على صيدا ٢٨٢
- ١٣- احتلال مدينة صور ٢٨٤
- ١٤- احتلال عسقلان ٢٩٦
- الفصل الثالث: العلاقة بين التُّرك والصليبيين ٣٠٩
- أولاً- انبعاث السلاجقة بعد الهزيمة ٣١١
- ١- السلطان يرسل جاولي لقتال الصليبيين في سوريا ٣١١
- ٢- السلطان يرسل مودوداً لقتال الصليبيين في الرها ٣١٤
- ٣- السلطان يحشد من جديد لقتال الصليبيين ٣١٦

- ٤- السلطان يرسل مودودًا لقتال الصليبيين ٣١٨
- ٥- مقتل مودود في دمشق والسلطان ينتقم ٣٢٠
- ٦- ظهير الدين يغير على طبرية ٣٢٤
- ٧- الصراع على رمنية ٣٢٤
- ٨- الصليبيون يغزون أرض دمشق ٣٢٧
- ثانيًا- التُّرك في حلب والصليبيون ٣٣٠
- ١- رضوان والصليبيون ٣٣٠
- ٢- حلب بعد رضوان ٣٣١
- ٣- حلب وإيلغازي ٣٣٣
- أ. وقعة تل عفرين ٣٣٤
- ب. إيلغازي يعاود الهجوم ٣٣٨
- ٤- بلك بن بهرام بن أرتق ٣٣٩
- ٥- تمرناش بن إيلغازي والصليبيون ٣٤٤
- ٦- البرسقي في حلب والصليبيون ٣٤٨
- ٧- مقتل البرسقي وولاية ابنه مسعود ٣٥٠
- ٨- عماد الدين زنكي والصليبيون ٣٥١
- أ. ولاية عماد الدين على سوريا ٣٥١
- ب. عماد الدين ينازل دمشق ٣٥٤
- ج. عماد الدين وحمص ٣٥٥
- د- عماد الدين ورمنية ٣٥٧
- هـ. اجتياح الملك الروماني لسوريا وموقف عماد الدين .. ٣٦٢
- و. عماد الدين ينازل دمشق من جديد ٣٦٥
- ز. عماد الدين والرها ٣٧٢
- ح. مقتل عماد الدين ٣٧٥
- ٩- محمود بن زنكي ٣٧٨
- أ. استعادة الرها ٣٧٨
- ب. هجوم الصليبيين على دمشق ٣٨١
- ج. منازلة حصن العريمة ٣٩٢

- د. منازل حصن إناب ٣٩٢
- هـ. بدعة نور الدين في حلب ٣٩٦
- و. نور الدين ودمشق ٣٩٧
- ز. نور الدين وإمارة شيزر ٤٠١
- ح. نور الدين وجبال لبنان ٤٠٦
- ط. الصراع على بانياس ٤٠٨
- ي. الصراع على حارم ٤١٥
- الفصل الرابع : نور الدين والدولة العلوية في مصر ٤١٨
- ١- الأسباب التي هيأت للترك غزو مصر ٤١٨
- ٢- خروج شاور إلى دمشق ٤٢١
- ٣- الخلاف بين شاور وشيركوه ٤٢٥
- ٤- شاور يستنجد بالصلبيين ٤٢٦
- ٥- طمع الصليبيين بمصر ٤٣٠
- ٦- عودة الترك إلى مصر من جديد ٤٣٤
- ٧- شيركوه في منصب الوزارة ٤٣٧
- ٨- صلاح الدين في منصب الوزارة ٤٤٠
- ٩- ثورة المصريين على صلاح الدين ٤٤٣
- ١٠- نور الدين بن زنكي يندم على ما فعل ٤٤٦
- ١١- إزالة رسوم الدولة العلوية بمصر ٤٤٩
- ١٢- ماذا فعل صلاح الدين بعد وفاة العاضد ٤٥٢
- ١٣- محاولة إعادة الخلافة الفاطمية ٤٥٣
- الفصل الخامس : نور الدين وثورة الشيعة في حلب ٤٥٥
- ١- محاولة الشيعة إعادة رسومهم ٤٥٥
- ٢- دعوة الملك الصالح إلى حلب ومصير القاضي أبي الفضل .. ٤٥٨
- الفصل السادس : الصراع بين صلاح الدين والزنكيين ٤٦٠
- ١- استيلاء صلاح الدين على دمشق ٤٦٠
- ٢- زحف صلاح الدين نحو حلب ٤٦١
- ٣- معركة قرون حماة ٤٦٣

- ٤- صلاح الدين وابن المقدم ٤٦٥
- ٥- استيلاء صلاح الدين على حلب ٤٦٦
- ٦- منازل الموصل ٤٦٨
- الفصل السابع: صلاح الدين والصليبيون ٤٧٢
- ١- معركة حطين ٤٧٢
- ٢- سقوط المدن والحصون ٤٧٣
- ٣- المريكز كونراد دي مونتفراتو وانبعاث الروح الصليبية ٤٧٤
- ٤- صلاح الدين يتوجه شمالاً ٤٧٦
- ٥- مقدمو الجبل يقدون إلى صلاح الدين ٤٧٨
- ٦- سيطرة صلاح الدين على اللاذقية وما يليها من الحصون ... ٤٧٩
- ٧- الهدنة بين صلاح الدين وأمير أنطاكية ٤٨٠
- الفصل الثامن: اشتداد الحروب ٤٨٢
- ١- مجيء ملوك أوروبا ٤٨٢
- ٢- صلاح الدين يكاتب ملوك الأطراف لقتال الصليبيين ٤٨٥
- ٣- استعادة الصليبيين باقي مدن الساحل ٤٨٦
- ٤- الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين ٤٨٨
- ٥- تقييم الهدنة ٤٩٢
- الفصل التاسع: نظرة عامة على الحرب ٤٩٤
- الفصل العاشر: نهاية صلاح الدين ٤٩٦
- الفصل الحادي عشر: الإقطاع الصليبي في الشرق ٤٩٨

• الباب الرابع: الحركة الإسماعيلية

- مقدمة ٥٠٣
- الفصل الأول: نشأة الإسماعيلية النزارية ٥٠٤
- ١- الانشقاقات في الدعوة الفاطمية ٥٠٤
- ٢- الحسن بن الصباح والدعوة الفاطمية في بلاد فارس ٥٠٥
- ٣- الصراع بين السلاجقة والإسماعيلية ٥٠٨

- الفصل الثاني: الإسماعيلية في سوريا ٥١٣
- ١- رضوان والإسماعيلية في مملكة حلب ٥١٣
- ٢- هجوم الإسماعيلية على أفاشيا ٥١٥
- ٣- الإسماعيلية بعد وفاة الملك رضوان ٥١٦
- ٤- الدعوة الإسماعيلية في إمارة شيزر ٥١٧
- ٥- عودة الإسماعيلية للتركيز على حلب ٥١٨
- الفصل الثالث: الإسماعيلية يتوجهون جنوبًا ٥١٩
- ١- الإسماعيلية في دمشق ٥١٩
- ٢- مقتل الداعي بهرام ٥٢٠
- ٣- الداعي إسماعيل العجمي ٥٢١
- الفصل الرابع: الإسماعيلية يتوجهون إلى جبال لبنان ٥٢٤
- ١- الداعي أبو محمد والقدموس ٥٢٤
- ٢- الاستيلاء على حصن المنيقة ٥٢٥
- ٣- الاستيلاء على مصيف ٥٢٦
- ٤- استيلاء الإسماعيلية على باقي قلاع جبال لبنان ٥٢٦
- ٥- الداعي رشيد الدين سنان ٥٢٧
- الفصل الخامس: علاقة الإسماعيلية بالعلويين ٥٢٩
- الفصل السادس: علاقة الإسماعيلية بالصليبيين ٥٣١
- الفصل السابع: العلاقة بين الإسماعيلية والتُّرك ٥٣٥
- ١- حادثة الأمير العماد ابن شيخ الشيوخ ٥٣٩
- ٢- حادثة القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري ٥٤١
- الفصل الثامن: نهاية مملكة الدعوة ٥٤٣
- ١- المغول ومملكة الطالقان ٥٤٣
- ٢- الملك الظاهر ومملكة لبنان ٥٤٧
- الفصل التاسع: تلاشي النزارية وانتهاؤها ٥٤٥

• الباب الخامس: المماليك

- الفصل الأول: نشأة المماليك ٥٥٩
- ١- المماليك من حيث النشأة ٥٥٩
- ٢- عزم الأيوبيين في سوريا على أخذ مصر ٥٦١
- ٣- ثورة العرب في مصر ضد المماليك ٥٦٤
- ٤- الصراع بين المعز أيبك والبحرية ٥٦٥
- ٥- الصراع بين المعز أيبك وشجرة الدر ٥٦٧
- الفصل الثاني: المغول والمشرق العربي ٥٦٩
- ١- اجتياح المغول للمشرق العربي ٥٦٩
- ٢- السلطان قطز والمغول ٥٧١
- الفصل الثالث: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري .. ٥٧٣
- أولاً: وصول الملك الظاهر إلى حكم السلطنة ٥٧٣
- ثانياً: الملك الظاهر والملك المغيـث الأيوبي ٥٧٤
- ثالثاً: الملك الظاهر والصليبيون ٥٧٦
- ١. انطلاق القتال ٥٧٦
- ٢. العودة إلى قتال الصليبيين ٥٨١
- ٣. اشتداد القتال ٥٨٤
- ٤. غزو بلاد الأرمن ٥٨٦
- ٥. السلطان في صفد ٥٨٨
- ٦. متابعة الفتوح في بلاد الصليبيين ٥٨٩
- ٧. استعادة جبلة ٥٩٣
- ٨. مراسلة ملك عكا في الصلح ٥٩٤
- ٩. استعادة قلعة بلاطنس ٥٩٦
- ١٠. استعادة باقي حصون الساحل ٥٩٨
- ١١. قتال الأرمن مرة ثانية ٦٠٣
- ١٢. فتح حصن القصير ٦٠٤
- ١٣. قضية اللاذقية وبيروت ٦٠٥
- ١٤. غزوة بلاد الروم ٦٠٦

- ٦١٠ رابعًا: وفاة الملك الظاهر والأقوال في ذلك
- ٦١٣ خامسًا: نظرة على أعمال الملك الظاهر
- ٦١٤ سادسًا: قتال الصليبيين بعد الملك الظاهر
- ٦١٦ - الفصل الرابع: السلطان قلاوون والصليبيون
- ٦٢١ - الفصل الخامس: الأشرف خليل والصليبيون
- ٦٢٤ - الفصل السادس: الحملة على العلويين في جبل كسروان
- ٦٣١ - الفصل السابع: فتوى ابن تيمية وثورة العلويين
- ٦٣٩ - الفصل الثامن: الإقطاع في عهد المماليك

• الباب السادس: العثمانيون

- ٦٤٣ - تمهيد
- ٦٤٤ - الفصل الأول: العلاقة بين المماليك والعثمانيين
- ٦٤٤ ١- علاقة الطرفين من الود إلى الصدام
- ٦٤٧ ٢- معركة مرج دابق
- ٦٤٩ ٣- دخول سليم شاه إلى حلب ودمشق
- ٦٥٠ ٤- القضاء على دولة المماليك في مصر
- ٦٥٤ ٥- أفعال سليم شاه في سوريا
- ٦٥٦ - الفصل الثاني: ولاية طرابلس
- ٦٦٣ - الفصل الثالث: مقاطعة صافيتا
- ٦٦٨ - الفصل الرابع: الفتح المصري لسوريا
- ٦٦٨ ١- الحملة العسكرية وأسبابها
- ٦٧٦ ٢- الحكم المصري في سوريا
- ٦٧٩ ٣- التمرد على الحكم المصري في سوريا
- ٦٧٩ أ. الثورة في فلسطين
- ٦٨١ ب. ثورة العلويين في جبال اللاذقية
- ٦٨٣ ج. ثورة الدروز في حوران

- ٦٨٦ وقعة نصيبين واستظهار إبراهيم باشا فيها
- ٦٨٧ بدء التمرد على الحكم المصري في سوريا
- ٦٩٣ دخول الدول الأوروبية في الحرب
- ٧٠١ الفصل الخامس: سوريا من جديد في قبضة العثمانيين
- ٧٠١ ١- العودة إلى ظُلم الناس
- ٧٠٣ ٢- دولة إسماعيل خير بك في صافيتا
- ٧١١ ٣- نظام الأسرات

• الباب السابع: الإدارة والتحديث في الدولة العثمانية

- ٧١٩ - الفصل الأول: الضرائب
- ٧١٩ أولاً- الضرائب قبل عهد التنظيمات الإدارية
- ٧٢٠ ثانياً- الضرائب في عهد التنظيمات الإدارية
- ٧٢١ ١- العُشر
- ٧٢٣ ٢- الويركو
- ٧٢٥ ٣- ضريبة البدل العسكري
- ٧٢٥ ٤- ضريبة المسقفات
- ٧٢٦ ٥- ضريبة المعارف
- ٧٢٦ ٦- ضريبة العمال المكلفين
- ٧٢٧ ٧- رسوم المواشي
- ٧٢٧ ٨- الرسوم والجمارك
- ٧٢٩ ثالثاً- كيفية تحصيل الضرائب
- ٧٣٠ رابعاً- أثر ثورة العلويين على دفع الضرائب
- ٧٣٣ - الفصل الثاني: نظام ملكية الأرض
- ٧٣٣ أولاً- نظام ملكية الأرض قبل عهد التنظيمات
- ٧٣٤ ثانياً- نظام ملكية الأرض في عهد التنظيمات
- ٧٣٤ ١- الأراضي الملك
- ٧٣٤ ٢- الأراضي الموات
- ٧٣٥ ٣- الأراضي المتروكة

- ٧٣٦ ٤- الأراضي الموقوفة
- ٧٣٧ ٥- الأراضي الأميرية
- ٧٣٨ ثالثاً- إثبات الملكية العقارية
- ٧٤١ رابعاً- توريث الملكية العقارية
- ٧٤٣ - الفصل الثالث: التعليم
- ٧٤٣ ١- وضع التعليم قبل عهد التنظيمات
- ٧٤٤ ٢- التعليم في عهد التنظيمات
- ٧٤٦ ٣- البعثات التبشيرية
- ٧٥٠ - الفصل الرابع: المحاكم والقضاء
- ٧٥٠ ١- القضاء قبل عهد التنظيمات
- ٧٥٢ أ. نواب الشرع
- ٧٥٣ ب. جلسات المحاكمة وإصدار الأحكام الشرعية
- ٧٥٥ ٢- تنظيم القضاء
- ٧٥٧ - الفصل الخامس: التنظيم الإداري
- ٧٥٧ - تمهيد:
- ٧٥٨ ١- الوالي
- ٧٥٨ ٢- المتصرف
- ٧٥٩ ٣- القائم مقام
- ٧٦٠ ٤- مدير الناحية
- ٧٦٠ ٥- المختار
- ٧٦١ ٦- المفتي
- ٧٦٢ ٧- مدير المال
- ٧٦٢ ٨- أمين الصندوق
- ٧٦٢ ٩- مدير التحريات
- ٧٦٣ ١٠- كاتب الطابو
- ٧٦٤ - الفصل السادس: الهجرة إلى أمريكا
- ٧٦٤ ١- أسباب الهجرة
- ٧٦٦ ٢- المهاجرون من قضاء صافيتا

- الفصل السابع: الزراعة ٧٦٧
- ١- زراعة الزيتون ٧٦٧
- ٢- زراعة التوت ٧٦٨
- ٣- زراعة الحبوب ٧٧٠
- ٤- زراعة التبغ ٧٧١
- الفصل الثامن: التجنيد ٧٧٤
- ١- الأسباب التي دعت العثمانيين إلى التجنيد ٧٧٤
- ٢- القضاء على الانكشارية ٧٧٨
- ٣- تطبيق التجنيد الإجباري ٧٧٩
- ٤- الجيش الخامس (عربستان) ٧٧٩
- ٥- مدة الخدمة العسكرية ٧٨٠
- ٦- كيفية أخذ العسكر ٧٨١
- المصادر والمراجع ٧٨٥

مقدمة

كتابة التاريخ مهمة شاقة، لأن التاريخ كتاب (يُقرأ من وسطه) كما يقول المؤرخ «ول ديورانت»، فهناك مناطق عميقة لا يمكن الغوص فيها، بل يمكن تلمّس المراحل منذ لحظة بدء الإنسان بالكتابة وترك آثار تدل على حياته في تلك العصور الغابرة.

هذا الكتاب يُقدّم رؤية جديدة لتاريخ سوريا خلال مرحلة العصور الوسطى. ولأن تاريخ سوريا ارتبط بتاريخ مصر في تلك المرحلة، فقد كان لزاماً علينا أن نتناول أحداث هذا التاريخ بين البلدين. وكان تركيز الكتابة على تلك العصور، لأنها شهدت أحداثاً جساماً تمثّلت في دخول التُّرك، الذين جاءوا من براري منغوليا، إلى بلادنا منذ منتصف القرن الخامس الهجري، ومن ثم سيطروا عليها وأقصوا العرب عن مراكز الحكم بشكل كامل. وقد تسبّب حكمهم الظالم لمدينة القدس - بعد استيلائهم عليها من أيدي الفاطميين سنة ٤٦٤ للهجرة - في إساءة التعامل مع الحُجاج المسيحيين القادمين من الغرب، إذ راحوا يفرضون عليهم خَوّات كبيرة نظير السماح لهم بالدخول إلى المدينة وزيارة «القبر المُقدّس» فيها. وقد دفع ذلك التصرف ملوك أوروبا للقيام بحملات صليبية تهدف إلى استخلاص سوريا من أيدي التُّرك، فكانت الحروب الصليبية التي دخل اللاتين فيها في صراع طويل مع التُّرك، فأصبح هناك غرباء من اتجاهات مختلفة يتصارعون على أرضنا ضمن مفاهيم دينية متضاربة، وكم من المُدن التي هُدمت وقُتل سُكانها، وكم من الدماء التي نذفت وهي بريئة.

وبعد مئتي سنة من الصراع المتواصل، نجح التُّرك في طرد الصليبيين إلى بلادهم واستولوا على كافة مُدن الساحل التي كانت في أيديهم وسكنوا فيها، ومن ثم اكتمل حكمهم لكامل سوريا.

وقد ابتدأ الكتاب بتقديم لمحة عن تاريخ سوريا القديم، ومن ثم عن الفتح العربي الإسلامي لسوريا وتمرد جبال لبنان فترة من الزمن، ومن ثم تمّ الحديث عن أوضاع سوريا بين القرنين الثالث والخامس الهجريين، وتمّ خلال هذا البحث الحديث عن القرامطة والإخشيديين، ومن ثم عن ظهور الحمدانيين وابتداء إمارة حلب الحمدانية، وما تلا ذلك من ظهور الكلايين وحكمهم لإمارة حلب، وتخلّلت الأحداث ظهور الفاطميين وتوسعهم من بلاد المغرب نحو مصر، ومن ثم سوريا، ومن ثم العلاقة بين الفاطميين والحمدانيين والعلاقة بين الفاطميين والكلايين، وصولاً إلى دخول التُّرك إلى سوريا وقضائهم على الكلايين ومن ثم

على العقيليين من بعدهم وأخذهم لحلب وتملكهم لسوريا من دون جبل لبنان. وتمّ تناول دول التُّرك التي قامت في سوريا بدءاً من دولة تتش أخى الملك ألب أرسلان، ودولة أولاده من بعده في دمشق وحلب، ومن ثم دولة أولاد أرتق، ومن ثم الزنكيين، وبعد ذلك دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب في مصر وسوريا حتى توقيعه الهدنة مع الصليبيين.

واستعرض الكتاب المملكة الإسماعيلية بين طالقان ولبنان وعلاقة هذه المملكة في لبنان بكلّ من التُّرك والصليبيين، حتى زوال تلك المملكة على أيدي الملك الظاهر.

وتناول الكتاب فترة حُكم التُّرك المماليك حتى زوال مُلكهم على أيدي التُّرك الروم «العثمانيين».

ومن ثمّ تمّ إفراغ القسم الأخير من الكتاب للحديث عن أثر الحُكم العثماني على العلويين، وذلك عبر تقديم دراسة اقتصادية اجتماعية شاملة تُقدّم حقائق لم تكن معروفة من قبل لكل من يريد المعرفة في هذا الصدد.

كما نرى فإن التُّرك حكموا بلادنا تسعة قرون متواصلة، وقد ساعدتهم العباسيون، في البداية، على التغلب، وقَدَّموا سنداً شرعياً لهم. وخلال ذلك الحُكم التركي الطويل، تمّ تغييب المفاهيم والقيم العربية والاستعاضة عنها بمفاهيم وقيم نحتها الفقهاء وأظهروها كحقائق ومُسلّمات سار عليها السُكان حتى اليوم. ولكي يُغلّفوا الأمر على الناس أطلقوا لفظ المسلمين على الحُكام ومن كان يؤيدونهم، مقابل إطلاق لفظ الكُفار والملاحدة والمارقين على غيرهم؛ سواء أكانوا مسيحيين أو من أمة الإسلام نفسها.

والمؤرخون الذين كتبوا عن تلك المراحل كانوا يحابون التُّرك الحاكمين، ولذلك لم يكتبوا تاريخاً صحيحاً، أو أنهم كتبوا التاريخ وفق أهواء أولئك الحاكمين. فمثلاً لم يوضّح أولئك المؤرخون من هو المُتسبّب بالحروب الصليبية، وما الذي دفع اللاتين إلى مهاجمة الشرق بتلك الوحشية التي حدثت؟ وكذلك لم ينقلوا مجريات الحروب الصليبية بدقة وجرفية، بل كانوا يُظهرون أن التُّرك كانوا ظاهرين على الصليبيين في مختلف المعارك. كما أنهم لم يتحدثوا، بشكٍ كافٍ عن جهاد المصريين في تلك الفترة ضد الصليبيين، بل إنهم اكتفوا بروايات صغيرة ومبتسرة، منطلقين في ذلك وفق شهوات التُّرك. بل أن هناك من المؤرخين من روى روايات كاذبة يزري بها على المصريين، كما فعل ابن الجوزي في روايته عن سبب سقوط مدينة عسقلان. وللأسف فإننا نرى أن المؤرخ الغربي وليم الصوري قدّم تاريخاً عن تلك المرحلة المهمة، فيه من الموضوعية والحياد، الشيء الكثير. فقال ما للصليبيين وما عليهم، فلم يبخس الخصم حقه، ولذلك اعتمدنا على

هذا التاريخ للمقارنة مع التاريخ الذي كتبه التُّرك من أجل تقديم الحقيقة الكاملة للقارئ عن ذلك الصراع.

وأيضاً فإن أولئك المؤرخين تعاملوا بطريقة سيئة في موضوع قضاء التُّرك على الدولة الفاطمية في مصر، وأظهروا أن التُّرك كانوا يريدون حماية مصر من الصليبيين وليس تدمير إرث عائلة حكمت تلك البلاد مدة تزيد على مئتي سنة. ولم يذكر مؤرخ واحد من هؤلاء ما يطعن في التُّرك من مثالب وهي كثيرة، ولعل أهمها تجهيل هذه الأمة وتحويل أهلها إلى أرقاء عبر فرض حُكم إقطاعي ظالم لا يرحم أحداً.

وللأسف هناك الكثير من هذه الأمة من يدافع عن التُّرك ويتحدث عن جهادهم وأنهم كانوا عزوة للإسلام، لكن هؤلاء لا ينظرون إلى ما فعله التُّرك بهذه الأمة، ولماذا تعمدوا، خلال حكمهم الطويل لبلادنا، إقصاء العرب ومنعهم من الوصول إلى أي منصب مهما كان صغيراً، ولماذا تعمدوا تعميم الجهل ومنع العلم حتى أصبحت أمتنا في آخر السَّلم الحضاري في العالم.

إن كشف زيف أولئك الحُكام هو أمر تقتضيه الحقيقة، فنحن اليوم نعيش في واقع مختلف، فقد انكشفت الأقنعة عن الوجوه، وأصبح العلم هو الحَكَم بين الشعوب، وقد تقدّمت أُمم الغرب علينا لأنها شجّعت على العلم منذ قرون عديدة سابقة، فظهر فيهم الفلاسفة والعلماء والمخترعون، بينما كان التُّرك في بلادنا، يحرصون أنفاس العباد ويأخذونهم بالصغيرة والكبيرة فلا يعفون عن مسيء ولا يكافئون مُحسناً.

إن ذلك التاريخ المؤلم هو لعنة تلاحق العرب في حاضرهم ومستقبلهم، لأننا إذا نظرنا إلى الوراء فلا نرى سوى الجهل والظلام، وإذا حاولنا أن نستلهم ذلك الماضي فإننا لا نجد فيه شيئاً يمكن أن يكون موضع فخرنا واعتزازنا، ولذلك علينا أن نؤمن بأننا وُلدنا اليوم، وإننا ينبغي أن نشق طريقنا نحو الأمام فلا نسمح لغريب بأن يدخل بيننا، وأن نعتمد على أنفسنا في بناء مستقبلنا على أساس العلم الذي هو الحقيقة الثابتة في الأرض.

الباب الأول

الغزوات المتتالية على سوريا

الفصل الأول

الغزوات على سوريا منذ فجر التاريخ

تعرّضت سوريا منذ أقدم العصور للغزو، وربما كان ذلك هو السبب في عدم قيام حُكم مركزي فيها كما كان عليه الحال في مصر والعراق. وكان المصريون أول من أقدم على غزو سوريا أو بلاد كنعان، كما كانت تسمى، وأقدم ذكر لحملات المصريين على هذه البلاد ورد في كتابة عثر عليها من عهد الملك «بيبي الأول» حوالي ٢٣٥٠ قبل الميلاد، وهي منقوشة على قبر قائد إحدى هذه الحملات، ويدعى «أوني» الذي دَوّن أخبار انتصاراته على جماعات البدو التي كانت تهاجم الكنعانيين. وهناك ما يدل على أن مصر تمكنت من بسط نفوذها على جميع بلاد كنعان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إلا أنها لم تحاول تمصيرها، بل اكتفت بتحصيل الجزية من سكانها، وتركتهن يمارسون عاداتهم ودياناتهم من غير أن يتدخلوا في شؤونهم الاجتماعية الأخرى، بل كانوا ينجدونهم على أعدائهم^(١). وبقيت بلاد كنعان «سوريا» تحت السيطرة المصرية حوالي ألف عام، وبدأت تلك السيادة بالتراجع منذ عهد أمنحوتب الرابع (أخناتون / ١٣٧٠ - ١٣٥٨ ق.م)، وتشير مراسلات تل العمارنة إلى أنه قبل موته كانت فلسطين قد خرجت عن طاعة مصر بصورة تامة^(٢). ورغم أن حملات رمسيس الثاني (١٣٠١ - ١٢٣٤ ق.م)، قد وصلت إلى بيروت، لكن ذلك لم ينفع في إبقاء السيادة المصرية على سوريا، بل أصبحت هذه البلاد خارجة عن الإمبراطورية في خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد^(٣).

ومن ثم بدأت الغزوات من بلاد الرافدين، حيث قام الملك الآشوري «تجلات بلاسر الأول» باجتياح سوريا سنة ١٠٩٤ قبل الميلاد^(٤). ومن ثم قام الملك شلمنصر بغزو سوريا واصطدم في معركة «قرقر»، مع تحالف دول سوريا وعلى رأسها مملكة دمشق الآرامية ودول المدن الفينيقية في الساحل، وقد تمّ له تحطيم قوتها، لكن هذا النصر لم يكن حاسماً لأنه أعاد الكرة عدة مرات بهدف إخضاع سوريا^(٥).

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة - ص ١٢٥

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٤٥

(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٤٦

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥١

(٥) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥١

من ثم قام تغلات فلاسر الثالث بقيادة حملة لإخضاع سوريا، بين ٧٤٣ - ٧٤١ ق.م، واجتاح ابنه شلمناصر الخامس فينيقيا واحتل مَدْنَهَا^(١).

ومن ثم قام الملك سنحاريب ابن سرجون الثاني بغزو سوريا وأخضع مَدْنَهَا، وقامت صيدا التي خضعت له ضد ابنه اسرحدون في سنة ٦٧٧ ولكنه هدمها وطرح سورها في الماء^(٢). وورث الكلدانيون أصحاب دولة بابل الجديدة، السيطرة على سوريا، لكن المدن الفينيقية تمردت لأنها كانت أكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية.

وفي سنة ٥٨٧ ظهر الملك نبوخذ نصر^(٣) بنفسه في شمال سوريا، وأقام معسكره في ربله* في وادي العاصي، ومن هناك أرسل قِسْماً من جيشه للتغلب على المدن الفينيقية وفتح بلاد اليهودية نهائياً، وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة انتهى في سنة ٥٧٢، خضعت صورو سائر بلاد فينيقيا^(٤).

وكان قد ظهر في المناطق الشرقية من إمبراطورية بابل، قائد يدعى كورش^(٥)، وحّد الفرس وأبناء عمهم الميديين، تحت حُكم واحد وتوجه نحو بابل ففضى عليها سنة ٥٣٩، واعترفت مناطق الإمبراطورية البابلية ومنها سوريا بالحُكم الفارسي الجديد^(٦). وكان اليونان بحكم طبيعة بلادهم البحرية يمارسون القرصنة في سواحل سوريا وقد اشتكى الفينيقيون منهم للفرس الحاكمين، فقرّر الملك داريوس بن بهمن بن اسفنديار محاربة اليونان، فأرسل الأسطول الفينيقي ومن

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥٣

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥٣

(٣) كما جاء في كتاب «فارس نامه» فإن نبوخذ نصر كان تابعاً لملك فارس بهمن بن اسفنديار، وأن هذا الملك هو الذي أمره، كما يقول ابن البلخي مؤلف الكتاب، بالذهاب إلى بيت المقدس لينتقم وذلك بعد أن قتل زعيم اليهود أحد الرسل، فقتل ذلك الزعيم وخلقاً كثيراً، وعين عليهم شخصاً يدعى «سينا» ومنحه لقب «صيدقيا»، وحين عاد بخت النصر إلى بابل أعلن صيدقيا العصيان عليه، فتوجّه إليه بخت النصر وألقى عليه القبض، فنهب بيت المقدس وأوثق صيدقيا وحمله إلى بابل بعد أن ذبح ولده وسمل عينيه، ثم سبى اليهود من بيت المقدس ودّمّر الهيكل، وقد عاش بخت النصر بعد ذلك أربعين سنة، ثم ملك بعد وفاته ولد له يقال له نمرود، ثم ملك من بعده ابنه المسى بلت النصر. فارس نامه، ابن البلخي، ص ٥٨. وهذه الرواية تخالف الرواية التوراتية التي تقول إن نبوخذ نصر كان ملكاً مستقلاً في بابل، وهذه الرواية هي التي يجمع عليها المؤرخون الغربيون، لكن المؤرخين الفرس والعرب، يقولون إنه كان تابعاً لملك فارس، حيث يقول أحد أهم المؤرخين والجغرافيين العرب وهو المسعودي: إن بختنصر كان مرزبان العراق والمغرب من قبل ملك الفرس - راجع مروج الذهب، المسعودي، مادة بختنصر، ج ١، ص ١٧٤.

* ربله، وتمثلها قرية بنفس الاسم تقع على ١٢ ميلاً جنوب حمص - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥٦

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ١٥٦

(٥) كورش، هو، كما يقول ابن البلخي، كيرش بن احشوارش بن كيرش بن جاماسب بن لهراسب، وأمه ابنة واحد من أنبياء بني إسرائيل تدعى أشين كان خاله قد درّسها التوراة وكانت عالمة عاقلة، وقد عمر بيت المقدس بناء على أمر الملك، بهمن بن اسفنديار، الذي أعطاهم كل أموالهم ومواشيهم وأثاثهم وما كان في الخزائن مما كان قد أخذه بخت النصر وما كان باقياً في خزائن بهمن. فارس نامه، ابن البلخي، ص ٥٨

(٦) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٣٩

ثم أردفه بجيش بقيادة هارياجوس، وقد اشتبك الأسطول الفينيقي مع الأسطول الأيوني بالقرب من ملطية، وانتصر الأسطول الفينيقي في تلك المعركة، ومن ثم هجم هذا الأسطول على مَدَن اليونان، وجاء هارياجوس بجيشه من البر، فاشتبك مع الأغريق بقيادة هستيايوس، وانتصر عليهم وقتل معظمهم وفرَّ البقية، وأمر داريوس بإعدام هستيايوس^(١). وخضعت بلاد اليونان كلها لسيطرة دارا بن بهمن، لكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد نجح فيليب ملك مقدونيا في توحيد بلاد اليونان تحت زعامته ومن ثم وضع الخطط لتحريرها من السيطرة الفارسية لكنه قتل اغتيالاً^(٢).

وما إن تولى ولده الإسكندر مقاليد الحكم من بعده وكان في سن العشرين من عمره، حتى قرَّر وضع تلك الخطط موضع التطبيق، فقاد جيشه وعبر به مضيق البسفور وانساح في آسيا الصغرى، وكانت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية، وما إن عرف به الإمبراطور الفارسي حتى هبَّ للقائه بجيش كبير، وما كاد الإسكندر يخرج من مضائق قليقية ويعبر مناطق السهول حتى التقى «داريوس الثالث»* في منطقة «أبسوس» وهناك دارت معركة انتصر فيها الإسكندر، وهرب داريوس مع فلول جيشه شرقاً تاركاً معسكره وأهل بيته.

وقد عامل الإسكندر نساء الملك معاملة مهذبة نبيلة.

وتخليداً لذكرى الانتصار تمَّ تأسيس مدينة «الإسكندرونة»^(٣)، التي لاتزال تحمل اسمه، مكان المعركة. وأكمل الإسكندر فدخل سوريا وأخضع مصر، وسار

(١) تاريخ هيرودوت - هيرودوت - ص ٤٣٩

* لم يذكر هيرودوت السنة التي وقعت فيها تلك المعارك لكنها على الأرجح كانت حوالي سنة ٣٤٥ قبل الميلاد، لأن دارا بن بهمن بن اسفنديار حكم، كما يقول ابن البلخي، اثنتي عشرة سنة، وكان ضابطاً لأمر مملكته رتباً ترتيباً حسناً، ونشر العدل، وانتقاد له جميع الملوك، وهو أول من أنشأ ديوان البريد، وأرسل أصحاب البريد إلى كافة الممالك، حيث وضع في كل بلد صاحب خبر، ولم يستخدم سوى الناس العقلاء الذين كانوا موضع ثقة - فارس نامه، ابن البلخي، ص ٦٠.

* داريوس الثالث، يقول المسعودي، وتسمي الفرس دارا هذا باللغة الأولى من لغاتهم داريوس - مروج الذهب، ج ١، ص ١٧٧، وقد ذكره ابن البلخي باسم، دارا بن دارا بن بهمن بن اسفنديار، ولي بعد وفاة أبيه دارا الأول سنة ٣٣٦، ويقول ابن البلخي كان لدارا هذا عداوة مع وزير والده المسعى «رشتن»، وكان السبب في ذلك أن دارا كان يحب غلاماً يدعى «برى»، وكانت العلاقة سيئة بين برى هذا ووزير والده، ثم إن الوزير سقى برى سمّاً فمات، فاطلع دارا بن دارا على الأمر وحقد على وزير والده، فالتحق هذا بالإسكندر الرومي الذي بعثه لمهاجمة دارا مما أدى إلى اضطراب أمر دارا وضعفه - فارس نامه، ص ٦١.

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٥٣

(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٥٤

* إسكندرونة، مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام، وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ - معجم البلدان، ياقوت الحموي الرومي، المجلد الأول، ص ١٨٢، ويقول ابن الشحنة: الإسكندرونة والإسكندرية الصغرى، واسمها الآن إسكندرونة، وهو حصن بنته زبيدة أم جعفر وجدد بناءه أحمد بن أبي داود في خلافة الواثق وهو شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام بينها وبين بغراس أربعة فراسخ وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ - وقيل الإسكندرية مدينتين هما الإسكندرية الكبرى والإسكندرية الصغرى وهي إسكندرونة- الدرا المنخب، ابن الشحنة- ص ١٨٨

نحو العراق فالتقاه داريوس من جديد قرب أربيل، فانهزم من جديد وهرب بنفسه، فسار الإسكندر مشرقاً فدخل إلى بابل والتقاه كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بأكاليل الزهور والهدايا.

ثم سيطر الإسكندر على مدينة سوزا «السوس» المقر الصيفي لملوك الفرس، ومن ثم استأنف السير في جبال عالية وعرة حتى وصل إلى عاصمة الفرس اصطخر «تخت جمشيد» والمعروفة باسم «برسبوليس» باللغة اليونانية، فنُهبت كنوزها وأُشعلت النار بالقصر الملكي الذي شيّده داريوس الأول^(١).

وتوجّه الإسكندر على رأس كتيبة باتجاه الشمال نحو مدينة «اكبتانا» همذان الحالية، حيث فرّ داريوس*، وبينما كانت الكتيبة تتقدم اغتال متآمران الملك داريوس، وحصل الإسكندر على الجثة فأرسلها إلى تخت جمشيد لتُدفن باحتفال ملكي، واعتبر الإسكندر نفسه الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي^(٢).

وبعد رحلة قام بها إلى الهند وسيطر فيها على ممالك كثيرة، عاد الإسكندر إلى بابل ودخلها سنة ٣٢٤ ومكث فيها مدة قصيرة، ومرض ومات سنة ٣٢٣، وله من العمر اثنان وثلاثون سنة^(٣)*. واجتمع القادة في بابل للتشاور فيمن يكون وريثاً للفتاح الكبير، بيد أن الطمع وحُب الذات أضلّ أولئك القادة، وأراد كل منهم أن يستأثر بالملك ويستولي على كل الإمبراطورية العظيمة، فاشتعلت الحرب بينهم من أجل ذلك وتمادت الفتن والحروب اثنتين وعشرين سنة، من سنة ٣٢٣ حتى سنة ٣٠١ ق.م، وانتهت بتمزيق الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام، فكان نصيب بطليموس مصر وفلسطين وجزيرة قبرص، ونصيب كساندر بلاد الأغرقيق، ونصيب سلوقس نيكاتور بلاد بابل وآشور والهند وشمال سوريا^(٤).

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٥٦

* يقول ابن البلخي: (وقامت الحرب بين الإسكندر ودارا وتواصلت لمدة سنة كان الإسكندر يحاصر خلالها دارا، ثم إن اثنين من أهل همذان اتفقا وطعنانه بحربة من خلفه بين كتفيه، وهربا إلى الإسكندر، فسار الإسكندر حتى وقف عنده ووضع رأسه على ركبتيه، وأقسم له أنه لم يكن يريد قتله وإنما كان ينوي إلقاء القبض عليه حيّاً، وأن يعفو عنه ويعيده إلى مكانه، ثم قال، سلمي ما بدا لك فأسعفك فيه. أجاب دارا بأن لي ثلاث حاجات، الأولى أن تقتل الرجلين اللذين قتلاني، والثانية، أن تزوج ابنتي، روشنك، والثالثة، أن لا تولي على أُسرتنا وذريتنا إلا واحداً من أحرار الفرس. فأمر الإسكندر فوراً بصلب ذينك الرجلين، ودارا ما زال حيّاً، ثم بعث في طلب ابنته، وحيث مات دارا دفنه طبقاً لعادات الفرس وأقام العزاء، وأصبح ملكاً على إيران) - فارس نامه - ص ٦١

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٥٧

(٣) نشوء الدولة السلوقية وقيامها - حسن حمزة جواد - ص ٣٣

* قال المسعودي: «وقبض الإسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة، وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك الأرض، وملك وهو ابن إحدى وعشرين سنة وذلك بمقدونية وهي مصر - مروج الذهب - ج ١ - ص ٢٢١

(٤) تاريخ الدولة اليونانية والفارسية في العراق - علي ظريف الأعظمي - ص ٩

ولم يلبث خلفاء سلوقس أن فقدوا العراق لصالح ملوك الطوائف، بعد حروب متعددة معهم انتهت بطرد الأغريق من العراق بشكل نهائي سنة ٢٢٦ قبل الميلاد^(١). وكان سلوقس نيكاتور قد أقام ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس، وتسع مدن تحمل اسمه، وخمسًا تحمل اسم أمه «لاوديسا»، وثلاثًا تحمل اسم زوجته «الباكتريا أباما». ومن المدن التي سُميت لاوديسا تلك التي تقع على الساحل السوري وتسمى بالعربية «اللاذقية» ولا تزال مزدهرة وفيها أحسن ميناء على الساحل، وأباميا على العاصي (أفاميا عند الجغرافيين العرب). وكانت مركزًا عظيمًا في المملكة السلوقية وكان فيها الجيش والخزينة الحربية. أما المدن التي تسمى أنطاكيا فكانت العاصمة بطبيعة الحال أكثرها أهمية^(٢).

وكانت النظم السياسية للدولة السلوقية مزيجًا غريبًا من عناصر يونانية - مكدونية، وعناصر سورية - فارسية. وقد سادت هذه الأخيرة فيها، فعلى رأس الدولة كان يقوم الملك بسلطة مطلقة وكان في الحقيقة هو الدولة وإليه ترجع السلطات كلها، وكان يعين الموظفين ويسرحهم حسب مشيئته، وكان حكمه فرديًا ملكيًا يركز على حق الفتح والوراثة^(٣).

وقد ظلت سوريا تحت حكم السلوقيين حتى تمكّن القائد الروماني بومبي من انتزاعها منهم مدينة بعد أخرى ودخل بجيشه إلى دمشق آخر معاقلهم في سنة ٦٥ قبل الميلاد^(٤). وأدخل بومبي سوريا الجغرافية تحت اسم واحد وهو ولاية سوريا التي حلت محل مملكة سوريا، وأصبحت عاصمتها أنطاكيا^(٥).

وقد اعتبرت سوريا ذات أهمية كبيرة في الممتلكات الآسيوية للرومان حتى أنها وُضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني متمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراك في الحرب^(٦). وكان اليونان يأخذون العشور، وهي عُشر محصول الموسم^(٧)، كما كانوا يقومون بتسجيل السكان سنويًا لمعرفة المكلّفين بدفع الضريبة، لكن الإمبراطور الروماني أوغسطس تخلى عن نظام تسجيل السكان سنويًا وأقرّ بدلاً عنه نظامًا لتعداد السكان يتم على فترات دورية مدتها أربعة عشر عامًا^(٨). حيث كان يتم تعداد السكان بيتًا بيتًا، ومن الضروري على كل

(١) تاريخ الدولة اليونانية والفارسية في العراق - علي ظريف الأعظمي - ص ١٦

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - القسم الثاني الأزمنة السامية القديمة - ص ٢٦٢

(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٨٨

(٤) تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود - فراس سواح - ص ٢٦١

(٥) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٣٠٩

(٦) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٣٠٩

(٧) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى - ص ٢٩٥

(٨) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٨٣

الأشخاص الغائبين لأي سبب كان من مناطقهم الأصلية، أن يتنبَّهوا للعودة إلى بيوتهم حتى يكملوا إجراءات التسجيل المعتادة^(١)، والأشخاص الذين يتخلفون عن تسجيل أنفسهم وأولئك الذين ينبغي تسجيلهم في تعداد السكان تتم مصادرة رُبع أملاكهم إذا اتضح أنهم تخلفوا عن التسجيل^(٢).

وقد فرض الرومان مجموعة كبيرة من الضرائب شملت الأفراد والأراضي والمهن والخدمات والمبيعات والتحويلات وحركة البضائع والملكية العينية والشخصية^(٣)، وكانوا يمنحون حق الالتزام في جمع الضرائب لأعلى مُزايد^(٤). وكان هذا النظام دعوة مفتوحة للفساد، فبعد أن يُقبل عطاء المزايد ويتم التعاقد معه على أن يدفع للحكومة المبلغ الإجمالي المتفق عليه يكون هدفه الأول وغرضه الذي لا يحيد عنه هو إحراز الربح من مشروعه^(٥). وما إن يصل العقد جيبه بسلام حتى يبدأ استخدام أية وسيلة شرعية أو غير شرعية، ليعظم ربحه وذلك بابتزاز مبالغ باهظة من ضحاياه البائسين التّعساء، وكان يسهل هذا السلوك العنيف المتعطر حقيقته أن جامعي الضرائب كان يرافقهم عادة، جنود أو حُرَّاس مسلحون، لاستخدامهم في إرهاب دافعي الضرائب ومعاملتهم معاملة سيئة^(٦)*. ولكي يدفع الفلاح ضرائبه لم يكن عليه فقط أن يدرس الحبوب ويذريها حتى تصبح نظيفة، ولكن أن يُسلمها، أو أن يدفع تكلفة نقلها لمن يُسلمها إلى شونة الحكومة التي تخدم منطقته، وهناك يحصل على إيصال عن كل كمية يُسلمها، كدليل على الدفع وعليه أن يحفظه بعناية^(٧).

وبالإضافة إلى الضرائب المجحفة كان هناك المصادرة وسلب ممتلكات السكان

(١) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٨٤

(٢) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ١٨٧

(٣) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ١٧٨

(٤) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٨٨

(٥) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٨٩

(٦) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٨٩

* تصلنا رواية حية عن غارات جامع الضرائب في كتابات فيلون اليهودي الإسكندري الذي توفي بعد عام ٤٠ للميلاد بقليل: «عين، مؤخرًا، في منطقتنا جابي ضرائب، عندما كان بعض الرجال يتأخرون في دفع الضرائب بسبب الفقر، يهربون خوفاً من العقاب الذي لا يحتمل، كان ينزل العقاب القاسي بزواجهم وأطفالهم وأبائهم وأقاربهم الآخرين، ضربًا ووطنًا بالأقدام مُزلاً بهم شتى أنواع الامتهان ليجبرهم على إفشاء أماكن الهاربين أو ليدفعوا الضرائب عنهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا الأمر الأول لأنهم لا يعرفون أماكنهم، ولا الثاني لأنهم لم يكونوا أقل فقرًا من الهاربين، ولكن جابي الضرائب لم يكن ليتركهم قبل أن ينهك أجسادهم بالعصروالعذاب أو أن يقتلهم بطرق جديدة للموت، وعندما لا يوجد أقارب كان العذاب يمتد إلى الجيران بل وأحيانًا كان يشمل قرى ومدنًا بأكملها، وسرعان ما تصبح مهجورة وتخلو من السكان الذين هربوا من بيوتهم وتناثروا في أماكن يعتقدون أنهم فيها قد أمّنوا». - مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٩٠

(٧) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٩٥

من قبل رجال الدولة، فكان الجنود يدخلون المُدن والقُرى ويصادرون عربات النقل وحيوانات الحمل، والنزول والإقامة في بيوت السكان من غير وجه شرعي، وكانت الدولة الرومانية تكافح هذه الأساليب، وقد صدرت في ذلك مراسيم عديدة ومنها مرسوم صادر عن حاكم مصر حوالي عام ١٣٥ وآخر صادر حوالي عام ١٨٥ عن حاكم سوريا، ولكن لم يكن أي قدر من النصح أو التهديد ليغيّر من النزال غير المتكافئ بين المدنيين الضعفاء والجنود المسرفين المستهترين الذين يواجهونهم^(١).*

وقد فرض اليونان ومن بعدهم الرومان، الخدمات الإلزامية على السكان، وتمّ استثناء فئة معينة من السكان من هذه الخدمات، حيث أعفي كل من المواطنين الرومان، وسكان المدن الإغريقية، وأبطال الرياضة الفائزين، وأصحاب المهن التعليمية، والآباء الذين لديهم خمسة أطفال، والعاملين في بعض الأعمال الهامة، والأفراد المُسرّحين من الجيش الروماني، كما تمّ إعفاء أفراد نفس الأسرة من التكليف بخدمات متزامنة^(٢).

وقد واصل الرومان إنشاء مناصب التزام جديدة حتى نهاية حكمهم^(٣). وكان هناك مئة خدمة إلزامية بعضها يشمل أعدادًا كبيرة أو صغيرة من الأقسام الفرعية، يُكلّف بكل منها شخص أو مجموعة من الأشخاص^(٤)، وكانت مدة التكليف في معظم الخدمات الإلزامية عامًا أو ثلاثة أعوام. بعدها كان الشخص المكلف يصبح مؤهلاً لفترة إعفاء لعدة سنوات قبل أن يرشّح لأحد التكاليف الإلزامية مرة أخرى^(٥)، وبمجرد أن يعلن تعيين المكلفين كانت أملاك المرشح توضع تحت الحجز لصالح الدولة، وكان المُكلف مطالبًا بأن يؤدي قسمًا يعد فيه بالأداء المخلص للمهمة المكلف بها وبشكل مميز^(٦)، وكان على موظفي القرية والمدينة الذين كان من واجبهم أن يرشحوا المكلفين أن يشهدوا على مسؤوليتهم الخاصة، أن كل مرشح هو شخص صالح قانونًا ومناسب ويضمنون أنه سوف يقوم بأداء خدمته فعلاً^(٧).

(١) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٣
* في شتاء ٢١٦ - ٢١٧ يخبرنا المؤرخ ديوركاسيوس أن قوات كركلا أقامت في سوريا قانونيًا هذه المرة، واستخدموا كل شيء لدى مضيقهم كأنها أشياءهم الخاصة- مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٣

(٢) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٧

(٣) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ١٩٩

(٤) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٧

(٥) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٧

(٦) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٠

(٧) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢٠٨

وكانت الخدمات الإلزامية شيئاً يسعى معظم الناس لتجنبه إن أمكن، وكان من الممكن أن تغري هدية الموظف القائم على التعيين فيتغاضى عن اسم ما عند تسجيل المعنيتين، كما كان يمكن أيضاً حذف اسم آخر بدافع الصداقة، ولكن الحكومة حاولت تصعيب هذا الأمر بأن أمرت أن يتم اختيار كتاب القرى، وهم أنفسهم كانوا مكلفين بخدمة إلزامية، من خارج القرى التي كان عليهم خدمتها^(١). وكما كان الهرب هو الملجأ الأخير لدافع الضرائب عندما يصبح عبء الضرائب والرسوم غير محتمل، فإن الخدمات الإلزامية أدت أيضاً إلى فرار الكثير من السكان، بل إن بعضهم لم يكونوا ينتظرون صدور أوامر تعيينهم، وإنما يسارعون بالفرار حالما يعلمون أو يشكّون بأنهم سيعيّنون^(٢).*

ولنا أن تتخيل حجم الظلم الذي كان يقع على الناس من جراء هذا النظام الذي لا يرحم أحداً.

(١) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢١٠

(٢) مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢١٢

* في مرسوم صادر في يوم رأس السنة المصرية الثامنة عشرة من حكم انطونيوس بيوس (٢٩ أغسطس ١٥٩) لم يتغيّر حاكم مصر كلماته وهو يتحدث عن الأشخاص الذين فروا من القيام بخدمات إلزامية معينة بسبب الفقر المحيط بهم في ذلك الوقت وما زالوا يعيشون بعيداً عن أوطانهم في خوف، حيث أعلن أنهم خارجون عن القانون واستطرد في حديثه مقدماً لهم عفواً عاماً إذا عادوا إلى بلادهم خلال ثلاثة أشهر. - مصر تحت الحكم الروماني - نفتالي لويس - ص ٢١٣

الفصل الثاني

الفتح العربي الإسلامي لسوريا

- الأسباب التي هيأت للعرب المسلمين فتح سوريا

تهيأت للعرب المسلمين الأسباب التي جعلتهم ينتصرون على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية في وقت واحد، ذلك أن هاتين الإمبراطوريتين كانتا قد دخلتا في صراع مع بعضهما، حيث قام الملك الفارسي خسرو الثاني سنة ٦١١ باجتياح سوريا، وأعمل فيها السلب والنهب والتدمير أينما توجه، وظلت سوريا بيد الفرس حتى استعادها الإمبراطور هيروكليس سنة ٦٢٩.

وكان الرسول محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أرسل كتاباً إلى ملك بصرى الغساني يدعو فيه إلى الإسلام، فقام هذا الملك بقتل حامل الكتاب، ما دفع الرسول إلى إرسال جيش من ثلاثة آلاف مقاتل لقتال الغساسنة بقيادة زيد بن حارثة، فانطلق الجيش حتى وصل إلى «مؤتة» وهي في الأردن اليوم، ولاقاه الغساسنة مع الجيش الرومي، فاستشهد زيد بن حارثة، فخلفه جعفر بن أبي طالب، فاستشهد، فخلفه عبد الله بن رواحة الأنصاري، فاستشهد، وحمل الراية خالد بن الوليد، فعاد بالجيش منهزماً إلى المدينة^(١). ومن ثم جهّز الرسول جيشاً آخر إلى مؤتة وجعل عليه أسامة بن زيد، وقال له: (سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك فأوطئهم بالخيـل، فقد وليتك على هذا الجيش)^(٢). ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا أنتدب في تلك الغزوة، كما أنتدب فيها الكثير من الأنصار، فاختلف المسلمون وقال رجال من المهاجرين: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، فكثرت القالة في ذلك^(٣).

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ولم يخرج هذا الجيش.

(١) المغازي - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ج ٢ - ص ٧٦٣

(٢) المغازي - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ج ٣ ص ١١١٧

(٣) المغازي - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١١١٨

- أولاً: أبو بكر يرسل الجيوش

منذ تولي أبي بكر خلافة المسلمين بدأ عهد الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية، حيث قام بإرسال الجيوش إلى العراق لقتال الفرس، وفي نفس الوقت راح يُفكر في غزو بلاد الروم. ويقول ابن الأعمش: (وتواترت الأخبار من الشام بأن الروم قد شددوا قبضتهم على بلاد الشام وأعلنوا الفساد، وقد مال الصديق إلى إرسال الجيوش إلى تلك الجهات لتخليص تلك البلاد من الشر والفساد)^(١).

ويذكر اليعقوبي، أن أبا بكر (شاور جماعة من أصحاب رسول الله، فقدموا وأخروا، فاستشار علي بن أبي طالب، فأشار أن يفعل، وقال: إن فعلت ظفرت، فقال: بُشرت خيراً، فقام أبو بكر في الناس خطيباً، وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم)^(٢).

ويذكر الطبري في تاريخه، أن (أبا بكر لما عزم فتح الشام سمى لكل أمير أمره على الجيوش كورة، فسمى لأبي عبيدة عامر بن الجراح كورة حمص، وليزيد بن أبي سفيان كورة دمشق، ولشرحبيل بن حسنة كورة الأردن، ولعمرو بن العاص كورة فلسطين)^(٣).

ويقول اليعقوبي: (ثم نادى أبو بكر في الناس بالخروج، ودعا يزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، فعقد لهم، وقال: إذا اجتمعتم فأمر الناس أبو عبيدة. وقدمت عليه العشائر من اليمن، فأنفذهم جيشاً بعد جيش. فلما قدمت الجيوش الشام كتب إليه أبو عبيدة يُعلمه بقدم ملك الروم في خلقٍ عظيم، فجعل يسرّح إليه الجيش بعد الجيش، والأول فالأول ممن يقدم عليه من قبائل العرب، ثم تتابعت كتب أبي عبيدة بكل أخبار جمع الروم، فوجّه أبو بكر عمرو بن العاص في جيش من قريش وغيرهم، ثم كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير إلى الشام ويخلف المثنى بن حارثة بالعراق، فنفذ خالد في أهل القوة ممن كان معه، وخلف المثنى بن حارثة في بقية الجيش بالعراق)^(٤).

كما عقد أبو بكر لشرحبيل بن حسنة على رأس جيش وأرسله إلى الشام، والتقت الجيوش بالجابية في منطقة حوران. وكانت بينهم وبين الروم، كما يقول اليعقوبي، وقعات بأجنادين صعبة في كل ذلك يهزم الله الروم وتكون العاقبة للمسلمين، وكانت وقعة أجنادين يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣^(٥). ومن ثم بدأوا الزحف نحو دمشق فتمت السيطرة عليها بعد حصار دام فترة من

(١) كتاب الفتوح - العلامة أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي - ج ١ ص ٧٩

(٢) تاريخ اليعقوبي - أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي البغدادي - ص ٩٠

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الثاني - ج ٣ ص ١٩٧

(٤) تاريخ اليعقوبي - محمد بن واضح اليعقوبي - ص ٩١

(٥) تاريخ اليعقوبي - محمد بن واضح اليعقوبي - ص ٩١

الزمن، ومن ثم توغلوا أكثر في سوريا حتى سيطروا على بعلبك وحمص.

ويقول الواقدي: (إن هرقل عندما سمع بتوغل المسلمين في سوريا وأنهم فتحوا دمشق وبعلبك وجوسية، كتب إلى كل من يعبد الصليب ويقرأ الإنجيل، فأجابته الرومية والصقالبة والإفرنج والأرمن والدقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والغزاة* وأهل روميا وكل من يحمل صليبا^(١)).

وأقام الملك هرقل ينتظر الجيوش والعساكر فما مضى عليه إلا أيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بأنطاكية وآخرها في رومية الكبرى^(٢)*. وعوّل أن يبعث الجيش مع خمسة من ملوك الروم، فأول ما عقد لواء لقناطير* ملك الروسية، وضم إليه مئة ألف فارس، ثم عقد لواء آخر وسلمه إلى جرجير ملك عمورية وملورية، وضم إليه مئة ألف فارس، ثم عقد لواء ثالثا وسلمه إلى الديرجان* صاحب القسطنطينية*، وضم إليه مائة ألف فارس من المغليط والإفرنج والقلن^(٣). ثم عقد لواء رابعا وسلمه إلى ماهان ملك الأرمن، وجعله قائد الجيوش كلها، ثم خلع على جبلة بن الأيهم الغساني وضم إليه العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام. وقال لهم: كونوا في المقدمة، فإن هلاك كل شيء بجنسه والحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم أمر القسوس أن يغمسوهم في ماء المعمودية ويقرأوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى^(٤)*.

* من غير المعروف من هم «الدقس، والمغليط، والعلف، والغزاة»، فربما هي أسماء من اختراع الواقدي، أما الكرج فهم شعب جورجيا الحالية.

(١) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ج ١ - ص ١٤١

(٢) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ج ١ ص ١٤٨

* لا يمكن للمرء أن يصدق هذا الكلام، فهل يعقل أن تكون أول الجيوش عند أنطاكية وآخرها عند مدينة روما بإيطاليا، وهناك قرابة ألف كيلومتر بين المكانين، فما هذه الجيوش الهائلة التي لا تكاد تنتهي ولماذا فشلت كلها أمام المسلمين؟
* قناطير، من غير المعروف من أين استقى الواقدي هذا الاسم الذي هو جمع لكلمة قنطار العربية وهي وحدة قياس، ومن المعروف أن للروس أسماء خاصة من لغتهم وثقافتهم.

* الديرجان، وصفه الواقدي بأنه صاحب القسطنطينية، لكن إذا كان هذا هو ملك القسطنطينية فماذا كان يفعل هيروكليس، ومن غير المعروف ماذا تعني كلمة الديرجان في قاموس الواقدي؟

* القسطنطينية، مدينة مثلثة الشكل، جانبان منها في البحر، والجانب الثالث منها مما يلي البر، وفيه باب الذهب، والمدينة طولها تسعة أميال وعليها سور حصين ارتفاعه أحد وعشرون ذراعا، ويحيط به فصيل دائر ارتفاع سمكه مما يلي البر عشرة أذرع، وارتفاع سمك الفصيل مما يلي البحر أيضا عشرة أذرع، فبينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعا ولها من الأبواب نحو مائة باب وأكبرها، باب الذهب، وهو باب مصمت من الحديد المموء بالذهب، وليس يُدري مثلهما في الكبر قطرا إلا قطر روما، وبها القصر الشائع ذكره شماخة بناء واتساع قطروا حسن ترتيب، وفيه الإبيودورن الذي يتوصل منه إلى القصر، وهو من عجائب الدنيا المفتعلة، ذلك أنه ملعب وزقاق يمشي منه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعات منها على صور الأدميين وصور الخيل والسباع إلى سوى ذلك مما يقرله الصانعون بالعجز، وهي أشكال أكبر من الأشكال المخلوقة بالقصور وربما داربه ضروب عجائب من المصنوعات - نزهة المشتاق في

اختراق الافاق - الشريف الإدريسي - ج ٤ - الإقليم الخامس - ص ٨٠٢

(٣) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٥٠

(٤) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٥٠

ويقول الواقدي: (كانت جملة من بعث الملك هرقل إلى اليرموك ستمائة ألف من سائر طوائف أهل الكفر ممن يعتقد الصليب)^(١).

وعندما سمع العرب بجيش الروم اجتمعوا وانتقلوا إلى اليرموك وأقاموا هناك وهم مستعدون، كما يقول الواقدي، لقتال عدوهم فكأنهم ينتظرون وعداً وعدوا به^(٢). وعرف الروم أن العرب معسكرون في حوض اليرموك، فساروا حتى وصلوا إليهم، وأقام ماهان بعساكره بإزاء المسلمين أياماً لا يقاتل ولا يثير حرباً^(٣).

قال الواقدي: (ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين وعبأهم، ولم تطلع الشمس إلا وقد فرغوا من تعبئة صفوفهم للحرب، وأما ماهان الأرمني فإنه أمر الروم بالزينة والأهبة للحرب ففعلوا ذلك)^(٤). وبدأ القتال الذي استمر، كما يقول الواقدي أربعة أيام، حتى انتهت المعركة بنصر المسلمين على الروم، ومن ثم أكمل المسلمون فتح سوريا بالكامل.

لكن المعارك القاسية والجيوش الضخمة التي شاركت في معارك سوريا، كما ورد في المصادر الإسلامية، لا وجود لها في المصادر الغربية المسيحية، وأكبر مؤرخ غربي من القرون الوسطى أرخ لتلك المرحلة هو «وليم الصوري»، لم يأت على أي من تلك المعارك ولا على تلك الحشود العسكرية المذكورة في المصادر الإسلامية حيث يقول: (لقد كانت هناك ظروف خاصة سهّلت أمام العرب فتح الشرق، وذلك أنه قبل سنوات قلائل من هذا الفتح، فقد كان الإمبراطور الروماني مورييس قد مات مقتولاً غيلة من قبل أحد رجاله ويدعى فوكاس، وقد أصبح هذا إمبراطوراً من بعده، وكان الملك الفارسي خسرو قد تزوج من مارية إحدى بنات الإمبراطور مورييس، وعندما قُتل أبوها، طلبت من زوجها الملك خسرو أن يأخذ بثأره، وإذا كان هذا الملك على الإمبراطورية الرومانية واستولى على الكثير من الأراضي التابعة لها ومنها سوريا حيث دمر فيها المدن، وأحرق ما حولها من البقاع، وهدم الكنائس، وزج بالناس في السجون، ثم استولى على المدينة المقدسة، وقتل ستة

* لم يذكر الواقدي من أين استقى مصادره ومن غير المعروف من أين حصل على هذه الروايات التي يبدو منها أنها غير صحيحة بل هي من نسج خياله الخصب، وخصوصاً أنه لم يكن معاصراً لتلك الأحداث بل عاش في القرن الثاني الهجري ومات في مطلع القرن الثالث الهجري سنة ٢٠٧.

(١) فتوح الشام - أبو عبد الله بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٥٠

(٢) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٥٤

(٣) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٥٤

(٤) فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٨٢

* كتب الواقدي صفحات كثيرة يصف فيها سير المعارك أثرتا عدم ذكرها خوفاً من الإطالة. ومن يريد الاستزادة فعليه مراجعة كتاب «فتوح الشام».

وثلاثين ألفاً من أهلها، ثم رجع إلى فارس حاملاً معه الصليب الأعظم^(١). وفي هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثاني خلفاء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - في مملكته وملته، قد استولى على غزة، إحدى مدن فلسطين الشهيرة، بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد، ثم ما لبث أن تمكن بما تحت يده من الكتائب والحشود التي جمعها أثناء زحفه أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولي على دمشق، كل ذلك والإمبراطور هيروكليس «هرقل» في قليقية لا يعمل شيئاً سوى مراقبة الأحداث في تطورها، فلما جاء الخبر بأن العرب قد دفعهم إعداهاهم الكبير بمجموعهم الضخمة إلى غزو الأراضي الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها إليهم، أدرك أن قوته ليست كافية لصد مثل هذا الجيش وقمع غلوائه، فأثر السلامة بالرجوع إلى بلده بدلاً من أن يقاتل قوات لا تكافئها قواته، وأن لا يغامر ضدها في حرب لا يعرف ما سيتمخض عنها^(٢)، وكان الأهالي المغلوبون لا يطمحون إلا في حمايته إياهم، لكنه غادرهم فازداد بأس العرب شدة مما ساعدهم في زمن وجيز على الاستيلاء على جميع البلاد الممتدة من اللاذقية بالشام حتى مصر^(٣).

ويقول جان كلود شينيه في كتابه «تاريخ بيزنطة»: (وكان الفرس قد افتتحوا في مطلع القرن السابع الحروب ضد الدولة الرومانية التي كانت تعيش في صراعات داخلية وكان الإمبراطور القيصرفوكاس يواجه تمرد هيروكليس الذي تمكن من إقصاء فوكاس والاستيلاء على الحكم سنة ٦١٠ للميلاد، إلا أنه لم يكن قادراً على الوقوف في وجه الفرس الذين استولوا على سوريا ومصر، وبلغ الألم ذروته مع سقوط القدس سنة ٦١٤ لأن السكان دُبحوا ونُقل الصليب الحقيقي إلى الأسر في طيسفون «المدائن»، وتقدم الفرس إلى القسطنطينية بعد أن نهبوا وأحرقوا العديد من المدن في آسيا الصغرى^(٤). وأعاد هيروكليس «هرقل» تنظيم جيشه بفضل كنوز الكنيسة حيث قام بإذابة تماثيل وأيقونات الذهب وصنع منها نقوداً، وهجر عاصمته سنة ٦٢٦ التي كان يحاصرها الفرس، واستطاع بمساعدة شعب تركي يقيم شمال القوقاز «الخرز»، أن يدخل بلاد ما بين النهرين وأن يهزم الجيش الفارسي وأن يتسبب بقيام ثورة داخل القصر في طيسفون «المدائن» خلصته من كسرى وأصبح الحكم في أمروثة التاج الفارسي، وقد فاوض على انسحاب الجيوش الفارسية التي كانت تحتل الشرق، وكان نصراً شاملاً من دون أن يحطم قوة الخصم، وسافر القيصرفوكاس إلى القدس في موكب مهيب في شهر آذار، مارس

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٦٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٦٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ١ - ص ٦٤

(٤) تاريخ بيزنطة - جان كلود شينيه - ص ٥٤

٦٣٠، كي يستقبل الصليب الحقيقي^(١). وما استقرت الإدارة والجيش جزئياً من جديد في الأقاليم الشرقية حتى نشبت أولى الهجمات العربية. منذ فترة وجيزة كان العرب قد توحّدوا حول الدين الذي دعا إليه النبي محمد، والذي لم يدرك الرومان جدته، واجتاحوا فلسطين وحققوا فيها انتصارات فتحت لهم أبواب دمشق، ولما كانت القوات المحلية القليلة العدد لا تستطيع مواجهة الموقف عباً هيروكلّيس «هرقل» الجيش الريفي الوحيد في الإمبراطورية الذي أيد بأكمّله في معركة اليرموك التي حصلت في شهر آب أغسطس، عام ٦٣٦ للميلاد، ولما لم يكن هيروكلّيس «هرقل» يملك احتياطياً يستبدل به الجنود الذين خسرهم، ولما لم يكن يريد أن يبدد جيوشه الباقية في معارك لا طائل تحتها، فقد سحبها نحو الأناضول، فسقطت دمشق وأنطاكية وغيرها من المدن بالتتابع بعد حصارات قصيرة ومعاهدات بين المنتصرين وبين السكان الذين لم يعودوا يأملون في أي مساعدات من الإمبراطورية^(٢).

ويتضح مما تقدم أن العرب أخذوا سوريا من دون قتال، فوليم الصوري لم يتحدث عن أية معارك بين العرب والروم، بل إن هيروكلّيس «هرقل» جمع ليقاتلهم، لكنه عندما سمع عن أعدادهم الضخمة، توقف في قليقية ولم يتقدم نحو سوريا ولم يرسل أية جيوش لردّ العرب عنها. فاغتنم هؤلاء الفرصة وفرضوا سيطرتهم عليها. في حين أن جان كلود شينيه قد تحدث عن معركة بسيطة غير متكافئة بين العرب والروم كان النصر فيها لصالح العرب، وأن مدن سوريا سقطت من دون قتال وبعد حصارات بسيطة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل حقاً أن سوريا سقطت من دون قتال؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحدثت المصادر الإسلامية عن حروب ومعارك كبرى جرت بين العرب والروم مثل أجنادين واليرموك، ومن يقرأ كتاب «فتوح الشام» للواقدي، يتعاطف كثيراً مع أولئك المجاهدين الذين أفنوا سنوات طويلة من أعمارهم وهم يجاهدون في سوريا حتى أخذوا مدنها واحدة بعد أخرى.

ولا شك أن قراءة التاريخ بشكل صحيح تتطلب معرفة رأي الخصم، وخاصة في حالات الصراعات والحروب بين أمة وأمة أخرى، ومن هنا تبدو الضرورة ملحة لإعادة قراءة الفتح الإسلامي لسوريا ليس من خلال المؤرخين الشرقيين فقط، بل أيضاً من خلال المؤرخين الغربيين لتلك المرحلة الحاسمة في العلاقة بين الشرق والغرب.

(١) تاريخ بيزنطة - جان كلود شينيه - ص ٥٥

(٢) تاريخ بيزنطة - جان كلود شينيه - ص ٥٦

-ثانيًا: تمرد جبال لبنان

رغم أن فتوحات المسلمين شملت سوريا الداخلية كما شملت المدن والثغور الساحلية، لكن الجبال الممتدة من وراء أنطاكية واللاذقية والمتصلة بالبحر وهي التي تسمى جبال لبنان، قد ظلت خارج نطاق الفتوح. ولم تذكر المصادر التاريخية أن أحدًا من الفاتحين المسلمين دخلها، إما بسبب وعورتها، أو بسبب اعتقاد الفاتحين العرب أنه لا حاجة لهم إلى فتحها طالما أنهم سيطروا على المناطق المحيطة بها من الداخل والساحل. ولذلك ظل أهل تلك الجبال على ولاءاتهم السابقة.

وفي تلك الأثناء ظهر ما يُسمى في التاريخ الإسلامي «الجراجمة» وفي التاريخ المسيحي والغربي، «المردة»، فقد ذكر البلاذري، أن الجراجمة هم من مدينة على جبل اللكام* فيما بين بياس وبوقا، يقال لها «جرجومة» وكان هؤلاء يتبعون لإدارة الرومانية في أنطاكية، وعندما فتح المسلمون هذه المدينة، خافوا على أنفسهم وهمّوا بالهرب واللاحق بالروم، لكنهم بعد ذلك لزموا أماكنهم، ولم ينتبه المسلمون لهم.

ثم إن أهل أنطاكية نقضوا وغدروا، فأرسل إليهم أبو عبيدة من فتحها من جديد، وولى عليها بعد فتحها مسلمة بن حبيب بن مسلمة الفهري، فغزا جرجومة فطلب أهلها الأمان والصلح، فصالحهم على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا في جبل اللكام، وأن لا تفرض الجزية عليهم، وأن تكون لهم أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حربًا في مغازيهم^(١). ودخل من كان في مدينتهم من تاجروا جبروت تابع من الأنباط وغيرهم وأهل القرى في هذا الصلح، لأنهم تلوههم وليسوا منهم، ويقال إنهم جاؤوا بهم إلى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسمّوا «رواديف»^(٢).

وكان الجراجمة يستقيمون للولاء تارةً ويعوجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم، فلمّا كان أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته إياه عهده، واستعداده للشخص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير؛ خرجت خيل الروم وعليها قائد من قوادهم

(١) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٤
* جبل اللكام، هو الجبل الأسود اسمه مع اللكام في الكتب القديمة ممتد من مرعش على النيلان إلى السويدية ويسمونه الآن الجبل الأحمر وهو شمالي غرب أنطاكية، وبالتركي، قزل طاغ، والنهر الأسود هو باسم الجبل أيضًا ولكن الاسم للنهر واسمه قديمًا الملند وهو نهران ملند كبير وملند صغير في طريق السويدية ويسمونه بالتركي، قره جاي، ولأجل هذا سميت سلوكية السويدية لما غلب عليها اسم النهر والجبل - الدرا المنتخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ٢٢١
* الأنباط، هم سكان القرى من السوريين الذين يتحدثون باللغة السورية الآرامية

(٢) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ١٦٤

ثم صار إلى لبنان وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة والأنباط* والعبيد الأَباق «الهاربون» من عبيد المسلمين، فاضطر عبد الملك إلى أن صالحهم على ألف دينار في كل جمعة، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربتة وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق فإنه صالحهم على أن يؤدي إليهم مالاً وارهن منهم رهناً وضعهم ببيعك، ووافق على ذلك أيضاً طلب عمر بن سعيد بن العاص الخلافة وإغلاقه أبواب دمشق حين خرج عبد الملك عنها فازداد شغلاً وذلك في سنة ٧٠^(١).

ثم إن عبد الملك وجه إلى الرومي سحيم بن المهاجر فتلطف حتى دخل عليه متنكراً فأظهر المالأة له وتقرب إليه بدم عبد الملك وشتمه وتوهين أمره واغتربه ثم إنه انكفاً عليه بقوم من موالي عبد الملك وجنده كان أعداهم لمواقعتة ورتبهم بمكان عرفه فقتله ومن كان معه من الروم ونادى في سائر من ضوى إليه بالأمان فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام، وأتى الأنباط قراهم ورجع العبيد إلى مواليهم^(٢). «وكان ميمون الجرجماني عبداً رومياً لبني أم الحكم زوجة معاوية بن أبي سفيان وهم ثقفيون وإنما نسب إلى الجراجمة لاختلاطه بهم، وخروجه بجبل لبنان معهم، فبلغ عبد الملك عنه بأس وشجاعة فسأل مواليه أن يعتقوه ففعلوا وقوّه على جماعة من الجند وصيّرهُ بأنطاكية فغزا مع مسلمة بن عبد الملك الطوّانة* وهم في ألف من أهل أنطاكية فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود فغم عبد الملك مصابه وأغزى الروم جيشاً عظيماً طلباً بثأره»^(٣). ويقول البلاذري أيضاً: (وزعم أبو الخطاب الأزدي أن أهل جرجومة كانوا يغيرون في أيام عبد الملك على قرى أنطاكية والعمق*، وإذا غزى الصوائف* قطعوا على المتخلف واللاحق ومن قدرروا عليه ممن في أواخر العسكر وغالوا

(١) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٤

(٢) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٥

(٣) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٥

* الطوّانة، جنوب شرق كبادوكيا، وكبادوكيا اسم تاريخي في آسيا الصغرى
* العمق، سهل يقع في لواء إسكندرون. يعد من أخصب سهول بلاد الشام. يخترقه نهر العاصي في طريقه إلى البحر المتوسط. توجد فيه بحيرة العمق التي يرفدها نهر الأسود ونهر عفرين.

* سنح اللولون، ذكره ابن العديم في حديثه عن جبل سمعان فقال: «ويقال لما حول جبل سمعان من الجبال، جبل ليلون، وقيل فيه لولون، كذا ذكره البلاذري في حديث الجراجمة. وهو من أحسن الأماكن وأكثرها بهجة، وجميعها من جبل سمعان» - بغية الطلب في تاريخ حلب - ج ١ - ص ٤٢٠، وذكره ياقوت الحموي باسم «ليلون» فقال: «ليلون، جبل مطل على حلب بينها وبين أنطاكية وفي رأسه ديدبان بيت لاهما، وفيه قرى ومزارع - معجم البلدان - المجلد الخامس - ص ٢٩
* تيزين، قرية سورية تقع إلى الغرب من مدينة حماه، على طريق حماة - مصياف.

في المسلمين فأمر عبد الملك ففرق لقوم من أهل أنطاكيا وأنباطها وجعلوا مسالح وأردفت بهم عساكر الصوائف ليؤذنوا الجراجمة عن أواخرها فسمّوا الرواديف وأجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير^(١).

ويقول البلاذري: (فلما كانت سنة تسع وثمانين، اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم وأتاهم قوم من الروم من قبل «الإسكندرون» و«روس»، فوجّه الوليد إليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك، فأناخ عليهم في جيش، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبّوا من الشام، ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وعلى عائلاتهم القوت من القمح والزيت وعلى أن لا يكرهوا ولا أحدًا من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين. فأخرب مدينتهم وأنزلهم فأسكنهم جبل الحواروسنح اللولون* والعمق، وتيزين*، ونزل بطريق «قائد» الجرجومة في جماعة معه أنطاكيا ثم هرب إلى بلاد الروم^(٢).

ويتبين مما سبق أن تمرد جبال الساحل كان حقيقة واقعة وأن الأرمن وهم حلفاء الروم كانوا في طليعة المتمردين، وأن الأنباط «السوريين» في قرى هذه الجبال، انضموا إلى التمرد، كما انضم إليه العبيد الذين هربوا من أسيادهم العرب إلى هناك وكان منهم ميمون الجرجماني. الذي كان أسيرًا روميًا استعبده العرب وأصبح في ملك أم الحكم زوجة معاوية، فهرب من دمشق وانضم إلى التمرد في لبنان، ومن ثم استخدمه عبد الملك في غزو الجراجمة فقتل أثناء الغزو. وأنه عندما مات مروان بن الحكم وطلب الخلافة عبد الله بن الزبير واتخذ من مكة قاعدة لحكمه، أرسل أخاه مصعب فأخذ العراق، وضعف موقف عبد الملك بن مروان وخاف من زوال ملكه فاضطر إلى الخروج إلى العراق لقتال مصعب، وعندما عرف ملك الروم ذلك أرسل جيشًا بقيادة قائد من قواده فوصل إلى لبنان، وراح يستعد لغزو دمشق، فاضطر عبد الملك أن يدفع لهذا القائد ألف دينار كل جمعة، كما اضطر أن يدفع إلى ملك الروم جزية لصرف بصره عن سوريا. ومن ثم أرسل عبد الملك سحيم بن المهاجر إلى القائد الروماني وهو في لبنان، وادعى أنه هارب إليه، ولما استحکم منه قتله مع مجموعة من الجنود الذين رتبهم عبد الملك معه، وفي عهد الوليد بن عبد الملك استفحل أمر الجراجمة، فأرسل إليهم أخاه مسلمة في

(١) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

(٢) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

جيش كبير، أناخ عليهم وقاتلهم حتى هزمهم، لكنه تساهل معهم وأبقاهم على دين النصرانية، ولم يأخذ منهم الجزية، وعاملهم معاملة المسلمين، بهدف امتصاص غضبهم حتى يركنوا إلى السلام ويقبلوا عن التمرد.

واستمر الجراجمة على صلح مسلمة بن عبد الملك طوال الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي، وهدأت ثورة الجبال، فلما كان في عهد أبي العباس السفاح تحرك المردة في جبل لبنان وأبوا دفع الجزية لعامل السفاح في بعلبك، (فتوجّه إليهم عمه صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، الذي كان والياً على الشام على رأس جيش، فقتل مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم وأجلى قوماً من أهل لبنان) ^(١).

ويذكر البلاذري أن الإمام الأوزاعي المعروف كتب إلى صالح بن علي رسالة يلومه فيها على فعله بأهل جبل لبنان قال: (وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن مماثلنا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت فكيف يؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لا تزوروا وزر أخرى وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله فإنه قال، من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاquته فأنا حجيجه) ^(٢).

وكان الأمويون يغزون بلاد الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشتاء، وكان هرقل قد نقل أهل الحصون بين الإسكندرونة وطرسوس وخربرها ليمنع العرب من امتلاكها، فكان العرب إذا غزوا لم يجدوا أحداً بها ^(٣)، فبدأ خلفاء الدولة الأموية في إعادة بناء ما تهدم من تلك الحصون وإسكان جماعات من العرب وغيرهم فيها. ويذكر البلاذري أن معاوية نقل سنة ٤٩ أو ٥٠ إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسباجية، وأسكن بعضهم أنطاكية ^(٤). وفي هذه المدينة محلة تعرف بالزط* وبيوقا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم

(١) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ١٦٧

(٢) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٧

(٣) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٨

(٤) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

* الزط، أو الزط السباجية، قوم من السند، رحلوا عن بلادهم واستقروا في بطائح جنوب العراق ومستنقعاته حتى وصلوا إلى بادية الشام ليعيشوا حياة البادية، ومن عاداتهم تربية البقر والجاموس والحمير وكلاب الصيد، ويعتبر الزط هم مريو الجاموس، وقد تحولوا أخيراً إلى قطاع طرق حتى قضى عليهم الخليفة المعتصم، وكان يقدر عددهم قرابة سبعة وعشرين ألفاً. والسباجية، تعني الكساء الأسود، أو الخرز الأسود، وأصلها فارسي معرب، والسباجية صفة أطلقت على الزط بسبب لون بشرتهم السوداء، ويقال للفرد منهم «سبيجي أو سايج» ولغتهم من لغات الهند، اختصوا أيضاً بالعمل في الملاحة البحرية، وقد استقر بعض السباجية مع ذرايعهم في البصرة، حتى أن أحد أحيائها يحمل اسمهم، فيما قطن الزط أهوار العراق ليعملوا في الزراعة الرعوية - الزط و أثرهم - خالد الجبالي - ص ٨ و ٩.

يعرفون بالزط. وكان الوليد بن عبد الملك قد نقل إلى أنطاكية قومًا من زط السند ممن حمله محمد بن القاسم إلى الحجاج فبعث بهم الحجاج إلى الشام^(١). ومن ذلك أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان غزا سنة ٨٤ فدخل من درب أنطاكية وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانًا من الجند، ولم يكن العرب سكنوها قبل ذلك وبنى فيها مسجدًا فوق تل الحصن^(٢). ولما ولي أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور. ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها^(٣).

ولما كانت سنة ١٨٠ أمر الرشيد ببناء مدينة عين زربي* وتحصينها، وندب إليهم ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل، وفي سنة ١٨٣ أمر ببناء الهارونية، فبنيت وشحنت بالمقاتلة ومن نزح إليها من المطوعة ونسبت إليه^(٤). ثم لما كانت أيام المعتصم بالله نقل إلى عين زربي ونواحيها بشرًا من الزط الذين قد كانوا غلبوا على البطاغ بين واسط والبصرة فانتفع أهلها بهم^(٥).

وفي عهد الواثق بالله ابن المعتصم العباسي، ألزم بعض العمال الجراجمة بأنطاكية جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك إلى الواثق وهو خليفة فأمر بإسقاطها عنهم^(٦). لكن ما لبث المتوكل ابن المعتصم أن أمر بأخذ الجزية من الجراجمة وأن تجري عليهم الأرزاق إذ كانوا ممن يستعان به في المسالحي وغير ذلك^(٧)*. واستقر بعد ذلك أمر الجبال وهدأ سكانها وتأقلموا مع الواقع السياسي الجديد.

(١) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

(٢) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٩

(٣) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٧٠

* عين زربي، هي بلد بالثغر من نواحي المصيصة، وأهلها اليوم أرمن، وهي من أعمال ابن ليون، أي ملك الأرمن - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٤ - ص ١٧٨

(٤) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٧٥

(٥) معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - مجلد ٤ - ص ١٧٨

(٦) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

(٧) فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٦٦

* كان بعض المسلمين ممن وقفوا على الحلال والحرام يرفضون شراء أرض في مناطق الثغور أو فيما كان يسمى «ثغور الروم»، ويذكر البلاذري قصة بهذا الخصوص يرويها عن أبي صالح الأنطاكي قال: كان أبو إسحاق الفزاري يكره شراء أرض بالثغر، ويقول، غلب عليه قوم في بادئ الأمر، وأجلوا الروم عنه، فلم يقسموه وصار إلى غيرهم، وقد دخلت في هذا الأمر شبهة العاقل حقيق بتركها - فتوح البلدان - ص ١٧٦،

- ثالثاً: المردة في المصادر الغربية

تروي المصادر الغربية والمسيحية رواية عن المردة مختلفة عن الرواية الشرقية، حيث تبين هذه الرواية أن المردة شكّلوا خطراً حقيقياً على الوجود الأموي في سوريا، نظراً لأنهم كانوا يملكون جبال ساحل سوريا من أنطاكية حتى أطراف جبال الجليل. ويقول المطران يوسف الدبس: (روى كثيرون من علماء أمتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصولية حتى ضبطوا كل ما كان من أنطاكية إلى أطراف الجليل). وقال توفان المؤرخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحيان. في هذه السنة خرج المردة من لبنان فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود «المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية» إلى المدينة المقدسة «أورشليم»، وانضم إليهم كثيرون من العبيد الأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأن الله محام عن مملكة الرومانيين وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة^(١). فتقبل الملك وفدهم بالإعزاز والتكريم وأجابهم إلى سؤلهم وأوفد معهم إلى سوريا البطريرق يوحنا المسمى «بتسيكود» وكان من رجال الندوة في حكومته ومتصفاً بالخبرة والحكمة ويحسن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح ولما بلغ سوريا قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته وبعد المداولة بشروط الصلح قرّرأيهم على كتابة عهده موثقة باليمين على أن يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة آلاف دينار ذهب وثمانية آلاف أسير وخمسين جواداً من الخيل الجياد وأبرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة ودونت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة. وعاد ذاك الرجل الشهير البطريرق يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً^(٢).

وقال توفان أيضاً في تاريخ السنة الأولى لعبد الملك بن مروان: (في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سوريا ووُلِّي عبد الملك في أمته وتواترت غارات المردة في جوار لبنان فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية وأرسل وفوداً إلى الملك، لإبرام عهدة الصلح على الشروط الآتية وهي «أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم وعبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفرنساً

(١) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٤

(٢) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٥

ومملوكًا وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرس وأرمينيا وإيبيريا قسمة عادلة سوية»^(١). وأرسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكها ووقع عليه أمام الشهود وعاد ماجيستريانس مكرماً إلى الملك وأبرز الملك أمراً بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن أوطانهم، وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنان من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كبتهم الملك. وقد توالى من ذلك اليوم إلى الآن المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطوة العرب^(٢).

وقال في تاريخ السنة الثانية للملك يوستينياس: (إن الملك مضى في هذه السنة إلى أرمينيا فقابل هناك المردة الذين كانوا قبلاً في لبنان بمثابة سور نحاسي لمملكته فدكه بيده).

وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور: (في هذه السنة نقض الملك يوستينياس* لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك) وذكر ما رويناه في الكلام على عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرس وتعتنه في قبول الدنانير الحديثة التي صكها عبد الملك، إلى أن قال ما ملخصه (ولما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يسأل يوستينياس أن لا ينقض العهدة المبرمة بينهما فظن يوستينياس أن عبد الملك يخاف سطوته ولم ينتبه إلى أن العرب يتطلبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح، فكتب يوستينياس إليهم أنه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم أنهم متشبثون بها وأنه إذا نقضها وأرغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك فأرسلوا يسألونه أن لا يخالف العهد الوثيق المبرم بينهما باليمين وإلا فينتقم الله من المخالف فأعارهم أذنًا صماء واقتحم جيشهم فعلقوا الصيغة المكتوبة عهدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم فدارت الدوائر على يوستينياس وجيش)^(٣).

وقال المطران يوسف الدبس أيضاً: (قال شدرانس في موجز تاريخه في السنتين الثامنة والتاسعة لقسطنطين اللحياني، «قسطنطين الرابع» دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الأسود إلى المدينة المقدسة وضبطوا أعالي لبنان وتألّب إليهم كثيرون من العبيد والأسر الوطنيين حتى أصبحوا في مدة وجيزة ألقاً كثيرة فوجس منهم معاوية ومن معه وفكروا

(١) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٥

(٢) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٥

* يوستينياس، هو جوستينيانوس الثاني الأخرم

(٣) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٦

بأن الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين فأرسلوا رُسلًا إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فأرسل الملك بيساكود إلى السراكسة «يقصد العرب» واتفق معهم على الصلح ودونوا صكه في صفاق على شريطة أن يدفع السراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة آلاف ذهب ومائة عبد وخمسين جوادًا أصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم أيضًا الصلح^(١).

وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانس: (في السنة الأولى لملكه أرسل إليه عبد الملك رُسلًا لإثبات الصلح واتفقا على أن الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجوادًا وعبدًا فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة أمام الشهود وأرسل الملك قائدًا فأبعد اثني عشر ألفًا من المردة فأضر ذلك بمصلحة المملكة الرومانية فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كان واهنا لا قوة فيه وخاليًا من السكان بسبب غزوات المردة، فكبتهم أنزل بالمملكة الرومانية مضار كبيرة إلى اليوم، فويستينيانس لم يكن حينئذ أكمل السادسة عشرة من عمره فتصرفه كان على غير هدى^(٢).

وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستينيانس: (في هذه السنة نقض يوستينيانس بحماقة عهدة الصلح مع عبد الملك لأنه أراد أن يأخذ جالية من قبرس لغيرداع وأنف من أن يأخذ من عبد الملك الدنانير التي صكها حديثًا ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقالبة «من اسكلافونيا» نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة، ولما التقى الجيشان أقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله أن ينتقم ممن نقض العهد فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني وكان قائدهم يسمى محمدًا فتقهقر العرب أولاً ثم تغلبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم وقرض الملك من بقي من الصقالبة مع أطفالهم ونسائهم^(٣).

وقال زوناراس في تاريخه: (قد استوى يوستينيانس على منصة الملك وعمره ست عشرة سنة وكان يدبر جميع مهام المملكة على هواه فأوقع المملكة في مهالك كثيرة منها أن شعبًا يلقب بالمردة كان قد استحوذ على مشارف

(١) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٦

(٢) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٧

(٣) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٧

جبل لبنان في أيام قسطنطين اللحياني وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين، ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك بن مروان أرسل رُسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً طالباً منه تجديد الصلح وأن يبعد المردة عن لبنان وإذا رضى هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم ألف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد. ولما أبرم هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر ألف مقاتل من المردة عن لبنان فاطمأن العرب ولم يبق ما يخشونه فأنزلوا بالملكة الرومانية مصائب شتى، وأرسل يوستينيانس لانتينوس بجيش فأخضع إيبيريا وألبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهده مع البلغار ولم يرص أن يفوه الجزية بل غزا الأمصار الغربية وألب منها جيشاً من ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان وأعزهم وسماهم الشعب المختار، فعظم سروره بهم واعتماده عليهم حتى أراد أن ينقض عهده للعرب أيضاً متمحلاً لذلك سبباً بأنهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست عليها صورة الملوك الرومانيين بل دنانير عربية حديثة، مدعيًا أنه لا يسوغ صك الدنانير إلا وعليها صورة الملك الروماني^(١). وأعلن عليهم الحرب معتمداً لا على الجيش الروماني بل على شعبه المختار الحديث، وسأله العرب بإلحاح أن لا ينقض العهد ويخالف صكه الموثق باليمين بالله وهو ينتقم لمن يتسبب بنشوب نار الحرب، فصمّ أذنيه عن سماعهم وأقدم على الحرب فعلق العرب صحيفة العهد على رايتهم وألحموا القتال فانحاز عشرون ألفاً من أولئك المسّمين بالشعب المختار إلى العرب فتغلبوا على الرومانيين وتبعوا آثارهم وقتلوا منهم كثيرين وفرّ الملك بنفر قليل مدحوراً وأمر بقتل من بقي من أولئك الجنود والقاء جثثهم في البحر وعاد إلى بيزنطة خجلاً^(٢).

وبعد أن يستكمل الأب يوسف الدبس حديثه عن تبكيت الردة يقول: (إن المردة هم سكان لبنان، وأن المؤرخين صرحوا بأن المردة خرجوا من لبنان فاستخذوا على ما جاوره وضبطوا مشارف أعالي لبنان، إلى غير ذلك مما يدل صراحة على أن هؤلاء المردة إنما هم المواردنة سكان لبنان وجواره، وإلا فمن أين أتى هذا الشعب النفير الباسل إلى لبنان، ومتى هاجروا إليه، ولما لا نرى في كتب المؤرخين خطة تشير إلى مهاجرة شعب أو طائفة وتوطنه في لبنان وجواره مكان أولئك المسيحيين المنتمين إلى القديس مارون ورهبانه)^(٣).

لكن ما يقوله المطران يوسف الدبس يعارض ما قاله المؤرخون الشرقيون وعلى رأسهم البلاذري الذي نقلنا عنه آنفاً، والذي يقول إن قادة التمرد هم

(١) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٨

(٢) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ ص ١٠٨

(٣) من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ج ٥ - ص ١٠٩

الجراجمة وهم من بلد جرجومة، التي هي قليقية الأرمنية، وأنهم هجموا على جبل لبنان وسيطروا عليه ومال إليهم سكان هذا الجبل من أنباط ومن عبيد هاريين من أسيادهم العرب، وأن أمراء بني أمية بعد انتصارهم على الجراجمة قاموا بتوزيع بعضهم في مناطق مختلفة لكي تنطفئ جذوتهم فلا يعودون إلى التمرد.

وأيضاً فإن المراجع التاريخية تجعل جبل لبنان هو الجبل الذي يسكنه العلويون اليوم، وهذا ما ذكره الرحالة ابن جبير في رحلته، حيث يقول: (وجبل لبنان هو سامي الارتفاع، ممتد الطول يتصل إلى البحر، وفي صفحته حصون الملاحدة «الإسماعيلية»، وهو حد بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، وفي صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص)^(١).

ويقول الإمام زكريا بن محمود القزويني: (جبل لبنان مُطل على حمص فيه الفواكه والزرع من غير أن يزرعه أحد، تأوي إليه الأبدال لما فيه من القوت الحلال)^(٢).

وكان لبنان الحالي يُقال له قبل قيام المتصرفية عام ١٨٦١ بلاد الجبل والجرد وكسروان، ولا يستطيع أحد أن يدعي غير ذلك، والرواية التي يرويها مؤرخو الموارنة بأن الموارنة هم المردة هي رواية لا أساس لها من الصحة، بل إن الروايات التاريخية المارونية تناقضها، إذ تجمع تلك الروايات على أن الموارنة كان لهم وجود ضعيف في لبنان الحالي، وكان وجودهم القوي في وادي العاصي شمال غرب سوريا، وكان دير مارمارون في قرية «براد» * قرب جبل سمعان في حلب، وعندما دُمّر الرومان هذا الدير وغيره من الأديرة الأخرى، انتقلت الكنيسة المارونية برئاسة رئيس دير مارمارون الكبير السابق يوحنا مارون إلى «كفرحي» في بلاد البترون، التي أصبحت المقر البطريركي لموارنة الشرق. وذلك سنة ٦٨٤ للميلاد، وبعد الحرب التي شنها الإمبراطور جوستينيانوس «الأخرم» سنة ٦٩٤ على بطريرك الموارنة يوحنا مارون انحسر الوجود الماروني في الجبال اللبنانية^(٣). وهذه الرواية تبين أن الموارنة هاجروا إلى لبنان من منطقة وادي العاصي، في نهاية القرن السابع الميلادي، أي بعد انتهاء التمرد في جبال لبنان، وأنهم، كما يقول عادل إسماعيل، سكنوا في منطقة

(١) رحلة ابن جبير - أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني - ص ٢٢٩

(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - الإمام زكريا بن محمود القزويني - ص ١٥٢

* براد، قرية أثرية تقع على بُعد أربعين كيلو متر شمالي مدينة حلب. يوجد فيها ضريح مارمارون شفيع الكنيسة المارونية.

(٣) تاريخ الموارنة ومسيحي الشرق - عبد الله أبي عبد الله - ج ١ - ص ١٤٩

وادي قاديشا الوعرة ابتعادًا عن مضايقات اليعاقبة والبيزنطيين لهم^(١). وأيضًا فإن جبال كسروان وجرودها التي شكلت معظم متصرفية جبل لبنان، لم يكن فيها موارد، بل كانت مسكونة من قبل شعب سوري اعتنق في مرحلة لاحقة الدين الإسلامي، وقد تعرّض هذا الشعب للإبادة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، على يد الترك، كما سيأتي لاحقًا. وقد كان الموارد ينعنون في وادي قاديشا من الزحام بسبب ضيق المكان وصعوبة التوسع في المناطق المجاورة، ولذلك عندما خلت قرى جبال كسروان من أهلها، بإدرا الموارد أو زعماءهم إلى شراء تلك القرى من الترك وسكنوا فيها، لأن الترك لم يكن لهم مطمع في السكن بتلك الجبال، مما أدى إلى غلبة الوجود المسيحي هناك.

ولهذا فإن القول بأن الموارد كانوا هم أساس التمرد في جبال لبنان أو أنهم هم من قام بهذا التمرد، فهذا شيء غير صحيح، بل جاء به المؤرخون المارونيون المحدثون الذين عايشوا وقائع الحرب الأهلية بين الموارد والدروز عام ١٨٦٠ وما قبلها، ومنهم المطران يوسف الدبس، وذلك في مسعى منهم لإسقاط واقعة تاريخية على واقع حادث من أجل بعث الهمم في نفوس الموارد الذين كانوا يقاتلون، آنذاك، من أجل الخلاص من الحكّمين الدرزي والعثماني معًا، وكما أدخل المردة في الماضي، الرعب في قلوب بني أمية، فإن تمرد الموارد أدخل الرعب في قلوب بني عثمان، فبادر هؤلاء إلى إعطائهم استقلالهم فيما أطلق عليه «متصرفية جبل لبنان» التي كان الموارد أساسها، والتي تمّ استخراج اسمها من أعماق التاريخ.

ونحن لا يعنينا من اسم لبنان شيئًا الآن، لكن ما يعنينا هو قراءة التاريخ بشكل صحيح لوضع أساس متين لمستقبل فكري أكثر انفتاحًا.

(١) المردانيون «المردة» - عادل إسماعيل - ص ٨٥

الباب الثاني

سوريا بين قرنين

الفصل الأول

سوريا وال طولونيون

- أولاً: الطولونيون وظهور القرامطة

كانت سوريا قد أصبحت منذ منتصف القرن الثالث الهجري محكومة من قبل الدولة الطولونية التي أقامها أحمد بن طولون في مصر سنة ٢٥٢ للهجرة، وكان هذا تركيًّا مقرَّبًا من الخلافة العباسية، وقد استقل ابن طولون في حكم مصر، وتطلع لفرض السيطرة على سوريا، وطلب من الخليفة أن يمنحه تفويضًا بذلك، فحصل عليه لأن الروم كانوا قد بدأوا يهاجمون الثغور واحتلوا أنطاكية، وراحوا يتمددون من جديد إلى الساحل السوري، وقد استطاع ابن طولون أن يسترجع أنطاكية سنة ٢٦٥، ومن ثم مضى إلى طرسوس وكان عليها والٍ من قبل العباسيين يدعى «بلخش» فدخلها، وعزم على الإقامة في الثغور لطيب أرضها ولأجل قربه من الجهاد، لكن بلغه أن ابنه قد خرج عن طاعته، فعاد إلى مصر عاجلاً. ثم توفي^(١)، وذلك سنة ٢٧٠، فخلفه ولده أبو الجيش خمارويه. وطمع القائدان العباسيان محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداج بأمالك أحمد بن طولون، كما يقول ابن شداد، وكانا يتوليان الجزيرة فكاتبا أبا العباس الموفق ابن المتوكل أخ الخليفة المعتمد، وكان الموفق مفوضًا بحكمها من قبل أخيه، واستمداه، ومن ثم جمعا وقصدا بلاد أحمد متغلبين عليها، إلى أن وصلا دمشق فملكوها، وولوا فيها، فخرج إليهم خمارويه فطردهما من البلاد، وهجم الشتاء، وتفرقت العساكر، ووصل المعتضد في جموعه وعساكره إلى دمشق، وخرج عنها يريد مصر، فخرج إليه خمارويه، وكانت بينهما وقعة الطواحين التي انهزم فيها المعتضد، وسار خمارويه فاسترجع البلاد من إسحاق بن كنداج وابن أبي الساج^(٢).

ويروي ابن كثير رواية مختلفة حول هذه الحادثة فيقول: (وأصرَّ أبو الجيش علي طلبه باعتبار أن سوريا كانت تحت حكم والده، فأرسل الخليفة المعتمد جيشًا بقيادة إسحاق بن كنداج نائب الجزيرة، وابن أبي الساج، فقاتلوه

(١) الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ١٨٣

(٢) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣٠

لكنه امتنع من تسليم سوريا إليهم، فاستنجدوا بأبي العباس المعتضد بن الموفق، فقدم عليهم، فكسر خمارويه بن أحمد وتسلم دمشق واجتازها ثم سار خلف خمارويه إلى بلاد الرملة، فأدركه عند ماء عليه طواحين فاقتتلوا هناك، وكانت تسمى وقعة الطواحين، سنة ٢٧١، فكانت النصر أولاً لأبي العباس المعتضد على خمارويه الذي انهزم فلم يرجع حتى دخل أرض مصر، فأقبل أبو العباس وأصحابه على نهب معسكر الجيش المصري، فبينما هم كذلك إذ أقبل كمين للمصريين، فوضعوا السيوف في الجيش العباسي، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فانهزموا، وهرب أبو العباس المعتضد فلم يرجع حتى وصل دمشق، فلم يفتح له أهلها الباب فانصرف حتى وصل إلى طرسوس، وبقي الجيشان المصري والعباسي يقتتلان وليس لواحد منهما أمير، ثم كان الظفر للمصريين لأنهم أقاموا أبا العشائر أخا خمارويه عليهم أميراً، فغلبوا بسبب ذلك واستقرت أيديهم على دمشق والشام^(١). ويقول ابن كثير: (ومن ثم أرسل أبو العباس الموفق، القائد محمد بن أبي الساج لقتال ابن طولون فكانت بين الطرفين وقائع عديدة انهزم في آخرها ابن أبي الساج لقلّة من معه وكثرة من مع ابن طولون من الرجال)^(٢).

ثبت حكم ابن طولون في سوريا، وأرسل محمد بن طغان ليكون والياً على طرسوس والثغور وذلك في شهر شعبان سنة ٢٧٩^(٣)، وفي تلك السنة توفي المعتمد وتولى الخلافة من بعده أبو العباس المعتضد، وأراد ابن طولون أن يمتنّ علاقته بالخليفة الجديد فأرسل الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص ومعه هدايا كثيرة إلى بغداد، فوصل إلى المعتضد فخلع عليه وعلى من معه وسفر ابن الجصاص في تزويج ابنة خمارويه من علي بن المعتضد، فقال المعتضد: أنا أتزوجها فتزوجها وهي «قطر الندى»^(٤).*

ولم يلبث أن قتل خمارويه على يد غلمان في دمشق سنة ٢٨٠، فخلفه ولده جيش، وكان ضعيفاً فعزله قواده وولّوا مكانه أخاه هارون، فأرسل هذا إلى المعتضد يطلب منه أن يقرّه على سوريا، كما كان الحال أيام أبيه، فوافق المعتضد بشرط أن يتنازل عن حلب وقنسرين والعواصم، وسلم لهارون

(١) البداية والنهاية - ابن كثير الدمشقي - المجلد السادس - ص ٤١

(٢) تاريخ الطبري مم بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٤٠

(٣) تاريخ الطبري مم بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٢٤٧

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٢

* يقول ابن كثير في أحداث سنة ٢٨١ «وفيهما وصلت قطر الندى بنت خمارويه سلطان الديار المصرية إلى بغداد في تجمل عظيم ومعها من الجهاز شيء كثير حتى قيل إنه كان في الجهاز مائة هاون من ذهب غير الفضة وما يتبع ذلك من القماش وغير ذلك ما لا يحصى، ثم بعد كل حساب أرسل معها أبوها ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار لتشتري بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما ليس بمصر مثله، راجع كتاب، البداية والنهاية - المجلد السادس - ص ٦٠.

مصريوبقية الشام وتمَّ ذلك في سنة ٢٨٦^(١).

وفي أثناء ذلك ظهرت حركة القرامطة في جنوب العراق ونشط أتباعها في سواد الكوفة وقتلوا عمال العباسيين هناك، وتتابع جيوش الخليفة المعتضد عليهم وأُخِيت فيهم القتل، وأدرك داعية القرامطة زكرويه بن مهرويه أنه لا مدفع عن أنفسهم عند أهل السواد ولا غناء، فسعى في جذب القبائل العربية القريبة من الكوفة مثل أسد وطىء وتميم، وغيرهم من القبائل، ودعاهم إلى رأيه، فلم يستجيبوا له^(٢).

وكانت جماعة من قبيلة كلب تخفر الطريق على البربالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمروغيرها، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها، فأرسل زكرويه أولاده إليهم، فبايعوهم وخالطوهم، وانتموا إلى علي بن أبي طالب وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وذكروا أنهم خائفون من الخليفة العباسي، وأنهم ملتجئون إليهم فقبلوهم على ذلك ثم دعوهم إلى رأي القرامطة، فلم يقبل ذلك أحد منهم، إلا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب، ومواليهم خاصة فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ بناحية السماوة، ابن زكرويه المسمى يحيى والمكنى أبا القاسم ولقبوه الشيخ^(٣)، وانحازت إليه جماعة من بني الأصبح وأخلصوا له وتسموا بالفاطميين ودانوا بدينه^(٤). وقصده سبك الديلمي والي المعتضد بناحية الرصافة غربي الفرات، فقتل سبك وانهزم جيشه، وحرقوا مسجد الرصافة^(٥). واعترضوا كل قرية اجتازوا بها، وأرسل طغج بن جف والي دمشق من قبل هارون بن خمارويه، جيشاً بقيادة غلام له يقال له بشير، فواقعهم القرمطي فهزم الجيش وقتل بشيراً، ومن ثم وصل إلى دمشق وحصر طغج فيها. وأرسل المصريون بداراً الكبير غلام ابن طولون فاجتمع مع طغج على محاربته، فواقعهم قريباً من دمشق، فقتل ابن زكرويه، فنصب القرامطة أخاه الحسين، وأظهر شامة في وجهه زعم أنها آيته^(٦). وطلب أخاه يحيى في القتلى فوجده فواراه، وتسمى الحسين بأحمد بن عبد الله وتكنى بأبي العباس، ودعا إلى مثل ما دعا إليه أخوه، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم من سائر الناس، واشتدت شوكته وظهر، وعاد إلى قتال دمشق، فصالحه طغج بن جف على خراج دفعه إليه،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٣

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٠

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٠

(٤) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٠

(٥) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٠

(٦) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٠

ثم انصرف عن دمشق، وسار إلى أطراف حمص فتغلب عليها وحُطب له على منابرها، وتسمّى بالمهدي، ثم سار إلى مدينة حمص فأطاعه أهلها وفتحوا له بابها خوفاً منه على أنفسهم، فدخلها، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان وغيرهما، ودانت له كل البلاد، ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها، حتى لم يبق منهم فيما قيل إلا اليسير^(١). ثم سار إلى سلمية فحاربه أهلها ومنعوه الدخول، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها، فدخلها، فبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكان بها منهم جماعة، فقتلهم، ثم ثنى بأهل سلمية فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم، ثم قتل صبيان الكتائب، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف^(٢).

وجهاز الخليفة العباسي المكتفي جيشاً من عشرة آلاف بين فارس وراجل بقيادة ابن أبي الأغر، لقتال القرمطي، فسار هذا الجيش حتى وصل إلى حلب في شهر رمضان سنة ٢٩٠^(٣)، فنزل وادي بطنان ونزل معه جميع جيشه، فنزع جماعة منهم ثيابهم يتبردون بماء ذلك الوادي، وكان يوماً شديداً الحر، كما يذكر الطبري، فكبسهم القرامطة على حين غفلة وكان على رأسهم «المطوق» غلام صاحب الشامة، فقتلوا معظمهم، وخادماً جليلاً يقال له، بدر القدامي^(٤)، كما نهبوا المعسكر، وأفلت ابن أبي الأغر* في نحو ألف من أصحابه ودخل إلى حلب ثم صار أصحاب القرمطي إلى باب المدينة فحاربهم بن أبي الأغر ومن بقي معه من أصحابه وأهل البلد، فانصرفوا عنه بما أخذوه من عسكره من الطعام والسلاح والأمتعة^(٥).

وكان المكتفي قد نقم من هارون بن خمارويه، لأنه فشل في صد القرامطة عن سوريا فأرسل القائد محمد بن سليمان بالجيش إلى مصر فحارب جيش هارون، وكانت بينهم وقعات، ومن ثم قتل هارون بن خمارويه بسهم من أحد المغاربة في جيشه، فدخل محمد بن سليمان الفسطاط، وملك دور آل طولون وأسبابهم وأخذهم جميعاً، وهم بضعة عشر رجلاً، فقيدهم وجبسهم واستصفى أموالهم، وذلك في صفر من سنة ٢٩٢^(٦)، وانتهت بذلك دولة آل طولون، وعادت مصر وسوريا إلى الحكم العباسي المباشر.

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٢

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٢

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨١
* أبو الأغر، هو خليفة بن مبارك وكان هذا من القادة في دولة المكتفي

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٤

(٥) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٤

(٦) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٢

- ثانيًا: الحمدانيون وعلاقتهم بسوريا

١- حمدان بن حمدون وولده الحسين

كان حمدان بن حمدون رجلاً فاضلاً حكيماً، وقد استطاع أن يجمع قومه من تغلب وأن يتغلب على ديار ربيعة، وتحصن في قلعة ماردين، كما يقول ابن شداد^(١)، وذلك سنة ٢٨١، وكان ذلك هو تاريخ قيام دولة بني حمدان، وبلغ الخليفة العباسي المعتضد أن حمدان بن حمدون قد مايل هارون الشاري الخارجي ودعا له، فخرج إلى الموصل في ذي القعدة من تلك السنة لقتاله، ولما بلغ العرب والأكراد خروج المعتضد، تحالفوا أنهم يقتلون على دم واحد^(٢) *. واجتمعوا وعبّوا عسكرهم ثلاثة كراديس، وجعلوا عيالاتهم وأولادهم في آخر كردوس، وتقدم المعتضد بعكسره فأوقع بهم وقتل منهم، وغرق في الزاب منهم خلق كثير، ثم خرج المعتضد إلى قلعة ماردين، وكانت في يد حمدان بن حمدون، فلما بلغه مجيء المعتضد هرب وخلف ابنه «الحسين» بها، فنزل عسكر المعتضد على القلعة فحاربهم من كان فيها طوال ذلك اليوم، فلما كان الغد ركب المعتضد فصعد القلعة حتى وصل إلى الباب، ثم صاح، يا بن حمدان، فأجابه، لبيك، قال له، افتح الباب ويحك، ففتحه، فقعد المعتضد في الباب، وأمر من دخل فنقل ما في القلعة من المال والأثاث، ثم أمر بهدمها، فهدمت^(٣).

ثم وجّه المعتضد في طلب حمدان بن حمدون، وكان قد تحصن في قلاعه وغيب أمواله وحرمه، فوجّه المعتضد إليه الجيوش مع وصيف موشكير ونصر القشوري وغيرهما، وأغذ وصيف موشكير السير في طلب حمدان، وكان قد صار في موضع يعرف باسم «باسورين» بين دجلة ونهر عظيم (الفرات)، وكان الماء زائداً، فعبر أصحاب وصيف إليه، فالتقاهم حمدان بأصحابه ودافعوا عن أنفسهم حتى قتل أكثرهم، وألقى حمدان نفسه في زورق كان معداً له في دجلة ومعه كاتب له نصراني يدعى زكرياء بن يحيى، وحمل معه مالاً وعبر إلى الجانب الغربي من دجلة من أرض ديار ربيعة، واستطاع اللحاق بحلفائه العرب لما حيل بينه وبين أتباعه الأكراد في الجانب الشرقي، وعبر في أثره نفريسير من الجند اقتصوا أثره حتى وصلوا إلى دير كان قد نزل، فلما رأهم خرج من الدير هارباً ومعه كاتبه، فألقيا نفسيهما في زورق

(١) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - عز الدين بن شداد - ج ٣ - ص ١٢٦

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٥١

* يدل كلام الطبري هنا على أن الحمدانيين كانوا قد آخوا الأكراد في ديار بكر وتحالفوا معهم حتى تعاهد الجانبان على الحياة أو الموت معاً.

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٥١

وخلفا المال في الدير، فحمل إلى المعتضد، وانحدر العسكر في طلبه، فلحقوه في الماء، فخرج من الزورق وسار إلى ضيعة له بشرقي دجلة، وركب دابة لوكيله وسار ليله أجمع إلى أن وافى مضرب إسحاق بن أيوب في عسكر المعتضد مستجيراً به، فأحضره إسحاق إلى مضرب المعتضد فأمر بالاحتفاظ به، وبثّ الخيل في طلب أعوانه، فظفر بكاتبه وعدة من قراباته وغلمانته، وتتابع رؤساء الأكراد وغيرهم في الدخول في الأمان، وذلك في آخر المحرم من سنة ٢٨٢^(١). وكان الحسين بن حمدان قد أصبح من جملة قوّاد المعتضد، وكان قد كثر فساد هارون الشاري الخارجي، وكثر أتباعه في ديار ربيعة. ورأى المعتضد أن لا أحد من رجاله يقدر عليه سوى الحسين بن حمدان فطلبه إليه، فلما جاءه أمره بالمسير لقتاله، فقال له الحسين، إن أنا أتيتك به فلي عليك ثلاث حوائج، قال له المعتضد، ما هي، قال، إطلاق سراح أبي، وحاجتان أسألك إياهما بعد مجيئي به إليك^(٢). قال المعتضد: لك ذلك فامض، فقال الحسين: أحتاج إلى ثلاثمائة فارس انتخبهم، فوجه المعتضد معه ثلاثمائة فارس مع موشكير. قال: أريد أن يأمره أمير المؤمنين أن لا يخالفني فيما أمره به، فأمر المعتضد موشكير بذلك، فمضى الحسين حتى انتهى إلى مخاضة دجلة فتقدم إلى وصيف ومن معه بالوقوف على المخاضة، وقال له: ليس لهارون طريق إلى الهرب غير هذا، فلا تبحرن من هذا الموضع حتى يمر بك هارون فتمنعه العبور، وأجيتك أنا أو يبلغك أني قد قتلت.

ومضى الحسين في طلب هارون فلقيه وواقعه، فانهزم الشاري، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه، قد طال مقامنا بهذا المكان القفر، وقد أضرد ذلك بنا ولسنا نأمن أن يأخذ حسين هارون الشاري، فيكون الفتح له دوننا، والصواب أن نمضي في آثارهم، فأطاعهم ومضى، وجاء هارون الشاري منهزماً إلى موضع المخاضة فعبر، وجاء حسين في أثره فلم يروصيفاً وأصحابه بالموضع الذي تركهم فيه، ولا عرف لهارون خبراً ولا رأى له أثراً، وراح يسأل عن خبر هارون حتى وقف على عبوره فعبر في أثره، وجاء إلى حي من أحياء العرب فسألهم فكتموه أمره، فأراد أن يوقع بهم وأعلمهم أن المعتضد في أثره، فأعلموه أنه اجتاز بهم، فأخذ بعض دوابهم وترك دوابه عندهم، وكانت قد كُلت وأعييت، واتبع أثره فلحقه بعد أيام والشاري في نحو مئة فناشده الشاري وتوعّده فأبى إلا محاربتة فحاربه، فذكر أن الحسين بن حمدان رمى بنفسه عليه، فابتدره أصحاب الحسين فأخذوه. وجيء به إلى المعتضد سلماً بغير عقد ولا عهد، فأمر المعتضد بحل قيود حمدان بن حمدون والتوسعة عليه والإحسان إليه إلى أن يقدم فيطلقه ويخلع عليه، كما خلع على

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٥٢

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٥٤

حسين بن حمدان وطوّقه بطوق من ذهب، وخلع على جماعة من رؤساء أهله^(١). فارتفع شأن حمدان بن حمدون وابنه الحسين في دولة أبي العباس المعتضد، وأعطى حمدان بن حمدان ولاية الموصل وديار ربيعة، وأما الحسين فقد شارك في تنفيذ المهمات الصعبة ومنها قتاله لبكرو وعمر ابني عبد العزيز بن أبي دلف العجلي اللذين خرجا في إقليم الجبال بإيران سنة ٢٨٣، حيث تمكن الحسين من إخضاع عُمرو وملاحقة بكر حتى أصفهان وهزيمته وإخضاعه.

٢- قتال القرامطة في سوريا

توفي الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩ وكان قد أوصى بالخلافة من بعده لولده علي «المكتفي»، وكان «صاحب الشامة» قد عاث فسادًا في سوريا، ومالت القبائل إليه، ووردت الشكاوى إلى المكتفي من المصريين في سوريا مما فعله يحيى بن زكرويه وأخوه حسين صاحب الشامة بهم وقتلها رجالهم، وفي شهر رمضان من سنة ٢٩٠، أمر المكتفي بإعطاء الجند أرزاقهم والتأهب للشخص لحرب القرمطي بناحية الشام، فأطلق للجند في دفعة واحدة مئة ألف دينار^(٢)، وأخرجت مضارب المكتفي فضربت باب الشماسية، وخرج المكتفي ومعه قواده وغلمانهم وجيوشه، من باب الشماسية وسلك طريق الموصل ومضى حتى انتهى إلى الرقة فنزلها وسرح الجيوش إلى القرمطي جيشًا بعد جيش^(٣)، وولى على حرب صاحب الشامة محمد بن سليمان الكاتب وجعل أمر الجيوش والقيادة إليه، وانتشرت الجيوش بين حمص وحلب، والتقوا مع جيش القرمطي في موضع يبعد عن حماة اثني عشر ميلًا، فالتحمت الحرب وأبلى فيها الحسين بن حمدان بلاء حسنًا، فهزم أصحاب القرمطي وقتلوا وأسروا من رجالهم بشرًا كثيرًا وتفرق الباقيون في البادية، وتبعهم الحسين بن حمدان، وسار القرمطي مع بعض أصحابه يريد الكوفة، فلحق بموضع يُعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات، فنفذ ما كان معهم من الزاد والعلف، فوجه بعض من كان معه ليشترى له بعض الطعام والعلف، فدخل الدالية المعروفة بدالية ابن طوق لشراء حاجة فأنكروا زيّه، وسئل عن أمر فتلعثم، فأعلم متولي مسلحة تلك الناحية بخبره، وهو رجل يعرف بأي خبزة خليفة بن أحمد بن كثرمد عامل المكتفي على المعاوين في الرحبة وطريق الفرات، فركب في جماعة وسأل هذا الرجل عن خبره، فأخبره أن صاحب الشامة خلف رايبة هنالك في ثلاثة نفر. فمضى إليهم فأخذهم، وتوجه بهم إلى

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٥٤

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٤

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٤

عامل الرحبة، فساروا جميعاً إلى المكتفى بالركة. ومن هناك أرسل إلى بغداد حيث قتل. ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا جميع من قدروا عليه من أولياء القرمطي وأشياعه^(١).

وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح، وفي هذا الكتاب يتحدث ابن سليمان عن بطولات الحسين بن حمدان حيث قال: (قد تقدمت كتبي إلى الوزير أعزه الله في خبر القرمطي وأشياعه بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله، ولما كان في يوم الثلاثاء لست ليالٍ خلون من المحرم، رحلت من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة في جميع العساكر من الأولياء، وزحفنا بهم على مراتبهم في القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك، فلم أبعُد أن وافاني الخبر بأن الكافر القرمطي أنفذ النعمان ابن أخي إسماعيل بن النعمان أحد دعائه في ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجال، وإنه نزل بموضع يعرف باسم «تمنع» بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً، فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وسائر النواحي من الفرسان والرجال، فسرنا حتى وافينا الكفرة، فلما نظروا إلينا مقبلين زحفوا نحونا وسرنا إليهم، فافترقوا ستة كراديس، فلما رأى بعضنا بعضاً، حمل الكردوس الذي كان في ميسرتهم ضرباً بالسياط، فقصد الحسين بن حمدان وهو في جناح الميمنة، فاستقبلهم الحسين برك الله عليه وأحسن جزاءه، بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم فكسروها في صدورهم فانفلخوا عنهم، وعاود القرامطة الحمل عليهم، فأخذوا السيوف واعترضوا ضرباً للوجوه، فصرع من الكفار الفجرة ستمائة فارس في أول وقعة، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة، وولوا مدبرين مفلولين، واتبعهم الحسين فرجعوا إليه، فلم يزالوا حملة وحملة، وفي خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة، حتى أفناهم الله عزل وجل، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل)^(٢).

٣ - عودة الحسين بن حمدان إلى قتال القرامطة

كان الداعية زكرويه بن مهرويه قد أرسل بعدما قتل ولده صاحب الشامة، رجلاً كان يعلم الصبيان بقرية تدعى «الزابوقة» من عمل الفلوجة، يسمى عبد الله بن سعيد، ويكنى أبا غانم، فتسمى نصرًا ليعمى أمره^(٣)، فدار على أحياء كلب يدعوه إلى رأيه، فلم يجبه منهم أحد سوى رجل من بني زياد يسمى مقدم بن الكيال، واستغوى له طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم، وسواقط

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس ص ٣٨٧

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٨٧

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٣

من العليصيين، وصعاليك من سائر بطون كلب، وقصد ناحية الشام، وعامل المكتفي على دمشق والأردن أحمد بن كيغخ، وكان هذا قد قصد مصر لمساعدة القائد محمد بن سليمان ضد ابن خُليج الذي ملك مصر، فاعتنم ذلك عبد الله بن سعيد المسمى «نصر» وسار إلى مدينتي بصرى وأذرعات من قرى حوران والبتنية، فحارب أهلها، ثم آمنهم فلما استسلموا، قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم، ثم سار نحو دمشق، فخرج إليه جماعة ممن كان مرسومًا بالدفاع عنها من المصريين، كان خلفهم أحمد بن كيغخ مع صالح بن الفضل، فقاتلوهم وغلبوهم، ثم اغتروهم ببذل الأمان لهم، فقتلوا صالحًا ومعظم عسكره، ولم يطمعوا بمدينة دمشق، بل تركوها ومضوا إلى طبرية مدينة جند الأردن*^(١). ولحق بهم جماعة من الجند بدمشق، والتقاها يوسف بن إبراهيم بن مغامري عامل أحمد بن كيغخ على الأردن، فكسروه وبذلوا الأمان له، ثم غدروا به فقتلوه^(٢). ونهبوا مدينة الأردن وسبوا النساء، وقتلوا جماعة من أهلها، فأرسل المكتفي الحسين بن حمدان لطلبهم، فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية، فلما عرفوا به، ساروا نحو السماوة، فتبعهم الحسين يطلبهم في صحراء السماوة وهم ينتقلون من ماء إلى ماء ويغورونه، حتى لجأوا إلى المائين المعروفين، بالدِمعانة، والحالة، وانقطع الحسين من اتباعهم لانعدام الماء، فعاد إلى الرحبة، وأسرى القرامطة إلى قرية هيت فصبحوها وأهلها غارون، فنهبوا وقتلوا من أهلها زهاء مئتي نفس بين رجل وامرأة وصبي، وأحرقوا المنازل، وأخذوا ما قدروا عليه من الأموال والمتاع، وأوقروا ثلاثمئة راحلة^(٣)، وأقاموا بها ثلاثة أيام، وعنما عرفوا بمسير جيش عباسي كثيف نحوهم غادروا هيت، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن إسحاق بن كنداجيق، فسار خلفهم فوجدهم قد غوروا الماء، فطلب من

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٣.

* يقصد بمدينة الأردن هنا «طبريا، التي كانت مركز جند الأردن، وكان الأردن جندًا في عهد الخلافة الإسلامية، حيث قسمت بلاد الشام، إلى مقاطعات عدة دُعي كل منها جندًا وكان جند الأردن أحد خمسة أجناد تابعة لولاية الشام. كانت الأجناد الأربعة الأخرى، جند قنسرين، وجند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان «وأما الجند فيجيء في قولهم: جند قنسرين، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن. فهي خمسة أجناد، وكلها بالشام. ولم يبلغني أنهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام» - معجم البلدان - ج ١ - ص ٣٨، «وهذه الأجناد أقاليم استقرت فيها فرق من الجيش الإسلامي لحمايتها وقبض أعطيائهم منها، وقد أوجبت الضرورات العسكرية تقسيم الشام إلى هذه الأجناد، فالساحل الشامي طويل، والشام كانت لاتزال مهددة برأ وبحراً من الرومان، فكان لا بد من إيجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له، فقد كانت عرقا وطرابلس وبيروت تابعة لجند دمشق ويتصرف بها نواب يعينهم من كان يتولى جند دمشق، أما اللاذقية وجبله وبانياس وطرسوس فكانت تابعة لجند حص، وتبعثت صور وعكا لجند الأردن، وقيسارية وبفا وعسقلان لجند فلسطين» - الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية - نجدة خماش - ص ٢١٤ - ٢١٥

(٢) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

(٣) تاريخ الطبري محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

الخليفة النجدة، فأرسل إليه الإبل والروايا* والزاد^(١)، وكتب محمد بن إسحاق إلى الحسين بن حمدان أن يسير من جهة الرحبة إليهم، ليجتمع معه على الإيقاع بهم، فلما أحس الكليوبن بإشراف الجند عليهم، وثب رجل منهم يقال له الذئب بن القائم، فقتل القائد نصرًا، وشخص إلى بغداد متقربًا بما كان منه ومستأمنًا لقومه، فأعطي جائزة، وصدر الأمر للحسين بن حمدان ومحمد بن إسحاق بالكف عن طلب قومه، وظفر بعض الجند بجثة نصر، فاحتزوا رأسه وحملوه إلى بغداد^(٢). لكن القرامطة عادوا واجتمعوا على الماءين «الدمعانة، والحالة»، فكتب المكتفي إلى الحسين بن حمدان في معاودتهم باجتماع أصولهم^(٣). وأرسل إليهم الداعية زكرويه داعية من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد بن علي ويعرف بأبي محمد من رستاق نهر «تلحانا»^(٤)، فأعلمهم أن فعل الذئب بن القائم قد أنفره عنهم وأثقل قلبه عليهم، وأنهم قد ارتدوا عن الدين، وأن وقت ظهورهم قد حضر، وقد بايع له بالكوفة أربعون ألف رجل وفي سوادها أربعمائة ألف رجل، وإن يوم موعدهم الذي ذكره الله في كتابه في شأن موسى كليمه وعدوه فرعون، إذ يقول: «موعدكم يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى». وأن زكرويه يأمرهم أن يخفوا أمرهم ويظهروا الانقلاع نحو الشام، ويسيروا نحو الكوفة حتى يصبحوها في غداة يوم النحر، وهو يوم الخميس لعشر خلون من ذي الحجة سنة ٢٩٣، فإنهم لا يمتنعون منها، وإنه يظهر لهم وينجز لهم وعده الذي كانت رسله تأتيهم به، وأن يحملوا القاسم بن أحمد معهم^(٥). فامتلأوا أمره، ووافوا باب الكوفة، وقد انصرف الناس عن مصلاهم مع إسحاق بن عمران عامل المكتفي بها، وكان الذين وافوا باب الكوفة في هذا اليوم ثلاثمائة فارس بقيادة «الذبلاني بن مهرويه» من أهل جُنبلاء. عليهم الدروع والجواشن والآلة الحسنة، ومعهم جماعة من الرجال على الرواحل فأوقعوا بمن لحقوه من العوام، وسلبوا جماعة وقتلوا نحوًا من عشرين نفسًا، ودخل مئة فارس من القرامطة إلى الكوفة من باب كندة، فاجتمعت العوام وجماعة من الحامية العباسية فرموهم بالحجارة وحاربوهم فقتل من القرامطة نحو عشرين نفسًا وأخرجوهم من المدينة^(٦)، وخرج والي الكوفة إسحاق بن عمران ومن معه من الجند لقتالهم. وأمر أهل الكوفة بالتحارس لتلايد القرامطة غفلة منهم فيدخلوا المدينة، فوقع القتال واستمر إلى وقت العصر من يوم النحر، ثم

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤
* الروايا، مفردًا راوٍ، وهو وعاء من جلود يوضع على ظهر الدابة وينقل فيه الماء.

(٢) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

(٤) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

(٥) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٤

(٦) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٥

انهزم القرامطة نحو القادسية^(١). وكتب إسحق بن عمران إلى المكتفي يطلب منه المدد، فندب للخروج إليه جماعة من قواده، منهم طاهر بن علي بن وزير، ووصيف بن صوارتكين التركي، والفضل بن موسى بن بغا، وبشر الخادم الأفشيني، وجنى الصفواني، ورائق الخزري، وغيرهم. فشخص أولهم في منتصف ذي الحجة، ولم يرأس واحد منهم، كل واحد منهم رئيس على أصحابه. وساروا حتى التقوا مع زكرويه بن مهرويه، فانهزم الجيش العباسي ووقع القتل فيهم، واحتوى القرمطي على سوادهم، فقوي أمره وأمر أصحابه بما أخذوا في هذه الوقعة. وكان الحسين بن حمدان يربط على طريق الشام في صحراء الرحبة، ليمنع القرامطة من العودة إلى سوريا، فكان بينه وبين جماعة من أصحاب زكرويه وقعة، أصاب فيها ما أصاب، حيث قبض على قائد قرمطي يدعى «الكيال» ومعه ستون رجلاً، فسير الجميع إلى الخليفة العباسي، وكان المكتفي قد ولي الحسين بن حمدان على حلب سنة ٢٩٠، بالإضافة إلى الموصل وديار ربيعة، وتمردت عليه قبائل كلب وبنو أسد والنمر وغيرهم، كما يقول ابن العديم، ولم يبين هذا المؤرخ سبب تمرد هذه القبائل، وربما كان السبب هو ارتباطهم بالقرامطة وميلهم إليهم. وقد اجتمعوا في نواحي حلب مصممين على قتاله، فخرج إليهم في شهر رمضان، لكنه انهزم أمامهم بسبب كثرتهم^(٢)، وعندما علم الخليفة بذلك صرف الحسين عن ولاية حلب وأبقاه على ولاية الموصل وديار ربيعة^(٣). وولى الخليفة المكتفي على حلب، عيسى النوشري^(٤)، ومن ثم عزله، وولى مكانه أبا الحسن ذكا بن عبد الله الأعور^(٥). وتوفي المكتفي سنة ٢٩٥، وتولى الخلافة بعده أخوه جعفر المقتدر، وعادت بنو تميم إلى التمرد في حلب، وكان مركزهم في منطقة خناصر، وفشل ذكا في التعامل معهم، فكتب إلى المقتدر يخبره بأمرهم، فكتب هذا إلى الحسين بن حمدان لإنجاده، فسار من الرحبة حتى أناخ عليهم في خناصر، وقاتلهم وشتت شملهم وأسر منهم جماعة وعاد إلى بلاده من دون أن يقابل ذكا^(٦).

(١) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٣٩٥

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٥

(٣) تاريخ الطبري - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٠

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٥

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٦

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٧

* محمد بن داود بن الجراح «أبو عبد الله» ٢٤٢ - ٢٩٦ - أديب، كاتب، عارف بأيام الناس وأخبار الخلفاء والوزراء، أخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء، ووزر لعبد الله بن المعتز في يوم خلافته، وخافه أبو الحسن بن الفرات فأشار بقتله، فقتل في ربيع الآخر سنة ٢٩٦. من آثاره: الورقة في أخبار الشعراء، الشعر والشعراء، و«من سني من الشعراء عمرو في الجاهلية والإسلام، الوزراء، كتاب الأربعة على مثال كتاب أبي هفان - معجم المؤلفين - عمر رضا كحالة - ج ٩ - ص ٢٩٥

٤- ثورة الحسين بن حمدان على المقتدر

كان المقتدر شاباً صغيراً لم يبلغ الحلم وقد التفّت حوله بطانة كلهم من الأتراك، فأوغروا صدره ضد القيادات العربية وعلى رأسهم القائد الحسين بن حمدان الذي لم يكن قادراً على الصبر على الظلم، وقد التقى بالنقمة على المقتدر مع محمد بن داود بن الجراح* صاحب دواوين الخراج والضياح والجيش في خلافة المكتفي ومن بعده المقتدر، والذي تعرض للظلم والتهميش أيضاً، فوافق الحسين بن حمدان على إزالة المقتدر من الخلافة ونصب عبد الله بن المعتز مكانه^(١).

وقد اختار الحسين بن حمدان عبد الله بن المعتز لأنه كان يريد خليفة عاقلاً وحازماً ولا يريد حدثاً عاجزاً. ولم يكن للحسين هدف شخصي من وراء اختياره لابن المعتز لأنه كان معروفاً بميوله الشيعية، أما ابن المعتز فكان معروفاً بتعصبه للسنة وكرهه لعلي بن أبي طالب^(٢). وقد وافق الحسين بن حمدان على ذلك أيضاً جماعة من القواد والكتاب والقضاة.

وركب الوزير العباس بن الحسن «الجرجرائي»* يريد بستانه المعروف ببستان الورد، فاعترضه الحسين بن حمدان وعلاه بالسيف وقتله^(٣)، لأنه كان قد اتفق مع الحسين بن حمدان على الثورة، لكنه عاد وبذل رأيه لما رأى أمره مستوثقاً مع المقتدر^(٤). وكان فاتك المعتضدي يسايره فصاح بالحسين بن حمدان منكراً عليه فعطف عليه الحسين وقتله، واضطرب الناس وركض الحسين بن حمدان قاصداً إلى الحلبة مقدراً أن المقتدر هناك يضرب بالصوالجة* فيقتله، فلما سمع المقتدر بالضجة بادراً بالدخول إلى داره وغلقت الأبواب دون الحسين^(٥). فانصرف إلى الدار المعروفة بسليمان بن وهب، وبعث إلى عبد الله بن المعتز يعرفه تمام التدبير، فنزل عبد الله بن المعتز من داره التي على الصراة* وعبر إلى المخرم*، وحضر

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٥

(٢) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ١٠٨

* كان الحسين بن حمدان يحلف مجتهداً أنه سمع الوزير العباس بن حسن «الجرجرائي» يكفر، ويستخف بحق الرسول، وأنه قال في ما جرى من القول: قد كان أجيراً لخديجة ثم جاء منه ما رأيت، قال، فاعتقدت قتله من ذلك الوقت، واعتقد غيره من القواد مثل ذلك، واجتمعت القلوب على بغضه، ولذلك لم يؤاخذه المقتدر بما فعل. تاريخ الطبري - المجلد الخامس - ص ٤١٩

(٣) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٥

(٤) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٢

* كان الخلفاء العباسيون والوزراء يمارسون لعبة الصولجان أو المعروفة الآن باسم «البولو» ويلعبونها في ميادين خاصة في قصورهم وأول من لعبها من الخلفاء كان هارون الرشيد وقرب الماهرين بها فانتشرت بين الناس، وكان يشكل من الأمراء والوزراء فريقاً وجعل لها ميادين ومقاعد مريحة للمتفرجين.

(٥) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦

* الصراة، أحد أنهار بغداد القديمة، يتفرع من نهر عيسى، يصب في الجذانب الغربي من بغداد. المخرم، منطقة قرب بغداد

القواد والجند وأصحاب الدواوين والقضاة ووجوه الناس، فبايع من حضر عبد الله بن المعتز، وخطب بالخلافة وانعقد له الأمر ولقب المرتضي بالله^(١). واستوزر ابن المعتز محمد بن داود بن الجراح، وقلد علي بن عيسى الدواوين والأصول، وأرسلت الكتب إلى الأمصار كلها من عبد الله بن المعتز ووجه إلى المقتدر بالله بالانصراف إلى دار ابن طاهر مع والدته* لينتقل هو إلى دار الخلافة، فأجيب بالسمع والطاعة^(٢).

وحاول غلمان دار المقتدر أن يعطلوا بيعة ابن المعتز، فقاتلهم الحسين بن حمدان من صباح ذلك اليوم حتى انتصف النهار^(٣)، ودفعوه عن الدار فانصرف في آخر النهار وحمل ما قدر عليه من ماله وحرمه وولده وسار بالليل إلى الموصل^(٤)*. ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال والحاشية، فلما راسل ابن المعتز المقتدر بالانصراف إلى دار ابن طاهر، قالت هذه الجماعة بعضها لبعض، كما يقول ابن مسكويه، يا قوم نسلم الأمر هكذا، لم لا نجرد أنفسنا في دفع ما قد أضلنا، ولعل الله أن يكشف عنا، فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في شذاذات «قوارب» ومعهم جماعة، ففعلوا ذلك وألبسوا الجماعة الجواشن والخوذ والسلاح وصاروا إلى دار المخرم، فلما قربوا منها ورآهم من كان فيها على شاطئ دجلة، قالوا، شذاذات «قوارب» مصعدة من دار السلطان، ووقع الرعب في قلوبهم، فتطايروا على وجوههم قبل أن تجري بينهم حرب وقبل وصول الشذاذات إلى الدار^(٥).

ويروي الطبري رواية مختلفة فيقول: «وبينما كان الحسين بن حمدان يقاتلهم حمل الخادم مؤنس جماعة من غلمان الدار في القوارب وصعد بهم في دجلة، فلما حاذوا دار ابن المعتز وكان مشرفاً على النهر، وكان معه جماعة من القواد والجند، فصاحوا بهم ورشقوهم بالسهم فتفرقوا، وهرب من في الدار من الجند والقواد والكتّاب، ولحق بعض الناس الذين بايعوا ابن المعتز بالمقتدر فاعتذروا، واختفى بعضهم^(٦). وخرج عبد الله بن المعتز ووزيره محمد بن داود وحاجبه يمين وهو يرفع سيفه ويقول: معشر العامة أدعوا لخليفكم، وأخذوا طريق الصحراء، تقديرًا

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦
* كانت والدة المقتدر تدعى «السيدة شغب» وكان لها دور كبير في تسيير شؤون البلاد وتولي الوزراء والمسؤولين.

(٢) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦

(٣) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٢

(٤) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦
* ربما الذي دفع الحسين بن حمدان إلى مغادرة بغداد إلى الموصل هي قوة خصمه وإدراكه أن ثورته لن تكلل بالنجاح، فآثر السلامة

(٥) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦

(٦) - تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٣

منهم أن يتبعهم الجيش ويصيروا إلى، سرّ من رأى، فثبت أمرهم هناك، فلم يتبعهم أحد، فلما رأى محمد بن داود بن الجراح ذلك، نزل عن دابته لما حاذى داره، واستتر فيها، ونزل عبد الله بن المعتز في موضع آخر ومشى إلى دجلة وانحدر لدار أبي عبد الله بن الجصاص* ودخلها واستجار به، وقلد المقتدر مؤنس الخادم صاحب الشرطة في بغداد^(١). وصار خادم لأبي عبد الله بن الجصاص يدعى سوسن إلى دار السلطان يسعى بأن عبد الله بن المعتز مستتر في دار مولاه، فأنفذ المقتدر أحد رجاله ويدعى صافي الحرمي في جماعة فكبس منزل ابن الجصاص واستخرج منه عبد الله بن المعتز فحمله وحمل معه أبا عبد الله بن الجصاص إلى دار السلطان، فصادر ابن الجصاص عن مال بذله وأطلقه إلى منزله بعد أن تكفل به الوزير أبو الحسن بن الفرات^(٢). ووجه المقتدر القاسم بن سيما في جماعة من القواد والجند وراء الحسين بن حمدان، فسار حتى وصل إلى الرحبة والدالية*، وكتب إلى أخي الحسين، عبد الله بن حمدان، بطلب أخيه، فالتقى الشقيقان بموضع يعرف بالأعمى بين تكريت والسودقانية بالجانب الغربي من دجلة، فانهزم عبد الله^(٣). وأدرك الحسين أن لا جدوى من المقاومة فأرسل إلى المقتدر يطلب الأمان، فأعطاه له، فوافى إلى بغداد، وصار إلى دار السلطان، فخلع عليه وولاه على قم وقاشان*^(٤). وأثناء وجوده والياً هناك ساعد مؤنس الخادم في القضاء على تمرد الليث بن علي الذي ملك بلاد فارس سنة ٢٩٧، حيث تمّ هزمه وأخذ أسيراً إلى بغداد^(٥).

٥- تمرد الحسين بن حمدان ونهايته

كان الحسين بن حمدان يطمح إلى إكمال مشروع والده الاستقلالي، وفي سنة ٢٩٨ وولاه المقتدر على ديار ريبة، وما إن استقر في ولايته حتى أخذ في تنظيم البلاد وإعدادها لتكون مقراً له. وجهز جيشاً وغزا به بلاد الروم سنة ٣٠١، وأرسل كتاباً

* ابن الجصاص الجوهري واسمه الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري أبو عبد الله البغدادي، كان ذا مال عظيم وثروة واسعة، وكان أصل نعمته من بيت أحمد بن طولون، كان قد جعله جوهراً له يسوق له ما يقع من نفائس الجواهر بمصر، فاكسب بسبب ذلك أموالاً جزيلة جداً. واتفق أنه صودر في أيام المقتدر مصادرة عظيمة-البداية والنهاية- ابن كثير- ج ١١ - ص ١٧٧

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٦

(٢) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٧

* الدالية، مدينة تقع على بعد (٥٥) كم جنوب شرق مدينة دير الزور، وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات، وتسمى اليوم القورية.

(٣) - تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٣

* قاشان، تقع مدينة قاشان عند حافة صحراء كبيرة تشغل معظم وسط إيران.

(٤) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٠٣

(٥) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٧

من طرسوس إلى المقتدر في بغداد يذكر فيه أنه فتح حصوناً كثيرة، وقتل من الروم خلقاً كثيراً، وتعاضم أمره ورفض إرسال الأموال إلى بغداد، واستخدمها لترقية إمارته الناشئة، وأمره الوزير علي بن عيسى بتسليم البلاد إلى عمال السلطان فامتنع. وكان مؤنس الخام بمصر في محاربة عساكر المهدي صاحب أفريقيا، فجهز الوزير إلى ابن حمدان، رائقاً الكبير في عسكر سنة ٣٠٣، وكتب إلى مؤنس أن يسير إلى الجزيرة لقتاله بعد فراغه من أصحاب العلوي بمصر^(١)، فسار رائق أولاً فهزمه الحسين، ولحق مؤنس فأمره بالمقام بالموصل، وسار نحو الحسين وتبعه أحمد بن كيغخ، وانتهى إلى جزيرة ابن عمر، والحسين بأرمينية، ورجع الكثير من عسكره إلى مؤنس، ثم بعث مؤنس عسكراً في أثره عليهم بليق ومعه سيما الخزي، وجاء الصفواني، واتبعوه فأدركوه، وقتلوه فهزموه، وجاؤوا به أسيراً^(٢)، وأخذ ابنه الصقر أسيراً، وهرب ابنه حمزة وابن أخيه أبو الغطريف، ومعهما مال، فعرف بهما صاحب آمد، فأخذ منهما المال وحبسهما^(٣). وكان الظفر بالحسين بن حمدان يوم الخميس للنصف من شعبان من تلك السنة، ورحل مؤنس يريد بغداد ومعه الحسين بن حمدان وأخوته، وحمل الحسين بن حمدان مصلوباً على نقنق وتحت كرسى، ويدير النقنق رجل، فيدور الحسين من موقفه يميناً وشمالاً وعليه كسوة ديباج سابغة، قد غطت الرجل الذي يدير النقنق، وابن أبو الصقر قد حمل بين يديه على جمل، وعليه قباء وبرنس، وكان قد امتنع من وضع البرنس على رأسه، فقال له الحسين: ألبسه يا بني، فإن أباك ألبس البرنس أكثر هؤلاء الذين تراهم^(٤). ونصبت القباب بباب الطاق، وركب المقتدر وبين يديه نصر الحاجب، وخلفه مؤنس وعلي بن عيسى وأخوه الحسين. خلف جملة عظيمة عليهم السواد في جملة الجيش، ولما صار الحسين بسوق يحيى، قال له رجل من العباسيين: الحمد لله الذي أمكن منك، فقال له الحسين: «والله لقد ملأت صناديقي من الخلع والألوية، وأفنيت أعداء الدولة، وإنما أصارني إلى هذا الخوف على نفسي، وما الذي نزل بي إلا دون ما سينزل بالسلطان، إذا فقد من أوليائه مثلي». وبلغ الدار، ووقف بين يدي المقتدر، ثم سلم إلى نذير الخرمي، فحبسه في حجرة من الدار^(٥). وفي سنة ٣٠٦ سعى الوزير أبو الحسن بن الفرات في إطلاق الحسين بن حمدان، وقال للمقتدر: أطلقه ليقا تل يوسف بن أبي الساج الذي كان قد أعلن استقلاله في أردبيل، وأخذ الأموال لنفسه، فقالت بطانة المقتدر له،

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٥١

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٥١

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٣١

(٤) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٣١

(٥) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٣١

وهم من أعداء الحسين،: إن الوزير يريد أن يطلق الحسين بن حمادان ليتفق معه عليك، فعمد المقتدر، حينئذ، إلى قتل الحسين في جمادى الأولى من تلك السنة، وقبض على الوزير ابن الفرات في جمادى الآخرة^(١)، لكنه أعيد إلى الوزارة سنة ٣١١.

٦ - أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان

في سنة ٢٩٢، عقد المكتفي على الموصل وأعمالها لأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون، فقدمها في أول المحرم، وكان الأكراد الهذبانية ومقدمهم محمد بن سلال قد أغاروا على البلاد وعاثوا فساداً في نينوى، فخرج أبو الهيجاء في العساكر وعبر الجسر في الجانب الشرقي، ولقيهم فقاتلهم ومن ثم رجع عنهم، وبعث إلى الخليفة يستمده فأبطأ عليه المدد إلى ربيع من سنة ٢٩٤، فلما جاءه المدد سار إلى الهذبانية وهم مجتمعون في خمسة آلاف بيت، فارتحلوا أمامه واعتصموا بجب السلق المشرف على نهر الزاب، فحاصروهم، وراسله أميرهم ابن السلال يقدم الطاعة، وفي نفس الوقت حث أصحابه على المسير إلى أذربيجان، وأتبعهم أبو الهيجاء فلحقهم صاعداً إلى جبل القنديل فنال منهم، وامتنعوا بذروته، ورجع أبو الهيجاء عنهم، فلحقوا بأذربيجان^(٢). ووفد أبو الهيجاء على المكتفي فأنجده بالعسكر وعاد إلى الموصل، ثم سار إلى الأكراد بجبل السلق، فدخله وحاصروهم بقنّته، وطال حصارهم واشتد البرد وعدمت الأقوات، وطلب محمد بن سلال النجاة بأهله وولده، فنجوا واستولى ابن حمدان على أموالهم وأهلهم وأمنهم، ثم استأمن محمد بن سلال فأمنه وحضر عنده وأقام بالموصل وتتابع الأكراد الحميدية مستأمنين، واستقام أمر أبي الهيجاء بالموصل^(٣). وفي سنة ٣٠١ استقل بإمارته ورفض إرسال الأموال إلى المقتدر، فأرسل إليه مؤنسًا الخادم على رأس جيش، فقاتله وأدرك أنه مأخوذ لا محالة، فجاء بنفسه إلى مؤنس مستأمنًا، ورجع إلى بغداد فقبله المقتدر وأكرمه، وبقي ببغداد إلى أن أعلن أخوه الحسين استقلاله بديار ربيعة سنة ٣٠٤، وسارت العساكر فجاءوا به أسيرًا، فحبس المقتدر عند ذلك أبا الهيجاء وأولاده، ثم أطلقهم سنة ٣٠٥^(٤)، فعاد إلى ولايته على الموصل، وفي سنة ٣٠٨ خلع المقتدر عليه وولاه بالإضافة إلى الموصل، طريق

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٦ - ص ٤٩٩

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٣٧

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٣٧

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٣٧

خراسان والدينور^(١). وكان يقيم في بغداد، وجعل ابنه ناصر الدولة أميراً على الموصل.

وفي سنة ٣١٤ أفسد الأكراد والعرب بأرض الموصل وطريق خراسان، فكتب عبد الله بن حمدان إلى ولده الحسن يأمره بجمع الرجال والانحدار إلى تكريت، ففعل وسار إليها فوصل إليها في رمضان، واجتمع بأبيه وأحضر العرب وطلبهم بما أحدثوا في عمله. بعد أن قتل منهم ونكل ببعضهم، فردوا على الناس شيئاً كثيراً، ورحل بهم إلى شهرزور فوطئ الأكراد الجلالية، وقتلهم وانضاف إليهم غيرهم، فاشتدت شوكتهم، ثم إنهم انقادوا إليه لما رأوا قوته، وكفوا عن الفساد والشر^(٢). وضمن عبد الله بن حمدان أعمال الخراج والضياع في الموصل وما حولها^(٣). فكان يدفع للخليفة مقدماً، ومن ثم يتولى هو جمع الخراج، وهذا يدل على ملاءته المالية.

وشاءت الأقدار أن يقع عبد الله بن حمدان ضحية المؤامرات في بغداد، ذلك أنه كان قد تعاضم خطر مؤنس الخادم صاحب الانتصارات، وخافه المقتدر العباسي على نفسه، فحدثت وحشة بين الاثنين، وكان مؤنس أقوى من المقتدر وبيده الحل والعقد. وكان الروم قد هاجموا الثغور، فتجهز مؤنس للخروج إليهم، وبينما هو كذلك جاءه بعض الخدم فأعلمه أن الخليفة يريد أن يقبض عليه إذا خرج لوداعه، فأحجم عن الذهاب، وجاء الأمراء من كل جانب ليكونوا معه على المقتدر، فبعث إليه المقتدر رقعة بخط يده يحلف له أن هذا الأمر الذي بلغه غير صحيح، فدخل إلى المقتدر بغلمان، فقابل، ثم خرج من بين يديه مكرماً معظماً^(٤).

وتجددت الوحشة بين المقتدر ومؤنس الخادم، وسبب ذلك أنه قد وقع خلاف بين نازوك أمير الشرطة وبين هارون بن غريب، وهو ابن خال المقتدر، فانتصر هارون على نازوك وشاع بين العامة أن هارون سيصير أمير الأمراء محل مؤنس الخادم، فبلغ ذلك مؤنس وهو بالرقعة فأسرع الأوبة إلى بغداد^(٥)، فلما قرب منها لقيه عبد الله بن حمدان ونازوك، فأغرياه بالمقتدر، وأعلماه أنه يريد عزله عن الإمارة، وتقديم هارون بن غريب مكانه، فعمل ذلك في نفس مؤنس، وكان المقتدر قد ولي هارون بن غريب على الكوفة وضم إليه بلاد الجبل، وعزل عبد الله بن حمدان عن الدينور وولى مكانه نحريرا الخادم، وكان هذا سبب معاونة عبد الله

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٦ - ص ٥٠٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٠

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ١٣١

(٥) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ١٣٤

بن حمدان لنازوك^(١). ودخل مؤنس بغداد في أول المحرم وذهب إلى داره ولم يمض إلى دار السلطان، فوجه إليه المقتدر ولده أبا العباس، ومحمد بن مقله وزيره، فأعلماه شوقه إليه ورغبته في رؤيته، فاعتذر بعلة شكاه، وأن تخلفه لم يكن إلا بسببها، فأرجف الناس بتكرهه الإقبال إليه، واجتمعت الرجالة الواقفة على باب السلطان إلى داره، فقاتلهم أصحابه ودافعوهم، ووقع في نفس مؤنس أن الذي فعله الرجالة، إنما كان بأمر المقتدر، فخرج من الدار وجلس في مركب ووصل إلى باب الشماسية، وعسكر، ولحق به أصحابه، وخرج إليه نازوك في جميع جيشه فعسكر معه، ولما بلغ المقتدر ذلك، ارتاع له ووعدته بإخراج هارون بن غريب إلى الثغور، وبذل له كل ما رجا به استمالتة، وكتب المقتدر إلى مؤنس وأهل الجيش كتاباً كان فيه، «وأما نازوك فلست أدري سبب عتبه واستيحاشه، فوالله ما أعنت عليه هارون حين حاربه، ولا قبضت يده حين طالبه، والله يغفر له سوء ظنه، وأما عبد الله بن حمدان فلا أعرف شيئاً أحفظه سوى عزله عن الدينور، وما كنا عرفنا رغبته فيها، وإنما أردنا نقله إلى ما هو أجلّ منها وما لأحد عندي إلا ما أحبّ لنفسه، فإن أريد بي نقض البيعة فإني مستسلم لأمر الله وغير مسلم حقاً، خصني الله به وأفعل ما فعل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولا ألزم نفسي حجة ولا آتي في سفك الدماء ما نهى الله عنه، إلا في المواطن التي حددها الله، في الكافرين والبغاة من المسلمين، ولست استنصر إلا بالله لما أوامره من الفوز في الآخرة، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(٢).

فلما قرأ كتاب المقتدر في العسكر وثب وجوه الجيش، وقالوا، نمضي إلى دار الخليفة لنسمع منه ما يقول، وبلغ ذلك المقتدر، فأخرج عن الدار كل من كان يحمل سلاحاً، وجلس على سريرته وفي حجره مصحف يقرأ فيه، وأقام بنيه حوالي نفسه وأمر بفتح الأبواب، وألا يمنع أحد الدخول، فلما علم بذلك مؤنس أقبل إلى باب الخاصة ليعرف الحقيقة، ويستقرب مراسلة الخليفة، ثم كره أن يدخل عليه فيحدث من الأمر ما لا يتلافاه، فأمر الحُجَّاب أن يرجعوا إلى الدار وألزم معهم قوماً من أصحابه، وصرف الناس إلى منازلهم على حال جميلة، وكلهم مسرور بالسلامة، ورجع هو إلى داره ليزيد بذلك في تسكين الناس، وتطيب نفس الخليفة، وذلك يوم الاثنين، لعشر خلون من المحرم.

فلما كان يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت منه، عاد أصحاب نازوك وسائر الفرسان إلى الركوب في السلاح، وساروا إلى دار مؤنس فأخرجوه عن كره منه إلى المصلى العتيق، وغلبه نازوك على التدبير، واستأثر بالأمر وباتوا في تلك الليلة على

(١) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير - المجلد الخامس - ٤٦٤

(٢) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٦٥

هذه الحال، فلما أصبح نازوك ركب والناس معه في السلاح إلى دار السلطان، فوجدوا الأبواب مغلقة، فأحرقوا بعضها، ودخلوا الدار وقد تكامل على بابها من الفرسان نحو اثني عشر ألفاً، فلما سمع المقتدر نفيهم دخل هو وولده داخل القصر، ونزل محمد بن مقلّة إلى دجلة، فركب مركباً وصار إلى منزله، وتقحّم نازوك وأصحابه دخول الدار على دوابهم، إلى أن صاروا إلى مجالس الخليفة وهم يطلبونه ويكشفون عنه، فلما رأى مؤنس ذلك دخل الدار وسأل بعض الخدم عن المقتدر فأعلمه بمكانه، فاحتال في إخراجهم وإخراج أمه وولده ووجه معهم ثقاته إلى داره ليستتروا فيها^(١)، ونهب الجند الدار ومحووا رسوم الخلافة، وهتكوا الحرمه، ثم وكل مؤنس أصحابه بالقصر وأبوابه، وأجمع رأي نازوك وعبد الله بن حمدان على إقعاد محمد بن المعتضد للخلافة، وأحضروه الدار ليلة السبت وحضر معهما مؤنس، ودعا لمحمد بن المعتضد بكرسي وخاطبه، ثم انصرف مؤنس إلى داره، وأقام نازوك في الدار إذ كان يتولى الحجابة مع الشرطة، وانصرف عبد الله بن حمدان إلى منزله، ووجه نازوك بالليل من نهب دار هارون بن غريب الخال بنهر المعلى وداره بالجانب الغربي، وأحرقتا جميعاً ونهبت دور الناس، وسمي محمد بن المعتضد، القاهر بأمر الله، وسلّم عليه بالخلافة، ولما رأى مؤنس غلبة نازوك على الأمر خاف على نفسه، فوجه إلى نقيب الرجالة، فواطأهم على قتل نازوك، فساروا إليه في جماعة كبيرة، وطالبوه بالمال، لكن نازوك لم يكن قد اجتمع له المال الكافي لإعطاء الجند مستحقاتهم، فألحوا في قبضه، فلم يعطوا شيئاً، وبكر الرجالة إلى دار نازوك للمطالبة بالمال، وحاول أن يهرب منهم لكنهم قتلوه، وصاحوا لا نريد إلا خليفتنا المقتدر بالله، ووثب القاهر مع جماعة من خدمه فخرج من بعض أبواب القصر، وجلس في مركب، ومضى إلى موضعه في دار ابن طاهر، ونهبت دار نازوك، وكان عبد الله بن حمدان في الوقت الذي قتل فيه نازوك بين يدي القاهر، وهو يراه خليفة، فلما هرب القاهر طلب ابن حمدان من بعض الغلمان جبة صوف كانت عليه، وضمن له مالاً فلبسها، وبادر يريد بعض الأبواب، فبدر به قوم من الغلمان والخدم، فما زالوا يرمونه بالنشاب حتى قتلوه واحتزوا رأسه^(٢).

٦- ناصر الدولة الحسن بن حمدان أمير الأمراء

تولى ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان مكان أبيه ولاية الموصل وديار ربيعة، وكان شجاعاً مقداماً، وامتنع عن إرسال الأموال إلى الخليفة الراضي، فأرسل إليه سنة ٣٢٣، أبا العلاء سعيد بن حمدان لينتزع الموصل من يده، ف وقعت معركة

(١) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - المجلد الخامس - ص ٤٦٥

(٢) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - ص ٤٦٦

انهزم فيها سعيد، فعاد الخليفة وأرسل الوزير أبا علي بن مقله في جيوش، فهرب منه ناصر الدولة، ولما طال مقام ابن مقله بالموصل ولم يقدر على ناصر الدولة رجع إلى بغداد، فاستقرت يد ناصر الدولة على الموصل، وبعث إلى الخليفة الراضي يسأله أن يضمه تلك الناحية، فأجيب إلى ذلك، واستمر الحال على ما كان^(١). وعاد ناصر الدولة فاستقل بالموصل ورفض إرسال الأموال إلى الخليفة الراضي، فسار إليه الخليفة بنفسه وبين يديه بجكم أمير الأمراء وذلك سنة ٣٢٧، ولما انتهى بجكم إلى الموصل واقع ناصر الدولة ابن حمدان، فهزم بجكم ابن حمدان^(٢)، وفي تلك الأثناء اغتنم القائد محمد بن رائق غيبة الخليفة عن بغداد، فاتصل مع القرامطة وطلب منهم المساعدة من أجل السيطرة على بغداد، فجاءه ألف منهم، فدخل بهم إلى المدينة وأكثر فيها الفساد لكنه لم يتعرض لدار الخلافة^(٣)، ربما لأنه وجد في نفسه الضعف وعدم القدرة على إكمال الانقلاب على الخليفة، ولذلك أرسل إلى السلطان يطلب منه المصالحة والعفو عن ما جرى، فأجابه إلى ذلك، ورحل ابن رائق عن بغداد ودخلها الخليفة^(٤)، وعاد ناصر الدولة إلى ملكه في الموصل. وتوفي الراضي سنة ٣٢٩ وخلفه أخوه المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر، وتحارب أبو عبد الله البريدي وأمير الأمراء بجكم فقتل بجكم، وحاول البريدي أن يدخل إلى بغداد ويستولي عليها، لكنه فشل لأن الديلم في جيشه خالفوه والتفوا حول كورتكين، فانهزم البريدي واستولى كورتكين على الأمور ببغداد، ودخل إلى المتقي فقلده أمرة الأمراء^(٥)، ثم تظلمت العامة من الديلم لأنهم كانوا يأخذون منهم دورهم، وشكوا ذلك إلى كورتكين، فلم يجبههم، فمنعت العامة الخطباء أن يصلوا في المساجد واقتتل الديلم والعامة، وكتب الخليفة إلى القائد محمد بن رائق وكان في سوريا يستدعيه ليخلصه من الديلم ومن البريدي، فركب إلى بغداد ومعه جيش عظيم، وحين وصل إلى الموصل حاد عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان، فتراسلا ثم اصطالحا، وحمل ناصر الدولة له مئة ألف دينار^(٦).

لما اقترب ابن رائق من بغداد، خرج كورتكين بجيشه ليقاّته، فدخل ابن رائق بغداد من غربها ورجع كورتكين بجيشه فدخل من شرقها، والتقى الفريقان، فانهزم كورتكين واختفى، ومن ثم ظفربه ابن رائق وأودعه السجن، واستقر ابن

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٥٤

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ٦٠

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٦٠

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٦٠

(٥) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٦٨

(٦) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٦٨

رائق في إمارة الأمراء ببغداد وخلع عليه الخليفة^(١). وأخرا ابن البريدي حمل المال من واسط التي كان يتولاها، فأنحدر إليه ابن رائق في العساكر في عاشوراء من سنة ٣٣٠، وهرب بنو البريدي إلى البصرة، ثم سعى أبو عبد الله الكوفي بينهم وبين ابن رائق، وضمن واسط بستمئة ألف دينار^(٢).

ورجع ابن رائق إلى بغداد، فطالبه الجند بأرزاقهم، وضاق عليه حاله، وتخيّر جماعة من الأتراك عنه إلى البريدي، فضعف جانب ابن رائق وكاتب البريدي بالوزارة في بغداد، ثم قطع اسم الوزارة عنه، فاشتد حنق البريدي عليه، وعزم على أخذ بغداد، فبعث أخاه أبا الحسين في جيش إلى بغداد، فتحصن ابن رائق مع الخليفة بدار الخلافة، ونصبت فيها المجانيق على دجلة، فاضطرب أهل المدينة ونهب الناس بعضهم بعضاً ليلاً ونهاراً، وانهزم الخليفة وابن رائق، ومع الخليفة ابنه منصور، فقصدوا نحو الموصل، واستحوذ أبو الحسين على دار الخلافة^(٣).

وكان المتقي قد بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على أبي الحسين، فأمدّه بعسكر مع أخيه سيف الدولة علي، فلقيه بتكريت منهزماً ومعه ابن رائق، فرجع معهما سيف الدولة إلى أخيه، وخدم سيف الدولة المتقي خدمة كثيرة، ولما وصلوا إلى الموصل خرج منها ناصر الدولة فنزل شرقها، وأرسل التحف والضيافات، ولم يأت إلى المتقي خوفاً من غدر ابن رائق، فأرسل الخليفة ولده أبا منصور ومعه ابن رائق للسلام على ناصر الدولة، فصارا إليه فأمر ناصر الدولة أن ينثر الذهب والفضة على رأس ولد المتقي، وجلسا عنده ساعة، ثم قاما، وركب ابن المتقي وأراد ابن رائق أن يركب معه، فقال له ناصر الدولة: اجلس اليوم عندي حتى نفكر فيما نصنع في أمرنا هذا، فاعتذر إليه بابن المتقي وشكّ بالأمر وخاف، فقبض ابن حمدان بكّمه فجذبه ابن رائق فانقطع كّمه، وركب سريعاً فسقط عن فرسه فأمر ناصر الدولة بقتله فقتل^(٤). وأرسل إلى المتقي يبررله سبب قتل ابن رائق وأحسن القول. فأرسل المتقي إليه فاستحضره وخلع عليه ولقبه ناصر الدولة، وجعله أمير الأمراء، وخلع على أخيه أبي الحسن علي، ولقبه سيف الدولة وذلك سنة ٣٣٠^(٥). وأمر الخليفة أن تنقش أسماؤهما على الدنانير والدراهم^(٦).

ولما قتل ابن رائق أخذ جنده في الفرار عنه، ففرّ جحجج إلى المتقي، وانضمّ توزون إلى ناصر الدولة، وأنحدروا إلى بغداد، وولى ناصر الدولة ابن عمه الحسين بن سعيد

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٦٨

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٣

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧٠

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧٠

(٥) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧١

(٦) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ١٥٤

بن حمدان إمارة حلب والشغور والعواصم وكل ما يفتحه من سوريا، فتوجه إليها في أول رجب سنة ٣٣٢، ودخل الرقة بالسيف، ثم تابع إلى حلب وبها يانس بن مؤنس وأحمد بن عباس الكلبي، فهربا من بين يديه، وتبعهما إلى المعرة ثم إلى حمص، وهرب أمير حمص إسحاق بن كيغلغ من بين يديه، وملك سوريا ودانت له العرب، ثم عاد إلى حلب وأقام بها^(١).

ولما وصل المتقي وناصر الدولة إلى بغداد، هرب أبو الحسين ابن البريدي منها إلى واسط، فدخلها المتقي وبنو حمدان في جيوش كثيرة^(٢). وولى المتقي توزون على الشرطة، ثم سار إليهم أبو الحسين البريدي، فخرج بنو حمدان للقائهم وانتهوا إلى المدائن، فأقام بها ناصر الدولة، وبعث أخاه سيف الدولة، فاقتتلوا، وانهزم سيف الدولة أولاً، ثم أمده ناصر الدولة بالقواد الذين كانوا معه وجخجخ بالأتراك، وعادوا القتال فانهزم أبو الحسين إلى واسط، وأقصر سيف الدولة عن اتباعه لما أصاب أصحابه من الوهن والجراح، وعاد ناصر الدولة إلى بغداد منتصفاً ذي الحجة، ثم سار سيف الدولة إلى واسط وهرب بنو البريدي عنها إلى البصرة فملكها وأقام بها^(٣). وعاد ناصر الدولة إلى بغداد فدخلها وبين يديه الأسارى على الجمال^(٤). ونظر في المصالح العامة وأصلح معيار الدينار، وذلك أنه وجده قد غير عما كان عليه، فضرب دنانير سمّاها الأبريزية، فكان كل دينار يباع بثلاثة عشر درهماً، وإنما كان يباع من قبلها بعشرة^(٥).

وأراد سيف الدولة متابعة قتال آل البريدي حتى القضاء عليهم، فطلب المدد من أخيه ناصر الدولة، فأمدّه بمال مع أبي عبد الله الكوفي، وثار توزون وجخجخ عليه في شعبان من سنة ٣٣١، فهرب من معسكره ونهب سواده وقتل جماعة من أصحابه، وسمع ناصر الدولة بخبر أخيه في واسط، فبرز يسير إلى الموصل وحاول المتقي أن يستمّله ويردّه، فوقف قليلاً ثم أغدّ السير^(٦)، فكانت دولته في بغداد ثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام^(٧).

وتنازع الإمارة في واسط بعد سيف الدولة، كلّ من توزون وجخجخ، واستقرّ الحال أن يكون توزون أميراً وجخجخ صاحب الجيش، ثم طمع ابن البريدي في واسط وصعد إليها من البصرة، وأرسل رسولاً إلى توزون يطلب منه أن يضمّنه

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٤

(٢) - البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧١

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٤

(٤) - البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧١

(٥) - البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧١

(٦) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٦

(٧) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ١٧٣

إياها فردّه ردّاً جميلاً، وسار جخجخ لمدافعتة فمرّ به الرسول في طريقه، وحادثه طويلاً، وسعى إلى توزون بأنه لحق بابن البريدي، فأسرى إليه وكبسه وقبض عليه وجاء به إلى واسط فسمله. وبلغ الخبر إلى سيف الدولة وكان لحق بأخيه، فعاد إلى بغداد، وطلب من المتقي أن يمدّه بالمال يتقوّى به على حرب توزون، فبعث إليه بأربعمئة ألف درهم، وفرقها بين أصحابه، وظهر له من كان مستخفياً في بغداد، وجاء توزون من واسط بعد أن خلف بها كيغخ، فلما أحس به سيف الدولة رحل فيمن انضم إليه من أجناد واسط وسار إلى الموصل ولم يعاود بنو حمدان بعدها بغداد^(١)، ودخل توزون إلى بغداد وخلع عليه المتقي وجعله أميراً للأمرأ^(٢).

- ناصر الدولة أميراً على الموصل

كانت الأمور قد استقامت لناصر الدولة في الموصل، وديار ربيعة والرها وحران وسوى ذلك من الأماكن التي كانت ضمن إمارته، فضرب عملة كتب عليها عبارة «ناصر الدولة عبد آل محمد»^(٣). كدليل على أنه محبّ لآل بيت النبي «عليهم السلام». وكان توزون قد زوّج ابنته من أبي عبد الله البريدي، وصاراً يداً واحدة على المتقي، وأرسل تورون، كاتبه ابن شيرزاد على رأس جيش إلى بغداد فأفسد فيها وقطع ووصل، واستقلّ بالأمر من غير مراجعة المتقي^(٤)، فغضب المتقي وطلب من ناصر الدولة بن حمدان عسكرياً يصحبه إلى الموصل، فبعث له ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فلما وصل بغداد اختفى ابن شيرزاد، وخرج المتقي إليهم بأهله وأولاده ووزيره ومن اتبعه من الأمرأ، وساروا إلى تكريت، وظهر ابن شيرزاد في بغداد من جديد، فصادر أهلها وظلمهم، وأرسل إلى توزون في واسط بخبر المتقي، فعقد ضمان واسط على أبي عبد الله بن البريدي وزوجه ابنته، وسار إلى بغداد^(٥).

وجاء سيف الدولة إلى المتقي بتكريت، ثم بعث المتقي إلى ناصر الدولة يستحثه، فوصل إليه في ربيع الآخر، وركب المتقي من تكريت إلى الموصل، وأقام ناصر الدولة بتكريت، وسار توزون لقتاله، فتقدم إليه أخوه سيف الدولة، فاقتتلوا أياماً، ثم انهزم سيف الدولة، وغنم توزون سواده وسواد أخيه، ولحقوا بالموصل، وتوزون

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٦

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ١٧٣

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ١٧٣

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ٧٥

(٥) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٧

في اتباعهم، ثم ساروا عنها مع المتقي إلى نصيبين^(١). وجاء توزون فدخل الموصل، وأرسل إلى الخليفة يطلب رضاه، فأرسل إليه الخليفة يقول: لا سبيل إلى ذلك إلا بمصالحة بني حمدان، فاصطلحوا، وضمن ناصر الدولة بلاد الموصل بثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف «ثلاثة ملايين وستمئة ألف» ورجع توزون إلى بغداد، وأقام المتقي عند بني حمدان^(٢). ولم يزل عندهم من شهر ربيع الأول سنة ٣٣٢ إلى آخر السنة، ثم أنس منهم الضجر، فكتب إلى توزون في الصلح، وكتب إلى الأخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يستمدّه، فجاءه وانتهى إلى حلب وبها أبو عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، فارتحل عنها^(٣). فملكها الأخشيد وسار من حلب ولقي المتقي بالرقّة، وطلب منه أن يسير معه إلى مصر ليقوم خلافته هنالك، فأبى وخوفه من توزون فلم يقبل^(٤)، وانتظر المتقي عودة رسله إلى توزون، فعادوا ومعهم يمين توزون والوزير ابن شيرزاد بمحضر القضاة والعدول والعباسيين والعلويين وغيرهم من طبقات الناس، وجاء الكتاب بخطوطهم بذلك وتأكيد اليمين، ففارق المتقي الأخشيد وانحدر من وقته في الفرات آخر المحرم سنة ٣٣٣، فلقاه توزون وقبّل الأرض وقال: (قد وفيت بيمني)، وحبسه مع أصحابه، ومن ثم سملّه*، وأحضر أبا القاسم عبد الله بن المكتفي فبايعه الناس ولقب «المستكفي» وجمي بالمتقي فبايعه وأخذت منه البردة والقضيب، ومن ثم خلع المستكفي على توزون وتوجه وحبس المتقي^(٥).

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٠٧

(٢) البداية والنهاية ابن كثير - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧٥

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٠
* سملّه، «أحرق عينيه وأعماه»

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٠

(٥) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١١

الفصل الثاني

الحمدانيون وبنو بويه

١- نشأة دولة بني بويه

كان أبو شجاع بويه أحد رجالات الدولة التي بناها الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن عمر بن علي زين العابدين، الذي يُدعى «الأطروش» في بلاد الديلم في مطلع القرن الرابع، وشملت تلك الدولة: طبرستان وجرجان وأمد وسارية واستراباذ.

وقد رزق أبو شجاع بثلاثة أولاد هم: «عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد» وهم ينتسبون إلى الأسرة الساسانية التي أسست الدولة الفارسية الثانية.

وكان للأطروش مجموعة من القادة هم: «ماكان بن كالي، وليلى بن النعمان، وأسفار بن شيرويه، ومرداويج بن زيار». وكان بنو بويه من جملة قواد «ماكان بن كالي»، فلما وقع بينه وبين مرداويج فتنة وخلاف، غلب مرداويج على طبرستان وجرجان، فترك بنو بويه ماكان بن كالي وذهبوا إلى مرداويج لتخف عن ماكان مؤنتهم، وفي نيتهم العودة إليه، وفرح مرداويج بقدمهم وأكرمهم، وولى علي بن بويه على الكرج وكان أكبر أخوته، ولما وصل إليها استقام أمره، وفتح قلاعاً للخرمية ظفر منها بدخائر كثيرة واستمال الرجال، وعظم أمره وأحبه الناس^(١)، وابتدأت بذلك دولة بني بويه.

وكان معز الدولة أحمد قد ملك الأهواز، فكتبه البريدي ليملكه العراق كله، ووعدته بالمدد والمساعدة، فلما تقدم معز الدولة إلى واسط، أخلف البريدي في وعده، وانحدرتوزون من بغداد إليه فالتقاه في منتصف ذي القعدة سنة ٣٣٢، فانهزم معز الدولة ولحق بالسوس، وولى توزون على واسط «ينال كوشه».

وبعد موت توزون في المحرم سنة ٣٣٤، أصبح ابن شيرزاد أمير الأمراء مكانه، وانحرف ينال كوشة عنه، وكتب معز الدولة، وقام بدعوته في واسط واستدعاه لملك بغداد، فزحف في عساكر الديلم إليها. ولما سمع بذلك ابن

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٨٣

شيرزاد هرب ومعه الأتراك إلى ابن حمدان نحو الموصل واختفى المستكفي^(١). وعندما قرب من بغداد أرسل له المستكفي الهدايا والتقدمات، وقال للرسول: أخبره أنني مسرور به، وأني إنما اختفيت من شر الأتراك الذين انصرفوا إلى الموصل، وبعث إليه بالخلع، ودخل معز الدولة بغداد في جمادى الأولى من تلك السنة، ونزل بباب الشمامسة، ودخل من الغد إلى المستكفي وبايعه، فلقبه المستكفي معز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن علي عماد الدولة، ولقب أخاه أبا علي الحسن ركن الدولة، وكتب أسماءهم على الدنانير والدرهم. وأمن معز الدولة ابن شيرزاد، ورتب للخليفة بسبب نفقاته خمسة آلاف درهم في كل يوم، واستقرت الأمور^(٢).

٢- العلاقة بين ناصر الدولة بن حمدان ومعز الدولة بن بويه

رغم التلاقي المذهبي بين البويهيين والحمدانيين، لكن المصالح الدنيوية فرقت بينهما، وكان المستكفي قد سعى في إقامة شخص آخر في منصب الوزارة مكان معز الدولة، فعرف به، ودبر له مكيدة حيث أجلسه في يوم مشهود لحضور رسول من صاحب خراسان، وحضر هو وقومه وعشيرته، وأمر رجلين من نقباء الديلم جاءا ليقبلا يد المستكفي، ثم جذباه عن سريره وساقاه ماشياً، وركب معز الدولة وجاء به إلى داره واعتقله، وولى مكانه أبا القاسم الفضل بن المقتدر، ولقب المطيع لله^(٣).

وبلغ خبر خلع المستكفي إلى ناصر الدولة بن حمدان، فشق ذلك عليه، وسار من الموصل إلى بغداد وانتهى إلى سامرا في شعبان سنة ٣٣٤، وأرسل ينال كوشة على رأس جيش إلى بغداد، فبرز إليه معز الدولة وهزمه، ومن ثم أقبل ناصر الدولة، فخرج معز الدولة من بغداد ومعه المطيع، وسار إلى تكريت وكانت من أملاك ناصر الدولة فنهباها، ثم عاد معز الدولة والمطيع فنزلوا بالجانب الغربي من بغداد، وقاتلوا ناصر الدولة بالجانب الشرقي وطلب ناصر الدولة من العرب أن يقطعوا الميرة والطعام عن معز الدولة فغلت الأسعار وعزّت الأقوات، ومنع ناصر الدولة من الخطبة للمطيع، والمعاملة بعملته، ودعا للمتقي، وبيّت معز الدولة مراراً، فضاق الأمر به، واعتزم ترك بغداد والعود إلى الأهواز^(٤). ثم أظهر الرحيل ذات ليلة، وأمروزيه أبا جعفر

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٢

(٢) البداية والنهاية ابن كثير - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٧٨

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٣

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٥

الصهيري بالعبور في أكثر العساكر، وأقام مكانه، وجاء ينال شوكة لقتاله فانهمزم واضطرب عسكر ناصر الدولة وأجفلوا، وغنم الديلم أموالهم، ثم أمّن معز الدولة الناس وعاد المطيع إلى داره في محرم سنة ٣٣٥^(١). وانتفض أبو القاسم البريدي في البصرة فسار معز الدولة إليه بالعساكر، ولما قرب منها استأمن إليه عساكر البريدي، وفرّ هو إلى القرامطة فملك معز الدولة البصرة، وعاد إلى بغداد والمطيع معه، وأراد السير إلى الموصل لكن ناصر الدولة أرسل له في الصلح وحمل المال فتركه^(٢).

ثم أن ناصر الدولة أعلن استقلاله سنة ٣٣٧، فسار إليه معز الدولة ودخل الموصل، ورحل ناصر الدولة إلى نصيبين، وظلم معز الدولة أهل الموصل وتعامل معهم بقسوة، ثم بعث إليه أخوه ركن الدولة بأصبهان بأن عسكر خراسان قصد جرجان والري، وطلب منه المسير إليه، فاضطر معز الدولة إلى صلح ناصر الدولة عن الموصل والجزيرة وما ملكه سيف الدولة من الشام دمشق وحلب على ثمانية آلاف ألف درهم «٨ ملايين درهم» وأن يخطب لعماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة بني بويه، واستقرّ الصلح على ذلك وعاد إلى بغداد^(٣). واستمر الصلح واستقرّ الحال حتى سنة ٣٤٦ عندما تأخر ناصر الدولة في إرسال الأموال إلى بغداد، فتجهز معز الدولة لقصد الموصل وقتال ناصر الدولة وبني حمدان، فرأسله ناصر الدولة والترم له بدفع المال، فسكت عنه^(٤). ورغم ذلك عاد معز الدولة في السنة التالية، وسار إلى الموصل في جمادى ومعه وزيره المهلب، فاستولى عليها ولحق ناصر الدولة بنصيبين ومعه كتابه وجميع أصحابه وحاشيته، وأنزلهم في قلعة كواشي وغيرها، وأمر العرب بقطع الميرة عن الموصل، فضاقت الأقوات على عسكر معز الدولة، فسار عن الموصل إلى نصيبين، واستخلف عليها سبكتكين الحاجب الكبير، وبلغه في طريقه أن أولاد ناصر الدولة بسنجار* في

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٥

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٦

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٦

(٤) البداية والنهاية - ابن كثير - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٩٥

* يقول ابن شداد، قال ابن الكلبي: وسنجار، وهيت، وأمد، أسماء أولاد البلندي بن مالك بن ذعر بن يوبيب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم، نزلوا هذه الأماكن فعرفت بهم ونسبت إليهم، وذكر ابن حوقل سنجار فقال: مدينة في وسط البرية. في سفح جبل لها أنهار جارية، وعيون مطردة، ومباحس، وإسقاء، وضياح، وعليها سور من الحجر والكلس منيع. ويقول ابن شداد، قال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: حدثني محمد بن الفضل الموصلي عن مشايخ من أهل سنجار، كانت سنجار في أيدي الروم فاتفق أن كسرى ابرويز أراد قتل مائة رجل من الفرس كانوا حملوا إليه بسبب خلاف ومعصية، فكلم فيهم، فأمر أن يوجهوا إلى سنجار وهو يومئذ يعاني فتحها، فمات منهم في الطريق رجالان، ووصل إليها ثمانية وتسعون رجلاً فصادفوا المسلمين عليها محاصرين لها، فقتلوا على ناحية منها وقتلوا، ففتحوها دون المسلمين وتحصنوا بها، فلما انصرف عياض بن غنم من خلاط وصار إلى الجزيرة بعث إلى سنجار ففتحها صلحاً وأسكنها قومًا من العرب - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ١٥٩

عسكر، فبعث عسكرًا فكبسوهم واشتغلوا بالنهب، فعاد إليهم أولاد ناصر الدولة وهم غارون فكبسوهم وقتلوا معظمهم وأسروا الباقين، وسار ناصر الدولة عن نصيبين إلى ميفارقين، ورجع أصحابه إلى معز الدولة مستأمنين، وسار هو إلى أخيه سيف الدولة في حلب، فتلقاه وأكرمه، وتراسلوا مع معز الدولة في الصلح على ألفي ألف درهم وتسعمئة ألف درهم، «مليونان وتسعمئة ألف» وإطلاق من أسربسنجار، وأن يكون ذلك في ضمان سيف الدولة فتمّ بينهما، وعاد معز الدولة إلى بغداد في محرم سنة ٣٤٨^(١)، ومرض معز الدولة في سنة ٣٥٠، وعهد بالسلطنة إلى ولده عز الدولة بختيار، وتوفي سنة ٣٥٦^(٢).

٣ - القبض على ناصر الدولة ونهاية دولة بني حمدان في الموصل

كان لناصر الدولة زيجات متعددة ورزق بأولاد، على رأسهم حمدان وهو الولد البكر، كما كان له الحسين وإبراهيم، وهبة الله وأبو الفوارس محمد، وله أيضًا أبو تغلب وأبو البركات وابنة اسمها جميلة، وكان هؤلاء الأخيرون من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية. وقد أقطع ناصر الدولة ولده الأكبر حمدان الذي كان يحبه، مدينة الرحبة، وماردين، وما بينهما من البلاد، فحسده أخوته من فاطمة الكردية التي كانت تشجعهم وتشير حقدهم على أبيهم، وكانت هذه، كما يقول ابن الأثير، مالكة أمر ناصر الدولة^(٣). لأنه كان يحبها.

وكان لدى ناصر الدولة نفس غضبية، وقد ساءت أخلاقه عندما كبر، وقام بالتضييق على أولاده وخالفهم في أغراضهم، ومما خالفهم، كما يقول ابن الأثير، أنه لما مات معز الدولة، عزم أبو تغلب وأخوه أبو البركات على قصد بغداد وأخذها من عز الدولة بختيار، فنهاهما أبوهما وقال لهما: «إن معز الدولة قد خلف ما لا يستظهر به ابنه عليكم، فاصبروا حتى يتفرق ما عنده من المال، ثم اقصوده وفرقوا الأموال فإنكم تظفرون به لا محالة»^(٤). فاتفقت زوجته فاطمة مع ابنها أبي تغلب على الوقعة بأبيه، فقبض عليه أبو تغلب ووضعه في قلعة الموصل، ووكل به من يخدمه، ويقوم بجاجاته وما يحتاج إليه. وراح ناصر الدولة يدبر في القبض عليهم، وكتب ابنه حمدان

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٨

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥١٩

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣١١

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣٠١

يستدعيه ليتقوى به عليهم، فوقع كتابه في يد أولاده الموجودين معه، فخافوه وحذره، وحملهم خوفهم على نقله إلى قلعة كواشي، سنة ٣٥٨. وعرف حمدان بذلك فعظم عليه، وصار عدواً لأخوته، وكان أشجعهم، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها، وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه، وطالب أخوته بالإفراج عن والده، وإعادته إلى منزله. فسار إليه أبو تغلب ليحاربه، فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فنازله أبو تغلب وحصره، ثم اصطلحا، وعاد كل واحد منهما إلى موضعه.

وعاش ناصر الدولة شهوراً ومات في ربيع الأول سنة ٣٥٨ ودفن بتل توبة شرق الموصل، وقبض أبو تغلب أملاك أخيه حمدان، وسير أخاه أبا البركات إلى حمدان، فلما قرب من الرحبة استأمن إليه كثير من أصحاب حمدان فانهزم حينئذٍ وقصد العراق مستأمناً إلى بختيار، فوصل بغداد في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فأكرمه بختيار وعظمه وحمل إليه هدايا كثيرة جليلة المقدار، ومعها كل ما يحتاج إلى مثله، وأرسل إلى أبي تغلب النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي في الصلح مع أخيه، فاصطلحا وعاد حمدان إلى الرحبة، وكان مسيره من بغداد في جمادى الأولى سنة ٣٥٩، فلما سمع أبو البركات بمسير أخيه حمدان فارق الرحبة، ودخلها حمدان، وراسله أخوه أبو تغلب في الاجتماع، فامتنع من ذلك، فعاد أبو تغلب وسير أخاه أبا البركات، فلما علم حمدان بذلك فارقها فاستولى أبو البركات عليها واستناب بها من يحفظها في طائفة من الجيش، وعاد إلى الرقة، ومنها إلى عريان في أرض الجزيرة^(١). فلما سمع حمدان بعوده عنها وكان ببرية تدمر، عاد إليها في شعبان، فوافاها ليلاً، فصعد بعض غلمانه السور، وفتحوا له باب البلد، فدخله ولا يعلم من به من الجند، وأمر بضرب البوق، فبادر من في المدينة من الجند متقطعين يظنون أن صوت البوق من الخارج، وكل من وصل إلى حمدان أسره حتى أخذهم جميعهم فقتل بعضهم واستبقى بعضاً^(٢). فلما سمع أبو البركات بذلك عاد إلى قرقيسيا، واجتمع هو وأخوه حمدان منفردين، فلم يستقر بينهما قاعدة فقال أبو البركات لحمدان: «أنا أعود إلى عريان، وأرسل إلى أبي تغلب لعله يجيب إلى ما تلتمسه منه. فسار عائداً إلى عريان، وعبر حمدان الفرات، وسار في أثر أخيه أبي البركات، فأدركه بعريان، وهو آمن، فلقيهم أبو البركات بلا سلاح ولا حراسة، فقاتلهم واشتد القتال بينهم، وحمل أبو البركات بنفسه في وسطهم، فضربه أخوه حمدان فألقاه، وأخذه أسيراً، فمات من يومه، وهو ثالث رمضان، وحمل في تابوت

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٢

إلى الموصل ودفن بتل توبة عند أبيه^(١).

وجهز أبو تغلب ليسير إلى حمدان، وقدم بين يديه أخاه أبا الفوارس محمدًا إلى نصيبين، فلما وصلها كاتب أخاه حمدان وقال له إني معك، وقد كان يحبه، وسمع به أبو تغلب، فأرسل إليه يستدعيه بدعوى أنه سيزيد في إقطاعه، فلما جاءه قبض عليه ووضعه في قلعة كواشي، وأخذ أمواله، وكانت قيمتها خمسمئة ألف دينار^(٢). فلما قبض عليه خاف أخواه الحسين وإبراهيم منه وكانا معه في الموصل، فهربا إلى أخيهما حمدان في الرحبة، وسار الجميع إلى سنجار، فسار أبو تغلب بجيشه إليهم من الموصل، في شهر رمضان سنة ٣٦٠، ولم يكن لهم بلقائه طاقة، فراسله أخواه إبراهيم والحسين، فأراد القبض عليهما فخافا وهربا، كما أن «نما» غلام حمدان ونائبه في الرحبة، أخذ جميع ماله بها، وهرب إلى أصحاب أبي تغلب بجران، وكانوا مع صاحبه سلامة البرقيدي، فاضطر حمدان إلى العود إلى الرحبة، وسار أبو تغلب إلى قرقيسيا وأرسل سرية عبروا الفرات، وكبسوا حمدان بالرحبة، وهو لا يشعر، فنجأ هاربًا، واستولى أبو تغلب عليها، وعمر سورها، وعاد إلى الموصل ودخلها في ذي الحجة سنة ٣٦٠، وسار حمدان إلى بغداد فدخلها ملتجئًا إلى بختيار ومستنجدًا به، ومعه أخوه إبراهيم، وكان أخوهما الحسين قد عاد إلى أخيه أبي تغلب مستأمنًا، وحمل بختيار إلى حمدان وأخيه إبراهيم هدايا جليلة كثيرة المقدار، وأكرمهما واحترمهما^(٣). ووعدهما بالمساعدة والنصرة، ولما فرغ من بعض القضايا التي كانت تشغله، سار بجيشه سنة ٣٦٣ إلى الموصل ليستولي عليها، ولما قرب منها غادرها أبو تغلب نحو سنجار بعد أن أخلاها من كل ميرة وطعام وعلف، ومن ثم رحل من سنجار نحو بغداد، ولما سمع بختيار بذلك أعاد وزيره ابن بقية وحاجبه سبكتكين إلى بغداد، فدخل ابن بقية إليها، وأقام سبكتكين في منطقة تدعى «حربي»، ولما سمع أبو تغلب بذلك أحجم عن دخول بغداد ونزل بالقرب من سبكتكين، وحدث بينهما قتال خفيف، ومن ثم جرت بينهما مراسلات واتفقا في النهاية على أن يُظهرا الاختلاف حتى يتمكنوا من القبض على الخليفة وعلى الوزير والدة بختيار وأهله، فإذا فعلوا ذلك انتقل سبكتكين إلى بغداد، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ليبلغ من بختيار ما أراد ويملك دولته^(٤). وخاف سبكتكين من عواقب الأمور فتوقف، وسار الوزير ابن بقية إلى سبكتكين فاجتمع به، وانفسخ ما

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٢

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٠

كان بين سبكتكين وأبي تغلب، وتراسلوا في الصلح على أن أبا تغلب يضمن البلاد إلا ما كان معه، وعلى أن يرد على أخيه حمدان أملاكه وإقطاعه إلا ماردین، ولما اصطالحوا راسلوا بختيار بذلك، ليرحل عن الموصل^(١). وعاد أبو تغلب إليها ولما سمع بختيار بقربه منها، خافه لأن عسكره كان قد عاد أكثره مع سبكتكين، وجمع بختيار أصحابه وتحصن بالدير الأعلى ونزل أبو تغلب بالحصباء تحت الموصل وبينهما عرض البلد، وتعصّب أهل الموصل لأبي تغلب، وأظهروا محبته لما نالهم من بختيار من المصادرات. ودخل الناس بينهما في الصلح، وطلب أبو تغلب من بختيار أن يلقب لقباً سلطانياً، وأن يحطّ عنه بعض الالتزامات، فأجابه بختيار خوفاً منه وتحالفاً، وسار عن الموصل عائداً إلى بغداد، وبينما هو في الطريق بلغه أن أبا تغلب قد قتل قوماً كانوا من أصحابه، وقد استأمنوا إلى بختيار، فلما بلغه ذلك اشتدّ عليه، وأقام بمكانه، وأرسل إلى الوزير أبي طاهر بن بقية، والحاجب سبكتكين يأمرهما بالمجيء إليه في العساكر، فعادوا جميعهم إلى الموصل. ففارقها أبو تغلب، وعزم عزالدولة على قصده وطلبه أين سلك، وأرسل أبو تغلب كاتبه وصاحبه أبا الحسن علي بن عمرو إلى عزالدولة، وما زالت المراسلات بينهما، وحلف أبو تغلب أنه لم يقتل أولئك، فعاد الصلح واستقرّ وحمل إليه ما استقرّ من المال، فأرسل عزالدولة الشريف أبا أحمد الموسوي، والقاضي أبا بكر محمد بن عبد الرحمن، فحلّفاً أبا تغلب وتجدد الصلح، وانحدر عزالدولة عن الموصل، وعاد أبو تغلب إلى بلده^(٢). واستقرّت أحوال أبي تغلب قليلاً، وفي سنة ٣٦٧ استولى عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة على العراق وفرّ ابن عمه عزالدولة بختيار من أمامه وعزم على قصد سوريا، لكن حمدان بن ناصر الدولة حسن له قصد الموصل، وكثرة أموالها وأطمعه فيها، فسار بختيار نحو الموصل، فلما وصل إلى تكريت جاءته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه إليه، وإذا فعل سار بنفسه وعساكره إليه، وقاتل معه عضد الدولة وأعادته إلى ملكه بغداد، فقبض بختيار على حمدان وسلمه إلى نواب أبي تغلب، فحبسه في قلعة له^(٣). وسار بختيار إلى الحديثة واجتمع مع أبي تغلب وساراً جميعاً نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحو من عشرين ألف مقاتل، وبلغ ذلك عضد الدولة، فسار من بغداد نحوهما فالتقوا بقصر الجص بنواحي تكريت ثامن عشر شوال فهزمهما، وأسر بختيار، وأحضر عند عضد الدولة فلم يأذن بإدخاله إليه، وأمر بقتله فقتل، وقتل من أصحابه

(١) - الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤١

(٢) - الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤١

(٣) - الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٧٨

خلق كثير، واستقر ملك عضد الدولة في العراق^(١).

وسار عضد الدولة نحو الموصل فملكها ثاني عشر ذي القعدة، وما يتصل بها، وظن أبو تغلب أن عضد الدولة يفعل كما كان غيره يفعل، يقيم يسيراً ثم يضطر إلى المصالحة ويعود، لكنه كان، كما يقول ابن الأثير، أحزم من ذلك، فقد حمل معه الميرة والعلوفات، وأقام بالموصل مطمئناً وبث السرايا في طلب أبي تغلب، فأرسل أبو تغلب يطلب أن يضمن البلاد فلم يجبه عضد الدولة إلى ذلك وقال: «هذه البلاد أحب إلي من العراق»^(٢).

وسار أبو تغلب إلى نصيبين، فسير عضد الدولة سرية عليها حاجبه أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمر، وسير في طلب أبي تغلب سرية بقيادة أبي الوفاء طاهر بن محمد على طريق سنجار، فسار أبو تغلب فبلغ ميفارقين، وأقام بها ومعه أهله، فلما بلغه مسير أبي الوفاء إليه سار نحو بدليس، ووصل أبو الوفاء إلى ميفارقين، فأغلقت دونه، وهي حصينة منيعة من حصون الروم القديمة، فتركها وطلب أبا تغلب، وكان هذا قد عدل من أرزن الروم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها، ولما بلغ عضد الدولة ذلك، سار إليه بنفسه فلم يدركه، ولكن استأمن إليه أكثر أصحابه، وعاد إلى الموصل وأرسل في أثر أبي تغلب عسكرياً مع قائد من أصحابه يقال له، طغان، فهرب أبو تغلب إلى بدليس، فتبعه طغان، فقصد بلاد الروم، وهو في الطريق أدركه عسكري عضد الدولة وهم حريصون على أخذ ما معه من المال، فلما وقعوا عليه نادى أميرهم، لا تعرضوا لهذا المال فهو لعضد الدولة ففوتروا عن القتال، فلما رآهم أبو تغلب هجم عليهم، فانهزموا فقتل منهم مقتلة عظيمة، ونجا منهم، فنزل بحصن خرتبرت، وانتقل منه إلى حصن آمد^(٣). وكان أبو الوفاء قد فتح قلعة ميفارقين وبث سراياه في الحصون المجاورة فأخذها جميعها، ولما سمع أبو تغلب بذلك سار عن آمد نحو الرحبة هو وأخته جميلة، وأمر بعض أهله بالاستئمان إلى أبي الوفاء ففعلوا.

ثم أن أبا الوفاء سار إلى آمد وحصرها، فسلمها أهلها له، فاستولى أبو الوفاء على سائر ديار بكر، وقصده أصحاب أبي تغلب وأهله مستأمنين إليه، فأمنهم وأحسن إليهم وعاد إلى الموصل، وأنفذ أبو تغلب من الرحبة رسولاً إلى عضد الدولة يستعطفه، ويسأله الصفح، فأحسن جواب الرسول وبذل له إقطاعاً يرضيه، على أن يطاء بساطه، فخاف أبو تغلب من سوء العاقبة،

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٧٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٧٩

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٧٩

فلم يجبه ^(١). وخرج في سنة ٣٦٨ من بلاد الجزيرة إلى الشام فقتل على الرملة
بفلسطين في حرب كانت بينه وبين دغفل بن المفرج بن الجراح ^(٢).
وانتهت بذلك دولة بني حمدان في الموصل.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣٨١

(٢) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣٨

الفصل الثالث

دولة الحمدانيين في حلب

١- سيف الدولة والولاية على سوريا

بعد أن عاد محمد بن طغج الأخشيد إلى مصر، ولّى ناصر الدولة أخاه سيف الدولة على حلب. فتوجه إليها ولما علم أبو الفتح الكلّابي وإخوته بذلك، قرروا جميعهم التوجه إلى لقائه، فوصلوا إلى ضفة الفرات وجلسوا ينتظرون قدومه، فلما عبر الفرات أكرم أبا الفتح دون أخوته، وأركبه معه في الهودج، ودخل سيف الدولة حلب يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٣^(١). وما أن استقرّ في حلب حتى بدأ الصراع بينه وبين الأخشيد الذي كان يعتبر نفسه والياً على مصر وسوريا. وأرسل الأخشيد جيشاً بقيادة مولاه كافور إلى سوريا، وكان الأمير سيف الدولة غازياً في بلاد الروم^(٢). فلما علم به عاد إلى حلب، والتقاء عند الرستن، حيث دارت رعى معركة كبيرة انهزم فيها كافور وأسر سيف الدولة من جيشه نحو أربعة آلاف فيهم الكثير من الأمراء^(٣). ولكنه منّ عليهم وأطلقهم، وسار إلى حمص فامتلكها، ومن ثم سار إلى دمشق فحصرها فلم يفتحها أهلها له، كما يقول ابن الأثير، فرجع^(٤). أما ابن العديم فيقول، إنه دخلها سنة ٣٣٣، ثم خرج منها لقتال الأعراب، فلما عاد إليها منعه أهلها من دخولها^(٥).

وتبدو رواية ابن الأثير أقرب إلى الصواب، لأنه لو دخل سيف الدولة إلى دمشق وملكها لكانت استقرت حاله بها، لكن يبدو أنه كان في هذه المدينة حامية أخشيدية، فطلبوا العون من الأخشيد في مصر، وجاءت الأخبار إلى سيف الدولة بنهوض الأخشيد بجيشه نحوه، ففك الحصار وعاد إلى حلب، فتبعه الأخشيد، كما يقول ابن العديم، ف وقعت بين الطرفين معركة كبيرة بأرض قنسرين جنوب حلب في شوال سنة ٣٣٣، انهزم فيها سيف الدولة وسار إلى الجزيرة ودخل الرقة، أما الأخشيد فأكمل إلى حلب ودخلها، وبالع

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ٢٠٣

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

عسكره في أذى أهلها لميلهم إلى سيف الدولة^(١).

ورغم أن الأخشيد انتصر لكنه أرسل في طلب الصلح، وترددت الرسل بينه وبين سيف الدولة واستقر الأمر على أن يتنازل الأخشيد عن حلب وحمص وأنطاكية لسيف الدولة، كما قرر عن دمشق ما لا يحمله إليه في كل سنة^(٢). وانتظم هذا الاتفاق في شهر ربيع أول سنة ٣٣٤، وسار الأخشيد إلى دمشق، وعاد سيف الدولة إلى حلب.

وتوفي الأخشيد في دمشق، وتولى الملك بعده ولده أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً، فاستولى على الأمر كافور الخادم الأسود، وغلب أبا القاسم واستضعفه، وحكم عليه^(٣). وسار كافور بالعساكر إلى مصر وترك دمشق خالية، فعرف سيف الدولة بذلك فسار إليها وملكها، وأراد أن يتخذها مقراً لملكه، فاستدعى أهله ووالدته «نعم»^(٤). لكن لم يهنأ لسيف الدولة المقام في هذه المدينة. حيث يذكر المؤرخون مثل ابن الأثير وابن كثير وابن العديم، أن سيف الدولة كان يسير يوماً هو والشريف العقيقي بنواحي دمشق، فقال سيف الدولة، ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد، فقال له العقيقي: «هي لأقوام كثيرة»، فقال سيف الدولة: «لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأون منها». فأسرّها العقيقي* في نفسه، وأعلم أهل دمشق بذلك، فكتبوا كافوراً يستدعونه سنة ست وثلاثين وثلاثمائة^(٥). فجاء مسرعاً إليهم بجيشه ومعه أنوجور بن الأخشيد، ولما علم سيف الدولة بذلك سار بجيشه للقائهم، فالتقاهم في منطقة «اللبجون» بين جنين وحيفا، وكانت الغلبة لكافور، وولى سيف الدولة منهزماً إلى دمشق، وأخذ والدته وأهله وسار نحو حمص، وهناك جمع جمعاً كبيراً من بني عقيل وبني نمير وبني

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٩

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - المجلد السابع - ص ٢١٢

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٠

* لعب الشريف العقيقي العباسي دوراً رئيسياً في منع سيف الدولة من امتلاك دمشق، ورغم أن رواية الترك، مثل ابن الأثير وابن كثير وابن العديم وغيرهم، يزعمون أن أهل دمشق كتبوا إلى كافور إلا أن الحقيقة هي أن العقيقي هو الذي كتب بيده، لأنه كان يعلم أن سيف الدولة هو أمير عربي قوي وأنه إذا أخذ دمشق سوف تتوسع دولته وقد يقضي على خلافة العباسيين في بغداد، لذلك أثار أن يحكم كافور دمشق، فأرسل إليه واستنجد به باسم خليفة بغداد. ولاشك أن الذي وضع رواية المحاورة بين سيف الدولة والعقيقي، تقصّد من خلالها الإساءة إلى سيف الدولة، وإلى أهل دمشق معاً، فأما الإساءة إلى سيف الدولة فمن خلال إظهار أنه كان متعسفاً جباراً لا يرحم، وأما الإساءة إلى أهل دمشق فمن خلال إظهار أنهم فضّلوا كافور مملوك الأخشيديين على سيف الدولة.

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٢١٢، نفس الرواية موجودة في البداية والنهاية - المجلد السادس - ج ١١ - ص ١٨٠، وموجودة أيضاً عند ابن العديم ص ٧٠، لكن هذا الأخير يسمي الشريف، باسم، الشريف العقيقي، وليس العقيقي، والصحيح هو كما ذكره ابن العديم. «العقيقي».

كلب وبني كلاب، وخرج نحو دمشق، والتقى عساكر كافور وأنوجور في منطقة عدرا، وكانت الغلبة لسيف الدولة أولاً، ومن ثم انهزم في النهاية، وتقطع جيشه في ذلك البلد فهلكوا، وتبعوه إلى حلب، فعبّر إلى الرقة^(١). وكان معه يأنس المؤنسي فتركه وسار إلى أنطاكية^(٢).

ووصل ابن الأخشيد إلى حلب في ذي الحجة سنة ٣٣٥*، وأقام بها وسيف الدولة في الرقة، وراسل أنوجور يأنس المؤنسي وهو بأنطاكية، وضمن له هو وكافور أن يجعله بحلب بمقابلة سيف الدولة وضمن لهم يأنس بأن يقوم في وجه سيف الدولة بحلب، وأن يعطيهم رهينة على ذلك فأجابوه^(٣). وانصرف كافور وأنوجور عن حلب، ولم يقيم يأنس بحلب إلا شهراً حتى أسرى إليه سيف الدولة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٦، فكبسه فانهزم يأنس إلى سرمين^(٤). فأرسل إليه سيف الدولة سرية بقيادة إبراهيم بن البارد العقيلي، فانهزم إلى أخيه بميفارقين^(٥). واستقر سيف الدولة بحلب وترددت الرسل بينه وبين كافور على القاعدة التي كانت بينه وبين محمد بن طغج الأخشيد، دون المال المحمول عن دمشق.

وهكذا انقسمت سوريا إلى قسمين: شمالي مقره حلب بيد سيف الدولة، وجنوبي مقره دمشق بيد كافور مولى الأخشيد.

٢- حلب وسيف الدولة

كانت حلب قبل سيف الدولة ولاية من ولايات الدولة العباسية، يعين عليها الخلفاء الولاة، فلما دخلها سيف الدولة اتجه لجعلها دولة مستقلة وذلك على الرغم من أنه أقام الخطبة فيها للخليفة العباسي، فشرع يتوسع في سوريا ويأخذ المدن والقرى والخليفة عاجز عن الحد من نفوذه وليس له إلا أن يبارك خطواته ويبعث إليه بالخلع حتى يظل على ولائه^(٦). حتى أصبحت مملكة حلب الجديدة واسعة الأرجاء تنتهي، كما يقول ابن الشحنة، من الجنوب عند حمص، وكانت حماة مضافة إليها، ومن جهة الشرق تنتهي حدودها عند نهر الفرات، وتمتد إلى الصحراء، ومن جهة الشمال إلى دروب الروم، ومن جهة الغرب إلى البحر الرومي «البحر الأبيض المتوسط» ثم تنتهي إلى جبلة واللاذقية. وينقل ابن الشحنة

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧١

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧١

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧١

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧١

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧١

(٦) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٣٤

قولاً لابن شداد في حدود حلب فيقول: «ولها من البلاد بالس * وقلعة نجم وتسمى جسر منبج * وخناصرة * ورصافة هشام * وحيار بني القعقاع * وقنسرين * وحاضر قنسرين * وسرمين * ومعرة مصرين * والشعر * وبكاس * وحارم * وشيخ الحديد * ودريساك * واعزاز * وكيسوم *، والرواندان *، وخروص، وبهسنى *»^(١).

(١) الدر المنجب في تاريخ حلب مملكة حلب- قاضي القضاة محمد بن الشحنة - ص ١٥٩
* بالس - مدينة قديمة على شاطئ الفرات تحمل منها التجارات التي ترد من مصر وسائر أرض الشام في السفن إلى بغداد- ابن الشحنة - ص ١٥٩

* قلعة نجم، كانت قديماً تعرف بجسر منبج وهي على شاطئ الفرات والجسر في ذيلها، ولم تزل بلدة صغيرة في صدر الإسلام إلى أن عمرها نجم غلام حي الصفواني بعد الثلاثمائة تقريباً، وهي قلعة حسنة لها ظاهر باهر الطرف، قاصر عنه الوصف، ملكها بنو حمدان ثم بنو مرداس ثم كانت لبني نمير. ابن الشحنة - ص ٢٣٠
* خناصرة - كانت بلدة قديمة ولها حصن بناؤه بالحجر الأسود الصلد على سيف البرية وهي من كورة الأحص وبلاد بني أسد، وكان عمر بن عبد العزيز قد تدبرها، وسميت باسم بانها خناصرة بن عمرو بن الحارث، وقيل بانها أبو سمر بن جبلة بن الحارث، وقيل بانها الخناصر بن عمرو بن خليفة الأشرم صاحب الفيل - ابن الشحنة ص ١٦١
* رصافة هشام، بلدة منيعة لأنها في بركة لا ماء عندها ولها سور من الحجر وفي داخلها مصنع كثير الماء من المطر يشرب منه أهلها. وكانت مدينة رومية بنها الروم في قديم الزمان ثم خربت، وكان الخلفاء وأبنائهم يهربون من الطاعون فينزلون البرية، فعزم هشام بن عبد الملك على نزول الرصافة فقليل له لا تخرج الخلفاء لا يطعنون (لا يصيبهم الطاعون)، فقال، أتريدون أن تجربوا في، فخرج إلى الرصافة وبنائها واتخذها داراً لقامته. ابن الشحنة - ص ١٦١
* حيار بني القعقاع - حيار بني القعقاع بن خليل بن جزم بن الحارث العيسى، وهم أحوال الوليد وسليمان بن عبد الملك بن مروان، لأن أمهما ولادة بنت القعقاع، وتعرف بحيار بني عيسى أيضاً، وتعرف بقنسرين الثانية، وذكر البلاذري في كتاب البلدان، أن الحيار كان بلدًا معروفًا قبل الإسلام - ابن الشحنة - ص ١٦٢
* قنسرين، كانت تسمى في زمن الروم خلقيس، وقيل صوما، ويقال إن صوما بالعبرانية وأن اسمها في التوراة كذلك فسميت بعد ذلك قنسرين. ابن الشحنة - ص ١٦٣.
* حاضر قنسرين، يقال لها حاضر طي وكانت مدينة إلى جانب قنسرين ولها قلعة تشبه قلعة قنسرين وبها قوم من طي ولهذا تنسب إليهم وهي الآن قرية يسكنها فلاحون - ابن الشحنة - ص ١٦٣.
* سرمين، مدينة بطرف جبل السماق كثيرة العمل واسعة الرستاق، وبها مسجد وأسواق، وكان لها سور من الحجارة، وأكثر أهلها إسماعيلية، إلى أن رفع أيديهم عنها السلطان الملك الظاهر سنة ٦٦٥ - ابن الشحنة - ص ١٦٤.
* معرة مصرين، يقال لها معارة وهي بلدة مشهورة محفوفة بالأشجار، ويشرب أهلها من ماء الأمطار - ابن الشحنة - ص ١٦٥ - معرة مصرين.

* حارم، قال ابن شداد، كانت حارم قبل الفتح صغيرة وهي الحظيرة التي تحوط بالمواشي ودامت على ذلك في صدر الإسلام إلى أن ملك الروم أنطاكية سنة ٣٥٨ فبنوا حارم حصناً لتحمي مواشيهم من غارات العرب. ولما ملك سليمان بن قتلمش أنطاكية سنة ٤٧٨ ملك حارم مع جملة ما ملك من الحصون المجاورة ثم ملكها ملك شاه سنة ٤٧٩ ثم ملكها الصليبيون بعد ملكهم أنطاكية سنة ٤٩١ ولم تزل في أيديهم إلى أن فتحها نور الدين محمود سنة ٥٥٩. ابن الشحنة - ص ١٦٦.

* شيخ الحديد، حصن شيخ الحديد في الراج الشرقي، ابن الشحنة - ص ١٧٧
* دريساك، هو حصن قاطع النهر الأسود على لحف جبل من جبال اللكام، ليس له ذكر في الفتوح وإنما جدد في دولة الأرمين لما ملكوا الثغور - ابن الشحنة - ص ٢٢٢

* كيسوم، قال ابن شداد، ذكرها ابن أبي يعقوب وعدّها في كتاب البلدان من العواصم وكانت مدينة كبيرة قديمة وولاية واسعة وكان حصنها حصيناً وبنائها قوياً عصى فيها على المأمون نصر بن شبيب العقيلي فسار إليه طاهر بن الحسن فلقية نصر فكسره وعاد طاهر مفلولاً وأصر نصر على عصيانه، فسير إليه المأمون عبد الله بن طاهر فحصره بها إلى أن فتحها وخرّب الحصن وبقيت المدينة وهي الآن قرية بينها وبين الحدث سبعة فراسخ - ابن الشحنة - ص ٢٢٦
* الراوندان - قلعة صغيرة على رأس جبل عالٍ منفرد وفي مكان لا يحكم عليه منجنيق ولا يصل إليه نبل ولها ربض صغير في لحف جبلها، وهي من أقوى القلاع - الدر المنجب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة، ص ١٦٩
* بهسنى - هي قلعة عظيمة حصينة مائعة لها ربض يسكنها جماعة من المسلمين والأرمن وهذا كان حالها قبل أخذ التتر

وكان سيف الدولة يتوسع في بلاد الروم ويبني القلاع لتكون مراكز متقدمة لدولته، ومن ذلك أنه بنى مرعش* سنة ٣٤١^(١)، وبنى قلعة الحدث الشهيرة سنة ٣٤٣^(٢)، وبنى «رعيان»* وكانت الزلزلة قد أخرجتها وخلت أصحابها عنها، واندرس أثرها، وملكها الروم، فأنهض إليها سيف الدولة العساكر والصناع وأنفق عليها الأموال الجسيمة حتى بناها في مدة شهر والحرب بينه وبين الروم واقعة، وكان خليفته على البناء والجيش أبا فراس، وبعد بنائها قصدها الدمستق* ونزل عليها، فسار إليه سيف الدولة وأوقع به وهزمه وأخذ أسلحته وتركها في المدينة تقوية لها^(٣).

وكان المذهب الحنفي هو السائد في حلب وسواها من أرجاء الدولة العباسية لأنه كان المذهب الرسمي لها، ولم يغير سيف الدولة هذا المذهب بل أبقاه رغم أنه شيعي جعفري، ويذكر ابن العديم أن القاضي أحمد بن محمد بن مائل كان قاضي حلب عندما دخل سيف الدولة إليها، فعزله وولى مكانه أبا حصين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي^(٤)، وظل في منصب القضاء حتى قتل في غزوة «مغارة الكحل» سنة ٣٤٩، فولى سيف الدولة بعده أحمد بن محمد بن مائل قضاء حلب^(٥)، ومن ثم عزله وولى قضاء حلب أبا جعفر أحمد بن إسحاق بن محمد بن يزيد الحلبي المعروف بالحدرد، وكان حنفي المذهب^(٦). وبعد ذلك عزله واستدعى الشيخ عيسى بن الخشاب*، وكان قاضيًا في قلعة الحصن وولاه القضاء في حلب^(٧).

لها، وبلدها كثير الخيرات، وحولها أنهار ووساتين وهي متاخمة بلاد الأرمن، قال ابن شداد: «ولم أعثر لها على قديم ذكر في كتاب من كتب التواريخ، والظاهر أنها من بناء الأرمن» - ابن الشحنة - ص ١٧١.

* عزاز، قال ابن شداد عنها: «وهي مدينة عظيمة عامرة محاسنها ظاهرة قد كثر بناؤها، واتسع فناؤها، عمرت قلعتها وكثرت منفعتها، وكانت قديمًا تعرف بتل اعزاز، ولها كورة كبيرة تشتمل على قرى تناهز عددها ثلاثمائة قرية أكثرها ملك حلب - ابن الشحنة ص ١٦٨

* مرعش - مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد ثم أحدث الرشيد بعده سائر المدينة، وبها روض يعرف بالهارونية - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الخامس - ص ١٠٧

* رعيان - هي مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة من العواصم وهي قلعة في لحف جبل أخرجتها الزلزلة وأعادها سيف الدولة - ابن الشحنة - ص ٢٢٢

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٤

* الدمستق «Domesticus» كلمة لاتينية، وهو لقب قائد جيش الروم - تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدوبيي -

ص ٦١٤

(٣) الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ٢٢٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٧

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٨

(٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٦٨

* يقول ابن العديم في حديثه عن سعد الدولة: «وكان قاضي حلب في أيامه أبا جعفر أحمد بن إسحاق قاضي أبيه، ثم

وكما نرى فإن سيف الدولة لم يهتم بتغيير عقائد الحلبيين، ومع ذلك أصبح التشيع غالباً في حلب في مرحلة لاحقة ويعلل ابن العديم سبب ذلك فيقول: «وكانت اعتقاداتهم (أي الحلبيين) مثل ما كان عليه أهل الشام قديماً، إلى مذهب أهل السنة، حتى هجمها الروم في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وقتلوا معظم أهلها، فنقل إليها سيف الدولة من حران جماعة من الشيعة مثل الشريف أبي إبراهيم العلوي وغيره، وكان سيف الدولة يتشيع، فغلب على أهل حلب التشيع لذلك»^(١).

لكن هذا القول من ابن العديم يمثل جزءاً بسيطاً من الحقيقة، فعلى الرغم من أنه حلت بحلب كارثة بسبب دخول الروم إليها، لكن معظم الحلبيين ظلوا في بيوتهم ولم يهلكوا بتلك الفتنة، وبالتالي فإنهم وطوعية منهم تخلوا عن مذهبهم الحنفي ليعتنقوا المذهب الجعفري مثل أميرهم سيف الدولة الذي كان يمثل لهم قيماً كبيرة في الشجاعة والتضحية والإيثار. وهكذا غلب التشيع في حلب.

وقد عمّر سيف الدولة داره بالحلبة * وولى أبا فراس ابن عمه منبج وما حولها من القلاع^(٢). وولى على الرقة وحران، وثاب بن شبيب النميري، وولى على الساحل مروان العقيلي، وكان من مستأمنة القرامطة، وولى على العواصم ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان أبا العشائر، الذي هاجمه ليون بن الدمستق، وكان سيف الدولة قد خلفه سنة ٣٤٥ على عمارة «عرنداس» فهزمه، وأسرته وحمله إلى قسطنطينية فمات بها^(٣)، وولى سيف الدولة على حمص ابن عمه تغلب بن داؤد بن حمدان، واستعمل بني كلاب في بعض أعماله، وفرّق المال على الجند والأتباع فعاش الناس في دعة وسرور.

وهجم في تلك الأثناء القرامطة بقيادة رجل يقال له «الهادي» على حمص وأسروا تغلب بن داؤد، وما إن علم سيف الدولة بذلك حتى خرج من حلب وسار نحو حمص ولحق بالقرامطة على بعد خمسين ميلاً عن حمص، فقتل قائداهم الهادي، وأنقذ ابن عمه^(٤).

ولي قضاءها رجل هاشمي يقال له، ابن الخشاب، ثم ولي الشريف أبو علي الحسن بن محمد الحسيني والد الشريف أبي الغنائم النسابة. وكان زاهداً عالماً ولاءه سعد الدولة قضاء حلب وعزل ابن الخشاب سنة ٣٦٣، ودام في ولايته إلى سنة ٣٧٩. وولي بعده أبو عبيد الله بن محمد، ومن هذا الكلام يتبين أن عيسى بن الخشاب لم يتولّ قضاء حلب أيام سيف الدولة بل أيام ولده أبي المعالي شريف سعد الدولة، راجع زبدة الحلب من تاريخ حلب - ص ٩٨ و ص ١٠.

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - المجلد الأول - ج ١ - ص ٦٠.

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٢.

* الحلبة، محلة من ضواحي حلب من جهة الغرب.

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٥.

(٤) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٨١.

وأحدثت بنو كلاب الفساد والفوضى في منطقة بالس، فسار إليهم وقاتلهم وأوقع بهم الهزيمة، لكن لم يسء إليهم أو إلى حريمهم، عندما وقعن أسرى في يده، بل على العكس فقد أكرمهن وأعادهن إلى أهليهم^(١).

وفي العام التالي ثارت قبائل عامر بن صعصعة عقيل، وقشير والعجلان، وكعب بن ربيعة بن عامر، وقلاب بن ربيعة بن عامر في مروج سلمية، وقتلوا والي قنسرين الصباح بن عمارة^(٢)، فغضب سيف الدولة عليهم، وتقدم إلى قنسرين ومنها سار في أثرهم، فتلقته شيوخ بني كلاب وطلبوا منه الصفح عنهم، فعفا، وظل يطارد بقيتهم إلى تدمر، ومنها سار إلى السماوة وهزمهم هزائم متتالية ثم عاد إلى حلب دون أن يمس حريمهم بسوء^(٣).

وضرب سيف الدولة دنانير كتب على وجه منها «لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسن الحسين جبريل عليه السلام، وعلى الوجه الآخر، أمير المؤمنين المطيع لله، الأميران ناصر الدولة وسيف الدولة»^(٤).

٣ - سيف الدولة وقاتل الروم

منذ أن استقرت ولاية سيف الدولة لحلب سنة ٣٣٦ جرى بينه وبين الروم وقائع كثيرة أكثرها له وبعضها عليه^(٥). فمنها، كما يقول الأنطاكي، أنه نزل على حصن برزويه سنة ٣٣٦ وفيه أبو تغلب الكردي*، ونزل لاون بن بردس الدومستيقس الفوقاس على الحَدَث وجاء نفي الحَدَث إلى سيف الدولة يستغيثون به، فأقسم أنه لا رحل عن حصن برزويه حتى يفتحه، وفتح لاون حصن الحَدَث بالأمان وأخرب سورده، وفتح سيف الدولة حصن برزويه سنة ٣٣٧، وسار إلى ميفارقين واستخلف بحلب محمد بن أخيه ناصر الدولة^(٦). ونزل ليون بن برداس فوكاس على حصن بوقا، وخرج محمد بن ناصر الدولة للقائه، فأوقع ليون بمحمد وبجماعة

(١) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٨٢

(٢) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٨٢

(٣) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٨٢

(٤) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٨٤

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٢

* لا يذكر ابن العديم اسم «أبي تغلب الكردي» بل يسميه «ابن أخت أبي الحجر الكردي»، ومن غير المعروف ما هو الاسم الصحيح بين هذين الاسمين - زبدة الحلب - ابن العديم - ص ٧٢

(٦) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٧٧

من أصحابه، وقتل منهم زهاء أربعمئة رجل، وأسر خلقاً، وذلك سنة ٣٣٨^(١).

وفي سنة ٣٣٩ تاهب سيف الدولة، كما يقول الأنطاكي، للغزو وجمع جموعاً عظيمة ودخل بلد الروم في شهر ربيع الأول من تلك السنة، وبلغ إلى وراء خرشنة*، وفتح حصون الروم وسبى عدداً كبيراً منهم، فلما أراد الخروج أخذ عليه الروم الدروب والدرب الذي أراد الخروج منه وهو المعروف بـ«مقطع الأنظار» المسمى درب الكيكرن، بناحية الحدث، فأوقعوا به وذهب الكثير ممن كان معه بين قتيل وأسير، وارتجع الروم السبي الذي كان المسلمون غنموه، وأخذوا سواد سيف الدولة وكراعه، وأفلت هو في نفر يسير منهزماً، وسمى الثغريون هذه الغزاة «غزاة المصيبة»^(٢). ويروي ابن العديم ذلك بطريقة أخرى فيقول: «ومنها أنه غزا سنة ٣٣٩، ومعه خلق عظيم، فبلغ إلى سمندو*، وأحرق صارخة* وخرشنة، وغنم غنيمة كبيرة، فلما رجع إلى درب الجوزات، وفارقه أهل الثغور، اجتمع الروم في الدرب، على سيف الدولة، فقتل خلق عظيم من المسلمين، وأسر كذلك، وما سلم إلا سيف الدولة على ظهر فرسه، وعرفوه فطلبوه، ولزوه إلى جبل عظيم، وتحتة وادٍ، فخاف أن يأسروه إن وقف أو رجع، فضرب فرسه بالمهماز وقبّله الوادي، لكي يقتل نفسه، ولا يأسروه، فوقع الفرس قائماً، وخرج سيف الدولة سالماً، وسميت هذه الغزاة غزاة المصيبة، وأخذ له من الآلات والأموال ما لا يحصى»^(٣).

ويذكر ابن الأثير ذلك في أحداث سنة ٣٣٩ فيقول: «في هذه السنة دخل سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم، فغزا وأوغل فيها وفتح حصوناً كثيرة وسبى وغنم، فلما أراد الخروج أخذوا عليه المضايق، فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلاً، واستردّ الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين، وأموالهم، ونجا سيف الدولة في عدد يسير»^(٤).

(١) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتبخا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٧٨

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتبخا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٧٩

* خرشنة، بلد قرب ملطية من بلاد الروم، غزاه سيف الدولة بن حمدان، وذكره المتني وغيره في شعره، وقالوا، سمي خرشنة باسم عامره، وهو خرشنة بن الروم بن اليقن بن سام بن نوح عليه السلام - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٢ - ص ٣٥٩

* سمندو، قلعة في وسط بلاد الروم، «تركيا»، ذكرها ابن عبد الظاهر في كتابه، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ١٧٥. وقد ذكر المتني هذه القلعة في قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

رَضِينَا وَالدُّمُسْتُقْ غَيْرَ رَاضٍ بِمَا حَكَمَ الْقَوَاضِ وَالْوَشِيحُ
فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ رَزْنَا سَمْنَدُوَ وَإِنْ يُحْجِمُ فَمَوْعِدُهُ الْخَلِيجُ

راجع ديوان المتني - قصيدة - لهذا اليوم بعد غد أريج - صفحة ٣٠٩ وما بعدها.

* صارخة، بلدة غزاها سيف الدولة سنة ٣٣٩ ببلاد الروم. معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الثالث -

ص ٢٨٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٢

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٢٣٣

وفي سنة ٣٤١ بنى سيف الدولة مرعش فأتاه الدمستق بعساكر الروم ليمنعه منها فأوقع به سيف الدولة الواقعة العظيمة المشهورة^(١).

وفي سنة ٣٤٢ دخل سيف الدولة بلاد الروم، كما يقول الأنطاكي، وأغار على زبطرة* والتقاء قسطنطين بن بردس الدمستق على درب موزار*، وقتل من الفريقين خلق^(٢). وعبر سيف الدولة الفرات* وسافر إلى بطن هنريط، ودخل سميشاط وبلغه أن الدمستق بردس فوقاس قد خرج إلى ناحية الشام، فلحقه وراء مرعش، وأوقع بعسكره وأسر قسطنطين ابنه وقتل لاون البطريق في الحرب، وحمل قسطنطين بن الدمستق إلى حلب ومات فيها من علة أصابته، وأمر سيف الدولة النصارى قتلوا أمره وكفن بكفن فاخر، وجعل في تابوت في بعض الكنائس، وكتب إلى أبيه يعزيه به^(٣).

ونزل سيف الدولة سنة ٣٤٣، كما يقول الأنطاكي، على حصن الحدث* لبنائه، وقصده الدمستق بردس فوقاس*، واقتتل الفريقان واستظهر المسلمون على الروم وأسروا أعورجرم*، وجماعة من رؤساء الروم وقتلوا خلقاً منهم واختفى نقفور ابن بردس الفوقاسي في قناة الحدث باقي نهاره، ولما كان في الليل خرج ولحق بأبيه، وأقام سيف الدولة على الحدث إلى أن بناها*^(٤). ويذكر ابن الشحنة أن

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٣

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٤

* زبطرة، بلدة بين ملطية وسميساط، كانت حصناً رومياً، وأخبرته زمن الوليد بن يزيد، فبنى بناء غير محكم فأناخت عليه الروم في فتنة مروان فهدمته فبناه المنصور ثم خربته الروم فبناه الرشيد فأخربته الروم في أيام المأمون فأمر بترميمه وتحصينه، ثم خرجت الروم إليه في زمن المعتصم فقتلوا من فيه وخربوه، فأغضب المعتصم ذلك وغزاهم حتى بلغ عمورية، وأناخ عليها حتى فتحها وأمر ببناء زبطرة. ابن الشحنة - ص ١٩٤
* موزار، حصن ببلاد الروم أعاد بناء هشام بن عبد الملك - تاريخ الأنطاكي - ص ٨٣
* الفرات، هو نهر جيحان الموجود في قليقية

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٤

* بارداس فوكاس قائد عسكري بيزنطي من أصل يوناني، وهو والد الإمبراطور نقفور الثاني.
* أعورجرم، هو تودس الأعور صهر الدومستيقس بردس بن فوكاس على ابنته - تاريخ الأنطاكي - ص ٨٥ - ويقول ابن العديم: «وأسر صهر الدمستق على ابنته أعورجرم» - زبدة الحلب من تاريخ حلب - ص ٧٤

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٥

* خلد المتنبي معركة الحدث بقصيدة رائعة يقول فيها:

هَلْ الْحَدَثُ الْخَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَامُ
سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُقُ قَبْلَ نَزْوِلِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَامُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَفَرَّعَ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَابَا حَوْلَهَا مُتَلَاظِمُ

ديوان المتنبي - ص ٣٨٦

* الحدث، قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش، وتعرف بالحدث الحمراء لحمرة أرضها، وهي مدينة كثيرة المياه والزرع وحولها أنهار كثيرة. وكانت تسمى أولاً بالمهدية والمحمدية لأنها بنيت أيام المهدي محمد بن جعفر المنصور وسميت بالحدث لأن المسلمين لاقوا على دربها حدثاً من الروم في طائفة فقاتلوه عليه فسمي درب الحدث. - الدر المنخب - ابن الشحنة - ص ١٩٣

سيف الدولة بنى الحدث سنة ٣٤٣ وحصّنها ووضع بيده شرافة من شرافات سورها^(١). وعاد الدمستق بردس فوقاس ونزل على الحدث وحاصره ونقب سوره، وسار سيف الدولة لقتاله ولما قرب انصرف الدمستق^(٢).

ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة في أحداث سنة ٣٤٣ فيقول: «في هذه السنة في شهر ربيع الأول، غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم، فقتل وأسروسي وغنم، وكان فيمن قتل، قسطنطين بن الدمستق، فعظم الأمر على الروم، وعظم الأمر على الدمستق، فجمع عساكره من الروم، والروس، والبلغار، وغيرهم، وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة بن حمدان، فالتقوا عند الحدث في شعبان، فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان، ثم إن الله تعالى نصر المسلمين، فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسرو صهر الدمستق وابن ابنته، وكثير من بطارقتة، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً»^(٣).

ويقول الأنطاكي: «غزا سيف الدولة سنة ٣٤٥ بطن هنزيط* ونزل على نهر أرسناس* وعبره إلى الجانب الآخر في الزوارق، وكان يأنس بن الشمشقيق* في تل بطريق فكبسه سيف الدولة فانهزم ابن الشمشقيق، وفتح سيف الدولة تل بطريق*، وانثنى قافلاً إلى الدرب الذي يقال له «درب الخياطين»* وألفى الدومستيقس وابن الشمشقيق قد أخذوا الدرب وأشحناه بالرجال، فانتشب القتال بينهم، واستظهر سيف الدولة عليهم^(٤). وكان سيف الدولة قد خلف بدلو* أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، ورسم بالنزول على حصن عراموس، فخرج لاون البطريق ابن الدومستيقس ولقيه أبو العشائر، فأسره لاون وحمله إلى القسطنطينية ومات في الأسر^(٥).

وغزا سيف الدولة في سنة ٣٤٥ وأبعد سريته على سمندوفوجدوا استراتيجوس بن ماغنطس، فأسروه، وقتل وأحرق وعاد سيف الدولة، وقصد حصن زياد* وحاصره واتصل به أن الدومستيقس متوجه إلى الشام فتسرع للقائه ودفعه^(٦).

(١) الدرا المنتخب في تاريخ مملكة حلب - قاضي القضاة محمد بن الشحنة - ص ١٩٣

(٢) تاريخ الأنطاكي المعروف ب«صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٥

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٢٥٠

* بطن هنزيط، سهل يمتد حول نهر هنزيط في جنوب خربوت وشرقها، تاريخ الأنطاكي، ص ٨٤

* أرسناس، نهر على تل كبير يمتد الفرات» نزهة المشتاق» الشريف الإدريسي، ح ٥ «ص ٨١٥

* يأنس ابن الشمشقيق، أمير أرمني، واسم أبيه شوموشقيق وهو لقب ليوحنا الأول ملك الروم، وهي كلمة أرمنية

Gemezki، معناها قصير القامة. تاريخ الأئمة، اسطفان الدوبهي - ص ٦١٤

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٦

(٥) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد الأنطاكي - ص ٨٦

(٦) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٧

* تل بطريق، حصن بأرض الروم في الثغور، خربه سيف الدولة - تاريخ الأنطاكي - ص ٨٦

يقول ابن الأثير في أحداث سنة ٣٤٥: «في هذه السنة في رجب سار سيف الدولة بن حمدان في جيوش إلى بلاد الروم، وغزاها حتى بلغ خرشنة، وصارخة، وفتح عدة حصون وسبي وأسروا حرق وخرّب، وأكثر القتل فيهم، ورجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاء رئيس طرسوس، فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً، وعاد إلى حلب، فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميفارقين وأحرقوا سوادها «مزروعاتها» ونهبوا وخرّبوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا»^(١).

وفي جمادى الأولى من سنة ٣٤٦ كاتب الروم جماعة من غلمان سيف الدولة بالقبض عليه، وحمله إلى الدمستق عند شخوصه لمحاربته، وبذل لهم مالاً عظيماً على ذلك، فخرج سيف الدولة عن حلب وقد عزموا على ذلك، فصار بعض الفُراشين إلى ابن كيغُلغ فأخبره بما عزموا عليه، فأعلم سيف لدولة، فجمع الأعراب والديلم، وأمرهم بالإيقاع بهم عند إعلامه إياهم بذلك، فأوقعوا بهم، وقتل منهم مائة وثمانون غلاماً، وقبض على نحو مائتي غلام، فقطع أيديهم وأرجلهم وألسنتهم، وهرب بعضهم. وعاد سيف الدولة إلى حلب فقتل من بها من الأسرى، وكانوا نحو أربع مائة أسير، وضيق على ابن الدمستق، وزاد في قيده، وصيّره في حجرة معه في داره، وأحسن إلى ذلك الفُراش، وقلّد ابن كيغُلغ أعمالاً، وتنگر على سائر غلمانته^(٢).

وفي سنة ٣٤٦ نزل الدومستيقس على حصن الحدث وفتحته وأمن أهله وانصرفوا إلى حلب وأخرب حصن الحدث^(٣).

وفي سنة ٣٤٧ سار يانس بن الشُمُشقيق إلى ناحية آمد وأرزن وميفارقين، ونزل على حصن يقال له اليماني من عمل آمد، وسيّر إليه سيف الدولة غلامه نجا الكاسكي في عشرة آلاف والتقاهاهم ابن الشُمُشقيق فانهمز نجا وقتل الروم من عسكره زهاء خمسة آلاف وأسروا ثلاثة آلاف واستولوا على جميع سواد نجا^(٤). وسار باسيل البراكيمنوس ويانس بن الشُمُشقيق، كما يقول الانطاكي، على سميساط وفتحها ورحل عنها إلى رعيان وحاصرها، فسار سيف الدولة

* درب الخياطين - قرب آمد - تاريخ الأنطاكي - ص ٨٦

* دلوک - بليدة في نواحي حلب بالعواصم - تاريخ الأنطاكي - ص ٨٦

* عراموس، عند ابن العديم ورد باسم «عرناس» - راجع ابن العديم - زبدة الحلب - ص ٧٤

* حصن زياد، بأرض أرمينية، ويعرف بخربرت، وهو بين آمد وملطية وهو إلى ملطية أقرب. وفيه يقول النامي يخاطب ناصر الدولة بن حمدان:

وحصن زياد غدوة السبت نافشاً سماكاً أراك ابن الأرقم أرقم - معجم البلدان، المجلد ٥، ص ٢٦٤

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٥٧

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٥٧

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٨

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٨

والتقاها واستظهر الروم عليه استظهاً عظيماً وانهزم سيف الدولة وتبعه ابن الشُّمَشِيق فأوقع بعسكره وقتل وأسر وذلك في شعبان سنة ٣٤٧، وأدخل إلى القسطنطينية من الأسرى ألف وسبعمئة فارس وطوّف بهم وهم ركاب خيولهم ولا بسون سلاحهم^(١). ويؤكد ابن العديم هذه الواقعة في أحداث سنة ٣٤٧^(٢).

وفي سنة ٣٤٨ مات الإمبراطور قسطنطين بن ليو*، وملك بعده ابنه رومانوس وصير لاون بن بردس الفوقاس دومستيقس على الشرق، وصير أخاه نقفور دومستيقس على الغرب، وسار لاون إلى نواحي طرسوس* وسبى وقتل وفتح الهارونية سنة ٣٤٨^(٣). وفي نفس السنة ورد لاون الدومستيقس إلى ناحية ديار بكر وتوجه سيف الدولة من حلب إلى هناك ورحل الدومستيقس إلى ناحية الشام وقتل من أهله عدداً وافراً وأخرب حصوناً كثيرة وأسر محمد بن ناصر الدولة^(٤).

وفي سنة ٣٤٩ غزا سيف الدولة، كما يقول الأنطاكي، بلد الروم في زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى سبباً عظيماً وغنم غنائم جليلة، ولما رجع وجد لاون بن الدمستق قد سبقه إلى الدرب المعروف بدرب مغارة الكجك، وأخذ عليه المضايق وحاربه وأوقع بعسكره وارتجع السبي والأسرى وأخذ كراعه وسلاحه، وتخلص سيف الدولة في نفر قليل من أصحابه ومضى باقي أصحابه أسرى وقتلى، وكانت الواقعة يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة ٣٤٩، ووصل سيف الدولة إلى الخوانق منهزماً بعد الغنيمة وبات بها وسار منها إلى المصيصة ومنها إلى حلب^(٥). ويذكر هذه الواقعة ابن العديم فيقول: «غزا سيف الدولة سنة ٣٤٩ بلاد الروم، وهي الغزوة التي تسمى «مغارة الكحل»، فقتل وسبى، وعاد غانماً يريد درب «مغارة الكحل» فوجد لاون بن الدمستق قد سبقه إليه، فتحاربوا، فغلب سيف الدولة، وارتجع الروم ما كان أخذه المسلمون، وأخذوا خزانة سيف الدولة وأدواته ومتاعه، وأسرا أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان وترك بخرشنة، وأسر مطربن البلدي،

(١) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٨٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩١

* قسطنطين السابع «ابن ليو» هو الإمبراطور الرابع من السلالة المقدونية في الإمبراطورية البيزنطية، حكم بين ٩١٣ - ٩٥٩ للميلاد. ويكيبيديا.

* طرسوس، هي بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم بينها وبين أدنة ستة فراسخ يشقها نهر البردان، قال ابن شداد هي مدينة قديمة من بناء الروم وكانت تسمى إيارسين ثم سميت طرسوس فعربت - الدرا المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ابن الشحنة، ص ١٨٤. وينذهب وليم الصوري إلى القول: والقول الشائع أن مؤسس طرسوس كان يدعى «طارسس» وهو ثاني أولاد «حاقام» ابن يافث الذي تذهب الروايات القديمة إلى أنه الابن الثالث لنوح، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة تحمل اسم مؤسسها - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ١ ص ٢٣٥

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٢

(٥) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٩٤

وقاضي حلب أبو حصين الرقي، فقتلا، وأخذ الروم الطرق على سيف الدولة فوثب به حصانه عشرين ذراعاً، وقيل أربعين ذراعاً، فنجى في نفر قليل^(١).

ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة في أحداث سنة ٣٤٩ ولكن بطريقة مختلفة فيقول: «في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كثير، فأثر فيها آثاراً كثيرة، وأحرق وفتح عدّة حصون وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً، وبلغ إلى خرشنة، ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق، فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: (إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأي أن ترجع معنا). فلم يقبل منهم، وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال: إنه أصاب برأي غيره، وعاد في الدرب الذي دخل منه، فظهر الروم عليه واستردّوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله، ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسرّاً، وتخلّص هو في ثلاثمئة رجل بعد جهد ومشقة»^(٢).

ونعتقد أن رواية ابن الأثير فيها دس وتحريف بهدف الإساءة إلى سيف الدولة، وهذه الرواية ذكرها مسكويه قبله ولعلها من تأليفه فأخذها عنه ابن الأثير. يقول مسكويه: «كان هذا الرجل، أعني سيف الدولة، معجباً برأيه يحب أن يستبد برأيه وألا يتحدث نفسان أنه عمل برأي غيره، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذي يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال فلم يقبل منهم فأصيب المسلمون بأرواحهم وأصيب هو بماله وسواده وغلمان»^(٣).

ويمكن الرد على كلام مسكويه بأنه إذا كان أهل طرسوس في الغزاة مع سيف الدولة فكيف عرفوا دونه أن الروم ملكوا عليه الدرب، وأيضاً فإن تضاريس بلاد الروم هي ذات طبيعة جبلية وعرة وهناك دروب معينة للعبور من مكان إلى مكان آخر، ولذلك تعددت الدروب في تلك البلاد وتعددت أسماؤها، وكان يتعين على سيف الدولة أن يعبر على ذاك الدرب، فلا يوجد غيره مكان للعبور، وحتى لو نزل في طرسوس مع أهلها فإن الروم كانوا سيحاصرون هذه المدينة. لقد كان سيف الدولة في معركة هائلة مع أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت، وقد انتصر عليها في مواقع عديدة، وخسر في مواقع أخرى وهكذا هي الحرب سجلال بين الطرفين حتى ينهك أحدهما قوى الآخر، وكان لدى الرومان القدرة على تجديد الدماء في جيشهم لأنهم كانوا يسيطرون على مناطق واسعة في آسيا الصغرى وأوروبا وروسيا، أما

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٧.

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٦٧.

(٣) تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٣٢٨.

سيف الدولة فقد كانت إمكانياته محدودة فهو كان ملكاً على دولة صغيرة لا تشمل سوى نصف بلاد سوريا، ولم يكن يأتيه مدد من قبل العباسيين ولا من قبل الأخشيديين، وهو وحده بقواه الذاتية وشجاعته كان يقاتل ويحارب ويقاوم ولم يأبه لحظة واحدة للموت. وكم سجل الشاعر المتنبي من المواقف العظيمة التي وقفها سيف الدولة أمام الروم. ومنها قوله:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلُّهم هزيمةٌ ووجهك وضاحٌ وثرعك باسمٌ
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالغيب عالمٌ^(١)



- خريطة الثغور -^(٢)

(١) ديوان المتنبي - ص ٣٨٧

(٢) <https://commons.wikimedia.org/w/index.php?curid=78312299>

٤- الروم يدخلون حلب

بعدما فتح دومستيقس الغرب نقفوروس جزيرة أقریطش* «كريت» الإسلامية سنة ٣٥٠، نقله الملك رومانوس وجعله دومستيقس الشرق وأرسله إلى هناك^(١)، فنزل على عين زربي فسار إليه والي طرسوس رشيق النسيمي بجيش من إمارته، فالتقاهم نقفوروس، وانهزم الطرسوسيون، وقتل منهم زهاء خمسة آلاف رجل وأسرنحو أربعة آلاف، وعاد نقفوروس إلى عين زربي ففتحها بالأمان في ذي القعدة سنة ٣٥٠ وهدم سورها، وانتقل أهلها إلى طرسوس، وعاد سيف الدولة وبنى سورها ورد إليها أهلها^(٢).

ويروي ابن الأثير رواية عجيبة لتلك الواقعة فيقول: «ونزل (الدومستيقس) في المحرم من سنة ٣٥١ على عين زربي على حين غفلة من أهلها، وتقع هذه المدينة على سفح جبل عظيم مشرف عليها، فبعث الدمستق بعض عسكره فملكوا الجبل، وضيقوا على المسلمين في عين زربي، فطلبوا الأمان فأمنهم الدمستق، وفتحوا له باب المدينة، فدخلها، فرأى أصحابه الذين على الجبل قد نزلوا إلى المدينة، فندم على إجابة أهلها إلى الأمان، ونادى في البلد بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع، ومن تأخر في منزله قتل، فخرج من أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجاله في المدينة، وكانوا ستين ألفاً، وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله، فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان، وأمر بجمع ما في البلد فجمع، فكان شيئاً كثيراً، وأمر من في المسجد بأن يخرجوا فخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك، ومن أمسى قتل، فخرجوا مزدحمين، فمات بالرحمة جماعة، ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات، وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر

(١) تاريخ الأنطاكي المعروف بـ«صلة تاريخ أوتيجا يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٩٦ * إمارة أقریطش، دولة إسلامية أقيمت على جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط، قال ياقوت الحموي الرومي: «قال أحمد بن يحيى بن جابر (البلاذري): غزا جنادة بن أبي أمية الأزدي بعد فتحه جزيرة أرواد في سنة ٤٥ في أيام معاوية، ثم غزا أقریطش، فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم أغلق، وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد، ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي، فافتتح منها حصناً ونزله، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحداً وخرب حصونهم، وذلك سنة ٢١٠، وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم، إلى أن أناخ عليها نقفور بن الفُقاس الدمستق في خلافة المطيع، في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩، في اثنين وسبعين ألفاً، منهم خمسة آلاف فارس، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠، فقتل ونهب وسبى وأخذ أميرها عبد العزيز بن شعيب ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمه وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية - معجم البلدان - ج ١ - ص ٢٣٦. ويقول يحيى بن سعيد الأنطاكي: وفي النصف الثاني من شهر جمادى الآخر سنة ٣٤٩ غزا الدومستيقس نقفوروس بن بردس فوكاس، إمارة أقریطش وحاصرها ثمانية أشهر وفتحها يوم الخميس النصف من شهر المحرم سنة ٣٥٠، وخرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقاً كثيراً. وهكذا ظلت إمارة إقريطش ١٤٠ سنة، قائمة وموجودة وكانت طوال هذه المدة في حرب مستمرة مع الروم. راجع تاريخ الأنطاكي، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٩٦

النهار، وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم»^(١).

ونعتقد أن هذه الرواية غير صحيحة والصحيح هو رواية الأنطاكي سالفه الذكر لأنه لو كان وقع لأهل عين زربي مذبحه، كما يزعم ابن الأثير، لكان علم بها الأنطاكي ابن تلك البلاد.

ومن ثم فتح الروم حصون دلك ورعيان، ومرعش، في شهر ربيع الأول سنة ٣٥١، وغارت الروم على منبج وصادفوا أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، وكان متقلداً لها فأسروه وحملوه إلى القسطنطينية^(٢). ثم إن نقفور بن بردس الفوقاس الدمستق ويانس بن الشمشقيق قصداً مدينة حلب هذه السنة (٣٥١)، وسيف الدولة بها، وكانت موافاتها كالكبسة^(٣)، ويقول ابن الأثير، فلما أدركه الصوم* (أي الدمستق) انصرف، على أن يعود بعد العيد وترك جيشه في قيسارية^(٤). ويقول ابن الأثير أيضاً، «بعد انقضاء الصوم والعيد، ترك الدمستق جيشه في قيسارية، وسار إلى حلب بعسكر قليل، ولم يعلم به أحد، وكبس حلب، ولم يعلم به سيف الدولة ولا غيره، فلما وصل إليها، علم به سيف الدولة فخرج إليه مسرعاً بمن معه، ولم ينتظر حتى يجمع جيشه، فقاتله ولم يكن له قوة الصبر لقلّة من معه، فقتل أكثرهم، ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد، قتلوا جميعهم، وانهزم سيف الدولة، وظفر الدمستق بداره، وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين، فوجد فيها ثلاثمائة بكرة من الدراهم وأخذ ألفاً وأربعمئة بغل، ومن خزائن السلاح ما لا يحصى، وخرّب الدار وملك الحاضر، وحصر المدينة فقاتله أهلها، وهدم الروم في السور ثلثة، فقاتلهم أهل حلب عليها، فقتل من الروم خلق كثير، ودفعوهم عنها، فلما جنّ الليل عمروها، فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن، ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها، ولحق الناس أموالهم ليمنعوها، فخلا السور منهم، فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد، فصعدوا إلى أعلاه، فأروا الفتنة قائمة في البلد بين أهله، فنزلوا، وفتحوا الأبواب، ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا، ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا، وكان في حلب ألف وأربعمئة من الأسارى، فتخلصوا وأخذوا السلاح، وقتلوا الناس، وسبي من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبيّة، وغنموا ما لا يوصف كثرة، فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق بإحراق الباقي وأحرق المساجد، وكان عدة جيشه مئتي

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٧ - ص ٢٧٢

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٩٧

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٧٨

* الصوم، هو صوم المسيحيين الذي يسبق عيد الشعانين أو الزينة.

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧٣

ألف رجل، ثلاثون ألف رجل بالجواشن، وثلاثون ألفاً للهدم، وإصلاح الطرق من الثلج، وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد»^(١).

ويروي ابن العديم رواية مختلفة فيقول: «لم يشعر سيف الدولة بخبرهم حتى اقتربوا منه، فوجه إليهم غلامه نجا مع عساكره، فسار نجا إلى الاتارب ومنها إلى أنطاكيا، وكان نقفور قد علم بمسير عسكر حلب إليه، فسلك طريقاً بعيداً عنه، فتابع العسكر طريقه إلى أنطاكيا، أما نقفور فقد وصل إلى نبل، وعرف سيف الدولة بوصوله وأدرك أنه لا طاقة له على لقائه والعساكر بعيدة عنه، فخرج إلى ظاهر حلب، وجمع الحلبيين وقال لهم: (عساكر الروم تصل اليوم وعسكري قد خالفها، والصواب أن تغلقوا أبواب المدينة، وتحفظوها وأمضي أنا ألتقي عسكري، وأعود إليكم وأكون من ظاهر البلد، وأنتم من باطنه، فلا يكون دون الظفر بالروم شيء)، فأبى عامة الحلبيين وغوغائهم، وقالوا: لا تحرمنا أيها الأمير الجهاد، وفينا من يعجز عن المسير إلى بلد الروم للغزو، وقد قربت علينا المسافة. فلما رأى امتناعهم عليه، قال لهم: أثبتوا فإني معكم. ولم تلبث جيوش الروم أن وردت، فالتقاهما الحلبيون، وسرعان ما انهزم سيف الدولة نحو الشرق وبعد عن حلب، ودخل الروم المدينة وأقاموا بها ثمانية أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون، وأخربوا قصر سيف الدولة ودمروا أملاكه، وسرقوا متاعه وسلاحه، واستنجد سيف الدولة بظالم بن السلال العقيلي وكان متولياً دمشق من قبل الأخشيديّة، كما أن نجا عاد بالعساكر، فباشر سيف الدولة بشن الغارات على الروم وكان ذلك سبباً في رحيلهم عن حلب^(٢)، أما سيف الدولة فإنه بعد رحيل الروم عن حلب، عاد إليها ودخلها في ذي الحجة سنة ٣٥١، وعمّر ما خرب منها، وجدّد عمارة المسجد الجامع، وأقام سيف الدولة إلى سنة ٣٥٤»^(٣).

وتبدو رواية ابن العديم أقرب إلى المنطق من رواية ابن الأثير، لأن هذا الأخير قال، إن الدمستق جاء إلى حلب بعسكر قليل، ولم يشعر به سيف الدولة حتى وصل إلى المدينة، ومن ثم قال في نهاية كلامه، كان عدة جيش الدمستق مئتي ألف رجل، وأيضاً لم يتحدث عن جيش سيف الدولة، ومن المعروف أن هذا الجيش كان ضخماً بدليل أن سيف الدولة لم يتوقف عن غزو بلاد الروم بجيشه الكبير، فأين كان هذا الجيش؟

أما ابن العديم فقد أوضح أن سيف الدولة أرسل الجيش مع غلامه نجا للقاء الروم بعيداً عن حلب، وانتظره في المدينة، لكن الدمستق خالف طريق نجا ووصل

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٢

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٥

بجيشه إلى حلب فوجد سيف الدولة نفسه في قلب الكارثة، كما أن الحلبيين لم يستمعوا إلى مشورته، فخرج الكل إلى ظاهر حلب للقتال، فانهزموا أمام عسكر الدمشق الكثير، ومن ثم عاد سيف الدولة وحشد وأخرج الروم من حلب.

وأما ابن كثير فقد نقل رواية ابن العديم مع بعض الاختصار ولكنه عزا دخول الروم إلى حلب إلى فساد عقيدة الحلبيين، كما يزعم بسبب تشيعهم لآل البيت، حيث يقول بعد مقدمة من الشتيمة: «وكذلك سيف الدولة بن حمدان مجلب فيه تشيع وميل إلى الرفض، لا جرم أن هؤلاء لا ينصرون، بل يديل الله عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم ساداتهم وكبراءهم وآباءهم وتركهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام، وكان فيهم الرفض وغيره، استحوز الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج، والنواقيس النصرانية والطقوس الأنجيلية تضرب في شواهد الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع، والناس معهم في حصر عظيم، وضيق من الدين، وأهل هذه المدن التي في يد المسلمين في خوف شديد في ليلهم ونهارهم من الفرنج، وكل ذلك من بعض عقوبات المعاصي والذنوب، وسبب خير الخلق بعد الأنبياء»^(١).

وسنرى في الفصول اللاحقة أن الغز السلاجقة كانوا هم السبب في وقوع بلاد الشرق في أيدي الصليبيين، وأن هؤلاء السلاجقة تقاعسوا عن الجهاد وتركوا الصليبيين يسرحون ويمرحون في سوريا. وبالعودة إلى الموضوع، فإن سيف الدولة بعد أن أعاد ترتيب حلب من جديد، التمس من نقفور الملك *، كما يقول الأنطاكي، المفادة * من عنده من أسرى المسلمين وبمن عنده من أسرى الروم، وسار سيف الدولة من ميافارقين * إلى سميساط، وأقام الفدى أعلى شاطئ الفرات في يوم الخميس مستهل رجب سنة ٣٥٥، وفادى بمحمد بن ناصر الدولة، وأبي فراس، وغيرهما من بني حمدان، وبالقاضي أبي الهيثم بن أبي الحصين *، وزهير،

(١) البداية والنهاية - ابن كثير الدمشقي - المجلد السادس - ج ١١ - ص ٢٠٣

* ابن كثير، يذكر البيطريك اسطفان الدويهي في أحداث سنة ٧٢٦ فيقول: «في هذه السنة في يوم الجمعة الرابع وعشرين من شعبان، ادعى قاضي دمشق على عماد الدين بن كثير أنه قال، إن التوراة والإنجيل ما بدلتا وإنما بحالهما كما أنزلت، وشهد عليه حماة الشيخ تقي الدين بن التيمية، وثبت ذلك في وجهه، فعزّز بالردة في المجلس وأخرج وطيف به ونودي عليه هذا جزء من قال إن التوراة والإنجيل ما بدلتا» - تاريخ الأئمة - ص ٣٠٢

* نقفور الملك: في سنة ٣٥٢ مات الملك الروماني رومانوس وجلس في الملك ولده باسيل وقسطنطين، وكان صغيّر لم يبلغ الحلم، وتولى تدبير المملكة والديهما تو افانوا، وباسيل البراكومونس، ورأت الملكة أن يكون نقفور يدبر المملكة لما ظهر من سدادته وحسن تدبيره وتتابع فتوحه، فحضرت إلى الكنيسة مع ولديها ووسلمتهما إليه بحضرة البطرك وسائر من حضر، ورسمت له أن يدبرهما ويدبر ملكهما ويتقي الله تعالى فيهما، ومن ثم تزوج نقفور الملكة تو افانوا، وتسلم ولديها ودعي له معهما بالملك - تاريخ الأنطاكي - ص ١٠١

* عملية الفداء هي أكبر دليل على أن سيف الدولة عاد وقاتل الرومان وأسّر منهم أمراء وجنودًا.

وقطاس، وغيرهما من غلمانهم^(١). وبقي كاتبه أبو القاسم الحسين بن علي المغربي في أيدي الروم إلى أن توفي سيف الدولة، فحمل بقية المال وخلص ابن المغربي^(٢). وأعاد سيف الدولة بناء عين زربي، وسير حاجبه في جيش مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم، فغنموا وسبوا وعادوا، وسارنجا غلام سيف الدولة بجيش إلى حصن زياد، فلقية جمع من الروم فهزمهم، واستأمن إليه من الروم خمسمئة رجل^(٣).

٥- نتائج دخول الروم إلى حلب

تسبب دخول الروم إلى حلب واستباحتها، في تضعُّع ملك سيف الدولة، فقد عصى أهل حران سنة ٣٥٢، وكان أميرها هبة الله بن ناصر الدولة من قبل عمه سيف الدولة، وسمع هبة الله بالخبر، فسار إليهم وحاربهم، أكثر من شهرين، فقتل منهم خلقاً كثيراً، فلما رأى سيف الدولة شدة الأمر، تقرب منهم، وراسلهم وأجابهم إلى ما يريدون^(٤). ومن ثم دخل هبة الله إلى حران وأعلن عصيانه على عمه سيف الدولة، فأرسل إليه غلامه نجا، فلما قاربها هرب هبة الله إلى أبيه بالموصل، فنزل نجا حران، وخرج أهلها إليه، فقبض عليهم وصادرهم على ألف ألف درهم، «مليون درهم» ووكل بهم حتى أدوها بعد الضرب الوجيع بحضرة عيالاتهم.

* ميفارقين - قال الشرقي بن القطامي: «ميا» اسم الأودية، و«فارقين» اسم امرأة بنتها، فكأنهم قالوا: «أودية فارقين»، ونقلت عن بعض التواريخ أنه كان موضعها أجمة وشوكا، وكان الرض قرية عظيمة، بها بيعة من عهد المسيح - عليه السلام - منها حائط باق إلى الآن، ولما ولها سيف الدولة بن حمدان رم سورها، وكان قد تشعث، ولم يكن على الباب الأوسط باب، وكان قد مشط من الحديد، فكسره القاضي عبد الله بن الخليلي وزاد عليه وضرب الحديد مصراعين، وركبهما على الباب سنة ٣٣٣، وكان على الفصيل باب ضعيف فكسره القاضي أيضاً، وزاد عليه، واسم سيف الدولة والقاضي مكتوبان على البابين حفراً. وأجرى سيف الدولة قناة وساقها في وسط البلد، ودخل بها من باب الرض، وجاءت بين السورين، وأجراها في المدينة إلى أن أوصلها إلى القصر العتيق، ولما مات سيف الدولة اهتمت جميلة أخته في عمل الخندق حول ميفارقين، وكان سيف الدولة قد شرع فيه - الأعلام الخطيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٢٧١

(١) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١١٣

* أبو الهيثم بن الحصين، يتبين من رواية يحيى الأنطاكي، أن القاضي أبا الهيثم بن أبي الحصين لم يقتل في المعركة بل وقع في الأسر، وتمت المفاداة به، أما ابن العديم فيقول، إن قاضي حلب أبا حصين قتل في المعركة فداسه سيف الدولة بحصانه وقال له: لا رضي الله عنك، فإنك كنت تفتح لي أبواب الظلم، زبدة الحلب، ص ٧٧. ويذكر ابن العديم في موضع آخر فيقول: «وولي سيف الدولة أبا حصين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي قضاء حلب، وكان ظالماً، فكان إذا مات انسان أخذ تركته لسيف الدولة، وقال: «كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك» وعلى أبي حصين الدرك» زبدة الحلب - ص ٦٨، ولاشك أن رواية يحيى الأنطاكي هي الصحيحة، فالقاضي كان أسيراً عند الروم ولم يقتل في المعركة، وفداه سيف الدولة. أما رواية ابن العديم عن مقتل القاضي أبي الحصين وأن سيف الدولة داسه بحصانه، فهي رواية مدسوسة الهدف منها تشويه تاريخ سيف الدولة، وإظهار أن هزيمته في تلك المعركة كانت بسبب ظلمه لأهل حلب من جراء ما كان يقوم به القاضي من سلب تركات الموتى.

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٥

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧٧

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧٨

فأخذ المال وسار إلى ميفارقين وترك حران بغير وال^(١). ولما وصل إلى ميفارقين لم تمكنه حرمة سيف الدولة أم أبي المعالي من الدخول، وأمرت بغلق الأبواب في وجهه، وأظهر نجا الخلاف على سيف الدولة وأعلن خروجه عن طاعته، وسار إلى خلاط * فملكها، وقتل صاحبها أبا الورد، وهو رجل عربي كان يملك بعض بلاد أرمينيا، ومن ثم سار إلى منازل كرد وملكها ورجع إلى ميفارقين وحاصر حرمة مولاه وقاتلها وشتمها أقبح شتيمة، وكتب سيف الدولة إلى القواد الذين معه يأمرهم بقتله، فعصى عليه أهل منازل كرد، وسار إلى خلاط فعصى عليه غلامه المقيم فيها، ودفعه عن ما كان فيها من الأموال التي غنمها، وطالبه الجند بأرزاقهم، فلم يكن معه ما يعطيهم فشغبوا عليه وتفرقوا عنه^(٢). وسار سيف الدولة إلى ميفارقين، وأرسل إلى نجا يأمره بالمسير إليه وأمنه على نفسه وماله، وسار نجا إليه، فصطح عنه وأقام عنده وشرب بين يديه، فلما سكر شتم الغلمان وغلظ عليهم في القول، فاغتاضوا عليه، وكانت حرمة سيف الدولة أشد غيظًا عليه بحصاره لها وشتمه إياها، فصاح سيف الدولة على نجا وأمر أن يقام من بين يديه، فوثب الغلمان إليه بالسيوف وقتلوه^(٣)، وأمرت حرمة وهي بنت أبي العلاء بن سعيد بن حمدان، أن يُجرّ رجل نجا ففعل ذلك إلى أن أخرج من قصرها، وطُرح في مجرى ماء ينصب إليه المياه والأقدار، وبقي فيه إلى الغد، ثم أخرج وكفن ودفن^(٤).

خرج مروان العقيلي الذي كان يتولى الساحل وأعلن استقلاله، بينما كان سيف الدولة في رحلة الفداء^(٥). وسار إلى حمص فملكها ومن ثم سار إلى حلب، وعليها غلام سيف الدولة «قرعويه»، فأرسل هذا غلامًا له يدعى «بدر» فالتقى مع مروان في كفر طاب، فضربه بدر بسهم مسموم، فأصابه لكنه لم يمت مباشرة، بل انتصر على بدر وأسره وقتله صبرًا، ووصل إلى حلب ودخلها، ومن ثم كتب إلى سيف الدولة أنه من قبله، فسكن إلى ذلك، لكن مروان لم يلبث أن مات من جراء

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧٩

* خلاط، البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار الياضعة، وهي من فتوح عياض بن غنم. سار من الجزيرة إليها فصالحه بطريقها على الجزية ومال يؤديه، ورجع عياض إلى الجزيرة، وهي قصبة أرمينيا الوسطى، ولها البحيرة التي ليس لها في الدنيا نظير، يجلب منها السمك المعروف بالطرخ إلى سائر البلاد، وبحيرة خلاط من عجائب الدنيا، فإنه عشرة أشهر لا يكون فيها ضفدع ولا سرطان ولا سمكة، ثم يظهر فيها السمك مدة شهرين، في كل سنة، ويقال، إن قُباذ الأكبر لما طلسم أفاق بلاده وجه بليناس صاحب الطلسمات إلى أرمينية فلما صار إلى بحيرة خلاط فطلسمها، فهي عشرة أشهر على ما ذكرناه - معجم البلدان - ج ٢ - ص ٣٨٠.

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٠٤

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٠٧

(٤) تجارب الأمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - ج ٥ - ص ٣٤١

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٥

ذلك السهم، سنة ٣٥٤، فعاد قرعويه إلى خلافة سيف الدولة^(١).

وكان الملك نقفور قد استغل وجود سيف الدولة في ميافارقين، فنزل على المصيصة سنة ٣٥٤ وحاصرها حتى فتحها، وهرب الناس منها إلى «كفرييا»^{*}، فلحقهم فوق القتال على الجسر بين المصيصة وكفرييا فانهزم المسلمون وملك الروم كفرييا أيضًا، وساقوا جميع أهل المصيصة إلى بلد الروم^(٢). ومن ثم سار الملك نقفور من المصيصة إلى طرسوس وحاصرها وكان واليها رشيق النشيمي، والتمس أهلها الأمان، فأمنهم وسلموا له المدينة وخرجوا منها إلى أن وصلوا إلى أنطاكية^(٣). وكان الحاجب قرعويه قد عين على أنطاكية غلامًا له يدعى فتح^{*} فوثب عليه أهل أنطاكية وأخرجوه منها وسلموها إلى رشيق النشيمي الوارد من طرسوس، والتصق به انسان من أهل أنطاكية يدعى الحسن بن الأهوازي، وتولى تدبير أمره وأطمعه أن سيف الدولة لا يعود إلى الشام^(٤). وعمل له ابن الأهوازي كتابًا ذكر أنه من الخليفة ببغداد، بتقليده أعمال سيف الدولة، وقرأ هذا الكتاب على منابر أنطاكية^(٥). واجتمع لابن الأهوازي كمية من مال الضرائب، وطالب أغنياء أنطاكية بما ادعاه أنها ودائع موجودة لديهم، واستخدم بتلك الأموال فرسانًا ورجالة، واستأمن إليه دزيرين أونيم الديلمي وجماعة من الديلم الذين كانوا مع الحاجب قرعويه بحلب^(٦). فأصبح مع رشيق نحو خمسة آلاف رجل، فأرسل إليه قرعويه غلامه «يُمن» بعسكر، فخرج إليه رشيق من أنطاكية، والتقوا بأرتاح^{*}، فاستأمن يُمن إلى رشيق ومضى عسكره إلى حلب^(٧). وسار رشيق بهذا الجيش نحو حلب واستولى عليها، دون القلعة، في ذي القعدة سنة ٣٥٤، ونادى بالأمان، وكلف بعض أتباعه بقراءة كتاب مختلق منسوب إلى خليفة بغداد بتقليده أعمال سيف الدولة^(٨). وأقام رشيق يقاتل القلعة التي تحصن بها قرعويه وغلمانها، ثلاثة أشهر

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٦

* كفرييا، مدينة بإزاء المصيصة على شاطئ نهر جيحان، كانت مدينة كبيرة ذات أسواق كثيرة، وسور محكم وأربعة أبواب، كانت قد خربت قديمًا فجدد بناءها الرشيد - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٤ - ص ٤٦٨

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٠٧

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٠٨

* فتح، يسميه ابن العديم «تنج الثملي» - زبدة الحلب - ص ٨٦

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٠٨

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٧

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٧

(٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٧

(٨) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٧

* أرتاح، قال وليم الصوري عنها، إنها كانت مسكونة من قبل الأرمن. وكانت تعرف أيضًا باسم «ساليس»، وكانت مثل مرعش تمثل إحدى مدن الأسقفية التابعة لكرسي بطركية أنطاكية التي تبعد عنها خمسة عشر ميلًا. - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٦

وعشرة أيام، وبعد ذلك نزل غلمان قرعويه من القلعة وهجموا على أصحاب رشيق فهزموهم، وأخرجوهم من المدينة، وطارد الغلمان رشيق النشيمي، فحصلوه عند باب العراق، فوقع القتال بين الطرفين، فطعن ابن يزيد الشيباني رشيقاً فرماه، وكان ممن استأمن من عسكر سيف الدولة إلى رشيق، وأخذ رأسه، ومضى به إلى الحاجب قرعويه^(١)، وعاد عسكر رشيق إلى أنطاكية وأمروا عليهم دزير الديلمي، فاستوزر ابن الأهوازي، وسار إليه الحاجب قرعويه بجيشه، فأوقع به دزير، وانهزم قرعويه إلى حلب وتحصن بقلعتها، وتبعه دزير فملكها في جمادى الأولى سنة ٣٥٥، وأقام بها وابن الأهوازي بحاضر قنسرين، وجمع إليه بني كلاب وجبى الخراج من أعمال حلب وحمص، وفوض إلى القضاة والولاة والشيوخ والعمال والأعمال والولايات^(٢).

وعاد سيف الدولة من الفداء بعد رحلة دامت أربعة أشهر، فدخل حلب وعسكره ضعيف فبات بها وخرج إلى دزير وابن الأهوازي، وكان قد فلق وبطل شقه الأيسر، فالتقوا شرق حلب عند قرية تدعى «سبعين»* ولما نظروا كلاب سيف الدولة انقلبوا إليه، فأمنهم، ووضع السيف في عسكر دزير، فقتل جمعاً كثيراً، وأسر خلقاً، فقتلهم صبراً، وكان فيهم جماعة ممن اشتراه بماله من الروم في المفاداة، فسبقوه إلى الشام، وقبضوا الرزق من ابن الأهوازي، وجعلوا يقاتلون، فما أبقي على أحد منهم، وحصل دزير وابن الأهوازي في أسره، فأما دزير فقتله ليومه، وأما ابن الأهوازي فاستبقاه أياماً ثم قتله^(٣).

٦ - وفاة سيف الدولة وتدهور حلب من بعده

أصيب سيف الدولة، بالإضافة إلى الفالج، بعسر البول وزاد عليه المرض وكان بشيرز، فرحل إلى حلب وأقام بها عدة أيام، ووافاه الأجل يوم الجمعة لخمس بقين من شهر صفر سنة ٣٥٦، وكان عمره أربعاً وخمسين سنة قمرية، وثلاثاً وخمسين سنة شمسية^(٤). وتولى أمره أبو الهيثم بن أبي الحصين، وكان صديقه، وغسله عبد الحميد بن سهل المالكي، قاضي الكوفة، وغسله تسعة أغسال: غسل بالماء أولاً، ثم بالسدر، ثم بالصندل، ثم بالذريرة، ثم بالعنبر، ثم بالكافور، ثم بماء

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٨

* سبعين، قرية بباب حلب، كانت إقطاعاً للممتني من سيف الدولة، وإلها عني بقوله: أسير إلى إقطاع بثيابه على طرفه من داره بحسامه - معجم البلدان - ج ٣ - ص ١٨٥

(٤) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣١٣

الورد، ثم بالماء القراح أخيراً غُسلين^(١). ونَشَف بثوب ديبقي ثمنه نَيْف وخمسون ديناراً، أخذَه الغاسل مع ما أخذ. وصَيَّر بطلين صبر، ورطل مُر، ومنورين كافور، وجعل في لحيته ونحره مائة مثقال غالية، وفي أذنيه وعينيه وأنفه وعنقه ثلاثون مثقالاً كافوراً^(٢)، وكَفَّن في سبعة أثواب، تساوي ألف دينار، منها: قميص قصب أدرج فيه بالكافور، وبُردان معمدان حبرتان، وثوب شَرِب، وعمامة شَرِب. وجعل في التابوت مضربة، ومخدّتان، وذُرَّ على الجميع الكافور. وصلى عليه أبو عبد الله الأقساسي الكوفي، وكَبَّر عليه خمساً^(٣)*. وحمل تابوته إلى ميفارقين ودفن بها في تربته التي أقامها هناك^(٤).

وقام بالأمر من بعده غلامه قرعويه*، أما ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف، فقد كان في ميفارقين، فسار إلى حلب فدخلها يوم الاثنين لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٦^(٥). وطمع قرعويه بالملك وراح يدبر المؤامرات ضد سعد الدولة،. وأصبح رهينة في يده، وقد ساء أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الذي كان أميراً على حمص أن يرى قرعويه يسطو على ملك بني حمدان في حلب، وحاول أن ينبّه ابن أخته أبي المعالي شريف إلى خطورة الوضع لكن هذا كان صغيراً ولم يكن له إدراك الكبار، فركن إلى أقوال قرعويه في خاله أبي فراس، وكان بين الرجلين خلاف حول نجلاء الخالدية التي كان يهواها قرعويه وفاز بها أبو فراس^(٦)، وعندما سنحت له الفرصة أوغر صدر سعد الدولة ضده، فأرسل إليه يستدعيه إلى حلب، لكن أبو فراس امتنع عن الذهاب، وانحاز إلى صدد* وتحصن فيها، وعندما رأى سعد الدولة رفض خاله الحضور، ارتاب في أمره، وجمع بني

(١) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣١٤

(٢) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣١٤

(٣) الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٣١٥

* إشارة ابن شداد إلى أن الشيخ أبا عبد الله الأقساسي الكوفي قد صلى على سيف الدولة وكَبَّر عليه خمس تكبيرات، فهذا يدل على أن هذا الشيخ صلى عليه صلاة جعفرية، لأن الشيعة يكبرون على الميت خمس تكبيرات، وقد ورد في وسائل الشيعة للحر العاملي، «سئل بعض الصادقين، عليهم السلام، لم يكبر على الميت خمس تكبيرات؟ فقال: إن الله عز وجل فرض خمس صلوات فجعل للميت من كل صلاة تكبيرة» - ص ٨٦. وفي عيون الأخبار، «عن الحسين بن النضر قال، سألت الرضا عن العلة في التكبير على الميت خمس تكبيرات، فقال: روي أنها اشتقت من خمس صلوات، فقال: هذا ظاهر الحديث، فأما في وجه آخر فإن الله فرض على العباد خمس فرائض هي: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والولاية. فجعل للميت من كل فريضة تكبيرة واحدة، فمن قبل الولاية كَبَّر خمساً، ومن لم يقبل الولاية كَبَّر أربعاً، فمن أجل ذلك تكبرون خمساً ومن خالفكم يكبر أربعاً» - وسائل الشيعة للحر العاملي - ج ٣ - ص ٨٥

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨٩

* قرعويه، هناك من المؤرخين من يسميه قرغويه بالغين، وربما كان قرغويه، وهو ديلي من بلاد الديلم.

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩١

(٦) الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - ص ٢٩٢

* لَتَ مضرس، شيء صلب له نتوءات

كلاب وبني عقيل وفيهم ظالم العقيلي الذي كان واليًا على خرشنة، وبعث هذا الجيش بقيادة قرعويه لقتال أبي فراس، وعندما وصلوا إلى صدد خرج أبو فراس إلى لقائهم، وناوشهم، إلا أن معظم أصحابه قد استأنموا لجيش سعد الدولة، وقيل إن أبا فراس عندما علم ذلك دخل مع المستأنمين، فعرفه قرعويه، وأمر أحد غلمانه باللغة التركية أن يقتله، فضربه بِلَتٍ مضرّس*، فسقط، ونزل فاحترّ رأسه، وحمله إلى سعد الدولة وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٣٥٧^(١).

٧ - قرعويه ملك على حلب

بعد أن تخلص قرعويه من أبي فراس صفا له الجو، وقرر التخلص من سعد الدولة، وأوهمه أن نقفور يريد أن يقصد حلب، وطلب منه أن يخرج منها حفاظًا على سلامته، فخرج منها إلى بالس، وأرسل إليه قرعويه وقال له: «إمض إلى والدتك فإن أهل حلب لا يريدونك ولا يتركونك تعود إليهم»^(٢). وملك قرعويه حلب وقطع الخطبة لسعد الدولة، وأمر غلامه بكجور وشاركه في الأمر، ودعي لهما على المنابر وكتب اسم بكجور على العملة، وكان قرعويه يُخاطب بالحاجب، ويُخاطب غلامه بكجور بالأمير^(٣).

واستغل الملك نقفور الوضع في حلب فسار إلى أنطاكيا* ونازلها سنة ٣٥٧، فوجد دفاعاتها قوية، فأقام عليها يومين، ورحل فنزل على معرة مصرين وأمن أهلها من القتل، وكانت عدّتهم ألف ومائتي نفس، وأرسلهم إلى بلد الروم*.

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٢

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٣

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٤

* صدد، بلدة تقع في البادية ما بين دمشق وحمص وهي أقرب إلى حمص وتابعة إداريًا لها.

* أرسلهم إلى داخل الإمبراطورية الرومانية ليتم استخدامهم كرقيق في أعمال السخرة

* أنطاكيا، قال صاحب كمال الدين ابن العديم في كتابه «بغية الطلب في تاريخ حلب» في باب فضل أنطاكيا: ذكر الله أنطاكيا في القرآن، وسماها قرية وسماها مدينة في الموضعين. ذكرها في سورة الكهف في قصة الجدار الذي أراد أن ينقض فأقامه، وسماها في أول القصة قرية بقوله تعالى: «حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها» وسماها تبارك وتعالى في آخر القصة بالمدينة حيث قال جل من قائل: «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة» وجاء في تفسير ابن عباس، أنها أنطاكيا، وذكر ذلك أبو اسحق الثعالبي وغيره. وذكرها الله تعالى في قصة حبيب النجار، قال سبحانه وتعالى في أول القصة: (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) وقال عز من قائل في آخر القصة: (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى). وهي أنطاكيا. وعن تميم الداري قال قلت: (يا رسول الله ما رأيت بالروم مدينة مثل مدينة يقال لها أنطاكيا، وما رأيت أكثر منظرًا منها، فقال النبي، نعم، وذلك أن فيها التوراة وعصا موسى ورضراض الألواح، ومائدة سليمان بن داود في غار من غيراتها، ما من غمامة تشرف عليها من وجه من الوجوه إلا أفرغت ما فيها من البركة في ذلك الوادي ولن تذهب الأيام والليالي حتى يسكنها رجل من عترتي اسمه اسي واسم أبيه اسم أبي وخلقه خلقي وخلقُه خلقي، يملأ الدنيا قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورًا). - بغية الطلب - ج ١ - ص ١٠٠

وفتح معرة النعمان وحماة وحمص وأخذ منها رأس القديس يوحنا المعمدان^(١). وسار إلى طرابلس وأحرق ما حولها، وسار إلى حصن عرقا فحاصره وفتحه وأخذ منه خلقاً، ومنهم أمير طرابلس وهو «أبو الحسن أحمد بن نحرير الأرغلي»، لأن أهل طرابلس كانوا قد طردوه، وكان موسراً، وكان معه ضبنة* كثيرة، ومال جزيل، فأسره وأخذ جميع المال^(٢). ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها، وحصل في يده من السبي ما لا يحصى عدده وفتح حصن أنطربوس*، ومريقية، وحصن جبلة، وصالح أهل اللاذقية عليها، وخرب من القرى ما لا يحصى^(٣). وانتقل إلى أنطاكية فبنى حصن بغراس مقابل أنطاكية في فم الدرب، ورتب فيه رئيساً يقال له ميخائيل البرجي، ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته، ورتب معه ألف رجل^(٤) وعاد الملك إلى القسطنطينية، وأرسل غلامه بطرس الاسطراطوبدرج، الذي يسميه ابن العديم وغيره من مؤرخي الشرق «الطربازي»*، ولما وصل إليها رعى سائر زروعها ورساتيقتها*، وأتى عليها وقوى حصن بغراس بالرجال، ورتب في المقاطعات عيشلش السرياني في جماعة معه يغيرون على أنطاكية وما يليها^(٥).

وعاد أبو المعالي شريف إلى حلب سنة ٣٥٨، وأقام عليها ثلاثة أشهر مقاتلاً لقرغويه الحاجب^(٦). وكان قد تغلب على أنطاكية بعد وفاة سيف الدولة أحد الغلمان ويدعى «علوش الكردي». وجاء من مصر رجل أسود ممن أفلت من ممالك الطرسوسيين يدعى «الرغيلي» في نفر قليل ليغزو بهم إلى أطراف الروم، فأقام في أنطاكية مدة مع علوش، ودخل الرغيلي مرة ليسلم عليه، فقتله، وهرب أصحاب علوش وكانوا كثيرين، واستولى الرغيلي على أنطاكية^(٧). وسمع بطرس الاسطراطوبدرج بما جرى، فجاء مسرعاً ومعه عسكر ضخم ونزل على أنطاكية، واجتمع إليه ميخائيل البرجي المقيم بحصن بغراس، وكانت أنطاكية ضعيفة

(١) تاريخ أنطاكية «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٢٦
* الضبنة من الرجل، بطانته وحاشيته

(٢) تاريخ أنطاكية «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٢٦٠

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٢٧
* مدينة أنطربوس، مدينة صغيرة على البحر لها سور حصين وعلى مقربة منها في البحر جزيرة أرواد وهي جزيرة كبيرة فيها كنيسة كبيرة معمورة متقنة البناء شاهقة منيعة ذات أبواب حديد وهي كالمحرس - نزهة المشتاق - الشريف الإدريسي - الجزء الثالث - ص ٣٧٥

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٢٧

(٥) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٢٨
* الطربازي، يقول ابن العديم في أحداث سنة ٣٥٨: «وكتب قرغويه إلى الروم فاستدعى بطريقاً كان في أطراف بلاد الروم لنجدته وهو خادم لنقفور ويعرف بالطربازي - زبدة الحلب ص ٩٤
* الرساتيقي، مفردة رستاق، كلمة فارسية تعني الكورة أو المنطقة.

(٦) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٣٣

(٧) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٣٥

بسبب الغارات المتكررة على أعمالها، وتقاعس أهلها عن حمايتها، ولم يتوقعوا أن يقصدها الروم، وعندما جاء هؤلاء لم يتمكن الأهالي من إرسال رجال إلى الجبل المجاور للسلور لحراسته، فرآه الروم خاليًا فبادروا بالطلوع إليه، فلم يروا أحدًا فيه، واستدعوا رفاقهم، فملكوا المدينة في ذي الحجة سنة ٣٥٨، وأسروا جميع سكانها، وأطلقوا من كان بها من النصارى وأقروهم فيها^(١).

ويقول ابن الأثير في أحداث سنة ٣٥٩: «في هذه السنة في المحرم ملك الروم مدينة أنطاكية»^(٢). لكن ابن الأثير لم يأت على ذكر حادثة الرغيلي الذي كان سببًا بسقوط هذه المدينة، فربما لم يسمع بها.

ولما علم أبو المعالي شريف بسقوط أنطاكية، رحل عن حلب إلى حمص وأقام بها^(٣). ويقول ابن الأثير: «لَمَّا ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشًا كثيفًا إلى حلب، وكان أبو المعالي محاصرًا لها، وبها قرعويه السيفي متغلبًا عليها، فلما سمع أبو المعالي خبرهم، فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم، وحصروا البلد وفيه قرعويه، وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة، فملك الروم المدينة وحصروا القلعة»^(٤).

ويقول الأنطاكي: «وسار بطرس الاسطراطوبدرج إلى حلب، فتحصن أهلها بالقلعة، ونازل المدينة وحاصرها سبعة وعشرين يومًا، وترددت المراسلات على الصلح وهدنة مؤبدة ومال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم عن حلب وحمص وجميع أعمالها من المدن والقرى، وهو ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، وسبعة قناطير ذهب عن خراج هذه الأعمال، وعن كل رجل حالم دينار واحد في السنة، سوى ذوي العاهات، وأن يكون لملك الروم صاحب مقيم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها من البلاد، ويرفعه إلى الملك. وكُتب بينهم كتاب بذلك وسلموه إليه شهادة على حمل المال وانصرف عنهم»^(٥).

ويروي ابن العديم هذه الحادثة بطريقة مختلفة فيقول: «ومن ثم سار الطربازي (بطرس الاسطراطوبدرج) إلى حلب منجدًا قرعويه وبكجور، وعندما علم به أبو المعالي فك الحصار وذهب إلى خناصرة ومنها إلى المعرة، وطمع الطربازي بحلب وقرر السيطرة عليها، فأرسل إليه قرعويه طالبًا الهدنة وأن يدفع لهم الجزية، وأن يحمل إليهم كل سنة سبعمائة ألف درهم، وشرطوا أن الأمير على حلب قرعويه والأمر بعده لبكجور، وإن ورد عسكر إسلامي يريد غزو بلاد الروم

(١) تاريخ الأنطاكي ١ «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٣٥

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣١٨

(٣) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٣٥

(٤) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٣١٨

(٥) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ١٣٥

منعه قرعويه، وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الإسلام تلقاه بكجور إلى المكان الذي يؤمر بتلقيه فيه، وإن دخل من بلد الإسلام جاموس* إلى بلد الروم أخذ، وحبس، ولا يخرب المسلمون حصناً، ولا يحدثوا حصناً، بالإضافة إلى سوى ذلك من الشروط المجحفة، وعادت الروم عن حلب، وبقي الحاجب قرعويه في ولايتها، والتدبير إليه وإلى غلامه بكجور، وذلك في صفر سنة ٣٥٩^(١). ويذكر ابن الأثير شروط الهدنة التي ذكرها ابن العديم نفسها.

ونعتقد أن رواية الأنطاكي هي الصحيحة والأكثر دقة من الروايات الأخرى حول هذه الواقعة.

٨ - ملك سعد الدولة لحلب

يذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٣٥٩ فيقول: «في هذه السنة في ربيع الآخر اصطليح قرعويه غلام سيف الدولة بن حمدان، وأبو المعالي بن سيف الدولة، وخطب لأبي المعالي بحلب، وكان بحمص، وخطب هو وقرعويه في أعمالهما للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب ومصر»^(٢). ومن هذا النص يتبين أن سعد الدولة ملك حمص وحماة وما بينهما، وبقي في يد قرعويه حلب وما حولها. وأن الاثنين أعلننا التبعية للدولة العلوية بمصر.

ولا يذكر ابن العديم هذا الصلح، بل ينتقل إلى أحداث سنة ٣٦٤ حيث يقول: «وفي سنة ٣٦٤ تمكن بكجور من القبض على سيده قرعويه وأودعه سجن القلعة واستولى على حلب، وانفرد بالحكم، وحين علم سعد الدولة بذلك توجه إلى حلب ومعه بنو كلاب، وفرض حصاراً عليها، واستنجد بكجور بالروم لكن هؤلاء كانوا منشغلين بقضايا داخلية، منعتهم من إنجاده، وعند ذلك دخل سعد الدولة إلى حلب وانهزم بكجور إلى القلعة وتحصن بها، وراسله سعد الدولة في التسليم فسلم

* قال البلاذري في حديثه عن سبب وجود الجواميس في حلب ومنطقة الثغور: قال أبو النعمان الأنطاكي: «كانت الطريق بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الأسد، فلما كان الوليد بن عبد الملك شكي ذلك إليه فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها. وكان محمد بن القاسم الثقفي عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما بعث من الأربعة آلاف وألقى باقيها في أجام كسكر، ولما خلع يزيد بن المهلب قتل وقبض يزيد بن عبد الملك أموال بني المهلب أصاب لهم أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر فوجه بها يزيد بن عبد الملك إلى المصيصة أيضاً مع زطها فكان أصل الجواميس بالمصيصة ثمانية آلاف جاموسة وكان أهل أنطاكية وقنسرين قد غلبوا على كثير منها واختاروه لأنفسهم في أيام فتنة مروان بن محمد بن مروان، فلما استخلف المنصور أمر بردها إلى المصيصة، وأما جواميس أنطاكية فكان أصلها ما قدم به الزط معهم وكذلك جواميس بوقا - فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري - ص ١٧٢

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير المجلد السابع - ص ٣٢٣

القلعة إليه سنة ٣٦٧، فأكرمه سعد الدولة وولّاه على حمص وجندها^(١).

ويجعل ابن الأثير دخول سعد الدولة إلى حلب في سنة ٣٦٨ فيقول: «في هذه السنة عاد أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى ملك حلب، وكان قرعويه قد استناب بحلب مولى له اسمه بكجور فقوي واستفحل أمره، وقبض على مولاه قرعويه، وحبسه في قلعة حلب، وأقام بها نحو ست سنين، فكتب من بحلب من أصحاب قرعويه إلى أبي المعالي بن سيف الدولة ليقصد حلب ويملكها، فسار إليها وحصرها أربعة أشهر وملكها، وبقيت القلعة بيد بكجور، فترددت الرسل بينهما، فأجاب إلى التسليم على أن يؤمنه على نفسه، وأهله، وماله ويوليه حمص، وطلب بكجور أن يحضر هذا الأمان والعهد وجوه بني كلاب، ففعل أبو المعالي ذلك، وأحضرهم الأمان والعهد، وسلّم قلعة حلب إلى أبي المعالي، وسار بكجور إلى حمص، وأصبح واليًا عليها وصرف همه إلى عمارتها وحفظ الطرق، فازدادت عمارتها وكثر الخير بها»^(٢).

وتبدو رواية ابن الأثير أكثر دقة وصوابًا من رواية ابن العديم، وأن بكجور ملك حلب ست سنوات، وأن الحلبيين ضاقوا ذرعًا بممارساته، فكتبوا إلى سعد الدولة يستدعونه من حمص ليؤثوه عليهم، فسار إلى حلب وحاصرها أربعة أشهر وتسلمها وخرج بكجور منها. واستقرّ سعد الدولة في حلب، واستمرّ بالدعوة للدولة العلوية، وقام بتغيير الأذان العباسي على المذهب الحنفي، واستبدله بالأذان الجعفري الذي فيه (حيّ على خير العمل)، واستمرّ هذا الأذان قائمًا في حلب وأعمالها حتى منعه محمود بن زنكي وأعاد الأذان الحنفي كما سنرى لاحقًا.

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٩٩

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٧٣

الفصل الرابع

الدعوة العلوية وقيام الدولة الفاطمية

١- كيف بدأت الدعوة الفاطمية

كانت الدعوة العباسية في بدايتها، دعوة هاشمية، ولذلك فقد نالت رضى العلويين، لكن بعد انتصار أبي مسلم الخراساني في معركة الزاب الكبير سنة ١٣٢ على مروان بن محمد الأموي المعروف بمروان الحمار، سار إلى الكوفة وأرسل وراء أولاد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وكانوا في قرية الحميمة بالأردن، فحضر إليه ولده عبد الله الأكبر «أبو العباس السفاح» وعبد الله الأصغر «أبو جعفر المنصور» فبادر إلى عبد الله الأكبر وأعلن البيعة له بالخلافة، فقامت دولة بني العباس. واقتصر عبد الله الأكبر من بني أمية فقتل كل من وجد منهم ونبتش قبور موتاهم، لكن حكمه لم يدم طويلاً، فقد توفي سنة ١٣٦، فخلفه أخوه عبد الله الأصغر «المنصور» وتوجه هذا إلى قتال العلويين، فقتل النفس الزكية وأخاه إبراهيم وحبس والدهما عبد الله المحض حتى توفي في حبسه، وفرّ ولده إدريس نحو بلاد المغرب الأقصى فأكرم العرب هناك وفادته وولّوه عليهم وأسس الدولة الإدريسية.

وقد أدرك بعض رجال العلويين أن العباسيين نقضوا عهدهم وساروا سيرة بني أمية ضدهم، ولذلك بدأ السعي لإقامة دعوة علوية خالصة، فكانت دعوة الحسن بن علي «الأطروش» في بلاد الديلم، وأيضاً الدعوة العلوية الأخرى التي وجدت لها تربة خصبة في بلاد المغرب ومن هناك انطلقت في أرجاء العالم العربي. وقد ارتبطت هذه الدعوة بأولاد إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، وانطلقت من اللحظة التي انشغل فيها الشيعة بغيبة الإمام الثاني عشر، وهو محمد بن الحسن العسكري. وقد كان هناك شخص يدعى أبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب بن زاذان الكوفي، وكان قد قرأ القرآن وقوّمه وطلب الحديث والفقه، وكان ممن يذهب إلى مذهب الإمامية الاثني عشرية^(١)، لكنه، كما يقول القاضي أبو حنيفة النعمان*، أنكر ما يقوله هؤلاء حول غيبة المهدي، وترك أهله وخرج نحو الفرات أو

(١) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٤

* القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، خدم المهدي أول الأئمة الفاطميين نحو تسع سنوات، ثم خدم القائم وفي أيام القائم عين قاضيًا في طرابلس الغرب، ولما بنيت المنصورية في أيام الخليفة المنصور صار النعمان قاضيًا لها وما زال مقرًا للأئمة حتى صار قاضي القضاة في عهد المعز وحضر معه إلى مصر حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣ - ديوان المؤيد بالله داعي الدعوة الفاطمية - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٧

قيل دجلة، وهناك التقى بالإمام محمد الحبيب، فأعجب به كثيرًا، ولزمه.

ويقول أبو القاسم عن علاقته بالإمام محمد الحبيب: «كان الإمام يخصني ويقربني ويرمز بقرب الأمر ويقول في كثير من كلامه: (البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن)»^(١).

ويقول أبو القاسم: «وقال لي الإمام يومًا: هل لك في غربة في الله؟ قلت، مولاي الأمر إليك ما أمرتني». ويقول: «وطلب مني الإمام الذهاب إلى اليمن، وقال لي: (عدن لاعة فاقصد، وعليها فاعتمد، منها يظهر أمرنا، وفيها تُعزّ دولتنا ومنها تفرق دعائنا)»^(٢).

وأرسل الإمام معه شخصًا آخر هو علي بن الفضل وهو أحد الأخيار من مدينة جيشان في اليمن^(٣)، فانطلق الرجلان في رحلة الدعوة، ونزل أبو القاسم في مدينة عدن لاعة، ونزل علي بن الفضل في جبل خنفر في أبين. ونجح أبو القاسم في تكوين دولة علوية في اليمن بمساعدة علي بن الفضل، وكان يسمى «منصور اليمن» لما أُتيح له من النصر، وكان إذا قيل له ذلك قال لهم: المنصور إمام من أئمة آل محمد^(٤).

وكان قد قدم إلى بلاد المغرب في سنة ١٤٥ رجلاً من المشرق، قيل إن أبا عبد الله جعفر بن محمد بعثهما، وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة وينشرا فضلهم، وأمرهما أن يتجاوزا أفريقيا «تونس» إلى حدود البربر، ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية^(٥). فلما صارا إلى مرماجنة*، نزل أحدهما، وكان يُعرف بأبي سفيان بها بموضع يقال له: «تالا»*، فابتنى مسجدًا، وتزوج امرأة واشترى عبدًا وأمة، فيقال، إنه كان يعمل مع عبده، ويأمر امرأته فتعمل مع أمتها، وكان له الفضل والعبادة والذكر في تلك الناحية ما اشتهر ذكره، وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت «صلوات الله عليهم» ويأخذونها عنه، فمن قبله تشيع من تشيع من أهل مرماجنة، وهي دار شيعة، وهو كان سبب تشيعهم، وكذلك أهل الأريس، ويقال أيضًا، إنه كان سبب تشيع أهل نفطة^(٦).*

(١) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٨

(٢) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ١١

(٣) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٩

(٤) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٣

(٥) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٢٧

* مرماجنة، قرية بأفريقيا لهوارة من البربر عن أبي الحسن الخوارزمي، قال المهلب: بين مرماجنة والأريس مرحلة -

معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٥ - ص ١٠٩

* تالا، تدعى اليوم تالة إيفاسن، مدينة تقع شمال شرق الجزائر تتبع إقليميًا وإداريًا لولاية سطيف.

(٦) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٢٧

أما الثاني، فكان يُعرف بالخلواني، وأنه تقدم حتى وصل إلى سوجمار*، فنزل منه موضعاً يقال له الناظور، فبنى مسجداً وتزوج امرأة واشترى عبداً وأمة، وكان في العبادة والفضل والعلم علماً في موضعه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيع كثير منهم على يده من كتامة، ونفزة*، وسماته، وكان يقول لهم: بُعثت - أنا وأبو سفيان - فقليل لنا: اذهبا إلى المغرب فإنكما تأتيا أرضاً بوراً، فاحرثاها، وأكريها* وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبه فيها^(١).

ومات أبو سفيان بممرجانة وقبره بها في موضع يعرف مكانه ومسجده، وعاش الخلواني بعده دهراً، وخلف بنتاً يقال لها أم موسى، ومات بالناظور من أرض سوجمار، وثم قبره ومسجده^(٢).

وكان أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالمتحسب، مقيماً بالبصرة، وكان مشهوراً بالعلم على مذهب الإمامية الباطنية*، وقد اتصل بالإمام محمد الحبيب الذي خبر أهليته، فأرسله إلى منصور اليمن، الذي أخبره أن أرض كتامة في المغرب قد حرثها اثنان وقد ماتا الآن وليس لها غيرك*^(٣)، ثم بعثه مع الحاج اليمني إلى مكة، فأتى الموسم ولقي به رجالات كتامة، فاختلف بهم وعكفوا عليه لما رأوا عنده من العبادة والزهد، وارتحل معهم إلى بلدهم^(٤)، فوصلوا يوم الخميس من شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠، فتنازع أبا عبد الله كل واحد من الكتاميين

* نفطة، يقول ياقوت الحموي عنها: «نفطة مدينة بأفريقيا من أعمال الزاب الكبير، وأهلها شراة إباضية ووهبية متمردون، وبين نفطة ومدينة توزر مرحلة - معجم البلدان - ج ٥ - ص ٢٩٦

* أكريها، أكر الأرض: حرثها، وزرعها

* سوجمار، اختلف المؤرخون فيها، فالقاضي النعمان في كتابه، افتتاح الدعوة، قال بأن سوجمار هي من أرض سماته، أما ابن خلدون، فيذكرها بسوق جمار، وأنها أرض كتامة، أما المقريزي فسمها، سوق جمادن - تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط - هجرة كراع - ص ١٤
* نفزة، مدينة تقع شمال غرب تونس.

(١) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٢٩

(٢) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٢٩

(٣) افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٢٩

* كان بين دخول أبي سفيان والخلواني أرض المغرب وبين دخول صاحب البذر، وهو أبو عبد الله، مئة وخمس وثلاثون سنة - افتتاح الدعوة - ص ٢٩

* الإمامية الباطنية، يعتقد الإسماعيلية أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت، وأن هذه العلوم هي علوم الباطن، ولذلك سموا الباطنية، لأن اعتقادهم بهذا العلم هو قوام عقيدتهم، وأن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والمثول، أي تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويمثلها من الأمور الجسمية المحسوسة، وهذا الاسم مأخوذ من أقوال الفاطميين: «إن الله جعل له مثلاً دالاً على مثوله فعرفوا المثل بمثله إذ يقول الله سبحانه وتعالى: «ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون» فأخفى الله المثل وستره وجعل مثله طريقاً إلى معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم - المجالس المستنصرية - ابن عبد الرحمن الملطي - ص ١٠

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٤

ليذهب به إلى موضعه رغبة به، لكن صار أمرهم في ذلك إلى المنازعة، ثم آل أمره إلى أن يختاره في حيث يحب أن يقصد وتراضوا في ذلك، فقال، في أي موضع عندكم فج يسمى «فج الأخيار» فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم رأوه قد علم ذلك، ثم قالوا: هو عند بني سكتان، وطريقهم من هذا الموضع، قال، فإليه نقصد ثم نأتي كل قوم منكم إن شاء الله، في مواضعهم ونزورهم في بيوتهم، ولا نقبل لأحد منكم من نفسي حظاً دون أحد. فأرضاهم بذلك، وسار كل قوم منهم إلى جهتهم^(١).

وسار أبو عبد الله مع حريث وموسى وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان، موضع موسى وحريث من بني سكتان، فما صار إلى فج الأخيار قال لهم: هذا فج الأخيار، قالوا: نعم، ثم قال له موسى وحريث، والله ما نعلم أنا ذكرنا لك هذا الفج، فمن أين علمت اسمه ثم نراك قد عرفته دون أن نعرفك به. وكان بعد ذلك يقول: «والله ما سمّي هذا الفج إلا بكم ولقد جاء في الحديث (أن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان، في زمان محنة وافتتان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان) فأنتم هم كتامة، وبخروجكم من هذا الفج يُسمى «فج الأخيار»^(٢).

ونزل أبو عبد الله بإيكجان*، فأقام بها، وصدر عنه كل من كان من الحجاج من كتامة إلى مواضعهم، فأخبروا من قدموا عليهم من أصحابهم بأخباره، ووصفوا لهم علمه وحاله، فأقبل الناس عليه من كل ناحية وتسامعوا به، فكان يجلس لهم ويحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب «صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده عليهم السلام»^(٣). وكانوا يسمونه أبا عبد الله المشرقي والشيوعي^(٤). وكان أمير الدعوة محمد الحبيب قد توفي وأوصى لابنه عبيد الله، وقال له: «أنت المهدي، وتهاجر بعدي هجرة بعيدة، وترى محناً شديدة»^(٥)، فقام عبيد الله بالأمر وانتشرت دعوته، وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره، وشاع خبره وطلبه المكتفي العباسي، فهرب هو وولده نزار الذي ولي بعده، وتلقب بالقائم، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وانتهى إلى مصر وعليها عيسى النوشري، وكان عبيد الله يتستر بزي

(١) افتتاح الدعوة» الداعي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ٤٨

(٢) افتتاح الدعوة - الداعي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٤٨

* إيكجان، تعني بالعربية «دار الهجرة» وهي مدينة بناها أبو عبد الله الشيعي بجبل إيكجان، الموجود في منطقة بني عزيز في ولاية سطيف الجزائرية.

(٣) افتتاح الدعوة - الداعي النعمان بن حيون التميمي المغربي - ص ٤٩

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٤

(٥) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٤

التجار^(١)، وجاء كتاب المكتفي للنوشري بالقبض عليه، وفيه صفته وحليته، فبث العيون في طلبه، ونمي الخبر بذلك إلى عبيد الله من بعض خواص النوشري، فخرج في رفقة تجار، وراه النوشري وأحضره، فلم تشهد له أحواله بشيء مما ذكره عنه، فخلّى سبيله. وجد المهدي في السير، وكان له كتب في الملاحم* ورثها منقولة عن أبيه سرقت من رحله في بعض الطريق، ويقال، إن ابنه أبا القاسم استردها لما زحف إلى مصر من بلاد برقة^(٢).

ولما انتهى المهدي وابنه إلى طرابلس وفارقه التجار أهل الرفقة، أرسل أبا العباس أخا أبي عبد الله الشيعي إلى أخيه بكتامة، ومربا بالقيروان، وقد سبق خبرهم إلى زيادة الله الذي تولى ملك أفريقيا بعد موت والده إبراهيم بن الأغلب، فقبض على أبي العباس وسأله فأنكر فحبسه، وكتب إلى عامل طرابلس بالقبض على المهدي ففاته وسار إلى قسنطينة* فعدل عنها خشية على أبي العباس أخي الشيعي المعتقل بالقيروان، وذهب إلى «سجلماسة»* وبها اليشع بن مدرار فأكرمه، ثم جاءه كتاب زيادة الله، وقيل كتاب المكتفي، بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه، وبعث زيادة الله العساكر إلى كتامة مع قريبه إبراهيم بن حيش، وكانوا أربعين ألفاً، فانتهى إلى قسنطينة فأقام بها وهم متحصنون بخيلهم ستة أشهر، ثم زحف إليهم ودافعهم عند مدينة بلزمة، فانهزم إلى القيروان، وكتب أبو عبد الله بالفتح إلى المهدي وهو في محبسه، ثم زحف إلى «طبنة»* فملكها بالأمان، ثم إلى «بلزمة»* فملكها عنوة، فبعث زيادة الله العساكر مع هارون الطنبلي فانتهاوا إلى مدينة دارملوك، وكانوا قد أطاعوا أبا عبد الله الشيعي فهدمها هارون، وقتل أهلها، وسار إلى الشيعي فانهزم من غير قتال وقتل^(٣). وفتح الشيعي «مدينة عيسى»* فزحف زيادة الله في العساكر سنة ٢٩٥، ونزل «الإريس»، ثم أشار إليه أصحابه بالرجوع إلى القيروان ليكون ردةً للعساكر، فبعث الجيوش مع إبراهيم بن أبي الأغلب من قرابته، ورجع وزحف أبو عبد الله إلى «باغاية»* فهرب عاملها وملكها، ثم إلى مدينة «مرماجنة» فافتتحها عنوة وقتل عاملها ثم إلى مدينة

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٤
* كتب الملاحم، هي كتب فيها أخبار الزمان كان الخلفاء الفاطميون يتوارثونها عن آباءهم.

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٥
* قسنطينة، مدينة تقع شرق الجزائر.

* سجلماسة، مدينة في جنوب بلاد المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، يمر بها نهر كبير يخاض، «نهر السنغال» قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد ٣ - ص ١٩٢

- تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٥
* طبنة، مينة أثرية تقع في إقليم دائرة بركة بباتنة في الجزائر.

* بلزمة، تقع في الجهة الشرقية من الجزائر على بعد حوالي ٧ كلم شمال مدينة باتنة.

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٥

«تيفاش»*، فملكها على الأمان، واستأمن إليه القبائل من كل جهة، فأمنهم وسار بنفسه إلى «مسلبابة»، ثم إلى «تبسة*»، ثم إلى «مجانة*» ففتحها على الأمان، ثم سار إلى القصرين من «قمودة» وأمن أهلها وسار يريد «رقادة*». وبلغ الخبر إلى إبراهيم بن الأغلب وهو بالإريس أميراً على الجيش، فخشي على زيادة الله برقادة لقلته عسكره، وارتحل ذاهباً إليه. وسار أبو عبد الله إلى قسنطينة*، فحاصرها وافتتحها على الأمان، ورجع إلى باغاية فأنزل بها عسكراً، وعاد إلى إيكجان، فسار إبراهيم بن أبي الأغلب إلى باغاية وحاصراً أصحاب أبي عبد الله بها، فبعث أبو عبد الله عساكره إلى مرج العرعار فألفوا إبراهيم قد عاد عنها إلى الإريس.

ثم زحف أبو عبد الله إلى إبراهيم سنة ٢٩٦ في مئة ألف مقاتل، وبعث من عسكره، من يأتي بإبراهيم من خلفه، وسار إليه فانهزم، وأثنى فيهم أبو عبد الله بالقتل والأسر، وغنم أموالهم وخيلهم وظهرهم، ودخل الإريس فاستباحها، ثم سار فنزل قمودة، وبلغ الخبر إلى زيادة الله فهرب إلى مصر^(١). وافترق أهل مدينة رقادة إلى القيروان وسوسة*، ونهب قصور بني الأغلب، ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، ونزل قصر الإمارة وجمع الناس ووعدهم الحماية، وطلب المساعدة بطاعتهم وأموالهم، فاعتذروا وخرجوا إلى الناس فأخبروهم، فثاروا به وأخرجوه، وبلغ أبا عبد الله الشيعي هرب زيادة الله، فدخل إلى رقادة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبي خنزير فساروا وأمنوا الناس، وخرج أهل القيروان للقاء أبي عبد الله فأكرمهم وأمنهم، ودخل رقادة في رجب سنة ٢٩٦، ونزل قصورها، وفرق دورها على كتامة، ونادى بالأمان، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وأمر بحفظها وبحفظ جواريه، واستأذنه الخطباء لمن يخطبون فلم يبين لهم أحداً، ونقش على السكة (العملة) من أحد الوجهين: «بلغت حجة الله»، ومن الوجه الآخر: «تفرق أعداء الله». وعلى السلاح: «عدة في سبيل الله»، ووسم أفخاذ

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٦

* رقادة، مدينة أغلبية تقع وسط البلاد التونسية وعلى مسافة ١٠ كم جنوبي غرب مدينة القيروان.

* مدينة سيدي عيسى، تقع جنوب شرق الجزائر العاصمة، تبعد عنها ١٧١ كلم.

* باغاية، هي مدينة جزائرية تقع في ولاية ماسكولا (خنشلة حالياً).

* تيفاش، تقع مدينة تيفاش في ولاية سوق أهراس بالجزائر.

* -تبسة، هي مدينة جزائرية عاصمة ولاية تبسة، تقع بين جبال الدكان والققاع وبورمان وهي من سلسلة جبال الأوراس يحدها شمالاً ولاية سوق أهراس ومن الشرق الجمهورية التونسية وجنوباً ولاية الوادي ومن الجنوب الغربي خنشلة ومن الشمال الغربي ولاية أم البواقي.

* قسنطينة، مدينة في مركز الشرق الجزائري على بعد نحو ٤٠٠ كيلومتر عن الجزائر العاصمة،

* مجانة، هي إحدى دوائر ولاية «برج بوعريريج» الجزائرية.

* سوسة، مدينة تقع وسط السواحل الشرقية لتونس.

الخييل بـ «الملك لله»^(١).

وسار أبو عبد الله إلى المغرب، ففرّق القبائل من طريقه، وخافته زناته فدخلوا في طاعته، ولما قرب من سجلماسة، أرسل إلى اليسع يتلطفه، فقتل الرسل، فأغذ أبو عبد الله السير وحاصره يومًا، وهرب اليسع من الليل هو وأصحابه وبنو عمه، وخرج أهل البلد إلى أبي عبد الله فجاء إلى مجلس المهدي فأخرجه هو وابنه أبا القاسم وأركبهما ومشى مع رؤساء القبائل بين يديه وهو يقول: «هذا مولاكم» ويبكي من شدة الفرح، ثم أنزله بالمخيم وبعث في أثر اليسع فجاء به فجلد، ثم قتل، وأقام بسجلماسة أربعين يومًا ورجع إلى أفريقيا، ووصل إلى رقادة في ربيع سنة ٢٩٦، وجدّد البيعة للمهدي واستولى على ملك بني الأغلب بأفريقيا، وتلقب المهدي أمير المؤمنين، وبعث دعائه في الناس فحملوهم على مذهبهم، فأجابوا إلا قليلًا فعرض عليهم السيف، وقسم الأموال والجواري في رجال كتامة، وأقطعهم الأموال والأعمال، ودون الدواوين وجبى الأموال، وبعث العمال على البلاد^(٢).

ولا شك أن قيام الدولة العلوية في المغرب هو أصدق دليل على أن الكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين، وأن الدين لا يحتاج إلى القتال لنشره.

٢- موقف العباسيين من العلويين

منذ أن توطدت أركان الدولة العلوية في بلاد المغرب بدأ العباسيون يحاولون القضاء عليها، وعندما غلب العلويون على مصر وتوسعوا في سوريا والجزيرة العربية وكادوا يأخذون العراق نفسه، زاد حقد بني العباس عليهم، لأن العلويين أقاموا خلافة إسلامية موازية فزاحموا خلافة بني العباس، ورفعوا الشرعية عنها، وأيضًا فقد أظهر العلويون الخروج على مدرسة النقل الإسلامية التي ترسخت منذ القضاء على مدرسة العقل المتمثلة بالمعتزلة على يد جعفر المتوكل العباسي الذي ما إن وصل إلى الحكم سنة ٢٣٢، حتى أمر، كما يقول المسعودي، «بترك النظر والمباحثة في الجدل، والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة»^(٣). أي التزام النقل بشكل كامل، وكانت مدرسة آل البيت وعلومهم تقوم، منذ البداية، على التأويل، أي أعمال العقل في فهم الروايات الدينية، ومن هنا قامت علوم الباطن، وهي العلوم التي اتخذها أهل النقل، كممسك ومطعن

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٦

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٧

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ج ٤، ص ٧١

في صحة عقيدة العلويين في مصر ومن شايعهم واتباعهم من أبناء الأمة، ودرجوا على تكفيرهم، وإطلاق ألقاب «الباطنية والملاحدة» عليهم، ونسبتهم إلى غير الإسلام.

وفي سنة ٤٠٢ كتب العباسيون محضراً بالطعن في نسب الخلفاء الفاطميين، وشهد في هذا المحضر «المرتضى وابن البطحاوي وابن الأزرق والزكي وأبو يعلى عمر بن محمد، ومن العلماء والقضاة ابن الأكفاني وابن الجزري وأبو العباس الأبيورد وأبو حامد الاسفراييني والكستلي والقُدوري والصهيري وأبو عبد الله البيضاوي وأبو الفضل النسوي وأبو عبد الله النعمان فقيه الشيعة»^(١). وعاد العباسيون فكتبوا محضراً مماثلاً بعد دخول الملك السلجوقي طغرل بك إلى بغداد. حيث يقول ابن خلدون: «ثم كتب ببغداد محضر آخر مثل ذلك سنة ٤٤٤ وزيده فيه انتسابهم إلى الديصانية من المجوس وبني القداح من اليهود، وكتب فيه العلوية والعباسية والفقهاء والقضاة، وعملت به نسخ وبعث بها إلى البلاد»^(٢).

غير أن بعض عقلاء الأمة في الماضي، رفضوا الطعن في نسب الخلفاء العلويين ومن هؤلاء العلامة ابن خلدون الذي يقول في حديثه عن الفاطميين: «نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم، وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق ابن محمد المكتوم ابن إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق. ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، فكتاب المكتفي إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار يغريهم بالقبض عليه لما سار إلى المغرب، شاهد بصحة نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

ألبسَ الذلَّ في بلاد الأعادي وبمصرَ الخليفةَ العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيدُ القصي
لَفَّ عرقي بعرقه سيّدنا س جميعاً محمدٌ وعليُّ

وأما المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر سنة ٤٠٢، فهو شهادة على السماع، وكان ذلك متصلاً في دولة العباسية منذ مئتين من السنين فاشياً في أمصارهم وأعصارهم، مع أن طبيعة الوجود في الانقياد لهم، وظهور كلمتهم أدلّ شيء على صدق نسبهم. وأما من جعل نسبهم في اليهودية أو النصرانية لميمون القداح أو غيره، فكفاه إثماً تعرّضه لذلك»^(٣).

(١) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٣٨

(٢) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٣٨

* الشريف الرضي ٣٥٩-٤٠٦ أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى الأبرش بن محمد الأعرج بن موسى أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - ديوان الشريف الرضي» ص ١٤

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٢

وشتان ما بين هذه الشهادة، وبين شهادة ابن كثير الذي طعن في نسبهم وزعم أنهم أدعياء كذبة فقال: «ومما يدل على أن هؤلاء أدعياء كذبة وأنهم لا نسب لهم إلى علي بن أبي طالب ولا إلى فاطمة، قول ابن عمر للحسين بن علي حين أراد الذهاب إلى العراق: (لا تذهب إليهم فإني أخاف عليك أن تقتل وأن جدك قد خيّر بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة على الدنيا، وأنت بضعة منه، وإنه والله لا تنالها لا أنت ولا أحد من خلفك ولا من أهل بيتك)، فهذا الكلام الصحيح من هذا الصحابي يقتضي أنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت إلا محمد بن عبد الله المهدي الذي يكون في آخر الزمان، ومعلوم أن هؤلاء قد ملكوا مصر مدة طويلة فدلّ ذلك دلالة قوية ظاهرة على أنهم ليسوا من أهل البيت»^(١).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، ألم يكن الإمام علي بن أبي طالب من أهل البيت، ألم يل خلافة المسلمين لمدة قاربت الخمس سنوات، وأيضاً ألم يكن الأدارسة من أهل البيت وقد حكموا المغرب مدة قاربت مئتي سنة، وأيضاً أليس الأسر الحاكمة اليوم في بعض البلاد العربية من أهل البيت؟ إن هذا الحديث الذي استند إليه ابن كثير هو حديث موضوع من قبل الوضّاعين في العهد الأموي، تحديداً، والهدف منه هو تبرير إقصاء آل البيت عن مفاصل الحكم آنذاك.

٣ - توجه الفاطميين شرقاً

بعد أن توطدت أركان دولة المهدي ببلاد المغرب عقد عزمه على التوسع شرقاً، فأرسل الدعاة إلى مصر لتهيئتها للخلافة القادمة، وراح يبعث الجيوش نحوها، ففي سنة ٣٠٠ أنفذ المهدي أحد قواده ويدعى «حباسة» في جيش كبير فافتتح برقة وانهزمت بين يديه الجيوش التي كانت للمقتدر، وسار حباسة إلى الإسكندرية فملكها، وملك الفيوم^(٢). وفي سنة ٣٠٢ أنفذ المهدي ابنه القائم في جيش مدداً لحباسة، فسار إلى الجيزة وملك الإسكندرية وأكثر أعمال الصعيد،

* يقول ابن خلدون في حديثه عن ابتداء دولة الفاطميين بأفريقيا: «فقام عبيد الله بالأمر وانتشرت دعوته، وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجالاً من كتامة يخبرونه بما فتح الله عليهم، وأنهم في انتظاره، وشاع خبره وطلبه المكتفي فهرب هو وولده نزار الذي ولي بعده، وتلقب بالقائم، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، و انتهى إلى مصر وعلمها يومئذ عيسى النوشري، فلبس عبيد الله زي التجار يتستر به، وجاء كتاب المكتفي للنوشري بالقبض عليه، وفيه صفته، وذهب المهدي إلى سجلماسة، وفيها اليشع بن مدرار، فجاء كتاب زيادة الله بن الأغلب، ويقال كتاب المكتفي بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه». تاريخ ابن خلدون - المجلد الثالث - ص ٤٤٤ و ٤٤٥

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ٣٤٦

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيجا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٦٨

ثم رجع إلى المغرب^(١).

وتوفي المهدي سنة ٣٢٢ وكانت خلافته ٢٥ سنة وثلاثة أشهر، وجلس في الخلافة بعده ابنه وولي عهده أبو القاسم محمد القائم بأمر الله، وأظهر الحزن عليه أيام حياته، ولم يركب، ولم يخرج من باب قصره^(٢).

وجهاز القائم جيشاً إلى مصر، فدخلوا الإسكندرية، فأخرج إليهم محمد الأخشيد عسكرياً كثيفاً فقاتلهم وهزموا المغاربة^(٣).

وتوفي القائم بأمر الله أبو القاسم محمد سنة ٣٣٤، وخلفه ولده إسماعيل الذي تلقب بالمنصور بالله، ومن ثم توفي المنصور سنة ٣٤١ وخلفه ولده معدّ وتلقب المعز لدين الله، وأرسل القائد أبا الحسن جوهر الصقلي، فتوسع في بلاد المغرب ووصل إلى البحر المحيط، ومن ثم عاد وأرسله سنة ٣٥٨ في جيش كثيف إلى الديار المصرية، وكان كافور الأخشيدي قد مات سنة ٣٥٦، فاختلفت القلوب من بعده ووقع غلاء شديد^(٤).

ويذكر ابن إياس الحنفي، أن أعيان مصر كتبوا إلى المعز الفاطمي وكان في بلاد المغرب، بأن يحضر إلى الديار المصرية ويتسلم المدينة ويتولى عليها، فلما وقف المعز على تلك المكاتبات أرسل إلى مصر الأمير جوهر الصقلي سنة ٣٥٨^(٥). ولما عرفت العساكر الأخشيدية بمسير القائد جوهر، هربوا من مصر جميعهم قبل وصوله في سابع شعبان، فلما دخل جوهر القائد إلى مصر أمر خطباء المساجد أن يخطبوا باسم المعز لدين الله، وأمر المؤذنين أن يجهروا في الأذان بـ«حي على خير العمل» فشق ذلك على الناس*^(٦).

٤- تطلع الفاطميين نحو سوريا

بعد أن استقرت الأوضاع في مصر، أرسل القائد جوهر جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي إلى سوريا، فبلغ الرملة، وكان فيها الحسن بن عبد الله بن طغج، فقاتله

(١) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٦٩

(٢) تاريخ الأنطاكي «صلة تاريخ أوتيا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - ص ٧١

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣٢٢

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣٠٩

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي - ج ١ - ص ١٨٤

(٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي - ج ١ - ص ١٨٥

* ويذكر ناصر خسرو أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد حضر إلى مصر عن طريق البحر، وحين وصل تقدم له بالطاعة قائد الجيش، ونزل المعز في هذا الموضع الذي هو «القاهرة» اليوم، لأن ذلك الجيش كان قاهراً - سفرنامه -

في ذي الحجة سنة ٣٥٨، وجرت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح، وأسر ابن طعج وغيره من القوادر، وأرسلهم إلى جوهر، ومن ثم أرسلهم جوهر إلى المعز بتونس، ودخل ابن فلاح البلد عنوة فقتل كثيراً من أهله، ثم آمن من بقي وجبى الخراج، وسار إلى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله، فتركه وانتقل إلى دمشق، فقاتله أهلها وامتنعوا عليه لكنه انتصر عليهم ودخل البلد عنوة، وأقام الخطبة للمعزي يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم سنة ٣٥٩، وقطعت الخطبة العباسية^(١).

ومن ثم سار القائد جعفر إلى الساحل فأخذ صور وصيدا وبيروت وطرابلس، ولم يذهب إلى حمص وحماة وحلب لأن سعد الدولة وقرعويه كانا قد سارعا لإقامة الدعوة للمعز لدين الله، كما رأينا سابقاً، وأرسل القائد جعفر سرايا من جيشه فأخذوا طرطوس وجبلية وتوغلوا في جبال الساحل وسيطروا على العديد من القلاع في مناطق صافيتا ودريكيش والشيخ بدروبا نياس، وأرسل غلامه فتوح مع عسكر عظيم إلى أنطاكية سنة ٣٦٠، ونازلها خمسة أشهر ولم يتم له فيها شيء ولا حيلة، فانصرف عنها بعد أن عظم استضرار أهلها بحصاره لها^(٢).

ولو سقطت أنطاكية لكانت سقطت اللاذقية، وهكذا ظل الروم يفرضون سيطرتهم على المدينتين.

٥- الصراع بين الفاطميين والقرامطة

كان القرامطة قد عرفوا بسيطرة الفاطميين على سوريا، فانزعجوا لأن الحسن بن عبيد الله بن طعج كان قد وافق أن يعطيهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار مقابل أن يكفوا عنه^(٣). فعزموا على قصد سوريا واستعادتها، فأرسل ملكهم الحسين بن أحمد بن بهرام، من قاعدته في هجر، إلى عز الدولة بختيار ملك العراق يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال، فوافق أن يساعدهم خوفاً على ملكه من الفاطميين، واتفق الجانبان أنه إذا وصل القرامطة إلى الكوفة متجهين نحو سوريا، حمل عز الدولة إليهم ما يحتاجون إليه^(٤). فلما وصل الجيش القرمطي بقيادة أبي علي الجنابي إلى الكوفة أعطاهم عز الدولة مليون درهم وألف جوشن وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جعبة^(٥). وسار الجنابي بجيشه نحو

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - المجلد السابع - ص ٣١٠

(٢) الدر المنثور في تاريخ مملكة حلب - قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن الشحنة - ص ٢١٠

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد السابع - ص ٣٢٦

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١

دمشق، وبلغ القائد جعفر خبرهم، فاستهان بهم ولم يحترز منهم، ولم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه، وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها^(١). وغلب الجنابي على سوريا واجتمع إليه العرب وسار إلى الرملة وبها سعادة بن حيان واليًا من قبل الفاطميين، فلما عرف به خرج من الرملة نحو يافا وتحصن بها، ودخل أبو علي الجنابي الرملة وامتلكها، ومن ثم سار نحو مصر، وترك في الرملة أبا محمد عبد الله بن عبيد الحسني^(٢). كما أرسل إلى يافا عسكريًا ليحصرها، ولما وصل إلى مصر اجتمع إليه خلق كثير من العرب، والجند والأخشيدية، والكافورية، فاجتمعوا بعين شمس عند مصر، واجتمعت عساكر جوهر وخرجوا إليهم، فاقتتلوا غير مرة وكان الظفر في النهاية للعسكر الفاطمي، فعاد القرامطة إلى سوريا ونزلوا الرملة ومن ثم حاصروا يافا حصارًا شديدًا، وضيقوا على من بها، فأرسل القائد جوهر من مصر نجدة إلى أصحابه المحصورين بيافا ومعهم ميرة في خمسة عشر مركبًا فأرسل القرامطة مراكبهم فأخذوا مراكب جوهر، ولم ينج منها غير مركبين، غنمهما مراكب الروم^(٣).

وكان الخليفة المعز لدين الله قد انتقل من المدينة المنصورة في تونس للإقامة في القاهرة سنة ٣٦١، وجعل على تونس يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري. ولما استقر في مصر، خاف منه القرامطة وقرروا قتاله، فساروا إليه من الإحساء ومقدمهم الحسن بن أحمد، فلما سمع بهم الخليفة المعز كتب إلى الحسن بن أحمد كتابًا، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته، وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله، ووعظه وبالحق وتهدده. فأجابه الحسن بن أحمد: «وصل كتابك الذي قلّ تحصيله، وكثرتفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره والسلام»^(٤). وسار حتى وصل إلى مصر فنزل على عين شمس وبث سراياه في البلاد ينهاونها وكثرت جموعه، وأتاه من العرب خلق كثير، وكان ممن أتاه حسان بن الجراح الطائي أمير العرب بسوريا، ومعه جمع عظيم، فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمه وتحير في أمره، ولم يقدم على إخراج عسكره لقتاله، فاستشار أهل الرأي من نصحاء فقالوا: «ليس حيلة غير السعي في تفريق كلمتهم، وإلقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك إلا بآب الجراح»^(٥). فراسله المعز واستماله وبذل له مئة ألف دينار إن هو خالف القرمطي، فأجابه ابن الجراح إلى ما طلب منه، فاستحلفوه، فحلف أنه إذا وصل إليه المال المقرر انهزم

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٢٦

(٢) تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٢٧

(٤) لكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٣

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٣

بالناس، فأحضروا المال فلما رأوه استكثروه، فضربوا أكثرها دنانير من نحاس، وألبسوها الذهب وجعلوها في أسافل الأكياس، وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحُمِلَ إليه^(١). فأرسل إلى المعز أن يخرج بجيشه يوم كذا، ويقاثلونه وهو في الجهة الفلانية فإنه يهزم، ففعل المعز ذلك، فانهزم وتبعه العرب كافة، فلما رآه الحسن القرمطي منهزماً تحير في أمره وثبت، وقاتل بعسكره إلا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوا الحملات عليه، فأرهقوه، فولّى منهزماً، واتبعوا أثره، وظفروا بعسكره فأخذوا من فيه أسرى، وكانوا نحو ألف وخمسمئة أسير، فضربت أعناقهم، ونهب ما في المعسكر، وأرسل المعز أبا محمود بن إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل، وأمره باتباع القرامطة والإيقاع بهم، فاتبعهم وتناقل في سيره خوفاً أن ترجع القرامطة إليه، وأما هم فإنهم ساروا حتى نزلوا أذرع وساروا منها إلى بلدهم الإحساء^(٢).

٦- تمرد دمشق على الفاطميين

كان المعز لدين الله قد أرسل القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق، فدخلها وعظم حاله، وكثرت جموعه وأمواله، وكان قد اعتقل أبا المنجا وابنه اللذين تركهما القرمطي على دمشق، وأخذ أموالهما وكل ما يملكانه، ثم إن القائد أبا محمد بن إبراهيم قد تابع بجيشه حتى نزل على دمشق بعد وصول ظالم بن موهوب العقيلي إليها، فخرج ظالم متلقياً له مسروراً بقدومه لأنه كان متخوفاً من عود القرمطي إليه^(٣). لكن عسكر أبي محمود أفسدوا، كما يقول القلانسي، وامتدت أيديهم إلى أملاك الدمشقيين، وقطعوا الطريق، فاضطرب الدمشقيون وخافوا، ثم إن صاحب الشرطة أخذ إنساناً من دمشق وقتله، فثارت العامة والأحداث، وقتلوا أصحاب صاحب الشرطة، ووقف ظالم بين الدمشقيين يداريهم، ومن ثم وقع القتال بين العامة والأحداث وبين جيش أبي محمود، وقتل من الفريقين خلق كثير، وظلوا كذلك إلى ربيع الآخر سنة ٣٦٤، حيث ترأسوا في الصلح، فاستقر الأمر بين القائد أبي محمود، والدمشقيين على إخراج ظالم من البلد، وأن يليه جيش بن الصمصامة، وهو ابن أخت أبي محمود، واتفقوا على ذلك، وخرج ظالم من دمشق، وتولاها جيش، وسكنت الفتنة واطمأن الناس^(٤). ثم إن المغاربة عاثوا وأفسدوا باب الفراديس، كما يقول القلانسي، فثار الناس

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٤

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٤

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٦

عليهم وقتلوههم، وصاروا إلى القصر الذي فيه جيش، فهرب منه هو ومن معه من الجند المغاربة، ولحق بالعسكر، وفي الغد زحف جيش بالعسكر إلى دمشق، وقتله الدمشقيون ودام القتال بينهم أياماً كثيرة، فاضطربت الناس وخافوا، وخربت المنازل وانقطعت المواد، وانسدّت المسالك، وبطل البيع والشراء، وقطع الماء عن البلد فبطلت القنوات والحمامات، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد^(١). ووصل الخبر إلى الإمام المعز لدين الله، فأنكر ما يجري واستبشعه واستعظمه، وأرسل إلى القائد ريان الخادم والي طرابلس، يأمره بالمسير إلى دمشق لمشاهدة حالها، وكشف أمور أهلها، وتعريفه حقيقة الأمر وأن يصرف القائد أبا محمود عنها، فامتل ريان ذلك، وسار إلى دمشق وكشف الأمر فيها وكتب به إلى المعز، وتقدم إلى القائد أبي محمود بالانصراف عنها فسار في جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة، وبقي الأكثر منهم مع ريان وبقي الأمر كذلك^(٢).

٧ - ألفتكين والفتنة المذهبية

كان أكثر ما يغيظ الدمشقيين هو فرض التشيع عليهم وهم الذين عاشوا منذ بدء عهد الدولة الأموية على عادات وتقاليد إسلامية مخالفة لما رأوه من المغاربة العلويين. ولذلك كانوا مستعدين لفعل أي شيء في سبيل الخلاص منهم. وكان قد وصل إلى دمشق شخص تركي يدعى «ألفتكين» وكان هذا غلاماً لمعز الدولة البويهى ومن ثم أصبح من جملة قوّاد ولده عز الدولة بختيار، وعندما وقعت الفتنة بين الديلم والترك في جيش عز الدولة سنة ٣٦٣، قدّم الترك عليهم ألفتكين وساروا إلى عز الدولة وهو بواسط وقتلوه ورجحت كفة النصر لصالحهم، فاستنجد عز الدولة بعضد الدولة ابن عمه ركن الدولة، فسار نحو العراق فوصل سنة ٣٦٤، والتقى مع الأتراك بقيادة ألفتكين وهزمهم، واستولى على العراق. وفرّ ألفتكين بمجموعة من الترك نحو سوريا فوصل إلى حمص، فنزل بالقرب منها، ومن ثم سار إلى دمشق ونزل على مقربة منها، وكان أميرها حينئذٍ ريان الخادم، وكان الأحداث قد غلبوا عليها^(٣). فلما علم شيوخ وأشراف دمشق بألفتكين، خرجوا إليه وأظهروا السرور بقدومه، وسألوه أن يقيم عندهم ويملك بلدهم، ويزيل عنهم سمة المصريين فإنهم يكرهونهم لمخالفة الاعتقاد، ولأنهم أمويون، فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الطاعة والمساعدة، وحلف لهم

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٤٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٥٥

على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره^(١). ودخل دمشق وأخرج منها ريان الخادم، وقطع الخطبة للمعز بالله العلوي، وخطب للخليفة الطائع لله العباسي، في شعبان سنة ٣٦٤^(٢). وكاتب المعز لدين الله بمصر يظهر له الطاعة والانقياد، فشكره وطلب منه أن يحضر عنده ليخلع عليه ويعيده والياً من جانبه، فلم يثق إليه وامتنع من المسير، فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده، فمرض وانتقل إلى جوارربه سنة ٣٦٥، وقام بالأمر بعده ولده نزار أبو منصور العزيز بالله.

واستغل الفتكين الموقف وسار فيمن اجتمع إليه من أهل دمشق والمناطق المحيطة بها، ونزل على صيدا وكان بها ابن الشيخ والياً ومعه رؤوس من المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي، فقاتلهم وقتل منهم نحو أربعة آلاف، وانهزم ابن الشيخ وظالم بن موهوب العقيلي ومن بقي من العسكر إلى صور، ثم سار إلى طبريا ففعل فيها مثل صيدا من القتل والنهب^(٣)، وطمع الفتكين في أخذ عكا وتوجه نحوها^(٤).

وكان ابن الشمشقيق، كما يقول القلانسي، قد دخل سوريا ووصل إلى حمص، فأرسل إليه الفتكين يطلب مساعدته وأنه وأهل دمشق تحت طاعته، فأرسل ابن الشمشقيق رجلاً من قبله يدعى أبو بكر بن الزيات لأخذ العهد من أهل دمشق، وأرسل إليهم معه صليبا بالأمان، وأن يدفعوا له قطيعة سنوية مقدارها مئة ألف درهم نظير الحماية^(٥).

ولم يرسل الرومان أي جيش لمساعدة الدمشقيين خوفاً من الاصطدام مع المصريين، ولذلك كان من الواضح أن فتنة الفتكين آيلة إلى الزوال بسبب انعدام الحليف القوي. وكان الإمام العزيز قد أرسل إلى الفتكين يستميله ووعدته بأن يصطنعه ويقرّبه، فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة، وقال: «هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً»^(٦). وغازى العزيز هذا

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٥٥

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٥٥

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٥٦

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٣

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥

* يقول أبو يعلى القلانسي، وكان الوزير ابن كلس يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكروءهء وفطنة، وكان في قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرملة فجلس وكيلاً للتجار فلما اجتمعت الأموال التي للتجار كسرها وهرب إلى مصر في أيام كافور الأخشيدي، فتجاره وحمل إليه متاعاً كثيراً، وكان يجول ببضاعته على ضياع مصر فكان إذا دخل قرية عرف غلتها وارتفاعها وظاهر أمرها وباطنها، وكان ماهراً في أشغاله لا يسأل عن شيء من أمورها إلا أخبر به عن صحة فكبرت حاله وخبر كافور بخبره وما فيه من الفطنة والسياسة فقال: لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً، فبلغه ما قال كافور فطمع في الوزارة فدخل جامع مصر في يوم الجمعة وقال أنا مسلم على يد كافور، فبلغ الوزير ابن حنّابة وزير كافور ما هو عليه

الجواب منه ، فاستشار الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس* فيما يدبر أمر الفتكين ، فأشار بإخراج القائد جوهر إليه مع العساكر ، فأمر العزيز بالشروع في ذلك وترتيب الأمر فيه^(١).

وجمع الفتكين وجوه دمشق وشيوخها ، وقال لهم : « قد علمتم أنني لم أتوسطكم وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومرادكم ، وقد طلبني من هذا السلطان (العزيز بالله) ما لا طاقة لي به ، وأنا منصرف عنكم ودخل إلى بلاد الروم وعامل على طلب موضع أكون فيه واستمد ما أحتاج إليه منه لئلا يلحقكم بقصد من يقصدكم ما يثقل به الوطأة عليكم وتصل به المضرة إليكم »^(٢). فقالوا لألفتكين : « ما اخترناك لرئاستنا وسياستنا حتى نمكنك من تركنا ومفارقتنا ونفوسنا دونك وبين يديك في المدافعة عنك »^(٣). وجددوا له البيعة على الطاعة.

وسار جوهر بالعسكر حتى وصل إلى الرملة ، فكتب ألفتكين بالرفق والملاطفة ووعد به بإعطائه ما يريد مقابل ترك إثارة الفتنة ، فلما وصل إليه الكتاب ، أراد ألفتكين أن يجيب عليه بالرفق والطاعة والقبول ، لكن كاتبه المدعو ابن الخمار* ، أرسل كتاباً إلى القائد جوهر يذم فيه معتقد العلويين ويتوعددهم بالقتال ، ولما وقف القائد جوهر على هذا الكتاب ، سار بالعساكر نحو دمشق ، فنزل ، كما يقول القلانسي ، في منطقة الشماسية ، وبرز إليه ألفتكين بجنده وحشده ومن العرب المتأثرين بالدعوة الأموية ، ونشبت الحرب بين الفريقين لمدة شهرين وقتل فيها عدد كثير من الطائفتين^(٤).

وما طمع فيه فقصدته فخاف منه وهرب إلى المغرب وقصد يهوداً كانوا هناك مع أبي تميم المعز لدين الله أصحاب أمره فصارت له عندهم حرمة فلم يزل معهم إلى أن أخذ المعز مصر فعاد معه إليها فلما توفي المعز وأصحابه اليهود وولي العزيز بالله استوزره في سنة ٣٦٥ وكان هذا الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس كبير الهمة قوي النفس والمنة عظيم الهيبة فاستولى على أمر العزيز وقام به واستصحبه فعول عليه وفوض أمره إليه وكانت أموره مستقيمة بتدبيره فلما اعتل علة الوفاة ركب إليه العزيز عائداً فشاهده على حال اليأس فغمه أمره وقال له: وددت بأنك تباع فابتاعك بملي أو تفتدي فأفديك بولدي ، فهل من حاجة توصي بها يا يعقوب ، فبكى وقبل يده وتركها على عينه وقال: أما ما يخصني يا أمير المؤمنين فلا ، لأنك أرعى بحقي من أن استرعيك إياه وأرأف على من أخلفه من أن أوصيك به ، لكني أنصح لك فيما يتعلق بدولتك. قال: قل يا يعقوب فقولك مسموع ورأيك مقبول: قال: سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك ، وأقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبقي على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة. وتوفي في ذي الحجة سنة ٣٨٠ ، فأمر العزيز أن يدفن في داره في القاهرة في قبة كان بناها لنفسه وحضر جنازته وصلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف عنه حزناً بفقدته وأغلق الدواوين وعطل الأعمال أياماً. - ذيل تاريخ دمشق - ص ٣٢

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦

* يقول القلانسي ، وكان كاتب ألفتكين المعروف بابن الخمار ، وهو يرى غير رأي المغاربة ويزري عنده على اعتقادهم ويقرر في نفسه وجوب قتالهم.

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦

وأشار الدمشقيون على ألفتكين بأن يكاتب الحسن بن أحمد القرمطي ليساعده في قتال المصريين، فأرسل ألفتكين رسوله على جناح السرعة، وجاء القرمطي متوجهاً إليه في عسكره، وعرف القائد جوهر بذلك، وخاف من الوقوع بين عدوين، فرجع إلى طبريا، ووصل القرمطي إلى ألفتكين واجتمعا وتحالفا وسارا في أثر القائد جوهر، فاندفع منهما إلى الرملة وأقام بها، وأنفذ رحله وأثقاله إلى عسقلان، وكتب إلى الإمام العزيز يعرّفه بصورة الحال، ويستأذنه في قصد عسقلان إن دعت به إلى ذلك ضرورة^(١). ووافى ألفتكين والقرمطي ونزلا على الرملة ونازلا القائد جوهر وقتلاده، واجتمع إليهما من عرب سوريا خمسين ألف فارس وراجل، فنزلوا على نهر الطواحين الذي يبعد عن الرملة ثلاثة فراسخ، وكان أهل الرملة يشربون منه، فقطعوا ماء النهر عنهم، واحتاج الجيش المصري والرعية إلى الماء، وكان الماء المجتمع من المطر في الصحاريح قليلاً وإلى نفاذ، ورأى القائد جوهر أنه لا قدرة له على المقام والمقاومة، فارتحل إلى عسقلان، وتبعه العدو إلى هناك، ونزلوا على عسقلان محاصرين لها حتى قلّ الطعام وعلت الأسعار، وكان الوقت شتاء ولا يمكن حمل الأقوات من مصر إلى هناك عبر البحر، وطلب القائد جوهر الأمان من ألفتكين على أن يخرج من عسقلان بأصحابه إلى مصر، فوافق ألفتكين، فرحل القائد جوهر ووصل إلى مصر ودخل إلى الإمام العزيز وشرح له الحال، فقال له العزيز: ما الرأي، قال، إن كنت تريد لهم فأخرج إليهم بنفسك وإلا فإنهم واردون على إثري^(٢).

وأمر العزيز بإخراج الأموال ووضع العطاء في الرجال، وبرّز بروزاً كلياً، واستصحب الخزائن والذخائر وتوايبت آبائه على ما جرت عليه عادة الخلفاء من قبله*^(٣). وسار جوهر في مقدمته، ووردت الأخبار إلى ألفتكين والحسن القرمطي بما جرى، فعادا إلى الرملة وجمعا العرب واتفقا واحتشدا واستعدا، وورد العزيز في العساكر ونزل في الموضع المعروف بقصر ابن السرح بظاهر الرملة وألفتكين والقرمطي على مقربة منه في الموضع المعروف بـ«بركة الخيزران» وبات العسكران على أتم الاستعداد وباكرا الحرب، وقد اصطف كل منهما ميمنة وقلباً وميسرة، وهجم ألفتكين بمن معه على ميسرة الجيش العلوي، فكسرها، وشاهد العزيز ما جرى وكان في القلب، فأوعز إلى الميمنة بالهجوم، وهجم هو والمظلة على رأسه، فانهزم ألفتكين والقرمطي. ووضع الجيش المصري السيوف في عسكريهما، فقتل منهما

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨

* ربما كان الخلفاء العلويون يعتقدون أن وجود توايبت آبائهم معهم في وقت الحروب ينصرهم على أعدائهم، كما كان بنو إسرائيل يصحبون تابوت الوصايا معهم عندما يذهبون للقتال، وبالتالي ربما كان الخلفاء يعتقدون أن وجود توايبت آبائهم هو بمثابة تجديد البيعة لهم بالسير على طريقهم.

(٣) تاريخ مشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨

نحو عشرين ألف رجل^(١). ومضى الحسن القرمطي هارباً على وجهه، وعاد العزيز إلى المعسكر، ونزل في مضاربه، وجلس الأسرى بحضرته، والجيش يجيئه بمن يقع في أيديهم من الأعداء، وبذل العزيز لمن يجيئه بألف دينار، فاعتقله المفرج بن دغفل بن الجراح، وكان صديقه، ووكل به جماعة من أصحابه، وسار هو إلى الإمام العزيز، وتوثق منه في المال الذي بذله في ألفتين، ثم عرّفه بحصوله بين يديه، وأخذ القائد جوهرًا، ومضى فسلمه إليه، وورد المبشرون إلى العزيز بوصوله، فأمر بإحضار كل من وقع في الأسر فأمنهم وكساهم ورتبهم في أشغالهم المنسوبة إليهم في خدمته*، ووصل ألفتين وقد خرج العسكر لاستقباله، وهو لا يشك أنه مقتول. فأمر العزيز بأن يأتي إليه، وكان جالسًا في مضاربه وبين يديه مختار الصقلي صاحب القصر ومعه جماعة من الخدم والصقالبة يمنعون الناس من الدخول إلى الخليفة، فلما وصل القائد جوهر ومن معه من القادة إلى مضارب الخليفة ترجلوا عن خيولهم، وتقدموا إلى باب سرادق العزيز وقبلوا الأرض ففعل ألفتين مثل ذلك ودخل المضارب المعدة له، وحمل إلى مقعد يجلس عليه، فرمى نفسه إلى الأرض ورمى ما على رأسه وعفّر خديه بالتراب وبكى بكاء شديدًا، وقال: «ما استحققت الإبقاء عليّ فضلاً عن العفو الكريم والإحسان الجسيم، لكن مولانا أبي إلا ما تقتضيه أعرافه الشريفة وأخلاقه المنيفة»^(٢).

وكان العزيز قد أنفذ الرسل وراء الحسن بن أحمد القرمطي فلاحقوه بطبرية وأعادوا عليه الرسائل والصفح عما جرى منه والدعاء إلى وطء البساط ليصطنعه ويصطفيه والتماس ما يريده وكان الوسيط جوهر، ووافق القرمطي على ثلاثين ألف دينار له ولأصحابه تحمل إليهم كل سنة، ويكونوا على الطاعة والمواذعة^(٣). وهكذا استطاع العزيز بحكمته أن ينهي تلك الفتنة وأن يعيد الاستقرار إلى دمشق وسوريا.

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩

* ليس هناك أجمل من هكذا معاملة للأسرى، ولبيت كانت معاملة الأسرى في التاريخ الإسلامي، كلها على هذه الشاكلة، لكن للأسف، فهذا التاريخ مليء بالظلم لأولئك المساكين الذين كانوا يقعون أسرى في المعارك، حيث كان يتم قتلهم بلا شفقة أو رحمة، أو في أقل تقدير كان يتم استرقاقهم وبيعهم كعبيد.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٠

* قسام التراب، يقول القلانسي، كان قسام هذا في أصله من قرية بجبل سنير «القلمون» تدعى تلفيتا من قوم يقال لهم الحارثون بطن من بطون العرب، نشأ بدمشق وكان يعمل في التراب، ثم إنه صحب رجلاً يقال له ابن الجطار من مقدمي الأحداث وحملة السلاح وطالبي الشرف فصار من حزبه وتزايد أمره إلى ما انتهى إليه - ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٧

٨ - دمشق وقسّام التراب

عندما انهزم ألفتكين، تقدم على دمشق رجل يدعى «قسّام التراب» * وكان هذا مقرّباً من ألفتكين، وقد كثرتابعه من الأحداث، فاستولى على المدينة وحكم فيها. وكان القائد أبو محمود قد عاد إلى دمشق والياً عليها للإمام العزيز، لكن لم يتم له الأمر بسبب وجود قسّام، وكان لا حكم له^(١). وكان قسّام يقيم الدعوة للإمام العزيز بالله، في محاولة منه لنيل رضاه وتثبيتته على ولاية دمشق، لكن ذلك لم يقنع الدولة التي أرسلت سنة ٣٦٩ سلمان بن جعفر بن فلاح والياً على دمشق، فوصل إليها ونزل خارجها، ولم يتمكن من دخولها، ودفع قسّام أصحابه لقتال سلمان فقاتلوه وأخرجوه من الموضع الذي كان فيه^(٢).

وكتب قسّام محضراً وأرسله إلى الإمام العزيز، يزعم فيه أنه كان بالجامع عند وقوع تلك الفتنة وأنه لم يشهدها، وأنه إذا قصده عضد الدولة بن بويه أو عسكر له، فإنه سيقاتله وسيمنعه من أخذ دمشق، فأغضى الإمام العزيز لقسّام لأنه كان يخاف أن يقصد عضد الدولة سوريا^(٣). ولذلك تمّ استدعاء سلمان بن جعفر بن فلاح إلى مصر، وعاد القائد أبو محمود إلى دمشق ولا حكم له، والحكم جميعه لقسّام^(٤). لكن الدولة المصرية لم تكن لترضى عنه وقد فرض نفسه عليها وهو، في حقيقة أمره، يتربص بها الدوائر، ولذلك كان لا بدّ من القضاء عليه، وجاءت الفرصة لذلك عندما قويت شوكة المفرج بن الجراح الطائي في فلسطين، وكثر جمعه، وبالع في العبث والفساد وتخريب البلاد، فجهز الخليفة العزيز العساكر وسيّرها وجعل عليها القائد بلتكين التركي، فسار إلى الرملة واجتمع إليه من العرب من قيس وغيرها جمع كثير، فالتقوا مع ابن الجراح، فهزموا جمعه، ومضى ابن الجراح منهزماً إلى أنطاكية، ومن ثم كاتب بكجور بمحمص والتجأ إليه^(٥).

وتابع بلتكين بجيشه ونزل على دمشق وأظهر أنه جاء لإصلاح البلد، وكف الأيدي عن الأذى، وكان القائد أبو محمود قد مات سنة ٣٧٠، وقام بعده ابن أخته جيش بن الصمصامة، فخرج إلى بلتكين، فأمره أن يخرج هو ومن معه، وأن ينزلوا بظاهر البلد ففعلوا، وخاف قسّام فأمر أتباعه بالقتال، فقاتلوا دفعات عدة، فقوي عسكر بلتكين، ودخلوا أطراف دمشق، وملكوا الشاغور، وأحرقوا ونهبوا، فاجتمع مشايخ البلد عند قسّام، وكلموه في أن يخرجوا إلى بلتكين، ويأخذوا أماناً لهم وله، فانخزل

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٨٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٨٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٨٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٨٣

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٩٤

وذلل وخضع بعد تجربته وتكبره، وقال: أفعلوا ما شئتم، وعاد أصحاب قسّام إليه فوجدوه خائفًا مترقبًا، فأخذ كلّ لنفسه، وخرج شيوخ البلد إلى بلتكين وطلبوا منه الأمان لهم ولقسّام فأجابهم إليه وقال: أريد أن أتسلم البلد اليوم، فقالوا: أفعّل ما تؤمر، فأرسل واليًا يقال له ابن خطلغ ومعه خيل ورجال.

وأقام قسّام في دمشق يومين، ثم استتر فأخذ كل ما في داره وما حولها من دور أصحابه وغيرهم، ثم خرج إلى الخيام، فقصّد حاجب بلتكين وعرفه بنفسه، فأخذه إلى بلتكين، فحمّله بلتكين إلى مصر، فأطلقه الإمام العزيز واستراح الناس من تحكّمه عليهم، وتغلّب به بمن تبعه من الأحداث من أهل العبث والفساد^(١). واستقر الوضع في دمشق بعد ذلك وانتهت منها الفتن.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٣٩٥

الفصل الخامس

العلاقة بين الفاطميين والحمدانيين

١- حلب والفاطميون

بعد أن سيطرت الدولة الفاطمية على جنوب سوريا ومعظم سواحلها أصبحت هي القوة الغالبة فيها، وكانت حلب تعيش فترة قلاقل بسبب فتنة قرعويه وبكجور، وبعد عودة أبي المعالي سعد الدولة شريف إلى حكم حلب، وصله رسول الإمام العزيز بالله، وأبو القاسم أحمد بن إبراهيم الرسي من مصر، فأقام الدعوة له بحلب، وأرسل معه إلى مصر في جواب الرسالة قاضي حلب ابن الخشاب الهاشمي^(١)، واكتفى منه العزيز بذلك عملاً بمشورة وزيره أبي يوسف يعقوب بن كلس الذي قال له: «أقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة»^(٢). وكان بكجور قد نجح في عمارة حمص بعد توليه لها، وأصبحت الأقوات وافرة فيها، وكانت دمشق تعاني من القحط بسبب ما فعله قسام وأصحابه، فأرسل بكجور لها الأقوات، وكتب إلى الإمام العزيز وتقرّب إليه، فوعده بولاية دمشق^(٣).

وفي الوقت نفسه، كاتب الدمستق وأطمعه بملك حمص، لكي يساعده في العودة إلى ملك حلب، فجاء الدمستق إلى حمص وأظهر بكجور أنه فرّ منه هارباً حيث ذهب إلى جوسية، وكاتب الدمستق أهل حمص بالأمان، لكنه غدر بهم وهاجم المدينة في ربيع الآخر سنة ٣٧٣، وأحرق الجامع وكثيراً من البلد^(٤). وأرسل سعد الدولة إلى بكجور يأمره بأن يفارق حمص ويذهب حيث يشاء، فأرسل بكجور إلى العزيز يطلب منه إنجاز وعده له بإمارة دمشق. وكان الوزير أبو يوسف يعقوب بن كلس يعارض تولي بكجور لدمشق وقال للخليفة العزيز: «إن بكجور إن وليها عصا فيها»^(٥). فلم يصغ إلى قوله، وأرسل إلى بلتيكين يأمره بقصد مصر وتسليم دمشق إلى بكجور، ففعل ذلك، فجاء بكجور إليها ودخلها في رجب سنة ٣٧٢، وأظهر في البداية الرغبة بالإصلاح، لكنه لم يلبث أن كشف عن وجهه وظهرت

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم ص ٩٨

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٠٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٢

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٠٣

حقيقته، حيث أساء السيرة مع موظفي الدولة، كما أنه ظلم أهل دمشق، فلما بلغ الوزير يعقوب بن كلس هذا الأمر، تحرك في عزله، وقَبَّح ذكره عند العزيز بالله، فأجابه إلى ذلك، فجهَّزَت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم، فساروا إلى سوريا، وجمع بكجور العرب وغيرهم، وخرج فلقى العسكر المصري عند داريا، وقاتلهم، واشتدَّ القتال بينهم فانهزم بكجور وعسكره وخاف من وصول نزال والي طرابلس، وكان قد كوتب من مصر بمعاوضة منير، فلما انهزم بكجور خاف أن يجيء نزال فيؤخذ، فأرسل يطلب الأمان ليسلم البلد إليهم فأجابوه إلى ذلك، فجمع ماله جميعه، وسار واختفى أثره لئلا يغدر المصريون به، وتوجَّه إلى الرقة فاستولى عليها، وتسلم منير دمشق، ففرح أهلها وسرَّهم ولايته^(١).

وتوسع بكجور في محيط الرقة فاستولى على الرحبة وغيرها من البلاد المجاورة. وراسل سعد الدولة بن حمدان بأن يعود إلى طاعته على قاعدته الأولى ويقطعه مدينة حمص كما كانت له^(٢). فلم يجبه إلى شيء، وعند ذلك راح يرسل جماعة رفقاء من مماليك سعد الدولة، ويستميلهم، فأجابوه إلى الموافقة على قصد سعد الدولة، وأخبروه أنه مشغول ببلداته وشهواته عن تدبير الملك، فأرسل بكجور حينئذٍ إلى الخليفة العزيز يطعمه في حلب ويقول له: «إنها دهليز العراق ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها»^(٣). وطلب الإنجاد بالعساكر.

وكان الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس قد توفي وخلفه الوزير عيسى بن نسطوروس وكان بينه وبين بكجور عداوة مستحكمة، كما يقول ابن الأثير، ولذلك سعى الوزير إلى إيقاع بكجور في مهلكة، فأرسل إليه بما يفيد الموافقة على طلبه، وكتب إلى نزال والي طرابلس وإلى غيره من ولاة الدولة في سوريا، أن يطمعوا بكجور بالمسير إلى قتال سعد الدولة، وأن يوهموه أنهم معه، فإذا فعل ذلك تخلَّوا عنه وتركوه لوحده. فلما وصل كتاب الوزير إلى نزال أرسل إلى بكجور يقول له: «مسيرك عن الرقة يوم كذا ومسيري أنا عن طرابلس يوم كذا، ويكون اجتماعنا على حلب يوم كذا، وتابع رسله إليه بذلك، فسار بكجور مغترًا بقوله إلى بالس، فأمتنعت عليه فحصرها خمسة أيام فلم يظفر بها فسار عنها^(٤).

وبلغ الخبر بمسير بكجور إلى سعد الدولة، فسار عن حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه سيف الدولة، وكتب إلى بكجور يستميله ويدعوه إلى الموافقة ورعاية حق الرق والعبودية، ويبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص، فلم يقبل منه ذلك،

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٣٤

(٢) الكامل في التاريخ ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٣

وكان سعد الدولة قد كاتب الوالي بأنطاكيا لملك الروم، يستنجده، فسير إليه جيشًا كثيرًا من الروم، وكاتب أيضًا من مع بكجور من العرب يرغبهم في الإقطاع والعطاء الكثير والعفو عن مساعدتهم بكجور، فمالوا إليه ووعدوه الهزيمة بين يديه، فلما التقى العسكران اقتتلوا واشتد القتال، فلما اختلط الناس في الحرب، وشغل بعضهم البعض عطف العرب على سواد بكجور، فنهبوه واستأنوا إلى سعد الدولة، فلما رأى بكجور ذلك اختار من شجعان أصحابه أربعمئة رجل، وعزم على أن يقصد موقف سعد الدولة ويلقي بنفسه عليه، فإما له وإما عليه، فهرب واحد ممن حضر الحال إلى لؤلؤ الكبير، وعرفه ذلك، فطلب لؤلؤ من سعد الدولة أن يتحرك من موقفه، وأن يقف مكانه، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فحمل بكجور ومن معه فوصلوا إلى موقف لؤلؤ بعد قتال شديد، وألقى بكجور نفسه عليه وهو يظن أنه سعد الدولة، وضربه على رأسه فسقط إلى الأرض، وظهر حينئذ سعد الدولة وعاد إلى موقفه ففرح به أصحابه^(١)، وقويت نفوسهم، وأحاطوا ببكجور، فمضى منهزمًا هو وعامة أصحابه وتفرقوا، وبقي منهم معه سبعة أنفس، وكثر القتل والأسرى الباقين، ولما طال الشوط ببكجور ألقى سلاحه، ونزل عن فرسه وسار راجلاً، فلحقه نفر من العرب فأخذوا ما عليه، وقصد بعض العرب فنزل عليه وعرفه نفسه، وضمن له حمل بغير ذهبًا ليوصله إلى الرقة، فلم يصدق له لبخله المشهور عنه، فتركه في بيته وتوجه إلى سعد الدولة، فعرفه أن بكجور عنده، فحكّمه سعد الدولة في مطالبه، فطلب مئتي فدان ملكًا، ومئة ألف درهم، ومئة حمل حمار تحمل له حنطة، وخمسين قطعة ثياب، فأعطاه ذلك أجمع وزيادة، وسير معه سرية فاعتقلوا بكجور، وأحضره عند سعد الدولة، فلما رآه أمر بقتله فقتل^(٢).

ورحل سعد الدولة إلى الرقة وبها عائلة بكجور، فتلقاه أهل المدينة برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وجاء إليه أولاد بكجور، فأمنهم ووهب لهم أموال أبيهم، وأراد هؤلاء الخروج من الرقة نحو مصر، ولما خرجوا بأموالهم وآلاتهم استكثرها سعد الدولة، فقال له وزيره أبو الهيثم بن أبي الحصين: «أنت حلفت لهم على مال بكجور، ومن أين لبكجور هذا المال، بل هي أموالك» فغدر بهم، ونكث في يمينه، وقبض مال بكجور إليه، وكان مقداره ثمانمائة ألف دينار، وصادر نواب بكجور، واستأصل أموالهم^(٣).

ووصل الخبر إلى الإمام العزيز بما جرى لعائلة بكجور وأولاده، فأنكره، وأرسل إلى سعد الدولة يطلب منه إطلاق هذه العائلة وتسييرها إلى مصر، فأهان سعد

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٤

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٤

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٤

الدولة الرسول ولم يقبل الشفاعة، فأرسل الإمام العزيز كتاباً يتهده فيه^(١). لكن لم يمنحه الوقت فرصة لينفذ تهديده لأن سعد الدولة ما إن عاد إلى حلب حتى مرض وتوفي في أواخر شهر رمضان سنة ٣٨١.

يقول ابن الأثير، إن سعد الدولة عهد قبل وفاته إلى ولده أبي الفضائل، ووصى إلى لؤلؤ به وبسائر أهله، فأخذ لؤلؤ له العهد على الأجناد وتراجعت العساكر إلى حلب^(٢). ويقول ابن العديم: «فأصبح لؤلؤ مدبراً لحكم أبي الفضائل، ولقبه (سعيد الدولة) وزوجه ابنته، ورفع الرسوم والمظالم المقررة على الناس من مال الهدنة التي عقدها قرغويه». ويقول ابن العديم: «إن العزيز بالله صاحب مصر طمع بحلب واستصغر سعيد الدولة بن حمدان وكتب إلى أمير الجيوش منجوتكين التركي وكان والياً بدمشق، وأمره بالمسير إلى حلب وفتحها، فنزل في جيوش عظيمة»^(٣).

أما ابن الأثير فإنه يقول: «وكان الوزير أبو حسن المغربي قد سار من مشهد علي (عليه السلام) إلى العزيز بمصر، وأطمعه في حلب، فسير جيشاً وعليهم منجوتكين أحد أمرائه إلى حلب فسار إليها في جيش كثيف وبها أبو الفضائل ولؤلؤ»^(٤).

وتبدو رواية ابن الأثير أكثر منطقية من رواية ابن العديم، فالإمام العزيز بالله لم يطمع بحلب من تلقاء ذاته، بل كان هناك عامل دفعه إلى ذلك، وهو الكلام الذي قاله له أبو الحسن المغربي عن وضع حلب وأنها بحاجة إلى قوة تحميها، فكتب الإمام العزيز إلى أمير الجيوش منجوتكين، وكان والياً على دمشق، وأمره بالمسير إلى حلب والسيطرة عليها، فسار نحوها سنة ٣٨٢، وفتح في طريقه حمص وحماة، وكانتا تابعتين لحلب، ثم وصل إليها فحاصرها، وقدم له سعيد الدولة أموالاً كثيرة وأن يكون في الطاعة، ويقيم الدعوة، ويضرب العملة باسم العزيز، ويكتب اسمه على الرايات والأعلام في سائر أعماله، مقابل أن يرحل عنه، فامتنع أمير الجيوش من قبول ذلك، وقاتل حلب ثلاثة وثلاثين يوماً^(٥). فكتب أبو الفضائل ولؤلؤ، كما يقول ابن الأثير، إلى باسيل ملك الروم يستنجدانه، وهو يقاتل البلغار، فأرسل باسيل إلى نائبه بأنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل، فسار في خمسين ألفاً حتى نزل على جسر الحديد بالعاصي، فلما سمع منجوتكين سار إلى الروم للقائهم

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٤

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٧ - ص ٤٥٥

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٥

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٧ - ص ٤٥٥

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٥

قبل اجتماعهم بأي الفضائل، وعبر إليهم العاصي وأوقع بهم وهزمهم، فولّوا الإمداد إلى أنطاكية وكثر القتل فيهم، وسار منجوتكين إلى أنطاكية فنهب بلدها وقرها وأحرقها وعاد إلى حلب وضاعف عليها الحصار^(١). وأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي ليردّ منجوتكين عن حلب هذه السنة بعلّة تعذر الأقوات، ففعل. وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجاب إلى ذلك، وسار إلى دمشق^(٢).

وبلغ الخبر إلى الخليفة العزيز فغضب، وكتب بعودة العسكر إلى حلب وإبعاد المغربي، وأنفذ الأقوات من مصر عبر البحر إلى طرابلس ومنها إلى العسكر، فنزل العسكر حلب، وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً، فقلّت الأقوات بها، وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم باسيل والاعتضاد به، وقال له: «متى أخذت حلب أخذت أنطاكية، وعظم عليك الخطب»^(٣).

وكان باسيل قد توسط بلد البلغار فعاد وجدّ في السير، وكان الزمان ربيعاً، وأرسل عسكر مصر إلى منجوتكين يعرفه الحال، وأتته جواسيسه بمثل ذلك، فأخرب ما كان بناه من سوق وحمام وغير ذلك، وسار كالمتهزم عن حلب، ووصل ملك الروم، فنزل على باب حلب، وخرج إليه أبو الفضائل، ولؤلؤ وعادا إلى حلب، ورحل باسيل نحو حمص فأخذها، ونهب شيزر، وسار إلى طرابلس فنزلها فامتنعت عليه، وأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً، فلما آيس منها عاد إلى بلاد الروم^(٤). ولما بلغ الخبر إلى الخليفة العزيز عظم عليه ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم وبرز من القاهرة، وحدثت به أمراض منعته، وأدركه الموت^(٥)، فتوفي في أواخر شهر رمضان سنة ٣٨٦ بمدينة بلبيس، وكان قد برز إليها لغزو بلاد الروم^(٦).

ويروي ابن العديم رواية مختلفة لهذه الأحداث فيقول: «وجاء الخبر من مصر أن الخليفة العزيز بالله أرسل أبا الحسن علي بن الحسن المغربي على رأس جيش في المحرم سنة ٣٨٤ وجعله ناظرًا على أعمال الدولة العلوية في سوريا بسبب خبرته فيها^(٧). فعاد أمير الجيوش إلى دمشق ووصل أبو الحسن بالجيش فالتقاه أمير الجيوش، وتوجه الاثنان نحو حلب، ووصلها في شهر ربيع الآخر وفرضا الحصار عليها، فاستنجد لؤلؤ بالروم، فسار والي أنطاكية البرجي لنجدته، ونزل في سهل الراج، وبث سراياه تغير على أعمال حلب، فسار أمير الجيوش إليه والتقاه

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٧ - ص ٤٥٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٦

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٧٧

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٥٦

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٧٧

(٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٧

وقاتله، فانهزم البرجي بعد أن قُتل الكثير من عسكره^(١). وعاد أمير الجيوش إلى حصار حلب، وعرف لؤلؤ أن نهايته قد قربت، فأرسل إلى ملك بيزنطة يستنجد به وإلا سقطت حلب، فسار الملك بجيشه، ووصل الخبر إلى أمير الجيوش، وأدرك صعوبة الموقف، لأنه في حال وصول الروم فإنه سيصبح بين عدوين، ولذلك فك الحصار وعاد إلى دمشق، فوصل الملك البيزنطي إلى حلب، فخرج إليه لؤلؤ ومعه سعيد الدولة وقدموا له الهدايا، كما دفعا له الضريبة المفروضة على حلب^(٢).

وتبدو رواية ابن الأثير أدق وأصوب من رواية ابن العديم عن تلك الأحداث، لكن الروايتين تكملان بعضهما البعض. فهناك أحداث مهمة أغفلها ابن العديم، مثل قرار الخليفة العزيز السير لغزو بلاد الروم، فلو تمّ هذا الأمر لكان غير الكثير من الأحداث التي جرت لاحقاً.

٢- وفاة سعيد الدولة وزوال دولة بني حمدان

توفي أبو الفضائل سعيد الدولة سنة ٣٩٢، وهو شاب، ويقول ابن العديم: «إن لؤلؤا السيفي دس السم له ولزوجته، فماتا جميعاً»^(٣).

وكان لسعيد الدولة ولدان هما، أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف، وكانا صغيرين، فجعلهما لؤلؤ أميرين بشكل صوري، واستولى هو على مقاليد الحكم. وكان لسعيد الدولة أخ هو أبو الهيجاء، وكان سعد الدولة قد أوصى لؤلؤا به قبل موته، فلما ملك لؤلؤ خاف منه، وضيق عليه في حلب، وكان أبو الهيجاء قد تزوج ابنة نصر الدولة أحمد بن مروان أمير ديار بكر، وعندما زادت الضغوط عليه، خرج هارباً من حلب وذهب إلى ملك الروم فلقبه الماخسطرس^(٤). وعند ذلك استراح لؤلؤ، فعمد إلى إرسال أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف مع حرم سعد الدولة إلى مصر في سنة ٣٩٤، وأصبح الأمر له ولولده مرتضى الدولة أبي نصر منصور بن لؤلؤ^(٥).

وزال بذلك مُلك بني حمدان، واستقرت الأمور للؤلؤ في حلب، واستمر بالدعوة للدولة الفاطمية، قصفت وجهها عنه، وظل في الحكم حتى مات سنة ٣٩٩، وخلفه ولده أبو نصر، منصور، وكان ظالماً متكبراً، الأمر الذي دفع عامة أهل حلب

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٧

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٠٩

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٣

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١١

إلى المطالبة بعودة أبي الهيجاء ليتولى الحكم، وكتبوا، كما يقول ابن العديم، صهره أحمد بن مروان كي يتوسط لدى ملك الروم لإرساله إلى حلب، فأرسل إلى الملك يسأل تسييره إليه ليتعاضدا على حلب ويكون من قبله^(١). فأذن الملك لأبي الهيجاء في الذهاب، فوصل إلى صهره في ميفارقين، فسير معه مئتي فارس، وكتب قبيلة بني كلاب للانضمام إليه، وسار أبو الهيجاء قاصداً حلب سنة ٤٠٠، فعرف مرتضى الدولة به وخاف منه على ملكه، فأرسل إلى بني كلاب ووعدهم بإقطاعات سنوية وحلف لهم أن يعطيهم أعمال حلب، وفي نفس الوقت استنجد بالخليفة الحاكم بأمر الله، فأرسل له عسكر طرابلس مع القاضي علي بن عبد الواحد بن حيدرة قاضي طرابلس، وأبي سعادة القائد والي طرابلس^(٢). فالتقى الجمعان في النقرة* قرب حلب، وتقاوس بنو كلاب عن نجدة أبي الهيجاء طمعاً بعود مرتضى الدولة، فانهمز أبو الهيجاء راجعاً إلى بلاد الروم، ونهبت خيامه وجميع ما كان معه واستقر في القسطنطينية حتى وافاه الأجل^(٣).

وكتب الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مرتضى الدولة سنة ٤٠٤ سجلاً قرئ في القصر بالقاهرة بتخليكه حلب وأعمالها ولقبه «مرتضى الدولة»^(٤).

٣ - الفاطميون يأخذون حلب

لم يف منصور لبني كلاب ما كان وعدهم به، عندما دعاهم لنصرته ضد أبي الهيجاء بن حمدان، فعاث هؤلاء فساداً في أعمال حلب، وقطعوا الأشجار وأتلفوا الزرع، وضيقوا على منصور، فاحتال عليهم ودعاهم إليه ليحالفهم ويكرمهم بإقطاعات سنوية، فلما دخلوا إلى حلب قدّم لهم طعاماً، ومن ثم أمر بإغلاق أبواب المدينة وقيد الأمراء، وعلى رأسهم صالح بن مرداس، وأبو حامد وجامع ابنا زائدة، وسجنهم في القلعة، وقتل نحو مئتي رجل كلابي وذلك سنة ٤٠٢^(٥).

وكان صالح بن مرداس قد تزوج بابنة عم له تسمى «جابرة»*، وكانت جميلة فوصفت لابن لؤلؤ فخطبها إلى ابن أختها، وكانوا في حبسه، وذكروا له أن صالحاً

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم ص ١١٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٣

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٤

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٤

* النقرة هي نقرة بني أسد، وهي المكان المعروف باسم جبل الأخضر، أو الحص، وهو جنوب شرق حلب.

* جابرة، يسميها ابن العديم «طرود»، ويقول، كانت أجمل النساء في عصرها

قد تزوجها فلم يقبل منهم، وتزوجها ثم أطلقهم^(١). وعزم منصور على قتل صالح، كما يقول ابن العديم، وعرف صالح بذلك، فاحتال حتى وصل إليه في طعامه مبرد بارد به حلقة قيده الواحدة، وفكها فصعبت عليه الأخرى، فشدد القيد في ساقه، وثقب حائط السجن، وتدلى من القلعة إلى التل وألقى نفسه فوق سار، وذلك مستهل المحرم سنة ٤٠٥، واستتر في مغارة بجبل جوشن^(٢). فوقع الخبر بهربه، وأرسل ابن لؤلؤ الخيل في طلبه، فعادوا ولم يظفروا به، فلما سكن عنه الطلب سار بقيده حتى وصل قرية تعرف بالياسرية، ورأى أناساً من العرب فعرفوه، وحملوه إلى أهله بمرج دابق، فجمع ألفي فارس وقصد حلب وحاصرها اثنين وثلاثين يوماً، فخرج إليه ابن لؤلؤ وقتله فهزمهم صالح وأسر ابن لؤلؤ، وقيده بقيده الذي كان في رجله^(٣). ونجح أخوه أبو الجيش في الوصول إلى حلب وتحصن بالقلعة، وضبطها وضبط حلب بالتعاون مع أمه «بجيلا»، وطلب منصور الصلح فوافق صالح عليه، وقرر أن يتم إطلاق سراح منصور مقابل أن يدفع لصالح خمسين ألف دينار نقداً، ومئة وعشرين رطلاً من الفضة، وخمسمئة قطعة ثياب متنوعة ويطلق جميع من في الحبوس من بني كلاب وحرهم وأن يطلق طروداً «جابرة» وأن يقاسم صالحاً في ظاهر حلب وباطنها، وأن يزوجه من ابنته. وجعل منصور أمه بجيلا وزوجته أم الكرم بنت رباح السيفي وأولاده منها، رهائن على المال، وأطلق منصور فدخل حلب، وأرسل المال إلى صالح، فأطلق ما بيده من الرهائن^(٤).

ورحل صالح. وأراد ابن لؤلؤ قبض غلامه فتحاً، وكان يتولى القلعة، لأنه اتهمه بالملاأة على هروب صالح من الحبس، فأطلع على ذلك غلاماً له، اسمه سرور، وأراد أن يجعله مكان فتح، فأعلم سرور صديقاً له يدعى ابن غانم وكان بينه وبين فتح مودة فصعد إليه بالقلعة متكرراً وأعلمه الخبر وأشار عليه بمكاتبة الحاكم، صاحب مصر، فخاف فتح من منصور، وأعلم من كان بالقلعة أنه يريد العصيان فأجابوه إلى ذلك^(٥). وأمر ابن لؤلؤ أخاه أبا الجيش بالصعود إلى القلعة بحجة افتقاد الخزائن، فإذا صار فيها قبض على فتح، وأرسل إلى فتح يعلمه أنه يريد افتقاد الخزائن، ويأمره بفتح الأبواب فقال فتح: «إنني قد شربت اليوم دواء، وأسأل تأخير الصعود في هذا اليوم، فإنني لا أثق في فتح الأبواب لغيري». وقال للرسول: «إذا لقيته فأردده»، فلما علم ابن لؤلؤ الحال أرسل والدته إلى فتح، ليعلم سبب ذلك، فلما سعدت إليه أكرمها وأظهر لها الطاعة، فعادت وأشارت على ابنها

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم ص ١١٥

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٨

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٨

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٨

بترك مخالفته ففعل^(١).

كاتب فتح الخليفة الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وخطب له وأظهر العصيان على أستاذه^(٢). وأرسل إلى ابن لؤلؤ يقول له: «إما أن تخرج من حلب، وإلا سلّمت القلعة إلى صالح، وكان ابن لؤلؤ في قصره بباب الجنان في ليلة السبت لست بقين من شهر رجب سنة ٤٠٦، إذ سمع أصوات البوقات والطبول في القلعة وسمع منادياً ينادي (الحاكم يا منصور، صالح يا منصور). فظن ابن لؤلؤ أن صالح بن مرداس قد دخل إلى القلعة، ففتح باب الجنان وهرب مع أخيه وأولاده ومن تبعه من غلمانته إلى أنطاكيا، وأخذ معه ما قدر على حمله من المال^(٣).

ونادى فتح بشعار الحاكم بأمر الله، وصالح صالح بن مرداس على أعمال حلب واستدعى والي أفاميا أبا الحسن علي بن أحمد العجمي المعروف بالضيف، وأنزله بالمدينة بالقصر في باب الجنان، وتسلم صالح الأعمال والضياع، وكاتب فتح الخليفة الحاكم بأمر الله يخبره بما فعل، فوردت مكاتبة الحاكم إليه تتضمن شكره، ولقبه «مبارك الدولة وسعدها»^(٤). وكتب إلى أبي الحسن الضيف بمعاضدته ولقبه «سديد الدولة»، وكتب إلى صالح بن مرداس يأمره بالاتفاق معهما ولقبه «أسد الدولة»^(٥). وكتب الخليفة الحاكم إلى حسان بن المفرج بن الجراح الطائي زعيم قبيلة طيء وإلى سنان بن عليان الكلبي زعيم قبيلة كلب، بالمساعدة على حفظ حلب من الروم، وأعطى الخليفة الحاكم بأمر الله، لفتح، بدلاً من حلب، كلاً من صور وصيداء وبيروت. وكانت غلة هذه البلاد ثلاثمئة ألف دينار، كما يقول صالح بن يحيى^(٦). وخلع الخليفة على عزيز الدولة فاتك * وولاه حلب وأعمالها، ولقبه «أمير الأمراء، عزيز الدولة، تاج الملّة»، ودخل حلب في الثاني من شهر رمضان سنة ٤٠٧^(٧). وتمكن من البلد واستفحل أمره وعظم شأنه، فعصى الحاكم ودعا لنفسه على المنبر، وضرب السكة باسمه^(٨).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٩

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٢١

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٢١

(٦) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب - صالح بن يحيى - ص ١٨

* يسمي ابن الأثير عزيز الدولة باسم «عزيز الملك» ويقول، إنه إنسان من الحمدانية بخلاف ابن العديم والمقرئيين اللذين يقولان، إنه غلام أرمني، ونحن نميل إلى رأي ابن الأثير، ونعتقد أن عزيز الدولة كان من بني حمدان بسبب جرأته في تحدّي الخليفة الحاكم بأمر الله مع ما كان عليه من الشدة والقسوة.

(٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٢٣

(٨) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٢٩

ولما قُتل الخليفة الحاكم في ظروف غامضة سنة ٤١١، قامت أخته السيدة «ست الملك» بتدبير شؤون الملك بضعة أيام ومن ثم ألبيت ولده أبا الحسن علي أفخر الملابس وأحضرت القادة والأجناد، وقالت لهم: «هذا مولاكم أمير المؤمنين». فبايعوه ودعوا له، ولقب «الظاهر لإعزاز دين الله»^(١). ولأطفت السيدة ست الملك، عزيز الدولة فاتك، وواصلته بما مال إليه من حمل الخلع والخيول بالمراكب في سنة ٤١٢ حتى استمالت قلبه، ولم تزل تعمل الحيلة حتى أفسدت عليه غلاماً له يدعى «بدر» كان يملك أمره وغلماؤه تحت يده، وبذلت له العطاء الجزيل على الفتك به، ووعدته أن تقيمه في موضعه، وكان لعزيز الدولة غلام هندي يهواه ويحبه حباً شديداً، فاستغواه بدر وقال له: «قد عرفت من مولاك ملالاً لك وتغيراً منه فيك، واطلعت منه على عزمه على قتلك، ودفعته دفعات عنك، لأنني لا أشتي أن يتم مكروه عليك»، وتركه مدة ووهب له دنانير وثيراً، وأظهر له المحبة، وتوصل إلى أن خلا به ثم قال له: إن علم نبأ التغير عزيز الدولة قتلنا، وما إشفائي على نفسي وإنما إشفائي عليك، فقال له الصبي: فأني شيء أعمل يا مولاي؟ قال: قد عرفت محبتي لك، وإن ساعدتني اصطنعتك وأعطيتك، وعشنا جميعاً في حفظ وأمن، قال له: فارسم ما شئت حتى أفعله، قال: تحلف لي حتى أقول لك، فاستحلفه وخدعه، ووافقه على قتل عزيز الدولة، قال له الصبي: كيف أقتله؟ قال: الليلة يشرب، وسأزيد في سقيه حتى أسكره، فإذا استدعاك على الرسم لغمره، تكبيسه، ونام فقم كأنك تريق ماء، فخذ سيفه واضربه حتى تفرغ منه. فقبل الصبي وصيته.

وكان عزيز الدولة في الصيد، فلما عاد دخل الحمام وخرج منه فأكل ثم انتقل إلى مجلس الشراب، وحضر من جرت العادة بحضوره من ندمائه، ثم قام في أخروقت وقد تبين فيه السكر، والصبي بين يديه يحمل سيفه حتى وافى إلى مرقدده واستلقى على فراشه، وأمر الغلام أن يغمزه، فلما مضى هزيع الليل وثقل عزيز الدولة في النوم وتحقق الصبي ذلك سلّ السيف وضربه به، ففلق رأسه، ودخل بدر وشاهده ميتاً، فصاح، واستدعى غلمان عزيز الدولة وأمرهم بقتل الصبي فقتلوه، وحوط الخزان والقلعة^(٢).

وشاع قتل عزيز الدولة وكان ذلك في ليلة السبت الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٣. وكتب بدر إلى السيدة بقتله، فأجابته، وأظهرت الوجد على عزيز الدولة وشكرت بدرًا على ما كان منه في ضبط الأمر وحراسة الخزان، ولقبته «وفي الدولة» وقلدته موضع مولاه، ووهبت له جميع ما حازه^(٣).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ١٣١

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٣٠

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٣٠

وكان سديد الدولة علي بن أحمد الضيف ناظرًا بالشام*، فتلاطف ببدر غلام عزيز الدولة حتى تسلم البلد منه والقلعة^(١). ومن ثم سلّمها إلى صفى الدولة أبي عبد الله محمد ابن وزير الوزراء أبي الحسن علي بن جعفر بن فلاح الكتامي^(٢).

وقرر الخليفة الظاهر أن يجعل على حلب واليين، واحد على المدينة، وآخر على القلعة، فجعل على المدينة صفى الدولة ابن وزير الوزراء علي بن جعفر بن فلاح الكتامي، وجعل على القلعة سعادة الخادم المعروف بالقلانسي.

ولم تطل أيام صفى الدولة فقد عُزل سنة ٤١٤، وتمّ تعيين سند الدولة أبي محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامي، واليًا على حلب، لكنه توفي سنة ٤١٥، فعين الخليفة الظاهر مكانه أخاه سديد الملك أبا الحارث ثعبان بن محمد بن ثعبان^(٣).

(١) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء- أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٣١
* يعرف القلقشندي بوظيفة ناظر الشام فيقول: «وهو الذي يقوم مقام الوزير بالديار المصرية» - اتعاض الحنفا -
حاشية صفحة رقم ١٣١

(٢) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء- أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٢٥

(٣) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء- أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٢٦

الفصل السادس

الدولة الكلائية في حلب والفاطميون

١- صالح بن مرداس

ينتسب بنو كلاب إلى قبيلة هوازن العربية، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، وكانت مساكنهم في جنوب نجد على مشارف الحجاز، ويُقال إنهم ملكوا اليمامة ثم نزحوا في مطلع القرن الرابع الهجري، نحو شرق وشمال سوريا. وكان صالح بن مرداس قد ظهر كزعيم قوي في هذه القبيلة أواخر القرن الرابع، وكان أول ظهور رسمي له عندما استعان به ابن محكان الذي ملك الرحبة باسم الدولة العلوية في مصر سنة ٣٩٩، واحتاج إلى من يجعله ظهره ويستعين به على من يطمع فيه، فكتب صالح بن مرداس، فقدم عليه، وأقام عنده مدة، ثم إن صالحًا غير عن ذلك فسار إلى ابن محكان، وقتله على البلد، وقطع الأشجار، ثم تصالحا وتزوج ابنة ابن محكان، ودخل صالح البلد إلا أنه كان أكثر مقامه بالحلة، ومن ثم اجتمع ابن محكان وصالح على قصد عانة، فسار إليها، فوضع صالح على ابن محكان من يقتله فقتل غيلة، وسار صالح إلى الرحبة فملكها، وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية^(١).

وقد استمر على الدعوة للدولة العلوية. وتطلع إلى توسيع ملكه، والتقت أهدافه مع حسان بن المفرج الطائي أمير بني طيء، وسانان بن عليان أمير بني كلب، واتفق الثلاثة وتحالفوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح، ومن الرملة إلى مصر لحسان، وأن تكون دمشق لسانان^(٢).

وكان الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله قد أرسل إلى فلسطين قائداً من قواده يُدعى «أنوشتكين الدزيري» * ليكون والياً عليها، فأقام في الرملة، وسار حسان إلى الرملة فحصرها، فتركها أنوشتكين وذهب إلى عسقلان، فاستولى حسان عليها وذلك سنة ٤١٤، وقصد صالح حلب وبها سديد الملك ثعبان، وبالقلعة موصوف الخادم، فأما أهل المدينة فقد سلموها إلى صالح، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة، فحصره صالح فيها، فغار الماء الذي بها، ولم يبق للموجودين فيها ما يشربون،

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٥٣

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص - ص ٦٩

فسلمّ الجند القلعة إليه وذلك سنة ٤١٤، وملك صالح من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين^(١).

وفي سنة ٤٢٠ جهز الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله جيشاً بقيادة أنوشكين الدزيري وأرسله إلى سوريا، فاجتمع صالح بن مرداس وحسان بن المفرج لقتاله، فالتقوا بالأقحوانة على نهر الأردن عند طبريا، فقتل صالح وولده الأصغر، وأرسل رأسيهما إلى مصر^(٢)، وسار أنوشكين الدزيري إلى دمشق فدخلها واستقر بها.

٢- حلب بعد صالح

ملك حلب بعد أبي علي صالح بن مرداس، ولداه معز الدولة أبو علوان شمال في القلعة، وشبل الدولة نصر في المدينة. وسمع، كما يقول ابن العديم، أمير أنطاكية ميخائيل بمقتل صالح بن مرداس، فسار إلى حلب للاستيلاء عليها، وعرف به الأخوان، نصر وثمان، فلاطفاه لكي يعود، لكنه لم يرجع، فسار إليه بجيش حلب، وكبساه وهو على حصن «قيبار*» يقاتل أهله، فانهزم عسكره، ثم استعطفاه واستقامت الحال بينهم^(٣).

ودبّ الخلاف بين الأخوين ونجح نصر في التغلب على أخيه شمال وانتزع منه القلعة، ووضع يده على كامل حلب، وأعطى أخاه الرحبة وبالس، لكن شمالاً لم يرض بقسمة أخيه له، فجمع حوله العرب في تلك المناطق وسار إلى قتال أخيه في حلب، فكتب نصر الملك الروماني «أرمانوس» لمساعدته، وعندما علم مقدمو

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص - ص ٦٩

* أنوشكين الدزيري، هو الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالي أبو منصور أنوشكين. مولده ما وراء النهر في بلد الترك في البلد المعروف بختل، وسي منه وحمل إلى كاشغروهراب إلى بخارا ومُلك بها وحُمِل إلى بغداد ثم إلى دمشق وكان وصوله سنة ٤٠٠، فاشتره القائد دزير بن أونيم الديلمي وكان ندبه لحماية أملاكه وصونها من الأذى فكفاه ذلك بشهامته وصرامته فاشتهر بذلك أمره وشاع ذكره وسُئل مولاه أن يهديه للإمام الحاكم بأمر الله وقيل بل وصله الأمر بحمله فحمل في جملة غلمان سنة ٤٠٣، فاستطرف من بينهم وجُعل في الحجرة فقهر من بها من الغلمان وطال عليهم باليقظة والذكاء وجعل يلقب كل غلام بما يليق به فشكوه إلى المتولي فضربه وتزايد أمره فأخرج منها في سنة ٤٠٥ والزم الخدمة وجعل يتقرب إلى الخاص والعام بكل ما يجد السبيل إليه من التودد والإكرام لما يريد الله تعالى من إسعاد جدّه وإظهار سعده فارتضى الحاكم مذهبه في الخدمة وزاد في واجبه وقوّده وسيّره مع سديد الدولة ذي الكفائتين الضيف في العسكر إلى الشام في سنة ٤٠٦ ودخل إلى البلد دمشق ولقي مولاه دزير فترجل له وقبّل يده وصار يتودد إلى الكبير والصغير، ثم عاد إلى مصر وجُزّد إلى الريف في سيارة ثم عاد إلى مصر ولزم الخدمة بالحضرة ولزم بعلبك والياً عليها وحسنت حاله فيها وانتشر ذكره بها وصادق ولادة الأطراف وكتب عزيز الدولة فاتكاً وإلى حلب وهاداه ولقب منتجب الدولة وورد الأمر عليه بالمسير إلى الحضرة، فسار وتمّ توليته على فلسطين سنة ٤١٤ - ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٧٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٥

* القبيبار، حصن بين أنطاكية والثغور له ذكر ومنعة - معجم البلدان - المجلد الرابع - ص ٤١٩

العرب بما فعله نصر، سعوا للتوفيق بينه وبين أخيه ثمال، ونجحت جهودهم، واتفق الأخوان على أن، تبقى حلب بيد نصر، وأن تبقى بالس والرحبة بيد ثمال^(١).

وأرسل شبل الدولة نصرا بن عمه مقلد بن كامل بن مرداس إلى ملك الروم، يسأله أن لا يقصده، ويحمل إليه من المال ما كان يحمله أولاد سيف الدولة، فأبى الملك واعتقل مقلد وسار في عسكر كبير يضم ملك البلغار، وملك الروس، وملك الأبخاز، والخزر، والأرمن، والبنجك، والأفرنج^(٢). ونزل بجيوشه على نبل* قرب جبل برصايا*، في موضع بعيد عن الماء، وضرب حول عسكره خندقا، وأرسل سرية فيها صناديد عسكره إلى عزاز، فلقيتها بنو كلاب، فظفروا بها، وقتلوا قادتها وأسروا جماعة من أولاد الملوك الذين معهم^(٣).

وسمع الملك بالانهزام السرية، كما سمع أن شبل الدولة قد سار نحوه بجيشه، فخاف من أن يحصر جيشه ولا ماء كافٍ لديه، فأجمع رأيته على العود إلى بلاده، وقال لتبرير رجوعه: «لولا عطش عسكري لبلغت مرادي»^(٤).

وهاجم شبل الدولة معسكر الملك وهو في تسعمئة وثلاثة وعشرين فارسا، وحين رآه الروم ظنوا أنها كبسة، فانهزموا في شهر شعبان سنة ٤٢١، واستولى عسكر شبل الدولة على ما كان مع الملك والروم من عدد وآلات ومال^(٥).

ويذكر ابن العديم، أن طائفة من بني «قطن» من نمير، وردت عند الهزيمة، فأخذت ثقل الملك نحوًا من ثلاثمئة بغل محملة، حتى أنهم تقاسموا الدنانير الأرمناوسية بالقصعة، فحصل لكل واحد منهم ثمانى عشرة جفنة^(٦).

ويذكر ابن العديم أيضًا، أن الناس بحلب باتوا على السور قبل الواقعة بيوم، وفيهم ابن نمير العابد*، فبات يصلي على السور، وسجد في آخر الليل، فنام وهو ساجد، فرأى في منامه عليًا، عليه السلام، راكبًا، ولباسه أخضر، ويده رمح وهو يقول: «ارفع رأسك يا شيخ، قد قضيت حاجتك»، فانتبه بقوله، فحكى للناس ذلك،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٧

* نبل، مدينة تقع شمال غرب حلب في سوريا.

* جبل برصايا، وهو جبل عال شامخ شمالي عزاز، يشرف على بلد عزاز وكورة الأرتيق، وهو من أبهى البقاع منظرا وأرقها هواء، وعلى رأسه مشهد حسن، وقريب منه مشهد آخر، ويقال إن مقام داود عليه السلام كان بموضع المشهد المذكور، وقال لي الشيخ علي بن أبي بكر الهروي السائح: جبل برصايا به مقام برصيصا العابد، وقبر شيخ برصيصا، ومقام داود عليه السلام، وهذا الجبل بين عزاز وقورس - بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - الجزء الأول - ص ٤٣٧

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٧

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٧

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٧

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٨

فتباشروا به^(١).

ويجعل ابن الأثير هذه الواقعة سنة ٤٢١، ويقول: «في هذه السنة خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف فارس إلى الشام فلم يزل بعساكره حتى بلغوا قريب حلب، وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس فنزلوا على يوم منها، فلقبهم عطش شديد وكان الزمان صيفاً، وكان أصحابه مختلفين عليه، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه، وممن كان معه، ابن الدوقس، وهو من أكابرهم، وكان يريد هلاك الملك ليملك بعده، فقال الملك: الرأي أن نقيم حتى تجيء الأمطار وتكثر المياه. فقبح ابن الدوقس هذا الرأي وأشار بالإسراع قصد الشر يتطرق إليه ولتدير كان قد دبره عليه، فسار ففارق ابن الدوقس وابن لؤلؤ وجماعة معهم، فاضطرب الناس واختلوا، ورحل الملك وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون، وأخذوا من الملك أربعمئة بغل محملة مالا وثياباً، وهلك كثير من الروم عطشاً، ونجا الملك وحده ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء. وقيل في عوده غير ذلك، وهو أن جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره، وظن الروم أنها كبسة فلم يدروا ما يفعلون حتى أن ملكهم لبس خفاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر، فتركه ولبس الأسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم»^(٢).

٣ - مقتل شبل الدولة وعودة الفاطميين إلى حلب

كان شبل الدولة نصر، قد أرسل إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله يظهر تبعيته له، وكان رسوله أبا الحسن بن الأيسر، وقد حمل معه إلى الخليفة، هدايا كثيرة من الثياب والصياغات والأواني والألطف الكثرة، وقاد في صحبته مائة وخمسين رأساً من الدواب، خيلاً وبغالاً، ووقع فعله عندهم أحسن موقع، وقام أبو الحسن الجرجرائي بتمهيد أمره^(٣). وأقام ابن الأيسر في مصر إلى أن توفي الخليفة الظاهر، فخلع المستنصر على ابن الأيسر، وأرسل معه خلعاً لشبل الدولة، ولقبه، مختص الأمراء، خاصة الإمامة، شمس الدولة ومجدها، ذو العزيمتين^(٤).

وكان أمير الجيوش أنوشكين الدزيري قد استقرّ بدمشق، وسعى جعفر بن كليد

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٣٨

* الشيخ ابن نمير العابد، هو أبو عبيد الله بن عبد السلام بن أبي نمير العابد - بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم -

ج ١ - ص ٢٢٣

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ١٩٢

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٠

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٠

الكتامي والي حمص في إفساد ما بين نصر بن صالح وبين أنوشتكين، وكان عند أنوشتكين استعداد لذلك لأنه قتل أباه صالحًا، فشرع جعفر بن كليد يغري أنوشتكين بنصر، ويحملة على أذاه حتى خرجا إلى الوحشة والمنافرة^(١).

وقرر الدزيري غزو حلب والقضاء بشكل نهائي على الإمارة الكلابية، وقبل أن يسير بجيشه نحو حلب، أرسل إلى الملك الروماني كتابًا يستأذنه في محاربة شبل الدولة واستنقاذ حلب منه، وأن يؤدي ما عليه من الحمل المقرر إليه، فأذن له في ذلك^(٢).

ورحل أمير الجيوش قاصدًا حماة ونزل في وادي الملوك، شرقي الرستن، وحين عرف شبل الدولة، جمع جيشه ونزل على تل غربي سلمية، ومن ثم التقى مع أمير الجيوش، فانهزم وعاد إلى حلب. وسار أمير الجيوش فدخل حماة ونهبها، وكانت تابعة لحلب. وأقام في حماة، وأرسل جيشه لملاحقة فلول الجيش الحلب، بقيادة طغان المظفري. وجمع شبل الدولة من قدر على جمعه، واستنجد بشبيب بن وثاب النميري أمير الرقة، وسار من جديد لقتال العسكر الفاطمي، فالتقاهم عند «تل فاس» غربي «لطمين»، وهناك وقعت معركة فاصلة، انهزم فيها وثاب بن صالح بن مرداس ومعه شبيب بن وثاب النميري، وثبت شبل الدولة في جمع من أصحابه، وقاتل قتالاً شديداً، فطعن ووقع واحتز رأسه في نصف شعبان سنة ٤٢٩، وحُمل إلى أمير الجيوش، فأظهر الحزن والأسى عليه، ومن ثم أمر بصلب جثته على الحصن بحماة، وأمر بعد ذلك بإنزال الجثة ودفنها في المسجد^(٣).

وخاف ثمال من البقاء في حلب بسبب طلب العسكر المصري له، فغادرها وترك على المدينة خليفة بن جابر الكعبي، وعلى القلعة مقلد بن كامل بن مرداس، ورحل إلى الرقة برفقة شبيب بن وثاب وزوجة أخيه شبل الدولة، علوية المعروفة بـ«السيدة».

ووصل طغان إلى حلب، ونزل عليها فراسله خليفة بن جابر الكعبي في تسليم المدينة، فسلمها يوم السبت الرابع من شهر رمضان، وبعث رسولاً إلى أمير الجيوش يعلمه بذلك، فسار إلى حلب، ومَرَّ في طريقه على معرة النعمان، فالتقاه أهلها، فأكرمهم وسألهم عن أبي العلاء أحمد بن سليمان، الذي كان يعيش في ذلك الوقت، وقال لهم: «لأسيرن فيكم سيرة العُميرين»^(٤).

وكانت القلعة لاتزال في يد مقلد بن كامل، وترددت الرسل بينه وبين الدزيري، وتمَّ الاتفاق بينهما على أن يسلم مقلد القلعة وأن يترك فيها ثمانين ألف دينار

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٢

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٢

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم -

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٤

وثياباً وفرشاً، وأن يأخذ هو الباقي، ونزل مقلد من القلعة وهرب من حلب بما معه من الأموال خوفاً من غدر الدزيري به، وسار نحو ثمال في الرقة، وسار الدزيري من حلب فاستولى على بالس ومنبج، وأراد أخذ الرحبة فاستعصت عليه^(١). وعاد إلى حلب، وعيّد فيها عيد النحر، ومن ثم عاد إلى دمشق في ١٩ ذي الحجة عن طريق الساحل بهدف الاستيلاء على جبلة، كما يقول المقرئزي، لكنه لم ينجح^(٢). ولم يذكر المقرئزي من كان يتولى تلك المدينة، آنذاك، لكن لا شك أنها كان تابعة للدولة الكلائية.

واستقر الحكم الفاطمي في حلب. وكان الخليفة المستنصر بالله قد هادن ملك الروم سنة ٤٢٩ على أن يطلق ٥٠٠٠ أسير لديه مقابل أن يسمح له الإمام المستنصر ببناء كنيسة القيامة التي أمر الإمام الحاكم بتدميرها سنة ٣٩٨، فأطلق الملك الروماني ميخائيل الرابع الأسرى، وعمر الكنيسة وأطلق عليها مائلاً جلاً وصفه^(٣). وكان قد بلغ الدزيري أن ثمالاً بن صالح، أرسل إلى ملك الروم يطلب مساعدته لإعادته إلى حلب، فهدد ثمالاً فاعتذر، لكنه أنكر أن يكون قد راسل الملك الروماني، فهدأت ثائرة الدزيري عليه^(٤).

ثم إن جمعاً من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفاميا وعاثوا فيها ونهبوا عدّة قرى فخرج عليهم جمع من الروم فقاتلوهم وأوقعوا بهم وأزالوهم عن بلادهم، وبلغ ذلك طغان في حلب، فأخرج من بها من تجار الفرنج وأرسل إلى المتولي بأنطاكيا يأمره بإخراج من عندهم من تجار المسلمين وأغلظ للرسول وأراد قتله، ثم تركه. وأرسل طغان إلى الدزيري يعرفه الحال وأن القوم على التجهز لقصد البلاد فجهّز الدزيري جيشاً وسيّره على مقدمته، فاتفق أنهم لقوا جيشاً للروم، وقد خرجوا لمثل ما خرج إليه هؤلاء. والتقى الفريقان بين مدينة حماة وأفاميا واشتد القتال بينهم، ثم إن الله نصر المسلمين وأذلّ الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسرا بن عم للملك وانكفّ الروم عن الأذى بعدها^(٥).

وكان شبيب بن وثّاب النميري أمير الرقة قد توفي سنة ٤٣١، واستولى ولداه مطاعن وقوام على ما كان بيده من الجزيرة، وكانت أخته علوية «السيدة» مقيمة بالرافقة، فتحيّلت على غلام أخويها الوالي بالرافقة إلى أن أخرجته، واستولت على البلد، وتزوجت ثمالاً. ومن ثم نجح ثمال في أخذ الرقة، فخشي الدزيري منه

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٥

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ١٨٧

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ١٨٧

(٤) الكامل في التاريخ ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤٧

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤٨

على حلب فاشترى قلعة جعبر، ليتمكن من مراقبة تحركات ثمال في الرقة. وراسل الدزيري نصر بن مروان أمير ميافارقين في أن يزوج ابنه لابنته، كما يقول ابن العديم، فأجابه الأمير نصر إلى ذلك، فاستوحش الوزير المصري علي بن أحمد الجرجرائي من هذه التصرفات ولاسيما أن السيطرة على حلب لم تكن بإرادة من البلاط الفاطمي، بل تصرف ذاتي من الدزيري، فكاتب الجرجرائي ولاة سوريا بترك الانقياد له. وكتب إلى ثمال بن صالح توقيعا بولاية حلب، وكاتب العسكر الفاطمي الموجود بدمشق وأغراهم بالخروج على الدزيري فثاروا عليه وهاجموا قصره فهرب من دمشق ليلاً ونزل بحصن المعرة، ثم ذهب إلى حلب فدخلها في شهر ربيع الآخر سنة ٤٣٣^(١).

وحشد ثمال عشيرته ومن أطاعه من العرب وتوجه نحو حلب، وشعر الدزيري في نفسه الذل لعدم القدرة على دفعه، فمرض مرضاً حاداً، ومات بعد ثلاثة أيام، ودبر حلب بعده رضي الدولة منجوتكين التركي. ووصل ثمال بن صالح ومعه التوقيع الذي أرسله له الوزير الجرجرائي، فسلمه منجوتكين حلب في آخر جمادى سنة ٤٣٣^(٢).

٤- تذبذب الحكم الفاطمي في حلب

دخل معز الدولة ثمال بن صالح إلى حلب تحت طاعة الدولة العلوية بمصر، لكنه لم يلبث أن أظهر المخالفة، ذلك أن كتاب الجرجرائي إليه كان يتضمن قيامه بحمل كل ما بقلعة حلب من المال، لكنه لم يرسل سوى مئتي ألف دينار، وأنفق الباقي على إعادة عمارة القلعة، وتجديد السلاح، وصرف على الجنود. ولما علم الخليفة المستنصر بالله بذلك شق عليه، كما يقول ابن العديم، ووقعت الوحشة بينه وبين معز الدولة ثمال^(٣).

أما المقرئزي فإنه يقول: «كان ثمال قد قرر على نفسه في وزارة الفلاحي أن يحمل كل سنة عشرين ألفاً، فأخّر الحمل سنتين، وأخذ شجاع الدولة يغري الوزير على ثمال ويسهل أمر حلب^(٤)».

ويذكر ابن العديم: «وعصى (ثمال) على المستنصر، فسير المستنصر إليه إلى حلب الأمير ناصر الدولة أبا محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٦

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٨

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ٢٠١

وشجاع الدولة بن كلید^(١). أما المقریزی فيقول: «فخرج الأمر إلى ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان، أمير دمشق، أن يسير هو ووالي حمص بجموع العرب، فنزل بمن معه على حماة وفتحها، وأخذ المعرة، وأقدم فنزل على حلب لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤٤٠^(٢).

ويقول ابن العديم: «وكان ناصر الدولة قد ولي دمشق بعد الدزبري فوصلوا إلى حلب بعد أن فتحوا حماة ومعرة النعمان، في سنة ٤٣٩، فطاف بحلب ولم ينزل بها، فخرج أهل حلب لقتاله، فهزمهم واختنق منهم في الباب - على ما يقال سبعة عشر ألف نفس - وعاد ناصر الدولة فنزل في قرية تدعى «صلي» على نهر قويق* قرب حلب، فجاءهم في الليل سيل جارف غرق أكثر مضارب جيشه، وقتل الكثير من الرجال وأهلك الدواب، فانهزم ناصر الدولة عن حلب إلى دمشق فقبض عليه الأمير منير الدولة بها، وأرسل إلى مصر، وذلك في رجب سنة ٤٤٠^(٣).

أما المقریزی فإنه يقول: «وحارب ابن مرداس حروباً آلت إلى رحيله بغير طائل، في سادس عشر جمادى الأولى، وفي عوده أصابه سيل هلك فيه أكثر ما معه من الخيل والرجال والأمتعة، وعاد إلى دمشق»^(٤).

وتبدو رواية ابن العديم أكثر دقة وتفصيلاً من رواية المقریزی حول هذه الواقعة، وبالتالي فهي الأكثر قبولاً.

وبعد الواقعة بعث ثمال إلى الخليفة المستنصر يسأله العفو، وكان المتوسط بينهما، كما يقول المقریزی، أبو نصر إبراهيم التستري، فأجيب إلى ذلك، وفي الوقت عينه ورد الخبر، بأن ثمالاً عيناً والياً على المعرة، وأنه أساء التدبير، وأن جعفرًا أمير حمص بادراً إلى المعرة، فلقبه مقلد بن كامل وجاربه فقتل في الواقعة في شعبان من تلك السنة، وحملت رأسه وشهت بحلب، وأسر كثير من عسكره، فبعث المستنصر إلى ثمال ردّه وأفهمه ما ورد في المكاتبه^(٥).

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٨

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقریزی - ج ٢ - ص ٢٠١
* نهر قويق: قال ابن شداد: «أما نهر حلب فاسمه نهر قويق يعني تصغير قاق وهو الطائر المعروف، والقاق يخالف الحر طبعه فيكون في غاية الضعف في الصيف، وبواقفه الشتاء فيكون في غاية النشاط فيه. وللنهر مخرجان وبين حلب وبينهما أربعة وعشرون ميلاً أحدهما في قرية يقال لها: الحسينية، بالقرب من عزاز يخرج الماء منها من عين كبيرة فتجري في نهر وتخرج بين جبلين حتى يقع في الوطأة التي قبلي الجبل الممتد من بلد عزاز شرقاً وغرباً والمخرج الأخير يجتمع من عيون ماء، من سنياب ومن بعض قرى حولها من بلد الراوندان، فتجتمع مياه تلك الأعين وتجري في نهر خارج من قم فج سنياب فيقع في الوطأة المذكورة ويجتمع النهران فيصيران نهراً واحداً في بلد عزاز وهو نهر قويق ثم يجري إلى دابق ويمر بمدينة حلب ويمده عيون قبل وصوله إليها». - الدر المنخب في تاريخ حلب - ابن الشحنة - ص ١٣٥ وص ١٣٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٤٩

(٤) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقریزی - ج ٢ - ص ٢٠١

(٥) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقریزی - ج ٢ - ص ٢٠٢

وغضب الوزير أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجاني من ناصر الدولة بن حمدان واتهمه بسوء التدبير في رجوعه عن حلب، فولى دمشق بهاء الدولة مظفر الخادم الصقلي، فخرج إليها بجيش ودخلها على حين غفلة وقبض على ناصر الدولة وحمله إلى صور ونقله إلى الرملة وصودر، كما قبض مظفر على راشد بن سنان بن عليان الكلبي واعتقله بصور^(١).

ثم أرسل الجرجاني أمير الأمراء المظفر، فخر الملك، عدة الدولة وعمادها، رفق الخادم، في ثاني عشر ذي القعدة من تلك السنة بتجمل كثير وأبهة عظيمة، وقوة قوية، وعدة وافرة، وعساكر تبلغ عدتهم ثلاثين ألفاً، وكان المنفق فيه عينا مع قيمة العروض أربعمئة ألف دينار، فبرز ظاهر القاهرة يريد حلب، وخرج المستنصر لتشييعه، وكتب لجميع أمراء الشام بالانقياد له والطاعة لأمره، وأن يترجلوا إذا لقوه^(٢). فوصل إلى حلب ونزل على مشهد الجف، فقاتله الحلبيون، فانكسر، وجرح وأخذ أسيراً، فمات في قلعة حلب في الأسر^(٣).

ورغم هذا النصر إلا أن ثمالاً أدرك صعوبة الموقف، وأنه سيخسر أمام الدولة الفاطمية، ولذلك استمال الخليفة المستنصر ولطفه، وأرسل القسطنطين إلى مصر على يد شيخ الدولة علي بن أحمد بن الأيسر، وسير معه ولده وثاب وزوجته منيعة بنت وثاب النميري، وهدايا كثيرة، وأطافاً فاخرة، وتُحفاً جلييلة^(٤). ويذكر ناصر خسرو هذه الحادثة فيقول: «ولما قتل عمدة الدولة خاف ملك حلب أن يرسل له السلطان جيشاً، فبادر بإرسال ابنه وهو في السابعة من عمره مع زوجته،

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٠٢.

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٠٢.
* يروي ناصر خسرو هذه الواقعة فيقول: «في سنة ٤٤١، وأنا بمصر، جاء الخبر أن ملك حلب قد شق عصا الطاعة على السلطان، وكان تابعاً له، وكان أباه ملوكاً على حلب، وكان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة، هو أمير المظالم، وكان عظيم الجاه والمال، ويسمى مطالباً من يبحث في تلال مصر عن الكنوز والدفائن، ويأتي لهذا الأمر رجال من المغرب وديار مصر والشام، ويتحمل كل منهم المشاق وينفق المال الكثير في تلال مصر ومحاجرها، وكثيراً ما يجدون الدفائن والكنوز، وكثيراً ما ينفقون المال ولا يهتمون إلى شيء منها. فإنهم يقولون إن أموال فرعون مدفونة في هذه المواقع، ويأخذ السلطان خمس ما يكشفه المطالب والباقي له، وقصارى القول: إن السلطان بعث هذا الخادم إلى حلب، وأمدّه بقوة ليشد إزره، وأعطاه كل ما ينبغي للملوك من الخيام وغيرها، فلما بلغ حلب وقاتل قتل، وكانت أمواله من الكثرة بحيث استغرق نقلها من خزائنه إلى خزائن السلطان شهرين، وكان من جملتها ثلاثمائة جارية أكثرهن كالبذور، وبعضهن سراريه، وقد أمر السلطان أن يكن مخبرات، فمن رغب في الزواج منهن زوجهن، ومن لم يردن أعدن إلى بيوتهن وصرفت إليهن أموالهن كاملة، فلم تجبر واحدة منهن على شيء - سفرنامه - ص ١٣٠.

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٠.
* يقول ابن العديم في سبب هزيمة رفق الخادم «كان رفق لما نزل على حلب داهن عليه العرب الكلبيون، فأشار عليه عسكريه أن يرحل عن حلب إلى صليدي فلم يفعل، فأشير عليه أن يقبض على أمراء طي وكلب فلم يفعل، فقليل له أن ينشئ سجلاً عن السلطان بأنه قد أقطع الشام لمعز الدولة، ويعود بعيبته فلم يفعل، فلما رآه أمراء العسكر لا يلتفت إليهم، ولا يقبل مشورتهم، ووقع القتال، انهزم العرب فانهمزم العسكر معهم، فسير رفق إليهم وأمرهم بالعود فلم يلتفتوا.

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٠.

ومعهما كثير من التحف والهدايا للسلطان، وذلك ليعتذرا عما فعل، فلما جاءا مكثا ما يقرب من شهرين خارج مصر، ولم يؤذن لهما بالدخول، ولم تقبل تحفهما إلى أن شفع لهما الأئمة والقضاة عند السلطان، وتوسلوا إليه أن يقابلهما ففعل ثم رجعا بالتشريف والخلع»^(١).

ويقول ابن العديم: «وحضرت بين يديه السيدة علوية، فقُبِلت الأرض وقالت: خَصَّك الله يا أمير المؤمنين بأفضل تحية وسلام. فردَّ عليها أفضل رد، وسألها عمَّن خلّفته بالشام، فقالت: في نعيم وخير إن أنعمت عليهم بأمن وذمام حسبما جرت به عادة هذا البيت المنيف من الإحسان والإكرام. فأعجبه منها سرعة جوابها وحسن توصّلها، وقال لها: أنتِ المسماة بالسيدة؟ فقالت: نعم، سيدة قومي وأمتك يا أمير المؤمنين، صلوات الله عليك. فقال لها: ما خيَّب الله من فَوْض تدبير أمره إليك في هذه الرسالة. ثم أمرها أن تُملِ على كاتبها تذكرة ليوَقَّع لها بجميع ما تقترحه توقيعا مفردا، وتوقيعا مجلب وسائر أعمالها لمعز الدولة ثمال، وأفاض عليها ما غمرها وجميع أصحابها وعادت بمقصودها»^(٢).

(١) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ١٣٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥١

* الترك، يتحدث الشريف الإدريسي عن بلاد التُّرك فيقول: بلاد تركش، هي قبيلة كبيرة من الأتراك بل هم الأتراك على الحقيقة وذلك أن في الأخبار المنقولة أن ياجوج وماجوج لما طغوا وغلبوا وأكثروا الفساد في الأرض، شُكي أمرهم إلى الإسكندر فلما قصد أرضهم اختبر أمرهم فوجد منهم أمما عمَّ خيرهم وكثر نسلهم وقلَّ ضررهم، وذلك أنهم هاجروا إلى الاسكندر قبل أن يلحق أرضهم واعترفوا له بين يديه أنهم براء من إخوانهم ياجوج وماجوج وشهد كثير من القبائل لهم بذلك وأنهم لم يزلوا أبد الدهر يطلبون السلامة والسلم حريصين على ذلك، فتركهم الإسكندر خارج السد وأقطعهم تلك الأرض، فسمتهم العرب ترگا لأنهم ممن ترك الإسكندر من آل ياجوج وماجوج، وأسكنهم خارج السد فقرؤا في تلك الأرض فكثروا نسلهم واتصل خيرهم. فجميع الترك، أعني (الخرليخة، والتبتية، والخرخيزية، والتغزغية، والكيماكية، والمخامانية، والأذكش، والترکش، والخفشاخ، والخلج، والغز، والبلاغرية) هؤلاء كلهم أمم تركهم الإسكندر خلف الردم - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الشريف الإدريسي - ص ٨٥٠ - الجزء العاشر من الإقليم الخامس.

* كاشغر، هي مدينة وقرى ورساتيق، يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الرابع - ص ٤٣٠

* فرغانة، مدينة وكورة واسعة متاخمة لبلاد الترك، في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الرابع - ص ٢٥٣

الفصل السابع

ظهور السلاجقة وعلاقتهم بالفاطميين

١- نشأة الغز

كان قسم كبير من الترك* فيما وراء النهر قد أسلموا بفعل الفتوحات الإسلامية. وظلت «كاشغر»*، و«فرغانة»* خارج بلاد الإسلام، وكان في الصحراء بين تركستان وبلاد الصين، كما يقول ابن خلدون، أمم من الترك لا يحصيهم إلا خالقهم لاتساع هذه الصحراء التي تسمى اليوم «جوبا» فكان هناك قبائل تعيش فيها وكان غذاؤهم اللحوم والألبان والذرة في بعض الأحيان، ومراكبهم الخيل، ومنها كسبهم وعليها قيامهم وعلى الغنم والبقر من بين الأنعام، وكان من بين أممهم «الغز»، و«الخطا»، و«التر»، وتقدمت تلك الشعوب إلى بلاد تركستان وراحوا يعيشون فيها فسادًا ويخطفون الناس ويسرقون الضرع، وأقاموا بصحراء بخارى^(١). وكان «تقاق» مقدم الغز ورئيسهم، كما يقول ابن الأثير، شهماً ذا رأي وتدير، وكانوا يطيعونه ولا يخالفون له رأياً، واتفق يوماً من الأيام أن ملك تركستان «بيغو» جمع عسكره وأراد المسير إلى مملكة السامانيين في خراسان وبلاد فارس، فنهاه تقاق عن ذلك، وطال خطابه معه، فأغظ له الملك في الكلام، فلطمه «تقاق» وشج رأسه، فأحاط به خدم ملك الترك وأرادوا أخذه فمانعهم وقتلهم واجتمع معه أصحابه ففرقوا عنه، ثم صلح الأمر بينهما وأقام «تقاق» عنده وولد له سلجوق، وعندما كبر قرّبه ملك الترك وقدمه ولقبه «سباشي» ومعناه قائد الجيش^(٢).

وكانت امرأة الملك، كما يقول ابن الأثير، تخوّفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له وبالغت في ذلك، فسمع سلجوق الخبر فسار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب إلى دار الإسلام^(٣)، أي نزل في بلاد السامانيين المسلمين. وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى. وغزا ميكائيل بعض البلاد فقتل وخلف من الأولاد «بيغو» و«طغرل بك» و«جغري بك داود». فأطاعتهم عشائرتهم، ونزلوا بالقرب من بخارى فخافهم أمير بخارى وأراد الإيقاع

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٤٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٦

بهم وإهلاكهم، فالتجؤوا إلى «بغراخان» ملك تركستان، وأقاموا في بلاده واحتموا به، ثم قبض بغراخان على طغرل بك، لإساءة بدت منه، فسار جغري داود بعشائره ومن يتبعه وقصد بغراخان ليخلص أخاه، فأرسل إليه بغراخان عسكرياً، فاقتتلوا فانهزم عسكري بغراخان، وكثر القتل فيهم، وخلص جغري أخاه من الأسر. وانتقل الغز، بعد هذه الواقعة، إلى «جند» بالقرب من بخارى، وأقاموا هناك^(١). فلما انقضت دولة بني سامان، وملك إيلك خان بخارى، عظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرل بك، بما وراء النهر، وكان علي تكين، أخو إيلك خان، في سجن أرسلان خان، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق، فامتنعا واستفحلا أمرهما وقصدهما أيلك وقاتلها فاهزمها وبقياً ببخارى^(٢).

وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ويقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك، وعبر محمود بن سبكتكين نهري جيحون لقتال علي بن تكين، فهرب من بخارى. وأما أرسلان بن سلجوق فقد التجأ إلى صحراء جوبا، ورأى محمود قوة السلجوقية وكثرة عددهم، فكاتب أرسلان بن سلجوق واستماله، ورغبه، فورد إليه فقبض عليه في الحال^(٣)، وبعث به إلى بلاد الهند فحبسه، وسار إلى موضع سكن قومه، فقاتلهم، فهربوا منه إلى خراسان فاتبعتهم العساكر، فانتقلوا إلى أصبهان*، وهم أصحابها علاء الدولة ابن كالويه الديلمي بالغدر بهم، وشعروا بذلك فقاتلوه بأصبهان فغلبهم فانصرفوا إلى أذربيجان فقاتلهم صاحبها «وشهودان»^(٤).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٧

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٧

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٧

* أصفهان أو أصبهان، هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصفهان اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيّاً، ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في الإقليم الرابع. وسميت بأصفهان بن فلّوج بن لنطي بن يونان بن يافث، وقال الكلبي، سميت بأصفهان بن فلّوج بن سام بن نوح عليه السلام، قال ابن دريد: أصفهان اسم مركب، لأن الأصب البلد بلسان الفرس، وهان اسم الفارس، فكانه يقال، بلاد الفرسان. قال عبيد الله المستجير بعفوه: المعروف أن الأصب بلغة الفرس هو الفرس، وهان كأنه دليل الجمع، فمعناه الفرسان. والأصفهان الفارس. وكانت مدينة أصبهان بالموضع المعروف بجي، وهو الآن يعرف بشهرستان، فلما سار بخت نصر وأخذ بيت المقدس وسب أهلها حمل معه يهودها وأنزلهم أصبهان فبنوا لهم في طرف مدينة جي محلة ونزلوها، وسميت اليهودية، ومضت على ذلك الأيام والأعوام، فغربت جي وما بقي منها إلا القليل، وعمرت اليهودية، فمدينة أصبهان اليوم هي اليهودية، وفي بعض الأخبار، أن الدجال يخرج من أصبهان، وقد خرج من أصبهان العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الأول - ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩

(٤) تاريخ ابن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٤٨

* جرجان، مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. فبعض يعدّها من هذه وبعض يعدّها من هذه، وقيل، إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء، والمحدثين. قال: وقد خرج منها رجال كثيرون موصوفون بالستر والسخاء منهم البرمكي صاحب المأمون، وينسب إليها من الأئمة أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الجرجاني الاسترابازي الفقيه أحد الأئمة - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الثاني - ص ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١

وكان هؤلاء الغز لما قصدوا أصبها بقيت جماعات منهم بنواحي خوارزم فعاثوا في البلاد، وخرج إليهم صاحب طوس وقاتلهم، وجاء محمود بن سبكتكين فसार في اتباعهم من رستاق إلى جرجان*، ورجع عنهم، ثم استأمنوا فاستخدمهم وتقدمهم رجل يدعى «يغمر»^(١).

ثم توفي محمود بن سبكتكين وتولى المملكة بعده ابنه مسعود، وانشغل بحروب الهند فانتفض الغز ضده، فبعث إليهم قائداً في العساكر، واجتمع صاحب طبرستان وصاحب الري مع قائد مسعود، وقاتلوهم، فهزمهم الغز وفتكوا فيهم وقصدوا الري فملكوها، وهرب صاحبها إلى بعض قلاع فتحصن بها، وذلك سنة ٤٢٦^(٢). وكان علاء الدولة بن كالويه البويهى قد قربهم منه ليدافع بهم السلطان محمود بن سبكتكين، فساعده فترة ثم انتفضوا ضده.

وأما الذين قصدوا أذربيجان منهم، ومقدموهم بوقا وكوكباش ومنصور ودانا، فقد قربهم صاحبها «شهودان ابن محمد» الديلمي، لينتفع بهم في القتال، فلم يحصل منهم على بغيته، فانتقلوا إلى مراغة سنة ٤٢٩، فاستباحوها، وقاتلوا الأكراد الهذبانية وهزموهم، ومن ثم افترقوا فرقتين، فرجع بوقا إلى أصحابهم الذين بالري*، وسار منصور وكوكباش إلى همذان، وكان بها أبو كاليجار بن علاء الدولة البويهى، وكان متى بن خسرو بن مجد الدولة قد حاصره واستعان بأولئك الغز فأعانوه، وعندما طال الحصار ويئس أبو كاليجار من النصر، ترك همذان وسار إلى أصبها، فدخل الغز إلى همذان واستباحوها، وحاصروا قزوین حتى أطاعوهم وبذلوا لهم سبعة آلاف دينار، وسار طائفة منهم إلى بلد الأرمن فاستباحوها وأثخنوا فيها ورجعوا إلى أرمينية^(٣).

وكان علي تكين صاحب بخارى قد استوحش من الغز وخاف منهم وأراد زرع الشقاق بينهم ليسهل عليه حكمهم، فقرب منه يوسف بن موسى بن سلجوق،

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٤٨

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٤٨

* الري، مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، قال العمراني: الري بلد بناه يزدجرد، وسماه رام فيروز، وكان أهل المدينة ثلاث طوائف، شافعية وهم الأقل وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم، لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة، وأما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من الحنفية، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة، فتضاfer عليهم الحنفية والشافعية وتناولت بينهم الحروب حتى لم يتركوا من الشيعة من يُعرف، فلما أفنواهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية هذا مع قلة عدد الشافعية إلا أن الله نصرهم عليهم. ولم يبق من الشيعة والحنفية إلا من يخفي مذهبه. والري مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها، قال الكلبي، وسميت الري بري رجل من بني شيلان ابن أصبها بن فلوج. قال جعفر بن محمد الرازي: لما قدم المهدي الري في خلافة المنصور بن مدينة الري التي فيها الناس اليوم، وجعل حولها خندقاً وبني فيها مسجداً جامعاً، وتم عملها سنة ١٥٨، وسماهما المحمدية - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي

- المجلد الثالث - ص ١١٦-١١٧-١١

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٤٩

وجعله أميراً على كل السلاجقة في منطقته ومن بينهم طغرل بك وأخوه جغري. وعرف يوسف مقصد علي تكين فلم يطعه في إشعال فتنة مع أولاد عمه. فلما رأى علي تكين أن يوسف لم يطعه أمر بقتله فقتل، ولما قتل عظم ذلك على طغرل بك وأخيه جغري وجميع عشائريهما، وجمعوا من الأتراك من قدروا على جمعه للأخذ بثأره وجمع علي تكين أيضاً جيوشه وسيرها إليهم فانهزم عسكر علي تكين^(١)، وجمع علي تكين جيشه وقصدهم هو وأولاده، فانهزم الغز وقتل منهم خلق كثير، وألجأتهم الضرورة إلى عبور نهر جيحون والوصول إلى خراسان. وكان الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين بطبرستان قد ملكها، فراسلوه وطلبوا منه الأمان وضمنوا أنهم يقصدون الطائفة التي تفسد في بلاده، فقتل الرسل وجهاز عسكراً كبيراً إليهم مع إيلتغدي حاجبه وغيره من الأمراء الأكابر فساروا إليهم والتقوا عند «نسا»* في شعبان من سنة ٤٣٢، فانهزم الغز، وتنازع عسكره حول الغنائم واقتتلوا فعاد إليهم الغز وقتلوه فانهزمهم هزيمة كبيرة، وتلاحقت هزائم عساكر السلطان مسعود مرة بعد مرة^(٢).

وسار جغري إلى سرخس واجتمع هو وأخواه طغرل وبيغو، فأرسل السلطان مسعود إليهم رسلاً في الصلح، لكنهم لم يقبلوا، فسار من مرو إلى هراة وقصد جغري مرو فامتنع أهلها عليه فحصرها سبعة أشهر وضيق عليهم وألح في قتالهم فملكها، فلما سمع مسعود هذا الخبر انزعج كثيراً، فسار من هراة إلى نيسابور ثم إلى سرخس*، وتتبع الغز من مكان إلى مكان، وجاء الشتاء ببرده الشديد وثلوجه، فأقام السلطان نيسابور ينتظر الربيع ليكمل قتال الغز، فلما جاء الربيع كان السلطان مسعود مشغولاً بلهوه وشربه^(٣). وانقضى الربيع والأمر كذلك، فلما جاء الصيف عاتبه وزرأه وخواصه على إهماله أمر عدوه فسار من نيسابور إلى مرو يطلب الغز فدخلوا في صحراء جوبا، ودخلها السلطان وراءهم، ونزل فيها في مكان قليل الماء والحر شديد فلم يكف الماء للسلطان وحواشيه، وكان جغري في معظم الغز قريباً منه، واختلفت حاشية السلطان واختصموا هم وجمع من العسكر على الماء وازدحموا وجرى بينهم فتنة حتى صار بعضهم يقاتل بعضاً، وعلم جغري ما هم فيه من الاختلاف فتقدم إليهم وقتلهم فولوا منهزمين، وكثر

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٣٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤٠

* نسا، اسم هذا البلد أعجمي، وقال أبو سعد، كان سبب تسميتها بهذا الاسم أن المسلمين لما وردوا خراسان قصدوها فبلغ أهلها فهربوا ولم يتخلف بها غير النساء، فلما أتوها لم يروا بها رجلاً، فقالوا، هؤلاء نساء والنساء لا يقاتلن، فننسا أمرها الآن إلى أن يعود رجالهن، فتركوهن ومضوا فسموا بذلك نساء، والنسبة الصحيحة إليها نسائي، وقيل نسوي أيضاً - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الخامس - ص ٢٨٢

* سَرَخُس، أو سرخك، هي قرية على باب نيسابور - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الثالث - ص ٢٠٩

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤١

القتل فيهم، وانهزم السلطان وصار لا يقف على شيء حتى أتى غرستان*^(١)، وغنم الغز معسكر السلطان بكل ما فيه من مال وميرة وآلات وعدد. فقسم جغري ذلك بين عسكره، ونزل في سرادق مسعود وقعد على كرسيه، واستولى الغز حينئذ على جميع بلاد خراسان من يد بني سبكتكين سنة ٤٣٢ هـ^(٢).

وكان جغري داؤد قد استقل بمرو* وبلاد خراسان، وأصبح أخوه طغرل بك هو السلطان على البلاد، وابتدأت منذ ذلك الوقت دولة الغز السلاجقة.

وسار طغرل بك إلى نيسابور فملكها، ثم سار سنة ٤٤٠ إلى أذربيجان فأطاعه صاحب «قبرير» أبو منصور وشهودان أبو محمد وخطب له ورهن ولده عنده، ثم أطاعه صاحب جنده أبو الأسوار، ثم تباع سائر النواحي على الطاعة له، وأخذ رهنهم، وسار إلى أرمينية فحاصر ملاذكرد* وامتنعت عليه فخر ما حولها، وبعث إليه نصير الدولة بن مروان زعيم الأكراد بالهدايا وقد كان دخل في طاعته، من قبل، وسار طغرل بك لغزو بلاد الروم واكتسحها إلى أن بلغ أردن الروم*، ورجع إلى أذربيجان ثم إلى الري وخطب له قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل في جميع أعماله^(٣). ثم استولى طغرل بك على أصبهان من يد ابن كالويه البويهى سنة ٤٤٢ هـ، ثم بعث أرسلان ابن أخيه جغري داؤد إلى بلاد فارس فأخذها من البويهيين سنة ٤٤٢ هـ، ونزل طغرل بك مدينة «نسا» فبعث له الخليفة العباسي القائم بالخلع والألقاب، وولاه على ما غلب عليه فبعث إليه طغرل بك بعشرة آلاف دينار، وأعلاق نفيسة من الجواهر والثياب والطيب، وإلى الحاشية بخمسة آلاف دينار وإلى الوزير رئيس الرؤساء بألفين، ثم سار الغز سنة ٤٤٤ هـ إلى شيراز وبها الأمير أبو سعد أخو الملك الرحيم البويهى فقاتلهم وهزمهم^(٤).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤٢

* غرستان، هي ولاية برأسها ليس لها سلطان، ولا لسلطان عليها سبيل، هراة في غربها، والغور في شرقها، ومرو الروذ عن شمالها، وغزنة جنوبها. وقال الشاري، هي غرج الشار، والغرج، هي الجبال، والشار، هو الملك، فتفسيره، جبال الملك. والعوام يسمونها، غرجستان، وملوكها إلى اليوم يخاطبون بالشار، وهي ناحية واسعة كثيرة القرى بها عشرة منابر أجلها ببشير، وفيها مستقر الشار، ولهم نهر هو نهر مرو الروذ، وعلى هذه الولاية دروب وأبواب حديد لا يمكن أحد دخولها إلا بإذن وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الرابع - ص ١٩٣

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٤٢

* مرو، أو كما تعرف قديمًا بمرو الكبرى أو مرو الشاهجان تمييزًا لها عن مرو الروذ وهي الآن عاصمة منطقة ماري في تركمانستان - وماري تحريف لمرو - تقع مدينة مرو على ضفاف نهر المרגاب. تعد المدينة حاليًا وفقًا لليونسكو من مواقع التراث العالمي ويقال إنها كانت أكبر مدن العالم في القرن الثاني عشر الميلادي.

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ٥٥٦

* أرضُ رُوم أو أرض الروم (أو أرزروم لأن التُرك لا يفرقون في النطق بين الضاد والزاي) هي عاصمة محافظة أرضروم وتقع في شمال شرق تركيا. وسكانها خليط مجتمعي، يتكوّن من الأرمن والأتراك، والأكراد، والشركس. ويكيبيديا.

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٥٤

٢- الغز وبغداد

كان طغرل بك مسكوناً بالحقد على الدولة العلوية في مصر بخلاف من سبقه من الملوك التُرك في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وهذا أمر لا يمكن فهمه، لأن الغز كانوا حديثي العهد بالإسلام، وقد كان بنو سبكتكين هم أعداءهم الرئيسيين، وليس العلويين البعيدين عن بلادهم، ورغم ذلك فقد وجه طغرل بك عداءه ضدهم، وقرر قتالهم. وكان قد أقام في الري ثم ذهب إلى همدان، ومن هناك سار إلى حلوان سنة ٤٤٧، عازماً على الحج والاجتياز بالشام لإزالته من يد العلوية، كما يقول ابن خلدون^(١). وعندما سمع الناس في العراق بقدومه خافوا منه وعظم الخوف في بغداد ونواحيها، واستعد الأتراك بقيادة أبي الحارث أرسلان البساسيري قائد الجيش لقتاله، وخیّموا خارج بغداد، وكان الملك الرحيم البويهی* قد خلف والده أبا كالجار في الملك، وعندما نزل طغرل بك على حلوان* سمع الملك الرحيم به وكان في واسط فغادرها نحو بغداد وفارقه أبو الحارث أرسلان البساسيري في بعض الطريق لمراسلة وردت من القائم العباسي إلى الملك الرحيم بأن أبا الحارث خلع الطاعة وكتب الأعداء، يعني المصريين^(٢).

وكان أبو الحارث من جُملة المماليك الأتراك في بغداد، وقد قدّمه بهاء الدولة البويهی ورفع منزلته، وتنقل بين الخدم حتى صار مقدم الأتراك ببغداد في أيام الخليفة القائم، وتلقب بالمظفر، وكان القائم لا يقطع أمراً دونه، فطار اسمه وتهيبته أمراء العرب والعجم ودعي له على منابر العراق والأهواز^(٣). وسار أبو الحارث إلى بلد نور الدولة ديبس بن مزید لمصاهرة بينهما وأكمل الملك الرحيم طريقه إلى بغداد وأرسل طغرل بك رسولاً إلى القائم العباسي يبّالغ في إظهار الطاعة والعبودية وإلى الأتراك البغداديين يعدّهم الجميل والإحسان، فأنكر الأتراك ذلك، وكان رئيس الرؤساء الوزير علي بن مسلمة يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية^(٤).

ثم إن الملك الرحيم وصل إلى بغداد منتصف رمضان سنة ٤٤٧ وأرسل إلى القائم

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٥٧

* دينور، مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بينها وبين همدان نيف وعشرون فرسخاً.

* الرحيم، أبو نصر خسرو فيروزتولى الحكم بعد وفاة أبيه أبي كالجار سنة ٤٤٠ وتلقب بالملك الرحيم - الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين - وفاء محمد علي - ص ١٢٢

* حلوان، هي في أرض السواد مما يلي الجبال من بغداد وقيل إنها سميت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة كان بعض الملوك أقطعه إياها فسميت به - معجم البلدان - ياقوت الحموي - الرومي - مجلد ٢ - ص ٢٩٠

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٢٣

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأنمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ ص ٣٢٣

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأنمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ ص ٣٢٣

يظهر له العبودية وأنه قد أسلم أمره إليه ليفعل به ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرل بك^(١).

وتقدم القائم إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان من تلك السنة، وأرسل طغرل بك يستأذن الخليفة في دخول بغداد فأذن له، فوصل إلى النهروان* وخرج الوزير رئيس الرؤساء ابن مسلمة إلى لقائه في موكب كبير من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وأعيان الدولة^(٢). ودخل طغرل بك بغداد يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان ونزل بباب الشماسية ووصل إليه قريش بن بدران صاحب الموصل^(٣). ودخل عسكر طغرل بك البلد للامتيار وشرء ما يريدونه من أهلها، وجاء بعض العسكر إلى باب الأزج في الرصافة وأخذوا من أهله ليطلب منه تبنًا وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم وصاح العامة بهم ورجموهم وهاجوا عليهم وسمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتجّ البلد، وأقبل الناس من كل حذب ينسلون يقتلون من الغزمن وجد في مجال بغداد، إلا أهل الكرخ فإنهم لم يتعرضوا إلى الغزبل حموهم وحفظوهم. وبلغ السلطان طغرل بك ما فعله أهل الكرخ من حماية أصحابه فأمر بإحسان معاملتهم وأرسل وزيره عميد الملك ابن الكندري إلى عدنان بن الرضي نقيب العلويين يأمره بالحضور فحضر فشكره عن السلطان وترك عنده خيلًا تحرسه وتحرس الكرخ^(٤)، وأرسل طغرل بك إلى الخليفة القائم يعتب وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجناده ويقول: «إن حضروا برئت ساحتهم وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضع منهم». وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أمانيًا لهم فتقدم إليهم الخليفة بقصده فركبوا إليه، وأرسل القائم معهم رسولًا يبرئهم مما خامر خاطر السلطان، فلما وصلوا إلى خيامه نهبهم الغز وانهبوا رسل الخليفة معهم وأخذوا دوابهم وثيابهم، ولما دخل الملك الرحيم إلى خيمة السلطان، أمر بالقبض عليه، وعلى من معه فقبضوا كلهم وحبسوا ثم حمل الرحيم إلى قلعة السيروان*^(٥)، وانتهت باعتقاله دولة الديلم في العراق.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٢٣

* النهروان، موقع بين بغداد وحلوان

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٢٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٢٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٢٤

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٢٤

* قلعة السيروان، تقع على ضفتي نهر سيروان في مدينة كلار في جنوب منطقة كردستان العراق.

وأرسل القائم إلى طغرل بك ينكر ما جرى من اعتقال الملك الرحيم وأصحابه ونهب بغداد، وقال له، إنهم خرجوا إليك بأمرى وأماني فإن أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن تعظيم الأوامر الشريفة تزداد وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالصد^(١). لكن طغرل بك لم يردّ عليه، بل قام بأخذ إقطاعات عسكر الرحيم وصرفهم من الجندية، فالتجأوا إلى أبي الحارث أرسلان البساسيري فزاد جمعه، وأمر طغرل بك بأخذ أموال الأجناد البغداديين بهدف إضعافهم وكسر شوكتهم، وبعث إلى نور الدولة ديبس يطلب منه أن يحضر أبا الحارث إليه فالتزم له بذلك^(٢).

وانتشر الغزفي سواد بغداد وأسرفوا في النهب. وأمر طغرل بك أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم سحراً «الصلاة خير من النوم»^(٣).*

٣ - تدخل الفاطميين ضد الغز

كان الفاطميون يراقبون تحركات الغز، فلما دخلوا إلى بغداد ودمروا دولة البويهيين، بدأوا في تحركاتهم، وقد انتدب لهذه المهمة داعي الدعاة المؤيد في الله الذي كان يملك الذكاء والحنكة السياسية، وابتدأ داعي الدعاة فكاتب وزير طغرل بك عميد الدولة الكندري، كما كاتب أقواماً آخرين ممن كان يعرفهم، واجتهد في أن يستميلهم جميعاً إلى الفاطميين^(٤)، كما كاتب بالاتفاق مع الوزير اليازوري، أبا الحارث أرسلان البساسيري ووعدته بتقديم المال والسلاح، ورحب أبو الحارث بذلك وأدى طاعته للخليفة الفاطمي، وأخذ الوزير اليازوري في إعداد المال والسلاح، ومن ثم كلف المؤيد في الله بالسفر مع هذه الذخيرة^(٥). ويذكر المقرئ في هذه الواقعة فيقول: «وجهزت له (للبساسيري) خزان الأموال العظيمة على يد

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٢٥

(٢) اتعاط الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٣٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٢٥

* يتبين من هذه الرواية أن أهل الكرخ لم يكونوا يؤذنون بعبارة «الصلاة خير من النوم». و «الصلاة خير من النوم» تسمى في علم الفقه «التثويب». والتثويب، هو من «ثاب، يثوب» إذا رجع، فهو رجوع إلى الأمر بالمبادرة إلى الصلاة، فإن المؤذن إذا قال «حي على الصلاة» فقد دعاهم إليها، فإذا قال بعدها: «الصلاة خير من النوم» فقد رجع إلى كلام معناه المبادرة إليها. ومن ثم سميت الإقامة تثويباً، لأنها رجوع إلى فصول الأذان. قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: «وذهبت العترة والشافعي في أحد قوليه إلى أن التثويب بدعة: وقال الإمام عز الدين في شرح البحر، أحدثه عمر، فقال ابنه، هذه بدعة، وعن علي رضي الله عنه، أنه قال حين سمعه: لا تزيدوا في الأذان ما ليس منه». الشوكاني - باب الصلاة - كتاب نيل الأوطار - ص ٢٥٢.

(٤) ديوان المؤيد في الله - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٠

(٥) ديوان المؤيد في الله - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٢

المؤيد في الدين أبي نصر هبة الله بن موسى سنة ٤٤٨ وخرج خطير الملك محمد بن الوزير من القاهرة في تجمل عظيم، ومعه من كل ما يريد، ومعه من خزائن الأموال والأسلحة والآلات ما يجل وصفه»^(١).

وكتب المؤيد معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس ملك حلب واستماله إليه واتفق معه على اللقاء في معرة النعمان، وهناك قابل بالإضافة إلى معز الدولة، نخبة من وجوه العسكر البغدادي أرسلهم أبو الحارث لاستقباله، بينما هو ظل في الرحبة، ورحلوا جميعاً إلى حلب وهناك أخذ المؤيد أيمان البيعة للخليفة المستنصر وخلع على معز الدولة ثمال بن صالح، ثم تأهبوا للسفر إلى الرحبة حيث أبو الحارث البساسيري^(٢). وخرج هو إلى لقائهم، فالتقاهم على رحلتين من الرحبة، ويصف المؤيد هذا اللقاء فيقول: «إلى أن لقينا أبا الحارث البساسيري والعسكر البغدادي على رحلتين من الرحبة، فرأيت العسكر تلاحق يمنة نحو الجبل وميسرة نحو طرف الفرات، وسمعت الأبواق تخرق الحجب بالأصوات ورأيت أقطار الهواء كأنها صبغت حمراء وصفراء من أصباغ الرايات، ودخلنا الرحبة دخولاً عليه من آثار السعادة، ثم تجاوزناها إلى شاطئ الفرات فنصبنا الخيام ووسطت جمعاً كل قاطع زقاق وكل جلال من الناس، ودقّاق تراموا إلى تلك البقعة من كل آفاق، تركي وكردي وعجمي على اختلاف الجنس، وعربي من كل طامع ذي ناب من الطمع حديد»^{(٣)*}.

وأخذ المؤيد العهود والمواثيق على أمراء العرب والكرد وخلع عليهم الخلع الفاطمية النفيسة التي لم يشاهدوا مثلاً، وبعد أيام دعا أبا الحارث وخلع عليه، وقرأ عهده على الناس^(٤). ويذكر ابن العديم، أن معز الدولة ثمال بن صالح أكرم أبا الحارث البساسيري وحمل إليه مالاً عظيماً^(٥). ويذكر ابن العديم أيضاً، أن بني كلاب روي أنهم لم يروا مثل أبي الحارث في الشجاعة والمكر، وكان إذا ركب معز الدولة قفز إليه، ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج، وعرض عليه معز الدولة مفاتيح الرحبة، فامتنع عن أخذها، في البداية، لكنه عاد ووافق على ذلك ليجعل فيها ماله وأهله، فسلمها معز الدولة له^(٦).

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٢

(٢) - ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٢

* يتبين من كلام المؤيد في الدين أنه لم يكن راضياً ولا واثقاً بالجمع الذي التف حوله، وأنه كان يرى فهم الطمع وليس الإخلاص والوفاء.

(٣) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٣

(٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٣

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٣

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٣

يقول المقرئزي، إن أبا الحارث كاتب الخليفة المستنصر بالله يطلب منه الإذن في الدخول إلى حضرته، لكن أشير على المستنصر بأن لا يمكنه من الحضور، وأن يعده بما يرضيه، وسير إليه الخلع^(١).

ولم يوضح المقرئزي لماذا أشير على الخليفة المستنصر بعدم السماح لأبي الحارث بالحضور إلى القاهرة.

وكان أبو الحارث قد التزم على نفسه أمام المؤيد في الدين، بأخذ بغداد وإقامة الخطبة فيها للخليفة المستنصر بالله وإزالة دولة بني العباس^(٢).

وسمع المؤيد في الدين أن نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي اتفق مع الأمير قريش بن بدران العقيلي على الخضوع لطغرل بك طمعاً في أن يحميا بلديهما من نهب جنوده، فكتب المؤيد الأمير ديبس يحثه على اللحاق به، فأسرع نور الدولة إلى المؤيد^(٣). واستطاع المؤيد أن يدبر شؤون هذا الجيش بما لديه من المال، وأن يرتب حركاته، وهوي كاتب الأمراء حوله لنصرته ويدعو أعداءه إلى اعتناق المذهب الفاطمي^(٤). وسمع طغرل بك بهذا الجمع فأرسل إليهم ابن عمه قتلмыш* وطلب من قريش بن بدران أمير الموصل أن ينضم إليه، وسار قتلмыш يريد العسكر الفاطمي ووافاه قريش بن بدران، وأرسل المؤيد في الدين أبا الحارث البساسيري على رأس الجيش للقاء العسكر السلجوقي، فالتقاهم عند سنجار، فاقتتلوا واشتد القتال بينهم فانهزم قتلмыш وقريش بن بدران وقتل من أصحابهما الكثير، ولقي قتلмыш من أهل سنجار العنت وبالغوا في أذاه وأذى أصحابه^(٥)، وكان أميرها علي بن المرجى العقيلي. وخرج قريش بن بدران وأتى إلى نور الدولة جريحاً فأعطاه خلعة كانت قد أرسلت من مصر فلبسها وصار في جملة من ساروا إلى الموصل وخطبوا للخليفة المستنصر بالله العلوي بها^(٦). وأرسل المؤيد في الدين إلى مصر بأخبار هذا النصر^(٧).

وكان لهذا الانتصار أثر قوي في نفوس أمراء العراق إذ أرسل محمود بن الأخرم الخفاجي إلى المؤيد أنه أقام الدعوة للمستنصر الفاطمي بالكوفة، وأرسل ابن قائد بن رحمة أمير واسط أنه دعا للمستنصر بها وضرب السكة باسم الخليفة

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ ص

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ ص

(٣) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٣

(٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٤

* قتلмыш، هو جد ملوك سلاجقة الروم أولاد قلع أرسلان.

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٢

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣

(٧) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٥

الفاطمي*^(١). وكاتب المؤيد في الدين عميد الملك الكندري وزير طغرل بك يدعوه إلى طاعة الخليفة المستنصر والدخول في المذهب الفاطمي، لكن الكندري قابل مكر المؤيد ودعاه بمكرودهاء، إذ اتبع نفس الخطة التي اتبعها المؤيد في مكاتبة أعدائه وخصومه فوعدهم بالولايات المختلفة، فأمن بقوله أكثر الأمراء الذين كانوا في جيش المؤيد واضطر أبو الحارث إلى اللحاق بالرحبة وتشتت شمل الجيش^(٢).

علم طغرل بك بانقسام جيوش عدوه، فسارع إليهم في ذي القعدة سنة ٤٤٨، ومعه خزائن السلاح والمنجنقات، ونهب عسكره القرى والمدن التي كان يمر بها، فلما وصل إلى تكريت حصرها، فأذن أميرها نصر بن علي بن خميس، ونصب علمًا أسود على السور* وبذل مالاً لطغرل بك فرحل عنه إلى البوازيج^(٣)، وأقام طغرل بك هناك إلى أن دخلت سنة ٤٤٩ وأتاه ياقوتي ابن أخيه جغري، بالعساكر من خراسان، فسار بها إلى الموصل، وأقطع مدينة «بلد» لهراسب بن شكر الكردي، وبعث ديبس وقريش إلى هزاسب يستعطف لهما السلطان فقبل السلطان ذلك منهما^(٤). وبعد أن خضع قريش بن بدران أمير الموصل له، ثنى عزمه عن الذهاب إليها، واكتفى بإرسال فرقة من جيشه إلى هناك لتسلمها، ووصلته الأخبار عن إقامة مجموعة من أمراء العرب الذين كانوا في جيش المؤيد،

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٥

* يذكر هذه الواقعة ابن خلدون، لكنه يسمي ابن قائد بن رحمة باسم آخر هو أبو الغنائم بن المجلبان، ويقول: كان رئيس الرؤساء - يقصد ابن مسلمة - قد سعى لأبي الغنائم بن المجلبان في ولاية واسط وأعمالها، فولها وصادر أعيانها وجند جماعة وتقوى بأهل البطيحة، وخندق على واسط، وخطب للمستنصر العلوي بمصر، فسار أبو نصر عميد العراق لحربه فهزمه وأسر من أصحابه، ووصل إلى السور فحاصره حتى تسلم البلد، فهرب أبو الغنائم ومعه الوزير بن فنجانس، ورجع عميد العراق إلى بغداد بعد أن وثى على واسط منصور بن الحسن، فعاد ابن فنجانس إلى واسط وأعاد خطبة العلوي، وقتل من وجده من الغز، ومضى منصور بن الحسين إلى الدار وبعث يطلب المدد فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء بحصار واسط فحاصرها، وقاتله ابن فنجانس فهزمه، وضيق حصاره، واستأمن إليه جماعة من أهل واسط فملكها وهرب ابن فنجانس واتبعوه فأدركوه وحمل إلى بغداد في صفر سنة ٤٤٦ فشهر وقتل - تاريخ ابن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦٠

(٢) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٣

* كان نصر بن علي بن خميس واليًا على تكريت من قبل الأمير قريش بن بدران، وكان قد بايع الخليفة المستنصر بالله العلوي مثل سيده قريش، ورفع في إقطاعه العلم الفاطمي الأبيض.

(٤) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦١

* يذكر ابن الأثير هذه الواقعة ولكن يتوسع في الشرح فيقول: «وعزم طغرل بك على المسير إلى نصيبين، فقال له هزاسب: قد تبادت الأيام ورأي أن أختار من العسكر أئف فارس أسيرهم إلى البرية «الصحراء» لعلي أنال من العرب غرضًا، فأذن له في ذلك فسار إليهم فلما قاربهم كمن لهم كمينين وتقدم إلى «الحلل»، فلما رآه قاتلوه فصر ساعة ثم انزاح بين أيديهم كالمهزم، فتبعوه فخرج الكمينان فانهزمت العرب وكثر فهم القتل والأسر، وكان قد انضاف إليهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقعة وتلك الأعمال. وحمل الأسرى إلى طغرل بك فلما أحضروا بين يديه قال لهم: «هل وطئت لكم أرضًا وأخذت لكم بلدًا؟ قالوا: لا، قال: فلماذا أتيتم لحربي؟». وأحضر الفيل* فقتلهم* إلا صبيًا أمرد فلما امتنع الفيل من قتله عفا عنه طغرل بك.

بشكل مؤقت، في مكان بالبادية، فأرسل إليهم هزارسب بن شكر الكردي*، فسار حتى قارب رحالهم، وأكمن الكمائن، وقتلهم ساعة، ثم انهزم فاتبعوه فخرجت عليهم الكمائن فانهزموا، وأثنى فيهم الغز بالقتل والأسر، وكان فيهم جماعة من بني نمير أصحاب حران والرقعة، وحمل الأسرى إلى السلطان فقتلهم أجمعين^(١)*. وعزم طغرل بك المسير إلى نصيبين^(٢) لإخضاع ملكها نصر الدولة بن مروان الكردي^(٣)، فحاصر جزيرة ابن عمر* وأرسل له ابن مروان يبذل ما لا يصلح حاله، فقبل منه ورجع عن حربه^(٤).

وشكا قتلهم ما أصاب أهل سنجار منه عند هزيمته في وقعة سنجار، فسار إليها وحاصرها ففتحها عنوة واستباحها، وقتل أميرها علي بن المرحي، وشفع أخوه لأمه إبراهيم ينال بالباقيين فتركها^(٥). وسلمها هي والموصل والرحبة وسائر تلك الأعمال التي لقريش بن بدران، إلى ينال^(٦).

٤- إقامة الدعوة الفاطمية في بغداد

كان إبراهيم ينال يبغض أخاه طغرل بك بسبب عداوة سابقة بينهما*، وكان يتحين الفرصة المناسبة فيه، وقد رأى في الدولة العلوية بمصر خير معين له على أخيه، فأرسل من الموصل رسولا إلى أبي الحارث البساسيري وهو في الرحبة يدعوه في الظاهر إلى طاعة أخيه طغرل بك، وفي الباطن يطلب منه أن يخاطب المؤيد في الدين داعي الدعاة لأن يخلع عليه ويلقبه من جانب الدولة الفاطمية إذا هو تمكن من قتل أخيه وملك البلاد باسم العلويين^(٧). فسير أبو الحارث رسول ينال إلى

(١) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦١

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٤

* جزيرة ابن عمر، مدينة مسورة تحيط بها دجلة مثل الهلال، وهي إسلامية محدثة، اختطها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي بعد المنتين في أيام المأمون فعرفت به. الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - ج ٣ - ص ٢١٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٥

(٥) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦١

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٣٥

* يتحدث ابن خلدون عن الخلاف بين ينال وأخيه طغرل بك فيقول: «كان إبراهيم ينال ملك بلاد الجبل وهمدان واستولى على الجهات من نواحيها إلى حلوان سنة ٤٣٧، ثم استوحش من السلطان طغرل بك بعدما طلب منه أن يسلم إليه مدينة همدان والقلاع فأبى من ذلك ينال وجمع جموعاً وتلاقيا فانهزم ينال، وتحصن بقلعة سوماج فملكها عليه بعد الحصار، واستنزله منها وذلك سنة ٤٤١، وأحسن إليه طغرل بك وخيره بين المقام معه أو إقطاع الأعمال فاختر المقام - تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦٢

(٧) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٧

المؤيد في الدين داعي الدعاة وهو في حلب، فرحب المؤيد بذلك ووافق على كل ما طلبه ينال^(١).

وفي سنة ٤٥٠ فارق إبراهيم ينال الموصل وسار إلى بلاد الجبل، ونسب طغرل بك رحيله إلى العصيان، فأرسل يستدعيه فعاد إليه وهو في بغداد^(٢). وكان القائد أبو الحارث أرسلان البساسيري قد اتفق مع قريش بن بدران العقيلي على أخذ الموصل من يد طغرل بك، فسار إليها وحاصرها نحو أربعة أشهر حتى تهدمت قلعتها وملكها، وخرج طغرل بك يريد ههما، فسار عن الموصل وتبعهما إلى نصيبين، وهناك فارقه أخوه إبراهيم ينال وقصد همدان^(٣)، وبها خزائن طغرل بك وسلاحه فخاف من وقوعها في يده فرجع في أثره، ولحقه الأتراك الذين في بغداد، فقوي أبو الحارث وكثف جمعه، فعاد إلى العراق، وفتح بلدًا وراء بلد، طوعًا وكرهًا، والدولة المصرية تمده بما يستعين به على ذلك، وهو لا ينفذ في أمر من الأمور إلا بما يقرره اليازوري^(٤). وجاءت الأخبار إلى الخليفة العباسي القائم بمسير أبي الحارث إلى بغداد، فعظم خوفه منه^(٥).

وفي يوم الأحد من ذي القعدة سنة ٤٥٠ وصل أبو الحارث إلى بغداد ومعه قريش بن بدران، وخطب في جامع المنصور للخليفة المستنصر بالله العلوي وقطع الخطبة لبني العباس، وعقد الجسر وعبر عسكره، فلما كانت الجمعة الثانية خطب بجامع الرصافة للمستنصر، وكانت بينه وبين أهل الرصافة حروب، وكان يقود هؤلاء رئيس الرؤساء الوزير علي بن مسلمة، وقد آل الأمر إلى هزيمة ابن مسلمة ومن معه، ونهب جيش أبي الحارث بيوت الرصافة، ووصل أبو الحارث بجيشه إلى ما يسمى «باب النوبي الشريف» وبه القائم العباسي، فهرب من المكان ومعه أهله وماله، وحوله جماعة بني العباس والخدم، وسيوفهم مسلولة، لكنه وجد نفسه محاصرًا، فعاد إلى مكانه.

وقام رئيس الرؤساء الوزير علي بن مسلمة ونادى، يا علم الدين قريش، أمير المؤمنين يستدنيك، فدنا منه، فقال الوزير له، قد آتاك الله منزلة لم ينلها أمثالك، وطلب منه الأمان للخليفة العباسي، فأمنه، ونزل إليه الخليفة والوزير، وصارا معه، فبعث إليه أبو الحارث وقال له: تحالف ما استقر بيننا، فقال قريش: لا، وكنا قد تعاهدنا على المشاركة في جميع ما يحصل لهما، فاستقر الأمر على أن أبا

(١) ديوان المؤيد في الله داعي الدعاة - المقدمة - محمد كامل حسين - ص ٤٧

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٤١

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٣٧

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٣٧

(٥) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٢

الحارث يتسلم الوزير، بينما يتسلم قريش بن بدران القائم، فبعث حينئذ الأمير قريش بالوزير إلى أبي الحارث، فلما مثل بين يديه قال له: «العفو عند المقدرة»، فقال أبو الحارث، أنت صاحب الطيلسان ما عفوت عن داري وحرمي وأطفالي فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف^(١).

وسار الأمير قريش بن بدران في خدمة القائم وأنزله في خيمة وهياً له ما يقوم به، وتم نهب دار الخلافة، وأخذ منها ما لا يحصى كثرة، وبعث منها إلى مصر: عمامة القائم، ورداؤه، وحمل إلى مصر أيضاً، الذخائر والكتب والبردة، وسلم قريش الخليفة القائم إلى ابن عمه مهارش بن المجلي، فحمله في هودج إلى مدينة عانة وأنزله بها^(٢).

واستمال أبو الحارث الناس في بغداد بكثرة الإحسان وإجراء الأرزاق^(٣).

وفي عيد النحر، سار أبو الحارث إلى المصلّى، وعلى رأسه ألوية المستنصر بالله العلوي، ودخل إلى المسجد الجامع ببغداد، فأمر بتكسير المنبر، وقال، هذا المنبر نجس أعلن عليه بغض آل محمد عليهم السلام، وأقام منبراً آخر وخطب عليه باسم المستنصر. وبعد انتهاء الصلاة أخرج الوزير أبا القائم علي بن مسلمة وهو مقيد وعليه جبة صوف وطرطور أحمر، فأمر بنصب خشبة، وجعل في فكّيه كلابين من حديد وعلقه بهما، فبقي يضطرب إلى آخر النهار حتى مات^(٤). ووردت الأخبار إلى القاهرة فعمّ السرور في القسرويين عموم الناس، كما يقول المقرئ^(٥). وأمر الخليفة المستنصر أن يحمل إلى مهارش ١٠ آلاف دينار ليسير إليه الخليفة القائم على حال جميلة، وعزم على أنه إذا وصل تلقاه أحسن لقاء وبالع في إكرامه، ويقال إنه بنى القصر الغربي لينزله فيه، وأن يقرر له في كل يوم مائة دينار، وأنه إذا ركب المستنصر في أوقات ركوبه قدمه بين يديه يحجبه، فإذا أقام على ذلك مدة وبان وانتشر في الأقطار خبر ذلك خلع عليه وعقد له ألوية الولاية للعراق، وكتب عهده بتقليده إياه، وسيّره إليه، وأعادته إلى مملكته وخلافته. فمنعه حادث القدر قبل إتمام ذلك، وكان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيري لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرفه بإقامة الخطبة له ببغداد كان الوزير حينئذ أبا الفرج محمد المغربي، وهو ممن فرّ من البساسيري وخوفه عاقبته، فتركت أجوبته مدة، ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمّله البساسيري.

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٣

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٣

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٤

(٤) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٤

(٥) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٤

ثم قدم طغرل بك فانتصر عليه^(١).

ويروي ابن الأثير رواية مشابهة حيث يقول: «ولما خطب البساسيري للمستنصر العلوي بالعراق أرسل إليه بمصري عرفه ما فعل، وكان الوزير هناك أبو الفرج ابن أخي أبي القاسم المغربي وهو ممن هرب من البساسيري وفي نفسه ما فيها فوقع فيه وبرّد فعله وخوف عاقبته فتركت أجوبته مدة ثم عادت بغير الذي أمّله ورجاه»^(٢). ومن غير المعروف ما إذا كانت هذه الرواية صحيحة، لأن أبا الحارث وفي بوعده للدولة الفاطمية وقضى على ملك آل العباس، وأقام الدعوة العلوية في بغداد، فلماذا يترك الخليفة المستنصر هذا النصر يذهب هباء؟ من هنا نعتقد أن هذه الرواية غير صحيحة.

٥- عودة طغرل بك إلى بغداد

بعد أن أصبح إبراهيم ينال في همدان اجتمع حوله الكثير من الغز وحلف لهم أنه لا يصلح أخاه طغرل بك ولا يكلفهم المسير إلى العراق وكانوا يكرهون طغرل بك لأنه كان يجبرهم على المقام بعيداً عن أوطانهم.

وأتى إلى إبراهيم محمد وأحمد ابنا أخيه أرتاش في خلق كثير، فازداد بهم قوة، وازداد طغرل بك ضعفاً، فهرب من بين يديه إلى الري، وكاتب ألب أرسلان وياقوتي وقاروت أولاد أخيه جغري، وكان جغري قد مات وملك خراسان بعده ألب أرسلان، فجاء هؤلاء إليه بالعساكر الكثيرة، وعرف ينال باجتماعهم، فقرّر الذهاب إلى الري لقتالهم خوفاً من أن يكبسوه في همدان، وما إن التقى بهم بالقرب من الري حتى دارت رحى معركة ضخمة انهزم فيها ينال وأخذ أسيراً فأمر طغرل بك به فخنق بوتر قوسه تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١^(٣). وكانت الأخبار قد وردت إليه عن امتلاك الأمير أبي الحارث البساسيري للعراق وإقامة الخطبة فيه للدولة العلوية في مصر، فامتلكه الغيظ، فأرسل إلى أبي الحارث يطلب منه إعادة الخليفة العباسي القائم إلى الخلافة، على أن لا يقصد هو العراق، ويكتفي منه بإقامة الخطبة وضرب العملة باسمه، فلم يجب أبو الحارث إلى ذلك^(٤). فرحل طغرل بك إلى العراق، ووصل الخبر إلى بغداد، فأخرج أبو الحارث حريمه وأولاده منها، وخاف أهل الكرخ، ورحلوا بنسائهم وأولادهم وشن بنو شيبان الغارة عليهم

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٥

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٥

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٥

وقتلوا منهم الكثير، ودخل سكان باب البصرة إلى حي الكرخ فنهبوه وأحرقوا درب الزعفران وهو من أحسن الدروب وأعمرها^(١).

ووصل طغرل بك إلى بغداد وكان أرسل من الطريق ابن فورك إلى قريش بن بدران ليعيد الخليفة القائم وزوجته خاتون بنت جغري داؤد إلى بغداد، ولما سمع قريش بقصد طغرل بك العراق أرسل إلى أخيه مهارش يقول له: أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانك لينكف الغز عنا والآن قد جاؤوا وهم عازمون على قصدك فأرحل أنت وأهلك في الصحراء فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا في الصحراء لم يقصدوا العراق وتحكم عليهم بما تريد. فقال مهارش: كان بيني وبين البساسيري عهود ومواثيق نقضها وإن الخليفة قد استحلطني بعهود ومواثيق لا مخلص منها^(٢).

ويتبين من هذا النص أن الأمير قريش بن بدران أودع الخليفة القائم عنده كورقة يستخدمها في وجه الغزوليس لأنه كان يريد إنقاذه من القتل. لكن أخاه مهارشاً أراد أن يستغل الأمر لمصلحته، فرفض طلب أخيه ورحل ومعه القائم العباسي نحو العراق وجعلاً طريقهما على بلد بدر بن مهلهل، ووصل ابن فورك إلى حلة بدر بن مهلهل، وطلب من بدر أن يوصله إلى مهارش، فجاء فلاح وأخبره أنه رأى مهارشاً والخليفة في تل عكبرا، فرحل بدر ومعه ابن فورك إلى هناك، فلما التقاه ابن فورك أبلغه رسالة طغرل بك وهداياه^(٣). وبعث طغرل بك إلى لقائه وزيره الكندري والأمراء والحجاب، ثم خرج طغرل بك فلقية بالنهر وان، واعتذر عن تأخره بسبب وفاة أخيه جغري بخراسان، وعصيان إبراهيم بهمدان، وأنه قتله على عصيانه، وقال، أنا أمضي في اتباع البساسيري، وأقصد الشام في طلب صاحب مصر. وقلده القائم سيفه إذ لم يجد سواه^(٤).

٦ - نهاية أبي الحارث البساسيري

بعد انكفاء الأمير أبي الحارث عن بغداد مضى إلى الكوفة والتقى مع الأمير ديبس بن مزيد، وكان يعد العدة للمسير إلى سوريا، وجاءت العيون إلى طغرل بك تخبره أن أبا الحارث موجود في الكوفة، فأرسل خمارتكين الطغراني في سرية من ألفي فارس لكبسه على حين غفلة، وسار طغرل بك في أثرهم، فلم يشعر نور الدولة ديبس بن مزيد والمظفر أبي الحارث البساسيري إلا والسرية قد وصلت إليهم من

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٥

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٤٦

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٦٦

طريق الكوفة، ووصل طغرل بك بكامل الجيش فكان بينهما حروب انتهت إلى هزيمة نورالدولة ديبس بن مزيد، وأصيب أبو الحارث بسهم في وجهه فسقط عن فرسه، فأخذه وقتلوه، وقطعت الخطبة في العراق للخليفة المستنصر العلوي بعد أن خطب له في بغداد أربعين جمعة^(١). أي سنة وشهر.

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٥٧

الفصل الثامن

الدولة الكلايية في حلب والفاطميون

١- معز الدولة شمال يتنازل عن حلب للفاطميين

كانت حلب قد استقرت تحت حكم شمال فترة من الوقت، لكن حدثت أمور أعادت القلاقل إليها، حيث تخلى شمال عن حكم حلب لصالح الدولة الفاطمية فكان ذلك بداية لأحداث خطيرة مهدت لخروج حلب عن سيطرة الفاطميين بشكل نهائي.

ويقول ابن العديم في أحداث سنة ٤٤٩ : «لما استقر معز الدولة شمال بحلب واتسع رزقه ولم يبق له عدو يقصده، اضطرب عليه بنو كلاب، وامتدت أعينهم إلى ما في يده، واستقلوا ما كان يصل إليهم منه، وأكثروا في العنت له، وقالوا: لولانا ما صرت إلى ما صرت إليه، وما أنت بأحق منا بذلك، فينبغي أن تفرضه على جميعنا^(١). ومما زاد في طمع الكلايين أن معز الدولة سلم الرقة والرافقة في سنة ٤٤٩ إلى منيع بن شبيب بن وثاب النميري، لأنها كانت لأبيه، وكانت السيدة زوجة معز الدولة قد أخذتها من غلمان أبيها^(٢).

وكره معز الدولة المقام بين أهله الكلايين، فكاتب الخليفة المستنصر بالله في تسليم حلب إليه، وطلب أن يعرض عنها أماكن تبعد عن مواطن الكلايين، فأجاب الخليفة إلى ذلك، وعرضه عنها بيروت وعكا وجبيل^(٣). وأرسل الخليفة نوابه فتسلموا حلب منه وهم: مكين الدولة أبو علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي، وعين الدولة أبو الحسن علي بن عقيل، والقاضي أبو محمد عبد الله بن عياض قاضي صور، وسار معز الدولة مع عين الدولة وقاضي صور إلى مصر، فلقية الخليفة المستنصر بالترحاب، وجعل له كل يوم ثلاثمائة دينار، وأعطى ما لم يعط أحد من المال والجوهر والآلة^(٤).

وأقام ابن ملهم بحلب، وعدل في الرعية، وأحسن السيرة، وبسط وجهه ويده لهم،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٤

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٤

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٥

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٥

ورخصت الأسعار في أيامه»^(١).

ويروي المقرئ رواية مخالفة حول تلك الأحداث فيقول: «كان الوزير الجرجاني قد غمض طرفه عن ثمال، ورأى أن مواعده أخف من إنفاق الأموال في محاربته، فكتب بولايته وقرر عليه الحمل في كل سنة، وتمادى ذلك إلى أيام وزارة اليازوري فلم يرص بهذا، ورأى أن الحيلة أبلغ فيما يؤثره، لأنه إن رام صرفه لم يُطق ذلك، وإن نابذه ألزم كلفاً كثيرة، فاستعمل السياسة والتدبير الخفي، وندب لذلك رجلاً من أهل صور له بها رئاسة ووجاهة، يقال له عين الدولة علي بن عياض، قاضي صور، فساس الأمر وأحكم التدبير فيما قرر، وما وعده به، حتى نزل من قلعة حلب وسلمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، والي الخليفة المستنصر، وسار من حلب يريد لقاء الحضرة»^(٢).

وكما نرى فهناك اختلاف بين هاتين الروايتين، لكن تبدو رواية المقرئ أكثر دقة وصواباً من رواية ابن العديم، لأن من غير المعقول أن يتخلى معز الدولة عن ملكه طواعية، بل هناك من أوهمه أن ذلك خير له، وبالعودة إلى هذه الحوادث، فإن ابن العديم يقول: «وطمع بنو كلاب بملك حلب وقدّموا عليهم الأمير محمود بن نصر بن صالح، وذلك سنة ٤٥٢، وسار محمود ونزل على حلب بجمعه من الكلابيين، وأقام عليها سبعة أيام، ثم رحل عنها»^(٣). وطلب أحداث حلب المزيد من المال من مكين الدولة، فقال لهم: (قد أخذتم واجبكم المقرر على الكمال، وتسلفتم أيضاً، فلا تطمعوا في وصول شيء آخر إليكم) فعصى الأحداث عليه، وأرسلوا إلى محمود بن نصر يطلبون منه العودة إلى حلب ليملكوه إياها^(٤). فلما وصل محمود ببني كلاب، سألوا إليه حلب في مستهل شهر جمادى الآخرة سنة ٤٥٢. وانتقل مكين الدولة إلى القلعة، وأرسل يطلب المساعدة من مصر^(٥). فأرسل الوزير عبد الله البابلي جيشاً ضخماً معظمه من المغاربة، وأرسل إلى والي دمشق الأمير ناصر الدولة أبو علي الحسين ابن الأمير ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان، ليتولى قيادته، فأقبل به حتى نزل أقاميا، واستدعى من قدر عليه من بني كلاب، واستحلفهم أربعين يميناً، وخلع عليهم خلعة فاخرة^(٦). وسار بعد أن استوثق منهم، فلما وصل إلى سرمين لاقى محمود بن نصر فهرب منه مع من كان معه من الجند والأحداث، وسار ناصر الدولة حتى وصل إلى حلب، ونزل عليها وأراد أن

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٥

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأنمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٦٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٦

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٦

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٧

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٧

ينهبها، فقليل له: إن أصحاب مكين الدولة قد سبقوك، ولم يبق لك ولأصحابك إلا الاسم بلا فائدة فامتنع من النهب، وقال: لا بد من أهل المدينة أن يقسّطوا لي خمسين ألف دينار، مقابل ترحيل محمود عنهم، فبدّلوا له خدمة فلم يقبل، وقال: أنا أمضي إلى الفنيدق وأقابل محمود، وأعود أنتقم من الحلبيين^(١). فسار عن حلب في مقدار خمسة عشر ألف فارس، ومحمود في دون الألفين، ونزلوا على الفنيدق، وهو المعروف الآن بتل السلطان، وانهزمت بنو كلاب وانضموا إلى محمود فكثّر جمعه، وبقي العسكر المصري وحده، وقلّ الماء عليهم، فكسّروا، وأسّر الدّنين بن أبي كلب الجهيلي الكلابي، ناصر الدولة، وأمكنته الهزيمة فلم ير على نفسه أن يولّي، وأسّر كل مقدّم في عسكره، وقتل الكثير من جيشه، وأخذ بنو كلاب ما كان معهم من مال وسلاح^(٢).

ويقول المقرئزي: «ورجع ثمال إلى حلب، فاتفق في غيبته قيام أهل حلب بتسليم البلد إلى عز الدولة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، في مستهل جمادى الآخرة سنة ٤٥١، فحصر ابن ملهم بالقلعة إلى أن سار ناصر الدولة بن حمدان، فكانت بينهما حروب كبيرة على قنسرين، آلت إلى أن انكسر ناصر الدولة كسرة عنيفة، وأصابته ضربة شلّت يده، ورجع منهزماً في شعبان»^(٣).

وكما نرى أن ابن العديم قد توسع بالشرح، لكن يبدو أن في روايته وضعاً وأكاذيب لا يقبلها العقل، لأن من غير المعقول أن يطلب ناصر الدولة من الحلبيين خمسين ألف دينار نظير ترحيل الأمير محمود بن نصر عن حلب، وقد كان الحلبيون هم الذين طلبوه إليهم ليحكمهم، وأيضاً لماذا لم يقابل ناصر الدولة مكين الدولة ابن ملهم وهو الذي كان قادماً لنجدته.

وتبدو رواية المقرئزي هنا أكثر دقة، فناصر الدولة لم يصل إلى حلب، بل قابله محمود بن نصر بجيشه على قنسرين قبل حلب، ودارت هناك معارك كبيرة انتهت بهزيمة ناصر الدولة. وبالعودة إلى الأحداث، فإن ابن العديم يقول: «ووصل وقت الكسرة أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس إلى حلب، وتسلم المدينة من المغاربة، وقيل: إن ابن ملهم استدعاه، وسلمه المدينة، وفرّج الله عن أهل حلب، وقدم الأمير محمود إلى حلب، فانهزم عطية منه آخر النهار من يوم الخميس مستهل شعبان، وتسلم محمود المدينة وآيس مكين الدولة بن ملهم وركن الدولة والي القلعة من حلب ومن نجدة تصل إليهما من مصر بعد هذه الكسرة فأنفذ من استحلف محمود بن نصر على شروط اشترطها عليه، وسلمها

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٨

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ٢٦٠

إليه القلعة في عاشر شعبان سنة ٤٥٢، وأما ناصر الدولة فبقي في أسر محمود إلى أن قدم البلد عمه معز الدولة فاصطنعه منيع بن شبيب بن وثاب وخلق سبيله في سنة ٤٥٣^(١).

ويقول المقرئزي: «وأما ابن ملهم فإنه بعث إلى أسد الدولة عطية بن صالح فسلمه حلب، ودخلها في عاشر شعبان سنة ٤٥٢، وأقام بها يومه ثم خرج عجزاً عنها، فوصل محمود في ثاني عشره وملكها»^(٢).

وكما نرى أن هاتين الروايتين متقاربتان وإن كان المقرئزي لم يتحدث عن مصير ابن ملهم كما فعل ابن العديم. وبالعودة إلى سياق الأحداث، يقول ابن العديم: «ولما أخذ محمود حلب من ابن ملهم، كان عمه معز الدولة شمال بمصر، فصرفه المستنصر عن عكا وبيروت وجبيل، وقال له: إن هذه الأماكن أخذتها عوضاً عن حلب، وقد عادت إلى ابن أخيك، فتمضي إلى حلب وتستعيدها منه، فقال: إن نوابكم فرطوا فأعينوني بمال، فأعانوه على ذلك بمال، وسيروه، وقرروا ألقابه: الأجل، الأعز، تاج الأمراء، عماد الملك، سيف الخلافة، عضد الإمامة، بهاء الدولة العلوية، وزعيم جيوشها المستنصرية، علم الدين ذو الفخرين مصطفى أمير المؤمنين^(٣). ووصل شمال بجيشه إلى حمص، وكاتب قومه من بني كلاب، فأجابوه وجاءوا إليه، وعرف محمود بن نصر بمجيئه فكاتب ملك الروم يستنجد^(٤). ونزل شمال على حلب محاصراً لها، ووصل الأمير منيع بن شبيب بن وثاب النميري من الرقة ومعه بنو نمير لنصرة محمود، فرحل شمال عن حلب لكنه عاد إليها في اليوم الثاني، والتقى مع محمود بن نصر فكسره، فارتد محمود إلى حلب وتحصن بها، وأدرك أنه لن يستطيع الصبر طويلاً بسبب عدم استجابة ملك الروم له، فترددت الرسل بينه وبين عمه، واستقر الصلح بينهما على أن يقوم محمود بتسليم حلب إلى شمال، فخرج محمود من حلب ودخل شمال إليها، وأرسل إلى الخليفة المستنصر بالله يعلمه بظفره»^(٥).

ويقول المقرئزي: «وفي سنة ٤٥٣ اصطاح معز الدولة وابن أخيه محمود بن شبل الدولة، فلما كان يوم الجمعة لسبع بقين من ذي القعدة توفي ودفن بالقلعة بعد أن حاصر ابن أخيه، فملك بعده عطية»^(٦).

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٩

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ٢٦٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٥٩

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٠

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٢

(٦) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٢ - ص ٢٦٣

وكما نرى فهناك اختلاف بين رواية ابن العديم ورواية المقرئ حول تلك الأحداث، ونرى أن رواية المقرئ أكثر صواباً، لأنه من غير الجائز أن تقوم حرب بين معز الدولة وبين محمود بن نصر، وكان معز الدولة زوج «السيدة» أم محمود وبمثابة أب له.

وبالعودة إلى سياق الأحداث، فيقول ابن العديم: «ومكث ثمال في حكم حلب عامًا واحدًا وتوفي في ذي القعدة سنة ٤٥٤^(١). وكان أوصى بالملك بعده لأخيه أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس، وبلغ محمود بن نصر، وهو مقيم في الحلة، بما جرى، فلم يرص به وأرسل إلى عطية يقول له: إن معز الدولة شرط على نفسه أن يرده علي البلد عند موته لما تسلمه مني، وأنا أخذته بسيفي من المصريين عن غلبة وقهر وهو إرثي عن أبي^(٢). وجمع حوله جمعًا من بني كلاب وراح يهاجم حلب ويرعى زرعها ويأخذ ما في نواحيها ويرحل عنها. وفي سنة ٤٥٥ سار محمود بن نصر بجيشه ونزل على منطقة عين سليم، فعرف به عطية وقصده وهزمه، ومن ثم اصطاح عطية وابن أخيه محمود، فأخذ عطية حلب، والرحبة، وبالس، ومنبج، وعزاز، وأخذ محمود سوى ذلك من أملاك حلب^(٣). ونزل بعطية بن صالح قوم من الغزبرئاسة هارون بن خان، وكان ذلك أول دخول للغزالي سوريا، واستخدمهم عطية في مصالحه، فغزا بهم وأظهروا شجاعة كبيرة وقوة، وخاف الحلبيون من هؤلاء الغرباء، ووصل الخوف منهم إلى عطية نفسه، فدفع الأحداث إلى مهاجمة ابن خان ومن معه ليلاً في صفر سنة ٤٥٧، فقتلوا منهم جماعة، ونهبوا خيولهم وسلاحهم وما قدروا عليه من رحلهم^(٤). وهرب ابن خان بمن تبقى معه من الرجال، وأضمر الشر لعطية، ولحق بمحمود بن نصر، وهو موجود في سرمين، فتقوى محمود به، وسار محمود بمن معه من بني كلاب مع ابن خان وجماعته، ونزل بهم على مرج دابق، فخرج إليه عطية سنة ٤٥٧، فاقتتلوا فانهزم عطية وعاد إلى حلب، وتبعه محمود حتى بلغ حلب فحاصرها لمدة مئة ويومين، حتى ضاقت الأحوال على الحلبيين، فاضطر عطية إلى التنازل عن حلب لابن أخيه في تلك السنة، وأخذ بدلاً منها الرحبة ومنبج وبالس وعزاز^(٥). وجاء نصر المستفادي رسولاً من عند الخليفة المستنصر بالله إلى محمود بن نصر حاملاً كتاباً يتضمن منح محمود مجموعة من الألقاب بينها (سيف الخلافة، ذو الفخرين، وكان قبل

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٥

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٦

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٧

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٨

يلقب، عز الدولة وشمسها)^(١)، لكن ذلك لم يؤد إلى إعادة حلب إلى كنف الدولة العلوية، ولم يكن لدى هذه الدولة القدرة على الدفاع عن هذه الإمارة، فسارت الأمور فيها من سيء إلى أسوأ، وكان محمود بن نصر قد أقطع التركي هارون بن خان معرة النعمان سنة ٤٥٨هـ، فدخلها في جماعة من أصحابه^(٢)، وخاف العرب منه بسبب أفعال قام بها، فاستدعاه محمود إلى حلب وأعطاه إقطاعاً بديلاً عن المعرة^(٣). وضاق الحلبيون ذرعاً بالأتراك لأنهم مختلفون في المذهب: الأتراك سنة حنفيون وأهل حلب كانوا شيعة، ف وقعت فتنة بين الجانبين، وقتل نحو أربعين تركياً ومن الحلبيين عشرة، واستنجد الغز بإخوانهم في بلاد الروم «تركيا»، فأرسل هؤلاء جيشاً بقيادة صندق التركي، فعاث فساداً في ضواحي حلب، ووصل إلى الجزروهي كورة تابعة لحلب، ومن ثم ذهب إلى معرة النعمان وكفرطاب ومن ثم إلى حماة وحمص ووصل إلى ريفية ونهب الضياع وسبى منها، ولقي أهل سوريا من عسكره شدة عظيمة، كما يقول ابن العديم، ولم يجد من يوقفه وخاف منه محمود بن نصر، فالتقاه وأكرمه^(٤).

ولا يذكر المقرئ في هذه الأحداث، ولذلك نعتمد ما ذكره ابن العديم منها.

٢- الصراع بين محمود بن نصر وألب أرسلان

مات الملك السلجوقي طغرل بك سنة ٤٥٥هـ وكان عقيماً لم يلد ولداً، فأجلس عميد الملك الكندري* في السلطنة سليمان بن جغري داؤد، وكان طغرل بك قد عهد إليه بالملك، وكانت والدته سليمان زوجة لطغرل بك، فلما بويع له اختلف الأمراء، فمضى ياغي سيان وأردم إلى قزوين، وخطبا لألب أرسلان محمد بن جغري داؤد، وكان ملكاً على خراسان وكان وزيره نظام الملك، فلما رأى عميد الملك انعكاس الحال عليه أمر بالخطبة، بالرأي، للسلطان ألب أرسلان وبعده لأخيه سليمان^(٥). واستقام الأمر لألب أرسلان وتوسعت دولته وظهرت دعوته في مقابل تراجع دعوة الدولة العلوية في مصر. وراسل محمود بن نصر ألب أرسلان، واستقر الأمر

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٦٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٠

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٣

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٣٦٣

* عميد الملك أبي نصر منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك، كان شديد التعصب، وبلغ من تعصبه أنه خاطب طغرل بك في لعن الشيعة على منابر خراسان، فأذن له في ذلك فأمر ببلعهم، وكان يكره الشافعية وبلغ الشافعي، وكان خصياً قد خصاه طغرل بك لأنه أرسله يخطب عليه امرأة ليتزوجها، فتزوجها هو وعصى عليه فظفر به وخصاه وأقره على خدمته، وقبض عليه ألب أرسلان سنة ٤٥٦هـ وقتله. راجع، الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٦٥

بينهما على أن يخطب محمود بحلب للقائم العباسي وبعده للملك السلجوقي، ومن ثم يخطب لنفسه، وجاءه نقيب العباسيين أبو الفوارس طراد بن علي الزينبي لإقامة الدعوة العباسية، ومعه الخلع من القائم ومن ألب أرسلان، ولقب حسام الدولة العباسية، وزعيم جيوشها الشامية، تاج الملوك، ناصر الدين، شرف الأمة، ذو الحسينين، خالصة أمير المؤمنين^(١).

وجمع الأمير محمود بن نصر أهل حلب وقال لهم: «ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة ومملكة شديدة ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل»^(٢). فأجاب المشايخ ولبس المؤذنون السواد، وخطبوا للقائم العباسي وللملك السلجوقي ألب أرسلان^(٣).

ويبرز هنا دور مهم لهارون بن خان يوضح مدى نفوذه في حلب، حيث يذكر ابن العديم، أن هذا أمر جاله بالوقوف في باب الجامع، وقتل كل من يخرج ممتنعاً من الصلاة وسماع الخطبة^(٤). وقد طلب الشيوخ من ابن خان أن لا يفعل ما يريد فعله خوفاً من وقوع فتنة، لكنه أصر على ذلك، فدخلت العامة وأخذت الحصر التي في الجامع وقالوا: «هذه حصر علي بن أبي طالب فليجيء أبو بكر بحصر حتى يصلي عليها الناس». وكان ذلك يوم الجمعة ١٩ شوال سنة ٤٦٢ هـ^(٥).

ولم يكن ولاء الأمير محمود بن نصر للسلاجقة حقيقياً، بل ظل يتواصل مع الفاطميين ظناً منه أنهم سيكونون قادرين على إنجاده لمواجهة الغز، لكن خاب أمله.

وفي سنة ٤٦٣ سار ألب أرسلان من خراسان بجيشه قاصداً حلب، بهدف السيطرة عليها، وعندما نزل على الرها، أرسل إلى الأمير محمود بن نصر يدعوه للحضور بين يديه وتقديم الطاعة له^(٦). وخاف الأمير محمود منه، فطلب من أبي الفوارس طراد الزينبي أن يخرج إلى لقائه وأن يطلب منه إعفاءه من الحضور عنده، فخرج أبو الفوارس وأخبر السلطان بأن الأمير محمود قد لبس الخلع القائمة وخطب. فقال: «أي شيء تساوي خطبهم وهم يؤذنون (حي على خير

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٣

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٣

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٤

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٤

العمل) ولا بد من الحضور ودوس بساطي»^(١). فامتنع محمود من ذلك، فتقدم ألب أرسلان وضرب الحصار على حلب، وعظم القتال، وزحف يوماً واقترب من السور فوق حجر منجنيق في فرسه^(٢) وكاد يقتله، فأدرك صعوبة فتح حلب، فلجأ عند ذلك إلى الحيلة، فأرسل وراء أمراء بني كلاب الموجودين خارج المدينة، وعمد إلى اختيار واحد منهم ليكون أميراً على القبيلة لمنافسة الأمير محمود بن نصر، وعندما عرف هو بما يدبر قرر الخروج إلى ألب أرسلان والإذعان لشروطه، فخرج ليلاً ومعه والدته السيدة منيعة بنت وثاب النميري، فدخل على السلطان وقالت له: هذا ولدي فافعل به ما تحب، فتلقاها، كما يقول ابن الأثير، بالجميل وخلع على محمود وأعادته إلى بلده فأنفذ إلى السلطان مالا جزيلاً^(٣). وترك ألب أرسلان، إيتكين السليماني، مع عسكر من الغز في كورة حلب، وعاد إلى بلاده^(٤).

٣ - هجمات الغز على حلب

بعد أن خضع الأمير محمود لسلطة ألب أرسلان، استقرت أموره في حلب حتى وافته المنية سنة ٤٦٧، فخلفه ولده نصر، وكان ألب أرسلان قد مات مقتولاً سنة ٤٦٥، وخلفه في السلطنة ولده ملكشاه، وكان قد أرسل، عندما كان أبوه نازلاً على حلب، أحد قواده ويدعى آتسز بن أوق الخوارزمي، على رأس جيش، إلى الرملة سنة ٤٦٣ وهي آنذاك مقر القيادة الفاطمية في سوريا، فأخذها، وسار إلى القدس وفيها عساكر المصريين فحاصرها واستولى عليها وملك ما يجاورها من البلاد ما عدا عسقلان، وقصد دمشق فحاصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها وقطع الميرة^(٥).

وفي سنة ٤٦٨ قصد حلب، ونهب كل ما قدر عليه واتجه إلى رمنية فملكها وسلمها إلى أخيه جاولي، وعاد هو إلى الرملة. وأرسل جاولي سراياه في جميع أنحاء البلاد تقتل وتنهب، وتمادى فساده وترددت الرسل بينه وبين الأمير نصر بن محمود فلم يستقر بينهما أمر^(٦)، واعتمد جاولي مدة إقامته في رمنية الإساءة إلى القرى المجاورة، وشن الغارات والأذى في الأعمال الجنوبية من إمارة حلب، فجهز إليه نصر بن محمود عسكر حلب وعلى رأسه أحمد شاه التركي، فالتقوه بأرض حماة

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٨٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٨٨

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٨٨

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٧٦

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٩٠

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٩٠

فانتصر عليه جاوли وغنم عسكره، وعاد أحمد شاه وجمع من سلم من عسكره، وكبس عسكر جاوли، فانتصر عليه وأسر منهم ما يزيد على ٣٠٠ نفس، وسيرهم مقيدين إلى حلب^(١).

هرب جاوли إلى رمنية ومنها إلى أخيه آتسر، وتغير خاطر نصربن محمود من أحمد شاه، فقبض عليه، كما يقول ابن العديم، ولم يوضح سبب ذلك، كما أنه لم يوضح كيف قرب نصر هذا الشخص من الأساس في مثل هذا الوقت الذي كان يعلو فيه شأن الترك في المنطقة كلها. لكن مهما يكن من أمر، فإن نصراً بن محمود ارتكب خطأ فادحاً لتقريبه ذلك الشخص إذ أنه بعد أن قبض عليه وسجنه، قصد جماعته الذين كانوا مقيمين في الحاضر جنوب حلب بهدف القبض عليهم، وما إن وصل إليهم بجيشه حتى نهضوا لقتاله، فوجه إليه أحدهم سهماً أصابه في حلقه فقتله في مستهل شوال سنة ٤٦٨^(٢).

وزحف الترك على حلب بهدف الاستيلاء عليها، وبادر أعيان المدينة إلى تولية سابق بن محمود شقيق نصر، أميراً على حلب، وعندما استقر سابق في الحكم أطلق سراح أحمد شاه وخلع عليه، فذهب إلى أصحابه الترك المجتمعين خارج حلب، فسكن ثائرتهم، وأخذ الفتنة، واستقرت قاعدة سابق، ولقب عز الملك أبو الفضائل^(٣). ولم يرص بنو كلاب بذلك بسبب خوفهم من غلبة الترك على العرب في حلب، فقدموا عليهم أخاه وثاباً بن نصر، فلما تحقق سابق من ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك وشاوره في الأمر، فأرسل أحمد شاه إلى رجل من الترك يعرف بابن دملاج، وتحالفوا وخرجوا إلى وثاب ومعه بنو كلاب، وكانوا قد أحدثوا خراباً في ضواحي حلب، ونزلوا قنسرين التي كانت عامرة آنذاك، وجاء سابق وحلفاؤه الترك إليهم وكبسوهم، ففر وثاب ومن معه، تاركين أمتعتهم خلفهم، فغنمها الحلفاء، كما أنهم أسروا جماعة كبيرة من بني كلاب، وعاد الحلفاء إلى حلب ومعهم الأسرى، فأطلقهم سابق.

وعندما أيقن وثاب بالهزيمة سار إلى ملك شاه وشكا إليه حاله وسأله المساعدة ضد أخيه سابق^(٤). ووجد ملك شاه في ذلك فرصة للاستيلاء على حلب، فأقطع أخاه تاج الدولة تتش سوريا وما يفتحه في ذلك في تلك النواحي^(٥)، سنة ٤٧٠، وأمره بالمسير إليها ومساعدة وثاب على استعادة حلب، كما أرسل ملك شاه إلى

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب- ابن العديم - ص ١٩١

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب- ابن العديم - ص ١٩١

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب- ابن العديم - ص ١٩٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب- ابن العديم - ص ١٩٤

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤١٨

أفشين بن بكجي، وصندق التركي، ومحمود من دملاج، وابن طولو، وابن بريق وغيرهم من الغزالدين كانوا موجودين في مناطق مختلفة من سوريا ليكونوا تحت أمرة أخيه، كما أرسل ملك شاه أيضًا إلى الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران ليساعده^(١).

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٩٥

الفصل التاسع

ظهور الحكم العقيلي في حلب

١- نشأة العقيليين

بعد مقتل أبي تغلب وانتهاء إمارة بني حمدان في الموصل، رحل أخواه أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين، إلى بغداد ودخلا في خدمة شرف الدولة شيرزِيل بن عضد الدولة البويهِي، فلَمَّا تُوِّفِي وخلفه أخوه بهاء الدولة، استأذناه بالذهاب إلى الموصل، فأذن لهما، فسارا حتى نزلا بظاهر المدينة، ثم علم القوَاد الغلط في ذلك، فكتب بهاء الدولة إلى خواشاذه واليه على الموصل يأمره بدفعهما عنها، فأرسل إليهما خواشاذه يأمرهما بالعود، فأعادا جواباً جميلاً وجداً في السير حتى نزلا بالدير الأعلى بظاهر الموصل^(١).

وثار أهل الموصل، كما يقول ابن الأثير، على الديلم والأتراك فنهبوه، وخرجوا إلى بني حمدان، وخرج الديلم إلى قتالهم، فهزمهم أهل الموصل وبنو حمدان، وقتل منهم خلق كثير، واعتصم الباكون بدار الإمارة، وعزم أهل الموصل على قتلهم والاستراحة منهم، فمنعهم بنو حمدان، وأرسلوا خواشاذه ومن معه إلى بغداد وأقاموا بالموصل وكثر العرب عندهم^(٢).

ولما ملك أبو طاهر وأخوه أبو عبد الله الموصل، طمع فيهما باذ الكردي الذي كان يسيطر على بعض القلاع في ديار بكر، فجمع الكرد، وكتب أهل الموصل، واستمالهم فأجابه بعضهم، كما يقول ابن الأثير، فسار إليهم ونزل بالجانب الشرقي، وفرض الحصار على الموصل، فراسل أبو طاهر وأخوه أبو عبد الله، أبا الرّوَاد محمد بن المسيّب أمير بني عقيل، واستنصره، فطلب منهما «جزيرة ابن عمر، ونصيبين، وبلدًا» فأجاباه إلى ما طلب واتفقوا^(٣). وسار إليه أبو أوبعبد الله وأقام أخوه بالموصل يحارب باذًا، فلما اجتمع أبو عبد الله وأبو الرّوَاد سارا إلى بلد وعبرا دجلة، وصارا مع باذ على أرض واحدة وهو لا يعلم، فأتاه الخبر بعبورهما، وقد قارباه، فأراد الانتقال من فرس إلى آخر فسقط واندقت ترقوته، فأتاه ابن أخته أبو علي بن مروان، وأراده على الركوب فلم يقدر، فتركوه وانصرفوا واحتموا

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٠

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٠

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٣

بالجبل، ووقع باذ بين القتلى، فعرفه بعض العرب فقتله وحمل رأسه إلى بني حمدان، وأخذ جائزة سنية، وصلبت جثته على دار الإمارة^(١).

ولما قتل باذ سارابن أخته أبو علي بن مروان في طائفة من الجيش إلى حصن كيفا، وكان به امرأة باذ وأهله، فتزوج بها وملك الحصن وغيره من الحصون التي كانت لخاله، وسار إلى ميفارقين، وسار إليه أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان طمعاً فيه ومعهما رأس باذ، فوجدا أبا علي قد أحكم أمره، فتصافوا واقتتلوا، فانتصر ابن مروان، وأسر أبا عبد الله بن حمدان، فأكرمه وأطلقه، فسار إلى أخيه أبي طاهر، وهو بآمد يحصرها، فأشار عليه بمصالحة ابن مروان فلم يفعل، واضطر أبو عبد الله إلى موافقته، وسار إلى ابن مروان فواقعه، فهزمهما وأسر أبا عبد الله أيضاً وضيّق عليه إلى أن طلبه الخليفة العزيز بالله العلوي، فأطلقه ومضى إلى مصر، وأقام بها إلى أن توفي.

وأما أبو طاهر فإنه لما وصل إلى نصيبين قصده أبو الزّوّاد فأسره وعلياً ابنه والمزعفر أمير بني نمير وقتلهم صبراً^(٢). وسار أبو الزّوّاد إلى الموصل فملكها وأعمالها وكاتب بهاء الدولة يسأله أن ينفذ إليه من يقيم عنده من أصحابه يتولى الأمور، فسير إليه قائداً من قوّاده، وكان بهاء الدولة قد سار من العراق إلى الأهواز فأمن منه أبو الزّوّاد، وأقام نائب بهاء الدولة في الموصل وليس له من الأمر شيء، ولا يحكم إلا فيما يريده أبو الزّوّاد^(٣).

وفي سنة ٣٨٦ توفي أبو الزّوّاد وطمع أخوه المقلد في ملك الموصل، فلم تساعد عقال على ذلك وقلدوا أخاه علياً لأنه أكبر منه، فشرع المقلد واستمال الديلم الذين كانوا مع أبي جعفر الحجاج بالموصل، فمال إليه بعضهم وكتب إلى بهاء الدولة يضمن منه البلد بألفي درهم كل سنة^(٤). ثم حضر عند أخيه علي وأظهر له أن بهاء الدولة قلده ولاية الموصل، وسأله مساعدته على أبي جعفر لأنه قد منعه عنها، فساروا ونزلوا على الموصل فخرج إليهم كل من استماله المقلد من الديلم، وضعف أبو جعفر الحجاج وطلب منهم الأمان فأمنوه، ووعدوه يوماً يخرج إليهم فيه، ثم إنه انحدر في السفن قبل ذلك اليوم، فلم يشعروا به إلا بعد انحداره فتبعوه، فلم ينالوا منه شيئاً، ونجا بما له منهم وسار إلى بهاء الدولة^(٥).

ودخل المقلد إلى الموصل واستقر الأمر بينه وبين أخيه علي على أن يخطب لهما

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٣

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٤٦

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٤

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٤

ويقدم علي لكبره، ويكون له معه نائب يجبي المال، واشتركا في البلد والولاية، وسار علي إلى البر، وأقام المقلد وجرى على ذلك مديدة^(١). ثم تشاجرا واختصموا، وكان المقلد يتولى غربي الفرات من أرض العراق، وكان له ببغداد نائب فيه تهور، فجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة فكتب المقلد يشكو، فأنحدر من الموصل في عساكره، وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة حرب انهزموا فيها^(٢). وكتب المقلد إلى بهاء الدولة يعتذر وطلب إنفاذ من يعقد عليه ضمان القصر وغيره، وكان بهاء الدولة مشغولاً بمن يقاتله من عسكر أخيه فاضطر إلى المصالحة، ومدّ المقلد يده إلى الأموال، فبرز نائب بهاء الدولة ببغداد أبو علي بن اسماعيل وخرج إلى حرب المقلد، فبلغ الخبر إليه، فأنفذ عسكره ليلاً فاقتتلوا مع عسكر أبي علي بن اسماعيل، ثم عادوا إلى المقلد^(٣).

فلما بلغ الخبر إلى بهاء الدولة بمجيء أصحاب المقلد إلى بغداد أنفذ أبا جعفر الحجاج إلى بغداد وأمره بمصالحة المقلد والقبض على أبي علي بن اسماعيل، فسار إلى بغداد في آخر ذي الحجة، فلما وصل إليها راسله المقلد في الصلح، فاصطلحا على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة آلاف دينار، ولا يأخذ من البلاد إلا رسم الحماية، ويخطب لأبي جعفر بعد بهاء الدولة وأن يخلع على المقلد الخلع السلطانية، ويلقب بـ«حسام الدولة» ويُقطع الموصل، والكوفة، والقصر، والجامعين^(٤).

واستقر الأمر على ذلك، ولم يف المقلد من ذلك بشيء، واستولى على البلاد ومدّ يده إلى المال، وقصده المتصرفون والأماثل وعظم قدره^(٥). وراسل وجوه العساكر في بغداد وأراد التغلب على الملك، فقتله مماليك أتراك له غيلة سنة ٣٩١، وكان سبب قتله أن هؤلاء الغلمان هربوا منه وتبعهم، وظفر بهم وقتل منهم، وقطع وأعاد الباقين، فخافوه على نفوسهم فاغتنم بعضهم غفلته وقتله بالأنبار^(٦). فخلفه ولده أبو المنيع قرواش، ولقب «معتمد الدولة» وكان كأبيه مقدماً جسوراً، وفي سنة ٣٩٢، سیر قرواش جمعاً من عقيل إلى المدائن فحصرها، فسير إليهم أبو جعفر الحجاج نائب بهاء الدولة في بغداد جيشاً أزالوهم عنها، فاجتمعت عقيل وأبو الحسن علي بن مزيد في بني أسد وقويت شوكتهم، فخرج أبو جعفر الحجاج إليهم واستنجد خفاجة وأحضرهم من الشام، فاجتمعوا معه واقتتلوا بنواحي «باكرم» في رمضان، فانهزمت الديلم وخفاجة، وأسر منهم خلق كثير

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٤

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٤

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ ص ٤٨٤

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٧ - ص ٤٨٥

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ١٦

واستبيح عسكرهم^(١).

وجمع أبو جعفر من عنده من العسكر وخرج إلى بني عقيل وابن مزيد فالتقوا بنواحي الكوفة واشتد القتال بينهم فانهزمت عقيل وابن مزيد وقتل من أصحابهم خلق كثير وأسر مثلهم، وسار إلى حلل* بني مزيد فأوقع بمن فيها، فانهزموا أيضًا فنهبت الحلل والبيوت والأموال ورأوا فيها من العين والمصاغ والثياب ما لا يقدر قدره^(٢).

وفي سنة ٣٩٧ جمع معتمد الدولة قرواش جمعًا وسار إلى الكوفة فدخلها، وكان واليها أبو علي بن ثمال الخفاجي، غائبًا عنها، وعندما سمع الخبر، سار إليه فالتقوا واقتتلوا، فانهزم قرواش، وعاد إلى الأنبار مفلولاً، وملك أبو علي الكوفة وأخذ أصحاب معتمد الدولة وصادرهم^(٣).

وانتمى معتمد الدولة إلى الدولة العلوية بمصر، كما يقول ابن الأثير، وأقام الدعوة للحاكم بأمر الله في الموصل، والأنبار، والمدائن، والكوفة، غيرها وذلك سنة ٤٠١*، فأرسل القادر بالله العباسي القاضي أبا بكر الباقلاني إلى بهاء الدولة، يعرفه ذلك، فأكرم بهاء الدولة القاضي أبا بكر، وكتب إلى عميد الجيوش يأمره بالمسير إلى حرب قرواش، وأطلق له مائة ألف دينار ينفقها في العسكر، وسار عميد الجيوش إلى حرب قرواش، فأرسل يعتذر، وقطع خطبة العلويين وأعاد خطبة القادر بالله^(٤).

ويذكر ابن خلدون رواية مختلفة حول هذه الواقعة فيقول: «وفي أول المائة الخامسة خطب قرواش بن المقلد بن عقيل لصاحب مصر الحاكم العلوي في جميع أعماله، وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، فبعث القادر القاضي أبا بكر الباقلاني إلى بهاء الدولة يعرفه فأكرمه، وكتب إلى عميد الجيوش بمحاربة

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢١

* الحلل، جمع حلّة، وهو في اللغة القوم النزول وفهم كثرة، والحلة، علم لعدة مواضع أشهرها حلة بني مزيد، وهي مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعين، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن مزيد بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي، وكانت منازل أبائه الدور من النيل، فلما قوي أمره واشتد أزهره، وكثرت أمواله لاشتغال الملوك السلاجقة، بركياروق ومحمد وسنجر، بما تواتر بينهم من الحروب، انتقل إلى الجامعين - موضع في غربي الفرات - ليبعد عن الطالب، وذلك في محرم سنة ٤٩٥، وكانت أجمة تأوي إليها السباع فنزلها بأهله وعساكره، وبني بها المساكن الجميلة والدور الفاخرة وتأنق أصحابه في مثل ذلك فصارت ملجأ، وقد قصدها التجار فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها مدة حياة سيف الدولة فلما قتل، بقيت على عمارتها - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - الجزء الثاني - ص ٢٩٤

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢١

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٢

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٦٣

* يذكر ابن الأثير مقدمة الخطبة للمصريين في بلاد الأمير قرواش فيقول: «الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب، وانهدت بقدرته أركان النصب، واطلع بنوره شمس الحق من الغرب». - الكامل في التاريخ - المجلد الثامن - ص ٦٣

قرواش، وأطلق له مائة ألف دينار يستعين بها، وسار عميد الجيوش لذلك فراجع قرواش الطاعة، وقطع خطبة العلويين، وكان ذلك داعياً في كتابة المحضر بالطعن في نسب العلوية بمصر^(١).

واستمر معتمد الدولة قرواش بالحكم حتى سنة ٤٤٢ حيث حجز عليه أخوه زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد، ومنعه من التصرف^(٢)، وانفرد زعيم الدولة بالحكم في البلاد التي كان يسيطر عليها أخوه، ومن ثم توفي زعيم الدولة سنة ٤٤٣، واجتمعت العرب من أصحابه على تأمير علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران بن المقلد فعاد إلى الموصل، وأرسل إلى عمه قرواش وهو تحت الاعتقال، يعلمه بوفاة زعيم الدولة وقيامه بالإمارة وأنه يتصرف على اختياره ويقوم بالأمر نيابة عنه، فلما وصل إلى الموصل جرى بينه وبين عمه قرواش منازعة ضعف فيها قرواش، وقوي ابن أخيه ومالت العرب إليه واستقرت الإمارة له وعاد عمه إلى ما كان عليه من الاعتقال الجميل والاقتصار به على قليل من الحاشية والنساء والنفقة ثم نقل إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل واعتقل بها^(٣) حتى توفي سنة ٤٤٤.

قد لعب الأمير قريش بن بدران، كما رأينا، دوراً مميزاً خلال إعلان الدعوة العلوية في بغداد على يد أبي الحارث البساسيري، واستمر قريش في الحكم حتى توفي سنة ٤٥٣، وتولى بعده ولده شرف الدولة مسلم بن قريش، وعظم أمره وتزوج صفية خاتون أخت الملك ألب أرسلان.

٢- الصراع بين تاج الدولة وشرف الدولة على ملك حلب

سار تاج الدولة تتش من خراسان بالجيش نحو حلب ومعه وثاب بن محمود، فوصلها مطلع سنة ٤٧١، وجاء الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش بجيش كبير من الموصل لمساعدته، وعندما تكاملت الجموع، تم فرض الحصار على حلب، ورغم أن شرف الدولة كان مع المحاصرين، لكنه كان في السريقف إلى جانب سابق ومن معه من الحلبيين في الداخل، وكان يبعث لهم في السر ما يقوي به نفوسهم، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك^(٤). وعرف تاج الدولة تتش بأفعال شرف الدولة، فتغير نحوه وأضمر له الشر، فاستأذن شرف الدولة في الرحيل، وعندما رحل أنسل بنو كلاب وتفرقوا عن تتش حيث لم يبق معه سوى

(١) تاريخ ابن خلدون - العلامة عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الثالث - ص ٥٣٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٢٩٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٣٠٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب ابن العديم - ص ١٩٦

نفر يسير بينهم واثاب، فكاتبهم سابق وتألفهم وقال لهم: «إنما أنا أذب وأحامي عن بلاكُم وعزكم، ولو صار هذا البلد إلى التُّرك لزال ملك العرب وذُلُّوا»^(١). فساروا إلى حلب وأصبحوا مع سابق.

وعندما يؤسس تاج الدولة من السيطرة على حلب، سار إلى منبج وأخذها وملأها بالعساكر، ثم ذهب إلى بزاعا وكان فيها شبل بن جامع الكلابي فقاتله تتش وغلبه وأخذها قهراً، وقتل كل من كان فيها ونهبها ووضع فيها عسكراً أيضاً، ثم رحل إلى عزاز وحاول أخذها لكنه لم يفلح، فتركها وذهب إلى جبرين فأخذها ووضع فيها عسكراً، ومن ثم أسرى في الليل من جبرين بعسكره فوصل إلى حلب صباحاً، وأغار عليها فخرج عسكر حلب لملاقاته.

ثم إن بعض عسكر التُّرك انهزموا بغير موجب، وهزم الله تتش بغير قتال^(٢).

٣ - شرف الدولة يملك حلب

كان الأمير سابق قد أدرك أنه لن يستطيع حكم حلب بسبب منافسة أخيه له من جهة وبسبب الخطر السلجوقي المائل أمامه من جهة أخرى، ولذلك أرسل إلى الأمير أبي المكارم شرف الدولة مسلم بن قريش، كي يحضر إلى حلب ليستلمها، وكان أبو المكارم في الموصل، فنهض على الفور وسار بجيشه حتى نزل على حلب في السادس عشر من ذي الحجة سنة ٤٧٢، لكن شبيباً ووثاباً شقيقَي سابق، منعاً تسليم المدينة وغلب رأيهما على رأي سابق، فلم يقاتلها شرف الدولة، وكان أهلها يحرصون على التسليم لما هم فيه من الجوع وعدم القوات^(٣).

وكان مقدم الأحداث في حلب يعرف بابن الحيتي العباسي وكان له ولد قد خرج يتصيد، فأسره أحد التُّرك وهو صاحب حصن بنواحي حلب، وأرسله إلى شرف الدولة، فقرر معه أن يسلم حلب إليه إن أطلقه فأجاب إلى ذلك، فأطلقه فعاد إلى حلب واجتمع بأبيه وعرفه ما استقر فأذن إلى تسليم البلد ونادى بشعار شرف الدولة وسلم البلد إليه فدخله سنة ٤٧٣، وحصر القلعة وأنزل منها سابقاً ووثاباً^(٤). ومن ثم أقطع الرحبة لسابق، وأقطع الأتارب وعزاز لشبيب ووثاب.

وبذلك فقد انقضت دولة الكلابيين في حلب بعد أن عمرت ٥٨ سنة. وأحسن أبو المكارم إلى أهل حلب، ونقل إليهم غلالاً كثيرة، ومن سائر الحبوب والبقر والغنم

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب ابن العديم - ص ١٩٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١٩٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠١

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ٤٢١

والمعز والدجاج شيء كثير، وعاش الناس في أيامه ورخصت الأسعار بحسن تديره. وخرج أبو المكارم بجيشه فاستولى على الحصون والبلاد الحلبية التي كان قد سيطر عليها تتش، وبذلك قد صفت له حلب وأعمالها^(١).

٤- مقدمو جبل البهرا يفدون على شرف الدولة

يذكر ابن العديم، أن وفوداً من جبل البهرا قد وفدت على شرف الدولة لتنهئته بامتلاكه حلب^(٢)، ومن المعروف أن جبل البهرا هو جزء من جبال الساحل فيه حصون القدموس والكاف والخواي والقلعة، وبما يشمل الآن مناطق القدموس والشيخ بدر والدريكيش، وكانت تلك الحصون بيد ولادة من قبل الدولة الفاطمية. وقد اضطر هؤلاء أن يغيروا ولاءهم وأن يقبلوا التبعية لشرف الدولة العقيلي بعد أن رأوا ضعف دولتهم وعجزها عن إنقاذ سوريا من الوقوع في أيدي الغز، حيث أنهم تأملوا خيراً بشرف الدولة ورأوا فيه خير ناصر لهم ضد الغرباء. ولم يذكر ابن العديم ما إذا كان شرف الدولة قد أرسل عسكرياً من قبله إلى تلك الأنحاء، لكن على ما يبدو أنه اكتفى بخضوع هؤلاء الولاة له، وأقرهم في حصونهم، فظلت تحت إدارتهم حتى أخذها الاسماعيلية منهم كما سنرى لاحقاً.

٥- تاج الدولة تتش يستولي على دمشق

بعد أن ضيق أوتسز بن أوق الخوارزمي على دمشق، اضطر واليها الأمير حيدرة بن منزو الكتامي إلى مضاعفة الضرائب على الدمشقيين لتمويل عملية الدفاع عن المدينة، مما دفع هؤلاء إلى التمرد عليه، فهاجموه كما هاجموا العسكر الفاطمي، وكان الخليفة المستنصر بالله قد تقاعس في إرسال الجيوش لنصرة دمشق ضد الغز، وكان هذا التقاعس هو السبب الرئيسي في خسارة هذه المدينة، وذلك أن الأمير حيدرة، وبعد أن اشتد الحصار عليه وعلى من معه من العسكر، انسحب من دمشق إلى بانياس، ثم رحل منها إلى صور، ثم حمل إلى مصر، وهناك اتهم بالتقصير في الدفاع عن دمشق فقتل^(٣). ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة* وولوا عليهم القصار بن يحيى المصمودي المعروف بـ«رزين الدولة»،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٢

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٣١٥
* المصامدة، نسبة إلى قبيلة «مصمودة» المغربية، وكان المصامدة يشكلون الحامية الفاطمية في دمشق.

وكانت الأسعار قد ارتفعت بسبب قلة المواد الغذائية من جراء حصار الغز لدمشق، وحدثت مجاعة كبيرة في هذه المدينة، ف وقعت الفتنة بين الحامية الفاطمية وبين أحداث دمشق، واقتتل الفريقان، وعرف آتسز بما يجري فعاد إلى دمشق ونزل عليها في شعبان من سنة ٤٦٨ هـ فحاصرها حتى انعدم الطعام فيها، فتسلمها بالأمان، ودخلها هو وعسكره في ذي القعدة وخطب فيها للمقتدي العباسي، وقطع الدعوة للعلويين المصريين، ومنع الأذان بحي على خير العمل ففرح الدمشقيون فرحاً عظيماً^(١)، لكن فرحهم ما لبث أن انقلب غمّاً لأن آتسز ظلمهم، فصاروا يتمنون موته، لكن ولات حين مناص، وسار آتسز إلى مصر مطلع سنة ٤٦٩ هـ بقصد الاستيلاء عليها.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث تلك السنة فيقول: «وفيها جمع الملك آتسز واحتشد وبرز من دمشق ونهض في جمع عظيم إلى ناحية الساحل ثم منها إلى ناحية مصر طامعاً في ملكها ومجتهداً في الاستيلاء عليها، والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل، فلما قرب من مصر وأظلمت خيله عليها، برز إليه أمير الجيوش بدر في حشده من العساكر، فكسروه وهزموه وأعملوا السيوف في عسكره قتلاً وأسرًا ونهبًا وأفلت هزيمًا بنفسه في نفر يسير من أصحابه ووصلوا إلى الرملة وقد قتل أخوه وقطعت يد أخيه الآخر وعاد بعد ذلك إلى دمشق، فسرت نفوس الناس بمصابه وتحكم السيوف في أتباعه وأصحابه، فأملوا مع هذه الحادثة سرعة هلاكه وذهابه»^(٢).

وأرسل أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٧١ هـ جيشاً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي لاستعادة دمشق من الغز، فسار هذا الجيش إلى فلسطين فاستعاد الرملة والقدس، ومن ثم وصل إلى دمشق وفيها آتسز، ففرض الحصار عليها، وأدرك آتسز عدم قدرته على الصمود فأرسل إلى تاج الدولة تتش يطلب منه المساعدة ضد العسكر المصري، وكان تتش نازلاً في بعض مناطق حلب وكان لا يزال عازماً على انتزاع هذه البلاد من الكلايين، وعندما وصله رسول آتسز هبّ مسرعاً إلى نجدته، ووصل إلى مرج عذراء، وعلم القائد المصري ناصر الدولة بمجيئه، فخاف من الوقوع بين عدوين، ففك الحصار ورحل عن دمشق، وخرج آتسز إلى تتش يلتقيه عند سور البلد، فقبض عليه تتش وقتله من ساعته، وملك دمشق^(٣)، واستقام الأمر لولده من بعده. أما الدولة الفاطمية فقد تابعت ضعفها وشارفت على خسارة سوريا كلها.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤١٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١١٢

(٣) الكامل في التاريخ ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤١٨

٦- شرف الدولة العقيلي وإمارة شيزر

كان سديد الملك أبو الحسن علي بن منقذ الكناني من الأمراء في الدولة الكلائية، وكان قد عمر قلعة الجسر، وتطلع للسيطرة على قلعة شيزر التي كانت، كما يقول ابن العديم، بيد «أسقف البارة» فتوجه إليها وفرض حصاراً عليها. ومنع عنها الطعام والشراب، وأرسل إلى الأسقف لبيعها له، فوافق على ذلك أخيراً، فتسلمها ابن منقذ ليلة الأحد النصف من شهر رجب سنة ٤٧٤^(١)، وعندما سمع أبو المكارم شرف الدولة بذلك، استاء كثيراً وخاف من ظهور منافس جديد له في سوريا، فراسله يطلب منه تسليمه الحصن، لكن ابن منقذ رفض وراح يشحن حصنه بالغلال ويستعد للمواجهة، وعندما يئس شرف الدولة من خضوعه له، أرسل عمه مؤيد الدولة علي بن بدران* لقتاله، فسار بالعسكر وأخذ في طريقه، حصن «أسفونا» غرب كفرطاب، وكان تابعاً لابن منقذ، ومن ثم مضى حتى نزل على حصن شيزر. يوم الجمعة خامس ذي الحجة سنة ٤٧٤، فحاصره ولم يتيسر له فتحه، فأرسل إلى الأمير أبي المكارم شرف الدولة، وهو في حلب، يستمده، فجاء شرف الدولة بنفسه على رأس جيش وأقام على شيزر مدة، ومن ثم ترك قسمًا من جيشه مع أخيه مؤيد الدولة وسار هو بباقي جيشه إلى حمص^(٢). وكان عليها خلف بن ملاعب الأشهبي. فلما وصل إليها خرج إليه خلف بن ملاعب وقدم له الطاعة، فأقام شرف الدولة بحمص مدة قصيرة، وكان ابن منقذ قد أدرك أنه مأخوذ لا محالة. فلجأ إلى الحيلة، فأرسل ابنه سلطان أبا العساكر وامراته منصور بن المطوع وأخته رفيعة بنت منقذ إلى شرف الدولة وهو بحمص. فدخلوا عليه وهم يحملون الهدايا، وطلبوا منه إزالة الحصار مقابل إعلان الولاء له فوافق على ذلك، وأرسل إلى عمه مؤيد الدولة وطلب منه الرحيل عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر سنة ٤٧٥^(٣). واستقر ملك بني منقذ فيها حتى كان

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٧

* قول ابن العديم: إن شيزر كانت بيد أسقف البارة هو قول غير صحيح، لأن أسقف البارة لم يكن موجوداً آنذاك، لأن هذا الأسقف كان لاتينياً ويدعى «بطرس النيرتي» وكان أحد خاصة ريموند كونت تولوز وبعد أن احتل ريموند البارة سلمها لهذا الأسقف، كما سنرى لاحقاً، وفي الحقيقة أن شيزر كانت تابعة لمملكة حلب آنذاك. ومن غير المعروف من أين أتى ابن العديم بهذه الرواية، ولعلها مختلقة من عنده.

* علي بن بدران هذا هو الذي مدحه الشاعر الشهير منتجب الدين العاني، بقصيدة يقول فيها:

إلى علي بن بدران الجواد خُدي ربّ المكارم نجّاز المواعيد

حلف السحائب فلال النوائب بذائل الرغائب مأوى كلّ مطرود

فتى جرى وسحاب الجوف أنجبست كفاه إذ ضنّ صوب المزن بالجود

هذه القصيدة منشورة في - ديوان المنتجب العاني - تحقيق هاشم عثمان - ص ٢٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٧

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٧

منهم ما كان في أيام محمود بن زنكي كما سنرى لاحقاً.

وسار شرف الدولة إلى حماة وقبض على جميع الأمراء الأتراك فيها، وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي، بيت لاهيا، وتل أغدي، و، هاب، ، وكفر نبّل^(١)، وقبض على وثاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منهما قلعة عزاز والأتاب، وأطلقهما بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة^(٢). وقبض شرف الدولة على أكثر إقطاع بني كلاب بالشام، وعاد إلى حلب، وقبض على حسن بن وثاب النميري أمير بني نمير، وكان قد حصره بسروج في العام الخالي، فسلمها إليه بعد أن عوضه نصيبين، فاعتقله بحلب مدة ومن ثم قتله^(٣).

ولم يوضح ابن العديم السبب الذي دفع شرف الدولة إلى قتل هذا الأمير النميري، لكن ربما أظهر له العداوة ورفض الخضوع لأمره وأصر على معارضته له.

٧- تحالف القوى في سوريا ضد شرف الدولة

لم يكد يستقر شرف الدولة في حكم حلب حتى ظهر له حلف من الأعداء الذين عزموا على قتاله، فقد تأمر عليه كل من وثاب وشبيب ابنا محمود الكلابي، مع ابن منقذ صاحب شيزر، وخلف بن ملاعب الأشهبي صاحب حمص، واتفق الجميع على مكاتبة الملك التركي تاج الدولة تتش بدمشق، فأرسلوا إليه يشكون حالهم وطلبوا منه مساعدتهم على قتال شرف الدولة، وقدموه عليهم وأطمعوه في الشام^(٤)، واتفق الجميع على خطة تقضي بأن يستولي تاج الدولة تتش على المناطق الشمالية الغربية لحلب، بينما تستولي قوات التحالف على المناطق الواقعة في جنوبها، ثم تضيق القوتان الخناق على المدينة وتستولي عليها وتطرده مسلم بن قريش من الشام^(٥).

وسارت تاج الدولة بجيشه من دمشق نحو أنطاكية وأقام هناك فترة، وأواخر سنة ٤٧٥هـ، وتحركت القوى العربية نحو حلب، ونزلت على معرة النعمان، وقاتلوا أياماً، فلم يمكنهم أهلها من فتحها خوفاً منهم^(٦).

وبلغ شرف الدولة ذلك كله، فسار ومعه أكثر بني كلاب وبني نمير، وبعض بني

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٨

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٨

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٨

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٨

(٥) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام - محمد سهيل طقوش - ص ١٣٥

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٩

عقيل، ووصله بعض من طيء وكتب وعُليم، ونزل في بالس في محرم سنة ٤٧٦^(١). وأراد شرف الدولة أن يقطع رأس الأفعى فتوجه نحو دمشق وأنفذ رسولا إلى مصر يطلب النجدة على قتال الغز واستعادة دمشق، وجاءه الجواب بالموافقة، وكان تاج الدولة تنتش قد عاد مسرعاً إلى دمشق وحشد واستعد. ونهض شرف الدولة بالعسكر مسرعاً إلى أن نزل على دمشق، فخرج إليه عسكر تاج الدولة وحمل على عسكره حملة صادقة فانكشف وتضعع عسكره وعاد كل فريق إلى مكانه وعاد عليهم بحملة أقوى وانهمزت العرب وثبت شرف الدولة مكانه وكاد يقع في الأسر وتراجع أصحابه، ولم تصله أية معونة من قبل مصر بسبب الخلاف بين من يريد إرسال المساعدة وبين من لا يريد ذلك خوفاً من ميل العرب إليه وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه^(٢)، فلما وقع يأسره مما أمله ورجاه وخاب ما تمنّاه، وورد عليه من أعماله ما شغل خاطره في تديره وأعماله وتواترت الأخبار بما أزعجه وأقلقه، رأى أن رحيله عن دمشق إلى بلاده وعوده إلى ولايته لتسديد أحوالها وإصلاح اختلالها أصوب من مقامه على دمشق وأوفق من شأنه^(٣)، وأظهر أنه يريد السير جنوباً فرحل أولاً إلى مرج الصفر، فارتاع الترك في دمشق واضطربوا، ثم إنه رحل من مرج الصفر مشرقاً في البرية وجدّ في مسيره^(٤).

وكان القاضي الحنفي ابن جلبة الطيباني قد دفع أهل السنة في حرّان* إلى عصيان الوالي جعفر العقيلي الذي أظهر مذهب التشيع والإعلان به^(٥). وأرسل ابن جلبة إلى جبّ أمير التركمان في «أرض روم» يطلب منه الحضور إليه ليسلمه حرّان^(٦)، وكان جعفر قد اختبأ من السنة في حصن المدينة، فقاتلوه وكادوا يقتلونه، ووصل

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٠٩

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١١٥

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ١١٥

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٤٢٩

* حرّان: بتشديد الراء وآخره نون، يجوز أن يكون فعلاً من حرن الفرس إذا لم ينقد، ويجوز أن يكون فعلاً من الحر، يقال: رجل حرّان أي عطشان، وأصله من الحر، امرأة حرّ، وهو حرّان، والنسبة إليها حرّاني، كما قالوا: مناني في النسبة إلى ماني والقياس مانوي وحرّاني، والعامّة عليها. وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. قيل سمّيت بهارن أخي إبراهيم عليه السلام، لأنه أول من بناها، فعزّبت فليل حرّان، وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة وهم الحرّانيون الذين يذكّرهم أصحاب كتب الملل والنحل، وقال المفسرون في قوله تعالى: «إني مهاجر إلى ربي» إنه أراد حرّان، وقالوا في قوله تعالى «ونجيناً لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» وهي حرّان. وقد فتحها عياض بن غنم ونزل عليها قبل الرها فخرج إليه مقدموها فقالوا له: ليس بنا امتناع عليكم ولكننا نسألكم أن تمضوا إلى الرها، فمهما دخل فيه أهل الرها فعلينا مثله. فأجابهم عياض إلى ذلك ونزل على الرها وصالحهم، فصالح أهل حرّان على مثاله.

وينسب إليها جماعة كثيرة من أهل العلم - معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٣٥ و ٣٣٦

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٠

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ص ٤٣٠

شرف الدولة إلى شرق حماة، فراسل خلف بن ملاعب من هناك، وطيب نفسه، وقرر معه أن يكون بينه وبين تتش درءاً يمنع الأذية عن بلاده، فأجابه إلى ذلك، وخلق عليه شرف الدولة وأكرمه^(١).

ومن ثم سار إلى حران، فوصل إليها بعد أن كادت تسقط بيد أعدائه، فحاصرها شهرين ونقب نقوباً في سورها وفتح به فتحتين، فدخل مع عسكره، وهجم بالسيف فأخمد الفتنة ونهب عسكره البلد، وقطع على المخالفين ألف دينار، وقبض على خلق منهم، وقتل ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً صبراً وصلبهم، وصلب ابن جلبة أمامهم، وذلك سنة ٤٧٦^(٢).

٨ - الصراع بين شرف الدولة وملكشاه

كان شرف الدولة يسعى إلى توسيع مملكته وكان الخليفة العباسي المقتدي قد عقد لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلق عليه وسير معه العساكر وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان وأن يخطب لنفسه ويذكر اسمه على العملة^(٣). فسار فخر الدولة في العساكر إلى ديار بكر سنة ٤٧٧.

وفي مطلع السنة التالية أرسل السلطان ملكشاه إلى فخر الدولة جيشاً بقيادة أرتق بن أكسب*، لمساعدته ضد ابن مروان، وكان هذا الأخير قد أرسل إلى شرف الدولة وطلب منه نصرته مقابل أن يسلم إليه آمد وحلف كل منهما لصاحبه وكل منهما يرى أن صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة^(٤). واجتمعا على حرب فخر الدولة وسارا إلى آمد وقد نزل فخر الدولة بنواحيها فلما رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصلح وقال: «لا أؤثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي»، لكن الغز خالفوه وهاجموا العرب والتحم القتال فانهزمت العرب، ووقع الكثير من بني عقيل في الأسر، وغنم الغز أموالهم وسبوا حريمهم، وانهزم شرف الدولة ولجأ إلى آمد، فلحق به ابن جهير وحاصره، فراسل شرف الدولة أرتق وبذل له مالاً وسأله أن يمن عليه بنفسه ويمكنه من الخروج من آمد، فلما سمع أرتق بما بذل له شرف الدولة، أذن له في الخروج فخرج منها في ٢١ ربيع الأول وقصد الرقة^(٥).
سمع سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد أمير الحلة بما جرى لشرف الدولة،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١١

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٠

* أرتق بن أكسب، هو جد الملوك الترك الأتاتقة الذين ملكوا ديار بكر وحلب

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٣

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٣

فبذل له الأموال وفكّ أسرى بني عقيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم وردّهم إلى بلادهم^(١). ولما بلغ ملكشاه انهزام شرف الدولة وانحصاره في آمد، لم يشك بأسره، فخلع على عميد الدولة بن جهيروولاه على بلاد شرف الدولة، وسيّره في جيش كثيف إلى الموصل وكاتب أمراء الغزبطاعته وأرسل معه من الأمراء أقسنقر قسيم الدولة، ومن ثم سار ملك شاه نفسه إلى بلاد شرف الدولة ليملكها. وبينما هو في الطريق أتاه الخبر بخروج أخيه تكش عليه، وكان شرف الدولة قد خرج من الحصار، فأرسل ملكشاه، مؤيد الملك بن نظام الملك إليه فأعطاه العهود والمواثيق وأحضره عند ملكشاه، فخلع عليه وأقرّه على بلاده وزاد أمر شرف الدولة قوة^(٢).

٩- الصراع بين شرف الدولة والملك السلجوقي سليمان بن قتلмыш

كان الغز قد توغلوا في آسيا الصغرى بعد انهزام الروم في معركة منازكرد، وأخذ سليمان بن قتلмыш بن إسرائيل بن سلجوق إدارة شؤون تلك المنطقة بعد رحيل ألب أرسلان، وعزم أن يقيم لنفسه سلطنة في قونية وأقسرا، وغيرهما من المدن التي كانت تحت حكم أبيه قتلмыш، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة ملك شاه، وكانت أجزاء واسعة من آسيا الصغرى قد أصبحت شبه خالية من سكانها الأصليين الذين هجروها، خوفاً من السلاجقة، بعد معركة منازكرد، فنزل بها هؤلاء واستقروا فيها وغيروا معالمها^(٣) *.

وبعد أن أمّن سليمان حدود مملكته من جهة الغرب مع الرومان اتجه نحو الجنوب، وكانت أنطاكية محط اهتمامه، وكانت هذه المدينة بيد الأرمن حلفاء الروم، وكان هؤلاء يدفعون الجزية للملك شرف الدولة مسلم بن قريش، وفي سنة ٤٧٧ سار سليمان بن قتلмыш إلى هذه المدينة للاستيلاء عليها، وكان واليها، كما يقول ابن الأثير، يدعى «فردوس» وكان مسيئاً إلى أهلها، وحتى إلى أهل بيته، فاتفق ابنه مع رئيس الشرطة في المدينة على تسليمها إلى سليمان بن قتلмыш^(٤). وكاتبوه يستدعونهم، فجاء بجيشه في البحر، وخرج منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها في الموعد المحدد، فنصب السلالم وصعد جيشه على

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٣

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٤

(٣) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى - محمد سهيل طقوش - ص ٥٤

* أكبر عملية تغيير ديمغرافي شهدتها العالم في القرون الوسطى كانت تلك التي قام بها السلاجقة في بلاد أرمينية الكبرى وآسيا الصغرى، حيث أزاحوا شعوباً، مثل الأرمن والسرمان واليونان، كانت تعيش في هذه المناطق وسكنوا مكانها، وقامت مدن وقرى تركية مكان مدن وقرى أخرى هجرها سكانها أو قتلوا.

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٨ - ص ٤٣٦

السور، وأخذوا البلد في شعبان من تلك السنة^(١).

ويروي ابن العديم رواية مختلفة فيقول: «وسار سليمان بن قلمش بجيشه من نيقيا وعبر الدروب حتى وصل إليها، وقتل أهل قرية قريبة منها تدعى (العمرانية) لكي لا يندروا به، وكان الوالي الأرمني (فلاردوس) خارج المدينة، وصعد أتباع سليمان بالحبال على السور ونزل بعضهم مما يلي باب فارس، وفتحوه فدخل العسكروصاحوا صيحة واحدة، وظن أهل المدينة أن الوالي قد عاد، لكن سرعان ما عرفوا بما جرى، فقاتلوه دفاعاً عن أنفسهم وأملاكهم، وسلموا في النهاية، فسيطر سليمان على المدينة»^(٢).

١٠- مقتل شرف الدولة وانتهاء الحكم العقيلي في حلب

بعد أن ملك سليمان بن قلمش أنطاكية أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ما كان يحمل له، فلاردوس، من المال ويخوفه معصية السلطان ملكشاه، فأجابه: «أما طاعة السلطان فهي شعاري ودياري والخطبة والسكة له في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاداته من هذا البلد، وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً»^(٣). فاستاء شرف الدولة من هذا الجواب وعقد عزمه على مواجهة سليمان بن قلمش، فأرسل سرايا من جيشه للإغارة على أعمال أنطاكية، وأرسل سليمان، في المقابل، سراياه للإغارة على أعمال حلب.

ثم إن شرف الدولة جمع الجموع من العرب وجاء إليه جبق بجمع كبير من الترك، وسار إلى أنطاكية ليحصرها^(٤)، ونزل على نهر عفرين في موضع يقال له «قرزاحل» - بئر احل^(٥)، وسار سليمان بجيشه من أنطاكية، ولاقى شرف الدولة في ذلك الموقع في آخر نهار السبت ٢٤ صفر سنة ٤٧٨، والشمس في وجوه عسكر شرف الدولة، وكان اللقاء بغتة في غير وقت يظن فيه اللقاء^(٦)، وعندما بدأت المعركة مال جبق ومن معه من الأتراك إلى سليمان لأنهم من عنصره، فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدولة فقتل بعد أن صبر وقتل بين يديه أربع مائة غلام من

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ٨ - ص ٤٣٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٦

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٣٧

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٥

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٥

أحداث حلب^(١). ولما طعن قال: «يا شام الشؤم» واتهم أصحابه بقتله^(٢).

وسار سليمان بن قتلمش إلى حلب ومعه الجسد الطاهر لشرف الدولة، فوضعه على باب المدينة، وبدأ بحصارها، وكان شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي قد تولى الحكم في حلب، خلفاً لابن عمه شرف الدولة وبدأ الاستعداد للدفاع عنها ضد سليمان بن قتلمش، لكن ابن الحتيتي العباسي* الذي كان يمثل خليفة بغداد في حلب منذ خضوعها للترك في عهد الأمير الكلابي محمود بن نصر، قد أرسل إلى ملك الترك في الشرق ملك شاه، يطلب منه الإسراع إليه ليملك حلب، ويقطع الحكم العقيلي منها.

وأقام ابن قتلمش على حلب، وخاف ابن الحتيتي من تأخر ملكشاه، فأرسل إلى التركي تتش ملك دمشق يعده بتسليم حلب، فسار إليها، وعلم سليمان به فسار نحوه مجداً فوصل إليه وقت السحر، ولم يعلم بتتش حتى قرب منه، وكان الأمير أرتق بن أكسب مع تتش، فوقع القتال وانهزم جيش سليمان وقتل هو في المعركة^(٣). وحاصرتش حلب.

وفي تلك الأثناء كان ملك شاه قد وصل في ٢٣ شعبان ٤٧٩. وعندما علم به أخوه تتش عاد إلى دمشق، وأدرك شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي أنه لا قبل له في مواجهة ملك شاه بجيوشه، وراسله ملك شاه في تسليم حلب فوافق على ذلك على أن يعوّضه عنها. حيث يذكر ابن واصل، «أن السلطان ملكشاه لما تسلّم حلب عوّض عنها صاحبها سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش، قلعة جعبر»^(٤). فرحل إليها وابتدأت إمارة العقيليين في تلك القلعة والتي استمرت حتى أخذها منهم محمود بن زنكي سنة ٥٦٤. ودخل ملكشاه حلب من دون قتال، ومن ثم زحف بجيشه إلى أنطاكية فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير ابن قتلمش، وترك فيها الأمير «ياغي سيان»، وعاد إلى حلب وعيّن عليها قسيم الدولة أفسنقر البرسقي والد عماد الدين زنكي، وتسلم، وهو فيها، رسالة من نصربن علي بن منقذ أمير شيزر، يعترف له بالطاعة ويتنازل

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٤٣٧

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢١٥

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد الثامن - ص ٤٤٤

* لا يقف مؤرخو الترك عند الدور الذي لعبه ابن الحتيتي العباسي لإنهاء الحكم العقيلي من حلب، بل يعتبرون أنه فعل خيراً عندما راسل ملك شاه ليأتي ويأخذ حلب، وفي الحقيقة كان الحتيتي يعلم أن سليمان بن قتلمش لن يقدر على الدخول إلى حلب، ولذلك أرسل إلى ملك شاه، فجاء هذا مسرعاً بكل عساكره، وأدرك أمير حلب العقيلي أنه لن يقدر على مواجهة ملك شاه، فاستسلم له، وهكذا دخلت حلب بشكل نهائي في حكم الترك وبتدبير من الحتيتي.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٩٨

له عن اللاذقية* وأفاميا وكفرطاب^(١).

وانقطع الحكم العقيلي من حلب وسوريا وقام إبراهيم بن قريش بالملك في الموصل واستمر فيه حتى استدعاه ملكشاه إليه سنة ٤٨٢ فاعتقله وأقطع الموصل لفخر الدولة بن جهير، وانقطع الحكم العقيلي من هناك أيضًا. والواقع أن العام الذي قُتل فيه شرف الدولة هو عام شؤم على العرب، لأن بلادنا ظلت منذ ذلك التاريخ تحت حكم التُّرك حتى انهيار سلطنة بني عثمان عام ١٩١٨ للميلاد.

(١) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام - محمد سهيل طقوش - ص ١٤٤
* يتبين من هذه الرواية أن اللاذقية كانت تابعة في ذلك الوقت لبني منقذ

الباب الثالث

الغزو الصليبي للشرق

الفصل الأول

الاستعداد للحروب

كان الغزو الصليبي أسوأ ما تعرضت له سوريا عبر تاريخها الطويل، فقد تدفق مئات الآلاف من المقاتلين من أوروبا الغربية تحذوهم الرغبة في القتل والسلب والتدمير، فعاثوا فساداً في كل أرض وطأوها وتمكنوا من احتلال القلاع والحصون وإقامة الممالك واستيطان سواحل سوريا قرابة مئتي عام. ورغم أن الصليبيين اندثروا وانتهى وجودهم، لكن ما فعلوه في سوريا كان رهيباً، وكان تأثيرهم شديداً على الفاطميين الذين كانوا يصارعون ضد العدو السلجوقي القادم من الشرق، فأصبحوا يناضلون ضد العدو الصليبي القادم من الغرب، ما أدى، في النهاية، إلى تراجع أحوالهم وخسارتهم لدولتهم في مصر.

وسوف نتناول في هذا الباب أسباب الغزو الصليبي وآثاره على المنطقة كلها.

١- الظروف التي هيأت للغزو الصليبي للشرق

كانت أوروبا قد اعتنقت الديانة المسيحية منذ أن أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين مرسوم ميلان سنة ٣١٣ للميلاد، حيث أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية، وكانت هذه الديانة تتنامى بقوة بين الشعوب الغربية مستفيدة من مناصرة الدولة لها في غالب الأوقات، حتى أصبحت هي الديانة الوحيدة لتلك الشعوب.

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦ للميلاد، على يد البرابرة الشماليين، استطاع بابوات روما أن يجعلوا من أنفسهم بديلاً عن تلك الإمبراطورية، واشترت الكنيسة مناطق شاسعة في كل بلاد غرب أوروبا، وأقام البابا دولة مترامية الأطراف كان يحكمها بواسطة مجموعة كبيرة من الرهبان المنتشرين في مختلف الكنائس والأديرة، وأصبح باستطاعة البابا أن يسلك من يشاء في عداد القديسين وأن يرسل من يشاء إلى الجحيم، وخضعت الملوك والأمراء لسلطته، وباتوا طوعاً وبكراً، وهكذا أصبح غرب أوروبا عبارة عن دولة دينية محكومة بالسلطة الروحية للبابا.

وكان الإسلام قد أصبح يشكل تحدياً كبيراً لأوروبا منذ القرن السابع الميلادي، فقد راح العرب المسلمون يناوشون تلك القارة لنشر الإسلام فيها، فتقدموا في آسيا الصغرى ووصلوا إلى بعد ما يُسمى «دروب الروم» والواقعة في إقليم

قليقية، ومن الغرب تقدموا حتى امتلكوا إسبانيا، ومن ثم توقفوا عند جبال البرينيه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، وقد زاد الضغط على أوروبا في القرن العاشر تزامناً مع ظهور السلاجقة الذين راحوا يتوغلون في آسيا الصغرى ويناوشون الروم، ومن ثم نهض الملك السلجوقي ألب أرسلان بجيش كبير وتقدم داخل الإمبراطورية البيزنطية واستولى على أراضٍ واسعة. وعندما علم الإمبراطور رومانوس بالأمر، استدعى قواته من الفرسان وجميع المشاة وزحف بكل ما لديه من الكتائب، ولاقى الجيش السلجوقي بعد أن كان قد استولى على قلب الإمبراطورية وأخذ يتوغل في داخل البلاد، ثم كانت معركة «منازكرد» التي انتصر فيها السلاجقة ووقع الإمبراطور رومانوس في الأسر، ومن ثم أطلق ألب أرسلان سراحه بعد أن أذله^(١)، وعندما تولى ولده ملك شاه الحكم من بعده، تابع ما بدأه واستولى على جميع البلاد الممتدة من اللاذقية حتى مضيق البسفور إلى جوار القسطنطينية، وكانت الأرض التي استولى عليها تقدّر، كما يقول وليم الصوري*، برحلة ثلاثين يوماً طويلاً وعشرة أو خمسة عشر يوماً عرضاً، وإنه لو كان بيد ملك شاه قوة بحرية لكان ملك القسطنطينية وذلك لأنه بثّ في نفوس الإغريق حُكام القسطنطينية من الرعب ما جعلهم يستبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم، ولم يعودوا يعتبرون تغلغل البحر في أرضهم كافياً لضمان سلامتهم تمام السلامة^(٢).

ويقول وليم الصوري أيضاً: «لما ترك للترك غزو جميع ممالك الشرق تطلّعوا لفتح مصر القوية، فزحفوا على بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس وأناخ هؤلاء الطغاة بكلّهم على كافة السكان في هذه البلاد، فتلاشت خشية الله من قلوب الناس، وضاع العدل من الأرض، وانعدمت الطمأنينة إذ فشا العنف بين الأمم وساد الغش وعمت الخيانة والخديعة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٨٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ١ - ص ٨٥

* وليم الصوري، هو مؤلف تغلب عليه الصفة العلمية والتدليل المنطقي الذي احتذاه المؤرخون قرونًا عديدة. وما استخلصه من أخبار شهود الحرب، ووليم هو من أهل فلسطين، ولد حوالي سنة ١١٣٠، وتلقى تعليمه في الغرب فلما عاد حظي بتقدير أمليرك الأول له، فجرت رسامته شماساً ثم رئيساً للشمامسة بصور، ثم أصبح مؤدباً لبلدوين الرابع، فلما تولى بلدوين الحكم، صار وليم مستشاراً للمملكة ورئيساً لأساقفة صور «١١٧٤ - ١١٧٥» وجرى استخدامه عادة في السفارات والمفاوضات، باعتباره مستشاراً، وكان مسؤولاً عن المحافظة على محفوظات المملكة، واشتهر وليم بالانزان والاعتدال، ولذا كان له من الصفات العديدة ما يؤمله لأن يكتب تاريخاً صادقاً غير متحيز، اشتهر بدرأيته باللغتين العربية واليونانية، وبإلمامه التام بما يجري في القسطنطينية من الأمور، كما اشتهر بمعرفته بتاريخ الدول الإسلامية التي ألف فيها كتاباً «يعتبر مفقوداً». بناء على طلب أمليرك، الذي كلفه أيضاً بتأليف كتاب عن الحروب الصليبية، وصنف وليم الكتاب في أزمدة مختلفة تقع بين سنة ١١٧٠ وسنة ١١٨٣، حيث توقف فجأة، واختفى مؤلفه فجأة أيضاً - الحروب الصليبية - إرنست باركر - ص ١٩٤

والاحتيايل كل صقع وناد، وطويت كل فضيلة»^(١).

ويقول ول ديورانت: «كان الفاطميون حُكام مصر قد حكموا فلسطين حكمًا سمحًا رحيماً، استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم، لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين عام ١٠٧٠ للميلاد - ٤٦٤ للهجرة -، وأخذ الحجاج المسيحيون بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير»^(٢).

ويقول وليم الصوري: «وحدث في أثناء هذه الأوقات العصبية أن وصل إلى مدينة القدس جماعة ضخمة من اليونان واللاتين، وكان مجيئهم لأداء مناسك العبادة في الأماكن الطاهرة، لكن حراس أبوابها لم يأذنوا لهم بالدخول حتى يدفعوا قطعة النقود الذهبية التي جرت العادة أن يدفعها كل داخل، غير أنهم كانوا قد صرفوا في أثناء رحلتهم كل دنانير* كان معهم، ولم يبق معهم شيء يؤدونه لسداد هذا الرسم المالي، وكان بين الجموع قديس اسمه (بطرس) يُعرف بـ(الناسك) وقد دفع المقررجبايته من كل مسيحي راغب في دخول المدينة^(٣). وقد استضافه أحد المسيحيين المحليين، وراح بطرس يستفسر عن أحوال النصارى وما يعانونه من كثرة الاضطهاد، وسمع عن بطرك المدينة الذي يدعى سيمون، فقرّر الذهاب إليه والحصول منه على صورة كاملة أكثر وضوحاً، وعندما حضر إليه أخذ البطرك يشرح له في إسهاب وصدق، الأهوال الجمة المنصبة في وحشية على النصارى في القدس، وطلب منه البطرك أن ينقل ما سمعه إلى نصارى الغرب علّهم يتعاطفون مع نصارى الشرق ويساعدونهم في الخلاص مما هم فيه، وقال له بطرس: أعلم أيها الأب المبارك أنه إذا توفر لكنيسة روما وأمراء الغرب مبلغ ثقة يخبرهم بالمصائب التي يتكابدونها، فلا شك أنهم سوف يبادرون إلى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولاً وعملاً لتخليصكم من هذه المشاق^(٤). ووعد بطرس أن ينقل هذه المعاناة إلى البابا وإلى الكنيسة في روما، وعندما عاد بطرس من رحلته، عمل على الالتقاء بالبابا إيربان الثاني،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٨٠

(٢) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ١٢

* الدانق: يقال دَانَق ودَانِق، بفتح النون وكسرهما، وأصله أعجمي معرب، ووزنه ثمان حبات شعير وخُمْسا حبة. قال الحسن البصري: لعن الله الدانق وأول من أخرج الدانق، ما كانت العرب تعرف الدانق ولا أبناء فارس. إنه لا دين لمن لا مروءة له - حقيقة الدينار والذهب والصاع والمد - أبو العباس أحمد العزفي السبتي - ص ١٣٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٩٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٩٢

فلما تهيأت له الفرصة نقل له رسالة بطرك مسيحي القدس ووصف له ما يعانونه من الأهوال والمتاعب، ونقل إليه في دقة وبراعة ما عهد إليه به^(١). فدعا البابا إلى عقد سنودس للتباحث في تلك القضية، وفي شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥، اجتمع في مدينة «كليرمونت» في فرنسا، جمع كبير من الأساقفة ورؤساء الأديرة من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء جبال الألب، وحضر هذا الاجتماع أيضًا بعض أمراء تلك الولايات ذاتها^(٢). وألقى إيريان عظته التي حض فيها الغربيين للتوجه إلى الشرق لإنقاذ القدس وغيرها من المدن المقدسة عند النصارى من أيدي المسلمين، وفي ختام عظته أمر جميع الحاضرين إذاك من رجال الكنائس للعودة إلى أبرشياتهم ليكرسوا أنفسهم لما سمعوه، وليسعوا حثيثًا لحث أتباعهم على النهوض إلى الحج^(٣). وصدع رجال الكنائس بما أمروا به مظهرين التعاون فدفعوا أتباعهم للسفر للحج، ودأبوا على التنقل في ربوع أسقفياتهم يحرضون الناس على القتال^(٤).

وقد دبت، كما يقول وليم أسقف صور، الحمية في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع، وراح كل واحد منهم يشجع صاحبه ويستعدون للسفر الذي حددوا يومًا معينًا له يكون بعد إتمام جميع ما يلزم من الاستعدادات وبعد أن يتجمع كل رفاقهم^(٥). وقد اتفقت الآراء جميعًا على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم إشارة الصليب على ثيابهم، وذلك لكلام المسيح: «إن أراد أحد أن يأتي ورأي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»^(٦). وعمد الأمراء إلى تقوية عزائمهم بعلامة الصليب ارتباطًا منهم بالحج القادم، ومن هؤلاء «هيج الكبير» شقيق فليب الأول * ملك الفرنجة، و«روبرت كونت فلاندرز»، و«بلوا»، والد كونت تيوبولد الكبير، وأديمار أسقف بوي *، و«وليم أسقف أورنج *»، و«ريموند كونت تولوز وسان جيل»، مع غيرهم من الرجال^(٧). كما ذهب أيضًا لورد جودفروي دوق اللورين، ورحل معه أخواه بلدوين وأسناس، وصحبهم أيضًا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٩٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٩٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١٠٥

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٠٦

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٠٨

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١٠٩

* فليب الأول، ملك فرنسا من الأسرة الكابيتية، تولى العرش سنة ١٠٦٠ وتوفي سنة ١١٠٨ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٢١٢

(٧) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١٠٩

* بوي، إقليم يقع وسط فرنسا معروف باسم بوي دي دوم نسبة للبركان الشهير النائم بوي دي دوم.

* أورنج، بلدة في جنوب شرق فرنسا في منطقة إقليم ألب كوت دازور

بلدوين الملقب «بورج» وهو قريب الأخوة الثلاثة، وابن لورد هيج كونت رينيل، وبلدوين كونت هينولت، وايزور كونت دي، وريبولد كونت أورنج، ووليم كونت فوريز^(١).

وممن صحبهم من علية القوم وإن لم يكونوا من فئة الكونتات: النبلاء الذين قدموا طواعية من تلقاء أنفسهم وهم: هنري دينس، ورالف بوجنسي، وايفرارد دي بوسيه، وجاسون دي بنارف، ووليم أمانجو، ووليم دي مونبلييه، وجيرارد دي روسيلون، وجيرارد دي شبريزي، وروجرد بارتيفل، وجي دي جارلاند سيكال، وتوماس دي لافير، وجالت دي كالفومونت^(٢).

كما سار بطرس الناسك وطائفة كثيفة من الناس جمعهم بمشقة كبيرة من مملكة فرنسا وإمبراطورية ألمانيا^(٣). وجاء من الجانب الجنوبي من جبال الألب «بوهيموند أمير بارنبوا بن روبرت جيسكار ودوق أبوليا»^{*}، وابن أخته «تانريد»^(٤).

وما كاد الشتاء ينصرم وتبدو تباشير الربيع في الظهور وتنكسر شدة البرودة حتى هياؤا جيادهم وأعدوا سلاحهم وجمعوا متاعهم، كما ظل من أزمعوا على الخروج معاً على اتصال بعضهم ببعض، وحددوا موعداً دقيقاً فيما بينهم وساعة رأوها ملائمة لبدء مسيرهم، واتفقوا أين يكون ملتقاهم واستعرضوا المسالك فاختراروا أسرها عليهم وأسرعها في إبلاغهم غايتهم^(٥). ورتبوا ترتيباً دقيقاً أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمن يتبعه من القوات. ويسلك طريقاً لا يسير فيه سواه، واتفقوا على أن لا تلتقي هذه الجيوش إلا في مدينة نيقية^(٦).

وسار الدوق جودفروي بكتائبه من طريق المجر، واتخذ ريموند كونت تولوز وأسقف بوي طريقهما عبر دلماشيا، أما الزعماء الآخرون فاخترقوا أبوليا وانتقلوا منها بالسفن عبر البحر إلى القسطنطينية، وأعدوا في الوقت ذاته العتاد الذي رأوه كافياً لرحلة طويلة كهذه الرحلة، وراح كل منهم يقدر المال الذي تتطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق^(٧).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١١٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١١٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١١٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ١١٠

* أبوليا، منطقة تقع في الساحل الجنوبي الشرقي لإيطاليا وعاصمتها باري.

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١١١

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١١١

(٧) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١١١

٢- بدء الزحف نحو الشرق:

بدأ الزحف نحو الشرق على شكل مجموعات فوضوية حيث قاد وولتر المفلس في اليوم الثامن من شهر مارس، آذار ١٠٩٦، جماعة كثيرة من الجند المشاة، عبر المجرو بعد عناء شديد وصل إلى القسطنطينية في جماعة قليلة، فجيء به إلى حضرة الإمبراطور، ونجح في الحصول على إذن سمح له بإنزال جيشه قرب البلد حتى يجيء بطرس الناسك الذي أذن لولتر أن يسير تحت قيادته^(١). وما كادت تمضي فترة وجيزة حتى زحف بطرس الناسك، عبر «لوثاريجيا» و«فرانكونيا» و«بافاريا» وإقليم النمسا، وكان تحت أمرته حشد ضخم يكاد يقرب من أربعين ألفاً جعل منهم جيشاً على اختلاف أممهم وقبائلهم وألسنتهم وشعوبهم، ودخل مملكة المجرب عسكره ومن هناك عبروا إلى بلغراد، ومن ثم أكمل طريقه عبر بلاد البلغار. وقد تعرضوا، كما يقول وليم السوري، للقتل والنهب في بلاد المجرو والبلغار حتى لم يبق مع بطرس الناسك إلا ثلاثين ألف رجل، وعندما سمع الإمبراطور الروماني باقتراب هؤلاء من حدود دولته، أرسل إليهم ودعاهم إلى القسطنطينية، فلما بلغوا هذه المدينة بعد رحلة شاقة وجدوا بها وولتر المفلس وقواته التي كانت معه في انتظار قدومهم. فانضم المعسكران بعضهما إلى بعض وخيموا في الموضع الذي خصص لهم^(٢). وأقام الجيش الصليبي في هذا الموضع عدة أيام ثم صدر الأمر الإمبراطوري بتزويدهم بالسفن ليعبروا بها البسفور إلى «بثينيا» وهي أولى الولايات في منطقة آسيا، فانتقلوا إلى بثينيا وضربوا معسكرهم فيها^(٣).

وفي نفس السنة ١٠٩٦ من مولد المسيح، وفي اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس، أب، قام «جودفروي» دوق «لوثاريجيا» بجمع أصدقاءه في رحلة الحج، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة. ولقد انضم إلى معسكر جودفروي رجال من ذوي المكانة السامية، وهم لورد «بلدوين دي مونس» كونت «همنولت»، ولورد هيج كونت «سنت بول» وابنه أنجراند، وكونت جارنييه، الذي يدعى «جراي» ولورد «رينار» كونت نول، وأخوه بطرس، ولورد بلدوين «دي بورج» أحد أقارب الدوق جودفروي، ولورد هنري دينس،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم السوري - ج ١ - ص ١١٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم السوري - ج ١ - ص ١٢٤

* أثرت الاختصار في نقل الرواية، ومن يريد الاستزادة فليرجع إلى كتاب «تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» لوليم السوري.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم السوري - ج ١ - ص ١٢٤

وأخوه جودفروي، و، دودودي كونتي، وكونون دي مونياج، وكثيرون غيرهم ممن لا يدرك عددهم^(١). وسار هؤلاء جميعاً في طريقهم في هدوء مسيرة طائفة واحدة مترابطة، حتى إذا كان يوم ٢٠ سبتمبر، أيلول، بلغوا سالمين ناحية «سولينبورج» في ولاية النمسا وأصبحوا على تخوم بلاد المجر، فاتفق رأيهم على وجوب إرسال سفارة إلى ملك المجر ليسمح لهم بعبور بلاده بسلام، وذلك بعد أن علموا ما جرى لإخوانهم من قبل في هذه البلاد. فسمح لهم الملك، فعبروا كل بلاد المجر بسلام حتى وصلوا إلى بلغراد إحدى مدن بلغاريا^(٢)، ومن ثم شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة حتى بلغوا بلاد الإمبراطورية الرومانية، وهناك علم الدوق جودفروي أن الإمبراطور قد حبس هيج أخا ملك فرنسا مع مجموعة من النبلاء، وكان هذا أول القادة جميعاً في الخروج إلى الحملة. وقد اجتاز جبال الألب ودخل إيطاليا ثم غادرها إلى أبوليا حيث أبجر في حراسة قليلة، وتوقف في دورازو في انتظار القادمين وراءه، فألقى والي هذه الناحية القبض عليه وسلمه إلى الإمبراطور، فوضعه في السجن. وكان الإمبراطور ينتظر وصول القادة الذين قالوا إنهم في الطريق، فإذا قدر لهم النجاح في الحضور أطلق سراحه كي يدبّر بها عليهم، أما إن كان الأمر غير ذلك فسوف يبقيه أسيراً طوال حياته^(٣).

وقد أرسل جودفروي إلى الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس «يسأله بأن يطلق سراح هيج ورفاقه، فرفض الإمبراطور طلبهم، ولما علم الدوق والقادة الآخرون بذلك، اتفق رأيهم على الإذن لعسكرهم بنهب الإقليم، وإذا طالت إقامتهم هنا ثمانية أيام فقد دمروا الناحية دماراً شاملاً، وما كادت أنباء ما فعلوا تصل إلى الإمبراطور حتى بعث رسلاً إلى الدوق يرجوه أن يكف أيدي جنده عن أعمال التخريب، ويؤكد له أنه مستجيب لرجائه، ويطلق سراح الصليبيين الذين في حبسه^(٤). فقبل الدوق هذا الرجاء وأمر جنوده بالتوقف عن متابعة السلب والنهب، ثم سار بعدئذٍ إلى مدينة القسطنطينية مستصحباً قواته في أحسن نظام^(٥). وطلب الإمبراطور حضور جودفروي إليه ليأخذ منه يمين الولاء له، وبعد تردد قرر جودفروي الذهاب إلى الإمبراطور الذي استقبله وأكرمه، فأعطاه جودفروي يمين الولاء

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٤٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٥١

* كما يقول وليم الصوري فإن بلغراد كانت إحدى مدن بلغاريا، ما يعني أن البلغار كانوا يسيطرون على صربيا.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٥٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٥٥

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٥٥

أن يكون تحت إرادته^(١)، فعاد ومعه هيج. وعبر جودفروي البسفور، وجلس في مكان بالقرب من القسطنطينية ينتظرو وصول القادة الآخرين، ولم يلبث بوهميند ابن روبرت جيسكارد أمير باراسو بإيطاليا أن وصل ومعه ابن أخته تانكريد، فطلبه الإمبراطور أيضًا وأخذ منه يمين الولاء له^(٢). فعبر البحر ولحق بجودفروي.

وفي هذه الأثناء، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء، شرع روبرت كونت فلاندرز في الإبحار من «باري»، وأرسى بجميع جيشه في دورازو. وتحاشى زمهرير الشتاء بنزوله وسط الغابات والمراعي وفي منطقة خصبة تزخر بشتى متطلبات الحياة، فأقام بها حتى إذا دنا فصل الربيع تابع زحفه لينضم إلى القادة الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر^(٣). وعندما اقترب من القسطنطينية علم به الإمبراطور فأخذ منه يمين الولاء، فعبر وانضم إلى القادة الذين سبقوه^(٤). ومن ثم جاء ريموند كونت تولوز، ومعه أسقف بوي ومعهما رجال من عليا القوم، منهم وليم أسقف مدينة أرنخ، ونيبولد كونت ذات المدينة، وجاستون دي بيريه، ووليم كونت مونبلييه، ووليم كونت فورير، وريموند بيليه، ووليم أمانجو، وجاستون دي بيارن وكثيرون غيرهم. وما إن اقترب الزحف من القسطنطينية حتى طلب الإمبراطور ريموند كونت تولوز، وأخذ منه يمين الولاء له، فالتحق بمن معه بالقادة الذين سبقوه^(٥). واستعد الجميع للبدء بالخطوة التالية.

٣ - الاستيلاء على نيقية وما بعدها

نهض الصليبيون بجيوشهم واتجهوا إلى مدينة نيقية وكانت مركز سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان، وما إن وصلوا إليها حتى نصبوا معسكرهم على شكل دائرة حولها، وفي شهر مايو ١٠٩٧ ضربوا الحصار عليها. وفي هذه الأثناء قام لورد روبرت كونت نورمندي ولورد ستيفن كونت شارتروز وستيفن كونت أومال وآلان فيرجانت، وكونون أحد أغنياء برياني، وروبرت كونت بيرش، وروجر بارنفيل، وكان جميع هؤلاء قد ساروا عبر أبوليا وأبحروا إلى دورازو، وما إن وصلوا على مشارف القسطنطينية حتى استدعاهم الإمبراطور وأخذ

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٦٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٧٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٧٥

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٧٦

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٨٦

منهم يمين الولاء، ومن ثم انضموا إلى من سبقوهم، وكانوا على نيقية*^(١). وكان قلج أرسلان قد سمع بمجيء اللاتين، فذهب نحو الشرق يستنهض همم الأتراك لمساعدته على مواجهتهم، وجمع، كما يقول وليم أسقف صور، جيشًا كبيرًا، وسار نحو نيقية فعرف أن اللاتين قد حاصروها، فمكث بجيشه على مقربة منها، ومن ثم أرسل رسولين من قبله إلى المدينة ليخبرا سكانها بأن الملك قادم لإنقاذهم، وحاول الرسولان الدخول عبر البحيرة إلى المدينة، وظلا مبحرين على طول الساحل سعيًا لأحسن مكان يرسوان فيه، وبينما كانا يتلمسان منفذًا أمينًا يدخلان منه باغتهما الصليبيون على حين غرة، فوقع أحدهما في الأسر، وأما الآخر فقد قتل خلال الهجوم^(٢). فأخذوا الأسير إلى القادة، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف النقاب عن كل شيء وأخبرهم عن أرسله وعما حمله على إرساله، فاتضح من روايته أن قلج أرسلان بعث بالرجلين ليخبرا الأهالي أنه قريب منهم، وأنه قادم إليهم بالجيش القوي الذي جمعه، وقد أجمع العزم على مباغته الصليبيين^(٣).

لما عرف الصليبيون ذلك أبقوا الأسير تحت الحراسة وأرسلوا إلى كونت تولوز وإلى أسقف بوي اللذين لم يكونا قد انضما إلى العسكر بعد، وشرعوا يستعدون للقاء.

وفي الموعد المحدد انحدر قلج أرسلان من الجبال، واجتاز السهل في طريقه إلى المدينة، على رأس حشد كثيف من الفرسان قرابة خمسين ألف رجل، وما كاد الصليبيون يرون عدوهم حتى هبوا إلى أسلحتهم فحملوها، وإلى طبول الحرب فدقوها، وأيقظوا العسكر كلهم ورتبوا صفوفهم واستعدوا للقتال، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهبتة^(٤). والتقى الفريقان وبدأ القتال، ولم تمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى فقد عسكر التُّرك أربعة آلاف قتيل مما حمل بقيتهم على الفرار^(٥). فأكمل الصليبيون الحصار حتى سقطت

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص * نيقية، مدينة قديمة أزلية لا يعرف من بانها، ولها بحيرة عذبة طولها اثنا عشر ميلًا، وفي البحيرة ثلاثة أجبل، ومن المدينة إلى البحيرة باب صغير فإذا دهمهم خوف، أو فاجأهم أمر أخرجوا الذراري من الحصن إلى الزوارق ثم ساروا في الزوارق إلى تلك الجبال معتصمين بها، وهي مدينة جلييلة كبيرة - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الشريف الإدريسي - الجزء الخامس من الإقليم الرابع - ص ٨٠٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٠٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٢٠٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٠٣

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٠٤

نيقية في أيديهم، وحاولت زوجة قلج أرسلان الهروب، فأمسكها الصليبيون ومعها ولداها الصغيران وساروا بهم إلى القادة الذين أمروا بوضعها وولديها تحت الحراسة المكثفة^(١).

وبعد أن استسلمت مدينة نيقية، أقيمت عليها قوة كافية لحمايتها، وأرسل قادة الصليبيين إلى الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنينوس يدعونه لإرسال بعض وجوه رجاله على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة^(٢). كما أرسلت امرأة قلج أرسلان وولداها وطائفة كبيرة من الأسرى إلى القسطنطينية، وكان الاستيلاء على نيقية في العشرين من يونيو^(٣).

وأكمل الصليبيون زحفهم، وتابع قلج أرسلان تحركهم وراح يتحين الفرصة لمواجهتهم والانتقام منهم، وفي النهاية هجم عليهم، كما يقول، وليم الصوري، ومعه مائتا ألف مقاتل سوى الرجال، أما الصليبيون فكانوا مائة ألف من خليط من الفرسان والمشاة^(٤). وأخذت صفوف الترك ترمي بنفسها على القوات الصليبية، ممطرة إياها بوابل هتان من السهام، كأنها المطر الدفاق فسدت الأفق، حتى أنه ما من أحد من الصليبيين إلا وقد أصابه جرح لتوالي السهام بعضها في إثر بعض، وكانت كل رمية أكثف من سابقتها، فإن فات سهم واحدًا أصابه الثاني بجرح، حتى صعبت على الصليبيين المواجهة، وصارت خيولهم تتساقط تحتهم وأمام أعينهم^(٥). ومع ذلك فقد استمروا يقاتلون خصومهم بالسيوف والحراب ويجاهدونهم دفعًا بهم إلى الوراء، حتى إذا عجز الترك عن الصمود بسبب شدة الغارة عليهم، فتحوا صفوفهم عمدًا لتجنب الالتحام، فرجع الصليبيون إلى مواقعهم في الخلف، وحينذاك عاد الترك ثانية فضموا صفوفهم، وكروا على الصليبيين صابّين عليهم سيلاً جارفًا من السهام والنشاب، حتى قلّ أن استطاع صليبي واحد في هذه اللحظة النجاة من غير جراح خطيرة نافذة. وقد قاوموا ما وسعهم المقاومة، يحميهم ما عليهم من الدروع والزرديات والخوذ، ولكن تساقطت الجياد على الأرض، ووقع من لا سلاح له معه واختلط الحابل بالنابل^(٦).

وقد سقط في هذه المعركة قرابة ألفين من وجوه الفرسان والمشاة على

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٠١٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٠١٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٤

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٤

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٥

السواء، كان من بينهم «وليم» ابن المركيز الطيب وأخوتان كريد، كذلك لقي روبرت أوف باريس نهايته بنفس الطريقة، وكاد تانكريد نفسه أن يكون من الهالكين^(١).

واستمرت كفة التُّرك تزداد رجحانًا، في حين ضعفت شوكة الصليبيين، وشرع التُّرك يهاجمون الصليبيين بالسيوف وتضييق الخناق عليهم، فاضطربت الصفوف وارتد المحاربون إلى حيث توجد أمتعتهم وأحمالهم في الغابات الكثيفة، وراحوا يتزاحمون حول العربات، أملًا في أن يجدوا شيئًا من الحماية^(٢).

وفي هذه الأثناء هبَّ لنجدتهم إخوان لهم، فيهم دوق جودفروي، وكونت ريموند، وهيج العظيم، وبلدوين أخا الدوق، وسواهم من القادة على رأس أربعين ألف مقاتل من الفرسان ومعهم أحسن السلاح، فبث قدومهم الحماسة في رجال بوهميند فعادوا إلى القتال، واستعرت الحرب، فانهزم الترك، وأعمل الصليبيون فيهم مذبحة شرسة، وراحوا يتعقبون الفارين منهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، وكان القتل فيهم فظيعة^(٣). * ويقال إن التُّرك فقدوا في هذا اليوم ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل من رجالهم الأقوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفيعة في قومهم، كما سقط في المعركة أربعة آلاف من عامة الصليبيين، ومن الطبقات الدنيا من الرجال والنساء على السواء^(٤). وقد جرت الموقعة يوم أول يوليو، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط واستمرت من الساعة الثامنة حتى الساعة الثامنة من ذلك اليوم^(٥).

وحدث لأول مرة في هذا الموضع أن عمد بعض القادة إلى الانفصال بقواتهم عن الجيش الرئيسي، وكان أول من فعل ذلك منهم بلدوين أخو الدوق وانضم إليه بعض القادة الآخرين مثل رينارد كونت تول، وبلدوين دي بورج، وجليبرت دي مونت كلير، واستصحبوا معهم سبعمئة فارس وجماعة من الجند المشاة، كما انفصل تانكريد وفي صحبته بعض القادة الآخرين منهم روبرت أوف اتري، على رأس قوة قوامها خمسمئة فارس وبعض الجند المشاة، وكان يحرك هؤلاء الفرسان غرض واحد هو استطلاع الطرق واستكشاف الإقليم المجاور، وكان عليهم أن يبعثوا برسائل إلى الزعماء عن كل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٧

* للأسف لا تذكر كتب مؤرخي الشرق معارك نيقية ولا هذه المعركة.

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٧

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٢٨

حدث بالنسبة للزمان والمكان، وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف في سلام وطمأنينة، وكانوا في بداية مغادرتهم المعسكر ملتزمين للطريق الرئيسي فمروا ببعض المدن مثل قونية وهرقلة، ثم عرجوا بعدئذ يمينًا، وأخذوا يحثون الخطى ناحية الساحل^(١).

وأكمل الجيش الرئيسي سيره فاجتازوا بسيديا ودخلوا إقليم ليكوبيا، وجاؤوا إلى عاصمته قونيا، وكان التُّرك قد علموا بسير الصليبيين نحوهم، ففروا إلى الجبال المنيعه معتمدين بها. ولم يجد الصليبيون في قونيا شيئًا فغادروها نحو مرعش^(٢).

وكان تانكريد قد سار بقسم من الصليبيين واتجه إلى طرسوس وأقام عليها عدة أيام حتى أرغم أهلها على الاعتراف بالخضوع له، وكانوا كلهم مسيحيين من الأرمن والأغريق مع قلة قليلة من التُّرك الذين كانت لهم الغلبة الحربية، وكانت حراسة الحصون مكرونة إليهم، ويقع على عاتقهم مهمة قمع الأهالي بشدة، وبعد أن استسلمت هذه المدينة، استغل التُّرك فرصة نوم العسكر الصليبي، فأرسلوا متاعهم وعوائلهم إلى خارج المدينة، ومن ثم فتكوا بكل الذين يغطون في سباتهم العميق^(٣).

ثم رحل تانكريد عن طرسوس فاتجه إلى المصيصة فاستولى عليها، وكان أهلها من الأتراك، فقتلهم كلهم، حيث يقول وليم أسقف صور: «وحكم السيف في رقاب أهلها المارقين»^(٤). وأكمل تانكريد إخضاع كل أرجاء قليقية، واستولى قسرًا على معقل التُّرك وعرض من فيها على السيف فقتلهم جميعًا، وكان آخر مكان عصف به جنده هو «الإسكندرية الصغرى» التي استولى عليها أيضًا، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح مسيطرًا على الإقليم كله^(٥).

أما الجيش الرئيسي من الصليبيين، فكان قد وصل إلى مرعش يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٣١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٣٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٤٢

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٤٠

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٤٧

٤- تأسيس إمارة الرها الصليبية

كان بلدوين قد اعتزم زيارة أخيه جودفروي فوصل إليه وأقام معه مدة قصيرة، وكان لبلدوين صديق من الأرمن يدعى «باكراد» وكان قد تعرف عليه في نيقية بعد فراره من حبس الإمبراطور، وظل هذا الرجل يلزم بلدوين، وقد دأب على الإلحاح عليه وإغرائه بشتى السُّبل على جمع العسكر، ووعد بأن ينضم هو إليه في حملة يشنها على النواحي المتاخمة التي قال إنه من اليسير احتلالها بقوة صغيرة^(١).

ونزل بلدوين أخيراً على إلحاح باكراد، وخرج مسترشداً به على رأس مائتي فارس، وجيش غير قليل من المشاة، وزحف بهم ميمماً وجهه جهة الشمال، وسرعان ما دخل إقليمًا شديد الخصب والثراء، وأغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهم، أما البقية من السكان، وهم قلة كافرة*، فكانوا أصحاب القلاع وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم، كما كانوا يجرمونهم من الانخراط في الخدمة الحربية^(٢). ولم يكد بلدوين يدخل تلك الناحية حتى أسلمه فلاحو الإقليم الأماكن الحصينة، وما انقضت أيام قلائل حتى كان بلدوين قد ملك الناحية أغلبها، بالغاً في ذلك نهر الفرات العظيم^(٣). وقد بلغ الخوف منه حدًا دفع أعداءه إلى مغادرة قلاعهم من تلقاء أنفسهم، وهاموا على وجوههم، على الرغم من أنه لم يرسل رجلاً واحداً من رجاله لقتالهم^(٤). وقد حالفه أمراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا النية في مصادقته، وآزره فيما يفعله، وأمدوه بالجند، وبذلوا له الطاعة الصادقة^(٥).

ولم تمض بضعة أيام حتى كان اسم بلدوين يجري على كل لسان، وسمع به أهل الرها، فجاءته وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة هذه المدينة وكانوا من أصحاب النفوذ فيها، يدعونه بالكلمة المنطوقة والمكتوبة أن يأتي إليهم^(٦). وكانت الرها بيد حاكم من بلاد الإغريق أرسله الإمبراطور الروماني ليدبر شؤونها ويتولى الأمر فيها، منذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لإمبراطورية القسطنطينية. وكان هذا شيخاً طاعناً في السن، واهن القوى، ليس له من

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٦
* هذا الكلام للمؤرخ الغربي ونحن لا نوافق عليه لكننا وضعناه كما هو بلا تغيير.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٧

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٧

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٧

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٧

صلبه ولد ولا بنت، ولما كان التُّرك قد وصلوا إلى هناك قبل انتهاء فترة حكومتهم فقد اضطرتهم الضرورة لإبقائه حيث هو، فظلت له الحكومة في البلد، وكان بلا نفع ولا جدوى، عاجزاً عن حماية رعيته من الضررينزل بهم، أودفع الشرع عنهم أو تخفيف ما يلقونه من الضيق^(١)، فلما استمع بلدوين إلى التماس العامة والخاصة، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقاءه في هذا الأمر، فأعدَّ العدة للمسير إليهم، وخرج غير مستصحب سوى ثمانين فارساً، عبر بهم نهر الفرات، وترك بقية أتباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر^(٢). فلما علم الأتراك الذين يعيشون في الجانب البعيد من النهر بخبر سيره إليهم نصبوا له الكمائن في طريقه الذي كانت به إحدى المدن الحصينة وعليها والٍ أرمني، فانحاز إليها بلدوين تجنباً للكمائن التي رصدها له في الطريق، فلما بلغها استقبله حاكمها استقبلاً كريماً وأحسن استضافته، فأقام بها يومين لم يجروا على المسير قدماً، ما سرب الممل إلى نفوس التُّرك الذين كانوا قد أعدوا له كميناً، وضاقوا ذرعاً من طول انتظارهم إياه، فرفعوا بيارقهم وظهروا فجأة، في حشد كثيف أمام الناحية التي هو فيها، وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية من المراعي المجاورة، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم في البأس ولا في العدد فإنهم لم يخاطروا بالخروج إليهم بل أقاموا في القلعة حيث هم، حتى إذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك. حينذاك تابع بلدوين سيره إلى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالتعظيم عند وصوله إليها^(٣). لكن سرعان ما انقلب الحاكم عليه لأنه شعر أنه سيقاسمه كل شيء وعرض عليه أن يتولى الدفاع عن الرها مقابل أن يعوضه الحاكم تعويضاً مالياً سنوياً مجزياً، لكن بلدوين رفض وعقد عزمه على العودة من حيث أتى فتمسك به الأهالي الذين رأوا فيه مخلصهم، فذهبوا إلى الحاكم وطالبوه أن يضم بلدوين إليه وفق الاتفاق^(٤). فوافق الحاكم، وأعلن في احتفال مهيب بأنه يأذن له أن يناصفه كل شيء في حياته فإن مات كان هو الحاكم من بعده، فعمت الفرحة قلوب الناس، وأخذوا من هذه اللحظة في الإقدام على كل عمل يتطلب الجراءة^(٥).

وسرعان ما تبين لمواطني الرها ما عليه بلدوين من النشاط، وأيقنوا أنه

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٥٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦١

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦١

يجب أن يملك كل شيء، واقترحوا بإجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم، ويحلوا بلديين مكانه، وأسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذي فيه الحاكم، وحاول الهرب بجبل دلاه من إحدى النوافد، بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض، إذ ناوشه ألف سهم من سهام القوم الذين سحبوه إلى القصر جثمًا هامدًا وقطعوا رأسه. وفي اليوم التالي نصّبوا بلديين حاكمًا عليهم، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به في موكب مهيب إلى قلعة المدينة، وأعطوه كل ما اكتنزه واليهم السابق طوال سنين حكمه من الأموال والثروات الكبيرة^(١).*

وتوسع بلديون فأخذ سميساط من واليها التركي الذي يدعى «بلدوك» بعد أن دفع له عشرة آلاف قطعة ذهبية^(٢)، كما هاجم سروج واحتلها عنوة، وفرض على أهلها جزية سنوية، وقد أتاح احتلال سروج حرية الاتصال بين أنطاكيا والرها، إذ كان وقوعها في منتصف الطريق بين الرها والضرات يمثل عقبة كأداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما^(٣).

٥- احتلال أنطاكيا

أقام الجيش الصليبي الرئيسي على حصار مرعش التي كان أهلها، كما يقول وليم أسقف صور، مسيحيين إقليلاً منهم، وكانت قلعتها في يد الترك الذين يتحكمون كيفما شاؤوا بالأهالي. وعندما علم الترك بأن جيشًا أخذًا بالاقتراب منهم فروا خفية من الذعر وتركوا البلد كله في قبضة الصليبيين^(٤).

جاء إلى الصليبيين وفد من ثقات أهل البلد يخبرونهم أن في يد الترك مدينة أخرى في ذلك الإقليم تسمى «أرتاح» وتقع في إقليم أكثر خصبًا ويفيض بالنعم الوافرة، فاتفق الرأي على أن يخرج في الحال روبرت كونت فلاندرز* إليها على رأس ألف فارس عليهم زرد الحديد، وصحبهم جماعة من الأشراف، منهم روبرت دي روريير، وجوسلون بن كونون كونت مونباج، وما كادوا يبلغون تلك الناحية حتى أسرع روبرت في إعداد ترتيبات الحصار،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٤
* لا تتحدث المصادر الشرقية عن كيفية قيام إمارة الرها الصليبية، ولذلك كان التعويل في الكتابة هنا على ما كتبه المؤرخ الغربي وليم الصوري فقط.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٥

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٥
* فلاندرز، مصطلح يطلق على كل مناطق بلجيكا التي تتكلم باللغة الهولندية وهي التي تقع في الشمال من بلجيكا

فغادر التُّرك المدينة وارتدوا إلى القلعة ليقينهم في منعها^(١).

وما كاد الأرمن في أرتاح يعلمون بمجيء الصليبيين حتى انتعش الأمل بالحركة في صدورهم فهبوا إلى أسلحتهم وانقلبوا على التُّرك الذين احتلوهم زمناً طويلاً، وأعملوا فيهم القتل، قاذفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار، كما فتحو الأبواب على مصراعيها، ودعوا الصليبيين إلى الدخول ووفروا لهم ولجيادهم على السواء ما يحتاجونه^(٢).

ووصل الجيش الرئيسي إلى مشارف أرتاح وانضم إليه تانكريد، وجميع القادة الذين كانوا قد خرجوا إلى نواح مختلفة، وإذ ذلك نودي في الجميع ألا ينفصل أحد ما عن الجيش الرئيسي إلا بأمر يصدر إليه^(٣). حينذاك نقضوا خيامهم وأخذوا في الزحف على أنطاكيا من أقصر الطرق الموصلة إليها^(٤). وكان حاكم هذه المدينة رجلاً تركي الأصل يدعى ياغي سيان ولما علم أن جيشاً كبيراً بقيادة قادة صليبيين في طريقه إليه أنفذ كثيراً من الرسائل إلى جميع أمراء الشرق كله يطلب منهم مساعدته، لاسيما خليفة بغداد والسلطان السلجوقي في فارس، فاستجابا له بإرسال النجدة إليه^(٥).

وكان القلق قد استبد بسكان البلاد التي مرَّ بها الجيش الصليبي فقد هرب منها إلى أنطاكيا الكثير من ذوي المكانة والبأس، فراراً من وجه الصليبيين، خوفاً على سلامتهم، ورأوا في تحصينات أنطاكيا وقوتها ما يستحيل معه اقتحاماً، ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظيمة بهؤلاء الوافدين. ويقال إنه كان من بين الأهالي والغرباء حوالي سبعة آلاف فارس وأكثر من ١٥ ألفاً من المشاة المدججين بالسلاح تأهباً للحرب^(٦).

ورحل الصليبيون من معسكرهم في ١٨ أكتوبر نحو أنطاكيا حتى صاروا أمامها^(٧). وتوقع الصليبيون أن يحرزوا نصراً سريعاً، لكن الأتراك دافعوا بقوة عن المدينة حتى أنهكوا الغزاة وجاء فصل الشتاء ببرده الشديد وأمطاره الغزيرة فزاد من معاناتهم بسبب قلة الطعام، وقد ترتب على هذه الظروف أن تفشى الوباء في كتائب العسكر، وكان وباءً قاتلاً لم يجدوا معه مكاناً يوارون

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٨

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٦٩

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٧٩

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٨٠

(٧) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٨١

فيه جيف موتاهم. أما الذين كانت دلائل الصحة لاتزال بادية عليهم فقد فروا حتى لا يقعوا فريسة لهذا الطاعون، فهرب بعضهم إلى بلدوين في الرها، وبعضهم إلى قيليقيا، ومضى آخرون إلى المناطق التي آلت إلى حكم الصليبيين، ونجم عن رحيل هؤلاء، وهلاك من قتله الجوع وأفناه المرض، ومن قتلوا بالسيف أن تضاءل الجيش إلى الحد الذي قلّ معه عدد الأحياء منهم عن نصف ما كانوا عليه^(١).

واجتمع قادة الصليبيين للتشاور في إيجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واستعرضوا مختلف الاقتراحات، واستقر الرأي بهم أخيراً على خروج أعظم القادة بطائفة من الجند لشن حملة على أرض العدو، يستولون فيها على الماشية، وينهبون ما يقدرن عليه من الطعام اللازم، على أن تقيم البقية الباقية من الرجال في المعسكر أثناء غياب هؤلاء الرجال، واتفقوا على أن يوكّلوا مهمة جلب المؤونة إلى بوهيموند وكونت فلاندرز، وأن يبقى كونت تولوز وأسقف بوي لحراسة المعسكر، وكان كونت نورماندي غائباً، كما كان جود فروي دوق اللورين ملازماً الفراش لإصابته بمرض شديد. فاستصحب القائدان معهما طائفة كافية من الفرسان والجنود المشاة ودخلوا أرض العدو^(٢). واستغل التّركّ المحصورون الفرصة لمهاجمة عسكر الصليبيين، لكن ريموند كونت تولوز تصدى لهم بقواته، ما اضطرهم إلى الارتداد إلى المدينة^(٣).

وكان الذين قد خرجوا لجلب الطعام قد تمكنوا من الحصول على كمية وافرة، وعادوا إلى المعسكر ومعهم الكثير من البغال والجمال وغيرها من الأسلاب التي ظفروا بها من شتى نواحي الإقليم المحيط بهم^(٤). وقد أعطاهم ذلك حافزاً قوياً لمتابعة الحصار والقتال.

وكتب ياغي سيان رسائل إلى من جاوره من الأمراء الأتراك يسألهم المبادرة إلى نجدة إخوانهم ودلّهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهي أن يدع حلفاءه يتوجهون إلى المدينة ويستخفون في كمين حتى يشتبك هو بجيشه في قتال العدو وعند ذلك يخرجونهم من كمينهم ويباغتون الصليبيين الذين يكونون دون حرس يحرسهم، فيقعون تحت وطأة الهجوم عليهم من الأمام

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٩٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٩٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٩٥

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢٩٦

والخلف في آن واحد^(١)، ولبي هذه الاستغاثة، كما يقول وليم الصوري، جيش كثيف من حلب وشيزروحماء وحمص ومنبج وغيرها من المدن المجاورة، وخرجوا في سكون بالغ وصمت مطبق حتى قاربوا مدينة حارم التي لا تبعد عن أنطاكيا بأكثر من أربعة عشر ميلاً وضربوا معسكراتهم أثناء انشغال الصليبيين بالهجوم على المدينة، غير أن بعض السكان من تلك الناحية أخبروا القادة الصليبيين باقتراب هذا العسكر، وشرحوا لهم أوضاعه، فاتفق الرأي منهم على أن يغتنموا فرصة دخول الليل فينطلق سراً كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد ويرتبون صفوفهم للقتال خلف أعلام قاداتهم، على أن يبقى الرجال في الوقت ذاته في المعسكر حتى يعود رؤسائهم^(٢).

ولم تكد طلّ نهار اليوم التالي تظهر في الأفق، كما يقول وليم الصوري، حتى أعد الصليبيون أسلحتهم وقسموا كتائبهم، وأما التُّرك فقد اتخذوا مكانهم لأنهم علموا من كشافتهم أن قوات صليبية زاحفة عليهم، وأخذ عسكر التُّرك في التقدم والزحف جماعة تلو جماعة، وشرع من كانوا في الصفوف الأمامية في شن هجوم عنيف على الصليبيين، وزحف الصليبيون عليهم واقتربوا منهم كل الاقتراب، وكروا عليهم مستخدمين سيوفهم، فشقوا لأنفسهم طريقاً إلى عدوهم، والسيوف مشرعة في أيديهم، فاضطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضاً، واختلط حابلهم بنابلهم وأحيط بهم في بقعة كانت البحيرة فيها على أحد جانبيهم، والنهر على الجانب الآخر. وفقد التُّرك حرية الحركة فعجزوا عن استعمال فنونهم المألوفة من الرشق بالسهام والارتداد، لكنهم تجمعوا خوفاً من أن تنوشهم السيوف ولم يعودوا قادرين على تحمّل الضغط الذي مارسه الصليبيون عليهم، وسرعان ما أيقنوا أن أملهم الوحيد في السلامة إنما يكون في فرارهم، فانقلبوا على أعقابهم هاربين^(٣). فجَد الصليبيون في تعقبهم حتى بلغوا مدينة حارم، ولما رأى أهل هذه المدينة أن الدائرة دارت على عسكرهم، خافوا البقاء في القلعة، فأشعلوا النار فيها ولاذوا فراراً. غير أن الأرمن سكان هذه المنطقة، وغيرهم من النصارى الذين كان الكثيرون منهم يقطن تلك الناحية*، استولوا على المكان وأسلموه للصليبيين قبل عودهم إلى المعسكر وقد قتل في هذا اليوم قرابة ألفين من التُّرك^(٤).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٤

* للأسف لم يعد للأرمن وجود في منطقة حارم، حتى أن المسيحيين باتوا قلة قليلة مهمشة في تلك الناحية.

ويتحدث ابن العديم عن هذه الواقعة فيقول: «وصل ابن ياغي سيان إلى حلب يستنجد بالملك رضوان، فأخذ عسكر حلب وعسكر سكرمان بن أرتق ودخل بهما إلى أنطاكيا، فلقبهم الفرنج دون عدتهم، فانهزم عسكر المسلمين إلى حارم، وذلك في آخر صفر سنة ٤٩٠، وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها»^(١).

ويقول وليم الصوري، «ظل التُّرك في أنطاكيا يتربصون وصول إخوانهم التُّرك لإنقاذهم، فلما رأوا أن القادمين هم من الجيش الصليبي، اشتد بهم الفزع وتلاشت أحلامهم الجسام، وأسلموا أنفسهم للبكاء. وتقدم الجنود الصليبيون من المدينة، وانطلقوا إلى المعسكر، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من الأتراك قيل إن الآلات قذفت بها إلى داخل المدينة، لكي يكونوا شاهداً على ما أحرزوا من نصر، ولتزيد في مضاعفة آلام التُّرك المبرحة. وقد جرى هذا الأمر في اليوم السابع من فبراير عام ١٠٩٧ من مولد السيد المسيح»^{(٢)*}.

وقام الصليبيون فشيّدوا حصناً منيعاً على رابية مشرفة من أجل منع التُّرك من الإغارة على الصليبيين متى شأؤوا، ولما فرغوا من بنائه أقاموا به حامية يقظة، فاطمأنت جوارح العسكر كلهم، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منيعة، ذات قلعة تكفل أسوارها لهم الحماية، وتقيهم عادية الهجوم. وكان هذا المعقل يقع شرقي القلعة التي شيّدوها أيضاً منذ أمد قريب، وكذلك كان يوجد إلى الجنوب سور يحاوره مستنقع، على حين كان إلى الغرب والشمال النهر الذي يجري منصرفاً حول أنطاكيا»^(٣).

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار، دخلت مصب النهر من ناحية البحر سفن قادمة من جنوه، محملة بالحجاج والمؤنة، فلما أرست حيث وصلت، أقامت ثم بعثت جماعة منها إلى المعسكر، من أجل مجيء بعض الزعماء إلى الجنوبية ليقودوهم في أمان إلى المعسكر. وكان التُّرك يعرفون أن الصليبيين اعتادوا الخروج إلى الشاطئ غير حذرين، وصول تلك السفن، فسد رجالهم الطرق والمسالك، ونصبوا الكمائن، مما أدى إلى مقتل الكثير من الصليبيين الذين لم يحتاطوا حتى لم يعد أحد منهم يجزؤ للذهاب إلى المعسكر إلا أن يكون في حراسة مشددة^(٤). وحدث أن كان الحراس عائدين من الشاطئ

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٥
* لا تتحدث كتب المؤرخين الشرقيين عن معارك أنطاكيا، ولذلك اضطررنا إلى الاعتماد في تسجيل وقائع تلك المعارك على ما خطّه يراع وليم الصوري.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٦

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٦

مستصحبين عددًا كبيرًا من الجنويين، وكثيرًا من دواب الحمل عليها شتى أنواع الذخيرة دون أن يكون معهم سلاح، فلم يشعروا إلا والعدو يباغتهم في بعض الشعاب الضيقة ويسدها عليهم، وكان كونت تولوزيسير في المقدمة مع حرس الطليعة، أما المؤخرة فقد وكلت حمايتها إلى لورد بوهيمند. وعلى الرغم من بسالة هؤلاء، كما يقول وليم الصوري، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على من معهم من جموع راح بعضهم يزاحم بعضًا، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم، لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلاً حفاظًا على شرفهم وحماية لرفاقهم، فلما تبين لهم أخيرًا عدم جدوى أي مجهود يبذلونه في هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم إنما يكمن في إبطائهم تخلوا عن هذا الصراع وانقلبوا إلى المعسكر بمن استطاع اللحاق بهم، وتخلّى الناس عن دوابهم ومتاعهم وفروا على وجوههم إلى نواح مختلفة، فانطلق بعضهم إلى الغابات، وهرب البعض الآخر إلى التلال، أما من لم يسعفهم الفرار فقد ناوشتهم سيوف العدو، فكانت النكبة التي حلت بالقوات الصليبية جسيمة^(١).

ووصل الخبر إلى المعسكر بأن القوم الذين كانوا راجعين من ناحية البحر قد وقعوا في كمين نصبه العدو لهم، وأنهم قتلوا جميعًا. فبادر الدوق جودفروي، واستدعى الزعماء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحظتهم هذه، ثم بعث المنادي ينادي في الناس ألا يغيب أحد عن هذا الموقف الخطير وإلا استحق الموت^(٢).

وكان ياغي سيان قلقًا بشأن عودة رجاله، ومن ثم أمر أن ينادى في الناس جميعًا أن يخرج في الحال من في المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح، وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة على الجسر لنجدة أهل البلد العائدين، إن دعت الضرورة إلى مثل هذه النجدة، كما أن الصليبيين بعثوا كشافة لتفقد الطريق الذي يحتمل أن يسلكه التُّرك في إياهم^(٣).

ونظم الصليبيون صفوفهم، وهم يترقبون طلائع الجيش التركي إذا برسلهم قد جاؤوهم مسرعين، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على مقربة منهم، فتقدمت الكتائب، وكروا على خصمهم كرة رجل واحد، وكثفوا ضغطهم عليه دون أن يدعوا له فرصة يلتقط فيها أنفاسه، فما لبث التُّرك أن فارقتهم شجاعتهم، وأدبروا مولين وجههم شطر الجسر المؤدي إلى المدينة، يسابق كل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ٣١٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣١٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢١

واحد منهم الآخر في الهروب^(١). وكان ياغي سيان لما أرسل قواته للحرب أمر بإغلاق أبواب المدينة من خلفهم، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد، ساعياً من وراء ذلك إلى مضاعفة ضراوتهم، معتقداً أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها، غير أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يرجوه، فقد هلك رجاله الذين لما رأوا إحداق الصليبيين بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومهم، أو الفكاك من ضغطهم عليهم، فالتمسوا خلاصهم في الفرار الذي لا خلاص لهم سواه، ولكن خانهم هذا الأمل إذ كان الموت لهم بالمرصاد، فتناوشت سيوف الصليبيين الفارين منهم، ومزقتهم شرممزق^(٢).

ولما رأى ياغي سيان أن الدائرة دارت على قواته، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يتمكن الباقون من جيشه من دخول المدينة سالمين، لكنهم تراحموا على الأبواب التي أزيلت متاريسها تراحماً شديداً، وتعالى صياحهم وصراخهم، ذلك لأن الفارين الذين كان الخصم يتبعهم حاولوا عبور الجسر، فتكاثرت جموعهم وتدافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضاً ما أدى إلى سقوط الكثيرين منهم في النهر فغرقوا في لجته^(٣).

ويقال إن خسارة التُّرك يومذاك قاربت ألفي رجل، ولولا دخول الليل لأنهي حصار أنطاكية من غير شك في هذا الوقت، وقد قيل إن اثني عشر من الحكام الأتراك لقوا مصرعهم في هذا القتال، فكانوا خسارة للمدينة لا تعوض، وأكد هذا الخبر تأكيداً قاطعاً المواطنين المسيحيون الذين قدموا من أنطاكية إلى معسكر الصليبيين^(٤).

واجتمع قادة الصليبيين واتفقوا على بناء حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة، ولتتيسر على الصليبيين حركتهم ويزيد من سلامتهم، وكان في ذلك المكان مسجد يؤدي التُّرك فيه شعائرهم الدينية، وقد جعلوا ناحية منه موضعاً لدفن موتاهم، وقد دفنوا فيه من قتل في تلك المعركة، وعندما عرف الصليبيون بذلك اندفعوا إلى المكان يحذوهم الأمل في العثور على غنائم تكون مدفونة مع الموتى، فنبشوا القبور وأخرجوا الجثث، ولم يقتصر على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة، بل امتدت أيديهم حتى إلى الجثث ذاتها فعبثوا بها^(٥). وقد وجد الصليبيون في المقبرة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٤

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٥

ألفاً وخمسمائة جثة سوى من ابتلعهم النهر، وسوى الذين قبروا في المدينة إضافة إلى من أثقلتهم جراحاتهم القتالة فأصبحوا معها على شفا الموت، وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى إلى من كانوا موجودين بالمياه، فتضاعف سرور الصليبيين وأدركوا مدى ما أصاب التُّرك من الخسائر^(١).

وكان الصليبيون الذين فروا من أمام التُّرك في الكمين، قد سمعوا بانتصار إخوانهم فعادوا إلى المعسكر فكثرت الجيوش بهم، فبادر قادة الصليبيين بتشديد الحصن على رأس الجسر المؤدي إلى المدينة، وأمروا بجلب الحجارة من المقابر القريبة، وسرعان ما أحضرت الحجارة وتمَّ تشييد الحصن وأسندت مهمة حراسته إلى ريموند كونت تولوز، الذي وضع فيه خمسمائة من رجاله الشجعان، وقد سدَّت بوابة الجسر بالقلعة الجديدة، مما جعل مرور المواطنين من خلالها غير ممكن إلا بالخطر البالغ، لكنها من ناحية أخرى جعلت الصليبيين أكثر قدرة على الخروج من أجل قضاء مصالحهم الضرورية^(٢).

ولم يعد التُّرك قادرين على مغادرة أنطاكية إلا عن طريق البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر، ورغم أن خروج التُّرك من تلك البوابة لم يكن يعرّض القوّات الصليبية للخطر، لكن مع ذلك فإن بقاء تلك البوابة مشرعة يجعل التُّرك قادرين على جلب ما يريدون إلى داخل المدينة، ولذلك قرر الصليبيون بناء قلعة أخرى على الجانب الآخر من النهر، وأن يقيم فيها بعض الزعماء، ليرصدوا التُّرك إن أرادوا الخروج من المدينة أو الدخول إليها فيحولون بينهم وبين ما يريدون. وتمَّ اختيار تانكريد لأداء هذه المهمة، وقدم له كونت تولوز مئة مارك* من الفضة لتشديد الحصن، يضاف إلى ذلك تخصيص مبلغ قدره أربعون ماركًا شهريًا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعملون مع تانكريد لكي يقوم بتشديد الحصن^(٣).

وقد ترتب على ذلك أن شيد حصن ملاصق لتلك البوابة يقوم على أحد التلال، وكان موضعه في السابق أحد الأديرة، وعهد بحراسته إلى بعض الرجال الأشداء. وهكذا أحيط بالمدينة من كل جانب، وعجز سكانها عن مغادرة أسوارها، وأحدقت بهم الصعاب من كل ناحية، كما بدأت تتهددهم مشكلات أخرى كنقص الطعام، كما أصبح العلف نادرًا، فهزلت الخيول

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٧
* يخبرنا وليم الصوري معلومة مهمة عندما يقول، إن الصليبيين كانوا يتعاملون بعملة المارك.

وعجزت عن القيام بما كانت تقوم به من قبل^(١).

وكان سكان أنطاكيا في معظمهم من المسيحيين السريان واليونان والأرمن ولكن لم يكن لهم، كما يقول وليم أسقف صور، أي حول أو قوة في المدينة، وقد احترق معظمهم، التجارة واشتغلوا بالحرف اليدوية أجراء عند غيرهم، ولم يكن مسموحًا لهم ولا لأهل الملل الأخرى، غير الترك، بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة*، وحرّم عليهم إحراز السلاح أو ممارسة أي شيء يمتّ بأية صلة لشؤون الحرب^(٢). لذلك ما كاد الخبر باقتراب الصليبيين القادمين من الغرب يصل إلى مسامع كبار رجال المدينة، حتى ازدادت ريبتهم بالمسيحيين عن ذي قبل ومنعواهم، كما يقول وليم أسقف صور، من مغادرة بيوتهم، فكانوا لا يخرجون منها إلا في ساعات فرضوها عليهم، وكان بين أهل المدينة بعض أسرات معينة شريفة الأصل تدعى بني (زرّة) نسبة إلى الحرفة التي كانوا يمتنونونها وهي صناعة الزرد والمنسوجات الحديدية، وكان هناك برج في المدينة يعرفه الناس ببرج الأخيين يقع في الجانب الغربي منها، وقد خصص هذا البرج لتلك العائلة حتى يمكنهم مزاولة عملهم في طمأنينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل من في المدينة وواليتها^(٣). وكان في هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما فيروز، وهو رجل قوي النفوذ عظيم الجاه، إلى جانب أنه كان كبير عشيرته وأسرته، وكانت تربطه أواصر صداقة بوالي أنطاكيا ياغي سيان الذي أغدق عليه نعمًا كثيرة شرفه بها، وكان فيروز كاتم سر القصر، إلى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية، وكان يربط بين فيروز وبين الأمير الإيطالي بوهيموند علاقة قوية، لأن بوهميند كان مقرّبًا من الملك البيزنطي وموضع ثقته، وقد أرسل الملك إلى فيروز للتعاون معه، وعندما بدأ الحصار صار فيروز يتواصل مع بوهيموند، حيث كان يطلعه على خطط ياغي سيان ويضعه في تفاصيل ما يجري في المدينة.

واستمر التفاهم السري بين هذين الرجلين قرابة سبعة أشهر، زخرت بالاتصال الودي بشأن الطريقة التي يتم بها إعادة المدينة إلى المسيحيين، وكان فيروز يخشى الفشل، لكنه كان مصممًا على الخلاص من الحكم التركي، وقد قال فيروز في رسالة أرسلها إلى بوهيموند: «لوقمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ولم يكتب لي النجاح فيها، فلن يشك أحد في أن سيكون

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٢٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٣٤
* هذه معلومات مهمة تبين حال الشعوب التي كانت خاضعة لسلطة التُّرك في ذلك الزمان

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٣٥

ذلك نهاية بيتي وانهار سمعة عشيرتي الطيبة تمام الانهيار، ولن يجري على اللسان اسمنا أبداً، غير أن الأمل في النصر لا يزال يراود النفس في القيام بهذه المخاطرة، ومع ذلك فإنني مستعد للنهوض بهذا العمل إن وافق رفاقك على أن تؤول إليك أنت وحدك دون سواك هذه المدينة حين استسلامها بفضل جهود القوية، وسأقوم بالمهمة مهما كانت صعوبتها، وسيكون قيامي بها بسبب حبي لصغاري الذين أرجو لهم ولك كل الخير، وسأسلم لك من غير عائق هذا البرج الشديد الحصانة، الذي يعرف أنه في حوزتي، وعند ذلك تستطيع أنت ومن معك دخول المدينة آمين سالمين»^(١).

وبدأ في تنفيذ الخطة التي وضعها له فيروز، حيث ساعده في الدخول إلى البرج، الذي كان تحت يده، مع جماعة كبيرة من جنده، ومن ثم استولى هؤلاء على الأبراج الأخرى وفتحوا بعض البوابات، فدخل الجيش الصليبي وأخذ الأتراك على حين غرة بعد حصار دام تسعة أشهر، وهرب ياغي سيان هائماً على وجهه، فوجده بعض الأرمن فعرفوه وقتلوه وجاؤوا برأسه إلى أنطاكيّا^(٢).

ويذكر ابن الشحنة، رواية مشابهة لرواية وليم أسقف صور حول سقوط أنطاكيّا فيقول: «وكان على أنطاكيّا الأمير ياغي سيان وكان قائد الفرنج ريموند الصنجيلي، فحاصرها فترة وفي جمادى الأولى عقد قوم من أنطاكيّا العزم على تسليمها إلى الفرنج لإساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرتهم لهم، فوجدوا فرصة في برج من الأبراج الذي للبلد مما يلي الجبل فباعوهم إياه وصعدوا في السحرفصاحوا فانهزم الأمير ياغي سيان في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص وسقط الأمير عن فرسه عند معرة مصريين مرتين ومات، وأما أنطاكيّا فقتل منها وسبي من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر»^(٣).

٦- اجتماع الترك على الصليبيين

عندما استغاث ياغي سيان وطلب المساعدة ضد الصليبيين من السلطان السلجوقي بركياروق الموجود في خراسان، بادر هذا إلى إرسال جيش بقيادة قوام الدولة كربوغا الذي كان أمير الموصل، وأرسل إلى الأمراء في العراق

(١) تاريخ الأعمال التي تم إنجازها وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم - ص ٣٣٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٦٠

(٣) الدر المنخب في تاريخ حلب - ابن الشحنة - ص ٢١٥

والشام لينضموا إلى هذا الجيش، وسار كربوغا حتى بلغ الرها، فتوقف عندها في مسعى منه للسيطرة عليها، وحاصرها ثلاثة أسابيع وعندما رأى مناعة أسوارها، تركها ومضى^(١)، فعبر الفرات وانضم إليه رضوان صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين، ووثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب^(٢).

وبلغ خبر سقوط أنطاكيّا، كما يقول ابن العديم، إلى كربوغا ومن معه، وكانوا في مرج دابق، فرحلوا عنها وتوجهوا إلى أنطاكيّا فوصلوا إليها سادس شهر رجب سنة ٤٩٠، وعرفوا أن قلعتها لاتزال بيد شمس الدين ابن ياغي سيان، فدخلوا إلى هذه القلعة وقاتلوا الصليبيين في الجبل المشرف على المدينة، فبنى الصليبيون سوراً من ناحية الجبل ليمنعوا التّرك من الوصول إليهم^(٣).

ويقول وليم الصوري: «ما كاد يطلع اليوم التالي، وهو الثالث بعد استخلاص المدينة، حتى كان أقوى الأمراء (كربوغا) قد احتل القطر بأجمعه إلى آخر ما يمكن أن يُرى عن المطل من القسم الأعلى بالمدينة، واستطاع بجموعه الغفيرة أن يعبر الجسر العلوي وأن يضرب مخيمه فيما بين البحيرة والنهر، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد، وكانت حملته تشغل مساحة كبيرة وعسكره كبير جداً حتى ضاق بهم السهل الفسيح الذي تقع فيه أنطاكيّا، فنصبت مخيمات أخرى غطت التلال المجاورة، ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكيّا تبين له شدة بعده عن المدينة، فبحث الأمر مع رجاله، وتبين لهم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة، ليستطيع نجدهم إن دعت الضرورة إلى النجدة، كما أنه أراد أن يدخل قواته إلى أنطاكيّا عبر البوابة الموجودة أسفل القلعة، ومن ثم قوض معسكره وارتقى المرتفعات، وأحرق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة، محتلاً المنطقة الواصلة بين البوابتين الشرقية والغربية»^(٤).

ويقول ابن العديم: «وجرت بين التّرك والعرب الذين مع وثاب منافرة، ومن ثم اصطلحوا، وارتاب الأمراء التّرك ببعض واتفقوا أخيراً على النزول في السهل، فنزلوا بباب البحر، وجعلوا بينهم وبين أنطاكيّا خندقاً»^(٥).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٤٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٧٢

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٠

ويقول وليم الصوري: «أقام كربوغا أربعة أيام بالجبال حتى إذا فقد كل أمل له في النجاح، وأدرك أيضًا أن علف خيوله قد نفذ أو كاد، قوَّض معسكره، ونزل إلى السهل مرة أخرى بكل جيشه عابرًا بهم النهر من مخاضة عند قناة موجودة هناك، وعهد إلى قواده وجنده الذين رتبهم على شكل دائرة وجعلهم على مسافات متقاربة، وراح يحاصر أنطاكيا»^(١).

ويقول وليم الصوري أيضًا: «في هذه الأثناء كان الشعب الصليبي قد أصبح يعاني الآن شدة الحصار، هذا بالإضافة إلى أن الأتراك كانوا لا يزالون يحكمون قبضتهم على القلعة وقد راحوا يشنون منها هجماتهم المتوالية، فلم يعد الصليبيون يعرفون معنى للراحة، وكانت القلعة التي بناها الصليبيون على رأس الجسر قبل احتلال المدينة، لا تزال تحت حراسة كونت فلاندرز وكان معه خمسمائة من المقاتلين، وقد لاحظ كربوغا أن الصليبيين أصبحوا أكثر حرية في القدرة على الخروج والرجوع دون عائق، كما رأى أن الحصن القائم عند الجسر يمثل عقبة كأداء أمام خططه، لذلك أصدر أمره إلى كتيبة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين إلى حمل السلاح وشن هجوم على تلك القلعة، فأطاعوه في لحظتهم، وتخيروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط القلعة، وقسموا أنفسهم جماعات راحت تتناوب فيما بينها قذف القلعة بسيل لا ينقطع من السهام، منذ الساعة الأولى من النهار حتى الحادية عشرة منه، ولكن الكونت ورجاله استبسلوا في صدهم، ولم يدخروا وسعًا في الدفاع عن المكان الذي عهد إلى الكونت بحمايته»^(٢). ولما قاربت الشمس الغروب، وأخذ الليل في السدول، تبين للمهاجمين أنهم لم يتقدموا إلا قليلًا، فتخلوا عن الهجوم وعادوا إلى معسكرهم، غير أن الكونت توقع أن يعاود التُّرك الهجوم في اليوم التالي بقوات أضخم من قواته، فلا يعود في استطاعته حماية القلعة، لذلك قدم في سكون الليل وأضرم النار في هذا الموضع وتركها ترعى كل ما فيه، ثم انكفأ إلى المدينة، ولما أشرق الصباح رجع عسكر الأُمس المهاجمون يعاودون هجومهم مرة أخرى، وقد انضم إليهم ألفان، فما بلغوا هذه الناحية حتى وجدوها خاوية على عروشها، وقد تهدم أكثرها، فاضطروا للعودة من حيث جاؤوا دون أن ينجزوا مهمتهم»^(٣).

وأحكم التُّرك حصارهم على أنطاكيا، حتى أكل الصليبيون فيها الميتات والدواب، كما يقول ابن العديم^(٤). أما وليم الصوري فيقول: «وأصبحت

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٧٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمَّ إنجازها وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ ص ٣٧٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٧٩

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤١

المدينة الآن محاصرة من كل جانب، وقد تفاقم وضع الصليبيين سوءاً لأنهم أصبحوا عاجزين عن مغادرتها لقضاء ما لهم من أعمال خارجها، كما سدت المسالك أمامهم من دخولها، مما ترتب عليه عدم قدرتهم على جلب الطعام إليها، فعرض الجوع بنابه أكثرهم، وأخذت المؤنة في التناقص، وأصبح لحم البغال والحمير والجمال والخيول وغيرها من الحيوانات الدنيا وكأنها أشهى ما يكون إن وجدوها، بل إنهم كانوا ينبشون الأرض ويخرجون منها جيف الحيوانات المخلوقة أو التي ماتت بالطاعون ويقبلون على التهامها»^(١).

وعندما سمع الإمبراطور اليوناني أن كربوغا قد جاء بجيش كبير لاستعادة أنطاكية، خاف منه فزحف بجيشه إليه، وعرف الصليبيون بذلك، فابتهجوا وظنوا أن الفرج بات قريباً، لكن الإمبراطور ما لبث أن عاد بعد أن علم أن الصليبيين محصورون في الداخل وأن كربوغا لا بد أنه منتصر عليهم، وخاف من أن يهجم الترك من جديد ويستعيدوا المناطق التي سيطر عليها الصليبيون ولاسيما نيقية^(٢).

وعندما علم الصليبيون برجوع الإمبراطور زاد بؤسهم بعد أن كانوا استبشروا خيراً، أما كربوغا فإنه عندما علم برجوع الإمبراطور ضاعف من حصاره وقتاله للصليبيين في أنطاكية، وخاب كل أمل لهم في النجاة، كما فقدوا الرجاء في أن تصلهم أية نجدة من أي جهة كانت، ولَف اليأس المطلق الناس أجمعين، وراح الشعور به يزداد يوماً بعد يوم^(٣).

وبعد أن طال الحصار عاد القادة الصليبيون فاجتمعوا واتفق اجتماعهم على أن يرسلوا وفادة إلى القائد العام لعسكر الترك تقترح عليه الأخذ بواحد من اثنين: «إما أن يرحل ويترك المدينة للصليبيين لتكون ملكاً لهم إلى الأبد، وأما أن يستعد للقتال، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين». وكان رسولهم إليه بطرس الناسك وأشركوا معه رفيقه هيرلون الذي كان - كما يقول وليم أسقف صور - ملماً باللغة الفارسية^(٤).

لكن الأمير كربوغا، كما يقول الصوري، ازدري هذا العرض، وكلف بطرس بأن يقول للذين أرسلوه: «ما أظن يا بطرس العزيز أن وضع زعمائك الذين أرسلوك إليّ يسمح لهم باقتراح اختيارات يعرضونها عليّ، أو أن يفرضوا عليّ اختياراً معيناً حسب أهوائهم، ذلك لأن بسالتنا أجبرتهم على أن يكونوا في

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٨٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٩٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٩٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٩٩

حال لا يملكون معها حرية الاختيار، بل نعرض عليهم إما أن يغادروا البلاد ، وإما أن يتخلوا عن رغباتهم بما يتفق وهواي أنا»^(١).

وعاد بطرس برسالة كربوغا ، فقام الصليبيون بتنظيم أنفسهم وقسموا جيشهم إلى أقسام متعددة جعلوا على رأس كل قسم قائداً منهم، ومن ثم تجمعوا كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعة إشراق صباح الثامن والعشرين من يونيه، بعد أن ابتهلوا إلى السماء أن تمدّهم بالعون، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن بينوا للفيالق نظام السير وأسلوبه، وذلك قبل مغادرتهم المدينة، وتولى هيج العظيم ملك فرنسا أمر الفيلق الأول كقائد له وحامل لرايته، وجعلوا معه أنسلم دي ريمونت. وعهدوا بالفيلق الثاني إلى روبرت كونت فلاندرز، أما روبرت دوق نورماندي فقد وكلوا إليه قيادة الفيلق الثالث، وكان معه ابن أخيه ستيفن كونت أومال. أما أديمار أسقف بوي فقد قاد المجموعة الرابعة التي كانت تشتمل على خاصة أتباعه وأتباع كونت تولوز، وأما رينارد كونت نول فقد كلّفوه بأن يقود الفيلقين الرابع والخامس، وكان معه أخوه بطرس دي سينيائي، وكونت جارنييه دي جراي، وهنري دينس، ورينولد فون أمرباخ، وولتر دومنارد، أما جودفروي دوق اللورين وأخوه لورد أستانس، فكانا على الكتيبة السابعة، التي رتبها وفق النظام الحربي. وأما القسم الثامن فكان بقيادة تانكريد، أما القسم التاسع فكان فيه هيج كونت سنت بوب، وابنه أنجراند، وتوماس دي لافير، وبلدوين دي بورج، وروبرت ابن جيرارد، ورينو دي بوفيه، وجالودي شومونت. أما الفيلق العاشر فقد عهدوا به إلى روبرت كونت بيرس وايفرارد دي بويسيه، ودروجودي مونسي، ورالت ابن جودفروي، وكونون روتو. وقاد الفيلق الحادي عشر كل من إيرزورد كونت ديي، وريموند بيليه، وجاستون دي بزييه، وجيرارد دي روسيلون، ووليم دي مونبلييه، ووليم أمانجو، أما الفيلق الثاني عشر وهو أكبر الفيالق جميعاً فيؤلف مؤخرة الجيش، وقد عهدوا به إلى لورد بوهيموند زعيماً وقائداً، ووكّلوا إليه أمر هذه المؤخرة كي يساعد القوات الأمامية في اللحظات الحرجة^(٢).

وحين رتب الصليبيون أنفسهم وهياًوا صفوفهم للقتال، قرّر الزعماء باتفاق الآراء أن يسير أمام الجيش بأجمعه ويتقدمه، كلّ من هيج العظيم، وكونت فلاندرز ودوق نورماندي، أما البقية فعليهم مراعاة الترتيب المتفق عليه، وجاءت المشاة أولاً ومن بعدهم مباشرة الخيالة كحراس لهم. وأعلن نداء

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠٦

عام يحذر تحذيرًا قاطعًا أي شخص من التجرؤ على مد ناظريه إلى الغنائم والأسلاب، بل يكون الاهتمام منصبًا على كل ما فيه تحطيم الأعداء^(١).

وتوقع كربوغا، كما يقول وليم الصوري، أن يشن الصليبيون هجومًا على قواته، ومن ثم اتفق مع الأتراك في القلعة أنه إذا لاحظ أحدهم جماعة الصليبيين وهم يستعدون للخروج من أية ساعة من ساعات يومهم فعليهم المبادرة بموافاة معسكره بإشارة اتفق عليها من قبل^(٢).

وشرع الصليبيون من أول ساعة من النهار، كما يقول وليم الصوري، في تنظيم صفوفهم، فلما لاحظ أتراك القلعة تحركاتهم بادروا فأعطوا الإشارة لمن في معسكرهم، فعزم كربوغا على التقدم والحيلولة دون ما يريده الصليبيون، وأرسل في الحال نحو ألفي فارس ليصرف نظر القوات الصليبية الموجودة عند الجسر ويمنعها من مغادرة المدينة، ثم ترجل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم أشد عنفًا، ولكي يجدوا مجالاً أوسع لاستعمال أقواسهم، فأمكنهم الاستيلاء على الطريق البعيد عن الجسر، وأما الصليبيون فقد رتبوا صفوفهم، ووزعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابة، وزحفت فيالقهم واحدًا بعد واحد، وكانت لاتزال مرابطة في مواضعها على نفس المسافات التي تفصل بين بعضها والبعض الآخر^(٣).

وبينما كانت كتائب التُّرك التي قدمت لمنع الصليبيين من الهجوم تجهد نفسها لبلوغ هذه الغاية، عمد هيج العظيم الذي يتولى قيادة الفيالق الأول إلى إرسال مجموعة المشاة ورماة الأقواس، فشنت هجومًا عنيفًا على التُّرك الذين حاولوا المقاومة، لكنهم اضطروا إلى الفرار على غير نظام^(٤).

وفهم كربوغا، كما يقول وليم الصوري، من الإشارة التي ظهرت على القلعة ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكيا، أن الصليبيين أخذوا في التقدم، فدعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال في السن وقواد عسكره، للتشاور في الوضع، ومن ثم شرع في ترتيب قواته وتنظيم صفوفه استعدادًا للقتال ونزولاً عند نصيحة مستشاريه، وأخذه تجربة الأنطاكيين بعين الاعتبار، واستطاع بكثير من المهارة تنظيم قواته وترتيب صفوفها للقتال^(٥).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠٧

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤٠٧

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤١١

ولما احتل الصليبيون كل السهل أمنوا معه أن يحدق بهم أي خطر، فأمرُوا بدق الطبول إيدانًا بالزحف، وشرع العسكر في التقدم شيئًا فشيئًا نحو صفوف الترك، حتى إذا صاروا قريبين منهم قريبًا أعجز الترك عن رميهم بالسهم، اندفعت إلى الأمام في آن واحد الصفوف الثلاثة الأولى وقاتل رجالها الترك بالسيوف والرماح، ثم جاء الفرسان في أعقاب المشاة، واستحرا القتل في كثير من الترك ودبت الفوضى في صفوفهم فركنوا إلى الفرار^(١).

وظل كربوغا، كما يقول وليم الصوري، منذ بدء القتال بعيدًا عن ساحة المعركة مرابطًا على تل معين، وكانت الرسل موصولة الغدو والروح حاملة له أخبار المعركة، وبينما كان يطالع نتيجة هذا الصراع العام، إذا به يطالع اختلال نظام قواته وتفرقها، وفرار عسكره على وجوههم في شتى النواحي على غير هدى، وتفرقهم أيدي سبا، فغمره الحزن الممض حين أدرك مدى النكبة التي حلت بهم فنصحهم أتباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامته، فغادر المعسكر لئلا بأذيال الفرار غير عابئ مطلقًا برجاله، حتى بلغ نهر الفرات، فعبره وهو في حال من الفزع الشديد، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالمًا^(٢).

لكن الرواية الشرقية لما جرى تكاد تكون مختلفة، فيقول ابن العديم: «وأشار وثاب بن محمود أن يُمنع الفرنج من الخروج، وأشار بعض الأمراء أن لا يَمَكَّنوا من الخروج بأجمعهم ويقتلوا أولًا فأولًا، فلم يعرَّج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظفر بالفرنج، وخرجوا بأجمعهم في خلق عظيم، وعاث التركمان في العسكر فانهزم، وتوهم الفرنج أن ذلك مكيدة فتوقفوا عن تتبعهم، فكان ذلك سببًا لسلامة من أراد الله سلامته، ولم يبق غير كربوغا ومعه أكثر عسكره، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب»^(٣).

ويروي ابن الشحنة في تاريخ مملكة حلب، أن الملوك الذين جاؤوا في الحملة الصليبية قد أرسلوا إلى قوام الدولة كربوغا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: (لا تخرجوا إلا بالسيف)، لكن الفرنجة أصروا على الخروج، فخرجوا متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك، فقال الأمراء لكربوغا: ينبغي أن نقف على الباب فأى واحد واحد يخرج قتلناه. فقال لا تفعلوا، لكن أهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم. فلما تكاملوا ولم يبق بأنطاكيا أحد منهم، ضربوا مصافًا عظيمًا، وحاربوا المسلمين حتى دفعوهم

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٢٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٤١٥

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤١

عن البلد، فولى هؤلاء منهزمين، وآخر من انهزم سليمان بن أرتق، فقتل الفرنج منهم ألوفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والدواب والأسلحة^(١).

وللأسف أن الرواية الشرقية لا تذكر أن الصليبيين خرجوا من أنطاكيا وهم في جيوش منظمة، كما شرح وليم الصوري، وربما يعود السبب في ذلك لكي لا يبينوا تفوق الصليبيين عليهم، بل نرى ابن العديم يتحدث عن شغب التركمان داخل جيش كربوغا، وأن هؤلاء فروا قبل التحام القتال، وأن كربوغا كان آخر من انهزم بجيشه.

ونعتقد أن رواية وليم الصوري هي الصحيحة، فالصليبيون خرجوا كجيوش منظمة من أنطاكيا، ولو كان بإمكان الترك منعهم من الخروج لمنعهم، ولكنهم خرجوا بالقوة وقاتلوا بشراسة وحققوا نصراً كبيراً على الترك الذين ولّوا منهزمين.

٧ - انسياب الصليبيين في سوريا

بعد تلك الهزيمة الكبيرة التي لحقت بالترك، لزم هؤلاء في مدنهم وقلاعهم ولم يجرؤوا على مهاجمة الصليبيين مرة أخرى.

وكان الصليبيون قد أصيبوا بوباء شديد بعد انتصارهم في تلك المعركة، وهاجم هذا الوباء الجميع على اختلاف طبقاتهم، وكان من بين الذين ماتوا فيه، أديمار أسقف بوي، وهنري ديتش، ورينهولد فون أمرباخ^(٢). حينذاك تفرق الصليبيون أملاً منهم في تجنب الموت الذي يهددهم، فذهب بوهيموند إلى قليقية، واستولى على مدن طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة، ونصب حكاماً من قبله في هذه الأماكن، وجعل من نفسه الأمير الأكبر للإقليم كله^(٣). أما الزعماء الآخرون فقد تفرقوا في المدن المجاورة بعيدين عن الجيش، جاعلين همهم استرداد صحتهم وصحة جيادهم^(٤).

وفي تلك الأثناء عصى والي قلعة اعزاز على ملك حلب رضوان، فسار هذا بجيشه وضرب الحصار على القلعة التي أدرك متوليها أنه لا قبل له في الوقوف في وجه مولاه القوي ما لم ينجده الصليبيون، فأرسل في الحال ومن

(١) الدر المنخب في تاريخ حلب - ابن الشحنة - ص ٢١٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١

خاصته وأهل بلده، وكان مسيحياً مخلصاً له، إلى جودفروي يسأله محالفته، وألحّ في الرجاء على جودفروي أن ينهض في الحال كي يخلصه من الخطر المحقق به، واعداً إياه أن يجازيه الجزاء الأوفى على حسن جميله هذا في الوقت المناسب^(١). فارسل جودفروي في لحظته رسلاً إلى أخيه بلدوين يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عوناً له في رفع الحصار وتقديم المساعدة لوالي عزاز. وسار جودفري من أنطاكية في صحبة عدد كبير من أصحابه، وقطعوا مسيرة يوم واحد حين صادفهم بلدوين في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل مدججين بأحسن السلاح^(٢). وحذر بلدوين أخاه بأن القوات الموجودة معهما غير كافية، ونصحه أن يبعث إلى القادة المقيمين بأنطاكية لأن مجيئهم إليه يقوي جانبه ويشتد بهم ساعده، فبعث جودفروي في الحال إلى كل من بوهيموند وكونت تولوزينا شدهما لمساعدته، فجمعاً قواتهما وخرجا بها فلحقاه في حملته، فلما تأتى لجميع القوات أن ينضم بعضها إلى بعض بلغت زهاء ثلاثين ألف محارب^(٣).

ويقال إنه كان عند رضوان أربعون ألفاً من الترك، ومع ذلك لم يطمئن إلى قوته هذه واستولى عليه الفزع من اقتراب الصليبيين الذي أخبرته عيونه أنه بات وشيكاً، فسرّح جيشه وعاد إلى حلب^(٤).

ويذكر ابن العديم هذ الحادثة باقتضاب فيقول: «وفي سنة ٤٩١ عصى عمر والي عزاز على الملك رضوان فخرج عسكر حلب وحصره، فاستنجد بالفرنج، فوصل صنجيل بعسكر كبير، فعاد عسكر حلب فنهب صنجيل ما قدر عليه وعاد إلى أنطاكية»^(٥).

وكما نرى فإن ابن العديم لم يكن يعلم من هو القائد الصليبي الذي جاء لنجدة والي عزاز، فظن أنه صنجيل، الذي هو ريموند كونت تولوز، وكان ذلك القائد هو جودفروي، وهذا الخلط هو بسبب عدم تدقيق المؤرخين التُّرك في تلك المرحلة ولا سيما بخصوص معرفة العدو وتفاصيل حياته.

وبعد أن انتهى حصار عزاز ذهب الدوق جودفروي مع أخيه إلى الرها وأقام فترة هناك، أما كونت تولوز وبوهيموند فقد عادا إلى أنطاكية، ومن ثم نهض كونت تولوز من أنطاكية وفي صحبته أتباعه وقام بحصار البارة وهي من

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٣

المدن القوية التحصين في ولاية أفاميا، فسقطت في يده واحتل كل الإقليم المجاور لها، ونصب فيها أسقفًا لاتينيًا هو (بطرس النبرتي) أحد خاصته، ووهب له ريموند نصف المدينة ونصف ما حولها من القرى والمزارع^(١).

وكان قد عاد إلى أنطاكية يوم أول نوفمبر جميع القادة الذين غادروها فرارًا من الطاعون حسب اتفاقهم على ذلك، فقرروا مهاجمة المعرة بعد سقوط البارة، واتخذت الاستعدادات اللازمة، ولما وافى اليوم المقسوم خرج كونت تولوز وكونت فلاندرز وكونت نورماندي، كما نهض جودفروي ومعه أخوه استاس وتانكريد، وزحفوا مجتمعين العزم على مهاجمة المعرة التي كان أهلها شديدي التفاخر بثرائهم الفاحش^(٢) *. وما إن وصلوا حتى فرضوا الحصار عليها، ولما كان اليوم الثالث انضم إليهم بوهيموند بإمدادات كبيرة، واستمر في محاصرة المدينة فأحرق الجانب الذي ظل مفتوحًا منها حتى هذه اللحظة، ووقف أهل المعرة يدافعون عن بلدتهم، بينما كان الصليبيون يقذفونها بالحجارة والنار والكلس من كل جانب، فدب الإرهاق في أبدان المدافعين، وتراخى بأس مقاومتهم، وقل عزمهم، وحينذاك نصب الصليبيون السلالم على الأسوار فنجحوا في عبور الخنادق بالقوة، فسقطت في أيديهم بعض الأبراج، ولكن حال دخول الليل دون متابعتهم عملهم والاستحواذ على المدينة بأكملها، فلما طلع الصباح هب القادة واستولوا على المدينة من غير كد، وتبين لهم أن الأهالي قد اختفوا في السرايب فأضرموا حولها النار فاستسلم الأهالي، فقتل بعضهم وأسرا البعض الآخر، ومات في حصار المعرة وليم أسقف أورنج، وبقي الدوق ومن معه في المعرة خمسة عشر يومًا ثم عادوا إلى أنطاكية^(٣). وأقطع كونت تولوز المعرة أيضًا لأسقف البارة^(٤).

يتحدث ابن العديم عن سقوط البارة والمعرة فيقول: « وخرج صنجيل في ذي الحجة سنة ٤٩١، وحصر البارة فأخذها بالأمان، وغدر بأهلها، وعاقب الرجال والنساء، واستصفى أموالهم وسبى بعضًا وقتل بعضًا، ثم خرج بقية الفرنج من أنطاكية والأرمن الذين في طاعتهم والنصارى، وانضموا إليه ووصلوا إلى معرة النعمان ليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف، وحصروا معرة النعمان في سنة ٤٩٢، وقطعوا الأشجار، واستغاث أهلها بالملك رضوان

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٤

* لا أحد من مؤرخي الشرق يذكر أن أهل المعرة كانوا أثرياء جدًا، ولعل هذه المعلومة غير صحيحة، وإذا كانت المعرة مشهورة فبسبب أحمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بأبي العلاء المعري.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٧

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٨

وجناح الدولة حسين فلم ينجدهم أحد»^(١).

واجتمع قادة الصليبيين في مدينة الروج الواقعة في منتصف الطريق بين أنطاكية والمعرة وكان الهدف من اجتماعهم، كما يقول وليم الصوري، هو النظر في طلبات العسكرا الملحة بوجوب متابعة الحج حتى القدس، وتلقى ريموند كونت تولوز دعوة للحضور، فحضر، واختلفت آراء القادة وتباينت حول هذا الموضوع تبايناً أدى إلى عدم وصولهم إلى اتفاق مثمر أو قرار مفيد بشأنه^(٢).

من ثم قام كونت تولوز، كما يقول وليم الصوري، وفي صحبته ما يقرب من عشرة آلاف رجل، ليس فيهم من الفرسان أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارساً، كما انضم إليه كونت نورماندي وتانكريد، وشقوا طريقهم في عمق سوريا، فمرّوا بشيزروحماء وحمص التي تسمى في اللغة الدارجة (كاميلا)*، وأمدتهم حكام هذه الأماكن بالحراس، وجهازوا لهم أسواقاً يتم فيها البيع والشراء على أحسن ما يكون البيع والشراء، كما قدمت إليهم جميع أنواع المؤونة منعاً لأيديهم من أن تمتد بالسوء إلى تلك المناطق^(٣). وبعد مسيرتهم بضعة أيام في الطريق الداخلي اتفقوا جميعاً على العودة إلى الطريق الساحلي، لأنه، كما يقول وليم الصوري، ييسر عليهم التأكد من وضع الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم في أرض أنطاكية^(٤). ويذكر وليم الصوري أنه لم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الإقليم الذي سار به الصليبيون إلا وبعثت بهدايا إليهم مصحوبة بالتماساتها في عقد معاهدات صداقة معهم. ولم يشذ عن هذه كلها سوى مدينة واحدة رفض أهلها بذل الطاعة معتمدين على عددهم الكبير وعلى مناعة بلدهم، وجمعوا كل عسكرهم وحاولوا عرقلة مسير الصليبيين فلما رأى هؤلاء ذلك منهم هاجموهم وفرّقوا صفوفهم واستولوا على المكان عنوة^(٥). ولم يذكر وليم الصوري اسم هذه المدينة، لكن، على الأغلب، هي رمنية - بعرين، وما يؤكد ذلك هو أن وليم الصوري يقول: «وانقضت عدة أيام أمضاها الجيش آمناً في عبور هذه المنطقة الوسطى، ثم نزل بعدها سهلاً قريباً

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٩ * كاميلا، هذا الاسم غير معروف لحمص، بل المعروف هو اسم «أميسا»، أما كاميلا، فربما كان بعض السوريين المسيحيين يسمونها هكذا فأخذ وليم الصوري هذا الاسم عنهم.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٤٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٤٣

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٤٥

من البحر، قد حصنته الطبيعة أحسن تحصيناً وبه مدينة قديمة العهد اسمها (عرقا)»^(١)، ومن المعروف أن السهل المذكور هو سهل عكار، حيث إن عرقا تقع فيه. ومن هنا، فإن المدينة المذكورة هي رمنية، وهكذا فالطريق الذي سلكه الصليبيون للوصول إلى الساحل، مرّ عبر الجبال المجاورة لذلك السهل. وعسكر الصليبيون أمام عرقا ينتظرون قدوم بقية رفاقهم الذين ظلوا في أنطاكيا، كما يقول وليم الصوري، ولما أطلّ شهر آذار، مارس، نهض هؤلاء القادة بعساكرهم واتجهوا نحو اللاذقية ورافقهم بوهيموند حتى وصلوا إليها فعاد إلى أنطاكيا.

ويصف وليم الصوري اللاذقية فيقول: «واللاذقية من أجمل المدن الساحلية المطلّة على البحر، وهي ذات تاريخ موغل في القدم وسكانها من النصاري*، كما أنها المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الإمبراطور الأغريقي»^(٢). ويقول أيضاً: «إن الجيش الصليبي لم يتعرض لهذه المدينة بل تابع زحفه نحو جبلة التي يسميها الصوري (جبليّن) والواقعة على بعد اثني عشر ميلاً من اللاذقية، فعسكروا متحلقين حول المدينة وشرعوا في عمليات الحصار فترة من الوقت»^(٣). وكانت هذه هي أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر، كما يقول وليم الصوري، وقد جاء إليها بصحبة نائبه إلى الدوق يعرض عليه ستة آلاف قطعة ذهبية إلى جانب العديد من الهدايا إن رفع الحصار عن المدينة، لكنه لما رأى ازدياد جودفروي لعرضه، أرسل مبعوثين من قبله إلى ريموند كونت تولوز، وعرض عليه نفس القدر من المال إن انتزع المدينة من الدوق. ويقال إن الكونت قبل هذه الرشوة، سرّاً، فأرسل صديقه أسقف البارة على رأس وفد إلى الدوق وإلى كونت فلاندرز، وهما على جبلة، وأرسل له كتباً تلحّ عليهما إلحاحاً قوياً برفع الحصار عن جبلة، والإسراع لدرء خطر التّرك حيث ادعى أن جيشاً كثيفاً بقيادة كربوغا موشك على المجيء من أرض فارس، انتقاماً للأهوال التي حاقت ببني جلدتهم في أنطاكيا^(٤). وما كاد الدوق وكونت فلاندرز يسمعان بهذا الكلام، حتى بادرا إلى فك الحصار عن جبلة والزحف في الحال لمساعدة الجيش الآخر المرابط عند عرقا من أجل ملاقاته التّرك. وهم متحدون، وسار الصليبيون من

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٤٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٥٠

* اللاذقية، يذكر وليم الصوري أن سكان اللاذقية كانوا كلهم مسيحيين، أما اليوم فالمسيحيون باتوا قلة قليلة في هذه المدينة.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٥١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٥٢

جبله نحو الجنوب، فاجتازوا بانياس التي يسميها، ولیم الصوري، (فالنينا). ويقول: إنها إحدى المدن البحرية الواقعة تحت حصن المرقب^(١)، ولا يذكر هل كان أهلها نصارى أم مسلمين، لكن على الأغلب أنهم كانوا نصارى، لأن الصليبيين لم يقتربوا منها، بل تابعوا مسيرهم حتى وصلوا إلى «مرقية» التي يقول عنها ولیم الصوري، إنها أول مدينة فينيقية يصادفها القادم من الشمال، ولم يقترب الصليبيون من هذه المدينة لأنها كانت مسيحية أيضاً، مثل فالنينا. ومن ثم وصلوا بعد ذلك إلى طرطوس، والواقعة هي الأخرى على شاطئ البحر، كما يذكر ولیم الصوري، فأبصروا المكان مقفراً^(٢). لأن التُّرك الذين كانوا فيها خافوا على حياتهم، فهربوا نحو الداخل، وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى عرقا بعد أيام قلائل، فهب تانكريد لاستقبالهم، وشرح للزعماء كل تفاصيل خيانة الكونت، فلما فرغوا من الإنصات له، نصبوا معسكرهم على حدة، وسرعان ما تبين للكونت تغير قلوب الزعماء الآخرين عليه، فراح يستميلهم بالهدايا حتى استمالهم إليه، ولم يشذ عنهم سوى تانكريد الذي لم يكف عن رمي الكونت بكل تهمة نكراء^(٣).

وكان ريموند قد أعد كل معسكره أمام هذه المدينة فلم تأت جهوده ثمرتها المرجوة، غير أن مجيء القادة الآخرين فتح له باب الأمل في الاستيلاء على المدينة في يسر وسهولة، بيد أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يطمح فيه، ذلك أن كل غارات الصليبيين على القلعة باءت بالفشل^(٤). فقرروا تركها والمضي في تحقيق هدفهم وهو الوصول إلى بيت المقدس فساروا حتى إذا صاروا على بعد خمسة أميال من طرابلس، نصبوا خيامهم بقصد حصارها، فأرسل أميرها جلال الدولة بن عمار، سفارة إلى الصليبيين يعرض عليهم خمس عشرة ألف قطعة ذهبية إلى جانب هدايا من البغال والجياد والحرير والأواني الغالية الثمن، كما وعد بإطلاق سراح الأسرى الصليبيين لديه، فرضي الزعماء أن يغادروا ولايته على هذه الشروط، ثم زادوا على ذلك بأن وافقوا على التخلي له عن المدن الثلاث التابعة له، وهي عرقا وطرابلس وجبيل بملحقاتها^(٥).

وتابعوا سيرهم جنوباً ووصلوا بعد ثلاثة أيام من سيرهم عن طرابلس إلى بيروت، فقدم لهم واليها الفاطمي هدايا وكميات وفيرة من المؤونة ليحملهم

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٥٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٥٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٥٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٥٣

(٥) تاريخ الأعمال التي تم إنجازها وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٦٢

على كف أيديهم عن التعرض للمحاصيل الزراعية والأشجار^(١). * فتركوا بيروت وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى صيدا، فلم يقدم لهم واليها الفاطمي شيئاً، فقاموا بإلحاق الأذى بالضواحي المجاورة وسرقوا ما فيها من مواش وغلال^(٢). وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى صور، وهنا نصبوا مخيمهم على مقربة من نبع الجنان* المعروف، وهو نبع غزيز الماء يعد أعجوبة من أعاجيب الدنيا، فأمضوا ليلتهم هناك وفي الصباح تهيأوا للمسير بعد تغلبهم على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع وبين البحر^(٣). * وساروا من صور حتى بلغوا عكا، فسار إليهم حاكمها التركي وقدم الهدايا لهم، وبالغ في إظهار صداقته نحو الزعماء وعقد معهم اتفاقاً ووعدهم أنه مسلمهم مدينة عكا إن هم نجحوا في أخذ القدس وتمكنوا من هزيمة القوات المصرية^(٤). وفي هذا الموقف يتبين حجم الحقد الذي كان يكنه هؤلاء الترك تجاه الدولة الفاطمية في مصر.

ثم غادر الصليبيون عكا حتى وصلوا إلى اللد، فوجدوها خالية، ثم انتقلوا إلى الرملة فوجدوها أيضاً خالية قد تركها أهلها خوفاً منهم^(٥).

وترددت الأخبار محذرة سكان القدس باقتراب الصليبيين منهم، وكان أمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالي قد نجح في استعادة القدس من الترك، في وقت سابق من السنة التي وصل فيها الصليبيون إليها، ومن ثم قام الوالي الفاطمي في القدس بتقوية دفاعات المدينة استعداداً للمعركة^(٦). ما كاد الأهالي يعلمون باقتراب الجيش الصليبي حتى طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياه إلى مسافة خمس أو ست مراحل*، أملاً منهم في أن ينصرف

* ما يدعو إلى التساؤل هو كيف عرف الوالي الفاطمي بجملة أن ريموند رجل فاسد يحب المال حتى تمكن من رشوته والحفاظ على الوجود الفاطمي بها ولو قليلاً. والواقع ربما كان التنوخيون الذين كانوا يعملون ولاية على جبال اللاذقية من قبل الدولة الرومانية هم من أخبر الوالي الفاطمي بذلك،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٥

* نبع الجنان، هو نبع البقيوق الذي يقع على بعد ثلاثة كيلو متراً شمال صور، الممر الضيق، هو ممر رأس الناقورة، وهذا الممر معروف من قديم الزمان وقد عبره الإسكندر الكبير عام ٣٣٣ قبل الميلاد، خلال ذهابه إلى فلسطين، كما عبرته القوات البريطانية عند دخولها إلى لبنان عام ١٩١٥.

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٥

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٦

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٦٧

* المرحلة، هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة، والجمع مراحل، وتقدر المرحلة «٢٤ ميلاً - المكاييل والموازين الشرعية - علي جمعة محمد - ص ٦٥

الصليبيون عن حصار المدينة حين يجدون أنفسهم يعانون الظم الشديد^(١). ولما كان اليوم السابع من يونيو عام ١٠٩٩ للميلاد - ٤٩٢ للهجرة، عسكرت كتائب الجيش الصليبي أمام القدس، ويقال إن عدد الحجاج كان يقرب من أربعين ألفاً من كلا الجنسين ومن شتى الأعمار والطبقات، كان فيهم من المشاة عشرون ألف رجل، ومن الفرسان ألف وخمسمائة إلى جانب حشد لا رجاء فيه من المرضى والعجزة^(٢). وتقول الأخبار إنه كان بداخل القدس أربعون ألف من المحاربين الشجعان المزودين بأحسن السلاح، إلى جانب من انهال عليها من أهل القلاع الموجودة في منطقتها وما جاورها، وكانوا أعداداً كبيرة جاؤوا هرباً من الجيش الصليبي^(٣).

وضرب الصليبيون الحصار حولها لمدة أربعة أسابيع، واستخدموا شتى الحيل لمواجهة ضراوة المقاومة الفاطمية فيها، وشدد الصليبيون حصارهم وصنعوا آلات ضخمة لتسلق أسوار المدينة. وللأسف لم يرسل الوزير الفاطمي الأفضل، أية نجدة لمساعدة المحاصرين بل تركهم يواجهون مصيرهم، وفي النهاية نجح الصليبيون في اختراق الأسوار بعد أن أنهك المدافعون واستنفذوا قواهم في المواجهة وكان جودفروي أول من دخل إليها مع جيشه، وأعمل السيف في أهلها المسلمين ودخل باقي القادة أيضاً وأنهوا الوجود الإسلامي فيها من خلال القيام بمذبحة رهيبة يندى لها جبين الإنسانية، ويستطرد وليم أسقف صور في وصف الجرائم التي ارتكبها قومه في القدس. فيقول: «وكان ذلك قضاءً عادلاً من الرب أمضاه في من دنسوا هيكل السيد بشعائهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن، فكان لا بد لهم أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهرق»^(٤). لكن ما هو ذنب أولئك الناس الذين وجدوا أنفسهم قد خلقوا في تلك المدينة وأي جرم اقترفوه لأن الله تعالى خلقهم هناك حتى استحقوا الموت عن تلك الخطيئة التي يتحدث عنها هذا الأسقف الذي يقول أيضاً: «وكان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولي عليه الفرع، فقد كانت الأشلاء البشرية في كل ناحية، وغطت الأرض دماء المذبوحين، ولم تكن مطالعة الجثث قد فارقتها رؤوسها ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة في جميع الأرجاء هي وحدها التي أثارت الرعب في نفوس جميع من شاهدها، بل كان هناك ما هو أبعث على الفرع ألا وهو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٩٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٩٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٩٥

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٢٧

بالدماء فغطتهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم فكان منظراً مروّعاً بثّ الرعب في قلوب كل من قابلوهم. ويقال، إنه قتل في داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين، بالإضافة إلى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة ومبانيها لم يكونوا أقل عدداً ممن ذكرناهم^(١). وقد استهدف الصليبيون بهذه المجزرة الفاطميين وحلفاءهم في المدينة، أما المسيحيون فلم يمسوهم بسوء، ويقول وليم أسقف صور: «كان يعيش في بيت المقدس نصارى أتيحت لهم رؤية بطرس الناسك فيها منذ أربع أو خمس سنوات حيث حملته البطرك الموقر وكبار رجال الدين فيها والأهالي على السواء، رسائل أملين أن تحرّك أمراء ممالك الغرب فتعطفهم عليهم، فلما رآه هؤلاء الناس مرة ثانية عرفوه، فخرّوا على ركبهم ساجدين أمامه اعترافاً بجميله عليهم»^(٢).

٨ - تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية

بعد أن انتهى الصليبيون من تلك المذبحة المروعة، جلسوا سبعة أيام، كما يقول وليم أسقف صور، فلما كان اليوم الثامن التأم عقد القادة للتشاور من أجل اختيار واحد من بينهم يلقون إليه بحكم القدس، وبينما كان هؤلاء مجتمعين، اجتمع رجال الدين هم أيضاً لينصبوا أسقفًا على القدس، وأرسلوا رسالة إلى القادة الصليبيين يقولون فيها: «لقد علم رجال الدين أنكم قد اجتمعتم لاختيار أحدكم لتنصبوه ملكاً، وما نشك في شرف هدفكم وصوابه، غير أن الذي لا مشاحة فيه هو أن المسائل الروحية أسمى من المشاكل الزمنية وأعظم منها خطورة، مما يحتم أن تكون لها الصدارة، وفي رأينا أنه يجب عليكم قبل أن تفكروا في انتخاب أحد لمنصب علماني أن تختاروا رجلاً قضى حياته في خدمة الملة ويرضى عنه الرب، ويكون قادراً على رئاسة كنيسته وتدبير أمورها بما يؤدي إلى تقدمها وخيرها»^(٣).

وكان أكبر المتزعمين للشقاق، كما يقول وليم أسقف صور، أسقف كلابريا*. وكان هو الصديق الحميم للمدعو أرنولف، وكان أسقف كلابريا يرمي إلى أن يسوق كرسي البطركية لأرنولف، في مقابل أن يعطيه أرنولف بيت لحم ليكون أسقفها. ومن ثم قام أسقف كلابريا باختيار أرنولف ووضعه على رأس

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٢٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٣٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٤٤

* كلابريا، إقليم يقع في أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية

البطركية، وعاونه في هذا المسعى رجال ممن كانوا على شاكلته في التفكير^(١). لكن لماذا يا ترى، يسمي وليم أسقف صور ما قام به رجال الدين من مطالبة بأنه شقاق، ألم تكن أوروبا الغربية هكذا. ألم يكن الحكم فيها لرجال الدين وكانت سلطتهم مقدمة على سلطة الملوك والأمراء، لكن ربما ما ذكره وليم الصوري يقدم صورة عن حالة الكنيسة في ذلك الوقت من غلبة الأهواء فيها على المقاصد الروحية.

وبعيداً عن هذا الموضوع، فإن القادة بعد تشاورهم، اختاروا الدوق جودفروي ليكون ملكاً على القدس وساروا به في موكب مهيب، كما يقول وليم الصوري، إلى قبر المسيح تزفه أغاني المنشدين والمترلين^(٢) * . وعمد جودفروي إلى تنصيب تانكريد على مدينة طبريا وجعلها وراثية فيه إلى الأبد، ومعها كل ولاية الجليل، كما منحه في الوقت نفسه، حيفا الساحلية بكل ملحقاتها^(٣).

وقد غادر العديد من القادة إلى بلادهم منهم كونت فلاندرز وروبرت النورماندي. وكان ريموند كونت تولوز (سان جيل) قد ذهب إلى اللاذقية ليطمئن على زوجته وأولاده الذين تركهم هناك، ثم رحل إلى القسطنطينية وبقي فيها سنتين بضيافة الإمبراطور^(٤).

وكان الصليبيون في القدس قد عانوا من الفاقة والفقر بسبب انعدام الموارد، وقد حاولوا الهجوم على المناطق المحيطة بهم لكن المصريين والترك كانوا قد امتنعوا عن زرع الحقول وعن رعي الماشية ليفرضوا حصاراً اقتصادياً على الصليبيين، كما أن هؤلاء لم يكونوا يجرون على الخروج في جماعات صغيرة خوفاً من الأعداء المحيطين بهم، ولذلك كادوا يموتون من الجوع^(٥). وكان الأسقف أرنولف قد تعرض للاختطاف أثناء ذهابه إلى بيت لحم.

ومكث جودفروي عامًا في الحكم ثم أصيب بمرض عضال، وهلك في القدس، وكان مهلكه في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ١١٠٠ من مولد

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٤٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ١ - ص ١٤٧

* يذكر وليم الصوري ترجمة لجودفروي فيقول: «نشأ جودفروي أول ما نشأ في مملكة الفرنجة إذ ولد في إقليم «ريمز» بمدينة بولونيا المطلة على القنال الإنجليزي، وأبوه هو «أستاس الكبير» أحد كونتات هذه الولاية البارزين، أما أمه «أيدا» فهي أخت «جودفروي» الكبير دوق اللورين الملقب «بستروما» ولما لم يكن لهذا الدوق أولاد من صلبه فقد تبني ابن أخته وسميه وأوصى له بكل ما يملك، ومن ثم خلف جودفروي خاله على الدوقية عند موته - الأعمال التي تمت وراء البحار - ج ٢ - ص ١٥١

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٨

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٨

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٨٠

المسيح^(١). (٤٩٣) للهجرة. فقام الكونت جارنييه دي جراي الذي تربطه صلة القرابة بكل من جودفروي وبلدوين، بإرسال رسالة إلى بلدوين أمير الرها وشقيق جودفروي ليحضر إلى القدس وليصبح ملكاً عليها. فجاء هذا إلى أنطاكيا ومنها إلى اللاذقية، كما يقول وليم الصوري، فلما بلغها مضى مصاقباً للساحل فمر بجبله وبانياس وطرطوس، ولم يعترضه أحد بسوء في هذه المناطق، فلما وصل إلى طرابلس تلقاه وإليها جلال الملك وأكرمه ووصله بالهدايا، وعلم بلدوين من هذا الوالي أن دقاقاً صاحب دمشق قد نصب له الكمان على طول الطريق^(٢). وسار بلدوين ماراً بجبيل حتى وصل إلى نهر الكلب حيث يوجد، كما يقول وليم أسقف صور، ممرضيق شديد الخطر بين بحر عاصف وجبل شاهق، ويبلغ طول هذا الممر أربعة فراسخ، أما عرضه فذراعان^(٣). وقد رتب الترك فيه كمان لقتل بلدوين، لكن لما كان هذا على علم بذلك، فقد نجح في تجاوز هذا الممر ومن ثم تابع مسيره حتى وصل إلى بيت المقدس حيث خرج للاقائه رجال الدين والشعب من لاتين وغيرهم وسودوه عليهم عن رضى وطيب خاطر^(٤). وقد جاء إليه تانكريد وسلمه طبريا لأنه كان يريد الذهاب إلى أنطاكيا ليصبح أميراً عليها بسبب وقوع بوهموند في أسر الترك الدانشمنديين. فقام بلدوين بإعطاء طبريا إقطاعاً لشخص آخر هو (هيج دي سنت أومير) وجعلها وراثية في عقبه^(٥).

٩- توسع الصليبيين في فلسطين

بعد أن تمكنت أقدام الصليبيين في القدس راحوا يسعون للتوسع في باقي مناطق فلسطين وانتزاعها من يد الدولة الفاطمية، ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٤٩٤ يقول: «وفي هذه السنة وصل كندفري (جودفروي) صاحب بيت المقدس إلى ثغر عكا وأغار عليه فأصابه سهم فقتله*، وكان قد عمريافا وسلمها إلى طنكري (تانكريد) فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين (بلدوين) القمص (الكونت) صاحب الرها إلى بيت المقدس»^(٦). ويقول في موضع آخر: «وفيها افتتح الإفرنج حيفا على ساحل البحر بالسيف وأرسوف

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٨٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٠٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٠٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٠٦

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٠

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٣٨

بالأمان وأخرجوا أهلها ونهبوا ما فيها وأعانهم الجنويون عليها»^(١).

لكن وليم الصوري لا يتحدث عن هجوم جودفروي على عكا ولا أنه قتل على سورها، بل يقول، كما رأينا، أنه مات في القدس بشكل طبيعي، كما لا يتحدث عن احتلالهم لحيفا، غير أنه يتحدث عن احتلال أرسوف وقيسارية فيروي رواية مطولة مخالفة لرواية القلانسي حيث يقول: «كان ملك بيت المقدس منصرفاً لبذل شتى الوسائل لمد حدود المملكة الضيقة وحدث أن وصل إلى ميناء يافا مع مستهل الربيع أسطول الجنوية، فتبارى الملك والأهالي في الاحتفاء بهم، ولما كان عيد الفصح على وشك الحلول، فقد سحبوا سفنهم إلى اليابسة، ومضوا مصعدين إلى بيت المقدس للاحتفال بالعيد الذي ما كاد الملك يفرغ من إحيائه حتى بعث رجالاً عقلاء محملين بالهدايا إلى قادة الأسطول وكبار وجوه العسكر، وعهد إليهم بمفاوضتهم ليعلموا منهم عما إذا كان في نيتهم الرجوع، أو أنهم مستعدون لبذل أنفسهم لفترة من الوقت، بمقابل مادي لمد حدود المملكة، فأجاب الجنوية إلى طلب الملك وعقدت اتفاقية بين الفريقين مفادها، أنهم طالما يريدون البقاء في المملكة بأسطولهم فلهم الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة مما في يد العدو، ومما يكونون هم قد ساعدوا في الاستيلاء عليه، لا يعارضهم في ذلك معارض، كذلك يحصلون على ثلث الأسرى الأعداء من غير مشاقة، ويكون لهم ثلث أموال العدو، أما الثلثان الباقيان من كل شيء فيكونان من نصيب الملك. وزيادة على ذلك، فقد نص الاتفاق على أن يخصص حسب المعاهدة للجنوية شارع معين في كل مدينة تنزع من يد الخصم»^(٢).

وقد انتعشت، كما يقول وليم الصوري، الآمال في صدر الملك، فقام اعتماداً على المعونة وجمع كثيراً من الفرسان والمشاة من المدن الخاضعة له، وفرض الحصار براً وبحراً على مدينة (أرسوف) الساحلية، ونشر بلدوين في الحال قواته حول المكان على شكل دائرة أحاطت به من كل ناحية ثم أمر بتشديد برج متحرك من الكتل الخشبية الضخمة، فلما فرغوا منه أسنده الفعلة إلى الأسوار بعناية فائقة، لكن قوة السلم لم تكن كافية لاحتمال ثقل ذلك العدد الكبير من الناس الذين اعتلوه فهوى إلى الأرض حطاماً وأصيب في الحادث حوالي مئة من الصليبيين كانت إصاباتهم خطيرة، كذلك وقعت طائفة من الصليبيين بيد المصريين فصلبواهم أمام أعين رفاقهم ورفعوهم

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٣٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٢١٧

على المشائق^(١). وعاود الصليبيون الهجوم بقوة وأسندوا سلامهم إلى الأسوار، وعند ذلك أيقن الجيش المدافع عن المدينة بعدم جدوى الدفاع، ولذلك بعثوا من جهتهم وسطاء إلى الملك، حصلوا منه على إذن يخول لهم إن هم أسلموه البلد أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم، على أن يخلفوا وراءهم كل أمتعتهم وإذًا تكون لهم السلامة والعافية، ويزودون بعهد أمان حتى يبلغوا عسقلان^(٢). ولما تم الاستيلاء على القلعة أقام بها الصليبيون حامية لحراستها، ومن ثم زحفوا على قيسارية لمحاصرتها^(٣). فلما وصلوا إليها من البحر ومن على اليابسة، حاصروها ونصبوا آلات الرمي في أماكن استراتيجية، وهاجموا المكان، وراحوا يقذفون المدينة بالصخور الضخمة وبلا انقطاع فتصدعت الأسوار والأبراج، وهدمت البيوت، وكان الصليبيون قد عملوا آلة ذات ارتفاع عجيب يجعلها فوق جميع الأبراج، وقد ساعدتهم هذه الآلة على مهاجمة المدينة من غير عناء يلقونه، واستمر القتال موصولاً مدة قاربت خمسة عشر يوماً بين المصريين وبين الصليبيين الذين هاجموهم بكل طاقتهم، لكن المدافعين قاوموهم بشدة، غير أن همتهم فترت بعد ذلك، بسبب انقطاع الإمداد وكثرة القتلى والدمار داخل المدينة، فقوي الصليبيون عليهم حتى تمكنوا من أخذ المدينة، فعاثوا فيها فساداً، وفتكوا بالأهالي ونهبوا شتى الأدوات المنزلية وامتدت أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها، وحكّموا السيف بالأهالي، وبقروا بطونهم بحثاً عن الذهب والمجوهرات ولجأ من بقي من الأهالي إلى كنيسة كانت موجودة على مرتفع، فقصدتهم الصليبيون وفتكوا فتكاً ذريعاً بهم، فسفكوا دماءهم التي صارت بحراً أخذت تخوضه، كما يقول أسقف صور، أقدام المخربين. ولم يرحموا من القتل سوى صغار الصبية والبنات^(٤). ولما قتل الأهالي جمع الصليبيون شتى الغنائم في صعيد واحد وأخذ الجنويون الثلث، وأخذ الملك الثلثين المتبقين^(٥).

وبعد قيسارية جاء الدور على عكا التي كانت بيد الفاطميين أيضاً.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٤٩٧ فيقول: «في شهر رجب من هذه السنة ورد الخبر بنزول بغدوين ملك الإفرنج صاحب بيت المقدس في عسكره على ثغر عكا ومعه الجنويون والمراكب في البحر فحاصروه من

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٩

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٢

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٢

جہاتہ وضايقوه من جوانبه ولازموه بالقتال إلى أن عجزوا اليه ورجاله عن حربهم وضعف أهلہ عن المقاتلة لهم وملكوه بالسيف قهراً، وكان الوالي به الأمير زهر الدولة بنا الجيوشي قد خرج منه لعجزه عن حمايته وضعفه عن المراماة دونه وأنفذ يلمس منهم الأمان له ولأهل الثغر ليأسه من وصول نجدة أو معونة، فلما ملك الثغر تم على حاله منهزماً إلى دمشق فدخلها وأكرمه ظهير الدين أتابك، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الخميس لثلاث بقين من شعبان وأقام بدمشق إلى أن تسهلت له السبيل في العود إلى مصر فتوجه إليها عائداً ووصل إليها سالماً وأوضح عذره فيما تم عليه من الغلبة فقبل عذره بعد الإنكار عليه والغيط من فعله»^(١).

لكن المقرئ يميز يجعل استيلاء الصليبيين على هذه المدينة سنة ٤٩٩، حيث يقول: «وملك الفرنج عكا عنوة في سلخ شعبان من زهر الدولة بنا الجيوشي، فسار إلى دمشق ثم قدم إلى مصر»^(٢).

وتبدو رواية أبي يعلى القلانسي أقرب إلى الصواب، لأن وليم الصوري يؤيدها فيقول في أحداث سنة ١١٠٣ للميلاد: «عند اقتراب الربيع من تلك السنة استدعى الملك جميع قوات المملكة وخرج بهم محاصراً لعكا ولما لم يكن معه أسطول، فقد عجز عما أراد وعند ذلك اجتث ما حولها من بساتين الفاكهة، وفتك بطائفة من أهلها، وساق أمامه ما سلبه من قطعان الماشية، كالأنعام التي كانت ترعى خارجها، فلما فرغ من ذلك كله رفع الحصار عنها وانقلب راجعاً إلى بلده، ولما كان شهر مايو من عام ١١٠٤ من مولد المسيح، حشد بلدوين كل قوى شعبه من أدناهم إلى أرفعهم مكانة، وأسرع لحصار عكا للمرة الثانية واغتنم فرصة وصول أسطول جنوي مؤلف من سبعين مركباً مدببة يسمونها الشواني، فأرسل إليهم يدعوهم للمحاربة وتم التوصل إلى اتفاق بين الطرفين على أن يكون للجنوية على الدوام، ثلث العائد وثلث الضرائب والمكوس التي تجبى في ميناء عكا مما يفرض على الواردات التي يحملها القادمون إليها بحراً. هذا بالإضافة إلى منحهم كنيسة لهم بالمدينة، وتكون لهم السيطرة الشرعية التامة على شارع واحد من شوارعها، ويقوم الجنوية إزاء ذلك بالمساعدة الجدية في الاستيلاء على المدينة»^(٣). ولما جاء اليوم المحدد حاصر الجنوية عكا من ناحية البحر، كما ضرب الملك عليها الحصار بعسكره الذي أحاط بها حتى استحال الخروج منها أو الدخول إليها، ووضع الصليبيون حول المدينة آلات

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٤

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأنمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤٦

الحصار، كما أقاموا أبراجاً راحت ترمي المدينة بالأحجار الثقيلة التي أدى استمرار تساقطها إلى زلزلة الحصون، بل وإلى هدم بعض المباني الموجودة داخل المدينة وأصاب الأهالي إرهاب شديد من جراء القتال المستمر يراوهم به الأسطول القائم بحراسة الشواطئ ويغاديهم به جيش الملك الرابض على اليابسة، كما تضاءل عدد الأهالي بسبب الأحوال التي أهلكت الكثير من المدافعين حتى وجد أهل المدينة أنفسهم في موقف يجعل استمرارهم في الصمود في وجه الصليبيين المحاصرين لهم أمراً شاقاً. ومن ثم لم يعد ثم مناص أمامهم من الاستسلام، فاستسلمت المدينة للملك بعد عشرين يوماً من القتال^(١). وكانت شروط التسليم التي فرضت على الأهالي هي، السماح لمن يريدون ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاؤوا، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم وما ملكت أيديهم من المتاع، أما غيرهم الذين يؤثرون البقاء في دورهم ولا يحبون ترك أراضيهم التي درجوا عليها فقد حق لهم العيش بظروف ملائمة لقاء دفعهم مبلغاً معيناً للملك كل سنة^(٢).

ولم يذكر المقرئزي وأبويعلی القلانسي أن هناك اتفاقاً بين أهل عكا وبين الصليبيين، لكن حديث هذين المؤرخين عن خروج الأمير بنا الجيوشي من هذه المدينة يدل على أنه خرج بالأمان وبموجب اتفاقية مع الصليبيين. لكن من دون شك، لم يبق في عكا عربي ولا مواطن مصري واحد.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤٧

الفصل الثاني

العلاقة بين الفاطميين والصليبيين

أولاً- مرحلة السعي إلى التعاون

عندما جاء الصليبيون واستولوا على نيقية وتغلبوا على قلج أرسلان التركي ومن ثم ساروا نحو أنطاكية وفرضوا الحصار عليها، فإن أخبار هؤلاء قد وصلت إلى الخلافة الفاطمية التي استبشرت خيراً بالخلاص من العدو التركي الذي جاء من بلاد ما وراء النهر وفرض سيطرته على بلاد فارس، ومن ثم على العراق وأجزاء كبيرة من سوريا وراح يطمح للقضاء عليها. ولذلك أراد الخليفة الفاطمي التواصل مع الصليبيين ربما لعقد اتفاق معهم في المستقبل ضد الترك، وأرسل سفارة من قبله إلى القادة الصليبيين وهم على أنطاكية.

ويقول وليم أسقف صور: «إن خليفة مصر، وهو أقوى السلاطين المارقين، بسبب كثرة ما لديه من المال والرجال، كان قد أرسل رسله إلى قادتنا، وتتلخص أسباب بعثه إياهم إلى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين، وهي عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداتهم الدينية بعضها عن بعض، ومباينة مذهب الواحد منهم لمذهب الآخر، وظلت هذه الكراهية دون انقطاع حتى يومنا هذا، ومن ثم ظلت هاتان المملكتان تحارب كل منهما الأخرى حرباً لا هوادة فيها، وظلت المنافسة بينهما موصولة فكانت كل منهما تسعى إلى مد حدودها على حساب الأخرى^(١). وتأرجحت السيادة بينهما على مدى الأيام، فتكون تارة لهذه وتارة لتلك، وتكون النتيجة أن ما يزداد في رقعة إحداها ينقص مثله من أراضي الأخرى. أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر إلى اللاذقية، وتقدر بمسيرة ثلاثين يوماً، تحت حكم خليفة مصر، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس واستولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المتاخمة لحدود المملكة المصرية، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة إلى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء^(٢). ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نيقية من يد قلج أرسلان ولهزيمة جيشه فيها، وأثلج

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٠٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٠٤

صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكيا، وعدّ كل خسارة تصيب الأتراك مكسباً له، ورأى أن المصائب التي تلمّ بهم تعمل على استقرار أمنه وأمن رعاياه، وخاف أن تؤدي أهوال طول حصار الصليبيين لأنطاكيا إلى فشلهم. ولذلك بعث بسفرائه ورجال من حاشيته إلى زعماء الصليبيين يحملون إليهم رجاءه في أن يستمروا في حصارهم الذي فرضوه على أنطاكيا، وعهد إلى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة، كما حاول هؤلاء السفراء أيضاً كسب زعماء الصليبيين وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين»^(١).

ورغم أن المؤرخين المشرقين لا يتحدثون أبداً عن تلك السفارة الفاطمية إلى الصليبيين وهم على أنطاكيا، لكن عدم ذكرهم لها لا يعني أنها لم تحدث، بل ربما لم يسمعوها بها، إذ لو كانوا عرفوا بها لكانوا أشاعوها، وخصوصاً أن بعضهم كان يشنّ على الفاطميين.

وبعيداً عن هذا الأمر، فإن موقف الخلافة الفاطمية قد تغير تجاه هؤلاء الغزاة، فأصبحت تنظر إليهم كأعداء وبدأت تستعد لمواجهةهم عسكرياً خاصة بعد أن سيطروا على أنطاكيا وبدأوا ينسابون في سوريا، ويعزّزوا وليم الصوري سبب تغير الموقف الفاطمي إلى أن «الترك كانوا يمرّون، حينذاك، بظروف حرجة، فقد تزعزعت قواهم الحربية في أرجاء الشرق وتدهورت سمعتهم إلى الحضيض بعد أن كانت قد بلغت الذرى، فما حاربوا أمة من أمم الأرض إلا ودارت عليهم الدائرة، مما ترتب عليه تصاعد قوة ملك مصر شيئاً فشيئاً وعلو نجمه على نجم الترك، ومن ثم كان ذلك سبباً في ازدياد المصريين للمساعدة تأتيهم من جانب الصليبيين بعد أن كانوا حريصين كل الحرص عليها، جادّين كلّ الجدّ في طلبها»^(٢).

ثانياً - مرحلة الصراع

عندما اتضح للفاطميين الوجه الحقيقي للصليبيين وأنهم عدو جديد لهم، قرروا قتالهم، وكان المتولي على شؤون مصر، آنذاك، هو الأفضل ابن بدر الجمالي، وكان الخليفة المستعلي مستضعفاً. وتعددت مراحل القتال بين المصريين والصليبيين كما سيتم توضيحه فيما يلي:

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ١ - ص ٣٠٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٥٧

١- الأفضل يخرج على رأس جيشه لقتال الصليبيين

عندما حاصر الصليبيون القدس، قرّر الأفضل أمير الجيوش الخروج لقتالهم، فجمع الجيش وأعدّ المؤن والعدد والآلات وخرج من القاهرة نحو فلسطين. ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٤٩٢ سنة فيقول: «وصل الأفضل بالعساكر المصرية ونزل بظاهر عسقلان في رابع عشر رمضان منتظرًا وصول الأسطول في البحر، فنهض عسكر الأفرنج إليه وهجموا عليه في خلق عظيم فانهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان ودخل الأفضل إليها وتمكنت سيوف الأفرنج من المسلمين فأقى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ونهب العسكر وتوجه الأفضل في خواصه إلى مصر»^(١).

يروى المقرئزي رواية مختلفة قليلاً عن رواية القلانسي فيقول: «لما بلغ الأفضل أن الفرنج أخذوا الرملة وزحفوا إلى القدس فحاصروها، خرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجاء الفرنج عندما بلغهم مسيره إليهم في حصار المدينة، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يومًا، وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة أهل البلد، وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلأ لا يقع عليهم حصر»^(٢). ووصل الأفضل إلى عسقلان في رابع عشر من رمضان، فبعث إلى الإفرنج فوجهم على ما كان منهم، فردّوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسول فصدفوه على غزة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرًا، وانهزم منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هناك بشجر الجَمِين، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، فهلك خلق كثير وحاز الإفرنج من أموال المسلمين ما جلّ قدره، ولا يمكن لكثرة حصره، ونازلوا عسقلان وحاصروا الأفضل فيها حتى كادوا يدخلونها إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت أحواله، وذهبت أمواله وقتلت رجاله وسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب ألبتة»^(٣).

أما وليم الصوري فيقول عن هذه الواقعة: «كان الأفضل يطمع في أن يحرز النصر في يُسر على أولئك الذين كسفوا شمس مجده، ومن ثم مضى إلى بلاد الشام على رأس كل القوات التي استطاعت مصر أن تمده بها،

(١) تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٣٧

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ - ص ٢٣

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ - ص ٢٤

مجمعاً العزم على تدمير الصليبيين تدميراً تاماً، وضرب الأفضل مخيماته في السهول أمام عسقلان لتكون نقطة زحفه نحو القدس^(١). وحين بلغت هذه الأخبار الصليبيين، تجمعوا عن بكرة أبيهم، قادة وأساقفة وعامة رجال الدين، وقام الملك الصليبي جودفروي باختيار رجالاً أهل خبرة لحراسة القدس، أما هو فمضى ومعه ريموند كونت فلاندرز إلى سهول الرملة، ولما أصبح هذان الرجلان في الرملة، جاءتهما الأخبار الصحيحة تؤكد أن الأفضل قد عسكر أمام عسقلان بقواته فبادر الملك في الحال بإرسال رسول من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين في القدس في انتظار الخبر اليقين^(٢). وتضمنت رسالة الملك خبر تدفق الفاطميين بأعداد كبيرة، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم. فجمع ريموند كونت تولوز «ريموند الصنجيلي» والقادة الآخرون العساكر الذين كانوا معهم، وساروا نحو الملك الذي كان يخيم في الموضع المعروف (إبلين) واصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومئتي فارس وما يقرب من تسعة آلاف جندي من المشاة^(٣).

وأقام الجيش الصليبي في إبلين مدة يوم، وبينما هم كذلك في الليل، رأوا على البعد في السهل قوة كبيرة فظنوها العسكر الفاطمي، فأرسلوا مئتي فارس بال سلاح لاستطلاع الأمر، ولما صاروا على مقربة من الحشد تبين أنه أعداد ضخمة من الماشية والخيول والجمال. وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم، وكانوا لها شبه رعاة، فتقدم الصليبيون منهم فهربوا وتركوا الماشية فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال. ومع ذلك وقع في الأسر جماعة من الرعاة، فأخبروا الصليبيين أن أميرهم نصب معسكره في بقعة دانية لا تبعد سبعة أميال، وأنه مجمع العزم على الزحف بعد يومين لاستئصال شأفة الجيش الصليبي^(٤).

ورتب الصليبيون صفوفهم، وفي الصباح التالي نادى المنادي في الصليبيين بالنهوض للقتال، فنظموا صفوفهم وتقدموا إلى القتال، وسارت خلفهم قطعان الماشية والدواب التي غنموها، ولما رأى الفاطميون الصليبيين وجدوا أعداداً ضخمة واعتقدوا أن عددهم لا نهاية له، ولم يعلموا أن ما رأوه كان نصفه ماشية ودواباً، فلاذوا بالفرار، رغم عدم مطاردة أحد لهم، فاحتوى الصليبيون على معسكرهم، وعثروا فيه على كميات ضخمة من شتى أنواع المؤونة، وكان فرار الجيش الفاطمي قد أتاح النصر للصليبيين

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٤

من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها، ومن ثم عادوا إلى القدس مثقلين بالأسلاب والغنائم التي فاضت بها أيديهم»^(١).

وهكذا نرى أن وليم الصوري لا يتحدث عن معركة بل عن حالة فرار جماعي في العسكر الفاطمي، بعكس المؤرخين الشرقيين اللذين يتحدثان عن معركة خسرفيها الأفضل، وربما كانت رواية وليم الصوري هي الأقرب إلى الصواب، لأنه لو كان هناك معركة قد جرت وانتصر فيها الصليبيون لزد فخره ولتحدث باستفاضة عن الأمر، لكن على الأغلب لم تحدث معركة، وإنما انسحب العسكر الفاطمي من غير قتال.

٢- الأفضل يرسل سعد الدولة الطواشي

لم تؤثر تلك الهزيمة في عزيمة الأفضل أمير الجيوش، بل عاد وجهز جيشاً كبيراً لقتال الصليبيين. ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٤٩٤ فيقول: «وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف مع الأمير سعد الدولة المعروف بالقوامسي ووصل إلى عسقلان لجهاد الإفرنج في أول شهر رمضان وأقام بحيث هو إلى ذي الحجة من تلك السنة ورحل عن عسقلان ونهض إليه من الأفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل والتقى العسكران فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم وتبعوهم وبقي سعد الدولة في نضريسير من عسكره في القلب فحمل الأفرنج عليه وطلب الثبات فعاجله القضاء وكبا به جواده وسقط عنه إلى الأرض فاستشهد مكانه رحمه الله ومضى شهيداً مأجوراً، وعاد المسلمون على الأفرنج وتذا مروا عليهم وبذلوا النفوس في الكرّة عليهم فهزموهم إلى يافا وقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكانت العقبى الحسنة لهم. ولم يفقد إلا نضريسير منهم»^(٢).

ويذكر المقرئ في هذه الواقعة في تلك السنة فيقول «في شعبان جهز الأفضل عسكراً كثيفاً لغزو الفرنج، فساروا إلى عسقلان ووصلوا إليها في أول رمضان فأقاموا بها إلى ذي الحج، فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فخرج إليه المسلمون وحاربوهم، فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي مقدم العسكر في القلب، وقاتل قتالاً شديداً، فتراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيراً، وقتل كند

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية»- وليم الصوري - ج ٢ - ص ١٦٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٠

فري ملك الفرنج بالقدس فجاء أخوه بغدوين إلى القدس وملك بعده، وسار بالفرنج إلى أرسوف»^(١).

ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة لكنه يضعها في أحداث سنة ١١٩٦ فيقول: «كان الأفضل أمير الجيوش بمصر قد أنفذ مملوكاً لأبيه لقبه سعد الدولة ويُعرف بالطواشي على الشام لحرب الفرنج، فلقبهم بين الرملة ويافا ومقدم الفرنج يعرف ببغدوين، وتصافوا واقتتلوا فحملت الفرنج حملة صادقة، فانهزم المسلمون وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة، إنك تموت متردياً فكان يحذر من ركوب الخيل، حتى أنه لما ولي بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط، فقلعه خوفاً أن تنزل به فرسه أو يعثر، فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر، فلما كانت هذه الواقعة انهزم فتردى به فرسه فسقط ميتاً، وملك الفرنج خيمه وجميع ما للمسلمين»^(٢).

ويذكر أوليم أسقف صور هذه الواقعة فيقول: «وكان الخليفة الفاطمي قد أرسل جيشاً كبيراً لقتال الصليبيين، وعندما سمع الملك بلدوين غادر قيسارية التي كان قد دخلها للتو، وذهب إلى الرملة حيث أقام قرابة شهر عاد بعدها إلى يافا، فلما كان الشهر الثالث لم تستطع القوات المصرية أن تتراخي أكثر من هذا في تنفيذ أمر مولاهما، فتشجعوا واستعدوا بقواتهم، وعبأوا صفوفهم للقتال، وأغاروا غارة خاطفة على أرض الصليبيين، فلما علم بلدوين بما فعلوا أمر باستدعاء قواته، وكانت بالغة القلة، لأن صغر مساحة ما تحت يده من البلاد وقف عقبة في طريق تكوين جيش كبير العدد^(٣). لكن ذلك لم يمنعه من أن يحشد حول اللد والرملة أكبر جند أمكنه جمعهم. فبلغوا مئتين وستين فارساً وتسعمئة من العسكر المشاة، ولما اتضح أن الجيش الفاطمي أخذ في الاقتراب أمر الملك بتقسيم قواته إلى ست فرق خرج بها للقاء ذلك الجيش، واندفعوا في هجمة نكراء، وقاومهم المصريون بكل ما لديهم من طاقة بازليين الجهد كي ينتهي هجوم خصومهم بالفشل^(٤). وحدث أن التحمت مقدمة جيش الفاطميين بفريق من الصليبيين وإذا كانت هذه المقدمة أكثر عدداً من الصليبيين فإنها سرعان ما بثت الخوف في صفوفهم وأجبرتهم على الفرار، ثم راحت تتعقب الفارين تعقباً شديداً، وأوشكت على القضاء على كل الصليبيين واستئصال شأفتهم. أما بقية كتائب الصليبيين فقد قاومت أشد المقاومة وضيق الخناق على

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٦٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٤

الفاطميين، وأعملت فيهم مذبحه فظيعة يعجز اللسان عن وصفها^(١). وانقضى وقت طويل لم تتضح فيه نتيجة المعركة، ثم وابتدأت الصليبيين الفرصة، وكروا على الجيش الفاطمي، فهلك قائده إذ اختطفه السيف فمات وقد استبسل استبسالاً رائعاً، وتمزقت صفوف الفاطميين واندحرت كتابهم حتى أخرج رجل^(٢). وأمر الملك جنوده باقتفاء أثر الفاطميين. وتقول الرواية إن قرابة خمسة آلاف من الجيش الفاطمي قتلوا في ذلك الموضع، أما من الصليبيين فقتل سبعون فارساً. وكانت القوات المصرية التي في المقدمة والتي انتصرت على بعض كتائب الصليبيين، قد تابعت سيرها حتى وصلت إلى يافا، ووقفت أمامها معلنة إلى الصليبيين فيها بصوت جهوري أن الملك قد هلك ومعه الجيش الصليبي في ساحة القتال، وعند ذلك بادروا الصليبيون في يافا بإرسال كتائب إلى تانكريد أمير أنطاكية يستصرخونه أن يهبط سريعاً لنجدة المملكة الصليبية، وكان الملك قد أمضى الليلة في ساحة القتال وعندما انبلج الصبح سار نحو يافا، فوجد الجيش الفاطمي في الطريق، فقاتلهم وانتصر عليهم وقتل بعضهم والبعض الآخر لاذ بالفرار^(٣).

ومما تقدم يتضح الفرق بين الرواية الصليبية والرواية الشرقية لتلك المعركة، حيث يقول المؤرخون الشرقيون، إن الجيش الفاطمي انتصر فيها، وإن كان المقريري يشذ ولا يقول إن سعد الدولة الطواشي قد استشهد، بعكس القلانسي وابن الأثير، حيث يجعل المقريري استشهاد الطواشي في واقعة أخرى ذكرها في أحداث سنة ٤٩٦، وجعل لقاء الطواشي مع الملك بلدوين في منطقة «تُبنا»^(٤). وهذا الشيء لا يذكره القلانسي وابن الأثير ولا يذكره وليم الصوري أيضاً، ما يجعل رواية المقريري هذه غير منطقية. وتبدو رواية ابن الأثير أكثر الروايات منطقية وفيها تسلسل واضح للأحداث، لذلك نرى أنها تحاكي الواقع وهي أكثر صدقية من غيرها من الروايات الأخرى لهذه الواقعة.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية»- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية»- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٢٧

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريري - ج ٣ - ص ٣٢

٣ - الأفضل يرسل جيشاً جديداً إلى فلسطين

تابعت الخلافة الفاطمية طريقها في جهاد الصليبيين، فبعد استشهاد سعد الدولة الطواشي، أرسل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش، جيشاً بقيادة ولده شرف المعالي سماء الملك حسين لقتال الصليبيين، ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة في أحداث سنة ٤٩٦ فيقول: «أرسل الأفضل ابنه شرف المعالي في جمع كثير فالتقوا هم والفرنج بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مفلولين، فلما رأى بغدوين شدة الأمر وخاف القتل والأسر ألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه، فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة، وسار شرف المعالي بن الأفضل من المعركة، ونزل على قصر بالرملة وبه سبعمائة من أعيان الفرنج وفيهم بغدوين فخرج متخفياً إلى يافا وقاتل ابن الأفضل من بقي خمسة عشر يوماً ثم أخذها فقتل منهم أربعمائة صبراً وأسرى ثلاثمائة إلى مصر^(١). ثم اختلف أصحابه في مقصدهم فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة البيت المقدس فندبهم بغدوين للغزو معه فساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالي، فلم يكن يقوى بحربهم فلفظ الله تعالى بالمسلمين فرأى الفرنج البحرية حصانة عسقلان وخافوا البيات فرحلوا إلى يافا، وعاد ولد الأفضل إلى أبيه فسير رجلاً يقال له تاج العجم في البر وهو من أكبر مماليك أبيه وجهز معه أربعة آلاف فارس، وسيّر في البحر رجلاً يقال له القاضي ابن قادوس في الأسطول على يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس إليه ليتفقا على حرب الفرنج، فقال تاج العجم، ما يمكنني أن أنزل إليك إلا بأمر الأفضل ولم يحضر عنده ولا أعانه فأرسل القادوسي إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأت به ولا أرسل رجلاً. فلما وقف الأفضل على الحال أرسل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلاً لقبه جمال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العساكر الشامية»^(٢).

ويذكر أبو علي القلانسي في أحداث سنة ٤٩٥ فيقول: «وفي هذه السنة خرجت العساكر المصرية من مصر لإنجاد ولاية الساحل في الثغور الباقية في أيديهم على منازلهم من أحزاب الإفرنج ووصلت إلى عسقلان في رجب ولما عرف بغدوين قمص بيت المقدس بوصولهم نهض نحوهم في جمعه

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٦٨

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد ٩ - ص ٦٨

من الإفرنج في تقدير سبعمئة فارس وراجل اختارهم فهجم بهم على العسكر المصري فنصره الله على حزيه المفلول وقتلوا أكثر خيله ورجالته فانهزم إلى الرملة في ثلاثة نفر وتبعوه وأحاطوا به فتكروا وخرج على غفلة منهم وقصد يافا وأفلت منهم، فكان قد اختفى في أجمة قصب حيث تبع وأحرقت تلك الأجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها وحصل بيافا فوق السيف بأصحابه وقتل وأسر من ظفربه في الرملة من رجاله وأبطاله وحملوا إلى مصر في آخر رجب من السنة^(١).

ويثبت هذه المعركة وليم الصوري لكنه لا يتحدث عن خروج جيش فاطمي جديد من مصر بل يقول: «انضم أهل عسقلان بعساكرهم إلى المصريين الذين نجوا من المعركة التي حدثت قبل فترة، وراحوا يهاجمون معًا أملاكنا في ناحية اللد، وسورونا، والرملة، ويقال، إن مقاتليهم كانوا يناهزون العشرين ألفًا، فلما وصل هذا النبأ إلى الملك نسي حذره المعتاد ولم يترث حتى تتجمع باقي القوات القادمة من المدن المجاورة، كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه في المدينة، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها، وركب جواده واندفع متهورًا عجلًا غير مستصحب معه إلا ما يقرب من مئتي فارس، ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لا بد لاحقهم إن ظلوا مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا إخوانهم ما يقومون به، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقاربهم، وتبعوا مولا هم الملك. على أن بلدوين سبق الآخرين وخرج مسرعًا دون أن يأخذ للأمر أهبطه، لكنه حين أبصر كتائب العدو تعجب من كثرتها وبدأ يأسى ويندم على تعجله في الخروج. ورتب الأعداء كتائبهم للقتال، وشنوا هجومًا عامًا على قوات الملك، فاستولى الفرع على عسكرنا من ضخامة أعداد العدو وهجمتهم العاتية، فلم تطق قواتنا احتمال وطأة المعركة وتهافتت على الفرار بعد أن فقدت رجالًا كثيرين منهم، ستيفن كونت شارتريز، وستيفن كونت برجندي، مع غيرهم من النبلاء الكثيرين^(٢). وحينما رأى الملك أنه قد أحيط به من كل جانب من قبل عسكر العدو، انسحب هو ونفر معه إلى القلعة تجنبًا لخطر الموت المائل أمامهم، ومع ذلك لم يكن مطمئنًا تمام الاطمئنان إلى قوة دفاع المكان، ولذلك ظل يقظًا طول ليلته يرمضه الجزع على حياته والخوف على سلامته، لكن حدث أن ذلك الشيخ النبيل الذي أحسن الملك قبل قليل إلى زوجته، غادر معسكر العدو تحت جناح الظلام ووقف أمام القلعة ودنا من الحراس الواقفين أمام الأبواب، وقال لهم: إن عندي رسالة يجب أن أبلغها للملك في سرية تامة،

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣١

فأمضوا بي إلى حضرتي، فجيء به وراح يغريه بمصاحبتة في اللحظة إلى موضع آمن، فرضخ بلدوين وقيل أن يفرّ ومعه نفر قليل. فاصطحبهم إلى ناحية جبلية وتركهم، ولحق هو بجيش العدو»^(١).*

أما الجيش المصري فقد أحاط بالقلعة من كل جانب وكروا كرة ضارية على من اعتصم بها من الهاريين، واستولوا على الموضع قسراً، وفعلوا بالأسرى ما أرادوا ففتكوا ببعضهم، وكبلوا البعض الآخر بالقيود، فارضين عليهم رقاً لا فكاك لهم منه أبداً»^(٢).

وتبدو رواية وليم الصوري حول هذه المعركة وفرار الملك منها، مختلفة عن رواية ابن الأثير والقلانسي، وتبدو رواية هذين الراويين أقرب إلى الصحة من رواية الصوري، وخاصة فيما يتعلق بفرار الملك إلى يافا، ذلك أن رواية الصوري حول هذا الأمر تبدو من نسج الخيال، وقد يكون هو سمعها من ناقلٍ الأخبار فأثبتها كما هي من غير تمحيص ونقد مع ما فيها من عناصر غريبة وغير منطقية، ولا سيما قصة ذلك العربي الذي يقول عنه وليم الصوري إنه يسكن في الصحراء شرقي الأردن، لكننا نراه الآن جندياً في الجيش المصري، وأيضاً كيف استطاع هذا العربي التسلّل من الجيش والذهاب إلى ملاقاته بلدوين، بينما كانت القلعة الموجودة فيها محاصرة من جميع الجهات، وكيف استطاع تهريبه دون أن ينتبه إليه أحد؟

إن كل ذلك يؤكد أن رواية وليم الصوري هذه مختلفة، لكن هذا المؤرخ يؤكد أن الصليبيين خسروا الكثير في تلك المعركة فيقول: «لم يكن في تاريخ

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣٣
* يقول وليم الصوري: «جمع الملك «بلدوين» سرّاً طائفة كبيرة من الجنود، واجتاز بهم الأردن ودخل أرض العرب، وأوغل الكونت حتى وصل إلى الصحراء التي اعتاد هؤلاء القوم على العيش بها، وجاء إلى موضع دلتة عليه عيونه، ففاجأهم بالإغارة عليهم متسربلاً بظلام الليل، فأمسك بلدوين بعضاً من رجالهم وسبى جميع نساءهم، واسترق أطفالهم. واستحوذ على كل ما ملكته أيديهم، ثم تابع الصليبيون السير في طريق العودة، دافعين أمامهم ما غنموه من القطعان، ساحبين وراءهم الأسرى، وحدث أن كان بين الأسرى امرأة عظيمة القدر هي زوجة أحد كبار شيوخهم الأقوياء وقد أسرت في الكارثة العامة، ثم جاءها المخاض في أثناء السير ووضعت مولودها، فلما أفضوا بخيرها إلى الملك أمر في الحال أن ينزلوها من فوق البعير الذي كانت تركبه، وأن يعدوا لها فراشاً مما غنموه، وزودوها بالطعام وبروايين من الجلد مملوءين بالماء، ثم خصص لها وصيفة تقوم بخدمتها لتلبية حاجتها، وناقبتين تعيش على لبنهما، ثم دثرها الكونت في عباة وخلفها حيث هي، وتابع هو زحفه في جيشه. وفي هذا اليوم بالذات ظهر الشيخ العربي الكبير، يتبعه رهط ضخّم من رجال عشيرته، يقص عن قرب أثر الجيش الصليبي، وكان الأسرى قد بلغ منه غايته، وغمه أشد الغم سبي زوجته الشريفة وأم أولاده وهي على وشك الوضع، وظل يمشي حتى وصل إليها فجأة فراها مسجاة على الأرض، فلما وقع بصره عليها أخذه العجب من تلك الروح الانسانية العظيمة التي حاطها بها الملك، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيّاً على رحمة بلدوين - الأعمال التي تمت وراء البحار - ج ٢ - ص ٢١٢، وهذا الشيخ، هو الذي خلص بلدوين أثناء حصاره، كما يقول وليم الصوري، وتبدو كل هذه القصة مختلفة، لكن عن أية رحمة وعن أية روح انسانية عظيمة يتحدث وليم الصوري؟

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣٣

حوليات المملكة مجزرة كهذه المجزرة المروعة وهلك فيها رجال شجعان كهؤلاء الرجال فتضعضت روح المملكة المعنوية وفارقت الجميع شجاعته وتفطرت قلوب العقلاء منهم وسقطوا في هوة عميقة من اليأس حتى كادوا أن يغادروا المملكة لولا أن تداركتهم رحمة انصبت عليهم من فوقهم»^(١). وهذا الكلام يدل على مدى الخسارة الهائلة التي مني بها الصليبيون في تلك المعركة أمام الجيش المصري. وقطعاً كان القتلى بالآلاف، وصحيح أن وليم الصوري يقول، إن الملك اصطحب معه قلّة من الرجال، لكن لحقه، بعد ذلك، من كان موجوداً في القدس إلى ساحة القتال، وهناك لقي معظم هؤلاء حتفهم. وفرّ الملك مذعوراً مخذولاً إلى يافا.

ويكمل وليم الصوري الرواية حول تلك المعركة فيقول: «وبعد أن ظل الملك طوال ليلته مستخفياً في الأماكن الموحشة، انطلق في الصباح وسلك دروباً متعرجة وسط إقليم يغشاه العدو من كل ناحية، فأوصله المسير في النهاية إلى مدينة أرسوف وبعد أن أكل فيها وشرب استعاد نشاطه، لأنه كاد يغمى عليه من شدة الجوع والظمأ. وخرج بعد ذلك من أرسوف مستقلاً إحدى السفن إلى يافا، وكان «هيج سنت أوامير» صاحب طبرية قد وصل إلى أرسوف ومعه ثمانون فارساً، فما كاد بلدوين يعلم ذلك حتى سار للقاءه، مستصحباً معه كل العسكر الذين كانوا في يافا. ولما التقى القائدان الصليبيان ضم كل منهما عسكره إلى عسكر رفيقه وعادوا إلى يافا، وسرعان ما أنفذ الرسل يلتمسون النجدة من سكان المناطق الجبلية الذين بادروا فجمعوا من وصل إلى أرسوف من العسكر في أيام قلائل ولكنهم اضطروا لسلوك طريق ملتو، لأن العدو كان يسيطر تماماً على المناطق الداخلية، ووصلوا في النهاية إلى يافا، وترتب على وصول هذه الإمدادات أن انبعث الأمل من جديد في فؤاد الملك، وكان عسكر العدو قريباً منه كل القرب، وكانوا قد انهكموا بنسج أكسية من الحبال وصنع السلالم وشتى أنواع الآلات من المواد التي انتقوها لهذا العمل، ودبروا أن يدمروا يافا ويلقوا القبض على الملك وجميع من فيها ويأخذوهم كأخطاء العبيد، لكن بينما كانوا منصرفين إلى ما هم فيه من العمل إذا بالملك يطلع عليهم بجيشه على حين غفلة، فأدركوا خطأ ظنهم في هزيمة خصمهم، فهبوا سراعاً إلى سلاحهم يحملونه وتأهبوا لمنازلة الصليبيين، لكن هؤلاء كانوا أسرع منهم فشتتوا صفوفهم وقتلوا بعضهم وفرّ الباقي، وعاد الملك إلى يافا وأقامت المملكة ما يقرب من سبعة أشهر في هدوء لا يعكر

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣٣

صفاءه معكر»^(١).

ولا يروي أبويعلی القلانسي هذه الرواية، فربما لم يسمع بها، لكنها تبدو منطقية لأن العسكر المصري الذي كان قد وصل إلى يافا كان من المفترض به أن يأخذ هذه المدينة، لكنه لم يفعل ما يدل على تقهره من جديد أمام الجيش الصليبي.

٤- شرف المعالي يتجه بجيش جديد إلى فلسطين

لم يتوقف المصريون عن إرسال الجيوش لقتال الصليبيين في فلسطين، ويذكر أبويعلی القلانسي في أحداث سنة ٤٩٨ فيقول: «وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل مع الأمير شرف المعالي ولد الأفضل أمير الجيوش، وكتب ظهير الدين والي دمشق بالاستدعاء للمعونة والاعتضاد إلى جهاد الكفرة الأضداد فلم يتمكن من الإجابة إلى المراد لأسباب عاقته عن المعونة والإسعاد، وتوجه في العسكر إلى بصرى فنزل عليها عازماً على مضايقتها وفيها الملك أرتاش بن تاج الدولة تتش وايتكن الحلبي، ثم استدرك الرأي واستصوب السير إلى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد فسار إليه ووصل إلى ظاهر عسقلان ونزل قريباً منه، وعرف الأفرنج فتجمعوا وقصدوا عسقلان والتقى الفريقان في رابع عشر ذي الحجة من السنة بين يافا وعسقلان، فاستظهر الأفرنج على المسلمين وقتلوا والي عسقلان وأسروا بعض المقدمين وانهزم عسكر مصر إلى عسقلان وعسكر دمشق إلى بصرى، وقيل إن الذين قتلوا من المسلمين بإزاء الذين قتلوا من المشركين كانوا متقاربين»^(٢).

ويتحدث المقريزي عن هذه المعركة ويقدم رواية مختلفة قليلاً عن رواية القلانسي فيقول: «وفيها، أي سنة ٤٩٨، جمع الأفضل جموعاً كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالاً عظيمة وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي، وكتب إلى ظهير الدين أتابك، صاحب دمشق بمعاونته ومعاوضته على محاربة الفرنج، فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى، فإن أرتاش بن تاج الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطمعهم في البلاد، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهز عسكراً إلى شرف المعالي تقوية له على الفرنج، وقدم عليه إصبهذ صبا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري ج ٢ - ص ٢٣٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلی القلانسي - ص ١٤٩ء

وجهارتكين، وعدته ألف وثلاثمئة فارس من الأتراك، وعدة عسكر مصر خمسة آلاف فارس، وأتاهم بغدوين في ألف وثلاثمئة فارس وثمانية آلاف راجل، فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان. ودارت بينهم وبين الفرنج حروب كان ابتداؤها في الرابع عشر من ذي الحجة ما بين عسقلان ويافا. فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين منهم جمال الملك صنيع الإسلام والي عسقلان، وأخذ الفرنج رايته وأسر الفرنج زهر الدولة بنا الجيوشي. وقتل ألف ومئتان من الفرنج، ورجعوا وقد كانت الكرة لهم على المسلمين»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول في أحداث سنة ١١٠٣ للميلاد: «وحدث في هذه السنة أن جاء إلى خليفة مصر نفر من كبار رجالات دولته وقالوا له: إن هذا الرهط من الحجاج الذين هاجموا أخيراً مملكتك بالقوة وكانوا غير عابئين بالحياة، قد نجحوا في الثبات في وجه قوادك الذين أرسلتهم ضدهم، وكان انتصارهم في هذا الهجوم بسبب اعتمادهم على الأعداد الكثيرة من جيوشهم الأولى التي جاءت إلى الشرق. أما الآن فقد عاد معظم هؤلاء إلى أوطانهم مما تضاعف معه عدد البقية الباقية منهم تضاعفاً كبيراً، كما انقطع عن هؤلاء ترادف الإمدادات عليهم من (الحجاج)». وأدت الهجمات المتعددة عليهم إلى إنهاكهم غاية الإنهاك، ومن ثم فالرأي عندنا أن الفرصة مواتية لنا إن أذنتم يا مولانا باختيار قائد من كبار رجالكم تبعثونه لتخليص البلاد التي هي الآن في قبضة ذلك الشعب المنكود»^(٢).

ويقول وليم الصوري. «إن هذه الكلمات وافقت هوى في نفس الخليفة واستصوبها، فأمر بجمع عسكر كثير، وتهيئة أسطول ضخم وجعل على كل جيش من الجيوش قواداً مختارين وأرسلهم إلى بلاد الشام. فبث وصولهم إلى عسقلان الفزع في كل الإقليم، وعندما وصلت أخبار هذه الحملة إلى سمع الملك بلدوين بادر بالزحف إلى يافا على رأس جيش المملكة بأجمعه، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوماً واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع في يافا دون تلكؤ فاستجابوا له سريعاً، كما جاء من غيرهم (ابريما) بطرك بيت المقدس، حاملاً معه الصليب. وما كاد جيش العدو البري يخرج من عسقلان حتى صدرت الأوامر إلى الأسطول بالإبحار إلى يافا، فزحف العسكر البري إلى أسدود حيث انقسموا إلى قسمين، تقدم أحدهما نحو الرملة يتحدى الملك أن يخرج للقتال، على حين مضى القسم الثاني إلى يافا، وبينما كان الملك

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلقا - أحمد - بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٦٢

مشغولاً بالقسم الأول كان القسم الثاني يتقدم لمهاجمة يافا بعد أن استدعى لمساعدته القوات التي كانت قد جاءت بحراً، ومن ثم فقد دخل القسم الأول منطقة الرملة يتقدمه النفخ في الأبواق وقرع الطبول. وقد عمدوا إلى هذا الأمر لغرض معين هو أن يتقدم الجيش الآخر الذي يسير على الساحل فيصل سالمًا إلى يافا في الوقت الذي يكون القسم الأول من الجيش يغري الملك وقواته على مهاجمته. ولكن فشلت هذه الخطة بعد أن التحم الملك في معركة معهم، مما دفعهم إلى استدعاء الفريق الآخر لمساعدتهم. لكن لم تفدهم هذه الإمدادات، لأن الصليبيين ضغطوا عليهم ضغطًا شديدًا. ومضى بغدوين يشجع رجاله بالقول والعمل فتزايد بأسهم وأخذ البطرك يسير بين الصفوف حاملاً الصليب ومقويًا عزيمة المحاربين. فامتلات نفوس الصليبيين حيوية وشجاعة ونجحوا في قتل عدد كبير منهم، وأرغموا الباقين على الفرار وقتل في هذا الاشتباك حاكم عسقلان. أما القائد العام للجيش فقد هرب فنجاً، ويقال، إن عدد قتلى الخصم بلغوا حوالي أربعة آلاف شخص. أما رجالنا فلم يهلك منهم سوى ستين»^(١).

ورغم أن هذه الرواية متشابهة مع الرواية الشرقية في أن الهزيمة قد لحقت بالجيش المصري، لكنها تختلف بخصوص أن الرواية الشرقية ذكرت أن عدد القتلى كان متقارباً في حين أن وليم الصوري يكثر عدد قتلى الجيش المصري ويقلل من عدد قتلى الجيش الصليبي. وأيضاً فإن وليم الصوري ذكر في المقدمة رواية تبدو، على الأغلب، من نسج خياله، لأن الرواية العربية تخلو منها، فمن أين وصلته الأنباء عن ذلك الرهط الذين جاؤوا إلى الخليفة وأخبروه عن حال الصليبيين، فلا شك أن الصوري ذكر هذه الرواية من أجل أن يظهر أن الصليبيين كانوا في قلة قليلة ومع ذلك انتصروا على ذلك الجيش المصري الكبير. وفي الواقع أنهم كانوا آنذاك في أوج قوتهم واندفاعهم وكان هناك عشرات الآلاف منهم في بلاد فلسطين وعموم الساحل.

لكن ما يلفت الانتباه في الروايتين العربية والصليبية هو أن الجيش المصري كان مصراً على بلوغ يافا وليس القدس مع أن هذه الأخيرة كانت عاصمة المملكة الصليبية. وفي الواقع كانت يافا هي الميناء الوحيد آنذاك الذي يستعمله الصليبيون في ذهابهم إلى أوروبا وفي مجيئهم منها إلى فلسطين، ولذلك كان المصريون يريدون السيطرة على هذا الميناء ليمنعوا تدفق المزيد من الصليبيين، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم هذا رغم أنهم قاتلوا بشراسة دفاعاً عن الوجود العربي في هذه المنطقة.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية»- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٦٤

٥- بلدوين يغزو مصر

توقفت الحملات المصرية بعد تلك الحملة الفاشلة، وانشغلت الخلافة الفاطمية في شؤون مصر الداخلية، فانتعش الصليبيون وقويت عزيمتهم على العدوان والشر، وقرر الملك بلدوين مهاجمة أرض مصر ومحاولة تثبيت وجود صليبي فيها. ويروي وليم الصوري في أحداث سنة ١١٠٨ للميلاد، ٥١١ للهجرة، فيقول: «في تلك السنة، مضى بلدوين إلى مصر على رأس جيش كبير انتقاماً من المصريين لكثرة ما أنزلوه به من المصائب وشن غارة عنيفة استولى فيها على مدينة الفرما على شاطئ البحر على مقربة من دمياط، وهناك مرض من أكلة سمك، كما عاوده الألم من جرح قديم كان به وتفاقمت العلة به، وبلغ من الضعف حدًا عجز معه عن الركوب فحمله جنده على محفة وعادوا به إلى فلسطين، فمات في العريش. فدفنوه إلى جوار أخيه جودفروي في الموضع المسمى بالجلجلة أسفل موضع الصلب المعروف باسم كالفاري»^(١).

ويذكر المقرئ في هذه الرواية في أحداث سنة ٥١١ فيقول: «وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة ومساجدها وقتل بها رجلاً مقعداً وابنة له ذبحها على صدره، ورحل وهو مثخن مرضاً، فمات قبل العريش، فشق بطنه ورمي ما فيه هناك، فهو يرجم إلى اليوم، ويعرف مكانه بسبخة بردويل، ودفنت رمتة بقمامة* من القدس»^(٢).

وهكذا يتوافق المقرئ في الرواية مع الراوي الصليبي، فالروايتان تخلوان تقريباً من ذكر قتلى في الفرما من جراء غارة بلدوين وكأن الناس خرجوا منها عندما علموا بمجيئه، ولا يذكر المقرئ سوى قتيلا واحد هو رجل مقعد مع ابنة له، كما تخلو الروايتان من ذكر أية مقاومة لتلك الغارة وهذا يدل أنها حدثت على حين غفلة من المصريين.

٦- متابعة قتال الصليبيين

لم تفت تلك الغارة في عضد الفاطميين، ولم تجبرهم على الاستسلام لهؤلاء الغزاة، بل ظلوا يرسلون الجيوش إلى عسقلان، وحتى بعد سقوط هذه

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) وليم الصوري - ج ٢ ص ٣٣٠

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٥٦

* قمامة: هي كنيسة القيامة، وأطلق عليها المؤرخون الشرقيون اسم «قمامة» بسبب عدم اعتراف المسلمين بصلب المسيح وقيامته من بين الأموات.

المدينة سنة ٥٤٨ ووصول الخطر الصليبي إلى حدود مصر، فإن الفاطميين ظلوا على موقفهم الرافض للاعتراف بوجود هؤلاء أو إقامة علاقة معهم. ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٥٠ فيقول: «وفي أيام من شعبان من السنة ورد الخبر من ناحية مصر بأن المنتصب في الوزارة فارس الإسلام طلائع بن رزيك لما استقام له الأمر عزم على مصالحة الأفرنج وموادعتهم واستكفاف شرهم ومصانعتهم بمال يحمل إليهم من الخزانة وما يفرض على إقطاع المقدمين من الأجناد، فحين شاورهم في ذلك (أي المقدمين والأجناد) رفضوه ونفروا منه وعزموا على عزله والاستبدال به من يرتضون به، وجهاز مقدمو الأجناد أسطولاً بقيادة ضابط شديد البأس بصيراً بأشغال البحر، واختار هذا القائد جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الأفرنج وألبسهم لباس الأفرنج وأنهضهم في عدة من مراكب أسطولية وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالهما ثم قصد ميناء صور، وقد ذكر له أن فيه شخورة رومية كبيرة فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر فهجم عليها وملكها وقتل من فيها واستولى على ما حوته وأقام ثلاثة أيام ثم أحرقها وعاد عنها في البحر فظفر بمراكب حجاج الأفرنج فقتل وأسروا وانهب وعاد منكفئاً إلى مصر بالغنائم والأسرى»^(١).

ويذكر المقرئ هذه الغزوة فيقول في أحداث سنة ٥٥٠: «وفيها مضى الأسطول إلى ميناء صور فملكها وأخربها وأحرقها، وعاد مظفراً بعدة مراكب فيها حجاج من النصارى وغيرهم، وبعدة كبيرة من الأسرى وبغنائم جزيلة»^(٢).

وانعقدت بعد ذلك الهدنة بين الصليبيين وبين الوزير الصالح طلائع بن رزيك لمدة سنة انتهت في سنة ٥٥٢، حيث يذكر المقرئ في أحداث تلك السنة فيقول: «وفيها كان انفساخ الهدنة بين الأفرنج والمصريين، فشرع الصالح في النفقة على العساكر وعربان البلاد للإغارة على بلاد الأفرنج، فأخرج سرية في سابع عشر جمادى الأولى ثم سارت إلى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت مظفرة غانمة، ثم ندب سرية ثالثة فمضت إلى الشريعة فأبليت بلاء حسناً وعادت مؤيدة، وسير المراكب الحربية فانتهدت إلى بيروت وأوقعت بمراكب الأفرنج وأسرت منهم وغنمت، وسير عسكراً في البر إلى بلاد الشوبك فعاثوا فيها وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب ومعهم كثير من الأسرى، ثم سير الأسطول في رمضان، وجهاز سرية فأغارت على بلاد

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٣٢

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٢٤

الفرنج وعادت بالغنائم في رمضان، ثم بدأت سرية في أول ذي القعدة وأردفها بأخرى في خامسه فوصلت غاراتهم إلى أعمال دمشق وعادوا غانمين»^(١). وتوالت غارات المصريين في سنة ٥٥٣، فيذكر أبو يعلى القلانسي أنه «في أوائل ربيع الأول من تلك السنة ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها وخرج إليها من كان بها من الأفرنج الملاعين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير وغنموا ما ظفروا وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحنة بالأفرنج وقتل وأسروا منهم العدد الكثير والجم الغفير وحازوا من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعادوا ظافراً غانماً»^(٢).

ويذكر المقرئ في هذه الواقعة فيقول: «في المحرم جهز الصالح أربعة آلاف وأمر عليهم شمس الخلافة أبا الأشبال ضرغاماً للغارة على بلاد الفرنج، فساروا في صفر إلى تل العجول بالقرب من عسقلان وغزة وحاربوا الفرنج في النصف منه، فانهزموا من المسلمين هزيمة قبيحة عليهم، وسيّر عسكراً آخر في شعبان، فواقعوا الفرنج على العريش وعادوا ظافرين بعدة غنائم ما بين خيول وأموال، كما سار الأسطول في يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر إلى بلاد الفرنج وعاد وقد امتلأت أيدي الغزاة بالغنائم. كما سار عسكر إلى القدس فخرّب وعاد بالغنائم. وورد الخبر بوقعة كانت على طبريا كسرها فيها الفرنج وانهزموا فأخذ الصالح في النفقة على طوائف العسكر، وكان جملة ما أنفق فيها مئة ألف دينار، فلما تكامل تجهيزهم سيّر خمس شوان (مراكب حربية) في الخامس من شعبان، فتوجهت لسواحل الشام، وظفرت بمراكب من الفرنج وعادت بكثير من الغنائم والأسرى في الثاني من رمضان، وخرج العسكر في البر وقد ورد الخبر بحركة متملك العريش يريد الإغارة على أطراف البلاد، فلما بلغه سير العسكر لم يتحرك ورجع العسكر»^(٣).

٧ - إعاقة الفاطميين على الجهاد

لم يكتف الفاطميون بالقيام بغزو الصليبيين بل أعانوا على غزاتهم، وقدموا أموالاً لأعدائهم الترك لقتال أعداء الدين. ويتحدث المقرئ عن ذلك فيقول في أحداث سنة ٥٥٢، « وفيها جهز الأمر المنتضى بن مسافر الغنوي

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٥١

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٤

بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته، فرجع بما معه إلى الأمر»^(١).

والبرسقي هذا كان من أبرز القادة السلاجقة وكان حرباً على الدولة الفاطمية. ومع ذلك فقد أرسل له الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله خلعة ثمينية، ومعها ثلاثون ألف دينار، وهو مبلغ ضخم فقط لأنه كان يساهم في قتال الصليبيين في سوريا. ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٥٢ فيقول: «وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول توجه زين الحجاج، كثر الله سلامته، إلى ناحية مصر رسولاً من المولى نور الدين لإيصال ما صحبه من المطالعات إلى صاحب الأمر فيها وصحبته أيضاً الرسول الواصل منها»^(٢).

ويذكر المقرئ هذه الواقعة فيقول: «وفيها (٥٥٢) قدم رسول نور الدين محمود صاحب دمشق»^(٣)، وقد أقام هذا الرسول في مصر إلى ٥٥٣، حيث يقول المقرئ في أحداث هذه السنة: «وجّه رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ومعه هدية فيها من الأسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون ألف دينار، ومن العين ما مبلغه سبعون ألف دينار تقوية له على جهاد الفرنج»^(٤)، وكتب (أي محمود بن زنكي) إلى الصالح طلائع بن رزيق كتاباً ضمنه قصيدة يحرضه فيها على قتال الفرنج، فوصلت إليه في ساس عشر من شهر رمضان، ولبس نور الدين خلعة الملك الصالح طلائع^(٥). وانقضت السنة في تجهيز العساكر في البر والبحر ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة منهم أخو القمص صاحب قبرص، فأكرمه الصالح وبعث به إلى ملك القسطنطينية، وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدي بها»^(٦).

وتوالى تعاون الفاطميين مع محمود بن زنكي، ويذكر المقرئ في أحداث سنة ٥٥٤ فيقول: «وقدم رسول نور الدين يخبر بأنه متوجه نحو بلاد الفرنج، وأشار بإخراج عسكر نحوهم، فخرجت سرية إلى غزة. وعاد رسول نور الدين وهو الحاجب محمود المسترشدي، وصحبته الأمير عز الدين أبو الفضل غسان بن محمد بن جلب راغب الأمري، وكانا قد توجهتا إلى نور الدين في السنة الخالية وخرجا من دمشق في نصف صفر، فندب الصالح العساكر

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ١١٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٣٨

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٠

(٤) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٤

(٥) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٤

(٦) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٤

للإغارة، وأنفق في ستة آلاف وخمسمئة فارس، فساروا في سادس جمادى الأولى، وتوجه الأسطول في البحر، وذلك أن ملك القسطنطينية أراد غزو بلاد ابن لاون (صاحب أرمينية) فبعث يعلم نور الدين بذلك فكتب نور الدين يستنجد الملك الصالح على الفرخ، فأنجده بذلك، وفي سلخ جمادى الآخرة عاد العسكر غانماً^(١).

لكن في الوقت الذي كان يجهد فيه الفاطميون في مساعدة نور الدين، كان هو يفكر في كيفية القضاء عليهم واستئصالهم من مصر.

٨ - سقوط طرابلس

كانت طرابلس قد أصبحت مدينة ذات أهمية كبيرة للدولة الفاطمية بعد أن أصبحت مرفأً رئيسياً على الساحل السوري للنقل البحري بين مصر ومدن سوريا الداخلية، وكان سكان هذه المدينة شيعة، ولعل سبب تشيعهم هو الدولة الحمدانية ومن بعدها الدولة الكلاية في حلب، واللذان بسطتا نفوذهما إلى تلك النواحي، وقد زار هذه المدينة الرحالة الفارسي ناصر خسرو، سنة ٤٣٨. ووصفها وصفاً جميلاً حيث يقول: «ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواجه السور، أما الجانب المطل على اليابس فيه فندق عظيم عليه باب حديدي محكم، وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الصخر المصقول عليها شرفات من الحجر نفسه، وعلى قممتها عرادات لوقايتها من الروم، فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن، ومساحة المدينة ألف ذراع مربع، وأربطتها أربع وخمس طبقات، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً، وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين. وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه، بل أحسن منه مئة مرة^(٢). وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين. وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فوارة من النحاس الأصفر، وفي السوق مشرعة (ساقية ماء) ذات خمسة صناير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض ويصرف في البحر^(٣). ويقال، إن بها عشرين ألف رجل ويتبعها كثير من السواد (المساحات المزروعة) والقرى، ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه^(٤). وهي

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٣٦

(٢) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٨

(٣) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٨

(٤) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٨

تابعة لسلطان مصر، قيل وسبب ذلك أنه في زمن ما أغار عليها جيش الروم الكفار فحاربه جند سلطان مصر وقهره، فرفع السلطان الخراج عنها وأقام بها جيشاً من قبله، على رأسه قائد لحمايتها من العدو^(١). وتحصل المكوس بهذه المدينة، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان، فيدفع منه أرزاق الجند، وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة^(٢). وسكان طرابلس كلهم شيعة، وقد شيد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد، وهناك بيوت على مثال الأربطة، ولكنها لا يسكنها أحد وتسمى مشاهد، ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً، عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مرّ ذكرها^(٣).

ومن هذا النص يتضح أن طرابلس كانت مدينة عظيمة وميناءً كبيراً تذهب منها السفن للتجارة باتجاه بلاد أوروبا والمغرب ولم يكن بها والياً في تلك الأثناء، بل كانت تابعة للخليفة الفاطمي مباشرة وكان فيها حامية وعليها قائد للدفاع عنها، وكما يتضح من هذا النص أن عدد سكان طرابلس لم يكن يقل عن سبعين ألف نسمة، لأن ناصر خسرو يقول: إن في المدينة عشرين ألف رجل، فإذا أضيف إلى هؤلاء النساء والشيوخ والأطفال، فإن العدد سيتضاعف كثيراً.

وأيضاً يتضح من النص أن طرابلس كان بها أربطة (مراصد) من أربع وخمس وست طبقات، كما كان بها مشاهد (قُبب) مثل مشهد علي، ومشهد الحسن، ومشهد الحسين، وهذه المشاهد كانت معروفة كثيراً في الدولة المصرية آنذاك.

وفي عهد الخليفة العزيز بالله استطاع أبو محمد الحسن بن عمار شيخ كتامة وسيدها أن يصبح أمير الدولة وأجلّ كتاب الخليفة، وتوفي الخليفة العزيز بعد أن أوصى لولده أبي علي المنصور الحاكم بأمر الله، وكان عمره عشر سنوات، وجعل تدبير أمره إلى برجوان الخادم مربيّه وحاضنه وعهد إليه أمر الحرم والقصور لثقة العزيز به وسكونه إليه ووصّى إليه بما اعتمد فيه عليه^(٤). وتقدم أبو محمد الحسن بن عمار شيخ كتامة واستولى على الأمر وبسط يده في الإطلاق والعطاء والصلوات بالأموال، وكان في القصر عشرة آلاف جارية وخادم فباع منهم من اختار البيع وأعتق من سأل العتق ووهب من الجوّاري لمن أحب وانبسطت كتامة وتسلطوا على العامة، وغلب الحسن بن عمار على الملك وكتامة على الأمور، وهمّ الحسن بقتل الحاكم وحمله على ذلك شيوخ أصحابه وقالوا له: «لا حاجة لنا إلى إمام نقيمه وتعبّد له». فحمله صغرسنه والاستهانة بأمره على إقلال الفكر فيه،

(١) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٨

(٢) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٨

(٣) سفرنامه - ناصر خسرو - ص ٥٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٤٤

وإن قال لمن أشار عليه بقتله: «وما قدر هذه الوزغة حتى يكون منها ما نخاف»^(١). وبرجوان في أثناء ذلك يحرس الحاكم ويلزمه ويمنعه من الركوب ولا يفسح له في مفارقة الدور والقصور، وكان شكر العضدي قد اتفق مع برجوان وعاضده الرأي والفعل وصارا على كلمة سواء وتظاهرا على حفظ الحاكم إلى أن تمت السلامة لهما فيه^(٢). ومن ثم استطاع برجوان أن يقضي على شوكة الحسن بن عمار وأن ينهي تمرده واستقام الأمر للحاكم وأخذ له برجوان البيعة من الجند والقواد فما اختلف عليه أحد وكتب الأمانات لوجه كتامة وقواد الدولة وراسلهم بما تطيب به نفوسهم^(٣). وظل لبني عمار شأن في الدولة، وعند وفاة الحاكم وولاية الظاهر كان رئيس الرؤساء خطير الملك أبو الحسين عمار بن محمد بن عمار وزيراً^(٤). وفي عهد خطير الملك تم تعيين أمين الدولة أي طالب الحسن بن عمار على قضاء طرابلس، لكنه استقل بها عن الدولة الفاطمية وجعلها إمارة خاصة به، وهذا ما يؤكد النويري بقوله: «ثم تغلب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، ولم يزل بها إلى أن توفي، في سنة أربع وستين وأربعمائة. وكان ابن عمار هذا رجلاً عاقلاً، سديد الرأي، وكان شيعياً من فقهاءهم. وكانت له دار علم بطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً. وهو الذي صنّف كتاب (ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح)، المنعوت بجرباب الدولة. ولما مات أمين الدولة، كان بطرابلس، سديد الملك بن منقذ، وكان قد هرب من محمود بن صالح (بن مرداس). فساعد جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن عمار* وعضده بمماليكه، وبمن كان معه من أصحابه. فأخرجوا أخا أمين الدولة من طرابلس، وتولى جلال الملك»^(٥). فسار على خطى سلفه في الاستقلال عن مصر، ورفض تلقي الأوامر من أمير الجيوش بدر الجمالي، وراح يصانع الأتراك بالهدايا والملاطفات^(٦). «ولم يزل متولياً على طرابلس، حتى مات في سلخ شعبان، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وملكها بعده أخوه فخر الملك عمار بن محمد بن عمار، واستقر بها، إلى أن نازلها صنجيل، واسمه ميمنت وهو ميمون (ريموند). وصنجيل اسم مدينة نسب إليها»^(٧). وكان ريموند كونت تولوز (صنجيل) قد وضع عينيه على هذه المدينة ليتخذها إمارة خاصة به وراح يتحين الفرص

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٤٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٤٥

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٤٩

(٤) اعطاء الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٢٥

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري - ج ٣١ - ص ٣٦
* جلال الملك علي بن محمد بن عمار هو أخ رئيس الرؤساء الوزير خطير الملك عمار بن محمد بن عمار

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١١٢

(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري - ج ٣١ - ص ٣٦

لتحقيق ذلك حتى وافته الفرصة أخيراً بعد وصول حملة صليبية جديدة من غرب أوروبا بينما كان هو مقيماً في القسطنطينية.

ويتحدث وليم الصوري عن تلك الحملة وكيف سخرها كونت تولوز لمصالحه فيقول: «سمع أمراء الغرب بالنصر الذي حققه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى، فاغتنبت نفوسهم، ومن ثم اجتمع بعضهم إلى بعض، واتفقوا على أن يشرعوا في الخروج بحملة جديدة، وكان أعظم هؤلاء مكانة، (وليم كونت بواتوا) دوق أكويتية، ومعه الرجل ذائع الصيت هيج العظيم كونت فير ماندوا، أخو فيليب ملك الفرنجة، والذي كان قد سحب الحملة الأولى، لكن اضطرته العسرة بعد الاستيلاء على أنطاكية للرجوع إلى موطن آبائه، كما كان من بين هؤلاء (ستيفن) كونت (شارترز وبلوا)، الذي هرب من حصار أنطاكية، لكنه عاد من جديد، وكذلك تأهب للقيام بالرحلة (ستيفن البرجندي)، وغير هؤلاء كثيرون، فلما كان اليوم المضروب للرحلة استعدوا وخرجوا سالكين نفس طريق الحملة الأولى، وتلقاهم في القسطنطينية الإمبراطور (ألكسيوس كومنين) ورأوا في بلاطه كونت تولوز الذي جاء في الحملة الأولى، وكان قد خلف زوجته ومعظم أهل بيته في اللاذقية، أما هو فقد مضى إلى الإمبراطور ملتتمساً معونته ليتمكن من العودة إلى الشام وليفتح مدينة أو أكثر من مدنها، لأنه كان منذ خروجه للحج قد أجمع العزم على أن يقضي هنا ما تبقى من عمره، وألا تكون له رجعة قط إلى وطنه^(١). وابتهج هؤلاء الرجال إذ قابلوا ريموند كونت تولوز، واستأذنوا الإمبراطور في الرحيل، فسخر عليهم بالهدايا الغالية، وخرجوا مجتازين البسفور ومسترشدين بالكونت ريموند سانت جيل، ووصلوا بمن معهم من العسكر إلى نيقية سالكين نفس الطريق الذي سلكه من سبقهم، فلما صاروا في طرسوس فقدوا هيج العظيم فقد وافاه الموت، وبعد أن قضوا عدة أيام هناك، تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى أنطاكية التي كان تصريف شؤونها بيد تانكريد، فاستقبلهم، ومن ثم أغذوا السير إلى بيت المقدس، فركب البحر منهم من أعوزتهم الجياد، وأما غيرهم ممن لم يزل عندهم ظهريركبونه فقد شقوا طريقهم براً.

والتقى هؤلاء وهؤلاء في انطربوس، فأغاروا عليها استجابة لنصيحة ريموند كونت تولوز، وتمكنوا في أيام قليلة من امتلاكها عنوة وراح أهلها بين قتيل وأسير فرض عليه الرق الأبدي^(٢). وتسلم ريموند المدينة وتقاسم مع الصليبيين الوافدين الغنائم. وأقام هو فيها مع بعض الصليبيين الذين قرروا البقاء معه أما الباقون فقد تابعوا طريقهم إلى القدس^(٣). وقام ريموند بالتوسع في الضواحي،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر» الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ ص ٢١٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر» الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢١٦

فاستولى على أرواد وعلى المناطق الجبلية القريبة من طرطوس. ومن ثم ترك حامية في المدينة وانتقل بباقي جيشه إلى طرابلس فحضر الحصار عليها، ولما امتنعت عليه، شيد حصناً على تل مواجه للمدينة يبعد عنها قرابة ميلين، وهو الذي يسميه وليم الصوري (قلعة الحجاج)^(١). أما المؤرخون الشرقيون فيسمونها (قلعة صنجيل). وراح ريموند يهاجم طرابلس باستمرار واستنجد فخر الملك بن عمار المتغلب على طرابلس بملك دمشق دقاق بن تتش وبواليه على حمص جناح الدولة حسين.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٤٩٥ فيقول: «وردت في هذه السنة مكاتبات فخر الملك بن عمار يلتمس فيها المعونة على دفع ابن صنجيل النازل في عسكره على طرابلس ويستصرخ العسكر الدمشقي ويستغيث بهم، فأجيب إلى ما التمس ونهض العسكر نحوه. وقد استدعى الأمير جناح الدولة حسين صاحب حمص فوصل أيضاً في عسكره، فاجتمعوا في عدد كبير وقصدوا ناحية انطرطوس ونهد الأفرنج إليهم في جمعهم وحشدهم وتقارب الجيشان والتقيا هناك، فانهزم عسكر المسلمين، وقتل منهم خلق كثير، وعاد من سلم إلى دمشق وحمص»^(٢).

ويتبين من هذه الرواية أن دقاقاً لبى دعوة ابن عمار وأرسل جيشه لكن ليس ليطرده الصليبيين عن طرابلس، بل ليستعيد طرطوس إلى حكمه، لكنه فشل. ولا يذكر وليم الصوري هذه الواقعة وربما لم يسمع بها، أو أنها سقطت سهواً من تاريخه. وبعد أن انتصر ريموند على الجيش التركي، عاد إلى إكمال حصار طرابلس، واضطر فخر الملك إلى مهادنته بعد أن ينس من النجدة، ووافق على إعطائه ظاهر طرابلس بشرط أن لا يقطع الميرة عنها ولا يمنع المسافرين منها^(٣).

وظل ريموند يحاصر طرابلس حتى هلك في قلعة سنة ٤٩٨ حيث يذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث تلك السنة فيقول: «وفيها وردت الأخبار بهلاك صنجيل مقدم الأفرنج النازلين على ثغر طرابلس في رابع جمادى وخلفه ابن أخيه وليم جوردان الذي تابع بحماسة حصار طرابلس»^(٤). وعلم ولده برترام بموته، فجاء من تولوز إلى طرابلس. ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٠٢ فيقول: «في شعبان من هذه السنة وصل ريمند بن صنجيل الذي كان نازلاً على طرابلس من بلاد الأفرنج في جملة ستين مركباً مشحونة بالأفرنج والجنويين، فنزل على طرابلس ووقع بينه وبين السرداني ابن أخت صنجيل مشاجرة ووصل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٤٤

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤١

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٧

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٧

طنكري صاحب أنطاكيا لمعونة السرداني ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره فأصلح بينهم، وعاد السرداني إلى عرقة ووجد بعض الأفرنج في زرعها فأراد ضربه فضربه الأفرنجي فقتله ولما بلغ الخبر ريمند بن صنجيل وجّه من تسلم عرقة من أصحابه»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة ويذكر الخلاف، لكنه لا يذكر أن تانكريد والملك بلدوين حضرا إلى طرابلس بل يقول: «وجاء كونت برترام بن ريموند كونت تولوز بأسطول من الجنويين، وأرسى قرب طرابلس التي كان قريبه وليم لايزال محاصرا لها، وسرعان ما شبّ الصراع بين الاثنين، لأن برترام تمسك بحقه في أن يخلف أباه بينما طالب وليم جوردان بمكافأته على جهوده وما تكبده من المصروفات طوال السنوات الأربع المتوالية التي قضاهما متحملاً مسؤولية إدارة حصار طرابلس»^(٢). واستمر النزاع بين الطرفين لفترة من الزمن، فارتاحت طرابلس وخف الحصار عنها، لكن ما لبثت الحال أن استقامت بين الخصمين بعد أن توسط في الصلح بينهما كبار الصليبيين في المنطقة. ويقول وليم الصوري: «إن أصدقاء الطرفين تدخلوا بينهما لإقرار السلام وتوصلوا إلى تسوية ارتضاها الاثنان تقضي بأن يتسلم وليم جوردان عرقا وطرطوس وملحقاتها، وأن يكون لبرترام طرابلس وجبيل وقلعة (لحجاج) بكل ملحقاتها هي الأخرى، ومن ثم دبر برترام مكيدة وقتل خصمه وليم جوردان، وأصبح هو المالك الوحيد للإقليم كله»^(٣). وكان الأسطول الجنوي الذي جاء معه يتألف من سبعين قرقورة، وكان بقيادة اثنين من الجنوية هما «أنسالدوس» و«هيج إمبرياكوس». واتضح لهذين أن الوقت الذي يصرفانه في حصار طرابلس وقت ضائع، وأنه يجب عمل شيء يستحق الذكر، وطلبا من برترام، كما يقول وليم الصوري، أن يوجه نظره لاحتلال جبيل، فاستجاب لهما وأرسل بعض جيشه ليعاونهم من البر، وظل هو بالباقي قائماً على حصار طرابلس، وسار الأسطول من البحر، وأحدثت الجيوش الصليبية بالمدينة، وباشروا بقتالها ومضايقتها وأدرك الأهالي عدم قدرتهم على مواجهة الحصار، ولذلك أرسلوا سفارة إلى قائدي الأسطول، أنسالدوس، وهيج إمبرياكوس، تعلن إليهما، استعدادهم لفتح أبواب المدينة لهما والاعتراف بسلطانهما عليها على أن يؤذن بمغادرتها لمن أرادوا المغادرة من تلقاء أنفسهم ومعهم نساؤهم وأبنائهم لا يلقون في الخروج عنفاً ولا إرهاباً، وأما الذين لا يحبون ترك دورهم بالمدينة فيسمح لهم بالبقاء فيها تحت شروط مقبولة فأجيبوا إلى

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ١٦٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٦

طلبهم وتمّ استسلام المدينة للقائدين الجنوبيين»^(١). وتظهر هذه الاتفاقية بشروطها رجاحة عقول أهل جبيل الذين أرادوا أن يضعوا الصليبيين أمام مسؤولية أدبية وأخلاقية، وهم الذين ادعوا أنهم جاؤوا لنصرة الدين المسيحي، لكنهم كانوا مجرد لصوص وأفاكين وشذاذ آفاق، لأنهم ما إن تمّ لهم استسلام جبيل حتى نقضوا الاتفاق.

وبذكر أبو يعلى القلانسي، أنه «لما حصل ثغر جبيل في ملكهم غدروا بأهله ولم يفوا بما بذلوه من الأمان وصادروهم واستنفذوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب»^(٢). ولم يذكر ولیم الصوري هذا الغدر لأنه أراد أن يبين أن الشعب الصليبي هو (شعب الرب).

وبعد أن أنهى الصليبيون أمر جبيل عادوا إلى متابعة حصار طرابلس، وكاتب فخر الملك بن عمار سلطان السلاجقة محمد بن ملكشاه، لكنه لم يستجب فقرّر أن يرحل بنفسه إليه، وكان آنذاك في بغداد، ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٠١ فيقول: «في شعبان من تلك السنة اشتد الأمر بفخر الملك بن عمار بطرابلس من حصار الإفرنج وتطاول أيامه وتمادي الترقب لوصول الأنجاد وتمادي تأخر الإسعاد، فأنفذ إلى دمشق يستدعي وصول الأمير أرتق بن عبد الرزاق أحد أمراء دمشق إليه ليتحدث معه بما في نفسه، فأجابه إلى ذلك، واستأذن ظهير الدين في ذلك، فأذن له وتوجه نحوه. وكان فخر الملك قد خرج من طرابلس في البر في تقدير خمسمئة فارس وراجل ومعه هدايا وتحف أعدّها للسلطان (يقصد محمد بن ملكشاه) إلى بغداد، فلما وصل أرتق إليه واجتمع معه تقررت الحال بينهما على وصوله إلى دمشق في صحبته، فوصل إليها وأنزل في برج باب حديد بظاهرها، وبالغ ظهير الدين أتابك في إكرامه، وتناهى في احترامه، وحمل إليه أمراء العسكرية ومقدموه من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ما أمكنهم حمله وإتحافه به»^(٣). وكان فخر الملك قد استناب عنه في حفظ طرابلس أبا المناقب ابن عمه ووجوه أصحابه وغلماؤه، وأطلق لهم واجب ستة أشهر واستحلفهم وتوثق منهم، فأظهر عن الخلاف والعصيان عليه ونادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش بمصر، قلما عرف فخر الملك ما بدا منه كتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى قلعة الخواري ففعل ذلك^(٤). وتوجه فخر الملك إلى بغداد ومعه تاج الملوك بوري بن طغتكين فلما وصل إليها لقي من السلطان محمد من الإكرام والاحترام ما زاد على أمله، وتقدم السلطان إلى جماعة من أكابر الأمراء بالمسير معه لمعونتته

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية» ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٨

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٣

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦١

وإنجاده على طرد محاصري بلده والإيقاع بهم والإبعاد لهم، وأمر العسكر المجرد معه أن يتوجه أولاً إلى الموصل لانتزاعها من يد جاولي سقاوه، وطال انتظار فخر الملك لخروج هذا الجيش الذي لم يخرج، فعاد إلى دمشق في نصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ^(١).

ويقول أبو يعلى القلانسي: «إن أهل طرابلس أرسلوا إلى الأفضل يلتمسون منه إنفاذ وإل إليهم في البحر ومعه الغلة والميرة في المراكب لتسلم إليه البلد، فوصل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب ومعه الغلة فلما وصل إليها قبض على جماعة أهل فخر الملك بن عمار وأصحابه وذخائره وآلاته وأثاثه وحمل الجميع إلى مصري البحر»^(٢).

لكن المقرئ يروي رواية مختلفة عن رواية القلانسي حيث يقول في أحداث سنة ٥٠٢ هـ: «في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك منها وقصده بغداد لطلب النجدة لما اشتد حصار الفرنج لها. وغلا السعر بها، فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليه شرف الدولة بن أبي الطيب مقدم الأسطول وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور إلى الثغر المذكور نصرة للمسلمين، فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الجوسق، الحصن، وأمهلوا المسلمين، فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم وفيهم صالح بن علاق الطائر بعد هروبه من الأفضل، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومصاغه وكان بقيمة كبيرة وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر فآكرمهم الأفضل واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود»^(٣).

ومن هذا النص يتبين أن قائد الأسطول المصري وصل إلى طرابلس في اللحظة التي تمكن فيها الصليبيون من احتلال حصونها وكسردفاع الطرابلسيين، فحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم وحمل ذخائر ومصاغ ابن عمار وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر، فأكرمهم الأفضل.

وهكذا يتبين أن الأسطول المصري لم يقبض على جماعة فخر الملك، كما يقول القلانسي، وبما يسيء إلى أخلاق المصريين.

وبالعودة إلى حصار طرابلس، فإن وليم الصوري يقول: «بادر الملك بالذهاب إلى طرابلس يعد أن سمع أن الأسطول الجنوبي يتجول في نواحيها بعد انتهائه من الاستيلاء على جيبيل، فسعى إلى ضم الجنوبية إلى خدمته ليتمكن بمساعدتهم

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦١

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦١

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٤٣

من أخذ مدينة أخرى من المدن الساحلية»^(١). ولم يذكر القلانسي أن الملك حضر، وعلى الأغلب أن تكون رواية الصوري هي الصحيحة، وأن الملك حضر لوحده من دون تانكريد. حيث يذكر الصوري أيضًا، «أن حضور الملك أحدث فرحة كبرى في نفوس الجميع ممن كانوا قائمين بالحصار برًا وبحرًا وزادتهم حماسة في الإقبال على ما بيدهم من العمل، كما كان حضوره مصدر طمأنينة كبيرة للقائمين بالحصار امام المدينة وتضاعف بأسهم وزادت ثقتهم بقدرتهم، وكان حصوله هذا داعيًا من ناحية أخرى لتزايد بؤس المحصورين والقضاء التام على أملهم في المقاومة»^(٢).

ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن «الأفرنج بدأوا بحصار ومضايقة طرابلس منذ أول شعبان إلى حادي عشر من ذي الحجة من سنة ٥٠٢، وأسندوا أبراجهم إلى السور فلما شاهد الجند والمقاتلة من أهل البلد سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك، وذلت نفوسهم لاشتغال اليأس من تأخر وصول الأسطول المصري في البحر والميرة والنجدة. فشد الصليبيون القتال عليها وهاجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم ما لا يحصى عدده ولا يحصر فيذكر. وسلم الوالي بها وجماعة من جنده كانوا قد التمسوا الأمان قبل فتحها فلما ملكت أطلقوا ووصلوا إلى دمشق، وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب»^(٣).

ويروي وليم الصوري رواية أخرى عن سقوط طرابلس فيقول: «ورأى الأهالي أن قوة الصليبيين تتزايد يومًا بعد يوم عكس التناقص المستمر في قوتهم، وأدركوا أن قد أنهكهم الجهد المتواصل الذي يبذلونه، كما فقدوا كل أمل في وصول أي نجدة إليهم، فقبلوا الأمر على شتى وجوهه فيما بينهم جاعلين نصب أعينهم وضع حد لهذه الأهوال الكبيرة، فبعثوا بالرسل إلى الملك وإلى الكونت يقترحون الاستسلام لهما بالشروط التالية: أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة، مع الأذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم إلى أي جهة شاؤوها، أما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء في دورهم سالمين آمنين، مع احتفاظهم بما تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنويًا قدرًا معينًا من المال، وأعلن الملك قبوله بهذه الشروط، ووقع هذا القرار موقع رضا من الجميع، فبعثوا في إحضار الأهالي وأجابوهم إلى ما التمسوه، وأقسموا اليمين على الوفاء لهم بهذه الشروط دون شجب أو غدر. وإذاك استسلمت المدينة وفتحت أبوابها لجميع من أراد

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر (الحروب الصليبية) وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٨

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٣

دخولها، وتمَّ استسلام طرابلس عاشر يوم من يونيو سنة ١١٠٩، من ميلاد المسيح، كما قام برترام في الوقت ذاته وأعلن أن طاعته للملك حق في عنقه، وأصبح تابعًا أقطاعيًا لملك بيت المقدس»^(١).

ورغم أن الصليبيين لم يفوا بشروط الاتفاقية إلا أنها كانت حجة في رقابهم، لأنهم وعدوا الأهالي خيرًا وأقسموا على ذلك اليمين، ومن ثم غدورا بهم حتى لم يبق في طرابلس عربي واحد وهي المدينة التي كانت زاخرة بأهلها، ولم يذكر المقريري ولا أبو يعلى القلانسي هذه الاتفاقية، بل قالوا، إن المدينة سقطت عنوة، وربما كانت رواية هذين المؤرخين أصوب من رواية الصوري، وأما فخر الملك بن عمار فهناك روايات مختلفة حول مصيره، فيقول القلانسي: إنه «بعد عودة فخر الملك من بغداد أقام في دمشق وتوجه منها مع خيل من عسكر دمشق خرجت معه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها»^(٢). ويذكر في مكان آخر، «وكان فخر الملك لما ملك الفرنج جبلة خرج منها وتوجه إلى شيزر فأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني واحترمه وجماعته وعرض عليه المقام عنده فلم يفعل وتوجه إلى دمشق عائدًا إلى ظهير الدين أتاك فأكرمه وأنزله في دار وأقطعه الزيداني وأعمالها في المحرم سنة ٥٠٣»^(٣). ويبدو أن فخر الملك أقام في الزيداني إلى سنة ٥١٦، فربما تمَّ صرفه عنها حينئذ، فقصد مصر.

ويذكر المقريري في أحداث تلك السنة فيقول: «في شهر صفر وصل فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار صاحب طرابلس إلى مصر، فأرسل إلى الخليفة الأمر بأحكام الله، كتابًا يعتذر له فيه حيث قال: (الملوك لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل، وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف، وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها، فإن خرج الأمر بذلك فمئة كريمة وإن خفف عنه فتخليده في السجن أحب إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدولة). فلما عرض هذا الكتاب بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن استفزع كل من الحاضرين أمره وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه في خزانة البنود (السجن) فقال الوزير المأمون للخليفة: «قد أجل الله عواطف مولانا ورحمته من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه، وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعفو عن جرمه، فإن العفو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثاله، فأعجب الخليفة الأمر ذلك، وخرج الأمر بأن تعدد على ابن عمار ذنوبه وذنوب أسلافه ويقال له: (قد أذهبت مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك، فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: قد غفر ذنبك

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية»- وليم الصوري- ج ٢ - ص ٢٨٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦١

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٥

وأنت مخير بين أمرين: إما أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد ويصحبك من يوصلك إلى مأمك، وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعينك وتقتنع بما ينعم عليك وتقبل على شأنك وتترك التعرض للمخاطبات وتتجنب جميع المكروهات)، فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه، وكلما خوطب في رفعه قال: لست أرفعه حتى ألقى كلمات العفو من إمام زماني وتمتلى مسامعي بألفاظ مغفرته. فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجرّد برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين، فأقام أياماً يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظير لها، ووصله من المواهب ما أرى على أمله. وقرّر له راتباً في كل شهر، ستون ديناراً مع مياومة الدقيق واللحم والحيوان، وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم. ورفع عنه الحاجب والمستخدمون، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه عن أمثاله، ولزم طريقة حمدت منه، فاستمر إليه الإحسان»^(١).

ويبين هذا النص بأوضح جلاء مدى الرحمة التي كان يتحلى بها الأمر بأحكام الله، فحتى هذا العاصي الذي رفض أن يتنازل عن استقلال طرابلس وأثر أن يذهب إلى السلاجقة ويطلب العون والمساعدة منهم ولم يطلبها من أهله وبني جلدته، ومع ذلك عومل بأفضل معاملة ولم يسأل عن ذنب اقترفه ولم يتم الانتقام منه، وبعودة فخر الملك وأهله وعشيرته إلى مصر، طويت صفحة بني عمار في طرابلس وطويت صفحة هذه المدينة نفسها لتدخل في الأسر الصليبيين.

٩- سيطرة الصليبيين على اللاذقية وبانياس

كان أمر أنطاكية قد آل إلى تانكريد ابن أخت بوهيموند بسبب وقوع هذا الأخير في الأسر على يد الأمير التركماني صاحب ملطية وسيواس وغيرهما، كمشتكين بن الدانشمند طايلو^(٢)*. وقرر تانكريد أن يتوسع على حساب الترك والأغريق في شمال سوريا، فقام بجمع فرسانه ومشاته وأحدقوا بمدينة أفاميا وسيطروا عليها، وبعد أن سقطت أفاميا سارتانكريد بجيشه إلى اللاذقية التي كانت بيد

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٨٠

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد ٩ - ص ٢٩

* يتحدث ابن الأثير عن كيفية وقوع بوهيموند أمير أنطاكية في أسر ابن الدانشمند فيقول في أحداث سنة ٤٩٣: «في ذي القعدة من هذه السنة لقي كمشتكين بن الدانشمند، وإنما قيل له ابن الدانشمند لأن أباه كان معلماً للتركمان، بيمند الفرنجي وهو من مقدمي الفرنج قريب ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه إليه فورد عليه في خمسة آلاف فلقهم ابن الدانشمند فانهزم بيمند وأسر - الكامل في التاريخ - المجلد ٩ - ص ٢٩

الأغريق أصحاب الدولة البيزنطية، فاستولى عليها هي الأخرى أيضًا وضمّها إلى سلطانه، ويقول وليم الصوري: «استطاع تانكريد أن ينجز في حملة واحدة عملاً كان إنجازهُ يتطلب أيامًا طويلة، وكسب مرة واحدة مدينتين يتبع كل منهما مناطق شاسعة وذات قرى حصينة وحقول واسعة»^(١).

وكانت اللاذقية تابعة للدولة الحمدانية وقد سقطت بيد الدولة الرومانية سنة ٣٥٨ للهجرة، وظلت كذلك حتى أخذها تانكريد فأصبحت تابعة لإمارة أنطاكية الصليبية. ولا يذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة بل يتحدث عن حملات أخرى قام بها تانكريد صاحب أنطاكية حيث يقول في أحداث سنة ٥٠٣: «وفي هذه السنة خرج طنكري من أنطاكية في حشدته ولفيفه المخدول إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وما والاها وأخرج صاحب الروم منها، وعاد إلى أنطاكية ثم خرج إلى شيرز وقرر عليها عشرة آلاف دينار مقاطعة تحمل إليه بعد أن عاث فسادًا في عملها ونزل على حصن الأكراد فتسلمه من أهله وعاد إلى أنطاكية»^(٢).

ويقول القلانسي أيضًا في أحداث سنة ٥٠٢ معقبًا على رحيل تانكريد عن طرابلس: «وكان طنكري لما لم ينل ما أراد من نصرة السرداني قد عاد ونزل على بانياس وافتتحها وأمن أهلها في شوال من السنة»^(٣). ولم يذكر القلانسي هل كان أهل بانياس مسيحيين أم مسلمين، لكن، على الأرجح أنهم كانوا مسيحيين، لأن تانكريد عاملهم بلطف، ولم يفرض عليهم جزية وأمنهم في مكانهم، ومن الملفت أن القلانسي يسمي هذه المدينة باسم «بانياس» بعكس وليم الصوري الذي سمّاها، كما رأينا، من قبل (فالينيا، Valenia) وهو اسمها القديم، ومن غير المعروف كيف كسبت هذه المدينة اسم بانياس، لكن كتاب ولاية بيروت يقول: إن المسلمين كانوا يسمون هذه القصبنة قبل الحروب الصليبية «بولونياس»^(٤).

ويذكر الشريف الأدرسي هذه المدينة باسم (بلنياس) في حديثه عن الإقليم الرابع فيقول: «وبلنياس مدينة صغيرة، متحضرة فيها من الفواكه والحبوب كل حسن كثير موجود، وبين بلنياس والبحر أربعة أميال»^(٥) (حوالي ٦ كيلومتر).

ومن هذا النص يتبين أن بانياس كانت بعيدة عن البحر ولم تكن ملاصقة له كما هو الحال اليوم، ومن غير المعروف ما هو أصل اسمها، لكنه تحوّر حتى أصبح بانياس. وبعد أن استولى السلطان قلاوون على هذه المدينة إثر سيطرته على

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحرب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٣٨

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٧

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٤

(٤) ولاية بيروت - محمد بهجت بك ومحمد رفيق بك - ج ٢ ص ٣٨٨

(٥) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق - الشريف الأدرسي - الجزء الخامس من الإقليم الرابع - ص ٦٤٤

قلعة المرقب، تغير تاريخها بشكل كامل، فقد هجرها الصليبيون ونسبة كبيرة من المسيحيين المحليين، وجعل فيها السلطان حامية من الترك من جنوده، ومع الزمن انضاف إليهم آخرون من قلعة المرقب ومن جبلة واللاذقية^(١)، فنشأت بانياس الحديثة ذات الغالبية السنية مع أقلية مسيحية تسكن (الحارة الشمالية) فيها لا يتجاوز عددهم عشر المسلمين، كما يذكر كتاب ولاية بيروت^(٢). وفي النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي انحدر إليها من الجبل المجاور جماعة وافرة من العلويين، فأصبحت مسكونة من الطوائف الثلاث.

١٠- سيطرة الصليبيين على جبلة

كانت جبلة مدينة فاطمية عندما بدأ الغزو الصليبي إلى الشرق سنة ٤٩٢، ورأينا كيف أن الصليبيين حاولوا احتلال هذه المدينة خلال انسيابهم في سوريا عبر الساحل، لكنهم تركوها ومضوا بسبب مكيدة ريموند كونت تولوز. وفي سنة ٤٩٤ عصى قاضي هذه المدينة واسمه أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة، وأقام الخطبة العباسية^(٣).

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث تلك السنة فيقول: «وفي هذه السنة تغلب القاضي ابن صليحة أو «صليحة» على ثغر جبلة وأخرج واليه الفاطمي منه، وأرسل إلى الأتابك طغتكين يلتمس منه إنفاذ من يراه من ثقاته ليسلم إليه جبلة ويصل هو إلى دمشق ومنها يذهب إلى بغداد في أمان، فأجابه طغتكين إلى ما اقترحه ووعدته بتحقيق أمله، وندب لولاية الثغور ولده تاج الملوك بوري، وكان شمس الملوك دقاق غائباً عن دمشق في ديار بكر، فعاد منها ودخل إلى دمشق في الأول من شوال من تلك السنة، وتقررت الحال على ما التمس ابن صليحة، وتوجه تاج الملوك في أصحابه إلى ثغر جبلة فتسلمه، وانفصل ابن صليحة عنه ووصل إلى دمشق، فجهّزوه هناك وأرسلوه إلى بغداد وفق طلبه، أما تاج الملوك فإنه لما ملك جبلة وتمكن هو وأصحابه أسأوا إلى أهلها وقبحوا السيرة فيها وجروا على غير العادة المرضية من العدل والإنصاف، فشكوا حالهم فيما نزل بهم إلى القاضي فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن عمار المتغلب على ثغر طرابلس لقربها منهم فوعدهم المعونة على مرادهم وإسعادهم بالإنقاذ لهم وأنهض إليهم عدة وافرة من عسكره فدخلت جبلة واجتمعت مع أهلها على الأتراك

(١) ولاية بيروت - محمد بهجت بك ومحمد رفيق بك - ج ٢ - ص ٣٩٠

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٩٠

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٥

فقهرؤهم وأخرجوهم منها وملكوها وقبضوا على تاج الملوك وحملوه إلى طرابلس فأكرمه فخر الملك وأحسن إليه وسيّره إلى دمشق وكتب إلى والده الأتابك يعرفه صورة الحال ويعتذر إليه مما جرى»^(١) ولم يعترض طغتكين فظلت هذه المدينة بيد ابن عمار. وفي عام ٥٠٣ حاصرتانكريد أمير أنطاكية الصليبي، جبلّة بعد خلاصه من بانياس، وكان قد انتقل إليها فخر الملك ابن عمار بعد خسارته لطرابلس، ولم يستطع هذا الصبر طويلاً على الحصار بسبب قلة الطعام في المدينة، كما يقول أبو يعلى القلانسي، ولا سيما أن تانكريد ضايق أهلها ومنع خروجهم منها واستمر حصاره للمدينة إلى يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة من تلك السنة، «فراسلهم وبذل لهم الأمان فأجابوه إلى ذلك فتسلمه بالأمان، وخرج منه فخر الملك سالماً وقد وعده بإحسان النظر والإقطاع»^(٢)، لكن ابن عمار لم يحظ بشيء من تانكريد، ولذلك التجأ إلى أمير دمشق فأقطعه الزبداني ومن ثم ذهب إلى القاهرة المعزية سنة ٥١٦ واستقر فيها. وعلى الأغلب أن سكان جبلّة كانوا من المذهب الفاطمي، ولذلك لم يتحملوا وجود تاج الملوك بوري وقومه الأتراك، فراسلوا فخر الملك ابن عمار لأنه كان مثلهم، فاستجاب لهم وطردهم الأتراك من بينهم، ومن غير المعروف كيف انقطع وجود هؤلاء من هذه المدينة، لكن على الأرجح، حدث ذلك بعد أن استعادها صلاح الدين يوسف بن أيوب ومن ثم استردها الصليبيون، فيبدو أنهم عند ذلك هجروا أهلها منها واستبدلوهم بقوم منهم، وظلوا فيها حتى استردها الملك الظاهر بيبرس، حيث سكنها رجال من الجيش المملوكي لحراستها، كما حدث لطرابلس وبانياس وغيرها من ثغور الساحل التي كانت بيد الصليبيين، ومن ثم تناسل هؤلاء وأصبحوا شعب جبلّة الجديد. ويصف صاحباً كتاب ولاية بيروت جبلّة فيقولان في الرحلة إليها سنة ١٩١٦ للميلاد: «وجميع سكان هذه القصبّة من المسلمين السنة وعددهم يناهز ٥٠٠٠»^(٣).

١١- سيطرة الصليبيين على بيروت

بعد أن سيطر الصليبيون على طرابلس تطلعوا للسيطرة على بيروت، ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٣، فيقول: «وكان الملك بغدوين وابن صنجيل «برترام» قد نزلا على ثغر بيروت براً وبحراً، وسار جوسلين

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٤

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤١٨

صاحب تل باشري إلى هناك لمعاونة النازلين على هذا الثغر، وشرع الأفرنج في عمل البرج ونصب على سور بيروت، فحين نجز وزحفوا به كسره المدافعون بجارة المجانيق وأفسد، فشرعوا في عمل غيره، ووصل في الوقت من أسطول مصر في البحر تسعة عشر مركباً حربية فظهروا على مراكب الفرنج وملكوا بعضها ودخلوا بالميرة إلى بيروت فقويت بها نفوس من فيها. وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوبية في مراكبهم فوصل منها أربعون مركباً مشحنة بالمقاتلة فزحف الأفرنج على بيروت في البر والبحر بأسرهم في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ٥٠٣. ونصبوا على السور برجين واشتدوا في القتال فقتل مقدم الأسطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الأفرنج مما تقدم وتأخر أشد من حرب كهذه، وانخذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلاك، فهجم الأفرنج على البلد آخر النهار هذا اليوم فملكوه بالسيف قهراً وغلبةً وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من أصحابه وحمل إلى الأفرنج فقتل ومن كان معه وغنموا ما كان استصحبه من المال ونهب البلد وسبي من كان فيه وأسروا ستصفت أموالهم وذخائرهم»^(١).

ويذكر المقرئ نفس الواقعة فيقول: «وفيها سار الفرنج نحو بيروت، وعملوا عليها برجاً من الخشب، وزحفوا، فكسره أهل بيروت، وقدم الخبر بذلك على الأفضل فجهز تسعة عشر مركباً حربية، فوصلت سالمة إلى بيروت وقويت على مراكب الفرنج، وغنمت ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة، فقوي أهلها بذلك، وبلغ بغدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية، فأتاهم منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة، فزحف على بيروت في البر والبحر، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، فعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين، ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم، فانخذل المسلمون إلى البلد، وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهراً، وخرج متولي بيروت في أصحابه وحمل إلى الفرنج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد، وسبوا من فيه وأسروا، واستصفتوا الأموال والذخائر، فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت، فخرج عليها طائفة من الفرنج، فانهزموا إلى الجبال، فهلك منهم جماعة»^(٢).

ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة فيقول في أحداث سنة ١١١٠ للميلاد:

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٨

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٤٥

«وحدث في فبراير من هذه السنة أن اغتنم الملك «بلدوين» فرصة مجيء بعض الشواني لتمضية الشتاء في المملكة فجمع من كل رحاب مملكته عسكرياً وسار بهم نحو بيروت، ولما وصل إليها استدعى برترام كونت طرابلس، طالباً الانضمام إليه، وشرعاً في الحال في الأطباق عليها أطباقاً غنيّاً، وأقبلت السفن من صور وصيدا وعليها المحاربون الشجعان استعداداً لمساعدة المدينة، ولو أتيحت لهؤلاء الناس حرية الذهاب والجيء لتبددت هباء جميع محاولات الذين حاصروها، لكن حين وصل الأسطول المسيحي الذي كان الملك يعتمد على معاونته في الحصار خافت تلك السفن المعادية أن تخرج إلى عرض البحر، وسرعان ما ارتدت إلى الميناء، ومن ثم لم يعد الأهالي قادرين على القدوم من البحر أو الخروج إليه^(١). وكان على مقربة من المدينة غابة من الصنوبر* استطاع الجيش المحاصر أن يحصل منها على كميات ضخمة من الخشب تصلح لصناعة سلالم التسلق وكل أنواع الآلات، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمي وشتى صنوف العدد النافعة للحصار، وواصلوا هجومهم على المدينة بصورة لم تدع للمدافعين عنها ولو ساعة واحدة من الراحة بالليل أو النهار، وأخذ الصليبيون يتناوبون العمل في دوريات الواحدة منها بعد الأخرى، فأنهكوا قوى خصومهم إذ حملوهم من الجهد ما لا يطيقون، واستمر الصليبيون مدة شهرين في هذه المهمة بهمة صارمة، وبينما كانوا في أحد الأيام يشنون غاراتهم على أماكن متفرقة من المدينة في وقت واحد، إذا برهط من العسكر قد نفذ صبرهم فقفزوا على السور من الأبراج الخشبية التي كانت مسندة إلى الجدران، واقتدى بهم غيرهم، وانطلق غير هؤلاء يتسلقون سلالم الصعود ثم هبطوا جميعاً وراء السور، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة^(٢). لم يجد الأهالي حينذاك بداً من الفرار إلى الساحل مما مكن الجيش الصليبي من دخول المدينة من غير أن يلقى كدّاً واستحوذ عليها كلها. ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهر السفن إلى اليابسة واحتلوا الميناء وردوا إلى الورا بسيو فهم جموع الأهالي، وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وسط

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٨٨
* يبدو أن غابات الصنوبر ظلت موجودة جنوب بيروت، وهذا ما يؤكد القنصل الفرنسي هنري غيز الذي يقول في وصف بيروت: «وإذا ما توجهنا صوب الجنوب نجد بعض أشجار الصنوبر تسترعي الانتباه نظراً لعلوها وضخامتها، ونرى على مقربة منها بقعاً من الأرض مكسوة بهذه الأشجار التي يدل اختلافها في الغرس والعنق على عصور مختلفة، ولكن لماذا يقول فولني، إن الأمير فخر الدين هو الذي غرس هذه البقعة صنوبراً ابتغاء تنقية الهواء مادام التاريخ يقول إن فأس المجاهدين الصليبيين القدماء تعرفت إلى صنوبر بيروت - بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - ص ٥٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٨٩

أعدائهم، فتناوشتهم سيوف الصليبيين من كل جانب فأهلكتهم. وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ أبريل سنة ١١١٠ من ميلاد المسيح»^(١). وكما نرى أن هذه الروايات متشابهة حول سقوط مدينة بيروت، ويعترف وليم الصوري أن الأسطول الفاطمي الذي كان يربط في صيدا وصور هبّ لمساعدة أهل هذه المدينة، لكن وصول الجنويين في سفنهم دفع السفن المصرية إلى ملازمة الميناء خوفاً من الاصطدام بتلك السفن في عرض البحر مما تسبب بعجزها عن مساعدة أهل بيروت فكانت الكارثة وقتل شعب هذه المدينة بيد أولئك المتوحشين البرابرة الذين لم يكن لديهم شيء من الأخلاق والدين والعقل والعلم.

١٢- سيطرة الصليبيين على صيدا

بعد بيروت جاء الدور على صيدا، وكان قد وصل إلى يافا، كما يقول وليم الصوري، مجموعة من الصليبيين من البلاد المسماة النرويج، ولما علم الملك بوصولهم سرّب بذلك وقرر استخدامهم في حصار صيدا.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٣ فيقول «وصل في هذه السنة أحد ملوك الأفرنج في البحر ومعه نيف وستون مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام فقصد بيت المقدس، وتوجه إليه بغدوين واجتمع معه وتقررينهما قصد البلاد الإسلامية، فنزلا على ثغر صيدا في ثالث شهر ربيع الأول سنة ٥٠٤ وضايقوه براً وبحراً، وكان الأسطول المصري مقيماً على ثغر صور ولم يتمكن من إنجاد صيدا، فعمل الأفرنج البرج وزحفوا به إليها وهو ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط، وكانوا إذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحته في عدة أيام متفرقة، فإذا كان يوم الحرب وقرب من السور زحفوا به وفيه الماء والخل لطفي النار وآلة الحرب. فلما عاين من بصيدا هذا الأمر ضعفت نفوسهم وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فأخرج إليهم قاضيتها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمنهم على النفوس والأموال وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق واستحلفوه على ذلك وتوثقوا منه وخرج الوالي والزمّام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد، وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى سنة ٥٠٤، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً، ورتب بغدوين الأموال بها

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية»- وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٠

والحافظين لها وعاد إلى بيت المقدس ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا فقرر على من أقام بها نيحاً وعشرين ألف دينار، فأفقرهم واستغرق أموالهم وصار من علم أن له بقية منهم»^(١).

ويروي وليم الصوري رواية أخرى حول سقوط صيدا فيقول: «وأبحر في هذه السنة (١١١٠) طائفة من الحجاج من الجزر الموجودة في الغرب، لاسيما من البلاد المسماة بالنرويج بعد أن سمعوا بخبر استيلاء أتباع المسيح على مدينة بيت المقدس، ومن ثم رغبوا في الذهاب إليها طمعا منهم في تأدية الواجب الديني، لذلك أعدوا أسطولا وأقلعوا، فهب عليهم ريح رخاء ظلوا معها مبحرين في القنال الإنجليزي حتى اجتازوا المضيق الموجود بين كالب وجبل أطلس ودخلوا بحرنا وساروا مصاقبين لساحله حتى بلغوا يافا، وكان قائد أسطولهم شابا فارغ القامة، أبلغ الطلعة هو أخو ملك النرويج. ولما ترامى نبأ وصولهم إلى سمع الملك أسرع إلى مقابلتهم ورحب ترحيبا كريما بالأمير، وحاول في أثناء حديثه أن يتأكد عما إذا كانت هذه الحملة البحرية تعترم البقاء في المملكة بعضا من الوقت، فإن كان الأمر كذلك فهل يقبلون أن يبذلوا عن طيب خاطر بعضا من وقتهم لخدمة المسيح حتى يستطيع الصليبيون بفضل جهودهم الحساسة أن يزيّدوا رقعة ما يملكون باستيلائهم على واحدة من المدن»^(٢). وبعد أن تشاور الاسكندناويون فيما بينهم أجابوه بأنهم ما جاؤوا إلا بهدف تكريس أنفسهم لخدمة المسيح، وزادوا على ذلك بأنهم على أتم أهبة للإبحار على وجه السرعة إلى أي مدينة ساحلية يريد الملك وجيشه محاصرتها، ولم يطلبوا شيئا لقاء خدماتهم هذه سوى إمدادهم فقط بما يلزمهم من الطعام. فأمر الملك بحشد جيش المملكة وزحف به لحظة إبحار الأسطول من ميناء عكا وأسرع ما وسعه الإسراع حتى وصل الجيشان أمام مدينة صيدا. وأحدثت القوات الصليبية بهذه المدينة برا وبحرا حتى تملك الأهالي الخوف بصورة أدركوا معها أن لاجدوى من وراء مقاومتهم هذه القوات وأيقنوا أنهم عاجزون عن الصمود في وجهها ودبروا حيلة لقتل ملك الصليبيين عن طريق رجل مقرب منه يدعى بلدوين حيث وعدوه بإعطائه إقطاعا واسعا في المدينة إن هو تمكن من اغتيال الملك، وراح بلدوين ينتظر اللحظة المناسبة لتنفيذ خطته، وعرف بعض المسيحيين في صيدا بما تمّ تدبيره فكتبوا إلى الملك الصليبي خطابا وربطوه بسهم فوق وقع وسط الجيش الصليبي، وعرف به الملك فقتل بلدوين في الحال، وعندما ذاع فشل الخطة، حاول الأهالي بلوغ غايتهم بطريقة أخرى، إذ بعثوا رسلا

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٠

يلتمسون الإذن لكبار القوم بمغادرة صيدا، على أن يبقى الأهالي على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبولة حتى يتابعوا زراعة الحقول، فأجيبوا إلى ما التمسوه واستسلمت المدينة، وأذن لوجوه القوم بالرحيل مستصحين معهم حريمهم وأولادهم، وأقطع الملك هذه المدينة لأحد نبلائه المدعو (أستاس جرنبيه) وجعلها وراثية في عقبه، وكان الاستيلاء على المدينة يوم ١٩ ديسمبر ١١١١ من ميلاد المسيح»^(١).

وتختلف رواية وليم الصوري عن رواية القلانسي في أن الصوري تحدث عن تعاطف المسيحيين في صيدا مع الصليبيين وأنهم أنقذوا الملك الصليبي من موت محتم. وربما تكون هذه الرواية مختلقة إما من قبل وليم الصوري أو من قبل من استقى منه معلوماته حول تلك المعركة. وذلك لإظهار أن المسيحيين المحليين كانوا يساعدون الغزاة للخلاص من الحكم الفاطمي. والحقيقة أن المسيحيين واليهود كانوا قد حصلوا في الدولة الفاطمية على حقوق كثيرة وبلغوا مراتب سامية. ومن هنا نرى أن المسيحيين لم يكونوا يشعرون بالغب، بل كانت حقوقهم محفوظة وكانوا يعيشون بكرامة إلى جانب جيرانهم وإخوانهم المسلمين في ظل الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يسهرون على إنصاف الشعب الذي كانوا يحكمونه، بغض النظر عن الدين أو المذهب.

والحقيقة أن الصليبيين أساءوا إلى المسيحية عندما ادعوا أنهم يريدون إنقاذ مهد المسيح من أيدي المسلمين، ومن ثم أصبح لديهم مشروع استعماري يرمي للسيطرة على كامل البلاد العربية، وكم قتلوا من النفوس البريئة وكم اعتدوا على الحرمات، وأشاعوا الخوف في كامل بلاد الشرق.

١٣- احتلال مدينة صور

كانت صور هي الهدف التالي للصليبيين، لكن هذه المدينة لم تكن كغيرها من المدن، بل كان لها من القوة والمناعة والعظمة ما جعلها تصمد طويلاً حتى سقطت أخيراً في أيديهم، ويذكر وليم الصوري، أن صور كانت «أهلة بكثير من علية القوم الذين أصابوا حظاً كبيراً من الجاه والثروة بفضل رحلاتهم التجارية المستمرة إلى معظم البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط، جنوا من وراء ذلك ثروات ضخمة وعادوا بكميات هائلة من السلع الأجنبية التي زادت في موارد المدينة المالية، يضاف إلى ذلك أن أعداداً كبيرة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٣

من أعيان وأثرياء قيصرية وعكا وصيدا وجبيل وطرابلس وبيروت وغيرها من المدن الساحلية التي وقعت في أيدي الصليبيين فرّوا إلى صور يلتمسون الحماية وراء تحصيناتها»^(١).

ويصف وليم الصوري مدينة صور فيقول: «وصور هذه أشبه ما تكون بجزيرة لوجودها في بحر لحي الأمواج، شديد الخطورة بسبب الصخور ذات الارتفاعات المختلفة التي لا تراها العين المجردة». ومن هنا كان شرّها لا يؤمن على الصليبيين وغيرهم من لا دراية لهم بالمكان إن هم حاولوا الاقتراب من المدينة من ناحية البحر^(٢). وكانت صور محاطة من ناحية البحر بسور مزدوج ذي أبراج شاهقة، يفصل الواحد منها عن الآخر مسافة مثل التي بينه وبين الذي يليه، وكان لها من ناحية الشرق حيث يمكن الوصول إليها براً، سور ثلاثي الشكل، وأبراج بالغة الضخامة قد تقارب بعضها من بعض تقارباً شديداً كاد أن يجعلها متلاصقة، كما يوجد رصيف بحري يتيسر للأهالي أن يبلغوا البر عبره من كلا جانبيه، أما من الناحية الشمالية فيقوم على حراسة مدخلها برجان ويحرسان الميناء الواقعة داخل أسوارها^(٣).

وكانت آنذاك كل المدن الممتدة من اللاذقية حتى عسقلان قد صارت في يد الصليبيين باستثناء صور التي كانت لا تزال، كما يقول الصوري، (في أسر الجاحدين)^(٤). وأزمع الملك الصليبي بلدوين الأول على العدوان عليها، فجمع كل السفن التي أمكنه العثور عليها على امتداد الساحل كله، وجعلها أسطولاً وجهه للمسير إلى تلك المدينة بأقصى سرعة، وكذلك حشد كل القوات البرية، وجمع الناس من شتى رحاب المملكة ومشى بهم إلى هناك، وجعل من عسكره دائرة أحاطت بالمدينة من كل جهاتها وحاصرتها^(٥).

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٥ فيقول: «في هذه السنة جمع بغدوين الملك من أمكنه جمعه من الإفرنج وقصد ثغر صور فبادر عز الملك واليه وأهل البلد إلى مراسلة ظهير الدين أتابك دمشق يستصرخون به ويستنجذونه ويبدلون تسليم البلد إليه ويسألونه المبادرة والتعجيل بإنفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل إليهم بسرعة لمعونتهم وتقويتهم وإن

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٧
* يقدم وليم الصوري هنا معلومة مهمة وهي أن أثرياء المدن الساحلية التي سقطت بيد الصليبيين قد ذهبوا إلى صور لأنها كانت حاضرة البلاد وكانت محصنة جيداً ليس من السهل اختراق تحصيناتها أو السيطرة عليها.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٦

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٦

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٧

تأخرت المعونة قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الأفرنج ليأسهم من نصره الأفضل قائد الجيوش في مصر، فأرسل الأتابك جماعة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على مئتي فارس، وصلت إلى صور كما وصلت رجاله كثيرة من جبل عامله رغبوا في ذلك مع رجاله من دمشق وصلوا إليهم^(١). وحين عرف بغدوين ما تقر بين أتابك وأهل صور، بادر بالنزول عليها فيمن جمعه وحشده، في اليوم الخامس والعشرين من جمادى من هذه السنة، وقطع الأشجار والنخيل* وبني بيوت الإقامة عليها وزحف إليها فقاتلها عدة دفعات ويعود خاسراً لم ينل منها غرضاً^(٢). وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيّم على بانياس، وبث سراياه ورجاله الحرامية في أعمال الأفرنج وأطلق لهم السلب والنهب والقتل والإخراب والحرق لإزعاج بغدوين ودفعه للرحيل عن صور، ولكن أفعاله لم تجدي نفعا، وعمل الصليبيون برجين من الخشب لوضعهما على السور، وزحف ظهير الدين على صور عدة دفعات ليشغل الصليبيون وتتاح الفرصة لأهل المدينة للخروج وإحراق هذين البرجين. وعرف الصليبيون قصده في ذلك، فخذقوا على صور من جميع الجهات ورتبوا على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج، ولم يبالوا بما يفعل ظهير الدين ولا بما يجري على أعمالهم من الغارات عليها والفتك بمن فيها^(٣). وجاء الشتاء فلم يضراً الأفرنج لأنهم كانوا نازلين في أرض رملية صلبة، والأتراك بالضد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدة عظيمة، لكنهم ظلوا مثابرين على الإغارة وقطعوا الجسر الذي كان يُعبر عليه إلى صيدا ليضيقوا على الأفرنج، لكن هؤلاء استعملوا الطريق البحري لنقل الميرة إليهم، ففطن ظهير الدين لذلك ونهض في فريق وافر من العسكر إلى ناحية صيدا وغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق تقدير عشرين مركباً على الشط وهو مع ذلك لا يهتم إصدار الكتب إلى أهل صور بتقوية قلوبهم وتحريضهم على استعمال المصابرة للأفرنج والجد في قتالهم^(٤). وتم عمل البرجين في تقدير خمسة وسبعين يوماً، وشرع في تقديمهما والزحف بهما في عاشر شعبان، وقرباً من سور البلد واشتد القتال عليهما. وكان طول البرج الصغير منهما نيّفاً وأربعين ذراعاً، والكبير يزيد على

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٨

* يبدو أن صور كانت محاطة بأشجار النخيل، وربما كانت هذه الشجرة منتشرة في بقاع جنوب لبنان وفلسطين.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٨

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٨

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٩

الخمسين ذراعاً^(١). ولما كان أول شهر رمضان خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والخطب والقطران وآلة الحرق، فلم يتمكنوا من الوصول إلى شيء منهما، فألقوا النار قريباً من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الأفرنج من إطفائها فهبت الرياح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه والمكافحة العظيمة عنه ونهب منه زرديات كثيرة وطوارق وغير ذلك واتصلت النار بالبرج الكبير، لكن الأفرنج تجمعوا في إطفاء النيران، وواظبوا الزحف على صور إلى آخر شهر رمضان، وقربوا البرج إلى بعض أبراج المدينة، وطموا الخنادق^(٢). وكان هناك رجل من مقدمي البحرية عارفاً بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب، قد بادراً إلى عمل كلاليب حديد لمسك البرج إذا نطح بالسور من رأسه ومن جانبه بجمال يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم^(٣)، وعمد البحري المذكور إلى سلال العنب والقفاف يجعل فيها الزيت والقيرو يطلق فيها النار في أعلى البرج فيبادروا بإطفائها بالخل والماء، فيبادر برفع أخرى ومع هذا أيضاً يرمي بالزيت المغلي بقدر صغار على البرج فيعظم الوقيد، فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضاً وقويت، قهرت الرجلين المتولين لرأس البرج وقتل أحدهما وانهزم الآخر ونزل منه فتمكنت النار من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثانية من رأسه ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب وقهرت من كان حوله من الطبقات وعجزوا عن إطفائها وهرب كل من فيه وحوله من الأفرنج وخرج أهل صور فنهبوا ما فيه وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف^(٤). فعند ذلك وقع يأس الأفرنج منه وشرعوا في الرحيل وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المكان لسكناهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم في الساحل لأنهم كانوا أخذوا صواريخها وأرجلها وآلاتها لعمل الأبراج. وكانت عدتهم تقدير مئتي مركب كباراً وصغاراً منها تقدير ثلاثين مركباً حربية، وحملوا في بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا في العاشر من شوال من السنة، وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف شهر، وقصدوا عكا وتفرقوا إلى أعمالهم^(٥).

وخرج أهل صور وغنموا ما ظفروا به منهم وعاد الأتراك إلى دمشق وقد فقد

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٩

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٩

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨٠

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨٠

منهم في الحرب نحو عشرين رجلاً، وكان لهم فيها رواتب كل شهر^(١).

وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعمئة نفس ومن الأفرنج تقدير ألفي نفس^(٢). ولم يف أهل صور بما كانوا بذلوه لظهير الدين أتابك من تسليم البلد إليه ولم يظهر لهم في ذلك قول. وقال: «إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا رغبة في مال ولا مملكة. فكثرت الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه وبالع في المعونة عليه فعاد إلى دمشق. وشرع أهل صور في ترميم ما دمره الأفرنج من سور المدينة وأعادوا الخنادق إلى حالها ورسمها بعد طمسها، وحصنوا البلد وتفرق من كان فيه من الرجال»^(٣).

ويتبين من هذا النص أن أهل صور بشبائهم وصمودهم وبمساعدة أتابك دمشق طغتكين لهم تمكنوا من إفشال هجوم الصليبيين في المرة الأولى وأخروا سقوط المدينة.

ويعترف وليم الصوري بفشل شعبه في الهجوم على صور فيقول: «غير أن أهل البلد أثبتوا أنهم رجال أذكى وأبطال مغاوير، بارعون في تدبير كل أنواع المكائد، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة مثلها ويجدون في دفع كل ضرر ينزل بهم بضرر مثله يلقونه بالصليبيين، من ذلك أنهم جلبوا كميات كبيرة من الأحجار والأسمنت، واعتلوا برجين يواجهان آلاتنا الحربية تمام المواجهة، ثم راحوا يزيدون في ارتفاعهما زيادة تعلو ارتفاع أبراجنا، وسرعان ما صار برجاهما في وقت قصير جداً بأعلى من آلاتنا الخشبية التي أمامهما، والموجودة خارج السور، وشرع من بهما من مدافعيهم يصبون النيران على الآلات الحربية التي تحتهم، وتأهبوا لحرق كل شيء دون أن يجدوا معارضة لهم^(٤). حينذاك رأى الملك أن كل خطة يسيرها تقابل في الحال بخطة مثلها تفسدها، هذا بالإضافة إلى ما أصابه من إنهاك بسبب مواصلة الحمل الطويل الذي استمر أربعة أشهر أو أكثر دون أن يجني منه أي فائدة، وإذاك أدرك أنه يضيّع وقته أمام أسوار صور، فتخلى عن محاولته هذه مغلوباً على أمره في مشروعه، ورفع الحصار عن المدينة وانكفأ عائداً إلى عكا، وفرح الباقون بالرجوع إلى ديارهم»^(٥).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨١

(٢) - ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨١

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٨

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٢٩٨

ورغم هزيمة الصليبيين إلا أن أهل صور لم يأمنوا سربهم بل ظلوا يتوجسون خيفة منهم لإدراكهم أنهم لن يتخلّوا عن مشروعهم للسيطرة على هذه المدينة، ويقول أبو يعلى القلانسي: «في العام التالي اشتد خوف الصوريين من عود الأفرنج إلى منازلهم، فأجمعوا أمرهم على عز الملك أنوشتكين الأفضل الوالي الفاطمي بها على تسليمها إلى ظهير الدين أتابك بحكم ما سبق من نصره لهم في تلك النوبة، وندبوا رسولاً وثقوا به، فسار إلى بانياس وواليها الأمير سيف الدين مسعود، فتحدث معه وسار الأمير مسعود مع الرسول إلى دمشق، ولم يكن ظهير الدين في المدينة، بل كان في حماة، وخاف مسعود من تأخر النجدة فيعود الصليبيون إلى صور، فتحدث مع تاج الملوك بوري ابن ظهير الدين عن الأمر فوافق على ذلك، وكلف الأمير مسعود بالذهاب إلى صور ومعه من يعتمد عليه من العسكر، وعندما عرف الأتابك بالموضوع أرسل فرقة وافرة من الأتراك إلى صور تقوية لها فوصلت إليها واستقر الأمر للأتراك فيها، وحُمل إليهم من دمشق ما أنفق فيهم، وطُيب نفوس أهل البلد وأجروا على الرسم في إقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ولم يغيّر لهم رسم»^(١).

وأرسل ظهير الدين أتابك إلى الأفضل ابن أمير الجيوش بمصر يعلمه، «أن بغدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأن أهلها استنجدوا بي عليه والتمسوا مني دفعه عنهم فبادرت بإنهاض من أثق بشهامتهم لحمايتهم ومتى وصل إليها من مصر من يولى أمرها ويذب عنها ويحميها بادرت بتسليمها إليه وخروج نوابي منها وأنا أرجو أن لا يهمل أمرها وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها والتقوية لها»^(٢).

وأصبح سيف الدين مسعود والياً عليها وربما لم يرض المصريون بما جرى، بل قبلوه على مضض. وقد أساء سيف الدين مسعود السيرة مع أهل صور وأكثر من المصادرات، فأرسل الأهالي، في سنة ٥١٦، يلتمسون من الخليفة الأمر بأحكام الله أن يساعدهم، فقرر الخليفة طرده من الولاية، وأرسل الأسطول إلى صور، وهو مشحون بالرجال البحرية وطائفة من العسكر، وعندما وصل الأسطول إلى الميناء، خرج سيف الدين مسعود للسلام عليه ولا يدري ماذا دبّر له، فسأله رجال البحرية بالنزول إلى مركب المقدم للسلام عليه، فلما نزل تمّ اعتقاله، وأقلع الأسطول وسار إلى مصر، وعادت صور إلى أيدي الفاطميين، وعندما وصل مسعود إلى القاهرة تمّ إكرامه وأنزل في دار

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨٢

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨٢

وقدموا له ما يحتاج إليه^(١).

وعرف الصليبيون بخروج صور عن سلطة ملك دمشق وعودتها إلى المصريين، فطمعوا بمنازلتها من جديد، وما شحذ همتهم لهذا الأمر هو وصول دوق البندقية (موينجو ميكائيلي) على رأس أسطول مؤلف من مجموعة كبيرة من السفن إلى شواطئ فلسطين، كما يقول وليم الصوري، فأرادوا استغلال هذا الأسطول في حصار صور من البحر. وكان الملك الصليبي بلدوين الثاني قد وقع في أسر القائد التركي «بلك» وظل مأسوراً ثمانية عشر شهراً، فأرسل بطرك القدس «جرموند» ومعه «وليم بيوري» الكونستابل الملكي، وأمين خزانة المملكة «باينز» إلى قائد الأسطول يدعونه للحضور إلى القدس^(٢)، فحضر وتم الاتفاق معه على العدوان على صور، وسار الجيش الصليبي من البر، ولاقاه أسطول البندقية من البحر، حتى إذا كان اليوم السادس من شهر فبراير ١١٢٤ للميلاد، ضرب الحصار براً وبحراً على مدينة صور^(٣).

ويتحدث أبويعلي القلانسي عن الحصار الثاني لصور سنة ٥١٨ فيقول: «وفيها ملك الإفرنج صور، وكان أنه لما حصل بها الوالي المندوب من قبل مصر بعد مسعود، طيب نفوس أهلها، ولما عرف الإفرنج بأنصراف مسعود عن ولاية صور، تحرك طمعهم فيها، وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها. واتصل بالوالي صورة الأمر، وأدرك أنه لا طاقة له على مواجهتهم بمفرده لقلّة من بها من الجند والميرة، فأرسل إلى الوزير الفاطمي مأمون البطائحي يستحثّه على مساعدته، لكن البطائحي تقاعس عن إرسال النجدة، وكتب إلى الوالي أن يكاتب أتابك دمشق ليردّ المدينة إليه ليتولى الدفاع عنها، فندب الأتابك جماعة لحمايتها لم يكن فيهم كفاية ولا شهامة، ففسد أمرها بذاك وتوجه طمع الإفرانج حولها لأجله وشرعوا في النزول والتأهب للمضايقة لها ونزلوا بظاهرها في شهر ربيع الأول من السنة وضايقوها بالقتال والحصار إلى أن خفت الأقوات فيها وعدمت الميرة. وتوجه ظهير الدين في العسكر إلى بانياس للذبّ عن صور»^(٤).

لكن لم يذكر القلانسي أن أهل صور قاوموا هذا الحصار، كما لا يذكر أن طغتكين تدخل في المعركة بل يقول: «ونفذت المكاتبات إلى مصر باستدعاء

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢٠٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٧٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٣٧٨

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢١١

المعونة لها وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهلها على الهلاك وعرف أتابك جليلة الأمر، وتعذّرتلافها ووقع اليأس من المعونة لها فراسل الافرنج بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب إلى أن تقررت الحال على تسليمها إليهم بحيث يؤمن كل من بها ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية بما يقدرّون عليه من أحوالهم ويقيم من أراد الإقامة، ووقف أتابك في عسكره بإزاء الافرنج وفتح باب البلد وأذن للناس في الخروج فحمل كل منهم ما خف عليه وأطاق حملة وترك ما ثفل عليه وهم يخرجون بين الصفيين وليس أحد من الافرنج يعرض لأحد منهم بحبث خرج كافة العسكرية والرعية ولم يبق منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج فوصل بعضهم إلى دمشق وتفرقوا في البلاد وذلك في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ^(١).

بخلاف القلانسي، فإن وليم الصوري يتحدث بإسهاب عن مقاومة صور للحصار الصليبي فيقول: «وكان قد صدرت الأوامر إلى الأسطول بالتوجه إلى مرفأ صور، فتوجه وأرسى في مكان آمن، أما الجيش فقد احتل البساتين القريبة من المدينة ورتب معسكره على شكل دائرة تلتف حولها، فحال هذا الوضع بين الأهالي وبين الدخول إليها أو الخروج منها مما اضطّرهم إلى البقاء وراء الأسوار، على كره منهم، وكانت المدينة تخضع لسيدتين: أحدهما خليفة مصر الذي يملك ثلثيها باعتباره المالك الأعلى لها، أما الثلث الباقي فكان في يد سلطان دمشق لقربه منها»^(٢).

ويقول أيضاً: «بعد أن رتب الصليبيون متاعهم وفرغوا من جميع التنظيمات الأخرى على أحسن وجه استطاعوه؛ سحبوا كل سفنهم إلى البرحتى صارت قرب الميناء، ولم يتركوا سوى مركب واحد فقط، جعلوها على أتم أهبة لمواجهة أي طارئ يعرض لهم، ثم حفروا خندقاً عميقاً يمتد من البحر حتى يبلغ الخندق الداخلي فاحتوى به الجيش كله ثم جاؤوا إلى الميناء بكل ما يلزم لبناء السفن من المواد التي كان البنادقة قد جلبوا منها معهم كميات كبيرة، كما بحثوا في استقدام العمال لصنع شتى أنواع الآلات الحربية، وعمد البطرك وأشرف المملكة الذين كانوا يقومون بتصرّيف الأمور، حينذاك، بدلاً من الملك، إلى استدعاء النجارين والبنائين الحاذقين وزودوهم بكل ما يلزم من المواد، وكلفوهم ببناء برج شاهق الارتفاع يستطيع المقاتلون أن يشتبكوا عن قرب في محاربة المدافعين عن المدينة الموجودين بالأبراج التي

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢١١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٧

على الأسوار، كما يتمكنون من كشف المدينة كلها، ثم صدرت الأوامر ببناء آلات حربية قادرة على قذف الحجارة الضخمة لتدك الأسوار والأبراج، وتثبت الفرع في قلوب المقيمين داخل المدينة^(١). وفعل دوق البندقية وجماعته ما فعلته جماعة الملك، فقاموا ببناء آلات مشابهة لهذه الآلات ونصبوها في أماكن استراتيجية مهمة، وأقبلوا على العمل بهمة لا يتطرق إليها الكلل، وشدة لا يتسرب إليها الوهن، وأطبقوا على الأهالي شيئاً شيناً وزادوا من مضايقتهم لهم دون أن تتوقف آلات الحصار لحظة عن رمي المكان رمياً يلحق به الدمار، كما أن غارات الصليبيين المتتالية وهجماتهم المستمرة التي لا انقطاع لها لم تتح للمدافعين الذين كانوا يبذلون غاية جهدهم لحماية أنفسهم، فرصة يلتقطون فيها أنفاسهم ويحاولون في الوقت نفسه، صد هجمات أعدائهم المسيحيين وتكبيدهم المضرة، فبنوا هم أيضاً، داخل المدينة، آلات تقذف صخوراً ضخمة راحت تتساقط بلا انقطاع على أبراج الصليبيين، وكان لهذا الخوف الذي أوقعته الأحجار المتساقطة، أثره في رجحان كفة أعدائنا، حتى صارت لهم اليد العليا لاسيما في هذه الناحية التي لم يعد أحد من الصليبيين قادراً على البقاء فيها، حتى إن الذين شاء قدرهم أن يقوموا بحراسة الآلات كانوا لا يجروون على الاقتراب منها، فإن هم حاولوا ذلك خافوا وولوا على أعقابهم ولم يستطيعوا البقاء داخل هذه الآلات، لأنهم إن فعلوا ذلك تعرضوا لأشد أنواع المهالك، كل هذا والعدو مرابط في أماكنه بالأبراج العليا وقد تسلاح بالأقواس والسهام يواصل قذفهم بوابل من الرماح والنشاب وبسيل جارف من الصخور الضخمة التي لم ينقطع رميها من داخل المدينة مما ضيق الخناق على الصليبيين الذين لم يعودوا قادرين على أي شيء حتى ولو كان ذلك إخراج أيديهم^(٢). ومع ذلك فقد تمكنت جماعتنا الموجودة في أبراج الحصار أن ترد الضربة العنيفة ينزلها بها العدو بضربة تماثلها عنفاً، وأن تعادل القوة بقوة تعادلها بطشاً، مما حمل المدافعين الذين كانوا على الأسوار في الأبراج على مجابهة هذه المحاولات الضارية، إلا أن الضعف تسرب إليهم، فوهن عزمهم، وأصابهم الكلل فتراخوا عن تحمل أعباء القتال، وإن لم يمنع ذلك الأمر الموكلين بإدارة الآلات من الاستمرار في استرشادهم بالخبراء في قذف الصواريخ ورمي الأحجار الضخمة، فحدث ما يشبه الانهيار التام في الأبراج والأسوار لشدة الرمي وكثرة التراب الذي تثيره الحجارة المتساقطة، فانعقدت من أثره سحب أضعفت بأس الآلات، وأقامت ساتراً ترائياً فصل بين المتحاربين من الجانبين حتى أصبح من الصعب على المدافعين الموجودين فوق الأبراج أن يروا الصليبيين، كما

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٩

أن جميع الصواريخ الطائرة المارة فوق الأبراج والتحصينات راحت تتساقط بعنف في داخل المدينة فتدمر العمار الضخمة وتفتتها وتهلك سكانها^(١). ومرت الأيام بعضها في إثربعض والقوم يقاتل بعضهم بعضاً قتالاً لا يدرك أحد خاتمته، وكان في المدينة سبعة فارس من فرسان دمشق، قد شددت فعالهم أزر سكان البلد الذين وإن كانوا سراة القوم وأشرفهم إلا أنهم كانوا ضعافاً قد ركنوا منذ زمن بعيد إلى الدعة واستناموا للترف ولم يعتادوا القتال، وحاول هؤلاء الدماشقة أن يكونوا بما يعملون قدوة يحتذيها سكان البلد فيصمدون في وجه الخصم، فيمدهم هؤلاء الفرسان إذاً بالمعونة التي يحتاجونها، لكنهم ما لبثوا أن نفضوا أيديهم مما هم فيه إذ رأوا أنهم لا يستطيعون القيام وحدهم بأعباء الحرب، لاسيما لما كانوا يشاهدونه من تزايد بأس الصليبيين ونجاح محاولاتهم يوماً بعد يوم^(٢). على حين أخذت قوات المحصورين في التضاؤل وعسكرهم في النقصان نقصاناً يندربالخطر. في هذه الأثناء كانت نفوس أهل صور قد كُلت، وأنهكهم ما يلاقونه من الهجمات المتكررة والغارات المستمرة والأهوال التي لا حصر لها، فتراخوا في خروجهم للقتال، وتضاءلت حماساتهم في القيام بواجباتهم المفروضة عليهم، وتملكهم مزيد من الدهشة من أن مدينة كهذه المدينة يتوافد إليها الناس زرافات كل يوم براً وبحراً، وتكتظ غاية الاكتظاظ بشتى أنواع المتاجرات التي تأتيها عبر هذين الفريقين، أن تبلى بمثل هذه البلايا حتى ليعجز المواطنون والأغراب عن الدخول إليها أو المغادرة منها، كما أن الأطمعة بها أخذت في التناقص حتى كادت أن تعدم^(٣). وحينذاك تشاوروا فيما بينهم عما يصنعون، وانتهى بهم الرأي إلى أن يكتبوا إلى خليفة مصر وإلى سلطان دمشق يخبرونهما بالوضع البالغ السوء الذي يعيشون فيه، وسألوهما وألخوا في السؤال أن يبادروا إلى نجدهم، وأوضحوا لهم مدى جلد العدو وصبره وقوة شكيمة، وازدياد بأسه يوماً بعد يوم، وفصلوا لهم موقفهم الذي لا قدرة لهم على احتماله^(٤). وأدت هذه الخطوة التي قاموا بها إلى رفع الروح المعنوية بعض الشيء، وأخذوا في تشجيع بعضهم بعضاً على الصمود حتى أن الكثيرين منهم قد أثختهم الجراح فعجزوا عن القتال وأخذوا يحثون الآخرين ليستمروا في الصمود، ثم جاءهم من يخبرهم بأن ملك الدماشقة طغتكين قد حرّكه كتب المحصورين ورسائلهم، فغادر دمشق على رأس عسكر من الترك الذين لا يحصيهم العد، وأن معه في ركابه عدداً كبيراً من الفرسان، وقد

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ ص ٢٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ ص ٣٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ ص ٣٢

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ ص ٣٣

عسكر بهم على مقربة من صور على شاطئ نهر يبعد عنها ما يقرب من أربعة أميال، كما راجت الشائعة أنه سيصل إليهم في مدى ثلاثة أيام أسطول مصري أكبر مما جرت به العادة ومعه الإمدادات من الرجال والميرة اللازمة لأهل صور الذين قيل لهم أيضًا إن صاحب دمشق ينتظر إمدادات أخرى، وأنه من أجل هذا السبب قد تعمد تأجيل عبور النهر عن قصد، وأنه غير مهاجم الصليبيين حتى يفد الأسطول ليتيسر للقوة البحرية حرية الدخول إلى المدينة من غير عائق^(١). فلما علم قادة الصليبيين بهذه الأخبار اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ودبروا الأمر مليًا من شتى وجوهه ثم قرروا تقسيم الجيش إلى ثلاثة أقسام، على أن تخرج قوات الفرسان بأجمعها والمشاة المرتزقة بقيادة كل من كونت طرابلس ووليم بيوري كونستابل الملك ومدبر أمور المملكة، فإن كانت ثمة ضرورة تتطلب محاربة الدماشقة حاربهم هذا القسم، كذلك تقرر أن يبحر الدوق وقواته في الشواني، فإذا قدر لهم مصادفة أسطول المصريين فعليهم قتالهم ومحاولة القضاء عليهم بحد السيف بكونهم من المحاربين البسلاء، أما القسم الثالث فكان مؤلفًا من عامة الناس الذين توافدوا من شتى مدن المملكة للمشاركة في الحصار إلى جانب القسم الكبير من البنادقة، وقد أنيطت بهذا القسم حراسة الآلات الحربية والأبراج المتحركة ومراقبة التزام المحاربين الموجودين في آلات الحصار بأداء ما كلفوا به والتأكد من استمرار آلات الرمي في ما هو موكول إليها عادة، وعدم انقطاع القتال أمام الباب^(٢). واستصوب الجميع هذه الخطة، ورأوها ملائمة بحيث ينبغي تطبيقها في الحال ومن ثم بادركونت طرابلس ووليم بيوري كونستابل الملك إلى الخروج من المعسكر بجميع من معهما من الفرسان لصعد العدو، وتقدموا مسافة ميلين دون أن يجروا أتاك دمشق على البروز لهم، ومع ذلك فقد اتضح أن الأتاك كان قد ضرب معسكره عند النهر وهو مجمع على عبوره، لكن لما وافته الأخبار بأمر الخطة التي اتبعها الصليبيون أدرك صعوبة المواجهة، فأصدر أمره إلى جنوده بالعودة إلى ديارهم، أما الدوق فكان قد أعد أسطوله للقتال وأبحر، لكن لم يكن هناك أي دليل على مجيء الأسطول المصري، فسحب الشواني مرة ثانية إلى الشاطئ، وعاد الجميع إلى المعسكر ليضاعفوا حصارهم بشدة من ذي قبل^(٣). وكان أهل صور يلاقون الأمرين من وطأة المجاعة الفظيعة، ويكابدون ما لا طاقة لأحد به، مما حملهم على التفكير في طرق أخرى، فتجمعوا زمرةً يتناقشون كيف يضعون نهاية لهذه المصائب المحيقة بهم، فرأوا أن خير ما يفعلونه هو أن يسلموا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥

المدينة للعدو، وبذلك يبقون على حياتهم ويذهبون إلى مدن أخرى، وأدركوا أن هذا أجدى من الموت جوعاً^(١). وعلم ملك دمشق بالأحوال والمصائب التي يعاني منها أهل صور، فحركته بلواهم المفجعة فاستدعى حلفاءه من شتى النواحي وزحف بهم صوب البحر حيث كان قد نزل من قبل وعسكر مرة أخرى قرب النهر المتاخم لصور، فلما سمع الصليبيون بذلك خافوا من الغرض الكامن وراء حضور ملك دمشق، فرتبوا صفوفهم ثانية للحرب توقعاً منهم لنشوب معركة أمام أبواب المدينة، دون أن يصرفهم ذاك عما هم آخذون به أنفسهم من الاستمرار في تشديد الحصار بلا انقطاع، وإذ ذاك بعث ملك دمشق من لدنه رجالاً أهل فطنة وعقل ليكونوا رسله إلى زعماء الصليبيين، وكانوا يحملون مقترحات سلام، وانتهى الأمر بين الطرفين إلى عقد موادة بينهما تنص على أن تستسلم المدينة إلى الصليبيين على أن، يسمح أن يغادروا من أهلها من يشاء مغادرتها من تلقاء أنفسهم من غير إكراه لهم في ذلك الخروج، وأن يكونوا سالمين في أنفسهم ونسائهم وأبنائهم وكل متاعهم، أما الذين يؤثرون البقاء في صور فلهم ما أرادوا وتعود إليهم دورهم وممتلكاتهم^(٢)، ثم رفع بيرق الملك على البرج الموجود فوق باب المدينة رمزاً للنصر الذي أحرزه الصليبيون^(٣).

ويذكر وليم الصوري أيضاً، أن، جزءاً كبيراً من أعمال صور والتي يسميها (أبرشية)*، قد آل إلى الصليبيين منذ زمن طويل قبل استيلائهم على المدينة بل وقبل حصارها، ذلك أن كل الإقليم الجبلي القريب منها والممتد تقريباً إلى لبنان، كان قد انتقل بكل حصونه ومزارعه في هدوء إلى أحد القادة الصليبيين وهو «همفري»، وهكذا أصبحت صور وأعمالها بالكامل بيد الصليبيين.

ويذكر وليم الصوري أنه، «بعد خروج الأهالي من المدينة واستلامها من قبل الصليبيين، تم تقسيمها إلى ثلاثة أقسام اختص الملك بقسمين، أما القسم الثالث فكان من نصيب البنادقة»^(٤).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤١

* تعتبر الأبرشية، في بعض أشكال المسيحية، أصغر وحدة في النظام الكنسي. وهي جزء من أجزاء المركز. يرأس الأسقف الكنيسة الخاصة بالأبرشية.

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٣

١٤- احتلال عسقلان

ظلت عسقلان الفاطمية لأكثر من خمسين سنة تشكل رعباً كبيراً للصليبيين، لأن الفاطميين كانوا ينظرون إليها كقاعدة متقدمة وخط دفاعي أول عن مصر، ولذلك كانوا يهتمون بها كثيراً. فلا يتوانون لحظة عن شحنها بالرجال والميرة لتقوية دفاعاتها وجعلها تصمد وتقاتل من دون كلل.

للأسف لا تتحدث المصادر الشرقية التي كتبت عن تلك المرحلة إلا بشكل بسيط عن هذه المدينة، ولم تذكر مطلقاً جهاد أهلها ضد الصليبيين، وذلك لأن المؤرخين كانوا يحابون الترك، ولذلك تحاشوا الحديث عن جهاد الفاطميين إلا في مواضع لا يمكن إغفالها، ولهذا نراهم لا يتحدثون أبداً عن جهاد عسقلان لأكثر من خمسين سنة، واكتفوا بالإشارة إلى أنها سقطت بيد الصليبيين عام ٥٤٨هـ.

والواقع أن أكثر من أنصف عسقلان هو المؤرخ الغربي وليم الصوري الذي أسهب وأفاض في الحديث عن الخطر الذي كانت تشكله عسقلان على الوجود الصليبي في فلسطين، فيقول: «كان نجاح العسقلانيين المستمر دائماً لزيادة جرأتهم وشن المزيد من الغارات العنيفة المهينة، وعلى كثرة اجتياحهم للمنطقة كلها دون أن يتعرض لهم أحد فيصدهم، وكانت عسقلان تحت حكم والٍ مصري شديد البطش، وكان أخوف ما يخافه هذا الوالي أن يقتحم الصليبيون تلك المدينة ثم يغزوا مصر ويعكروا صفو هدوئها، ومن ثم أنه لم يبخل بالمال يصرفه، ولا بالجهد يبذله حتى تظل عسقلان خط الدفاع عن مصر والحائل بينها وبين الصليبيين^(١). وكان من عادة المصريين أن يرسلوا إلى عسقلان أربع مجموعات من العساكر سنوياً، تحل الواحدة محل الأخرى حتى تظل قوة العسقلانيين متجددة على الدوام، ومن ثم يكونون قادرين دائماً على متابعة القتال ضد الصليبيين وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة^(٢).

ويذكر أبو يعلي القلانسي أن، الملك الصليبي بلدوين عندما عاد من صيدا قصد عسقلان وأغار عليها وكان واليها شمس الخلافة يرأسه، فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله إليه ويرحل عنه ويكف الأذية عن عسقلان، وكان شمس الخلافة أرغب في التجارة عن المحاربة ومال إلى المودعة والمسالمة وتأمين السابلة^(٣). وعلم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ما فعله هذا الوالي

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ١٧٢

أنكر عليه موادة الصليبيين، وجهاز عسكريًا كثيفًا إلى عسقلان مع وإل يكون مكان شمس الخلافة، ولما عرف هذا بذلك أرسل إلى بلدوين يلتمس منه المعونة بالرجال والغلال، وأنه إذا فشل في الدفاع عن المدينة، فإنه سوف يسلمها للصليبيين^(١). ولما عرف الأفضل بذلك خاف من أن يأخذ الصليبيون عسقلان سلمًا، فكاتبه ولاطفه وأقطعه المدينة، وأقر إقطاعه بمصر عليه، ولم يزل على هذه الحال حتى وثب عليه قوم من كتامة فقتلوه أواخر سنة ٥٠٤، ونهبوا ماله، فدخل الوالي الجديد إلى المدينة وضبطها وحفظها^(٢). ولم يذكر القلانسي اسم هذا الوالي، لكن يبدو أنه ضبط المدينة وتابع جهاد الصليبيين على النهج المرسوم وفق توجيه الخليفة الفاطمي. وقد كثرت غارات الجيش الفاطمي من عسقلان على بلاد الصليبيين حتى أنهكت قوى هؤلاء وخربت لهم القرى والمزارع وراحوا يفكرون بالطريقة التي يمكن من خلالها وقف تلك الغارات.

ويذكر وليم الصوري أنه، «لما رأى الصليبيون أن ليس ثمة بارقة أمل تومي إلى وقف هذه الغارات الجريئة من جانب الأعداء لاستمرار تجدد قوتهم التي كانت كالحية ذات الرؤوس التسعة، كانوا كلما هلك طائفة من جندهم حلت أخرى مكانها، فيزدادون بأسًا على بأس، ولذلك قرر الصليبيون بناء بعض الحصون في أرجاء تلك الناحية لتكون مراكز دفاع لهم ضد هذا الوحش الذي كان عدده يزداد على الدوام، والذي كان كلما قتل رجال من رجاله وقيل انتهوا عادوا أكثر من ذي قبل فيضاعف خطرهم على الصليبيين^(٣). وتخبر الصليبيون موضعًا ملائمًا لهذا الغرض، واستعدوا لإعادة بناء مدينة قديمة درست معالمها وصارت أطلالًا وتعرف بأسم (بئر سبع)*، وجمعوا فيها الناس من أهل الناحية، كما جاء أيضًا البطرك والأشراف، وهكذا تمت المهمة التي خططوا لها، فبنوا على بعد أربعة عشر ميلًا من عسقلان، معقلًا حصينًا أحيط بسور لا يمكن اقتحامه، وزود بالأبراج والتحصينات، وحفروا حوله خندقًا، ولما فرغوا من بناء الحصن وكمل من كل ناحية، اتفقوا على تسليمه للاستتارية»^(٤).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٢

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣١
* بئر السبع، من أكبر وأقدم مدن فلسطين، تقع على بعد ٧١ كم جنوب غرب القدس. وهي أكبر مدن منطقة النقب الصحراوية، إذ تسمى أحيانًا «عاصمة النقب». وتعتبر المدينة، المركز الإداري والتجاري لهذه المنطقة التي تمتد جنوبًا حتى مدينة أم الرشراش على البحر الأحمر.

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٢

ويقول وليم الصوري: «لقد أحسن هؤلاء الاستراتيجية الحفاظ على ما عهد به إليهم فحُصَّت حُدَّة غارات الفاطميين في تلك الناحية^(١). لكن رغم ذلك فقد استمر الفاطميون من عسقلان بهجماتهم ضد الصليبيين، فكانوا يغيرون على بلادهم في القدس وما حولها فيقتلون ويأسرون وينهبون، وشعر الملك الصليبي «فولك*»، الذي حكم بعد موت بلدوين الثاني، ومعه أمراء المملكة، كما يقول وليم الصوري، بضرورة وضع نهاية لعبث أهالي عسقلان بالفساد والتدمير الفظيعين، ورأوا كبح جماحهم أو على الأقل تحجيم اجتياحهم الإقليم، فاستقرَّ الرأي على بناء قلعة هناك متاخمة لمدينة الرملة وقريبة من اللد حيث يوجد تل مرتفع بعض الشيء عن السهل، وعلى الفور قام الصليبيون بتشييد قلعة من الصخر الشديد الصلابة، وعندما اكتمل بناء القلعة عهدوا بحفظها إلى أحد النبلاء ويدعى «باليان*» الكبير والد كل من «هيج» و«بلدوين*» و«باليان الصغير»^(٢). وكانت تلك القلعة تدعى «أبلين» وكان قيام قلعتي بئر سبع وأبلين تجربة أقنعت الصليبيين أنهم قد أحرزوا تقدماً في مواجهة عسقلان، فقرروا بناء قلعة ثالثة، وكان هناك موضع يدعى «تل الصافية*». يبعد عن عسقلان ثمانية أميال، وكان يقع على تلة صغيرة. فاتفقوا على بناء قلعة عليه، وجيء بالعمال وتجهز الناس بكل ما يلزم للبناء، وأقاموا حصناً من الصخر الصلد على أساس قوي، وزينوه بأربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم إذا اعتلاها المرء يطالع من هذا العلو مدينة عسقلان على امتداد البصر لا يججبها عن ناظره عائق^(٣).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «- وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٢٢
* بعد موت الملك بلدوين الثاني إثر مرض في القدس سنة ١١٣١ للميلاد ٥٢٤ للهجرة، تسلم الملك بعده زوج ابنته مليند ويدعى «فولك» وكان هذا ابن كونت تورين ومين وأنجو، أما أمه فاسمها برترادا وهي أخت أموري دي مونفترات، وكان فولك قد ذهب إلى بيت المقدس بعد موت زوجته وقبل أن يستدعيه الملك، وكانت علاقته بجميع البارونات تتسم بالمودعة القوية، إذ ظل مدة عام بأكمله يصرف من ماله الخاص وهو في المملكة، على مائة فارس، ثم عاد بعد ذلك سالماً إلى بلاده حيث راح يستعد لتزويج ولديه وابنتيه، وينظم أمور كونتيتيه على أحسن الوجوه، وكان بلدوين مهتماً بتدبير زوج لابنته الكبرى حتى يطمئن لانتظام الأمور من بعده في حكم المملكة، لذلك أجرى مشاورات نزل بعدها على نصيحة أشرف المملكة وموافقة الشعب أيضاً، فأرسل إلى فولك اثنين من كبار رجاله هما: «وليم دي بيوري»، و«جي دي برنار» ليخطبا إليه ابنة بلدوين ويصبح وريثاً للعرش، ومن ثم عمده فولك إلى تنظيم أموره ونظم شؤون كونتيتيه، وبدأ رحلته استجابة لدعوة الملك، فما انقضت أيام قلائل من وصوله إلى المملكة حتى رَفَّ الملك إليه ابنته الكبرى مليند، وجعل صداقها مدينتين ساحليتين هما صوروعكا حيث ظل فولك محتفظاً بهما لمدة ثلاث سنوات تقريباً. تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٩٠ - ٩١ - ٩٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢١٠
* باليان (Balía)، هو حداد من فرنسا انتقل برفقة والده إلى القدس، حكم مقاطعة أبلين التي تعدّ حامية للطريق إلى القدس.

* تل الصافية أو «الصافي»، قرية عربية تقع في الشمال الغربي من مدينة الخليل. وهي قريبة من حدود قضاء غزة والرملة.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار» الحروب الصليبية «- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢١١

وقد أثبتت هذه القلعة بالدليل القاطع أنها أكبر عقبة كأداء أمام العسقلانيين، وأنها مصدر خطر داهم عليهم إن هم فكروا في الهجوم على بلاد الصليبيين، وكان هذا الحصن يعرف باسم «بلانش كارد» * ومعناه باللاتينية «برج المراقبة الأبيض»^(١). وقد وضع الملك «فولك» هذه القلعة تحت حمايته هو ذاته، وزودها بكميات ضخمة من الأطعمة وبالذخيرة، وعهد بحراستها إلى رجال أشداء، وكان حراس هذه القلعة والقلاع الأخرى يتولون صد هجومات الفاطميين من عسقلان قبل أن يصلوا إلى الإقليم الصليبي، وقد ترتب على ذلك أن أصبح سكان الإقليم المجاور يعتمدون اعتماداً كبيراً على هذه القلعة والقلعتين الأخريين، ونشأت ضواحي كثيرة فسكنتها أسر كثيرة عاشت جنباً إلى جنب مع الفلاحين في مزارعهم، وغدت الناحية أكثر أمناً وازدهاراً لازدهارها بقاطنيها وتوافر كل ما يحتاجه الإقليم المجاور من المؤونة^(٢). ولما رأى أهل عسقلان إحداق القلاع المنيعة بمدنيتهم تضاءلت ثقتهم في قدرتهم على المقاومة عن ذي قبل، ونعمت المملكة الصليبية بحال من الطمأنينة المرضية»^(٣).

ويتبين من هذا النص أن الصليبيين اضطروا إلى بناء ثلاث قلاع وشحنها بالرجال والسلاح من أجل صد الهجمات المتلاحقة للعسقلانيين، ورغم بناء تلك القلاع فقد ظلّ الصليبيون يتحاشون الهجوم على عسقلان، بل إنهم تبينوا أن قلاعهم تلك غير كافية لمنع الهجمات عليهم، فلجأوا إلى بناء قلعة جديدة وهي «غزة» مؤملين من وراء ذلك أن يكبحوا جماح أعدائهم العسقلانيين الأشداء وإيقاف غاراتهم المدمرة^(٤). وكانت غزة، كما يقول وليم الصوري، «خراباً قد هجرها أهلها من زمن بعيد، وهي تقع على بعد عشرة أميال جنوب عسقلان»^(٥).

ويذكر أبو يعلي القلانسي بناء الصليبيين لغزة فيقول في أحداث سنة ٥٤٤: «وكان الافرنج قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة»^(٦). لكن القلانسي لا يخوض في تفاصيل بناء غزة بعكس وليم الصوري الذي توسع في الشرح

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢١١
* بلانش كارد، كم تستخدم عبارة «بلانش كارد» أو كما يلفظونها «كارت بلانش»، بين العرب، والكثيرون لا يعلمون معناها الحقيقي. وهذا جزء من يقلد الأغيار على غير هدى.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢١٢

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢١٢

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٩

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٩

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٣٠٨

عنها، حيث يقول: «لقد كانت هذه المدينة إحدى مدن الفلسطينيين الخمس، وقد اشتهرت بمبانيها وكنائسها وبيوتها الفسيحة، وإن استحالت اليوم إلى أطلال دارسة، ومع ذلك فإن هذه الأطلال تشير إلى ما كان لغزة من المجد الغابر في سالف العصور، إذ لا يزال بها كثير من الصهاريج والعيون الزاخرة بالمياه العذبة، هذا إلى جانب قيام البلد على نجد مرتفع بعض الشيء، وتضم أسوار المدينة أراضي فسيحة الاتساع»^(١).

ويقول وليم الصوري: «ولقد أدرك الصليبيون أن ليس من الأوفق إعادة بناء المدينة، ومن ثم عمدوا إلى ناحية من التل حفروا فيها الأساس على عمق ملائم، وشيدوا قلعة ذاعت شهرتها بفضل سورها وأبراجها، حتى إذا ما أنجزوا ما كلفوا به من العمل، واستوى البناء من كل نواحيه اتفقوا على أن يعهدوا به إلى رعاية فرسان المعبد ليكون ملك يمينهم على الدوام، وراح هؤلاء يشنون الغارات على عسقلان تارة جهراً وتارة من خلال الكمائن، وقد برهنت غزة على جدواها ليس فقط في ردع عسقلان التي شيدت لمضايقتها بل إنها أصبحت بعد احتلال المدينة تستعمل خط دفاع حصين من الناحية الجنوبية وصارت مظلة أمان كبرى للإقليم ضد المصريين»^(٢).

ورغم تشييد كل تلك القلاع، لكن المصريين لم يتوقفوا عن مهاجمة حصون وبلاد الصليبيين. ويقول أبو يعلي القلانسي في أحداث سنة ٥٤٧هـ: «في هذه السنة وردت الأخبار من ناحية عسقلان في يوم الخميس العاشر من المحرم بظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون»^(٣).

وهذه الواقعة يثبتها وليم الصوري فيقول: «لَمَّا كان مطلع الربيع وقد فرغوا بعض الشيء من بناء القلعة عاد الملك والبطرك إلى القدس تاركين بغزة فرسان المعبد الذين وكل إليهم الحفاظ على القلعة، وكانت عادة المصريين أن يبعثوا قوات جديدة ثلاث أو أربع مرات على مدار السنة لدعم قوة العسقلانيين، لكن حدث بعد رحيل الملك أن ظهرت هذه القوات بأعداد هائلة أمام حصن غزة وشنت هجوماً ضارياً على الناحية مما حمل أهل البلاد على الفرار خوفاً من العدو، ومع ذلك فقد رأى قادة هذه القوات بعد أيام عدة بددوها في الحصار أن يرحلوا إلى عسقلان، وظهر للعيان أن بأس العدو قد أخذ منذ ذلك الحين في الضعف، وأن خطرهم يتضاءل يوماً

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٣٠

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٣١٨

بعد يوم حتى كفّوا أخيراً عن اجتياح الأراضي التي حولهم»^(١) وفي سنة ٥٤٨، وبعد سنوات طويلة من الحروب المستمرة بين العسقلانيين والصليبيين، قرر هؤلاء الاستيلاء على عسقلان، ووضعوا، كما يقول وليم الصوري، هدفاً لهم يتمثل في تدمير الأبراج الموجودة حول المدينة، وهي الأبراج التي كانت ذات قيمة عظيمة للمواطنين هناك، ورأى الصليبيون أنه إذا ما تيسر لهم تدمير تلك الأبراج لكفاهم هذا^(٢). وقام العسكر الصليبي كله ونزل أمام المدينة، وعندما رأى العسقلانيون ذلك انكفأوا وراء الأسوار، وأرسل قادة الجيش الصليبي إلى الملك وبقية زعماء المملكة للحضور إلى هناك، فمضى الملك والبطرك وبقية الزعماء من علمانيين وروحانيين، ومعهم ما يسميه وليم الصوري، «الصليب واهب الحياة»، وهو الذي يسمى عند المؤرخين الشرقيين «صليب الصلبوت» وعسكروا أمام عسقلان، وكان ذلك يوم ٢٥ يناير سنة ١١٥٣^(٣)، ويقول وليم الصوري: «وكان بين كبار رجال الكنيسة الحاضرين، (بطرك بيت المقدس)، و(بطرس) رئيس أساقفة صور، و(بلدوين) رئيس أساقفة قيصرية، و(روبرت) رئيس أساقفة الناصرة، و(فردريك) أسقف عكا، و(جيرالد) أسقف بيت لحم. كما حضر (برنارد دي ترمبيلي) رئيس فرسان المعبد، و(ريموند) رئيس الاسبتارية،^(٤) كما حضر من الأمراء العلمانيين (هيج الإبليني) و(فيليب النايلي) و(همفري) صاحب تورون، و(سيمون) صاحب طبرية، و(جيرالد) صاحب صيدا، و(جي) صاحب بيروت، و(موريس) من مونتريال، و(رينودي شاتيون) و(وولتردي سنت أومير)، وكان هذان الأخيران من العاملين بالخدمة في جيش الملك بأجر يجريه عليهما^(٥). كما أن الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمستعد للإبحار قد وضع تحت قيادة (جيرالد) الصيداي، وهو أحد كبار رجال المملكة الصليبية، بهدف منع اقتراب أي أحد من ناحية البحر، وكذلك منع أية محاولة للخروج من المدينة^(٦).

وجمع الصليبيون العمال وأمرهم ببناء برج من الخشب يكون مرتفعاً ارتفاعاً كبيراً جداً، وغطوه بالجلد والأدم من الداخل والخارج مما يجعله بمنجاة من النار ومن كل ما يضر، وبذلك يكون المحاربون الذين بداخل هذا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٣١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٤٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٠

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥١

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٤

البرج آمنين على أنفسهم أثناء مهاجمتهم المدينة^(١).

وكان القتال مستمراً في جهات متعددة على امتداد الأسوار، وكان من النادر أن يمر يوم دون حدوث مجزرة بالإضافة إلى العدد الكبير من الجرحى من الجانبين^(٢). واستغاث العسقلانيون وطلبوا النجدة والمساعدة من مصر، لكن تأخرو وصول الإمداد إليهم، فأرسلوا إلى الملك التركي محمود بن زنكي في حلب يطلبون منه المساعدة في دفع الصليبيين عن مدينتهم.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٤٨ فيقول: «وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين سلطان حلب والشام بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في إخراج الشرك والطغيان وبنصرة أهل عسقلان على النازلين عليها من الأفرنج وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخدول، والله يحرسها من شرهم، واقتضت الحال توجّه مجير الدين صاحب دمشق في جمهور عسكره للتعاقد على الجهاد في يوم السبت الثالث عشر من المحرم، ونهضوا طالبين ثغر بانياس ونزلوا عليه في يوم السبت التاسع وعشرين صفر، وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب امتلاكه، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين، ففضى الله بالخلف بينهم والقتل وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم ولا عسكر منهم أرهقهم ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالماً في نفسه وجملته في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ربيع الأول، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره»^(٣).

ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة فيقول: «إنه بعد استيلاء نور الدين على دمشق بإخضاعه كل ما حولها سعى لمساعدة عسقلان على قدر ما يسمح له بعدها عنه، فاستغل انشغال الصليبيين بما هم فيه وحاصر بانياس الواقعة في أقصى أطراف المملكة، مؤملاً من وراء ذلك أن يرغم قومنا على رفع الحصار عن عسقلان، حيث يستنجد بهم أهل بانياس المحاصرة، لكن شاءت رحمة الرب ألا تتحقق آماله الضخمة وألا ينجح مشروعه، فقد فشل في حصاره لبانياس، كما أن الصليبيين نجحوا في إرغام العسقلانيين على

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٦

(٢) المرجع نفسه - ص ٣٥٧

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢١

التسليم لهم»^(١).

وللأسف لا يذكر القلانسى ولا غيره من مؤرخي الشرق شيئاً عن عسقلان ولا عن موقعها، لكن المؤرخ الغربي وليم الصوري قدم صورة رائعة عن وضع هذه المدينة العظيمة في تلك المرحلة من تاريخها فيقول: «وعسقلان واحدة من مدن الفلسطينيين الخمس، وتقع على ساحل البحر على شكل نصف دائرة، ويمتد قطرها بامتداد الشاطئ، على حين يقع قوس دائرتها على الأرض المطلية نحو الشرق، وتوجد المدينة كلها في حوض ينحدر إلى البحر، وتحوطها من شتى نواحيها الروابي الصناعية التي تنهض عليها الأسوار ذات الأبراج التي تفصل بعضها عن بعض مسافات متساوية، وكلها مبنية من الحجر الأصم، ويربط بعضها ببعض الأسمنت* الذي هو أشد صلابة من الحجر، أما أسوارها فعريضة الاتساع ذات سمك لا بأس به وارتفاع كبير، كما أن المدينة، زيادة على ذلك، محاطة باستحكامات إضافية لها ذات الصلابة وقد أحكم تحصينها، ولا توجد جداول مائية داخل نطاق الأسوار أو على مقربة منها، لكن تتوفر داخلها وخارجها الآبار التي تمدّها بالمياه العذبة الصالحة للشرب، ولما كان الأهالي أحرص ما يكونون على كل ما فيه خيرهم والحفاظ على حياتهم، فقد قاموا ببناء صهاريج داخل المدينة لتجميع مياه الأمطار بها، ويوجد بالسور أربعة أبواب بولغ في جعلها أقوى ما تكون في الدفاع، وذلك بفضل ما زودت به من الأبراج الضخمة الشاهقة التي يواجه أولها الشرق ويعرف بالبوابة الكبرى، وأيضاً باب القدس لأنه يطل على المدينة المقدسة، ويوجد أعلاه برجان مرتفعان أشد الارتفاع ويرجع إليهما الفضل في الدفاع عن المدينة الرابضة تحتها، كما يوجد في الفصيل الواقع أمام هذه البوابة ثلاثة أبواب أو أربعة أصغر منها، تفضي بسالكها إلى المدخل الرئيسي عبر دروب مختلفة متعرجة، أما البوابة الثانية فتطل على الناحية الغربية وتسمى (باب البحر) لأن الناس يخرجون منها إلى البحر، أما البوابة الثالثة فتطل على الناحية الجنوبية وتواجه الطريق المؤدي إلى غزة، ولذلك سميت بوابة غزة، أما البوابة الرابعة فتطل إلى الشمال وتسمى، بوابة يافا، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى المدينة المجاورة لها التي تقع على نفس الساحل^(٢)، على أن بعسقلان من ناحية أخرى عيباً يرجع إلى أن موقعها لا يتيح لها أن تكون ميناء أو مرفأ يصلح لرسو السفن، فشاطؤها رملي جداً، كما أن الرياح القوية تجعل البحر المحيط بها عاصفاً جداً مما يحمل كل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٠.
* الاسمنت، يبدو أن المصريين آنذاك كانوا يعرفون صناعة الاسمنت، وكانوا يستخدمون هذه المادة الصلبة في البناء.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٢

مقرب منها على التخوف منها إلا إذا كان الجو شديد الهدوء^(١). ويغطي الرمل أغلب الحقول المحيطة بها مما يجعلها غير صالحة لزراعة أي شيء إلا الأعشاب وأشجار الفاكهة، ومع ذلك فإنه توجد في الناحية الشمالية منها بضعة وديان قلائل تجود على أهلها بقدر لا بأس به من الفواكه والخضار حيث يحسن تسميدها تسميداً جيداً، وتعتمد في ريها على مياه الآبار^(٢). والمدينة مكتظة بالسكان الذين يجري عليهم خليفة مصر من خزانته رواتب يدفعها لهم جميعاً، حتى لأقلهم اعتباراً، بل لأطفالهم*، وكان الخليفة وأمرأؤه يبذلون أكرم البذل للحفاظ على عسقلان وحمايتها، ويحملهم على ذلك إيمانهم بأنه إذا قدر للمدينة أن تسقط في قبضة الصليبيين، فلن يحول حائل حينئذ بين قادتهم وبين غزو مصر وامتلاكهم إياها عنوة، لذلك اعتبر المصريون مدينة عسقلان حصن أمان لهم وخط دفاع عنهم، واعتادوا أن يغدقوا العون لها في إسراف أربع مرات في السنة، وكان المصريون ينعمون بالسلام الذي يتطلعون إليه ما دامت عسقلان في مركز يمكنها من مقاومة جهود الصليبيين العنيفة ضدها وردهم عنها دون أن يبلغوا منها إرباً، لذلك كان المصريون يبذلون الأموال الجمة لإمداد المدينة بكل ما هي في حاجة إليه ويجهزونها بالسلاح والطعام والعسكر الذي يتجدد في فترات منتظمة من السنة^(٣).

ويقول وليم الصوري أيضاً: «وكان الصليبيون فرساناً أحياناً، ومشاة أحياناً أخرى، يقومون كل يوم على وجه التقريب، بالإغارة على المدينة، ومع ذلك فقد قاوم الأهالي هذه المحاولات بشكل دلّ على شجاعتهم، وما هم عليه من روح عالية لأنهم كانوا يدافعون ذوداً عن حريمهم وأبنائهم، وأهم من هذا كله أنهم كانوا يقاتلون دفاعاً عن حريتهم ذاتها، وكان النصر في هذه الاشتباكات تارة إلى جانب الأهالي، وتارة في جانب الصليبيين^(٤). وكان الأهالي يبذلون أكرم البذل في حراسة البلد لاسيما في الليل، فكانوا يستخدمون العسس يتناوبون الحراسة فيما بينهم، بل إن كبار زعماء المدينة ساهموا بدورهم في حراسة الأسوار التي كانوا يقضون الجانب الأكبر من الليل في تفقدتها دون

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٣

* يخبرنا وليم الصوري عن أمرهم وهو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يقدمون رواتب لأهل عسقلان وحتى لأطفالهم من أجل تشجيعهم على الصمود في وجه الصليبيين.

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٤

أن تغمض لهم عين^(١). وكانت توضع على طول الأسوار والأبراج الحصينة مصاييح زجاجية ملئت بالزيت، ولها أغطية شفافة للحفاظ عليها وعلى شعلتها من الانطفاء مما كان يحيل الليل إلى نهار ساطع^(٢).

استمر الحصار مضروباً على عسقلان أربعة أشهر دون وقوع أي تغيير، حتى إذا اقترب عيد الفصح جاء أعداد كبيرة من الأوروبيين إلى القدس، فأرسل الصليبيون رسلاً من الجيش ينهون هؤلاء، بأمر الملك، من العودة إلى ديارهم، ويدعونهم للمساعدة في الحصار، ويعدونهم بدفع أجر لهم لقاء هذا العمل، كذلك صدرت الأوامر إلى جميع السفن بالإبحار إلى عسقلان، وهكذا أخذت قوة الجيش الصليبي تزداد.

أما موقف أهل عسقلان فكان، على العكس من ذلك، إذ عمّهم الحزن، وفشا فيهم الجوع أكثر وأكثر، وتضاءلت ثقتهم في قوتهم الذاتية، لكنهم على الرغم من ذلك ورغم التحديات الكثيرة التي كانوا يصادفونها، كانوا ينهضون للقتال، وكثيراً ما بعثوا إلى الخليفة (الظافر بأمر الله)، المرة تلو المرة يلتمسون منه إسعافهم بالنجدة في أسرع وقت، وحذّروه أنه إذا لم تصلهم النجدة فلا مفرّ لهم من التسليم^(٣).

وأخذ الخليفة كل الاستعدادات اللازمة لمساعدتهم، فأمر كبار المسؤولين عن هذا العمل بتجهيز الأسطول وجمع العسكر، وزود السفن الطويلة بالأسلحة وشحنها بالمعونة وآلات الحرب، وأخرج من المال ما يلزم للنفقة وعيّن القادة، وحذرهم من التأخير، وأمرهم بالسرعة في الخروج^(٤). وظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة، فما إن شاهده العسقلانيون حتى رفعوا الأكف إلى السماء وتعالّت أصواتهم هاتفة بأن ليس أمام الصليبيين إلا الارتداد حالاً أو الهلاك عن بكرة أبيهم. ولما رأى «جيرارد» الصيداوي، قائد الأسطول الصليبي أن السفن المصرية شارعة في الاقتراب من المدينة حاول تعطيل اقترابها، لكن ما لبث الخوف أن تسرب إلى نفسه لرؤيته أعداداً كثيرة من العدو فارتد ثانية على عقبيه، ووجد في الفرار ما يحفظ على نفسه روحه وأرواح من معه ويضمن لهم السلامة. وأبحرت سفن المصريين قاصدة المدينة حاملة إلى المحاصرين النجدة التي جاءتهم. وتقول الأخبار، إن الأسطول المصري كان يتألف من سبعين قرقورة وبعض الشواني

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٦

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٥٦

المحملة بأكملها بالرجال والذخيرة والطعام، وكانت هذه السفن من ذات الحجم الكبير، وقد قوي ساعد العسقلانيين بهذه النجدة»^(١).

ولم يتحدث وليم الصوري عن المعركة البحرية التي جرت بين الأسطول المصري والأسطول الصليبي الذي كان يرسو في مقابلة عسقلان، لكن أبو يعلي القلانسي يتحدث عن هذه المعركة فيقول: «وردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان وقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بعدة وافرة من مراكب الأفرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها»^(٢).

وضاعف الصليبيون جهودهم ونشاطهم لتنفيذ مشروعهم، ودأبوا على شن الهجمات الضارية على المدينة من غير توقف، وكان هذا على وجه التحديد حول ما يعرف بالبوابة الكبرى، حيث تجددت الهجمات بعضها في إثر بعض وأنزلت خسائر كبيرة بالأهالي، كما أن الأحجار الضخمة التي تقذف بها آلات الرمي أدت إلى زعزعة الأبراج والأسوار ودكت ما بداخل المدينة من الدور، كما أن الجنود الذين بالبرج المتحرك استطاعوا بقسيهم ونبالهم أن ينزلوا الدمار الساحق بالمدافع الذين كانوا يقاومونهم من فوق الأسوار والأبراج»^(٣).

وكانت الأهوال التي نزلت بالناس من هذا البرج أفدح مما نزل بهم في مناطق أخرى، لذلك أجمع العسقلانيون الرأي على وجوب تدمير برج الصليبيين المتحرك، وكانت خطتهم تتمثل في أن يقذفوا فيما بين السور والبرج بالأخشاب الملتهبة والمواد التي علقت بها النار فتزيد النار ضراماً ويحترق البرج، وقام رهط من الرجال البواسل الذين عرفوا بما انطبعت عليه نفوسهم من قوة وبسالة، والذين أثروا سلامة إخوانهم على سلامتهم هم أنفسهم، فجاءوا بالخشب وقذفوا به في الفراغ الخارجي الواقع بين السور وبين البرج، حتى إذا صار الخشب كومة عالية صبّوا عليها القار والزيت وغيرها من السوائل التي تزيد النار ضراماً، كما قذفوا بغير ذلك مما يحيل اللهيب قاتلاً، وأدى اشتعال النار بقوة إلى انهيار جزء كبير من السور يقع بين البرجين محدثاً دويّاً أيقظ الجيش كله، غير أنه حدث عند سقوط هذه الكتلة على البرج أن تناثرت حطاماً بعض الأجزاء المهمة من الآلة التي لم تكن النارق قد وصلتها، كما أثر هذا السقوط على الحرس القائمين بالحراسة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٣٥٨

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٣٢١

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٢

على القمة فتهاووا إلى الأرض، واستيقظ العسكر جميعهم على دوي هذا الانهيار، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى ذلك المكان^(١). وكان «برنارد دي ترمبيلي» رئيس الداوية هو ومن معه من الداوية أسبق الجميع في الوصول إلى هناك فاحتلوا الثغرة ومنعوا غيرهم من الناس من اجتيازها، قاصدين من وراء ذلك أن يكونوا هم أول الداخلين فتكون لهم الأسلاب والغنائم وعندما رأى الجيش الفاطمي هؤلاء الداوية، هجموا عليهم وقتلوهم، وكانوا أربعين فارساً^(٢). ومن ثم قاموا بسد الثغرة في السور بالأعمدة الضخمة والكتل الخشبية الكبيرة، حتى أصبح المكان عزيزاً على من يريد اقتحامه^(٣).

وبعد هذه الحادثة ضعفت ثقة الصليبيين بتحقيق النصر، وتنازعوا فيما بينهم فأراد بعضهم الرجوع عن حصار عسقلان، أما بعضهم الآخر فقد رأى وجوب الاستمرار حتى احتلال المدينة، وانساق غالبية الصليبيين إلى الرأي الثاني، وتابعوا هجومهم واستحرقوا القتل في أهل المدينة، فقتل الكثير من الرجال وعلى رأسهم والي المدينة، وكبار الأمراء، حتى لم يعد هناك أحد يستطيع الأهالي أن يسترشدوا به ففترت همتهم وتلاشى كل أمل لهم في الصمود^(٤). لذلك اتفقوا جميعاً على إرسال رهط اختاروه من قادتهم الكبار ليكونوا سفراءهم إلى الملك يسألونه هدنة مؤقتة لتبادل القتلى، ولقي الطلب استحسان الصليبيين، فتم تبادل جثث القتلى ودفنت في احتفالات جنائزية عظيمة^(٥).

وعندما رأى العسقلانيون الجيش الصليبي ورأوا ضخامته أدركوا أن الغلبة ستكون عليهم، فاجتمع كبار رجال المدينة بالأهالي وقالوا لهم، إن أوفق الأمور أن نحاول التخلص من متاعبنا الحالية، عبر إرسال وفد إلى الملك الصليبي من أجل الحصول منه على شروط مريحة تسمح لنا بالخروج مقابل تسليم المدينة، ووافق الجميع على هذا الرأي وأرسلوا وفداً إلى الصليبيين بهذا الخصوص، وقد بحثت شروط التسليم ووافق الصليبيون على ذلك، وتم منح العسقلانيين ثلاثة أيام لتسليم المدينة، وخلال هذه المدة جمع هؤلاء متاعهم ونساءهم وأولادهم وعبيدهم وجواريهم، وخرجوا من المدينة، وأمدهم الملك الصليبي، وفق الاتفاق، بالمرشدين الذين رافقوهم

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٤

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٧

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٧

حتى بلغوا العريش^(١). ولما تمَّ الأمر على هذه الصورة دخل الصليبيون إلى المدينة ينشدون الترايل والأغاني الدينية، ويحملون أمامهم الصليب الذي وضعوه على أكبر مساجد المدينة، وهو بناء عظيم الروعة ثم جعلوه كنيسة باسم، الرسول بولس^(٢).

وهكذا انتهت تلك المواجهة الكبرى بوقوع هذه المدينة العظيمة بأيدي هؤلاء اللصوص بعد حصار استمر لأكثر من خمسة أشهر متواصلة وذلك سنة ٥٤٨. وللأسف لم يحدث مؤرخ شرقي عن صمود هذه المدينة كل تلك المدة الطويلة ولا عن الحصار الشديد الذي تعرضت له، كما فعل وليم الصوري، وقد اكتفى أبو يعلى القلانسي بالقول في شهر جمادى الأولى من تلك السنة: «وردت الأخبار في أثناء ذلك بأن الأفرنج النازلين على عسقلان قد ضايقوها بمغادة القتال ومراوحته إلى أن تسهّلت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه وهجموا البلد وقتل بين الفريقين الخلق الكثير وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج منها من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها»^(٣).

أما سبط ابن الجوزي فهو يزري على المصريين برواية، مستخفاً بها بكل جهادهم ضد الصليبيين حيث يقول: «بلغني أن سبب تسليم عسقلان إلى الفرنج أن أهلها في ضائقة عظيمة يرتقبون في كل يوم وصول الأسطول والنجدة من مصر، فبينما هم في آخر نفس إذا بمركب صغير قد أقبل من مصر فاستبشروا، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من مصر إلى الوالي يقول: ساعة وقوفك على هذا الكتاب تنقذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظاً، نجعلها شبّابات، فقال للرسول: نعم إلى غداة غد، ثم خرج في الليل إلى الفرنج وأخذ منهم أماناً لأهل البلد، فلما طلع الفجر فتحت الأبواب ودخل الفرنج البلد، فأحضر القاصد بالكتاب وقال: هذا هو الجواب»^(٤).

وما يدعو إلى الأسف هو أن يكون وليم الصوري هو المؤرخ الوحيد الذي تحرّى الحقيقة في كتابته عن جهاد عسقلان وعن صمودها لأكثر من خمسين عاماً، في حين أن من يسمّون أنفسهم مؤرخين مسلمين، فإما أنهم تحدثوا عنها بشكل مقتضب، كما فعل القلانسي، أو أنهم جعلوا قصة سقوط هذه المدينة مصداً للسخرية، كما فعل ابن الجوزي الذي ذكر رواية مكذوبة من أولها إلى آخرها، فعليه وزرّها ووزر من صدّقها إلى يوم القيامة.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٧١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ص ٣٧١

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢١

(٤) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان - سبط بن الجوزي - ج ٢٠ - ص ٤٣٢

الفصل الثالث

العلاقة بين التُّرك والصليبيين

كان انهزام التُّرك أمام الهجمة الصليبية الأولى، سبباً أساسياً في تمكن هؤلاء الغزاة من الاستيلاء على الشريط الساحلي من أنطاكية حتى عسقلان، لأنه كان لهم اليد العليا في سوريا، حيث كانوا يسيطرون على كل المدن الداخلية، بل راحوا يهاجمون مدن الساحل لأخذها من الفاطميين، وقد كان هؤلاء في حالة دفاع عن النفس ضد تلك الهجمات الغادرة التي زادت ضراوة بعد سقوط دمشق سنة ٤٦٨ وحبلى سنة ٤٧٩.

وكانت سوريا الداخلية قد أصبحت مقسمة بين ملكين تركيين هما أقسنقر في حلب وما جاورها، وتتش بن ألب أرسلان في دمشق وما جاورها، واستقرت الأمور على ذلك فترة قصيرة، وفي سنة ٤٨٥ مات السلطان ملكشاه، فطمع أخوه تتش بالسلطنة من بعده وجهاز العساكر وسار نحو حلب، فخضع له أقسنقر وصار معه، وأرسل أقسنقر إلى ياغي سيان أمير أنطاكية، وإلى بوزان أمير الرها وحران، يشير عليهما بطاعة تتش، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم، وقصدوا الرحبة فحاصروها وملكوها وخطب لنفسه بالسلطنة، وسار إلى نصيبين فملكها، ومن ثم سار إلى الموصل فتسلمها من ابن جهير^(١). ومن ثم رحل إلى ديار بكر فملكها من ابن مروان، وسار إلى أذربيجان فوصل خبره إلى ابن أخيه بركياروق، فلما تحقق الحال سار في العساكر ليمنع عمه من امتلاك البلاد، فلما تقارب العسكران، فارق أقسنقر وبوزان تتش ولحقا بعسكر بركياروق، فلما رأى تتش ذلك علم أنه لا قوة له بابن أخيه فعاد إلى دمشق^(٢). وراح يجمع العساكر حتى كثرت جموعه وعظم حشده وسار سنة ٤٨٧ نحو حلب، فاجتمع أقسنقر وبوزان وأمدّهما بركياروق بالأمير كربوغا، فلما اجتمعوا ساروا إلى طريقه فالتقوه عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان واقتتلوا فانهزم العسكر الذين مع أقسنقر وثبت هو فأخذ أسيراً فقتله تتش صبراً^(٣)، ومن ثم سار تتش إلى حلب فملكها وقتل بوزان وسجن كربوغا في حمص^(٤). وظل في السجن حتى أخرجه رضوان عندما ملك حلب، وسار تتش إلى حران والرها فملكهما وملك البلاد الجزرية وديار بكر

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٨٧

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٨٩

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٩٥

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٤٩٥

ومن ثم ملك أذربيجان وهمذان، والتقاء ابن أخيه السلطان بركياروق فهزمه سنة ٤٨٧، ومن ثم عاد بركياروق إلى أصفهان وجمع الجموع والتقى مع تتش في موضع قريب من الري فانهزم عسكر تتش وثبت هو فقتل^(١).

وكان تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ولده رضوان وكتب إليه، قبل مقتله، يأمره أن يسير إلى العراق ويقيم بدار المملكة، فسار من حلب ومعه مجموعة من الأمراء فلما بلغ هيت وصله نبأ مقتل أبيه فعاد إلى حلب وملكها^(٢). ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن أيتكين، وكان مع رضوان أيضًا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام^(٣). وكان تتش قد أرسل ولده دقاق إلى عمه ملكشاه ببغداد وخطب له ابنته، وسار بعد وفاة ملكشاه، إلى أصفهان وخرج إلى السلطان بركياروق سرًا وصار معه ثم لحق بأبيه وحضر معه الواقعة التي قتل فيها، فلما قتل أبوه أخذه غلام لأبيه اسمه أيتكين الحلبي، وسار به إلى حلب وأقام عند أخيه الملك رضوان، فراسله الأمير ساوتكين الخادم الوالي بقلعة دمشق سرًا يدعو ليملكه دمشق فهرب من حلب سرًا وجد في السير، فأرسل أخوه رضوان عدة من الخيالة فلم يدركوه فلما وصل إلى دمشق فرح به الخادم، واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، فلقبه دقاق وأرباب دولته، وبالغوا في إكرامه ومال إليه دقاق وحكمه في بلاده وعملوا على قتل الخادم ساوتكين فقتلوه^(٤).

وعندما بدأ الغزو الصليبي كان رضوان في حلب ودقاق في دمشق، وقد امتنع الملكان من التصدي للغزاة خوفًا منهم ولزم كل منهما مدينته ومملكته لا يفارقه.

ولم يطل الأمر بدقاق فقد مات سنة ٤٩٧ بعد أن نص على الأمير معتمد الدولة ظهير الدين طغتكين في الولاية بدمشق من بعده، والحضانة لولده الصغير تتش إلى حين يكبر^(٥). وقام طغتكين بمملكة دمشق وكان كفؤًا لها، كما يقول القلانسي، وشرع في إحسان السيرة في العسكرية والرعية وأحسن إلى الأمراء والمقيمين من الدولة وأطلق يده من الخزانة في الخلع والتشريفات والصلوات والهبات، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وتألف القلوب بالعطاء واستقامت له الأمور، وأجمع على طاعته الجمهور^(٦).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٥٠٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٥٠٣

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٥٠٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٨ - ص ٥٠٤

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٤

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٤

والواقع أن طغتكين قد حكم في مرحلة حسّاسة من تاريخ دمشق وسوريا، لأن الصليبيين كانوا في أوج قوتهم ومع ذلك فقد واجههم في وقائع متعددة، وكان هدفه الرئيسي هو الجهاد، فلم يطمع في الاستيلاء على إمارة تركية أخرى في سوريا، كما فعل من جاء بعده من ملوك الترك، الذين جعلوا هدفهم الرئيسي هو القضاء على خصومهم الأتراك وذلك قبل منازل الصليبيين. وللأسف لا تحفل كتب التاريخ كثيراً بهذا الملك كما تفعل مع محمود بن زنكي وخلفه صلاح الدين مع أن هذين لم يفعلوا سوى مقدار ضئيل مما فعله طغتكين، فالصليبيون منذ فشلهم في غزو دمشق سنة ٥٤٣، ذهبت ريحهم وقلّ وصول الإمدادات لهم، وهذا ما يعترف به وليم الصوري، كما سنرى لاحقاً، وبالتالي فالعهد الذي كان فيه محمود بن زنكي لم يكن خطيراً كما كان عهد ظهير الدين. وفي هذا الفصل سوف نتناول العلاقة بين الترك والصليبيين حتى معاهدة السلام التي وقّعها صلاح الدين مع الملك الإنجليزي ريتشارد الأول.

- أولاً: انبعاث السلاجقة بعد الهزيمة

بعد الهزائم المدوّية التي لحقت بالسلاجقة في آسيا الصغرى، ولاسيما بعد فشل حملة الأمير كريبوغا في أنطاكيا، انكسرت شوكتهم وذلّوا، فاجتاح الصليبيون بلاد المشرق ووصلوا إلى الرها على مقربة من الموصل والعراق، كما أخذوا القدس وما جاورها في فلسطين وراحوا يتوسعون في سوريا، وكانت السلطنة السلجوقية في إيران تشكو من انقسام بين ولدي ملكشاه: بركياروق ومحمد تبر، حيث أعلن كل منهما نفسه سلطاناً، وظل الصراع قائماً بينهما حتى مات بركياروق سنة ٤٩٨، فاستقام الأمر لمحمد تبر الذي تلقب بـ «غياث الدين». ولم يلتفت محمد تبر لما يجري في سوريا وكأن شيئاً لا يحصل في بلاد تابعة له، رغم النداءات المستمرة له، فلم يجرد جيشه لقتال الصليبيين فيها، بل اكتفى بإرسال حملات عسكرية باءت كلها بالفشل كما سنرى.

١- السلطان يرسل جاوли سقاو و لقتال الصليبيين في سوريا

عندما تأخر السلطان محمد عن الجهاد، أرسل إليه الولاة النافذون في سوريا يستغيثونه على القتال، ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٠ فيقول: «وفي هذه السنة تتابعت مكاتبات إلى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه، من ظهير الدين أتابك، وفخر الملك بن عمار صاحب طرابلس، بعظيم ما ارتكبه الإفرنج من الفساد في البلاد وتملك

المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك بالمسلمين ومضايقه طرابلس والاستغاثة إليه والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة»^(١).

لكن السلطان رغم ذلك لم يتحرك لنجدة من بسوريا، بل أرسل الأمير جاوли سقاو، وكان مقرَّباً منه، لكي يأخذ الموصل والأعمال التي بيد جكرمش، ومن ثم يكمل لقتال الصليبيين. وكان جكرمش، كما يقول ابن الأثير، قد وعد السلطان بالخدمة وإرسال المال، لكنه لم يفعل فنقم عليه السلطان^(٢). فسار جاوли إلى الموصل، ولما عرف جكرمش بذلك، أرسل يجمع العساكر، وتعجل الخروج قبل اجتماع كل عسكره إليه، وعبر إلى شرقي دجلة، فالتقى مع جاوли في قرية «باكليا» من أعمال إربل، فانهزم عسكر جكرمش، وبقي هو وحده لا يقدر على الهزيمة لفالج كان به، فأخذ أسيراً وأحضر عند جاولي فأمر بحفظه وحراسته^(٣). وكانت عساكر جكرمش التي استدعاها قد وصلت إلى الموصل بعد مسيره بيومين فساروا ليدركوا الحرب فلقبهم المهزومون، فعاد الجميع إلى الموصل، وأخبروا بما جرى، فبادر كبار الأمراء وأجلسوا زكي بن جكرمش مكان أبيه، وكان صبياً عمره إحدى عشرة سنة وخطبوا له وأحضرُوا أعيان البلد والتمسوا منهم المساعدة فأجابوا على ذلك^(٤). وكتبوا سيف الدولة صدقة بن مزيد وقلج أرسلان والبرسقي، الذي كان شحنة بغداد، بالمبادرة إليهم ومنع جاولي عنهم ووعدوا كلاً منهم أن يسلموا الموصل إليه. فأما صدقة فلم يجبههم إلى ذلك ورأى طاعة السلطان، وأما البرسقي فسار من بغداد إلى الموصل فوصلها بعد رحيل جاولي عنها، ونزل بالجانب الشرقي، فلم يلتفت إليه أحد ولا أرسلوا له كلمة واحدة، فعاد في باقي يومه^(٥). وأما قلج أرسلان، الذي هزمه الصليبيون قبل ذلك، فقد سار في عساكره فلما سمع جاولي سقاو بوصوله إلى نصيبين رحل عن الموصل إلى سنجار. وأقام قلج أرسلان في نصيبين حتى كثر جمعه، وأرسل إليه أعيان الموصل فاستحلفوه ودعوه إليهم، فجاء بعسكره ودخل المدينة وجلس على التخت وأسقط السلطان محمد بن ملكشاه من الخطبة وخطب لنفسه بعد خليفة بغداد^(٦). وكان جاوли قد سار إلى الرحبة، وكانت تابعة لمملكة دمشق التركية منذ أن سيطر عليها دقاق سنة ٤٩٦، فنزل عليها وضائقها، وأتاه كتاب من رضوان ملك حلب يستدعيه إلى قتال الصليبيين، فقال

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ١٥٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٢

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٣

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٣

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٤

(٦) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٥

له، إن ساعدتني في امتلاك الرحبة والموصل أساعدك في دفع الصليبيين عن بلادك^(١). فصدق رضوان جاوли وسار بجيشه نحو الرحبة، فلما وصل اشتد الحصار عليها حتى اضطر من فيها إلى التسليم فدخل إليها أصحاب جاوли ونهبوها^(٢).

وسار قلج أرسلان بجيشه نحو جاولي ليحاربه، فالتقى به جاولي ومعه رضوان على الخابور، في العشرين من ذي القعدة سنة ٥٠٠، فانهزم عسكر قلج أرسلان، أما هو فقد خاف من الوقوع في أسر أعدائه، فألقى بنفسه وهو على فرسه في الخابور، فأنحدر به الفرس إلى ماء عميق فغرق وظهر بعد أيام^(٣). وسار جاوли إلى الموصل ففتح أهلها له بابها، فدخلها وأعاد الخطبة لمحمد بن ملكشاه^(٤). وبعد أن استقر الأمر لجاوли حاول قتل الملك رضوان ففر بجيشه عائداً إلى حلب من دون أن يحقق شيئاً من مراده^(٥). وبعد أن استولى جاولي على الرحبة والموصل وما بينهما، استقل بهذه البلاد، وراح يجمع المال لنفسه، فغضب منه السلطان محمد وقرر الفتك به، فاستدعى الأمير مودود وهو بأصفهان، وسيّره على رأس جيش من الترك لقتال جاولي، وعندما علم هذا بالأمر، استناب في الموصل من يثق به، أما هو فذهب إلى الرحبة، وأقام مودود على الموصل مدة، فتواطأ بعض أهلها وفتحوا له باباً من أبوابها وسلموها إليه، فدخلها وقتل من كان بها من أصحاب جاولي، وطلب من في القلعة الأمان، فأمنهم وحملهم وما كان معهم إلى السلطان^(٦). وحاول جاولي أن يستتروا أن يبقى بعيداً عن السلطان محمد، لكنه أدرك أنه مأخوذ لا محالة، فسار إلى السلطان وهو بأصبهان، وطلب منه السماح عن خطأه، فغفر له^(٧).

ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن «حملة مودود على الموصل هي التي كان ينتظر فخر الملك بن عمار منها الخير، بأن يسير معه مودود بعد القضاء على جاولي، لدفع الصليبيين عن طرابلس، لكن طال مقام فخر الملك طويلاً ضجر معه وعاد إلى دمشق في نصف المحرم سنة ٥٠٢^(٨).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٦

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد ٩ - ص ١٠٧

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٠٧

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥٨

(٦) تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٠

(٧) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد ٩ - ص ١٣٠

(٨) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦١

٢- السلطان يرسل مودودًا لقتال الصليبيين في الرها

كان السلطان قد استدعى مودودًا وأمره بالمسير إلى قتال الصليبيين الذين زادت هجماتهم على التُّرك في الجزيرة وديار بكر انطلاقًا من الرها، وكتب السلطان إلى سكران القطبي صاحب بلاد أرمينيا وميا فارقين ليكون معه، كما كتب إلى إيلغازي بن السعيد بن أرتق ليكون معه أيضًا، كما كتب أيضًا إلى ولاية الأطراف فسار سكران وإيلغازي والتقيا مع مودود في جزيرة بني نمير، وانتظر الثلاثة وصول ولاية الأطراف، ولما تكاملت الحشود ساروا نحو الرها.

ويقول أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٣ : «في هذه السنة سار مودود ومن معه إلى الرها وفرضوا الحصار عليها في العشر الثاني من شوال، وأحاطوا بها من جهاتها ومنعوا الداخل والخارج بالمسير إليها^(١)، وكان القوت بها قليلًا وأشرف من بها على الهلاك وطالت مدة الحصر والتضييق عليها، وحين عرف الإفرنج صورة الحال شرعوا في الجمع والاحتشاد والتأهب للذب عنها والاستعداد واتفقت الكلمة بينهم على هذه الحال، واجتمع طنكري صاحب أنطاكية وابن صنجيل صاحب طرابلس والملك بغدوين ومقدمو ولاية الأعمال من الإفرنج وتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات في الحرب، ورحلوا بأسرهم إلى ناحية الرها^(٢). ولما عرف المسلمون قرب الإفرنج منهم اتفقت الآراء على الإفراج لهم ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء شرقي الفرات ورحلوا عن الرها آخر ذي الحجة من السنة ونزلوا في أرض حران، وتوقفوا عن لقاء الإفرنج إلى أن يقربوا منهم^(٣). وفطن الإفرنج لهذا التدبير فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان، وأجفلوا ناكسين على الأعقاب إلى شاطئ الفرات وبلغ المسلمين خبرهم فنهضوا في إثرهم وأدركتهم سرعات الخيل، وقد قطع الفرات بعضهم من مقدميهم فغنم المسلمون سوادهم وأثقالهم وأتوا على العدد الدثر من أتباعهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الفرات وامتلات الأيدي من الغنائم والأسلاب والسبي والدواب، ولم يتمكن المسلمون من قطع الفرات بحكم اشتغالهم بأمر الرها والعود إليها، وأقاموا عليه أياماً ثم عادوا إلى حصار الرها، فطال مقامهم عليها لحصانتها، وقلّ تواصل الميرة إلى المخيم، فدعتهم الحاجة إلى العودة عنها ففارقوا بعد أن رتبوا من يقيم على حران لحصر الرها^(٤).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٩

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٦٩

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٠

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «تجمع عسكر من التُّرك في أعداد تفوق الحصر جيء بهم من بلاد الشرق وأغاروا على أرض الجزيرة غارة شعواء، وعاثوا فسادًا ونهبًا فيما حول الرها، واستولوا عسقا على بعض الحصون، وأضرموا النار في القرى وأمسكوا بالفلاحين وغيرهم ممن يعملون في الحقول ولم ينج من ذلك الدمار أي مكان خارج المنطقة الموجود بها المدن المسورة مما أسفر عن توقف الفلاحة وندرة الطعام حتى كاد أن ينعدم، وكان الحفاظ على المنطقة موكولا إلى تانكريد، فلما علم بما حصل أرسل إلى ملك بيت المقدس يستدعيه، كما قام هو بجشد قوات كثيفة من كل البلدان والحصون وسار الملك بقواته والتقى مع تانكريد، وانضم الجيشان إلى بعضهما البعض وعبرا الفرات معًا. فلما بلغوا الرها وجدوا المارقين يعربدون هنا وهناك لم يتركوا ناحية من النواحي إلا جاسوا خلالها، لكنهم لما علموا بقدوم قواتنا بعثوا في استدعاء عساكرهم وقلت عريبتهم عن ذي قبل لطول معرفتهم بياس جنودنا، فتملكهم الخوف من قتالهم، وإن كانوا رغم ذلك لم يعودوا إلى أوطانهم لإدراكهم ضيق وقت كل من الملك وتانكريد، ومن ثم فقد حاولوا تعويقهما أملًا منهم في أن يؤدي طول هذا التأخير إلى إرغام القادة على الرحيل، وإذ ذاك يتمكنون من العودة إلى ما جرت به عادتهم من السلب والنهب، لكن لم تخف حقيقة قصدهم عن زعمائنا فنهجوا نهجًا شديد الملاءمة لهذه الظروف الصعبة، ذلك أنه لما كان الإقليم الواقع في منطقة نهر الفرات ينتج معظم المحاصيل فقد عمد الزعماء للاستفادة من هذا الوضع فأمرؤا أن تجمع شتى أنواع المؤونة ثم تنقل على ظهور الجياد والأبل والحمير والبغال وذلك عبر النهر وبهذا تسنى حصول البلدان والقلاع على كميات وافرة من مواد المعيشة تكفي أمدا طويلا كما انصب الاهتمام على وجه الخصوص على إمداد الرها بإمدادات وفيرة زادت عن حاجتها، حتى إذا اطمأن بال هؤلاء القادة على المدن والحصون وزالت دواعي الخوف عليها بعد تزويدها بالعتاد والرجال والطعام، عادوا إلى بلادهم لأمر أكثر خطورة تستدعي التفاتهم إليها، وبينما كانوا يعبرون النهر في قوارب صغيرة خفيفة قليلة العدد، شرع العدو الذي كان يتعقبهم في مهاجمة من دونهم ممن لازالوا على الشاطئ الآخر من النهر ينتظرون دورهم للعبور، وفتك ببعضهم وأسر البعض الآخر أمام أعين تانكريد والملك اللذين وقفا عاجزين عن مد يد المعونة إليهم، فقد حال بينهما وبينهم وجود النهر الذي لم يكن بمقدورهم اجتيازه ومن ثم كانت قواتنا مضطرة للعودة إلى بلدها، وقد هصر الحزن قلوبهم حزنا على مصير أولئك التعساء الذين رأوهم رأي العين يروحون ما بين قتيل وأسير، أما الرجال البارزون الذين وكل إليهم حراسة الإقليم في هذه الناحية من الفرات فقد بذلوا أقصى جهدهم

في تحصينها، أما الذين قتلوا أو أسروا على شواطئ الفرات فكانوا من فقراء الأرمن الذين فروا أمام الدمار الساحق الذي أنزله التُّرك بالناحية فراحوا يلتمسون مكاناً آمناً يلجأون إليه»^(١).

ويلاحظ أن رواية وليم الصوري مشابهة لرواية القلانسي إلا أن هذا الأخير تحدث عن مقتل عزيمة حلت بالصلبيين على يد جيش مودود الذي استولى أيضاً على غنائم وأسلاب هائلة، أما وليم الصوري فقد ذكر أن الصليبيين حصلوا على غلال وافرة تكفيهم أمداً بعيداً وعبروا الفرات فجاء التُّرك وقتلوا من كان هناك من فقراء الأرمن الذين هربوا من قراهم الواقعة حول الرها، ولم يقتلوا صليبيّاً واحداً، وقد فشل مودود في مهمته المتمثلة في تحرير الرها فعاد إلى الموصل، كما عاد سكرمان وإيلغازي وولاء الأطراف إلى بلادهم.

٣ - السلطان يحشد من جديد لقتال الصليبيين

بعد أن تقاعس السلطان محمد عن نجدة أهل الشام رغم الكتب المتوارة منهم إليه، جاء إلى بغداد رجال دين من حلب وغيرها من المدن يطلبون المعونة على قتال الصليبيين، فقرر السلطان إنهاض العساكر إلى الشام، فأرسل إلى برسق بن برسق صاحب همذان، وإلى مودود صاحب الموصل وإلى أحمديل الكردي صاحب ديار بكر وإلى سكرمان القطبي صاحب بلاد أرمينية وإلى ظهير الدين أتابك صاحب دمشق يأمرهم بالالتقاء لقتال الصليبيين^(٢).

ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن أول من نهض من هؤلاء هو، مودود، كما نهض بعده أحمديل، وتلاه سكرمان القطبي، فالتقى الثلاثة في أرض حرّان^(٣)، وسمع بخبرهم أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ ملك شيزر، فراح يستصرخهم على الصليبيين، وكان تانكريد، كما يقول ابن العديم، قد أخذ حصن بكسرايل، وتوجه على بلد شيزر ونازلها^(٤). وراح يضايقها وسرق محاصيلها وغلالها وشرع في بناء قلعة على تل ابن معشر في مقابلتها^(٥). لكن هؤلاء القادة لم يلتفتوا إلى أبي العساكر وساروا نحو حلب فقطعوا الفرات ووصلوا إلى تل باشر، كما يقول القلانسي، وقرروا أخذها وشرعوا

(١) الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٧٤

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٤

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٤

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٤

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٤

في حصارها ونقبوا سورها وكادوا يدخلون إليها، فأرسل صاحبها جوسلين إلى أحمديل هدايا ومالاً كثيراً، وطلب منه مغادرة بلده، فأجابه إلى ذلك^(١). وعزم أحمديل على العود طمعاً منه في أن يقطعه السلطان بلاد سكرمان، وكان قد عقد بينهما وصلة وصهر، فعادوا عن تل باشر إلى حلب ونزلوا عليها وعاثوا في أعمالها وفعلوا أقبح من فعل الإفرنج في الفساد، وتوقعوا خروج الملك رضوان صاحب حلب إليهم أو خدمة ينفذها لهم، فلم يلتفت إلى أحد منهم وأغلق أبواب حلب وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة ورتب الجند وأحداث الباطنية والطائعين لحفظ الأسوار ومنع الحلبيين من الصعود إلى السور وأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر^(٢).

وكان ظهير الدين طغتكين قد وصل إليهم بجيشه فوجدهم نازلين في ظاهر حلب، فلم ير منهم، كما يقول القلانسي: «عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد»^(٣). بل خاف منهم على نفسه، فتقارب من مودود دون بقية الآخرين، ومن ثم تفرقوا أيدي سببا، وعاد برسق بن برسق وأحمديل، وتبعوا سكرمان القطبي وتخلف منهم مودود مع أتاك فرحلا عن المعرة ونزلا على العاصي^(٤).

ويذكر أوليم الصوري هذه الحملة فيقول: «لم تكن تنقضي فترة قصيرة على سقوط صيدا حتى حشد القوم بفارس جيشاً ضخماً، وانطلق هذا الجيش إلى بلاد الشام، فعبر نهر الفرات العظيم مخرباً النواحي التي يمر بها هناك وحاصرت تل باشر حيث أمضى شهراً كاملاً يبذل الجهود المضنية أمام هذا المكان لكنها ضاعت هباء، حتى إذا يئس في النهاية من النجاح رأى التخلي عن هذه المحاولة فمضى إلى حلب، وإذا كان يعتمد على كثرة عدده، فقد كان يطمح أن يرغم تانكريد على الخروج والاندفاع في مهاجمته دون أن يأخذ حذره، غير أن تانكريد كان رجلاً كَيِّساً لا يصدر عنه عمل إلا عن روية وتفكير، فبعث بالكتب على أيدي رسل من قبله إلى بلدوين يلتمس منه الإسراع لنجدته، فجمع بلدوين عسكره واستصحب معه برترام كونت طرابلس، وزحفاً إلى تلك الناحية بجيوشهما، فلما وصلا إلى مدينة «الروج» وجدا تانكريد قد سبقهما إليها، فساروا جميعاً وتقدموا ضد الخصم الذي وجدوه معسكراً عند شيزر حين بلغوها، وأخذ كل من الجيشين يطالع الآخر ويتأمله، وانتهى الأمر أخيراً بانصراف التُّرك عن القتال ومغادرة تلك

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٥

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٥

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٧٧

الناحية، فعاد الصليبيون كلُّ إلى بلده»^(١).

وكما نرى فهناك فرق كبير بين رواية القلانسي ورواية الصوري حول هذه الواقعة، وإزاء تضارب الروايتين فإننا نرجح أن تكون رواية وليم الصوري هي الصحيحة، فالترك جاؤوا لقتال الصليبيين لكنهم فشلوا أولاً في تل باشر، ومن ثم عندما تواجهوا مع جيش الصليبيين عند شيزر أحسوا بعدم القدرة على النصر عليهم، كما أن الصليبيين خافوا من كثرتهم، ولذلك لم يحدث قتال بين الجانبين، بل انسحب الترك عائدين إلى بلادهم، وعاد الصليبيون إلى بلادهم.

٤- السلطان يرسل مودوداً لقتال الصليبيين

عاد السلطان محمد سنة ٥٠٦ فأمر شرف الدين مودود صاحب الموصل بالنهوض إلى الشام لقتال الصليبيين، ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن ظهير الدين أتابك استنجد به حيث يقول: «وتواترت غارات بغدوين على البثنية من أعمال دمشق وانقطعت الطريق وقلت الأقوات بها وغلا السعر، وتتابع كتب أتابك إلى الأمير شرف الدين مودود يشرح هذه الأحوال في هذه الأعمال ويحثه على الوصول إليه والاعتضاد على دفع المردة الأضداد والفوز بفضيلة الجهاد، فجمع مودود جيشه وقطع الفرات في ذي القعدة من تلك السنة فحين اتصل خبره ببغدوين الملك قلق لذلك وانزعج لخبره، ونهض ظهير الدين أتابك لملاقاة مودود فالتقاه في مرج سلمية واتفق رأيهما على قصد بغدوين، فنزلا على الأقحوانة، وأرسل بغدوين إلى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس ليحضرا إليه، ونشبت الحرب بين الترك والصليبيين وانتصر الترك بعد ثلاث كرات، وقتل من الإفرنج تقدير ألفي رجل من الأعيان ووجوه الأبطال والشجعان، وملكوا ما كان نصب من خيامهم، وأفلت بغدوين بعدما قبض وأخذ سلاحه وغرق من الرجالة خلق كثير في البحيرة، واختلط الدم والماء وامتنع الناس عن الشرب والتجأ من نجا من الفرنج إلى طبرية وأكثرهم جرحى وذلك يوم السبت الحادي عشر من المحرم سنة ٥٠٧، وبعد انتهاء المعركة وصل باقي الإفرنج أصحاب طنكري وابن صنجيل فلاموا بغدوين على التسرع وفندوا رأيه، ونصبوا ما كان سلم من خيامهم على طبرية، وفي غد يوم الواقعة نهض فريق من الترك إلى ناحية طبرية وأشرفوا على الإفرنج فيها وعزموا على النزول إليهم والإيقاع بهم فخافهم الإفرنج وأيقنوا بالهلاك، وأقام الأتراك على الجبل عامة نهارهم وانكفأوا إلى معسكرهم عند حلول الليل فاستغل الإفرنج الفرصة وصعدوا إلى الجبل وتحصنوا به لصعوبة مرتقاه وهو من غربي طبرية

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٢٩٦

والماء ممتنع على من يكون فيه، فعزم التُّرك على الصعود إليهم واستدعى ظهير الدين العرب الطائيين والكلايين والخفاجيين، فوصلوا في خلق كثير بالماء والطعام، وصعدت الطلائع إلى الجبل من شماله وعرفوا أنه لا يمكن الحرب فيه لصعوبته على الفارس والراجل فاجتمع رأي الجميع على عدم الصعود، وانتظر العسكر إلى آخر صفر فعاد معظمهم إلى بلادهم، وعزم مودود على المقام بالشام، وعاد مع ظهير الدين أتابك إلى دمشق في ٢١ ربيع الأول سنة ٥٠٧ ونزل بالميدان الأخضر، وبالع أتابك في إكرامه وإعظامه»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن نفس الواقعة فيقول: «لما جاء صيف سنة ١١١٢ من مولد المسيح، بعثت فارس للمرة الثانية بعسكر من عسكرها لا يحصيهم العد، وكان هذا العسكر بقيادة أمير قوي شريف المنبت اسمه «مودود» فاجتاز الفرات وعبر كل بلاد أعالي الشام جاعلاً دمشق على يساره، ومرّ بطبرية الواقعة بين جبل لبنان والساحل ونصب معسكره عند الجسر الموجود على نهر الأردن، ولما وصل هذا الخبر إلى الملك دعا إلى مساعدته كلاً من روجربن ريتشارد أمير أنطاكية وكونت طرابلس، ولكنه تعجّل الرحيل مع عسكره قبل وصول هذين الأميرين، ونصب خيامه في الناحية الموجودة بها عدوه، فما كاد الفرس يكتشفون ذلك حتى أدركوا أنهم في حاجة إلى التدبير الحربي أكثر من حاجتهم إلى الوفرة العددية، ومن ثم أرسلوا ألفي فارس، وأمروا ألفاً وخمسمئة منهم أن يكمنوا لعسكر الملك في بعض الطريق، أما الخمسمائة الباقون فقد كلفوهم بالتقدم في غير نظام حتى تجوز المكيدة على الملك فيمضي في مطاردتهم، وتمّ تنفيذ كل شيء وفق ما رتبوا، إذ ما كان الملك يبصر هؤلاء الخمسمائة فارس يسيرون بجيادهم حتى استدعى إليه رجاله واندفع بهم اندفاعاً أهوج ضد هؤلاء الفرسان وانطلق يطاردهم في طيش، فإذا به يسقط في الكمين الذي نصبوه له، وما لبث أن طلع عليه الأعداء من مخابئهم فإذا هم قوة كبيرة، كما عاد الخمسمائة فارس وانضموا إليهم، وتجمعت هذه القوات فشنت هجوماً شرساً على رجالنا الصليبيين الذين عمدوا أول الأمر إلى مقاومتهم بالسيوف وقتلوه قتلًا عنيفاً، وكانت الغلبة للترك بسبب كثرتهم التي اجتاحت الصليبيين وأرغمتهم على الفرار، ولم يسعفهم هذا الفرار بالسلامة بل جرت مذبحه مروعة في صفوف الهارين، حتى أن الملك ذاته ألقى بعلمه الذي كان في يده إلى الأرض، وكانت نجاته إحدى المعجزات وجرى مثل هذا على أرنولف البطرك الذي كان معه وعلى غيرهما من سادات المملكة، إذ فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم، وهكذا استولى التُّرك على المعسكر، وهلك في ذلك اليوم ثلاثون فارساً صليبيين وألف ومئتا جندي من المشاة، ثم وصل أمير أنطاكية وكونت طرابلس، فانضمت القوات كلها بعضها إلى بعض حتى صارت جيشاً واحداً عسكر

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٨٧

في الجبال المجاورة حيث كانوا يستطيعون أن يطلّوا على جيوش العدو وهي تحتهم في الوادي. ولما أدرك خصومنا أن المملكة خلت من المدافعين عنها بعثوا زمراً من عسكريهم إلى كل ناحية فاجتاحت الإقليم بأجمعه وجاست خلال الديار سافكة الدماء في كل جهة مرت بها مضرمة النيران ناهية القرى، كما أمسكت بالفلاحين وسارت في الإقليم كله كما لو كانت تحتله. وقد هرب الخدم وكذلك الشرقيون الساكنون في القرى المسماة بالمستعمرات، وانضموا إلى كتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء على الصليبيين، وكان ذلك أمراً ميسوراً عليهم لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعهم. ومجمل القول، إن المملكة بأجمعها قد آلت إلى حالة من الفرع الشديد أدى إلى عدم تجرؤ أحد على الخروج من التحصينات، وكان الصيف قد قارب على الانتهاء وجاء فصل الخريف الذي جرت العادة أن تبدأ السفن فيه بجلب الحجاج الذين ما إن علم من جاء منهم بالأهوال التي يعانيتها الصليبيون حتى أسرع مشاتهم وفرسانهم للانضمام إلى الجيش الصليبي فتزايد عدد هذا الجيش، وهو أمر لم يخف على الترك الذين استبد بهم الرعب من أن يستعد الصليبيون بهذه الإمدادات الضخمة للانتقام عما نزل بهم من النكبات ومن ثم شدوا الرحال إلى دمشق، وفعل الصليبيون فعلهم فكروا راجعين إلى ديارهم»^(١).

ونرى أن رواية وليم الصوري مختلفة عن رواية القلانسي الذي قال إن ظهير الدين هو الذي استنجد بمودود. كما نرى أن رواية وليم الصوري هي أقرب إلى المنطق من رواية القلانسي، لأن الترك انتصروا على خصمهم، ولكنهم مع ذلك انسحبوا من المعركة، والحجة التي قدمها القلانسي غير مقنعة، فهو يقول، إن الإفرج صعدوا إلى الجبل وهو مكان لا يمكن للفارس ولا للراجل القتال فيه، وأن الترك انتظروا مدة وفي النهاية فكّوا الحصار ورحلوا، أما وليم الصوري فتحدث عن إمدادات عسكرية كبيرة جاءت إلى الصليبيين ما جعل كفة الصراع تميل إلى جانبهم ولذلك انسحب الترك من المعركة بعد أن كانوا منتصرين.

٥- مقتل مودود في دمشق والسلطان ينتقم

أقام مودود في دمشق حوالي شهر ومن ثم قُتل، ويذكر أبو يعلي القلانسي هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٠٧ فيقول: «ولما كان يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر من السنة، دخل الأمير مودود من مخيمه بمرج باب الحديد إلى الجامع على رسمه ومعه أتاك، فلما قضيت الصلاة وتنقل بعضها مودود، وعادوا جميعاً وأتابك أمامه على سبيل الإكرام له، فلما حصل في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس لا يؤبه له ولا يحفل به فقرب من الأمير مودود وكأنه يدعو له ويتصدق

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٠٣

منه، فقبض ببند قبائه بسرعة وضربه بخنجره أسفل سرتيه ضربتين، إحداهما نفذت إلى خاصرته والأخرى إلى فخذه، هذا والسيوف تأخذه من كل جهة وضرب بكل سلاح وقطع رأسه ليُعرف شخصه فما عرف وأضرمت له نار فألقي فيها، وحمل مودود إلى الدار الأتابكية وتوفي بعد ساعات يسيرة من اليوم المذكور، فقلق أتابك وتزايد حزنه وأسفه وانزعاجه وكذلك سائر الأجناد والرعية، وكفن ودفن وقت صلاة العصر من اليوم في مشهد داخل باب الفراديس من دمشق، وشرع أصحابه في التأهب للعود إلى أماكنهم من الموصل وغيرها من البلاد وتقدم أتابك بإطلاق ما يستدعونه لسفرهم واستصحبوا معهم أثقاله وجواهره وماله»^(١).

ويذكر وليم الصوري هذه الحادثة فيقول: «وحين وصل إلى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذي كان قد أنزل كثيرًا من البلوى بالمملكة اغتاله الحشاشون، ويقال، إن الاغتيال تمّ بعلم الملك طغتكين وموافقته إذ راجت شائعة أنه لم يكن يأمن هذا القائد ويخشى أن يجرمه من المملكة»^(٢).

ومما تقدم نرى أن القلانسي قال، إن مودودًا قتل في دمشق وأن قاتله لم يعرفه أحد. أما وليم الصوري فيقول، إن الحشاشين اغتالوه لصالح طغتكين الذي كان يخاف من هذا القائد. وتبدو رواية وليم الصوري أقرب إلى الصحة من رواية القلانسي، فمن المؤكد أن طغتكين خاف من مودود ولذلك دبّر عملية قتله، ولعله استعان بالإسماعيلية لتنفيذ عملية القتل وخصوصًا أنه كان حليفًا لهم وقدم لهم خدمات كما سنرى في مواضع لاحقة من الكتاب.

وعندما سمع السلطان محمد بمقتل مودود انزعج لذلك واعتقد أن تلك الجريمة مدبرة من قبل طغتكين، ولذلك أرسل أقسنقرالبرسقي على رأس جيش إلى الشام لقتال طغتكين، ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة فيقول: «لما كان العام التالي، أي ١١١٣ من مولد المسيح، حشد الوالي التركي القوي برسق حشدًا كثيفًا من قومه واقتحم إمارة أنطاكية مضمّرًا لها السوء وبعد أن جاس خلال ديار تلك الناحية، ضرب معسكره بين دمشق وحلب في انتظار الفرصة لشن غاراته هنا وهناك على أرض الصليبيين، فاضطرب طغتكين ملك دمشق كل الاضطراب من هذه الحملة التي هلع لها أشدّ الهلع مخافة أن تكون مستهدفة الإضرار به هو ذاته أكثر من استهدافها الصليبيين الذين طالما اختبر الترك بأسهم، فقد لقي مودود العظيم موته على باب بيته غيلة واعتقد الناس أن طغتكين كان على علم بما تمّ تديره، وأن اغتياله كان برضى منه، ولذلك فإنه ما كاد يعلم بوصول الترك ويدرك تمام الإدراك مقصدهم حتى أرسل رسلاً من لدنه إلى الملك بلدوين

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ١٨٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٠٣

وإلى أمير أنطاكيا ومعهم غالي التحف وثمانين الهدايا، وأكد لهما بالأيمان أن يظل طول مدة سريان الهدنة مخلصًا في مراعاة تحالفه مع صليبي المملكة والإمارة^(١)، وقام أمير أنطاكيا فناشد الملك أن يمد إليه يد العون، كما دعا من جانبه طغتكين حسب العهد المبرم بينهما أن يأتيه على رأس عسكره، وجمع الملك قواته، وصحبه بونس كونت طرابلس، وزحفت الجموع إلى هناك، كما أن طغتكين وافاه بجنده قبل مجيء الملك وانضم إلى معسكر الصليبيين حليفًا لهم، حينذاك انضم العسكر بعضهم إلى بعض حتى صاروا جيشًا واحدًا، وأجمعوا الرأي على الزحف نحو مدينة شيزر التي قيل، إن البرسقي كان موجودًا بجيشه فيها، لكن ما كاد هذا يعلم بذلك الزحف حتى أدرك أنه لن يقدر على الصمود، فتظاهروا بالارتداد ارتدادًا كان يخيل معه أنه لا ينوي العودة، وعند ذلك رجع الصليبيون إلى أرضهم^(٢). وعاد طغتكين إلى دمشق^(٣).

لكن البرسقي كرّر رجاءً إلى أنطاكيا، وأخذ يعيث في أرجائها ويضرم النار في حقولها وفي أطرافها، وأباح لجنوده كل ما يجدونه خارج الأماكن الحصينة يأخذونه نهبًا وسلبًا، فلما علم أمير أنطاكيا بعودته استدعى بلدوين كونت الرها، فحضر إليه، وتوجه الاثنان بجيشهما نحو البرسقي الذي كان قد نصب معسكره في وادي سرمد، وعندما علم باقتراب الصليبيين، استعد بقواته للقتال، وراح يحضهم على الاستبسال، وكان قد عمل على تأمين سلامة نفسه قبل وصول الصليبيين، إذ اتخذ له مكانًا مع أخيه وبعض أصدقائه على تل مجاور لتل «دانيث» يستطيع من أعلاه مشاهدة رجاله وهم يحاربون، وإصدار التعليمات اللازمة لضمان استمرار القتال. وبينما كان هو مشغولاً على هذه الصورة إذ بالكتائب الصليبية تأخذ في التقدم رافعة أعلامها، وكان بلدوين كونت الرها في الطليعة مع جنده فلم تفزعه كثرة عدوه حين رآه، بل اندفع مهاجمًا إياهم اندفاعًا زلزل قلوبهم، وحذت الكتائب الأخرى حذوه، فألقوا بأنفسهم على من كان في القلب من جند خصومهم، والتحمت السيوف بالسيوف، وحاول العدو في بداية الأمر مقاومة الصليبيين باذلاً في هذه المحاولة كل ما في طاقته فما أجده ذلك نفعًا، إذ ما لبث رجاله أن ولوهم الأدبار في غير انتظام فرعًا من بأسهم وبطشهم وما هم عليه من صبر عجيب. وشاهد برسق وهو واقف على قمة التل تدهور قوة جنده وتزايد نجاح الصليبيين، ففر إلى ما وراء تلك الأكمة مستصحبًا أخاه وأصدقاءه، تاركًا وراءه رايته ومعسكره بكل ما حواه من المتاع، لا يعنيه شيء سوى إنقاذ حياته بالهرب، ومضت قوات الصليبيين تطارد العسكر الذين اختل نظامهم مطاردة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣١٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص ٣١١

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص ٣١٣

عنيفة واقتفت خطاهم مسافة ميلين، وحكموا السيف فيهم فقتلوا الكثيرين منهم»^(١).

ويروي ابن العديم هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٠٨ لكن بطريقة مختلفة قليلاً فيقول: «وكتب لؤلؤ البابا (ملك حلب) إلى السلطان محمد بن ملكشاه يبذل له تسليم حلب والخزائن التي خلفها رضوان وولده ألب أرسلان، ويطلب إنفاذ العساكر إليه، فوصل برسق بن برسق مقدم الجيوش في سنة ٥٠٩، فتغيرت نية لؤلؤ الخادم عما كان كتب به إلى السلطان، وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده، ووعدته بتسليم حلب إليه، وأن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق، فبادر إلى ذلك»^(٢). ووصل طغتكين إلى حلب وكان برسق بن برسق لا يزال في بالس ووصله الخبر أن أتابك طغتكين وصل إلى حلب، فأعرض عنها وسار إلى حماة فتسلمها، ومن ثم تسلم رمنية وسلمها إلى خيرخان بن قراجا^(٣). وخاف طغتكين من أن يقصد برسق دمشق، فأخذ عسكر حلب، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره من ملوك الفرنج ونزلوا أجمعين أفاميا^(٤). ونزل برسق أرض شيزر، وجعل أتابك يريث الفرنج عن اللقاء خوفاً على الفرنج أن يكسروا عسكر برسق فيأخذوا الشام جميعه، أو ينكسروا فيستولي برسق على ما في يده^(٥). وخاف الفرنج وضائق صدور أمراء عسكر برسق من المصاهرة، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ، فاتفق أتابك والفرنج على عود كل قوم إلى بلادهم، ففعلوا ذلك. وتوجه أتابك إلى دمشق، وعاد عسكر حلب إلى حلب، فعاد برسق حينئذ عن حصن الأكراد وسار إلى كفر طاب وحصر حصناً حصيناً كان الفرنج عمّروه بجامعها وأحكموه فأخذه وقتل من فيه، ورحل نحو دانيث يطلب حلب، ووصل إلى دانيث والفرنج يعرفون أخباره ساعة فساعة، فساروا إليه، فلم يكن له طاقة بهم، فانهزم من دانيث إلى تل السلطان، وأخذ الفرنج من الكراع والسلاح والخيام والدواب وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى، وقتل من عسكر برسق نحو خمسمائة وأسرنحوها. واجتمع العسكر على تل السلطان، ورحلوا إلى النقرة مخدولين، ومن ثم توجهوا إلى بلادهم. ووصل طغتكين من دمشق فتسلم رمنية ممن كانوا فيها، وعاد إلى دمشق»^(٦).

وكما نرى فإن رواية ابن العديم متقاربة من رواية الصوري، لكن تبدو رواية

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ج ٢ - ص ٣١٥

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٣

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٣

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٤

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٤

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٥

الصوري أكثر دقة وصوابية في التحليل والاستعراض من رواية ابن العديم حول هذه الواقعة.

٦ - ظهير الدين يغير على طبرية

بعد أن انهزم البرسقي وأمن ظهير الدين أتابك سربه، نقض الهدنة مع الصليبيين وأغار على منطقة طبرية، ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة فيقول: «قام طغتكين ملك الدماشقة الغادر الماكر وتحالف مع أحد شيوخ العرب، وانضمت القوات الواحد منهما إلى قوات الآخر، واقتحموا الأراضي الواقعة في منطقة طبرية وعاثوا فيها فسادًا وعدوانًا، فلما علم بلدوين بذلك حشد الجند من شتى أرجاء المملكة وأسرع إلى هناك وترامى خبر اقترابه إلى سمع طغتكين فأخذ حذره وانسحب إلى ناحية قاصية في بلاده، وعند ذلك قام الملك بمهاجمة جرش* التي كان طغتكين قد أقام بها قلعة من الحجر الأصم في السنة السابقة، وزودها بالذخيرة وجهازها بالسلاح، وأقام بها بعضًا من خاصة رجاله^(١). وقد استسلمت القلعة لبلدوين بمن فيها من الجند وكانوا أربعين أقيموا لحراستها، فاشتراط أن يسمح لهم بمغادرة المكان إلى ذويهم سالمين، فأجيبوا إلى ما طلبوه، ومن ثم قام الملك بهدم القلعة بسبب أنه رأى أن لا جدوى تعود عليه إن هو استبقاها في يده، لما يكلفه ذلك من النفقات الباهظة بالإضافة إلى صعوبة الوصول إليها من دون أن يتعرض للخطر البليغ»^(٢).

ولا يذكر القلانسي هذه الواقعة التي حدثت سنة ١١٢٠ للميلاد، ٥١٣ للهجرة.

٧ - الصراع على رمنية

كانت بعرين التي كانت تسمى (رمنية) حاضرة كبيرة يسكنها عدد كبير من البشر، وكانت تتبع في ملكيتها لمملكة دمشق التركية، ورأينا أن وليم الصوري يقول: إن ريموند سانت جيل وجماعته من الصليبيين قد قاتلوا مدينة وهم في طريقهم من الداخل إلى الساحل، وانتصروا عليها، ولم يذكر وليم الصوري اسم هذه المدينة، لكنها في حقيقة الأمر رمنية (بعرين) التي تقع على مقربة من بلدة مصياف. ولا شك أن الصليبيين بعد احتلالهم لهذه المدينة، تركوا فيها حامية من جندهم، ومن ثم أكملوا طريقهم نحو الساحل، ومن ذلك الوقت بدأ الوجود

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٢

الصليبي في منطقة ريفية من دون مضايقة من الترك. ولا يتحدث المؤرخون الشرقيون لتلك المرحلة عن كيفية احتلال الصليبيين لريفية، لكن لا شك أنه تمّ احتلالها بالطريقة التي ذكرها وليم الصوري.

وتمضي السنون فلا نسمع خبراً عن ريفية حتى سنة ٤٩٨ حيث يقول أبو يعلى القلانسي في أحداث تلك السنة: «في أول شعبان توجه ظهير الدين أتابك إلى بعلبك ونزل عليها متنكراً على كمشتكين الخادم التاجي واليهما لأسباب انتهت إليه عنه فأنكرها منه، فلما نزل عليه وضايقه وعرف ما في نفسه أنفذ إليه يبذل الطاعة والخدمة والإنكار لما افترى به عليه والتنصل مما نسب إليه والحلف على البراءة مما اختلف من المحال عليه فصفح له عن ذلك ورضي عنه وقرر أمره وأوعز بكفّ الأذية عن ناحيته ورحل عنها متوجّهاً إلى ناحية حمص وقصد ريفية ونزل عليها ووفد عليه خلق كثير من جبل بهرا، فهجموا على ريفية على حين غفلة من أهلها وغرّة من مستحفظها فقتلوا من بها وبأعمالها والحصن المحدث عليها من الإفرنج وأحرقوا ما أمكن إحراقه في الحصن وغيره وهدم الحصن وملكت أبراج ريفية وقتل من كان فيها وعاد العسكر إلى حمص»^(١).

وهذا النص يبين أن ظهير الدين طغتكين هجم على ريفية وعلى أعمالها، وأنه وفد إليه رجال من (جبل بهرا)، أي من مناطق القدموس والشيخ بدر، والتي كان فيها حصون قوية هي، قلعة القدموس، وقلعة الكاف، وقلعة الخواي، وأن هؤلاء الرجال شاركوا في قتال الصليبيين في ريفية، وأن الحملة على هذه المدينة، أدت إلى قتل كل الصليبيين الذين كانوا بها وبأعمالها أي القرى والمزارع التابعة لها. لكن الصليبيين لم يستكينوا لما جرى، بل راحوا بعد احتلالهم لطرابلس يتطلعون لإعادة السيطرة على هذه القلعة نظراً لأهميتها حيث تمثل بوابة من الداخل إلى الساحل.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٣ أنه، «لما فرغ الإفرنج من طرابلس بعد افتتاحها وتدير أعمالها وتقرير أحوالها نهضوا إلى ريفية وعرف ظهير الدين ذاك من مقصدهم، فنهض في العسكر نحوها لحمايتها وخيم بإزائهم بحمص، فلم يتمكن الإفرنج من منازلتها ومضايقتها وترددت بينه وبينهم مراسلات ومخاطبات أفضت إلى أن أجاب كل واحد من الفريقين إلى تقرير المواقعة على الأعمال والمسالمة واستقر الأمر على ذلك على أن يكون للإفرنج الثلث من استغلال البقاع ويسلم إليهم حصن المنيطرة وحصن ابن عكار، ويكفوا عن العبث والفساد في الأعمال والأطراف وأن يكون حصن مصيات (مصيف) وحصن الطوفان، وحصن الأكراد، داخلاً في شروط المواقعة ويحمل أهلها عنها مالاً معيناً كل سنة

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٨

إلى الإفرنج. فأقاموا على ذلك مدة يسيرة فلم يلبثوا على ما تقرر وعادوا إلى رسمهم في الفساد والعناد»^(١).

ويتضح من هذا النص أن ملك دمشق كان يفرض سلطانه على رمنية، وأنه سالم الصليبيين على أن يعطيهم ثلث الغلال التي تأتي من البقاع وأن يسلمهم حصن المنيطرة في عكار وحصن ابن عكار في عكار أيضاً مقابل أن يتوقفوا عن الهجوم على أراضي مملكة دمشق الأخرى، وأيضاً فقد نصت شروط الاتفاقية على أن حصون مصياف والطوفان والأكراد داخلية في المواعدة، ويبدو أن حصن مصياف كان تابعاً لمملكة دمشق ولذلك تم إدخاله في الاتفاقية، لكن من غير المعروف أين يقع حصن الطوفان، أما حصن الأكراد فهو معروف وكان آنذاك تابعاً لحمص التي كانت تابعة بدورها لمملكة دمشق، وتقرر في الاتفاقية أن يحمل أهل رمنية كل سنة مالاً محدداً إلى الصليبيين.

ولم يلتزم الصليبيون بتلك الشروط بل استمروا في مخططاتهم لتوسيع رقعة سيطرتهم في سوريا، وكان أمير طرابلس الصليبي برترام ابن ريموند سان جيل قد مات سنة ٥٠٥، وقام من بعده ولده (بونس) وتطلع هذا لإعادة السيطرة على رمنية لأنها كانت من ضمن أملاك إمارة طرابلس الصليبية، فيقول وليم الصوري: «أجمع بونس كونت طرابلس عزمه في ذلك الوقت على محاصرة مدينة رمنية، القريبة من بلاده، لما قدره من سهولة هذا الحصار، وإذا كان يتطلع إلى أن تكلل خطواته هذه بالنجاح التام فقد بعث بكثير من الكتب والرسائل إلى ملك بيت المقدس يرجوه فيها القدوم لمساعدته، فبادر الملك بالشخص إلى هناك على رأس طائفة من عسكره، فلما صار هناك وجد الكونت ورجاله على أتم أهبة لخوض المعركة، وقد استصحبوا معهم من طرابلس الآلات الحربية وكل ما يستلزمه حصار أي مدينة من المدن. وكانت رمنية ضعيفة المنعة بسبب موقعها الطبيعي وقلة عدد سكانها، كما زاد من هذا الضعف توالي الغارات عليها مما أنهكها وأفقدتها القدرة على الصمود طويلاً، إذ كان الكونت قد شيد حصناً في الجبال القريبة من أراضيها، وجهزه بحامية دأب رجالها على شن الغارات العنيفة على المدينة مما كبدها الأهوال حتى ضاقت بها الأحوال، مما وجد الأهالي معه أنفسهم مضطرين للاستسلام بعد ثمانية عشر يوماً من الحصار، وأذن الملك لأهلها بالخروج آمنين سالمين على أنفسهم ونسائهم وأولادهم»^(٢). ولم يحدد وليم الصوري في أية سنة ميلادية حدث ذلك، لكن على الأغلب أنه حدث في سنة ١١١٥، أي في سنة ٥٠٩ للهجرة، وقد ذكر وليم الصوري أن (بونس) شيد حصناً في

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلى القلانسي - ص ١٦٥

(٢) الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٥

الجبال القريبة من بلاده، لكنه لم يذكر اسم هذا الحصن، لكنه بلا ريب، حصن صافيتا، وهذا يعني أن هذا الحصن لم يكن موجوداً من قبل، أو كان موجوداً، لكن بونس جدد تحصيناته*.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٠٩ ما يؤكد رواية الصوري فيقول: «وفي هذه السنة قويت شوكة الصليبيين في رفنية وبالغوا في تحصينها وشحنها بالرجال وشرعوا في الفساد والتناهي في العناد، فصرف ظهير الدين همّه إلى الكشف عن أحوالهم والبحث عن مقاصدهم في أعمالهم، وترقب الفرصة فيهم ومعرفة الغرّة منهم، وتقدم إلى وجوه العسكر ومقدميه بالتأهب والاستعداد لقصد بعض الجهات لإحراز فضيلة الجهاد والنهوض لأمر من المهمات ثم أسرى إليهم مغذاً حتى أدركهم وهم في مجاثمهم غارون وفي أماكنهم لاهون قارون فلم يشعروا إلا والبلاء قد أحاط بهم من جميع جهاتهم، فهجمت الأتراك عليهم البلد فملكوه وحصل كل من كان فيه في قبضة الأسرورقة الذل والقهر فقتل من قتل وأسروا من أسروا وغنم المسلمون من سوادهم وكراعهم وأثاثهم ما امتلأت به الأيدي وسرت به النفوس وقويت بمثله القلوب وذلك في يوم الخميس لليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة، وانكفأ المسلمون إلى دمشق ظافرين مسرورين غانمين لم يفقد منهم بشرولاً عدم شخص ومعهم الأسرى ورؤوس القتلى»^(١).

كما أن ابن الأثير يذكر أن الصليبيين ملكوا رفنية في سنة ٥٠٩^(٢). ولا يذكر أوليم الصوري هذه الواقعة، ولا نعلم إن كانت قد حدثت فعلاً أم لا.

٨ - الصليبيون يغزون أرض دمشق

لم يكن يقرّ للصليبيين قرار عن مهاجمة الأراضي العربية المحيطة بهم بهدف السيطرة عليها، وكانت دمشق نصب أعينهم لأنها مدينة كبيرة والسيطرة عليها تعني السيطرة على سوريا كلها نظراً لحجم الأراضي التي كانت تتبع لها.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥١٩ فيقول: «وفيها اتصلت الأخبار من ناحية بغدوين ملك الإفرنج صاحب بيت المقدس الاحتشاد والتأهب والاستعداد لقصد ناحية حوران من عمل دمشق للعبث فيها والإفساد وشرع في شن الغارات

* يقول القلانسي في أحداث سنة ٥٠٥: «وفي الثاني من شعبان ورد الخبر بهلاك بدران بن صنجيل صاحب طرابلس بعلّة لحقته وأقام ابنه في الأمر من بعده وهو طفل صغير كفله أصحابه ودبروا أمره مع طنكري صاحب أنطاكية وجعلوه من خيله وأقطعاه انطرطوس وصافيتا ومرقية وحصن الأكراد - ذيل تاريخ دمشق - ص ١٨١، ومن هذا النص يتضح أن تانكريد كان قد سيطر على صافيتا أثناء سيطرته على حصن الأكراد.

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩٢

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ١٦٠

على الجهات القريبة من دمشق والمضايقة لها وقطع الطرقات على الواردين إليها، فعند المعرفة بذلك والتحقق له شرع ظهير الدين أتابك في الاستعداد للقائه والاجتماع على جهاده، وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم وأعيانهم بإعلامهم بصورة الحال ويستتجد بهم عليهم ويبذل لهم الإحسان والأنعام، وبرز في عسكره وقد ورد عليه خبر قربهم من طبرية قاصدين أعمال البلد فنزل في مرج الصفر، وكاتب ولادة الأطراف بإمداده بالرجالة واتفق وصول التركمان في ألقى فارس أولي بأس شديد ورغبة في القتال، فاجتمع إليه خلق كثير، وكان الإفرنج حين عرفوا نزول أتابك والعسكر بمرج الصفر رحلوا إليه وخيموا بإزائه ووقعت العين على العين وتطاردت طلائع الفريقين، فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي الحجة من السنة، اجتمع للقاء المقضي والحكم النافذ من أحداث دمشق والشباب الأغر ورجال الغوطة والمرج وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها، ومن العقبة وقصر حجاج والشاغور خلق كثير رجالة وخيالة بالسلاح التام والناهض مع المتطوعة المتدينين وشرعوا بالمصير للحاق بالمصاف قبل اللقاء، وقد شاع الخبر بقوة عسكر الإسلام وكثرته واستظهاره على حزب الإفرنج وشدة شوكته، وأغار فرقة كبيرة من التركمان على أطراف الإفرنج ونال منهم واستظهر إليهم وخاف الإفرنج وعلموا أنه لا طاقة لهم بهذا الجمع وأيقنوا بالهلكة ورحلوا بأسرهم من منزلهم الذي كانوا فيه عائدين إلى أعمالهم على غاية من الخوف والوجل ونهاية من الذل والوهل، وطمع العسكر فيهم وحملوا عليهم وهم مولون الأدبار وضايقوهم مضايقة ألجأتهم إلى رمي نفوسهم عليهم إما لهم وإما عليهم فتجمعوا وعادوا على العسكر الإسلامي وحملوا عليه فكسروهم وهزموهم وقتلوا من أعقابهم من شطبه الوجل وخانه الأجل، وتمّ العسكر في الهزيمة على حاله، وعادوا على الرجالة وهم العدد الكثير والجم الغفير وأطلقوا السيف فيهم حتى أتوا عليهم وتتبعوا المنهزمين حتى قربوا من دمشق ووصل ظهير الدين أتابك بالعسكر إلى دمشق آخر النهار، وقرر مباركة الإفرنج في غد للإيقاع بهم، فصادفهم قد رحلوا عائدين إلى أعمالهم»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الحادثة فيقول: «في شهر يناير من عام ١١٢٦ أمر الملك بلدوين وكبرائه أن يؤذن في الناس قاطبة بعقد اجتماع يحضره الناس صغيروهم وكبيرهم على السواء، وبعث المنادين ينادون بهذه الأوامر على مدن المملكة، فما انقضت أيام معدودات إلا وقد تمّ حشد قوة المملكة الحربية بأكملها، وتركيزها قرب مدينة طبرية تأهباً لغزو أرض دمشق، وما كاد العسكر يجتمعون في المكان المحدد لهم حتى صدرت الأوامر الحربية بترتيب الأمتعة وتعبئة الصفوف للزحف فزحفوا حتى صاروا داخل أرض العدو، ووصلوا إلى مرج الصفر، وأقام

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢١٤

الجيش هناك مدة يومين كان يرى فيهما معسكر الخصم في مواجهته وعلى مقربة منه، حتى إذا كان اليوم الثالث التقى الجانبان في ساحة القتال، وقد استعدّا كل الاستعداد، ورتّب كل واحد منهما صفوفه أحسن ترتيب، وحمل كل منهما على الآخر حملة صدق، ولما كانت قوى الطرفين متعادلة فقد ظلت نتيجة المعركة فترة طويلة غير معروفة، وضاعف الملك من ضغطه على العدو وراح ينادي رجاله ويشجعهم على القتال بالقول ويضرب لهم المثل بنفسه ويعدهم النصر الأكيد، أما طغتكين فمضى من ناحيته هو الآخر يثير رجاله بمثل هذه الروح من الحماسة بكلماته إليهم ويرفع من معنوياتهم القتالية بما وعدهم به، وذكرهم أنهم يحاربون حرباً عادلة من أجل حريمهم وأبنائهم، وأنهم يجاهدون في سبيل حريتهم وهي أنبل ما في الحياة، ويدافعون عن أرض أجدادهم ويدفعون عنها اللصوص^(١). فأثرت كلماته هذه في نفوسهم فاندفعوا وكلهم حماسة لا تقلّ عن حماسة رجالنا، وعزم يكافئ عزم قومنا، وهاجم المشاة الصليبيون صفوف الأعداء وشددوا الضغط عليهم، ولم يدعوا كافرًا من الكفار قد أثنته جراحه أو أحدًا منهم شاء حظه العائر أن يصادفوه في طريقهم إلا وأجهزوا عليه بسيوفهم، فسدّوا بذلك على عسكر العدو بأجمعهم كل سبل النجاة، وركز الصليبيون اهتمامهم على جياذ أعدائهم يرمونها بسهامهم فتجرحها سهامهم فيقع من عليها ويصبحون فريسة سهلة لهم^(٢)، كما أن الملك هاجم بنفسه صفوف العدو، واقتدى به فرسانه فسار الدمار في ركابهم حيث ساروا، ونجم عن ذلك مذبحّة ارتاع لها الجميع حتى من كتبت لهم الغلبة، ولا يوجد في تواريخنا حتى وقتنا الحاضر ذكر معركة كهذه المعركة في شراستها وعنفها، وعلى الرغم من امتدادها من الساعة الثالثة حتى العاشرة إلا أنه لم يكن من الممكن حتى الحادية عشرة أن يقرر أحد ما لمن كان النصر يومذاك حتى شاءت الرحمة الإلهية أن تتدخل شفاعة معلم المهتدين الأعظم فيلوذ الكفار بأذيال الهرب فرارًا مما نزل بهم من مذبحّة، إذ يقال، إنه هلك من رجالهم أكثر من ألفي رجل، وأحصينا من فقد منا فكانوا أربعة وعشرين فارسًا وثمانين من المشاة. وبعد أن أحرز العسكر عدة انتصارات مجيدة تستحق الذكر عادوا إلى بلدتهم وهم أسعد ما يكونون»^(٣).

وكما نرى فإن الروايتين الشرقية والغربية تتفقان في أن الهزيمة حلت بالجيش التركي. ولا يتحدث القلانسي عن قتال متكافئ بين الطرفين كما فصل في ذلك وليم الصوري، الذي أطنب في وصف شراسة الخصم، بل راح يقول، إن طغتكين كان يشجّع جيشه على القتال ويقول لهم، إنكم تقاتلون عن حريمكم وأولادكم

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٤

وعن حريتكم وعن أرض أجدادكم، ضد هؤلاء اللصوص. وما يدعو إلى الأسف هو أن يسجل ولیم الصوري هذه الكلمات المؤثرة التي تدل على عمق إيمان طغتكين بعدالة قضيته، في حين أن المؤرخ الشرقي لا يأتي على ذكر أي شيء منها. ويتحدث المؤرخ الشرقي عن أمرهم وهو أن أحداث الباطنية اشتركوا في القتال، وقد وصفهم بالشهامة والبسالة، وأن هؤلاء جاؤوا من حمص وغيرها. ويبين هذا النص أن حمص كانت، آنذاك، مدينة على المذهب الفاطمي، كما أن العديد من المدن الأخرى في سوريا الداخلية كانت كذلك.

- ثانيًا: التُّرك في حلب والصليبيون

١- رضوان والصليبيون

رغم أن الملك رضوان حاول تفادي الاصطدام بالصليبيين بعد دخولهم إلى سوريا واحتلالهم لأجزاء من مملكته، لكنه لم يبقَ كذلك، بل حاول أكثر من مرة مهاجمة هؤلاء الغزاة، ويذكر ولیم الصوري في أحداث سنة ١١٠٥ للميلاد فيقول: «في هذه السنة قام صاحب حلب القوي الأمير رضوان بجمع الإمدادات من البلاد المجاورة له، إما بالاتفاق معهم أو ببذل المال لهم، ودخل أرض أنطاكية بجيش كبير، فبث الذعر في الإقليم كله بغاراته المتعددة، وكثرة ما أضرم من الحرائق التي كانت تأتي على كل شيء، فلما علم تانكريد بذلك استدعى إليه فرسانه ومشاته وزحف بهم على الناحية التي اتفقت الأخبار كلها على وجود جيش رضوان بها^(١). وخرج تانكريد من أنطاكية وسار بجيشه إلى أرتاح، وتأكد له صدق ما وافته به الأخبار، إذ وجد جموعًا كثيرة هناك، فكرّرة صدق على العدو الذي قاوم بعض الوقت في بداية الأمر، لكن ما لبثت صفوفه أن تصدّعت، وانضط عقد عسكره، فلاذوا بأذيال الفرار، ووقع الكثيرون منهم في الأسر، وقتل منهم ما لا يكاد يحصيه الحصر، هذا إلى جانب رايات رضوان التي أخذها تانكريد، وكان أول الفارين الأمير رضوان نفسه»^(٢).

ويذكر ابن العديم هذه الواقعة لكنه يرويها بطريقة مختلفة فيقول: «في رجب من سنة ٤٩٨ خرج فخرالملوك رضوان صاحب حلب وجمع خلقًا كثيرًا، وعزم على قصد طرابلس لمعونة فخرالملوك ابن عمار على الإفرنج النازلين عليه، وكان الأرمن الذين في حصن (أرتاح) قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الإفرنج وتزايد

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٦١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٢ - ص ٢٦١

طمعهم، فلما عرف طنكري ذلك خرج من أنطاكيا لقصد أرتاح واستعادتها وجمع ما في أعماله من الإفرنج ونزل عليها فتوجه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث لإبعاده، فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين فثبت راجل المسلمين وانهزمت الخيل ووقع القتل في الرجالة ولم يسلم منهم إلا من كتب الله سلامته ووصل الفل إلى حلب، وقد قتل من الترك مقدار ثلاثة آلاف بين فارس وراجل^(١)، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله، ونهب من نهب وسبي من سبي، وذلك في الثالث من شعبان، واضطربت أحوال حلب، وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون، ونزل طنكريد على تل أعدي من عمل ليلون، وأخذه وأخذ بقية الحصون التي في عمل حلب، ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماة ومن الغربية إلا الأتارب، والشرقية والشمالية في يديه، وهي غير آمنة»^(٢).

وكما نرى فإن المؤرخ الشرقي يتفق مع المؤرخ الغربي في أن الهزيمة حلت بالترك، وأن الكثير منهم وقع قتيلاً وأسيراً.

٢- حلب بعد رضوان

توفي الملك رضوان سنة ٥٠٧، وخلفه ولده ألب أرسلان وعمره ست عشرة سنة، وكان في كلامه حبسة وتمتمة، فلذلك عرف بالأخرس، وقبض على أخويه ملكشاه ومبارك فقتلهم، وقبض جماعة من خواص أبيه فقتل بعضهم وأخذ أموال الآخرين^(٣). وكان المتولي لتدبير أموره خادماً لأبيه يقال له لؤلؤ البابا فاستولى على الأمر، وفي السنة التالية عمل على ألب أرسلان وواطأ جماعة من أصحابه فقتلوه في داره بقلعة حلب^(٤). ونصب لؤلؤ أخاً صغيراً لألب أرسلان، عمره ست سنوات، اسمه سلطان شاه، وتولى هو تدبير شؤون المملكة^(٥).

وكان السلطان السجوقي محمود بن محمد بن ملك شاه، كما يقول ابن العديم، قد أقطع حلب والرحبة للبرسقي، فواطأ جماعة من أصحابه أن أظهروا مفارقتهم، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصه، وواطأهم على قتل لؤلؤ، وأمل أنهم إذا قتلوه تصح له أقطاع حلب فقتلوه سنة ٥١٠*^(٦). وأسرع بعضهم إلى الرحبة فأعلم

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩١

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٢

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٦

البرسقي بقتل لؤلؤ، فجَدَّ المسير إلى حلب، وانضاف بعض عسكره إلى بقية القوم الذين قتلوه، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم، وساروا إليها فسبقتهم ياروقتاش الخادم الذي أخذ خدم الملك رضوان ودخل إلى حلب ونزل بالقصر، وأخرج بعض عسكر حلب وأوقع بالذين قتلوا لؤلؤاً، وارتجع ما كان أخذوه، وانهزم بعض من اشتركوا في الجريمة فالتقوا أقر سنقر (البرسقي) في بالس، وأخبروه بما جرى، فكتب أقر سنقر إلى أهل حلب يطلب منهم التسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك^(١).

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥١١، فيقول: «وفيها وردت الأخبار أن الأصفهارة ياروقتاش الخادم هادن الأفرنج ووادعهم وسلم إليهم حصن القبة، وقيل، إن الأمير أقر سنقر البرسقي خرج من الرحبة في عسكره وقصد حلب، ونزل عليها طامعاً في تملكها فلم يتسهل له أمل ورحل عائداً عنها إلى الموصل^(٢).

ويذكر ابن العديم أن الخادم ياروقتاش «كاتب نجم الدين إيلغازي بن أرتق ليصل من ماردين ويدفع أقر سنقر، وكاتب روجر صاحب أنطاكية أيضاً فوصل إلى بلد حلب، وأخذ ما قدر عليه من أعمالها الشرقية، فحينئذ آيس البرسقي من حلب وانصرف^(٣).

وأراد ياروقتاش السيطرة على قلعة حلب، فصعد إليها وعمل حيلة على المقدمين فيها، لكن هؤلاء قبضوا عليه، كما يقول ابن العديم، بأمر من بنات رضوان بعد تمام شهر من ولايته وأخرجوه من حلب، وولوا في القلعة خادماً من خدم رضوان، ورد أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر إلى عارض الجيش * العميد أبي المعالي المحسن بن الملحى، فدبر الأمور وساسها^(٤). ويسميه القلانسي (أبا المعالي المحسن بن المحلي) العارض الدمشقي^(٥).

* هذه الجريمة النكراء التي دبرها أقر سنقر البرسقي والتي أدت إلى قتل حاكم حلب لؤلؤ البابا، لا يذكرها أحد من مؤرخي الترك في تلك المرحلة إلا ابن العديم، وسبب عدم ذكرها هو أن هؤلاء المؤرخين كانوا قد رسموا صورة زاهية للبرسقي فكيف يطعنون به بذكر هذه الجريمة البشعة.

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩٩

(٣) زبدة الحلب - ابن العديم - ص ٢٦٦

* لم نقف على معنى عبارة «عارض الجيش» ولعل المقصود بها الشخص الذي يتولى الإشراف على الجيش وتأمين حاجاته.

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٧

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩٩

٣ - حلب وإيلغازي

وصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب، بناء على دعوة ياروق تاش، فأنزلوه، كما يقول ابن العديم، في قلعة الشريف، ومنعوه من القلعة الكبيرة، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة ٥١١، وقبض على أبي المعالي بن الملحى، واستوحش من أهل حلب وجندوها فخرج عنها إلى ماردين، وأخرج ابن الملحى من الاعتقال وأعيد إلى تدبير الأمور^(١).

ويقول أبو يعلي القلانسي في أحداث تلك السنة: «وفي المحرم وصل الأمير نجم الدين إيل غازي بن أرتق في عسكره إلى حلب وتولى تدبير أمرها مدة صفر وفسد عليه ما أراده فخرج منها وبقي ولده حسام الدين تمر تاش»^(٢)، لكنه كان بمثابة رهينة في أيدي الحلبيين^(٣).

واشتد الغلاء بأنطاكيا وحلب، بسبب خراب الموسم في تلك السنة، فهاجم الصليبيون أعمال حلب، ولم يجدوا من يردهم، فطمعوا في امتلاك حلب نفسها، وعندما رأى الحلبيون أنه لا قوة لهم على دفعهم عن بلدهم، قرروا الاستنجاد بإيلغازي رغم كرههم للترك ورغبتهم بالتخلص من حكمهم، وما يؤكد ذلك هو أن البرسقي عندما راسلهم بتسليم حلب له، ردوا عليه الجواب بأنهم: «لا يريدون أحدًا من الشرق»^(٤).

ويذكر ابن العديم في أحداث سنة ٥١٢ فيقول: «ويئس أهل حلب من نجدة تصلهم من أحد من الملوك، فاتفق رأيهم على أن سيروا الأعيان والمقدمين إلى إيلغازي بن أرتق، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم وظنوا أنه يصل في عسكريفرج به عنهم، وضمنوا له مالا يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر»^(٥)، لكن إيلغازي وصل في عسكر قليل فزهد به الحلبيون وعادوا عن رأيهم في السماح له بالدخول إلى بلدهم، فقرر العودة من حيث أتى، لكن القاضي أبا الفضل بن الخشاب الذي كان مسؤولاً عن حفظ حلب، لحقه مع جماعة من الأعيان، وتوسلوا إليه حتى رجع^(٦). وعندما دخل إلى حلب قرر القضاء على كل الطبقة السياسية الحاكمة فيها، فأنزل سلطان شاه وبنات رضوان من القلعة مع الجنود^(٧)، وانتهت بذلك

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ١٩٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٧

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٧

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٩

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٩

(٧) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٩

دولة آل تتش من حلب، وبدأت دولة آل أرتق. وكان الصليبيون يزدادون قوة ويزداد طمعهم بالمزيد من بلاد حلب، فرأى إيلغازي أن من الواجب مواجهتهم، فراسل ملك دمشق طغتكين لمساعدته، كما راسل غيره من ملوك الترك، وسار إلى الشرق ليجمع العساكر، فسار إليه أتابك طغتكين، كما يقول ابن العديم، والتقاء بقلعة دوسر، ووافق على ذلك.^(١)

أ - وقعة تل عفرين

يقول ابن العديم في أحداث سنة ٥١٣: «وتوجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك، وراسل من بعد وقرب من التركمان، فجمع جمعًا عظيمًا، وتوجه في عسكر يزيد عن أربعين ألفًا، وقطع الفرات، وسار إلى مرج دابق، ثم إلى المسلمية، ثم إلى قنسرين، ثم إلى الروج^(٢). ووردت الأخبار، كما يقول القلانسي، ببروز روجير صاحب أنطاكية منها في جمعه وحشده من طوائف الأفرنج ورجال الأرمين من سائر أعمالهم وأطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل سوى الأتباع، ونزلوا في الموضع المعروف بشرمدا وقيل (دانيث البقل) بين أنطاكية وحلب، فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور، فما كان أسرع من وقوع العين على العين وتقارب الفريقين، وحمل المسلمون عليهم وأحاطوا بهم من جميع الجهات ضربًا بالسيوف ورشًا بالسهم ومنح الله تعالى حزب الإسلام النصر على المردة الطغام ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من تلك السنة، إلا والأفرنج على الأرض سطحة واحدة فارسهم وراجلهم بخيلهم وسلاحهم بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم ووجد مقدمهم روجير صريعًا بين القتلى^(٣)، ولقد حكى جماعة من المشاهدين لهذه الواقعة أنهم طافوا في مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة وأنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعة كالقنافذ من كثرة الشباب الواقع فيها، وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام ولا في الأنف من الأيام، وبقيت أنطاكية شاغرة خالية من حمايتها ورجالها خاوية من كماتها وأبطالها، فوقع التغافل عنها لانشغال الناس بإحراز الغنائم، وعاد ظهير الدين أتابك منكفئًا إلى دمشق عقيب هذا الظفر ودخلها يوم السبت ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ٥١٣»^(٤).

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٧٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٧٠

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٠١

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٠١

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول في أحداث سنة ١١١٩ للميلاد: «في هذه السنة هاجم إيلغازي إمارة أنطاكيا وهو أحد الأمراء الجاحدين الأقوياء وصاحب الأمر والنهي على هذا الجنس الغادر، جنس التركمان. وقد عسكر بجموع كثيرة من رعاياه قرب حلب، كما كان معه طغتكين ملك دمشق ودييس بن صدقة وهو أحد الولاة العرب الأقوياء. وقد ضم هذان الأخيران قواتهما الضخمة إلى جيش إيلغازي. وكان بعض الناس قد أخبروا روجر أمير أنطاكيا بقدم هذه الجيوش، فأرسل إلى لورد جوسلين كونت الرها، وإلى بونس أمير طرابلس، وإلى الملك ذاته يصور لهم الخطر الذي يهدده ويلج عليهم إلحاحاً شديداً ألا يتوانوا في المجيء إليه لمساعدته في هذه الأزمة الطارئة. وسرعان ما بادرك الملك إلى جمع كل من أمكن جمعه من مملكته من العساكر وتقدم بحيث الخطى إلى طرابلس حيث وجد الكونت يتأهب هو الآخر للخروج، فانضمت قواتهما بعضهما إلى بعض وتابعوا الزحف معاً بقية الطريق^(١). وكان روجر غادر أنطاكيا وعسكر أمام أرتاح، وظل مقيماً هناك لبضعة أيام يترقب وصول الملك والكونت، لكنه ما لبث أن أمر الجيش بالتقدم على الرغم من نهي البطرك الذي تبعه إلى هناك. وقد شجعه على ذلك بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم إلى ذلك رغبتهم في أداء خدمة للجيش، بل كانوا يطمعون أن يكون في مجيئه حماية لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو. فاستجاب الأمير لما أشار إليه هؤلاء وترك المكان الذي كان يعسكر فيه واندفع في طيش فأقحم نفسه وجيشه فيما يجز عليه البوار، إذ نزل بموضع يقال له حقل الدم وأحصى هنا جيشه فوجده سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين، هذا بالإضافة إلى جماعة من التجار الذين كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة وبيع ما معهم من السلع^(٢). ولما رأى الأعداء أن الأمير عسكر على مقربة منهم نقضوا خيامهم وتظاهروا بسحب قواتهم كأنهم يريدون مهاجمة حصن الأتارب، أملاً منهم في أن تؤدي هذه المناورة ثمار خيبتهم الحقيقية في سهولة ويسر. فبلغوا حصن الأتارب وعسكروا قربه هذه الليلة، ولكنهم لم يقوموا بأي عمل لأن الوقت كان متأخراً. فلما طلع الصباح بعث الأمير روجر كشافة للتجسس وليعرف ما إذا كان الخصم عازماً على مهاجمة المكان في الحال أم أنه مسرع إليه لقتاله. ورتب الأمير روجر جنده للقتال توقعاً لهجوم قد يباغتونه به في لحظتهم هذه. وعاد إليه جواسيسه مسرعين وأخبروه أن العدو في ثلاث كتائب، قوام كل كتيبة منه عشرون ألفاً من العسكر، وإنهم مسرعون في الاقتراب منهم. فاستعد الأمير في الحال للقتال جاعلاً جيشه أربعة أقسام وبينما هو في غمرة الاستعداد إذا برايات العدو تخفق معلنة اقترابه الشديد من القوات

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٤٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٤٩

الصليبية. وبدأ القتال في الحال واستبسل كل من الجانبين استبسالاً عظيماً في حربه، وانتهى القتال بانتصار التُّرك حيث دارت الدائرة على الصليبيين وهلك معظم عسكرهم بحدّ السيف. وكان روجريين الهالكين والتجأ (رينالد ماسوييه) أحد النبلاء الصليبيين في تلك الناحية هو وجماعة من الأشراف إلى أحد أبراج مدينة (الماورة) * طلباً للسلامة، فما كاد إيلغازي يعلم بذلك حتى حثّ خطاه إلى هناك على رأس طائفة مسلّحة وأرغم النبلاء الموجودين بالبرج على الاستسلام. ولم تقدّر النجاة لأحد من الألوف العدة الذين تبعوا مولاهم في ذلك اليوم. ولم يبق منهم أحد في الحياة ليروي خبر ما جرى، هذا في الوقت الذي كان فيه قتل العدو شردمة قليلين أو لا شيء مطلقاً^(١). في هذه الأثناء كان الملك وكونت طرابلس قد وصلا إلى المكان المسمى (جبل نجرة) فما كاد إيلغازي يعلم بخبر وصولهما حتى بعث بكتيبة قوامها عشرة آلاف فارس لصدّهما، وكانت هذه الكتيبة مقسّمة إلى ثلاث فرق تقدمت أولاها تجاه الشاطئ إلى ميناء القديس سمعان، أما الفرقتان الأخريان فقد زحفتا ضد الملك، وشاءت الصدفة أن يلتقي بلديون بإحدى هاتين المجموعتين، فهاجمها وأفنى الكثيرين من رجالها الذين أسربعضهم وأرغم البقية على الفرار، ثم تابع بعدئذ زحفه حتى وصل إلى أنطاكية ففرح بمقدمه البطرك والناس قاطبة، وكان إيلغازي قد ضرب الحصار على الأتارب وبدأ الجند يعملون على بناء التحصينات فحفروا السرايب ونسفوا الأكمة التي يقع عليها الحصن، فانهارت الرابية التي تركز عليها الأسوار والأبراج. وخاف رجال الحامية أن تهوي القلعة بأكملها فاستسلموا على أن تؤمن لهم حياتهم وأن يسمح لهم بالرجوع إلى أهلهم من غير أي عائق^(٢)، ثم قاد إيلغازي جيشه إلى قلعة (زردنا) * وبدأ عمليات الحصار بها فلم تنقُض أيام قلائل إلا وقد استسلم من بها على نفس الشروط. وفقد أهالي الأماكن المجاورة كلّ أمل لهم في النجاة، وخرج الملك وكونت طرابلس من أنطاكية بكل القوات التي أمكنهما جمعها واتجها صوب الروج وعسكرا على هضبة يقال لها (دانيث) وما كاد خبرهما يصل إلى سمع إيلغازي حتى استدعى إليه قواده وهددهم بالموت إن لم يهجروا النوم ويصرفوا كل ليلهم في الحصول على السلاح والخيول وأمرهم أن يبذلوا أقصى الجهد في الاستعداد لمهاجمة الملك مع إطلالة الفجر قبل أن يطلع النور وبذلك يفاجئون رجال الملك وهم لا يزالون يغطّون في نومهم فيحكمون السيف فيهم جميعاً. لكن الصليبيين لم تغمض لهم عين وظلوا منهمكين في ترتيب التفاصيل للمعركة القادمة. ومضى

* لا نعلم أي مدينة في تلك الناحية كانت تحمل هذا الاسم الغربي.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري- ج ٢ - ص ٣٥٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية-وليم الصوري- ج ٢ - ص ٣٥٣

* زردنا، قرية سورية صغيرة في الشمال الشرقي لمحافظة ادلب.

«إبرمار» رئيس أساقفة قيصرية الذي كان بصحبة الملك ومعه صليب المسيح، يشجع الصليبيين على القتال، وبينما هم كذلك في انتظار مجيء العدو إذا به يكرّ عليهم في صرخات مدوية، ويتقدمه نفخ البوق ودق الطبول، ثم التحمت الصفوف المتراصة القريب بعضها من بعض وتقاتلت وجهاً لوجه بالسيوف ولم يحفل الجانبان أبداً بالشرائع الانسانية، بل كانا يتقدان عنفاً ويتفجران كراهية لا ينضب معينها، ويتقاتلان كما لو كان كل منهم يقاتل وحوشاً ضارية، ورأى المارقون أن جرأة مشاتنا تنذر بشر مستطير، فبدلوا محاولات بطولية للقضاء عليهم، فهلك في ذلك اليوم طائفة كبيرة من الصليبيين، وسرعان ما تبين للملك أن المشاة أجهدوا أنفسهم وأن المقدمة في حاجة هي الأخرى للمساعدة، ومن ثم وثب بحرسه وهم ركوب وشقوا طريقهم قدماً إلى قلب العدو، وراح بلدوين يضرب بسيفه ضرباً عنيفاً ذات اليمين وذات الشمال حتى تخلخلت صفوف الخصم التي كانت أكثر الصفوف حشداً، وحذا رفاقه حذوه ونجح تشجيعه إياهم في شدّ عزائمهم فاثالوا على العدو لا تملكهم غير فكرة واحدة، وأفحشوا القتل في العدو الذي لم يعد أحياءه قادرين على المقاومة بل فروا على وجوههم. ويقال، إنه سقط من الصليبيين في هذه المعركة ما يقرب من سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان، أما خسائر العدو فبلغت أربعة آلاف قتيل سوى من جرحوا جروحاً مميتة، أو وقعوا في الأسر. فلما شاهد إيلغازي هذا الأمر خلى جنوده وحدهم يواجهون الموت وهرب هو مع كل من طغتكين ملك دمشق ودييس أمير العرب، أما الصليبيون فقد راحوا يطاردون القوم في شتى الجهات. وبقي الملك ورهط من فرسانه في ساحة المعركة خلال الهزيع الأول من الليل، لكنه اضطر تحت الحاجة إلى الطعام للعودة إلى قلعة «هاب» المجاورة لتناول بعض ما يقيم أودهم، ولما رجع في الصباح إلى ساحة المعركة ظل مقيماً هناك حتى نصف الليل وجاءه الخبر اليقين أن الأعداء فقدوا عسكرهم ولا عودة لهم. وحينذاك جمع هو كل الجند وسار بهم إلى أنطاكية يحملون السعف منصورين^(١). وقد كان هذا النصر في سنة ١١٢٠ للميلاد. وجهاز بلدوين الحصون بالرجال وزودها بالذخيرة والمؤونة، فلما فرغ من ذلك غادر أنطاكية وعاد إلى المملكة^(٢).

مما تقدم يتبين الخلاف بين الرواية الشرقية والرواية الغربية حول هذه الواقعة، فابن القلانسي لا يأتي على ذكر الأمير العربي ديبس بن صدقة بن مزيد أمير الحلة، بينما يشير وليم الصوري إلى وجوده ضمن جيش إيلغازي، وخلو الرواية الشرقية من ذكر الأمير ديبس، ربما يعود لأنه عربي، ولكي لا يُعطى لعربي كرامة في الجهاد ضد الصليبيين. لكن الروایتين تختلفان في أن المؤرخ الشرقي وقف عند المرحلة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٥٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ص ٣٥٧

الأولى من المعركة التي قتل فيها روجر أمير أنطاكيا، أما المرحلة الثانية التي ذكرها وليم الصوري والتي انتهت بهزيمة إيلغازي فلم يذكرها المؤرخ الشرقي، ونرى أن رواية وليم الصوري هي الصحيحة وأن الأمير ديبس بن صدقة بن مزيد كان ضمن تحالف إيلغازي وأن الهزيمة حلت بجيوش الحلفاء في تلك الواقعة.

ب - إيلغازي يعاود الهجوم

يذكر ابن العديم أن إيلغازي صالح الفرنج مدة سنة كاملة، واعترف بأن لهم المعرة، وكفر طاب، والجبل، والبارة، وضياعاً في جبل السماق، وضياعاً من تل أغدي، وضياعاً من عزاز^(١). «وسار في المحرم من سنة ٥١٦ إلى الشرق ليجمع العساكر، فعاد ومعه ابن أخيه (بلك بن بهرام بن أرتق)، حيث استدعاه من أعمال الروم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية، ونزل إيلغازي بجيشه على زردنا في العشرين من جمادى من تلك السنة، وحصرها وأرسل صاحبها يستدعي بغدوين الذي كان في طرابلس في حكومة كانت بينه وبين صاحبها^(٢). وعندما علم بغدوين بالأمر صالح صاحب طرابلس، وشرط عليه اللحاق به، كما استدعى جوسلين، ووصل الفرنج في أربعة عشر يوماً من منازل المسلمين لزردنا، وبلغ الخبر إيلغازي فرحل إلى (تل السلطان)، وأتابك طغتكين في صحبته، فخرج الفرنج وهجموا على الأتارب وأحرقوا ما حولها، ورحلوا منها ونزلوا دانيث، وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد، فعادوا إلى بلادهم، وعاد إيلغازي فنزل زردنا وقتل جماعة من الفرنج، فعاد الفرنج ونزلوا بالدير قرب هذه القلعة، فرحل إيلغازي إلى منطقة تدعى (نواز) وأقام ثلاثة أيام يزاحف الفرنج وهم لا يخرجون إلى الصحراء، وأكل إيلغازي لحماً قديداً كثيراً وجوراً أخضر وبطيخاً وفواكه، فانتفخ جوفه وضاق نفسه، واشتد به الأمر، فرحل إلى حلب وتزايد به المرض، فسار طغتكين إلى دمشق، وبلغ إلى بلاده، وأقام إيلغازي أياماً وسار إلى ماردين، ثم خرج يريد ميفارقين فاشتد به المرض في الطريق، ومات قرب ميفارقين أول شهر رمضان سنة ٥١٦»^(٣).

ويذكر وليم الصوري هذه الحادثة فيقول: «جمع إيلغازي عسكره في السنة التالية وانتهاز فرصة غياب الملك وحاصر بعض قلاعنا، فلما علم الناس بهذا الخبر بعثوا إلى الملك يستدعونه، فنهض، على عجل، حاملاً معه صليب المسيح، واستدعى إليه جوسلين كونت الرها، واثنين من كبار القادة اللذين كانا انضموا إلى كبار زعماء أنطاكيا وزحفوا على القلعة الحصينة (زردنا) وكان ظنهم أنهم سوف

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب ابن العديم - ص ٢٧٦

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨١

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٢

يشتبكون في القتال حال وصولهم إلى غايتهم، لكن حدث أن ضرب الله إيلغازي بالسكتة القلبية، فحمله قادة جيشه وهو في النزاع الأخير في محفة، وأسرعوا به إلى حلب، غير أنه يقال قد لفظ أنفاسه قبل أن يصلوا به إلى هذا المكان، ولقد ظل الملك مقيماً في أنطاكية فترة من الوقت، ثم رجع إلى المملكة»^(١).

ومما تقدم يتبين أن المؤرخ الشرقي يتفق مع المؤرخ الغربي في أن إيلغازي حاصر زردنا، فجاءه الملك ومن معه بالجيوش، لكن المؤرخ الشرقي يقول، إنه حصل كَرْ وفرّ بين جيش إيلغازي وبين الجيش الصليبي، أما المؤرخ الغربي فلا يذكر أنه حصل أي لقاء بين الجانبين، كما أنه لا يذكر أن أمير طرابلس كان موجوداً في هذه الواقعة، بل يذكر جوسلين كونت الرها فقط.

ونرى أن الرواية الغربية أكثر صحة من الرواية الشرقية حول هذه الواقعة.

٤- بلك بن بهرام بن أرتق

بعد موت إيلغازي، ملك ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار بن أرتق حلب، فصالح الصليبيين في أنطاكية على أن يسلمهم قلعة الأتارب^(٢)، وكان بلك بن بهرام قد بدأ يشن غارات على إقليم أنطاكية، فاستنجد الصليبيون هناك بالملك بلدوين، الذي أسرع للنجدة.

ويذكر ابن العديم في أحداث سنة ٥١٧ فيقول: «في تاسع عشر صفر من تلك السنة، سار بغدوين ليقا تل نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق وكان محاصراً قلعة (كركر) * فالتقيا على موضع اسمه (آروش) بالقرب من قنطرة نهر سنجة *، بين ديار بكر وديار مضر، فكسره نور الدولة بلك، وأسره وقتل معظم عسكره، ومقدميه ونهب خيمه، وفتح حصن كركر بعد جمعة، وجعل بغدوين في قلعة «خرتبرت» مع جوسلين وقلران^(٣). ثم أن نور الدولة، كما يقول ابن العديم، عبر الفرات ونزل على حلب وضايقها حتى تسلمها في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة ٥١٧^(٤). وسار بعد ذلك إلى البارة وأسرا سقفها وقيدوه ووكل به، ورحل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٥٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٤

* كركر، حصن بين سميساط وحصن زياد، وهو قلعة وقد خربت - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الرابع - ص ٤٥٣

* سنجة، نهر بين ديار بكر وديار مضر عليه قنطرة عظيمة من عجائب الأرض - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الثالث - ص ٤٢٤

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٤

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٥

إلى كفر طاب فغفل الموكل به فهرب إلى كفر طاب، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف، فوصله أن بغدوين الرويس وجوسلين وقلران وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت، عاملوا قومًا من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم، ووثبوا على الحصن فملكوه وأخذوا كل ما كان لنور الدولة في الحصن وكان جملة عظيمة، واتفق رأيهم على خروج جوسلين وحلفوه على أن لا يغير ثيابه ولا يأكل لحمًا ولا يشرب إلا وقت القران إلى أن يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلصهم^(١). فسار بلك إلى خرتبرت ففتحها بالسيف في ٢٣ رجب، وقتل من كان فيه من أصحابه الذين كفروا نعمته، ولم يستبق سوى بغدوين وقلران وابن أخت بغدوين وسيّرهم إلى حران وحبسهم بها^(٢).

ومضى جوسلين إلى بيت المقدس، واستنجد بالفرنج، ووصل بهم إلى تل باشر، فسمع خبر فتح خرتبرت بالسيف فسار إلى وادي نهر الذهب وأحرق بزاعا وأحرق الباب وقطع شجره، ثم نزل حلب وخرّب المشاهد والبساتين، ونبش الضريح الذي بـ(مشهد الدكة)* فلم يجد فيه شيئًا فألقى فيه النار^(٣).

وفي شهر ذي القعدة من تلك السنة، عبر بلك الفرات ووصل إلى حلب، وجمع العساكر، ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق، وعسكر أرق سنقر البرسقي، وعبروا حتى نزلوا على عزاز، وضايقوها بالحصار، فتجمع الفرنج وقصدوا ترحيل الترك عنها فالتقى الجيشان، وانهزم الترك وقتل من قتل وأسروا^(٤).

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٥

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٦

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٦

* مشهد الدكة، ذكره ابن الشحنة في كتابه فقال: «قال يحيى بن أبي طي في تاريخه: وفي هذه السنة يعني سنة ٣٥١ ظهر مشهد الدكة وكان سبب ظهوره أن سيف الدولة علي بن حمدان كان في أحد مناظره بداره التي بظاهر المدينة فرأى نورًا ينزل على المكان الذي فيه المشهد عدة مرار، فلما أصبح ركب بنفسه إلى ذلك المكان وحفره فوجد حجرًا عليه كتابة «هذا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب «رضوان الله تعالى عليهم، فبني عليه هذا المشهد. «قال «وقال بعضهم، إن سبي نساء الحسين لما وردوا هذا المكان طرح بعض نساؤه هذا الولد فأثارت نروي عن آبائنا أن هذا المكان يسمى بـ«الجوشن» لأن شمريين ذي الجوشن عليه اللعنة نزل عليه بالسبي والرؤوس وأنه كان معدنًا يعمل منها الصفر «النحاس» وأن أهل المعدن فرحوا بالسبي فدعت عليهم زينب بنت الحسين ففسد المعدن من يؤمنه. «وقال «بعضهم، إن هذه الكتابة التي على الحجر قديمة وأثر هذا المكان قديم وأن هذا الطرح الذي زعموا لم يفسد وبقاؤه دليل على أنه ابن الحسين، فشاع بين الناس هذه المفاوضة التي جرت، وخرجوا إلى هذا المكان وأرادوا عمارته. فقال سيف الدولة: هذا الموضوع قد أذن الله لي في عمارته على اسم أهل البيت. «قال يحيى بن أبي طي: ولحققت هذا المشهد وهو باب صغير من حجر أسود عليه قنطرة مكتوب عليها بخط أهل الكوفة كتابة عربية: «عمر هذا المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربة إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان». الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - ص ٨٦، فمشهد الدكة هو مشهد المحسن، «عليه السلام»

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٧

وفي سنة ٥١٨ نقل بلك بغدوين من حبس حران، وحبسه في قلعة حلب، وفي صفر من سنة ٥١٨ تنكربلك على حسان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه، فأنفذ قطعة من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وتقدم إليهم أن يمرّوا على منبج ويطلبوا من حسان أن يخرج معهم للإغارة على تل باشر، فإذا خرج قبضوه، ففعلوا ذلك، ودخلوا إلى منبج. وعندما علم عيسى أخو حسان ما جرى لأخيه تحصن بالقلعة ورفض النزول منها. وسير حسان فحس في حصن «بالو» * بعد أن عوقب وعري، وسحب على الشوك فلم يسلمها أخوه^(١). وكتب عيسى إلى جوسلين (إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك، سلّمت إليك منبج، فمضى جوسلين إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج وجمع ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل وانطلق نحو منبج ليرحل بلك عنها، فسار إليه بلك لما قرب من منبج، والتقى يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأول، واقتتل العسكران، وانهزم الفرنج، وتبعهم الترك يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار، وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول فقتل بلك كل أسير أسره وزحف نحو الحصن، وبينما هو قائم يأمر وينهي جاءه سهم من الحصن، وقيل إنه كان من يد عيسى، فوقع في ترقوته اليسرى فمات لوقته»^(٢).

ويذكر وليم الصوري هذه الوقائع يقول: «يَمّم الملك وجهه شطر أنطاكية استجابة لنداء أهلها الذين جابهتهم المشاكل فطلبوا المعونة منه، لأن أميراً تركياً كبيراً قوياً اسمه (بلك) أخذ في مكيدة الإقليم بأجمعه بكثرة ما شنّه عليه من الغارات التي يقوم بها، وكان قد قام قبل ذلك بفترة وجيزة بحملة فجائية أسفرت عن وقوع كل من جوسلين كونت الرها وقريبه (جاليران) في أسره، فرجّ بهما في السجن، غير أن بلك أخذ يقلل من هجماته التي كانت كثيفة، حين سمع أن الملك قدم بنفسه فتجنب حدوث صدام بينه وبين بلدوين^(٣). لكن مع ذلك دنا بعض الشيء منه على رأس فرسانه المسلحين بالأسلحة الخفيفة لعلّ الفرصة تسعفه فينجز رغبته في إنزال المضرة بالقوات الصليبية، أما الملك فقد تابع سيره بمن معه إلى أرض الرها، راجياً أن يكون ذا جدوى لأهلها الذين لم يعد لهم قائد يصرف أمورهم، وبعد أن خلف قلعة (باشر) وراءه، وأسرع إلى الرها، وحدث ذات ليلة أن خرج مع نفر من خاصة أتباعه، وإذا ببلك يطلع عليهم بغتة ويهاجمهم، إذ كانت الأخبار قد جاءت عن سير الملك، فنصب له ولمن معه كميناً، وشاء الحظ

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٨

* بالو، قلعة حصينة وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزن الروم وخلاط، بها معدن الحديد - معجم البلدان - ياقوت الحوي الرومي - المجلد الأول - ص ٣٣٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٣

العاثر أن يقع بغدوين ذاته في يد بلك أسيراً^(١). وفرّ من بقي من الجيش الصليبي في شتّى الجهات، وقيد بلك الملك ورماءه في قلعة خربت، حيث كان جوسلين وجاليران، وسمع رهط من الأرمن يبلغون الخمسين رجلاً أن الملك وجوسلين في الأسر بقلعة خربت، فصمموا على القيام بمحاولة إنقاذهما، وعقد هؤلاء الأرمن اتفاقاً، وأكدوا اتفاقهم بأغلظ الأيمان، ونجحوا في دخول القلعة مختبئين في زي تجار جاؤوا لبيعوا سلعاً رخيصة، فلما أذن لهم بالدخول استلّوا خناجرهم وفتكوا بجميع من اعترضهم، فسيطروا على القلعة وخلصوا الملك والكونت وحصنوا المكان، وبعث الملك الكونت جوسلين ليجلب العون على جناح السرعة لإنقاذه ومن معه، وعرف التّرك الذين يعيشون في تلك النواحي بما حدث في القلعة، فبادروا إلى فرض الحصار عليها حتى يصل مولاهاهم بلك^(٢). وكان جوسلين قد خرج من القلعة وانطلق مع ثلاثة رفاق، وحدث في هذه الليلة بالذات أن رأى بلك في نومه رؤيا مزعجة أفرعته وبلبلت خاطره، مفادها أن جوسلين سمل عينيه بيديه، فانخلع قلبه رعباً، حتى إذا طلع النهار بعث إلى القلعة رجالاً كلّفهم بقطع رأس جوسلين دون تمهل وإبطاء، فلما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة جاءهم الخبر بأنها قد سقطت في يد العدو، فارتدّوا إلى مولاهاهم على أدبارهم، وفصلوا له تفصيلاً كلّ ما جرى، فاستدعى بلك العسكر وأسرع بهم إلى القلعة، فحاصرها وأمر الفعلة بإعداد شتى أنواع الآلات التي يكون في حاجة إليها في مهاجمته القلعة وفيها العدو، وكانت القلعة مشيّدة على تلّ ذي طبيعة جيّرة قديمة، جعلت الدخول إليها يسيراً. ولذلك رأى بلك أنه من اليسير عليه تقويض الموضع من أساسه، فجدد لذلك الجند المهرة في حفر الخنادق وأمرهم بحفر أنفاق كبيرة داخل التل، ودعمها بالكتل الخشبية، وما كاد العمال يفرغون مما كلّفوا به حتى أضرموا النار في الأخشاب فلما احترقت سقط التل ومعه أحد الأبراج، فاستسلم الملك لبلك لأنه خاف أن تنهار القلعة كلّها وأعاد بلك أسرى بلدوين وابن أخته وجاليران، وحملهم إلى حرّان، وقتل الأرمن بأشد أنواع القتل^(٣).

وتابع جوسلين مسيره حتى وصل إلى أنطاكية ومن هناك سار إلى القدس، فاجتمع إليه أهل المملكة وقاموا قومة رجل واحد رافعين صليب المسيح، وخرجوا من ساعتهم هذه، وكانوا كلما مرّوا بمدينة توالّت عليهم الإمدادات، ووصلوا إلى تلّ باشر، وهناك جاءهم الخبر اليقين بكل ما جرى للملك. وإذا رأوا عدم جدوى التقدم أكثر من هذا فقد تقرر بإجماع الآراء أن يعودوا كلهم إلى أوطانهم، غير أنهم لم يشاؤوا أن تنفّض الحملة دون أن تجني ثمرة لخروجها، لذلك اتفقوا على أن تنزل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٨

هذه الكتائب أقصى ما يمكنها من المضرة بالخصم أثناء مرورها قرب حلب، وتمّ كل شيء حسب ما رسموه، إذ بينما كانوا سائرين على مقربة من هذه المدينة برز أهلها لهم قاصدين قتالهم، فما كان من المسيحيين إلا أن أرغموهم بقوة السلاح على الارتداد إلى المدينة التي ظل العسكر الصليبي أمامها أربعة أيام على السواء رغم محاولات أهلها دفعهم، ولما كان المسيحيون في طريق العودة انفصل من كانوا من أهل المملكة عن سواهم وتابعوا زحفهم على انفراد^(١).

وحاصر بلك مدينة منبج وأرسل إلى واليها يتودّد إليه بكلماته المعسولة المخادعة ويسترضيه، فصدّق الرجل ما سمعته أذناه منه، وأسرع في الحال إليه، لكن بلك ما كاد يراه حتى أمر بضرب عنقه، ولما سمع جوسلين كونت الرها بأن بلك محاصر لإحدى المدن الواقعة في بعض الأقاليم المجاورة له استولى عليه الفرع من أنه إذا تمّ خلع واليها الحالي الذي لا يلقى منه ما يؤرق باله فلربما حلّ مكانه آخر يكون أشدّ خطرًا منه عليه، ومن ثم انطلق فجمع قوة كبيرة وأسرع لصدّ جيش بلك، فلما عرف أين يقف رتب صفوفه للقتال وأغار عليه فجأة فهزمه ففرّ بلك على وجهه فصادفه جوسلين فضربه بسيف وطرحه أرضًا وقطع رأسه وهو لا يعرف أن الذي أمامه إنما هو قائد الجيش العام^(٢). وكان هذا مصداق حلم بلك، وأرسل جوسلين برأس الأمير في الحال إلى شاب كلّفه بحملها إلى الجيش الصليبي لتعمّ الفرحة بهذا الخبر^(٣).

وتبدو الروايتان الشرقية والغربية متوافقتين لجهة اعتقال بلك للملك بلدوين ولجوسلين ولجاليران الذي يسمّيه ابن العديم (قلران)، كما تتفقان في أن المعتقلين قد تحرّروا، لكن وليم الصوري يقول، إن بلك اعتقل جوسلين وقريبه جاليران أولاً، وعندما سار الملك بلدوين إلى الرها لينظر في أمرها بسبب اعتقال أميرها جوسلين، وقع هو أيضًا في قبضة بلك، فزج بالجميع في قلعة خربت، وهناك تفصيل آخر وهو أن ابن العديم يذكر أن طغتكين والبرسقي شاركا بلگا في حصار عزاز لكن الجميع انهزموا أمام الصليبيين، ولا يذكر وليم الصوري هذه الواقعة وربما لم تحدث.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٢ - ص ٣٦٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٧

٥- تمرتاش بن إيلغازي والصليبيون

ملك حلب بعد مقتل بلك ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي وذلك سنة ٥١٨، وتسلم حصون بلك كلها، وكانت تزيد على خمسين حصناً^(١). ويقول ابن العديم: إن تمرتاش لما ملك حلب «ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين»^(٢).

وسعى الملك الصليبي في فك أسره من السجن، ووافق تمرتاش على ذلك حيث يقول ابن العديم: «في غرة جمادى الأولى من سنة ٥١٨، استقر الأمر بين الملك بغدوين، وكان في سجن بلك بحلب، وبين تمرتاش على تسليم الأتارب وزردنا والجزر وكفرطاب* وعزاز ومعها ثمانون ألف دينار، وقدم منها عشرين ألف دينار، وكان الوسيط بين بغدوين وتمرتاش، هو الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ أمير شيزر، الذي أرسل أولاده وأولاد أخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب، وفكّت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش، فأكل وشرب معه وخلع عليه قباء وقلنسوة ذهب وحذاء، وأعاد له الحصان الذي كان معه حين أسره بلك^(٣). وسار إلى شيزر فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعته رهناً على الوفاء بما شرطه تمرتاش وهم: ابنه، وابن جوسلين، وغيرهما من أولاد الفرنج، وهم اثنا عشر نفرًا، وحمل العشرين ألف دينار التي عجلها، وقبض صاحب شيزر الرهائن وأطلق بغدوين من سجن شيزر، في سابع عشر شهر رجب سنة ٥١٨، فخرج وغدر بتمرتاش وأرسل إليه يقول: (البطريق الذي لا يمكن خلافه سأني عما بذلت، وما الذي استقر، فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني أبي، وأمرني بالدفع عنها وقال، إن خطيئتك تلزمني ولا أقدر على خلافه)^(٤).

ويقول ابن العديم أيضًا: «وخالط ديبس (بن صدقة) جوسلين وبغدوين، وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جبر، واتفق ديبس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها، أن تكون حلب لديبس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع في حلب تكون للفرنج^(٥). وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلى ماردين، ليستنجد بأخيه سليمان ويجمع العساكر،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩١

* كفرطاب، حصن ومدينة أثرية تقع غرب خان شيخون في محافظة إدلب - سوريا.

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩١

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٢

وبقي بنو منقذ رهائن بقلعة حلب، وأولاد الفرنج رهائن بشيزر، وخرج بغدوين إلى أرتاح ونزل على نهر قويق وأفسد كل ما كان عليه، ثم رحل فنزل على باب حلب، في ٢٦ شعبان، وخرج ديبس وجوسلين من تل باشر، ونزلا مع بغدوين على حلب، ووصل إليهم الملك سلطان شاه بن رضوان، وأقاموا على حلب يزاحفونها، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور موتى المسلمين، وأخذوا توايبتهم إلى الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله، فربطوا في أرجلهم حبالاً، وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: «هذا نبيكم محمد» وآخر يقول: «هذا عليكم» وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب، وقالوا: «يا مسلم أبصر كتابك»، وقد ثقبه الفرنجي بيده، وشده بخيطين، وعمله ثفراً* لبرذونه، فظل البرذون يروث عليه، وأقاموا كلما ظفروا بأحد من أهل حلب، قطعوا يديه ومذاكيره «أعضاءه التناسلية»، وأهل حلب كانوا يفعلون مثل فعلهم، وكان تمرتاش قد سار إلى ماردين بعد وفاة أخيه سليمان، ليضع يده على أملاكه، وترك في حلب بدر بن عبد الجبار بن أرتق ومعه عدة قليلة من العساكر. وأرسل إليه بدر يستحثه على المجيء إلى حلب، فرفض الاستجابة للاستغاثة، وضاق الأمر بالحلبيين إلى حد أنهم أكلوا الكلاب، ونفذ ما عندهم من الأقوات، وفشا بينهم المرض، والحصار قائم عليهم، فأرسلوا إلى أوق سنقر البرسقي أمير الموصل يدعونه لمساعدتهم، فجاء مسرعاً، ولما عرف الفرنج بمجيئه فكّوا الحصار وساروا إلى جبل جوشن، وخرج أهل حلب والتقوا البرسقي عند وصوله، وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن، وهو يسير وراءهم حتى أبعادوا عن البلد»^(١).

ويذكر ابن الأثير هذه الحادثة بطريقة مختلفة فيقول: «لما ملك الفرنج مدينة صور (سنة ٥١٨) طمعوا وقويت نفوسهم وتيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع، ثم وصل إليهم ديبس بن صدقة صاحب الحلة فأطمعهم طمعاً ثانياً لاسيما في حلب وقال لهم: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب فمتى رأوني سلّموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة وقال، إنني أكون ههنا نائباً عنكم ومطيعاً لكم فساروا معه إليها وحاصروها وقتلوا قتلاً شديداً ووطنوا نفوسهم على المقام الطويل وأنهم لا يفارقونها حتى يملكوها وبنوا البيوت لأجل الحر والبرد، فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك وظهر لهم من صاحبهم تمرتاش الوهن والعجز وقلت الأقوات عندهم،

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٥

* الثَّفَرُ، سَيَرُفِي مَوْخَرِ السَّجِّجِ ونحوه يشد على عجز الدابة تحت ذَنبِها والجمع: أنْفَارُ

فلما رأوا ما دفعوا إليه من هذه الأسباب أعملوا الرأي في طريق يتخلصون به فأوا أنه ليس لهم غير البرسقي صاحب الموصل فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه المجيء ليسلموا البلد إليه، فجمع عساكره وقصدهم وأرسل إلى من بالبلد وهو في الطريق يقول: إني لا أقدر على الوصول إليكم والفرنج يقاتلونكم إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوابي وصار أصحابي فيها لأنني لا أدري ما يقدره الله تعالى إذا أنا لقيت الفرنج فإن انهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتى أحتمي أنا وعسكري بها لم يبق منا أحد وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها، فأجابوه إلى ذلك وسلموا القلعة إلى نوابه فلما استقروا فيها واستولوا عليها سار في العساكر التي معه فلما أشرف عليها رحل الفرنج عنها وهو يراهم فأراد من في مقدمة عسكره أن يحمل عليهم فمنعهم هو بنفسه وقال: قد كفيينا شرهم وحفظنا بلدنا منهم والمصلحة تركهم حتى يتقرر أمر حلب ويصلح حالها وتكثر ذخائرها ثم حينئذ نقصدهم ونقاتلهم فلما رحل الفرنج خرج أهل حلب ولقوه وفرحوا به وأقام عندهم حتى أصلح الأمور وقررها»^(١).

ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة فيقول: «ظل بلدوين أسيراً في يد العدو ما يقرب من ثمانية عشر شهراً، أو ما يزيد قليلاً، فلما كان اليوم التاسع والعشرون من أغسطس سنة ١١٢٤، أطلق سراحه، بعد أن قطع العهد على نفسه بدفع قدر معين من المال وتقديم الرهائن، فلما تم ذلك عاد إلى أنطاكية، وقال، إن المبلغ الذي حدد لافتيائه كان مئة قطعة ميخائيلية*. وكان الملك مشغول البال لا يدري كيف يدبر المال اللازم لافتيائه وفك رهائنه، لذلك استشار طائفة من رجاله الحكماء عن أحسن الطرق لإنجاز هذا الأمر، فأشاروا عليه بحصار مدينة حلب التي كانت تعاني إذًا من قلة الطعام والتي كادت أن تكون خالية من سكانها، ويبنوا له أنه ربما يكون من اليسير على أهلها، إذا اشتد الحصار عليهم، أن يرذوا الرهائن له أو يدفعوا مبلغاً من المال يكافئ المبلغ الذي قبل الملك أن يدفعه افتداء لذاته^(٢). فاستجاب الملك لهذا الرأي، واستدعى جميع فرسانه من شتى أرجاء المملكة، وأحرق بالمدينة إحداً قوياً، ثم شرع في عمليات الحصار شروعاً أعجز أهلها عن الخروج منها والدخول إليها لمن هو خارجها، وترتب على ذلك أن بعثوا بالكتب التي ترادف بعضها في إثربعض إلى أمراء المشرق لاسيما من كان منهم وراء الفرات يشرحون لهم حرج موقفهم، ويبينون لهم أن المدينة لا بد أن تسقط عاجلاً إن تأخرت النجدة عن الوصول إليها، فقلق الأمراء غاية القلق على مدينة حليفة لهم

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٣٠

* العملة الميخائيلية، عملة ذهبية كان معمولاً بها في المعاملات التجارية في الأسواق في الدولة الرومانية.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٤

كهذه المدينة، ثم عبروا الفرات وزحفوا سريعاً لإنقاذ حلب من أخطار الحصار^(١). وكانت هذه النجدة تتألف من سبعة آلاف فارس إلى جانب القوامين بحفظ المتاع والذخيرة وسواهم من الأتباع الذين يؤدون لساداتهم الكبار ما في عنقهم من حق الطاعة الذي قطعوا اليمين على الوفاء به، فلما تبين للملك ومن معه أن العدو قادم بمثل هذه القوات الضخمة رأوا أن الحكمة تملي عليهم الارتداد حفاظاً على سلامة أنفسهم والجيش معاً، وأن ذلك خير من التهور والاندفاع إلى معركة مع العدو وهو في قواته التي تفوق قواتهم عدداً، فارتد الصليبيون قبل أن يبلغ جيش الأعداء المدينة إلى قلعة حصينة من قلاعهم تدعى (أتارب)* التي تابعت منها جموعهم الزحف إلى أنطاكيا، فلما بلغوها انفصل بعضهم عن بعض، وعاد الملك بمن معه إلى بيت المقدس حيث استقبله جميع رجال الدين والشعب استقبلاً حافلاً وفرحت نفوس كبار أهل المدينة وعامتهم على السواء برجوعه بعد غيبة قاربت السنتين»^(٢).

ويتبين مما تقدم الخلاف بين الروايات الثلاث حول هجوم الصليبيين على حلب، حيث يقول ابن العديم، إن بلدوين نكث بالعهد ورفض تسليم البلاد التي وافق على تسليمها، أما ابن الأثير فإنه يربط بين هجوم الصليبيين على حلب وبين أخذهم لمدينة صور، وأنهم أرادوا من خلال تلك الحركة السيطرة على الشام، كما يقول، ولا يذكر قضية حبس الملك الصليبي في حلب وافقدائه، لأنه يقول في موضع آخر من تاريخه، إن الملك هرب من قلعة خربت.

ويتفق ابن العديم وابن الأثير على إقحام الأمير العربي الوحيد، آنذاك، في مؤامرة مع الصليبيين ضد حلب، فابن العديم يقول، إن ديبس اتفق مع الفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها، أن تكون حلب لديبس والأموال والأرواح للفرنج مع مواضع في حلب تكون للفرنج، أما ابن الأثير فهو يدخل الخلاف المذهبي في الأمر فيقول: إن الأمير ديبس ذهب إلى الصليبيين وأطمعهم بحلب، لأنها مدينة شيعية وأهلها يميلون إليه لأنه شيعي أيضاً. لكن وليم الصوري لا يذكر أبداً وجود الأمير ديبس مع الصليبيين في هذه الواقعة، ولو كان موجوداً لذكره وهو الذي يؤرخ للحروب الصليبية.

ونعتقد أن رواية وليم الصوري حول هذه الواقعة هي الصحيحة، أما رواية الرواة الترك مثل ابن العديم وابن الأثير، فهي غير صحيحة ومختلفة، وخصوصاً فيما

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٤
* الأتارب، كأنه جمع أثرب، من الثرب وهو الشحم الذي قد غشي الكرش. يقال: أثرب الكرش إذا زاد شحمه. وهي قلعة معروفة بين حلب وأنطاكيا، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، وهذه القلعة الآن خراب، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها يقال لها الأتارب - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الأول - ص ٨٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ج ٣ - ص ٤٥

يتعلق بالحديث عن اشتراك الأمير ديبس في هذه الهجمة القذرة للإساءة إليه، وإظهار أنه كان مستعداً لمخالفة الصليبيين للوصول إلى هدفه.

٦- البرسقي في حلب والصليبيون

يذكر ابن العديم أن البرسقي دخل إلى حلب وتسلّمها، وأطلق بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب، ورحل إلى تل السلطان، ومن ثم ذهب إلى شيزر فتسلم أولاد الفرنج من بني منقذ وباعهم بثمانين ألف دينار حملت إليه، وأقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتابك طغتكين، فرحل في عساكره ونزل كفرطاب فسلمت إليه، وسار إلى عزاز فقاتلها، فقصده الفرنج والتقوه في ١٦ ربيع الأول من سنة ٥١٩، فانهزم البرسقي هزيمة عظيمة ووصل سالمًا إلى حلب^(١).

ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة فيقول: «في هذه السنة جمع البرسقي عساكره وسار إلى الشام وقصد كفرطاب وحصرها فملكها من الفرنج وسار إلى قلعة عزاز، وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين، فحصرها فاجتمع الفرنج، فارسها وراجلها، وقصدوه ليرخلوه عنها، فلقبهم وضرب معهم مصافاً واقتتلوا قتالاً شديداً فصبروا كلهم، فانهزم البرسقي وقتل وأسر من جيشه الكثير، وكان القتلى أكثر من ألف قتيل وعاد منهزماً إلى حلب»^(٢).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «بينما كان الملك في القدس جاءت الرسل تخبره أن البرسقي، وهو أحد الأمراء الشرقيين البارزين، قد عبر الفرات على رأس جيش قوي جمعه من أقطار المشرق، وأنه أصبح الآن في إقليم أنطاكية يعيثُ فساداً حين لم يجد أحداً يعترضه، فجمع الملك كل من تسنى له جمعه من القوات وزحف بهم إلى أنطاكية، وحدث في هذه الأثناء أن قام البرسقي وحالف طغتكين، وعلم الاثنان باستدعاء أهل أنطاكية للملك فقاما بحصار قلعة كفرطاب ودأبا على مراوحتها بكثير من الهجمات التي أرغمت المحصورين على الاستسلام نظير الإبقاء على حياتهم وإذ أراد البرسقي أن يحرم مثل هذا النصر فقد عبر سوريا الصغرى وحاصر قلعة زردنا التي بذل أمامها جهوداً مضنية استغرقت بضعة أيام، أدرك بعدها عجزه عن أن ينال منها، فوجه همه لحصار اعزاز التي لم تكن شديدة المناعة، وبينما كان يحاصر المكان إذا بالملك يصل وفي صحبته كونت طرابلس وكونت الرها، فلما قارب الصليبيون العدو بدأوا في تنظيم صفوفهم، كما فعل البرسقي الشيء نفسه، فلما أصبح المصافان على استعداد للمعركة شدّ كل

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٦

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٣٥

منهما على الآخر شدة عنيفة فعانقت السيوف السيوف في ضراوة من الجانبين، وحمى وطيس القتال وكثر القتلى من الطرفين، وكانت الغلبة أخيراً للصليبيين، ودارت الدائرة على العدو، واستولى الفرع والاضطراب على البرسقي إذ رأى خاتمة الحملة جاءت على غير ما كان يتوقعه، وإذًاك عبر الفرات وكرّ راجعاً إلى دياره، ولقد دفع الملك بلدوين فديته، وكانت مبلغاً كبيراً من المال، جمع بعضه من غنائم العدو وبعضه مما جادت به أيدي أصدقائه وأتباعه، فلما دفع الفدية ردّوا عليه ابنته ذات السنوات الخمس من العمر والتي كانت رهينة عندهم، وحينذاك استأذن أهل أنطاكية في الرحيل عنهم، وعاد سالمًا إلى بيت المقدس»^(١).

وعاد البرسقي إلى مهاجمة أملاك الصليبيين القريبة من حلب، حيث يقول ابن العديم في أحداث سنة ٥١٩: «ووقعت الهدنة بين البرسقي والفرنج على أن يناصفهم في جبل السماق وغيره مما كان بأيدي الفرنج، وسار البرسقي إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعللون الشحن بالمُحال في المغلّ إلى العشرين من شعبان من السنة، وتجمع الفرنج وقصدوا رمنية، فخرج شمس الخواص صاحبها طالباً أق سنقر البرسقي ومستصرحاً به، فسلمها إليهم ولده المستحفظ فيها في آخر صفر سنة ٥٢٠، وقصدوا بلد حمص وشعثوه. فجمع البرسقي العساكر وسار نحو الشام لحربهم، ووصل إلى الأثارب، ونهبت العساكر الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه، ونقلوا الغلة جميعها إلى حلب، ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج، ووصل إليه جوسلين، ونزلوا عم وأرتاح، وسيروا إلى البرسقي: (ترحل عن هذا الموضع، وتتفق على ما كنا عليه في العام الخالي، ونعيد رمنية عليك). فتجنب الحرب وصالحهم، فغدر الفرنج وقالوا: (ما نصالح إلا على أن تكون الأماكن التي ناصفتنا فيها في العام الماضي لنا دونك). فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم، فلما لم تتفق حال عاد البرسقي ونزل قنسرين، ورحل إلى سمرمين وامتدت العساكر إلى الفوعة ودانيث، ونزل الفرنج على حوض معرة مصرين، فأقاموا كذلك إلى نصف رجب، ونفذت أزواد الفرنج، فعادوا إلى بلادهم، وعاد الأتابك طغتكين إلى دمشق، وسلم البرسقي حلب إلى ولده مسعود، وسار إلى الموصل، فدخلها في ذي القعدة سنة ٥٢٠»^(٢).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الوقائع فيقول: «بينما كان الملك لايزال مقيمًا في طرابلس إذا برسول من أنطاكية يأتيه على جناح السرعة يخبره أن البرسقي قد دخل البقاع على رأس قوة كبيرة من الفرسان، ولما لم يجد معترضًا يعترضه راح يغير على المدن ويحرق الأماكن المطلة على التخوم، فلما تقين الملك من هذا

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٩

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٨

النبأ أسرع إلى هناك، وما كاد البرسقي يعلم بهذه الحركة من جانب الملك حتى رفع الحصار الذي كان أحكمه على قلعة الأثارب وانكفأ راجعاً إلى أقصى ناحية من أرض العدو، لكنه كان قد تمكن قبل وصول الملك من الاستيلاء على إحدى البلدات الصغيرة واسترقّ بعض نساءها وصغارها، غير أن رجال هذه القرية نجحوا في الخلاص من يد العدو»^(١).

ومما تقدّم يتضح التشابه في الروايتين الشرقية والغربية حول هذه الواقعة وأنه لم يحدث قتال بين البرسقي والصليبيين، لأن البرسقي خاف من الهزيمة فتراجع من تلقاء نفسه.

٧- مقتل البرسقي وولاية ابنه مسعود

كان البرسقي قد أقام في الموصل أياماً ومن ثم قصد الجامع بها، كما يقول ابن العديم، ليصلي يوم الجمعة تاسع ذي القعدة، وقصد المنبر، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزهاد، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من الحديد، وحوله جمع عظيم وهو متحفظ منهم، فسبقوا أصحابه إليه، فضربوه حتى أثنوه وحمل جريحاً فمات من يومه، وقتل من كان وثب عليه من الباطنية غير شاب واحد كان من كفر ناصح، ضيعة من عمل عزاز، فإنه سلم^(٢).

ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٥٢٠ فيقول: «في هذه السنة ثامن ذي القعدة قتل أقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمدينة الموصل، قتلت الباطنية يوم الجمعة بالجامع وكان يصلي الجمعة مع العامة»^(٣).

ويقول وليم الصوري: «غير أنه بعد قليل أصابت هذا البرسقي طعنة أوردته الحتوف على يد خدمه وأفراد من أهل بيته، وبذلك جنى على نفسه بفعاله ما لا بد أن يصيبه به مكره السيء، وحصد ثمار إثمه»^(٤).

وكما نرى فإن الرواية الشرقية تلصق تهمة قتل البرسقي بما يسمونها «الباطنية» أما المؤرخ الغربي، فيقول إنه قتل على يد خدمه وأهل بيته، والسؤال هو لماذا تقتل «الباطنية» هذا الوالي التركي*، وخصوصاً أن أحداً من المؤرخين الشرقيين لم يرو

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٧

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٩٨

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد التاسع - ص ٢٣٦

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٥٧

* الكثير من عمليات القتل للخلفاء والملوك والأمراء في ذلك الوقت كانت تتم بمؤامرات بين التُرك أنفسهم وكان يتم اتهام ما يسمى «الباطنية» بها لأن هؤلاء كانوا شوكة في حلق أولئك الترك.

أنه أخطأ بحقهم، ومن المعروف أن الفدائيين كانوا يستهدفون من يخطئ بحقهم من الأمراء التُّرك وغيرهم. ومن هنا تبدو رواية وليم الصوري هي الصحيحة، وأن البرسقي قتل بمؤامرة داخلية بين التُّرك أنفسهم. وبعد مقتله أرسل أصحابه إلى ولده مسعود وكان في حلب يخبرونه بالأمر، فسار إلى الموصل ودخلها أول ذي الحجة وأحسن إلى أصحاب أبيه وأقرّ وزيره المؤيد أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزاق على وزارته وأحسن إلى الأمراء والجند، وسار إلى السلطان محمود ووضع نفسه في خدمته فأقرّه على البلاد التي كان يتولاها أبوه^(١).

واستقام الأمر لعز الدين مسعود في الموصل وطمع بالسيطرة على مملكة دمشق لكي تصبح سوريا كلها تحت حكمه، فسار بجيشه إلى الرحبة وكانت تابعة لدمشق فنازلها فأصابه مرض وهو محاصر لها فتسلم القلعة ومات بعد ساعة فندم من بها على تسليمها، ولما مات تفرق عنه عسكره، وقام بالأمر بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد جاوي مملوك البرسقي ودبر أمر الصبي، وأرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلد إلى ولد البرسقي وبذل الأموال الكثيرة على ذلك، لكن السلطان كان له رأي آخر، حيث إنه اختار لهذا الأمر واليًا جديدًا هو عماد الدين زنكي بن أقسنقر قسيم الدولة^(٢).

٨ - عماد الدين زنكي والصليبيون

أ - ولاية عماد الدين على الموصل وسوريا

كان عماد الدين زنكي مقرَّبًا من الأسرة السلجوقية الحاكمة، وكان أبوه أقسنقر قد حصل أيام ملكشاه على لقب «قسيم الدولة» لشدة حب ملكشاه له، وعندما قتل أقسنقر قسيم الدولة كان ولده زنكي صغيرًا، فترى في قصور ملوك السلاجقة، وعندما بلغ الرشد راح يسعى للحصول على إمارة خاصة به، فولّاه السلطان محمود على الموصل وسوريا وكتب له منشورًا بذلك، فسار إلى الموصل وتسلمها من جاوي، وأقطع هذا الأخير الرحبة، وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرّر قواعدها، وجعل نصير الدين جقروالّيا على القلعة، وصالح الدين محمد أميرًا حاجبًا، والقاضي كمال الدين الشهرزوري * قاضي قضاة بلاده جميعها وزاده أملاكًا وأقطاعًا واحترامًا^(٣).

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٣٧

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٤٢

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٤٣

* كمال الدين الشهرزوري، ٤٩٢ - ٥٧٢، هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي. ولد في الموصل، وتولى قضاءها.

ولما فرغ من الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر، وبها ممالك البرسقي، فاجتمعوا عليه فحصرهم وقتلهم ودخل البلد هو وعسكره^(١). ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين وكانت لتمرشاش صاحب ماردين فصالحه أهلها وتسلمها، ثم سار عنها إلى سنجار فامتنع من بها ثم صالحوه وسلموا البلد إليه، وسيّر منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه ثم سار إلى حران فسلمها أهلها إليه^(٢). وأرسل إلى جوسلين أمير الرها وتلك البلاد وهادنه مدة يسيرة^(٣). ومن ثم عبر الفرات وتوجه إلى حلب وكان مسعود بن أقسنقر البرسقي قد جعل عليها حاجبه ويدعى «قومان»، ثم أنه ولي عليها أميراً آخر يدعى «قتلغ أبه»، وسيّره بتوقيع إلى قومان بتسليمها، فقال: بيني وبين عز الدين مسعود علامة لم أرها ولا أسلم إلا بها، وكانت العلامة بينهما صورة غزال، وكان مسعود بن البرسقي حسن التصوير*، فعاد قتلغ أبه إلى مسعود، وهو يحاصر الرحبة، فوجده قد مات، فعاد إلى حلب مسرعاً وعرف الناس موته فسلم فضائل بن الربيع البلد وأطاعه المقدمون به وأنزلوا قومان من القلعة بعد أن صح عنده وفاة صاحبه مسعود، فتسلم قتلغ أبه القلعة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٥٢١ هـ^(٤). فظهر منه بعد أيام جور شديد وظلم عظيم ومدّ يده إلى أموال الناس، لاسيما التركات، وتقرب إليه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه، وكان في حلب بدرالدولة سليمان بن أرتق الذي تولاهما من قبل، فأطاعه الناس وقبضوا على كل من كان في البلد من أصحاب قتلغ أبه، وزحفوا إلى القلعة التي تحصن قتلغ أبه فيها بمن معه فحصره.

وكان عماد الدين قد سيّر إلى حلب سنقر دراز والأمير حسن قراقوش وهما من أكابر أمراء البرسقي وقد صاروا معه في عسكر قوي ومعه التوقيع من السلطان بالموصل والجزيرة والشام، فاستقر الأمر أن يسير بدرالدولة بن عبد الجبار وقتلغ أبه إلى عماد الدين في الموصل، فسار إليه، فلما وصلا أصلح بينهما ولم يرد واحداً منهما إلى حلب، وأرسل حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني إليها في عسكر فصعد إلى القلعة ورتب الأمور وجعل فيها والياً. وسار عماد الدين زنكي إلى سوريا في جيوشه وعساكره، فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة وخرج إليه أهل حلب فالتقوه واستبشروا بقدومه ودخل البلد واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٤٣

* يتبين من هذا الكلام أن مسعود بن البرسقي كان فناناً يتقن فن الرسم، ومن المعروف أن الفقهاء حرّموا فنون الرسم والتصوير، بدعوى أنها تتعارض مع الشريعة، ولذلك يخلو التاريخ الإسلامي من رسام أو نحات بعكس الحضارات الأخرى التي أولت عناية كبيرة لمختلف الفنون ومنها فن الرسم والنحت.

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٤٤

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٤٤

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد التاسع - ص ٢٤٦

الأجناد والأمراء وذلك سنة ٥٢٢^(١).

وأقام زنكي في حلب إلى سنة ٥٢٣ ثم سار حتى نزل في أرض حماة، فجاءه خير خان بن قراجا والي حمص، وكذلك وصله سونج ابن بوري بن طغتكين. ثم رحل زنكي بعد ذلك، فوطأ، كما يقول ابن العديم، بساط السلطان (محمود) وعاد معه توقيعه بملك الغرب كله، ودخل الموصل، ثم توجه إلى حلب^(٢).

ويقول ابن العديم: «إن السلطان محمود كان قد أثر أن تكون البلاد (الموصل وسوريا) للأمير ديبس بن صدقة، فقبح المسترشد ذلك، وكاتب السلطان وقال له فيما قال: (إن هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار، فبطل هذا التدبير*)»^(٣).

وفي سنة ٥٢٤ ورد الخبر، كما يقول القلانسي، بوصول الأمير عماد الدين أتابك زنكي بن أق سنقر صاحب الموصل إلى حلب في عسكره عازماً على الجهاد وأرسل إلى بوري بن طغتكين ملك دمشق يلتبس منه المعونة والإسعاد على محاربة الافرنج الأضداد، وترددت الرسل بينهما إلى أن أجاب إلى المراد وأنفذ إليه من استحفله على المصافاة والوداد وتوثق منه على الوفاء، وبادر بوري بتجريد وجوه عسكره مع خمسمائة فارس وكتب إلى ولده سونج والي حماة يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ومقدمه الأمير شمس الأمراء الخواص، فامتثل هذا الأمر وخرج من حماة وتوجهوا جميعاً إلى معسكر عماد الدين أتابك فأحسن لقاءهم وبألف في الإكرام لهم وأغفلهم أياماً وعمل عليهم وغدر بهم وقبض على سونج ولد تاج الملوك وعلى جماعة من المقدمين ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم وهرب منهم من هرب واعتقل الباقين وحملهم إلى حلب وأمر بحفظهم فيها^(٤). وسار من يومه إلى حماة فوصل إليها وهي خالية من الجند الحماة فملكها واستولى عليها^(٥). ورحل عنها إلى حمص وكان واليها قرجان ابن قراجة معه في عسكره، فقبض عليه ونزل على حمص وحصرها وطلب من قرجان أن يأمر نوابه وولده فيها بتسليمها فأرسل إليهم بالتسليم فلم يقبلوا منه ولا التفتوا إلى قوله فأقام عليها محاصراً لها ومقاتلاً لمن فيها مدة طويلة، فلم يقدر على ملكها فرحل عنها عائداً إلى الموصل واستصحب معه سونج بن بوري ومن معه من الأمراء الترك وترددت الرسل في إطلاقهم بينه وبين بوري واستقر الأمر على خمسين

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد التاسع - ص ٢٤٧

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٠٢

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٠٢

* ما يدعى إلى الأسمى هو أن يكون خليفة بغداد يفضل التركي على العربي،

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٢٨

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٥٢

ألف دينار، فأجاب بوري إلى ذلك ولم ينتظم بينهم أمر^(١).

ب - عماد الدين ينازل دمشق

بعد مقتل تاج الملوك بوري سنة ٥٢٦ على يد الإسماعيلية، جزاء ما فعله بإخوانهم في دمشق، كما سنرى لاحقاً، ملك بعده ولده شمس الملوك إسماعيل، ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن شمس الملوك كان في مبدأ أمره شهماً شجاعاً، لكن انقلب من حال إلى حال، وفي سنة ٥٢٩ تكاثرت أقاويل الدمشقيين عليه «بتناهيته في ارتكاب القبائح المنكرات وإيغاله في اكتساب المآثر الخطرات الدالة على فساد التصور والعقل وظهور الجهل وتبليد الفهم وحب الظلم»^(٢). ويقول ابن العديم: لقد «كرهه أصحابه وأهله ورعيته، وزاد في الأمر أنه اتهم يوسف بن فيروز حاجب أبيه بوالدته صفوة الملك خاتون فهرب منه يوسف إلى تدمر، فأراد قتل أمه فبلغها الخبر فعملت على قتله»^(٣).

وعرف إسماعيل بما يدبر له، فأرسل إلى الأمير عماد الدين زنكي يستحثه على قصد دمشق ليسلمها إليه، وشرط عليه أن يمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من الأمراء والمقدمين والأعيان، وكرر المكاتبة إليه وقال، كما يذكر ابن العديم: «إن أهملت هذا الأمر استدعيت الفرنج وسلّمت دمشق إليهم»^(٤). وشرع في نقل أمواله وذخائره وأشياءه إلى قلعة صرخد^(٥). وسار الأمير عماد الدين من الموصل مجداً نحو دمشق.

ويقول أبو يعلى القلانسي إنه: لما عرف «الأمراء والمقدمون ووجوه الغلمان، بتدبير شمس الملوك أشفقوا من الهلاك لما يعلمون من أفعال عماد الدين أتاك إذا ملك البلد، فأخبروا والدته، فصرفت الهمة إلى مناجزته وارتقتب الفرصة في خلوته إلى أن تسهل الأمر المطلوب عند خلوته من غلمانته وسلاحيته فأمرت غلمانها بقتله وترك الإمهال له غير راحمة له ولا متألمة لفقده، وأوعزت بإخراجه حين قتل وإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانته، وذلك ضحى نهار الأربعاء ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٢٩. وفي الوقت نودي بشعار الأمير شهاب الدين محمود بن بوري بمحضر من والدته خاتون وحضر الأمراء وأماثل الأجناد وأعيان الرعية فسلموا

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٢٥٢

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٤٥

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣١١

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣١١

(٥) زبدى الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣١١

عليه بالإمرة واستُحلفوا على الطاعة له ولوالدته»^(١). ووصلت الأخبار بما حدث في دمشق إلى عماد الدين فقرر اقتناص الفرصة ومنازلة هذه المدينة لامتلاكها، فوصلها ونازلها في جمادى الأولى سنة ٥٢٩، لكنه رأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة، وكان القائم بأعباء هذه الحروب معين الدين أنر مملوك طغتكين فقام بحفظ البلد قيامًا مشهودًا^(٢). ولما طالت الأيام عليه ولم يحصل على طائل، راسل، كما يقول القلانسي، في طلب الصلح والدخول في طاعته والتمس خروج الأمير شهاب الدين محمود لوطء بساط «ألب أرسلان» ولد السلطان مسعود الواصل معه ويخلع عليه ويعيده إلى بلده، فلم يُجب إلى خروج شهاب الدين وتقررت الحال على خروج أخيه بهرام شاه بن بوري فأكرمه عماد الدين وأعاده على أجمل قضية ورحل في يوم السبت غد ذلك اليوم منكفئًا، والقلوب قد أمنت من الوجل والنفوس قد سكنت من الاضطراب والوهل والشكر له متواصل والثناء عليه متكامل^(٣).

ج - عماد الدين وحمص

بعد أن رجع الأمير عماد الدين عن دمشق شبه منهزم، ذهب إلى حماة وقبض على واليها شمس الخواص الذي كان نائبًا بها عن ملك دمشق، لكنه أعلن ولاءه له، فقبض عليه وسلّم حماة إلى صاحبه صلاح الدين الياغسياني^(٤)، ثم توجه بعد ذلك، كما يقول ابن واصل، إلى بغداد لنصرة الراشد بالله، الذي أرسل له ثلاثين ألف دينار^(٥). لكن ابن العديم يقول: إن عماد الدين سار من حماة إلى بلد حلب «فنزل على الأتارب وفتحها أول رجب، ثم فتح زردنا، ثم تل أغدي، ثم فتح معرة النعمان، ومنّ على أهلها بأملأهم، ثم فتح كفرطاب، ونزل على شيزرفخرج إليه أبو المغيث بن منقذ نائبًا عن أبيه، ثم نزل بعين، ثم سار إلى حمص وشن الغارة عليها، ووصل ابن الفنش الفرنجي من بيت المقدس وخرج في جموع الفرنج، فنزل قنسرين، فسار إليهم أتائبك فأحسن التدبير، وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم، وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها وقتلها في العشر الأواخر من شوال، ثم سار إلى الموصل في ذي القعدة من سنة ٥٢٩»^(٦).

وتبدو رواية ابن العديم هذه غير منطقية، إذ كيف استطاع عماد الدين أن يهاجم

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٤٧

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٥٨

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٤٨

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٦٤

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٦٤

(٦) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣١٣

كل تلك الحصون الصليبية وينتصر عليها ويأخذها في مدة قصيرة، وأين كان الصليبيون، ولماذا لم يدافعوا عن أملاكهم، وأيضًا فإن وليم الصوري لم يذكر مطلقًا أن عماد الدين هاجم الأتارب أو زردنا أو غيرها من الحصون التي ذكرها ابن العديم. وأيضًا من هو ابن الفنش الفرنجي الذي نزل على قنسرين والذي لم يرد له ذكر مطلقًا عند الصوري؟

ومن هنا تبدو رواية ابن واصل هي الصحيحة، لأن عماد الدين عاد فعلاً إلى العراق، وظل في بلاد الشرق مدة سنتين، ثم عاد إلى سوريا ونزل على حمص بهدف السيطرة عليها.

ويذكر ابن واصل، أن عماد الدين بعد أن أخذ خترخان بن قراجا* والي حمص إلى حلب، نقله معه إلى الموصل وقتل في الحبس هناك، وتولى حمص بعده ولده عين الدولة إيلخان بن خترخان، وكان المدبر لأمره خمرتاش مملوك أبيه^(١). ولما كان في سنة ٥٢٦ وثب على عين الدولة مملوكه بزغش فقتله، وكان بالقلعة زوج لجارية خترخان، ومعه ابن لخترخان، فقتل بزغش، وأجلس في الأمر قريش بن خترخان والمدبر لأمره خمرتاش، ثم سلم خمرتاش حمص للأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوري ملك دمشق، وأخذ منه عوضًا اقترحه عليه، فلما قتل شمس الملوك، وتولى أخوه شهاب الدين، مكانه، سلم حمص للأمير معين الدين أنر، مملوك جده طغتكين^(٢)، فلما كانت سنة ٥٣١، توجه عماد الدين من الموصل إلى حمص، وحصرها، وراسل معين الدين أنر في تسليمها، تارة بالوعد وتارة بالوعيد، فاحتج بأنها ملك لشهاب الدين وأنها بيده أمانة، لا يسلمها إلا عن غلبة، فأقام عليها مدة ثم رحل عنها من غير بلوغ غرض^(٣). ومن ثم عاد ونازل حمص سنة ٥٣٢، بعد استيلائه على بعرين، وكتب إلى شهاب الدين محمود يطلبها منه، وترددت الرسل بينهما وانتهى الأمر إلى الصلح، وسلم إليه حمص، وخطب زمرد خاتون بنت جاولي أم شهاب الدين التي قتلت ولدها شمس الملوك، وزفت إليه في رمضان سنة ٥٣٢، واعتقد عماد الدين، كما يقول ابن واصل، أنه إذا تزوجها كان ذلك طريقًا إلى تملكه دمشق، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها^(٤).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧١
* خترخان ابن قراجا، يسميه ابن العديم «خيرخان ابن قراجا» وابن الأثير «قرجان ابن قراجا» والأصح هو تسمية ابن واصل له «خترخان ابن قراجا»

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧٢

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧٢

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧٧

د- عماد الدين ورفنية

كانت الحرب حول رفنية سجلاً بين التُّرك والصليبيين، وقد رأينا أن أتابك طغتكين حررها أكثر من مرة، لكن كان الصليبيون يعيدون السيطرة عليها لأهميتها، وكان عماد الدين قد عزم على استرجاع هذه القلعة، فرحل إليها من حمص في شوال سنة ٥٣١، وحين عرف الصليبيون به تجمعوا وقرروا مواجهته قبل وصوله إليها.

ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة فيقول: «في العشرين من شوال من السنة نزل عماد الدين على الحصن المعروف ببعرين لينتزع من أيدي الفرنج، فلما عرفوا ذلك تجمعوا ونزلوا قريباً لحمايته ومعونة من فيه منهم، وحين عرف خبرهم كمن لهم كميناً والتقى الجمعان فانهزم فريق من التُّرك بين أيدي الأفرنج وقتلوا منهم جماعة وافرة عند عودهم إلى منزل مخيمهم وظهر عليهم عماد الدين في من كمن لهم من الكمناء وأوقع الرجالة وملك الأثقال والسواد وحين قربوا من المخيم وشاهدوا ما نزل عليهم وحلّ بهم انخذلوا وفشلوا وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلاً وأسراً وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير^(١). وعاد عماد الدين إلى حصن بعرين، وقد انهزم إليه ملكهم و، كندا ياجور*، ومن نجا معه من مقدمي الإفرنج وهم على غاية من الضعف والخوف. فنزل عليهم وحاصروهم في الحصن المذكور، ولم يزلوا على هذه الحال في المضايقة والمহারبة إلى أن نفذ ما عندهم من القوت، فأكلوا خيلهم وتجمع من بقي من الإفرنج في بلادهم ومعاقلهم وانضموا إلى ابن جوسلين وصاحب أنطاكية واحتشدوا وساروا طالبين نصرة المخدولين المحصورين في حصن بعرين وتخليصهم مما هم فيه من الشدة والخوف والهلاك، فحين قربوا من عسكر أتابك وصح الخبر عنده بذلك، اقتضت الحال أن آمنهم وعاهدهم على ما اقترحه عليهم من طاعته وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه وأطلقهم وتسلم الحصن منهم، وعاد من كان اجتمع لنصرتهم»^(٢).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «أغار بزواج قائد جيش دمشق، فتصدى له بونس كونت طرابلس، وخرج له على رأس كل من عنده من العسكر والتقى الجيشان قرب قلعة (تل الحجاج) قلعة صنجيل، ونشب القتال بين الجانبين، ودارت الدائرة على جيش الكونت الذي فرّ رجاله على وجوههم أما هو فقد وقع أسيراً في أيدي العدو، وقد غدر به السوريون الذين يعيشون على مرتفعات

(١) تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٥٩

* كندا ياجور - المقصود به هو الكونستابل الملكي أو قائد شرطة الملك.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٥٩

لبنان، فدبروا له مكيدة أدت إلى هلاكه، فتولى بعده ولده (ريموند) الذي جمع جنده ومضى إلى جبل لبنان وألقى القبض على كثير ممن صادفهم من أولئك القتلة، وحملهم مقيدين بالسلاسل إلى طرابلس ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأذاقهم صنوف العذاب، وجرعهم غصص الموت في أبشع صورة^(١)، وعلم زنكي وهو رجل شديد الدهاء ومن أكثر مضطهدي المسيحيين، بما حاق بكونت طرابلس، وأكثر جنده من هلاك أفنانهم، وأن المنطقة بأجمعها باتت الآن من غير عسكريذود عنها الضرر ويحمي بيضتها، فبادر إلى الحصار الشديد يضربه على قلعة (مونتفرات) بعين، الواقعة على مرتفعات طرابلس والمشرقة على مدينة رمنية، وزاد من ضغطه على من كان داخل القلعة ووالاهم بهجمات الصارية الموصولة دون أن يترك لمن بها لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم^(٢). وجاءت الأخبار إلى ريموند كونت طرابلس فبادر بإيفاد الرسل إلى الملك (فولك) يلح عليه بالحضور لمساعدته، فاستدعى الملك كبار رجال المملكة، وجند العسكر، وأسرع بالزحف حتى بلغ أرض طرابلس وضمّ الملك والكونت قواتهما وزحفا، وعلم زنكي باقترابهم، فتخلى عن الحصار ورتب صفوفه للقتال، وتقدم الصليبيون نحو المدينة، وتهاووا للقتال، غير أن الأدلاء الذين كانوا يرشدون جيشنا ويقودونه تركوا الطريق الأسهل السوي الذي على اليسار، وسلكوا طريقاً جبلياً صعباً، وساروا بالصليبيين عبر دروب ضيقة كثيرة المجهل ليس بها ناحية تصلح للمعركة، بل تصعب فيها المقاومة، واستدعى زنكي إليه رجاله وهو يتقد حماسة ووقف بينهم، وهم ألوف مؤلفة، يلهب حماسهم بكلامه، ويحثهم على الاقتداء به، وحارب حرب الصناديد البطل، وهاجم القلب وراح يدعو رجاله للقضاء علينا كي يبور أمرنا، فاضطربت صفوفنا الأمامية وولّت الأدبار وهرب رجالها على وجوههم، فلما رأى قادة عسكرنا فرار الصفوف الأولى فقدوا الأمل في المقاومة، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يهبطوا لنجدتهم، وإذ ذاك أشاروا على الملك أن يطلب السلامة لنفسه بالانسحاب إلى القلعة القريبة منهم، فتسحب في شذمة ضئيلة من حراسه إلى القلعة، أما كونت طرابلس فقد وقع في الأسر مع بعض فرسانه^(٣). على أن الملك والذين هربوا معه إلى القلعة كانوا قد فقدوا جيادهم ودواب حملهم التي تحمل الميرة التي أعدت لتزود بها القلعة، التي لم يستطع الهاربون أن يحملوا معهم إليها أي طعام، بل كان فرارهم وهم صفراً الأيدي إلا ما حملوه معهم من السلاح وهو قليل^(٤). وكان

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٦

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٨

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٨

من بين من هلكوا في هذا اليوم (جوفري شاربول) أخو جوسلين، كونت الرها^(١). وكان زنكي يعلم تمام العلم أن الصليبيين قد جاؤوا إلى القلعة بلا طعام لأنه كان قد استولى على جميع مؤننا وتمويننا، كما كان يعلم أن قوة المملكة الحربية قد بلغت حدّ الإنهاك، هذا إلى جانب وقوع الكونت في أسرهِ ووجود الملك مع أعظم نبالٍ مملكته محصورين بلا زاد في قلعة نصف خربة، لذلك أزمع أن يعاود حصار (مونتفراतो) طمعاً منه في أن لا تصل إلى الحامية المأسورة فيها أية مساعدة من أي مصدر، مما جعله واثقاً من أنه سوف ينجح في الاستيلاء على القلعة في وقت قصير، ولذلك نادى في عسكره مرة أخرى، بالتجمع فاستجابوا لندائه، وجاؤوا وقد فاضت أيديهم بالأسلاب التي غنموها من الصليبيين وأحاطت القوات المعادية بمونتفراतो، واشتدت في حصارها الذي فرضته عليها شدة عظيمة، وكان من بين كبار رجالات المملكة ذوي المكانة السامية الذين التجأوا مع الملك إلى الحصن «وليم دي بيوري» و«الكونستابل الملكي رينيه دي بروس» و«جي دي بريزار» و«بلدوين» صاحب الرملة، و«همفري» صاحب «التورون»، وكثير غير هؤلاء، فسألهم الملك أن يشيروا عليه بما يجب عليه أن يفعله، فانعقد اجتماعهم على وجوب طلب النجدة من أمير أنطاكيا، ومن جوسلين الصغير كونت الرها، كما أشاروا عليه باستدعاء بطرك بيت المقدس مع جميع أهل المملكة، وأن يصبروا في الوقت ذاته ويصابروا حتى توافيهم هذه النجدة^(٢) وأسرع الرسل لتوهم، فمضى أحدهم إلى أنطاكيا شارحاً لأمرها ورفاقه الوضع المتردي الذي فيه الملك ومن معه، وحثهم على الإسراع دون إبطاء لإنقاذهم، كما مضى آخر إلى الرها واستطاع أن يحرك كونت الرها للعمل، على حين انطلق الثالث إلى بيت المقدس لإثارة الأهالي كلهم^(٣). وتردد أمير أنطاكيا بعض الشيء وتخير لا يدري ما يفعل، فقد ساوره الخوف على مصير مدينته إن هو غادرها والإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني لا يزال على أبوابها، لكنه قرر النهوض واستدعى إليه عليه القوم ودعاهم جميعاً لنجدة الملك، فأسرعوا بالاستعداد للرحيل، وغادروا المدينة وهي محاصرة بقوات الإمبراطور. وحركت أمثال هذ العواطف كونت الرها فأعدّ هو الآخر كل جنده، وخرج بهم في سرعة وراء الغرض نفسه. وجمع وليم بطرك القدس كل القوات الموجودة ومضى حاملاً الصليب^(٤). واستمر زنكي يواصل هجماته الضارية على المحصورين بعنف لا يعرف الهوادة، واهترت الجدران من جراء رميات آلاته القوية التي أخذت تقذف بالأحجار والصخور الضخمة فتقع وسط القلعة فتحطم ما

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٣٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٤٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٤٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٤١

بها من البيوت، وتبعث الفرع الشديد في قلوب اللاجئين إليها الذين أصابتهم قطع حجرية كبيرة بإصابات جسيمة، ولم يعد ثم موضع أمين داخل الأسوار يمكن أن يلجأ إليه الضعاف والجرحى، فكان الخطر يجثم في كل ناحية وكل زاوية، وأخذ عسكر الصليبيين في التناقص يوماً بعد يوم، وأدركوا استحالة قدرتهم على تحمل الهجوم المستمر عليهم، وقد اضطروا إلى أكل لحوم جيادهم، بعد أن لم يجدوا شيئاً يأكلونه، فلما أتوا عليها لم يبق لهم أي نوع من الطعام فأصابهم جوع أوهنهم جميعاً، وزيادة على ذلك فإن ضخامة عدد من كان منهم بالقلعة لم تجعل ما لديهم من الطعام كافياً لبعضهم، كما كان المكان ضيقاً لا يسع للجميع مما حمل الكثيرين منهم على الإقامة في الشوارع والميادين حتى بدت الأرض وكأنها قد فرشت ببساط منهم^(١). ولما أيقن زنكي أن الصليبيين لن يستطيعوا احتمال هذه الأهوال أكثر مما احتملوه حتى الآن، شجع رجاله على اتخاذ إجراءات أعنف من سابقتها، ورتب عساكره وجعلهم متقاربين من بعضهم البعض قريباً شديداً ووضعهم حول القلعة، وشد الحراسة على جميع المنافذ حتى لا يتمكن أحد ما من الوصول إلى القلعة، كما لا يستطيع من فيها الخروج^(٢). وبينما كانت هذه الأحداث تجري عند قلعة مونتفراتو، المحاصرة، كان الأمير ريموند يقترب على رأس قواته، ولم يعد كونت الرها هو الآخر بعيداً بمن معه من القوة الكبيرة كما كان جيش بيت المقدس يزحف سريعاً إلى هناك، وجاء الرسل الثقات إلى زنكي يخبرونه باقتراب هؤلاء الثلاثة فخافهم، ثم كان الذي أفزعه أشد الفرع خبر وصول الإمبراطور يوحنا الثاني حين علم بوجوده عند أنطاكية، وخشي أن يتفطر قلبه على الصليبيين إن هو علم بما هم فيه من النكد والهَم. فیدفعه ذلك إلى الزحف بجيشه الذي لا يغلب فيها جم زنكي الذي بادرفأرسل رجالاً من عنده إلى المحاصرين في القلعة يعرض عليهم الصلح، وعهد إلى هؤلاء الرسل أن يوضحوا للملك ونبلائه أن القلعة عاجزة عن الصمود طويلاً في وجهه لما هي عليه من التصدع وأفضى إلى الرسل أن يبينوا للملك أن احترامه له يجعله مستعداً لإعادة جميع من وقعوا في الأسر ومنهم كونت طرابلس، وأنه يسمح للملك ولجميع من معه بمغادرة الناحية في أمن وسلام ليعودوا إلى بلادهم شريطة أن يسلمه الملك القلعة^(٣). وقَبِلَ الصليبيون الشروط المعلنة إليهم، شاكرين له تقديمها، وما كاد التفاهم يبلغ الاتفاق المرضي لكلا الطرفين حتى أطلق زنكي سراح الكونت كما أطلق معه جمعاً غفيراً من الأسرى وخرج الملك في الحال مع رجاله، وعاملهم العدو أرقّ معاملة، واستسلمت القلعة للمسلمين، ومع ما كان عليه الملك إذ ذاك

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج٣ - ص ١٤٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج٣ - ص ١٤٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج٣ - ص ١٤

من القلق إلا أنه كان سعيداً لخلاصه من موقف شديد الخطورة، ومن ثم نزل من المرتفعات إلى الحقول القريبة من عرقا حيث عرف بوجود الأمير والكونت على مقربة منه فمضى إليهما في فرحة عارمة، وأثنى على حبهم الأخوي، ومضى كل منهم إلى بلده»^(١).

ومما تقدم يتبين أن رواية وليم الصوري مشابهة لرواية القلانسي في أن الأمير عماد الدين حاصر بعرين واشتبك مع الجيش الصليبي الذي حضر لنجدتها وانتصر عليه، لكن رواية الصوري كانت موسّعة، بشكل لافت، حيث أوفى هذه المعركة حقها من التحليل والإحاطة، كما أنه أوضح أن ريفية كانت مدينة موجودة في السهل، أما بعرين فكانت قلعة موجودة على تل بالقرب من تلك المدينة. أما ابن القلانسي وغيره من مؤرخي الترك، فقد ذكروا هذه الواقعة بشكل مقتضب، كما أن الصوري تحدث عن هجوم بزواج قائد جيش دمشق على أعمال طرابلس وانتصاره على الصليبيين هناك، وأن عماد الدين عرف بما جرى لأمر طرابلس، فاستغل الوضع وهاجم قلعة بعرين التي كانت تابعة لذلك الأمير، ونجح في مسعاها لأنه لم يجد من يدافع عنها بسبب مقتل الكثير من رجال طرابلس وبينهم الكونت بونس نفسه.

ويذكر القلانسي واقعة هجوم جيش دمشق على طرابلس فيقول في أحداث سنة ٥٣١: «في رجب من السنة نهض الأمير بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي من التركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها في عسكره والتقى فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الأحمر وغيره»^(٢).

لكن القلانسي لا يجري ربطاً بين هذه الواقعة وبين هجوم عماد الدين على بعرين في شهر شعبان أي بعد شهر واحد من واقعة بزواج في طرابلس، كما أنه لا يذكر أن بونس كونت طرابلس قد قتل في تلك الواقعة بعكس وليم الصوري الذي توسع في الشرح وتحدث عن خيانة السوريين على مرتفعات جبل لبنان لكونت طرابلس ما تسبب في مقتله، وهذا ما دفع ولده ريموند للانتقام منهم وإيقاع أكبر أذى بهم. ومن غير المعروف أين جرت تلك المعركة بالتحديد، لكن وليم الصوري يقول إنها بالقرب من قلعة الحجاج التي بناها ريموند كونت تولوز، أما القلانسي فيقول إن بزواج بعد انتصاره، في تلك المعركة، على بونس، ملك حصن وادي ابن الأحمر، ومن غير المعروف أين يقع هذا الحصن، لكن من المرجح أن هذه المعركة لم تحدث بالقرب من طرابلس، بل ربما عندما علم بونس بقدوم جيش من دمشق إليه عبر حمص، نهض لملاقاته فالتقاه في مكان بعيد عن طرابلس، وقتل في المعركة،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٤٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٥٨

ومن المرجح أن تكون تلك المعركة قد جرت في منطقة وادي خالد على الحدود الشمالية الشرقية للبنان الحالي. وبشكل عام فإن وليم الصوري قدم صورة كاملة لمجريات حصار قلعة بعرين من قبل الأمير عماد الدين وأخذه لها، وهذه الرواية هي الصحيحة لمجريات تلك الواقعة.

هـ- اجتياح الملك الروماني لسوريا وموقف عماد الدين

يذكر ابن واصل في أحداث سنة ٥٣٢ فيقول: «عندما حاصر عماد الدين قلعة بارين، دخلت القسوس والرهبان بلاد الروم مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، فحشدت النصرانية وجمعت وقصدت الشام مع ملك قسطنطينية^(١). وتوجه هذا الملك نحو حلب وقصد بزاعة فحصرها، فسير عماد الدين جماعة من العسكر إلى حلب ليمنعوها من الروم إن قصدوها، ثم ملك ملك الروم بزاعة وقتل وأسروسي. ثم رحل إلى حلب فنزل على نهر قويق ومعه الفرنج الذين بالساحل، وزحفوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق عظيم القدر منهم، وأقاموا على حلب ثلاثة أيام، ولم يظفروا بطائل، فرحلوا إلى قلعة الأتارب فملكوها، ثم قصدوا قلعة شيزر. وصاحبها الأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ الكناني، فنازلوها ونصبوا عليها المنجنيقات، فسار عماد الدين ونزل على النهر المعروف بالعاصي - بينها وبين حماة - وكان كل يوم يركب هو وعساكره ويسيرون إلى شيزر، ويقفون حيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظُفر به منهم^(٢). ثم أن عماد الدين أرسل إلى ملك الروم يقول له: (إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ومن يظفر بالآخر تكون البلاد له)، وخاف ملك الروم من منازلته، واستمر بالحصار فأرسل عماد الدين إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم، ويقول لهم: إنه إذا ملك بالشام حصناً واحداً ملك كل البلاد، فاستشعر كل من صاحبه، فرحل ملك الروم من شيزر هذه السنة، (٥٣٢)، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فاتبع عماد الدين ساقية العسكر، فظفر بجماعة منهم، وأخذ جميع ما تركوه ورجع ملك الروم خائباً إلى بلاده»^(٣).

ويروي القلانسي هذه الحادثة في شهر شعبان من سنة ٥٣٢ ويشير إلى مبالغة

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧٣

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٧٩

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ١ - ص ٨٢

الأمير عماد الدين أتابك في إمدادها بالرجالة والسلاح وآلات الحرب، وكونه بإزاء الروم يجول بخيله على أطرافهم، ويفتك بمن يظفره منهم ولم يزالوا على هذه القضية إلى أن سئموا المقام عليها ويئسوا من بلوغ الغرض فرحلوا عنها إلى أنطاكية»^(١).

ويتحدث ولیم الصوري عن هذه الواقعة لكنه يرويها بصورة مختلفة عن الرواية التركية فيقول: «عاد ريموند أمير أنطاكية إلى بلده على جناح السرعة (بعد معركة بعين) لأن أقوى ملوك العالم كان مرابطاً على أبوابها بنية العدوان عليها، ولما دخلها وجد الإمبراطور لا يزال مجمعاً العزم على ما بيته، وكان أهل أنطاكية ينسلون تارة خلسة وتارة جهراً فيقاتلون جيشه، وكان كل منهما يحارب الآخر كما لو كان يحارب عدواً، وكان الإمبراطور يوحنا الثاني قد أصدر أوامره بقذف المدينة بالأحجار الضخمة مستهدفاً إضعاف وسائل الدفاع فيها وهدم الأسوار، ولما أخذ الموقف يتصاعد سوءاً خاف رجال أفاضل من كلا الجيشين بأن يفضي الوضع بين الجانبين إلى خاتمة محزنة لا يمكن معها التوصل إلى حل يدرأ خطر هذه الأزمة، ومن ثم سعى من أجل هذا الهدف نفر جعلوا من أنفسهم وسطاء بين الجانبين ذهبوا إلى معسكر الإمبراطور يعرضون مقترحات الصلح، وحاولوا استرضاءه بكلمات عذاب، وأظهروا الخضوع له، فاستطاعوا بهذا الأسلوب الحكيم أن يقتربوا منه في محاولة منهم لتهيئ السبيل للصلح المنشود الذي يقضي بأن يحضر الأمير أمام الإمبراطور، وأن يقسم يمين الولاء والتبعية له»^(٢). وزادوا إلى ذلك بأن يقسم الأمير يميناً مغلظة ألا يعارض الإمبراطور، وأنه إذا أعاد الإمبراطور للأمير ريموند، في سلام، مدن، حلب، و، شيزر، وحماة، وحمص، حسب الشروط الواردة في الاتفاقية، فعلى ريموند أن يقنع بهذه الأماكن وغيرها من المدن المجاورة لها، كما يرد إلى الإمبراطور من غير معارضة مدينة أنطاكية بحق ملكيته لها. وفي مقابل هذه التبعية التي يعلنها الأمير له فعلى الإمبراطور أن يقبل أن يخلع على ريموند مدينتي حلب وشيزر، وما جاورهما، دون معارضة أو شقاق وذلك حين يستولي عليها، وإذا ذاك تصبح ملكاً لريموند وذريته من بعده، على أن تكون هذه الملكية منحة بالإقطاع^(٣)، وتطبيقاً لهذا الاتفاق توجه الأمير إلى معسكر الإمبراطور مصحوباً بحاشيته من النبلاء، فتلقاه الإمبراطور بالإجلال، وبعد أن أعيدت تلاوة الاتفاق ليحظى برضاء الجانبين، أقسم الأمير يمين الطاعة للإمبراطور الذي قام في الحال بمنحه تقليداً بالمدن المذكورة وبكل ملحقاتها، وتعهد في إخلاص أنه إذا استولى عليها فإنه سوف يسلمها بنفسه إلى

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٦٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ١٤٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ١٤٧

الأمير^(١). وبعد إبرام الاتفاقية، رفع علم الإمبراطورية على برج أنطاكية الرئيسي وإذ ذاك انكفأ الأمير بحاشيته إلى أنطاكية يحملون أنفُس الهدايا، وعاد الإمبراطور إلى قليقية ليمضي الشتاء على الساحل قرب طرسوس^(٢) ولما اقترب دخول الربيع أرسل المنادين ينادون، بالقرار الإمبراطوري، قواد الجيش وأمرء المئين والخمسين لإعداد قواتهم وتهيئة آلات الحرب وتسليح الناس كافة، كما بعث الرسل إلى أمير أنطاكية وإلى كونت الرها وبقية كبار مسؤولي هذه النواحي للخروج بصحبته للقتال، ومن ثم جمع العسكر من شتى النواحي، حتى إذا كان الفاتح من إبريل (نيسان) أمر بدق الطبول والنفخ في الأبواق وزحف الجيش كله نحو شيزر، ولم تنقض سوى أيام قلائل حتى كان قد ضرب معسكره أمام المدينة^(٣)، وعندما علم ريموند وكونت الرها بالأمر حشدا الحشود وسارا في إثر الإمبراطور، وسرعان ما وصلا بجيوشهما أمام شيزر، وكان الإمبراطور قد ضرب الحصار عليها، وأخذت الآلات الحربية المنصوبة في المواقع الاستراتيجية ترمي بقذائفها الحجرية الثقيلة قذفاً موصولاً فتهد الأبراج والأسوار وتصدع ما وراءها من دور الأهالي، وكانت هذه القذائف الهائلة الحجم تتساقط من دون انقطاع مما نجم عنه انهيار التحصينات التي كان الأهالي يعتبرونها أكبر مدافع عنهم، فأحدث انهيارها دويًا مفرعًا بين أهل البلد وبث الذعر في نفوسهم^(٤)، وبينما كان الإمبراطور منهمكًا في القتال مع جيشه، إذا بالأمير والكونت يستسلمان لنزوات الشباب، فانكبا على ألعاب القمار انكبابًا أضرَّ بصالحهما، وزيادة على ذلك فقد دفعهما عدم رغبتهما في مواصلة القتال إلى إغراء سواهما بالتكاسل والقهود عن القيام بدور جدي وفعال في الحصار^(٥). ولما وقف الإمبراطور على سلوكهما الشائن تسعر غضبه عليهما، وكثيرًا ما راح يبذل النصيحة لهما، وجاهد كي يردهما إلى واجبهما، وضرب لهما المثل بنفسه هو ذاته. وذكر لهما أنه - وهو أقوى ملوك الأرض قاطبة - لم يرحم نفسه أن يجشمها الكثير من المتاعب، ويتكبد هو النفقات الطائلة، ويحارب على مثل هذه الصورة. واستمر الجيش يقاتل بضعة أيام من غير توقف^(٦). وكان مما أحنق الإمبراطور أن يرى مدينة صغيرة كهذه المدينة تقاوم أمداً طويلاً جيشه العظيم الذي لا يضاهيه أي جيش آخر، كما أضجره طول وقوفه، فرمى رجاله بالتراخي، ثم تم الاستيلاء على ذلك الموضع الواقع أسفل البلد إثر قتال تشابكت

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣- ص ١٤٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣- ص ١٤٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣- ص ١٦٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣- ص ١٦٠

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار«الحروب الصليبية»- وليم الصوري- ص ١٦١

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار«الحروب الصليبية»- وليم الصوري- ص ١٦٢

فيه الأيدي بالأيدي، ولم تكد تلك الضاحية تقع حتى خاف الأهالي أن يقتحمها العدو ويدخلها قسراً ويفتك بهم، لذلك التمسوا هدنة قصيرة فأجيبوا إليها، وكان صاحب شيزر إذ ذاك شريفاً عربياً، فأرسل في السراى الإمبراطور رجلين من قبله يستعطفانه، ويلتمسان منه الإبقاء على المدينة والتعطف عليها والرحمة بسكانها، كما أخذ هذا الأمير العهد على نفسه أن يدفع لقاء ذلك مبلغاً كبيراً من المال^(١). وما كاد الإمبراطور يتسلم المال المتفق عليه مع أمير شيزر حتى رفع الحصار، وقوّض الجند الخيم، وصدرت الأوامر إلى جميع الفياق بالانضمام إلى بعضها البعض والزحف نحو أنطاكيا وأن يعجل الجيش كله بالذهاب إلى هناك. فلما علم الأمير والكونت بما فعله الإمبراطور ندما على ما كان منهما، وحاولا ثنيه عن عزمه فلم يفلحا، ونبذ كل مساعيها ومحاولاتهما وبادر إلى الرحيل^(٢).

ومما تقدم يتبين وجود خلاف في الروايتين الشرقية والغربية حول حصار الإمبراطور يوحنا الثاني لشيزر وفشله في أخذها، حيث يقول ابن واصل والقلانسي، إن الفشل كان بسبب مساندة عماد الدين لأهل شيزر، في حين أن الصوري لا يذكر أبداً أن عماد الدين كان موجوداً أو أنه تدخل بشكل مباشر أو غير مباشر في الحصار. كما أنه لا يذكر أن الإمبراطور هاجم حلب، بل يقول إنه توجه مباشرة إلى شيزر. وتبدو رواية الصوري هي الصحيحة لأنها شاملة وتبين السبب الأساسي الذي دفع الإمبراطور إلى حملته تلك على سوريا، في حين أن الرواية التركية مجتزأة وغير دقيقة ولا يمكن الوثوق بمصداقيتها، وخصوصاً أنها تصرّ على وجود الأمير عماد الدين، الذي لو كان موجوداً حقاً لأشار إليه ولیم الصوري. لكنه، على الأرجح، خاف من المواجهة مع الإمبراطور الذي كان يحكم أكبر دولة في العالم آنذاك، ولذلك ظل بعيداً.

و- عماد الدين ينازل دمشق من جديد

لم يقض شهاب الدين محمود بن بوري طويلاً في ملك دمشق حتى قتل غيلة. ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٥٣٣ فيقول: «في هذه السنة في شوال قتل ملك دمشق شهاب الدين محمود بن بوري، وهو نائم على فراشه غيلة، قتله ثلاثة من خواص غلمانته، وكتب معين الدين أنز* من دمشق إلى جمال الدين محمد بن بوري أمير بعلبك، واستدعاه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، ولما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند والرعية وسكن الناس وفوّض أمر دولته

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - ولیم الصوري - ص ١٦٢

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ١٦٣

* يكتب ابن الأثير كلمة «أنز»، بالزاي، هكذا «أنز» بينما باقي مؤرخي التّرك فيكتبونها بالراء.

إلى معين الدين أنزوزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه، وكان أنزوخيراً، عاقلاً، فجرت الأمور عنده على أحسن نظام^(١).

ويقول أبو يعلى القلانسي: «في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من سنة ٥٣٣ ظهرت الحادثة المدبرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك وقتله في فراشه وهو في نومه بيد غلمان الملاحين البغش الأرمني الذي اصطنعه وقربه إليه، واعتمد في أشغاله عليه. ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه، والخركاوي الفراش الراقد حواليه^(٢). وحين انتهى الخبر إلى والدته زمرد خاتون، زوجة عماد الدين، قلقته وانزعجت وحزنت عليه وأكبرت هذا الأمر وحدث مثلها على ولدها، وأرسلت إلى عماد الدين وهو بناحية الموصل تعرّفه الحادثة وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها، فلما وقف على هذه الرسالة بادر من غير توقف ولا تريث وسار، في شهر ذي القعدة، مجداً وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، وتناصرت الأخبار بهذه العزيمة إلى دمشق فوقع الاحتياط والتحرز من جانبه والاستعداد^(٣). ثم تلا ذلك ورود الخبر بنزوله على بعلبك، وما إن وصل إليها حتى نصب عليها عدة من المناجيق وواصل المحاربة لأهلها وبالع في المضايقة لها حتى أشرف من بها على الهلاك، فقرروا تسليمها له مقابل الأمان لهم، لكن عماد الدين نقض عهده لهم، وأمر بصلبهم، فاستبشع الناس ذلك من فعله واستبدعوه من نكته^(٤). وعندما انتهى عماد الدين من ترتيب أمر بعلبك، رحل عنها في مستهل شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤، ونزل في البقاع، وأرسل إلى ملك دمشق جمال الدين محمد بن بوري يطلب منه تسليم المدينة ويعوّض عنها بما يقع الاختيار والاقتراح عليه، فلم يجب إلى ما رُغب فيه، فرحل عن البقاع ونزل على داريا ظاهر دمشق في ١٣ ربيع الآخر، وزحف بعد ذلك إلى البلد بعسكره من ناحية المصلى، وتابع المراسلة في تسليم البلد وأخذ العوض عنه بعلبك وحمص وما يقترح معهما^(٥). فلم يلق جواباً، وجعل يزاحف المدينة في أيام معينة، ولم يضيّق عليها أملاً منه في نزول ملكها عند إرادته، لكن جمال الدين محمود أصيب بعلة وقضى نحبه في شعبان من تلك السنة، فاجتمع رأي

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير الجزري - المجلد التاسع - ص ٣١٠

* يذكر القلانسي في أحداث سنة ٥٣٣ فيقول: «في أول هذه السنة يوم الجمعة بالرؤيا مستهل المحرم وفيه اجتمع الأمير عماد الدين أتابك بالخاتون صفوة الملك والدة الأمير شهاب الدين بظاهر حمص، وقد اجتمع عنده جماعة وافرة من رسل الخليفة وسلاطان مصر والروم ودمشق وغير ذلك - ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٦٧. وقد رأينا أن ابن واصل يقول، إن عماد الدين تزوج زمرد خاتون على أمل أن يملك دمشق، فلما لم يحصل على المراد تركها.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٦٨

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٦٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٦٩

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٧١

المقدمين وأصحاب الأمر من بعده على سدّ ثلثة ففقهه بنصب ولده الأمير غضب الدولة أبي سعيد أبق بن جمال الدين محمد في مكانه، وأخذت له بذلك العهود المؤكدة بالأيّمان المشدّدة على الإخلاص في الطاعة والصدق في الخدمة، فاستقام الأمر وصلاح التدبير وسكنت النفوس بعد استيحاها^(١). وحين علم عماد الدين بهذه القضية زحف في عسكره إلى البلد طامعاً في خلاف يجري بين المقدمين بسبب موت الملك جمال الدين محمد، فينال ما يريد، لكن كان الأمر بالضد مما أمّل ولم يصادف من أجناد دمشق وأحداثها إلا الثبات على الحرب، فعاد منكفئاً إلى عسكره، وقد ضعفت نفسه وضاق لهذا الأمر صدره^(٢). وكان معين الدين أنر قد أرسل إلى الصليبيين يستنجد بهم. حيث يقول أبو يعلي القلانسي: «وكان قد تقرر الأمر مع الإفرنج على الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والإسعاد في دفع عماد الدين والاختلاط في صدّه عن مراده، ووقّعت المعاهدة على ذلك بالأيّمان المؤكدة والضمان بالوفاء بما بذلوه والتمسوا على ذلك ما لا حمل إليهم ورهائن من أقارب المقدمين، كما اشترطوا تسليم ثغر بانياس بعد انتزاعها من يد صاحبها إبراهيم بن طرغت الذي أعلن ولاءه لعماد الدين^(٣). وشرع الإفرنج في التّأهب للإنجاد والاستعداد للمؤازرة وكاتب بعضهم بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعازل والبلاد على إبعاد أتاك وصدّه عن نيل الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره وإعضال خطبه وقوة شوكته واستظهاره عليهم وقصد بلادهم^(٤). وحين تيقن عماد الدين صورة الحال في هذا العزم، وتجمعهم على قصده مع عسكر دمشق رحل طالباً ناحية حوران للقاء الإفرنج إن قربوا منه، وأقام على ذلك مدة، ثم عاد إلى ناحية غوطة دمشق ونزل بعذراء، فأحرق عدة ضياع من المريج والغوطة إلى حرستا التين*، ورحل حين تحقق نزول الإفرنج بالميدان في جموعهم^(٥). واتفق أن إبراهيم بن طرغت كان قد نهض في أصحابه إلى صور للإغارة عليها، فصادفه ريموند صاحب أنطاكية في قصده واصلّاً لإسعاد الإفرنج على إنجاد أهل دمشق، فالتقيا فكسره في الوقعة ومعه نفر يسير من أصحابه وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها وجمعوا إليها رجال وادي التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذب عنها^(٦). ونهض إليها الأمير معين الدين أنر في عسكر دمشق،

(١) اذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧١

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧٢

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧٢

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧٢

* حرستا التين، قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ - معجم

البلدان - ياقوت الحموي الرومي - المجلد الثاني - ص ٢٤١

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧٢

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٧٢

ونزل عليها ولم يزل محارباً لها بالمنجنيات ومضايقاً لها بأنواع المحاربات ومعه فريق وافر من عسكر الإفرنج، ولم تنزل على حالها في المضايقة والمحاصرة إلى أن نفذت منها الميرة وقلّ قوت المقاتلة، فسلمت إلى معين الدين، وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما أرضاه من الإقطاع والإحسان، وسلمها إلى الإفرنج ووفى لهم بالشرط ورحل عنها منكفئاً إلى دمشق ظافراً بأمله حامداً لعمله في أواخر شهر شوال»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «كان زنكي قد غرّه نصره* فجعله أشبه بالدودة التي لا تعرف الاستقرار، فنهض بجيشه لغزو مملكة دمشق، وعندما جاء الخبر إلى حاكمها معين الدين أنر، الذي كان في الوقت ذاته حماً للملك، أرسل في الحال، رسلاً إلى ملك بيت المقدس متوسلاً إليه في إلحاح أن يقوم هو وشعبه المسيحي فينجده بالمدد ويسعفه بالرأي ضد العدو الشرس، وتعهّد له بدفع عشرين ألف قطعة ذهبية نفقة للحملة^(٢)، وكانت الاتفاقية قد نصت على أنه لا يكاد يتم إخراج العدو من دمشق حتى يردّ أنر إلى الصليبيين من غير معارضة مدينة بانياس، التي انتزعت منهم قبل عامين من هذا التاريخ، وتعهّد أن يسلمهم عدداً من كبار رجالاته يتفق عليه ليكونوا رهينة لديهم، فلما استمع الملك إلى هذه العروض جمع إليه كافة أشرف المملكة وشرح لهم شرحاً دقيقاً كل شروط الاتفاقية وتفاصيلها التي حملها إليه رسل أنر، وسألهم ماذا يكون ردّه عليه، فطال البحث بينهم، ثم قرّروا أن يساعدوا أنر والدماشقة ضد هذا العدو الضاري الذي يهدد المملكتين على السواء^(٣)، وما كادت الرهائن المذكورة تصل وتوضع في مكان آمن، حتى صدرت الأوامر بجمع القوات الكثيرة من الفرسان والمشاة من شتى رحاب المملكة وحشدها في طبريا، وقام زنكي في الوقت ذاته مندفعاً بشجاعته الطاغية فغزا أرض دمشق، وزحف مخلفاً المدينة وراءه حتى بلغ موضعاً يسمونه، رأس العين، فأقام به هو وكتائبه وعسكره مؤقتاً، وجاء إلى الصليبيين خبر توقف زنكي عند الموضع المذكور ونباً خروج الدماشقة من بلدهم وانتظارهم في (نواره)* وصول الملك وعسكره، وإذ ذاك قوّض الصليبيون معسكرهم وأسرعوا رافعين بيارقهم، متجهين شطراً إلى المكان المذكور، بيد أن زنكي ما كاد يعلم بهذه الحركة من جانبهم حتى بادروا إلى الانسحاب ليعد للأمر أهبطه كراهية منه في محاربة جيشين في وقت واحد، وخوض غمار معركة على أرض

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٧٣

* يقصد وليم الصوري بهذه العبارة، انتصار عماد الدين على الصليبيين في بعين.

* من غير المعروف أين تقع، نواره، فربما أصبح اليوم لديها اسم آخر.

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٧٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٧٦

* نواره، من غير المعروف أين تقع نواره، ولعلها تحمل اليوم اسماً آخر.

معادية له، ومن ثم أسرع قبل انضمام الصليبيين إلى الدماشقة إلى ترك الناحية التي هو فيها، وارتد على عجل تاركًا قوات الصليبيين وقوات الدماشقة إلى اليسار، وزحف صوب الإقليم المعروف باسم (وادي بكار)، لكن هذه الحركة من جانبه لم تمنع الصليبيين من مواصلة زحفهم إلى الموضع المحدد حيث انضموا إلى الدماشقة وصاروا يدًا واحدة^(١). وبينذاك تأكد عندهم تمامًا خبر رحيل زنكي، فاتفقوا على أن يحولوا زحف الجيش بأجمعه إلى ناحية بانياس حسبما جرى الاتفاق عليه في المعاهدة، وزحفت الجيوش المتحالفة صوب هذه المدينة التي ما كادوا يدخلونها يوم أول مايو - أيار، حتى فرضوا عليها الحصار من كل النواحي ووضع أنرجيشه في ناحية بالجانب الشرقي منها تقع بين المدينة والغابات في بقعة يسمونها (كوها جار)^(٢)، وأما قوات الملك فقد رابطت في الناحية الغربية تجاه المزارع الفسيحة، فأدى وضع القوات على هذه الصورة المحيطة بالمدينة إلى منع أي أحد من الوصول إلى من بداخلها، كما حالوا دون خروج أحد منها، وزيادة على ذلك فقد اقتضتهم الحكمة أن يبعثوا الرسل إلى ريموند أمير أنطاكية وإلى كونت طرابلس لدعوتهما للمشاركة في الحصار الذي بدأ حالاً، وشدد الصليبيون الحصار بلا هوادة يعاونهم حلفاؤهم الدماشقة الذين لا يقلون عنهم حماسة والذين كانوا على الدوام على استعداد للقتال اليومي، وكان منظرًا عجيبًا ومشهدًا لم تر العين مثيلاً له من قبل أن يقوم خصم بتشجيع عدوه على تسعير أوار الحرب، وأن يمضي مدججًا بالسلاح فيكون حليفًا لعدوه لتدمير العدو المشترك، كذلك لم يكن أحد قادرًا على أن يقول، أي الحليفين كان أكثر استبسالًا من الآخر ضد العدو المشترك، وأيهما كان أشرس في الهجوم أو أكثر صبرًا على تحمل عبء المعركة، فقد تساوى الصليبيون والدماشقة في الشجاعة^(٣)، وعلى الرغم من أن المحاصرين أرهاقتهم الهجمات التي لا تنقطع، وأثقل كاهلهم عبء العمل وضخامته، إلا أنهم مازالوا يقاومون المقاومة الشديدة، ولا يقصرون في بذل كل جهد للذب عن حريمهم وأبنائهم، وفوق كل شيء عن حريتهم، وزاد ضغط الأهوال عليهم من إبداعهم فلم يدعوا طريقًا للمقاومة إلا سلوكه، واستمروا على ذلك فترة طويلة من الوقت جعلت الصليبيين يوقنون في آخر الأمر أن لا سبيل لكسب شيء ما لم يبنوا برجًا خشبيًا ثم يحركونه ويلصقونه بالأسوار، ثم يعتلونهم فيقاتلون المحصورين، غير أن الناحية كلها لم تسعفهم بالمادة الملائمة لصنع مثل هذا البرج، وبينذاك كلف أنربعض رجال من عنده بالمضي إلى دمشق في طلب ألواح كبيرة الحجم كانت مكدسة هناك منذ زمن بعيد لمثل هذا الغرض،

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٧٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٧٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٧٩

وأمرهم بإنجاز مهمتهم هذه على وجه السرعة والعودة على عجل^(١). ووصل حينذاك أمير أنطاكيا وكونت طرابلس تلبية للدعوة، فقدموا ومعهما عدد كبير من المقاتلين، فضاغف مجيئهم حزن المحصورين الذين بدوا وكأنهم فقدوا الأمل في الصمود^(٢)، وعاد الرجال الذين أرسلوهم إلى دمشق ومعهم ألواح كبيرة من الخشب من كل حجم وقوة يحتاجها العمل، وسرعان ما بدأ النجارون والفعلة في ضمها بعضها إلى بعض وتثبيتها بالمسامير الحديدية، وسرعان ما قامت عندهم آلة عظيمة الارتفاع، يساعد أعلاها على اكتشاف كل أرجاء المدينة، وأخذوا يرمون من فوقها السهام والنبال وشتى صنوف القذائف ولما أصبحت هذه الآلة جاهزة للعمل نصبت على الجدار بعد أن سوّيت الأرض التي بينها وبين الأسوار، حينذاك أصبح موقف المحصورين، لأول مرة، موقفًا لا يمكن احتماله، ففروا إلى أقصى مكان يستطيعون الفرار إليه، لكن لم يكن هناك مكان آمن يمكن الفرار إليه، وحيل بينهم وبين التقدم والارتداد إلى الخلف، وأصبحوا عاجزين عن مد يد المساعدة لإخوانهم الذين يتساقطون، لأنهم إن فعلوا ذلك عرضوا أنفسهم للهلاك، وكان زنكي قد وعدهم، وكان صادقًا مخلصًا في وعده، بأنه سوف يهب لنجدتهم، فصدقوا ما وعدهم به، أما الآن فقد تلاشى كل أمل لهم في الدفاع عن أنفسهم، وكان أنر حاكم دمشق والقائد العام للجيش رجلًا صادق الفراسة، وكان يدرك ما فيه الخصم من مرارة، فأرسل في الخفاء رسلاً يدعو الناس في القلعة للاستسلام للإبقاء على أرواحهم، فقبلوا العرض المقدم إليهم بعد طول تمعن واستقراء^(٣)، إلا أن واليهم خاف أن تؤول حاله إلى الفقر، فأضاف شرطًا إلى العروض المقدمة أن سألهم أن يعوضوه تعويضًا نقديًا ترك أمر تقديره لحكمة عادل منهم إن هو سلمهم المدينة، ذلك لأنه رأى أنه من المشين المخجل لرجل عظيم القدر، مثله كان في السابق حاكمًا لمدينة كبيرة، أن يخرج من كل أملاكه الموروثة ويضطر لمده للاستجداء. واستجاب أنر إلى ما التمس حاكم بانياس، وعلى هذا الأساس تم وضع الشرط التالي وهو، أن يخصص لأمير بانياس دخل سنوي يتفق على مقداره بينه وبينهم، ويدفع إليه من دخل الحمامات وبساتين الفاكهة، وأن يؤذن للأهالي بالخروج بكل متاعهم إن هم أرادوا الخروج، أما من يؤثرون البقاء هناك أو في ممتلكاتهم سواء ما كان منها داخل المدينة أو في الريف، وسواء أكانت هذه الإقامة دائمة أو مؤقتة، ولم يشاؤوا مكانًا غيرها، فقد وعدهم بملكية هادئة وفق شروط طيبة حينما يتم أخذ اليمين^(٤). رحب الملك وبقية الصليبيين بهذا الاتفاق واستعد الأهالي كلهم لتسليم المكان من غير توان، فلما

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٨٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية-وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٨٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية -وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٨٣

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار«الحروب الصليبية» -وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٨٤

رأى أنرأن المفاوضات قد بلغت غاية المرتجى، وأن الأمر قد حسم من كل نواحيه بادر فوضع أمام الملك والبطرك والأمير والكونت، جميع الحقائق بطريقة ودية، وشرح لهم كل دقائق المفاوضات التي أجراها في السروحتهم على الموافقة على الاتفاق، وحملهم احترامهم لفطنة هذا الرجل وصدق نواياه وعلى قبول الشروط، ووعدوه أن يوفوا له بكل ما يقتضيه الواجب وفقاً للإجراءات التي اتخذها، ولما استسلمت المدينة أذن لأهلها بالرحيل عنها بحريتهم وأبنائهم، وبكل ما ملكت أيديهم من غير مضايقة، فمضوا إلى الناحية التي اختاروها، وما كادت المدينة تصبح في قبضة الصليبيين حتى اختاروا أسقفاً لها هو (آدم) رئيس أساقفة عكا، وعهدوا إليه بالقيام بأداء الطقوس الدينية للمؤمنين الذين يريدون الإقامة بالمدينة»^(١).

ومما تقدم يتضح الاختلاف الكبير في الروايتين الشرقية والغربية حول هذه الواقعة، فابن القلانسي يقول، إن زمرد خاتون زوجة عماد الدين هي التي حرضته لقتال دمشق بعد مقتل ولدها محمود، أما وليم الصوري فيقول إن عماد الدين اعتربنصره على الصليبيين في بعرين فأراد أن يكمل هذا النصر بأخذ دمشق، كما أن ابن القلانسي يقول، إن عماد الدين أقام على دمشق عدة أشهر يزاحفها حتى مات ملكها جمال الدين محمد وعين الأمراء مكانه مجير الدين أبق بن محمد، وأنه عندما طال مقام عماد الدين استعان أمراء دمشق بالصليبيين، أما وليم الصوري فيقول، إن التُّرك في دمشق عندما سمعوا بمسير عماد الدين إليهم أرسلوا إلى الصليبيين لمساعدتهم فجاء الصليبيون في الوقت الذي وصل فيه عماد الدين إلى دمشق، وعندما رأى ذلك انسحب خوفاً من الوقوع بين عدوين.

ويقول القلانسي إن والي بانياس سلّم المدينة لقاء عوض أخذه. في حين أن الصوري يقول: إن أنر فاضه على التسليم وأعطاه مرتباً سنوياً من دخل الحمامات وبساتين الفاكة في دمشق.

وتبدو رواية وليم الصوري أكثر شمولية ودقة لهذه الواقعة من رواية القلانسي وغيره من مؤرخي الشرق.

لكن بالنسبة لتحالف التُّرك في دمشق مع الصليبيين ضد العدو المشترك عماد الدين، فهذا التحالف كان خطيئة كبرى لا يمكن اغتفارها، خصوصاً أنهم ساروا مع الصليبيين وانتزعوا معهم مدينة بانياس بالقوة من أهلها، فمهما كان عماد الدين شريراً بالنسبة إليهم، فهو يبقى أحنّ وأفضل بكثير من أولئك الغزاة المتوحشين الذين لم يكن لهم من هدف سوى الغزو والسطو والقتل، وأيضاً لا يجوز التحالف مع العدو ضد الشقيق تحت أي ظرف أو أي سبب. ومن يفعل ذلك

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ١٨٥

فهو خائن، وخيانة التُّرك في دمشق ثابتة عليهم.

ز- عماد الدين والرها

كانت إمارة الرها الصليبية تبسط سيطرتها على مناطق واسعة في ديار بكر والجزيرة الفراتية، وكانت تشكل تهديداً مباشراً للموصل والعراق برمته، وكان الصليبيون في هذه الإمارة قد زادوا من هجماتهم على المناطق المحيطة بهم والتي كانت تابعة لعماد الدين وخاصة الموصل، فقرر مهاجمتهم، وراح يتحين الفرصة المناسبة، ومن ثم واتته الظروف ليهاجم تلك الإمارة وينهي وجودها.

ويتحدث أبو يعلى القلانسي عن هذه الواقعة فيقول: «وفي هذه السنة (٥٣٩) وردت الأخبار من ناحية الشمال بأن الأمير عماد الدين أتابك افتتح مدينة الرها بالسيف مع ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على طالبيها من العساكر الجمّة ومنازلتها وأن السبب في ذلك أن الأمير عماد الدين أتابك لم يزل لها طالباً وفي تملكها راغباً ولانتهاز الفرصة فيها مترقباً لا يبرح ذكرها جانلاً في خَلْدِهِ وسرّه وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه إلى أن عرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في جُلِّ رجاله وأعيان حماته وأبطاله لأمر اقتضاه وسبب من أسباب البعد عنها دعاه للأمر المقضي والقدر النازل، فحين تحقق ذاك بادر بقصدها وسارع إلى النزول في العسكر الدثر عليها لمضايقتها والحصار لمن فيها، وكاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها والإسعاد وأداء فريضة الجهاد، فوصل إليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من المير والأقوات ونصب على أسوارها المناجيق ترمي عليها دائماً والمحارية لأهلها مضرّاً ومواظباً^(١). وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقب الماضون فيها فنقبوا في عدة مواضع عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضرها ولم يزالوا على هذه الحال في الإيغال في النقب والتمادي في بطن الأرض إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج السور فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة وفرغوا من ذلك ولم يبق غير إطلاق النار فيها، فاستأذنوا عماد الدين في ذلك فأذن لهم بعد أن دخل في النقب وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله، فلما أطلقت النار في تعليق النقب تمكنت من أخشابها وأبادتها فوق السور في الحال وهجم المسلمون البلد بعد أن قُتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم، وقُتل من الإفرنج والأرمن وجُرح ما أوجب هزيمتهم عنه، وملك البلد بالسيف في يوم السبت سادس وعشرين جمادى الآخرة، وشرع في النهب والقتل والأسر والسلب، وامتألت الأيدي من المال والأثاث والدواب

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٧٩

والغنائم والسبي ما سرّت به النفوس وابتهجت بكثرته القلوب^(١). وشرع عماد الدين، بعد أن أمر برفع السيف والنهب، في عمارة ما تهدم وترميم ما تشعث ورتّب من رآه لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها وطيب نفوس أهلها ووعدهم بإجمال السيرة فيهم وبسط العدالة في أقاصيهم وأدانيهم. ورحل عنها وقصد سروج وقد هرب الأفرنج منها فملكها وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا يُسلم إليه في الحال»^(٢).

ويقول القلانسي: «ورد الخبر من ناحية الشمال باجتماع الأفرنج بناحية أنطاكية لإنجاد الرها، فأنهض عماد الدين أتابك إليهم جيشاً وافراً من طوائف التركمان والأجناد فهجموا عليهم بغتة وأوقعوا بمن وجدوه واشتملوا على جملة وافرة من كراعهم، فتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم مفلولين مخذولين خاسرين»^(٣).

ويتحدث ولیم الصوري عن سقوط الرها في أحداث سنة ١١٤٢ للميلاد فيقول: «قام عماد الدين زنكي بحصار مدينة الرها بجيش قوي، في هذه السنة، وتقع مدينة الرها على مسيرة يوم واحد وراء الفرات، ويتولى أمرها ويملكها الكونت جوسلين الذي خالف سنة أسلافه فهجّر منامه هناك وجعل مقره الدائم بقلعة «تل باشر» غرب الفرات، وكان الذي دعاه إلى هذا الانتقال هو ما امتازت به هذه الناحية من الخصب، هذا إلى أن وجوده هنا كان يباعد تمام المباعدة بينه وبين المتاعب التي يسببها له أعداؤه، كما تتوفر له فيها شتى ضروب اللهو والمتعة^(٤). وكان سكان الرها من الكلدانيين المحليين والأرمن المسلمين، وليس فيهم من يعرف أبداً استعمال السلاح بل إنهم كانوا لا يمارسون سوى التجارة فاتخذوها حرفة لهم، وكان اللاتين يحضرون إلى هناك بين أن وآخر فيقيمون بها، لكن كانت أعدادهم قليلة، كما أن حماية المدينة كانت موكولة كلها إلى أيدي الجند المرتزقة الذين لم يكونوا يتناولون رواتب وأجوراً حسب مقتضيات الوقت أو حسب نوع الخدمة التي يؤدونها، بل إنهم كثيراً ما كانوا يضطرون للانتظار فترة قد تطول فتبلغ عامّاً أو يزيد قبل أن يستطيعوا أخذ معاشهم ورواتبهم المستحقة^(٥). وما كاد بلدوين ومن بعده جوسلين الأب يمتلكان هذه الكونتية حتى جعلاً مقامهما الدائم في الرها، وعنيا عناية تامة بتوفير التجهيزات الملائمة لها من السلاح والطعام، واستطاعا بهذه الوسائل توفير الأمان التام للرها التي أصبحت بفضل هذا العمل مهابة عن جدارة أكثر من بقية مدن الإقليم الأخرى، وقد كان هناك

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢٨٠

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢٨٠

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢٨٠

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٥

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٦

عداوة بين أمير أنطاكيا وبين كونت الرها جوسلين الابن، مما ترتب عليه أن لم يعد أحدهما يأسى على ما يحيق بالآخر من المصائب أو يلتم به من سوء الحظ^(١). وقد اغتنم الأمير الكبير زنكي الفرصة التي أتاحتها له هذه العداوة بين الاثنين، فقام بجمع أعداد كبيرة جداً من أهالي المدن المتاخمة وضرب بهم الحصار على الرها وسد كل المداخل المؤدية إلى المدينة، مما أسفر عن عدم قدرة أحد ما على مغادرتها أو الدخول إليها، وترتب على ذلك أن نزل القحط الشديد في الأطعمة وشتى أنواع التجهيزات بالأهالي الذين أغلقت عليهم المدينة^(٢). وكانت مدينة الرها يحيط بها سور شديد الضخامة، كما يوجد في القسم الأعلى منها عدد كبير من الأبراج الشاهقة الارتفاع، كما يوجد في القسم الأسفل منها حصن منيع يستطيع الأهالي اللجوء إليه فيما لو تمكن العدو من الاستيلاء على المدينة. وكانت كل هذه التحصينات مجدية في إنزال المضرة بالعدو إذا توفر لها المحاربون الأكفاء الذين يستبسلون في القتال من أجل حريتهم، ولكنها تصبح غير ذات جدوى لو انعدمت بين المحاصرين الرغبة في القيام بواجب الدفاع، فلما وجد زنكي المدينة خالية ممن يزودون عنها تزايد أمله في التغلب عليها، فرتب جنده على شكل دائرة التفت بها وأحاطتها من كل جانب، وأنزل قواد العسكر في أماكن حصينة نافعة وحاصرها، وانطلقت آلات الحرب ترمي الأسوار بلا انقطاع كما انهمر وابل هتان من السهام لم يترك للأهالي لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم^(٣). وعندما سمع جوسلين بما حدث للرها راح يرسل الرسل ويلتمس العون من أصدقائه، وأرسل الرسل إلى أمير أنطاكيا راجياً منه أن يتعاطف معه في محنته وتخليص الرها من الرق الذي يتهدها^(٤). ووصلت أخبار هذه النكبة كذلك إلى ملك بيت المقدس فقامت والدته الملكة «مليزند» التي كان بيدها دفعة الأمور، بعقد مجلس من نبلائها، وكلفت «مناسيس» الكونستابل الملكي، و«فيليب النابلسي» و«اليناندوس» صاحب طبريا، بالزحف إلى الرها على رأس قوة كبيرة من الجند لنجدة الكونت جوسلين^(٥). ودأب زنكي في الوقت ذاته، على مهاجمة المدينة بلا انقطاع، ولم يترك وسيلة من وسائل المضايقة والإيذاء إلا عمد إليها لإلحاق المضرة بها، فأرسل عبر الممرات السفلية عمالاً يحضرون الأنفاق تحت الأسوار القائمة على أعمدة من الخشب ويشعلون النيران فيها، فلما أمسكت النار بهذه الدعائم انهار جزء كبير من السور تاركا ثغرة زاد اتساعها على مئة

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٧

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٨

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٨

ذراع تتيح للخصم الدخول منها، فتمّ له ما أراد، فاندفع عسكره من كل الجهات واقتحموا المدينة وحكّموا السيف في جميع من صادفوه، وإذ ذاك فرّ عنها من سكانها أكثرهم عقلانية وتوقّعًا للمخاطر، ولجأوا إلى القلعة التي كانت داخل المدينة، طمعًا في الحفاظ على أرواحهم، لكن تدافع الجموع الغفيرة من الجماهير أفشى الجزع بين الناس الذين هلك الكثيرون منهم وسط الرعاع المتراحمين وكان من بين الهلكى الذين قضوا نحبهم على هذه الصورة رئيس أساقفة الرها (هيجو) وبعض رجاله»^(١).

ومما تقدم يتبين أن هناك اختلافًا بين الروايتين الشرقية والغربية حول سقوط الرها، فالقلانسي جعل معركة الرها في سنة ٥٣٩، في حين أن الصوري جعلها عام ١١٤٢، أي ٥٣٥ للهجرة، وأيضًا فإن القلانسي وغيره من رواة الشرق لم يكونوا مطلعين على أوضاع الرها، حيث قال القلانسي، إن أميرها جوسلين غادرها في رحلة مع رجاله، أما وليم الصوري فيقول، إن جوسلين ترك الإقامة في الرها وأقام في قلعة تل باشر على الفرات، وأن الرها كان بها قوة من المرتزقة (أو من الشعوب المحلية)، وأن سكان الرها كانوا من الكلدان والأرمن، أما اللاتين فإنهم كانوا يأتون إليها بين حين وآخر، أما القلانسي فلا يذكر شيئًا عن السكان بل وصف الجميع بالإفرنج وذلك بسبب عدم معرفته بحقائق الواقع في هذه الإمارة، كما أن وليم الصوري يقول، إن أهل الرها كانوا تجارًا وهذا يدل على أنهم كانوا سادة الإقليم لأن التجار يملكون الاقتصاد في أي مجتمع. وكذلك لا يتحدث وليم الصوري عن قصد الصليبيين في بيت المقدس للرّها لتخليصها، بل يقول، إن الملكة أمرت بجمع جيش لإنقاذ الرها، لكن هذا الجيش لم يخرج لأسباب لم يذكرها الصوري، أما القلانسي فيقول، إن الصليبيين اجتمعوا لكن التّرك هزمهم وانتصروا عليهم. وتبدو رواية وليم الصوري أكثر دقة وشمولية من رواية القلانسي ومن أية رواية شرقية حول هذه الواقعة. وهي الرواية التي نعتقد بصدقيتها ولذلك نعتمد عليها كمرجع حول سقوط الرها.

ح- مقتل عماد الدين

كانت نهاية الأمير عماد الدين على قلعة جعبر عندما قرر حصار هذه القلعة والسيطرة عليها في سنة ٥٤١، وكانت جعبر بيد العقيليين، منذ أن سلّمها ملكشاه لشمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي، عندما أخذ منه حلب. ويقول ابن الأثير: «فلم تزل في يده (أي سالم بن مالك) ويد أولاده إلى سنة ٥٤١، فسار عماد الدين إليها فحصرها، وكان الباعث على حصرها، أن لا يبقى في وسط بلاده

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٣٩

ما هو لغيره، وأقام عليها يحصرها بنفسه، فلم يزل كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة وهربوا إلى القلعة»^(١).

ويقول أبو يعلى القلانسي: «وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٤١ وردت الأخبار بأن أحد خدمه ومن كان يهواه ويأنس به يدعى (بيرنقش) أصله فرنجي وكان في نفسه حقد عليه لإساءة تقدمت منه إليه فأسرّها في نفسه، فلما وجد منه غفلة في سكره ووافقه بعض الخدم من رفقته على أمره فاغتالوه عند نومه في ليلة الأحد السادس من شهر ربيع الآخر من السنة وهو على الغاية من الاحتياط بالرجال والعُد والحرس حول سرادقه فذبحه على فراشه بعد ضربات تمكنت من مقاتله ولم يشعر بهم أحد حتى هرب الخادم إلى قلعة دوسر المعروفة حينئذ بجعب و فيها صاحبها الأمير عز الدين علي بن مالك بن سالم بن مالك فبشره بهلاكه فلم يصدقه وآواه إلى القلعة وأكرمه وعرف حقيقة الأمر فسرّ بذلك واستبشر بما أتاه الله من الفرج بعد الشدة الشديدة والإشفاء على الهلكة بتطاؤل المحاصرة والمصابرة، وتفرقت جيوشه أيدي سبا ونُهبت أمواله الجمة وخزائنه الدثرة وقبر هناك بغير تكفين إلى أن نقل كما حُكي إلى مشهد على الرقة»^(٢).

ويقول وليم الصوري: «شمخ عماد الدين بأنفه تيهًا لما أحرزه من النصر الرائع بإخضاعه مدينة الرها فبادر في الحال إلى بذل جهده في حصار قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات، وبينما كان قائمًا على حصارها إذا بحاكم البلد يتآمر مع بعض غلمان زنكي وخاصة خصيائه، واغتنموا ليلة أفرط فيها الأمير زنكي في الشراب حتى بلغ السكر به مبلغًا لم يكن يبلغه في العادة، فاستلقى في فسطاطه، فوثب عليه بعض خاصته فذبحوه، ولجأ القتلة إلى حاكم المدينة المحاصرة فأخفاهم وراء أسوارها، أما جيش زنكي فقد فرّ على بكرة أبيه حين حرم من معونة مولاه وحمايته له»^(٣).

وكما نرى فإن الروايتين الشرقية والغربية تتفقان على أن الأمير عماد الدين قتل على يد مماليكه وخدمه. وتبدو رواية القلانسي مطابقة تمامًا لرواية وليم الصوري، وخصوصًا حول شرب عماد الدين الخمر وسكره، ومن ثم تفرق جيشه ولا يذكر ابن الأثير أن عماد الدين كان سكرانًا ليلة مقتله. وللأسف فإن هذا الأخير، الذي جعل نفسه مؤرخًا للدولة الأتابكية، لم يذكر الدوافع التي دفعت القتلة إلى هذا الفعل، بل مرّ على الحادثة مرور الكرام. أما ابن القلانسي فإن حديثه عن الثأر

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ٧٤

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٨٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٤٢

الشخصي من القاتل غير مقنع في مثل هذه الجريمة وهذا الموقف. وفي الحقيقة فإن اغتيال شخصية كبيرة بحجم عماد الدين، لم يكن عملاً فردياً، بل كان مؤامرة، ربما دبرها السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه بالتعاون مع أمير قلعة جعبر، فقد كان هذا السلطان يكره عماد الدين، وكان، كما يقول ابن الأثير: «كلما انفتق عليه فتق نسبه إلى عماد الدين، وظن أنه هو من أشار به وسعى فيه، وكان ظن السلطان فيه صادقاً، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك، فلما كانت سنة ٥٣٨ جمع السلطان العساكر وأظهر أنه يريد قصد الموصل والبلاد التي يسيطر عليها عماد الدين، فترددت الرسل بينهما واستقر الحال على أن يدفع عماد الدين مئة ألف دينار يحملها إلى السلطان، وطلب السلطان أن يحضر عماد الدين في خدمته، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره السلطان»^(١).

ويقول ابن الأثير في موضع آخر: «ثم أن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا على السلطان، فاضطر إلى مداراة عماد الدين»^(٢).

وربما لم يكن بوسع السلطان منع عماد الدين من دفع الولاة للخروج عليه، ولم يكن، في الوقت نفسه، قادراً على مواجهة عماد الدين عسكرياً، فلجأ إلى المكر والحيلة، فدس له من يقتله على فراشه، وبالتوافق مع أمير قلعة جعبر لأن القاتل لجأ إليه، فكانت تلك الجريمة المروعة. وللأسف فإن أولاد عماد الدين الأربعة (غازي، ومحمود، ومودود، وميراميران) لم يجهدوا أنفسهم في البحث عن قاتل أبيهم، بل انشغل الكبيران (غازي ومحمود) بالبحث عن الملك، فأخذ غازي الموصل وبلاد الجزيرة، وأخذ محمود أملاكه في سوريا، وانتقل إلى حلب وسكن فيها. ويذكر ابن فضل الله العمري، أنه لما قتل زنكي كان ولده محمود حاضراً عنده، فأخذ خاتم والده (وهو ميت) من أصبعه، وسار إلى حلب فملكها^(٣). أما الصغيران، مودود، وميراميران، فكانا كالأيتام على مائدة اللئام. لأنهما لم يحصلوا على شيء من أملاك أبيهما.

وضاع دم عماد الدين وطواه التاريخ. وما يدعو إلى العجب هو كيف لم يتم اتهام من يسميهم التُّرك (الباطنية) في تلك الجريمة؟ لكن ربما كان الترك، آنذاك، يعلمون القاتل الحقيقي، ولذلك أعرضوا عن اتهام هؤلاء، وألصقوا التهمة بخدم عماد الدين.

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ٦٥

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ٦٦

(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - ج ٢٧ - ص ١٢

٩- محمود بن زنكي

بعد أن استقر محمود بن زنكي في حلب شرع في جمع العساكر وإنفاق المال فيها واستقام له الأمر، وتابع خطى والده لإخضاع ممالك التُّرك في سوريا وقاتل الصليبيين على السواء. وقد لعب محمود بن زنكي دورًا خطيرًا، في ذلك الوقت، وكان، بعكس أبيه، متعصبًا، معجبًا برأيه، مبغضًا للدولة العلوية في مصر، وكان يظهر لهذه الدولة الود بينما كان يعمل في الخفاء على تدميرها والخلاص منها، كما سنرى لاحقًا.

أ- استعادة الرها

كانت الأخبار قد وردت، كما يقول القلانسي، في أيام من جمادى الآخرة من السنة (٥٤١)، بأن «جوسلين جمع الإفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها وضافت الصدور باستماع هذا الخبر، ووردت الأخبار مع ذلك بأن الأمير نور الدين صاحب حلب نهض في عسكره وانضاف إليه من التركمان عند وقوعه على الخبر، وأغدوا السير ليلاً ونهاراً ووافوا البلد فهجموا عليه ووقع السيف فيمن فيه وقتل من أرمن الرها ومن النصارى من قتل وانهزم ابن جوسلين إلى برج يقال له (برج الماء) ومعه تقدير عشرين فارساً، وأحرق بهم المهاجمون من جميع الجهات، وشرعوا في النقب عليهم فانهار البرج وهرب ابن جوسلين، وأخذ أصحابه وقتلوا»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «بعد موت زنكي قام ابنه نور الدين فتريث في الموصل بعض الوقت حتى يفرغ من أمر وراثته لإمارة أبيه، ولم يستبق من أتباعه في الرها سوى نفر قليل لحمايتها، ولما كان بقية سكانها من غير هذا النفر شديدي التمسك بعقيدتهم المسيحية فقد بعثوا في السررسلاً إلى كونت جوسلين وأخبروه أن مدينتهم تكاد تكون خالية إلا من رهط قليل من التُّرك لحراسة القلعة، أما أمر البلد فمترك في الواقع لهم هم وحدهم. وكان الإيمان المسيحي منذ عهد الحواريين قد ترسب في قلوب أهل الرها حتى لم يكن بينهم أحد من أصحاب الديانات الأخرى، لذلك فإنهم ألحوا على الكونت جوسلين وتوسلوا إليه أن يحشد المقاتلين ويسرع إلى المدينة التي سوف يسلمونها إليه حال وصوله دون أن يخشى من وراء ذلك خطراً أو يصادف عقبة»^(٢). وبأدر جوسلين فجمع العساكر من المشاة والخيالة، واستصحب معه بلدوين صاحب مرعش وكان من النبلاء

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٩

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٥٩

الأقوياء، وعبر النهر بسرعة، وما كاد الليل يسدل سدوله حتى ظهر جوسلين هو وجميع من يتبعه أمام الرها، فاغتنم الأهالي سكون الليل واستغراق حراس القلعة في سباتهم فأدخلوا بعضاً من رجال الكونت بواسطة الحبال والسلالم التي دلوها إليهم، ففتح هؤلاء الأبواب لبقية من كانوا ينتظرون في الخارج، فأقبلوا على بكرة أبيهم وانطلقوا في جميع رحاب المدينة وأعملوا السيف في جميع من صادفهم من رجال العدو^(١). وقد تمكن الكونت وعسكره المسيحيون من الاستيلاء على المدينة أياماً عدة لكنهم فشلوا في أخذ القلعة لشدة تحصينها وحسن تزويدها بالميرة والسلاح والجند، ويرجع معظم فشل الصليبيين في هذه الناحية هو أنهم لم يستصحبوا معهم الآلات الحربية وما يلزم لبنائها وما يحتاجون منه لصنعها، كما لم يكن بالمدينة شيء من هذا القبيل يصلح لمثل هذا العمل^(٢). وما كاد نور الدين يعلم بما فعله أهل الرها من تسليم البلد إلى الكونت حتى حشد العسكر من شتى نواحي الشرق، ثم فاجأ الرها بالظهور أمامها وأحدثت قواته بها، وبدأت عمليات الحصار، أما في الداخل فقد أخذ الترك الذين بالقلعة يبتئون الفرع في السكان ويرأوحوهم ويغادونهم بالغارات يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر^(٣). وأدرك الصليبيون أن لا نجاة لهم إلا بمواجهة الموت ذاته، وأن يحاولوا شق طريق لنجاتهم بحد السيف، ووافقوا كلهم على هذا الرأي، أما الأهالي فقد استولى عليهم الإحباط ما تلاشى معه كل أمل لهم في المقاومة، ورأوا كيف سُدَّت في وجوههم جميع سبل النجاة، وأدركوا أنهم سوف يلاقون الهلاك إن هم ظلوا مقيمين في الرها بعد مغادرة الكونت لها، ولذلك آثروا الرحيل عنها بنسائهم وأبنائهم، وفضلوا أن يشاطروا الجيش الصليبي المصير المجهول بدلاً من أن يقعوا في براثن موت مؤكد، أو ما هو أفدح من الموت. وما كادت الأبواب تفتح على مصراعيها حتى تدافع الجميع عبرها كأن ليس لهم سواها من سبيل للنجاة^(٤). وسمع الترك الذين كانوا خارج الأبواب أن بعضاً من قومهم لازالوا داخل البلد، وأنهم يحاربون الصليبيين، فدفعتهم الرغبة في الانضمام إليهم للاستيلاء عنوة على الأبواب التي كانت قد فتحت ليرحل منها الصليبيون، ومن ثم احتشدت في هذه النقطة جموع غفيرة من شتى الرتب والطبقات، يحاول بعضهم أن يشقوا لأنفسهم طريقاً للخروج، والبعض الآخر يجاهد للدخول عنوة، مما أسفر عن عراك شرس تمخض عن عواقب وخيمة اكتوى بناها كل من الطرفين، فكان العدو في الخارج يقاتل قتالاً ضارياً عساه أن يتمكن من الدخول، لكن انتصر الصليبيون بفضل

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٠

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٢

بسالتههم وإصرارهم، وحالفهم النجاح حين شقوا طريقهم بحد السيف وانتشروا في السهل كله^(١). لكن بعد أن استمر القتل وهلك الكثيرون من الطرفين. وكان هناك جيش من الأهالي لا يعرف الحرب ولم يكن له عون، وكان هناك أرتال من الطاعنين في السن وجموع من المرضى والأمهات والعذارى الرقيقات والعجائز المسنات ومن الصغار بل والرضع على صدور أمهاتهم. وقد تراحمت جموعهم الكثيفة عند الممر الضيق فداست الخيل بسنابكها من داسته منهم، وهناك من هلك من تراحم هذه الجموع، وراح غير هؤلاء وهؤلاء يزاحم بعضهم بعضاً وقد تناهبتهم سيوف التُّرك. كما هلك في الوقت ذاته أسوأ الهلاك الجزء الأعظم من الأهالي من الرجال والنساء الذين آثروا متابعة الجيش الناكس على أعقابهم ولم ينج إلا القليل بفضل قوتهم وبأسهم أو بفضل الخيل التي يركبونها^(٢). حين أدرك نور الدين أن الصليبيين يستعدون للعودة إلى ديارهم جمع كتابه لبعضهم، وشدَّ على مؤخرة الصليبيين بسلسلة من الهجمات الموصولة فاضطروا لأن ييمموا وجوههم شطراف الفرات الذي كان على بعد أربعة عشر ميلاً، وعانى الكونت وعسكره في أثناء زحفهم كثيراً من الغارات التي لا تنقطع، ومات في هذا الارتداد الرجل النبيل بلدوين صاحب مرعش، كما هلك كثيرون ممن كانوا من عليّة القوم الذين يستحقون خلود الذكر^(٣).

وكما نرى فهناك اختلاف بين الرواية الشرقية والرواية الغربية لاستعادة الرها، فالراوي الشرقي يقول إن نور الدين هجم بعسكره على الصليبيين فيها وهزمهم، ومن ثم حصرهم في برج ونقب البرج حتى سقط فقتل غالبيتهم ونجا ابن جوسلين، أما وليم الصوري فهو يتوسع في الشرح ويبين السبب في إعادة امتلاك الصليبيين للرها وأن شعب هذه المدينة كانوا كلهم مسيحيين متعصبين لدينهم وأنهم هم الذين استدعوا جوسلين من تل باشروسهلوا له دخول المدينة، وأنه عندما حاصر التُّرك الرها لم يجد الصليبيون فيها من وسيلة للخلاص من الحصار سوى بالخروج فخرجوا وخرج معهم كل السكان، ونجا جوسلين وجماعة من جيشه، وقتل الكثير من أهالي الرها والقليل منهم نجا وفر في الآفاق. وما يدعو إلى الأسى والحزن هو أن مدينة عظيمة مثل الرها ذات تاريخ شامخ، تنتهي تلك النهاية المحزنة ويذهب تاريخها أدراج الرياح ولا يبقى منها سوى الذكر الذي سجله الرواة في الكتب.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٤

ب - هجوم الصليبيين على دمشق وموقف محمود بن زنكي

كانت غزوة الصليبيين على دمشق سنة ٥٤٣ من أهم الأحداث التي وقعت في سوريا في ذلك الوقت، لأن الصليبيين وصلوا إليها، لأول مرة، منذ أن استقر وجودهم في الشرق، وحاصروها وكادوا يأخذونها، لولا أن يقع الاختلاف بينهم ما تسبب في رفع الحصار عنها ورحيلهم، ورغم أن محمود بن زنكي كان موجوداً في حلب إلا أنه لم يهب لنجدة هذه المدينة وتركها تواجه مصيرها لولا أن تتدخل إرادة الله تعالى وتمنع عنها ذلك المصير المؤلم.

ويتحدث أبو يعلى القلانسي عن هذه الغزوة في أحداث سنتي ٥٤٢ و٥٤٣ فيقول: «تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الأفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الأفرنج من بلادهم منهم ألما و الفنش، وجماعة من كبارهم في العدد الذي لا يحصر والعدد التي لا تحزر لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم بالنفير إليها والإسراع نحوها وتحلية بلادهم وأعمالهم خالية سافرة من حمايتها والحفظة لها واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى بحيث يقال إن عدتهم ألف ألف عنان من الرجالة والفرسان، وقيل أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال القسطنطينية واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالماتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم شرعت ولاية الأعمال المصاغبة لهم والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم التي تمنعهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم واشتجرو القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجد، ما أفنى الكثير منهم بموت الجوع والمرض. ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة ٥٤٢ بحيث سكنت النفوس بعض السكون وركنت إلى فساد أحوالهم بعض الركون وخف ما كان من الانزعاج والفرق مع تواصل أخبارهم^(١). وفي أوائل سنة ٥٤٣ تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الأفرنج إلى ساحل البحر وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع من كان بها من الأفرنج، ويقال إنهم بعدما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مئة ألف عنان قصدوا بيت المقدس وقضوا مفروض حجهم وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق الكثير وهلك من ملوكهم من هلك وبقي ألما أكبر ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية والأعمال الشامية إلى أن استقر الحال

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٧

بينهم على منازل مدينة دمشق وحدثتهم نفوسهم بملكيتها وتبايعوا ضياعها وجهاتها وتواصلت الأخبار بذلك وشرع متولي أمرها الأمير معين الدين أنر في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم وتحصين ما يخشى من الجهات وترتيب الرجال من المسالك والمنافذ وقطع مجاري الميرة إلى منازلهم وطم الآبار وتعفية المناهل^(١). وصرفوا أعتهم إلى ناحية دمشق في حشدتهم وحدهم وحديدتهم في الخلق الكثير على ما يقال تقدير خمسين ألف من الخيل والرجل ومعهم من السواد والجمال والأبقار ما كثروا به العدد الكثير ودنوا من البلد وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدومًا فيه مقطوعًا عنه فقصدوا ناحية المزة فخيّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إليه بخيلهم ورجلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣ ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأجناد والترك وأحداث البلد والمتطوعة الجم الغفير^(٢). واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعدد وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين وخيّموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديمًا ولا حديثًا منه، وشرعوا في قطع الأشجار والتحصين بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياح لهول ما شاهدوه ولروع ما عاينوه ما ضعفت به القلوب وخرجت به الصدور ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا من القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين أنر في حربهم بلاء حسنًا، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم إلى مكانه وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم^(٣). وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ والاستنجد وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجالة التركمان تتابع وباكروهم المسلمون وقويت نفوسهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق إلى مستقره هذا اليوم^(٤)، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجثمهم وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقًا بالنشاب وحذفًا بالأحجار، وقد أجمعوا على البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٨

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٨

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٩

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٩٩

والرجل على سبيل المكيدة والمناوشة خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً ويجدون لهروبهم احتيالا، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياغ وجعلوا يرصدونهم في المسالك وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية الخوف إلى جهادهم والمسارعة إلى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار، فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها والهوة التي ألغوا نفوسهم إليها غير الرحيل سحراً يوم الأربعاء التالي، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر لله تعالى ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فله على ذلك الحمد والشكر»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن نفس الواقعة فيقول: «حينما سقطت مدينة الرها عمّ خبر هذه الكارثة المشؤومة كل أنحاء الغرب، وساور القلق البابا (يوجين) الثالث، فأنفذ من ناحيته إلى شتى أقطار الغرب رجالاً ليخبروا الأمراء والشعوب على اختلاف أجناسها وألسنتها بما يكابده إخوانهم في الشرق من صنوف المحن التي تضيق النفس عن احتمالها، كما مضوا يحضونهم على الخروج لمحو عار هذه المصيبة، وكان ممن استجاب لدعوة الخروج أقوى ملوك الأرض وأعظمهم شأنًا (كونراد الثالث) * إمبراطور الرومان، و(لويس السابع) * ملك الفرنجة وزمرة كبيرة من أمراء المملكتين، وخاط الجميع على أكتافهم وثيابهم الصليب، رمزاً لأنهم حجاج أيضاً^(٢). واتخذ العاهلان (كونراد الثالث، ولويس السابع) كل الترتيبات اللازمة لتسيير حكومتي مملكتيهما، وضّم كلّ منهما إلى جيشه من دفعه الشوق الملحّ لأخذ العهد بخلاص روحه، فلما تمت جميع الاستعدادات اللازمة للرحيل خرجوا في شهر مايو سنة ١١٤٦ للميلاد، في رحلة حجهم إرضاء للرب^(٣). وأجمع رأي الملكين على أن يسير كل منهما قدماً مستقلاً عن الآخر، وأن يقود كل منهما عسكره على انفراد، واجتازوا (بافاريا) وعبروا نهر الدانوب ثم نزلوا أرض النمسا، فأفضى بهم السفر لدخول بلاد المجر فاستقبلهم ملكها، ولما غادروا بلاده دخلوا إقليمي (بانونيا) فأوصلهم السير إلى بلاد البلغار، ومن ثم ساروا حتى وصلوا إلى المدينة الملوكية (القسطنطينية)، فاستقبلهم الإمبراطور (مانويل) بالترحاب، ثم عبروا البوسفور ودخلوا إقليم بيثينيا وعسكروا في قرية

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٣٠٠

* كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملك ألمانيا، تولى الملك سنة ١١٣٨ وتوفي سنة ١١٥٢، وكان كونراد الثالث أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج إمبراطوراً منذ أوتو العظيم - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٣٢٨

* لويس السابع، ملك فرنسا تولى الملك سنة ١١٣٧، وتوفي سنة ١١٨٠، وخلفه ولده فليب الثاني الملقب بأغسطس - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٢١٥

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٦٩

(خلقيدونية)^(١) وكان سلطان قونية قد علم، منذ وقت بعيد، بزحف هذين العاهلين، فأفزعهم الخبر، وطلب النجدة من نواحي الشرق، وقام بتحسين المدن والحصون، ووصل الإمبراطور كونراد إلى قرب نيقية، وكان السلطان قد حشد في هذا الموضع أعدادًا كبيرة من الرجال، وكان الإمبراطور كونراد حين غادر القسطنطينية قد طلب من الإمبراطور مانويل تزويده بالمرشدين العارفين بمسالك الطرق، فزوده برجال برهنوا، بعد مدة يسيرة، أنهم ليسوا أهلًا للثقة ولا يمكن الاطمئنان إليهم، لأنهم قادوا الصليبيين في طرق وعرة أفضت بهم إلى نواح أتاحت الفرصة للأتراك لمهاجمتهم وقتل الكثير منهم، وكان هؤلاء المرشدون مدقوعين فيما فعلوا بأمر مولاهم الإمبراطور، أو برشوة رشاهم بها الترك^(٢). وبعد أن تعرض العاهل كونراد لهزيمة على يد الترك وتفرق جيشه، التقى مع ملك فرنسا لويس السابع الواصل لتوّه من فرنسا، ومن ثم عاد كونراد إلى القسطنطينية^(٣)، أما ملك الفرنجة فقد توقف في أفسوس ليمنح جيشه فرصة يستجم بها، ثم رحل منها بصحبة كل جيشه إلى الشرق فوصل بعد عدة أيام إلى مخاضات نهر (مياندر)* الذي تكثر عنده طيور البجع^(٤). ونصب خياهه فهاجمه التُّرك بمجموع غفيرة، واحتدم القتال وفتك الفرنجة بالكثيرين وأسروا أعدادًا ضخمة أخرى، مما حمل بقيتهم على الفرار، واستولى الفرنجة على المعسكر التركي بكل ما فيه^(٥). وأمضى الصليبيون ليلتهم هناك وفي الصباح أخذوا يعدون العدة لمواصلة الزحف، وتقدموا فبلغوا اللاذقية، وكان هناك جبل شديد الانحدار صعب المرتقى يسد الطريق أمام الجيش الزاحف، وفي هذا الجبل هاجم التُّرك وانتصروا عليهم، وضاعت شهرة الفرنجة الرائعة في خطب كان من أشد الخطوب، وكان وقوع هذه المحنة في يناير من سنة ١١٤٨^(٦). وتمكن الملك بالصدفة وليس بمجهوداته أن ينجو وتجمع حوله من نجا من الجيش وساروا حتى بلغوا أضايا، ومن ثم أبحر الملك وجيشه من هناك إلى أنطاكية، فاستقبله أميرها ريموند. وكان أمله معقودًا في أن يستطيع بمعونة الملك الفرنسي وقواته أن يحمل المدن المجاورة له على الخضوع لسلطانه، مثل حلب وشيزر وغيرهما^(٧). وقد فاتح ريموند الملك الفرنسي وأخبره عن خططه تلك لكن الملك الفرنسي كان يريد الذهاب إلى القدس

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ ص ٢٧٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٧٣

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٨١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٨٢

* نهر مايندر، يقع في تركيا جنوب مدينة إزمير.

(٥) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٨٢

(٦) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣- ص ٢٨٦

(٧) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٢٨٩

لإتمام رحلة حجه، ولما رأى ريموند عجزه عن حمل الملك على تأييد مسعاه راح يتآمر ضده جهراً، وما كاد الملك يكتشف مؤامرات ريموند حتى بادربالرحيل عن أنطاكية سراً مع قومه^(١). وترددت الأخبار في مملكة بيت المقدس بأن ملك الفرنجة، غادر أنطاكية وأصبح على مقربة من طرابلس، فأجمع العقلاء الرأي على أن يبعثوا إليه (فولشر) بطرك بيت المقدس للترحيب به ودعوته الدعوة اللائقة به لزيارة المملكة، وما إن وصل إلى عكا حتى نهض في الحال إلى بيت المقدس وهب لاستقباله جميع رجال الدين والشعب، وساروا به إلى المدينة يحيطونه بما يليق به من التوقير والإجلال^(٢). أما الإمبراطور كونراد فقد أمضى فصل الشتاء في القسطنطينية، فلما حان وقت رحيله أعطاه الإمبراطور مانويل كثيراً من الهدايا الرائعة، ثم أبحر هو ومن معه من النبلاء إلى الشرق في أسطول، جهزه لهم الإمبراطور، أرسى بهم في ميناء عكا، حيث تابع زحفه إلى القدس فخرج لاستقباله الملك بلدوين وفولشر، ودخلوا به إلى القدس^(٣) كما أرسى في الوقت ذاته (أبريل ١١٤٨) في ميناء عكا، رجل عظيم القدر هو (ألفونس) كونت تولوز، الابن الأكبر للقائد العظيم كونت ريموند، وترجع بعض عظمة الابن ألفونس إلى مكانته الخاصة، كما يرجع بعضها إلى الذكرى العطرة التي خلفها أبوه، لكن لم تنقض أيام قلائل من وصوله إليها حتى دهمه مرض أسلم أثره روحه^(٤). ومن ثم اجتمع الملكان الوافدان مع ملك بيت المقدس وأشراف دولته للتداول في كيفية توسيع رقعة المملكة واتفقوا على الاجتماع في عكا في يوم معين، ولما جاء اليوم الموعد اجتمعوا هناك حسب ما اتفقوا وراحوا يتداولون أي الخطط الملائمة التي يجب عليهم اتباعها، واجتمع معهم أشراف المملكة من الملمين بدقائق الأمور، وكان على رأس المجتمعين «كونراد» الشهير ملك التوتون وإمبراطور الرومان، وكان في صحبته من كبار أعلام بلاطه الدينيين كل من أخيه «أوتو» أسقف «فراينج» و«ستيفن» أسقف ميتز*، و«هنري» أسقف تول*، وهو أخو «تيري» كونت فلاندرز، و«ثيوفين» أسقف بورتو* التيوتوني المولد، والنائب البابوي الذي رافق الحملة الإمبراطورية بناء على أمر البابا «يوجين»، أما الأمراء المدنيون فكان منهم «هنري» دوق النمسا أخو الإمبراطور، والدوق «جلف» أحد النبلاء البارزين الأقوياء، والأمير «فريدريك» دوق السوابيين والبارفارين العظيم، وهو

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٩٠

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٩٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٩١

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري- ج ٣ - ص ٢٩١

* ميتز، مدينة تقع شمال شرق فرنسا وهي عاصمة منطقة اللورين.

* تول، مدينة فرنسية تقع في منطقة اللورين.

* بورتو، مدينة في البرتغال.

ابن أخي الإمبراطور العظيم «كونراد». كذلك كان هناك «هيرمان» ماركيز فيرونا، و«برتولد» من إقليم أنخس، وهو الذي صار فيما بعد دوق بافاريا، وأيضاً نسيب الأمير واسمه «وليم» مركيز مونتفرات، و«جي» كونتبلاندراس، وكان هذان النبيلان الأخيران من كبار الأمراء البارزين في إقليم «لمبارديا*»، كما شارك في الاجتماع، لويس السابع، وفي صحبته «جودفري» أسقف لانجر*، و«أرنولف» أسقف ليزيبه، و«جي دي فلورانس»، الكردينال في كنيسة روما، وهو مندوب الكرسي البابوي، و«روبرت دي بيرش» أخو الملك، وهنري كونت «تروي» ابن ثيوبولد الكبير، وزوج ابنة الملك^(١) وشارك ملك بيت المقدس «بلدوين» كما حضرت أمه «مليزند» وكان في صحبتهما «فولشر» بطرك بيت المقدس، كما جاء «بلدوين» رئيس أساقفة قيصرية، و«روبرت» رئيس أساقفة الناصرة، و«روجو» أسقف عكا، و«برنارد» أسقف صيدا، و«وليم» أسقف بيروت، و«آدم» أسقف «بانياس» و«جيرالد» أسقف بيت لحم، و«روبرت» رئيس الفرسان الداوية، و«ريموند» رئيس الفرسان الاستبارية^(٢). وكان من بين النبلاء العلمانيين «مناسيس» الكونستابل الملكي، و«فيليب» النابلسي، و«أليناندوس» من طبرية، و«جيرارد» صاحب صيدا، و«ولتر» صاحب قيصرية، و«باينس» صاحب الإقليم الواقع وراء الأردن، و«باليان» الكبير، و«همفري» صاحب تورون، و«جي» صاحب بيروت، وكثيرون غيرهم^(٣). وقد اجتمع هؤلاء ليقرروا أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا رقعة المملكة اتساعاً، واستقر الرأي على أن أحسن ما يفعلونه هو محاصرة مدينة دمشق، ولما اتفقوا على هذا القرار نادى المنادي بأن يكون كل أمير على أتم أهبة لقيادة فيلقه في اليوم المحدد للزحف. واحتشدت جميع قوى المملكة الحربية من المشاة والفرسان والأهالي والحجاج على السواء، كما جاء العاهلان العظيمان وكان معهما قواتهما، حتى إذا كان اليوم الخامس والعشرون من مايو ١١٤٨ من مولد المسيح، تقدمت الجيوش المتحالفة على الصورة المتفق عليها رافعة أمامها الصليب، وتقدمت إلى مدينة طبريا، ومن هنا سلك الجيش بأجمعه أقصر الطرق الواقعة على امتداد بحر الجليل والمؤدية إلى بانياس، وهنا تباحت القادة مع رهط من الناس العالمين ببواطن الأمور في دمشق وما جاورها، وبعد استشارة زعمائهم قرروا أن أحسن السبل لمضايقة دمشق هي البدء بالاستيلاء على البساتين المحيطة بمعظم البلد، والتي يعزى إليها الكثير من حمايتها، فإن أمكن أخذ هذه البساتين لم يعد

* لمبارديا، إقليم يقع في شمال إيطاليا.

* لانجر، مدينة تقع شمال شرق فرنسا.

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية-وليم الصوري- ج ٣- ص ٣٠٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية-وليم الصوري- ج ٣- ص ٣٠٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية-وليم الصوري- ج ٣- ص ٣٠٧

شك في سهولة الاستيلاء على المدينة ذاتها^(١). وتابع الصليبيون زحفهم فعبروا جبل لبنان الواقع بين بانياس ودمشق، وانحدروا منه إلى السهل الموجود عند قرية داريا التي تبعد عن المدينة أربعة أميال أو خمسة، وكان من اليسير عليهم وهم في هذه البقعة رؤية العاصمة والوادي المحيط بها^(٢). ولما كانت داريا قريبة من دمشق، فقد صف القواد عساكرهم عندها للقتال وأنزلوا كل كتيبة في مكانها المخصص لها للزحف، وكان ملك بيت المقدس في المقدمة بمن معه من الجند، وأما ملك الفرنجة فكان التالي له، وكان مكانه القلب كي يعين الذين أمامه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وكان الإمبراطور كونراد في المؤخرة، من أجل صدّ العدو إن هاجم العسكر من الخلف، وبذلك تكون القوات الأمامية في مأمن من هجمة مباغتة تأتيهم من الخلف، وحاولت هذه الجيوش الاقتراب من المدينة قدر استطاعتهم، وكانت البساتين تمتد إلى الغرب وكذلك إلى الشمال مسافة خمسة أميال أو أكثر باتجاه لبنان، وهي أشبه ما تكون بغابة كثيفة تكتنف المدينة من كل جوانبها، كما أن هذه الأحراج كانت محاطة بأسوار من الطين لبيان حدود كل بستان، ولصدّ من تحدّثه نفسه باقتحامها والاعتداء عليها، وأما استعمالهم الطين فراجع لندرة الصخور والحجارة في تلك الناحية، وكانت هذه الأسوار تجعل صاحب كل بستان من هذه البساتين عارفاً لبستانه، وجعلوا بين بعضها والبعض الآخر ممرات وطرقاً عامة شديدة الضيق، لا تتسع إلا بالقدر الذي يسمح للمزارعين والحراس بالسير عبرها مستصحبين الدواب المحملة بالفاكهة إلى المدينة، وتعمل هذه البساتين على حماية المدينة حماية عظيمة ذلك أن العدد الضخم من الأشجار المزروعة بعضها إلى جانب البعض الآخر كانت تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، على المرء الاقتراب من دمشق من ذلك الجانب، لكن على الرغم من هذه الصعوبة فقد صمم القادة الصليبيون على السير بالجيش عبر هذه الأحراج ليصلوا إلى المدينة، وكان يحملهم على ذلك أمران: أولهما هو أن ضياع معظم الأماكن الحصينة من أيدي الدماشقة، سوف ييسر على الصليبيين التغلب على ما سواها، وأما ثانيهما فنابع من رغبة القادة الصليبيين في توفير الفاكهة والماء للعسكر^(٣). وكان ملك بيت المقدس أول من قاد العسكر خلال هذه الدروب الضيقة رغم ما صادفه الجيش من صعوبة بالغة في التقدم، إذ كانت هذه المسالك الضيقة تعطل مسيره فيها، كما كانت تزعجه أحياناً أخرى مكائد الأعداء الكامنين في الأجسام، مما يحمله رغم أنفه على الاشتباك معهم في القتال حيث يجدهم قد سدّوا المسالك في وجهه واستولوا على

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٠٨

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٠٨

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١١

الدروب الملتوية، هذا إلى جانب تربص أهل البلد له في الشعاب في محاولة منهم لقطع الطريق عليه بالهجمات يشنونها عليه خفية وعلانية^(١). وكانت ترتفع في هذه البساتين ذاتها المباني الشاهقة التي يقوم على حراستها ويتولى الدفاع عنها رجال قد تلاصقت أملاكهم بعضها ببعض، فتعاهدوا عهدًا وثيقًا أن يبذلوا النفس والنفيس دفاعًا عنها، واستفادوا من هذه النقاط فاستمروا يطلقون منها وابلاً لا ينقطع من السهام وغيرها مما أدى إلى حماية البساتين حماية صحيحة، ومنعت أي أحد من الاقتراب منها كما أن السهام من بعيد جعلت هي الأخرى السير شديد الخطورة على من يريد السير هناك، كما استخفى رجال على طول السور الداخلي وراحوا يطلقون من الفجوات الصغيرة الموجودة بكثرة في الأسوار فيطعنون المارة بالرمح التي في أيديهم، وحين أدرك الصليبيون حقيقة الموقف ضاعفوا من ضغطهم حتى حطموا المتاريس واستولوا على البساتين، وقتلوا وأسروا من وجدوهم في المخابئ والبيوت، فلما علم بذلك أهل البلد الذين جاؤوا للدفاع عن البساتين انكفأوا وجلين حتى لا يصيبهم نفس الضر، وهربوا إلى المدينة^(٢). وأدرك الجميع أن الصليبيين سيتقدمون من البساتين لمحاصرة المدينة وحينذاك أسرع قوات دمشق من الفرسان ومن حلفائهم الذين جاؤوا لمساعدتهم وانطلقوا جميعاً ناحية النهر الذي يشق المدينة، طامعين في أن يتمكنوا بفضل سهامهم ومنجنيقاتهم أن يحولوا بين الصليبيين وبين بلوغ النهر، ويمنعوهم من إطفاء ظمأهم الذي زاد من شدته ما تحمّله من المشاق، وما أرهقتهم به سحب التراب التي أثارها سنايب الخيل وأقدام الرجال، كما حملهم منظر القوات الكثيرة المتجمعة على شاطئ النهر على أن يتوقفوا قليلاً، لكنهم سرعان ما جمعوا صفوفهم وزادهم الموقف جرأة وإقداماً فبذلوا كثيراً من المحاولات للسيطرة على النهر فلم تجدهم محاولاتهم هذه نفعاً، وبينما كان الملك وفرسانه يجهدون أنفسهم في بلوغ النهر، إذا بالإمبراطور كونراد يتساءل، لماذا لا يتقدم الجيش، فأعلموه أن العدو قد استولى على النهر، ومنع الصليبيين من العبور، فانطلق الإمبراطور بفرسانه حتى جاوزوا قوات الملك ووصلوا إلى المقاتلين الذين كانوا يبذلون جهدهم للاستيلاء على النهر، وحينذاك ترجل الجميع عن جيادهم جرياً على عادة التيوتون* إذا اشتدت بهم الأزمة وأصبحوا عسكرياً مشاة، ومدّوا دروعهم أمامهم، واشتبكوا مع العدو بالأيدي، وتلاحموا بالسيوف^(٣). وصمد الدماشقة بادئ الأمر صمود الأبطال، وحاربوا ببسالة، لكن سرعان ما تسرب

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١١

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٢
* التيوتون. Teutons، اسم استخدم للإشارة إلى الشعوب الجرمانية

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار«الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٣

إليهم الوهن فلم يعودوا قادرين على تحمل المقاومة، وتخلوا عن النهر ولاذوا بالفرار وهربوا سراعًا إلى المدينة، فسيطر الصليبيون على ضفتي النهر، وانطلقوا فنصبوا خيامهم حول المدينة، وتمتعوا بالنهر وبالبساتين التي استولوا عليها بالقوة، واشتدت الدهشة بأهل دمشق لما شاهدوه من كثرة أعداد الصليبيين، وخامرهم الشك فيما إذا كانت قوتهم كافية للصمود أمامهم وكذلك حملهم خوفهم من أن يباغتهم عدوهم بالهجوم عليهم، فاتخذوا من الإجراءات ما يتسم باليأس، فسدّوا جميع شوارع المدينة المؤدية إلى معسكرات الصليبيين بجذوع الأشجار شديدة الضخامة، ونظرًا لأن أملهم الوحيد كان يتركز في أن تسعفهم قوتهم بالهرب في الاتجاه المعاكس مع زوجاتهم وأولادهم في الوقت الذي يكون فيه الصليبيون منصرفين إلى إزالة هذه الحواجز^(١). وبدا للعيان أن المدينة لا بد ساقطة في أيدي الصليبيين، وقد ران اليأس على قلوب الناس وأيقنوا أن قد عدموا القدرة على المغادرة، وبينما هم يستعدون للخروج من المدينة بكل متاعهم أملًا منهم في النجاة بأنفسهم. وفي هذه اللحظة استغل الدماشقة الطمع الذي كان مستحوذًا على نفوس بعض رجالنا فحاولوا السيطرة على قلوب من لا يطمعون في التغلب عليهم بالقهر، ونجحت محاولاتهم الماكرة في أن يحملوا نفرًا من أشرفنا على رفع الحصار عن البلد بعد أن بذلوا لهم المال الكثير الذي جمعه لهم، حتى قاموا بدور يهوذا الخائن، فسمح هؤلاء الرجال لأنفسهم بالنزول إلى الدرك الأسفل من الجريمة بسبب ما جلبوا عليه من الطمع الذي هو رأس كل الشرور، ومن جراء الرشوة التي أفسدت ضمائرهم والأمانى الكاذبة التي طمعوا في تحقيقها^(٢). لذلك فإن عروضهم الدنيئة حملت الملك والأمراء والحجاج على أن يخرجوا من البساتين، وأن ينطلقوا بجيوشهم إلى الجانب الآخر من المدينة وتذرعو بذرائع واهية لإخفاء جرمهم، فادعوا أن الجانب الآخر المطل على الجنوب والشرق خال من الأحرار التي تحمي، كما أنه لا يوجد به نهر أو خندق يمنعهم من الاقتراب من التحصينات، وأذاعوا أن السور المنخفض المبني من اللبن لن يستطيع الصمود أمام أول هجوم عليه، وأنهم لن يكونوا في هذا الموضع في حاجة ماسة إلى الآلات الحربية أو بذل مجهودات عنيفة، لأن السور لا بد أن ينهار عند تعرضه لأول هجمة لهم عليه، ولن يكون من الصعب عليهم أن يشقوا لأنفسهم طريقًا إلى داخل البلد^(٣). فلما سمع ملكا الجيوش المتحدة وجميع قوادها هذا الكلام لم يرتابوا فيه، إذ سرعان ما أدخلوا الموضع الذي حصلوا عليه بشق الأنفس وتكبدوا فيه هلاك الرجال، وهكذا تحولت جميع الكتائب من هذا الجانب بتوجيه من

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٤

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣ - ص ٣١٥

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٥

الخونة، وخرب الجند مخيماتهم في الجانب الآخر من المدينة، لكن سرعان ما اتضح لهم أن هذا الموضع الجديد بعيد كل البعد عن بساتين الفاكة الكثيرة وعن الماء الوفير، وأن كل ما لديهم من الطعام أخذ في النقصان، وحينذاك أدركوا أن الخيانة أتت أكلها، وتناقصت المؤنة في المعسكر الصليبي الذي كان أصحابه قبل زحفهم على ثقة من أن لن يطول الوقت بهم ليتم الاستيلاء على المدينة فلم يحملوا من الزاد إلا ما يكفيهم أيامًا قلائل^(١). أدى هذا الوضع المضطرب الطارئ إلى أن يساور الشك نفوس الصليبيين فأكثروا من المشاورات فيما بينهم سرًا وعلانية يتدبرون فيها أي طريق ينبغي عليهم سلوكه في هذا الموقف، فأدركوا أن رجوعهم إلى المكان الذي كانوا فيه صار أمرًا صعبًا بل مستحيلًا، ذلك لأنه ما كاد الصليبيون يرحلون عنه حتى بادر الأعداء إلى دخول المدينة وأقاموا تحصينات أقوى من تحصيناتها السابقة، كما عمدوا إلى الطرق التي سبق للصليبيين الدخول منها فسدوها بمتاريس من الكتل الخشبية الضخمة والأحجار الثقيلة كما أقاموا هناك طائفة كبرى من رماة النبال ليحولوا دون تمكن العدو من البلد من الناحية التي يعسكرون فيها لعدم وجود الطعام الكافي بين أيديهم، كما عمدوا، من ناحية أخرى، إلى ما فيه تعطيل الهجوم عليهم من الموقع الحالي^(٢)، وشرع الأمراء والحجاج في التشاور فيما بينهم، وتحلى لهم بأجلى صورة خيانة من كانوا قد وثقوا في إخلاصهم فأستأمنوهم على حياتهم ومصالحهم، فتقرزت نفوسهم اشمئزازًا من الخيانة التي جازت عليهم، ولما أيقنوا بأن مشروعاتهم مقضي عليه بالفشل الذريع فقد صمموا على أن ينفضوا أيديهم منه وأن ينكفئوا عائدين إلى ديارهم، واضطر الملوك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد ضخمة إلى الارتداد من دون أن يحققوا هدفهم المنشود^(٣). فعادوا إلى المملكة سالكين نفس الطريق الذي جاؤوا منه يجللهم الخزي ويسيطر عليهم الخوف، وأصبحوا، منذ ذلك الحين وطوال بقائهم في الشرق بل وبعد ذلك أيضًا، ينظرون بعين الريبة والشك إلى كل ما يفعله قادتنا، واعتبروا، وحق لهم ذلك، أن جميع خطط هؤلاء الكبار إنما تنطوي على الخيانة ولم يعودوا يكثرثون قيد أنملة بأحوال المملكة، وظلت الأهوال التي كابدوها عالقة بأذهانهم حتى بعد رجوعهم إلى أوطانهم، ولم تكن تلك النظرة قاصرة على هؤلاء الحجاج فحسب بل جاوزتهم إلى غيرهم حتى من لم يساهموا في الحملة، فتضاءل حبههم للمملكة، وترتب على ذلك أن لم يعد يقوم برحلة الحج بعدئذ، إلا أفراد قلائل وأقوام وهنت حماستهم، ومن يجيئون لا يطيلون مكثهم

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٧

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية». وليم الصوري، ج ٣ - ص ٣١٧

حتى لا يدخلوا نفس التجربة وتصيبهم نفس المصائب»^(١).

ويقول وليم الصوري: «إنني كثيراً ما تحدثت إلى رجال عقلاء ممن لازالت ذاكرتهم تعي أخبار تلك الأيام، فوجدت اختلافاً كبيراً بين الروايات حول فشل حصار دمشق، ونقول واحدة منها، إنه لما صارت كتائب الصليبيين أمام دمشق واحتلت الغابات والنهر بالقوة وفرضت الحصار على البلد، جاء كونت فلاندرز إلى كل من الإمبراطور كونراد، وملك الفرنجة لويس السابع، وطلب منهما أن يقطعاه مدينة دمشق بعد إتمام فتحها، وقد استجاب هذان العاهلان لما طلبه الكونت، وعندما عرف لوردات المملكة الصليبية بالأمر غضبوا وفضلوا أن تبقى دمشق بين أهلها من أن يحصل عليها كونت فلاندرز، وهناك رواية أخرى تقول، إن أمير أنطاكية هو الذي أفشل الحصار بسبب كرهه لملك الفرنجة، وتوجد رواية ثالثة تقول، إنه لم يحصل شيء من هذا القبيل سوى أن العدو رشى أشخاصاً معينين بقدر كبير من المال حتى ينتهي الأمر إلى هذه الكارثة الفادحة، ومن الأمور العجيبة ما يقال إنهم تبينوا بعد حين أن كل هذه النقود التي حصلوا عليها كانت نقوداً مزيفة لا تساوي شيئاً^(٢). وهكذا رجع الصليبيون وفرح الدماشقة لرحيلهم، وبدأ وضع اللاتين يتدهور في الشرق بصورة واضحة للعيان، منذ ذلك الحين، ورأى خصومنا ما آلت إليه جهود أعظم ملوكنا وقوادنا من الفشل وذهاب محاولاتهم أدراج الرياح فأخذوا يسخرون من تدهور بأس الذين يمثلون الركن الركين للمسيحيين، ويهزأون من مجدهم المنهار، ولا يتأخرون عن مهاجمتهم مهاجمة شرسة لم تعهد فيهم من قبل»^(٣).

ومما تقدم يتبين الاختلاف بين رواية القلانسي وبين رواية وليم الصوري حول هذه الواقعة، فالقلانسي تحدث بشكل مقتضب ولم يوضح سبب هذه الحملة الصليبية الجديدة، وادعى أن التُّرك هزموا الصليبيين، أما وليم الصوري فقد ذكر أن سقوط إمارة الرها كان هو الدافع الرئيسي لتلك الحملة، وأن الصليبيين لم يهزموا بل حدثت مؤامرة قام بها ملك بيت المقدس أدت في النهاية إلى فشل الصليبيين واندحارهم عن دمشق. وتبدو رواية الصوري أكثر صواباً وترجيحاً من رواية القلانسي، لأن تلك الجيوش الصليبية التي احتشدت أمام أبواب دمشق ما كان بوسع التُّرك الحاكمين فيها الانتصار عليها لوحدتهم، بل كان الأمر يتطلب جيوشاً ضخمة مماثلة لجيوش الصليبيين، ويغيب محمود بن زنكي بشكل كامل عن هذا المشهد، فأين كان ولماذا لم يهَبَّ بجيشه لنصرة دمشق

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٧

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣١٩

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٢

على عدوها الصليبي، ولماذا لم نسمع به إلا بعد زوال الحصار وجلاء الصليبيين حيث يذكر القلانسي، أن نور الدين التقى مع معين الدين أنرقرب دمشق عندما جاء للإنجاد لها في أواخر شهر ربيع الآخر، بينما كان هجوم الصليبيين على دمشق في ٦ ربيع الأول، كما يذكر القلانسي، وهذا يؤكد بكل جلاء أنه تقاعس عن أداء واجبه في قتال الصليبيين الذين لو نجحوا في أخذ دمشق لكانوا سيطروا على كامل سوريا. ويتميز وليم الصوري عن القلانسي وعن سواه من مؤرخي الشرق في أنه قدم وصفاً دقيقاً وجميلاً لدمشق في ذلك الوقت، حيث كان يحيط بها من جهة الغرب والجنوب والشمال الغربي حقول وبساتين مليئة بأنواع الفاكهة المختلفة، وأن تلك البساتين كانت مثل الغابات لشدة كثافتها وخضرتها، وكان يوجد بينها ممرات ضيقة هي عبارة عن طرق يمشي عليها الفلاحون إلى بساتينهم وحقولهم.

ج- منازل حصن العريمة

يتحدث القلانسي عن منازل نور الدين بن زنكي لحصن العريمة فيقول: «واتفق عقيب هذه الرحمة (ارتداد الصليبيين عن دمشق) اجتماع معين الدين أنرمع نور الدين صاحب حلب عند قربه من دمشق للإنجاد لها في أواخر شهر ربيع الآخر من السنة وأنها قصدا الحصن المجاور لطرابلس (العريمة) وفيه ولد الملك الفنش أحد ملوك الأفرنج، وكان الملك قد هلك بناحية عكا ومعه والدته وجماعة وافرة من خواصه وأبطاله ووجوه رجاله فأحاطوا به وهجموا عليه وقد كان وصل إلى العسكرين النوري والمعيني، فرقة تناهز الألف فارس من عسكر سيف الدين غازي، ونشبت الحرب بينهم فقتل أكثر من كان في الحصن وأسروا وأخذ ولد الملك المذكور وأمه ومن أسرمعهما، وانكفاً معين الدين إلى دمشق»^(١).

ويذكر ابن الأثير هذه الحادثة في سنة ٥٤٣ هـ فيقول: «لما سار الفرنج عن دمشق، رحل نور الدين إلى حصن العريمة*، وهو للفرنج، فملكه، وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام، كان معه ولد الفنش، صاحب طليطلة*، وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج، وكان جده هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين،

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠١

* يخلط ابن الأثير ويقدم رواية مغلوطة عن ألفونسو الذي يسميه «الفنش» ويزعم أن هذا ولد «الفنش» ألفونسو الذي أخذ طليطلة، وأن جده هو الذي أخذ طرابلس الشام، وفي الحقيقة، أن ألفونسو الذي أخذ طليطلة هو ألفونسو السادس، وهذا كان ملك ليون وقشتالة. وليس له علاقة بريموند دو تولوز الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى واحتل الكثير من القلاع والحصون في الشرق وركز على مدينة طرابلس، وريموند دو تولوز (Raymond Toulouse) أو ريموند دو سان جيل (Raymond de Saint-Gilles)، هو دوق إقليم الناربون «Narbonne» في جنوب فرنسا وماركيز قوطيا «Gothie» وبروفانس «Provence».

* حصن العريمة، هو حصن يقع قرب قرية الصفصافة على بعد نحو ١٥ كيلومتراً جنوب طرطوس، والحصن ما زالت بعض آثاره قائمة، لكنه تعرض للتخريب

فأخذ حصن العريمة، وملكه، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص، فأرسل هذا إلى نور الدين محمود، وكان قد اجتمع مع معين الدين أنر في بعلبك، وقال له ولعين الدين، ليقصدا حصن العريمة، ويملكا ولد الفنش، فسارا إليه مجدين في عساكرهما، وأرسلا إلى سيف الدين، وهو بجمص، يستنجدانه فأمدّهما بعسكر كثير مع الأمير عز الدين أبي بكر الديبسي، صاحب جزيرة ابن عمرو وغيرها، فنازلوا الحصن، وحصروه وبه ولد الفنش، وامتنع به فزحف المسلمون إليه غير مرة، وتقدم إليه النّقابون فنقبوا السور، فاستسلم، حينئذ، من به من الفرنج فملكه المسلمون، وأخذوا كل من به من فارس وراجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين»^(١).

ولا يذكر ولیم الصوري هذه الواقعة أبدًا، لأنها لم تحدث أصلاً، لأنه لا يعقل أن يستمع نور الدين إلى نداء أمير طرابلس وينفذ له رغبته في التخلص من عدوله كان قد أخذ منه قلعة العريمة، وأيضًا لا يعقل أن يقوم نور الدين بقيادة قوات ضخمة لينازل هذه القلعة ويحتلها ويعود من حيث أتى لتعود تلك القلعة إلى أمير طرابلس ؟. ولا شك أن هذه الواقعة مختلفة وأن الذي اختلقها أراد من خلالها أن يبين أن نور الدين قد انتقم من الصليبيين الذين غزوا دمشق وأنه قتل ولد الفنش أحد قادة تلك الحملة، وفي الحقيقة أن نور الدين لم يتحرك من حلب إلا عندما سمع أن الصليبيين رحلوا عن دمشق، وقد وصل إليها واجتمع مع أنر لبعض الوقت، وخصوصًا أنه كان قد تزوج ابنته، ومن ثم عاد إلى حلب.

د- منازلة حصن إنب *

يقول أبو يعلي القلانسي في أحداث سنة ٥٤٤هـ: «تواصلت كتب نور الدين صاحب حلب إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية جمع إفرنج بلاده وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقاءه وكف شره وأن الحاجة ماسة إلى معاضدته بمسيره بنفسه وعسكره إليه ليتفقا بالعسكريين عليه، فاقتضت الحال أن ندب الأمير معين الدين الأمير مجاهد الذين برّان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وتوجه في الأول من صفر من تلك السنة، ولما اجتمع مع نور الدين ما استدعاه من خيل التركمان والأطراف ومن وصل إليه من عسكر دمشق قويت بذلك نفسه وكثف جمعه ورحل إلى ناحية الأفرنج بعمل أنطاكية بحيث صار عسكره يناهز الستة آلاف فارس سوى الأتباع، فلما حصلوا

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - المجلد التاسع - ص ٣٥٥
* انب، قرية سورية تتبع ناحية محمبل في منطقة أربحا في محافظة إدلب.

بالموضع المعروف «إنب» * نهض نور الدين في العسكر نحوهم، ولما وقعت العين على العين نشب القتال وأطبق المسلمون عليهم، وأحكموا السيوف فيهم ثم انقشع القتام وقد صار الأفرنج على الصعيد مصرعين وبه معقرين وبحريهم مخذولين بحيث لم ينج منهم إلا النفر اليسير ممن ثبطه الأجل وأطار قلبه الوجل ووجد اللعين البرنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه وحمل إلى نور الدين^(١). وكان هذا اللعين - كما يقول القلانسي - من أبطال الأفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلق مع اشتهاار الهيبة، وذلك في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤هـ، ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكيا وقد خلت من حماتها وأبطالها ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم^(٢). وترددت المراسلات بين نور الدين وبينهم في طلب التسليم إلى نور الدين وأمانهم وصيانة أحوالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم، فحملوا ما أمكنهم من المال والتحف وطلبوا مهلة فأملهم نور الدين وأجابهم إلى ما سألوا ورتب بعض العسكر للإقامة عليها، ثم سار هو ببقية العسكر إلى ناحية أفاميا، وحين علم من بها هلاك الأفرنج، التمسوا الأمان فأمنهم وسلموه البلد، وانكفأ في عسكره إلى ناحية الساحل إلى صوب أنطاكيا للإيقاع بها، لكن الأفرنج بها أحجموا عن القتال، فهادنهم على أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكيا لهم، ورحل عنها إلى جهة غيرهم بحيث إنه ملك في هذه النوبة ما حول أنطاكيا من الحصون والقلاع والمعازل^(٣).

ويذكر ابن العديم هذه الواقعة بطريقة مختلفة عن ابن القلانسي فيقول: «غزا نور الدين محمود بن زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكيا، وقصد حصن حارم وخرب ربهضه ثم رحل إلى حصن إنب، فحصره، فاجتمع الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكيا وحارم، وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن إنب، فلقىهم الأربعاء حادي وعشرين من صفر سنة ٥٤٤هـ، واقتتلوا قتالاً عظيماً، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم خلق كثير، وكان ممن قتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكيا، وكان من عظماء الفرنج وأقويائهم^(٤).

ويتحدث ولیم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «لم يكد العاهلان كونراد الثالث ولويس السابع يرحلان حتى قام نور الدين بن زنكي فجمع جيشاً ضخماً من كافة أرجاء الشرق وعزم على تطويق القلعة المعروفة باسم قلعة (إنب) ولما

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠٥

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠٦

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٣٤

أيقن ريموند أمير أنطاكيا من قيام نور الدين بهذا العمل هب فوراً غير منتظر قدوم الفرسان الذين كان قد أمر باستدعائهم واندفع في طيش إلى ذلك الموضع مع حفنة صغيرة من الرجال، ولما سمع نور الدين بأن الأمير ريموند قادم لصده، رفع الحصار وارتد إلى موضع آمن ظل به حتى تأتية الأخبار عن نوع العسكر الذي مع الأمير، وعما إذا كانت هناك إمدادات إضافية في طريقها إليه، وانطلق ريموند غير متحرز ولا حذر، وعلى الرغم من وجود عدة قلاع ملك يمينه على مقربة منه يستطيع البقاء فيها آمناً مع جنوده إلا أنه أثر أن يعسكر في العراء حتى لا يظن الناس أنه ارتد، ولو مؤقتاً، خوفاً من نور الدين، ولذلك فإنه أثر المجابهة ولقاء الخصم الذي أدرك عدم وصول نجدة لعدوه، وأن الأمر سيسرله لمواجهته، وما كاد المساء يحل حتى أحاط جيش نور الدين بريموند ومن معه، وأطل الصباح فإذا بهذا الأخير يجد نفسه محاصراً بالعدو من كل جانب، غير أن ذلك لم يمنعه من تنظيم صفوفه للقتال، وتهيئة فرسانه لمعركة قريبة، وهكذا بدأ القتال، ولم يستطع جنوده الصمود أمام زخوف خصمه الكثيرة، فولوا هارين ولم يبق سواه مع نفر قليل فحارب بهم بشجاعة ثم جاءت شكة سيف جندلته صريعاً فحز الترك رأسه وذراعه اليمنى وحملوهما وتركوا بقية جثته المشوهة بين جثث القتلى في ساحة المعركة^(١). وكان ممن لقي حتفه في هذه المعركة الفارس العظيم (رينو المرعشي) الذي كان كونت الرها قد زوجه ابنته، كما هلك الكثير غيره من النبلاء، لكن ضاعت أسماؤهم، ويعرف المكان الذي قتل فيه باسم «النبع المسور» ويقع بين مدينة أفاميا وقلعة الروج، وقد عثروا على جسد ريموند بين القتلى وحملوه إلى أنطاكيا ودفن في احتفال مهيب وسط أسلافه في ساحة كنيسة (أمير الحواريين)^(٢). ولما هلك ريموند أمير البلاد ومعظم عسكره في ساحة الوغى رأى ابن زكي أن المنطقة بأكملها قد صارت تحت رحمته فبادر إلى إرسال جنده يجتاحون البلاد ويعيثون فيها بصورة عدوانية، حتى إذا مرّ هو بنفسه قرب أنطاكيا أحرق كل ما صادفه في تلك المنطقة، ثم يمم وجهه شطر دير للقديس سيمون يقع على الجبال الموجودة بين أنطاكيا والبحر. فسار هناك السيرة التي تملئها عليه أهواؤه وقسا على الأهالي في معاملته لهم، ثم انحدر بعدئذ إلى البحر الذي كانت هذه أول مرة في حياته، يراه فيها، وأراد القيام بشيء يشير إلى أنه غزا كل شيء، فسبح فيه على مرأى من جنده، حتى إذا حان موعد رجوعه استولى على قلعة حارم ثم زودها بالسلاح وجهزها بالميرة والعسكر لتكون قادرة على الصمود أياماً ودانت البلاد لنور الدين وذلت أمامه^(٣).

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٣

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٢٥

ومما تقدم يتبين أن هناك تشابهاً بين الروايات الثلاث حول حدوث تلك الواقعة، لكن القلانسي يختلف عن ابن العديم وعن وليم الصوري في أن أمير أنطاكية هو الذي غزا بلاد حلب، فخرج محمود بن زنكي لصدّه، لكن اتفاق رواية ابن العديم ورواية وليم الصوري حول هذه النقطة يؤكد أن محمود بن زنكي هو الذي بادراً إلى غزو إمارة أنطاكية الصليبية، وأنه حاصر حصن إنب، فسار أمير أنطاكية الصليبي لصدّه عنه، لكن ابن العديم روى رواية مختصرة، في حين أن المؤرخين الآخرين قد فصلوها وخاصة وليم الصوري الذي أسهب في الشرح حولها، وتبدو رواية هذا الأخير هي الأكثر دقة وموضوعية.

هـ- بدعة نور الدين في حلب

كانت مملكة حلب ذات طابع شيعي، ذلك أن غالبية السكان في المدينة والأعمال التابعة لها كانوا من الشيعة، ولما انتهى الحكم العربي من حلب بمقتل الأمير شرف الدولة مسلم بن عقيل سنة ٤٧٨، على يد سليمان بن قتلمش، دخلت حلب في أملاك الترك، فقد جاءها ملكشاه بن ألب أرسلان وجعل عليها أوق سنقر قسيم الدولة أميراً. وسار أوق سنقر في حلب سيرة حسنة وصالحة وعامل الناس بالحسنى، وكان الأذان الجعفري الذي يتضمن عبارة (حي على خير العمل*) قد ظل مستمراً منذ أن أمر به سعد الدولة بن حمدان. ولما قتل عماد الدين زنكي وورث ولده محمود حلب، سار فيها سيرة مخالفة لسيرة أبيه وجده، حيث قرر إلغاء الأذان السائد في مساجدها بحجة أن فيه بدعة.

ويروي ابن العديم في أحداث سنة ٥٤٣ فيقول: «وشرع نور الدين في تجديد المدارس والرباطات بحلب، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها، واستدعى برهان الدين أبو الحسن علي بن الحسن البلخي وولاه تدريس المدرسة المعروفة بالحلويين، فغير الأذان بحلب، ومنع المؤذنين من قولهم (حي على خير العمل) وجلس تحت المنارة ومعه الفقهاء وقال لهم: (من لم يؤذن الأذان المشروع فألقيه من المنارة على رأسه)»^(١).

ويقول أبو يعلى القلانسي: «في رجب في هذه السنة «٥٤٣» ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين أتاك أمر بإبطال (حي على خير العمل) في أواخر تأذين الغداة والتظاهر بسب الصحابة رضي الله عنهم وأنكر ذلك إنكاراً شديداً

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٣٢

* برهان الدين أبو الحسن بن علي البلخي، شيخ الحنفية بدمشق، دفن بمقابر باب الصغير.
* يقول علماء الشيعة: إن «حي على خير العمل» واجبة الذكر في الأذان، حيث أمر أنتمهم بها، ويروون أحاديث تثبت وجود هذه العبارة على عهد الرسول محمد وخليفته أبي بكر وصدر من خلافة عمر. - نيل الأوطار - كتاب الصلاة - ص ٢٥٣.

وحظر المعاودة إلى شيء من هذا المنكر، وساعده على ذلك الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي الحنفي وجماعة من السنة بحلب. وعظم الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع وضاعت له صدورهم، وهاجوا له وماجوا ثم سكنوا وأحجموا بالخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة»^(١).

ومن هاتين الروايتين يتبين أن محمود بن زنكي قد تجنى على حلب وغير تاريخها وثقافتها الخاصة، وقهر سكانها الشيعة بغير ذنب اقترفوه وكانوا هم الغالبية فيها وفي أعمالها. ولم يكن بوسع الشيعة أن يفعلوا شيئاً بسبب غياب النصير، فالبلاد كانت قد أصبحت كلها، تقريباً، بيد الترك، ولذلك خضع غالبية الحلبيين مكرهين خوفاً من القتل والتشريد على يد الترك الحاكمين. أما الذين رفضوا فعل محمود بن زنكي فقد هجروا حلب باتجاه جبال لبنان، تحديداً، حتى لقد اكتظت هذه الجبال بالوافدين، وقامت قرى كثيرة حديثة بين القرى القديمة.

و- نور الدين ودمشق

وضع نور الدين عينه على مملكة دمشق منذ أن وطأت قدماه أرض سوريا، لكنه كان يعلم مناعة هذه المملكة بسبب رجلها القوي معين الدين أنر، وبسبب كثرة البلاد التي تتبع لها، لكن الأتابك أنرتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٤، فضعف أمر دمشق لأن الملك مجير الدين أبى بن جمال الدين محمد بن بوري كان ضعيفاً، وكان قد فوّض أمر الملك إلى الأتابك. وقد استغل نور الدين بن زنكي الفرصة واندفع ليحقق حلمه بالسيطرة على هذه المملكة. وأدرك أعيان دمشق حقيقة نواياه، فراسلوا الصليبيين واتفقوا على أن يكونوا يداً واحدة في وجه من يقصدهم.

ويروي أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٤٤ فيقول: «وكان الخبر اتصل بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحورانية، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم ما عزم عليه من الجهاد ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس، فاحتجّ عليه وغولط^(٢)»، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج ييوس*. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا مقصده، وقد كانوا راسلوا الأفرنج بخبره وقرروا معهم الإنجاد عليه، ووصلت طلائع الأفرنج إلى بانياس، فرحل عن مكانه ونزل على جسر الخشب، وراسل مجير الدين وقال له: (إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠١

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٠٨

* هذه العبارة تدل على أن نور الدين لم يكن صادقاً في ادعائه أنه يريد مجاهدة الصليبيين، لأن أهل دمشق كانوا أدري منه وكانوا يعلمون أن الصليبيين لم يهاجموا أملاكهم.

* مرج ييوس. يقع غرب دمشق بالقرب من قرية جديدة ييوس.

المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج وعدم الناصر لهم لا يسعني مع إعطائي الله من الاقتدار على نصرته المسلمين ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتهم وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين ولا بد من المعونة بألف فارس تُجَرَّد مع من توثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغيره^(١)، فكان الجواب على هذه الرسالة: (ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الأفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا) «^(٢)».

ويتضح من هذه الرسالة أن نور الدين كان يعلم بضعف مجير الدين وأنه عندما جاء إلى دمشق ادعى أنه أتى ليحمي المسلمين في الأعمال الدمشقية من بطش الصليبيين، لكن مجير الدين كان واعياً لمؤامرتهم، ولذلك تواصل مع الصليبيين وعقد معهم اتفاقاً من أجل دفع نور الدين، كما تم دفع أبيه من قبل. وعرف نور الدين أنه لا يستطيع أخذ دمشق بالقوة بسبب مسارعة الصليبيين إلى نجدها، ولذلك لجأ إلى الحيلة، وعقد عزمه على محاربة دمشق اقتصادياً، فأرسل جيشاً من التُرك بقيادة (منكوبرس) إلى ناحية حوران، التي كانت سلة غذاء دمشق، فاجتمع منكوبرس مع والي بصرى سرجال الذي أعلن انشقاقه عن دمشق وتحالف معه على العبث والفساد في ضياع حوران، وقصدوا صرخد بالإفساد والإخراب والمضايقة لها ورحلوا بعد ذلك إلى غيرها للإفساد ومنع الفلاحين من الزرع^(٣). وأرسل مجير الدين عسكرياً بقيادة حاجي لقتال منكوبرس، فالتقى به، فانهزم حاجي وجرح جرحاً تمكن منه وحمل إلى دمشق فمات في الطريق وقبر في مقابر الفراديس، يوم الاثنين السادس من شعبان سنة ٥٤٥ هـ^(٤).

ومن ثم سار نور الدين بنفسه لقتال التُرك في دمشق ونزل في المحرم من سنة ٥٤٦ هـ على أرض عذراء*، وأرسل فريقاً من جيشه إلى منطقة النيرب* وكمّنوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج من المدينة، ظهر الكمين عليه، فانهزم عسكر دمشق إلى

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلى القلانسي - ص ٣٠٩

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلى القلانسي - ص ٣٠٩

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلى القلانسي - ص ٣١١

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلى القلانسي - ص ٣١٢

* عذراء، تسمى اليوم عدرا، وهي شمال دمشق تبعد عنها نحو ٢٠ كيلومتراً. فيها قبر الصحابي الجليل جبر بن عدي الكندي الذي نبشه التكفيريون في سوريا عام ٢٠١٣.

* النيرب، تقع غرب دمشق وهي الآن جزء من التنظيم العمراني لهذه المدينة.

داخل السور^(١). ثم سار نور الدين ونزل على «عيون فاسريا» بين عذراء ودومة*، ومن ثم رحل عن ذلك الموضع ونزل على حجيرا*، وأرسل عسكره فعاثوا فسادًا في زروع الناس فحصدوها واستأصلوها وأفنوا الثمار*، وارتفعت الأسعار بدمشق وضائق صدور الناس^(٢). واستعد مجير الدين للقتال وأمر العسكر بالاستعداد لحفظ البلد والسور، ومن ثم رحل نور الدين في عساكره من ذلك المنزل ونزل في أرض مشهد القدم، وحدثت مناوشات بين عسكره وبين العسكر الدمشقي وأطلق عساكره للفساد وحصد زراعات المرح والغوطة وضواحي البلد، فارتفعت الأسعار وعم الخطب وصعب الأمر على من بدمشق^(٣). ووصلت الأخبار إلى نور الدين بأن الصليبيين قادمون لنصرة مجير الدين، فرحل عن منزلته ونزل على مقربة من دمشق وأطلق عساكره فأخذوا مواشي الفلاحين والضعفاء والدواب وما يخص فلاحي الغوطة والمرج والضواحي، ثم رحل عائداً إلى داريا، ثم رحل إلى ناحية الأعوج^(٤). وكان الصليبيون قريبين منه فخشي من الصدام معهم، فانتقل إلى الزيداني، فوصل عسكر الصليبيين إلى دمشق، وخرج مجير الدين وخواصه وجماعة وافرة من الترك، فاجتمعوا مع الملك الصليبي (بلدوين الثالث)، وتقرر بينهم النزول بالعسكرين الدمشقي والصليبي على حصن بصرى لتملكه من واليه الذي انتهى إلى نور الدين والتقى العسكران ونزلا على بصرى، وقصدوا محاربتها، فلم يتهيا ذلك لهم وظهر إليهم سرجال واليها في رجاله فعادوا عنه خاسرين، فانكفأ العسكر الصليبي إلى بلده، وعاد العسكر الدمشقي إلى دمشق^(٥). وراسل الصليبيون مجير الدين يطلبون منه باقي المال المقرر لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا لهم، لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم^(٦).

وعاد نور الدين إلى حلب، ومن هناك شن حرباً اقتصادية ضد دمشق.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٤٨ هـ فيقول: «في شهر ذي القعدة من تلك السنة، حدث بمدينة دمشق ارتفاع السعر لعدم الواصلين إليها بالغلات من بلاد الشمال على جاري العادة بتقدم نور الدين صاحب حلب بالمنع من ذلك

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٢

* دومة أو دوما، بلدة تقع شمال دمشق بالقرب من حرستا التين

* حجيرا، بلدة تقع جنوب دمشق قبل السيدة زينب،

* هل يمكن تسمية هذا العمل وهو إقناء الثمار إلا أنه من أعظم الأذى.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٣

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٣

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٤

(٥) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٤

(٦) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣١٤

* الغرارة، كيس من الخيش يوضع فيه القمح وغيره من الحبوب.

وحظره، فأضر ذلك أهلها من الضعفاء والمساكين، وبلغ سعر الغرارة* الحنطة خمسة وعشرين ديناراً وزاد على ذلك وخلا من البلد الخلق الكثير ولقوا من البؤس والشدة والضعف ما أوجب موت جماعة وافرة في الطرقات، وانقطعت الميرة من كل الجهات^(١). ويذكر القلانسي أيضاً، أن نور الدين «عازم على قصد دمشق بمنازلتها والطمع لهذه الحال في ملكتها وذلك مستصعب عليه لقوة سلطانها وكثرة أجنادها وأعوانها»^(٢).

ويستفاد من هذا النص أن محمود بن زنكي لم يعمل على تخريب وتدمير أملاك وزروع دمشق فقط، بل منع وصول الطعام والميرة إليها من الشمال، أي من حمص وحماة وحلب ومن مختلف المناطق الواقعة تحت سيطرته، مما أدى إلى نقص كبير في الطعام وهذا أدى إلى حدوث وفيات جماعية لأهل دمشق، كما أن الكثير من الدمشقيين تركوا بلدتهم هرباً من الجوع، وقد فعل نور الدين كل ذلك بهدف السيطرة على هذه المدينة. وللأسف فإن أفعال نور الدين كانت تماثل أفعال الصليبيين، بل كانت أخطر منها لأن نور الدين كان يدعي أنه يدافع عن المسلمين ويعمل على حمايتهم، أما الصليبيون فكانوا أعداء صريحين ولم يقولوا يوماً، إنهم جاؤوا ليدافعوا عن المسلمين.

وعندما أيقن نور الدين أن الكارثة حلت بأهل دمشق، قرر الانقضاء عليها، فأرسل خادمه شيركوه الذي يسميه القلانسي، الأمير الاسفهلار أسد الدين شيركوه، في مطلع المحرم من سنة ٥٤٩هـ، وخيّم بناحية القصب من المرج بظاهر دمشق، فقاطعه الأهالي في تلك المنطقة ورفضوا التعاطي معه، ومن ثم جاء نور الدين في عسكره وخيّم بعيون الفاسريا عند دومة، ونزل بأرض الضيعة المعروفة باسم (بيت الآبار) من الغوطة وزحف نحو دمشق من شرقها^(٣). وخرج إليه الكثير من الأجناد والأحداث، ووقع القتال بين الطرفين، فلما حلّ المساء عاد كل فريق إلى مكانه، وعاد في اليوم التالي للقتال فتصدى له عسكر دمشق، وظل القتال سجلاً بين الطرفين لأكثر من شهر، ولم يفلح نور الدين في تحقيق أي شيء، ولم يبادر الصليبيون إلى نجدة دمشق لأنهم كانوا مشغولين بحصار عسقلان وقتالها، حيث يقول وليم الصوري: «وإذ كان نور الدين يدرك مدى انشغال بلدوين ملك بيت المقدس وجميع فرسانه بحصار عسقلان انشغالاً وثق معه أن الملك لن يتخلى عما هو فيه الآن استجابة لنداءات الدماشقة فقد اغتنم هذه الفرصة وزحف على دمشق على رأس جيش كبير ليستولي عنوة عليها»^(٤).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢٥

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢٦

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢٧

(٤) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية- وليم الصوري - ج ٣ - ص ٣٦٠

وهكذا فإن نور الدين هاجم دمشق في وقت لم يكن بوسع الصليبيين فيه نجدها بسبب انشغالهم بحصار عسقلان، ومع استمرار القتال وهنت عزائم الترك في دمشق لأنهم، في الأساس، كانوا يعانون من الجوع والقل، ولذلك تقدم العسكر الزنكي وبات قريباً من سور المدينة، عند باب كيسان من جهة القبلة، وتسلق الجنود على السور ونزلوا في الداخل وفتحوا الباب المذكور، فانساب العسكر الزنكي إلى داخل المدينة، فاستسلم الترك فيها، وعرف مجير الدين بما جرى فالتجأ إلى القلعة مع بعض خواصه، فراسله نور الدين بالتسليم، وأدرك مجير الدين عدم جدوى المقاومة، فوافق على التسليم، وكان ذلك في صفر سنة ٥٤٩^(١).

ويذكر أبو يعلى القلانسي، أن نور الدين أعطى مجير الدين بعض الأقطاع في ريف حمص، فسار إليه^(٢). أما المقريزي فيقول، إن مجير الدين سار إلى بغداد ومات فيها^(٣).

وهكذا سقطت دمشق بعد حرب استمرت خمس سنوات، دافع فيها الترك حتى آخر لحظة عن شرفهم واستقلالهم، وقد امتلك نور الدين كامل بلاد سوريا التي كانت خارج السيطرة الصليبية، وبدأ يستعد للخطوة التالية وهي احتلال مصر وأخذها من أهلها الفاطميين.

ز- نور الدين وإمارة شيزر

كانت إمارة شيزر تمد سلطانها على مناطق واسعة في سهل الغاب، وكان يتبع لها أبو قبيس ومصيف، وبعض الحصون الأخرى، وكان بنو منقذ أمراؤها على المذهب الفاطمي، وساهموا في تدعيم هذا المذهب في المناطق التي حكموها، وتوفي أبو الحسن علي بن منقذ فخلفه ولده أبو مرهف نصر بن علي، وفي سنة ٤٩١ توفي أبو مرهف فخلفه أخوه الأمير أبو سلامة مرشد بن علي، لكنه تنازل عن الحكم لأخيه الأصغر سلطان أبي العساكر.

وفي عهد أبي العساكر بدأ الغزو الصليبي إلى الشرق، وقد كانت شيزر محل اهتمام الصليبيين بعد استقرارهم، نظراً لوقوعها في منطقة مهمة، ورأينا كيف تحالف الإمبراطور البيزنطي مع أمير أنطاكية الصليبي ومع ابن جوسلين أمير الرها من أجل أخذ شيزر وغيرها من مدن سوريا الداخلية في عهد عماد الدين زنكي، وهجموا على شيزر سنة ٥٣٢، لكن مناعة هذه القلعة وقوة المدافعين عنها بالإضافة إلى الاختلاف الذي وقع بين الإمبراطور وحلفائه

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٢٨

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخفا - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٢١٠

الصلبيين، كل ذلك أدى إلى فشل ذلك الهجوم. وعندما ملك محمود بن زنكي هاجم كل مدن وقلع سوريا في الداخل، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب من شيزر بسبب تحالفها مع مملكة الدعوة في جبال لبنان، ولا شك أن الأمير التركي كان يخشى القتل بسيوف وخناجر الإسماعيلية، ولذلك أثر السلامة خوفاً على حياته، ولم يقترب من شيزر، لكن شاء القدر لهذه الإمارة أن تقع في يد عدوها الذي غير وجهها مرة وإلى الأبد، ففي شهر رجب من سنة ٥٥٢، كما يذكر أبو يعلى القلانسي، وقعت زلزلة عظيمة في سوريا، تبعها هزات متتالية فتضررت دمشق، وكانت قوة هذه الزلزلة تتركز في وسط سوريا، حيث انهدمت حماة وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، بحيث لم يسلم منهم إلا العدد القليل، أما شيزر فإن روضها سلم وأما حصنها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ، رحمه الله، ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً^(١).

وعرف الصليبيون بما جرى لها فحاولوا من جديد السيطرة عليها، ويذكر وليم الصوري هذه الواقعة، على الأغلب في أحداث سنة ١١٤٩، فيقول: «وحدث في هذا الوقت أن أرسى (تيري) كونت فلاندرز وزوجته (سييلا) في ميناء بيروت، وكان الرأي الذي أطبق عليه الجميع هو أن وصول أمير خطير كهذا ورهطه من النبلاء والأبطال لا يمكن أن يمر من غير الاستفادة به، لذلك صمم القوم أن يمضوا كلهم إلى أنطاكية، ومن ثم اجتمع كافة الصليبيين من شتى النواحي في موضع يدعى (البقاع) من أرض طرابلس قاصدين مهاجمة بلاد العدو، فلم يصادفهم النجاح في بادئ الأمر في هجمتهم على الحصن المعروف (قشتال الروج) في سهل الروج، فتحرك الأمراء المجتمعون بناء على اقتراح (أرناط) أمير أنطاكية، وتقدموا نحو أرض أنطاكية ومكثوا هناك لبعض الوقت لرسم أمثل خطة، وإذ ذاك وصل رسول إلى الملك بلدوين يؤكد له أن نور الدين الذي كان يعسكر قرب قلعة (إنب) قد مات وأنه مريض مرضاً لا يرجى له الشفاء منه، حينذاك أدرك الصليبيون أن الأمور تجري بما يبشر بنجاح خطتهم، ولذلك اتفق الجميع على إنفاذ الرسل إلى (توروس) الأمير الأرمني يلتمسون منه أن ينضم إليهم، وتلقف توروس هذه الدعوة بالغبطة، ونهض في لحظته وسار بعسكره إلى أنطاكية، وهب الصليبيون إلى لقائه، وسار العسكر في الحال من المدينة واتجهوا شطر شيزر، وتقدم الصليبيون بعساكرهم المرتبة وفق النظام الحربي، وما كادوا يبلغون هذه المدينة حتى بادر القادة إلى ترتيب جنودهم، وحاصروا المكان، أما الأهالي فقد

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٤٤

دفعهم ما اعتراهم من الخوف إلى الانسحاب إلى ما وراء الأسوار حالما بدأ الحصار، وسرعان ما نصب الملك والمعسكرون في الخارج مكاحلهم وآلاتهم الحربية ولم يكفوا عن الرمي لحظة واحدة، ولم تكد تنقضي أيام حتى نفّض السكان أيديهم من كل شيء واستسلموا، فتحكم الصليبيون في استحكامات المدينة واندفعوا حتى صاروا في وسطها واستولوا عليها عنوة، فارتد الناس على أعقابهم إلى القلعة، وأخلوا كل ما بقي من أسفل المدينة، وصار كل شيء نهباً للعدو، وظل الصليبيون يستعملون دور الناس بضعة أيام بكل ما حوته ويتصرفون فيها حسبما يشاؤون، على أنه في اللحظة التي بات فيها أن المدينة موشكة على السقوط، نشب نزاع بين القادة الصليبيين، وذلك أن الملك قرر إقطاع شيزر إلى «تيري» كونت فلاندرز، فاعترض أرناط أمير أنطاكيا، وأثار المشكلات حين أعلن أن شيزر وملحقاتها كانت منذ البداية جزءاً من إرث أمير أنطاكيا، ومن ثم فلا بد لمن يأخذها إقطاعاً أن يقسم يمين الولاء والتبعية له هو ذاته باعتباره صاحب الأمر، وكان كونت فلاندرز مستعداً لقطع اليمين للملك لإقطاعه شيزر، لكنه رفض أن يقسم اليمين لأمير أنطاكيا، وبعد أن نشب هذا الخلاف تخلى الصليبيون عن احتلال شيزر وعادوا إلى أنطاكيا مكثفين بالغنائم والأسلاب»^(١).

ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٥٢ فيقول: «لما مضت أيام من شهر رمضان من تلك السنة، عرض الملك العادل نور الدين مرض حاد، واشتد به المرض فتوجه في لحظته إلى حلب وحصل في قلعتها، وتواصلت أراجيف بعد ذلك بالملك نور الدين فقلقت النفوس واضطربت الأعمال. وطمع الإفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا وانتهبوا وتجمع من عدة جهات خلق كثير من رجال الإسماعيلية، فاستظهروا عليهم وقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر»^(٢).

وكما نرى فإن كلاً من وليم الصوري والقلانسي يتفقان في أن الصليبيين استغلوا مرض نور الدين بن زنكي ليهاجموا إمارة شيزر، لكن الكاتب الشرقي يقول، إن رجال الإسماعيلية تجمعوا من شتى النواحي للقتال دفاعاً عن شيزر، وقد نجحوا في إجلاء الصليبيين عنها، بعكس الكاتب الغربي الذي يقول، إن الخلاف الذي وقع بين القادة هو الذي أدى إلى إفشال العملية وعودة الجميع إلى أنطاكيا، وأيضاً فإن الكاتب الغربي لا يذكر أبداً الزلزلة التي تعرضت لها شيزر وأدت إلى انهدام قلعتها وإلى وفاة أميرها وجميع من كان

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ ص ٤٢٠

(٢) ذيل - تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص - ٣٤٩

معه بالقلعة، وربما تعمد الصوري عدم الإشارة إلى هذا الحدث، لكي يبين أن كل ذلك الحشد الصليبي لم يكن يهدف إلى السيطرة على مدينة خالية من رجالها وحمايتها، بل كان من أجل مواجهة من في تلك الإمارة من رجال، لكن توقيت الهجوم الصليبي على شيزر كان بعد مرور أقل من شهرين من وقوع الزلزلة، كما يبين القلانسي، وهكذا فإن الهجوم الصليبي على شيزر كان مقصوداً لأنها كانت مهدمة، وإلا لماذا لم يهاجموا حلب وكانت أهم من شيزر بكثير، وهي أقرب إلى أنطاكية.

والواقع أن الصليبيين اعتقدوا أنهم إذا سيطروا على شيزر فسوف تسقط في أيديهم تبعاً كل الأعمال والمدن القريبة منها وبالتالي يصبحون متحكمين في وسط سوريا. لكن خطتهم فشلت بسبب اختلاف قادتهم فيما بينهم، وأيضاً بسبب دفاع الإسماعيلية عنها دفاعاً مريراً.

وبعد جلاء الصليبيين عنها، وهي كانت مهدمة أصلاً، فإن من بقي من أهلها رغبوا عنها وربما فارقوها، فأصبحت خاوية، فبادر إليها نور الدين محمود وضمها إلى ملكه سنة ٥٥٤، حيث يذكر أبو يعلى القلانسي في أخبار تلك السنة فيقول: «ووردت أخبار من ناحية ملك الروم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعقل الإسلامية، فبادر الملك العادل نور الدين بالتوجه إلى البلاد الشامية لإيناس أهلها من استيحا شهم من شر الروم والإفرنج خذلهم الله فسار في العسكر المنصور صوب حمص وحماة وشيزر»^(١).

وقد كانت هذه أول حركة لنور الدين بعد شفائه من مرضه، حيث بادر إلى أخذ شيزر لعلمه بخلوها من أهلها.

ويروي ابن الأثير رواية عجيبة عن كيفية أخذ نور الدين لشيزر فيقول: (وفي سنة ٤٩١ توفي الأمير المنقذي أبو مرهف فخلفه أخوه الأصغر أبو سلامة بن مرشد بن علي، لكن هذا تنازل عن الحكم لأخيه الآخر أبي العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه، واصطحب الأخوان أجمل صحية مدة من الزمان، فأولد مرشد بن علي عدة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا في الإمارة، منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر، فجاءه أولاد، فحسد أخاه على ذلك وكان كلما رأى صغراً أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم، ساء ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلاهما على الآخر، وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة ٥٣١ قلب أخوه على أولاده ظهر المجن، وباداهم بما يسوؤهم وأخرجهم من شيزر فقصدوا الملك العادل

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص - ٣٥٦

نور الدين وشكوا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ولخوفه من أن يسلم شيزر إلى الفرنج وبقي في نفسه منه أثر، وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة أضافها إلى بلاده وعمرها وعمر أسوارها وأعادها كأن لم تخرب^(١).

وكما قلنا هذه الرواية عجيبة أراد من خلالها ابن الأثير إظهار أن أمراء شيزر كانوا متحالفين مع الصليبيين ضد مصالح الأمة، وأن نور الدين بن زنكي كان يريد أن يساعد أولاد مرشد الذي قصده للأخذ بثأرهم، « لكنه كان مشغولاً بجهاد الكفار وكان يخاف من أن يسلم أولاد أبي العساكر شيزر للصليبيين، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة ».

والواقع أن أولاد مرشد بن علي عندما خرجوا من شيزر سنة ٥٤٤ لم يتوجهوا إلى الأمير التركي نور الدين محمود بن زنكي، بل ذهبوا إلى مصر وهذا ما يذكره المقريزي في أحداث تلك السنة فيقول: « وفيها قدم على الخليفة الظافر بأمر الله، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، فأكرمه، إلا أنه كان يستوحش من الظافر، وخائفاً على نفسه، فانتدب رجالاً يمشون في ركابه بالزرد والخوذ نحو الستمائة، فكان إذا دخل إلى الخليفة يدخل ومعه أولئك الذين انتدبهم لحمايته كلهم، ومع هذا يبالغ في الخدمة ويظهر الطاعة ولا يخل في قول ولا فعل »^(٢).

وهذه الرواية تبين بوضوح أن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد لم يقصد نور الدين بل قصد الحضرة العلوية بمصر، وربما كان معه أخوته، ورغم أن المقريزي لم يوضح لماذا كان مؤيد الدولة يستوحش من الخليفة الظافر بالله، ولماذا كان خائفاً على نفسه منه، لكنه قال، إن مؤيد الدولة كان يدخل إلى الإمام الظافر وكان يبالغ في خدمته ما يدل على حبه له. وأما فيما يخص قول ابن الأثير أن نور الدين كان مشغولاً بجهاد الكفار وهذا ما منعه من الأخذ بالثأر لأولاد مرشد بن علي، فمن المعروف أن نور الدين كان، في ذلك الوقت، مكباً على حصار مملكة دمشق، وربما كان نعت (الكفار) عائداً إلى الترك فيها الذين أرادوا المحافظة على استقلالهم.

لكن ما هو أغرب في كلام ابن الأثير هو عدم ذكر الحملة الصليبية التي تعرضت لها شيزر سنة ٥٥٢، بل الإدعاء أن أمير شيزر راسل الصليبيين

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١١٢

(٢) اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - المقريزي - ج ٣ - ص ١٩٨

وتحالف معهم. وهنا يبرز الدس المتعمد الذي انتهجه ابن الأثير ضد كل من كان يخالف الترك ويعاندهم. والمهم أن ابن الأثير أراد أن يبين أن نور الدين محمود كان مهمومًا جدًا لأمر أولاد مرشد بن علي، وأنه كان يريد قصد شيزر لإنصاف هؤلاء ممن ظلمهم، لولا خوفه من أن يسلمها أميرها إلى الصليبيين. وفي الحقيقة أن نور الدين لم يكن ليجرؤ على قصد شيزر وهو الذي كان يدرك مدى قوة الإسماعيلية ولذلك انتظر حتى حدثت تلك الزلزلة الرهيبة التي خربت شيزر، فأخذها حطامًا، وأعاد بناءها وأسكن فيها قومًا آخرين وولى عليهم واليًا من الترك مثله هو سابق الدين عثمان ابن الداية، (الداية التي أولدت محمود بن زنكي من بطن أمه).

ح- نور الدين و جبال لبنان

لم يكن بوسع نور الدين التوسع إلى جبال لبنان لأخذها، لأنه كان بها قوتان: الإسماعيلية، والصليبيون. وقد تجنب نور الدين الاصطدام بالإسماعيلية خوفًا منهم، فلم يسجل له ولا معركة واحدة ضدهم، لكنه حاول أن يتوسع على حساب الصليبيين.

ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٥٥٨ فيقول: «في سنة ثمان وخمسين وخمس مائة، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقية تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج، عازمًا على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، وكان سبب ذلك أنهم اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونون آمنين، فركبوا نحوهم، فلم يشعر بركب المسلمين إلا وقد قاربوهم، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك، وأرسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر، فرهقهم الفرنج وأخذوهم بين أيديهم، فوصلوا معًا إلى العسكر النوري، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم، فكان أقصى رأيهم الانهزام، ووضع الإفرنج فيهم السيف وأكثروا القتل والأسر، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم، فلم يبقوا على أحد^(١). وقصدوا خيام الملك العادل نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلًا بغير قباء فركب فرسًا هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجله شبة فنزل انسان من الأكراد فقطعها، فنجى نور الدين وقتل الكردي،

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١١٧

وسار نور الدين إلى مدينة حمص وأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس (قطينة)* على فرسخ من حمص، وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، ولما نزل على بحيرة قدس، اجتمع إليه كل من نجا من المعركة»^(١).

ومن هذا النص يتبين أن نور الدين هاجم قلعة الحصن بهدف السيطرة عليها، وهو لا يعلم أن بها حشدًا كبيرًا من الصليبيين، فنصب خيامه في سهل البقيعة وفي أعلى الجبل تقبع القلعة، وقد رآه الصليبيون فقرروا الهجوم عليه، فأتوه من خلف الجبل الذي عليه القلعة، ولم يشعر (اليزك) أو طلائع العسكر، إلا بالهجوم قد باغتهم فانهمزوا وانهزم باقي العسكر والصليبيون وراءهم يقتلون منهم ويأسرون. وعرف نور الدين بما جرى فهرب من خيمته من الخلف، وركب على حصان مربوط برجله سلسلة، وأسرع أحد الأكراد فقطع تلك السلسلة فنجا نور الدين وقتل الكردي ما يدل على أن الصليبيين كانوا قريبين جدًا من أخذ نور الدين أسيرًا.

ويتحدث ابن الأثير عن من أسماه (الدوقس الرومي) الذي جاء بعسكره إلى الشرق وكان هو السبب في الهزيمة التي لحقت بنور الدين، وللأسف فإن تاريخ وليم الصوري يتوقف قبل وقوع واقعة حصن الأكراد، ولذلك لم نهتد إلى معرفة من يكون هذا الدوق، لكن على الأغلب، هو من إيطاليا، وربما من البندقية أو «جنوا»، لأن سكان هاتين المدينتين لعبوا دورًا كبيرًا أثناء تلك الحروب.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، ألم يكن لدى نور الدين عقلية المحارب، وبالتالي كيف يأمن أن ينصب مخيمه في مكان مكشوف بشكل كامل للعدو؟ وبعبارة أخرى، فإنه لو قيض لنور الدين أن يأخذ قلعة الحصن، فإن حصن صافيتا كان سيسقط أيضًا وبالتالي سوف يسيطر الترك على كامل المنطقة الممتدة من قلعة الحصن إلى حصن صافيتا، وما يتبع لها من قرى ومزارع وهي كثيرة، ولربما كان قد تغير وجه هذه المنطقة عما هو عليه الآن.

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١١٧

* بحيرة قدس «قطينة» تقع في الجنوب الغربي لمدينة حمص، يبلغ طولها ٣٠ كم وعرضها ١٦ كم، ومساحتها تبلغ ٦١ كم^٢، نشأت البحيرة من تجمع مياه النهر المقلوب.

ط- الصراع على بانياس

كانت بانياس تشكل قاعدة متقدمة للصليبيين في عمق أراضي مملكة دمشق، وقد تنازع الصليبيون والترك السيطرة عليها، وفي النهاية آلت ملكيتها، كما رأينا، إلى الصليبيين، وبعد أن استولى محود بن زنكي على دمشق، قرر مهادنة الصليبيين ليخلد إلى الراحة، فأرسل الرسل إلى الملك الصليبي يطلب الهدنة منه، فوافق الملك على ذلك لقاء أن يدفع نورالدين مبلغ ٨ آلاف دينار صورية، وانعقدت الهدنة أو المودعة، كما يسميها القلانسي، في شوال سنة ٥٥١ لمدة سنة كاملة، أولها شعبان، وتمّ تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشددة^(١).

وكان على مقربة من بانياس غابات فيها مراعى واسعة، تسمى (شعراء بانياس) فاستغل عسكر نورالدين الهدنة وساقوا خيولهم ومواشيهم لترعى هناك، كما جاء بعض العرب من المناطق المحيطة ليرعوا مواشيهم بها أيضاً، فاجتمع خلق كثير من التركمان والعرب في الشعراء، وشاهد الصليبيون الذين كانوا يأتون إلى بانياس، تلك الجموع الكثيفة، فذهبوا إلى الملك الصليبي بلدوين الثالث، واقترحوا عليه أن يباغت هؤلاء في غفلة ويأخذ قطعانهم ومواشيهم، فوافقهم الملك على ذلك، كما يقول وليم الصوري، وشن هجمة خاطفة على الغابة فوجد الرعاء غير متأهبين لصد هجومه، واستطاع بعضهم الفرار وآخرون اختبأوا في الغابة، لكن الغالبية منهم راحوا بين قتيل وأسير يرسف في فظاعة الرق الوحشي^(٢).

ومع ذلك فإن هذا العمل لم يكن عملاً صالحاً، كما يقول وليم الصوري، لأن الصليبيين نقضوا اتفاقاً سلمياً وأسأوا السيرة مع قوم لم يكونوا موضع ريبة^(٣).

ويذكر القلانسي أن الصليبيين نقضوا الهدنة بسبب وصول عدة وافرة منهم في البحر وقوة شوكتهم بهم^(٤). وهذا الشيء لا يذكره وليم الصوري، لكن المؤرخين يتفقان على أن الصليبيين نقضوا الهدنة وهاجموا جموعاً من الناس كانوا غير مسلحين أو غير محترسين لقُدوم عدو.

وقد عزم التُّرك على الرد لتبدأ سلسلة معارك سيتوالى ذكرها ويبدأها وليم الصوري بقوله: «كان همفري الكونستابل الملكي قد بدأ يضيق ذرعاً

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٣٦

(٢) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٠٤

(٣) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤٠٤

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٣٧

بالمسؤوليات الجسام الواقعة على كاهله، وما يتكبده من نفقات للحفاظ على مدينة بانياس التي ورثها، ولما لم يعد قادراً على أن يحكمها بالصورة المرجوة، قرّر أن يشارك الاسبتارية* في حكمها. ووافقه الملك على عزمه، وكانت الشروط التي اتفق عليها تنص على أن تكون ملكية المدينة وما تتبعها مناصفة بينه وبين هؤلاء الذين يتكفلون بدفع نصف النفقات اللازمة، وعليهم مسؤولية حكم نصف المدينة، وقد أراد الأخوان أن يجعلوا هذا القسم الذي آل إليهم من المدينة قادراً تماماً على الدفاع عن نفسه فجمعوا لذلك أكداً من الذخيرة والسلاح وجهزوا فرقة من العسكرة حتى إذا كان يوم محدد ساروا إلى بانياس قافلة كبيرة من الخيل والجمال ودواب الحمل، فلما أصبحوا على مقربة من بانياس كانت أخبارهم قد بلغت إلى مسامع الترك فطلعوا عليهم يوم ٢٦ إبريل ١١٥٧، وأخذوهم أخذاً شديداً بسيوفهم وبددوا قافلة الصليبيين، وفتكوا بالكثيرين منهم، ثم نهبوا ما معهم من متاع، فهرب من بقي حياً حفاظاً على حياته، أما الذين حالت الهجمة الشرسة بينهم وبين النجاة فقد راحوا ما بين قتيل بالسيف وأسير. وخاف الأخوان الاسبتارية بعد هذه النكبة من فداحة الاتفاق الذي أبرموه مع الكونستابل فانسحبوا منه وردوا على همفري بانياس بكل التزاماتها ودخلوها»^(١).

ويتحدث أبو يعلى القلانسي عن هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٥٢: «وفي يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الأول ورد المبشر من العسكرة المنصور برأس الماء بأن نصره الدين أمير ميران لما انتهى إليه خبر الإفرج الملاعين بأنهم قد أنهضوا سرية وافرة من العدد من أبطالهم إلى ناحية بانياس لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال، فأسرع النهضة إليهم في العسكرة المنصور، وقد ذكر أن عدتهم سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والسرجنديّة والداوية سوى الرجال، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها، فأوقع بهم وصاروا بجمعهم بين قتيل وجريح

* كان فرسان «الاسبتارية» في بداية أمرهم تجاراً من مدينة أمالفي الإيطالية، وقد سمحت لهم الدولة الفاطمية بالإقامة في القدس، وخصص لهم موضع كبير لإقامة دير على مقربة من كنيسة القيامة، وقد سمي هذا الدير «دير اللاتين»، ومن ثمّ شيدوا «بيمارستان» لإغاثة الملهوفين والمرضى من اللاتين الذين يأتون إلى القدس بهدف الحج، وكان أهل مدينة أمالفي يرسلون كل عام المال إلى رئيس الدير ليصرفه على القائمين عليه ولمداواة المرضى والمحتاجين في البيمارستان. وبعد أن احتل الصليبيون اللاتين القدس وعموم فلسطين، كان يعيش في البيمارستان، آنذاك، رجل يدعى «جيرالد» أوقف خدماته لمعاونة الفقراء والمحتاجين، وجاء بعد جيرالد شخص يدعى «ريموند» وهذا هو الذي أنشأ منظمة الأخوان الاسبتارية التي كانت تضم مجموعة من الرجال الذين نموا نمواً ملحوظاً، وانسلخوا من تبعيتهم لدير اللاتين، وأصبحوا منظمة مستقلة، وقد لعب الاسبتارية دوراً كبيراً خلال الحروب الصليبية وكانوا يسيطرون على الكثير من القلاع وكان لهم سطوة مشهورة». المرجع في هذا الشرح هو كتاب «الحروب الصليبية»

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار-الحروب الصليبية- وليم الصوري- ج ٣ - ص ٤٠٦

ومسلوب وأسير وطريح، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الأول ووصلت الأسرى والرؤوس من القتلى والعدد إلى البلد المحروس في يوم الاثنين تاليه وأطيف بهم البلد وكان يوماً مشهوداً مستحسناً سرت به قلوب المؤمنين وكان ذلك من الله تعالى ذكره وجل اسمه مكافأة على ما كان من بغى المشركين وإقدامهم على نكث أيمان المهادنة ونقض عهود المودعة»^(١).

ومما تقدم يتبين اتفاق كل من وليم الصوري وأبي يعلى القلانسي في حدوث تلك الواقعة وانتصار الترك على الصليبيين، لكن يختلف المؤرخان في أن الصوري يقول، إن الذين كانوا قادمين إلى بانياس هم من فرسان الاسبتارية الذين كانوا قد اشتروا نصف بانياس من حاكمها «همفري»، في حين أن القلانسي أضاف إلى هؤلاء كلاً من «السرجنديّة» و«الداوية»، كما أضاف إليهم رجالاً من مسلمي جبل عامل، وأيضاً فقد أشار القلانسي إلى أن قائد العسكر التركي كان أمير ميران محمد بن زكي شقيق نور الدين محمود.

وتبدو رواية الصوري بخصوص نوعية العسكر الصليبي أصدق من رواية القلانسي، لأن الصوري كان يؤرخ لشعبه وكان أدري بما يجري في داخل المملكة الصليبية من القلانسي الذي كان يلتقط معلوماته من أشخاص خارج بلادهم، وبالتالي فإن الذي وقع بالكمين هم الفرسان الاسبتارية وحدهم، من دون تلك الإضافات ومنها رجالة جبل عامل، ونحن لا نستبعد أن يكون هناك رجال محليون من جبل عامل أو من سواه، كانوا يخدمون الصليبيين، لأن هؤلاء كانوا يفرضون إرادتهم على سكان سوريا الذين كانوا تحت حكمهم، لكن طالما أن الصوري لم يذكر أحداً وقع في الكمين سوى الاسبتارية، فإن قوله فصل في هذه المسألة.

لكن تلك المعركة الصغيرة جرّت خلفها معركة أكبر، فقد طمع نور الدين في السيطرة على بانياس، وكان آنذاك في بعلبك، فتحرك إلى دمشق ودخلها في ٢٧ ربيع الأول من تلك السنة، ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الواقعة فيقول: «ووصل نور الدين إلى دمشق يوم الخميس السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، لتقرير الأمر في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر، بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجه في الحال إلى ناحية العساكر المتجمعة، وفي وقت وصوله شرع في إنجاز ما وصل لأجله وأمر بتجهيز ما يحتاج إليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور بالنداء في الغزاة وأن يستعد المجاهدون والأحداث والمتطوعة من فتيان دمشق ومن الغرباء. وبادر بالمسير في الحال إلى عسكره

(١) تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٣٩

المنصور مغذاً في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول، ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس في عسكره المنصور ومضايقته لها بالمنجنقات والحرب سقط الطائر* من العسكر المحروس ببانياس بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً على مضي أربع ساعات عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه وانهمز من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها. وتجمع الإفرنج من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهمفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه الإفرنج المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبالغوا في السؤال للأمان نور الدين ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين فلم يجيبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه، فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازلين على بانياس لحصارها والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها واقتضت سياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستحصلوا من كان فيها فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها وذلك في أيام من العشر الأخير من ربيع الآخر»^(١).

ويتحدث وليم الصوري عن هذه الواقعة فيقول: «ترامى الخبر إلى بلدوين الثالث بما تعانيه بانياس من كرب عنيف على يد نور الدين، وأنها موشكة على السقوط في يده، فأسرع إلى حشد كل من أمكنه حشده من العسكر وزحف نحو بانياس وصمم أحد أمرين: إما أن يرفع الحصار عن بانياس، أو أن تكون معركة فاصلة بينه وبين نور الدين، وما كاد نور الدين يعلم أن الملك في طريقه إليه حتى رفع الحصار لأنه كان عازماً عن الاشتباك في معركة ليست خاتمتها مؤكدة على وجه اليقين، لكنه دمرها قبل أن يغادرها، فأشعل النيران فيها بعد استيلائه عليها، وقد كان وصول الملك إلى بانياس غوثاً للمحصورين الذين كانوا يتلهفون إلى مجيئه، فوعدهم بالبقاء إلى جانبهم حتى يتم استرداد الأماكن التي سقطت وإعادة ترميمها وإصلاح ما خرب من أسوارها ويعود البلد إلى وضعه الذي كان عليه من قبل. فاستدعى البنائين من شتى المدن المجاورة ومن كافة أرجاء الإقليم المتاخم له، فتم ترميم الأبراج والأسوار، وجددت التحصينات وأعيد تشييد المساكن الواقعة داخل نطاق الأسوار، ورجعت المباني العامة إلى وضعها الأصلي، لأن نور الدين كان قد صرف همهته

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٤١

* سقط الطائر، أي جاءت الأخبار إلى دمشق عبر الحمام الزاجل بأن نور الدين فتح مدينة بانياس.

أثناء احتلاله المدينة إلى تخريب كل هذه المباني تخريباً تاماً»^(١).

وتبدو رواية الصوري مشابهة لرواية القلانسي في أن نور الدين حاصر بانياس وافتتحها بالسيف وبقيت القلعة ومن ثم جاء الملك الصليبي فراجع نور الدين عن إكمال حصار القلعة، لكن يختلف القلانسي عن الصوري في أنه يقول، إن الصليبيين حين شاهدوا ما عم بانياس من خراب يؤسوا من عمارتها، في حين أن الصوري يقول إن الملك أعاد بناءها وهذا القول هو الأصح، لأن الوجود الصليبي استمر في بانياس بعد تلك الواقعة.

وبعد أن أكمل الملك بناء ما تمّ تهديمه في بانياس، عاد إلى بلاده. حيث يقول الصوري: «فلما فرغ البناءون من هذه الأمور أحس الملك ونبلاؤه أن لم تعد ثم حاجة لإطالة المكث بين الأهالي، لاسيما وقد أعاد كل شيء إلى سابق عهده، وجهازت القلاع بما تحتاجه من السلاح والمؤونة والرجال ومن ثم سرح مشاته، وعزم على العودة إلى طبرية ولا يصحبه سوى فصائل الفرسان، فلما خرج من بانياس يمم خطاه نحو الجنوب ونصب خيامه إلى جوار بحيرة يسمونها (بحيرة ميخائيل) حيث استراح الجيش تلك الليلة، لكنه لم يتخذ الاحتياطات الكافية ولم يراع القواعد اللازمة لنزول العسكر مما تفرضه ضرورات التنظيم الحربي، وسرعان ما جاءت الأنباء إلى العدو بأن الملك سرح مشاته، وأن بقية جنده قد استناموا للتراخي وللفضى من غير حراسة قرب بحيرة ميخائيل، كذلك جاء الخبر بأن بعض القادة كفيليب النابلسي وكثيرين غيره قد غادروا المعسكر بكتائبهم، وإذ أدرك هو ومن معه أن الأمور تغيرت إلى ما فيه فاندتهم، فبادروا إلى تحريك معسكرهم وهب قائدهم مغتنماً هذه الفرصة الملائمة له وأسرع بالزحف إلى تلك الناحية، وسرعان ما بلغوا الأردن الواقع بين الجيشين وعبروه وكمنوا في بقعة تعرف باسم «مخاضة يعقوب» على هذا الجانب من الأردن الذي كان لا بد لجيش الملك أن يجتازه في غده. ولما طلع اليوم التالي تابع الصليبيون سيرهم وهم لا يعلمون بخبر الكمين الذي نصب لهم في الليلة السابقة، ولا بخطط العدو التي أعدها سراً لهم، وواصلوا زحفهم تغشاهم الطمأنينة الكاذبة ولا يتوقعون شراً، فإذا بالكمين الخفي الذي أعده نور الدين يطلع عليهم وهم في غفلة ساهون، وباغتهم من حيث لا يحتسبون، فانطلقوا إلى جيادهم فأسرجوها وامتطوها، غير أن صفوفهم ما لبثت أن تصدعت قبل أن يستطيعوا تنظيم أنفسهم للمقتال والدفاع، ذلك لأن العدو أغار عليهم بسيوفه غارة شعواء حتى بات من المستحيل على رجالنا أن يلموا شملهم في أية ناحية إلا ما

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - ولیم الصوري - ج ٣ - ص ٤٠٨

يكون من مجموعات صغيرة جدًا. وظل الملك حيث هو في رهط قليل من الفرسان الذين لازالوا متمسكين بالوقوف إلى جانبه، بيد أنه أدرك انضراط عقد صفوفه وأن الفوضى سادتها وأصبح من معه أن كانوا عرضة لغضبة العدو الذي كانت قوته تزداد على الدوام على حين أن قواتنا أخذت منذ البداية في الفرار على وجهها، ومن ثم أملت عليه الضرورة أن ينسحب ليضمن لنفسه النجاة إلى تل قريب منه استطاع عنده بفضل جواده الذي تحته أن يتجنب العدو الذي يناوره من اليمين تارة ومن اليسار أخرى، وقد نجح الملك بعد لأي في الوصول إلى قلعة (صفد) الواقعة على نفس التل. لكن وقع في الأسر طائفة كبيرة من زعمائنا، كما استسلم من غير مقاومة كأحط العبيد المحاربون الذين عرفوا بحسن تديبرهم وخبرتهم بالقتال، كما استسلم مثلهم تمامًا المحاربون العاديون فلم يتميز واحد من الفريقين عن الآخر، وكان من بين الأسرى النبيل (هيج دي ابلين) و(أيود دي سنت أماند) مارشال الملك*، و(جون جوتمانوس) و(روهارد) اليافاوي وأخوه (بليان) و(رينارد) صاحب (بلانكفورت) رئيس فرسان المعبد، وكثيرون غيرهم. أما الملك فإنه لم يكذب أن يرى نفسه بعيدًا حتى أسرع إلى عكا ورحب به الناس. وقد جرت هذه الأحداث في العام الرابع عشر من حكم بلدوين، وفي اليوم التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١١٥٧»^(١).

ويتحدث أبو يعلى القلانسي عن هذه الواقعة فيقول في أحداث سنة ٥٥٢: «وفي يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سقطت الأطيبار بالكتب من المعسكر المحروس النوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين لما عرف أن معسكر الإفرنج على «الملاحه» بين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجدّ في السير، فلما شارفهم وهم غارّون وشاهدوا راياته قد أظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك نور الدين وترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح فما كان إلا كلا ولا حتى تزلزلت بهم الأقدام ودهمهم البوار فلم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم فيهم وقيل إنه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر»^(٢).

ومما تقدم نرى أن الروايتين الغربية والشرقية تتفقان في أن النصر كان

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار - الحروب الصليبية - وليم الصوري - ج ٣ ص ٤١٢

* مارشال الملك، عبارة تعني قائد شرطة الملك.

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٣٤٢

حليف نور الدين، ويذكر الصوري أن هذه المعركة جرت في التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١١٥٧، أما القلانسي فيجعلها في جمادى الأولى سنة ٥٥٢، وإذا كانت هذه المعركة قد جرت فعلاً في جمادى الأولى، فإن حديث وليم الصوري عن إعادة بناء ما تهدم من بانياس هو كلام غير صحيح، فلا يعقل أن يتم بناء المدينة مع سورها وأبراجها في مدة شهر، لأن القلانسي يذكر أن نور الدين هاجم بانياس في شهر ربيع الآخر، وانكفاً عنها بعد مجيء الملك الصليبي. وقد يكون الملك الصليبي قد أعاد بناء وتحصين الجزء الذي انهدم من السور وبعض التحصينات الأخرى في الأبراج، أما إعادة بناء المنازل فهذا شيء يحتاج إلى وقت. وعلى كل حال فبعد انتصار نور الدين في تلك المعركة بث سراياه للتخريب في بلاد الصليبيين حيث يقول وليم الصوري: «كان نور الدين شديد الحرص على أن تتوالى انتصاراته ومن ثم اجتاحت الإقليم بأجمعه وامتلات يداها بالغنائم يأخذها من هنا وهناك، واستدعى إليه كتابه وأمر بتعبئة قوات أكبر راح يجمعها من دمشق ومن غيرها من النواحي الخاضعة لسلطانه، ذلك لأنه كان قد أجمع العزم على محاصرة بانياس للمرة الثانية، وأدرك أهل بانياس عدم جدوى جهودهم الصادقة في تخليص المدينة من هذا الحصار فارتدوا كلهم إلى القلعة حتى لا ينكبوا من جديد نكبتهم في المرة السالفة. وكان كونستابل (همفري) لما تخلى عن إدارة بانياس اختار لها واحداً من أقاربه هو (جي الإسكندروني)، وكان رجلاً واسع التجربة والخبرة بالحرب، ولكنه مغمور في أمانته ولا يخشى الله، أما همفري وقد حملته رغبته في استرضاء من عهد إليه بالحكم واعتماداً منه على شهرته هو ذاته، فإنه حاول أن يحمل الآخرين على المقاومة، مؤكداً لهم أن النجدة واصله إليهم عن قريب، ونجم عن هذا أن حارب الجميع حتى أن قدرتهم على تحمل الأهوال الطويلة والشدائد المستمرة جعلتهم لا تغمض لهم عين. وجاءت الأخبار إلى الملك بأن بانياس تعاني شدة ما بعدها شدة، وجاءت الرسل أيضاً إلى أمير أنطاكية وإلى كونت طرابلس لحثهما على عدم التواني عن نجدة المدينة، وتمكن أمير أنطاكية وكونت طرابلس من الوصول إلى المعسكر الملكي في وقت قصير. وسرعان ما علم نور الدين بانضمام هذين القائدين إلى الملك وشروعهم جميعاً في الزحف على بانياس، ولذلك تخلى عن الحصار وانسحب إلى ناحية قاصية من مملكته»^(١).

لكن القلانسي لا يتحدث عن عودة نور الدين إلى حصار بانياس بل يذكر أنه بعد انتهاء معركة الملاحه: «شرع في قصد أعمالهم لتملكها وتدوينها

(١) تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار «الحروب الصليبية» - وليم الصوري - ج ٣ - ص ٤١٥

والله المعين والموفق لذلك بمنه ولطفه ومشيتته»^(١). وهكذا يختم القلانسي حديثه عن معارك بانياس من دون أي ذكر لإعادة فرض نورالدين الحصار عليها. لكن المنطق يقول، إن نورالدين كان يجب أن يعود إلى حصار بانياس بهدف أخذها بعد أن دمر جيش الملك على الملاحه، ومن هنا فإن رواية الصوري هي الصحيحة. وبشكل عام فقد استمر الوجود الصليبي في هذه المدينة حتى سنة ٥٦٠، فقد حانت، آنذاك، الفرصة لنورالدين لاستعادتها حيث يذكر ابن الأثير الجزري^(٢) في أحداث تلك السنة فيقول: «في هذه السنة فتح نورالدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريا، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار مجداً إلى بانياس لعلمه بقلعة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقتلها، وسمع الفرنج بذلك فتجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها، وملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالاً».

ولا يذكر أوليم الصوري هذه الواقعة لأن تاريخه يتوقف قبلها. ولذلك نحن مضطرون لأخذ رواية ابن الأثير كما هي واعتبار أن بانياس سقطت في ذلك الوقت بيد التُّرك ولم تعد ثانية إلى أيدي الصليبيين.

ي - الصراع على حارم:

كما كانت بانياس موضع صراع مستمر بين التُّرك والصليبيين، كذلك كانت حارم لأنها تقع في منطقة استراتيجية وكان الصليبيون يريدون التمسك بها لأنها تخدم أهدافهم العسكرية في حلب وأعمالها، ورأينا أن نورالدين كان قد استولى على حارم سنة ٥٤٤ بعدما قتل أمير أنطاكية ريموند في معركة (إنب)، لكن الصليبيين ظلوا يتحينون الفرصة لإعادة السيطرة عليها، وقد جاءتهم هذه الفرصة عندما مرض نورالدين وشارف على الموت، فقرروا استغلال هذا الوضع لإحراز نصر على حسابه، وكان الصليبيون قد فشلوا في السيطرة على شيزر بسبب اختلافهم، كما يقول أوليم الصوري، لكنهم ما لبثوا أن رأبوا الصدع بينهم وعملوا على استرداد قلعة حارم من التُّرك.

ويتحدث أوليم الصوري عن هذه المعركة فيقول: «كان القادة الصليبيون لا يزالون متلكنين في أنطاكية وعلى الرغم مما كان بينهم من اختلاف، إلا أنهم توصلوا إلى اتفاق إذ صمموا على محاصرة حصن حارم الذي كان يتحكم في

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٣٤٢

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٣١

القرى المعروفة باسم «كازاليا» كما كان مصدر إزعاج كبير لأنطاكيا، وكان نور الدين لا يزال في هذه الأثناء رهن المرض الذي هاجمه من قبل بشدة اضطرت القوم أن يستدعوا له أحسن الأطباء من كافة بلاد المشرق، لكن وعكته كانت تزداد لحظة بعد أخرى ولم تستجب للعلاج الذي وصفوه، حتى لقد ينس الأطباء من برئه وحياته، فاستبشر الصليبيون خيراً وعدوا حالته هذه نعمة إلهية كي تنجح حملتهم، وكان الحصن يقع على تل منخفض لذلك قام أحكم الرجال في الجيش الصليبي بعمل ممرات سرية يختفي داخلها الجند الموكول إليهم تقويض الحصن ويكونون بها في مأمن على أنفسهم، ولما جهز قادة الكتائب الفرسان والجند وكل شيء بعناية، نودي على هذه الكتائب علانية وسراً ألا يكفوا عن الهجوم، وخصصوا لكل قائد موضعاً لا يشاركه فيه أحد سواه، وأن يقوم هو ومن معه بالعمل الجاد، لذلك كان كل قائد منهم حريصاً على أن يكون هو ومن معه أحسن الجميع، وهكذا استطاعوا بهجماتهم الموصولة ومناوشاتهم اليومية أن يستمر العمل استمراراً كان من جرائه أن الأمر الذي كان يتطلب ردحاً طويلاً من الزمن أصبح ينجز في عناية دقيقة في مدى شهرين. وحدث في ذات يوم أن آلة الرمي التي كانت لا تكف عن رمي القلعة ليلاً ونهاراً أن قذفت حجراً بالغ الضخامة أصاب قائد القلعة القائم بععبء الدفاع كله فسحقه الحجر وتفرق الناس بعد مصرعه، وتوقفت مقاومتهم التي كانوا يظهرونها وضاعف الصليبيون الجهد وتسرب اليأس إلى نفوس المحصورين، ولم يلبثوا أن أرسلوا نفرًا إلى الملك يعرضون عليه استعدادهم لمغادرة المكان شريطة أن يسمح لهم بالخروج أحراراً إلى ديارهم بكل ما يملكون كما سألوهم أن يمدهم بمُرشدين لحمايتهم من أي هجوم قد يتعرضون له، ويسيروا بهم حتى يبلغوهم مأمنهم المنشود سالمين، وبهذه الصورة تم الاستيلاء على القلعة فتسلمها أمير أنطاكيا الذي كانت تابعة له من قبل وعاد القادة إلى أنطاكيا وبعد تبادل كلمات الوداع غادرهم الملك إلى مملكته وبصحبته «كونت فلاندرز» وكان في وداعهما كونت طرابلس»^(١).

ويذكر القلانسي هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٥٣ فيقول: «في أوائل شهر محرم من تلك السنة تناصرت الأخبار من ناحية الإفرنج المقيمين في الشام في مضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المناجيق إلى أن أضعف وملك بالسيف وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية وإطلاق الأيدي في العبث والفساد في معاقلها وضياعها بحكم تفرق العساكر الشامية والخلف الواقع بينهم باشتغال الملك العادل بعقائيل المرض

(١) تاريخ الاعمال التي تمت وراء البحار- الحروب الصليبية-وليم الصوري- ج ٣- ص ٤٢٣

العارض له»^(١).

ومما تقدم يتبين تطابق الروايتين بين المؤرخ الغربي والمؤرخ الشرقي حول حصن حارم، وإن كان وليم الصوري قد استفاض في الشرح وفي وصف المعركة وذكر أنها جاءت بعد عودة الصليبيين إلى أنطاكية من غزوة شيزر، أما القلانسي فلم يذكر ذلك، بل ذكر فقط أن هذه المعركة كانت إبان مرض نورالدين الذي لم يفصل فيه كما فعل وليم الصوري. وهكذا عادت حارم إلى سيطرة الصليبيين.

وفي سنة ٥٥٩ وبعد انهزام نورالدين في غزوة حصن الأكراد، قرر أن ينتقم من الصليبيين في مكان آخر، وعمل على قصد حصن حارم، فراسل أخاه مودود ملك الموصل والجزيرة، كما راسل الأمير فخرالدين قرا أرسلان أمير حصن كيفا ونجم الدين ألبى أمير ميافارقين، فجمع هؤلاء عساكرهم وساروا إليه، فلما بلغوا عنده قصد بهم حارم ونزل عليها وحصرها، كما يقول ابن الأثير، وبلغ الخبر إلى الفرنج فجاؤوا وكان مقدمهم أمير أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وابن جوسلين، والدوك - وهو رئيس الروم ومقدمها - وجمعوا معهم من الراجل ما لا يقع عليه الإحصاء، وحرّض نورالدين أصحابه، ولما قاربته الفرنج رحل عن حارم إلى ارتاح، طمعاً في أن يتبعوه ويتمكن منهم، فساروا حتى نزلوا على (عم) ومن ثم عادوا إلى حارم فتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وتدانّت الخطى، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ففروا من أمامهم عن رأي اتفقوا عليه، من أجل أن يبعدوا فرسان الصليبيين عن المشاة، فمال من بقي من جيش المسلمين على المشاة فأفنوهم، وعاد الفرسان فوجدوا المشاة مصرعين على الأرض، وعطف عليهم جيش الحلفاء وأصبح فرسان الصليبيين في الوسط، وقاتلوا قتالاً شرساً، لكن جيوش الحلفاء مزقتهم، وقتل من الصليبيين أكثر من عشرة آلاف، وأسّر أمير أنطاكية والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين، وسار نورالدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان^(٢).

ويذكر هذه الواقعة ابن العديم، لكن لم يتيسر لنا الوصول إلى مصدر غربي يتحدث عن تلك المعركة وما بعدها بسبب انتهاء تاريخ وليم الصوري قبلها. وعلى كل حال يمكن النظر إلى الرواية الشرقية حول هذه المعركة بوصفها رواية صحيحة وأن حارم من ذلك الوقت أصبحت بيد الترك.

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٣٥١

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٢٥

الفصل الرابع

نور الدين والدولة العلوية في مصر

١- الأسباب التي هيأت للترك غزو مصر

كان نور الدين بن زنكي مأخوذاً بالتعصب المذهبي ولم يرتق ليكون قائداً إسلامياً حقيقياً، بل كان حقه على المخالفين له في المذهب، أمراً ظاهراً، وعندما انتصر على مملكة دمشق التركية وأزالها من الوجود أرسل إلى الخليفة العباسي المقتفي يبشره بذلك، فكتب له هذا الأخير عهداً بولاية مصر والساحل، وبعث إليه بمراكب زحف وأمره بالمسير إليها لما بلغه قتل الخليفة الظافر بأمر الله*، وإقامة الفائز بنصر الله* وهو صغير، وقيل له قد اختلت أحوال الدولة العلوية بمصر^(١).

ورغم رغبته الكبيرة في القضاء على العلويين بمصر، لكن نور الدين لم يكن طائشاً ليندفع إلى قتالهم من دون حساب العواقب، لاسيما أن مصر كانت لاتزال قوة إقليمية كبيرة، وكان الصليبيون أيضاً يمثلون رعباً حقيقياً لدولته في سوريا. ولذلك انتظر نور الدين الفرصة المناسبة للنيل من مصر، قبل الصليبيين، وواتته هذه الفرصة مع الفتنة التي أثارها (شاور) ذلك المتلون الذي لعب في الدولة العلوية في مصر نفس الدور الذي لعبه يهوذا الخائن صاحب النبي عيسى، عليه السلام، وكما سلم هذا الخائن النبي إلى أعدائه ليقتلوه، كذلك سلم شاور دولة الفاطميين إلى أعدائها.

وينسب المقرئزي (شاور) فيقول: «شاور بن مجير بن سوار بن عشائر بن شاس السعدي»^(٢)، وسعد فخذ من جذام، وكان شاور في بداية عهده جندياً في الجيش المصري فوقع أسيراً بيد الصليبيين في إحدى المعارك إلى أن سعى في إطلاقه الوزير المأمون البطائي.

ويذكر المقرئزي في أحداث سنة ٥١٦ فيقول: «وفي شوال من السنة وصل

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ - ٢٢٣
* الخليفة الظافر بأمر الله، أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله - اتعاظ الحنفا - المقرئزي - ج ٣ - ص ١٩٣
* الفائز بنصر الله، أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد - اتعاظ الحنفا - المقرئزي - ج ٣ - ص ٢١١

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ - ص ٢٤٥

شاور من أسر الفرنج وكان مأسورًا من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره وبذلت عشيرته في افتكاكه جملة كبيرة، فلم يُقبل منهم وطلب فيه أسير من الفرنج، فلم يجبههم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرًا أبدًا، فلما ولي المأمون الوزارة وقرب رديني مقدم العربان الجذاميين وقبيلته، فوقف مجير أخو شاور وأخوته للمأمون، وما زالوا به حتى أطلق الأسير فأطلق الفرنج شاورًا في شوال، وأثبت في الطائفة المأمونية وكان هذا ابتداء حديث شاور»^(١).

وفي سنة ٥٤٦ هـ ولي الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك *، شاور، على «قوص» في الصعيد الأعلى، فاستمال الرعية وأظهر كفايته، كما يذكر المقرئ، لكن الملك الصالح ندم على توليته وأراد عوده عن الطريق ففاته، وحصل بها، وطلب منه في كل شهر أربع مئة دينار، وقال لا بد لقوص من والٍ وأنا ذلك، والله لا أدخل القاهرة، ومتى صرفني دخلت النوبة، فتركه، ولما جرح الملك الصالح وأشرف على الموت من جراء حادثة الاغتيال التي دبرتها له العمة ست القصور أخت الإمام الظافر بأمر الله، كان، كما يقول المقرئ، يعد لنفسه ثلاث غلطات، إحداها ولاية شاور لقوص، والثانية بناء الجامع على باب زويلة فإنه مضرة على القاهرة، والثالثة خروجه بالعساكر إلى بلبيس وتأخير إرسالها إلى بلاد الفرنج وكان قد أنفق على هذه العساكر مائتي ألف دينار^(٢).

وأوصى الملك الصالح، قبل وفاته، ولده العادل رزيك الذي خلفه في منصب الوزارة، بأن «لا يتعرض لشاور بمساءة ولا يغير عليه حاله فإنه لا تأمن عصيانه والخروج عليك فلما استمر رزيك بن الصالح في الوزارة حسنت له بطاقته صرف شاور عن قوص ليتم الأمر له، وأشار عليه سيف الدين حسين بن أبي الهيجاء بإبقائه، فقال، ما أنا بأبي ولا لي طمع فيما آخذه منه ولكن أريده يطأ بساطي، ف قيل له: ما يدخل أبدًا، فلم يقبل، وخلع على الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة بولاية قوص^(٣). وكان ذلك في ذي القعدة آخر سنة ٥٥٧، وعندما علم شاور بذلك، أعلن خروجه عن طاعة العادل.

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٨٣
* طلائع بن رزيك، ولد سنة ٤٩٥، وكانت وزارته سبع سنين وستة أشهر تنقص أيامًا، وكان فاضلاً، سمحاً في العطاء، ويقال إنه من المغرب، وقد قصد أبوه زيارة قبر الإمام علي بن أبي طالب، عليه السلام، بالنجف فرأى أمام المشهد عليًا وأخبره عن طلائع أنه يلي مصر، فقدمها، وما يزال يترقى الخدم حتى نال ما نال حتى قتل سنة ٥٥٦، - نقلاً عن المقرئ.

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٥٤

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٥٤

ووصل الأمير نصير الدين إلى إخميم وأرسل إلى شاوور يطلب منه تسليم الولاية، فلما وقف على الكتاب بعث إليه أن أرجع ولا تحضر، قولاً واحداً، فرجع نصير إلى القاهرة وجهر شاوور بالعصيان^(١). وخرج من قوص في جماعة قليلة، فسار على طريق الواحات في البراري، من جهة الغرب، حتى صار في «تروجة»^{*}، فاجتمع عليه الناس وقوي أمره وتزايد، فانزعج لذلك العادل رزيك، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأسرع ضرغام وأخوته كلهم وحسام وهمام ويحيى بن الخياط وبنو الحاجب ونظراؤهم، وصاروا إلى شاوور، فأسقط في أيدي العسكر الباقي مع بني رزيك، ولما رأى العادل رزيك قلة من معه، أثر الهرب من القاهرة، فبلغ الجيزة ونزل عند مقدم العرب سليمان بن الفيض، وكان هذا من لحم، وهو ممن أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك وخوله في نعم جمة، فلم يرع يداً، وقبض على العادل وأسلمه لشاوور، ونهب أصحابه. ودخل شاوور إلى القاهرة ومعه خلق كثير، ومعه أولاده، «طي، وشجاع، وسليمان الطاري». وأحضر ابن الفيض، العادل رزيك إلى شاوور مكبلاً، فاعتقله مع أخيه جلال الإسلام، ومن ثم أرسل إليه طي بن شاوور من قتله في السجن.

ولما استقر شاوور في الوزارة تلقب بـ«أمير الجيوش» واثالت عليه وعلى ولده طي أموال بني رزيك وودائعهم من عند الناس^(٢).

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك قد أنشأ أمراء يقال لهم «البرقية» وجعل ضرغام بن عامر بن سوار المنذري اللخمي الملقب «أبا الأشبال فارس المسلمين» مقدمهم، وصار ضرغام صاحب الباب في القصر، فطمع بشاوور وأراد الانتقام منه لأنه قتل العادل رزيك، وجمع حوله أصحابه، فتخوف شاوور منه، لكنه نجح في شق البرقية إلى فرقتين: واحدة وقفت معه وكانت تحت إمرة ولده طي، والثانية ظلت مع أبي الأشبال ضرغام.

ووقع القتال بين الفرقتين، فقتل طي بن شاوور وأخوه سليمان الطاري، وأسر الكامل شجاع، وهرب شاوور من القاهرة، ونهبت داره وأمواله، وكانت مدة ولاية شاوور هذه المرة، تسعة أشهر، واستولى أبو الأشبال فارس المسلمين ضرغام على الوزارة وتلقب بـ«الملك المنصور»^(٣) في ١٧ رمضان من تلك السنة.

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٥٦

* تروجة، قرية من أعمال البحيرة

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٥٩

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦١

٢- خروج شاور إلى دمشق

بعد أن هرب شاور من القاهرة وقطع الأمل في العودة إلى الوزارة، قرر الالتجاء إلى نور الدين بن زنكي، وكان هذا مقيماً بدمشق، من أجل الاستعانة به ليعيده إلى الوزارة. يذكر المقرئ في ذلك في أحداث سنة ٥٥٨ حيث يقول: «قدم شاور على دمشق في ذي القعدة من تلك السنة، وترامى على نور الدين، فبعث الوزير ضرغام إليه يحى بن علم الملك بن النحاس، بأن يقبض على شاور، فأجاب في الظاهر وأضمر غير ذلك»^(١).

ذلك أن نور وجد ضالته في شاور وأراد أن يستغله في مشروعه لتخريب مصر. وكان شاور، كما يقول المقرئ، قد «تحدث مع نور الدين في أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم معه في مصر، ويتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره. فبقي نور الدين يقدم إلى هذا الأمر رجلاً ويؤخر أخرى»^(٢).

ويذكر ابن الأثير هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٥٨ فيقول: «لما عزل شاور السعدي وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر، عن الوزارة، سار إلى الملك العادل نور الدين، فوصل إليه وهو في دمشق، والتجأ إليه واستجار به، فأحسن لقاءه وطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ويكون له فيها حصة ذكرها له، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره ونور الدين يقدم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى»^(٣).

وتبدو رواية كل من المقرئ وابن الأثير متطابقتين حول هذه الواقعة ولكن المقرئ يذكر أن شاور وافق على أن يكون لمحمود بن زنكي ثلث دخل مصر بعد إقطاعات العساكر، أما ابن الأثير فلم يذكر ذلك، كما يتفق الكاتبان أن نور الدين لم يكن من السهل عليه اتخاذ القرار بهذا الشأن، ورغم أنه كان يريد تحقيق حلم خليفة بغداد في امتلاك مصر، لكنه لم يستجب سريعاً لأقوال شاور، فكان كما يقول الراويان: يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى. ويعزو الراويان السبب في ذلك، بالخوف من الصليبيين في الطريق وأيضاً الخوف من غدر شاور به إذا عاد إلى منصب الوزارة في مصر. لكن ربما كان السبب الرئيسي الذي كان يجعله يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هو، علمه أن مصر دولة كبيرة وذات موارد بشرية ومادية ضخمة وليس من السهل

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٦٣

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٦٤

(٣) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٢٠

عليه السيطرة عليها، وخصوصًا أن شاور قد خرج منها طريدًا والمصريون لا يكونون له الحب والود.

«وفي النهاية أجمع نور الدين على إرسال فرقة من جيشه، ووقع اختياره على الأمير (أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان)، أحد أمرائه، فاستدعاه من حلب فوصل إلى دمشق في مستهل رجب سنة ٥٥٩، وأمره بالمسير إلى مصر مع العساكر صعبة شاور»^(١). وذلك في ١٥ جمادى الأولى سنة ٥٥٩، ولم يدر الوزير ضرغام إلا بالحمام الزاجل يأتي إليه من عند أخيه الأمير حسام متولي بلبيس ومعه رسائل تخبر بوصول شاور وشيركوه ومعهما من الأتراك خلق كثير، فانزعج الوزير ضرغام، كما يقول المقرئ، وتأهب لتسيير العسكر وأصبح الناس في ٢٦ جمادى الأولى وقد شاع ذلك بينهم، فخافوا على أنفسهم وأموالهم وانتقلوا من مكان إلى مكان وجمعوا الأقوات والماء^(٢).

وخرج الأمير ناصر المسلمين همام، أخو ضرغام، بالعسكر أول يوم من جمادى الآخرة، وهم نحو ستة آلاف فارس، فوصلوا إلى بلبيس فوافاهم شاور وشيركوه ونشبت الحرب، فانهزم العسكر المصري، ولحق الأمير همام بالقاهرة وهو مجروح، واختفى الأمير حسام في بلبيس فدل عليه بعض الكنانية فأسرو قيد^(٣).

وسار شاور ومن معه فوصلوا إلى القاهرة، فنزلوا بظاهرها. وكان ضرغام قد كاتب أهل الأعمال فوصلوا إليه لخوفهم من الترك، فضمهم إليه ومعهم الریحانية والجوشية وجعلهم في داخل القاهرة، فأقام شاور بمن معه على «منظرة التاج» * حتى استراحت خيولهم، ومن ثم أقام بمن معه في ناحية الخرقانية *، وشبرا دمنهور *، ثم سار من ناحية المقس يريد القاهرة، فخرج إليه عسكر ضرغام وحملوا عليه فانهزم هزيمة قبيحة^(٤). فسُر ضرغام وأحضر قاضي القضاة وأمره بحمل ما في مودع الحكم من مال الأيتام فحمله إليه، وكره الناس من ضرغام أخذه أموال الأيتام وعلموا عجزه عن شاور^(٥).

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٥

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٧

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٧

(٤) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٩

(٥) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٩

* منظرة التاج، أنشئت لبيتها الخلفاء الفاطميون، كانت تقع على خليج بالقرب من القاهرة.

* الخرقانية، قرية صغيرة بمحافظة القليوبية على الشاطئ الشرقي للنيل.

* شبرا دمنهور، إحدى قرى ضواحي القاهرة.

وكان شاور لما انهزم عن القاهرة، ذهب إلى مدينة مصر فدخلها من دون مقاومة، ولما علم ضرغام بذلك أرسل إلى أهل مصر يتوعدهم شرًا لأنهم أمكنوا شاورًا من دخول البلد^(١). وشن شاور هجمات على المؤيدين للوزير ضرغام في المنصورة والهلائية حتى خلت هاتان الناحيتان من المؤيدين، ومن ثم سار شاور وشيركوه ونزلوا على باب سعادة وباب القنطرة من أبواب القاهرة، وجرت معارك عنيفة بينهم وبين الجيش الفاطمي وقتل الكثير من الفريقين، وكان شاور قد أرسل يغري طائفة الريحانية ويعدّها بالعطاء الجزيل إن هي وقفت معه، فأرسل بعض قادة هذه الطائفة إليه يطلبون منه الأمان فأمنهم^(٢)، ما أدى إلى ميل كفة الصراع إلى جانب شاور، «ولما رأى الخليفة العاضد بأمر الله انحلال أمر ضرغام، أمر الرماة بالكف عن الرمي، فخرج الرجال إلى شاور في الصباح فسر بهم، وفترت همّة أهل القاهرة، وأعمل كل منهم الحيلة في الخروج، وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة، وجعلوا يترددون من باب إلى باب، وأمر ضرغام بضرب البوقات والطبول على الأسوار ليجمع الناس، فلم يخرج إليه أحد وانفلّ الناس عنه، فعاد إلى القاهرة وصار إلى باب الرحبة من أبواب النصر ولم يبق معه سوى خمسمئة فارس، فوقف وطلب الخليفة أن يشرف عليهم من الطاق، فلما طال عليه الوقوف نادى: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عما أفعل، فلم يجب أحد، فصاح يا مولانا كلمني، يا مولانا أرني وجهك الكريم يا مولانا بجرمة أجدادك على الله، وهو يبكي فلم يجبه أحد، وقويت الشمس فصار إلى الظل حتى قرب الظهر، فأمر بعض غلمانهم أن يركض في قسبة القاهرة ويقول بصوت عال: ما كانت إلا مكيدة على الرجال، قد قتل الترك أصحاب شاور الريحانية، فلما سمع الناس ذلك وكانوا قد صاروا إلى بيوتهم، فأسرعوا إلى خيولهم وعادوا من كل جانب مثل السيل، فرأوا ضرغامًا على تلك الهيئة، والطاق لم يفتح له والخليفة لم يكلمه، فسقط في أيديهم وقالوا، ارجعوا فهي كناية والغلبة لشاور، ورجعوا من حيث أتوا^(٣). فوقف

(١) اتعاضد الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٩

(٢) اتعاضد الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٦٩

(٣) اتعاضد الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٧٠

* العاضد لدين الله، لما مات الخليفة الفائز بنصر الله سنة ٥٥٠، ركب الوزير الصالح طلائع بن زيك إلى القصر بثياب الحزن. واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة، فقال: هنا جماعة، فقال: عرفني بأكرمهم، فسعى له واحدًا، فأمر بإحضاره، فتقدم إليه أمير يقال له علي بن مزيد، وقال له سرًا: لا يكن عباس أحزم منك رأيًا حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالأمر، فقال إلى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيرًا، فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال: علي به، فأحضر إليه بعمامة لطيفة وثوب مفوظ. وعمره إحدى عشرة سنة، ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهي لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه، وقام وألبسه إياها. ولما بوع العاضد ركب وحملت على رأسه المظلة، وركب الصالح

ضرغام إلى العصور لم يبق معه غير ثلاثين فارسًا، ووردت إليه رقعة فيها:
خذ لنفسك وانج بها، فأيس من الظفر.

وبعث شاور إلى الخليفة العاضد* يستأذنه في الدخول إلى القاهرة، فأذن له، فبعث شاور بأمر ابنه أن يدخل القاهرة، فدخل وضربت أبوابه، وكانت من أبواب التُّرك التي لم تُعهد بمصر، فعلم به ضرغام، فمر على وجهه إلى باب زويلة، فتخطف الناس من معه، ولعنوه، فأدركه بعض التُّرك في غلمان شاور وطعنه وأرداه، ونزل إليه واحترأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وفر ملهم إلى مسجد تبر، فقتل هناك وترك مطروحًا، وحيء برأسه إلى عند شاور، وقتل ناصر الدين حسام أخو ضرغام، وبقي جسد ضرغام ملقى يومين ثم حمل إلى القرافة فدفن بها»^(١).

وإذا كان ثمة تعليق على هذا النص المأخوذ عن المقرئ من دون تحرير أو تعديل، فهو لماذا لم يكلم الخليفة العاضد وزيره ضرغام عندما وقف يناديه؟

الواقع أن المقرئ يبين أن الخليفة لم يكلم ضرغامًا لعلمه بغلبة شاور وأنه أراد أن يدرأ فتنة لن ينتصر بها ضرغام، لكن المقرئ نفسه يقول، إن أهل القاهرة اجتمعوا كالسيل الجارف حول ضرغام عندما ناداهم، وهذا يدل على أن المعركة لم تكن قد حسمت بعد لصالح شاور والتُّرك لأنه كان لا يزال هناك قوة وافرة في القاهرة، ومن هنا نرى أن الواقعة التي ذكرها المقرئ بأن الخليفة العاضد لم يكلم الوزير ضرغامًا قد تكون مدسوسة ومن صناعة التُّرك لكي يقال، إن الخليفة العاضد لدين الله كان يرحب بهؤلاء في مصر، ولذلك لم يكلم ضرغامًا وطرده وأرسل وراء شاور ليدخل القاهرة، ولا شك أن الخليفة العاضد لدين الله، كان ضعيفًا وكان دمية بيد الوزراء ابتداء من الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ومن ثم ابنه من بعده وبعد ذلك شاور ومن ثم ضرغام، فكل هؤلاء الوزراء الذين تناوبوا على الوزارة لم يحفلوا به ولذلك فإن الزعم بأن الخليفة العاضد كان له رأي فيما يجري هو قول غير صائب، ولعل هذه الإشاعة قد تسربت إلى أهالي القاهرة الذين كانوا قد

بين يديه، وخرج من التربة قاصدًا قصره، وكانت عادة الخلفاء أنه إذا ورد البشير إلى أخص أهل من يُبايع يعطى ألف دينار، فلما بوع العاضد حضر المبشر إلى عمته فأعطته نرًا، فلما راجعها الزيادة أبت عليه، فسئلت في السبب فقالت: هذا قاطع الخلفاء، وهكذا كان. - اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - المقرئ - ج ٣ ص ٢٤٤.

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٧١
* تدل الإشارة إلى الطاق إلى أن الخلفاء الفاطميين كانوا يجلسون وراء شباك للاستماع إلى مطالب الأمراء والمقدمين والناس.

نقموا على ضرغام لأشياء منها قتل بعض الأمراء وأخذ أموال اليتامى وبالتالي تهاونوا عن نصرته وظنوا أن شاور أفضل منه ولذلك مالوا إليه. وقد رأينا أن طائفة الریحانية وهم جماعة كبيرة من الجند قد استأمنت لدى شاور، ومن هنا، فإن ما رواه المقرئزي حول هذا الموضوع فيه شيء من عدم الدقة والخطأ.

٣ - الخلاف بين شاور وشيركوه

بعد أن استقر شاور بالوزارة كان شيركوه لا يزال في مخيم خارج القاهرة، ويذكر المقرئزي أنه «في كل يوم يخرج إليه عشرون طبقاً من سائر الأطعمة ومثلاً قنطار خبزاً ومثلاً أردب شعير»^(١)، وعندما طال مقامه أرسل إلى شاور يشكو إليه من طول المقام في الخيم وضجر العسكر من الحر والغبار، ويطلب منه أن يفي لمحمود بن زنكي ما وعده به. ويذكر المقرئزي أن شاور «أرسل إليه ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وحفظه، فبعث شيركوه يقول له: إن الملك العادل نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مغل البلاد، والثلث الآخر لشاور والعسكر، والثلث الثالث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه» فأكر شاور ذلك وقال: «إنما طلبت نجدة وإذا انقضى شغلي عادوا، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وأنا أرضي نور الدين، فقال شيركوه: لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أنصرف إلا بإمضاء أمره»^(٢).

ويبين هذا النص أن شاور لم يمنح نور الدين بن زنكي ثلث دخل مصر، كما ذكر المقرئزي، كما أن شيركوه قال، إن نور الدين أوصاه عندما انفصل عنه، أن يبقى مع شاور في مصر وأن يكون لنور الدين ثلث دخل مصر، وهذا الشيء أنكره شاور وكأنه لم يسمع به.

وعرف شاور أن نور الدين طامع بمصر، فاستعد لقتال شيركوه وأظهر العداء له وأغلق أبواب القاهرة، وانقطعت الميرة التي كانت تأتي التُّرك من قبل شاور، وعند ذلك أرسل شيركوه، كما يقول المقرئزي «ابن أخيه صلاح الدين بطائفة من الجيش يجمع الغلال والأتبان وغير ذلك ببلييس، وتقدم إلى جزيرة قويسنا، فثار ابن شاس واليها على التُّرك وقاتلهم حتى هزمهم

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ ص ٢٧٣

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ ص ٢٧٤

وغرق منهم جماعة، فعاد صلاح الدين إلى عمه^(١).

وخرج شاور لقتال شيركوه فالتقاه في «كوم الريش*» في الثالث والعشرين من شعبان من السنة فانكسر شاور ودخل القاهرة فرماه أحد الناس بحجر من باب القنطرة فدخل إلى البستان الكافوري* مغشياً عليه^(٢).

واستعر القتال «فأخرج شاور العساكر والحشود وزحف إلى شيركوه وحاربه، فانهمز شاور ودخل القاهرة وأغلق أبوابها، وحاصره شيركوه طول النهار، فلما كان الليل أحرق من باب سعادة إلى ناحية اللؤلؤة، واشتد الأمر، وصار كل من يخرج من عسكر مصر يقتل، واشتد قتال شيركوه على باب القنطرة وأحرق وجه الخليج جميعه، وانضم إليه بنو كنانة، وفتحوا ثغرة، فكان هناك قتال شديد، فجلس العاضد على باب الذهب، وأمر بالخروج، فتسارع الصبيان وغيرهم إلى الثغرة وقاتلوا الترك والكنانية حتى أوصلوهم إلى منازلهم، وسدوا الثغرة»^(٣).

٤- شاور يستنجد بالصلبيين على شيركوه

بعد أن تعاضمت الحرب بين الترك والمصريين واتضح لشاور أنه عاجز عن مواجهة هؤلاء بادر للاتصال بالصلبيين، ويذكر المقرئ في ذلك فيقول: «لما تحقق لشاور أنه لا قبل له بشيركوه كتب إلى مري* ملك الفرنج بالساحل يستنجده ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين من مصر، ويقول له متى استقروا في البلاد قلعوك كما يريدون أن يفعلوا، وضمن له مالاً وعلفاً. ويقال إنه جعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار، فسُرّ الفرنج بذلك وطمعوا في ملك مصر. وخرج مري من عسقلان بجموعه فقبض عن مسيره سبعة وعشرين ألف دينار. ولما بلغ شيركوه ارتحل عن القاهرة إلى بلبيس وبها ما أعد له ابن أخيه من الغلال وغيرها، وانضم معه الكنانية، فخرج شاور في عسكر مصر، فاجتمع بالفرنج وخيم على بلبيس وأحاط بها، فكانوا يغادون القتال ويراوحونه ثلاثة أشهر، فبينما الفرنج في محاصرة شيركوه إذ

(١) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٧٤

* - كوم الريش، بلدة بين أرض البعل ومنية الشريح، كان بها أجل متزهات القاهرة.

(٢) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٧٥

* البستان الكافوري، أنشأه محمد بن طغج، ولما جاء القائد جوهر الصقلي جعله ضمن حدود القاهرة وعرف بالبستان الكافوري

(٣) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٧٦

* مري، Amalrich، هو الملك أمريك، أموري الأول ابن فولك وميليزند، تسلم حكم مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة ٥٥٨ للهجرة، واستمر حتى وفاته سنة ٥٦٩ للهجرة.

ورد عليهم أخذ نور الدين لحارم، ومسيره إلى بانياس، فسقط في أيديهم، وعولوا على الرجوع إلى بلادهم، فراسلوا شيركوه في طلب الصلح وعوده إلى الشام وتسليم ما بيده للمصريين، فأجاب إلى ذلك. و

ندب شاوور الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار إلى شيركوه، فقرر معه الصلح على ثلاثين ألف دينار أخرى فحملها إليه، وكانت الأقوات قد قلت عنده، وقتل من أصحابه جماعة، وأبطأت نجدة نور الدين فلم يأت منه أحد، وخرج من بلبيس أول ذي الحجة وسار إلى دمشق، فدخلها يوم الأربعاء ثالث عشرين ذي الحجة»^(١).

ويذكر ابن الأثير أن شاوور «أرسل إلى الفرنج يستمدهم، ويطلب أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد، فلما قارب الفرنج من مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً له يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر، فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً، وراسل الفرنج أسد الدين في الصلح ومفارقة مصر وتسليم ما بيده للمصريين، فأجابهم إلى ذلك، ثم سار إلى الشام وعاد سالمًا»^(٢).

وكما نرى فإن الروایتين متقاربتان حول هذه الحادثة، وأن شيركوه غادر مصر عائداً إلى دمشق.

وقد عاشت مصر بهدوء مدة قصيرة، لأن أطماع نور الدين فيها لم تتوقف، فقد عاد وأرسل شيركوه على رأس جيش إلى مصر. ويذكر المقرئ في هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٦٢ فيقول: «فيها جهز الملك العادل نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه من دمشق لقصد ديار مصر في جيش قوي، ومعه جماعة من الأمراء، فرحل يوم الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول، وبعث مري ملك الفرنج إلى شاوور يخبره بمسير شيركوه بالعسكر إلى مصر، فأجابه يلتمس منه نجدة، وأن المقرر من المال يُحمل إليه على ما كان يُحمل في السنة الماضية. فسار مري بعساكره على الساحل حتى نزل بلبيس، فخرج إليه شاوور، وأقاموا في انتظار شيركوه، فبلغه ذلك، فنكب عن الطريق وهبط في يوم السبت خامس ربيع الآخر من وادي الغزلان* إلى أسكر، وخرج إلى اطفيح قبلي مصرفشن الغارة هناك. واتصل الخبر بشاوور، فرحل هو والفرنج يريدونه، ونزل شاوور والفرنج بركة الحبش في يوم الأحد سادس جمادى الآخرة، وتوجه في يوم الثلاثاء منه إلى دير الجميزة، فاندفع سائراً

(١) اتعاط الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٧٨

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٢٢

في بلاد الصعيد حتى بلغ شرونة* وعدى منها إلى البر الغربي، وأدرك شاور ساقته فأوقع بهم، وعدى بعساكره وجموع الفرنج، ونزل شيركوه بالبحيرة في يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة تجاه مدينة مصر وأقام بها بضعا وخمسين يوما. وبعث إلى شاور بأني أحلف لك أني لا أقيم ببلاد مصر ولا يؤذيك أحد من أصحابي، وأكون أنا وأنت على الفرنج وننتهز فيهم فرصة قد أمكنت، فأبى شاور من قبول ذلك^(١)، وسار شاور والفرنج في طلب شيركوه، فنزلوا الأشمونين* وتبعوا شيركوه، فأمر شيركوه أصحابه بالتعبئة، فما طلع ضوء الصباح حتى أشرفت عساكر شاور وجموع الفرنج في عدد كبير، فقدم شاور طائفة فحملت على أصحاب شيركوه، وانهزم منها عز الدين الجاولي فلم ينزل إلا بالإسكندرية، وتفرق منهم عدد، فولى شيركوه وقد قتل من أصحابه جماعة، وكان سبب الخلل في عسكر شيركوه أنه فرق أصحابه فرقتين، فرقة معه وفرقة مع ابن أخيه صلاح الدين يوسف، ثم أنهم تجمعوا وقت الظهر ووطنوا أنفسهم على الموت، وحملوا على شاور ومن معه فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وحمل شاور على عسكر شيركوه فكسر القلب، فتلاحقت الميمنة بمن كان في القلب، واستمر القتال حتى حال بين الفريقين الليل، وقد تبين الوهن في عسكر الفرنج، فسار شاور بمن معه إلى منية بني خصيب، وكانت هذه الواقعة في موضع يعرف بالبابين، بالقرب من الأشمونين، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، ثم أن شيركوه سار بأصحابه على طريق الفيوم إلى الإسكندرية وانتهب البحيرة، فخدمه ابن الزبير متولي الإسكندرية، وحمل إليه الأموال وقواه بالسلاح، وأقام متخوفاً من مسير شاور إليه، فترك بالإسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف وخرج إلى الصعيد وجبى أموال البلاد، وسار شاور إلى الإسكندرية وفرض الحصار عليها مدة ثلاثة أشهر، ومنع الميرة عنها، فقلت بها الأقوات، هذا وشيركوه في جباية أموال الصعيد وأخذ غلاله، ولما بلغه ما نزل بالإسكندرية وأهلها من البلاء وقلة الأقوات، وأنها قاربت أن تؤخذ، فسار من قوص ونزل على مصريوم الخميس ثامن شوال، وأرسل إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، فبعث «صلاح الدين» إلى ملك الفرنج يلتبس منه ذلك، فأجابه إليه، وقرر مع شاور أنه يحمل إلى شيركوه جميع ما غرم في هذه السفرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٨٣

* وادي الغزلان، ويعرف بوادي شرش بالجبل الشرقي تجاه ناحية القبايات.

* الأشمونين، إحدى القرى التابعة لمركز ملوى بمحافظة المنيا - مصر

* شرونة، تقع في محافظة المنيا وتتبع مركز بني مزار.

بلاده، ووقع الحلف بالأيمان المؤكدة على ذلك. وتسلم شاور الإسكندرية في نصف شوال، وسار شيركوه ومن معه، ورحل مري عائداً إلى بلاده، فخرج شاور يودعه إلى بلبيس وعاد إلى القاهرة. واستقر الأمر بينهما وبين الفرنج أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عسكر إليها، وأن يكون لهم من دخل ديار مصر في كل سنة مائة ألف دينار. وقد قرر لهم شاور ذلك من دون علم العاضد ولا مشاورته، فإنه كان ممنوعاً من التصرف وشاور يستبد بأمر الدولة»^(١).

ويروي ابن الأثير رواية مختلفة قليلاً حول هذه الأحداث فيقول في أخبار سنة ٥٦٢: «في شهر ربيع الآخر من (السنة) عاد أسد الدين وسار إلى مصر، وكان بعد عوده من مصر، لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدخول إليها، وكان مما يهيج به على العود، زيادة حقه على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة سار إليها، وسير معه الملك العادل نور الدين جماعة من الأمراء، فجد في السير فوصل إلى الديار المصرية، فقصده أطفيج*، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل القاهرة، وتصرف بالبلاد الغربية وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكاناً يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، فلما تقابلت الطائفتان، حمل الفرنج على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهمزوا بين أيديهم فتبعوهم، فحمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على القلب من المسلمين والفرنج، فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن فيهم الجراح وأكثر القتل والأسر وانهمز الباقون، وكان هذا أعجب ما يؤرخ أن ألقى فارس تهزم عساكر مصر وفرج الساحل. ومن ثم سار أسد الدين إلى ثغرا الإسكندرية فلما وصل إليه تسلمه من غير قتال، فاستناب به صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد، فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صار شهر رمضان، وسار المصريون والفرنج إلى الإسكندرية وبها صلاح الدين، فاشتد الحصار وقل الطعام بالبلد، ثم أن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، ووصلته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد،

(١) اتعاظ الحفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٨٥

* أطفيج، إحدى مراكز محافظة الجيزة وتقع على الضفة الشرقية من النيل.

فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف الأول من شوال. أما الفرنج فإنه استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار، هذا جميعه بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ولا يعلم بشيء من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة»^(١).

وكما نرى فالروايتان متشابهتان، بشكل عام، باستثناء أن ابن الأثير الذي كان يؤرخ لتمجيد الزنكيين وإظهار محاسنهم وقدراتهم الخارقة، فقد تحدث بإطناب عن معركة البابين، وذكر أن قلة قليلة من التُرك هزمت جموعًا غفيرة من المصريين، وقال، «وكان هذا أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل». ومن دون شك، كان جيش شيركوه أكبر من ذلك بكثير، كما كان معه مجموعة من الأمراء الموصوفين بالحنكة العسكرية والشجاعة، وأيضًا فإن معركة البابين لم تنته بنصر مؤزر لأي من الطرفين، بل إن كليهما انسحب من المكان في الليل، ولو كان شيركوه قد انتصر بها، كما يزعم ابن الأثير، فلماذا لم يكمل إلى القاهرة ليأخذها في ذلك الوقت. ومن هنا نرى أن رواية المقرئ هي أكثر دقة وصوابية من رواية ابن الأثير.

٥- طمع الصليبيين بمصر

بعد أن علم الصليبيون بطمع محمود بن زنكي بمصر، قرروا أن يسبقوه وأن يسيطروا هم عليها، فجمع الملك الصليبي عموري عساكره وقصدها بنية احتلالها. ويتحدث المقرئ عن هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٦٤ فيقول: «جمع مري جموعه واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها عليهم بعدما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية، واستنجد عسكريًا قوى به جنده. وكان نور الدين بحلب، فأسرع مري إلى المبحي ظنًا أن نور الدين بعيد منه وعساكره متفرقة عنه، فبلغ نور الدين ذلك، فأخذ في جمع عساكره. ووصل مري إلى الداروم (دير البلح) فبلغ شاورًا فارتاع

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٣٤

وبعث إليه شمس الخلافة محمد بن مختار، فعندما دخل عليه قال له: مرحبا بشمس الخلافة، فقال: فمرحباً بالملك الغدار، وإلا ما أقدمك إلينا؟، قال: اتصل بنا أن الفقيه عيسى وصل إليكم ليزوج أختاً للكامل بن شاور بصلاح الدين يوسف ويتزوج الكامل بأخت صلاح الدين، فحسبنا أن هذا عمل علينا، فقال، ما لهذا صحة، ولو فعل لما كان ناقضاً للهدنة. فقال: الصحيح أن قومًا من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبوا على رأينا وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجت لتوسط الأمرينهم وبينكم، فقال له: فكم تريد أن يكون مبلغ القطيعة التي نقوم بها؟، قال: ألفي ألف دينار، فقال: حتى أعود إلى شاور بهذا الخبر وأرجع إليكم بالجواب، فلا تبرحوا من مكانكم، فقال مري: بل ننزل على بلبيس حتى تعود^(١). وكان قد كتب إلى شاور: إني قد قصدت الخدمة على ما قررت له لي من العطاء في كل عام، فكتب إليه شاور، إن الذي قررت لك متى احتجت إلى نجدتك أو إذا قدم عليّ عدو، فأما مع خلوبالي من الأعداء فلا حاجة لي إليك ولا لك عندي مقرر، فأجابه: لا بد من حضوري وأخذي المقرر، فعلم شاور أنه قد غدر وخان الأيمان، ونقض العهد، وطمع في البلاد، فجمع الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة، وسير إلى بلبيس حفنة من العسكر، ونقل إليها ما تحتاج إليه من الأقوات والغلات^(٢). فنزل (مري) على بلبيس وأرسل إلى قيس بن طي بن شاور، وكان ببلبيس، أين ينزل؟، فقال لرسوله: قل له ينزل على أسنة الرماح، فغضب من هذا وجعله سبباً لنقض ما قرره مع شمس الخلافة، وحاصر البلد حتى افتتحها قهراً بالسيف، وأخذ الناصر، ابن شاور أسيراً، وقتل جميع من كان فيها وأسرههم وسباهم، ونهب سائر ما تحتوي عليه، وأسرا المعظم سليمان بن شاور وقيس بن طي بن شاور. وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنك قال: أيجسب مري أن بلبيس جُبنة يأكلها، نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة^(٣). وشرع شاور في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً، فلم يكمل من ناحية النيل، وعمل على السور ثمانية أبواب. وسار

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٩٢

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٩٢

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٩٣

* اضطر شاور إلى إحراق مدينة مصر لأنها لم تكن محصنة جيداً، وخاف من سيطرة الصليبيين عليها، ما يعني أنهم سيسيطرون على القاهرة المجاورة، ولذلك أمر بإحراق مدينة مصر ونقل أهلها إلى القاهرة التي كانت محصنة جيداً وصمدت أمام الهجمة الصليبية تلك ولم تسقط.

* هاتور، هو أحد شهور السنة القبطية وهو يوافق شهر تشرين الثاني، نوفمبر. وذكر المقرئ لهذا الشهر باللغة القبطية يدل على أن الشهور القبطية كان معمولاً بها في مصر الفاطمية إلى جانب شهور السنة الهجرية.

مُري يريد منازل القاهرة، فداخل الناس منه رعب شديد وخوف عظيم، فاجتمعوا في القاهرة ووطنوا أنفسهم على الموت، وعندما علم شاور بذلك قام في حريق مصر*، وأمر الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وحريمهم. وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم الثلاثاء، التاسع من صفر الموافق له ثامن عشر هاتور*. واستمرت النار في المساكن أربعة وخمسين يومًا، والنهابة تهد ما هنالك وتحضر لطلب الخبايا^(١). ورحل مري فنزل على القاهرة في عاشر صفر، وقتل أهلها قتالًا شديدًا، وحفظوها وبذلوا جهدهم، واشتد الفرنج في محاصرة القاهرة وضيقوا على أهلها حتى تزلزل الناس زلزالًا شديدًا وضعفت قواهم. وكان شاور هو القائم بتدبير الأمور، فتبين له العجز عن مقاومة الفرنج، فأرسل شمس الخلافة إلى مري يطلب منه الصلح على أن يحمل إليه أربع مئة ألف دينار معجلة، فأجاب إلى ذلك، لكن مري قال لا أسمع من كلام شاور فإنه غدار، ولا بد من كلام الخليفة العاضد، فمشى أبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي، المعروف بالجليس قاضي القضاة وداعي الدعاة، ومعه الأستاذ صنيعة الملك جوهر، بين الفرنج وبين الناس حتى تقرر الأمر على تعجيل مئة ألف دينار وحمل الباقي بعد ذلك مع القطيعة المقررة كل سنة، وزيادة عشرة آلاف دينار وعشرة آلاف إردب غلة على ما يُقترح من أصنافها. وشرع شاور في جمع المال، فلم يجد في خبايا القصر سوى مئتي ألف دينار مخبأة، فحمل إلى الفرنج منها على يد ابن عبد القوي مئة ألف دينار، فأخذوها بعد امتناع، ووقع الطلب من أهل القاهرة ومصر فلم يتحصل من الناس إلا نحو الخمسة آلاف دينار، لفقر أهل مصر وسوء حالهم وذهاب أموالهم في الحرق، بحيث صاروا لا يجدون القوت عجزًا عنه، ولأن أهل القاهرة أكثرهم الجند وأهل الدولة وأتباعهم*^(٢).

ويتحدث ابن الأثير عن هذه الوقائع فيقول: «كان الفرنج قد استولوا على البلاد بمصر وجعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم، وحكموا على المسلمين حكمًا جائرًا، فنال المسلمين منهم أذى شديدًا، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم، وهو مري، ولم يكن ملك الفرنج مذخرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكرًا ودهاء، يستدعونه

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٢٩٧

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٩٩

* يتبين من كلام المقرئ أن الفاطميين جعلوا مدينة القاهرة عاصمة إدارية، وكان يوجد فيها رجال الدولة وأتباعهم والجند فقط، أما الشعب فكان في مدينة مصر القديمة التي كانت العاصمة الحقيقية للدولة الفاطمية. وكان يتركز فيها التجار وأصحاب الأموال.

ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبههم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي أنا لا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده لا يسلمونها إلينا ويقاتلون دونها، ويحملهم الخوف على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم، من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله، وقالوا: إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرها إلينا، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص فلما سمع نور الدين كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه. وجدّ الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وحاصروها فملكوها قهراً ونهبوها وسبوا أهلها، وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة وحاصروها عاشر صفر (سنة ٥٦٤) فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً، فبعث الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر إلى الملك العادل نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر»^(١).

ومن خلال ما تقدم يتبين الاختلاف بين رواية المقرئزي ورواية ابن الأثير حول هذه الأحداث، فالمقرئزي أشار إلى أن شاور أرسل رسولا من لدنه إلى الملك الصليبي «أموري» قبل وصوله إلى بلبيس، لكن ابن الأثير لا يشير إلى ذلك، بل إنه يذكر واقعة غريبة وهي تلك المحاورة بين الملك الصليبي وبين ذوي الرأي في مملكته، وكيف أن هذا الملك الذي، لم يسبقه أحد من ملوك الصليبيين في الشجاعة والدهاء، كان يعارض المسير إلى مصر، لكن الآخرين أقنعوه فسار معهم مرغماً.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، كيف علم ابن الأثير بتلك المحاورة التي جرت على أرض العدو وبين الملك وبين رجاله؟

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير - ص ١٣٨

قطعاً أن ما ذكره ابن الأثير حول ذلك هو حديث مختلق من خياله الخصب وليس له أي أساس من الواقع، ومن المؤكد أن أموري لم يكن أشجع ملوك الصليبيين، وإذا كان كذلك فأين ذهب جودفروي وأين ذهب تانكريد وأين ذهب ريموند سانت جيل؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإن أموري هو الذي نهض بإرادته لتنفيذ مخططه بامتلاك مصر، ولم يرغبه أحد على ذلك، وهذا ما قاله المقرئزي.

وأخيراً فقد أشار ابن الأثير إلى أمر مهم، وهو أن نور الدين عرف بنهوض الملك أموري إلى مصر ولذلك أرسل في استدعاء العساكر إليه. ومن هنا نعتقد بأن أحداً من مصر لم يكتب إلى نور الدين، بل إنه أخذ زمام المبادرة بنفسه وأرسل شيركوه بالعسكر لا لينقذ مصر، بل لكي يملكها بالقهر.

٦ - عودة الترك إلى مصر من جديد:

ما إن سمع نور الدين باتجاه الصليبيين نحو مصر حتى بادري في الحال إلى إرسال شيركوه إلى هناك. ويتحدث ابن الأثير عن هذه الواقعة فيقول في أحداث سنة ٥٦٤: «وكان نور الدين لما أتاه الرسل من العاضد، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص، وهي إقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في المعنى، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله، فعجب نور الدين من ذلك، وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مئتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة وغير ذلك، وحكمه في العسكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة له على طريقه، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وعز الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب. ثم أن أسد الدين سار مجداً، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم، وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها، واجتمع بالعاضد لدين الله، فخلع عليه وعاد إلى خيامه، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك، لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال

والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعدده ويمنيه، (وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا) ثم أنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج، إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد ويظهرون الفساد، فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور، اتفق صلاح الدين بن أيوب وعزالدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم، فقالوا: إننا ليس لنا في البلاد شيء طالما بقي هذا على حاله. وقصد شاور عسكر أسد الدين على عادته للاجتماع به، فلقية صلاح الدين وجماعته، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في زيارة قبر الشافعي، فقال: نمضي إليه، فساروه وهو معهما قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيراً، فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر، في الوقت عينه، إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في ١٧ ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدوها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه، وقصد أسد الدين قصر العاضد»^(١).

ويتحدث المقريزي عن هذه الوقائع فيقول: «وكان اجتمع شمس الخلافة محمد بن مختار بالكامل ابن شاور، وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلا بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه، فلما حلف له، قال: إن أباك قد وطن نفسه على المصابرة، وأخر أمره يسلم البلد إلى الفرنج ولا يكتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره، فصعد الكامل إلى الخليفة العاضد وكتب الكتاب وأرسله إلى نور الدين. فوافقت كتب العاضد إلى نور الدين بحلب، فانزعج لذلك وجمع الأمراء للمشورة فأشاروا بإرسال أسد الدين شيركوه، وكان بحمص وقد وصلت إليه الكتب من مصر باستدعائه لإنقاذهم وإنقاذهم مما نزل بهم، فخرج منها يريد السلطان بحلب، وخرج

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٤٠

رسول السلطان من حلب يطلبه، فتلاقيا بباب مدينة حلب، وعادا فلما رآه السلطان عجب من سرعة مجيئه، فأعلمه بموافاة الكتب إليه تستدعيه إلى مصر، فسر بذلك وتفاءل به، وأعطاه مائتي ألف دينار ووثياباً وسلاحاً ودواب، وحكمه في العسكر، فاختر ألفي فارس، وجمع فسار في ستة آلاف فارس. وأعطى نور الدين كل فارس عشرين ديناراً مصرية محسوبة عليه من راتبه، وأضاف إلى شيركوه جماعة من الأمراء، منهم عز الدين جرديك، وغرس الدين قلج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وصلاح الدين يوسف بن أيوب. وسار شيركوه من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول، وتقدم الفقيه عيسى الهكاري إلى العاضد سراً وخفية من شاور ليحلفه على أشياء. وبينما كان الفرنج في استحثاث أهل القاهرة في حمل المال إذ وصل إليهم في مستهل ربيع الآخر خبر قدوم أسد الدين بالعساكر فأزعجهم ذلك ورحلوا عن القاهرة يوم السبت، ثالث ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألفاً ما بين رجل وصبي وامرأة، ولما قارب شيركوه من القاهرة خرج شاور إلى لقائه وقابله بالاحترام والإكرام، وأشار عليه باتباع الفرنج، فاعتذر بما هم فيه من التعب. ونزل أسد الدين بظاهر القاهرة، ودخل على العاضد فخلع عليه وعاد إلى مخيمه، وقد فرح الناس بقدمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة والإقطاعات الوافرة، وثقل ذلك على شاور ولم يقدر على عمل شيء لما عرفه من ميل العاضد إلى شيركوه، وشرع يماطل بما تقرر لشيركوه ولنور الدين وهو يركب كل يوم إليه ويسير معه ويعدده ويمنيه. وعزم على أن يعمل دعوة ويحضر شيركوه وجميع أمرائه، فإذا صاروا إليه قبض عليهم واستخدم من معهم من الجند يمنع بهم الفرنج، فنهاه ابنه شجاع عن ذلك وقال: (والله لئن عزمتم على هذا لأعرفن شيركوه، فقال: يا بني، والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً) قال، صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل، وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عودة الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لومشي العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً، فترك شاور ما عزم عليه. وركب شاور على عادته إلى شيركوه ومعه الطبل والبوق وخرج من باب القنطرة، فلما صار في مخيم الغز تلقاه صلاح الدين وعز الدين جرديك في جماعتهم وأعلموه أن أسد الدين توجه إلى القرافة، فقال، نمضي إليه، فساروا جميعاً صلاح الدين عن يمينه وعز الدين جرديك عن شماله، وكان اليوم كثير الضباب، فتناول صلاح الدين شاور على غرة هو وجرديك وألقياه عن فرسه إلى الأرض، وأحاط أصحابهما بمن مع شاور فانتهبوهم وفروا عنه، وأخذ أسيراً إلى المخيم، وأرسلوا إلى شيركوه، فحضر، وبلغ ذلك العاضد فأنفذ في الحال

إلى شيركوه أحد الأستاذين بسيف وقال: هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا، فأمض حكم الله فيه، فقتل في يوم السبت ١٧ ربيع الآخر، وحملت رأسه إلى العاضد وفر الكامل شجاع بن شاور هو وأولاد أخيه إلى القصر، فكان آخر العهد بهم. وأحضرت رؤوسهم يوم الاثنين رابع جمادى الأولى»^(١).

ومما تقدم يتبين وجود تشابه في الرواية بين ابن الأثير والمقريزي وكأن أحدهما قد نقل عن الآخر، لأننا نجد تلك الأخبار بجرقيتها لدى الكاتبين، مثل خبر تجهيز نور الدين بن زنكي لشيركوه عندما أرسله إلى مصر، حيث يذكر كل من الكاتبين عدد الفرسان الذين كانوا في عسكره وعدد الأمراء وأن نور الدين أعطى شيركوه مئتي ألف دينار، كما نجد أن الكاتبين يتحدثان عن ابتهاج أهل القاهرة بمجيء شيركوه، كما نجد عند كليهما نفس الحديث عن حرق شاور لمدينة مصر ونفس الحديث المفترض أنه داربين شاور وبين ولده الكامل، وكيف أن الكامل نهى أباه عن خطته لاعتقال شيركوه وباقي زعماء الغز. ومن غير المعروف كيف عرف الراوي بهذا الحديث إذا كان الاثنان، شاور وولده الكامل، قد قتلوا من دون رحمة.

كما نجد عند الكاتبين نفس الحديث عن مماثلة شاور لشيركوه، ونفس الحديث عن كيفية قتل شاور، وأن شاور جاء لرؤية شيركوه كعادته، لكنه لم يجده، ويقول ابن الأثير، إنه كان في زيارة قبر الشافعي، أما المقريزي فيقول، إنه كان بالقرافة من دون ذكر زيارة قبر الشافعي. كما يظهر هذان المؤرخان أن العاضد كان يلعب دوراً آنذاك، وأن شاور لم يستطع أن يبين عدم ترحيبه بشيركوه خوفاً منه، في حين أن كليهما قالاً في مكان سابق، إن العاضد كان بلا كلمة لأن الأمور كانت بيد شاور.

وباعتقادنا أن الوقائع المذكورة أعلاه، حول مجيء شيركوه إلى مصر، غير دقيقة على الإطلاق. ولا شك أن كلا من ابن الأثير والمقريزي قد نقلوا هذه الوقائع عن مؤرخ آخر لعله عماد الدين الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين، وانساق كلاهما إلى روايته عن غير تبصر، ولذلك جاءت الروايتان، عند الكاتبين، متطابقتين. وإننا نميل إلى الاعتقاد بأن أحداً في مصر لم يرسل إلى نور الدين يطلب منه إرسال العساكر، بل إنه قام بهذا الأمر من تلقاء نفسه، بل كيف يفعل العاضد ذلك وهو يعلم أن في ذلك نهايته ونهاية الدولة التي بناها أجداده؟

وللأسف فإن حقيقة تلك الأحداث لاتزال غائبة، لكن لا بد من العمل على إظهارها لتبين تلك المؤامرة التي حيكت ضد مصر من قبل الترك.

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٠١

٧ - شيركوه في منصب الوزارة:

بعد أن قتل شاور، خلا الجو لشيركوه ليصبح وزيراً في دولة الفاطميين، ويقول ابن الأثير: «وقصد أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر وغلب عليه، ولم يبق له منازع ولا مناوئ، وولى الأعمال من يثق إليه واستبد بالولاية، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها. ولما ثبت قدمه وصفت دناءه وارتفع شأنه، وخافه القاصي والداني، أتاه أمر الله الذي لا محيد عنه ولا مفر، فمرض ومات يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام»^(١).

ويتحدث المقريزي عن هذه الواقعة فيقول: (ثم أن أسد الدين ركب بعد قتل شاور بجموعه ودخل إلى القاهرة في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر يريد لقاء الخليفة العاضد، فهاهنا ما رأى من كثرة اجتماع الناس وتخوف منهم، فأراد أن يفرقهم، فقال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فتسارعوا إليها وانتهبوا سائر ما كان فيها، فصعد شيركوه إلى القصر، وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، ونزل إلى دار الوزارة حيث كان ينزل شاور، فلم يجد ما يجلس عليه، بسبب نهبه من قبل العامة، فجلس للهناء وغلب على الأمر، وخرج إليه التوقيع بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقرأه الجليس ابن عبد القوي قاضي القضاة، على رؤوس الأشهاد، وفي أعلاه بخط العاضد: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً بحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله. فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزّت بأن بنوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً، (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) وهو توقيع كبير»^(٢). وكتب القاضي الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكي كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر، وأنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش، تاريخه سابع عشري ربيع الآخر، وكتب العاضد علامته سطره الأولين بخطه (الله ري)، فعاد الجواب بالامتنان، وسلك شيركوه مع العاضد مسالك الأدب حتى أعجب به، ومال إليه، وركب إلى مصر فراها مشوهة بالحريق، فسفه رأي شاور فيما فعله، وأمر أهلها بالعودة

(١) التاريخ الباهر بالدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٤١

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٠٢

إليها، فشكوا ما حل بهم من الفقر وذهاب الأموال وخراب المنازل، وقالوا، إلى أي موضع نرجع وفي أي مكان نأوي، فقال، لا تقولوا هذا، وعليّ بإذن الله حراستكم وإعادتها إليكم بما كانت عليه وأحسن، فاستدعوا مني كل ما لكم فيه راحة، فهي بلدي وربما أسكن فيها بينكم، فشكروا له ودعوا، وتراجعوا إلى مصر شيئاً بعد شيء. وجعل أسد الدين اجتماعه بالخليفة العاضد في الشباك على العادة، وأول ما اجتمع به قال له الأستاذ صنيعه الملك جوهر، وكان أكبر الأستاذين وأفصحهم لساناً، وهو قائم على رأس العاضد، يقول لك مولانا لقد كنا نؤثر مقامك عندنا أول طروقك بلادنا، لكن أنت تعلم الموانع عنه، ولقد تيقنا أن الله عز وجل ادخرك لنا نصرة على أعدائنا، فقال أسد الدين: يا مولانا - بإمالة اللام* والله لأنصحك في الخدمة ولأجعلن دولتك بعون الله قاهرة، فقال الأستاذ: يقول لك مولانا، الأمل فيك هذا وأكثر، ثم جدت له الخلع وأفيضت عليه، ونزل إلى داره^(١). واستبد أسد الدين بأمور المملكة، وغلب على الدولة، واستعمل أصحابه وثقاته على الأعمال، وأقطع البلاد لعساكره. ولما بلغ نور الدين وزارة شيركوه للعاضد واستبداده بالأمر كره ذلك وأمضه، وظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وأخذ يتحدث في ذلك، وأفضى به إلى الأمير مجد الدين ابن الداية، وأخذ يعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، وكاتب العاضد في ذلك غير مرة، ويلتمس منه أن يبعث إليه أسد الدين، يريد بذلك إخراجة عن مصر، فلم يسمح العاضد بإرساله لأنه دبر الأمور وقام بحمل أعباء المملكة من غير أن يغير على أصحاب العاضد شيئاً من أحوالهم، ولا أنكر عليهم أمراً من أمورهم، بل أقرهم على عوائدهم سوى أنه أقطع البلاد لأصحابه^(٢). وتولى عنه التدبير ابن أخيه صلاح الدين وقام بمباشرتها، فصار له الأمر والنهي حتى مات أسد الدين، بعد أن استقر في الوزارة ثلاثة وستين يوماً، يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بخناق تولد له من إكثاره أكل اللحوم الغليظة*، ودفن في الدار فلم تخرج له جنازة^(٣).

ومما تقدم يتضح التشابه بين رواية كل من ابن الأثير والمقريزي حول دخول

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٠٤
* قول شيركوه: «يا مولانا بإمالة اللام» يعني تصيح الكلمة «يا مولينا» وهذه اللهجة موجودة في بعض مناطق سوريا، وهي متوارثة من أيام الترك.

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٠٤

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٠٥
* يقول أبو شامة الدمشقي: «كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذ مرض شديداً، واعتراه خانوق عظيم، فقتله - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - ج ٢ - ص ٤٧

شيركوه إلى القاهرة ولقائه بالخليفة العاضد وتوليته الوزارة، لكن ابن الأثير لا يذكر عهد العاضد لشيركوه بالخلافة، كما لا يذكر امتعاض نور الدين بن زنكي من وزارة شيركوه وكيف أنه راح يرسل الخليفة العاضد ويطلب منه إرسال شيركوه إليه.

والواقع أن عدم ذكر ابن الأثير لعهد العاضد إلى شيركوه، هو أمر مفهوم لأنه لو ذكره لاضطر إلى ذكر عهد الخليفة العاضد إلى ابن أخيه صلاح الدين من بعده، والذي نكتح بيعته وانقلب على دولة العاضد كما سنرى. كما أن عدم ذكر مطالبة نور الدين للخليفة العاضد بإرسال شيركوه إليه، هو لأنه لم يكن يريد في كتابه أن يظهر إلا محاسن آل زنكي. ورغم أن المقريزي تحدث عن إرسال نور الدين الكتب إلى العاضد يطلب منه فيها إرسال شيركوه إليه، إلا أنه لم يعلل سبب ذلك.

٨ - صلاح الدين في منصب الوزارة:

تركت مودة شيركوه الفجائية، الغزو والمصريين، على السواء، في حالة ذهول. فلم يكن أحد يتوقع أن يموت هذا الفارس بهذه الطريقة المؤلمة، لكن هذا قضاء الله الذي يجري بين بني البشر. وقد وقع الخلاف بعده على منصب الوزارة الذي بات شاغراً، ويتحدث المقريزي عن هذا الأمر فيقول: «لما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد من الأستاذين وغيرهم فرقتين، فأما إحداهما - وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر - فإنهم قالوا قد مات أسد الدين المهدي به في الشرق والغرب ولم يحدث إلا خير، ومن الرأي أن نمسك مخلفته ونضيف إليها من جياذ فرسان الغزما تكون جملته ثلاثة آلاف فارس، ونقدم عليهم بهاء الدين قراقوش، وننزلهم بالشرقية، ونجعلها بأجمعها إقطاعاً لهم يسكنون بها، فيصيرون بيننا وبين الفرنج الذين طمعوا في البلاد، يقاتلون عن حرمهم وإقطاعاتهم، ويرتب مولانا من أجناد الديار المصرية من ينتفع به، ولا يقيم وزيراً تثقل وطأته ويشارك الخليفة في أمره، بل يجعل صاحب وساطة بين الناس وبين الخليفة. وقالت الطائفة الأخرى لا وحق الله، ما يكون وزير مولانا إلا بن أخي وزيره، الذي هو منه وإليه، يعنون صلاح الدين، وإذا بقي المذكور أقام معه قراقوش وغيره من المعتبرين. كذلك وقع في عسكر أسد الدين، فإن شهاب الدين الحارمي، خال صلاح الدين، والأمير عبد الدولة الياروقي وأخاه الأمير بهاء الدولة والأمير قطب الدين خسرو بن تليل، والأمير علي بن أحمد المشطوب، طلب كل منهم الوزارة لنفسه وجمع أصحابه

ليغالب عليها. واجتمع ممالك أسد الدين، وهم خمسمائة، على صلاح الدين وطلبوا وزارته، وتحدثوا بأن أسد الدين أوصى إليه، فبعث العاضد إليهم وسأل الأمراء من يصلح للوزارة، فسار إليه شهاب الدين محمود الحارمي وأرشده إلى تولية صلاح الدين. وكان العاضد قد مال إليه وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم لما اختلفوا، والله إني لأستحي من تسريح صلاح الدين وما بلغت غرضًا في حقه لقرب عهد مقام عمه. فأرسل إليه وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر، وحنّكه، ونعته بالملك الناصر، وذلك في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادة الآخرة، وصفة الخلعة ثوب أبيض ديبقي بطرازين ذهبًا، وطيلسان مقور بطراز ذهب دقيق، وعمامة بيضاء مذهبة، وفي عنقه العقد الجوهري قيمته عشرة آلاف دينار، وقد تقلد سيف الوزارة وقيمه خمسة آلاف دينار، وركب فرسًا حجرة صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرفسار ذهب مجوهر، وأعلافها من سبته، وفي عنقها مشدّة بيضاء برأسها مائتا حبة جوهرًا وفي أربع قوائمها أربعة عقود من جوهر، وعلى رأسه قسبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ومشدّة بيضاء بأعلام ذهب، وحُمل بين يديه عدة بقج فيها أنواع من الثياب، وقيد معه أيضًا عدة خيول، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض بخط القاضي الفاضل ومن إنشائه، وقرأه الجليس ابن عبد القوي، وهو كبير جدًا وعلى رأسه بخط العاضد: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله سبحانه عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضًا بيمينك، ولئن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة، ولئن بقي بقرينا أعظم سلوة، «وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»». فكان آخر منشور كتب من العاضد^(١). ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه، فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم، وبدأ بالمشطوب فقال له: هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، ثم قصد الحارمي وقال له، هذا صلاح الدين ابن أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراج عنه ولا يصل إليك، وما زال بهم حتى مالوا إليه وأطاعوه بأجمعهم إلا عين الدولة فإنه قال لا أخدم يوسف أبدًا، وخرج من القاهرة بجماعة وصار إلى نور الدين بالشام^(٢).

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٠٩

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١٠

* يروي ابن العديم أن عيسى الهكاري كان شديد التعصب للمذهب الشافعي وعندما استولى صلاح الدين على حلب،

ويتحدث ابن الأثير عن هذه الواقعة فيقول: «أما كيفية ولايته (صلاح الدين)، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأميرعين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالبا عليها، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين كان في ولايته مستضعفاً يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه وأخذ كارهاً، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة، الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري* معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: «هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ومملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجته عنه ولا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره أيضاً وحلفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له، إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك، ووعدته وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضاً، وعدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم تنفعه رقاؤه ولا نفذ فيه سحره وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليه فراقه»^(١).

مما تقدم يتبين أن هناك تشابهاً، إلى حد ما، في الرواية بين ابن الأثير وبين

طلب منه عيسى الهكاري أن ينقل الخطابة فيها من الحنفية إلى الشافعية، فعزل عنها عم ابن العديم، ويدعى «أبو المعالي» وولها أبو البركات سعيد بن هاشم، وفعل في القضاء كذلك، فسير إلى القاضي محي الدين محمد بن زكي الدين علي إلى دمشق، فأحضره إلى حلب ووحي قضاءها، وعزل والد ابن العديم عن القضاء - زبدة الحلب - ص ٣٩٦

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٤٢

المقريزي، لكن ابن الأثير يقول، إن العاضد اختار صلاح الدين للوزارة لأنه كان يراه أضعف الأمراء التُّرك حيث قال بالضبط «وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين كان في ولايته مستضعفًا يحكم عليه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه العض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه وأخذ كارهاً». وهذه الرواية لا يذكرها المقريزي ولعلها من تأليف ابن الأثير أو هكذا أوحى له خياله لأنه كان مأخوذاً بالصراع الطائفي الذي كان دائراً آنذاك بين الغزويين من خلفهم العباسيين، وبين المصريين، ولهذا افترض أن العاضد لا يمكن أن يقبل بوجود الغزويين في داره، كما أن ابن الأثير لا يذكر عهد العاضد إلى صلاح الدين، وذلك لكي يبرر انقلاب صلاح الدين على العاضد، فلو أنه ذكر أن العاضد أخذ منه البيعة لنفسه فهذا يعني أن صلاح الدين نكث ببيعة ثابتة في عنقه إلى يوم القيامة وسوف يسأله الله تعالى عن نكثه بهذه البيعة. وأيضاً فإن ابن الأثير يتحدث عن الدور الذي لعبه الفقيه عيسى الهكاري لتثبيت وزارة صلاح الدين، وهو يبين أنه استغل المسألة القومية ليشير الحمية في نفوس الأمراء مثل أحمد المشطوب.

وهنا يمكن طرح سؤال هو، هل يجوز لرجل الدين أن يفعل هذا الأمر وأن يستغل المسألة العرقية لأهداف سياسية؟

٩- ثورة المصريين على صلاح الدين:

لم يكن المصريون، منذ البداية، يأمنون الغز، لأن هؤلاء تربوا على الحقد على الدولة العلوية ومناصبه العداء لها وترقب الفرصة فيها، ولذلك كان المصريون منهم في حذر، وعندما استقام الأمر لصلاح الدين في الوزارة شرع في تنفيذ مشروعه لنقض الدولة الفاطمية. ويقول المقريزي: «واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وساس الأمور وكاتب الأطراف، وأقبل على الجد، وتاب عن الخمر، وأعرض عن اللهو، وتقرب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر ركباً ويقيم عنده بالقصر عدة أيام، وعظم في الدولة حتى حسده الأمراء وباينه جماعة منهم وتوجهوا إلى الشام، وشرع في استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال وأخرج ما كان في خزائن عمه أسد الدين، واستدعى من العاضد فأمدّه بشيء كثير من المال، فكان أمره في زيادة وقوة وأمر العامة في نقص وضعف. وثقل ذلك

على أهل الدولة وحواشي الخليفة العاضد، فإنه أقطع أصحابه أجل البلاد وآواهم، وأبعد أهل مصر وأضعفهم، واستبد بجميع الأمور ومنع العاضد من التصرف، ففطن العاضد لما يريد من إزالة الدولة^(١). فثار مؤتمن الخلافة، وهو يومئذ من أكابر خدام القصر، وبعث بمكاتبة الفرنج يستنجد بهم على الغز، ويحثهم على قصد البلاد ليخرج إليهم صلاح الدين بعساكره فيثور عند ذلك بصعيد مصر وطوائف العسكر، ويصير صلاح الدين محصوراً بين الفرنج وبينهم فيأخذونه ويتلفون من معه، ووافقه على ذلك جماعة. وبعث رجلاً بالكتاب إلى الفرنج بعدما جعله في نعل كي لا يعثر عليه، فلما وصل الرجل إلى البئر البيضاء قريباً من بلبيس، ظفربه بعض أصحاب صلاح الدين ومعه نعلان جديان في يده، فارتاب لما رآه من سوء حاله وحسن النعلين، وعلم أنهما لا يليقان به، ولو كانا من ملابسه لكان تبين فيهما أثر الاستعمال، فأخذهما منه وفتحهما فوجد فيهما الكتب إلى الفرنج، فتقرب بذلك إلى صلاح الدين، وحضر بالرجل والكتب إليه، فكتّم ذلك، وتتبع من كتب الكتب حتى أحضر إليه برجل يهودي، فلما خاف منه أسلم وأخبره الخبر^(٢). فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة وخشي على نفسه، فلزم القصر وامتنع من الخروج مدة وصلاح الدين لا يلتفت إليه، فاغترل إعراضه عنه وخرج إلى منظره له على النيل، بستان بناحية الخرقانية قريباً من قليوب، فأرسل إليه صلاح الدين بجماعة من أصحابه هاجموه وقتلوه، وصاروا إليه برأسه، وذلك في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة^(٣). وجعل زمام القصر عوضه الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي. فغضب لقتله السودان وحرك منهم ما كانوا يكتمونونه، فاجتمعوا لحرب صلاح الدين في سادس عشره، صبيحة قتل مؤتمن الخلافة، وقد صاروا في جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد يزيد على الخمسين ألفاً، وزحفوا إلى دار الوزارة. فبدر إليهم شمس الدولة توران شاه، وركب صلاح الدين بعساكره وقد تجمعت الريحانية والجوشية والفرجية ومن انضاف إليها في بين القصرين، وخرجت إليهم الأرمن، فوقع بين الفريقين قتال عظيم استظهر فيه العبيد على الغز، والعاضد في المنظره يشرف على الوقعة، فلما تبين الغلب للعبيد وكادوا أن يهزموا الغز رمى أهل القصر بالنشاب والحجارة حتى امتنعوا عن

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٣١١

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٣١٢

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٣١٢

* من غير المرجح أن تكون عبارة «العبيد الكلاب» قد خرجت من فم الخليفة العاضد، فلماذا يقول العاضد ذلك بينما كان هؤلاء يدافعون عن ملكه، ومن المرجح أن تلك العبارة هي من الدس الذي فعله مؤرخو الغز الذين أخذ المقرئ رواياته عنهم حول تلك الأحداث.

مقاتلة العبيد، فنادى شمس الدولة النفاطين وأمرهم بإحراق المنظرة التي فيها العاضد فطيب قارورة وصوّب على المنظرة بها، فإذا بباب الطاق قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة، أحد الأستاذين الخواص، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب* أخرجوهم من بلادكم^(١)، فلما سمع العبيد ذلك، وكان قد قتل أحد مقدميهم، وبعث صلاح الدين، في أثناء محاربته لهم، إلى حارة السودان خارج باب زويلة، المعروفة بالمنصورة، فأحرقها وتلفت أموالهم وهلك أولادهم وحرّمهم، وضعفت لهذه الأمور نفوسهم، فانهزموا بعدما ثبتوا يومين، فركب الغز أقفيتهم يقتلون ويأسرون، إلى أن وصلوا إلى السيوفية وثبتوا هنالك، فألقى شمس الدولة النيران في المواضع التي امتنعوا بها^(٢). وأحرق أيضاً دار الأرمن التي كانت بين القصرين، وكان بها خلق كثير من الأرمن كلهم رماة لهم جار، وكانوا في هذه الحروب قد أنكوا الغز بشدة برميهم ومنعواهم أن يتجاوزوا من موضعهم إلى محاربة العبيد. فلما احترقت عليهم الدار لم يكذب يفلت منهم أحد. والتجأ العبيد إلى عدة أماكن، وكلما امتنعوا بموضع ألقى الغز فيه النار وقاتلوهم، حتى صاروا إلى باب زويلة وأخذت عليهم أفواه السكك وقد وهنوا ولم يجدوا لهم ملجأ، فصاحوا وطلبوا الأمان، فأمنوا على أن لا يبقى منهم أحد بالقاهرة، فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة، ومال الغز على أموالهم وديارهم واستباحوا جميع ما فيها، وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة، فما هو إلا أن صاروا بالجيزة حتى عدى عليهم شمس الدولة بالعسكر فأبادهم حصداً بالسيف، ولم ينج منهم إلا الشريد، وأمر صلاح الدين بتخريب المنصورة وصيرها بستاناً، فمضى العبيد وذهبت آثارهم من مصر. وأخرج صلاح الدين خاله شهاب الدين الحارمي إلى الصعيد يتتبع من فر من العبيد فأفناهم، ولم يبق منهم بديار مصر إلا من اختفى، بعد أن كانت البلاد كلها لا تخلو مدينة ولا محلة من أن يكون فيها مكان معد للعبيد، محمي لا يدخله وال ولا غيره. وأخذ صلاح الدين في السطو على دور العبيد والأرمن والأمراء وأسكن فيها أصحابه معه بالقاهرة. وقوي صلاح الدين وتلاشى العاضد وانحل أمره، ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة، وتابع صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعغه، فأتى على المال والخيول والرقيق وغير ذلك، حتى أن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرساً وهو راكب، فقال ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه، ونزل عنه وشق خفيه ورمى بهما

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١٣

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١٣

وسلم إلى القاصد الفرس وعاد إلى قصره ماشيًا، فلزم مجلسه ولم يعد بعدها يركب حتى مات»^(١).

ولا يذكر ابن الأثير هذه الواقعة، لكن لا بأس فمن كلام المقرئ يبين أن الخليفة العاضد تنبه إلى مكيدة الغز، ولذلك غض الطرف عن مسعى مؤتمن الخلافة للاستنجاد بالصليبيين، لكن شاءت الأقدار أن يقع حامل الكتاب بيد الغز، فأبلغوا زعيمهم صلاح الدين به، فترقب الفرصة بمؤتمن الخلافة حتى قتله، وعند ذلك ثار السودان والأرمن وكان هؤلاء من أخلص الناس للخلافة الفاطمية، فالأرمن كان منهم وزير المستنصر، بدر الجمالي أمير الجيوش وابنه الأفضل، وأما السودان فإن مؤتمن الدولة كان منهم. وقد مال النصر إلى جانبهم على الغز لولا أن هؤلاء أرادوا تدمير المنظرة التي كان يجلس بها العاضد بهدف قتله، وقد شق ذلك على الخدم في القصر، فأعلنوا وقوفهم إلى جانب الغز وهم يعلمون أن النتيجة ستكون في غير مصلحتهم، لكن هكذا شاءت الأقدار، إن الحكم إلا لله.

١٠- نور الدين بن زنكي يندم على ما فعل

لم تكتمل فرحة نور الدين بن زنكي بدخول شيركوه إلى مصر وقتل شاور واستتباب الأمر للغزنائي، إذ سرعان ما تبدل فرحه غمًا عندما علم بموت شيركوه واستيلاء صلاح الدين على منصب الوزارة فيذكر المقرئ أنه «لما بلغ نور الدين استيلاء صلاح الدين أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه من شدة ما عظم عليه ذلك وأغضبه»^(٢). ويذكر المقرئ أيضًا أن صلاح الدين، أرسل إلى نور الدين يسأله في إرسال أبيه وأخيه فلم يجبه إلى ذلك»^(٣).

لكن ابن الأثير يقول: «وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك، وقال، أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم أن الفرغ اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة توران شاه، وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير، قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر،

(١) اتعاضد الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ العلوي - ج ٣ ص ٣١٤

(٢) اتعاضد الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٣١٠

(٣) اتعاضد الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ٣١٠

فإنك تفسد البلاد وأحضر ك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصروف قائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، فقال أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يتصل بك خبره إن شاء الله تعالى، فكان كما قال»^(١).

ومن غير المعروف ما إذا كانت هذه القصة التي ذكرها ابن الأثير صحيحة. لكن يتضح من سياق الأحداث أن صلاح الدين أرسل غير مرة يطلب من نور الدين إرسال والده وإخوته إليه، لكن نور الدين كان يرفض لأنه لم يكن يريد تقديم أية خدمة إلى صلاح الدين، بل كان يسعى إلى إفشاله ربما لأنه لم يكن يثق به ويخاف من غدره، وكان في مراسلاته لا يخاطبه بمفرده بل كان يكتب كما يذكر المقرئ: «الأمير الأسفل صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا، ويجعل على رأس الكتاب تعظيمًا لنفسه وترفعًا عن أن يكتب اسمه»^(٢).

ويذكر المقرئ أيضًا أن نور الدين «أخذ إقطاع صلاح الدين وإقطاع عمه شيركوه في حمص ومنع نوابه من التصرف هناك وأبعد أهاليهم واستنقلهم وطردهم عنه، وكتب إلى الأمراء بمصر بمفارقتهم وتركه بمصر وحيدًا ليوهن أمره، وشرع يذمه ويذكره بالسوء ويعنته في الطلب بحمل الأموال إليه، وصار كثيرًا ما يقول: ملك ابن أيوب ويستعظم ذلك احتقارًا له»^(٣).

لكن الأمر تبدل قليلًا عندما علم نور الدين بمسير الصليبيين إلى مصر لطرده الغز منها ونزولهم على دمياط، حيث وافق على تسيير أخوة صلاح الدين ضمن جيش أرسله إلى مصر من أجل مواجهة الصليبيين والشعب المصري معًا، فيذكر المقرئ في أحداث سنة ٥٦٥ «وألح الفرنج على أهل دمياط وضايقوهم، والناس صابرون في محاربتهم، وبعث صلاح الدين إلى نور الدين يستنجده ويعلمه أنه لا يمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفًا من قيام المصريين عليه، فجهز نور الدين العساكر شيئًا بعد شيء وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالساحل وأغار عليها واستباحها»^(٤).

ومن هذا النص يتبين أن صلاح الدين كان يعلم بكره المصريين له وكان يعلم أنهم يتحينون الفرصة للخلاص منه ومن قومه الغز، ولهذا أرسل إلى نور الدين يستنجده، فعجل هذا بإرسال النجدة لا من أجل صلاح الدين

(١) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية - ابن الأثير الجزري - ١٤٣

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١١

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١١

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١٥

بل لكي تبقى مصر تحت حكمه، وقد انفرج صلاح الدين بورود أخوته إليه وتقوى بهم على المصريين وعلى نورالدين معاً، وقد رأينا أن أخاه الأكبر توران شاه هو الذي قاد الحرب ضد ثورة الزنج والأرمن في القاهرة. وظل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب، عند نورالدين وكان يتولى قلعة بعلبك، لكن خليفة بغداد المستنجد راح يطالب نورالدين بن زنكي بإقامة الخطبة لبني العباس في مصر، ما اضطر نورالدين إلى إرسال نجم الدين إلى مصر ليساعد ولده في هذه المهمة.

ويتحدث المقريزي عن هذه الواقعة في أحداث سنة ٥٦٥ فيقول: «وفيها أرسل صلاح الدين يطلب من نورالدين أن يبعث إليه بأبيه نجم الدين أيوب ابن شاذي، فأرسله إليه في عسكر، وكان سبب تجهيز الملك العادل نورالدين لنجم الدين بن أيوب كثرة ورود مكاتبة الخليفة المستنجد بالله العباسي من بغداد يعاتبه على تأخير إقامة الخطبة العباسية بمصر، فوالى نورالدين كتابة الملاحظات إلى صلاح الدين يأمره بذلك، وهو يعتذر إليه عن ترك الخطبة بما يخافه من المصريين. فوردت رسل المستنجد إلى دمشق بالاستحثاث والعزم على إقامة الخطبة بمصر ولا بد، فرأى نورالدين أن مثل هذا المهم لا يقوم به إلا نجم الدين أيوب، وكان يتولى قلعة بعلبك، فأرسل إليه وقرر معه الأمر وسيّره. وسار معه كثير من التجار ممن له هوى في مصر وغرض في صلاح الدين، فخرج ابنه صلاح الدين إلى لقائه مع الخليفة العاضد إلى صحراء الإهليلج خارج باب الفتوح ولقيه هناك، ولم تجر العادة بخروج الخليفة إلى لقاء أحد، وذلك في رابع عشر شهر رجب، ولقبه العاضد بالملك الأوحده، وزينت القاهرة ومصر لقدمه، وبالع العاضد في احترامه والإقبال عليه، وكان وصوله إلى القاهرة لست بقين من رجب، وقيل في جمادى الآخرة، فقررت له ولاية الإسكندرية وولاية دمياط والبحيرة»^(١).

ومن هذا النص يتبين أن نورالدين خضع أخيراً وأرسل أيوب إلى عند ولده في مصر لكن ليس نزولاً عند رغبة صلاح الدين، بل من أجل تحقيق هدف وإنجاز مهمة وهي القضاء على الدولة الفاطمية، ولعل الأمر الذي لا يمكن فهمه هو، لماذا كان نورالدين بن زنكي يخضع ويخشى من خليفة بغداد ولماذا كان يسعى دائماً إلى رضائه، ولماذا كان مصرّاً على تدمير الدولة الفاطمية ولم يخطئ الفاطميون بحقه ولا بحق أبيه وجده ؟

والواقع لا يمكن فهم هذا الخضوع والانقياد والتبعية إلا بكون نورالدين تشرب منذ الصغر حب العباسيين والانقياد لهم، فذلت نفسه تجاههم

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣١٧

وخضع لهم، مع أنه كان يمثل قوة لا يقوى الخليفة العباسي أن يقف في وجهها، وهكذا كان مسخرًا لخدمة العباسيين حقًا وباطلاً، وكان مثل هيروكليس، في الأسطورة اليونانية، الذي جعله الإله زيوس خادماً للأضعف انسان في بلاد اليونان.

١١- إزالة رسوم الدولة العلوية بمصر

بعد أن جاء نجم الدين أيوب وأولاده إلى مصر تقوى بهم صلاح الدين، وكان هو بالأساس قد أصبح قوياً بعد أن انتصر في المعركة الأخيرة على المصريين. ولذلك عزم على تنفيذ ما أضر عليه منذ أن وافته فرصة الدخول إلى مصر، حيث عمد سنة ٥٦٥هـ إلى إبطال الأذان بـ (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر). ويذكر المقرئ في هذه الواقعة في أحداث تلك السنة فيقول: «وفيها أبطل صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، فكانت أول وصمة دخلت على الدولة، ثم أمر أن يُذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي، وذلك يوم الجمعة لعشر مضين من ذي الحجة، ثم أمر أن يذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: «اللهم أصلح العاضد لدينك. لا غير»^(١).

لكن هل كان العاضد إلا مسلماً، وهو حافد سيد المرسلين.

وتابع صلاح الدين مسعاه لمحو التشيع من مصر فعمل على عزل القضاة الشيعة وتعيين قضاة شافعيين مكانهم للتمهيد لنشر مذهبه. فيقول المقرئ في أحداث سنة ٥٦٦هـ: «وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر من الشيعة، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درياس الهدباني الشافعي، وجعل إليه الحكم في جميع بلاد مصر بعدما أحضره من المحلة، وخلع عليه في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة، فعزل من كان بها من القضاة واستناب عنه قضاة شافعية، ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعي ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل من حينئذ مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره»^(٢).

وكان الذي ساعد صلاح الدين للقيام بهذه الخطوة هو أنه منع أمراء

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣١٨

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٢٠

المصريين من التصرف، وزاد من العسكر الغزفي القاهرة فأصبحت كلمته هي النافذة، وفي ذلك يقول المقريزي في أحداث سنة ٦٦٥ : « وفيها كثر بمصر عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه، وانكفت أمراء المصريين عن التصرف ومنعوا من كل شيء، فبسطوا ألسنتهم بالقول ضد ما عليه صلاح الدين وأصحابه من الفعل في محو آثار الدولة الفاطمية وإزالة رسومها، وخلع العاضد وقتله. والدعاء للخليفة العباسي، فلما رأى أمره قد قوي وأوتاد دولته قد تمكنت من البلاد عزم على إظهار ما يخفيه، فواعد أمراء النشابين على أن يمضوا إلى بيوت الأمراء المصريين في الليل، ويقف كل أمير منهم بجنده على باب أمير من أمراء مصر، فإذا خرج للخدمة قبض عليه واحتاط على داره وما فيها وأخذها لنفسه. فأصبحوا واقفين على منازل الأمراء المصريين بأجنادهم، فما هو إلا أن يخرج الأمير من منزله ليصير إلى الخدمة على عادته فإذا بالأمير الشامي الذي قد عين له وقد قبض عليه وأوثقه، وهجم بمن معه على داره فملكها بجميع ما تحتوي عليه، وما يتعلق بصاحبها وينسب إليه من أهل ومال وخيول وعبيد وجوار، وما له من إقطاع. فلم ينتشر الضوء حتى علت الأصوات وارتفعت الضججات وثار الصباح من كل جانب، وصار الأمراء الشاميون في سائر نعم أمراء مصر، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين في أيدي أعاديهم، فمال أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التي كان يملكها، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها، وصار آخر وكيل القبض في بلد كانت إقطاعاً له، ونحو ذلك من أنواع الهوان. وبلغ ذلك العاضد فشق عليه وأرسل إلى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الأمراء، فبعث إليه بأن هؤلاء الأمراء كانوا عصاة لأمرك والمصلحة قتلهم وإقامة غيرهم ممن يمثل أمرك. فسكت. وتقوى صلاح الدين وعظم أمره، وذهب من كان يخشاه ويخافه، وأخرج أكثر إقطاعات الأجناد بمصر، وزاد الأمير شمس الدولة على إقطاعه ناحية بوش ودهشور والمنوفية وغير ذلك، وانحل أمر العاضد. وقبض صلاح الدين على جميع بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده، بحيث لم يبق له شيئاً، وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وهو يومئذ زمام القصور من بعد قتل مؤتمن الخلافة، وصار له في القصر موضع، فلا يدخل شيء من الأشياء إلى القصور ولا يخرج إلا بمráى منه ومسمع، وضيق على أهل القصر حتى قبض على جميع ما فيها، وصار العاضد معتقلاً تحت أيديهم^(١). وأمر صلاح الدين بتغيير شعار الفاطميين، وأبطل ذكر العاضد من الخطبة وكان الخطيب يدعو للإمام أبي محمد، فتخاله العامة والروافض

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ - ص ٣٢٢

العاقد وهو يريد أبا محمد المستضيء بأمر الله الخليفة، ثم أعلن بالعزم على إقامة الخطبة العباسية^(١). وفي يوم الجمعة سلخ ذي الحجة عزم صلاح الدين على الإعلان بالأمر وكشف الغطاء فأحجم الخطباء عن ذلك تقية وحذراً، فانتدب لذلك رجل من أهل المغرب يقال له الشيخ ابن عيسى بن حزم عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقي الأندلسي، فقصد المنبر مستعداً من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء، فخطب ودعا للخليفة المستضيء وذكر نسبه إلى العباسيين. وفي أول المحرم سنة ٥٦٧ نُسِخ منشور بنقل السنة الخراجية إلى السنة الهلالية لخلو هذه السنة من نوروز^(٢)*. ونزل نجم الدين بن أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاقد، وقال إن ذكرته ضربت عنقك. فقال لمن أخطب؟ فقال للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، فلما خطب لم يذكر العاقد ولا غيره، بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر، ف قيل له في ذلك، فقال، ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، وفي الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره، فلما بلغ العاقد ذلك قال في الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له^(٣)*. فلما كانت الجمعة الثانية، وهي سابع محرم، خطب باسم الخليفة المستضيء، وقطعت خطبة العاقد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها الخطبة للفاطميين. وأقيمت خطبة الجمعة بمصر والقاهرة وقد نصبت على المنابر أعلام العباسيين السوداء، ولبس الخطباء الثياب السود، وأمر صلاح الدين أتباعه التُّرك بدفع كل الناس إلى حضور الخطبة، وكل من يعثر عليه في بيته أو في مكان آخر يجبس ويوقع عليه أشد العقوبات، فحضر من لا يريد الحضور^(٤). وكتم أهل العاقد عنه لشدة ما به من المرض، وكان قد مرض مرضاً شديداً وأمسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه وامتنع من مداواته. وفي يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم، عشية يوم عاشوراء، نفذ حكم الله المقدور وقضاؤه الذي يستوي فيه الأمر والمأمور، في العاقد لدين الله، وأظهر صلاح الدين الحزن عليه، ووعد

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٢٢

(٢) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٢٤

* يتبين من هذا النص أن الغز أبطلوا السنة الخراجية «القبضية» التي كان معمولاً بها أيام الفاطميين، لكي يعي على المصريين موعد النوروز الذي كان له أيام معروفة في أحد أشهر تلك السنة، ويعني النوروز في اللغة القبطية الأنهار وهو موعد اكتمال فيضان النيل، وتعد بداية السنة القبطية هي بداية السنة الزراعية إذ يتبع الفلاح المصري منذ القدم التقويم القبطي في الزراعة الذي يبدأ بشهر توت، سبتمبر.

(٣) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ٣٢٥

* يتبين من قول الخليفة العاقد أنه كان على اطلاع مباشر على كل ما قام به صلاح الدين والغز من خطوات لتدمير دولته وهو يسمع ويرى ولا يستطيع أن يفعل شيئاً.

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ ص ١٥٢

أهله بحسن الخلافة على أيتام العاضد وهم ثلاثة عشر ولدًا، وأمر بإنشاء الكتب إلى البلاد بذكر وفاة العاضد وأن الخطبة استقرت للمستضيء بأمر الله العباسي»^(١).

ويتبين مما تقدم أن صلاح الدين بدأ بتنفيذ خطة محكمة للانقلاب على الدولة الفاطمية في مصر، ولعل هذا هو أول انقلاب يحدث في العالم العربي على يد شعب غريب، وتدرج في خطواته يدفعه الحقد على الفاطميين، حتى تحقق له ما يريده من إزالة دولة الفاطميين ومحو عقائدهم بشكل كامل من مصر.

وبزوال الدولة الفاطمية فقد انتهى إسلام العقل، وساد إسلام النقل الذي كان هو السبب الرئيس في تخلف العرب أمام الأمم التي اعتمدت العقل كمبدأ لها في الحياة.

١٢- ماذا فعل صلاح الدين بعد وفاة العاضد

لما توفي العاضد لدين الله غسله ابنه داود، كما يقول المقريزي، ومن ثم جلس على الشدة، واستدعى صلاح الدين لبياعه، فامتنع، وبعث إليه: أنا نائب عن أبيك في الخلافة ولم يوص بأنك ولي عهده^(٢). ومن ثم استولى صلاح الدين، كما يقول المقريزي، على جميع ما كان في القصر، من فرش وسلاح وذخائر وتحف ما يخرج عن الإحصار، ومن الأشياء النفيسة الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله، ومن الجواهر ما لا يوجد عند غيرهم مثله، منها حبل ياقوت زنته سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً، ونصاب زمر طوله أربعة أصابع، ولؤلؤ كثير، وإبريق من حجر مانع يسع مئة رطل ماء، وسبعمئة يتيمة بادزهر*. والطبل الذي صنع لإزالة القولنج، ووجد من الكتب النفيسة ما لا يعد، ويقال إنها كانت ألف ألف وستمئة ألف كتاب، منها مئة ألف مجلد بخط منسوب، وألف ومئتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، فباع السلطان جميع ذلك، وقام البيع فيها عشرين سنين. ونقل صلاح الدين أهل العاضد وأقاربه إلى مكان بالقصر ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج سائر ما في القصر من العبيد والإماء فباع بعضهم وأعتق

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ ص ٣٢٨

(٢) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقريزي - ج ٣ ص ٣٤٧

* البادزهر، حجر خفيف هش، وأصل تكونه في الحيوان المعروف «الغزال» بتخوم الصين، الذي يأكل الحيات فينتج هذا الحجر في الدموع التي تسقط من عينيه ويتربى الحجر حتى يكبر ويحتك فيسقط. وقيل يكون في قلبه، وقيل في مرارته، ويصاد هذا الحيوان لأجله.

بعضهم ووهب بعضهم. وخلا القصر من ساكنه كأن لم يغن بالأمس. وقبض على داؤد وعلى بقية أولاد العاضد وأقاربه في سادس شعبان سنة ٥٦٩، ونقله هو وجميع أقاربه وأهله إلى دار المظفر من حارة برجوان في العشر الأخير من رمضان، ووكل عليهم وعلى جميع ذخائر القصر، وفرق بين الرجال والنساء حتى لا يحصل منهم نسل، وأغلقت القصور وتملكت الأملاك التي كانت لهم، وضربت الألواح على رباعهم وفرقت على خواص صلاح الدين كثير منها ويبيع بعضها، وأعطى القصر الكبير لأمرائه فسكنوا فيه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة على الخليج، وصار كل من استحسن من الغزداراً أخرج صاحبها منها وسكنها. ونُقلت السلالة العلوية إلى قلعة الجبل، وهم ثلاثة وستون نفرًا، في يوم الخميس ثاني عشري رمضان سنة ٥٦٩، فمات منهم إلى ربيع الأول سنة ٦٢٤، ثلاثة وعشرون نفرًا. وتولى وضع القيود في أرجلهم فخر الدين الطنبا والي القاهرة. ولم يزالوا معتقلين في قلعة الجبل حتى حولوا منها سنة ٦٧١^(١). وإذا كان من تعليق على هذا النص فهو أنه يوضح مدى الجهل والغرور الذي كان عليه صلاح الدين، وخصوصًا فيما يتعلق بمكتبة الكتب التي ضمت مليون وستمئة ألف كتاب، والتي قام ببيعها ووزع منها على من يستحق وعلى من لا يستحق وبذلك ضاع ذلك التراث العلمي الهائل الذي لوبقي لكان أغنى مصر ولكان أغنى شعبها.

١٣- محاولة إعادة الخلافة الفاطمية:

لم تستكن إرادة محبي الفاطميين في مصر لما فعله صلاح الدين وقومه الغز، بل تحركت فيهم روح الانتقام والثأر، ويذكر المقرئ في أحداث سنة ٥٧٠: «وفيها جمع كنز الدولة والي أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق في جموعه أموالاً جزيلاً، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين، وخرج في قرية طود* رجل يدعى عباس بن شادي، وأخذ بلاد قوص، وانتهب أموالها، فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف، ومعه الخطير مذهب بن مماتي، فسار وأوقع بشادي وبدد جموعه وقتله، ثم سار فلقية كنز الدولة بناحية طود، وكانت بينهما حروب فرمها كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره، ثم قتل كنز الدولة في سابع صفر، وقدم العادل إلى القاهرة

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ٢٤٨

* طود، قرية بالصعيد الأعلى فوق قوص وقبل أسوان.

في ثامن عشره»^(١).

وترسخت بعد ذلك أركان دولة التُّرك ومنع العرب من تبوُّء أية مناصب كما منعوا من الحصول على أي أقطاع لكي لا يصبحوا من أصحاب القوة، وبعد انقراض دولة الأيوبيين وصل إلى حكم مصر المماليك الذين أخذوا عن أسيادهم فن قهر العرب واستمروا في محاربة من يظهر منهم، إلى أن زالت دولة هؤلاء على يد التُّرك العثمانيين الذين تابعوا سياسة قهر العرب وتهميشهم، وتركيز الثروات في أيدي الترك، حتى تمَّ إنهاك مصر وتخطيمها، ولو استمرت الدولة الفاطمية في الوجود لكانت مصر اليوم دولة مركزية وقطباً عالمياً كبيراً، وليس مجرد دولة تضاف إلى عشرات الدول الموجودة في الشرق الأوسط وأفريقيا، وما فعله التُّرك جريمة كبرى بحق العرب. وللأسف لاتزال الشعوب العربية مأخوذة بتلك الرواية التاريخية المزيفة التي تظهر بطولات التُّرك ودفاعهم المزعوم عن هذه الأمة، مع أن هؤلاء كانوا العدو الحقيقي الذي أذاق العرب أشكال القهر والحرمان وكانوا هم السبب في كل تخلفهم وانحطاطهم وعجزهم العلمي والحضاري.

(١) السلوك إلى دول الملوك- أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ١٦٧

الفصل الخامس

نور الدين وثورة الشيعة في حلب

١- محاولة الشيعة إعادة رسومهم

عندما أزال نور الدين محمود الرسوم الشيعية في حلب، لم يكن بوسع أهلها، وغالبيتهم من الشيعة، فعل شيء بسبب الخوف من القتل على يد الترك، ولذلك انحنوا للعاصفة وظلوا يتحينون الفرصة لإعادة إحياء شعائرهم وعلى رأسها الأذان في المساجد، وعندما مرض نور الدين سنة ٥٥٢ واضطربت أسس دولته، عاد الأمل للشيعة بالخلاص من الاضطهاد المفروض عليهم، وظهر لهم قائد وافق مطالبهم وسعى لتطبيقها على الأرض، وهذا القائد هو نصرة الدين أمير ميران ابن عماد الدين وأخو نور الدين.

واختلفت الروايات حول كيفية وصول هذا القائد من الموصل إلى حلب. فيذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث سنة ٥٥٢: «فلما مضت أيام من شهر رمضان سنة ٥٥٢ عرض الملك العادل نور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتد به وخاف منه على نفسه استدعى أخاه نصرة الدين أمير ميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء والمقدمين وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه وقرر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده والساد لثلمة فقداه واشتهاره بالشهامة وشدة البأس ويكون مقيمًا بحلب ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرررت هذه القاعدة اشتد به المرض فتوجه في المحفة إلى حلب وحصل في قلعتها وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه فثارت أحداث حلب وقالوا: هذا صاحبنا وملكننا بعد أخيه وزحفوا في السلاح إلى باب البلد فكسروا أغلاقه ودخل نصرة الدين في أصحابه وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والإنكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جعلتها إعادة رسومهم في التأذين بـ(حي على خير العمل) (محمد وعلي خير البشر). فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إلى نصرة الدين والحلبيين يقول: «مولانا الملك العادل نور الدين حي في نفسه مقيم في مرضه، وما كان إلى ما فعل حاجة تدعو إلى ما كان فقيلاً الذنب في ذاك إلى الوالي وكنتم الحال وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًا يفهم ما يقول وما يقال له

فأنكر ما جرى وقال: الآن أنا أصفح للأحداث عن هذا الخطل ولا أواخذهم بالزلل وما طلبوا إلا صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي. وشاعت الأخبار وانتشرت البشارات في الأقطار بما فيه الملك نور الدين فأنست القلوب بعد الاستيحاء وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج وتزايدت العافية، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وأضيف إليها وتوجه نحوها»^(١).

ويروي ابن العديم رواية مخالفة لرواية القلانسي فيقول في أحداث سنة ٥٥٤هـ: «ثم عاد نور الدين إلى حلب ومرض بها مرضاً شديداً بقلعتها، وأشفى على الموت، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدين أمير أميران، محمد بن زنكي، وأرجف بموت نور الدين، فجمع أمير أميران الناس، واستمال الحلبيين، وملك المدينة دون القلعة، وأذن للشيعة أن يزيدوا في الأذان: (حي على خير العمل) (محمد وعلي خير البشر) على عادتهم من قبل، فمالوا إليه لذلك. وثارت فتنة بين السنة والشيعة، ونهب الشيعة مدرسة ابن عسرون وغيرها من أدر السنة، وكان اسد الدين شيركوه بمحصر، فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها، وكان بها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه ذلك، وقال: (أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب، فإن كان نور الدين حياً خدمته، وإن كان مات فأنا في دمشق، وتفعل ما تريد). فعاد مجدداً إلى حلب فوجد نور الدين وقد ترجع إلى الصلاح، فأجلسه في طيارة مشرفة إلى المدينة، بحيث يراه الناس كلهم، وهو مصفر الوجه من المرض، ونادوا إلى الناس، «هذا سلطانكم» فقال بعضهم: «ما هذا نور الدين، بل هو فلان، يعنون رجلاً كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة، ليخدعوا الناس بذلك. ولما تحقق أمير أميران عافية أخيه خرج من الدار التي كان بها تحت القلعة، وبيده ترس يحميه من النشاب، وكان الناس قد تفرقوا عنه، فسار إلى حران فملكها. وسير نور الدين إلى قاضي حلب جدي أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة، وقال له: «تمضي إلى الجامع وتصلي بالناس ويعاد الأذان إلى ما كان عليه» فنزل جدي وجلس بشمالية الجامع تحت المنارة واستدعى المؤذنين، وأمرهم بالأذان المشروع على رأي أبي حنيفة، فخافوا فقال لهم: «ها أنا أسفل منك ولي أسوة بكم. فصعد المؤذن وشرع في الأذان، فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة وغوغائهم خلق كثير، فقام القاضي إليهم، وقال: «يا أصحابنا، وفقكم الله، من كان على طهارة فليدخل وليصل، ومن كان محدثاً فليجدد وضوءه ويصلي، فإن المولى نور الدين في عافية، وقد تقدم بما يفعل، فانصرفوا راشدين وسكنت الفتنة»^(٢).

(١) ذيل تاريخ دمشق- أبويعلى القلانسي - ص ٣٥٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٤١

ومما تقدم يتبين أن رواية القلانسي ورواية ابن العديم تتفقان على أن أمير أميران وافق الشيعة في حلب على إعادة رسم التآذين في مساجد حلب، لكن ابن العديم قال، إن أمير أميران كان في حلب وأنه غلب على المدينة بمساعدة من الشيعة الذين وافقهم على تلبية مطالبهم في التآذين. لكن ابن العديم يروي رواية غريبة عن ما أسماها الطيارة التي أجلس شيركوه نور الدين عليها ليراه الحلبيون، وهي الرواية التي ينقلها ابن الأثير، لكن القلانسي لا يأتي على ذكر تلك الطيارة ما يدل على أنها من اختلاق الرواة، إذ كيف يمكن لعادل أن يصدق هذه الرواية، وكيف يمكن مد خشبة طويلة وإجلاس شخص على طرفها في مكان مرتفع ومخيف مثل قلعة حلب، وخاصة أن الشخص الذي كان جالساً عليها هو نور الدين وكان مريضاً على وشك الموت؟

وعلى كل حال، أن ما يهمنا من هذه الرواية هو أن الراويين يؤكدان أن الشيعة أعادوا التآذين في حلب على رسمهم قبل تغييره من قبل نور الدين، وأن السنة لم يجروا على الكلام لأنهم كانوا أقلية صغيرة. وقد سكنت ثورة الشيعة آنذاك بسبب خوفهم من عودة نور الدين إلى بطشه بهم، لكن في سنة ٥٦٩ مرض نور الدين وهو في دمشق، بعلّة الخوانيق*، ومات منها، وترك ولداً صغيراً اسمه إسماعيل، أوصى له بالملك من بعده، وسمي الملك الصالح، وكان يتولى حلب شمس الدين علي ابن الداية، وكان أخوه بدر الدين حسن يتولى الشرطة فيها، وعندما علم الشيعة بموت نور الدين ظنوا أن الفرج قد جاءهم، وظهر فيهم القاضي أبو الفضل ابن الخشاب* الذي عزم على طرد أولاد الداية لعلهم أنهم يسعون لحكم حلب والاستمرار في اضطهاد الشيعة فيها، وقرر القاضي أبو الفضل أن الحل المثالي هو التظاهر بالعمل على حفظ حلب لإسماعيل بن نور الدين، ولما كان هذا صغيراً، فإنه يمكن التحكم به. وعلم حسن ابن الداية ما يخطط له القاضي أبو الفضل، فأرسل إليه يقول: «إن جماعة عندي قذفوك وتحدثوا بأنك تطعن في الدولة، وأنت تريد أن تحكم حلب»^(١). ومال سنة حلب إلى حسن ابن

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٣

* خوانيق: جمع خناق، ذاء يُعَسَّرُ مَعَهُ دُخُولُ النَّفْسِ إِلَى الرِّتَةِ

* لا تتوسع المصادر التاريخية والتي ترجمت لأعيان حلب في ذكر نسبها لأسرة آل الخشاب سوى الإشارة إلى جدهم الأعلى «عيسى» وأقدم من ترجم لهذه الأسرة المؤرخ الشهير كمال الدين ابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ للهجرة، ولا يذكر سوى أنها من الأسر الهاشمية. ويحدد المؤرخ ابن شداد، المتوفى سنة ٦٨٤، تاريخ نزوح عيسى إلى حلب، والمكان الذي نزح منه في معرض ذكره نسب حفيده القاضي أبي الحسن محمد بن الخشاب، فيقول: وكان جده القاضي عيسى الناقل إلى حلب من حصن الأكراد في أيام سيف الدولة علي بن حمدان، ص ٨٤ - إسهامات أسرة بني الخشاب في الحياة السياسية في حلب ما بين القرن الرابع الهجري والقرن السابع الهجري - دراسة منشورة في مجلة الآداب - جامعة ذي قار - جمهورية العراق، د، عبد المحسن حمون جبرة، و، د، سلام علي مزعل، و، د، مهند

الداية، فبادر هذا إلى جمع رجالهم في الليل ليهاجموا في الصباح دور الشيعة، وكان بين هؤلاء، بنو العجمي، وأبو يعلى بن أمين الدولة، وبنو قاضي بالس، وأرسل حسن ابن الداية إلى القاضي الشيخ أبي الفضل بن الخشاب وإلى بني الطرسوسي، ليأتوا إليه فأبوا أن يحضروا لعلمهم أنه سوف يقتلهم، وعلم الشيعة بما يحضره ابن الداية، فثاروا ونهبوا دار قطب الدين ابن العجمي، ودار أبي يعلى بن أمين الدولة، وقتل في ذلك اليوم الشيخ أبو العباس المغربي، وجمع ابن الداية جماعة من الجنود والترك ومن أهل حلب وألبسهم السلاح وصعد إلى والي القلعة شاذبخت الهندي وقال له: «إن أبا الفضل بن الخشاب يريد أن يملك البلد، وقد مال إليه الشيعة وبعض السنة، فتعينني بنقابين وزرافين حتى أقبض عليه واعتقله إلى أن يحضر الملك الصالح، فأمر شاذبخت الجنود بلبس السلاح والخروج معه، وصار بهم إلى موقع سوق الصاغة، وأخذوا الفلاج والأبواب وسدوا بها الدروب، وزحفوا من الطرق والأسطحة إلى دار القاضي أبي الفضل ووقع قتال شديد، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وانتهى إلى الدار، فأحرقها ونهبها ونهب منازل جماعة من المجاورين له وانهزم القاضي أبو الفضل واختفى في بعض دور حلب»^(١).

٢- دعوة الملك الصالح إلى حلب ومصير القاضي أبي الفضل

كان الملك الصالح، في تلك الأثناء، مقيمًا بدمشق ويتولى الوصاية عليه كبير أمراء الترك في دمشق ويدعى شمس الدين محمد بن المقدم، وكان نور الدين، قبل موته، قد أرسل إلى الموصل وغيرها يستدعي العساكر بهدف غزو مصر وإخراج صلاح الدين منها، وسار إليه سيف الدين غازي ابن أخيه مودود بعسكر الموصل وعلى مقدمته سعد الدين كمشتكين الخادم، فلما كانوا ببعض الطريق وردهم خبر موت نور الدين، فعاد سيف الدين إلى الجزيرة وأخذها كلها، وكانت لعمه نور الدين.

أما كمشتكين فإنه فارق مولاه واتجه إلى حلب فدخلها ومعه كتيبة من العسكر، ووضع نفسه في خدمة شمس الدين علي ابن الداية، لكن هذا الأخير كان خائفًا من أن يعود سيف الدين غازي فيأخذ حلب ويطرده منها، ولذلك فكر في دعوة الملك الصالح إسماعيل إلى حلب ليكسب بوجوده شرعية، فأرسل كمشتكين ليحضره، فلما قرب هذا من دمشق، أرسل إليه ابن المقدم عسكرًا، فنهبوه وعاد منهزمًا إلى حلب،

عبد الرضا حمدان.

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٤

ثم أن الأمراء في دمشق اتفقوا على إرسال الملك الصالح إلى حلب لأنها، كما يقول ابن العديم، أم البلاد^(١). فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون منه إعادة إرسال كمشتكين، فسار إليهم على جناح السرعة، وعاد من دمشق ومعه الملك الصالح وأمه، وكان علي ابن الداية قد عزم على أنه إذا قدم الملك الصالح إلى حلب أن يأخذه بمفرده ويصعد به إلى القلعة ولا يمكن أحدًا من الأمراء على الصعود ويطردهم ويستقل بالأمور، فأرسل والي القلعة شاذبخت الهندي من أخبر الأمراء الذين كانوا في صحبة الملك الصالح، فاتفق رأيهم في قنسرين قبل حلب على قبض أولاد الداية، فبدأوا بسابق الدين عثمان، فاعتقلوه وكتموا الحال، ووصلوا إلى حلب فخرج بدر الدين حسن فقبضوه ودخلوا من باب الميدان وصعدوا بالملك الصالح إلى القلعة. وكان شمس الدين علي ابن الداية مريضًا، فحمل في محفة وحضربين يدي الملك الصالح، فزندوا يديه وقيدوا أخويه، ووضعوه في السجن^(٢).

وكان القاضي أبو الفضل بن الخشاب متواريًا، فلما وصل الملك الصالح إلى حلب في المحرم سنة ٥٧٠، أرسل إليه يعطيه الأمان وكعلامة على ذلك أرسل إليه خاتمه، فركب القاضي إلى القلعة، كما يقول ابن العديم، في خلق كثير من أهل حلب وعوامها يمشون في خدمته^(٣). وعندما دخل على الملك الصالح قرر قتله، فضربه أحد الترك وهو علي جرديك أخو عز الدين المعروف، فرماه وجاء آخر فقطع رأسه، فوضعه على باب القلعة ثم رفع على رمح إلى برج القلعة، يقال له (برج الزيت)، وتفرق أصحابه من تحت القلعة عند ذلك^(٤).

ولا شك أن القاضي أبو الفضل قد تعرض لخديعة من قبل الأمراء الترك، فقد ظن أن الملك الصالح سيشكر له سعيه في العمل على حفظ حلب له من أولاد الداية، فذهب إليه وهو مطمئن أنه سيكرمه، لكن الأمراء الترك وعلى رأسهم، أمير لالا المجاهد ياقوت الذي ربي الملك الصالح، وجمال الدين شاذبخت الهندي والي القلعة، وسعد الدين كمشتكين مقدم العساكر وشهاب الدين أبو صالح العجمي وزير الملك الصالح، قد تأمروا عليه فقتلوه غيلة خوفًا منه ومن نفوذه، ولم يجرؤ أتباعه على الثورة من جديد أو الأخذ بثأره، فسكنوا وطال سكونهم.

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٢

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٢

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٤

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٦٤

الفصل السادس

الصراع بين صلاح الدين والزنكيين

توفي نور الدين ولم يحسم الخلاف مع صلاح الدين، مع أنه كان ينوي اقتلعه من مصر، لكن القدر شاء لصلاح الدين شيئاً آخر، إذ جاءت وفاة نور الدين فرجاً له، ورغم أنه أعلن الولاء للملك الصالح إسماعيل وخطب له في مساجد مصر وضرب العملة باسمه، لكنه أضر الغدر وراح يترقب اللحظة المناسبة لإنهاء حكم الزنكيين في سوريا والعراق.

وسوف نرصد هنا استيلاء صلاح الدين على دمشق وحروبه مع الزنكيين التي انتهت لصالحه.

١- استيلاء صلاح الدين على دمشق

كانت دمشق قد أصبحت بعد رحيل الملك الصالح إلى حلب، في أيدي جملة من الأمراء الترك على رأسهم شمس الدين محمد بن المقدم، وكان هؤلاء قد ظنوا أن حياتهم ستزدهر إذ سيكون لهم ملك دمشق، لكن فاجأتهم الأحداث، حيث اعتقل سعد الدين كمشتكين أولاد الداية في حلب، وأصبح هو الأمر الناهي هناك، وخاف هؤلاء أن يأتي هذا إلى دمشق ويعتقلهم أيضاً، ويجعل هذه المدينة تحت حكمه. وعند ذلك راسلوا، كما يقول ابن الأثير، سيف الدين غازي صاحب الموصل ليسلموا دمشق إليه، فلم يجبههم^(١).

ولم يوضح ابن الأثير لماذا رفض غازي هذا العرض المجزي، وعلى الأرجح أنهم لم يرسلوا إليه، بل راسلوا صلاح الدين مباشرة لظنهم أنه لن يغمط حقوقهم، وكان كبيرهم في ذلك، كما يقول ابن الأثير، شمس الدين محمد بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم^(٢)*. فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف، وبادر إلى الإجابة وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق، سلمها إليه من بها من

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٧٦

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٧٦

* يشير ابن الأثير بعبارة «من أشبه أباه فما ظلم» إلى أن والد شمس الدين هو الذي سلم سنجار إلى نور الدين سنة ٥٤٤هـ وخان سيده صاحب الموصل، وقد اعتبر ابن الأثير شمس الدين خائناً للأمانة لأنه سلم دمشق إلى صلاح الدين، لكن ابن الأثير لا ينتقد ما فعله صلاح الدين بالدولة العلوية في مصر وكيف خان الخليفة العاضد لدين الله ونقض دولته وخرّبها.

الأمراء ودخلها واستقر بها^(١).

ويقول المقرزي، إن أهل دمشق خرجوا للقائه، فدخلها يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر، سنة ٥٧٠ وملكها من غير مدافع وتسلم القلعة.

ويقول ابن واصل، إن صلاح الدين لم يقطع الخطبة للملك الصالح في دمشق ولم يغير العملة، وأظهر أنه ما جاء إلا لتربية الملك الصالح ولد نور الدين، وإن الملك له، وهو نائبه ومدبر دولته^(٢).

ولما سمع المدبرون للملك الصالح إسماعيل، بملك صلاح الدين دمشق سقط في أيديهم، وأيقنوا بذهاب البلاد، فراسلوا سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل، وأرسلوا إلى صلاح الدين الأمير قطب الدين ينال بن حسان أمير منبج برسالة فيها غلظ وتعنيف، وقال للسلطان فيما قاله: «هذه السيوف التي ملكتك مصر - وأشار إلى سيفه - تردك، وعما تصدبت له تصدك» فحلم عنه السلطان وتغافل، وذكر أنه إنما وصل لترتيب الأمور وتربية الملك الصالح، وإخراج أولاد الداية من الاعتقال، فقال له قطب الدين: «أنت تريد الملك لنفسك، وليس مقصودك غير ذلك، والمصلحة أنك ترجع من حيث جئت، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع، فأظهر له السلطان التبسم، ولم يقابله إلا باللين والرفق»^(٣).

٢- زحف صلاح الدين إلى حلب

تألم صلاح الدين كثيراً من كلام أمير منبج، فأعلن الحرب على الزنكيين، وقرر الزحف إلى حلب والسيطرة عليها، فأنزل أخاه طغتكين في القلعة، وخرج في مستهل جمادى الأولى فنازل حمص حتى تسلمها، وامتنعت عليه قلعتها، فأقام على حصارها طائفة من العسكر، وسار إلى حماة فنازلها، وبها عز الدين جرديك، فسلمها إليه^(٤).

لكن ابن واصل يقول: إن عز الدين جرديك رفض تسليم حماة إلى صلاح الدين، فأرسل إليه هذا من جديد يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك

(١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٧٧

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٠

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢١

* لعل الذي منع صلاح الدين من الرد على ينال بن حسان أمير منبج هو أنه ادعى أنه تابع لولد نور الدين وأنه يريد حفظ البلاد له، ولو أنه قتل ينال أو تصرف معه تصرفاً سيئاً، لكان مزاج التُّرك في دمشق قد تغير عليه، ولذلك صبر صلاح الدين على الألم وكظم الغيظ واحتمل الإهانة، ولكنه صمم أكثر على تدمير ملك آل زنكي واقتلاعهم من الوجود.

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرزي - ج ١ - ص ١٦٨

الصالح، وإنما يريد حفظ البلاد له، فاستحلفه جرديك على ذلك، فحلف، وسيره صلاح الدين رسولاً إلى حلب، يدعوهم إلى اجتماع الكلمة في طاعة الملك الصالح، وفي إطلاق شمس الدين على ابن الداية وأخوته من السجن، فسار إليهم جرديك إلى حلب، واستحلف بقلعة حماة أخاه، ولما وصل هو إلى حلب قبض عليه سعد الدين كمشتكين، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين^(١).

ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها فقاتله أهلها أشد قتال، وركب الملك الصالح، وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة، وجمع أهل حلب وقال لهم: «قد عرفتم إحسان والدي إليكم، ومحبته لكم، وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه، يأخذ بلادي، ولا يراقب الله والخلق»^{*}، وقال من هذا الكلام كثيراً، وبكى وأبكى الناس، فبدلوا له الأموال والأنفس، واتفقوا على القتال دونه، والمنع عن بلاده، وجدوا في القتال، فكانوا يخرجون يقاتلون عند جبل جوشن فلم يقدر صلاح الدين على القرب من البلد^(٢).

وقد خاف الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي من تغيير الخريطة السياسية في سوريا الداخل في غير مصلحته، فسار بجيشه إلى حمص وفرض الحصار عليها.

ويزعم ابن واصل وغيره من مؤرخي التُّرك في تلك المرحلة، أن الحلبيين هم الذين كاتبوه بهدف إشغال صلاح الدين عنهم، وهذا الكلام بعيد عن الواقع لأنه لم يكن ثمة تحالف بين التُّرك في حلب وبين الصليبيين في طرابلس، وأيضاً فإن أمير طرابلس كان يعمل بما تقتضيه مصلحة إمارته، وليس ما تقتضيه مصلحة التُّرك في حلب، ولذلك فقد حاول الاستيلاء على حمص، وعندما سمع به صلاح الدين رفع الحصار عن حلب وقصد حمص، فلما اقترب منها تركها الصليبيون وعادوا إلى بلادهم، فاستغل صلاح الدين الفرصة وسيطر على قلعة حمص التي كانت حتى ذلك الوقت خارج سيطرته. ومن ثم سار إلى بعلي بك وكان عليها أمير تركي يدعى (يمن) فطلب هذا الأمان له ولمن معه، فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة في

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٣

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٣

* كم هو بليغ هذا الكلام الذي قاله ذلك الطفل الصغير في حق صلاح الدين، لكن هناك حكمة تقول، كما تدين تدان، فقد كان والد هذا الغلام محمود بن زنكي هو الذي تسبب في القضاء على الدولة العلوية في مصر، فأرسل الله لولده ذلك الجاحد نفسه الذي نفذ عملية الاغتيال ضد تلك الدولة، ليغتال أيضاً ملك آل زنكي ويدمرهم إلى الأبد.

رمضان سنة ٥٧٠،^(١) ومن ثم عين على بعليك شمس الدين محمد بن المقدم الذي أهده مدينة دمشق من قبل.

٣ - معركة قرون حماة

بعث الملك الصالح إلى ابن عمه الملك سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجد به على صلاح الدين، فأرسل سيف الدين أخاه مسعود على رأس جيش فوصل إلى حلب، وتمّ تجهيز العسكر الحلبي وعليه سعد الدين كمشتكين والعدل شهاب الدين أبو صالح العجمي، وسار الجميع، كما يقول ابن واصل، إلى حماة فحاصروها، وراسلوا صلاح الدين في الصلح، وكان قد عاد من بعليك إلى حمص، فقدم في خوف من أصحابه، فجاءه الأمير سعد الدين كمشتكين والعدل شهاب الدين وتفاوضوا في معنى الصلح، فأجابهم إلى أن يرد عليهم الحصون التي أخذها، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح منتمياً إليه والخطبة والسكة له، وأن يرد عليهم كل ما أخذ من الخزانة، فلما رأوه مجيئاً لكل ما يلتمس منه وقلعة عسكره اشتطوا عليه، وطمعوا وطلبوا الرحبة وأعمالها، فقال، «هي لابن عمي ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل إلى الإضرار به». فنفروا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصي قريباً من شيزر، وجمعوا العساكر وأظهروا عزمهم على المصاف، فنقل صلاح الدين خيامه إلى سفح قرون حماة ووصل إليه جماعة من العسكر المصري ومعهم عشرة من المقدمين.

ثم كانت الواقعة بين الفريقين تاسع عشر رمضان سنة ٥٧٠، فلم يثبت عسكر الموصل، وانهزموا لا يلوي أحد على أحد، وتبعهم صلاح الدين وعسكره يريد محاصرة حلب، وقطع خطبة الملك الصالح وأزال اسمه عن العملة في بلاده.^(٢)

وأدركت القيادات التركية في حلب أن الطريقة الأفضل للحفاظ على حلب هي في مراسلة صلاح الدين وطلب الصلح، فأرسلوا رسالاً باسم الملك الصالح إليه، فأجابهم، كما يقول المقرئزي، على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم، واستزاد منهم المعرة وكفرطاب، وكتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين بعدما حلف وعاد إلى حماة.^(٣)

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ٣٠

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ٣٢

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئزي - ج ١ ص ١٦٩

وأرسل إلى خليفة بغداد المستضيء يطلب منه تقليد مصر واليمن والمغرب* والشام وكل ما يفتح به سيفه، فوافته رسل المستضيء وهو بحماة، بالتشريف والتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها^(١).

ولا شك أن هذا التوقيع أزال بشكل كامل وجود الزنكيين وشرعية حكمهم وأظهر أن الخليفة العباسي كان مع القوي على الضعيف، واستغل صلاح الدين تأييد خليفة بغداد له، فأكمل استيلاءه على الحصون التابعة للزنكيين، وسار حتى نزل على بعرين فحاصرها وبها الأمير مسعود بن علي الزعفراني، وكان والياً عليها من أيام نور الدين، فحاصرها وضيق عليها، وأدرك مسعود صعوبة الموقف وأنه لا طائل من المقاومة طالما أن النجدة لن تصل من حلب، فتنازل عنها وسلمها إليه، فأقطعها لخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي^(٢)، وأقام هو في حماة ثم رحل عنها إلى دمشق في المحرم سنة ٥٧١، وفوض أمرها إلى ابن أخيه عمر بن شاهنشاه بن أيوب^(٣).

وعلم سيف الدين غازي بهزيمة أخيه والترك في حلب أمام صلاح الدين فزاد غيظه ورغبته بالانتقام، فجمع جيشه واستنجد بأمر ماردين وغيرها من الحصون، كما يقول ابن واصل، وسار بالعساكر من الموصل نحو حلب، فلما وصل إليها خرج للقائه ابن عمه الملك الصالح واعتنقه سيف الدين وضمه إلى صدره وبكى من تأثره على طفولته، والتمس منه العودة إلى القلعة، وسار هو بالعساكر ومعه العسكر الزنكي الحلبي، حتى وصل إلى تل السلطان قرب حماة، فخرج إليه صلاح الدين بمن معه من الترك والكرد، ودارت بين الجانبين معركة خسرها سيف الدين غازي وانهزمت عساكره نحو حلب، فتبعهم صلاح الدين، واستولى على بزاعة ومنبج وعزاز، فأصبحت حلب شبه مطوقة، ثم سار إلى حلب نفسها وفرض الحصار عليها ثانية، فراسله الملك الصالح طالباً الصلح، فصالحه وأبقى له حلب وأعمالها^(٤).

والواقع أن هزيمة الزنكيين الأولى والثانية لم تكن لأن جيش صلاح الدين أقوى من جيشهم، بل لأنهم لم يكونوا على قلب واحد، وخاصة أن الملك الصالح كان صغيراً ومغلوباً على أمره من قبل سعد الدين كمشتكين وربما كان هذا الأخير يخاف من انتصار ملك الموصل سيف الدين غازي فيضم إليه حلب وينتهي ملكه منها، لذلك لم يقاتل أترك حلب بإخلاص، وربما

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ص ١٦٩
* يتبين من هذا الكلام أن صلاح الدين كان ينوي احتلال بلاد المغرب، كما فعل بمصر

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ج ٢ ص ٣٤

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ١٦٩

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٦

عندما رأى أتراك الموصل تلكؤ الحلبيين، قاتلوا بحماس قليل ولذلك حدثت الهزيمة، وأصبحت سوريا تحت رحمة صلاح الدين.

٤- صلاح الدين وابن المُقدم

رأينا أن صلاح الدين عندما أخذ بعلبك سلمها إلى شمس الدين محمد بن المقدم الذي كان قد سلمه دمشق من قبل، وبعد أن وقع الصلح بين صلاح الدين والملك الصالح، رحل صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٧٢، وأقام هناك سنتين ثم عاد سنة ٥٧٤ إلى سوريا وأقام بظاهر حمص، وكان توران شاه أخو صلاح الدين قد طلب بعلبك منه لأنها مرباه ومنشؤه، كما يقول ابن واصل، فإنها كانت بيد والده نجم الدين، فلم يمكن صلاح الدين مخالفته، فأمر ابن المقدم بالنزول عنها ويعطيه عوضاً يرتضيه، كما يقول ابن واصل، فلم يجب إلى ذلك، وذكره العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه، فلم يصغ إليه، ولج في أخذها، فامتنع ابن المقدم بها وعصى، فرحل صلاح الدين إلى بعلبك ونازلها محاصراً لها من غير قتال، فطال أمرها، ولم يسمح بها صاحبها، ودخل فصل الشتاء، فاضطر إلى فك الحصار بسبب البرد القارس، ورحل صلاح الدين عنها إلى دمشق في العشر الأواخر من رجب سنة ٥٧٤^(١). ورغم ذلك فإنه لم يقلع عن هدفه وظل يرسل ابن المقدم ويخوفه ويتوعده، ونظر ابن المقدم فرأى أن البلاد قد وقعت، في معظمها، في يد صلاح الدين، وأنه لن يستطيع الصمود طويلاً في وجهه، فأثر الاستسلام، فأعطاه، كما يقول ابن واصل، بعرين وكفرطاب^(٢). وسلم صلاح الدين بعلبك لأخيه، وليت هذا أقام بها، بل سافر مع أخيه إلى مصر ومات في الإسكندرية بعد سنتين.

وهكذا فقد حرم صلاح الدين ابن المقدم من أقطاع استحقه بسبب خيانتة، فقط ليرضي أخاه، وهذه القصة وسواها توضح كم كان صلاح الدين متعصباً لأهله وعشيرته، وأنه كان مستعداً لخوض الحروب من أجل إرضائهم.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٧١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٧١

٥- استيلاء صلاح الدين على حلب

مرض الملك الصالح عام ٥٧٧ وعندما اشتد عليه المرض أحضر الأمراء والأجناد وأخذ بيعتهم لابن عمه عز الدين مسعود ملك الموصل، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه. فقال له بعضهم، كما يقول ابن واصل: «إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من همدان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك كان أحسن، ثم هو تربية والدك، وزوج أختك، وهو أيضًا عديم المثل في العقل والتدبير والخلال والشجاعة التي تفرد بها. فقال: «إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها منه، فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله». فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه وصباه^(١).

ومن غير المعروف ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا، لكن ما يلفت الانتباه هو ذلك العداء الذي كان مستحكمًا بين آل زنكي وبين صلاح الدين وبني أيوب وهذا العداء هو لعنة صبت فوق رؤوس آل زنكي لما فعل كبيرهم نور الدين محمود بمصر. وبعيدًا عن هذا، فبعد وفاة الملك الصالح، أرسل شاذبخت - دزدار حلب -، كما يقول ابن واصل، إلى عز الدين يدعوه إلى حلب ليسلموها إليه، فسار عز الدين مجداً نحو حلب ودخلها وملكها^(٢)، وولى عليها ولده. لكن أخاه عماد الدين بن مودود بن زنكي، راسله يطلب منه تسليم حلب إليه، فرفض عز الدين ذلك، فأرسل إليه من جديد يقول له، كما قال ابن الأثير، «إن سلمتم إلي حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الأمراء وعلى رأسهم مجاهد الدين قايمار الذي لجّ في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يتمكن عز الدين من مخالفة هذا الأمير لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره وبلاده، فوافقه وهو كاره، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل»^(٣)، فذهب عماد الدين إلى حلب في بداية سنة ٥٧٨ واستقر بها.

وكان صلاح الدين قد خرج من مصر إلى سوريا في ذلك العام وفي نيته القضاء على الزنكيين وإزالة ملكهم بالكامل، وما إن وصل إلى دمشق حتى قرر المسير

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٠٨

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٠٨

(٣) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية - ابن الأثير الجزري - ص ١٨٣

نحو حلب لإخضاعها فسار إلى حمص ومنها إلى حماة، ومن ثم نحو حلب، فلما قرب منها، حضر إليه، كما يقول ابن واصل، مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك وكان بيده حران، وقد استوحش من مجاهد الدين قايماز ومن عز الدين مسعود، فالتجأ إلى صلاح الدين وأطمعه في البلاد^(١). فترك حلب وقرر أن يقضي على الرأس في الموصل، فسار مجداً إلى هناك، فعبر الفرات، ولما نزل على البيرة سلمها أميرها له وكان هذا في طاعة ملك الموصل عز الدين مسعود، ومن ثم أرسل صلاح الدين إلى أمراء الترك في تلك المناطق يقول لهم: «من جاء مستسلماً سلمت بلاده، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة» فجاء، كما يقول ابن واصل، رسول نور الدين بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق أمير حصن كيفا بالإذعان^(٢).

ولم يوضح ابن واصل الذي أورد هذا القول، من هم الكفرة في نظر صلاح الدين، لكن من السياق يتضح أنهم كانوا الزنكيين ومن يقف معهم ضده. لأنه كان يريد السيطرة على ملكهم بالقوة.

وهكذا فبعد سيطرته على البيرة، رحل ونزل على الرها وفيها الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني وكان أيضاً تابعاً لعز الدين مسعود، فسلم هذا الرها إلى صلاح الدين، فأقطعها لمظفر الدين كوكبوري الذي أطمعه بملك الموصل.

ثم وصل صلاح الدين إلى حران فأخذها، وسار إلى الرقة وعليها ينال بن حسان المنبجي، فأذعن وسلم الرقة له، ثم رحل واستولى على قلاع الخابور، فأخذ رأس العين وسواها من الحصون في تلك المنطقة. ومن ثم نازل نصيبين وحاربها فاستسلم من فيها من الأراقة، فولأها إلى حسام الدين أبا الهيجا السمين، وولى الخابور جمال الدين خوشترين. وأقام في نصيبين ليصلح أمورها، كما يقول ابن واصل، «فأتاه الخبر أن الفرنج قد قصدوا بلد دمشق، ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا، ولما وصل الخبر بذلك إلى السلطان، أشار عليه بعض أصحابه بالعود، فقال: «يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً، ثم نعود فنعمرها، ونقوى على قصد بلادهم، ولم يرجع وعزم على منازلته الموصل»^(٣).

ولا شك أن صلاح الدين لم يكن يرى أن العدو الحقيقي هو الصليبيون، إذ

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ١١٦

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ١١٧

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ١١٨

لو كان يرى ذلك لكان توجه إليهم أولاً ولم يتعب نفسه في قتال أتراك مثله وأخذ بلادهم عنوة ومن دون مبرر.

٦- منازل الموصل

بعد أن سيطر صلاح الدين على نصيبين استشار الأمراء المرافقين له، كما يقول ابن واصل، بأي البلاد يبدأ، هل يبدأ بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة، فاختلعت أراؤهم، فقال كوكبوري بن علي كوجك: «لا ينبغي أن تبدأ إلا بالموصل، لأنها في أيدينا لا مانع لها، فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية» ووافق على ذلك ناصر الدين محمد بن شيركوه الذي بذل ما لا كثيراً لصلاح الدين ليقطعه الموصل إذا ملكها، فأجابه إلى ذلك، فسار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين ملكها ونائبه مجاهد الدين قايمًا قد جمعاً بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرها من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، فلما قرب صلاح الدين منها رأى ما هاله، وملاً صدره وصدور أصحابه رعباً، فإنه رأى بلدًا عظيمًا، ورأى الأسوار قد ملئت بالرجال وليس فيها شرافة إلا وعليها رجل مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد من المتفرجين، فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذها. فقال لناصر الدين محمد بن شيركوه ولمظفر الدين كوكبوري: «لقد غررتماني وأطمعتماني في غير مطمع، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذًا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا، ومتى نازلناه وعدنا عنه ولم نأخذه ينكسر ناموسنا، ويفل حدنا وشوكتنا»^(١).

ومن ثم قرر منازل الموصل وقتالها. وكان نزوله عليها في شهر رجب سنة ٥٧٨هـ، ونشب القتال بين الفريقين، ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين أحدًا من الخروج، بل لزموا القتال على الأسوار، ونصب صلاح الدين منجنيقًا لرمي البلد بالحجارة، ونصب الترك في الموصل منجنقات عدة، وخرج بعضهم وقتلوا عند منجنيق صلاح الدين وأخذوه، وأخذ بعض المقاتلين بجذائه مسامير كثيرة ورمى به الأمير جاولي الأسدي مقدم مماليك أسد الدين شيركوه، فدخلت المسامير في صدره، فأخذ الحذاء، كما يقول ابن واصل، وذهب إلى صلاح الدين، وقال: «قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها» وألقى الحذاء وحلف أنه لا يعود يقاتل، لأنه ضرب بالحذاء^(٢).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٢٠

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٢١

وخشي صلاح الدين من كبسات عسكر الموصل الليلية تأتي عسكره على حين غفلة، فقرر الرحيل من قرب البلد، ونزل في مكان أبعد، وأقام هناك فترة من غير طائل وأدرك أنه لن ينال من الموصل، فقرر استهداف مدينة أخرى للزنكيين، فسار إلى سنجار وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا ابن مودود ابن زنكي، نائباً عن أخيه عز الدين^(١).

وما إن وصل إليها حتى نصب عليها المجانيق التي راحت تقذفها بالحجارة الضخمة، فتهدم جزء من السور، ودخل شهر رمضان فأظهر صلاح الدين أنه توقف عن القتال، فاسترخت عزائم المدافعين، وفي إحدى الليالي المظلمة أرسل ثلة من جيشه فأغارت على حراس الجزء المتهدم من السور، فوجدوهم نياماً فأوثقوهم واقتادوهم إلى صلاح الدين، وكان فيهم، كما يقول ابن واصل، جماعة من المقدمين والأعيان. فلما حل الصباح عرف شرف الدين هندوا بما حدث، فأذعن، كما يقول ابن واصل، وسلم سنجار وقلعتها إلى صلاح الدين، ورحل بأهله وماله إلى الموصل^(٢). ودخل صلاح الدين إلى سنجار وملكها وولاهها الأمير سعد الدين مسعود ابن معين الدين أنر^(٣). ورحل منها ونزل على حران للاستراحة، كما يقول ابن واصل، وعاد كل إلى بلده.

وأرسل عز الدين مسعود الرسل إلى سكرمان ظهير الدين أمير أخلاط، يستنجد به على صلاح الدين، فأرسل ظهير الدين رسله يطلب من صلاح الدين الكف عن الموصل وإلا قصده، فلم يجبه وغالطه. فسار ظهير الدين بعسكره إلى ماردين وصاحبها ابن أخيه قطب الدين إيلغازي، وحضر مع ظهير الدين دولة شاه صاحب أرزن، وسار عز الدين من الموصل واجتمعت عساكرهم على حزم وهي ضيعة من أعمال ماردين^(٤). ولما سمع صلاح الدين باجتماع هؤلاء الملوك، أرسل إلى ابن أخيه تقي الدين أمير حماة يستدعيه، فوصل إليه مسرعاً إلى حران. وأشار عليه بالمسير إليهم، فرحل صلاح الدين إلى رأس العين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد سكرمان إلى أخلاط، وعاد عز الدين إلى الموصل، ثم رحل صلاح الدين وملك آمد، ثم فتح تل خالد وعين تاب، ثم رحل نحو حلب فوصلها بداية سنة ٥٧٩ واستدعى العساكر من الأطراف، كما يقول ابن واصل، فاجتمع إليه خلق

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٢٣

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٢٣

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٢٤

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٣٣

كثير^(١). وكان مع عماد الدين زنكي في حلب عسكر كثير، وهم مجتهدون في القتال، كما يقول ابن واصل، ورأى عماد الدين كثرة ما يتم إنفاقه من مال، فأراد ضبط النفقات وقلل من المصروف، وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه مالاً فاعتذر بقله المال عنده، فقليل له: «من يريد يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع نساءه»^(٢). فمال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها، فأرسل الأمير حسام الدين طمان الياروقي في السر على أن يتسلم حلب ويرد على عماد الدين سنجار، فأجابه إلى ذلك، ولما تم الأمر في السر، أعلم عماد الدين الأمراء بذلك، وأذن لهم في تدبير أنفسهم، وخرجت العساكر إلى خدمة صلاح الدين، وقبح أهل حلب على عماد الدين بيع حلب بسنجار وهو أبخس الأثمان^(٣). وقال ابن واصل: «بلغني أن العامة كانوا إذا رأوه صاحوا وقالوا: يا حماريا من باع حلب بسنجار»^(٤).

وجعل صلاح الدين الملك بحلب لولده الظاهر غازي، ووزع أملاك حلب، فأعطى تل خالد وتل باشر للأمر بدير الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق، وأعطى عزازل للأمير علم الدين سليمان بن جندر، وأقر عين تاب على صاحبها، وامتنعت حارم وفيها سرخك أحد مماليك نور الدين بن زنكي فحاصرها صلاح الدين حتى استسلم أميرها، فولى عليها إبراهيم بن شروه^(٥)*. ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٧٩، وخلال إقامته القصيرة فيها ناوش الصليبيين قليلاً فأغار على حصن الكرك، وبعض القرى مثل نابلس وسبسطية وجنين، وعاد إلى دمشق وفي نيته العودة إلى حصار الموصل، فقصدتها سنة ٥٨٠ وحاصرها، وطال عليه الحصار وأصابه مرض أزعجه وكاد يودي بحياته، فعقد عزمه على مصالحة عز الدين مسعود فأرسل إلى عماد الدين أمير سنجار ليدخل في الصلح بينه وبين أخيه عز الدين، فأرسل عماد الدين وزيره شمس الدين بن عبد الكافي، كما أرسل صلاح الدين شمس الدين قاضي العسكر إلى الموصل، فتم توقيع الصلح وفيه: «يتسلم صلاح الدين بلاد شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما بين الزابين من البوازيج والرسناق وبلد القرابلسية وبني قفجان، ويلتزم عز الدين بالخطبة لصلاح الدين في الموصل، ويلتزم بقطع الخطبة لسلطين سلاجقة

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٤١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٤٢

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٤٢

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٤٣

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٤٧

* كما نرى فإن كل الأمراء الذين ولاهم صلاح الدين حلب وأعمالها كانوا من التُّرك وليس فيهم عربي واحد.

فارس، وأن يضرب العملة باسمه»^(١).

ولما تمّ الصلح بينه وبين المواصلة أهدى لعزالدين هدايا عظيمة، كما يقول ابن واصل، ولوالدته وزوجته، وقوم ما سيره إليهم بما ينوف على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والملبوس والطيب والأشياء المستطرفة^(٢).

ويروي ابن خلكان رواية مختلفة لرفع صلاح الدين الحصار عن الموصل فيقول: «ثم عاد إلى منازل الموصل وكان وصوله إليها في أول شهر ربيع الأول سنة ٥٨١، ونزلت إليه والدته عزالدين مسعود ومعها جماعة من نساء بني أتابك وابنه نورالدين أرسلان شاهين مسعود، وطلبت منه المصالحة، فردّها خائبة ظناً منه أن عزالدين أرسلها عجزاً عن حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل أنفسهم في القتال لكونه ردّ النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكمان القطبي أمير خلاط، وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده، فسيّر إلى السلطان وأطمعه في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوّضه عنها ما يرضيه، فرحل السلطان عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور وتوجه نحو خلاط»^(٣).

ومهما كان السبب الذي دفع صلاح الدين إلى فك الحصار عن الموصل، فإن ذلك يمثل فشلاً عسكرياً له في مواجهة عزالدين مسعود.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٧٢

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ص ١٧٣

(٣) وفيات الأعيان - ابن خلكان - ج ٥ - ص ٢٠٦

الفصل السابع

صلاح الدين والصليبيون

عندما انتهت حروب صلاح الدين مع الزنكيين بالصلح بينه وبين عز الدين مسعود، قرر الاتجاه نحو العدو الآخر وهو الصليبيون، وطبعاً لم يكن صلاح الدين يعمل وفق سياسة ترى أن الصليبيين هم العدو الوحيد له، فلو كان يرى ذلك لما كان قضى سنوات طويلة من حياته وهو يقاتل إخوانه في الأرومة والدين، بل كان هدفه إخضاع الآخرين لإرادته، لكن حربه مع الصليبيين لم تكن سهلة على الإطلاق، ولم تصل إلى نهاية سعيدة، كما سيتضح فيما يلي:

١- معركة حطين

في مستهل سنة ٥٨٣ نهض صلاح الدين بجيشه لقتال الصليبيين في فلسطين، وكتب إلى الملوك والأمراء التابعين له ليوافوه بالعساكر، فجاءه عسكر مصر وعسكر حلب وحماة وحمص، فسار بالجموع واتجه نحو طبريا، وفتحها في ساعة من نهار، كما يقول ابن واصل، وامتنعت قلعتها، وسمع الصليبيون بالأمر فتنادوا وجمعوا جموعهم، وجاءتهم الإمدادات من مختلف مناطقهم في الساحل^(١). وساروا إلى لقاء عسكر صلاح الدين يتقدمهم بطرك القدس ومعه ما يسميه ابن واصل (صليب الصلبوت) وهو الصليب الذي يقال، إنه صلب عليه السيد المسيح.

والتقى العسكران على سفح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، وباتا على استعداد للقتال، وفي صبيحة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر، ركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض تسمى (اللوييا) ولم تزل الحرب بينهما إلى أن حجز الظلام، فبات كل فريق في سلاحه. وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر على هيتهم، وقد تمكن عسكر صلاح الدين من السيطرة على البحيرة وجعلوها وراءهم، فلم يبق للصليبيين سبيل للوصول إليها للحصول على الماء*، فاشتد العطش بهم، وفرغ ما معهم من الماء، وأخذتهم سهام العسكر وكثرت فيهم الجراح، وقوي الحر،

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١٨

وسلبهم العطش، كما يقول ابن واصل، القرار، وصاروا كلما حملوا ليتيسر لهم ورود الماء صُدّوا وردّوا، واستولى عليهم الأسر والقتل، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم، من البلاء بعد أن انهزم منهم طائفة، وتبعهم طائفة من عسكر صلاح الدين، فلم ينج منهم أحد^(١). وأحاطوا بالباقيين الذين اجتمعوا بجبل حطين وهي قرية عندها قبر شعيب النبي عليه السلام، وضايقوهم، وأشعلوا حولهم النيران في حلفاء كانت هناك، فارتفع لهيبها، واجتمع عليهم حر الهاجرة وحر النار وحر العطش وألم الجراح، ودارت عليهم دائرة السوء، وعلموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا على عسكر صلاح الدين حملات متداركة لكن كلها باءت بالفشل، وفقدوا الصليب الأساسي والذي يسميه ابن واصل وغيره من مؤرخي تلك المرحلة (صليب الصلبوت)، فأيقنوا بعد فقدته بالبور لأنهم كانوا يعتقدون أنه هو الذي ينصرهم على عدوهم. وقتل وأسر منهم الكثير، وبقي الملك (جي دي لوزينيان)* على التل مع مئة وخمسين فارسًا^(٢). فصعد العسكر إليهم وأسروهم. وأمر صلاح الدين بإرسالهم إلى قلعة دمشق.

٢- سقوط المُدن والحصون

بعد هزيمة الصليبيين في حطين، امتلك صلاح الدين قلعة طبريا بالأمان^(٣)، ثم رحل إلى عكا فتسلمها من غير قتال وخير الصليبيين فيها بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل، كما يقول ابن واصل، فذهبوا إلى صور، وأعطى صلاح الدين عكا لولده الأكبر علي الملقب بـ(الأفضل). وأرسل ابن أخته حسام الدين لاجين إلى نابلس، فأتى على سبسطية فأخذها، ووصل إلى نابلس فدخلها وتسلم قلعتها بالأمان، وكان أهل البلد من العرب، وكانوا

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- ابن واصل- ج ٢- ص ١٩٠
* السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل يتوافق ما فعله صلاح الدين من منع الماء عن الصليبيين مع الحديث النبوي الذي يرويه البخاري في صحيحه في «باب إحياء الموات»: (عن رجل من الصحابة قال: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقول: (الناس شركاء في ثلاثة: في الكلاء، والماء، والنار)، رواه أحمد وأبو داود، ورجاله ثقات.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- ابن واصل- ج ٢- ص ١٩١

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب- ابن واصل- ج ٢- ص ١٩٦
* جي دي لوزينيان، هو فرنسي تزوج من الملكة سيبيل أم بلدوين الخامس، وقد أصبح جاي ملكًا بعد وفاة بلدوين سنة ١١٨٦ للميلاد- الحروب الصليبية- أرنست باركر- ص ٨١. «وقد أطلق صلاح الدين جاي دي لوزينيان عند طرطوس التي كان يحاصرها آنذاك، مشترطًا عليه ألا يشهر في وجهه سيفًا، فذهب جاي إلى طرابلس ومنها إلى أنطاكية، ومن ثم عاد إلى عكا وشارك في حصارها». تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة- حسن عبد الوهاب حسين- ص ٩١

يدفعون الجزية للصليبيين، فأقرهم على أموالهم وأملاكهم^(١).

وفي تلك الأثناء استولى صلاح الدين على الناصرة، وقيسارية، وحيفا، والشقيف. وسار إلى تبين، وكانت قلعة خطيرة متموضعة على قمة جبل، أقامها الصليبيون أثناء قتالهم لصور ليقطعوا عنها المساعدات التي كانت تأتيها من دمشق، وقد حاصرها صلاح الدين سنة ٥٨٣، وعندما اشتد الحصار راسله الصليبيون فيها بطلب الأمان، فأمنهم، فساروا إلى صور، ولما فرغ منها سار إلى صيدا وأخذ في طريقه صرند، واستسلم الصليبيون في صيدا، فامتلكها ورفع أعلامه الصفراء على سورها*^(٢). ومن ثم سار إلى بيروت وأخذها، ومن ثم توجه إلى عسقلان فأخذها وأخذ غزة وما حولها، واتجه إلى بيت المقدس وقد اجتمع بها خلق كثير من الصليبيين، فحاصرها ونصب عليها المنجنقات ووقع القتال، وتراخت عزائم الصليبيين وطلبوا الأمان، فأعطاهم صلاح الدين الأمان مقابل أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة دنانير والطفل من الذكور والإناث دينارين. وسُلمت المدينة، وسيّر صلاح الدين الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور^(٣).

٣ - المَرَكِيز كُونَراد دي مونتفراتو وانبعاث الروح الصليبية

كان المَرَكِيز كُونَراد دي مونتفراتو قد جاء من شمال غرب إيطاليا إلى فلسطين ليلحق بأبيه المَرَكِيز وليم الخامس الذي كان يتولى قلعة القرين القريبة من عكا. ويقول ابن واصل: «كان المَرَكِيس من أكبر طواغيت الكفر، وأقوى شياطينهم، داهية خبيثًا، فخرج في هذه السنة (أي ٥٨٣) من داخل البحر بمال كثير للزيارة، ولم يشعر بما جرى على الفرنج، فأرسل بعكا، وظن أنها لهم، فلم ير شيئًا من عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرنج وضرب الأجراس وغير ذلك، فأنكر ما رأى من زي أهل البلد، فوقف ولم يدر ما الخبر، فأرسل الأفضل نور الدين صاحب عكا، بعض أصحابه في سفينة يبصر من هو وما يريد، فأتاه القاصد، فسأله المَرَكِيس عن الأخبار، فأخبره بكسر الفرنج، وأخذ عكا وسواها، وأعلمه أن صورييد الفرنج فسار إليها، وأرسل الأفضل الشواني في طلبه فلم يدركوه، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير، لأن السلطان كان كلما فتح مدينة أعطى أهلها الأمان، فساروا كلهم إلى صور

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٠٣.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٠٦.

* يشير ابن واصل إلى نقطة مهمة هنا وهي أن أعلام صلاح الدين كانت صفراء.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٠١٦.

وكثرت الجمع بها، إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم، وكانوا عازمين على مكاتبة السلطان وطلب الأمان منه، فأتاهم المركيس، فردهم وقوى نفوسهم، وضمن لهم حفظ البلد، وبذل لهم الأموال، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره، فأجابوه إلى ذلك، وأخذ أيماهم عليه، فأقام عندهم ودبر أحوالهم، وشرع في تحصين البلد، وتجديد حفر الخنادق له، وبنى الأسوار وحصنها»^(١). ولما وصل صلاح الدين أمام صور وجدها على هذه الصورة من المناعة وعلم بما حدث، فأحضر والده من دمشق، وكان قد وقع أسيرًا بحطين، فاستعرضه أمام أسوار المدينة وهدد بإعدامه إذا لم يستلم المدينة، ولكن كونراد لم يهتم بهذا التهديد ورفض التسليم^(٢). فرحل صلاح الدين عن المدينة.

وهنا يتبين خطأه وقلة صبره في القتال، فلو أنه أقام على صور حتى يستولي عليها لكان ثبت نصره على الصليبيين في حطين، لكنه ترك هذه المدينة واتجه إلى القدس فأخذها وأخذ غيرها من المدن الأخرى، ومن ثم عاد إلى محاصرة صور، فنزل بإزاء السور، وكان كونراد قد حفر خندقاً حول المدينة، من البحر إلى البحر، فأصبحت مثل جزيرة لا يمكن الدخول إليها من البر، واستدعى صلاح الدين الأسطول الذي كان راسياً بعكا، فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وشواني، فأسر هؤلاء خمسة شواني من شواني الأسطول، فلما رأى باقي البحارة ما جرى لإخوانهم ألقوا أنفسهم في الماء ونجوا إلى البر، فأخذ صلاح الدين الشواني فنقضها، ولما وقعت واقعة الأسطول طمع الصليبيون وخرجوا من صور يوماً بعد العصر مستعدين للقتال، فالتقاهم عسكر صلاح الدين فكانت الدائرة على الصليبيين، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيز، فسلمه صلاح الدين إلى ولده الظاهر غازي ليحفظه، فضرب عنقه، ثم دخل الليل وأصبحوا وتبين أن المركيز بعد في الحياة. ولما طال الحصار ضجر كثير من الأمراء، لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فأشاروا على صلاح الدين بالرحيل لئلا تفنى الرجال وتقل الأموال»^(٣).

ومن غير المعروف ما إذا كانت رواية ابن واصل صحيحة بخصوص انتصار صلاح الدين في معركة البر، لكن لو كان انتصر بالفعل لما كان ترك المدينة، بل ربما تعرض جيشه لهزيمة، وعند ذلك أدرك صعوبة بل استحالة الاستيلاء على المدينة فتركها مرغماً، وكان هذا الفشل ضربة مؤلمة له ومقدمة لأهوال

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٠٩

(٢) تاريخ الحروب الصليبية - محمود سعيد عمران - ص ١٤٤

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٤٥

كبيرة جرت سيتوالى ذكرها فيما يلي.

٤- صلاح الدين يتوجه شمالاً

رحل صلاح الدين عن صور نحو عكا فأقام بها مدة، وفي مطلع سنة ٥٨٤ سار إلى كوكب وكانت قلعة للفرسان الاسبتارية فحاصرها، ولما رأى صعوبة فتحها وكل عليها صارم الدين قايماز ليقيم عليها، ووكل بصفد وكانت للفرسان الداوية، طغرل الجادري، ووجه إلى الشوبك والكرك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة في غاية الحصانة^(١).

ثم رحل إلى دمشق فدخلها، سادس ربيع الأول سنة ٥٨٤، ولما استقربها أمر بإنشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد، وكانت مدة مقامه في دمشق كما يقول ابن واصل، خمسة أيام^(٢)، فخرج منها نحو بعلبك واتجه نحو اللبوة، ووصله الخبر بوصول عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بجيشه ونزوله على بحيرة قدس (قطينة) فسار إليه واجتمعوا. وأرسل صلاح الدين إلى ابن أخيه الملك المظفر في حماة، وإلى ولده الظاهر غازي في حلب، وأمرهما أن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا^(٣). وأقام صلاح الدين بالبحيرة إلى آخر ربيع الأول، ثم رحل في أول ربيع الآخر وخيم على تل قبالة حصن الأكراد، وشن الغارة على نواحي الحصن، وصافيتا والعريمة، وفتح حصن يحمور*، ولم تزل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر ربيع الآخر^(٤). ووصل إلى صلاح الدين قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه، فأشار عليه بقصد جبلة، وتكفل له بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون الشمالية والمعقل، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه أمير أنطاكية، وعول عليه فيها* : وقال لصلاح الدين: (إن الاشتغال بطرابلس مع حصانتها ومنعتها يذهب الزمان، والمسلمون بجبلة راغبون في التسليم، منتظرون السلطان أن يخلصهم من الفرنج)، فأصغى إلى قوله^(٥).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٢

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل ج ٢ - ص ٢٥٤

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٥

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٥

* حصن يحمور، يقع في بلدة يحمور الساحلية التي تبعد عن مدينة طرطوس نحو عشرين كيلو متراً. وعلى ما يبدو أن الصليبيين كانوا قد هربوا من الحصن عندما سمعوا بمقدم صلاح الدين وربما لم يكن هذا الحصن محصناً جيداً.

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - مرجع سابق - ص ٢٥٦

* السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل يجوز لقاضي شرع إسلامي قد عهد إليه أمير صليبي بممتلكاته في جبلة واللاذقية وطلب منه أن يصونها، فهل يجوز لهذا القاضي أن يخون العهد ويسلم تلك الأملاك إلى جهة أخرى غير الجهة التي عهدت إليه بإدارة تلك الأملاك، والله تعالى يقول: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» والآية الكريمة هنا مطلقة والمطلق يؤخذ على إطلاقه،

ونهب صلاح الدين وسار باتجاه طرطوس في رابع جمادى الأولى، ونزل على العريضة، فلم يعرض لها، ومن ثم رحل فوصل إلى طرطوس، فوقف، كما يقول ابن واصل، قبالتها ينظر إليها، وكان عزمه الاجتياز إلى جبلته، فاستهان بأمرها، وأمر العسكر بالهجوم عليها فصعدوا السور، وسيطروا عليها ومن ثم خرجوا ومعهم الأسرى من أهلها وأموالهم*، وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت* وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة، وخندقه فيه الماء، وفيه جروح* كثيرة تجرح الناس على بعد، فرأى صلاح الدين تأخير أمره، واشتد في خراب سور طرطوس حتى أتى عليه، وخرّب البيعة* (الكنيسة) وهي بيعة عظيمة يحجونها من سائر البلاد*، وأمر بوضع النار في البلد، وأحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام يخرب البلد إلى رابع عشر جمادى الأولى^(١). ثم سار يريد جبلته، ونزل على مرقية*،

أي أنه يجب المحافظة على العهد حتى مع العدو، ولا شك أن هذا التصرف وأمثاله يسيء إلى الإسلام ويشوه صورة المسلمين. إن ابن واصل وهو قاضي شرع إسلامي، يروي هذه الحادثة ولا يعلق عليها، بل يعتبرها إنجازاً بضاف إلى إنجازات صلاح الدين.

* لم يوضح ابن واصل هل كان أهل طرطوس الذين وقعوا أسرى بيد العسكر الصلاحي صليبيين أم من المسيحيين المحليين، لكن على الأغلب أنهم كانوا مسيحيين محليين. لأن الصليبيين الذين كانوا في المدينة تحصنوا في القلعة المجاورة التي لم يقدر صلاح الدين على منازلتها لصعوبتها.

* الحجر النحيت، هو جريتم اقتطاعه من ترسبات رملية ضخمة ومن ثم يتم البناء به، وهو مشهور في طرطوس، وربما كان يتم المجيء بهذا الحجر من منطقة عمريت، ولا تزال بقايا ذلك البرج قائمة بالقرب من البحر وحولها الخندق، لكنه فارغ اليوم من الماء.

* الجروح، هي كلمة فارسية تعني السهام، ومعنى كلام ابن واصل، هو أن الصليبيين في حصن طرطوس كانوا يقذفون عسكر صلاح الدين بالنشاب الكثير من خلال طاقات كانت موجودة في الحصن، ولذلك لم يجرؤ العسكر على الاقتراب خوفاً من أن يجرحوا من تلك السهام.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٧

* هل يجوز أن يقوم صلاح الدين بتخريب كنيسة للمسيحيين. أليست الكنائس ودور العبادة مباحة في الشرع الإسلامي وأيضاً هل يجوز له هدم البيوت وإحراقها. وقد روي عن النبي عليه صلوات الله وسلامه أنه خرج مشياً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله فقال: «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في صوامع معتزلين للناس فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان، في رؤوسهم مفاحص، فاقلعوها بالسيف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانيّاً، ولا تغرقن نخلاً ولا تقطعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً» - المغازي - الو اقليد - ج ٢ - ص ٧٥٨. ولم يوضح ابن واصل ما هي طبيعة تلك الكنيسة ولماذا كانت مشهورة ويحج إليها المسيحيون من مختلف مناطق سوريا، ولا نعلم أين هو موقع تلك الكنيسة، لكن لاشك أنها تقع ضمن طرطوس القديمة، أو ما يسمى «خراب إسلام». ولعلها درست وبني فوقها مبان أخرى.

* مرقية هي قرية مسيحية قريبة من ساحل البحر، وهي الحدود الإدارية بين محافظتي طرطوس واللاذقية، وكانت في الزمن القديم تمثل الحدود الفاصلة بين مملكة أوغاريت والمملكة الفينيقية في الساحل الجنوبي

* المرقب، بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنيس. قال أبو غالب همام بن المهذب المعري في تاريخه: وفي سنة ٤٥٤ عثر المسلمون الحصن المعروف بالمرقب بساحل جبلته وهو حصن يحدث كل من رآه أنه لم يزل مثله، وأجمع رأي أصحابه على الحيلة بالروم فباعوهم الحصن بمال عظيم وبعثوا شيخاً منهم وولديه رهينة إلى أنطاكية على قبض المال وتسليم الحصن، فلما قبضوا المال وقدم عليهم نحو ثلاثمائة لتسلم الحصن قتلوهم وأسروا آخرين كثيرين فباعوهم أنفسهم بمال آخر ثم فدوا ذلك الشيخ وولديه بمال يسير - معجم البلدان - ياقوت

وقد أخلاها سكانها، وكانت الطريق إلى جبله على الساحل ضيقة المسلك، كما يقول ابن واصل، وهناك حصن للاستتار يقال له «المرقب»^{*}، مأهول معمور، ولا طريق إلا تحته. فسلکها الجيش بصعوبة، ووصلوا إلى مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها أهلها، وتابع الجيش سيره فاعترضه نهر^{*} عميق ما فيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر، وعليه قنطرة واحدة، فتكبتها صلاح الدين بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل، وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، وأحاطت العساكر بالنهر من جانبه، وتزاحمت الأثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل صلاح الدين إلى «بليدة»^{*} من غربي النهر على شاطئ البحر وقد أخلاها أهلها^(١)، وتابع صلاح الدين سيره شمالاً فوصل إلى جبله لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، كما يقول ابن واصل، وكان القاضي منصور بن نبيل قد سبقه إليها، واتفق مع من فيها من المسلمين على التسليم، فما وصل صلاح الدين إليها حتى رفعت على أسوارها أعلام صلاح الدين الصفراء، وتحصن الصليبيون بحصنها، فما زال بهم قاضي جبله يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم منها بشرط أن يأخذ منهم رهناً إلى أن يردوا من أنطاكية رهائن جبله من المسلمين^{*}، فأخذ منهم جماعة من رؤوسهم ومقدميهم، فبقوا عنده حتى أعاد أمير أنطاكية الرهائن الذين عنده، فحينئذ أطلقوا^(٢). وسلم صلاح الدين جبله لسابق الدين عثمان ابن الداية (داية نور الدين) وكان في يده شيزر أيضاً، أما قاضي جبله (منصور ابن نبيل) فقد أحسن عليه صلاح الدين، كما يذكر ابن واصل، وحبس عليه أملاكاً، وصرفه في أملاك آبائه وحكمه في القضاء وفوضه إليه^(٣).

٥- مقدمو الجبل يفدون إلى صلاح الدين

يروى ابن واصل، أن مقدمي الجبل عندما علموا بسيطرة صلاح الدين

الحموي الرومي - المجلد الخامس - ص ١٠٨ - ١٠٩.

* النهر المقصود هو نهر حريصون أو نهر الصرامة في مجراه الأعلى، وهو ينتهي شمالي بانياس باسم نهر الجوبيات.
* البليدة، هي تصغير البلدة، وكانت هذه البليدة تقع شمال بانياس وكانت أيضاً مسيحية بدليل أن أهلها تركوها خوفاً من العسكر الصلاحي. ومن غير المعروف ما اسم هذه البليدة في هذا الوقت.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٨

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٩

* لم يوضح ابن واصل لماذا كان في أنطاكية رهائن من المسلمين. وربما القاضي ابن نبيل كان قد قدمهم كضمان وفاء من قبله تجاه أمير أنطاكية لأنه فوضه بإدارة جبله واللاذقية والحصون المجاورة لهما.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٩

على جبلية، نزلوا إلى خدمته سامعين مطيعين^(١). ولم يذكر ابن واصل من هم هؤلاء المقدمون، ولا أين كانت أملاكهم، لكن من دون شك فإن هؤلاء كانوا مقدمي مملكة الدعوة الإسماعيلية التي كانت تمثل دولة صغيرة في بعض قلاع تلك الجبال، وكان وفود هؤلاء إلى صلاح الدين يعني انقيادهم وطاعتهم له.

ويذكر ابن واصل أيضًا، أنه كان على سمت طريق حماة حصن حصين يعرف بـ(بكسرايل*) وكان أهله استعادوه من الصليبيين قبل سنين، فسلموه إلى صلاح الدين^(٢).

٦- سيطرة صلاح الدين على اللاذقية وما يليها من الحصون

بعد أن انتهى صلاح الدين من جبلية سار نحو اللاذقية، وكان الصليبيون، كما يقول ابن واصل، قد حصنوها وبنوا ثلاث قلاع متلاصقة على طول المدينة، وما إن وصل إليها حتى نشب القتال وسقطت المدينة بيده، وظلت القلاع تقاوم، لكن سرعان ما يئس الصليبيون فيها من المقاومة، فطلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين على أن يطلقوا بأنفسهم وأولادهم ونسائهم، ما عدا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب^(٣).

ورحل صلاح الدين بعد الانتهاء من اللاذقية إلى قلعة صهيون، فأخذها، ثم فرق عساكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنس (المهالبة) الذي كان للصليبيين، وملكوا حصن العبد*، وحصن الجواهرين*^(٤).

وفي ثالث جمادى الثاني سار السلطان إلى قلعة بكاس فأخلاها الصليبيون

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٩

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٩

* بكسرايل، هي بابنا، كانت مسكونة من التركمان الذين سكنوا في هذه المنطقة بعد أن مدّت مملكة دمشق التركية سلطانها على مناطق في جبال الساحل من خلال سيطرتها على منطقة أبي قبيس في الغاب، وقد مر معنا أن تانكريد الصليبي استولى على هذا الحصن من الترك ومن ثم أكمل طريقه نحو شيزر، وكما نرى أن «بكسرايل» هي كلمة آرامية، ولعل بكسرايل، كانت حصنًا قديمًا، فأخذها الترك في دمشق. وسوف يرد ذكر بكسرايل في موضع لاحق من الكتاب.

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٥٩

(٤) تاريخ الأزمّة - البطريق اسطفان الدوبيي - ص ١٩١

* حصن العبد، من غير المعروف أين يقع هذا الحصن، ولعله في منطقة جبلية.
* حصن الجواهرين، يسمي ياقوت الحموي هذا الحصن باسم «الجماهرية»، ويقول: هو «حصن قرب جبلية من سواحل الشام، وجماهر الشيء معظمه - معجم البلدان - المجلد الثاني - ص ١٦٠

وتحصنوا في قلعة الشغفر، فحاصرها وأخذها بالأمان^(١).

ثم فتح السلطان قلعة السرمانية، وبعد ذلك فتح حصن برزية، وسار إلى حصن دربساك بالقرب من أنطاكية فأخذه عنوة، وفتح قلعة بغراس^(٢).

٧- الهدنة بين صلاح الدين وأمير أنطاكية

لما سيطر صلاح الدين على بغراس، عاد إلى مخيمه الأكبر، كما يذكر ابن واصل، ولم يحدد هذا أين كان هذا المخيم، ولعله كان إلى الخلف، وهناك راسله أمير أنطاكية (بوهيموند الثالث*) في طلب الصلح، ويذكر ابن واصل، أن صلاح الدين وافق على الصلح لشدة ضجر العسكرو قوة قلق عماد الدين، صاحب سنجار، وإلحاحه في طلب الدستور (الإذن). واشترط صلاح الدين على الأمير الصليبي إطلاق جميع الأسرى الذين عنده، فوافق على ذلك، وتمّ تحديد مدة الصلح بثمانية أشهر. وودع صلاح الدين عماد الدين والعساكر الشرقية^(٣).

ويتحدث ابن واصل عن علاقة وطيدة جمعت بين صلاح الدين وبين زوجة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، والتي كانت تهادي صلاح الدين وتناصحه، وتطالعه على أسرار الصليبيين، وكان صلاح الدين يكرمها لذلك، ويهدي إليها أنفس الهدايا، وكانت أختها صاحبة حصن برزية فسُبيت يوم الفتح فما زال صلاح الدين يطلبها حتى أحضروها، وأحضرها زوجها وابنة له، وجماعة من أصحابها وصهرها، فأنعّم عليهم صلاح الدين، كما يقول ابن واصل، وسيرهم إلى أنطاكية إكراماً لامرأة البرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودتها له^(٤).

ومن غير المعروف كيف نشأت تلك العلاقة الغريبة بين صلاح الدين وبين زوجة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية، وبأية لغة كانت ترسل إليه الكتب والرسائل؟

إننا نشك بمجمل هذه الرواية التي ربما تمّ تأليفها لإظهار سماحة صلاح الدين تجاه أعدائه، فإنه لأجل عيون الأميرة زوجة الأمير، بحث طويلاً عن أختها المأسورة وزوجها وأولادها، وأعاد الجميع إلى أنطاكية معززين مكرمين.

(١) تاريخ الأزمّة - البطريرك اسطفان الدوبيي - ص ١٩١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٦٨

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٧٠

* بوهيموند الثالث، هو ابن ريموند الثاني الذي قتل في معركة «إنب» وأمه هي كونستانس ابنة بلدوين الثاني ملك القدس.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٦٧

فأيّ كرم وأية سماحة أكثر من ذلك... ونعتقد أن تلك الرواية مختلفة إما من قبل ابن واصل نفسه أو من قبل من أخذ عنه الرواية لتلك الأحداث. وأيضاً فإن الحجة التي أوردها ابن واصل عن ضجر العساكر وزيادة طلب عماد الدين زنكي الإذن في العودة إلى بلاده غير مقنعة في دفع صلاح الدين إلى الموافقة على الصلح بعد أن أصبح على مشارف أنطاكية. والواقع أن الذي دفع صلاح الدين إلى قبول الهدنة هو الخوف من تدخل الدولة الرومانية إلى جانب هذه الإمارة وهذه الدولة كانت هي الأقوى في العالم آنذاك، ولذلك وافق صلاح الدين على الصلح، وهو يعلم أن هذا الصلح سيكون دائماً وليس مؤقتاً.

الفصل الثامن

اشتداد الحروب

١- مجيء ملوك أوروبا

لم يكن ما فعله صلاح الدين إلا كمن عبث بعش الزنابير فهاجت عليه، ذلك أن كونراد دي مونتفراتو كان قد أرسل إلى أوروبا، وليم كبير أساقفة صور على رأس وفد، ليحث الملوك على نصرة الصليبيين في الشرق^(١).

ويذكر ابن واصل أن الرسل «صورو المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه بعصا، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا، هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله»^(٢).

ومن غير المعروف من أين استقى ابن واصل روايته هذه، لكن على الأغلب، أنها غير صحيحة، بل من تأليفه، أو من تأليف من استقى عنه هذه الرواية من الترك. والحقيقة أن ملوك وشعوب أوروبا لم يكونوا بحاجة إلى مثل تلك المسرحيات لإيقاظ همهم، لأنهم كانوا فطريين مسحورين بالدين وكان البابا يستطيع أن يحركهم كيفما يشاء بكلمة واحدة منه.

وكان أول من سارع إلى الخروج هو الإمبراطور الألماني «فريدريك بارباروسا»*، الذي اندفع وهو في سن السادسة والسبعين بجيشه نحو الشرق، ولما عبر مضيق البسفور، واتخذ إلى أرض فلسطين طريقاً، اقتفت أثره العصابات التركية وأزعجت وقطعت عنه المؤن، فمات المئات من رجاله جوعاً، ومات فريدريك نفسه غرقاً في نهر في قليقية، ولم ينج من جيشه إلا جزء قليل انضم إلى حصار عكا^(٣). وكان ريتشارد الأول* «قلب الأسد» ملك أنكلترا قد قرر الخروج واصطحب معه فيليب أغسطس* ملك فرنسا، وتلقى

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٣٩

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٨٨
* فريدريك الأول «بربروسا» تولى الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة أخيه كونراد الثالث سنة ١١٥٢، وكان شاباً في الثلاثين من عمره، ومات غرقاً في نهر بقلقية سنة ١١٩٠ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٣٢٩

(٣) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٣٩
* ريتشارد الأول، هو ابن هنري الثاني، تولى عرش إنجلترا سنة ١١٨٩ وتوفي سنة ١١٩٩ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٢١٦
* فيليب الثاني «أغسطس» ملك فرنسا من الأسرة الكابيتية، تولى الملك سنة ١١٩٠ وتوفي سنة ١٢٢٣ وخلفه ولده لويس الثامن - قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٢٢٩

الملكان الصليب من وليم كبير أساقفة صور باحتفال مهيب في فيزلاي، وأبحر ريتشارد بجيشه من مرسيليا وأبحر فيليب من جنوى على أن يلتقي الجيشان في صقلية، ولما التقيا شجريتهما خلاف، وأبحر فيليب أغسطس، من مسينا، Messina، بجيشه ومضى إلى صور. وأغضب تانكريد ملك صقلية ريتشارد فاتنزع هذا منه مدينة مسينا، ثم ردها إليه مقابل أربعين ألف أوقية من الذهب، فلما توفر له المال أبحر بجيشه إلى فلسطين^(١)، فسلك طريقاً بحذاء الشاطئ من كريت إلى رودس التي مكث فيها فترة قصيرة، وأثناء ذلك هبت ريح شديدة حطمت بعض سفنه، وجنحت سفن أخرى مع السفن المحطمة إلى شاطئ جزيرة قبرص، فقبض حاكمها اليوناني أسحق كومنينوس على بحارة السفن وزجهم في السجون^(٢).

وعندما علم ريتشارد بذلك أبحر إلى ميناء «ليماسول» واحتله، ومن ثم احتل كامل الجزيرة، واستسلم أميرها إسحاق كومنينوس فأرسل في حراسة أحد رجال ريتشارد إلى طرابلس ومكث في الأسر حتى وفاته في قلعة المرقب عام ١١٩١ م^(٣). وأعطى ريتشارد قبرص إلى جي دي لوزينيان ملك بيت المقدس المشرّد*^(٤). ثم رحل نحو فلسطين فبلغ عكا في حزيران، يونيو ١١٩١ للميلاد، ٥٨٤ للهجرة^(٥).

وكان الملك الفرنسي فيليب، بعد وصوله إلى صور، قد قام مع الصليبيين المحليين بالهجوم على عكا بهدف استعادتها وتمّ فرض الحصار عليها براً وبحراً.

ويقول ابن واصل: «ولما علم صلاح الدين بحركة الصليبيين تلك، سار نحوهم، فوصل إلى مشارف عكا فوجدها محاصرة ولا يستطيع من بداخلها الخروج منها، كما لا يمكن الوصول إليها، فباشر القتال، ونجح في فك الحصار مؤقتاً والدخول إلى عكا»^(٦). لكن لم تلبث هذه المدينة أن وقعت في أيدي الصليبيين بعد أسابيع قليلة من وصول ريتشارد إليها، وقد استمر الحصار

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٠

(٢) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٠

(٣) الإنجليز والحروب الصليبية - زينب عبد المجيد عبد القوي - ص ١٢٩

(٤) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٠

(٥) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٠

* ظلت أسرة «جاي دي لوزينيان» تملك قبرص لمدة قرن من الزمان، وفي سنة ١٢٧٣، بعد وفاة الملك، حدثت فتنة، فاستولى على الجزيرة أهل جنوا نحو قرن أيضاً، وغصهم إياها أهل البندقية سنة ١٤٨٥، واندرملك الصليبيين من الجزيرة عندما استولى عليها التُّرك سنة ١٥٧١ - تاريخ الأزمنة - اسطفان الدوبيي - ص ٦١١

(٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٩٣

الصليبي عليها تسعة عشر شهراً^(١).

ويقول ابن واصل: «لما كان يوم الأربعاء لتسع بقين من شعبان من هذه السنة خرج الفرنج بفارسهم وراجلهم، وتحركوا حركة لم يتحركوا قبل ذلك مثلها، واصطفوا ميمنة وميسرة وفي القلب الملك «ريتشارد» وبين يديه الإنجيل محمول مستور بثوب أبيض مغطى، وأربعة أنفس يمسكون أطرافه، وهم يسرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة مقابلة ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، والميسرة في مقابلة الميمنة، وملكوا رؤوس التلال، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وميسرتهم إلى البحر، وكان صلاح الدين في القلب، وفي الميمنة ولده الأفضل، ثم ولده خضر، ثم عسكري الموصل، ثم عسكري ديار بكر، وجموع عظيمة متصلون بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بعسكره وهو مطل على البحر. وأما الميسرة فكان فيها علي بن أحمد المشطوب، ملك الأكراد ومقدمهم، والأمير مجلي أمير الهكارية، ومجاهد الدين برتقش مقدم عسكري سنجار، وجماعة من المماليك، وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى الهكاري وجمعه، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يتقدمون حتى مضت أربع ساعات من النهار، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين، وفيهم الملك المظفر، فتكاثروا عليه، وكان طرف الميمنة على البحر فتراجعوا قليلاً، فلما رأى صلاح الدين تراجعهم أمدهم بكتائب من القلب حتى قوي جانبهم، فتراجعت ميسرة العدو. ولما رأى الذين في مقابلة القلب من خرج من الكتائب، داخلهم الطمع، وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة رجل واحد بفارسهم وراجلهم، وجاءت الحملة على الديار بكريّة، وكان بهم غرة في الحرب، فانهزموا هزيمة قبيحة، وسرى الأمر حتى انهزم معظم الميمنة، وأتبع العدو المنهزمين، وصعد بعضهم إلى خيام صلاح الدين في أعلى التل، وجالوا حولها جولة، فلما رأى صلاح الدين الفرنج الذين كانوا صعدوا إلى خيامه منحدرين أراد لقاءهم، لكن رجاله ولوا الأدبار، فعاد هو إلى مضاربه، وشذت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، ولم يعد منهم سوى رجل واحد^(٢)».

وتمت الهزيمة على عساكر صلاح الدين، ورفع الملوك راياتهم على سور عكا وفيها.

ولم تطل إقامة فيليب في فلسطين وادعى أنه مريض وعاد إلى فرنسا سنة ١١٩١ للميلاد، بقصد الحصول على نصيب زوجته في إقليم فلاندرز بعد

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ٤٠

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٠٠

أن توفي كونت فلاندرز^(١). وترك وراءه قوة مؤلفة من ١٠,٥٠٠ رجل وأصبح ريتشارد القائد الصليبي الوحيد^(٢).

٢- صلاح الدين يقاتل ملوك الأطراف لقتال الصليبيين

بعد هزيمة جيش صلاح الدين في عكا أدرك أنه لن يستطيع مقاومة الصليبيين، لأنهم أشد بأساً وأقوى عدة وأكثر عدداً، وكانت السفن تأتي بالمقاتلين من أوروبا بشكل مستمر حيث تتجدد الدماء ويستمر الزخم والتقدم، وكان كل ما لدى صلاح الدين من جيوش مصر وسوريا والموصل وسنجان وديار بكر باتت عاجزة عن مواصلة القتال بعدما رأوا بأعينهم كيف زلزلت الأرض من تحتهم عند أسوار عكا وتحول جمعهم المشحون إلى بدد أمام قوة جيش الصليبيين. ولذلك بدأ صلاح الدين يرسل كتبه إلى جميع الأقطار ليستدعي الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه، وسرح عدنان النجاشي إلى أخيه طغتكين ملك اليمن، وكاتب مظفر الدين قرا أرسلان ملك سلاجقة العجم، يحتج عليه، كما يقول ابن واصل، بما افترضه الله تعالى من القيام بنصرة الإسلام، وكان اسم السلطنة بالعجم لابن أخي مظفر الدين هذا لأمه وهو السلطان ركن الدين طغرل بن محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وهو آخر السلاطين السلجوقية^(٣). وكتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، كما أنه كاتب المنصور أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الخليفة بالمغرب * مستنجداً به على عدو الدين، وكان

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٢١٨

(٢) قصة الحصار - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٠

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٠٦

* الخليفة الموحي المنصور هو، يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن مؤسس الدولة الموحيية في شمال أفريقيا، حكم من سنة ٥٨٠ للهجرة إلى سنة ٥٩٥ للهجرة. ولم يستجب المنصور الموحي لطلب صلاح الدين ولم يرسل جيشاً من عنده لقتال الصليبيين. كما لم يشارك أي جيش مغربي في القتال ضد الصليبيين بعد سقوط الدولة الفاطمية، ولعل السبب الأساسي الذي دفع أهل المغرب إلى الاستقلال والابتعاد عن المشرق كان تلك التجربة المريرة خلال الدولة الفاطمية التي كانت دولة شعوب المغرب، فقد كان المغاربة يلحظون كره أهل المشرق لهم، ما دفعهم إلى الابتعاد عنهم وتركهم لمصيرهم.

** ورد في رسالة صلاح الدين، بالإنشاء العمادي، إلى سلطان الموحدين ما يلي: «لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا من الفرنج خمسين ألفاً، وانبرى في هذه السنة ملكا فرنسيسا وانكلترا وملوك آخرون في مراكب بحرية، وحملوا فيها الخيول والخيالة، والمقاتلة والآلة، ووصلت كل سفينة فيها مدينة، وأحدثت بالثغور ومنعت الناقل بالسلح إليه، والداخل بالميرة عليه. وأخذوا البلد على سلم كالحرب ودخله العدو، ولو لم يدخل من الباب لدخل من النقب، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا ولا رجعنا ورانا، ولا انصرفنا، وأحوج ما كنا الآن إلى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، وإن عاربتنا بها ترد، وعاديتنا بها تشتت. والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الإصابة. ويشعربان الراية قد رفعت تقدم به عرابه، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربي يقلبها، وخطرات من اللطف الخفي يقربها، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء المشرقي غرباً، وخطرة أوهمت أن تلك الهمة لوتلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصباً» - مفرج الكروب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٦٢

الرسول شمس الدولة بن منقذ، فلما ملك الصليبيون عكا، كتب صلاح الدين إلى شمس الدولة، بالإنشاء الفاضلي، يستحثه على العودة ومعه النجدة ويعرفه الواقعة^(١).

والواقع أن سلطان سلاجقة فارس لم يرسل أية نجدة لأنه كان ضعيفاً، والخليفة العباسي لا يملك جيوشاً، بل كان ذا منصب معنوي فقط، وربما الوحيد الذي أرسل نجدة هو طغتكين بن أيوب ملك اليمن، لكنها لم تكن كافية لتقلب واقع الميدان.

٣ - استعادة الصليبيين باقي مَدَن الساحل

بعد الانتصار في عكا اتجه ريتشارد الأول نحو الجنوب، فاستولى على حيفا وقيسارية، وأرسل صلاح الدين أخاه العادل على رأس جيش لمنع الصليبيين من إكمال السيطرة على بقية المدن، فالتقاهم عند أرسوف وهزموه، ويقول ابن واصل عن هذه الواقعة: «لما كان يوم السبت رابع عشر شعبان تأهب المسلمون للقاء الفرنج وأزعجهم وضايقوهم، فلما رأى الفرنج ما نزل بهم من الضائقة اجتمعوا وحملوا حملة واحدة فانكشف المسلمون من بين أيديهم»^(٢).

وتابع ريتشارد بالجيش فدخل إلى يافا التي بقيت بيد الصليبيين وكانت محاصرة، وعندما رأى صلاح الدين أن قوة الصليبيين طاغية، لم يجد من حيلة سوى الاتجاه إلى تخريب المدن ليمنع الصليبيين من امتلاكها، فأمر أخاه العادل بتخريب جميع المدن والقلع باستثناء القدس والكرك^(٣)، فاتجه إلى عسقلان وخربها، حيث يقول ابن واصل: «ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان سنة ٥٨٦ ونزل الرملة، ورحل منها ليلاً نحو تبنى، وثم رحل منها إلى عسقلان بعد العصر، وكان لما نزل أحضر أخاه العادل وأكابر الأمراء وشاورهم في تخريب عسقلان، فأشاروا عليه بذلك بسبب العجز عن حفظها»^(٤).

بعد تهديم هذه المدينة، رحل صلاح الدين، كما يقول ابن واصل، ونزل على تبنى، ثم نزل على الرملة، وأمر بتخريب حصنها، وتخریب كنيسة اللد، واتجه نحو القدس، فأتاها يوم الخميس ومن ثم خرج منها وأقام في مخيمه^(٥).

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٦١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٦٨

(٣) الإنجليز والحروب الصليبية - زينب عبد المجيد عبد القوي - ص ١٣٤

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٦٩

(٥) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٧١

وتقدم الجيش الصليبي نحو القدس في يونيو ١١٩٢، ورغم أن المدينة كانت على مرمى البصر، إلا أنهم اضطروا للانسحاب بسبب حدوث شقاق فيما بينهم، وأبلغهم كشافتهم أن الآبار التي في طريق بيت المقدس قد سُمّمت وأن الجيش الزاحف عليها لن يجد ماء للشرب وعقدوا مجلساً للنظر فيما يجب أن يفعلوه^(١).

وكان الصليبيون الفرنسيون من أشد المؤيدين لفكرة الهجوم على المدينة، في حين عارض الفكرة ريتشارد والإنجليز الذين كانوا يريدون مهاجمة مصر لضرب أساس دولة صلاح الدين وهي خالية من العساكر. وقال ريتشارد: إذا وافق المجلس على الزحف إلى القدس فإنه سيشارك لكن «لن يضطلع بمسؤولية قيادة الجيش، بل سوف يتبعهم ولا يقودهم»^(٢).

وأخيراً قرر المجلس أن يتخلوا عن القدس وأن يزحفوا على مصر، وفقاً لرغبة الملك ريتشارد، ليرغموا صلاح الدين على التسليم لهم، لكن بسبب استمرار الخلافات فقد عاد الملك ريتشارد بجيشه إلى عكا^(٣).

ويذكر ابن واصل رحيل الصليبيين إلى القدس فيقول: «ولما كان الثالث من ذي القعدة رحل الفرنج إلى الرملة، وأظهروا قصد بيت المقدس، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم، ثم رحل السلطان إلى القدس بنية المقام فيها، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة، فوصل إليها ونزل بدار الإفتاء بجوار كنيسة قمامة (القيامة)».

ويقول ابن واصل أيضاً: «لما قتل المركيس جلس مكانه الكندھري* بأمر الانكلتير، وتزوج زوجة المركيس، وصح عزم الفرنج على قصد القدس فرتبوا جماعة على الدل يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندھري إلى صور وأطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة، ليصعدوا إلى القدس، ولما علم السلطان بقصدهم قسم أسوار القدس على الأمراء، وتقدم إليهم في تهئية أسباب الحصار، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس، وأخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلاً»^(٤).

ورتب صلاح الدين كشافة أو كما يسميهم ابن واصل بلغة التُّرك (يزك) لكشف مواقع الصليبيين على رأسهم عز الدين جرديك، ويقول ابن واصل: «فوصلت رقعة من عز الدين جرديك يقول فيها: إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا على ظهر في

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٣

(٢) الإنجليز والحروب الصليبية - زينب عبد المجيد عبد القوي - ص ١٣٤

(٣) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٤٣

* الكندھري، هو الأمير هنري ابن أخت الملك ريتشارد كان أمير مقاطعة شامبانيا champagne شمال شرق فرنسا، وقد جعله ريتشارد ملكاً على مملكة بيت المقدس.

(٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٧٤

البر، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم، فلما كان صبيحة السبت - وهو الحادي والعشرون من جمادى الآخرة - وصلت رقعة أخرى تخبر أن الجواسيس رجعوا فأخبروا أن القوم اختلّفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل إلى بلادهم، فذهب الفرنسية إلى الصعود، إلى القدس وقالوا: إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونه، وقال الانكلتير «ريتشارد الأول»: إن الموضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب، فقالوا له: نشرب من ماء نقوع، وبينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقال: كيف نذهب للسقي، فقال: ننقسم قسمين: قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزل، ويكون الشرب في اليوم مرة. فقال الانكلتير: إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقيين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكم الاثني عشر ثلاثة منهم، وقد باتوا على حكم الثلاثة، فما يأمرؤنهم به يفعلونه. فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل، فلم يمكنهم المخالفة، فأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راجعين نحو الرملة، وتواتر الخبر بذلك إلى السلطان، فركب وركب الناس معه، وكان يوم فرح وسرور»^(١).

ونرى في هذه القصة توافقاً جزئياً مع المصادر الغربية التي تقول، إن ريتشارد عارض التوجه إلى القدس لأنه كان يريد مهاجمة مصر، والسيطرة عليها لدفع صلاح الدين إلى التسليم. لكن ابن واصل يزعم أن ريتشارد رفض الصعود إلى القدس لأن صلاح الدين أفسد ما حولها من ماء، والواقع هذه الحجة التي أوردها ابن واصل غير كافية لتوقف زحف تلك الجيوش، فقد أفسد الفاطميون كل الآبار أثناء الزحف الصليبي الأول على القدس ومع ذلك زحف الصليبيون واستولوا على المدينة. ونرى أن الخلافات بين الصليبيين كانت هي السبب الرئيس للإحجام عن قصد القدس والاستيلاء عليها.

٤- الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين

كان ريتشارد مضطراً للعودة إلى بلاده لأنه وصله أن الملك الفرنسي فيليب الثاني قد انتهاز فرصة غيابه فهجم على نورماندي لكن البابا اعترض عليه ومنعه لأنه لا يجوز الاعتداء على ممتلكات صليبي يحارب في الأراضي المقدسة، وكان البابا قد وضع أراضي ريتشارد في فرنسا تحت وصايته وحمايته، وعندما فشل فيليب في مساعيه تلك أخذ يحرض حنا أخا الملك ريتشارد للانقلاب على أخيه^(٢). وعرض

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ٣٩٠

(٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - ص ٢١٨

عليه الزواج من أخته (أليس)، ومنحه جميع الممتلكات الإنجليزية في فرنسا، وأبدى حنا، رغم زواجه، استعداداً لهذا الإغراء، وتأهب للعبور إلى فرنسا لولا تدخل والدته الملكة إيلانور التي أقنعت به بصعوبة بالتخلي عن ذلك^(١).

وأدرك ريتشارد أنه إذا تأخر فقد يفقد ملكه أو يضطر للدخول في حرب مع أخيه، لذلك بدأ يتحرك ليعقد مصالحة مع صلاح الدين، وحاول في البداية أن يدخل عن طريق الزواج والمصاهرة ويذكر ابن واصل ذلك فيقول: «ثم راسل ملك الانكلتير الملك العادل، راغباً في المسالمة والمصالحة، وزعم أن له أختاً عزيزة عليه كبيرة القدر*، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، هو صاحب صقلية، توفي عنها، ورغب في أن يزوجه الملك العادل، يجعل له الحكم في البلاد الساحلية، ينفذ فيها أمره، وهو يقطع الداوية والاستبارية ما أراد من البلاد والقرى دون الحصون، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها قسيسون ورهبان في صحبتها، فرأى الملك العادل ذلك مصلحة، وشاور السلطان في ذلك فأجابه إليه، ونفذ رسوله إلى الانكلتير بالإجابة، فدخل الفرنج إلى المرأة وخوفوها، وأعلموها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة، وفيه عصيان للمسيح وإغضاب له، فما أجابت، واعتذرا الانكلتير بعد ذلك بعدم موافقتها، إلا أن يدخل الملك العادل في دينها»^(٢).

لكن ابن واصل لم يوضح لماذا اختار ريتشارد العادل ليزوجه أخته، ولماذا لم يعرضها على صلاح الدين، لكن ربما كان ريتشارد قد أعجب بالعادل في معركة أرسوف التي كان قائداً لها، ولهذا اختاره لمشروع المصالحة الذي كان يعمل عليه، لكن فشل هذا الزواج لم يمنع ريتشارد من معاودة الاتصال بصلاح الدين من أجل الصلح، ويقول ابن واصل: «ثم راسل الانكلتير السلطان: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب، والقدس متعبداً ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد لنا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمن السلطان به علينا، ونستريح من هذا العناء الدائم»^(٣).

وتبدو صيغة هذا النص غريبة، ومن غير المعروف إن كانت حقاً قد خرجت من فم الملك ريتشارد، لأن الأوروبيين الذين احتلوا سواحل سوريا في ذلك الوقت، لم يكونوا يسمون أنفسهم فرنجاً بل صليبيين ومسيحيين، كما أسماهم ولیم الصوري في رواياته، وأيضاً لم يكن الصليبيون يسمون أهل المشرق، مسلمين، بل

(١) الإنجليز والحروب الصليبية - زينب عبد المجيد عبد القوي - ص ١٣٥

* أخت الملك ريتشارد كانت تدعى جوان

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٧٢

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٧٣

كفاراً ووثنيين، كما يذكر وليم الصوري أيضاً، ولذلك قد يكون ريتشارد راسل في طلب الصلح، لكن محتوى هذه الرسالة فيه شك، وربما هي إما من وضع ابن واصل أو من وضع العماد الاصفهاني مؤرخ صلاح الدين الأساسي الذي استقى ابن واصل منه رواياته.

وقد كانت المراسلات تجري بين الطرفين بينما كانت المعارك لا تزال مستمرة بشكل متقطع هنا وهناك، ويقول ابن واصل: «ثم ورد رسول ملك الانكليز إلى السلطان يقول: (قد أهلكنا نحن وأنتم، والأصلح نحقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني، بل أريد المصلحة، ولا تغتر بتأخري عن منزلي، فالكبش يتأخر لينطح، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي الكندھري قد ملكته هذه الديار، وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك في المراسلة لما كانت المراسلة تجري مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني قرية أو مزرعة، قبلتها وقبلتها»^(١).

فاستشار السلطان الأمراء في جوابه، فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح، ولما كان قد أخذ المسلمين من الضجروالتعب وعلاهم من الديون واستقر الحال على هذا الجواب *: (إنك إذا دخلت معنا في هذا الأمر، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا أعطيك أكبر الكنس وهي القمامة «القيامة» وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العاملين يكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن اردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان)*.

لكن ما لبث أن اختلف الطرفان حول القدس، حيث طلب الملك ريتشارد أن يكون للصليبيين وجود في هذه المدينة، لكن السلطان صلاح الدين قال: (إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة)^(٢). وربما لم يرض ريتشارد بذلك فقرر مهاجمة بيروت واسترجاعها، وعرف صلاح الدين به فسار إلى يافا وأخذ بساتينها، فعاد ريتشارد واسترجع من صلاح الدين ما أخذه، وزادت الضائقة على الترك بسبب التعب ومالوا إلى التمرد، وقد ظهر ذلك جلياً عندما علم صلاح الدين بأن الملك ريتشارد في نفر قليل خارج يافا، فقرر كبسه فجاءه ومعه ثلاثمائة

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل ج ٢ - ص ٣٩١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٩٢

راجل ومن الخيل سبعة عشر، وكانت خيم الملك ريتشارد، كما يقول ابن واصل، عشر خيم فقط، فحمل صلاح الدين عليهم بمن معه، فلم يتحركوا عن أماكنهم وكشروا عن ناب الحرب، فارتاع العسكر منهم، ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة، فاستاء صلاح الدين من ذلك كثيرًا ودار على الكتائب ليهجموا، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الملك الظاهر^(١). وقد تمكن الملك ريتشارد من أخذ رمح صلاح الدين، وهجم من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ولم يعرض له أحد^(٢).

وبعد هذه الحادثة المؤلمة قرر صلاح الدين بشكل نهائي عقد الصلح، ويقول ابن واصل: «ثم جمع السلطان عنده أرباب الرأي وقال: (إن الانكلتير قد مرض مرضًا شديدًا، والفرنسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، والرأي أن نسير إلى يافا، فإن وجدنا فيها مطمعًا وإلا سرنا إلى عسقلان، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضًا)، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريبًا من يافا، ورسل الانكلتير مترددة في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، فكان السلطان يمدده بذلك، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، ومما انكشف له أن الانكلتير يتردد بينه وبين الأفرنسيسية في مقامهم، وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحدًا، فسار السلطان إلى الرملة، وجاء رسول الانكلتير مع الحاجب إلى أبي بكر العادل يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج، وقال له: (قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان، وأمضي ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة، ويأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الإفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ منه عوضًا من خسارتي على عمارة سورها)، فأرسل السلطان إلى الملك العادل: (إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار (الحرب) والنفقات قد نفدت).

ثم أن الانكلتير نزل عن عسقلان وعن العوض عنها، واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثاني عشر شعبان، وذكر يافا وعملها - فأخرج الرملة منها ولدًا ومجدالية - ثم ذكر قيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، - فأخرج منها الناصرة وصفورية - وأثبت الجميع في ورقة، وقال للرسول: (هذه حدود البلاد التي تبقى بأيديكم، فإن صالحتم على ذلك، فمبارك، وقد أعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فليعلم أن هذا تدفيع ومماطلة). وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابًا،

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٠١

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٠١

ويتفق المسلمون وهم على خرابها، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكيا وطرابلس في الصلح، وشرطوا أن تكون الرملة ولد مناصفة بينهم وبين المسلمين، وأن يسمح صلاح الدين للزوار المسيحيين بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمي هذا الصلح (صلح الرملة).

واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء لثمان بقين من شعبان من سنة ٥٨٨، وحلفوا، ولم يحلف الانكليز، بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندھري (الأمير هنري) وهو ابن أخته، وهو المستخلف عنه في الساحل، وباليان بن بارزان، ابن صاحب طبريا. ووصل ابن الهنري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين، وأخذوا يده على الصلح، واستحلفوا الملك العادل، والملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك المنصور، ملك حماة، والملك المجاهد، ملك حمص، والملك الأمجد ملك بعلبك، والأمير بدر الدين الياروقي، وصاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية، صاحب شيزر، والأمير سيف الدين المشطوب، وغيرهم من المقدمين الكبار. وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها مبتدأ أيلول الموافق الحادي والعشرين من شعبان، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً عمّ فيه للطائفتين الفرخ والسرور^(١).

وتولى هنري أمير شمبانيا* ابن أخت ريتشارد عرش مملكة، فاتخذ لقب ملك بيت المقدس، بفضل زواجه من إيزابيلا أرملة كونراد أوف مونتيفرات، وغادر ريتشارد الأراضي المقدسة في تشرين الأول، أكتوبر ١١٩١^(٢).

٥- تقييم الهدنة

أعطى صلاح الدين للصليبيين، بموجب الهدنة، كامل ساحل فلسطين، باستثناء عسقلان التي خربها ومنعهم من امتلاكها من جديد بسبب قربها من الحدود مع مصر، كما سمح للصليبيين أن يدخلوا إلى القدس للحج والزيارة وأعطاهم كنيسة القيامة.

وما يلحظ في هذا الصلح هو أن السلطان أدخل بلاد الإسماعيلية فيه، ومن غير المعروف إن كان ذلك بمبادرة منه، أم أن مقدم الإسماعيلية سنان هو الذي طلب

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ ص ٤٠٥ وما قبلها.

* هنري الثاني، هو الابن الأكبر لهنري الأول، أمير شمبانيا، شارك في الحملة الصليبية مع ملك فرنسا وملك إنجلترا، وتزوج من إيزابيلا أرملة كونراد دي مونتفراتو.

(٢) الحروب الصليبية - أرنست باركر - ص ٩٢

منه إدراج بلاده في الصلح، لكن ذكر السلطان لهذه البلاد يؤكد على العلاقة الطيبة التي كانت تجمعها بالإسماعيلية في سوريا، وربما يمكن تصديق المصادر الإسماعيلية التي تقول، بأن سناناً كان على تعاون وثيق مع صلاح الدين في الحرب المقدسة، وربما كان اغتيال المريكز كونراد أوف مونتيفراتو ملك بيت المقدس، تعبيراً عن ذلك التعاون، لكن من جانب آخر فإن صلاح الدين لم يذكر في الصلح ساحل سوريا، فلم يأت على ذكر يحمور وطرطوس وبانياس وجبله واللاذقية وقلعة صهيون وسواها من القلاع والحصون التي حررها وسيطر عليها.

وربما عدم ذكر هذه الأماكن يوحي بأنه قد تنازل عنها من جديد للصليبيين، لأنها عادت عامرة بهم حتى استخلصها السلطان الظاهر بيبرس وخليفته السلطان قلاوون الألفي، وما يؤكد أن السلطان تنازل عنها هو أن الصليبيين طلبوا إدخال إماراتي طرابلس وأنطاكية في الصلح، وكانت مدن وقلاع الساحل السوري التي حررها صلاح الدين، تتوزع بين هاتين الإمارتين.

وبشكل عام فإن هذا الصلح كان أفضل الممكن بعد أن أصبح استمرار الحرب مستحيلاً.

الفصل التاسع

نظرة عامة على الحرب

كانت الحرب التي بدأها صلاح الدين ضد الصليبيين عام ٥٨٣ حربًا عالمية بكل ما في الكلمة من معنى، بل ربما كانت أول حرب عالمية عبر التاريخ، لأنه شارك فيها كل ملوك وأمراء أوروبا الغربية دفعة واحدة، كما شارك فيها كل دول وممالك الترك في الشرق، وقد استمرت هذه الحرب ست سنوات من القتال المتواصل على جبهات متعددة، وإن كانت ساحتها الرئيسية أرض فلسطين، لأن جهد الصليبيين كان منصبًا على إعادة احتلال هذه الأرض.

ولعل السلطان صلاح الدين لم يحسب حسابًا لكل هذه الحرب عندما قرر مهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية، بل ربما اعتقد أن المسألة بسيطة وستنتهي بوقت قريب، ولذلك لم يعدّ العدة جيدًا للنزال، وما زاد في الأمر سوءًا هو أنه ظل يحارب الزنكيين وسواهم من الأمراء والملوك في سوريا والعراق والجزيرة وديار بكر مدة ثلاث عشرة سنة متواصلة، وقد خسر جيشه الكثير، كما فقد القدرات المادية، ولذلك عندما وقعت الحرب بان ضعفه واضطر في الفترة الأخيرة أن يلجأ إلى القدس ويتحصن فيها للدفاع عن نفسه بعد أن أصبح كل أرض فلسطين الأخرى بحكم الساقطة عسكريًا.

ومن دون شك لم يكن صلاح الدين ينظر، في البداية، إلى الصليبيين كعدو أساسي، بل كان يجعلهم في سوية واحدة مع الملوك والأمراء الأتراك المناوئين له، ولهذا بدأ حروبه ضد أولئك الملوك والأمراء استخفافًا منه بأمر الصليبيين، وما يؤكد ذلك أنه عندما سار إلى بلاد الجزيرة ليحارب الملوك فيها، جاءه الخبر، في نصيبين، أن الصليبيين قصدوا ضواحي دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا. فقال: «يخربون قرى ونملك عوضًا عنها بلادًا، ثم نعود فنعمرها ونقوى على قصد بلادهم»^(١). وكل ذلك كان استخفافًا منه بأمر الصليبيين.

لكن عندما وقعت الحرب واشتدت أدرك أنه كان مخطئًا في تقدير العواقب، فراح يستغيث ويرسل الكتب يطلب النجدة من ملوك الأطراف، وشاهد بأعين جدارة وقوة الصليبيين في الحرب حتى أنه اعترف في رسالته التي بعثها إلى خليفة بغداد، بأن الصليبيين متوحدون خلف قياداتهم بخلاف الأمراء والجنود الذين كانوا معه والذين كانوا لا يقاتلون إذا لم يأخذوا رواتبهم حيث قال بإنشاء

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ١١٨

الخط العمادي: «فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم في ضلالهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولا يصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون ويتسللون ولا يرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا بقلوب غير متفقة»^(١).

وهذا الكلام يدل على أن صلاح الدين لم يكن راضياً أبداً عن جيشه ولا عن حلفائه، وربما لو علم أن المآل سيكون هكذا لما دخل في هذه الحرب منذ البداية، لأن النتيجة لم تكن مشرفة على الإطلاق، ولو استمرت الحرب فإن الغلبة ستكون لصالح الصليبيين لا محالة، بسبب المدد الذي كان يأتيهم من دون توقف، وأيضاً بسبب الجلد والثبات اللذين كانا يظهران به في ساحات القتال، بعكس حال السلطان الذي كان عاجزاً عن توفير المدد بالرجال والمال، كما أن جيشه لم يكن يصبر في الحرب، ولذلك كان الصلح رحمة من الله تعالى ليمنع سقوط البلاد كلها بيد الصليبيين، لأنه لو انكسر صلاح الدين، آنذاك، ومعه كل عساكر الممالك والإمارات التركية في الشرق، فإن المجال سيكون مفتوحاً أمام الصليبيين لامتلاك هذه البلاد كلها.

ويزعم ابن واصل، أنه لو أطل الله في عمر السلطان «لكان الغالب على الظن، أن العدو لا يبقى له في البلاد الشامية ثغروا بلاد»^(٢). لكن الحقيقة لو أن عمر صلاح الدين قد طال أكثر، ما كان ليستطيع تجديد الحرب مع الصليبيين بعد انقضاء أمد الهدنة، أو تغيير الوقائع على الأرض، فتلك الحرب العالمية التي حدثت لا يمكن العودة إلى مثلها إلا بعد انقضاء نصف قرن على الأقل.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٣٣٣

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٠٥

الفصل العاشر

نهاية صلاح الدين

لم يكن صلاح الدين عبقرياً، بل كان قادراً على انتهاز الفرص، وكان في شبابه متهوراً يشرب الخمر، وعندما طلب منه نور الدين محمود بن زنكي السير مع عمه شيركوه إلى مصر، تملل وأظهر عدم الرغبة، كما يذكر ابن الأثير، الذي يقول: «إنه ذهب إلى هناك مكرهاً».

وعندما مات عمه وتولى هو الوزارة، أظهر في البداية مسكنته وخضوعه للخليفة العاضد لدين الله، فلما قوي واشتدَّ عودُه، نكث بعهدِه وقام بانقلاب على سيده العاضد، فأزاحه ونقض أركان دولته التي ظلت مستقرة في مصر مدة تزيد عن مئتي عام، وجعلها كأن لم تغن يوماً، وسجن من بقي من النسل العلوي حتى هلكوا وهم في سجن القلعة في عهد من جاء بعده من سلاطين التُّرك في مصر، وهم لا ذنب لهم سوى أنهم ينتمون إلى ذلك البيت الطاهر الشريف. وقتل معظم أمراء المصريين أو أذلَّهم، ووَلَّى الغز على رقاب المصريين، ومحا التشييع من مصر، وأعلى فيها مذهب (الشافعي) الذي كان يتعبد به.

وعندما هلك نور الدين محمود بن زنكي، ادعى صلاح الدين أنه يريد الحفاظ على ملك ولده الصغير إسماعيل، لكنه فعل العكس ونكث بعهدِه تجاهه، حيث جرَّد هذا الصبي من كل ملكه.

والواقع أن صلاح الدين أخطأ ثلاثة أخطاء قاتلة:

الخطأ الأول، هو أنه انقلب على الخلافة العلوية، وحطَّم إرث أسرة تمتد بنسبها إلى بيت النبوة ومعدن الرسالة، وأخذ حقاً ليس له. والخطأ الثاني، أنه حارب الزنكيين الذين كانوا أولياء نعمته وأولياء نعمة أبيه من قبله، وسلَّ عرشهم.

والخطأ الثالث، أنه قسَّم البلاد التي يملكها بين أولاده وأخوته، وجعلها شركة عائلية، وكان ذلك لشدة حبه لهم، فحكمهم في رقاب الناس، وعاثوا فساداً وتقاتلوا فيما بينهم حتى استأصلهم المغول في سوريا، وكان مماليكهم البحرية قد قضاوا عليهم قبل ذلك في مصر، وانتهى ملكهم كأن لم يكن، لكن بقيت أفعالهم تدلُّ عليهم.

ومن جانب آخر، فقد قاتل صلاح الدين الصليبيين مخلصاً، لكنه أسقط في

يده، وأدرك خطأه، وأنهكه التعب والهم، وقد ترك كل ذلك أثرًا على صحته، حيث إنه ما إن عاد إلى دمشق حتى وافاه المرض في شهر صفر سنة ٥٨٩، وكان المرض في رأسه، كما يقول ابن واصل، وحاول الأطباء علاجه، لكنه فارق الحياة تاركًا مملكة مقسّمة من ورائه، والهدنة التي كانت محدودة بثلاث سنوات، باتت مفتوحة الأجل.

الفصل الحادي عشر

الإقطاع الصليبي في الشرق

حمل الاستعمار الصليبي معه إلى الشرق النظم الإقطاعية التي كانت سائدة في أوروبا، فقد نشأ عن امتلاك الصليبيين الأرض، امتلاكهم للسلطة، وأصبح المجتمع مرتبطًا بدورته الاقتصادية بالنظام الإقطاعي وفق تراتبية اجتماعية يقف فيها السيد الإقطاعي، الذي كان هو أمير المنطقة، على رأس الهرم، وكان التابعون من السكان المحليين يحضرون بين يديه أو يحضرمثل عنهم أو مقدم بين يديه، ويقدم له الالتزام الذي يطلق عليه «البيعة»، كما يقدم له الإخلاص والولاء، وكان عليه الركوع أمام سيده وأن يعلن تبعيته له وتعهده الكامل بالإخلاص والولاء ضد أي أعداء، وكان السيد الإقطاعي يعلن قبول بيعة التابع له ويرفعه من وضع الركوع حتى يقف أمامه منتصب القامة^(١).

وكان النظام الإقطاعي يلزم الأتباع بتأدية خدمة عسكرية للسيد الإقطاعي^(٢). ولعل هذا ما أدى إلى وجود بعض السكان المحليين مع الصليبيين في بعض المعارك.

وكان النظام يطلب من التابع استضافة سيده الإقطاعي الصليبي دون مقابل كلما زاره، ونظرًا لأن كل إقطاعي شهير كان يتنقل باستمرار في صحبة جيش صغير من الفرسان الأتباع، فإن التابع المقتدر لم يكن في استطاعته أن يكون مضيئًا كريمًا فوق طاقته، ونتيجة لذلك فإن التزام التابع غالبًا ما أصبح في هذا المجال محدودًا بكل دقة، وأحيانًا يتم استبدال الضيافة بمبلغ من المال^(٣).

وقد اتخذ استثمار الصليبيين الأسياد للفلاحين عدة أشكال أهمها، أعمال السخرة، حيث كانوا يقومون بتسخيرهم في بعض الأعمال الزراعية الخاصة بهم، كما كانوا يسخرونهم في شق الطرق وحفر الخنادق وإصلاح الجسور وإقامة السدود وتشديد القصور والحصون.

وكان الفلاح مرغماً على دفع مقررات تشمل المكوس والضرائب المختلفة،

(١) الأقطاع في العصور الوسطى - كارل ستيفنسن - ص ١٤

(٢) الأقطاع في العصور الوسطى - كارل ستيفنسن - ص ٢٠

(٣) الأقطاع في العصور الوسطى - كارل ستيفنسن - ص ٢٣

مثل ضريبة الرأس وضريبة العُشر من الإنتاج.

أما الاحتكارات فكانت متنوعة وتشمل الطاحونة والمعصرة، بالإضافة إلى ما كان يفرض على الفلاح من خوة عند انتقال حق حيازة الأرض من فرد إلى آخر^(١).

ورغم أن الصليبيين لم يسعوا إلى تنصير السكان الأصليين، لأن غايتهم كانت هي المال، إلا أن بعض السكان وجدوا أن وسيلتهم للخلاص من الأكلاف التي كان يفرضها الصليبيون عليهم هي التنصير، ويذكر البطريك اسطفان الدويهي في أحداث سنة ١١٧٣ للميلاد، ٥٦٨ للهجرة، نقلاً عن مطران صور، «أن طائفة النصيرية «العلويين» في القرى والحصون التي بقرب طرطوس قد قبلوا المعمودية «المقدسة»، كان عددهم نحو ستين ألفاً، وكل سنة يحملون إلى فرسان الهيكل ألفي درهم، وعندما تنصروا «تعمّدوا» أمر الملك أليريكوس - أمليريك «أموري الأول» أن ترفع عنهم الدراهم المحررة عليهم، فصعب ذلك على فرسان الهيكل، وقتلوا فوق طرابلس أبا عبد الله المرسل الذي بعثه الملك بمكاتيب المودة إلى شيخ النصيرية، فأمر أليريكوس الملك «أموري الأول» أمراء الفرنج أن الذي قتله يجب أن يوضع في الحبس، فحبسوه ومات بعد مدة قليلة»^(٢).

وهذه الحادثة تؤكد أن العلويين في القرى التابعة لطرطوس قد تنصروا ليندمجوا بالمجتمع الصليبي بشكل كامل، وأن عددهم كان ستين ألفاً، أي بين الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وأن الملك أليريك «أموري الأول» ملك مملكة بيت المقدس قد بعث إلى شيخ المتنصرين مكاتيب مودة مع رسول يدعى أبو عبد الله، ولعل هذا كان من سكان تلك المنطقة، لكن فرسان الهيكل «الداوية» الذين لم يعجبهم تنصّر هؤلاء لأنه سيحرمهم من المال الذي كانوا يدفعونه لهم، قد قتلوا الرسول بالقرب من طرابلس. لكن القرى المحيطة بطرطوس قد عادت، اليوم، كلها علوية.

وللأسف يخلو تاريخ العلويين الشفهي والمكتوب من الإشارة إلى هذه الحادثة.

وأيضاً فإن إشارة الراوي إلى إرسال الملك أليريك مكاتيب المودة إلى شيخ المتنصرين، تدل على أن هذا المقدم كان مسؤولاً عن قرى كثيرة في منطقة طرطوس الصليبية، وأنه كان مشهوراً وذا تأثير على شعبه لدرجة أن الملك الصليبي أرسل له مكاتيب مودة. ومن غير المعروف إلى أية قرية كان يتبع

(١) جبل عامل في العهدين الصليبي والمملوكي - د. محمد مخزوم

(٢) تاريخ الأزمنة - البطريك اسطفان الدويهي - ص ١٧١

هذا المقدم، لكن ربما له الآن مقام يُزار.

وبشكل عام لم يكن الحكام الصليبيون يريدون من الفلاح سوى العمل ودفع الضرائب والانقياد لهم، أما فيما يتعلق بممتلكاته الشخصية كالأرض مثلاً فلم يتدخلوا بها ولم يسلبوا الأراضي من أصحابها، كما لم يتدخلوا بالعبادات الشخصية للسكان المحليين، ولولا ذلك لاندثر العديد من المذاهب الإسلامية في بلاد الساحل السوري.

الباب الرابع

الحركة الإسماعيلية

مقدمة

لعبت الإسماعيلية دورًا خطيرًا في سوريا، فقد أقاموا دولتهم في أجزاء من جبال لبنان، وحافظوا على استقلالهم أمام الخطرين التركي والصليبي اللذين كانا يحيطان بهم من جميع الجهات، بل إنهم من خلال العمليات الفدائية التي كانوا يقومون بها قد أزهبوا أعداءهم ومنعواهم حتى من التفكير في قصد بلادهم واحتلالها...

وسوف نتناول في هذا الباب، نشأة الحركة الإسماعيلية، واحتلال الإسماعيلية لبعض قلاع جبال لبنان، وإقامتهم ما يُسمى «مملكة الدعوة» والعلاقة بينهم وبين كل من الترك، والصليبيين، ومن ثم العلاقة بينهم وبين السكان المحليين. ومن ثم نهاية «مملكة الدعوة» على يد الملك الظاهر.

الفصل الأول

نشأة الحركة الإسماعيلية النزارية

١- انشقاقات الدعوة الفاطمية

أبتليت الدعوة الفاطمية بانشقاقات متعددة، وكما انشق عنها القرامطة من قبل وأصبحوا أكبر أعدائها، فقد انشق عنها بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧، جماعة أخرى وأصبحوا أيضًا حربًا عليها، ذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي بادر إلى القصر عندما توفي الخليفة المستنصر وأحضر أصغر أولاد المستنصر واسمه أحمد، ولقبه بالمستعلي، وبعث فأحضر إليه نزارًا وعبد الله وإسماعيل، أولاد المستنصر الآخرين، فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض، وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله، وبايعوه، فهو الذي نصّ عليه الإمام المستنصر، قبل وفاته، للخلافة من بعده. فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم، كما يذكر المقرئ، إن والده وعده بالخلافة، وقال نزار، إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سنا مني، وخطّ والدي عندي بأني وليّ عهده وأنا أحضره، وخرج مسرعًا ليحضر الخط، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه خفية إلى الإسكندرية^(١).

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال، بنصر الدولة أفتكين التركي الذي كان وليًا على الإسكندرية من قبل الأفضل، وأن نصر الدولة قد بايع نزارًا، كما بايعه القاضي أبو عبد الله محمد بن عمار وأهل الإسكندرية، وأنه تلقب بـ«المصطفى لدين الله»، فأهمّ الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفي آخر المحرم من سنة ٤٨٨، خرج الأفضل بعساكره من القاهرة، فسار إلى الإسكندرية فكانت بينه وبين نزار حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة، فضايقها الأفضل بالحصار، فلما كان في ذي القعدة، فرّابن مصال من الإسكندرية يريد بلده «برقة» في ليبيا، ولما فرّضت نفس نزار وافتكين وتخوفا ممن حولهما، وبعثا إلى الأفضل يسألانه الأمان، فأمنهما وتمكن من

(١) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ ص ١١

البلد، وقبض على نزار وأفتكين، وسيّرهما إلى مصر، ويقال، إنه سلّم نزاراً لأهل القصر من أصحاب المستعلي وأنه بُني عليه حائط ومات. وقيل، إنه قتل بالإسكندرية، والأول أصح^(١).

وهذه الرواية التي يذكرها المقرئزي تبين أن الأفضل أمير الجيوش اختار أصغر أولاد المستنصر بالله من أجل أن يتحكم هو بشؤون الدولة، وبذرب فعلته هذه بذور دمار الدولة الفاطمية، فلو أن نزاراً أصبح هو الخليفة لكان قواد الدولة نحو الأفضل، لأنه كان رجلاً راشداً قادراً على القيادة والحكم، ولما كان الناس يختلفون حول من هو الإمام، ذلك الخلاف الذي بدأ ينخرق جسد الدولة.

٢- الحسن بن الصباح والدعوة الفاطمية في بلاد فارس

كان الفاطميون قد أرسلوا الدعاة إلى بلاد فارس لدعوة الناس هناك إلى طاعتهم، وكانت هذه البلاد تحت حكم السلاجقة، وقد نجح الدعاة في تشكيل قاعدة شعبية للدعوة العلوية، وكانت بلاد الديلم لاتزال، آنذاك، مكتظة بأتباع آل البيت رغم السطوة السلجوقية المفروضة عليهم منذ زوال ملكهم. وقد انتشرت الدعوة الفاطمية سريعاً بينهم وبين غيرهم من أتباع المذاهب السنية.

وكان هناك رجل يدعى الحسن بن الصباح قد اتبع الدعوة الفاطمية، ويقول عطا ملك الجويني في نسب الحسن بن الصباح: «اسمه الحسن بن الصباح بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى قم، ومن قم إلى الري، فاستوطنها، وهناك ولد الحسن بن الصباح^(٢). ويقول الحسن بن الصباح عن نفسه: «كنت أتبع مذهب آبائي، وهو مذهب الشيعة الاثني عشرية، وكان في الري رجل يسمى «أمير ضراب» على مذهب الدولة الفاطمية، وكنا تتناظر معاً بصفة دائمة، فيكسر مذهبنا، ولكني لم أكن أسلم بينما استقرت آراؤه في قلبي، وكان هناك رجل آخر يسمى «أبو نجم سراج» فذهبت أتعرف عنده على هذا المذهب، فشرحه لي، وفصله حتى وقفت على غوامضه، وكان هناك رجل آخر يدعى «مؤمن» منحه عبد الملك بن عطاش الإجازة للقيام بأمر الدعوة، فأردت أن آخذ على يديه عهد البيعة فقال: «إن مرتبتك أعلى من مرتبتي، فأنت حسن، أما أنا فمؤمن، فكيف آخذ عليك هذا؟»^(٣). ولما وصل عبد الملك بن عطاش داعي العراق في ذلك الوقت إلى الري سنة ٤٦٤، أعجب بي، فأمر بأن أتولى نيابة الدعوة، وأشار بوجوب توجيهي

(١) اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئزي - ج ٣ - ص ١٤

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧١

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٢

إلى الإمام المستنصر في مصر^(١).

ويقول الحسن بن الصباح: «وفي سنة ٤٦٩ توجهت إلى مصر ووصلت إليها سنة ٤٧١ فأقمت بها بالقرب من سنة ونصف، ولم أصل طوال مدة إقامتي إلى الإمام المستنصر، ولكنه كان واقفاً على أمري ويمدحني غير مرة، وكان أمير الجيوش - أمير جنده، هو المتسلط والحاكم المطلق، وهو في الوقت نفسه صهر المستعلي الابن الأصغر الذي كان الإمام المستنصر قد نصّ ثانياً بأن يكون ولياً للعهد، وكنت أنا طبقاً لقاعدة أصول مذهبي، أقوم بالدعوة لنزار، ولهذا ساءت علاقة أمير الجيوش بي، فعقد خاطره استعداداً للنيل مني، وكان نتيجة ذلك أنهم أجبروني على التوجه إلى المغرب فوق ظهر إحدى السفن مع جماعة من الفرنج، وكان البحر هائجاً فألقى بالسفينة إلى الشام، وهناك وقعت لي واقعة، وقدمت من هناك إلى حلب ومنها إلى أصفهان عن طريق بغداد وخوزستان في ذي الحجة سنة ٤٧٣^(٢). وتوجهت منها إلى حدود كرمان ويزد فقامت بالدعوة حيناً، ثم عدت بعد ذلك إلى أصفهان، وذهبت مرة أخرى إلى خوزستان وقدمت من هناك إلى فريم وشهر ياركوه عن طريق الصحراء، وقد أقمت في دامغان ثلاث سنوات، ومن هناك وجهت جماعة الدعوة إلى اندجروود والولايات الأخرى بـ «ألموت» لكي يدخلوا النساء في الدعوة، ثم ذهبت إلى جرجان* وطوز وسرحد وجناشك، ثم عدت أدراجي إلى هناك^(٣).

وكان الحسن بن الصباح يدعو للإمام المستنصر بالله العلوي، وكان لمصر في ذلك الوقت سمعة عظيمة في مختلف البلاد ولاسيما في بلاد فارس، وكانت تميل أفئدة الناس لها لما كان فيها من خير ولما كان يلقي فيها الزائر من معاملة حسنة تفوق الوصف، وكان الحسن بن الصباح يلقي القبول بدعوته تلك بين رجال دولة السلاجقة، وكان نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، وزير ملكشاه، من أكبر أعداء الحسن بن الصباح بسبب تعصبه لمذهبه، ولأنه رأى أن هناك مذهباً آخر يخالف مذهبه بدأ في الظهور في قلب دولة السلاجقة، ويقول الجويني، «إن نظام الملك بذل غاية جهده في استئصال الفتنة الصباحية من جذورها، وكان يسعى جهده في تجهيز وتسريح العساكر لقمعهم وقسرهم، وذلك لما يراه من شمائل أحوال الحسن بن الصباح وأتباعه وهي أمارات الفتن في الإسلام»^(٤). وكلف نظام الملك أبا مسلم الرازي «رئيس الري» بأن يقبض عليه عندما يأتي إلى هناك لأن الري هي بلده، فكان يبذل أقصى ما في وسعه للعثور

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٢

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٣

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٤

* جرجان، تقع على بعد ٤٠٠ كيلومتراً شمال شرق طهران، وعلى بعد ٣٠ كيلومتراً من بحر قزوين

(٤) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٣

عليه، لكن الحسن عرف بذلك فتحاشى الدخول إلى بلده، وقدم إلى ساري ومنها وصل إلى قزوين عن طريق دنهاوند وخوار الري^(١). وكان في نواحي بحر قزوين، وهي التي تسمى «طالقان» * مجموعة من القلاع ومنها «الموت»، وكانت هذه النواحي في ضمان شرف شاه الجعفري «قد ضمنها من السلاجقة» واستناب فيها رجالاً علوياً فيه بله وسلامة صدر^(٢)، كما يقول ابن الأثير، ويسمى الجويني هذا الشخص «علوي مهدي»، وأرسل الحسن بن الصباح داعياً إلى قلعة الموت، وكان علوي مهدي يقيم فيها، فقبل الدعوة جماعة من الموت ثم دعوا بدورهم العلوي فقال بلسانه، تظاهراً، قبلت. وأتبع ذلك باستعمال الحيلة، فأنزل من القلعة كل من قبل الدعوة وأغلق دونهم بابها، وقال: هي قلعة السلطان. وبعد نقاش طويل سمح لهؤلاء الجماعة بالدخول ثانية، فلم يقبلوا بعد ذلك النزول من القلعة بمقتضى طلبه^(٣).

وأقام الحسن بن الصباح في اندرجرود المتاخمة للموت، فترة من الزمن، ومن ثم صعد مع مجموعة من أهل تلك المنطقة إلى قلعة الموت يوم الأربعاء السادس من رجب سنة ٤٨٣. ولما اطلع العلوي على واقع الحال، علم أنه عاجز عن التصرف فأذنوا له في الرحيل، وكتب له الحسن حوالة ثلاثة آلاف دينار ثمناً للقلعة موجهة إلى حاكم كردكوه ودامغان الرئيس المظفر المستوفي الذي كان قد قبل دعوته سراً حيث كتب الحسن بن الصباح: «الرئيس المظفر حفظه الله، لتسليم علوي مهدي ثلاثة آلاف دينار، على النبي المصطفى وآله السلام، وحسبنا الله ونعم

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٥
* طالقان، جاء في كتاب «كنز العمال» للمتقي الهندي، (رقم ٣٩٦٧٧) عن علي «عليه السلام» قال: ويخا للطالقان، فإن الله فيها كنوزاً ليست من ذهب ولا من فضة، ولكن بها رجال عرفوا الله حق معرفته وهم أنصار المهدي آخر الزمان» (أبو غنم الكوفي في كتاب الفتن). وجاء في كتاب «ينابيع المودة لنوحي القري» - القندوزي ج ٣ ص ٥٠٧: «أخرج محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: عن علي كرم الله وجهه. قال: يخ بخ للطالقان، فإن الله تعالى كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة، ولكن بها رجال معروفون، عرفوا الله حق معرفته، وهم أيضاً أنصار المهدي في آخر الزمان». وجاء في كتاب (سرور أهل الإيمان) للسيد بهاء الدين علي بن عبد الكريم النيلي النجفي. عن الفضل بن يسار بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام: (له كنز الطالقان ما هو بذهب ولا فضة، ورأية لم تنشر منذ طويت، ورجال كأن قلوبهم زبر الحديد، لا يشوبها شك في ذات الله، أشد من الجمر، ولو حملوا على الجبال لأزالوها، لا يقصدون بريايتهم بلدة إلا خزبوها، كأنهم على خيولهم العقبان، يتمسحون بسرج الإمام يطلبون بذلك البركة، ويحفظون به يقونه بأنفسهم في الحرب، يبيتون قياماً على أطرافهم، ويصبحون على خيولهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار، هم أطوع من الأمة لسيدها، كالمصباح كأن في قلوبهم القناديل، وهم من خشيته مشفقون، يدعون بالشهادة ويتمنون أن يقتلوا في سبيل الله، شعارهم يا لثارات الحسين، إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر، إلى الموت أرسالاً، بهم ينصر الله إمام الحق) ص ٩٦ - ٩٧. وقد اختلف الباحثون في بلاد الطالقان، وموقعها، والمقصود بها، لكن لفظة الطالقان تطلق على المنطقة الواقعة قرب بحر قزوين في سلسلة جبال (ألبرز) شمال غرب طهران.

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٨

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشان» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٥

الوكيل»^(١). وأخذ علوي الرقعة وقال لنفسه، إن الرئيس المظفر رجل عظيم وهو نائب للأمير داد حبشي بن التونتاق، «أمير خراسان»، فأني له أن يعطيني شيئاً برقعة كهذه، وبعد مدة نزل دامغان، وكان قد صار مقلّ الحال فأخذ الرقعة التي كانت معه إلى الرئيس المظفر على سبيل التجربة، فقبل الرئيس المظفر الخط وسلمه الذهب في الحال^(٢).*

ولما استقر الحسن بن الصباح في الموت أرسل الدعاة إلى الأطراف والأكناف وراح يبذل قصارى جهده في استخلاص النواحي المتاخمة للموت عن طريق الدعوة، وحيثما كان يجد منطقة صخرية تصلح للبناء أقام عليها قلعة^(٣). وكانت قلعة «دره» في قهستان، كما يقول ابن الأثير، لأمرأ من بني سيجمور أمرأ خراسان أيام الدولة السامانية، وكان قد بقي من نسلهم رجل يقال له المنور، وكان رئيساً مطاعاً عند الخاصة والعامة، فلما ولي كلسارغ «أحد أمرأ السلاجقة» قهستان، ظلم الناس وعسفهم وأراد أختاً للمنور بغير حل فحمل ذلك المنور على أن التجأ إلى الحسن بن الصباح وصار معه، فاستولى الإسماعيلية على هذه القلعة وعظم حالهم فيها^(٤).

٣ - الصراع بين السلاجقة والإسماعيلية

بعد أن ظهرت نواة دولة مستقلة للحسن بن الصباح في الموت، غضب السلطان السلجوقي ملك شاه لهذا الأمر وقرر استئصال تلك الدعوة من أساسها، فأرسل في أوائل سنة ٤٨٥ جيشاً بقيادة أرسلانتاش لمحاربة الحسن بن الصباح وأتباعه واستئصالهم، فحاصر أرسلانتاش قلعة الموت، لكن أتباع الحسن باغتهو ليلاً فانهزم عائداً إلى ملك شاه الذي جزع من جراء ذلك. ولكن أصر على استئصال تلك الطائفة، فأرسل جيشاً جديداً بقيادة غزل سارغ لقتال الإسماعيلية في قهستان، وأمر جيوش خراسان باتباعه ومعاونته، فحاصروهم غزل سارغ في قلعة «دره» المتاخمة لسيستان، وبلغه خبر موت ملكشاه قبل السيطرة عليها، فنهض عنها

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٦

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٦
* إن هذه الحادثة تبين أن الحسن بن الصباح كان رجلاً عادلاً لا يقبل الظلم ولا يظلم أحداً، فقد كان بإمكانه ألا يعطي علوي مهدي شيئاً لقاء أخذه لقلعة الموت، لكنه لا يقبل أن يأخذ شيئاً ليس له من دون دفع ثمنه، وهذا الموقف يمثل قمة التوحيد والإيمان. لكن للأسف فإن عطا ملك الجويني وغيره من المؤرخين كانوا من السلاجقة أو يميلون إلى رأي السلاجقة ولذلك جاءت كتبهم مليئة بالكذب والدجل حول الحسن بن الصباح وحول دولته التي أسسها في قلب دولة السلاجقة. وللأسف لا يوجد مؤرخ محايد أو مخالف يمكن أن نأخذ عنه، ولذلك اضطررنا لأخذ روايات التُرك كما هي.

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٧٩

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ هـ - ص ٣٩

وتفرق جيشه^(١). فتباطأت إجراءات قمع أولئك، كما يقول الجويني، بسبب وفاة ملك شاه وقويت فتنتهم^(٢).

ولما دبَّ الخلاف بين بركياروق وأخيه محمد، ولدي ملكشاه، وظهر الاضطراب والخلل في المملكة، اتفق الرئيس المظفر الذي كان حاكم دامغان مع الأمير داد حبشي على أن يطلب قلعة كردكوه من السلطان بركياروق، فقرن السلطان ملتسمه بالإجابة، فذهب الرئيس المظفر بوصفه نائباً عن حبشي إلى القلعة وأنفق على عمارتها واستحکاماتها أموالاً طائلة ونقل الخزائن إليها، ومن ثم أعلن معتقده بقبول الدعوة وأقام في القلعة أربعين سنة من قبل الحسن الصباح إلى أن مات^(٣).

وكان المقيمون في قلعة لمسرفي «رود بار» بالطالقان، يرفضون دعوة الحسن بن الصباح، فأرسل الرئيس المظفر أحد رفاقه وهو «كيا بزرک أمید»*، مع جماعة من الإسماعيلية، فتسلق القلعة خفية في ليلة الأربعاء العشرين من ذي القعدة سنة ٤٩٥، وقتل ساكنيها، وأقام كيا بزرک أمید فيها عشرين سنة ولم يكن ينزل منها إلا عندما يستدعيه الحسن^(٤).

وأرسل الحسن رجاله فملكوا قلعة طبس، كما أصبح للإسماعيلية وجود ظاهر في أصبهان، وسبب ظهورهم هناك، كما يقول ابن الأثير، هو أن السلطان بركياروق قد حضر إليها، فلم يقدر على البقاء فيها بسبب وجود أخيه محمد وأمه خاتون الجلالية، فرحل عنها من دون أن يدخل في مواجهة مع الإسماعيلية فقوي أمرهم هناك^(٥).

ومن ثم استولى الإسماعيلية على قلاع، «خورخوسف» و«زوزن» و«قاین» و«نون»، وتلك الأطراف المجاورة لها، ومنها قلعة «وسنمکوه» وهي بقرب «أبهر»، والتي ملكوها سنة ٥٨٤، لكن هذه القلعة سقطت بعد أن أرسل إليها بركياروق جيشاً حاصرها مدة ثمانية أشهر وأخذت سنة ٥٨٩ وقتل السلاجقة

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٣

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٢

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٧

(٤) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٧

* كيا بزرک أمید، هو ملك وإمام الإسماعيلية بعد وفاة الحسن بن الصباح ومن نسله استمر الملوك لهذه الدولة، وأصبحت لمسر عاصمة دولتهم لأنها مقر الإمام. وقد جاء بعد بزرک أمید، ولده محمد بن بزرک أمید، ومن ثم حسن بن بزرک أمید، ومن ثم محمد بن حسن، ومن ثم جلال الدين بن محمد بن حسن، ومن ثم علاء الدين محمد بن جلال الدين بن محمد بن حسن، ومن ثم ركن الدين خورشاه بن علاء الدين، الذي ختمت به دولة الإسماعيلية - جامع التواريخ - ص ٢٥٩

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٧

كل من كان بها عن آخرهم^(١). ومنها قلعة «خالنجان» القريبة من أصفهان، وأيضًا قلعة «استوناوند» وهي بين الري وآمل، ملكوها بعد موت ملكشاه، نزل منها صاحبها فقتل وأخذت منه، ومنها أردهن، ملكها أبو الفتوح ابن أخت الحسن بن الصباح، ومنها قلعة الطنبور وبينها وبين أرجان فرسخان، أخذها أبو حمزة الإسكاف وهو من أهل أرجان سافر إلى مصر وعاد داعية لهم^(٢).

وكانت قلعة «شاه ذر» على جبل أصفهان، وكانت بيد الملك السلجوقي ملكشاه، وعليها وال من قبله، فلما مات أصبحت أصفهان بيد خاتون زوجته، فعزلت والي القلعة وجعلت مكانه رجلاً من الديلم يدعى «زيار»^(٣). فمات وصار بالقلعة رجل «خوزي»^{*}، فاتصل به الطبيب الداعية أحمد بن عبد الملك بن عطاش ونجح في إخضاعه له، فلما مات الخوزي، استولى الطبيب ابن عطاش عليها^(٤). كما استولى على قلعة «جان» المجاورة لها.

وبعد وفاة بركياروق سنة ٤٩٨، انفرد محمد تبر بالملك، وقرر الانتقام من الإسماعيلية، فشن في سنة ٥٠٠ حملة كبيرة ضد قلعة «شاه ذر» قرب أصفهان، وفيها الطبيب أحمد بن عبد الملك بن عطاش.

ويذكر أبو يعلى القلانسي في أحداث تلك السنة فيقول: «وكانت الأخبار متناصرة في هذه السنة باهتمام السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه بمحاصرة قلعة الباطنية المعروفة شاه ذر المجاورة لأصفهان والجد في افتتاحها وحسم أسباب الفساد المتوجه منها على البلاد من المقيمين بها وتوجه نحوها في عساكره ولم يزل على منازلها ومضايقتها إلى أن منحه الله تعالى، افتتاحها والإظهار على من فيها وملكها بالسيف قهراً وقتل من كان فيها من الباطنية وفي مقدمتهم ابن عطاش وهدمها وإراحة الناس من الشر المتصل منها والبلاء المبتوث من أهلها، وأنشأ كتاب الفتح يوصف الحال فيها إلى سائر أعمال المملكة ليقرأ على المنابر»^(٥).

ويذكر هذه الحادثة نفسها سبط بن الجوزي لكنه يفصل فيها أكثر فيقول: «ولما مات ملكشاه تحيل عليها ابن عطاش وملكها، وأقام بها أثنتي عشرة سنة، ولما آل الأمر إلى محمد شاه اهتم بها، ونزل عليها وأقام على حصارها سنة، ثم فتحها

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٩

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٤٠

(٣) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٨

* خوزي، نسبة إلى خوزستان.

(٤) الكامل في التاريخ - ابن الأثير الجزري - ج ٩ - ص ٣٨

(٥) ذيل تاريخ مشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥٢

عنوة وهدمها وقتل ابن عطاش وولده في ذي القعدة، وسلخ ابن عطاش ومثل بأصحابه*، وألقت زوجته نفسها من أعلى القلعة ومعها جوهر نفيس فهلكت وما معها»^(١).

غير أن ذلك لم يفت في عضد الإسماعيلية بل واصلوا تحديهم واستمروا في الدعوة بين الناس واستمروا في كسب المزيد من المؤيدين لدعوتهم، وكانت الأخبار تصل إلى محمد تبرعن أفعالهم، لكنه كان منشغلاً عنهم بقضايا أخرى فمثلاً شن حرباً على الأمير العربي صدقة بن مزيد أمير الحلة وقتله سنة ٥٠١^(٢)، وكانت سوريا قريبة والصليبيون فيها وهي بلاد تابعة للملكه ومسؤول عنها، فلم يحرك ساكناً للانتقام منهم، لأنه كان مشغولاً بقتال أعداء مذهبه وليس أعداء دينه. ومن هنا عاد لقتال الإسماعيلية في طالقان، فأرسل الجيوش وجعل على رأسها أحمد بن نظام الملك، فطوق أُموت وغيرها من القلاع ونشب القتال بين الفريقين، وعمّ القحط لدى سكان القلاع لأن السلاجقة أتلّفوا حقولهم ومزروعاتهم في المناطق المجاورة للقلاع.

ولما علم السلطان محمد تبر بذلك قرر مضاعفة قتال أهل القلاع، فأمر الأتابك «نوشتكين شيركير»، على الجيوش في أول سنة ٥١١، وأمره بأن يحاصر القلاع من الآن فصاعداً حتى تستسلم، ولما أوشكوا على الاستيلاء عليها مات السلطان، فتفرقت الجيوش، وظل الملاحدة «الإسماعيلية» أحياء وسحبوا الذخائر وألات الحرب والأسلحة التي كان الجيش قد حشدّها إلى داخل قلاعهم^(٣).

ولما استقر السلطان سنجر في الملك بعد أخيه محمد، أرسل الجيش لقتال الإسماعيلية في قهستان، فأرسل الحسن بن الصباح أحد الفداوية فغرس خنجراً في الأرض أمام سرير السلطان في ليلة كان قد نام فيها ثملاً، فلما استيقظ ورأى الخنجر ساوره القلق، وأرسل الحسن بن الصباح رسولاً وأعطاه رسالة مضمونها «لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة لكان أجدر بذلك الخنجر الذي غرس في الأرض الصلبة أن يغرس في صدر السلطان اللين». فخاف السلطان ومال لمصالحتهم لهذا السبب^(٤). فارتفع شأن الإسماعيلية وعلا أمرهم واستقرت دولتهم، ومن ثم دب الضعف في جسد دولة السلاجقة بسبب قتال الخوارزمية

(١) مرآة الزمان - سبط بن الجوزي - ج ٢٠ - ص ٨

* أي إسلام هذا الذي كان يتبعه السلاجقة، فهل يجوز سلخ جلد إنسان وهل يجوز التمثيل به. فقد نهى الرسول عن المثلة فقال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، ..» كتاب الجهاد والسير - صحيح مسلم - ص ٨٢٨

(٢) الكامل في التاريخ - بن الأثير - ج ٩ - ص ١١٣

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٩٠

(٤) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٩١

لهم، وعندما مات سنجر سنة ٥٥٢، كانت دولة السلاجقة تكاد تلفظ أنفاسها، وهكذا ارتاح سكان القلاع من كيد أعدائهم.

وكان الحسن بن الصباح قد أدرك، منذ البداية، صعوبة الاستمرار في قلب دولة السلاجقة القوية، وأنه لا قبل له ولا لأتباعه في مواجهة الجيوش السلجوقية، فابتكر الأعمال الفدائية، وهي الأعمال القائمة على تربية بعض الشباب تربية خاصة من أجل قتل السلاطين والأمراء والقواد، بهدف زرع الرعب في قلوب الآخرين ومنعهم من التفكير بإيذاء الإسماعيلية، وبهذه الطريقة تمّ قتل الوزير نظام الملك، في سنة ٤٨٥، عندما كثر أذاه لهم وتعديهم عليهم وشتهم ووصفهم بالملاحدة والدعوة إلى قتالهم والسعي إلى استئصالهم، حيث أرسل له الحسن بن الصباح فدائياً اسمه أبو طاهر الأزاني تخفى في زي الصوفية، وتقدم من نظام الملك وهو محمول، بعد الإفطار، على المحفة من البلاط إلى خيمة الحريم، فطعنه بخنجر، فمات نظام الملك، وكان أول شخص قتله الفداوية^(١).

وقام ولدا نظام الملك يريدان الانتقام من قتلة أبيهما وزادا في الطعن على الإسماعيلية، فقام الفداوية فطعنوهما بالخناجر على دفعتين، أما أولهما المسمى أحمد فقد أصيب بالشلل في بغداد، كما طعنوا الآخر ويدعى فخر الملك بالخنجر فمات في نيسابور. ثم بعد ذلك شرعوا في قتل كل من يرونه يكرههم ويطعن فيهم أو يحرّض على قتالهم، فقتلوا العديد من رؤساء المدن والقواد والمشاهير بالأعمال الفدائية^(٢).

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٤

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ١٨٦

الفصل الثاني

الإسماعيلية في سوريا

١- رضوان والإسماعيلية في مملكة حلب:

بعد مقتل تاج الدولة تتش أمام ابن أخيه بركياروق في الري سنة ٤٨٥، كان ولده الأكبر رضوان قد سار من دمشق ليلحق به، فورده خبر مقتلته وهو نازل على الفرات، كما يقول ابن العديم، فرحل مجداً حتى وصل حلب، وكان معه أخوه الأصغر دقاق، وجناح الدولة حسين الذي رباه وهو صغير وأصبح أتاكبه، وخاف دقاق من أخيه رضوان، فأنسل هارباً من حلب إلى دمشق فدخلها وأصبح ملكاً عليها بمساعدة الأمير ساوتكين الخادم الذي كان نائب أبيه تتش على المدينة. وقتل رضوان أخويه أبا طالب وبهرام.

ثم أن رضوان وجناح الدولة حسين، سارا إلى دمشق لقتال دقاق، فسار ياغي سيان أمير أنطاكية منجداً لدقاق، فضعفت نفس رضوان، ولم يتمكن من العودة، فسار إلى بيت المقدس، فتبعه دقاق وطغتكين وياغي سيان، وشارف عسكره على التلف، وتمكن جناح الدولة حسين من الهرب عبر الصحراء إلى حلب وتبعه رضوان بعد مدة بمن بقي من العسكر، وتغيرت نية الملك رضوان على جناح الدولة، فهرب هذا من حلب إلى حمص التي كانت إقطاعاً له من أيام الملك تتش، وعزم رضوان على قصده وقصد أخيه دقاق في دمشق، ووصله رسول الأفضل أمير الجيوش من مصر يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلي^(١). وإقامة الدعوة له، فوافق على ذلك متأملاً أن يصله دعم كبير من الدولة الفاطمية وبما يساعده في استعادة دمشق من أخيه. فأقام الدعوة الفاطمية في جميع البلاد الخاضعة له، ودعا الخطباء للمستعلي ثم للأفضل ثم لرضوان، في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من سنة ٤٩٠^(٢). لكن الأمراء الترك المجاورون له استهجنوا ميله إلى الدولة الفاطمية التي كان السلاجقة يرونها عدوة لهم.

ويذكر القلانسي «أن سكمان بن أرتق وياغي سيان وصلا إلى حلب وأنكرا على رضوان الدخول في هذا الأمر واستبدعاه* في فعله، وأشارا عليه بإبطاله

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٥

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٦

* استبدعاه، نسباه إلى البدعة، ويمكن من خلال هذه الحادثة ملاحظة ملامح الصراع المذهبي الذي كان قائماً بين السلاجقة وحلفائهم العباسيين من جهة، وبين الدولة الفاطمية من جهة أخرى.

واطراح العمل به ، فقبل ما أشير به وأعاد الخطبة إلى ما كانت عليه»^(١).
ويذكر ابن العديم «أن الملك رضوان أقام الخطبة للدولة الفاطمية أربع
جمع ، ومن ثم أعاد الخطبة لخليفة بغداد المستظهر ثم لبركياروق ومن ثم
لنفسه»^(٢).

وكانت حلب في غالبيتها من الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية ، وكانت
الإسماعيلية تتواجد في مناطق الباب وسرمين ومعرة مصرين وجبل السمّاق .
وقد انقسم هؤلاء بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله بين نزارية ومستعلية .
وكان الملك رضوان قد قرب إليه شيخاً من شيوخ النزارية يدعى الحكيم
المنجم ، ولعل هذا كان من سرمين ، ومن غير المعروف كيف حدث اللقاء
بينهما ، لكن ربما كان رضوان مولعاً باستجلاء أخبار الغيب وقد وجد
ضالته عند هذا المنجم . ويذكر ابن العديم ، أن المنجم استمال رضوان إلى
الإسماعيلية وظهر مذهبهم في حلب ، وشايعهم رضوان وحفظ جانبهم ،
وصار لهم بحلب الجاه العظيم والقدرة الزائدة ، وصارت لهم دار الدعوة
بحلب في أيامه ، وكاتبه الملوك في أمرهم فلم يلتفت ولم يرجع عنهم^(٣) .

ويذكر ابن العديم أيضاً ، «أن الحكيم المنجم هو الذي أفسد العلاقة بين
الملك رضوان وبين أتابكه جناح الدولة حسين ، ربما لأن هذا كان معادياً
للإسماعيلية ، وقد قرر جناح الدولة الاقتصاص من رضوان لميله إليهم ، فسار
بجيشه من حمص نحو سرمين بعد أن علم بوجود الملك رضوان والحكيم
المنجم بها ، فكبسهم بعسكره ، وانهزم رضوان وأكثر عسكره ، وطلب الحكيم
المنجم فلم يظفر به ، وعاد جناح الدولة إلى حمص ، فأرسل الحكيم المنجم
ثلاثة أعاجم من الباطنية فاغتالوه ، وقد نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة
الجمعة في الثاني والعشرين من شهر رجب سنة ٤٩٦ ، فلما حصل بموضع
مصلاه وثب عليه الثلاثة فقتلوه ، وقتلوا بعض أصحابه وقتلوا»^(٤) .

ويذكر القلانسي أنه «كان معهم شيخ يدعون له ويسمونونه في زي الزهاد ،
فوعدهم فضربوه بسكاكينهم وقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه ، وكان
في الجامع ، عشرة نفر من متصوفة العجم وغيرهم فاتهموا وقتلوا صبراً
مظلومين في الوقت عن آخرهم ، وانزعج أهل حمص لهذا الأمر ، وهرب أكثر

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٣٣

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٦

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٦

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٤٧

سكانها من التُّرك إلى دمشق واضطربت الأحوال بها»^(١).

وهذه الحادثة تبين أن الذين قتلوا جناح الدولة حسين كانوا يتخفّون في زيّ الصوفية، وأن عسكر جناح الدولة قتلوا عشرة متصوفين كانوا في المسجد ظلًا منهم أنهم هو الفاعلون. لكن لا شك أن الفاعلين انسلّوا هاربين ولم يكشفهم أحد لأنهم كانوا يتحدثون اللغة الفارسية مثل عموم الترك، ولذلك نجحوا في الفرار إلى خارج حمص.

٢- هجوم الإسماعيلية على أفاميا

توفي الحكيم المنجم سنة ٤٩٦ وخلفه في شؤون الإسماعيلية في حلب «أبو طاهر الصائغ العجمي»، ومن كنيته يتبين أن هذا كان فارسياً ويعمل صائغاً وأنه ترك عمله وتفرغ لشؤون الدعوة، وكانت أفاميا مدينة شيعية إسماعيلية، وكان تاج الدولة تتش قد أخذها من بني منقذ، وأصبحت تابعة له ووضع فيها قوة تركية، وعندما قتل تاج الدولة، ثار أهل أفاميا على التُّرك وطردوهم من مدينتهم، وسار جماعة منهم إلى مصر يستدعون والياً من قبلهم، فوصل إليهم «خلف بن ملاعب» في سنة ٤٨٩ وتسلمها^(٢). وكان هذا أميراً متمرساً ذا حنكة سياسية كبيرة، وقد خاف الملك رضوان منه ولاسيما أنه معيّن من قبل الدولة الفاطمية، ولذلك سعى إلى قتله وأخذ أفاميا منه، وأوعز إلى أبي طاهر الصائغ ليدبر مكيده لقتله، فأرسل أبو طاهر الصائغ إلى أبي الفتح السرميني الذي كان يقيم في أفاميا لينفذ هذه المهمة، فاتفق مع أهلها على ذلك، فنقبوا نقباً في السور حتى تمكنوا من الوصول إلى خلف بن ملاعب، فلما قربوا منه وأحسّ بهم لقيهم فوثب إليه بعضهم فطعنه في جوفه فرمى بنفسه في القلّة* يريد بعض دور أهله، فطعنه آخر طعنة ثانية فعاش ساعة ومات، وصاح الصائغ على القلّة ونادوا بشعار الملك رضوان^(٣). وقتلوا غالبية أولاد خلف بن ملاعب، وتمكن ولده مصبح من الهرب وسار إلى شيزرو وأقام فيها مدة، وعلم تانكريد أمير أنطاكيا الصليبي بما حدث في أفاميا، فسار إليها يريد احتلالها، لكن أبا الفتح السرميني أعطاه مبلغاً من المال فرحل^(٤).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٤٢

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٣٢

* القلّة، الجرة الضخمة وتقدر القلّة مقدار ١٠١,٥٦ كيلوغرام - المكاييل والموازين الشرعية - علي محمد جمعة، ص ٤٦.

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥٠

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥٠

لكن مصبح بن خلف بن ملاعب الذي أفلت من القتل قرر الانتقام من الإسماعيلية، فسار إلى تانكريد، كما يذكر القلانسي، وحرّضه على العود إلى أفاميا وأطمعه في أخذها لقلة القوات بها، فنهض إليها وضايقها إلى أن تسلمها بالأمان في الثالث عشر من المحرم سنة ٥٠٠، ووقع أبو الفتح السرميني في يده فقتله، وأخذ أبو طاهر الصائغ وأصحابه أسرى، ففدى هؤلاء أنفسهم بالمال، فأطلقهم تانكريد ووصلوا إلى حلب^(١).

وهكذا وقعت أفاميا في أيدي الصليبيين وخسر الإسماعيلية قاعدة مستقلة لدعوتهم في سوريا. فعادوا إلى النشاط في حلب، وكان أمرهم، كما يقول ابن العديم، قد قوي في هذه المدينة، وتابعهم خلق كثير على مذهبهم طلباً لجاههم، وصار كل من أراد أن يحمي نفسه من قتل أو ضيم التجأ إليهم^(٢). لكن رغم ذلك فإنهم لم يصبحوا غالبية في هذه المدينة، وما يدل على ذلك هي حادثة «الخندي» الفقيه الشافعي الذي كان قد جاء من خراسان إلى حلب كتاجر وذلك سنة ٥٠٠، فلما وصل إليها وعلم أن بها إسماعيلية وهم متحكمون بالملك رضوان، راح يشنّ عليهم ويدمّمهم في مجلسه، فصعد داعي الدعاة أبو طاهر الصائغ إلى الملك رضوان وأطمعه، كما يقول ابن العديم، في ماله، وأراه أنه بريء من التهمة في شأنه، إذ هو معروف بعداوة الباطنية^(٣). فوافق الملك رضوان على ذلك، وأرسل غلماناً من عنده ليتوكلوا به، وأخذ بضائعه، وفي لحظة مناسبة هجم هؤلاء الغلمان عليه لكن حراسه قتلوهم، وصاح «الخندي» ومن معه، فصار أهل حلب إلى هذا الرجل، وأظهروا إنكاراً ما تمّ عليه، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوهم، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك^(٤).

٣ - الإسماعيلية بعد وفاة الملك رضوان

توفي الملك رضوان سنة ٥٠٧ بعد أن حكم مملكة حلب عشرين سنة، وخلفه ولده ألب أرسلان وعمره ست عشرة سنة، وكان في كلامه حبسة وتمتمة، وكان، كما يقول ابن العديم، متهوراً قليل العقل، وما إن استقر في الملك حتى كتب إليه السلطان محمد بن ملك شاه يقول: «كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم»^(٥).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٥٠

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٩

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٥

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٥٦

(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦٠

وقام ابن البديع الذي كان وزيراً لرضوان ولألب أرسلان، بالتقاط المبادرة وحث ألب أرسلان على قتلهم.

ويذكر أبو يعلى القلانسي هذه الأحداث فيقول: «وكان رئيس الأحداث بحلب يدعى «ابن بديع» قد كلم ألب أرسلان في أمر النزارية واتفق معه على الإيقاع بهم وقتلهم، فقبض ابن بديع على أبي طاهر الصائغ وكل من دخل في هذا المذهب وهم زهاء مئتي نفس، وقتل في الحال أبو طاهر الصائغ وإسماعيل الداعي وأخو الحكيم المنجم وحبس الباقيون، وسلبت أموالهم وشفع في بعضهم، فمنهم من أطلق ومنهم من رمي من أعلى القلعة ومنهم من قتل. وهرب جماعة وتفرقوا في البلاد»^(١).

ويروي ابن الشحنة رواية مختلفة فيقول: «لما ملك شمس الملوك ألب أرسلان جرى على عادة أبيه في أمر الإسماعيلية لأنه كان قد بنى لهم بحلب دار دعوة فطلبوا منه أن يعطيهم القلعة فأجابهم إلى ذلك فقبح عليه القاضي أبو الحسن بن الخشاب فعله فأخرجهم بعد أن قتل منهم ثلاثمئة نفس وأسرمئتين، وطيف برؤوسهم في البلد وذلك سنة ٥٠٨»^(٢).

٤- الدعوة النزارية في إمارة شيزر

سعى النزارية إلى توسيع دائرة نفوذهم في المنطقة وقرروا السيطرة على شيزر. ويذكر أبو يعلى القلانسي ذلك فيقول في أحداث سنة ٥٠٧: «وفي هذه السنة ورد الخبر من شيزر بأن جماعة من الباطنية من أهل أفاميا وسرمين ومعرة مصرين ومعرة النعمان، في فصح النصارى، وثبوا في حصن شيزر على غفلة من أهلهم في مئة راجل فملكوه وأخرجوا جماعة وأغلقوا باب الحصن وصعدوا إلى القلعة فملكوها وأبراجها، وكان بنو منقذ أصحابها قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وكان هذا أمراً قد رتب في المدة الطويلة، وقد كانوا أحسنوا إلى هؤلاء المُقَدِّمين على الفساد كل الإحسان، فبادر أهل شيزر قبل وصولهم إلى الباشورة*، ورفع الحرم بالحبال من الطاقات وصاروا معهم، وأداركهم الأمراء بنو منقذ أصحاب الحصن وصعدوا إليهم وكبروا عليهم وقتلوهم حتى ألجأوهم إلى القلعة فخذلوا وذلّوا وهجموا عليهم وتكاثروا عليهم وتحكمت سيوفهم فيهم فقتلوهم بأسرهم وقتل كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية»^(٣).

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩٠

(٢) الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن الشحنة - ص ٣٥

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ١٩١

وتبيّن هذه الرواية أن المسيحيين في سوريا كانوا يقيمون احتفالات كبيرة في عيد الفصح «الشعانيين» وأن بني منقذ أمراء شيزر كانوا يحضرون هذه الاحتفالات التي ربما كانت تقام في منطقة قريبة من شيزر مثل «محرده». وأن بعض أهل شيزر مال إلى المذهب النزاری بخلاف رأي أمرائهم،

٥- عودة الإسماعيلية للتركيز على حلب

قام بالدعوة النزارية في حلب، بعد أبي طاهر الصائغ، داع أخريدعى «بهرام» وكان فارسياً، وقد لجأ بهرام إلى التستر والتخفي خوفاً من الوقوع في قبضة أعدائه، فكان يطوف البلاد والمعقل ولا يعرف أحد شخصه، لأنه كان يغيّر زيّه ولباسه. وعظم خطره، كما يقول أبو يعلى القلانسي، في حلب والشام، وأصدر بهرام أمره بقتل صاعد بن بديع، وكان ألب أرسلان قد قبض عليه وصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالا، وأخرجه وأهله من حلب، فتوجه إلى مالك بن سالم في قلعة جعبر^(١)، فتعقبه النزارية إلى هناك، وتمكن اثنان منهم من ضربه عدة سكاكين ووقع ولداه عليهما فقتلاههما، وقتل صاعد بن بديع وأحد ولديه وجرح الآخر وحمل إلى القلعة فوثب آخر من النزارية وقتله، وحمل النزاری ليقتل فرمى بنفسه في الماء وغرق^(٢).

وهكذا انتهى ابن بديع، لكن النزارية لم يتكاثروا في حلب بعد ما جرى لهم على يد ألب أرسلان، بل أصبحوا أقلية.

وفي سنة ٥١٧ تسلم «بلك بن بهرام بن أرتق» حلب، فعزم، كما يقول ابن العديم، على طرد النزارية منها، فقام في ذي القعدة من تلك السنة «بالقبض على نائب بهرام، وأمر بإخراج النزارية من حلب، فباعوا أملاكهم ورحالهم وخرجوا منها»^(٣).

ولم يذكر ابن العديم كم كان عددهم آنذاك، لكن على الأرجح، أنهم كانوا قلة قليلة.

* باشورة، طريق منعطف بين بابي البلد يُجعل لعرقلة السيروالهجوم وقت الحصاروالحرب ليصعب الهجوم على البلد- معجم الألفاظ في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٣٠

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٦١

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٧٠

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٢٨٧

الفصل الثالث

الإسماعيلية يتوجهون جنوباً

١- الإسماعيلية في دمشق

كانت مخاوف إيلغازي بن أرتق قد تزايدت من الداعي بهرام، وربما كان هذا الأمير التركماني يعرفه شخصياً، لكنه كان عاجزاً عن قتله أو احتوائه، ولذلك احتال عليه لإبعاده عن حلب، حيث أنه أظهر له الحب والاحترام، وفي نفس الوقت أرسل إلى ملك دمشق ظهير الدين طغتكين، يطلب منه أن يستدعي بهرام إليه، فامتلئ طغتكين إلى قوله، واستدعى بهرام، فسار هذا إلى دمشق، كما يقول القلانسي، «بتقرير قرره إيلغازي بن أرتق مع الأمير ظهير الدين أتابك، وخطاب وكّده بسببه، فأكرم لاتقاء شره وشرّ جماعته، وحملت له الدعاية وتأكّدت به العناية بعد أن تقلبت به الأحوال وتنقل من مكان إلى مكان وتبعه جهلة الناس وسفهاء العوام وسفساف الفلاحين الطغام ومن لا عقل له ولا ديانة فيه احتماء به وطلباً للشرّ بحزبه، ووافقه الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني، وإن لم يكن على مذهبه، على أمره وساعده على بثّ حبال شرّه وإظهار خافي سرّه، فلما ظهر أمره وشاع وطاوعه وزير ظهير الدين المذكور ليكون عوناً له على فعله وتقوية يده في شغله، التمس من ظهير الدين أتابك حصناً يأوي إليه ومعقلاً يحتمي به ويعتمد عليه فسلم له ثغر بانياس في ذي القعدة سنة ٥٢٠، فلما حصل فيه اجتمع إليه أوباشه من الرعاع والسفهاء والفلاحين والعوام وغوغاء الطغام الذين استغواهم بمحاله وأباطيله واستمالهم بخدعه وأضاليه، فعظمت المصيبة بهم وجلّت المحنة بظهور أمرهم وسببهم. وضائق صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين، وأحجم كل منهم من الكلام دفعاً لشرهم وارتقاباً لدائرة السوء عليهم، لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم ومعاضدة من يوازرهم على الضلال ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يقلّ حدّ شرهم متقدم ولا أمير»^(١).

ومن هذا النص يتضح أن القلانسي كان متحاملاً على النزارية حيث رماهم بالكفر والضلال، وهذا أمر ليس من حقّه ولا من حقّ غيره، فهو لم يكن يمتلك الحقيقة. ومع ذلك فإنه يستحق التقدير لأنه قدّم معلومات مهمّة عن الحركة النزارية في سوريا في ذلك الوقت، وأوضح بما لا لبس فيه أن الأمراء الأتراك كانوا يتّقون النزارية خوفاً منهم، وخاصة إيلغازي الذي كان من أقوى ملوك التّرك في

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢١٥

سوريا في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد أدرك أن مُلكه سيبقى مهددًا طالما بقي الداعي بهرام في حلب، ولذلك التمس من ظهير الدين أتابك دمشق ليساعده في هذه المسألة، فأرسله إليه وأكرمه ظهير الدين وقدم له قلعة بانياس ليتخذها قاعدة له ولأتباعه. وربما أعطاه ظهير الدين هذه القلعة بسبب قربها من الإقليم الصليبي، ولكي يصبح النزارية بمثابة حاجزين التُّرك وبين الصليبيين.

٢- مقتل الداعي بهرام

بعد أن استقر الداعي بهرام في بانياس «شرع في تحصينها وترميم ما استمرّ وتشعث منها، كما بثّ دعاته في سائر الجهات فاستغوا، كما يقول القلانسي، خلقًا كثيرًا من جهال الأعمال وسفساف الفلاحين من الضياع وغوغاء الرعاع ممن لا لبّ له يصدّه عن الفساد ويردعه ولا تقيّة تصدّفه عن المنكر، فقوي شرهم وامتدّت أيديهم وألسنتهم إلى الأخيار من الرعيّة بالثلب والسبب وإلى المنفردين في المسالك بالطمع والسلب وأخذهم قسرًا وتناولهم بالمكروه قهراً وقتل من يقتل من الناس تعديًا وظلمًا، وأعانهم على الإيغال في هذا الضلال، أبو علي المزدقاني معونة بالغ فيها وحصل له وخيم عاقبتها وذميم مغبتها لما تقدم بينه وبين بهرام الداعي من المؤازرة والمعاضدة والمظافرة والمرافدة موافقة في غير ذات الله ولا طاعته طلبًا لأن تكون الأيدي واحدة على من يقصدهما بمكروه والثبات مترادفة على من ينوي لهم شرًا»^(١).

وسعى الداعي بهرام للتوسع نحو إقليم الحصيبة «حاصبيا» في وادي التيم، البقاع الغربي، وكان هذا الإقليم، يسكنه خليط من الدروز والنصارى^(٢)، ولقي بهرام معاندة من الدروز وكان مقدمهم يدعى «برق بن جندل» فأقدم بهرام على أسره وقتله^(٣).

وعن هذه الحادثة يقول القلانسي: «واتفق أن بهرام الداعي لما يريد الله تعالى من بواره ويحلّ به هلاكه ودماره، وحدثته نفسه بقتل برق بن جندل أحد مقدمي وادي التيم لغير سبب حملة عليه ولا جناية دعتة إليه، فخدعه إلى أن حصل في يده فاعتقله وقتله صبرًا، فتألم الناس لقتل مثله لحدّاثه سنه وشهامته وحسن صورته، وحمّلت أخاه الضحّاك بن جندل وجماعته وأسرته الحميّة الإسلامية والحرقة الأهلية على الطلب بدمه والأخذ بشأره،

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبويعلي القلانسي - ص ٢٢١

(٢) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٥٥

(٣) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٥٦

فتجمعوا وتعاهدوا على المصابرة على لقاء أعدائهم»^(١).

وانتظر الضحاك حتى تحين الفرصة بالداعي بهرام وجماعته من النزارية، وشاء القدر أن الداعي بهرام جمع أتباعه وقصد بهم وادي التيم بهدف السيطرة عليه غير عالم بما حضره له الدروز هناك.

ويقول أبو يعلى القلانسي: «في سنة ٥٢٢ جمع الداعي بهرام حوله جمعًا كبيرًا من الأتباع والمؤيدين وقصد بهم ناحية وادي التيم، للإيقاع بهم، وكانوا مستعدين للقاءه مترقبين لحربه، فلما أحسوا بقربه منهم نهضوا بأجمعهم إليه وإلى من معه، ولما قربوا منهم هجموا عليهم وهم في مخيمهم قارون، وكان الداعي بهرام في خيمته وحوله جماعة من أصحابه، وعندما سمعوا الصياح والضوضاء هبوا لأخذ آلة الحرب، لكن المهاجمين كانوا أسرع منهم فضربوهم وقتلوهم كلهم. وقطع رأس الداعي بهرام ويده بعد تقطيعه بالسيوف والسكاكين، وأخذهما واحد مع خاتمه من الرجال القاتلين ومضى بهما إلى مصر مبشرًا بهلاكه»^(٢).

ويذكر المقرئ في ذلك فيقول في أحداث تلك السنة: «وفيها وصلت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين أتابك الملقب ظهير الدين، قد وهب له بانياس خوفًا من شره، فأفسد جماعة بالشام، وجرت له خطوب آلت إلى قتله وحملت رأسه إلى الأمر»^(٣).

ومن هذا النص يتبين أن ولاء دروز وادي التيم، كان، للدولة الفاطمية، وليس للترك في دمشق، وأنهم كانوا ضد الدعوة النزارية.

٣ - الداعي إسماعيل العجمي

بعد مقتل الداعي بهرام، قام بالأمر من بعده الداعي إسماعيل العجمي، وجرى أبو علي المزدقاني الوزير على الحال التي سلكها مع بهرام في حق إسماعيل في المساعدة على مراده والمعاوضة على أغراضه، كما يقول القلانسي، وزادت شكوى الناس من الخاصة والعامة منهم^(٤). وفي صفر من سنة ٥٢٢، توفي ظهير الدين أتابك وملك دمشق بعده ولده تاج الملوك بوري، وكان متعصبًا في مذهبه، كارهًا للإسماعيلية، واستغل ذلك كل من الحاجب

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٢٢

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٢٢

(٣) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٣ - ص ١٢١

(٤) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٢٣

يوسف بن فيروز شحنة البلد، والرئيس الوجيه الملك أبو الداود مفرج بن الحسن الصوفي، وقاما بتحريضه ضدهم وأوهماه أن قتلهم هو من أعظم أنواع الجهاد، فاستمع إلى قولهما، كما يقول القلانسي، ورتب تاج الملوك الأمر، بشكل سرّي، وبدأ بالوزير أبي علي المزدقاني، حيث اتفق مع أحد حراس الوزير على قتله عندما يشير إليه بذلك.

ولما كان يوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٢٣، حضر الوزير مع جماعة الأمراء والمقدمين، كالمعتاد، في قبة الورد بقلعة دمشق، وجرى في المجلس مخاطبات بينهم وبين تاج الملوك، وبعد انتهاء الجلسة وانصراف الحضور، قام الوزير المزدقاني لينصرف كعادته، أخرج الحضور، فأشار تاج الملوك إلى ذلك الشخص ليقّتلَه فضربه بالسيف عدة ضربات على رأسه بالسيف أتت عليه، فقطع رأسه وحمل مع جثته إلى رمادة باب الحديد، فألقيت هناك ليراها أهل دمشق، وأحرقت جثته بعد أيام بالنار وصار رمادًا تذروه الرياح.

وبعد أن تمّ قتل الوزير أمر تاج الملوك العساكر والأحداث بالهجوم على دور ومراكز النزارية، فقتلوههم بالسيوف والخناجر، كما يقول القلانسي، وجعلوا مصرّعين على المزابل كالجيف الملقاة والميتة، وقبض على نفر كثير منهم فأريقوا دماؤهم، وأصبحت النواحي والشوارع منهم خالية والكلاب على أشلائهم وجيفهم متهاوشة عاوية إن في ذلك لآية لأولي الألباب^(١).

وللأسف فإن القلانسي وباقي التُّرك في دمشق قد ابتهجوا لتلك المجزرة المروعة التي أنزلها تاج الملوك بالوزير المزدقاني وبالإسماعيلية، وهي، بلا شك، جريمة ضد الإنسانية لأنها استأصلت جماعة بأكملها كانت موجودة في دمشق، لكن في عصور الجهل تلك، تمّ النظر إلى تلك الجريمة القبيحة على أنها قربة إلى الله تعالى وتقويم للاعوجاج. ويا للأسف.

وعندما علم الداعي إسماعيل المقيم في بانياس، بما جرى للوزير المزدقاني ولباقي إخوانه في دمشق من قبل التُّرك، أدرك أنه مأخوذ لا محالة، ولذلك قرر تسليم بانياس للصليبيين مقابل تأمين حياته وحياة من معه من رفاقه^(٢).

وقد استغل التُّرك هذه الحادثة للطعن في الإسماعيلية واتهامهم بممالة الصليبيين، لكن ماذا كان بإمكان الداعي إسماعيل أن يفعل وهو موجود بين عدوين، أحدهما يريد دمه، والآخر يريد ماله، ففدى نفسه بالمال ونجا بروحه. واتخذ تاج الملوك بوري ورفيقاه احتياطات واسعة لحماية أنفسهم

(١) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٢٣

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلي القلانسي - ص ٢٢٤

من انتقام الإسماعيلية، فارتدوا الشباك من الزرد وأحاطوا أنفسهم بحراس مدججين بالسلاح^(١).

ووصلت أخبار تلك المأساة إلى أهل الموت، فتألموا لمقتل إخوانهم بهذه الطريقة البشعة وندبوا لتاج الملوك من يغتاله، ويذكر أبو يعلى القلانسي أنه وقع اختيارهم على جاهلين من الخراسانية قرروا معهما التحيل في أمر تاج الملوك والطلب له والفتك به في داره عند إمكان الفرصة فيه. ووصل هذان الرجلان إلى دمشق في زي الأتراك بالقباء والشربوش وحضرا إلى معارف لهم من الأتراك وسألوهم الوساطة واستخدمهم في تقرير الواجب لهما وخدعاهم ولم يرتابوا بهما وتدرجا بالحيلة والمكر إلى أن صارا في الجملة من الخراسانية المرتبين لحفظ ركاب تاج الملوك إلى أن دخل الحمام وعاد منه ووصل إلى باب داره من القلعة بدمشق وتفرق عنه من كان في ركابه من الخراسانية والديلم والأحداث الحفظة فوثبا عليه في يوم الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ٥٢٥ وضربه أحدهما بالسيف طالبا لرأسه فجرحه في رقبتة جرحا لم يتمكن منه وضربه بسكين في خاصرته نفذت بين اللحم والجلد ورمى بنفسه في الحال عن فرسه سليما، وتكاثر الرجال عليهما فقطعوهما بالسيوف وأحضر أهل الخبرة بمداواة الجراح من الأطباء والجراحين وعولجا فبرا أحدهما الذي عند الرأس، وتنسّر الذي في الخاصرة، وصلحت الحال في ذلك، وأقام مدة يحضر بمجلسه الخواص والعسكرية والأجناد للسلام والشراب على الرسم المعتاد^(٢).

لكن الجرح الذي لم يشف تحول إلى داء قاتل، أتى على جسده فمات في ٢١ رجب سنة ٥٢٦^(٣).

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٥٧

(٢) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٣٠

(٣) ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى القلانسي - ص ٢٣٣

الفصل الرابع

الإسماعيلية يتوجهون إلى جبال لبنان

١- الداعي أبو محمد والقدموس

بعد فشل المشروع الإسماعيلي النزاري في حلب ودمشق، اتجه تفكيرهم نحو جبال لبنان، وكان في هذه الجبال قلاع تابعة لمصر، وكان بعضها قد صار مستقلاً، ويقول ابن عبد الظاهر: «وأرسل الإسماعيلية في ألمات داعياً من دعائهم ويُعرف بأبي محمد إلى الشام، فملك قلاعاً في بلاد النصيرية»^(١).

وهنا إشارة واضحة على أن هذه الجبال كانت مسكونة قبل مجيء الإسماعيلية إليها من قبل أشقائهم العلويين، وكان أول قلعة يملكها الإسماعيلية هي قلعة القدموس وكان عليها والٍ من مصر، ولعل الترك في بعدين المجاورة هجموا عليها وأخذوها، لكن المحارزة، الذين ينتهون بنسبهم إلى الأسرة الفاطمية، استخلصوها منهم وحكموها.

ويقول ابن عبد الظاهر: «وكان آخر بني محرز منير الدولة حمدان بن حسن بن محرز، فتوفي وخلفه ولده علم الدين يوسف بن حمدان بن حسن بن محرز»^(٢).

وكان داعي الإسماعيلية قد أقام في إمارة بني منقذ يدعو الإسماعيليين فيها إلى مذهبه، فتبعه خلق منهم، وقرر أن يغزو بهم القدموس، وراح يهاجمها بشكل مستمر، وتسببت تلك الهجمات بمقتل الكثير من بني محرز ومن سواهم من سكان القدموس والقرى المحيطة بها، وفي النهاية سقطت القدموس في يده سنة ٥٢٣ هـ^(٣). ومن ثم توجه بصره نحو قلعة «الكاف».*

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه «كان في هذه القلعة والٍ من المصريين، فعمل عليه الأمير ليث الدولة بن عمرو، لكن هذا ذُبح على فراشه سنة ٥٢٩، وتولى الحصن ولده الحسن وهو خائف مما جرى لوالده، فالتجأ إلى الإسماعيلية واستدعى فريقاً منهم أسكنهم معه في الحصن ليتقوى بهم على بني عمه الذين يقصدونه،

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٧

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٣

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٣

* الكاف، تسمى هذه القلعة الكف أو الكاف، ومنهم من يسميها الكهف، والاسم الصحيح لها هو الكاف على اسم منطقة الكاف في تونس، ويبدو أن المغاربة هم الذين أسسوا هذه القلعة أيام الدولة الفاطمية، وكان هؤلاء من منطقة الكاف في تونس ولذلك سَمَوْها على اسم بلادهم. ويذكر ياقوت الحموي الرومي «الكاف» فيقول، هو حصن حصين بسواحل الشام قرب جبلة كان لرجل يقال له ابن عمرو في أيام الفرنج - معجم البلدان - المجلد الرابع - ص ٤٣١

فاستضعفه الإسماعيلية وأخرجوه من الحصن وملكوه^(١). ولم يذكر ابن عبد الظاهر من هم بنو عمرو هؤلاء، لكن لا شك أنهم كانوا مغاربة وكانوا من جملة موظفي الدولة الفاطمية في هذا الحصن.

٢- الاستيلاء على حصن المنيقة

يقع حصن المنيقة، كما يقول ابن عبد الظاهر، في جبل الرواديف*، وكان في ذلك الجبل، رجل اسمه «نصر بن مشرف الرواديفي»^(٢). واستطاع بحكمته ودهائه وشجاعته أن يفرض سيطرته على جميع القرى في ذلك الجبل وفي المناطق المحيطة به، وشاع أمره وكانت تلك المناطق تابعة للإمبراطورية البيزنطية التي كانت تفرض سيطرتها أيضًا على اللاذقية. وعندما سمع الإمبراطور الروماني به، أرسل إليه جيشًا انتصر عليه وحمل مقيّدًا إلى أنطاكية وسُجن فترة، لكن أطلق سراحه فعاد كما كان في السابق، فرجع نيكيتا قبطان أنطاكية في أثره وحمل مجددًا إلى أنطاكية، فطلب العفو وقدم ولده رهينة على صدق سريره، وقال للروم: «إنه في آخر جبل الرواديف الذي يسيطرون عليه، ضيعة تُعرف بـ«المنيقة» ومكانها يصلح أن يكون به حصن ليحفظ جميع الأعمال، فأجابوه إلى ذلك، فقال لهم نصر، إن المسلمين لا يمكنونكم من بنائه، وإنما أنا أدفع المسلمين عنه، وأفهمهم أنني أبنيه لنفسه، فإذا بنيته سلّمته إليكم، فاغتر الروم بقوله وأعانوه، فلما بناه اتخذ لنفسه وشرع في بناء حصن آخر أمانع منه، فقاد نيكيتا أمير أنطاكية جيشًا فحاصر المنيقة وعجز عن فتحها، وذلك سنة ٤٢٢، فرحل عنها، ومن ثم عاد إليها فتمكن هذه المرة من فتحها وخرّب أبراجها»^(٣).

وانتهت دولة نصر بن مشرف، وعادت تلك البلاد إلى السيطرة الرومانية، ونجح الفاطميون في السيطرة على قلعة المنيقة سنة ٤٤٢^(٤). وبقيت في أيديهم فترة، ثم استردها الرومان وعندما ضعفت السلطة الرومانية في الساحل السوري بعد الغزو الصليبي. استغلّ الإسماعيلية ذلك وهاجموا القلعة وفرضوا سيطرتهم عليها ربما في مطلع العقد الثالث من القرن السادس الهجري وأعادوا بناءها من جديد.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤١٣

* جبل الرواديف، الرواديف تعني في اللغة، الجرد، ويقع هذا الجبل في القسم الشرقي من جبال جبلة وبمحاذاة الجبل المسمّى «مطلّ حمد» والمشرّف على سهل الغاب.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٣

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٤

(٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢١٣

٣ - الاستيلاء على مصياف

كانت مصياف من ضمن أملاك الدولة الحمدانية ومن ثم الدولة الكلايية من بعدها. وقد سكنها، كما يذكر ابن عبد الظاهر، الأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلاي وتوفي فيها سنة ٤٩٥، فملكها بعده ولده ناصر الدين سابق^(١).

وكانت مصياف قد بدأت تتعرض لهجمات الصليبيين انطلاقاً من بعين، وزادت الشدائد عليها، فكره أميرها الكلاي المقام فيها، فباعها لأبي العساكر سلطان بن منقذ الكناي أمير شيزر سنة ٥٢١، فولّى أبو العساكر عليها الحاجب سنقر، وكان هذا تركياً، فحفظها من الصليبيين.

وعندما استولى الإسماعيلية على القدموس والكاف، بدأوا يتطلعون للسيطرة على مصياف ليكون لهم تواصل مع الداخل السوري باعتبار أن هذه القلعة تقع في النقطة الواصلة بين الساحل والداخل، فهاجموها هجمات متكررة، وقاومهم سكانها، وكانوا من العلويين مثل سكان القدموس، لفترة من الزمن. وضعفت قدرتهم على القتال ولم يحصلوا على نجدة من شيزر، كما لم يسأل عنهم الترك في سوريا، وفي النهاية تمكن النزارية من الدخول إليها وقتلوا الكثير من سكانها وشرّدوا الباقي منهم، وقتلوا وإليها سنقر، وذلك سنة ٥٣٥^(٢).

٤ - استيلاء الإسماعيلية على باقي قلاع جبال لبنان

استولى الإسماعيلية على عدة قلاع أخرى في جبال لبنان منها، قلعة الخوإي، حيث يقول ابن عبد الظاهر «أما حصن الخوإي من جبل بهرا، فإن محمد بن علي بن حامد، سلّمه للروم في شوال سنة ٤١١»^(٣).

وفي الحقيقة أن التاريخ الذي ذكره ابن عبد الظاهر غير صحيح، فحصن الخوإي كان ضمن أملاك الدولة الفاطمية في الساحل السوري، ومن ثم عندما أصبحت طرابلس إمارة مستقلة تحت سلطة بني عمار، أصبحت الخوإي ضمن أملاكهم، وقد رأينا أن فخر الملك بن عمار أمر بجبس ابن عمه أبي المناقب في هذه القلعة لأنه نادى بشعار الدولة الفاطمية سنة ٥٠١، ما يدل على أن هذه القلعة كانت حتى ذلك التاريخ بيد بني عمار، لكن بعد سقوط

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٧

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٧

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٤

طرابلس بيد الصليبيين سنة ٥٠٣، ظلت قلعة الخواري صامدة، وهاجمها الصليبيون هجمات متتالية، لكن واليها محمد بن علي بن حامد، وقف يدافع عنها وعندما ضعفت عزيمته، خاف من استيلاء الصليبيين عليها، فالتجأ إلى الروم أعداء الصليبيين وسلمهم القلعة لكي يحفظوها ويحفظوا أهلها سنة ٥١١. وبعد أن تمكن النزارية في الجبال راحوا يهاجمون هذه القلعة حتى أخذوها من الروم. ولاتذكر المصادر تاريخ استيلاء الإسماعيلية عليها، لكن ربما حدث ذلك في العقد الثالث من القرن السادس الهجري، وبالإضافة إلى الخواري، فقد استولى النزارية على قلعة «الرصافة» الموجودة في قرية الرصافة إلى الغرب من مصياف، وكانت تابعة لإمارة طرابلس، كما استولوا على قلعة «القليعة»*. وكانت أيضاً تابعة لطرابلس، واستولوا كذلك على قلعة «العليقة» وهي إلى جوار قرية العنازة في جبال بانياس، وكانت في أساسها، قلعة فاطمية وكان فيها والٍ تابع لهم.

ولم يهاجم الإسماعيلية القلاع التي كانت بيد الفرسان الداوية والاسبطارية مثل، المرقب، وصافيتا، وبلاطنس، والعريمة، وحصن الأكراد، كما لم يهاجموا مدن ساحل البحر التي كانت بيد الصليبيين أيضاً، بل اكتفوا بما حصلوا عليه من قلاع ليمارسوا حكماً مباشراً على السكان الأصليين الذين وقعوا في قبضتهم.

٥- الداعي رشيد الدين سنان

بعد وفاة الداعي أبي محمد العجمي، تولى حكم المملكة الإسماعيلية الناشئة رشيد الدين سنان الذي يعتبر أهم شخصية في تاريخ الإسماعيلية في سوريا، وكان سنان مواطناً من «عقرالسودان» وهي قرية بالقرب من البصرة على الطريق إلى واسط، وقد جاء إلى سوريا ليلتحق بالمشروع الإسماعيلي، وسرعان ما أثبت وجوده في مصياف وصار داعي الدعاة، ويقول برنارد لويس، إن سنان بعد أن فرض نفسه كحاكم للإسماعيليين كان أول ما اهتم به هو أن يدعم مملكته الجديدة فأعاد بناء قلعتي الرصافة والخواري، وتوج مملكته بالاستيلاء على قلعة العليقة، وإعادة تحصينها^(١).

وينقل برنارد لويس عن ابن العديم قوله «إن سنان بنى قلاعاً في سوريا للفرقة، وقد كان بعضها جديداً وبعضها قلاعاً قديمة حصل عليها بالخدعة ثم حصنها وجعلها منيعة، وغفل عنه الزمان ولم يهتم الملوك بمهاجمة

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام برنارد لويس - ص ١٦٤
* قلعة القليعة، تقع هذه القلعة إلى جوار قرية بيرة الجرد، جنوب غرب بلدة مصياف.

ممتلكاته خوفاً من الانتقام باغتيالهم، وقد حكم في سوريا ثلاثين عاماً، وبعث كبير دعاتهم في ألوث مبعوثين لقتله عدة مرات خوفاً من أن يغتصب الرئاسة، ولكنهم كانوا يقعون في قبضة سنان فيقتلهم أو يخذعهم ويقنعهم بعدم تنفيذ ما لديهم من الأوامر»^(١).

وكان سنان، كما يقول ابن عبد الظاهر «يجلس على صخرة ويتكلم من أول النهار إلى آخره، ولا يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبزق، فاعتقدوا فيه التأله»^(٢).

ويتحدث ابن جبير عن قوة اعتقاد الإسماعيلية براشد الدين سنان فيقول: «قيّض لهم شيطان من الأنس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيالات مؤه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا في طاعته وامتنال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل في مرضاته الردى، والله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء بقدرته»^(٣).

وطبعاً تبقى هذه الأقوال مجرد آراء لقائلها، لكن نحن لا نتبناها، فلو لم يكن لدى راشد الدين سنان حكمة بالغة لما استطاع أن يؤثر في جموع الإسماعيلية، ويجعلهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيل مرضاته.

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٦٤

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٦٨

(٣) رحلة ابن جبير - أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني - ص ٢٢٩

الفصل الخامس

علاقة الإسماعيلية بالعلويين

فرض الإسماعيلية أنفسهم كقوة احتلال وكأسياد على قسم كبير من العلويين على امتداد القلاع التي كانوا يحكمونها، والتي تركزت في القسم الشرقي من جبال الساحل والقريب من مصياف وحماة، وكانت سيطرتهم تمتد من مصياف وجوارها إلى القدموس وجوارها إلى قلعة الكاف وجوارها إلى قلعة القليعة وجوارها إلى الرصافة وجوارها إلى العليقة وجوارها إلى المنيقة وجوارها إلى الخوابي وجوارها.

وبهذا يكون العلويون في أقضية مصياف، والقدموس، والشيخ بدر، وبانياس، والخوابي، ودريكيش، وجبله، تابعين للحكم الإسماعيلي. أما العلويون في قرى سيف البحر القريبة من طرطوس وقلعة المرقب، وحصن قرفيص، وقلعة بلاطنس، وقلعة صافيتا، وفي منطقة الكفرون وسهل عكار، وحصن الأكراد، فكانوا تابعين للصليبيين. أما العلويون في اللاذقية وريفها فكانوا تابعين لسيطرة الصليبيين الذين كانوا يسيطرون على غالبية أرض هذه المحافظة.

وكان يتبع لكل قلعة مجموعة كبيرة من القرى العلوية، وكانت القلعة تمثل مركز القضاء أو بمثابة مركز حضري للقرى التابعة لها، فيقال القرية الفلانية من بلد القليعة، والقرية الفلانية من بلد العليقة، والقرية الفلانية من بلد الخوابي، إلى آخره، وكان يوجد في كل قلعة أو حولها، أسواق لشراء الحاجيات، مثل المطعومات، والملبوسات، وأثاث البيت مثل الحصر، والبسط، والفرش، وأدوات الطعام والطبخ من ملاعق، وقصعات، وحلل، وجعائل النحاس، والتي كان يتم تببيضها سنوياً من قبل جماعة مختصة بهذه العملية منعاً من تأكسد النحاس مما يجعله سمّاً قاتلاً. كما كان يوجد محلات للمهن مثل الخياطة، وصنع الأحذية، والحدادة، وهي المهن الرئيسية في ذلك العصر.

وكان العلويون في كل بلد يتسوّقون ويحصلون على حاجياتهم من القلعة التابعين لها، وكان بعضهم يتسوق من بلد الصليبيين إن كان قريباً منه.

وكان يتبع لكل قلعة طاحونة أو أكثر على أحد الأنهار أو الروافد لطحن الحبوب، وكانت هذه الطواحين تدار من قبل السيد الإسماعيلي، أو من يمثله.

وكان يوجد في كل قلعة وال من قبل الملك أو صاحب الأمر الرئيسي في مصياف، ويوجد في كل قلعة حامية من الفداوية للدفاع عنها ولتطبيق القوانين في القرى

التابعة لها.

ولا يوجد ما يدل على أن العلويين كانوا يتلقون معاملة سيئة من قبل الطبقة الإسماعيلية الحاكمة، ولعل الوحدة في العقيدة بين الطرفين كانت تظهرهما كمذهب واحد، وبالتالي كان الإسماعيلية يعتبرون العلويين شعبهم الذي يحكمونه ويدافعون عنه، وربما كان بين الفداوية رجال علويون، أو ربما كانوا في معظمهم كذلك بحكم أن العلويين كانوا ولا يزالون هم السواد الغالب في تلك الجبال، غير أنهم لم يكونوا يُجبرون على هذا الفعل.

لكن لا شك أن العلويين كانوا يدفعون الضرائب للسيد الإسماعيلي الذي كان يصرف ذلك في سبيل تقوية دعائم المملكة، وكان يعاونه في تثبيت حكمه طائفة من المقدمين الذين كانوا، على الأغلب، علويين، وكانوا يتولون إدارة القرى التابعة لهم وجمع الضرائب منها.

لكن لم يكن الإسماعيلية يعتمدون على ما يأتيهم من دخل من قبل العلويين، بل كانت تأتيهم هبات وعطايا من قبل مركز الفرقة في طالقان، حيث يذكر ابن نضيف في أحداث سنة ٤٢٦، فيقول «في هذه السنة أرسل مجد الدين متولي حصون الإسماعيلية بالشام إلى ملك الروم (تركيا الحالية) علاء الدين كيقباز يطلب منه المقرر لهم عليه، وهو ألفا دينار التي كانت جرت عادتهم بحملها إلى الموت، فأبوا ذلك. وسير الرومي إلى جلال الدين بالموت في ذلك، فقال له: (تحملها إليهم / بالشام، فقد عينّاها لهم ذخيرة، فحملوها)»^(١).

(١) التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان - أبو الفضائل محمد بن علي بن نضيف الحموي -

الفصل السادس

علاقة الإسماعيلية بالصليبيين

لم يكن هناك علاقة ودّ بين الإسماعيلية والصليبيين، ورغم ذلك لم تكن هناك حروب مستمرة بينهما، بل كان كل فريق منهما يعرف حدوده ويقف عندها.

لكن حدث أمر أفقد التوازن لهذه العلاقة، حيث تسلسل اثنان من الفدائية إلى صور على هيئة زاهدين، وأظهرا التنسك والعبادة إلى أن تمكنا، ومن ثم قاما بمهاجمة «كونراد دي مونتيفراتو» في شوارع صور سنة ٥٨٨ وقتلاه، بعد أن تمّ تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس بعدة أشهر. واختلفت الروايات الشرقية والغربية حول الدافع وراء هذه الحادثة، فيقول ابن واصل: «وقبض على الجارحين، وبحث عنهما فوجدا من الفداوية الإسماعيلية، فسألوهما من أمركما بهذا الفعل، فقالا، ملك الانكلتير، فقتلا شرقتله، ولم يعجب السلطان قتل المركيس، لأنه كان قد أبدى عداوة الانكلتير ومنازعتة في الملك»^(١).

من هذا النص يتبين أن الفدائيين فعلا ذلك الفعل بأمر الملك الإنجليزي ريتشارد الأول، وأن صلاح الدين الأيوبي انزعج لقتل المركيز كونراد، لأنه كان على عداوة مع ريتشارد.

ويقول برنارد لويس: «في ٢٨ أبريل ١١٩٢ تمكن الحشاشون من توجيه ضربتهم الكبرى باغتيال المركيز كونراد أوف مونتفترات Conrad of montfirrat، بينما كان في صور، وتتفق المصادر الشرقية وبعض الغربية على أن مغتاليه تخفوا في زي رهبان مسيحيين وشقوا طريقهم إلى خلوة الأسقف والمركيز، وعندما سنحت لهم الفرصة طعنوه حتى الموت، وأنهما عندما استجوبا اعترفا بأن ملك إنجلترا هو الذي دبر عملية الاغتيال، لأنه كان له مصلحة واضحة في اختفاء المركيز، وكذلك السرعة المريبة التي تمّ بها زواج الكونت هنري أوف شمبانيا Henry of cham-pangne، أرملة كونراد وارتقاؤه عرش مملكة بيت المقدس»^(٢).

ويروي ابن الأثير في تاريخه الكبير رواية مختلفة فيقول: «وكان سبب قتله -المركيز- أن صلاح الدين راسل مقدم الإسماعيلية سنان أن أرسل من يقتل ملك انكلتار، وإن قتل المركيز فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم من قتل إنكلتار، ولم يره سنان مصلحة لهم لنلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرخ ويتفرغ لهم، وشره

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل ج ٣ - ص - ٣٨٢

(٢) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس

في أخذ المال، فعدل إلى قتل المركيز، ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامي»^(١).

وتبدو رواية ابن الأثير عجيبة، إذ كيف استطاع أن يطلع على ما في سريرة راشد الدين سنان، وأن يستنبط تلك الأفكار التي لا يأتي بها إلا دهاة السياسة، ومن باعوا دينهم بدنياههم.

وفي الواقع من غير المعروف ما هي الرواية الصحيحة من بين تلك الروايات، لكن ربما نفذ الفدائيون هذه العملية لمصلحة صلاح الدين وربما كانت لهم صلات معه بدليل أنه أدخل بلادهم في الهدنة.

ومرّت السنون بعد تلك الحادثة ولم يحدث أي اشتباك بين الإسماعيلية والصليبيين، لكن في سنة ٦١٠ قام الفداوية باغتيال ريموند ابن كونت أنطاكيا بوهيموند في كنيسة طرطوس. ويذكر ابن واصل هذه الحادثة فيقول: «وفي هذه السنة وثب بعض الباطنية على ابن الابرنس، صاحب أنطاكيا فقتله، وكان عمره ثماني عشرة سنة، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً، وأعظمت الفرنج ذلك وخافوا واحترزوا لأنفسهم»^(٢).

ولم يوضح ابن واصل ما هو السبب الذي دفع الإسماعيلية إلى هذا الفعل، لكن لا شك أن أمير أنطاكيا الصليبي كان قد تعدى على أملاكهم، فانتقموا منه وقتلوا ولده، فقرر الانتقام منهم، فحشد جيشه وانضم إليه الصليبيون في قبرص وطرابلس وعكا، كما انضم إليه ابن لاون ملك قليقية الأرمني، ونزلوا بسهل البقية، ربما بهدف التمويه، ومن ثم قصدوا بلاد الإسماعيلية ونازلوا من قلاعهم الخواري وحاصروها حصاراً شديداً، كما يقول ابن واصل.

وسمع الملك الظاهر غازي ملك حلب بهذا الحصار، فخرج في عساكره متوجهاً إلى بلاد الإسماعيلية ليدفع عنهم الصليبيين، ولما سمع هؤلاء بقدومه رفعوا الحصار ورحلوا عن الخواري، ونزل غازي بمنطقة يسميها ابن واصل «صلدي» وبعث نجدة إلى الخواري، فصعدت إليه وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة، وبعث إلى الصليبيين يعلمهم أنه لا يمكنهم من الإسماعيلية، فرحلوا إلى أنطاكيا^(٣).

لكن لا يمكن النظر إلى موقف غازي على أنه تأييد منه للإسماعيلية، بل إنه كان يريد أن يحافظ على الوضع القائم في سوريا دون تغيير حتى لا يقوى طرف على الأطراف الأخرى فتختل المعادلة القائمة، وما يؤكد ذلك هو أن غازي هب لنصرة الصليبيين في أنطاكيا سنة ٦٠٠ عندما هاجمهم ابن لاون ملك الأرمن.

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - المجلد العاشر - ص ٢١٤

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٣ - ص ٢١٩

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٣ - ص ٢٢٤

ويذكر ابن واصل، أن الخبر وصل إلى غازي على جناح طائر، فخرج بالعساكر من حلب وقصد أنطاكية، وعندما علم ابن لاون بقدومه عاد إلى بلاده^(١).

وبالعودة إلى أخبار الخوائي، فإن خبر انهزام أمير أنطاكية وصل إلى أمير صقلية فقام بتجهيز حملة بحرية ونزل على شاطئ طرطوس، لكن الفداوية عرفوا به فقتلوه، وذلك سنة ٦١٢. وفي هذا يقول ابن واصل: «وفي هذه السنة قتلت الباطنية أخاً للملكة صاحبة عكا، وكان قد خرج من البحر في عالم لا يحصى من الفرنج لنصرة صاحب أنطاكية ونازلت الفرنج الخوائي، وجدّوا في حصاره وقتلوا أهله، وقاتلتهم رجالة الحلبيين الذين بعثهم الملك الظاهر نجدة لأهل الخوائي»^(٢). ولم يتمكن الصليبيون من الدخول إلى القلعة ولذلك عقدوا صلحاً مع أميرها، ورحلوا عنها. وقد توسط الملك غازي في الصلح بين الطرفين، كما يذكر ابن واصل^(٣).

وقد أظهرت تلك الهجمة ضعف الإسماعيلية. ورغم ذلك فقد ظل ملوك الفرنج مستمرين في دفع الجزية لهم، حيث يذكر ابن نظيف في أحداث سنة ٦٢٤: «وفيها وصلت رُسُل الإمبراطور* إلى الإسماعيلية بالحصون الشامية بجواب رسالتهم إليه، وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار، فقال لهم مجد الدين متولي الحصون: (الطريق إلى ألموت وجلال الدين غير طيبة من الخوارزمي وغيره ونخاف عليكم، فتوقفوا إلى حين صلاح الطريق واركبوا ما معكم عندنا وديعة لكم والغرض حفظ نفسه وأمانه منا، وهذا أماننا له). وحلف لهم، وأعطاهم قميصه أماناً. وهذه عادتهم»^(٤).

ويقول ابن نظيف في أحداث تلك السنة أيضاً: «وفيها سِير الاسبتار يطلبون قطيعة من الإسماعيلية، فقالوا لهم: (ملككم الإمبراطور يعطينا وأنتم تأخذون منا). ومنعوهم. فأغاروا عليهم وأخذوا من بلدهم جملة».

وهذا النص يبين أن الإِسبتارية قد أرسلوا إلى الاسماعيلية يطلبون الجزية منهم، لكن هؤلاء رفضوا وقالوا لهم نحن نعطي الإمبراطور، وأنتم تطلبون منا، لكن الاسبتار لم يقتنعوا وأغاروا من قلاعهم، المرقب، وحصن الأكراد، على بلاد الإسماعيلية ونهبوا مواشيهم وغلالهم.

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٥٥

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٣ - ص ٢٢٩

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٣ - ص ٢٣٢

* الإمبراطور: هو الإمبراطور فردريك الثاني، ١١٩١ - ١٢٥٠، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، من أسرة هوهنشتاوفن الألمانية، قاد حملة صليبية إلى فلسطين سنة ١٢٢٨ للميلاد، وربما خلال وجوده هناك أرسل رُسُله بالهدايا إلى الإسماعيلية..

(٤) التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان - أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

ورغم ذلك فقد ظل للإسماعيلية سمعة مخيفة في المحيط، ويروي برنارد لويس حكاية أوردتها «جوينفيل Jauinville» كاتب سيرة الملك لويس التاسع، وتقول الحكاية: «إن مبعوثي الحشاشين جاؤوا إلى الملك في عكا، وطلبوا منه أن يدفع الجزية لرئيسهم، كما يفعل إمبراطور ألمانيا، وملك المجر، وسلطان بابلين (مصر) والآخرين، في كل عام لأنهم يعرفون جيداً أن حياتهم مرتبطة بإرادته. وطرح هؤلاء المبعوثون على الملك خياراً آخر هو أنه إذا كان لا يرغب في دفع الجزية، فإنهم يرضون بإقالتهم من الجزية التي يدفعونها بأنفسهم إلى فرسان الاسبتارية والداوية».

ويفسر جوينفيل سبب هذه الجزية بأن فرسان الاسبتارية والداوية لم يكونوا يخشون شيئاً من الحشاشين لأنهم كانوا إذا قتل لهم سيد حلّ محله آخر لا يقلّ عنه كفاءة، ولم يكن رئيس الحشاشين راغباً في إضاعة رجاله بلا مقابل^(١).

ويقول جوينفيل أيضاً: «إن الحشاشين اتفقوا مع الملك على استمرار دفع الجزية إلى فرسان التنظيمين على أن يتبادل الملك وكبير الدعاة الهدايا»^(٢).

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٧٦

(٢) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٧٦

الفصل السابع

العلاقة بين الإسماعيلية والتُّرك

رغم ما أظهره الملك التركي محمود بن زنكي وخلفه صلاح الدين يوسف بن أيوب من عدااء للشيعنة وللبيت العلوي بمصر، إلا أنهما تعاملتا بحذر مع الإسماعيلية في جبال لبنان، ولم يسجل التاريخ أي محاولة لمحمود بن زنكي للاقترب من قلاع الدعوة، رغم أن هذه القلاع نمت وتطورت في عهده، وقد كانت بعين له، كما كانت حماة وشيزرو وأبوقبيس وما يليه من سهل الغاب له أيضاً. لكن كل ذلك لم يجعله قادراً على الدخول في حرب ضد الإسماعيلية خوفاً من نقمتهم. ونراه قد تعامل بشدة مع الشيعة في حلب، لكنه لم يكن يحفل بما يجري في قلاع الدعوة. ولعل خوفه من الإسماعيلية هو الذي دفعه إلى تجنبهم.

وبعد موته وتولي ولده الملك الصالح إسماعيل الحكم من بعده، تحالف سعد الدين كمشتكين الذي كان يتحكم بالملك الصالح مع الإسماعيلية ضد صلاح الدين الذي كان عازماً على السيطرة على أملاك الزنكيين في سوريا.

ويذكر ابن واصل في أحداث سنة ٥٧٠ للهجرة فيقول «إن سعد الدين أرسل إلى سنان صاحب الإسماعيلية بمصياف وقلاعها، وبذل له أموالاً كثيرة لقتل السلطان، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين أمير أبي قبيس، وكان هذا مثاغراً لهم، فقال لهم: لأي شيء جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول، فجرحوه جراحات مثخنة مات منها، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على صلاح الدين وقد شهر سكيناً، فضربه طغرل أمير جاندار* بالسيف فقتله، وما قتل الباكون حتى قتلوا عدة من الأجناد»^(١).

ونفهم من هذا النص أن أمير أبي قبيس وكان تركياً يدعى خمارتكين هو الذي عرف الفدائية وفضح أمرهم، ولولا ذلك لكانوا وصلوا إلى صلاح الدين وقتلوه.

وبعد تلك الحادثة راح صلاح الدين يحتاط فلم يكن ينام إلا والخوذة على رأسه وهو يلبس الزرد، ورغم ذلك فقد أعاد الإسماعيلية محاولة قتله، وذلك عندما

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٢٤

* أمير جاندار، لقب للذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام الموابك، وعند الجلوس بدار العدل، ويتألف اللفظ من: أمير، وهو عربي، وجان، لفظ فارسي بمعنى الروح، ودار، لفظ فارسي بمعنى الممسك، ويعني المصطلح، الأمير الممسك للروح أي الحافظ للسلطان فلا يأذن بالدخول عليه إلا لمن يثق به - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٢٠

كان يحاصر قلعة عزاز لأخذها من الزنكيين. ويروي ابن واصل تفاصيل هذه الحادثة فيقول: «ولمّا كانت ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة من سنة ٥٧١، قفزت الملاحدة على السلطان، وكان للأمير جاوي خيمة قريبة من المجانيق، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات، ويحرض الرجال على الحرب، إذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه، فلولا المغفر الزرد كانت تحت القلنسوة لقتله، فأمسك السلطان يد الباطني بيديه، ولم يقدر على منعه من الضرب بالكلية، فبقي يضربه في عنقه وعلى السلطان كراغند (معطف قصير يلبس فوق الزردية) فكانت الضربات تقع في زيق الكراغند فتقطعه والزرد يمنعها من الوصول إلى رقبتة، وأدرك السلطان مملوكه سيف الدين يازكوج، فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني فلم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلاّن الكردي فمنعه، وجرحه الباطني في جنبه فمات، وقتل الباطني، وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من أبطيه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب، ونادى علي: اقتلوني معه فقد قتلتني وأذهب قوتي، فطعنه ناصر الدين ابن شيركوه فقتله، وخرج آخر من الخيمة منهزماً فثار عليه أهل سوق العسكر فقطعوه. وركب السلطان إلى خيمته وقد ارتاع لهذه الحادثة ودمه سايل على خده، وطوق كراغنده مبلول واحتجب عن الناس واحتاط وضرب حول سرادقه على شكل قبة من الخشب، وجلس في بيت من خشب واحترس من الجند فمن أنكره أبعدته ومن عرفه أقره»^(١).

وأراد صلاح الدين الانتقام من الإسماعيلية فسار إلى بلاد الدعوة ونزل على مصياف سنة ٥٧٢، ونصب عليها المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبقارهم وخرب ديارهم، كما يقول ابن واصل^(٢)، لكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنهم وعاد خائباً. ويروي ابن واصل سبب ذلك فيقول: «إن خال صلاح الدين، شهاب الدين ابن تكش الحارمي أمير حماة، قد شفع بالإسماعيلية، بعد أن راسلوه لأنهم جيران، فرحل عنهم وقد انتقم منهم»^(٣). ويقول ابن العديم، إن صلاح الدين «صالح الإسماعيلية بوساطة خاله محمود بن تكش»^(٤). وهذه الرواية تفيد أن محمود بن تكش تدخل في الوساطة للصالح بين الطرفين ما يعني أن صلاح الدين لم يكن في موقف من له الغلبة حتى يملئ شروطه.

أما رواية الإسماعيلية التي ينقلها برنارد لويس من مصادرهم فتقول: «إن صلاح الدين أصابه الرعب من القوى الخارقة للطبيعة التي يتمتع بها سنان، فتدخل

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٥

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٨

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٤٨

(٤) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٧٣

أمير حماة لصالحه ورجا سناناً أن يسمح له أن يرحل في سلام، وأصبح الاثنان من أحسن الأصدقاء^(١).

وتبدو الرواية الإسماعيلية، رغم ما يعتريها من أساطير حول سنان، أقرب إلى الصحة من غيرها من الروايات، إذ بعد رحيل صلاح الدين عن مصيف لم يحاول الفدائيون قتله ما يدل على حالة الرضى التي شعر بها سنان، لأن خصمه اللدود تذلل له وطلب منه الصفح والمسامحة، وفي الوقت عينه فقد استمرت علاقة سنان مع الزنكيين في حلب.

وفي سنة ٥٧٣ اغتال الفدائيون العدل شهاب الدين أبا صالح العجمي الذي كان من رؤساء السنة في حلب، ويذكر ابن واصل أن سبب قتله يعود إلى «حسد سعد الدين كمشتكين له بعد أن أصبح مدبر أمور الملك الصالح، فوقع بين الاثنين وحشة، فقفز جماعة من الباطنية على أبي صالح فقتلوه، واستقل سعد الدين بالأمر»^(٢).

أما ابن العديم فيقول: «ثم أن الإسماعيلية قفزوا على الوزير شهاب الدين أبي صالح بن العجمي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأول سنة ٥٧٣، وكان السبب في ذلك أن أبا صالح كان يواطئ المجاهد (اللالا) وجمال الدين شاذبخت على سعد الدين كمشتكين، ويحاولون حطه عن مرتبته، فعلم كمشتكين بذلك، فكتب كتاباً إلى سنان مقدم الإسماعيلية (بالحصون)، على لسان الملك الصالح، يلتمس منه قتل أبي صالح، واللالا وشاذبخت، وكان قد أحضر الكتاب إلى الملك الصالح وهو خارج إلى الصيد، وطلب خطه، وهو أبيض، لم يكتب فيه شيء أصلاً، وقال له: (المولى خارج، ويحتاج أن يكتب كتاباً في أمر كذا وكذا، فيكتب المولى علامته)، فكتب ثقة أن الأمر كما ذكر. فكتب كمشتكين إلى سنان بالأمر الذي أراده، وسيّره إليه، فلم يشكّ سنان في أن الأمر وقع من الملك الصالح، ليستقلّ بأموره ومملكه، فندب جماعة لقتل المذكورين، فوثبوا على شهاب الدين أبي صالح بالقرب من داره، وقتل الإسماعيليان اللذان وثبا عليه، ثم وثب بعد ذلك بمدة ثلاثة منهم على «اللالا» بالقرب من «خانكاه القصر» وتعلق بذيل ثوبه ليضربه بالسكين، فرفس اللالا الفرس وخرج من ثوبه فنجأ وأحاط الناس بالجماعة الذين قفزوا عليه وفيهم اثنان كانا يترددان إلى «ركابدار»* فقتل أحدهما وصلب، وصلب الركابدار أيضاً وكتب على صدره (هذا جزاء من يؤوي الملاحدة)، وأما الآخر فصعدوا به إلى القلعة، فضرب ضرباً عنيفاً وثقب كعبه ليقرر على السبب

(١) الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - ص ١٦٨

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٢ - ص ٦٣

* ركاب دار، هو الذي يتبع بيت الركائب الذي تحفظ فيه السروج واللجم ونحوها، وهو يحمل الغاشية «وهي سرج من جلد مغرور بالذهب» - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٨٣

الذي أوجب وثوبهم. فقال للملك الصالح: (أنت تبعث كتبك إلى مولانا سنان بقتل من أمرنا بقتله، ثم تنكر فعل ذلك؟). فقال: (ما أمرت بشيء)، وكتب إلى سنان يعتب عليه فيما فعل بأبي صالح واللالا، فقال: (أنا ما فعلت شيئاً إلا بأمرك وخطك)، وسير إليه كتاباً فيه علامته بقتل الثلاثة المذكورين، فعلم أن ذلك كان مكيدة من كمشتكين، وكان الإسماعيلية قد اجتهدوا في قتل شاذبخت فلم يقدرُوا على الوثوب عليه لشدة احترازه في القلعة، فعند ذلك وجد أعداء كمشتكين طريقاً للطعن عليه أمام الملك الصالح، وقالوا له: (إنما أراد قتل هؤلاء ليستقل بملكك ويفعل فيه ما لا يقدر أن يفعله معهم وأنه قد استصغرك واحتقر أمرك)^(١). وزاد أعداء كمشتكين على ذلك بأن «اتهموه بأنه من أصل صليبي وأنه كان يريد أن يسلم قلعة حارم التي كانت إقطاعاً له إلى الصليبيين، فأوغروا بذلك صدر الملك الصالح، وجاء كمشتكين إليه يطلب إذنًا في الذهاب إلى حارم، فقبض عليه الملك الصالح وطلب منه تسليم حارم فامتنع، فحملوه إليها تحت الحراسة، وأوقفوه تحت قلعتها وعذبوه، فاستدعى بعض من يثق فيه من حراس القلعة، وأسر إليهم بأن لا يسلموها ولو قطعوه، فعاد هؤلاء إلى القلعة وأظهروا العصيان، فعذب كمشتكين عذاباً شديداً، وعلقوه من رجليه، وأسقطوه في الخل والكلس والدخان، وعصروه، وأصحابه يشاهدونه ولا يجيبون إلى التسليم، فأمر الملك الصالح بخنقه، فخنقوه بوتر، وكسروا يديه وعنقه، ورموه إلى خندق حارم»^(٢).

وهكذا انتهى كمشتكين. لكن الملك الصالح الذي صدق رواية كاذبة بأن كمشتكين كان صليبياً وأنه كان يريد تسليم حارم إلى إخوانه الصليبيين، لم يقتنع من سنان أنه لم يتعمد قتل ابن العجمي، بل عمد إلى أخذ قرية كانت للإسماعيلية تسمى «حجيرا» وهي، كما يقول ابن العديم، من ضياع نقرة بني أسد*. وكتب سنان إلى الملك الصالح كتباً عدة لإعادة هذه القرية له، لكنه لم يفعل، فأرسل سنان الفدائيين ومعهم النفط، فأشعلوا النار في دكان في أول سوق الزجاجين، فنهض نائب رئيس حلب بمن معه من حراس الأسواق ليطفئوا الحرائق، فصعد الفدائيون إلى أسطح الأسواق، وألقوا النفط وأشعلوا النار، فاحترق سوق الأقمشة وسوق العطارين وسوق السراجين وسواه من الأسواق، مما أدى إلى وقوع خسائر كبيرة للحلبيين، وذلك سنة ٥٧٥، وتمكن الفدائيون من الهرب. ولم يستطع الملك الصالح أن يفعل شيئاً للإسماعيلية.

وبعد هذه الحادثة لم يقيم الإسماعيلية بأي نشاط يذكر ضد الزنكيين، لكن

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٧٥

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٧٦

* نقرة بني أسد، هي جبل الأحص الذي يقع جنوب شرق حلب، وقد نزل هذا المكان سليط بن رثاب من بني أسد القبيلة العربية المعروفة.

علاقتهم استمرت مع خلفاء صلاح الدين الذين استولوا على كامل سوريا الداخلية وأجزاء من الساحل. وهذه العلاقة كانت ودية في العموم، فلم يعتد أي ملك أيوبي على قلاع الدعوة، لكن حدثت واقعتان أكدتا قوة الإسماعيلية وتمكنهم في المنطقة وهما:

١- حادثة الأمير العماد ابن شيخ الشيوخ

ملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب بعد وفاة أبيه الكامل، واجتمع الأمير سيف الدين علي بن قليج وعماد الدين ابن شيخ الشيوخ وجماعة من الأمراء بدار المسرة بدمشق بالقلعة وحلفوا جميعهم للعادل واستحلفوا العساكر المصرية والشامية، يوم الخميس ثاني وعشرين شهر رجب سنة ٦٣٥^(١)، ورتبوا الملك الجواد مظفر الدين يوسف بن مودود بن عم العادل نائب السلطنة بدمشق، واتفق رأيهم على إخراج الملك الناصر داؤد بن الملك المعظم بن عم العادل من دمشق بحكم أنه كان يطمع نفسه بها^(٢)، فمضى إليه الأمير نور الدين علي بن الأمير فخر الدين عثمان أستاذ الدار وأخرجه فتوجه إلى الكرك، وبعد أيام قليلة جمع وحشد وخرج من الكرك يريد دمشق فخرج إليه الملك الجواد بالعساكر والتقاءه على سبسطية من أعمال نابلس وقاتله وكسره، وانهزم الملك الناصر إلى الكرك^(٣). وعاد الملك الجواد إلى دمشق بالعساكر الشامية والمصرية.

ثم توجهت العساكر المصرية لخدمة الملك العادل، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وحمل إليهم الأموال والخلع والقماش الكبير^(٤). وبعد ذلك شرع يبعد الأمراء العتيقين غلمان والده وأنشأ له أمراء شباناً وأعطاهم الأموال والإقطاعات وصار يجتمع بهم ويخلو معهم ويستشيرهم ويصغي إلى أقوالهم، ثم أقبل على اللهو وشرب الخمر والطرب^(٥).

ثم أقبل عليه الملك الناصر داؤد بن عمه صاحب الكرك وأقام عنده، واستولى على عقله وأوهمه في الأمير فخر الدين بن الشيخ بأنه قد اتفق مع الملك المعزم جبر الدين عمه وقد استمالوا جماعة من الأمراء وأشار عليه

(١) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

(٢) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

(٣) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

(٤) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

(٥) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

بالقبض على ابن الشيخ، وإخراج الملك المعزمجير الدين عمه من البلاد، فقبض على فخر الدين بن الشيخ وحبسه بقلعة الجبل، وأخرج عمه المعزمجير الدين من الديار المصرية وخرج معه الملك الأمجد تقي الدين عباس أخوه^(١)، ثم أوهمه في الملك الجواد وأن الأمراء الذين اتفقوا على ترتيبه في السلطنة بدمشق يميلون إليه، فأنكر العادل على الأمراء المشار إليهم وكان من جملتهم الأمير عماد الدين بن شيخ الشيوخ*، فخاف عماد الدين على نفسه وقال: أنا أمضي.

وفي سنة ٦٣٦ وصل العماد إلى دمشق وأكرمه الملك الجواد، وأخذ في التحدث معه في المسير إلى الملك العادل. فراح الملك الجواد يماطل حتى عرف العماد بذلك، فأحضر حينئذ الولاة والشادين والنواب في دمشق وأعمالها، وقال لهم: «قد عزل السلطان العادل الملك الجواد عن النيابة، فلا تعودوا تحملوا إليه شيئاً من الأموال ولا تقبلوا توقيعه في شيء بالجُملة»^(٢).

فبلغ ذلك الملك الجواد فاشتد عليه وحنق لأجله حنقاً كثيراً، ووكل على عماد الدين بن الشيخ في دار المسرة ومنع من يجتمع به.

وكان الملك المجاهد صاحب حمص قد حضر إلى دمشق واتفق مع الملك الجواد وصارت كلمتهما واحدة، فاستشاره في أمر عماد الدين بن الشيخ فأشار عليه بقتله، واتفق معهما الأمير عماد الدين بن قليج^(٣). فبعثوا إلى نواب الإسماعيلية في ذلك، ودفعوا إليهم مالاً وأعطاهم الملك الجواد قرية الرमित* في الشعراء، وحمل إليهم مالاً تقرر الأمر عليه، فرتبوا نفرين من الفداوية فقتلوه على باب جامع دمشق، وأشاعوا أنهم قتلوه غلظاً وما كان مقصودهم إلا الملك الجواد فإنه يشبهه^(٤).

وهذه الحادثة تبين أنه كان هناك علاقات وتعامل بين ملوك سوريا الأيوبيين وبين الإسماعيلية، وأن هؤلاء حصلوا مقابل قتلهم الأمير ابن شيخ الشيوخ على قرية الرमित، كما حصلوا على مبلغ من المال.

(١) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٣

(٢) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٤

* عماد الدين بن شيخ الشيوخ، والده هو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، أرسله خليفة بغداد بسفارة إلى صلاح الدين سنة ٥٧٩ في الإصلاح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل. - زبدة الحلب من تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٣٩٩.

* شيخ الشيوخ، هو رئيس طوائف الصوفية جميعاً، وكان لهذه الوظيفة قيمة سياسية تزيد على قيمة قاضي القضاة - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٩٩

(٣) أخبار الأيوبيين - المكين جرجس بن العميد - ص ٢٤

(٤) أخبار الأيوبيين - المكين ابن العميد - ص ٢٤

* قرية الرमित، على الأرجح أنها في شعراء بانياس، أي في منطقة الجولان السورية حالياً.

٢- حادثة القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري

كان القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري من أخص أصحاب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وعندما ضعف هذا الملك، بعد عجزه عن أخذ مصر من أخيه العادل، فارقه أغلب عسكره وتركه أيضًا القاضي السنجاري وتوجه إلى دمشق، وبعد فترة قام عز الدين أيبك مقدم المماليك الأشرفية، وباطن عدة من الأمراء والمماليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه، ووافقهم على هذا جوهر النوبي شمس الخواص، وجماعة أخرى، وركبوا ليلاً وأحاطوا بدهلينز الملك العادل ورموه وقبضوا عليه، ووكّلوا به من يحفظه في خيمته، فلم يتحرك أحد لنصرته^(١).

وكان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ملك دمشق، وكانت الخدام والمماليك تميل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلم يطق عز الدين مخالفتهم، فاتفقوا كلهم وكتبوا إلى الملك الصالح نجم الدين يستدعونه، فأتته كتبهم، وقد بلغ الغاية من الخوف لضعفه عن مقاومة عساكر مصر والشام، فأتاه الفرج ما لم يسمع بمثله، وقام لوقته وسار إلى مصر، وزينت القاهرة وقلعة الجبل زينة عظيمة، وسر الناس به سرورًا كثيرًا^(٢).

وكان عماد الدين إسماعيل ملك دمشق قد بعث القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري في سفارة إلى عند سلطان بلاد الروم* علاء الدين كيخسرو بن كيقباد، فبلغه أن الملك نجم الدين قد ملك مصر، فخرج من بلاد الروم وقد عزم ألا يدخل دمشق، فمضى إلى مصيف، وأخذ يتحيل في الوصول إلى مصر، فبلغ ذلك عماد الدين إسماعيل، فأرسل إليه ليحضر، فامتنع من الحضور واستجار بالإسماعيلية، فأجاروه^(٣).

ويذكر ابن واصل أن مقدم الإسماعيلية كان يومئذ رجالاً من العجم ورد من الموث يقال له: تاج الدين، ويذكر أيضًا، أنه اجتمع به وكان بينه وبينه مودة. وتقدم تاج الدين إلى القاضي بدر الدين أن يلتجئ إلى الملك المظفر فجاء إلى حماة، فأكرمه الملك المظفر وأنزله في داره المعروفة بدار الأكرم، وصار يجتمع

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٠١

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٠٣

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٠٦

* بلاد الروم، هي دولة تركيا الحالية.

به في غالب الأوقات، فمرة يستدعيه ومرة ينزل إليه ويؤانسه ويحادثه^(١). وكانت حماة قد أصبحت ملجأ لكل من انتمى للسلطان نجم الدين أيوب، ومنها يرد إليه كل ما يتجدد بالشام والشرق^(٢).

وفي شهر ذي الحجة سنة ٦٣٨، سار القاضي بدر الدين أبو المحاسن يوسف السنجاري على الساحل إلى مصر، فلما قدم على السلطان أكرمه غاية الإكرام، وكان قضاء مصريد القاضي شرف الدين ابن عين الدولة الإسكندري، فصرفه السلطان عن قضاء مصر والوجه القبلي، وفوض ذلك للقاضي بدر الدين السنجاري، وأبقى مع ابن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحري^(٣).

ومن ثم أصبح القاضي أبو المحاسن قاضي كل الديار المصرية، وظل كذلك إلى أن ملك الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨، حيث فوض في جمادى الأولى من سنة ٦٥٩ القضاء بديار مصر للقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي الأعز خلف، المعروف بابن بنت الأعز، عوضاً عن القاضي بدر الدين السنجاري، وقبض عليه وعوّقه عشرة أيام، ثم أفرج عنه^(٤).

وهذه القصة تبين أن الإسماعيلية كانوا يتمتعون بالاستقلال الكامل عن ممالك الأيوبيين في سوريا وأنهم كانوا يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون دون خوف أو وجل.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا توجه القاضي بدر الدين السنجاري إلى مصياف واستجار بالإسماعيلية من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل؟ وأيضاً لماذا أجار هؤلاء هذا القاضي وحاموا عنه، مع أنه كان من رجال دولة الأيوبيين، وكان على المذهب الشافعي كما كان حال الأيوبيين؟ وهذه القصة تبين أيضاً أن الإسماعيلية كانوا دولة وكانوا مستقلين عن التُّرك في سوريا.

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - ابن واصل - ج ٥ - ص ٢٥١

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٠٦

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٠٩

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٢٨

الفصل الثامن

نهاية مملكة الدعوة

كانت مملكة الدعوة في لبنان امتدادًا للمملكة الرئيسية في الطالقان، وسوف نتناول هنا سقوط مملكة الطالقان على يد المغول أولاً ومن ثم نتناول سقوط مملكة لبنان على يد الملك الظاهر.

١- المغول ومملكة الطالقان

تجمعت نذر الموت حول الإسماعيلية في الطالقان، فقد كان المغول قد تحركوا من بلادهم في براري الصين الشمالية نحو الغرب سنة ٦١٣ للهجرة، وراحوا يدمرون كل الدول والمدن التي كانت في طريقهم.

وكانت الدولة الخوارزمية التي نشأت على أنقاض دولة السلاجقة سنة ٥٩٣، بمثابة العقبة الكأداء أمامهم، لكنهم تمكنوا بعد حروب طويلة مع الملك جلال الدين خوارزمشاه، من القضاء عليه وانسابوا في بلاد فارس، وكان يقود جيوش المغول في هذه البلاد هولاكوبن تولوي بن جنكيزخان، وحين تقدم ووصل إلى مدينة طوس أرسل رسالة إلى ملك الإسماعيلية ركن الدين خورشاه لينزل عند طاعته^(١).

وكان خورشاه قد خلف أباه علاء الدين محمد، بعد وفاته سنة ٦٥٣، في حكم المملكة الإسماعيلية، وقد بدأ، كما يقول عطا الجويني، سيرة مغايرة لسيرة أبيه، وبدأ في وضع أسس الصفاء وأرسل إلى كل ولاياته بالتزام الإسلام، وبأن يسلكوا سبل السلام^(٢).

وفي العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ تقدم هولاكوخان إلى خرقان، وبسطام، وأرسل مركاتي شحنة هراة، بصحبة منكلمش برسالة أخرى إلى ركن الدين خورشاه وأمرهما بتخويفه وتهديده ووعيده^(٣).

وكان الخواجة نصير الدين الطوسي وجماعة آخرون من الأطباء، كما يقول رشيد الدين الهمذاني، يقيمون، لدى ملك الإسماعيلية، مكرهين. وعندما علموا بتقدم هولاكوخان مالوا إليه وصاروا يتشاورون سرًا ليحملوا الملك

(١) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٠

(٢) تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي) - علاء الدين عطا ملك الجويني - ج ٣ - ص ٢٢٦

(٣) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٠

ركن الدين كي يخضع له، وراحوا يحضون ركن الدين على الخضوع ويخوفونه من مغبة المقاومة وعدم التسليم فاستجاب لنصحهم^(١).

وأرسل ركن الدين، كما يقول عطا ملك الجويني، رسولا إلى القائد المغولي يسورنوين، وكان هذا في همدان، فقال يسورنوين للرسول، بأن مراكب السلطان هولاكو خان وشيكة الوصول، والصالح أن يخرج ركن الدين بنفسه للقاءه، لكن ركن الدين تقاعس وأرسل أخاه شاهنشاه في صحبة جماعة من كفاة الحضرة، فوصل إلى يسورنوين وهو في حدود قزوين، فأرسل يسور ابنه مورقا في صحبة شاهنشاه إلى حضرة السلطان هولاكو^(٢). فأمر هولاكو بإعزازهم وإكرامهم، وعين الرسل مرة أخرى لكي يذهبوا مع صدر الدين وظهير الدين وتوكل بهادر وبخشي ومازوق، برسالة إلى خورشاه ليخبروه أنه إذا كان قد قبل الخضوع والتسليم حقاً، فإن عليه أن يخرب القلاع، ويمثل بنفسه أمام هولاكو، فأجاب خورشاه، ووفي بوعده، فخرّب جزءاً من قلعة «ميمون دز» و«ألوث» و«لمسر»، ولكنه طلب مهلة سنة يغادر بعدها القلعة، فعرف هولاكو أن وقت النكبة لهذا الأمير قد حلّ، وأنه لا داع لتردد الرسل عليه لأنه لا يؤثر فيه ذلك^(٣). فسار يسورنوين ودخل ولاية ألوث وكان جنود ركن الدين وفداويوه قد تجمعوا على قمة «سيلان كوه» في أعلى ألوث، وعزم الجيش المغولي على الصعود فوقعت موقعة عظيمة، وتراجع المغول لكنهم أتلّفوا غلات الولاية واشتغلوا بتخريبها^(٤).

وفي العاشر من شعبان سنة ٦٥٤ غادر هولاكو بسطام وتوجه نحو قلاع «الملاحدة»* الإسماعيلية، وأمر أن تجتمع الجيوش الموجودة في العراق وغيرها من الأطراف، فكان على الميمنة بوقا تيمور وكوكا ايلكاي، وقد أخذوا طريق مازندران، وعلى الميسرة تكودار أوغول، وكيتبوقانويان، اللذان قدما من طريق «خوار» و«سمنان»، أما هولاكو فقد اتخذ موضعه في القلب على رأس عشرة آلاف من المحاربين المشهورين^(٥).

أما ركن الدين فقد حمله قصور تفكيره، كما يقول الجويني، على إظهار

(١) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمداني - ص ٢٥٠

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٢٦

(٣) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمداني - ص ٢٥٠

* للأسف يستخدم رشيد الدين كلمة «ملاحدة» ليصف بها الإسماعيلية، وهي المفردة التي يستخدمها عطا ملك الجويني وغيره من المؤرخين الذين درجوا على استخدام تلك المفردة تيمناً بفقهائ السلاجقة الذين أطلقوها زوراً وبهتاناً على أناس مسلمين.

(٤) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٢٧

(٥) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمداني - ص ٢٥١

شيء من التقاعس عن الخروج وخاف وتلعثم، وأثار غبار التعلل، وأرسل وزيره شمس الدين كيلكي وابن عم أبيه سيف الدين سلطان ملك بن كيا بومنصور، في صحبة الرسل إلى الحضرة^(١).

وأرسل هولاءكو خان سيف الدين سلطان ملك صحبة الرسل إلى ركن الدين لإبلاغه بأنه لما كان السلطان قد نزل في دماوند* فقد أصبح من الواجب على ركن الدين أن يتوجه لإظهار العبودية، ولو حدث أن تخلف خمسة أيام فعليه أن يرسل ابنه أولاً. فاضطرب ركن الدين من نبأ وصول رايات فاتح العالم إلى الحدود، واستولى الرعب والخوف عليه^(٢).

وتوجه هولاءكو إلى «فِرَان» وحاصر قلعة «شاه ذر» وفتحها في يومين، ثم أرسل الرسل مرة أخرى ليحثوا خورشاه على التسليم، فأعاد هذا الرسل، وقَبِلَ أن يرسل ابنه مع ثلاثمائة من الجنود، كما قبل أن يخرب جميع القلاع. وفي مدينة «عباس آباد الري» توقف هولاءكو وصار يترقب تنفيذ الوعد^(٣).

وفي السابع عشر من رمضان سنة ٦٥٤ أرسل خورشاه إلى هولاءكو ابنه الذي كان في السابعة أو الثامنة من عمره، بصحبة طائفة من الأكابر والأعيان، فأكرم هولاءكو الغلام وأعزه^(٤) وبعد يومين أعيد الطفل برسالة مضمونها أنه لا يزال مجرد طفل صغير، فإذا كان ركن الدين سوف يضطر إلى التأخير قليلاً عن الوصول إلى العبودية فعليه أن يُعَجَّلَ بإرسال أخيه الآخر، حتى يعيدوا إليه أخاه شاهنشاه الذي لازم خدمة البلاط مدة طويلة^(٥). وأطاع ركن الدين الأمر وأوفد إلى هولاءكو أخاه الآخر شروانشاه والخواجة أصيل الدين الزوزني مع ثلاثمائة من كبار الشخصيات والمسؤولين، فتشرفوا بمقابلته في ضواحي الري^(٦).

وفي التاسع من شوال عاد شروانشاه شاه يحمل معه منشوراً من هولاءكو يشمل العبارة الآتية: «نظراً لما أظهره ركن الدين من طاعة وخضوع، فقد عفوت عما ارتكبه أبوه وأتباعه من جرائم وأخطاء، وحيث إنه لم يصدر أي جرم من ركن الدين نفسه خلال المدة التي عمل فيها مكان أبيه، فإنه إذا

(١) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٢٨

* دماوند، جبل قرب الري وكورة - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٢ - ص ٤٦٢

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي»، علاء الدين عطا ملك الجويني - ج ٣ - ص ٢٢٩

(٣) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٢

(٤) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٢

(٥) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٣٠

(٦) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٢

خرب القلاع فسوف يأمن بأسنا من جميع الوجوه»^(١).

وفي أثناء هذه المفاوضات كان بوقا تيموروكوكا إيلكاي اللذان قد توجهها بجيوش كثيفة من ناحية أسندان، يقتربان من شاطئ البحر «قزوين» الذي يقع خلف ظهر مملكة ركن الدين، وخاصة قلعة «ميمون دز» التي يتحصن فيها ركن الدين.

وفي منتصف شوال توجه هولاكو خان إلى ولاية ركن الدين سالكا طريق الطالقان، ثم نزل في السابع عشر من الشهر نفسه أسفل ميمون دز، فالتقت الجيوش الأخرى القادمة من جميع النواحي وأحاطت بالقلعة^(٢). وتمّ ضرب الحصار عليها، لكن تعذر فتحها لمناعتها، وعند ذلك أرسل هولاكو رسالة أخرى إلى ركن الدين يعرض عليه فيها أنه، إذا نزل من القلعة وترك المقاومة فإن تصرفه هذا سيكون سبباً في إنقاذ طائفة كبيرة من الضعفاء والمساكين، وإذا لم يقدم نفسه خلال خمسة أيام فإن عليه أن يستحكم في قلاعه ويستعد للقتال^(٣).

وفي يوم الأحد ذي القعدة نزل ركن الدين من القلعة بصباحة الخواجة نصير الدين الطوسي والخواجة أصيل الدين الزوزني وجمع كبير من الأعوان، ثم جاء فقبل الأرض بين يدي السلطان الأعظم^(٤). وحينما نظر هولاكو على خورشاه عرف أنه غلام غير مجرب يعوزه الرأي والتدبير، فأعزه وأكرمه ووعد بمساعدته، وأرسل من قبله صدر الدين فتسلم من خورشاه جميع الحصون والقلاع والتي كان يملكها أباءه وأجداده على التوالي في قهستان، ورودبار، وقومس، والتي كانت مملوءة بالآلات والذخائر، وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو المائة، وبعد إخراج الحكام، خربت جميعها ما عدا كردكوه ولبسر، وفي هذه الأخيرة اعتصم أقارب ركن الدين وأتباعه، وظلوا يقاومون مدة سنة، وبعد ذلك انتشر الوباء بينهم، فأهلك كثيرين منهم ونزل الباقيون ولحقوا بالآخرين، وأخيراً سقطت قلعة كردكوه بعد أن ظلت تقاوم مدة عشرين سنة^(٥).

بعد ذلك انتقل هولاكو إلى قاعدة الموت، وأرسل إليها ركن الدين خورشاه ليحث المدافعين على التسليم، ولكن قائد القلعة تمرد وعصى، فكلف هولاكو بلغاي بمحاصرة القلعة وهاجمها يومين أو ثلاثة ثم أرسل هولاكو

(١) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٣

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهان كشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٣١

(٣) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٤

(٤) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٤

(٥) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٥

إلى المحاصرين منشوراً يؤمنهم على حياتهم.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرون من ذي القعدة؛ نزل قائد القلعة وسلمها إلى هولأكو^(١).

وأسكن السلطان أهل ركن الدين وحاشيته ومواشييه في قزوين، ووزع جنده على الأمراء، ولزم ركن الدين الخدمة مجاوراً البلاط الذي كان في حدود همذان، وأرسل مع معتمديه اثنين أو ثلاثة في صحبة رسل السلطان إلى قلاع الشام لكي يأتوه برؤسائها، ويقوموا بجرد خزائنها وأن يحفظوا تلك القلاع كعبيد للسلطان إلى أن تصل مظلمته إلى تلك الحدود والديار، وسوف يصدر الأمر في هذا الشأن حينذاك حسب ما تقتضيه المصلحة^(٢).

والتمس ركن الدين من هولأكو خان أن يرسله إلى حضرة الخان الأكبر «منكوقا أن»، فوافق هولأكو. فتوجه إلى قراقورم في أول ربيع الأول سنة ٦٥٥، وعندما وصل إلى الحضرة، رفض «منكوقا أن» أن يستقبله، وقال: لم يكن من الضروري إحضاره عبر هذه الرحلة الطويلة، وأن المرسوم الملكي الذي أصدرته، من قبل معروف*. ولم يسمح لركن الدين بأن يرفع الهدايا، وأبلغوه بالأمر التالي: (إذا كنت تدعي الطاعة فلماذا تبقي بعض القلاع متمنعة مثل كردكوه، ولبسر، فعليك الآن أن تذهب وأن تعود مرة أخرى بعد تخريب تلك القلاع فتحظى بشرف تقديم الهدايا إلى الحضرة السلطانية)^(٣).

ثم أرسل الخان الأكبر رسولاً من قبله قضى على حياة خورشاه، ولما تخلصوا منه قتلوا أقاربه وأفراد أسرته من النساء والرجال حتى الأطفال الذين في المهدي، فلم يبق منهم أثر^(٤).

٢- المَلِك الظاهر ومملكة لبنان

كان لتلك الكارثة التي حلت بالطائفة في بلاد فارس أثر بالغ على الإسماعيلية في سوريا الذين فقدوا السند والظهير والحامي لهم، كما أن القدر لم يمنحهم فرصة لالتقاط أنفاسهم، فقد كبس هولأكو خان سوريا، بعد استيلائه على العراق، وأخذ مَدَنها الرئيسية وأصبح الإسماعيلية مطوّقين، وكانوا

(١) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٦

(٢) تاريخ فاتح العالم «جهانكشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٣٧

(٣) تاريخ فاتح العالم «جهانكشاي» - علاء الدين عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٤٠

* تضمن مرسوم الخان الأكبر «منكوقا أن» إلى أتباعه، أن لا يتركز أحداً من الإسماعيلية، على قيد الحياة، ولو كان في

المهدي - فاتح العالم - عطا ملك الجويني - مجلد ٣ - ص ٢٣٩

(٤) جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - ص ٢٥٨

يستعدّون لمصير مشابه لمصير إخوانهم في مملكة الطالقان، لكن هولاكو خان اضطر للعودة إلى بلاده بسبب موت الخان الأكبر «مونكوقا آن» ليشارك في اختيار الخان الجديد.

وكان المماليك في مصر قد أخذوا سوريا من المغول، وظن الإسماعيلية أنهم قد أصبحوا في مأمن، لكن سرعان ما تولى الملك الظاهر عرش مملكة المماليك، وعرف ما حلّ بمملكة الطالقان على يد المغول، فقرر الانتقام من مملكة لبنان بالتوازي مع الانتقام من الصليبيين، وكان قد ساءه أن يكون للإسماعيلية ضرائب يستحقونها على ملوك مصر من الأيوبيين ومن تلاهم من المماليك، فعمل على جعلهم يدفعون له الضريبة من خلال مضايقتهم وتهديدهم^(١). وابتدأ بأمرهم عندما وصل إلى دمشق سنة ٦٥٩، وحضر إليه الملك المنصور الأيوبي صاحب حماة، فكتب له السلطان بالولاية على بلاد الإسماعيلية^(٢). وكان ذلك إيذاناً بأن هذه البلاد ستصبح تحت ملكه.

وقد أدرك الإسماعيلية أن خلاصهم من المغول أوقعهم تحت رحمة عدو أشدّ ضراوة، ولذلك أظهروا الإذعان، فأرسلوا وفدًا محملاً بالهدايا، إلى الملك الظاهر، بينما كان نازلاً بالقرب من الطور متجهًا لحرب الصليبيين. وكان هذا الوفد برئاسة شمس الدين ابن نجم الدين الشعرائي نائب مصيف، ومبارك بن الرضي، نائب العليقة. فأحسن السلطان إليهم وعادوا إلى بلادهم^(٣). ويذكر هذه الحادثة المقريري في أحداث سنة ٦٦١ فيقول: «وقدمت رسل دار الدعوة بالهدايا، فأحسن إليهم وعادوا»^(٤).

لكن رغم ذلك فقد كان الإسماعيلية يسعون بكل قوة لمنع اقتراب السلطان من بلادهم لعلمهم أنه لن يُبقي عليهم. ولذلك تحالفوا مع الصليبيين في طرابلس رغم العداوة التي كانت بينهما، للعمل معًا ضد أي هجوم مصري محتمل. وكان السلطان قد أرسل العساكر للإغارة على طرابلس ومضايقتها، فمدّ الإسماعيلية يد المساعدة للصليبيين هناك.

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه، لما وصلت إلى السلطان رسل الفداوية الإسماعيلية قال لهم: «بلغني أنه لما غارت العساكر على طرابلس حميتم مواشي الفرنج، واستودعتم أموالهم، وكتبكم كانت ترد بالشكوى من مجاورة الفرنج، وتقولون، ما نعطيهم القطيعة إلا لأن عساكر السلطان بعيدة، وإلا لو

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٦٥

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ١١٧

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ١٥٧

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقريري - ج ١ - ص ٥٥٤

قربت العساكر منّا روينّا سكاكينّا من دمائهم، فلما وصلت عساكري إلى أبوابكم لدفع الضيم عنكم، حسنتم وجوهكم معهم باستيداع مواشيهم»^(١).

وقد أنكر السلطان على هؤلاء المقدمين كونهم يستغلون بلاد الحصون «قرى العلويين» التي بأيديهم ويجبون منها المكوث، وليس لهم عسكر ينجد الإسلام. وطلب منهم إرسال نجدة أو مال يستخدم به عسكراً، أو حمل القطيعة «الضريبة» التي كانوا يحملونها إلى الصليبيين»^(٢).

ولما توجه رسولهم بهذا الجواب، حضر أحدهم وهو صاحب جمال الدين، وما سمع قط حضر بنفسه، فأكرم، وشاهد أحوال العساكر، وأحضر هدية لطيفة، فأنكر عليه بسببها، فسأل الأتابك في استعطاف السلطان، وزاد الهدايا شيئاً كثيراً، والترم بحمل جملة من المال، وتوجه لإحضاره»^(٣).

ولم يذكر ابن عبد الظاهر إن كان صاحب جمال الدين قد أحضر المال أم لا، لكن، على ما يبدو، أنه لم يف بالوعد التزاماً بسياسة المقدم الكبير الذي كان يماطل بالخضوع لسلطة الملك الظاهر ليرى ما ستجلى عنه الأيام.

وفي المحرم سنة ٦٦٤، وردت رسل الأنبرور، ورسل الفنش، ورسل ملوك الفرنج، ورسل ملك اليمن. ومعهم هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية، فأخذت منهم، كما يقول المقرئ، الحقوق الديوانية عن الهدية، إفساداً لنواميس الإسماعيلية، وتعجيراً لمن اكتفى شرهم بالهدية^(٤)*. وهكذا فإن السلطان أمر بأخذ الضريبة من هذه الوفود بسبب جلبهم هدايا لمقدم بلاد الإسماعيلية، ولكي يقول لهم، إن سلطته أقوى من سلطة هذا المقدم.

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ وصلت رسل الدعوة إلى السلطان، وهو في مصر، وصحبته جملة من الذهب، وقالوا: «هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج* قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق في المجاهدين»^(٥). وكان هذا

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٥٦

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٥٦

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٥٦

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٣٢

* يدل هذا الكلام على أن الكثير من الملوك في الغرب والشرق كانوا يقدمون هدايا لصاحب بلاد الإسماعيلية، حيث كان الأنبرور، والفنش، وملوك بلاد الفرنجة وملك اليمن، يقدمون الهدايا له، والأنبرور، كلمة تعني الإمبراطور، والمقصود به إمبراطور الإمبراطورية المقدسة في ألمانيا التي أسسها أوتو ابن كونراد المعروف بأوتو العظيم «٩٣٦ - ٩٧٣» الذي توجه البابا يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً رومانياً سنة ٩٦٢. قصة الحضارة، ول ديورانت - ١٤ - ص ٣٢٩. أما الفنش فهم ملوك أسبانيا. أما ملوك الفرنجة فهم، ملوك فرنسا وبلجيكا وهولندا وغيرها من بلاد غرب أوروبا.

(٥) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٧٤

* يقول ابن عبد الظاهر في أحداث سنة ٦٦٤: «وفي هذه السنة حضر رسول الاسبتار، وسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة، فقال السلطان: ما أجيبكم إلى هذا الشرط إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع: على مملكة حماة وهي أربعة آلاف دينار صورية، وما لكم من القطيعة على بلاد أبوقبيس وهي ثمانمائة دينار، وقطيعةكم على

أول مال يأتي إلى مصر من بلاد الدعوة، وكان دليلاً على خضوع مقدمي هذه البلاد لأمر السلطان. ومع ذلك ظلت نية السلطان هي القضاء على هذه المملكة، والخلاص من أمر الإسماعيلية بشكل كامل.

وعندما نزل السلطان في سهل البقيعة على مقربة من حصن الأكراد سنة ٦٦٧، حضر إليه ملك حماة الأيوبي، وأمير صهيون الأيوبي، لكن نجم الدين الشعراني نائب مصياف وولده شمس الدين لم يحضرا، بل أرسلوا رسولا يطلبون من السلطان تنقيص القطيعة التي كانوا يدفعونها للصليبيين وأبطالها السلطان وتقررت لبيت المال.

وكان صارم الدين ابن الرضي نائب العليقة قد تحالف مع نجم الدين ورفض الإذعان، فغضب السلطان عليه، فاتصل صارم الدين مع صاحب صهيون وطلب منه أن يتوسط له عند السلطان، فتوسط صاحب صهيون في أمره، فعفا السلطان عنه، فجاء إلى خدمته، وهو في سهل البقيعة، فقلده السلطان حكم مملكة الإسماعيلية استقلالاً، وسير إليه طبلخاناه*. وعزل نجم الدين وولده شمس الدين من الحكم.

وتوجه صارم الدين إلى مصياف في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦٨، ومعه عز الدين العديمي، وأرسل السلطان صحبتة جماعة من شيزرو وغيرها، فوصلوا إليها وتحديثوا مع أهلها في التسليم فامتنعوا، فأرسل السلطان إليهم عسكرياً، فسلموها في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ٦٦٨^(١).

ولما علم نجم الدين وولده بما حدث لمصياف، وكانا بعيدين عنها، سارا مباشرة إلى السلطان، وكان نازلاً على حصن الأكراد، وكان نجم الدين شيخاً كبيراً قد بلغ تسعين سنة، فرحب به السلطان وعفا عنه لأجل حضوره إلى بابه، وولاه النيابة شريكاً لصارم الدين الرضي لأنه صهره، وقرر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم كل سنة. وتوجه نجم الدين إلى مصياف وبقي ولده شمس الدين ملازماً باب السلطان، وتقرر على صارم الدين بن الرضي حمل

بلاد الدعوة وهي ألف ومائتا دينار، ومائة مَد حنطة وشعير - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - ص ٢٦٦، ومن هذا النص يتبين أن مقدمي الإسماعيلية كانوا يدفعون للفرسان الاسبتارية في قلعتي المرقب والحصن ضريبة سنوية قدرها ١٢٠٠ دينار صوري. وفي موضع آخر من الكتاب يقول ابن عبد الظاهر: «وكانت القطيعة على أبوقبيس كل سنة ستمائة دينار مصرية، حساب خمسمائة دينار صورية - ص ٢٨٣، وهذا يدل أن الدينار الصوري الصليبي كان أعلى قيمة من الدينار المملوكي، ما يؤكد أن قوة الصليبيين الاقتصادية كانت أضعاف قوة سلطنة المماليك الاقتصادية. والمد، مقدار ملء اليدين المتوسطتين من غير قبضهما - المكايل والموازين الشرعية - علي جمعة محمد - ص ٣٦

* الطبلخاناه: المراد بها ما نسميه في عصرنا موسيقى الجيش، وهي لفظ فارسي، وتعني الطبلخانة الفرقة الموسيقية السلطانية، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بعد صلاة المغرب، وتكون في صحبة السلطان في الأسفار والحروب، وأمير الطبلخانة هو الأمير الذي يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه، ويعد أمير الطبلخانة في الدرجة الثانية من الأمراء - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ١٠٦

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٦٦

ألفي درهم كل سنة^(١). ويقول ابن عبد الظاهر: «إن هذا كان من العجائب لأن الإسماعيلية عادتهم يأخذون ولا يعطون»^(٢).

والواقع أن هذا لم يكن عجيبة، لأن الإسماعيلية كانوا قد فقدوا ظهيرهم في الطالقان، فأذعنوا للأمر الواقع. لكن مع ذلك فأنهم ظلوا يحاولون التملص من ريقه السلطان. وكان صارم الدين بن الرضي أكثرهم جرأة على المخالفة. كما يقول ابن عبد الظاهر، فطلبه السلطان إليه واعتقله في مصر، ثم قرر الاستيلاء على العليقة، وطلب من عبد الظاهر النائب عنه في قلعة «بلاطنس» أن يهاجم العليقة، فسار هذا ونازلها، كما أرسل السلطان إلى بعض أهلها بالترغيب والترهيب، فأجابوا، وسيروا واستحلفوا السلطان على ما وعد به، فتسلمها نواب السلطان يوم السبت ١١ شوال سنة ٦٦٩^(٣). ثم سار عبد الظاهر إلى قلعة الرصافة وتملكها في أواخر شوال من تلك السنة^(٤).

وكان صاحب نجم الدين لما حضر إلى مرج حصن الأكراد سنة ٦٦١ استقر حاله هو وولده على أن يكون أحدهما في الخدمة والآخر في الحصون. وحضر شمس الدين وحضر معه ولده في صحبة السلطان ونُسبَ إلى ولد شمس الدين مكاتبة الصليبيين*. وعندما حضر صاحب نجم الدين سنة فتح حصن الأكراد، اعتذر عما فعله حفيده، وتحدث هو وولده شمس الدين مع الأتابك فارس الدين أقطاي في تسليم القلاع، وأنهما يحضران إلى باب السلطان^(٥). فأجابهم الأتابك إلى ذلك، وتوجه شمس الدين إلى قلعة الكاف ليدبر أمور أهلها في عشرين يومًا ويعود، وسافر أبوه نجم الدين في خدمة السلطان إلى قلعة القرين* ثم إلى الديار المصرية على أن يلحقه ولده شمس الدين، فما حضر، وصار يفند عن الحضور. فكتب إليه السلطان «بأن الذي كنتم سألتموه من تسليم القلاع كأنكم قد رجعتم عنه، والوعد الذي وعدناكم نحن ما نخلفه، من أننا نعطيكم أمرًا أربعين فارسًا، وقد تسلم الإقطاع والدك^(٦). فورد جوابه يعتذر عن الحضور، ويطلب حصن القليعة،

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٦

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٦

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٨٤

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٠

* يقول ابن عبد الظاهر: «وأمسك السلطان وهو محاصر حصن الأكراد نفرين فداوية كانا سيّرا من العليقة إلى صاحب طرابلس، وقرر معهما اغتيال السلطان، فلما حضر صاحب نجم الدين، أنكر السلطان عليه ذلك، ثم أطلقهما» - الروض الزاهر - ص ٣٧٧

(٥) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٣

* تقع قلعة القرين «منتفورت» على تلة في الشمال الشرقي من مدينة عكا.

(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٤

وأنه يسلم بقية الحصون إلى السلطان، فأجيب إلى ذلك، وسيّر السلطان إليه الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وأرسل معه قاضي حمص، فحلفا شمس الدين بحصن الكاف، وبعد تخليفه طالبوه بالتسليم، فامتنع أهل الحصن عن ذلك باتفاق معه من الباطن، فعادت الرسل مخبرين بذلك، ثم أعيد إليه الأمير علم الدين الدواداري، وعلم الدين شقير مقدم البريدية، فمنعوا من الدخول إلى الكاف، وقيل لهم: «ارجعوا»، ولم تؤخذ منهم الكتب^(١). ولما بلغ السلطان ذلك أمر بمضايقة الحصن.

ثم أن شمس الدين، كما يقول ابن عبد الظاهر، ندم ونزل من الكاف ووصل إلى السلطان بظاهر حماة في سادس وعشرين صفر، فأكرمه واحترمه، فسيّر ورقة إلى السلطان بأن أهل الكاف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء، فعز هذا القول على السلطان، فأمر مباشرة بإمساك شمس الدين والذين معه. وأرسلهم مخفورين إلى مصر، وأرسل السلطان بالسرايا لمضايقة الحصون، وألقي القبض على والي الدعوة وعلى الناظر بسرمين وكان لهما أقارب في حصن الخواي، فأمرهما الأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمكاتبة أقاربهم الموجودين في ذلك الحصن لتسليمه. فحضر منهم جماعة، فأكرمهم السلطان وأعطاهم خلعا ونفقات وأجراهم على رسومهم «أي لم يعزلهم» فسلموا الحصن المذكور سنة ٦٦٩^(٢).

وفي مستهل شهر ربيع الأول سنة ٦٧٠، تسلم نواب قلعة الحصن، قلعة القليعة بالأمان من الإسماعيلية^(٣). وظلت قلاع الكاف والقدموس والمنيقة بيدهم. وامتنعوا عن التسليم، كما يقول ابن عبد الظاهر، فجعل السلطان صاحب حماة متحدثا في أمر الكاف، والمليّن لعريكتهم^(٤). وتوالت مكاتباته إليهم، وأمرهم يزيد عن الوصف ويتناومون، وكلما سيّر إليهم من كتبه رقيما غدا أمره وأمرهم عجبًا، وكلما طلبهم للطاعة لم يستطع لهم طلبًا، وكلما هوّن عليهم التسليم قالوا، إنه غير هيّن، وكلما اتخذوا من أوثان زعمائهم آلهة مختفية أتاهم بسلطان بين. وبقي الملك المنصور صاحب حماة يقصّ على السلطان نبأهم بالحق ويحمل نفسه في مجاهدتهم بالقول على الأمر الأشق، والشيطان يربط على قلوبهم فيقولون شططا، ويغاضون ولا يظهرون غلظا، وصاروا لا يحققون أن الأمير شمس الدين بن الصاحب

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٤

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٤

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٩٤

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١١

نجم الدين قد ساءت به الأحوال^(١). وأمر السلطان بتشديد الحصار عليهم حتى أنهكهم وأدركوا أنه لا مفرّ لهم من الطاعة والتسليم، فأرسل القائمون على قلعة الكاف مفاتيح القلعة فتسلمها الأمير جمال الدين أقوش الشهابي الذي كان محاصراً لها. وذلك في ثاني وعشرين ذي الحجة سنة ٦٧١^(٢). وأرسل هذا الأمير يخبر السلطان بذلك.

وكانت المنيقة قد سقطت في ثالث ذي القعدة من السنة نفسها، أما القدموس فحضر، كما يقول ابن عبد الظاهر، من أكابر أهلها، وبذلوا الطاعة، وسلموها في ثامن ذي القعدة وبها تكملت قلاع الدعوة^(٣).

ويروي ابن شداد رواية مختلفة قليلاً حول سقوط القدموس والمنيقة والكاف فيقول: «وكانت طائفة من الإسماعيلية عصوا بقلعة القدموس على واليها وقتلوه، وعلى من بقلعة المنيقة وقلعة الكاف، وكاتبوا السلطان، وسلموها له، فبعث إليها واليها، وكتب إلى من في القلعة في تسليمها على أن يعرضهم عنها إقطاعاً بمصر فأجابوا، وكان المتحدث معهم والمتوسط بين السلطان وبينهم الملك المنصور صاحب حماة»^(٤).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٢

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٣

(٤) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين ابن شداد - ص ٦٠

الفصل التاسع

تلاشي النزارية وانتهائها

بعد سقوط القلاع أمر السلطان بإقامة صلوات الجمعة فيها، وأمر بالترضي عن الصحابة، وإظهار شعائر الإسلام^(١).

ولا شك أن السلطان كان يبغى من وراء ذلك محو أي ذكر للإسماعيلية وفرض التسنن على سكان تلك الجبال، لكن هذه الخطة لم تنجح ربما بسبب خوف نواب السلطان في القلاع من الفداوية، ولذلك تهاونوا في تطبيق أوامر السلطان، وخصوصاً أن نواب الإسماعيلية ظلوا يلعبون دوراً إلى جانب نواب السلطان، ولذلك لم ينجح التسنن في بلاد قلاع الدعوة كما نجح في حلب ومصر، وظل السكان محتفظين بعقائدهم الخاصة.

وبعد وفاة السلطان بيبرس تراجعت سلطة المماليك على القلاع بشكل طفيف وما يؤكد ذلك هو أن ابن الشحنة الذي عاش في القرن التاسع الهجري يذكرهم في كتابه (الدُر المنتخب في تاريخ مملكة حلب)، فيقول في حديثه عن مدينة طرابلس: «ولها حصون وقلاع، ويجاورها قلاع أهل الدعوة المعروفة وأصحاب الدعوة اسم سَمَى الإسماعيلية به أنفسهم، فيقولون نحن أصحاب الدعوة الهادية، وهم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر وتسمّوا بالفاطميين وينتمون إليهم، ومن الناس من يسميهم الباطنية ومنهم من يسميهم الملاحدة. وملخص معتقدهم، التناسخ. ويعتقدون أن كل من أطاع أئمتهم كان في الجنة ومن عصاهم كان في النار، وإن كل من ملك مصر من الخلفاء كان مظهرًا لدينهم، فلهذا كانوا يتلفون أنفسهم في طاعة هؤلاء الخلفاء، وهم المعروفون بالفداوية، ولصاحب مصر في تشييع هؤلاء وإرسالهم مزية يخافه بها أعداؤه، فإنهم لا يبالون بالقتل، وقلاعهم على مسافة ما بين حمص وحماة متصلة بالبحر الرومي إلى جانب طرابلس ولهم رؤساء مستولون على هذه القلاع وما يتحصل منها فهو عون لهم على ما يراد منهم من هذا المعنى»^(٢).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤١٣

(٢) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ٢٦٥

* ابن فضل الله العمري، صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ولد بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة، وتولى كتابة الإنشاء بدمشق في عهد السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨، ثم انتقل إلى القاهرة وأصبح كاتب السر للسلطان وظل في وظيفته حتى سنة ٧٣٧، ومن ثم عزل ولزم بيته حتى وفاته سنة ٧٤٩ - مسالك الأبصار - ج ١ - ص ١٢

ونقل ابن الشحنة رواية لابن فضل الله العمري* يقول فيها: «ولقد سألت المقدم عليهم والمشار إليه فيهم وهو مبارك بن علوان عن معتقدهم وحادثته في ذلك مراراً فظهر لي أنهم يرون أن الأرواح مسجونة في هذه الأجسام الملکفة بطاعة الإمام المظهر على زعمهم، فإذا انتقلت على الطاعة تخلصت وانتقلت إلى الأنوار العلوية وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية وعقيدتهم أن علياً رضي الله عنه كان المظهر ثم الانتقال منه»^(١).

ويتبين من هذا النص أن الإسماعيلية كانوا لا يزالون يحكمون تلك القلاع في عهد ابن فضل الله العمري الذي كان كاتب الإنشاء وكاتب السربين عام ٧٢٨ و٧٣٧، في عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون الثالثة، وأن ابن فضل الله العمري هذا، كالمقدم الإسماعيلية مبارك بن علوان عن معتقد الإسماعيلية، وأن هذا المقدم أوقفه على حقيقة هذا الدين ألا وهي التناسخ.

ويبدو أن حكم الإسماعيلية قد استمر، ولو بشكل ضعيف، كما أن نواب السلاطين لم يستمرو وجودهم في القلاع، بل حدثت تغييرات تمثلت في إقامة نيابة طرابلس في عهد الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون وتم إلحاق بلاد العلويين بها حتى وادي قنديل شمال اللاذقية. وتم تعيين المقدمين في بعض المناطق لجباية الرسوم والضرائب، مما ساهم في تلاشي حكم القلاع وانتهائه.

وظل الأمر كذلك حتى مجيء العثمانيين الذين لم يغيروا في التقسيمات الإدارية التي أوجدها المماليك في سوريا، كما أنهم لم يدخلوا بالجيوش إلى بلاد العلويين، وما يؤكد ذلك هو ما ذكره البطريق اسطفان الدويهي في أحداث سنة ١٦٣١ للميلاد، حيث يقول: «في العشر الأول من جمادى الثاني الذي يوافق كانون أول من تلك السنة، جمع الأمير فخر الدين أهل كسروان وجبيل والبترون وبشري والكورة وعكار والضنية والحصن وصافيتا وجبله ولاذقية وغيرهم، وتوجه إلى مصيات «مصيف» فدخل قلعتها وعزم على نهب البلاد لأنه ما أبداً قابلوا حاكماً قبل هذا الآن، فحضر عليه المقدم محمد ابن شلهوب من قرية فقرو*، والمقدم رزق بن عمر من قرية عتاب*، فخلع عليهما وفلت العساكر»^(٢).

ويبدو أن هذين المقدمين كانا يتوليان حكم بلاد مصيف لصالح أیالة دمشق، كما يبدو أيضاً أن الأمير فخر الدين قد وجد أهل مصيف بسطاء ولم يلحظ عليهم القوة والمعاندة فصرف وجهه عنهم وتركهم وشأنهم. وقد هجرت كل قلاع

(١) الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ٢٦٥

(٢) تاريخ الأرملة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٤٩٩

* فقرو، قرية تتبع ناحية سلح في منطقة الغاب في غرب حماة،

* عتاب، قرية في منطقة الغاب تبعد عن حماة حوالي ٧٥ كلم

* قدموس، بلدة تابعة لمحافظة طرطوس، تبعد عن طرطوس ٦٥ كلم.

الإسماعيلية، ومنها ما تحول إلى مدن مثل مصياف والقدموس، ومنها ما تمَّ هجره بالكامل مثل المنيقة والعليقة والكاف والرصافة والقليعة، والخوابي.

وقد يُقال: كيف استطاعت تلك القلّة من الإسماعيلية أن تحكم تلك الجموع الغفيرة من العلويين؟

لكن إذا عرفنا أن المذهبين، في حقيقة أمرهما، مذهب واحد لأنهما ينتميان إلى مدرسة آل البيت، فعند ذلك ندرك أن الإسماعيلية كانوا يظهرون كجزء من العلويين، وربما كانت هناك خلافات في بعض المسائل، لكن تلك الخلافات لم تكن ترقى إلى مستوى الخلاف الفكري والديني العميق.

الباب الخامس الماليك

الفصل الأول

نشأة المماليك

١- المماليك من حيث النشأة

كان الملك أيوب بن محمد بن أبي بكر العادل بن أيوب بن شاذي، قد أكثر من شراء المماليك الأتراك لاستخدامهم في الجيش لا اعتقاده الجازم بإخلاصهم وولائهم له، وذلك بعد أن تركه الكرد أثناء صراعه مع إخوته على حكم مصر وسوريا، وبقي معه الأتراك فقط، لذلك أكثر أيوب منهم ووضعه في جزيرة الروضة في النيل ليتلقوا التدريب والتعليم، فأطلق عليهم المماليك البحرية نسبة إلى تلك الجزيرة^(١).

وكان الملك الفرنسي لويس التاسع المعروف بـ«ريدا فرنس» قد قاد حملة صليبية لاحتلال مصر، فوصل إلى ساحل البحر المتوسط سنة ٦٤٧ للهجرة، ونزل على دمياط، وكان الملك أيوب مريضاً، وعندما علم بما حصل سار بجيشه وتحصن في المنصورة ليمنع الصليبيين من التمدد جنوباً والوصول إلى القاهرة، فمات هناك في شعبان من تلك السنة، وأخبرت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن، بموت السلطان، ووصتهما بكتمان الأمر حتى يحضر ولده تورانشاه، وأرسل فارس الدين أقطاي رئيس المماليك البحرية إليه لإحضاره، وكانت الحرب مع الصليبيين لاتزال مستمرة بين كروفر.

وفي مطلع سنة ٦٤٨ سار الصليبيون يريدون السيطرة على المنصورة، فتصدى لهم المماليك البحرية وكسروهم، وبرز بأس ييبرس البندقداري، والتجأ الملك الفرنسي وعدة من أكابر جيشه إلى تل المنية، وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي، ونزلوا على أمانه^(٢). وأخذوا إلى المنصورة، فقيّد الملك لويس ب قيد من حديد، واعتقل في دار كاتب الإنشاء فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي واعتقل معه أخوه، وأجري عليه راتب في كل يوم^(٣). ومن ثم أطلق سراحه بعد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار.

وكان تورانشاه قد جاء بعسكر كبير من الأكراد من المنطقة التي كان فيها، فوصل إلى المنصورة في شوال من تلك السنة ونزل بقصر أبيه، وخدمه المماليك البحرية،

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٤١

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٥٥

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٥٥

وبذلوا له ما يستحق من أولياء النعمة^(١)، لكنه شرع في تقديم جماعة من حاشيته من جاء معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف السنية، وأبعد المماليك البحرية وأرسل إلى شجر الدر بعدا بكل شر، فأرسلت هذه إلى المماليك تقول لهم: (إن قتلتم تورانشاه فعلي رضاكم بالمال) ووعدت المماليك البحرية كل واحد بمائتي دينار، والأمراء كل واحد بألف دينار^(٢).

وكان تورانشاه قد ذهب إلى فارسكور بعد رحيل الصليبيين، وجلس يوم الاثنين ١٦ محرم ليأكل، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بالسيف فتلقاها تورانشاه بيده فقطع أصابعه، والتجأ إلى برج خشبي كان قد نصب له، وهو يصيح: من جرحني؟، قالوا: الحشيشية، قال: لا والله إلا البحرية، والله لا أبقيت منهم بقية^(٣). واستدعى الطبيب ليداوي يده، فقال البحرية بعضهم لبعض: «تمموه وإلا أبادكم»، فدخلوا عليه بالسيوف، ففرت تورانشاه إلى أعلى البرج وأغلق بابه، والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج، ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج وتعلق بأذيال الفارس أقطاي، واستجار به فلم يجره، وفرت تورانشاه هاربا إلى البحر، وهو يقول: «ما أريد ملكا، دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، ما فيكم من يصطنعني ويجيرني؟». هذا وجميع العسكرواقفون، فلم يجبه أحد، والنشاب يأخذه من كل ناحية، وسبحوا خلفه إلى الماء، وقطعوه بالسيوف قطعاً حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً. وفر أصحابه واختفوا^(٤).

وبقتله انقرضت دولة بني أيوب من أرض مصر، وقامت بالملك بعده شجر الدر، وهي أول من ملك مصر من ملوك المماليك، ولُقبت «عصمة الدين»، وحلف لها المماليك، ونُقش اسمها على العملة، ومثاله «المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين». وكان الخطباء يقولون في الدعاء: «اللهم أدم الستر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين والدة الملك خليل»^(٥).

قال ابن إياس، قال الشيخ محي الدين الجزري: «لما بلغ الخليفة العباسي المستعصم وهو في بغداد أن أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد للأمراء مصر: (أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها). فلما بلغ شجر الدر ذلك خلعت

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٢٨٣

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٢٨٤

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٥٨

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٥٨

(٥) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٥٩

نقسها من السلطنة برضاها من غير كُره لها، فكانت مدة سلطنتها في مصر نحو ثلاثة أشهر إلا أياماً»^(١). لكنها قبل ذلك رتبت الأمور، فاتفقت مع عز الدين أيبك التركماني - وكان أكبر المماليك - لكي يتولى هو الحكم، وأن يتزوجها.

وقام أيبك بالسلطنة وتسمى بالملك المعز، فلما تمَّ في السلطنة انقلب عليه المماليك وقالوا له: (لأبد لنا من واحد من ذرية بني أيوب نسلطنه). وكان المتكلم يومئذ من الأمراء: الأمير بلبان الرشيدى، والأمير فارس الدين أقطاي، والأمير بيبرس ركن الدين البندقداري، والأمير سنقر الرومى، وغير ذلك جماعة من المماليك. فوقع الاتفاق بينهم وبين أيبك على أن يحضروا بشخص من أولاد الملك مسعود، صاحب حماة، وهو من ذرية بني أيوب، وكان عند عماته ببلاد الشرق، فأرسلوا خلفه، فلما حضر سلطنوه ولقبوه الملك الأشرف، وكان اسمه عيسى وقيل يوسف، وكان له من العمر عشرين سنة^(٢).

ويقول المقرئى: «إن أمراء المماليك تجمعوا وقالوا: (لا بد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أهله)، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود يوسف - المعروف باسم القسيس - ابن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وله من العمر نحو ست سنين، شريكاً لملك المعز أيبك، وأن يقوم الملك المعز بتدبير الدولة»^(٣). وكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير، وجميع الأمور بيد المعز^(٤).

واستمر أيبك وموسى شريكين حتى قويت شوكة أيبك وأنشأ له مماليك وأقام له عصابة، وفي سنة ٦٥٠ أزال أيبك اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف، واستولى على الخزائن^(٥).

٢ - عزم الأيوبيين في سوريا على أخذ مصر

بعد أن قام المماليك بالانقلاب على مخدوميهم الأيوبيين في مصر وانفردوا بالحكم هناك، استاء الأيوبيون في سوريا من ذلك واجتمع رأيهم على ضرورة استعادة مصر. وكان الملك الناصريوسف بن عبد العزيز بن غازي ملك حلب، هو الذي حرَّض على ذلك. واجتمع إليه الملك الصالح إسماعيل

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفى - ج ١ - ص ٢٨٧

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفى ج ١ - ص ٢٨٩

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئى - ج ١ - ص ٤٦٤

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئى - ج ١ - ص ٤٦٤

(٥) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئى - ج ١ - ص ٤٧٧

بن أبي بكر بن أيوب، والأمير شادي بن الناصر داؤد، والملك الأمجد حسن، والملك الأمجد عباس بن العادل. وسوى ذلك من الملوك والأمراء الأيوبيين. وخرج الجميع من دمشق في شعبان سنة ٦٤٨ متوجهين نحو مصر، فلما ورد الخبر بذلك اضطرب المماليك البحرية، واستعدوا للمواجهة، فجمعوا العرب من الصعيد، وأحضروا الخيول، وبرز الأمير فارس الدين أقطاي الجندار مقدم البحرية في جمهور عسكر الترك، وسارت العساكر واجتمعت بالصالحية، ونزل الملك المعز أيبك فيمن بقي عنده من العساكر، وسار إلى الصالحية، وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى، فاستقرت عساكر المماليك بالصالحية، ووصل الملك الناصر بعساكره إلى «كراع» وهي قريبة من العباسية، فتقارب ما بين العسكرين، وكان في ظن كل أحد أن النصر سيكون للملك الناصر على البحرية، لكثرة عساكره، ولميل الكثير من عسكر مصر إليه^(١). وكان مع الناصر جمع كبير من مماليك أبيه العزيز عثمان، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لأنهم ترك مثلهم^(٢).

عندما نزل الناصر بمنزلة الكراع، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية، ونزل في مواجهته، فركب الملك الناصر في العساكر، ورتب ميمنة وميسرة وقلباً، وركب المعز ورتب أيضاً، وبدأ القتال وكانت الكرة أولاً على البحرية، ثم صارت على الأيوبيين، ذلك أن ميمنة هؤلاء حملت هي والميسرة على ما يازائها حملة شديدة، فانكسرت ميسرة البحرية، وولوا منهزمين، وزحف العسكر الأيوبي وراءهم، وما لهم علم بما جرى خلفهم، وانكسرت ميمنة الأيوبيين، وثبت كل من القلبين واقتتلوا^(٣).

ومرّ المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد، وعندما مروا على القاهرة، خطب بها للملك الناصر، وهو ليس عنده خير، إنما كان يقف في أرض المعركة مع أصحابه، وكانت ميمنة الأيوبيين قد انكسرت وقتل المماليك منها خلقاً كثيراً وأسروا أكثر مما قتلوا^(٤).

وتعيّن الظفر للملك الناصر وهو ثابت في القلب وفي مواجهته المعز أيبك في القلب أيضاً، وخاف أمراء الملك الناصر منه أن يفنيهم إذا تمّ له الظفر، فخامروا عليه وفروا بعساكرهم إلى المعز أيبك وهم، الأمير جمال الدين أيدغدي، والأمير جمال الدين أقوش الحامي، والأمير بدر الدين بكتوت

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٧

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٧

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٨

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٨

الظاهر، والأمير سليمان العيزي، وجماعة غيرهم^(١). فخارت قوى الناصر وولّى هارباً في شردمة قليلة إلى دمشق، واستولى البحرية على سناجقه ونهبوا أمواله وأسّر في هذه الواقعة، تورانشاه، وأخاه نصر الدين محمد، والملك عماد الدين إسماعيل بن العادل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر، والأمير شهاب الدين القيمري، والأمير حسام الدين طرنتاي، والأمير ضياء الدين القيمري، والأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة الحلبية، وخلقاً كثيراً، وقتل الأمير شمس الدين الحميدي، والأمير بدر الدين الزرزاري وجماعة غيرهم^(٢). وتمزق العسكر الأيوبي كل ممزق، ووصل الناصر إلى دمشق.

أما العسكر الأيوبي الذي كسر ميسرة البحرية فإنه وصل إلى العباسية ونزل بها، وضرب خيمة للملك الناصر هناك، وكان على رأسهم الأمير جمال الدين بن يغمور نائب الملك بدمشق وعدة من أمراء الناصروهم لا يشكون أن أمر البحرية بطل وزال وأن الملك الناصر قادم إليهم ليسيروا في خدمته إلى القاهرة، فبينما هم كذلك إذ وصل إليهم الخبر بهروب الملك الناصر، وقتل الأمراء وأسرا الملوك وغيرهم، فاتفقوا على الرجوع إلى دمشق^(٣).

وعاد المعز أيبك ظافراً ودخل القاهرة بالأسرى، وخيولهم وأموالهم بين يديه، إلى أن وصل إلى بين القصرين، فلعبت المماليك بالرماح وتطاردوا، والمعز في الموكب وقدامه الملك الصالح إسماعيل مخفوزاً، ثم ساروا إلى قلعة الجبل واعتقل الملك الصالح وبقية الملوك بها، وألقي الأسرى من العسكر الأيوبي في الجباب. وعندما دخل المعز إلى القلعة تلقاه الملك الأشرف موسى وهناك بالظفر. وكان هذا اليوم من أعظم أيام القاهرة^(٤).

وكانت كسرة الأيوبيين تلك بمثابة الكارثة عليهم لأنها عجّلت بزوال ملكهم في سوريا على يد المغول، إذ لو أنهم ربحوا تلك المعركة لكانوا استطاعوا أن يصمدوا أمام أولئك الغزاة القادمين من الشرق، لكن كان ذاك هو قدر الله النافذ بهم، فكما أنهم دمروا الخلافة الفاطمية واستباحوا مصر وتسببوا بكارثة للعرب فيها، فإنهم ذاقوا من نفس الكأس على يد من ربّوهم في بيوتهم.

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٨

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٩

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٦٩

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٧٠

٣ - ثورة العرب في مصر ضد المماليك

على الرغم من القمع الذي تعرض له العرب في مصر على يد الغزواتباعتهم طوال الحكم الأيوبي، لكنهم ظلوا يتطلعون للخلاص من حكم أولئك الغرباء الخارجين الذين استباحوا الحرمات وقتلوا الرجال واستحيوا النساء واستصفوا الأموال. وعندما زال حكم بني أيوب وتولى مماليكهم مقاليد مصر، ثار العرب في محاولة منهم لإعادة الدولة الفاطمية.

ويذكر المقرئ في أحداث سنة ٦٥١ فيقول: «وفيها ثار العربان ببلاد الصعيد وأرض بحري، وقطعوا الطريق براً وبحراً، فامتنع التجار وغيرهم عن السفر، وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن مجد الدين بن الأمير الكبير نجم الدين علي بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم الجمدي، وقال: (نحن أصحاب البلاد)، ومنع الأجناد من تناول الخراج، وصرح هو وأصحابه: (بأننا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد)، وأنفوا من خدمة الترك، وقالوا: (إنما هم عبيد للخوارج)، وكتبوا إلى الملك الناصر صاحب دمشق* يستحثونه على القدوم إلى مصر»^(١).

ويقول المقرئ: « واجتمع العرب، وهم يومئذ في وفرة من المال والخيال والرجال، حول الأمير حصن الدين ثعلب، وأتوه وهو في (دهروط صربان)* وأتوه من أقصى الصعيد وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم، وحلفوا له كلهم على النصر، وبلغ عدد الفرسان بينهم اثني عشر ألف فارس، وتجاوزت عدة الرجال الإحصاء لكثرة عدتهم»^(٢).

وجهز إليهم المعز أيبك جيشاً بقيادة زعيم البحرية فارس الدين أقطاي الجمدار، ومعه أقطاي المستعرب، في خمسة آلاف فارس، وسار هذا الجيش إلى ناحية «ذروة» في المنوفية، وبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب، فاقتتل الفريقان من الصباح إلى الظهر، فقدّر الله أن الأمير حصن الدين تقنطر عن فرسه، فأحاط به أصحابه ليرفعوه إلى ظهر الفرس، فجاء الترك إليه فقتل حوله من العرب أربعمئة رجل، حتى أركبوه فوجد العرب قد تفرقوا عنه ظناً منهم أنه استشهد، ولا سيما الذين كانوا بعيدين عن موقعه، فعند ذلك ولّى

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٧٩

* الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، (١٢٢٩ - ١٢٦٠)، هو آخر ملوك بني أيوب.

* دهروط، صربان، هي ديروط الحالية إحدى مراكز محافظة أسيوط، - مصر

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٠

منهزمًا، ولحق بهم التُّرك يقتلون ويأسرون، حتى خيَّم الليل، فعاد التُّرك إلى معسكر الأمير حصن الدين، فأخذوا ما وجدوه من مال ومتاع، وعادوا إلى المخيم ببلييس^(١). وتجمع عرب الغريبة والمنوفية من قبيلتي سنابس ولواتة، وقصدوا ناحية سخا، وسنهو، فقطع الجيش التركي النيل إليهم وقاتلوههم وهزموهم وسبوا حريمهم وقتلوا الرجال، وتبدَّد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذٍ^(٢).

وأدرك الأمير حصن الدين ثعلب أن طلب الصلح من عدوه هو خير له، فأرسل إلى المعز أيبك يطلب الأمان منه، فتظاهر أيبك بأنه سامحه، وأرسل له بالأمان وطلبه إليه ليعطيه إقطاعًا له ولأصحابه، وليكونوا من جملة العسكر وعونًا له على أعدائه^(٣)، وانخدع الأمير حصن الدين بتلك الوعود وظن أن أيبك يحتاج إليه في صراعه مع الناصر الأيوبي، فقدم هو وأصحابه إلى بلييس وهو مطمئن، فلما قرب دهليز أيبك، نزل عن فرسه ليحضر مجلسه، فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه، وكانت عدتهم نحو ألفي فارس وستمئة راجل، فأمر أيبك فنصبت الأخشاب من بلييس إلى القاهرة، وشنق الجميع، وبعث بالشریف حصن الدين إلى ثغر الإسكندرية فحبس بها وسلم لواليتها الأمير شمس الدين محمد بن باخل^(٤).

وأمر أيبك بزيادة القطعية* على العرب وبزيادة القُود* المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعنف والقهر، فذلُّوا وقلُّوا حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال في وقتنا^(٥).*

٤- الصراع بين المعز أيبك والبحرية

كانت شوكة البحرية قد قويت في مصر فتناولوا على الملك المعز وحاولوا

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٠

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٠

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٠

* القطعية، ما يفرض من المال على بلد أو إقليم للإتفاق على الاستعدادات الحربية كالغرامة الحربية، وقد تصير سنوية-

معجم الألفاظ في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ١٢٤

* القود، ما يبعث قبائل العرب إلى السلاطين من الهدايا من الخيل والإبل والحيوانات العذرة - معجم الألفاظ في

العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ١٢٦

(٤) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٠

* جزى الله المقرئ كل خير لأنه كشف عن حقيقة المحنة التي تعرض لها عرب مصر على يد الأيوبيين والترك على مدى قرون طويلة من القهر والتهميش والحرمان من قبل المعتدين الأعراب الذين ملكوا البلاد وأكلوا خيرها وتسببوا في تخلفها وانحطاطها.

(٥) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨١

قتله، فعزم على القضاء عليهم، وبدأ بزعيمهم فارس الدين أقطاي الجمدار الذي كان يعدّ نفسه ليلي أمر السلطنة، فأرسل إليه وقت الظهر ثالث شعبان سنة ٦٥٢، ليحضر إلى قلعة الجبل لأخذ رأيّه في أمر، فركب أقطاي على غير أهبة ولا اكتراث لما كان يرى في نفسه من القوة، ولما كان يرى في المعز من الضعف، فلما دخل من باب القلعة وصار إلى قاعة العواميد في داخلها، أغلق الباب ومنع مماليكه من الدخول، وخرج عليه جماعة كان أعدّهم المعز لقتله، وهم قطز وبهادر، وسنجر الغنمي، فضربوه بالسيوف حتى مات^(١). ووقع الصريخ بالقلعة والقاهرة بقتله، فركب في الحال من أصحابه نحو سبع مئة فارس، ووقفوا تحت القلعة، وفي ظنهم أنه لم يقتل، وكان على رأس هؤلاء بيبرس البندقداري، وقلادون الألفي، وسنقر، وبيسرى، وسكز، وبرامق. فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمى بها أيبك إليهم، فتفرقوا وخافوا على أنفسهم^(٢). وخرج البحرية في الليل من القاهرة نحو سوريا، فمنهم من ذهب إلى الملك المغيث الأيوبي في الشوبك، ومنهم من سار إلى الملك الأيوبي الناصر في دمشق، ومنهم من ذهب إلى عند سلاجقة الروم، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والقدس، يقطع الطريق ويأكل بسيفه^(٣). وخاف أيبك من غائلتهم فكتب إلى الملك الناصر في دمشق يخوفه منهم، فطلب منه الناصر البلاد التي كان قد أخذها الفارس أقطاي بالساحل ونابلس لأجل البحرية سنة ٦٤٩، وكانت هذه البلاد تابعة لمملكة دمشق الأيوبية، فأعادها المعز إليه، فأقر الناصر كل إقطاع بيد من كان له وكتب مناشيرها للبحرية^(٤).

وكتب المعز إلى ملك سلاجقة الروم كيخسرو بن كيقباز يقول له بأن «البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقضون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلقتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرز منهم على نفسك، فإنهم غدارون مكارون خوانون، ولا آمن أن يمكروا عليك»^(٥). فخاف كيخسرو منهم، وكان قد وصل إلى بلاده منهم مئة وثلاثون فارسًا، فاستدعاهم وقال: يا أمراء ما لكم ولأستاذكم؟ فتقدم الأمير علم الدين الباشقردي وقال: يا مولانا من هو أستاذنا؟ قال: الملك المعز صاحب مصر، فقال الباشقردي، يحفظ الله مولانا السلطان، إن كان الملك المعز قال في كتابه، إنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خوشداشنا

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٣

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٣

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٣

(٤) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٥

(٥) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٥

(صديقنا) ونحن وليّناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سنًا وقدرًا وأفرس وأحق بالملكة، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا، فهربنا منه وتشتتنا في البلاد، ونحن التجأنا إليك. فأعجب كيخسرو بهم واستخدمهم عنده^(١).

٥- الصراع بين المعز أيبك وشجر الدر

كانت شجر الدر تستحوذ على الملك من وراء الستار، وكان المعز أيبك منقادًا لها، وقد ألزمت بطلاق زوجته، أم ولده علي، بالثلاث، وإذا ما حاول أن يتعالى عليها كانت تقول له: «لولا أنا ما وصلت أنت إلى السلطنة»^(٢). فنفر منها، وأحست هي به، فأرسلت مملوكًا لها يدعى «نصر العزيزي» بهدية إلى الناصريوسف أنها قد عزمت على قتل المعز والتزوج به وتمليكه مصر، فخشي الناصريوسف أن يكون هذا خديعة، فلم يجيبها بشيء^(٣)، لكنه أسرّب ذلك إلى بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل الذي كان قد أرسل إليه المعز أيبك يخطب ابنته منه، فبعث إليه لؤلؤ يحذره من شجر الدر وأنها باطنت الملك الناصريوسف، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة، لكنه لم يقدر، لأنها عرفت كيف تستخدم الرجال في خدمتها، ولذلك قرر مغادرة القلعة وترك أمور الحكم لها. فأقام في منطقة تدعى «مناظر اللوق» أيامًا^(٤). فبعثت إليه أحد خدامها وحلف عليه ليعود إلى القلعة، فعاد وكانت قد دبرت مؤامرة لقتله، ورّبت لذلك خمسة من مملوكيها منهم محسن الجوجري، ونصر العزيزي، وسنجر، فلما دخل المعز أيبك إليها استقبلته وجامعها، فلما قام ليغتسل من الجماع وكان الوقت ليلاً، قامت معه، فلما دخلا الحمام، أغلق محسن الجوجري الباب، وهجم هذا مع رفاقه على أيبك، وكان عاريًا، فربطوا خصيتيه بوتر وشدّوه بقوة، كما أخذوا بعنقه، فاستغاث بشجر الدر، فرق قلبها عليه وقالت لهم أتركوه، فسبّها محسن الجوجري، وقال: «إذا تركناه فإنه لن يبقى علينا ولا عليك» ثم قتلوه^(٥). وذلك ليلة الأربعاء ٢٥ ربيع الأول سنة ٦٥٦..

فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين الناس، فجاء ولده علي والمماليك المعزية إلى القلعة، وتحققوا قتله، فشرعوا في تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلّوا عليه ودفنوه. ثم قبض علي على شجر الدر وسلمها إلى أمه، فأمرت جواريتها

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٨٥

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن أبياس الحنفي - ج ١ - ص ٢٩٣

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٩٣

(٤) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٩٣

(٥) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٤٩٣

بقتلها بالقباقيب والنعال، فضربنها حتى ماتت ^(١). فكانت قتلة بقتلة. وتولى السلطنة علي بن أيبك، ولقب الملك المنصور، وكان صبيًا عمره إحدى عشرة سنة، وكانت أمه تدير الملك بالتعاون مع سنجر الحلبي، وكان قطز أتابك العسكر، فطمع في الملك، وانتظر خروج الأمراء المعزية إلى الصيد، فلما خرجوا وكان بينهم سنجر الغنمي وبهادر، فقبض قطز على الملك المنصور علي وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل، فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام ٦٤٩ ^(٢).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن أياس الحنفي - ج - ص ٢٩٤

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ص ٥٠٧

الفصل الثاني

المَغول والمَشْرق العربي

١- اجتياح المَغول للمشرق العربي

في سنة ٦١٦ ابتداءً ظهور المغول، وهم شعب كانوا ولايزالون، يسكنون منغوليا في شمال الصين. وبرز فيهم القائد الكبير «جنكيز خان» الذي جمع شعبه حوله وانطلق بهم فأخضع الصين لحكمه، ومدّ بصره نحو الغرب فاستولى على بلاد الترك في وسط آسيا. وكانت الدولة الخوارزمية قد ورثت شقيقتها دولة السلاجقة في حكم بلاد فارس وما وراء النهر، فاصطدم المغول بهذه الدولة، وكان ملكها هو علاء الدين محمد خوارزمشاه، حيث هزموه في معركة وراء النهر سنة ٦١٧، وملكوا سمرقند وفرغانة والري وخوارزم ومرو ونيشابور وطوس وهراة وغزنة^(١). لكن جلال الدين محمد خوارزمشاه الذي ملك بعد أبيه، أعاد الكرة على المغول وقوي عليهم، واستولى على عراق العجم وشاقق خليفة بغداد الناصر لدين الله، وسار حتى وصل إلى بعقوبا وقرر الاستيلاء على بغداد وجعلها كرسي ملكه، فاستعد الخليفة للحصار، وفي نفس الوقت كاتب المغول بالعبور إليه ومساعدته في الحرب ضد خوارزمشاه^(٢). فعزموا على قصد العراق والسيطرة عليه، فتلاحقت ضرباتهم ضد الدولة الخوارزمية حتى قضوا عليها.

وفي سنة ٦٥٠ للهجرة أرسل خان المغول «مونكو قان» أخاه هولاكو خان لأخذ العراق، فسيطر على كامل بلاد فارس ووصلت غاراته حتى ديار بكر ورأس العين وسروج، وفي سنة ٦٥٦ سار إلى بغداد فملكها وقتل الخليفة المستعصم، وانقرضت بمهلكه دولة بني العباس.

وسار هولاكو خان نحو سوريا، وبلغ الملك الناصريوسف الأيوبي وهو بدمشق أن هولاكو خان متجه نحو حلب، فاشتد جزعه، ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها، ثم نزل على حلب، ففرّ أهل دمشق وغيرها وباعوا أملاكهم

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٣٢٣

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٣٤١

* يقول المقرئ عن الخليفة الناصر لدين الله: «وفي خلافته خرب التتار بلاد المشرق حتى وصلوا إلى همدان، وكان هو السبب في ذلك فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين خوارزم شاه لما هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السلجوقية». ولم يمضت الخليفة الناصر لدين الله حتى عى - راجع السلوك - ج ١

- ص ٣٤١

بأجنس ثمن، وكان الوقت شتاء، فهلك خلق كثير منهم^(١). وحاصر هولاكو حلب سنة ٦٥٨، وراسل أميرها تورانشاه ابن الملك الناصريوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه وأبى إلا محاربته، فحصرها التتار ستة أيام وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام^(٢)، وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكو حتى أخذها في عاشر صفر، وخربها، وخرّب جميع سور البلد ومساجدها وبساتينها حتى عادت موحشة^(٣). وخرج إليه الملك تورانشاه، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام^(٤).

ولما وصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب، اضطربت بأهلها، وكان الملك الناصر قد صادر الناس وجمع لقتال التتر، وكان قد اجتمع معه ما يناهز مئة ألف من عرب وعجم، فتمزق الناس حينئذ، ورحل الملك الناصر إلى برزة يريد غزة، وترك دمشق خالية^(٥). وكانت مدة تملكه بحلب ودمشق ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر، منها مدة تملكه لدمشق عشرين سنين تنقص خمسين يوماً^(٦).

وصار هولاكو إلى دمشق بعد أخذ حلب بستة عشر يوماً، فقام الأمير زين الدين الحافظي وأغلق أبواب المدينة، وجمع من بقي بها وقرر معهم تسليمها، فلما وصل الأمير كتبغا نوين إليها أرسل من قبله فخر الدين المرديائي وابن صاحب أرزن والشريف علي، وكان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى الملك الناصر وهو على برزة، فكتبوا إلى هولاكو بذلك، فبعث طائفة من التتر، وأوصاهم بأهل دمشق ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهماً فما فوقه^(٧).

ووصل رسل هولاكو صحبة القاضي بدر الدين بن الزكي، وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب، فخلع عليه وولاه قضاء الشام، وأرسل إلى دمشق معه الوالي كتبغا نوين، فسكن الناس وجمعوا من الغد بالجامع، فلبس ابن الزكي خلعة هولاكو وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو، وقرئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق فكثرت اضطراب الناس واشتد

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٠٩

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١١

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١١

(٤) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١١

(٥) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١١

(٦) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١١

(٧) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٢

خوفهم^(١).

وأغارت جمائع التتر على بلاد الشام حتى وصلت إلى أطراف بلاد غزة والخليل والصلت فقتلوا وسبوا وأسروا وعادوا إلى دمشق فباعوا بها المواشي وغيرها^(٢).

ووصل الملك الناصريوسف بمن كان معه من الجنود إلى قطيا*، فخافه قطز وبرز بالعسكر إلى الصالحية لقتاله، وعند ذلك ترك الناصر عدة من أمرائه ولحقوا بقطز وأقاموا ببلييس منهم، حسام الدين طرنطاي، وبدر الدين طيدمر الأخوت، وبدر الدين أيدمر الدوادر، وأيدغدي الحاجي، فعاد الناصر من قطيا وقد تمزق ملكه وتفرق الناس عنه فنزل البلقاء^(٣). وهناك قام شخص من غلمانه يدعى حسين الكردي الطبردار* فقبض عليه وعلى ولده الملك العزيز وعلى أخيه غازي وإسماعيل بن شادي ومن معه وبعث بهم إلى هولاءكو^(٤).

٢- السلطان قطز والمغول

توفي «مونكو قآن» فعاد هولاءكو إلى قراقورم ليحضر انتخاب الخان الجديد، وترك في سوريا جيشاً بقيادة «كتبغا نوين»، اختلف المؤرخون في تقدير عدده بين ١٠ آلاف وعشرين ألف مقاتل تحت قيادة كتبغا نوين^(٥). وكان كتبغا مسيحياً نسطورياً، وكان يريد إقامة تحالف مع الصليبيين، لكن وقعت أحداث منعت قيام مثل هذا التحالف، فقد اعتدى أمير صيدا الصليبي على المغول الذين تقدموا في إقطاعه، فقام المغول بنهب صيدا، مما دفع الصليبيين إلى كره المغول والعمل على الانتقام منهم، فالتمسوا المساعدة من قطز ويبرس لمواجهة كتبغا^(٦).

وإذ أمن قطز غائلة الصليبيين وأنهم لن يحالفوا المغول ولن يكونوا معهم عليه، فقد رحل بجيشه من القاهرة وجدّ في السير حتى وصل إلى عين جالوت من أرض كنعان، حيث كان قد اجتمع الجيش المغولي. وهناك دارت معركة، في ٢٥ رمضان

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٢

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٥١٢

* قطية أو قطيا، بلدة من بلاد العريش في سيناء، مصر.

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٣

(٤) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٣

* الطبردار، يتألف المصطلح من كلمتين: طبر، معناه الفأس، ودار، معناه ممسك، والمعنى ممسك الفأس - معجم

الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ١٠٦

(٥) المغول - السيد الباز العريبي - ص ٢٥٤

(٦) المغول - سيد الباز العريبي - ص ٢٥٥

٦٥٨، انتصر فيها عسكر مصر، وقُتِل القائد كتبغا نوين، وانهزم من بقي من المغول فتبعهم الأتابك بيبرس البندقداري إلى أقاميا وهناك اجتمعوا، فانهزموا أيضًا^(١). وسار قطز إلى دمشق فدخلها ونزل بالقلعة وأرسل بيبرس على رأس جماعة من العسكر إلى حمص لمطاردة المغول، فقتلوا وأسروا الكثير منهم، وعادوا إلى دمشق^(٢).

وراح قطز يعمل على استخلاص بلاد سوريا من أيدي أمراء بني أيوب، وكان غالبها في أيديهم، حتى استولى عليها كلها من الفرات إلى حد مصر، وأقطعها إلى أمراء المماليك، فاستناب الأمير سنجر الحلبي في دمشق، وأرسل علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ ملك سنجار إلى حلب نائباً بها، وأقر الملك المنصور على حماة وبعرين والمعرة، وأعطى سلمية إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، وجعل الأمير أقوش البرلي أميراً على الساحل وغزة.

وبعث له الأشرف موسى الأيوبي الذي كان ملك حمص ونائب هولاكو في سوريا يطلب الأمان فأمنه^(٣).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٦٥

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٧

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥١٨

الفصل الثالث

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري

أولاً: وصول الملك الظاهر إلى حكم السلطنة

بعد أن رتب السلطان قطز أحوال النواب والولاة والشادين في سوريا، كما يقول المقرئزي، خرج من دمشق في السادس عشر من شوال يريد مصر، وكان ركن الدين بيبرس قد حقد عليه لأنه طلب منه أن يوليّه نيابة حلب فلم يرصّ^(١). فتغيّر بيبرس عليه، وشعر السلطان بذلك وخاف منه، كما أن بيبرس خاف من السلطان، وحدث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل قطز، منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، والأمير بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتوت الجوكنار، والأمير بيدغان الركنى والأمير بلبان الهارونى، والأمير أنس الأصبهاني^(٢).

ويقول المقرئزي: «لم يزل السلطان سائراً إلى أن خرج من الغرابي وقارب الصالحية، وانحرف في مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء، فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطاني، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبي المغول، فأنعم بها عليه، فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبّلها، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء، فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف وضرب به عاتقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت خامس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨، ودفن بالقصير^(٣).

ويروي ابن عبد الظاهر رواية مختلفة فيقول: «لما توجه الملك المظفر والأمير بيبرس صحبته، صار يُظهر تكبراً، وتغيّرت نيته، وفهم الأمير بيبرس ذلك منه، ولما كان يوم السبت سابع عشر ذي القعدة، ساق الأمير بيبرس معه إلى الصيد، وهو قريب القصير، وقد واعد جماعة قليلة، وساق إلى جانبه، وتحدث معه، وقبض على يده، ثم تباعد عنه وضربه بالسيف، وفعل الأمير بيبرس ما فعله بنفسه، وبلغ غرضه بمفرده، وذلك بين العساكر العظيمة،

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئزي - ج ١ - ص ٥١٩

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئزي - ج ١ - ص ٥١٩

(٣) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئزي - ج ١ - ص ٥١٩

والاحترار الشديد، وما قدر أحد أن يتكلم ولا جسر أن يمدّ يده إليه^(١).

ويقول ابن عبد الظاهر أيضاً: إن الأمير بيبرس «أخذ بالثأر لأخيه الأمير فارس الدين أقطاي من الملك المظفر»^(٢). فلما مات الملك المظفر، ساق الأمير بيبرس في جماعة من أصحابه إلى القصير لابساً عدته، ثم أخبر الأمراء إنه هو الذي قتل الملك المظفر، فحلفوا له وجعلوه ملكاً^(٣).

وتبدو رواية المقرئ أقرب إلى الصحة، لأنه لا يعقل أن يتمكن بيبرس بمفرده من قتل السلطان، فلا شك أنه كان هناك من ساعده في هذا العمل، لكن ابن عبد الظاهر أراد أن ينسب هذا العمل الخطير إلى بيبرس فقط ليبين مدى قوته وشجاعته وأنه تحدى جيشاً بأكمله ولم يجرؤ أحد من الأمراء والعساكر أن يتكلم بكلمة.

وعلى كل حال، فإن المماليك كانوا يرون أنفسهم متشابهين، وعلى سوية واحدة، ولذلك مرقطل قطز مرور الكرام، لأنه في النهاية مملوك، فلم يسأل عنه أحد ولم يطالب بالثأر له أحد، على الرغم من أنه كان خارجاً من نصر على المغول، وكان هذا النصر كافياً لرفعه إلى مستوى النجوم. لكنه انتهى تلك النهاية المأساوية غير مأسوف عليه.

وأما بيبرس فقد توجّه المماليك سلطاناً عليهم وعلى بلاد مصر والشام ولقب «الملك الظاهر»*.

ثانياً: الملك الظاهر والملك المغيث الأيوبي

كان الملك المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، يمثل عقبة كبيرة أمام استقرار دولة المماليك، لأنه كان يسيطر على قلعة الكرك الشهيرة ذات القوة والحصانة، وفوق ذلك فقد شرع يكتتب هو لاكو ويعدّه بالمساعدة والنصرة ضد المماليك. وقد وصلت أخباره وما يقوم به إلى السلطان الظاهر بيبرس، فعزم على القضاء عليه، لكنه أدرك

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٦٨

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٧٩

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٦٩

* الملك الظاهر، كان قفجاقى «أو قوقازي» الأصل طويل القامة أسمر اللون، في عينيه زرقة، وباحدى عينيه نقطة صغيرة، صوته جهوري، وكان شجاعاً عسوقاً عجولاً، وكان قد حضر من بلاده مع تاجر «نخاس» إلى حماة ومعه مملوك آخر، فلما عُرضاً على الملك المنصور محمد صاحب حماة، لم يعجبه، وتمّ بيعه بثمانئة درهم، فردّه مشتره لبياض في إحدى عينيه، فاشتره الأمير علاء الدين أيديكين البندقداري مملوك الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وهو بحماة معتقل بها، وأقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح، فترقى في الخلع، وتنقلت به الأحوال إلى ملك مصر والشام - السلوك إلى معرفة دول الملوكة - ج ٢ - ص ٩٨،

أنه لن يفلح في ذلك إن قرر مهاجمة الكرك، بسبب مناعتها، ولأن هولاكو كان سوف ينهض لمساعدته، ولهذا سعى إلى استدراجه ثم الفتك به.

وفي ربيع الآخر سنة ٦٦١ سار السلطان نحو سوريا، ووصل إلى غزة ونزل بها، وعرف الملك المغيث أنه هو المقصود، فأرسل والدته مع جماعة في وفد إلى السلطان، فلما وفدت عليه أكرمها وأنعم عليها وأعطى سائر من كان معها، وتحديث معه في أمر ولدها، وأظهر لها أنه عاتب عليه لأنه لم يفد إليه رغم الرسائل التي بعثها له، كما أنه وعدها بحسن المعاملة له^(١). وعادت أم المغيث إلى الكرك وأخبرت ولدها بحسن الحفاوة التي تلقتها من السلطان، ورغم ذلك ظل الملك المغيث يماطل في الحضور، وظل السلطان يبعث له الرسائل للحضور إليه.

وسار السلطان من غزة، ونزل الطور في ثاني عشر جمادى الأولى، وهناك قدم إليه الأشرف موسى ملك حمص الأيوبي بإذن منه فتلقاه السلطان وأكرمه، وسمع الملك المغيث بذلك فتشجع وذهب إلى لقاء السلطان، ولما عرف أظهر من الاحتفال بقدومه، شيئاً كثيراً. وخدعه أعظم خديعة، ولم يُطلع أحداً على دخيلة نفسه تجاهه. فلما وصل المغيث إلى بيسان ركب السلطان إلى لقائه في سادس عشر جمادى الأولى، ووافاه في أحسن زي وفي أحسن استقبال، وسار الملك المغيث إلى جانب السلطان، وهو خليّ البال ولا يعلم أن السلطان يخفي له مكيدة، وعندما وصلا إلى الدهليز السلطاني، أعطى السلطان إشارة إلى بعض العسكر، فقبضوا على المغيث، ومن ثم أحضر السلطان الأمراء، وقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان، وكان قد استدعاه من دمشق، كما أحضر الشهود والأجناد ورُسُل المغول. وأخرج إليهم كتب الملك المغيث إلى المغول وكتب هؤلاء إليه، وأخرج أيضاً فتاوى الفقهاء بقتاله، وأحضر القضاة الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو خان، ثم قال الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب لمن حضر: «السلطان الملك الظاهر يسلم عليكم ويقول ما أخذت الملك المغيث إلا بهذا السبب»، وقرئت الكتب المذكورة عليهم، فتم كتابة ضبط وأثبت القضاة خطوطهم فيه، وانفضّ الجمع.

وكتب السلطان إلى من في الكرك يخبرهم بما جرى للملك المغيث ويعددهم ويحذرهم، وأرسل الأمير بدر الدين بيسرى والأمير عز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال إلى سكان الكرك، وأرسل الملك المغيث إلى مصر مع الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني السلاح دار، فسار به إلى قلعة الجبل

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٠

وسجنه بها، وأطلق السلطان حواشيه وبعث بحريمه إلى مصر، وأجرى لهم الرواتب^(١).

وهكذا تخلص السلطان الظاهر من عدو خطير كان يشكل عبئاً ثقيلاً عليه، وكانت نهاية المغيث خاتمة العهد الأيوبي في سوريا.

ثالثاً: المَلِكُ الظاهر والصلبييون

رأينا كيف أن السلطان صلاح الدين الأيوبي، هادن الصليبيين بعد أن خسر معركته معهم إثر وصول المدد إليهم من غرب أوروبا، وقد سار خلفاؤه الأيوبيون على سياسة المهادنة معهم، ولم يجرؤوا على قتالهم إلا فيما ندر، وعندما تولى السلطان الظاهر عرش السلطنة في مصر وسوريا، كانت الظروف الدولية قد تبدلت، إذ كان المغول يمثلون، آنذاك، خطراً داهماً على أوروبا الغربية معقل الصليبيين الرئيسي، فقد حطّم باطو بن جوجي بن جنكيزخان مملكة البلغار التركية سنة ١٢٣٦ للميلاد، واندفع نحو الغرب فقتل على مملكة بولندا سنة ١٢٤١، وسيطر على بلاد واسعة، ووصل إلى المجر حيث جرت معركة كبرى أمام العاصمة «بست» في أبريل سنة ١٢٤١ للميلاد التي حشد فيها ملك المجر بيلا الرابع جيشه، وكان النصر فيها للمغول، وسقطت «بست» بأيديهم فأحرقوها، ودان للمغول كل البلاد حتى نهر الدانوب، ولم يعد ثمة حدود للمنطقة التي انتشر فيها المغول، ولم تتوفر الطمأنينة لمدينة من المدن، إذ ركعت أوروبا للمغول، ولم ينقذها إلا ما حدث من وفاة الخان الكبير «أوكتاي»، ما استوجب عودة باطو إلى قراقورم للاشتراك في انتخاب الخان الكبير، ونجا بذلك الشطر الغربي من أوروبا من خطر المغول^(٢).

١- انطلاق القتال

رغم توقف الهجمات المغولية إلا أن ملوك أوروبا لزموا بلادهم وتوقفوا عن إرسال الحملات الجديدة إلى الشرق، فخلا بذلك الجو للسلطان الظاهر، وقرر أن يغتنم الفرصة وأن ينزل عقابه الصارم بالصلبيين. وكان هؤلاء قد حاولوا مسالمته والتقرب منه، فلما توجه إلى سوريا سنة ٦٥٩، ونزل في «العوجا» من أعمال فلسطين، أرسل إليه سرجوان ديلين أمير يافا، يبذل الطاعة وحمل الإقامات وسأل الأمان بالحضور بين يدي السلطان، فأرسل

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥١

(٢) المغول - سيد الباز العريني - ص ١٨٣

الأتابك إليه وأخذه وحضر به، فأكرمه السلطان وكتب له منشورًا ببلاده، وردّه سالمًا إلى مدينته^(١).

ولما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من جهة عكا يسأله أمانًا للرسل المتوجهين من البيوت* كلها، فكتب السلطان إلى والي بانياس بتمكينهم، فحضر أكابر الصليبيين، والتمسوا الصلح، فتوقف السلطان عليهم، وطلب منهم أمورًا كثيرة، فلما امتنعوا زجرهم وأهانهم^(٢).

وكان العسكر قد توجه للغارة على بلادهم من جهة بعلبك، فسألوا السلطان أن يطلب من ذلك العسكر الرجوع. وكانت الأسعار مرتفعة في سوريا، وكان معظم الغلال والبضائع يأتي من بلاد الصليبيين^(٣)*. فوافق السلطان على مصالحتهم على أن يكون الصلح على ما كان الأمر عليه آخر أيام صلاح الدين الأيوبي، وأن يطلق الأسرى من حين انتهاء تلك الأيام إلى وقت الهدنة^(٤). ووجه الرسل معهم لأخذ العهود عليهم. وكذلك قرر الهدنة لصاحب يافا، ولتملك بيروت مثال الهدنة أيام صلاح الدين، وأمنت السبل وكثر ورود البضائع من جهة الصليبيين^(٥).

وشرع السلطان في جمع الأسرى وسيّرهم، حفظًا للعهد، إلى مدينة نابلس. أما الصليبيون فإنهم تلكأوا في موضوع الأسرى لديهم وراحوا يماطلون من يوم إلى آخر. ولما طال ذلك أمر السلطان بنقل الأسرى إلى دمشق، واستعمالهم في البناء، وقال الصليبيون: إنهم لن يطلقوا الأسرى ما لم يوافق السلطان على إعطائهم زرعين، فأجابهم السلطان بما يلي: «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية، من مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين بمواضع، والمقايضة في أيديكم، فكيف تطلبون العوض مرتين، فإن كنتم باقين على العهد، وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد»^(٦). وعندما سمع الصليبيون

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ١١٧
* البيوت، المقصود بالبيوت هنا، الجماعات التي كان يتألف منها الصليبيون، فكان هناك صليبيون من دول أوروبية عديدة وكان يوجد فرسان داوية وفرسان اسبتاروفرسان تيوتون.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ١١٨

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ١١٨
* يدل هذا الكلام من ابن عبد الظاهر أنه كان يوجد مبادلات اقتصادية بين الصليبيين وبين جيرانهم الترك، وأن الصليبيين كانوا يمسون باقتصاد سوريا، في ذلك الوقت، وأن معظم المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية كانت تأتي من بلادهم.

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص

(٥) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ١١٨

(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ١١٩

هذا الكلام، أرسلوا له كتبًا يقولون فيها، إنهم باقون على الصلح^(١). رغم أنهم لم يطلقوا سراح ما لديهم من أسرى. ولم يكن السلطان آنذاك بوارد قتالهم، بسبب انشغاله بأمر الملك المغيث الأيوبي، ولذلك عاد إلى مصر.

في أثناء ذلك هاجم الصليبيون زرعين بقصد السيطرة عليها، ووردت كتب نائب دمشق إلى السلطان تتضمن الشكوى منهم وأنهم اعتمدوا أمورًا تفسخ الهدنة^(٢). فسار السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها حتى تمكن من القضاء على خصمه الملك المغيث، وعند ذلك شمر عن ساعد الجد، وقاد عساكره ونزل بها عند جبل الطور، فلما عرف الصليبيون بمجيئه، خافوا وعلموا أنه جاء لقتالهم، فأرسلوا رسلاً لتهنئته بالسلامة وقالوا له: « ما عرفنا بوصول السلطان »^(٣). فردّ عليهم السلطان بالقول: « إن من يريد أن يتولى أمرًا ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة والحيثان في الماء من كثرة هذه العساكر التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس عنه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر، وإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون، فأى شيء تعلمون »^(٤).

ومن ثم طلب من الرسل أن يبلغوا الأمراء الصليبيين بضرورة الحضور إلى عند السلطان، فلما حضروا قال لهم: « ما تقولون؟ قالوا: تتمسك بالهدنة التي بيننا، فقال السلطان، لِمَ لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحارًا، ونحن لما حضرنا إلى هاهنا ما أذينا لكم زرعًا ولا غيره، ولا نهب لكم مال ولا ماشية، ولا أسركم أسير، وأنتم منعتم الميرة عن العسكر، وحرمتهم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه، وسيّرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيّرنا نسخة يمين من عندنا لم تحلفوا عليها، وسيّرنا الأسارى إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سيّرتم أنتم أحد، وما سيّرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد وإقامة الحجة عليكم، وسيّرنا كمال الدين بن شيث رسولاً يعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحدًا، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم، كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم. وأموال التجار شرطتم القيام بما أخذتموه منها، ثم قلتم ما أخذت من بلادنا وإنما أخذت من انطرطوس، فإن كانت انطرطوس ما هي لكم

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ١١٩

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ١٥٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ١٥٢

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - نجي الدين بن عبد الظاهر - ص ١٥٢

فالله يحقق ذلك. ثم أنا سیرنا رسلاً إلى جهة الروم، وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر، فأشركتم عليهم بالسفر إلى قبرص فساروا بكتابكم وأمانكم، فأخذوا وقيدوا وضيق عليهم، وأتلف أحدهم، هذا مع إحساننا إلى رسلكم وتجاركم، والوفاء أحد أركان الملك، وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردد، وإن كان هذا بغير رضاكم فهذا نقص في حرمتكم، وإذا كان صاحب جزيرة يخرق حرمتكم ولا يفي بعهدكم، ولا يقبل شفاعتكم، فأى حرمة تبقى لكم، وصاحب قبرص أكثر تعلقاته في عكا والساحل، وله عندكم المراكب والتجار، وما هو منفرد بنفسه، عنده الداوية وجميع البيوت، والنواب مقيمون عنده، وعنده كند يافا، فلو كنتم لا تؤثرون ذلك، كنتم قمتم جميعكم عليه، واحتطم من كل ما يتعلق به، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية وإلى الباب «البابا» بما فعله^(١). وإذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ولا يعطيكم فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرص وهو من أهل ملتكم، فمن يسمع منكم؟ وأنتم تقولون إن أموركم دينية، ومن ردها عصى المعبود، ويغضب عليه المسيح، فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح ملك قبرص الذي رد أمركم وأغرى بكم وقبح قولكم؟ وكنا لو اشتهدنا أخذنا حقنا منه، وإنما الحق عندكم نحن نطلبه منكم، وأنتم تطلبونه منه، وأنتم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف، على أنكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخرجتم جميعكم في خدمته ونجدته، وجرى ما جرى من خذلانه، وقتلكم وقتل ملوكم وأسروا مقدميكم وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال، وقد انتقضت تلك الدولة، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عن فتوحه البلاد، وأحسن إليكم فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الريدافرانس «لويس التاسع ملك فرنسا» وساعدتموه وأتيتم صحبتته إلى مصر، حتى جرى ما جرى من القتل والأسر، فأى مرة وفيتم فيها لمملكة مصر، أم أي حركة أفلحتم فيها؟ وبالجملمة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح إسماعيل لإعانتته، ونصرتته والخروج في خدمته، وقد صارت مملكة دمشق وغيرها، بحمد الله، لي، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى خدمتكم، ولم يبق لي عدو أخافه، فردوا ما أخذتم من البلاد، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم، فإني لا أقبل غير ذلك»^(٢).

وكما نرى فإن السلطان ذكر الأمراء الصليبيين بكل ما فعلوه، وطلب منهم في النهاية أمرين هما: إطلاق سراح الأسرى، وإعادة صفد والشقيف إليه.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ١٥٥

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ ج ١ ص ٥٥٣

وقد فوجئ الأمراء الحاضرون بهذا الكلام، وقالوا: «نحن لا ننقض الهدنة، ونطلب مراحم السلطان في استدامتها ونحن نزيل شكوى نواب السلطان في دمشق، ونفك الأسرى، ونستأنف الخدمة»^(١). لكنه لم يقبل منهم ذلك وقال لهم: «كان يجب أن تقولوا ذلك قبل خروجي من مصر في هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر إلى هنا»^(٢).

وأمر السلطان بإخراجهم من مجلسه، ومنع مبيتهم عنده، ووجه الأمير علاء الدين طبرس إلى كنيسة الناصرة، وكانت، كما يقول المقرئ، أجلّ مواطن عبادتهم ويزعمون أن دين النصرانية ظهر منها، فسار إليها وهدمها ولم يجسر أحد من الصليبيين أن يتحرك*^(٣).

ثم وجه السلطان الأمير بدر الدين الأيدمر في عسكر إلى عكا، فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا، ثم ساروا ثانيًا وأغاروا على مواشي الصليبيين، وأحضروا منها شيئًا كثيرًا إلى المخيم^(٤).

ثم ركب السلطان بنفسه إلى عكا وطاف من جهة البر، بهدف كشفها، لأن الصليبيين كانوا يزعمون أن أحدًا لا يجسر أن يقرب منها، فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة، ومع غيب الشمس عاد السلطان إلى معسكره في الطور.

ولما أصبح ركب وأركب معه الناس وعاد إلى عكا، فإذا الصليبيون قد حفروا خندقًا حول تل الفضول وجعلوا معاصر في الطريق، ووقفوا صفوفًا على التل، فلما أشرف السلطان عليهم رتب عسكره، ولوقت ردمت الخنادق، وهجموا فصعدوا فوق تل الفضول وتراجع الصليبيون إلى المدينة، وهدمت الأبراج حول عكا، وحرقت الأشجار، وسار العسكر إلى أبواب المدينة، وقتلوا وأسروا عدة من الصليبيين، والسلطان قائم على رأس التل، والأمراء تهجم على الأبواب واحدًا بعد واحد، ثم هجموا هجمة واحدة ألقوا فيها الصليبيين في

(١) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٣

(٢) السلوك إلى دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٣

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٣

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ١٥٧

* لقد فعل السلطان الظاهر ما فعله السلطان صلاح الدين من قبل عندما هدم كنيسة طرطوس، حيث عمد إلى تهديم كنيسة المهد في الناصرة، وما يدعو إلى الأسف هو أن الفقهاء الذين كانوا يرشقون السلطان الظاهر ومن قبله السلطان صلاح الدين، قد جؤزوا لهما هدم الكنائس، وهي بيوت عبادة لا يجوز هدمها، لأن الإسلام يعترف باليهودية والنصرانية على أنهما ديانتان سماويتان، وبالتالي فهذه الكنائس لها حرمة كحرمة المساجد عند المسلمين ولا يجوز هدمها إلا إذا سقطت من تلقاء نفسها لتقدمها أو لحدوث زلزال أو ما يتسبب في هدمها من غير فاعل. وهكذا نرى حجم الضرر الذي لحق بالامة من فقهاء السوء الذين ظهروا في تلك المرحلة من التاريخ.

الخنادق وهلك منهم جماعة على الأبواب^(١).

وبات السلطان وهو على حرب عكا، وفي الصباح سارعها وكشف كل بلاد الصليبيين وعبر على الناصرة وشاهد الكنيسة وهي مهدمة، فعاد إلى معسكره في الطور، ومن ثم رحل من هناك في ١٣ جمادى الآخرة*، وسار نحو القدس وكشف أحوالها وكتب بحمايتها وأمر ببناء خان كبير خارجها، ونقل إليه من القاهرة «باب العيد» وهو أحد أبواب القصر الكبير الفاطمي^(٢).

ثم سار إلى الكرك وكان قد ملكها العزيز عثمان بن الملك المغيث، وقرر المقاومة، فأحضر السلطان السلالمة الخشب من الصلث وغيره، والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق، وكتب إلى من في الكرك فخافوا، وترددت الرسل بينه وبين العزيز عثمان، حتى استقر الحال على أن يُعطى العزيز إمرة مئة فارس، فأُنعِمَ عليه بذلك، ونزل العزيز وباقي إخوته وأهله وقاضي المدينة وخطيبها وعدة من أهلها ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة، فحلف لهم السلطان وأرضاهم، وأرسل الأمير بدر الدين أيدمر الاستادار والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا، فتسلما القلعة، وطلع السلطان إلى القلعة، ورتب أمر جيش الكرك، وكتب بالبشارة إلى مصر وسوريا بأخذ الكرك، ورتب الإقطاعات للعربان والأجناد، فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمئة منشور سلمت لأربابها بعدما حلفوا بين يديه^(٣). وجعل في الكرك حامية من البحرية والظاهرية، وشحن الحصن بالأسلحة والغلال وآلات الحرب واستناب بالكرك الأمير عز الدين أيدمر وهو من مماليكه، وأضاف إليه الشوبك. ومن ثم رحل السلطان إلى مصر ومعه أولاد المغيث وحريمهم، فدخل القاهرة في ١٧ رجب سنة ٦٦١^(٤).

٢- العودة إلى قتال الصليبيين

مكث السلطان في القاهرة إلى مستهل سنة ٦٦٣، حيث جاءت أخبار بوصول المغول بجيش إلى البيرة، فنهض بعساكره لقتالهم، ولما وصل إلى غزة جاءته

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٥

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٦

* على ما يبدو أن السلطان الظاهر وجد أن عكا قوية ولن تسقط بسهولة، ولذلك أثار أن يتركها وأن ينتقل إلى غيرها، ولذلك قاتلها قليلاً ومن ثم انسحب واتجه نحو الكرك فأخضعها بشكل نهائي.

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٦

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ١ - ص ٥٥٧

الأخبار بأن الجيش المغولي صغير، ولذلك صرف همّه عن قتالهم، وكتب إلى أمير دمشق جمال الدين النجيبى ليسير بالعساكر نحوهم، فلما سار وقاربهم خافوا وتراجعوا إلى العراق، وجاءت الأخبار بما جرى إلى السلطان، فثنى عزمه على قصد الصليبيين ليدينهم كما دانوا وليكون لهم كما كانوا^(١). فجمع أمراء جيشه وقال لهم، إنه يريد الذهاب للتصيّد في غابة أرسوف، ومن يريد الصيد فليحضر فإن الغابة كثيرة السباع^(٢). وانطلق إلى أرسوف وقيسارية، فشاهد هما، ثم أمر بعمل المجانيق من خشب كان قد تمّ إحضاره، وكتب إلى القلاع يطلب المجانيق والصناع والحجارين، وأمر العسكر بعمل سلالم.

وعندما اكتملت لديه العدد سار إلى قيسارية فوافها بكرة يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ٦٦٣ على حين غفلة من أهلها، وضرب الحصار عليها بعساكره، ونصبت المجانيق وبدأ الرمي بها، فاحتقرت أبواب المدينة واقتحمها العسكر، ففر أهلها إلى قلعتها^(٣). ونُصبت المنجنيقات على القلعة، وكانت تدعى «الخضراء»، وكانت على شاطئ البحر، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها، وكان «الريدافرانس» حمل إليها العمّد الصوان وأتقنها، وما رؤي في الساحل، كما يقول ابن عبد الظاهر، أتقن منها عمارة ولا أمنع لأن البحر حافّ بها، والنقوب لا تعمل فيها بسبب العمّد الصوان المصلّبة في بنائها.

ورغم قوة ومناعة هذه القلعة، لكن الصليبيين أدركوا عدم جدوى المقاومة بسبب عدم وصول النجندات إليهم، فهربوا وتركوا القلعة بما فيها، فتسلق إليها العسكر، وحرقوا الأبواب ودخلوها، وطلع السلطان أيضًا إليها، ومن ثم قسّم المدينة بين الأمراء والخواص المماليك وأمرهم بهدم كل شيء فيها، حتى لم يدع لها أثرًا^(٤). وبذلك كانت قيسارية أول مدينة يخسرها الصليبيون بشكل نهائي.

ومن ثم أرسل بعض الأمراء بقسم من الجيش إلى حيفا، أما هو فانطلق إلى عتيليت، فلما وصلوا إلى حيفا، وعرف بهم الصليبيون تركوا قلعتها، وهرب من استطاع منهم إلى المراكب في البحر، فدخل الأمراء إلى حيفا وقتلوا من وجدوه من الصليبيين، كما أسروا الكثير، وخربوا المدينة والقلعة وأحرقوا

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٢٩

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٢٩

(٣) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٩

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٠

أبوابها في يوم واحد، وعادوا بالأسرى والرؤوس والغنائم سالمين^(١). وكان ذلك جزاءً وفاقاً لما فعله الصليبيون عندما احتلوا هذه المدينة وغيرها من مدن الساحل.

ووصل السلطان إلى عتليت وأمر بقطع أشجارها وتخریب مزروعاتها، لكنه لم يأخذها، بل ترك أهلها، كما يقول ابن عبد الظاهر، في حبس منها، وقطع قلوبهم قبل قطع الميرة عنهم، وعاد إلى دهليزه* بقيسارية وكمّل هدمها^(٢). وتوجه السلطان في ٢٩ جمادى الأولى نحو أرسوف من غير أن يعلم أحد مقصده، وكان الصليبيون قد أخذوا احتياطاتهم وقرروا المقاومة، فبنوا المتاريس وحفروا الخنادق حول المدينة، وعندما وصل السلطان إليها في مستهل جمادى الآخرة. وشاهد التحصينات، أمر بجمع الحطب، حتى صار حولها كالجبال الشاهقة، فعملت منه المسائر، وأمر بحفر نفقين من خندق المدينة إلى خندق القلعة، وسُقفا بالأخشاب، ولما تمّ الفراغ منهما، سلّم أحدهما للأمير شمس الدين سنقر الرومي، والأمير بدر الدين بيسرى، والأمير بدر الدين الخزندار الظاهري، والأمير شمس الدين الكز الكركي، وسلّم السرب الآخر للأمير سيف الدين قلاوون الألفي، والأمير علم الدين الحلبي الكبير، والأمير سيف الدين كرمون، وغيرهم^(٣). وعمل طريقاً من الخنادق إلى القلعة، فخرج الصليبيون لإحراق الحطب المجموع ليوضع في الخندق الموجود حول المدينة لكي يعبر عليه جيش السلطان، فحرقوا بعضه، لكن الأمير قلاوون تمكن من دحرهم وأطفأ النار، لكن الصليبيين حضروا نفقاً من داخل القلعة ووصلوا إلى تحت الخندق، فحرقوا الأرض إلى أن وصلوا إلى الحطب، فأشعلوا فيه النار، ولم يتمكن عسكر السلطان من إطفائها حتى أتت على كامل الحطب المجموع، وعند ذلك أمر السلطان بحفر نفق إلى البحر، وبشكل أحاط بالمدينة من الجهتين، وراحت المنجنيقات ترمي أسوار المدينة إلى أن أثرت فيها وانهدم بعضها وكان قد تمّ الفراغ من حفر النفق المجاور للخندق المحيط بالمدينة، وعند ذلك أمر السلطان العساكر بالزحف، ففتحت أبواب من النفق إلى الخندق، فلما تهيأ ذلك بدأ الزحف على أرسوف يوم الخميس ٨ رجب، فانهدمت الباشورة، ولم يشعر الصليبيون إلا بعسكر السلطان قد تسلقوا وطلعوا إلى القلعة، وظل الصليبيون يقاتلون،

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٠

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٣٥
* الدهليز، خيمة السلطان التي كان يقيم فيها وقت السفر والمعارك..

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٣٦
* السنجق، هو العلم أو الراية،

فأعطى السلطان سنجقه* للأمير سنقر الرومي، وأمره أن يؤمن الصليبيين من القتل، فلما رأوه تركوا القتال، وسلم السنجق للأمير علم الدين سنجر المعروف بالخياط الحاجب، ودليت له الحبال من القلعة فربطها في وسطه والسنجق معه، ورفع إليها فدخلها وأخذ جميع سيوف الصليبيين وربطهم بالحبال وساقهم إلى السلطان والأمراء صفوف والأسارى يؤتى بهم ألوف^(١).

ويذكر ابن عبد الظاهر أن السلطان زار ضريح الشيخ علي بن عليم المدفون إلى جانب أرسوف، وهذا الشيخ علي بن عليم من الصالحين المشهورين بالبركات والكرامات، من جملة كراماته أنه مدفون على باب أرسوف، ولا يدخل إلى تربته خنزير، ويساق فيرجع من الباب، وقد عاند ابن باليان أمير أرسوف الصليبي، وشرب الخمر عند تربته، فبيست يده، وأقام ثلاثة أيام ومات، فعظمه الصليبيون من ذلك الوقت^(٢).*

وشرع السلطان في تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء وجعل هدمها دستورهم، ورسم بإحضار الأسارى لإخربائها^(٣). فلما تكامل الهدم في ١٣ رجب، رحل عنها إلى غزة ومنها إلى مصر^(٤).

٣ - اشتداد القتال

خرج السلطان من مصر قاصداً بلاد الصليبيين لاستكمال التحرير، في غزة شعبان سنة ٦٦٤، وسار حتى نزل في غزة، وكان قد أعلن التعبئة في جميع ولايات البلاد، فحضرت الأجناد إليه، فأمرهم بالمسير إلى حمص، وما إن وصلت العساكر المحشودة إلى هناك ورد كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس لمشاغلتها ومنع الصليبيين فيها من مساندة إخوانهم في فلسطين، فسار العسكر، بقيادة سيف الدين قلاوون الألفي، نحو هذه المدينة، وهاجموا حصناً يدعى «ست» كان تابعاً لحصن الأكراد، ففتحوه، وأخذوا قلعة «حلبا»* بعد هرب الصليبيين منها وهدموها، ولما شاهد الصليبيون في «عرقا» ما جرى، هربوا منها، فجاء العسكر إلى عرقا وهدموها أيضاً.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٤٢

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٣٩

* لا يذكر ابن عبد الظاهر شيئاً عن حياة هذا المؤمن العظيم، لكنه، على الأغلب، يعود إلى الفترة الفاطمية، ولا نعلم ماذا حل بهذا المقام في العهد الصليبي الحالي.

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٤٣

(٤) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٢٤

* حلبا، بلدة في عكار شمال لبنان.

* القليعات، هي قرية لبنانية من قرى عكار في شمال لبنان.

وهاجم العسكر حصن «القليعات» وكان حصناً عظيماً، فطلب الصليبيون فيه الأمان، فتسلم العسكر هذا الحصن منهم ومن ثم هدموه^(١). وأرسلوا إلى السلطان بالفتح، فلما وصله الخبر، أرسل الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين أوغان في عدة من العسكر إلى صور فأغاروا عليها وغنموا وأسروا من الصليبيين.

وتوجه الأمير إيتامش إلى صيداء، وبعث الأمير بدر الدين الأيدمري والأمير بدر الدين بيسرى إلى جهة طبريا، وأرسل الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عامل، فأغارت العساكر على الصليبيين من كل جهة، وكثرت المغنم في أيديهم، وصارت الغارات من بلاد طرابلس إلى أرسوف^(٢).

وكان السلطان قد عقد عزمه على تحرير صفد التي كانت من أهم قلاع الصليبيين، وكان فيها من فرسان الداوية والاستبارية. ولكي لا يعلم بوجهته أحد، خوفاً من عيون الصليبيين في جيشه، سار إلى عكا موحياً أنه يريد قتالها، فاجتمع الصليبيون إلى هناك لدفعه، فأقام على هذه المدينة حتى اجتمعت إليه العساكر، والصليبيون يقيمون المتاريس ويضاعفون من التحصينات، وعند ذلك سار إلى صفد في شهر رجب سنة ٦٦٤، وفرض الحصار عليها، ونصبت المجانيق ترميها بالحجارة الضخمة، وبدأ النقباقون في نقب الأسوار، وأدرك من فيها صعوبة الموقف، فأرسلوا رسالهم إلى السلطان في طلب الأمان، فاشتراط عليهم أن لا يصطحبوا سلاحاً ولا شيئاً من الضيافات ولا يؤذوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم^(٣).

ولم تزل الرسل تتردد إلى يوم الجمعة ١٨ رمضان، ثم طلعت سناجق السلطان إلى القلعة، وكان لطلوعها ساعة مشهودة، هذا والسلطان راكب على باب صفد، حتى نزل الصليبيون كلهم ووقفوا بين يديه، فأمر بتفتيشهم، فوجد معهم ما يناقض الأمان من الأسلحة والفضيات ووجد معهم عدة من الأسرى أخرجوهم على أنهم نصارى، فأخذ ما وجد معهم، وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا في خيمة ومعهم من يحفظهم، وتسلم السلطان صفد. وولى قلعتها الأمير مجد الدين الطوري، وجعل الأمير عز الدين العلائي نائب صفد.

وفي اليوم الثاني، جلس السلطان وحضر الأمراء بين يديه، وذكر أسرى صفد وخروجهم بغير أمان، وما كان استقر من خروجهم بغير عدة، ونقضهم لذلك.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٥٢

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٣٣

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٦٠

فأمرهم بضرب رقابهم، فركبوا، وأحضرت خيالة الداوية والاستبارية، وجميع من أخرج من الصليبيين من صفد، فضربت رقابهم على تل قريب منها، إلا نفرين: أحدهما الذي كان يعمل رسولاً بين الصليبيين والسلطان خلال حصار صفد، والثاني تركه السلطان ليخبر الصليبيين بما جرى^(١).

وصعد السلطان إلى قلعة صفد، وفرق على الأمراء العدد الصليبية والجواري والمماليك، ونقل إليها السلاح، واستدعى الرجال من دمشق للإقامة في صفد، ووزع المتقدمين على جميع أعمال صفد، وعمل بها جامعاً في القلعة وجامعاً في المدينة^(٢).

٤- غزو بلاد الأرمن

رحل السلطان عن صفد في ٢٧ شوال سنة ٦٦٤ قاصداً دمشق، ونزل على مقربة منها في منطقة تدعى «الجسورة»، وأمر أن لا تدخل العساكر إلى دمشق، بل تبقى على حالها، لتتوجه إلى سيس^(٣).

وكان الأرمن في قليقية يشكلون ظهيراً قوياً للصليبيين، ويعملون على إفساد خطط السلطان في القضاء على هؤلاء. فكتب إلى الملك المنصور الأيوبي صاحب حماة، وأمره بالمسير بجيشه إلى مملكة الأرمن، وأرسل معه عسكرياً من المماليك بقيادة الأميرين عز الدين أوغان وسيف الدين قلاوون، وأمرهما بإطاعة الملك المنصور، فتوجهوا في ٥ ذي القعدة سنة ٦٦٤، فوصلوا إلى دريساك، ودخلوا بعد ذلك الدريند مطلبين «أي مرتبين في كتابهم».

وكان الملك الأرمني هيثوم بن قسطنطين بن باساك قد ملك ولده ليفون، وانقطع هو إلى الرهينة، ووصلت الأخبار إلى الملك ليفون بقدوم عساكر السلطان، فظن أنهم لا يستطيعون الصعود في الجبال، وخصوصاً أن القائد الروماني نكفوروس بن برداس كان قد أقام حصوناً على شواهد الجبل الأسود في قليقية، ولذلك تراخى الملك عنهم، لكن لم يلبث أن علم أنهم باتوا على مقربة من عاصمته سيس، فجهز جيشه والتقاهم في معركة وقعت الهزيمة فيها عليه، وتم أسرهم، وقتل أخوه وعمه، وانهزم الكونستابل الملكي وهو عمه الآخر، وأسرو لده^(٤). وكان في عسكر الأرمن، كما يقول ابن عبد الظاهر، أثنا

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٦٢

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ٣٥

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٦٣

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٧٠

* يضحى ابن عبد الظاهر المشهد لكي يُظهر عظمة الجيش السلطاني الذي هزم اثني عشر ملكاً أرمنياً بجيوشهم، وفي الحقيقة هؤلاء ليسوا بملوك، بل ولادة على مناطق الجبل الأسود الذي هو جبل محدود وليس قارة واسعة.

عشر ملكاً* منهم تمزقوا كل ممزق، وكانت هذه الواقعة عند موضع يدعى «مري» وسارت العساكر من هذا الموقع وباتت في منطقة «كرنجيل» وفي اليوم التالي نزلت في «تل حمدون» وهي تقتل وتحرق وتأسر، وأحرقوا مدينة «حموص» ثم توجهوا إلى نهر «جهان» والأرمن تسميه «الفرات» لأنه نهر كبير، فخاضته العساكر ونزلوا على قلعة العمودين، وكانت على جبل شاهق، وكان فيها الفرسان الداوية، فحاصرتها العساكر وقتلتها وأذعن من فيها إلى التسليم، فقتل من كان فيها من الداوية وسبيت الحريم والأطفال، وأحرقت القلعة بما فيها من حواصل وذخائر، ومن ثم رحلوا إلى العاصمة «سيس» وهي خالية من العسكر، فدخلوها وأحرقوها وجعلوها خاوية على عروشها^(١).

ووردت البشائر إلى السلطان بالنصر وهو في الصيد بجبال جرود «جيرود»*، فدخل دمشق، وتجهز وخرج وسار إلى حماة، فعيد عيد الأضحى فيها، ومن ثم سار إلى أفاشيا ورحل منها للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجة سنة ٦٦٤، فالتقاهم وأحسن إلى ملك الأرمن ومن معه في الأسر^(٢).

وسار بالعساكر ونزل على قارا*، وأمر بنهب أهلها وقتل ٣٣٣ من كبارهم لأنهم، كما يقول ابن فضل الله العمري، كانوا نصارى يسرقون أولاد المسلمين ويبيعونهم خفية للفرنج، وأخذوا صبيانهم مما ليك فتربوا بين الترك بالبلاد المصرية، وصار منهم أجناد وأمراء*^(٣).

وعاد السلطان بعد ذلك إلى دمشق في ٢٤ ذي الحجة، وخرج منها ثاني المحرم سنة ٦٦٥ متوجهاً نحو مصر، فوصل إلى بليس ثالث عشر صفر، فالتقاه ولده الملك السعيد بركة، والأمير عز الدين الحلبي. ومن ثم سار إلى القاهرة، ووصل رسول هيثوم الأرمني، وتحدث في أمر ولده الملك ليفون، فكّ السلطان قيده، وكتبت له موادة على بلاده إلى سنة^(٤).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٧٠

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٧٠

(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - ج ٢٧ - ص ٢٧٣

* جيرود، قرية في القلمون في ريف دمشق.

* قارا، اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقدام إلى دمشق، وهي كانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق، وأهلها كلهم نصارى، وبها عيون جارية يزعمون عليها - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - مجلد ٤ - ص ٢٩٥.

* للأسف فإن الملك الظاهر لم يترك رجلاً ولا صبياً في قارا، بل ترك النساء فقط، فأى جريمة أشنع من هذه، ولم يذكر ابن عبد الظاهر هذه الحادثة في تاريخه عن الملك الظاهر، ربما لعلمه بقبحاتها، وقد انتشرت تهمة سرقة أبناء المسلمين وبيعهم لما يسمى «الكفار» كثيراً في تلك العصور المظلمة حيث كان الترك يستخدمون هذه التهمة لتبرير الفظائع التي كانوا يرتكبونها بحق مخالفهم من شعوب وطوائف، وسنرى أن مؤرخي الترك استخدموا نفس التهمة ضد سكان جبال كسروان.

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٢٧٢

٥- السلطان في صفد

خرج السلطان من دمشق في المحرم سنة ٦٦٥ إلى جهة الكرك، فلما كان ببركة زيزاء* تقنطر عن فرسه، وكسرت فخذه، كما يقول اليونيني، وبقي أيامًا كثيرة، ومن ثم حمل في محفة إلى غزة، ومنها على أعناق الرجال إلى الديار المصرية^(١). وفي أول ربيع الأول ركب فرسه وضربت البشائر بذلك، ونزل بباب النصر، وفي يوم السبت عشرين جمادى الآخرة توجه في جماعة من أمرائه وأراح بقية العساكر بالديار المصرية، ولما وصل إلى غزة ورد إليه رسل الصليبيين بهدية وجماعة من الأسرى كساهم السلطان وأطلقهم^(٢).

ومن ثم سار إلى صفد بهدف إعادة بنائها، ووصل إليه رسل الصليبيين وشاهدوا من أمر صفد واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حشرات، كما يقول ابن عبد الظاهر، وتحديثوا معه في أمر بلادهم، فطلب منهم أن تكون صيدا مناصفة بينهم وبينه، كما طلب منهم هدم قلعة الشقيف، وأنكر عليهم الإغارة على جهة مشغرا*، وخرجوا من عنده منزعين^(٣).

وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية للغارة، وركب هو، وكان الصليبيون قد اطمأنوا بإرسال رسالهم إليه فما أحسوا إلا بالعساكر قد وصلت إليهم، وساق السلطان ونزل على باب عكا بتل الفضول، وشرع في القتل، وأحضرت إليه رؤوس القتلى من كل جهة، وضرب دهليزه تحت التل وبات فيه، ولما أصبح عاد إلى جهة صفد، وأحضر جماعة ممن أسرف في هذه الغارة فقتلوا في صفد. وطلب السلطان رسول الصليبيين وقال له: «هذه الغارة هي مقابل غارتكم على بلد الشقيف». ولما لم ينتظم أمر الصلح رد الرسول بغير جواب^(٤). وفي ٢١ شعبان انطلق السلطان بعسكره إلى عكا، فما علم به

(١) ذيل مرآة الزمان - قطب الدين موسى بن محمد اليونيني الحنبلي - ج ٣ - ص ٢٦٥

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨٠

* زيزاء، من قرى البلقاء «الأردن» كبيرة يطؤها الحاج ويقام بها سوق وفيها بركة عظيمة، وأصله في اللغة المكان المرتفع - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٣ - ص ١٦٤، مشغرا، هي إحدى القرى اللبنانية من قرى قضاء البقاع الغربي.

* قال ابن عبد الظاهر في تعليقه على ما فعله السلطان من قطع الأشجار المثمرة حول عكا: «قد جَوَز العلماء إحراق غلال العدو وقطع أشجارهم، إذا رأى ذلك الإمام صلاحًا يستضعفهم به، فقد قطع الرسول، صلى الله عليه وسلم، كروم أهل الطائف، وكان ذلك سببًا لإسلامهم. وأمر في حرب بني النضير بقطع نوع من النخيل يقال له الأصفر. يُرى نواه من وراء اللحم» - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - ص ٢٨٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨١

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨١
* طاحونة الكردانة. كانت هذه الطاحونة على نهر النعامين الذي ينبع من عين الكردانة في جنوب شرق عكا. أنشأها الفرسان الاسبتار.

أحد إلا وهو على بابها، فقسّم العساكر في البساتين والأبنية والآبار لهدم ذلك وقطعه، وأقام أربعة أيام، حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار*، وأرسل إلى طاحونة «كردانة»* وكانت للفرسان الاسبتار فهدمها، ومن ثم عاد إلى مخيمه في صفد^(١).

وفي شهر رمضان وصل رسل صور، وسألوا استمرار الهدنة. فقال: «تبين وهونين وبلادهما قد أخذتهما بسيفي وصارت للإسلام». فقبلوا ذلك، فكتبت هدنة لمدة عشر سنوات لصور وبلادها وهي تسعة وتسعون قرية^(٢).

ووصل رسل أميرة بيروت بالهدايا، فسألهم عن مركب تابع للأتابك فارس الدين أقطاي كان به تجار متوجهون إلى قبرص فاحتاج المركب إلى إصلاح ورسا في مرفأ بيروت، فأمنهم أخو الأميرة، لكنه غدر بهم وأمسكهم، فأنكر السلطان على الأميرة ذلك، فالتزموا بمال التجار وضمن المركب وإطلاق التجار، واستقرت قاعدة الصلح^(٣). ومن ثم عاد السلطان إلى مصر.

٦ - متابعة الفتوح في بلاد الصليبيين

كان قد استقر الصلح بين السلطان وبين جوان ديلين أمير يافا، فمات جوان وخلفه ولده جاك، كما يقول ابن عبد الظاهر، فحضر قسطلان يافا إلى السلطان وهو على عمارة صفد وسأله تجديد الهدنة مع جاك بن جوان، فامتنع السلطان من ذلك وقال: «الذي كان معي صلحاً قد هلك»^(٤).

والسبب الذي دفع السلطان إلى عدم تجديد الهدنة هو أن الأخبار كانت قد وصلت إليه، بأن أهل يافا يحملون الغذاء إلى عكا وكان قد تمّ فرض الحصار على هذه المدينة لدفع أهلها إلى التسليم. كما أقام أهل يافا حانة، وأوقفوا فيها عددًا من المسلمات، واعتمدوا أسبابًا ليست في هدنة^(٥). ولذلك عقد

* قال ابن عبد الظاهر في تعليقه على مافعله السلطان من قطع الأشجار المثمرة حول عكا: «قد جَوَز العلماء إحراق غلال العدو وقطع أشجارهم، إذا رأى ذلك الإمام صلاحًا يستضعفهم به، فقد قطع الرسول، صلى الله عليه وسلم، كروم أهل الطائف، وكان ذلك سببًا لإسلامهم. وأمر في حرب بني النضير بقطع نوع من النخيل يقال له الأصفر، يُرى نواه من وراء اللحم» - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - ص ٢٨٢

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨٢

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٨٤

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٣

(٥) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٣

* القسطلان، لم نعر على المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وقد تكون بمعنى المقدم.

السلطان عزمه على مهاجمة هذه المدينة واستعادتها.

وبعد أن استراح في مصرفرة من الزمن، سار في ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٦٦، فوصل إلى غزة، وذهب منها إلى العوجا، فحضر إليه، كما يقول ابن عبد الظاهر، القسطلان* وأكابريافا، فسألهم عن الأفعال التي يقومون بها وعوّقهم حتى يجيبوا عن ذلك، فلم يجدوا حجة يدفعون بها، وعرفوا أن السلطان يريد مهاجمة مدينتهم، فعرضوا عليه التسليم مقابل السماح للصليبيين فيها بأن يخرجوا بأموالهم وأولادهم. فأجيبوا إلى ذلك^(١).

ومن ثم سار السلطان في العشرين من جمادى الآخرة إلى يافا، وما أحس أهلها إلا والعساكر قد أحاطت بها، وحضر إلى الأتابك من كان تفاوض مع السلطان في التسليم، فتم فتح أبواب المدينة فدخلت إليها العساكر ورحلت إلى القلعة فسلمها أهلها في اليوم المذكور، ومنع السلطان من نهبها، وطيب قلوب أهلها وأرسلهم إلى مأمهم*، وتسلم السلطان المدينة والقلعة، فأمر بهدم القلعة، كما أمر ببناء الجوامع والمساجد وإقامة شعائر الإسلام في هذه البلاد وإزالة المنكرات منها ومن بلاد اللد، ورتب الخفراء على السواحل وألزمهم بحفظها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره، وقال: «هذه البلاد فتحها الله على يدي». واختار أن يكون مأكوله ومشروبه من هذا المال^(٢).

وسار إلى قلعة الشقيف - أرنون، وكان ملك دمشق الأيوبي الصالح إسماعيل قد سلم هذه القلعة إلى الصليبيين سنة ٦٣٨، مع قلعة صفد، وغير ذلك من البلاد التي كانت تابعة لأمالك دمشق مقابل مساعدة الصليبيين له في صراعه مع إخوته وأبناء عمومته، وضايق جيش السلطان القلعة وأدرك الصليبيون فيها صعوبة المقاومة، فأرسلوا إلى السلطان يطلبون الأمان، فرفض طلبهم واشترط على الرجال منهم أن يؤخذوا أسارى وأن يتم إطلاق الحريم والأطفال، فوافقوا على ذلك، ونزلوا من القلعة، حيث تم أسر الرجال والمقاتلين، وتم إرسال النساء والأطفال إلى صور وفق رغبتهم^(٣). وعين السلطان نائباً له في قلعة الشقيف وترك حامية فيها. وأقيمت شعائر الإسلام في تلك البلاد كلها^(٤).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٣

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٤

* لم يذكر ابن عبد الظاهر أين هو المأم الذي أرسل السلطان الصليبيين إليه ولعله كان عكا التي كانت أقوى المدن الصليبية في الساحل

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٨

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٢٩٩

ومن ثم توجه السلطان نحو طرابلس وكانت قد أصبحت ضمن أملاك أمير أنطاكيا بوهيموند بن بوهيموند الذي أخذ اللاذقية من الأيوبيين وفرض سيطرته على مناطق واسعة في ساحل سوريا. وعرف بوهيموند بقُدوم السلطان إلى طرابلس وهو مقيم بها، فأخرب جميع الطرقات التي تؤدي إليها، فسار السلطان إلى بعلبك ومنها إلى جبال الضنين «الضنية» ذات التضاريس الوعرة ونزل من هناك إلى طرابلس، وراح يناوشها القتال، وافتتح برجاً كان فيه جماعة من الصليبيين ضرب رقابهم، وأرسل جماعة خربوا الحدث*، ونهبوا الجبال وحصلت العساكر على الغنائم فأحضروها إلى باب الدهليز. ولما أحضرت العساكر الأسرى أمر السلطان بضرب رقاب الجميع، وقطعت الأشجار وهدمت الكنائس وأقنية الماء، كما هدمت قناتها الرومانية وهي بناء عظيم لم يرمثله*. وقسم السلطان الغنائم على العساكر^(١).

وأدرك أن إقامته على طرابلس قد تطول ولذلك قرر مهاجمة أنطاكيا التي كانت المقر الرئيسي لبوهيموند، فرحل في ٢٩ شعبان، ولم يخبر أحداً بوجهته، فوصل إلى حمص ومنها إلى حماة وبعد ذلك إلى أفايميا واتجه منها إلى جسر الشغرو من ثم إلى بكاس، ووصلت الأخبار إلى الصليبيين في أنطاكيا باتجاه السلطان نحوهم، فخرج الكونستابل الملكي على رأس قسم من الجيش لقتاله، فالتقى الجانبان على مقربة من أنطاكيا، ودارت الدائرة على الجيش الصليبي ووقع كندا صطبل «الكونستابل الملكي» في الأسر^(٢). ولما حضر إلى السلطان رآه رجلاً عاقلاً، فطلب منه أن يدخل إلى أنطاكيا ويتوسط لأهلها، وجرى السلطان، كما يقول ابن عبد الظاهر، على عاداته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله تعالى، فجعل كندا صطبل «الكونستابل» ولده رهينة ودخل البلد، وتحدث مع الصليبيين، وخرج معه جماعة من القسيسين والرهبان، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام، فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس «الأمير بوهيموند».

وفي بكرة السبت رابع شهر رمضان سنة ٦٦٦ أنذرهم السلطان بزحف العساكر، فأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها، وقاتل أهلها قتالاً شديداً،

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٠٥

* ما يدعوا إلى الأسف هو أن يقوم السلطان بتخريب القناة الرومانية التي يقول عنها ابن عبد الظاهر، إنه لم يرَ أحد مثلاً، فهذه آثار وكان ينبغي المحافظة عليها، وربما كانت هذه القناة على نهر أبو علي الذي يشق طرابلس، وربما كانت على نبع رشعين الذي يشرب منه أهل المدينة.

* حدث الجبة، منطقة تقع في وادي قاديشا وسكانها من المسيحيين المارونيين.

(٢) الروض الزاهر في تاريخ الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٠٧

وصعدت العساكر الأسوار من جهة الجبل، ونزلوا إلى المدينة، فهرب أهلها إلى القلعة، وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر وما رفع السيف عن رجل في المدينة، وكان بها فوق المئة ألف نفر*، وأمر السلطان بحفظ الأبواب لمنع أحد من الخروج، واجتمع في القلعة، كما يقول ابن عبد الظاهر، ثمانية آلاف مقاتل غير النساء والأطفال، ولم يكن بالقلعة ماء ولا طواحين تكفي لكل هذا العدد من الناس، فأرسلوا يوم الأحد ثاني يوم الفتح يطلبون الأمان وأنهم يؤخذون أسرى، وللوقت طلع السلطان إلى القلعة فصادف جميع من في القلعة وعليهم الملابس كأنها زهر الرياض* واستغاثوا إلى السلطان فعفا عنهم من القتل، وأحضرت الحبال، وتسلم كل أمير جماعة، وكل مقدم جماعة، والكتاب بين يدي السلطان ينزلون الأسماء، وكتبت كتب البشائر بالنصر ومن جملتها كتاب وجهه السلطان إلى الأمير بوهيموند، وهو في طرابلس، يبشره بالنصر عليه^(١).

ولما فرغ العساكر من النهب، أمر السلطان بإحضار الغنائم، وجلس للقسمة وأحضر القبان لوزن الأموال والمصاغ والذهب والفضة، وطال الوزن، وقسمت الأموال بالطاسات ولم يبق غلام إلا وله غلام، وتقاسم العسكر النسوان والبنات والأطفال، وبيع الصغير باثني عشر درهما والفتاة بخمسة دراهم، وعندما انتهت القسمة، سار السلطان إلى القلعة فأحرقها وعم الحريق أنطاكيًا، وأخذ العسكر حديد أبوابها ورصاص كنائسها، وأقيمت الأسواق خارجها، فقصدها التجار من كل جهة^(٢). وأطلق السلطان الكونستابل وأطلق أهله وأقاربه، فاخترار التوجه إلى سويس ففسح له في ذلك^(٣).

وكان أمير أنطاكيًا قد استولى عند أخذ المغول حلب على ديركوش وعلى كفردين وكفر تلمنس، وعندما فتحت أنطاكيًا انقطعت حيلة أهل هذه الحصون، فطلبوا الأمان على أنهم يسلمون ويؤسرون، فأرسل السلطان الأمير بدر الدين بيبيك الأشرفي فتسلم ديركوش وبقية الحصون وأسر

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٠٩

* لا يعقل أن يكون في المدينة مئة ألف إنسان ومن ثم يتم قتل كل الرجال وهم تقريبًا نصف هذا العدد، وبالتالي فقد قتل نحو ٥٠ ألف إنسان في يوم واحد، وهذا أمر لا يمكن تصديقه بل هو من التخاريف لزيادة الهيبة السلطانية، وربما تم قتل ٥٠٠ أو ألف رجل، في المدينة، وربما أقل من ذلك، وقد كان بوهيموند في طرابلس ومعه غالبية جيشه، ولذلك سقطت أنطاكيًا بسهولة.

* وصف ابن عبد الظاهر ملابس الذين كانوا في القلعة بأنها مثل زهر الرياض، وهذا يدل على أن الصليبيين في أنطاكيًا كانوا يعيشون في دعة وكانوا يلبسون الملابس الجميلة والأنيقة.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٢٤

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣١٣

من فيها^(١). وأرسل هيثوم والد ملك الأرمن المأسور يسأل في إطلاق ولده وعرض على السلطان ما يريد مقابل ذلك، فطلب منه السلطان إطلاق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وكان المغول قد أسروه عند دخولهم إلى حلب، كما طلب تسليم القلاع والحصون التي أخذها من المملكة الحلبية، وطلب هيثوم مهلة سنة، وتوجه إلى الأردن*، وسأل عن الأمير سنقر الأشقر، فوجده، وأرسل يخبر السلطان بذلك. وتقرر تسليم قلاع «بهسني، ودريساك، ورعيان، ومرزيان، والزرب، وشيخ الحديد». ووصل سنقر الأشقر إلى السلطان وأطلق الملك ليفون بن هيثوم وبقية الأسرى وتسلم نواب السلطان القلاع^(٢). وعندما علم الصليبيون بقلعة بغراس، وكانوا من الفرسان الداوية، بصلح السلطان مع ملك الأرمن، انهزموا وتركوا بغراس، فأرسل السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر، فتسلمها في ١٣ رمضان سنة ٦٦٦، ولم يجد فيها سوى امرأة عجوز^(٣). ولما فرغ السلطان من أنطاكية رحل عنها ووصل إلى شيزر ورحل منها في البرية إلى حمص ومنها رحل إلى دمشق ثم إلى الديار المصرية فتلقيه ولده الملك السعيد وعيّدًا معًا عيد الأضحى في أم الباردة ودخل قلعته في ١١ ذي الحجة.

٧ - استعادة جبلة

كان الفرسان الداوية والاسبطارية، كما يقول ابن عبد الظاهر، قد استولوا على جبلة، التي كانت تحت سيطرة الأيوبيين منذ أن أخذها صلاح الدين. وكانت كل جماعة من هاتين الجماعتين تفرض سلطانهما على جزء والجماعة الأخرى على الجزء الآخر، وكان الداوية في جبلة يخضعون للأمير «أفريрмаهي صافاج» الذي كان يحكم كلاً من صافيتا وطرطوس.

وعندما نزل السلطان بيبرس على طرابلس محاصراً لها، حضر إليه أمير الداوية أفريрмаهي صافاج، محملاً بالهدايا، واستصحب معه عسكرياً لحماية بلاده وهي صافيتا وطرطوس^(٤)، وطلب منه أماناً على البلاد التي تحت يده، فوافق السلطان على ذلك مقابل أن يقوم بإطلاق سراح الأسرى الذين بيده، وأن يوافق على تسليم جبلة باعتبار أنها كانت بيد الأيوبيين.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٢٥

* الأردن، هو مقر معسكر الجيش المغولي، وكان موجوداً في مراغة بأذربيجان

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٢٩

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٢٥

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٠٦

وقد وافق مباشرة على إطلاق سراح الأسرى وكانوا نحو ثلاثمئة أسير، أما تسليم جبلة، فإنه علّق الإجابة حتى يراجع الأمير والأخوة الداوية في عكا، فتوجه إليهم، وقرر تسليم جبلة وكتب إلى السلطان بذلك ^(١) فولّى السلطان عليها علاء الدين بن القاضي، واستناب بها حسام الدين الجلدكي، وعندما حضر هذان الأميران إليها، سلمهما الداوية ما يخص أملاكهم، وامتنع الفرسان الاسبتارية من تسليم ما يخصهم، واستنصر هؤلاء بالأمير بوهيموند في طرابلس، وهجم مقدم الاسبتارية على حسام الدين الجلدكي، فهرب منه كما هرب من معه من الجنود، كما يقول ابن عبد الظاهر، إلى برج هناك، فحاصروهم الاسبتارية وأخذوهم، فقتلوا بعضهم. وعندما علم السلطان بما جرى أرسل إلى نائب حمص بأن يقتل الأسرى الاسبتارية لديه والمأخوذ من حصن «تل خليفة» عوضاً عن قتل في جبلة من جيشه*، وعند ذلك شعر الاسبتارية بخطورة الموقف، فأرسلوا إلى الملك المنصور بحماة يطلبون التوسط لدى السلطان ليقبل اعتذارهم وزعموا أن نواب السلطان في جبلة آذوهم وأنهم دافعوا عن أنفسهم وأنهم تحت أمر السلطان ^(٢). وعند ذلك عاد النائب إلى جبلة واستقامت الحال.

٨ - مراسلة ملك عكا في الصلح

كانت عكا تابعة لمملكة قبرص الصليبية، وعندما حرر السلطان قلعة شقيف - أرنون، وكانت تابعة لعكا، أراد الصليبيون في عكا أن يصلحوا أمورهم لكي يحافظوا على ما بيدهم من أملاك خوفاً من أن يسيطر عليها السلطان.

وكان الملك بقبرص يدعى «هيو هنري» وكان شاباً دون الثلاثين من عمره، كما يقول ابن عبد الظاهر، فمات، ولم يكن له وريث، وكان له ابن خالة يقيم في «سيس» عند الأرمن، فتم استدعاؤه إلى قبرص وأصبح ملكاً، ثم استدعاه الصليبيون في عكا، فوصل إليهم وحلفوا له ^(٣).

وأرسل أمير صور إلى السلطان يخبره بوصول ملك قبرص إلى عكا، وأن هذا الملك سقّه آراء الصليبيين في عكا لأنهم لم يحسنوا مجاورة السلطان، كما يقول ابن عبد الظاهر، كما طلب من أمير صور أن يتوسط له في الصلح

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٣١

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٣١
* يتبين من كلام ابن عبد الظاهر أن حصن تل خليفة، كان بيد الفرسان الاسبتار.

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٣٢

عند السلطان، فوافق السلطان على هذا الطلب، وعندما عاد من أنطاكية إلى دمشق، وصلت رسل ملك قبرص إليه وأحضروا هدية ومصوغاً وجوارح وغيرها، وتمَّ عقد اتفاق هدنة مدته عشر سنوات، وهذا الاتفاق لا ينقض بوصول حملة صليبية جديدة، وتضمن الاتفاق أن، يعترف السلطان باستقلال عكا وبلادها وهي إحدى وثلاثون ضيعة، وأن يعترف السلطان بأن حيفا وثلاث ضياع منها تكون للصليبيين، أما بقية ضياعها فإنها تكون مناصفة بين الجانبين، وأن يكون جبل الكرمل مناصفة بينهما، وأن تكون عتليت وخمس ضياع تابعة لها للصليبيين، وباقي القرى مناصفة بين الجانبين، وأن تكون عشر ضياع من منطقة القرين للصليبيين والباقي مناصفة، وأن يكون ساحل صيدا للصليبيين وجبالها للسلطان وتضمن الاتفاق، إطلاق سراح الأسرى واتفق الصلح على مملكة قبرص^(١).

وأرسل السلطان، كما يقول ابن عبد الظاهر، رسولين إلى عكا لإبرام الاتفاق، بشكل نهائي بحضور الملك، وهذان الرسولان هما: كاتب الإنشاء ابن عبد الظاهر نفسه، والأمير كمال الدين بن شيث، وأرسل السلطان معهما هدية هي عشرون أسيراً من أنطاكية، بينهم قسيسون ورهبان. وعندما حضر الرسولان إلى الملك طلب أن يكون لمملكة قبرص صلحاً مستقلاً عن عكا، كما قال إن الصلح يستقر ما لم تأت حملة صليبية جديدة، فعند ذلك يعتبر الصلح منتهياً، وأن الإسماعيلية لا يكون لهم حديث في الهدنة، كما استعفى من حديث الرهائن، فعند ذلك عاد الرسولان من دون إبرام الاتفاق وبقيت الأمور معقدة^(٢).

وما يلفت في نص الاتفاق أن ملك قبرص رفض أن تشمل الهدنة بلاد الإسماعيلية وهذا يدل على أن الحرب بين الطرفين كانت مستعرة وأنه كان لملك قبرص ثأر عند هؤلاء، وكان يريد أن ينتقم منهم، ولذلك رفض أن تشمل الهدنة بلادهم.

وعلى كل حال فإن الاتفاق لم يرَ النور ما جعل السلطان في حلٍّ من التزاماته، فأكمل طريقه في استعادة ما بقي بيد الصليبيين من البلاد.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٣٢

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٣٣

* يبدو أن السلطان بيبرس كان يريد التوقف عن القتال من خلال إبرام اتفاق الهدنة هذا مع مملكة عكا، والذي يتضح منه أنه كان شاملاً.

* بنو الأحمر، ربما المقصود بهؤلاء ما كان يسمى «الإسحاقية» وهم طائفة علوية تنتمي إلى أبي يعقوب إسحاق الأحمر، وهو من جلساء الإمام الحسن الأخير العسكري. وكانت تلك الطائفة منتشرة في جبلة، وقد تلاشت بسبب ضعف حجتها أمام حجة باقي العلويين، وهناك مرويات تؤكد وجود تلك الطائفة في جبلة في القرن الخامس الهجري، وهو القرن الذي تمَّ فيه بناء حصن بلاطنس.

٩- استعادة قلعة بلاطنس

تعد قلعة بلاطنس «المهالبة» قلعة علوية مثل المنيقة، بناها رجال علويون يُعرفون ببني الأحمر*، كما يقول ابن عبد الظاهر، ومن غير المعروف من هم هؤلاء، لأنه لا يوجد قبيلة عند العلويين باسم بني الأحمر عبر تاريخهم.

ويقول ابن عبد الظاهر: إن هؤلاء القوم - بني الأحمر - عندما قاربوا الانتهاء من بناء الحصن عاجلهم قبطان أنطاكيا نيكيتا، فملكه بالأمان سنة ٤٢٢، وأخذ في تحصينه وتعظيم بنائه^(١)، وكان نيكيتا قد استولى في نفس السنة على قلعة المنيقة، كما ذكر ابن عبد الظاهر في حديثه عن تلك القلعة. ومن ثم أصبح بنو صليعة* ولاة على بلاطنس وعلى المنطقة من قبل الروم. وعندما أخذ تانكريد اللاذقية وجبله من الرومان سنة ٥٠٣ ظل حصن بلاطنس بيد بني صليعة.

وفي سنة ٥١١، قام روجربن ريتشارد، الذي خلف تانكريد على إمارة أنطاكيا بعد موته سنة ٥٠٦، بالهجوم على بلاطنس بأعداد كبيرة من الصليبيين، وكان في هذا الحصن بنو صليعة، كما يقول ابن عبد الظاهر، فحاصروهم فيه في ٢٨ ذي الحجة من تلك السنة، فامتنع هؤلاء من التسليم وقاوموا الحصار، وعند ذلك تظاهر روجربن بأنه سيبنى حصناً مجاوراً لبلاطنس من أجل تشديد الحصار عليه، وعندما شاهد من في الحصن ما يقوم به الصليبيون من أعمال البناء، أدركوا أن المقاومة لا جدوى منها، فقاموا بتسليم الحصن في ١٨ محرم سنة ٥١٢، وعوّضهم روجربن ثلاث قرى بأنطاكيا لتكون معيشتهم منها^(٢)، وأخذهم معه وظلوا هناك حتى قتل روجربن وقعة، تل عفرين، سنة ٥١٣، حيث عادوا إلى بلادهم، لكن القلعة ظلت في أيدي الصليبيين، وفي يوم السبت ٢٧ شعبان سنة ٥٣٠ هجم العلويون في المنطقة على القلعة، فقتلوا الكثير من الصليبيين ولجأ الباقي إلى المكان الحصين فيها وظلوا يقاومون، وعند ذلك أرسل مقدمو العلويين إلى «منكجك التركماني» أمير بكسرايل بابنا، يستنجدونه، فأتاهم وحاصر القلعة مدة، كما يقول ابن عبد الظاهر، فراسله الصليبيون المحاصرون بها وزعموا أنهم يريدون تسليمها لكن على شرط أن يتم إيصال نسائهم وأولادهم بسلام إلى جبله أو صهيون، فإذا جاءت لهم العلامة أنهم وصلوا سالمين سلّموها له، فلما وصل أهلهم وأولادهم إلى

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٤٩

* بنو صليعة، جماعة تزعم الانتساب إلى قبيلة تنوخ جعلهم الروم ولاة على جبال اللاذقية بعد أخذهم اللاذقية، ومنهم القاضي ابن صليعة الذي سلم جبله للترك في دمشق

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٤٩

بلادهم وتحققوا وصولهم امتنعوا من التسليم وكان ذلك حيلة منهم، لأن الأقوات ضاقت عندهم، وضاق المكان عليهم، فاستراحوا بخروجهم عنهم، وقويت نفوسهم^(١). وبلغت الأخبار لأنطاكية، فأرسل الصليبيون فيها جيشاً دفع منكجك التركماني عنها، واستقرت بأيدي الصليبيين حتى ملكها صلاح الدين^(٢).

ولا يذكر خبر بلاطنس بهذه التفاصيل سوى ابن عبد الظاهر، ومن غير المعروف لماذا لم يذكرها باقي المؤرخين الشرقيين ولا سيما ابن القلانسي الذي ذكر تفاصيل مهمة من تاريخ سوريا في ذلك الوقت.

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه عندما استولى المغول على البلاد، قام مظفر الدين عثمان* والي صهيون بالاستيلاء على بلاطنس وضمها إلى ملكه، وكانت تابعة لمملكة حلب الأيوبية، وطلب منه السلطان بيبرس رد هذه القلعة، فامتنع وصار يقول، «أنا من جملة النواب».^(٣) فأرسل السلطان عسكرياً من حلب أغاروا على بلاطنس، وعند ذلك أرسل مظفر الدين عثمان رسالاً إلى السلطان بالموافقة على التسليم، وطلب قرية توقف عليه، فعين له السلطان قرية، الجملة* من أعمال شيزر.

ويقول ابن عبد الظاهر، إن بلاطنس كان يتبع لها خمس قرى، فأضاف إليها السلطان من بلاد صهيون قرى أخرى تغل سنوياً ثلاثين ألف درهم. وتم تسليم بلاطنس في ١٦ رمضان سنة ٦٦٧^(٤).

١٠- استعادة باقي حصون الساحل

في سنة ٦٦٨ جاءت الأخبار بخروج «روا دراغون»* أحد ملوك أوروبا ومعه سفائن كثيرة محملة بالرجال والسلاح، قاصداً عكا، وقد وصل أصحابه وأقاربه في سفن تابعة له قبله. وكان هذا الملك قد أرسل إلى «أبغا بن هولكو خان» يقول له: بأنه جاء لمواعده، وكان بينهما سفارات قام بها جماعة من

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٤٩

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٤٩

* لعل قرية «الجملة» هي القرية التي تسمى اليوم «طير جملة» التي تتبع لمنطقة مصياف.

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٤٨

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٤٨

أرمن قليقيا^(١). فأرسل الله، كما يقول ابن عبد الظاهر، رياحاً مزعجة أهلكت مجموعة من سفنه، ولم يُسمع بعدها للمذكور خبر^(٢).

ولما بلغ السلطان وهو في مصر، تحرك المغول نحو سوريا، وأنهم تواعدوا مع صليبي الساحل، قررا المسير إليهم، فأرسل قبله الأمير علاء الدين البندقدار بجماعة من العسكر ليقموا في غزة، ولينتظروا وصوله، ومن ثم سار هو في جماعة يسيرة من العسكر من قلعتة في ٢١ ربيع الأول سنة ٦٦٨، فوصل إلى غزة.

وبلغ الصليبيون أن السلطان قدم في جماعة يسيرة من العسكر، وظنوا أنه لن يقصدهم، فخرج الصليبيون القادمون من الغرب وأهل عكا وخيموا خارجها وراحوا يستعرضون قوتهم.

ووصلت أخبارهم إلى السلطان، فأرسل الأمير ركن الدين إياجي لإخراج عسكر دمشق، وأرسل مملوكه عز الدين معن السلاح دار لإحضار العدد وآلات الحرب، وفي صبيحة الحادي والعشرين من ربيع الآخر، أمر السلطان كلاً من الأمير جمال الدين الشمسي، مقدم عسكر عين جالوت، والأمير علاء الدين أيدغدي مقدم عسكر صفد، بالإغارة على الصليبيين يوم ٢٢ الشهر، وأن يظهروا أنهم ينهزمون أمامهم^(٣). فخرج جماعة من الصليبيين مقدمهم كند لوفير «كونت أوليفر count oliver» المسمى «زيتون» وفيهم أقارب الريدراكون وغيرهم من الغرب، ودخل السلطان الكمين فعندما خرج الصليبيون لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال الدين الحاجي، ومعهما أمراء الشام، وساق قدام السلطان الأمير سيف الدين أيتمش السعدي، والأمير علاء الدين كندغري وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارساً اسمه «ريموند كول».

وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء المذكورين فما وصلوا إلى الأمراء المتقدمين إلا والعدو قد انكسر، فلم يحصل لهم اختلاط، وكان القتال شديداً

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٢
* روا دراغون، هو الملك الفرنسي لويس التاسع الذي قاد حملة صليبية أولى ضد مصر سنة ١٢٤٨ للميلاد، وأسرفها، وفدى نفسه بالمال وعاد إلى بلاده، ومن ثم قاد حملة صليبية أخرى ونزل في أفريقيا «تونس» سنة ١٢٧٠ للميلاد، لكنه مرض بزحار البطن ومات هناك، وسلكته الكنيسة بعد موته بسبع وعشرين سنة في عداد القديسين، وظل الناس بعد وفاته قروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبي في تاريخ فرنسا - قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ٢٣٦. وذكره ابن خلدون بأسم «ريدراكون» ملك برشلونة - تاريخ ابن خلدون - ج ٦ - ص ٣٧٥

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٦٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٧٥ - ص ٣٦٣

تماسكًا بالأيدي، وبقيت الخيالة والخيول مطرحين في المرح. وقتل أخوزيتون وأسر ابن أخت الريدراكون وجماعة من الخيالة، وقتل نائب فرنسيس بعكا، وعاد السلطان ورؤوس القتلى قدامه، إلى صفد وتوجه منها إلى دمشق والأسرى ورؤوس القتلى بين يديه، وخلع على الأمراء.

ولما وصل إلى دمشق توجه منها إلى حماة ونصب مخيمه في ظاهرها، وترك غالبية عسكره مع الملك الأمجد بن العادل ومع الطواشي مرشد الحموي، وأخذ أصحاب الخيول الجيدة، وصعد في الجبال نحو قلعة المرقب، وكان الوقت شتاء، حيث هطلت أمطار غزيرة، فعاد إلى معسكره وأقام فيه تسعة عشر يومًا، ثم أغار من جديد على المرقب، فعاقته الأمطار والثلوج التي تتساقط على مرتفعات الجبال الشاهقة. ومر في أراضي مملكة الإسماعيلية وكشفها، وفكر في الهجوم على قلعة العليقة لكنه خاف من الأمطار والثلوج^(١). فعاد إلى حماة ومنها توجه إلى حصن الأكراد في مني فارس لا غير، كما يقول ابن عبد الظاهر، وصعد إلى الجبل الذي عليه الحصن، ومعه أربعون فارسًا، فخرج جماعة من الصليبيين لقتاله، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم، وعاد إلى مخيمه، ورعت الخيول مروج الحصن وزروعه، فضعف الصليبيون فيه، لأن اعتمادهم في الطعام كان على ما يزرعونه من مزروعات^(٢).

ورحل السلطان عن الحصن بعد أن بلغه أن لويس بن لويس ملك فرنسا ومجموعة من ملوك أوروبا، ساروا في البحر قاصدين السواحل العربية*، وظن أن هؤلاء سوف يقصدون فلسطين ومصر، فاهتم بتدعيم الثغور وشحنها بالرجال والمؤن، كما أمر ببناء المزيد من السفن^(٣).

وتوجه إلى عسقلان خوفًا من نزول الصليبيين عليها، لكن لويس ومن معه توجهوا نحو تونس وانتصروا على الحفصيين فيها، وكان السلطان يريد مد السلطان الحفصي بالعساكر لانتصاره على الصليبيين، لكن الملك الفرنسي لويس مات، ومات ولده وجماعة من عسكره، فوهن عضد الصليبيين بذلك، فعقدوا صلحًا مع سلطان تونس ورحلوا عن بلاده في صفر سنة ٦٦٩.

ولما علم السلطان بموت الملك الفرنسي، توجه في عاشر جمادى الآخرة من تلك السنة ومعه ولده الملك السعيد بركة خان، فذهب الملك السعيد إلى دمشق، أما السلطان فإنه سار ومعه الأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة إلى بعلبك ومنها إلى طرابلس، فهاجمها وقتل وأسر من رعاياها،

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٦٤

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٦٥

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٧٠

ومن ثم أغار بجيشه على صافيتا، وكان الصليبيون قد اتفقوا على هدمها حتى لا يتسلط السلطان بأخذها على طرابلس^(١). ولما وصل السلطان إلى صافيتا طلب الفرسان الداوية فيها الأمان، فأمنهم، لكنهم نكثوا، وعند ذلك رحل عنهم إلى حصن الأكراد، وترك على حصارها جماعة من العسكر، وعندما ينس الداوية فيها من النجاة، أرسل كومنندور طرطوس أمير فرسان الاسبتار «أفريرهيو» إلى السلطان يشفع في «الإخوة الداوية بصافيتا» على أنه يأمرهم بالتسليم، فأجابه السلطان، وأرسل الكومنندور إليهم من أنزلهم من الحصن، وكانوا سبعمئة رجل، عدا النساء والأطفال، وتم إحضارهم بين يدي السلطان، وهو على حصن الأكراد، فعزم على قتلهم لأنهم نكثوا بالأيمان، لكن ولده الملك السعيد شفع فيهم، كما يقول ابن عبد الظاهر، فأطلقهم لأجله^(٢). وأرسل معهم من أوصلهم سالمين إلى طرطوس، وتسلم السلطان صافيتا وقرائها^(٣). كما تسلم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد مثل حصن تل خليفة* وغيره^(٤).

وكان السلطان قد أقام على حصار حصن الأكراد، ووصل المنصور الأيوبي أمير حماة إليه، كما وصل سيف الدين أمير صهيون، ومقدم الإسماعيلية نجم الدين، وتم نصب عدة مجانيق، وفي سابع شعبان سقط السور الخارجي للقلعة، وفي سادس عشر شعبان تشقق برج من أبراج القلعة، وزحف العسكر وطلعوا إليها، وقبضوا على جماعة من الصليبيين والنصارى، فأطلقهم السلطان، كما يقول ابن عبد الظاهر، صدقة من الملك السعيد، وهرب بعض الصليبيين إلى تل مجاور عالٍ، فنصبت المجانيق ترميهم

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٧٥

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٥

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٥

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٥

* كان الصليبيون في صافيتا يتقاسمون قرى العلويين مع الإسماعيلية، وكانت منطقة الكفرون والجزء الغالب من منطقة المشى بكل قرأها تابعة للصليبيين، كما كان يتبع لهم قرى صافيتا حتى البحر الأبيض المتوسط، أما حدودهم من جهة الشمال فكانت تمتد حتى وادي حمين، حيث كانت قرية مطرو تابعة لهم، أما قرية تيشور التي تقع إلى الغرب من مطرو، فكانت تابعة لفرسان الداوية في طرطوس، أما حثين المجاورة فكانت تابعة للإسماعيلية، وكان لهؤلاء أيضًا القرى إلى الشرق من حثين مرورًا بحارة الوقف وجورة الجواميس ومزرعة أبو الریش. وكان لهم جبل النبي زاهر وقرية تخلة وبيت خميس وعين عرفتي وصولًا إلى برمانه وإلى عين الجاش ومنها إلى قلعة القليعة وما يليها حتى عين الشمس والرصافة ومصيف. وإلى الشمال حتى جيلة باستثناء القرى القريبة من البحر فكانت للصليبيين، وكان لهؤلاء طرطوس وقرأها في الجبل حتى قرية شباط، أما ما بعد شباط فكان للإسماعيلية وهكذا كانت حبابة والجراص وإلى الشرق كله للإسماعيلية، بينما كانت أملاك الصليبيين تشمل قرى الشيخ سعد وبسماقة والبرغلية وبطابا والبكرية وبيلة حتى قرية بملكة. وكان للصليبيين القرى بين طرطوس وبانياس حتى اللاذقية فكل الساحل كان بيدهم، وكان لهم بعض المناطق الجبلية القريبة من الساحل مثل المرقب والقرى القريبة منها، وقرقيص وبعض المناطق القريبة منها، أما قرى اللاذقية فكانت كلها للصليبيين. وبالتالي فقد كانت أملاك الصليبيين في جبل لبنان أكبر من أملاك الإسماعيلية.

* حصن تل خليفة، يقع قرب قرية نعرا في منطقة جبل الشعرا، ويتبين من كلام ابن عبد الظاهر أن هذا الحصن كان للفرسان الاسبتارية مثل حصن الأكراد الواقع إلى الشرق منه.

بالحجارة^(١).

وكتب السلطان، كما يقول ابن عبد الظاهر، كتابًا على لسان أمير طرابلس، إلى من على التل، يأمرهم بالتسليم، وكان هؤلاء قد أدركوا صعوبة الموقف، فطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان، وقرروا الرحيل إلى أوروبا، وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان، نزل الصليبيون عن التل، فجهزهم السلطان وأرسلهم إلى بلادهم^(٢). وكانت قلعة الحصن بيد الفرسان الاسبتار، فكتب السلطان إلى مقدم هؤلاء الفرسان، «أفرير هيو Hugh» يبشره بالنصر عليه في حصن الأكراد. وجعل السلطان الأمير صارم الدين الكافري نائبًا بالحصن، وفوض عمارته إلى الأمير عز الدين الأفرم، وعز الدين أيبك الشيخ^(٣).

وأرسل كومنندورطوس، ومقدم الاسبتاري طلب الصلح من السلطان على طرطوس والمرقب، فأجابه بأن تكون صافيتا وقراها خارجًا عن الصلح، كما اشترط عليه إعادة بلدة طرطوس وقراها، وأن يبقى في أيديهم القلعة فقط، لأن صلاح الدين استعاد المدينة، وترك القلعة بيد الصليبيين، كما اشترط السلطان أن يترك الصليبيون كل ما لهم من المناصيفات والحقوق على بلاد الإسلام، وعلى أن تكون قرى المرقب مناصفة بين السلطان والاسبتار، وعلى أن لا تجدد عمارة بالمرقب، وحلف لهم السلطان، وتوجه الرسل إلى طرطوس لاستحلاف المقدم، وأخلى الصليبيون برج قرفيص وأخرجوا ما أمكنهم حمله من موجوداته، وتسلم نواب السلطان هذا البرج في تلك الأيام^(٤).

وفي تلك السنة جهز السلطان المراكب لفتح قبرص، فتكسرت، كما يقول البطريق الدويهي، في ميناء اللامسون «ليماسول» وأسر الفرنج من كان فيها^(٥).

وسار السلطان إلى حصن عكار، وكان، كما يقول ابن عبد الظاهر، في جبال صعبة المرتقى، بعيدة المستقى. وقد كان هذا الحصن ضمن أملاك مملكة دمشق التركية، وقد تنازل عنه الأتابك طغتكين للصليبيين في طرابلس بموجب موادة عقدتها معهم، حيث تسلموا بموجبها هذا الحصن ومعه حصن المنيطرة، كما رأينا سابقًا، وظل حصن ابن عكار في أيدي الصليبيين حتى قرر السلطان الظاهر منازلته بسبب المضرة التي كانت تأتي منه للقرى

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٦

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٦

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٧

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين بن عبد الظاهر - ص ٣٧٩

(٥) تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٢٥٢

والبلاد المحيطة به^(١). ورتب طلوع المنجنيقات في الجبال حتى أصبح في موضع قريب منه، وراحت العساكر ترميه بالحجارة، وأدرك الصليبيون فيه عدم جدوى المقاومة بسبب عدم وصول النجدة لهم، فطلبوا الأمان، فرفعت رايات السلطان على أبراج الحصن، وخرج الصليبيون منه، فجهزوا إلى مأمئهم.

وعيّد السلطان في الحصن، وكتب إلى أمير طرابلس يبشره بالنصر عليه ومما جاء في الكتاب: «كتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضه الله أكبر*»^(٢).

ثم أن السلطان عقد هدنة مدتها عشر سنوات مع بوهيموند أمير طرابلس^(٣). وكان حصن القرين القريب من عكا فيه فرسان اسبتار أرمن*، ولم يكن لهم، كما يقول ابن عبد الظاهر، في الساحل غيره، وكان من أمتع الحصون وأضرها بصفد، ورأى السلطان أن لا يترك هذا الحصن خلفه، فسار إلى صفد وجهاز منها المنجنيقات وذهب إليه ونازله، واشتد القتال، وملك السلطان جوار القلعة، ومن ثم امتلك الباشورة، وبدأ العسكر ينقبون بالسور الرئيسي، وعند ذلك طلب الأرمن فيه الأمان، وحضر رسول من عندهم وتقرر خروجهم وتوجههم حيث يشاؤون بشرط أن لا يستصحبوا مالا ولا سلاحا، ورفعت أعلام السلطان الصفراء على القلعة^(٤).

ومن ثم أمر السلطان بهدم القرين، فاكتمل هدمها في ٢٤ ذي القعدة^(٥).

وكانت قلعة صهيون بيد سيف الدين عثمان، فتوفي في ربيع الأول سنة ٦٧١ فأحضر السلطان ولده سابق الدين وأخاه فخر الدين، فكتب سابق الدين إلى عمه جلال الدين بتسليم القلعة إلى نواب السلطان بذخائرها، فتسلموها في ثاني عشر ربيع الأول من تلك السنة، وحمل أهل صاحب صهيون إلى دمشق^(٦).

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٧٩

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٨٠

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٨٣

* يدل هذا الكلام على أن علم الممالك كان أصفر مثل علم الأيوبيين

* يدل هذا الكلام، أن الفرسان الاسبتار لم يكونوا كلهم من غرب أوروبا، بل كان فهم أرمن. وكان هؤلاء منضوبين تحت منظمة الفرسان الاسبتارية.

(٤) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٨٦

(٥) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٣٨٦

(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٠٥

* لم يذكر ابن عبد الظاهر هذه الشروط عند حديثه عن إطلاق الملك الظاهر سراح ملك الأرمن، لكنه عاد وذكرها هنا،

١١- قتال الأرمن مرةً ثانية

كان ملك الأرمن في «سيس» قد قطع الهدايا المقررة عليه إلى السلطان، وخالف شروط الهدنة من أنه لا يحدد بناء ولا يحصّن قلعة*، وكان يلبس الأرمن لباس المغول، ويدعي أنهم عسكريون خان المغول، ليخيف بهم التجار ويأخذ تجارتهم وأموالهم، وحصلت أذية للتجار من جهة كينوك «الحدث الحمراء». وكانت بيد الأرمن، فأرسل السلطان من خرب هذه المدينة، وتضرر ملك الأرمن من ذلك^(١). وكان يسعى لتقريب الصليبيين من المغول من أجل تشكيل جبهة واحدة ضد السلطان. ولما كثر منه العناد والضرر للبلاد والعباد، كما يذكر ابن عبد الظاهر، انتخى السلطان للأمة، وعادت الرحمة التي في قلبه على المذكور نقمة^(٢). وأسرى في نفسه قصده، ولم يبدِ لأحد، بل أظهر المسير إلى سوريا.

ولبس السلطان ومماليكه عدة الحرب، وخرج بالعسكر في ثالث شعبان سنة ٦٧٣، فوصل إلى دمشق في نهاية ذلك الشهر، وانضم إليه العسكر الدمشقي، وسار السلطان في سابع رمضان، ولما وصل حماة، خرج الملك المنصور بعسكره في خدمته، ثم سار السلطان وفي خدمته العساكر وجميع العربان، ووصل إلى نيرب سمرين، ورحل منه إلى جهة الدريساك وبغراس، وأمر جماعة من مقدمي الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة، فطلعوا الجبال، وأمر الناس بوقود الشموع، وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركباً من أجل التعديّة على نهر «جیحان - الفرات»، ونزل داخل باب إسكندرونة خلف السور الذي بناه هيثوم ولد ليفون، ملك قليقية، ثم رحل إلى المصيصة فملكها، وقتل الكثير من أهلها، وسار السلطان نحو «سيس» فوصلها لكنه لم يدخلها خوفاً من الكمائن، فسار حتى وصل دربند الروم، كما يقول ابن عبد الظاهر، ثم عاد وبات في الجبال المحيطة بسيس، ومن ثم دخل المدينة، وعيّد فيها، وهرب أهلها إلى القلعة وتحصنوا بها، فأمر بإحراق المدينة بعد نهب ما فيها، وهدم قصور الملك^(٣). وعاد بعساكره ووصل إلى المصيصة فأحرقها. ولما تكامل وصول الأمراء بالغنائم رحل السلطان وعبر على بحيرة بها جزائر وقد تحصن فيها جماعة من الأرمن، ونقلوا إليها حريمهم وأموالهم، فرمى العسكر نفوسهم فيها عومًا بالخيل وقتلوا وأسروا، ثم عبر

وكان الأولى ذكرها في الموضع السابق.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٣٢

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٣٢

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٣٥

السلطان على تل حمدون، وعلى قلعة النقيرة، وعاشت العساكر فيهما، وخرج من الدريندات، وأمر بجمع الغنائم في مكان واحد، فوقف وفرقها بنفسه ولم يترك، كما يقول ابن عبد الظاهر، صاحب عِلْم ولا ربّ قلم، وما أخذ لنفسه شيئاً من هذه الغنائم، ولما فرغ من القسمة سار فنزل في معسكره في حارم^(١).

١٢- فتح حصن القصير*:

كان حصن القصير من الحصون التي تجاوزها صلاح الدين خلال حملته نحو الشمال، وكان هذا الحصن تابعاً لبابا روما، ولما فتح السلطان أنطاكيّا، سأله أهل القصير الهدنة، فأجابهم إلى ملتسمهم، لكنهم نقضوا، وصاروا يغيرون على بلاد السلطان المجاورة لهم، مثل الفوعة وغيرها من البلاد، وتحالفوا مع المغول وهاجموا حارم، وكانوا أدلاء لهم في تلك الجهات.

ولما توجه السلطان إلى سبّس أمرهم أن لا يبيعوا الخمر لأحد من عساكره، لكنهم خالفوا المرسوم في ذلك^(٢)، فكانوا يبيعون الخمر للعساكر الإسلامية وللمسلمين، فقرر السلطان منازلتهم، فرحل من معسكره في حارم وخيّم بمرج أنطاكيّا، ورسم على الأمير سيف الدين الدوادار بمصادقة والي القصير ويدعى «كليّام» فكان هذا الأمير يزوره بشكل دائم، مظهرًا الحب والمودة له، وعندما قرر السلطان أخذ الحصن، أرسل سيف الدين الدوادار إلى القصير ليحضر كليّام إليه، وذلك في خامس عشر من شوال سنة ٦٧٣، فسار الدوادار مع بعض أصحابه، ووصل القصير فوقف خارجها، وأرسل أصحابه إلى كليّام ليحضر إليه، فتباطأ قليلاً، فأظهر الأمير الدوادار غضباً كون كليّام لم يخرج للقاءه، وقصد الرجوع، فبلغ كليّام ذلك فخرج مسرعاً ليسترضيه ويردّه، فرجع الدوادار بعد أن استدرجه في البعد عن الحصن بصورة يمتنع من العود، ولما واجهه عاتبه ومن ثم هجم العسكر عليه وعلى أصحابه، وأغلقوا باب الحصن، وحملوا كليّام إلى السلطان، ولما حضر بين يديه أمره أن يكتب إلى أصحابه بالتسليم، لكن هؤلاء لم يقبلوا، فأرسل السلطان جماعة من أمراء حلب وهم: سيف الدين الصوري، وشهاب الدين مروان والي أنطاكيّا، وجماعة من الرجال، فهاجموا القصير، ولما اشتد الحصار وانعدمت الأقوات لدى الصليبيين فيه، قاموا بتسليم الحصن في

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٣٦

* حصن القصير: من غير المعروف أين يقع هذا الحصن، لكن من خلال رواية ابن عبد الظاهر يتضح أنه يقع فيما وراء بلدة حارم داخل تركيا الحالية

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٤٤

ثالث وعشرين جمادى سنة ٦٧٤، وأُرسل أهله إلى الجهات التي طلبوها^(١). وكان السلطان قد رحل قبل ذلك إلى دمشق ومعه كليام وهو شيخ كبير، وكان أبوه في الأسر، فمات كليام بدمشق بعد اجتماعه بأبيه^(٢).

١٣- قضية اللاذقية وبيروت

مات أمير طرابلس الصليبي «بوهيموند بن بوهيموند» في شهر رمضان من سنة ٦٧٤، ووصل ملك قبرص وهو ابن عمه، لتقديم واجب العزاء لولده، وعلم السلطان بذلك، فكتب إلى هذا الأخير يقول له: «إن اللاذقية ما برحت للمسلمين، ولما راح صاحب حلب تغلب أبوك وأخذها ظلماً وعتواً، ونحن لنا في اللاذقية النصف، فاتركوه لنا لأنه من حقوق المسلمين».

فلما ورد الكتاب إلى ابن الأمير بوهيموند، أرسل إلى الصليبيين في اللاذقية يحذرهم من هجوم محتمل من السلطان عليهم، فقام هؤلاء بتقوية الأبراج وزادوا في تحصين السور، وخاف المسلمون في المدينة منهم واستنجدوا بالسلطان، فأرسل إلى الأمير ركن الدين، النائب في بلاطنس، يأمره بنقل المسلمين الذين باللاذقية إلى البلاد السلطانية. ولما عرف نائب أمير طرابلس الذي في اللاذقية بذلك، أرسل إلى السلطان يقول له، بأنهم ما برحوا في الطاعة وقد عزّ عليهم خروج المسلمين من عندهم*، فترك السلطان الحديث في اللاذقية^(٣).

وكان زوج أميرة بيروت قد مات خلال رحلته إلى أوروبا، فطمع ملك قبرص وعكا بإمارة بيروت، وأرسل الأميرة إلى قبرص، وورد الخبر إلى السلطان بذلك من خلال الداوية في بيروت، فأرسل إلى ملك قبرص وعكا قائلاً: «هذه الملكة بيني وبينها هدنة، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها، وفي هذه المرة ما سيّرت لي رسولاً، ولا بد من حضورها، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها، وإلا أنا أحق ببلادها».

فلما بلغهم ذلك انزعجوا، وعلم ملك قبرص وعكا أن الداوية في بيروت يقفون مع السلطان ضده، فأرسل إلى الأمير سيف الدين الدواداري يطلب منه التوسط لدى السلطان لكي تبقى بيروت داخلية في الهدنة، وأن يصرف نظره عنها، فصمم السلطان على حضور الملكة، وكتب إلى نائب الباب

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين عبد الظاهر - ص ٤٤٤

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهري - ص ٤٤٤

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - مجي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٤٦

«البابا» في عكا يطلب إليه بأن يكتب بخطه وبموافقة أهل الرأي في عكا بما يقتضيه دينهم في ذلك فما أجابوا بشيء^(١).

١٤- غزوة بلاد الروم

كان أحد قادة المغول ويدعى «بيكو» قد اتجه نحو بلاد سلاجقة الروم فبعث إليه الملك عز الدين كيكائوس العساكر للقاءه مع إرسال أيدغمش أحد أمرائه، فهزمه بيكو، وجاء بجيشه إلى العاصمة قونية، فهرب عز الدين كيكائوس إلى العاليا بساحل البر، ونزل بيكو على قونية، وحاصرها حتى استأمن أهلها إليه على يد خطيبهم^(٢). ومنذ ذلك الوقت خضعت بلاد الروم للمغول، وطلب هولاكو سنة ٦٥٥، بيكو ليحضر إليه ويشاركه في الهجوم على بغداد لكنه لم يفعل وظل يواصل عدوانه على بلاد الروم. فلما انتهى هولاكو من بغداد أرسل إليه من سقاه السم لأنه اتهمه بالاستبداد^(٣). وكان أبغا بن هولاكو قد أقام في بلاد الروم نائبين له هما «تداون» و«توقو» لحماية هذه البلاد من الملك الظاهر^(٤)، وكان البرواناه معين الدين سليمان * يتأفف من المغول لاستطاعتهم عليه وسوء ملكهم.

ويقول ابن خلدون: «لما قوي أمر السلطان الظاهر في مصر والشام أمل البرواناه الظهور على المغول وإعادة الملك لسلاجقة الروم من بني قليج أرسلان، فكتب السلطان الظاهر وماله على المغل، وزحف أبغا نحو البيرة سنة ٦٧٤، وخرج الظاهر بالعساكر من دمشق، وكتبه البرواناه يستدعيه، وأقام الظاهر في حمص، وأرسل إليه البرواناه يستحثه للقاء المغل، وطلب أبغا البرواناه إليه فاعتذر ثم رحل متثاقلاً. وكتب إليه الأمراء بعده بأن الظاهر قد نهض إلى بلاد الروم بوصيته إليه بذلك، فبعث البرواناه إلى أبغا واستمده فأمدّه بعساكر المغل، وأمره بالرجوع لمداغة الظاهر، واستحث البرواناه السلطان الظاهر في القدوم فسقط في أيديهم وحيل بينهم وبين مرامهم. لأن الظاهر رجع إلى مصر في رجب من السنة وأقام فيها حولاً. ومن

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - معي الدين ابن عبد الظاهر - ص ٤٤٧

* يشير ابن عبد الظاهر إلى حالة إنسانية راقية، كانت موجودة في اللاذقية بين المسيحيين والمسلمين، حتى أن المسيحيين حزنوا بمجرد أن علموا بقرار السلطان نقل المسلمين من اللاذقية إلى أماكن أخرى تحت حكمه.

(٢) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الخامس - ص ٢٠٥

(٣) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الخامس - ص ٢٠٥

(٤) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الخامس - ص ٢٠٧

* البرّواناه: لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب، وقد أطلق في دولة سلاجقة الروم بأسيا الصغرى على الوزير الأكبر - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٣٣

ثم قام «توقو» و«تداون» بمهاجمة الثغور الشامية، فسار السلطان من مصر في رمضان سنة ٦٧٥ وقصد بلاد الروم، وانتهى إلى النهر الأزرق فبعث سنقر الأشقر فلقى مقدمة المغول فهزمهم، ورجع إلى السلطان فساروا جميعاً فلقوا المغول على البلستين، ومعهم معين الدين البروانة في عساكره فهزمهم، وقتل الأميران توقو، و«تداون»، وفر البروانة وسلطانها كيخسرو الذي كان منفرداً عنهم، وأسركثير من المغول منهم: سلاربن طغرل، وقفجاق، وجاورصى، وأسرعلاء الدين بن معين الدين البروانة وقتل كثير منهم، ثم رحل السلطان إلى قيسارية فملكها وأقام عليها ينتظر البروانة لموعد كان بينهما، وأبطأ عليه فقفل راجعاً ووصل خبر الهزيمة إلى أبغا ملك المغول، واطلع من بعض عيونه على ما كان من البروانة والظاهر من المداخلة فتنكر للبروانة، وجاء لوقته حتى وقف على موضع المعركة، وارتاب لكثرة القتلى من المغول، وأن عسكر الروم لم يصب منهم أحد فرجع على بلادهم بالقتل والتخريب والاكساح، وامتنع كثير من القلاع ثم أمنهم ورجع، وسار معه البروانة وهم بقتله أولاً، ثم رجع لتخليته لحفظ البلاد، فأعول نساء القتلى من المغول عند بابه فرحم بكاءهن، وبعث أميراً من المغول فقتله في بعض الطريق»^(١).

ونفهم من هذه الرواية أن البروانة كان يريد ضرب المغول بالماليك لكي يضعف الطرفين وتقوى مملكته، لكن السلطان الظاهر خيب أمله ولم يستجب له بالخروج لقتال المغل، بل انتظر حتى هاجم أميراً من المغول في بلاد الروم ثغور سوريا، فعند ذلك سار إلى قتالهما وانتصر عليهما.

ويتحدث ابن شداد عن هذه الغزوة فيقول: «في شهر رمضان سنة ٦٧٥ سار السلطان من القاهرة، بعد أن رتب الأمير شمس الدين أق سنقر الفارقاني أستاذ الدار نائباً عنه في خدمة ولده الملك السعيد، وترك معه من العسكر بالقاهرة لحفظ البلاد خمسة آلاف فارس، ووصل السلطان إلى دمشق ودخلها في ١٧ شوال، وخرج منها متوجهاً إلى حلب يوم ٢٠ شوال، فوصلها مستهل ذي القعدة، وخرج منها إلى حيلان، فترك بعض الثقل فيها وطلب من الأمير نور الدين علي بن مجلي النائب عنه في حلب أن يتوجه إلى الفرات ويقيم عليه بمن معه من العساكر ليحفظ المعابر هناك خوفاً من أن يعبر عليها أحد من المغول نحو الشام. ورحل السلطان من حيلان إلى عين تاب ثم إلى دلوك ثم إلى مرج الديباج، ثم إلى كينوك «الحدث الحمراء» ثم رحل منها إلى كوكصو وهو النهر الأزرق، ثم رحل عنه إلى أقجادربند*، فوصله في

(١) تاريخ ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - المجلد الخامس - ص ٤٦٦

ذي القعدة وقطعه في نصف نهار، فلما خرج منه انتشرت عساكره فسدت الآفاق، ومن حينها قدّم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه، فوقع على كتيبة من المغول فهزمهم^(١). ثم وردت الأخبار إلى السلطان بأن المغول والروم مع تداون والبرواناه على مقربة من العسكر، وأنهم نازلون على نهر جيحان، فلما نزل العسكر من الجبال أضحى على مشارف صحراء البلستين، فشهد المغول قد رتبوا عسكرهم أحد عشر طُلبًا، في كل طُلب ألف فارس^(٢). وعزلوا عسكر الروم عنهم، خوفًا من أن يكون لهم مع السلطان الظاهر باطن عليهم، وجعلوا عسكر الكرج طلبًا واحدًا، فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة المغول حملة واحدة فصدموها سنجقية السلطان، ودخلت منهم طائفة بينهم وشقوها، واتجهت نحو ميمنة السلطان، فلما رآهم السلطان هجم بنفسه، ثم التفت فرأى الميسرة قد أنحت عليها ميمنة المغل، فكادت أن تنهار، فأمر جماعة من حماة أصحابه وكما تهم، بإردافها، ثم هجمت العساكر برمتها هجمة رجل واحد، فلما رأى المغول أن لا ملجأ لهم من القتل والأسر، نزلوا عن خيولهم وقاتلوا فلم يغن ذلك شيئًا، وأنزل الله بأسه بهم، فقتلوا وفر من نجا منهم، فاعتصم بالجبال، فطلبوا وقصدوا^(٣). وأسروا من كبار الروميين: مهذب الدين بن معين الدين البرواناه، وينعت بكلا ريكي، يعني أمير الأمراء، وابن بنت معين الدين (ولد خواجا يونس) والأمير نور الدين جبريل بن جاجا، والأمير قطب الدين محمود أخو مجد الدين الأتابك، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير سيف الدين سنقر جاج الزوباشي، والأمير نصرة الدين بهمن أخ تاج الدين كيري صاحب سيواس، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأمير حسام الدين كياوك، والأمير سيف الدين بن الجاويش، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركماني، ومن مقدمي المغول على الألوف والمئين: «تداون»، و«توقو»، و«زيرك» صهر أبغا، و«سرطق» (قربته)، و«جركر»، و«سر كده»^(٤). ولما دارت رحى الحرب على المغول والروم، وقتل من قتل وأسروا من أسروا، فرمى معين الدين البرواناه على جواده يقطع المفاوز والآجام حتى دخل إلى قيصرية، واجتمع بالسلطان غياث الدين كيخسرو وأمرائه، وأوضح لهم أن المغول المنهزمين متى دخلوا

(١) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧١
* أقجاد ريند، قرية على فم الطريق الجبلي بين نهر كوكصو (الأزرق) وصحراء البلستين.

(٢) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٢

(٣) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٢

(٤) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٣

قيصرية فتكوا بمن فيها، حنقاً على المسلمين، وأشار عليهم بسرعة الخروج منها وأنذر نفوسهم عذاباً قريباً لا محيد عنه، فخرج السلطان غياث الدين كيخسرو بأهله وماله، وتوجهوا إلى توقات وبينها وبين قيصريّة أربعة أيام^(١). ولما انتصر السلطان في المعركة، أرسل الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة للاحقة من هرب من المغل، ومن ثم التوجه إلى قيصريّة وتأمين أهلها، وإخراج الأسواق والتعامل بالدرهم الظاهريّة*، ثم رحل السلطان بكرة يوم السبت ١١ ذي القعدة قاصداً قيصريّة، فمر في طريقه بقرية أهل الكهف، ثم على قلعة سمندو، فنزل واليها إليه مدعياً لطاعته، فشكر له ذلك، ثم على قلعة درندا، وقلعة دوالو، ففعل من فيها كما فعل من تقدم، وما زال يغذ السير مستظهِراً جبلاً ومستبطناً وادياً حتى نزل في ١٥ ذي القعدة في قيصريّة، فلما أصبح رتب عساكره، ولما أحس أهل قيصريّة منه الوصول، خرجوا إليه مستبشرين بلقائه، مستمطرين اليمن والبركة من تلقائه^(٢). وكانوا قد أعدوا لنزوله الخيام، فجاؤوا إليه على طبقاتهم ومشوا بين يديه إلى أن وصلها، وتبوأها، فلما كان يوم الجمعة ١٧ من الشهر، دخل السلطان قيصريّة وجلس على تخت السلطنة، وحضر إليه القضاة والفقهاء والقراء والصوفية، فقدم لهم الطعام فأكلوا وانصرفوا، ثم نهض لصلاة الجمعة، وعندما قضيت الصلاة فرق الهبات على المصلين، وجلس على تخت السلطنة وحمل إليه ما تركته زوجة البرواناه "كرجي خاتون" من الأموال وما تركه غيرها عند خروجهم من قيصريّة، وأرسل إليه البرواناه يهنيه بجلوسه على تخت السلطنة، فكتب له السلطان يأمره بالوفود عليه ليوليه مكانه، فكتب إليه أن ينتظر ١٥ يوماً، وكان مراده أن يصل إلى أبغا، ويحضره على المسير ليلتقي بالسلطان في البلاد، وعرف السلطان بجدسه مراد البرواناه، وكان ذلك هو السبب في رحيله عن قيصريّة^(٣). فنهض في ١٨ من الشهر عائداً، فمر في طريقه إلى مكان المعركة، ورأى أشلاء من قتل فيها، فسأل عن عدتهم ف قيل له، إن عدة من قتل من المغول ستة آلاف وسبعمائة وسبعون نفساً، فلما بلغ أقجا دربند، بعث الخزان والداهليز والسنجاق صحبة الأمير بدر الدين ببسليك الخزندار، ليعبر بها الدربند، ومن ثم لحقه هو فعبر الدربند ووصل إلى النهر الأزرق فقطعه، ثم رحل فوصل إلى كينوك ثم رحل إلى أن نزل في السادس من ذي الحجة قرب حارم، فعيّد هناك، ومن

(١) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٤

(٢) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٧

* يشير ابن شداد إلى نقطة مهمة، هي أن الملك الظاهر أمر أهل قيصريّة بأن يقيموا أسوأاً لبيع عساكره المواد التي يحتاجونها، كما أمرهم أن يتعاملوا بالدرهم الظاهريّة، ما يعني تبعيتهم له.

(٣) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٧

ثم رحل إلى دمشق فوصلها في سابع المحرم سنة ٦٧٦»^(١).

رابعًا: وفاة الملك الظاهر والأقوال في ذلك

عندما دخل الملك الظاهر إلى دمشق مكث فيها فترة قصيرة ثم توفي، ويقول كاتب السيرة محي الدين بن عبد الظاهر عن مرضه ووفاته: «وفي الخامس من المحرم سنة ٦٧٦ دخل السلطان دمشق، وقد ترخَّ للنصر أعطافه وروى من دماء الأعداء أسيافه، وقدامه مقدمو المغل، ونزل بقصره بالميدان الأخضر معتقداً أن الدنيا في يده قد حصلت، والبلاد التي حلها ركاية عنه ما انفصلت، وأن سعيه استخلص له الأيام وأصفاها، والممالك شرقاً وغرباً لو لم يكن بها غيره لكفاها، وإذا بالمنية قد نشبت أظفارها والأمنية قد وضعت حربها وأوزارها، والعافية قد شممت الذيل، والصيحة قد قالت لطبيبه: «أهلك والليل». وكان ابتداء مرضه ليلة السبت خامس عشر محرم، فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشره، ونزل عن جواده وهو متثاقل الحركة، ودخل خواصه مرة بعد مرة، وأعيا دواء الموت كل طبيب، فلما انقضت مدة أجله، وانطوت صحيفة عمله، قبض الله روحه الزكية، ورجعت إلى ربها راضية مرضية، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع وعشرين محرم، وحمل في محفته إلى قلعة دمشق في تلك الليلة، وجعل في بعض القاعات بالقلعة يوماً إليه بالترحم والسلام. وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً، وظل في قلعة دمشق حتى اشترى له ولده الملك السعيد دار العقيلي وبناها له تربة، وحمل إلى تربته «ليلة الرغائب»* من رجب سنة ٦٧٦»^(٢).

(١) تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - ص ١٧٩

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - ص ٤٧٥

* ليلة الرغائب، هي ليلة الجمعة الأولى من شهر رجب. قال رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس في كتاب «إقبال الأعمال» في باب فصل عمل أول جمعة من شهر رجب: «إعلم أن مقتضى الاحتياط للعبادة وطلب الظفر بالسعادة اقتضى أن نذكر عمل هذه الليلة الجمعة من أول ليلة من شهر رجب الشريف لجواز أن يكون أول ليلة منه الجمعة فيكون قد احتطنا للتكليف وإن لم يكن أوله الجمعة فيكون قد أذكرناك في أول الشهر بها إلى حين حضور أول ليلة جمعة منه لتعمل لها، وجدنا ذلك في كتب العبادات مروياً عن النبي ونقلته أنا من بعض كتب أصحابنا رحمهم الله فقال في جملة الحديث عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في ذكر فضل شهر رجب ما هذا لفظه: «ولكن لا تغفلوا عن أول ليلة جمعة فيه فإنها ليلة تسميها الملائكة «ليلة الرغائب» وذلك أنه إذا مضى ثلث الليل لم يبق ملك في السموات والأرض إلا يجتمعون في الكعبة وحواليها ويطلع الله عليهم اطلاقاً فيقول لهم: يا ملائكتي سلوني ما شئتم فيقولون: ربنا حاجتنا إليك أن تغفر لصوام رجب فيقول الله تبارك وتعالى: قد فعلت ذلك ثم قال الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»: ما من أحد صام يوم الخميس أول خميس من رجب ثم يصلي بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة يفصل بين الركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة، فإذا فرغ من صلاته صلى على النبي سبعين مرة. - إقبال الأعمال - ص ١٢٥

* ويتحدث البيهقي عن دفن الملك الظاهر في تربته فيقول: «وفي ليلة الجمعة من رجب نقل تابوت الملك الظاهر من

وهذه الرواية التي رواها ابن عبد الظاهر والتي تبين أن الملك الظاهر قد نزل به حكم القدر فمرض ومات، يجمع عليها معظم المؤرخين، لكن هناك قلة من المؤرخين يروون رواية أخرى مختلفة، فيقول المقريزي في رواية نقلها عن قطب الدين اليونيني: «إن الظاهر كان مولعًا بعلم النجوم، ف قيل له إنه يموت بدمشق في سنة ٦٧٦ ملك بالسم، فاهتم من ذلك، وكان قد دخل معه إلى بلاد الروم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، فأبلى في المصاف بلاءً عظيمًا أنكى به العدو، وتعجب الناس لعظم شجاعته، فأثر ذلك عند السلطان. واتفق أن السلطان كان منه ذلك اليوم فتور، وظهر عليه الخوف والندم على ما فعله من تورط نفسه وعساكره ببلاد الروم، فأنكر عليه الملك القاهر وقبح فعله، فأسرّ له السلطان ذلك إلى أن قدم دمشق، فسمع السلطان الناس تلهج مما فعله الملك القاهر في وقت المصاف، فاشتد حنقه وأخذ يتحيل في سمه، ليصح فيه ما دلت عليه النجوم من موت ملك بالشام، فإنه يطلق عليه اسم الملك فعمل دعوة لشرب القمزم* حضرها الملك القاهر، وقد أعد السلطان سمًا من غير أن يشعر به أحد. وكان له ثلاث طاسات تختص به مع ثلاثة سقاة لا يشرب فيها غيره، أو من يكرمه فيناوله أحدها بيده، فلما قام الملك القاهر لقضاء حاجته، جعل السلطان السم الذي أعده في طاس وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه، فقبل الأرض وشرب جميع ما فيه وقام السلطان لقضاء حاجة، وأخذ الساقى الطاسة من يد الملك القاهر، وملاه على العادة من غير أن يشعر بما عمله السلطان من السم فيه، وأمسكه بيده ووقف مع السقاة، فلما عاد السلطان من الخلاء تناول تلك الطاسة بعينها، وشرب ما فيها وهو لا يعلم أنها الطاسة المسمومة، فعندما شربها أحس بالتغير، وعلم إنه قد شرب بقايا السم الذي كان في الطاسة، فثقياً فلم يفد، وما زال به حتى مات.^(١)

وينقل المقريزي أيضًا رواية عن ركن الدين بيبرس المنصوري المؤرخ تقول، «إن القمر خسف جميع جرمه، ودل على موت رجل جليل القدر، فلما بلغ

قلعة دمشق إلى التربة التي أنشأها ولده الملك السعيد بدمشق داخل باب الفرج قبالة المدرسة العادلية الكبيرة، وهي دار الشريف العقيقي كانت انتقلت إلى ملك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الأتابك، فاشتريت من ورثته وهدمت وبني موقع بها قبة الدفن لها شبابيك إلى الطريق، وإلى داخل المدرسة، وجعل بقية الدار مدرسة على فريقين «شافعية وحنفية» وكان دفنه بها في النصف من الليل ولم يحضره سوى الأمير عز الدين إيدمر الظاهري نائب السلطنة بدمشق، ومن الخواص دون العشرة - ذيل مرآة الزمان - قطب الدين موسى بن محمد اليونيني الحنبلي - ج ٣ - ص ٢٣٦

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقريزي - ج ٢ - ص ١٠٤
* القمزم، بالتركية أو القمارص بالعربية، هو أحد أنواع الألبان المخمرة خصّه البعض بحليب الأبل وفي آسيا الوسطى يُصنع من حليب الفرس، سمّاه العرب القمارص لأنه يقرص اللسان لشدة حموضته، وهو شراب هامّ لدى شعوب آسيا الوسطى من أصول تركية.

الملك الظاهر هذا خاف، وقصد صرف ذلك إلى غيره، فسم الملك القاهر في كأس قمز، وأحس الملك القاهر بالشرفقام، وغلط الساقى فملاً الكأس وسقاه السلطان، فأحس بالنيران وأقام أياماً يشكو ولا يعلم الأطباء، حتى تمكن منه ومات. وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشر المحرم بعد الزوال، فكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً، وقد تجاوز الخمسين سنة ومدة ملكه سبع عشرة سنة وشهران واثنا عشر يوماً»^(١).

ويذكر ابن فضل الله العمري رواية مشابهة لرواية بيبرس المنصوري، حيث يقول: «في خامس محرم سنة ٦٧٦ وصل الظاهر إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق فلما كان يوم الخميس السابع والعشرين من محرم، توفي الظاهر بدمشق، وقت الزوال (الظهر)، واختلف في سبب موته: قيل إنه انكشف القمركسوفاً كلياً، وشاع بين الناس أن ذلك لموت رجل جليل القدر، فأراد الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره، فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من أولاد داود بن المعظم عيسى، وأحضر قمزاً مسموماً، وأمر السقاة بسقي الملك القاهر المذكور، وشرب الظاهر، ناسياً، بذلك الكأس على أثر شرب القاهر، فخاف القاهر عقيب ذلك، وأما الظاهر فحصلت له حمى محرقة، وتوفي وكنتم مملوكه ونائبه بدر الدين بلبيك موته»^(٢).

ونعتقد أن تلك الروايات، حول سبب وفاة الملك الظاهر، غير صحيحة ومختلفة لعدة أسباب، منها: أولاً، من هو الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك وأين كانت مملكته، وكيف ظهر فجأة في غزوة الروم، ولماذا لم يذكره المؤرخون قبل هذه الواقعة؟، وأيضاً كيف تجرأ هذا على توبيخ الملك الظاهر في المعركة وبحضور أمرائه وأجناده؟ وأيضاً كيف تقول تلك الروايات، إن الملك القاهر شرب الكأس، ولم يحدث له شيء ومن ثم شرب الظاهر من نفس الكأس فمرض حالاً ومن ثم مات؟ وكذلك هل كان الملك الظاهر بحاجة للقيام بكل هذه المؤامرة لوحده فيجلب السم ويضعه في القمز ويقدمه بنفسه إلى من يسمى الملك القاهر بهدف قتله؟ قطعاً لم يكن السلطان بحاجة إلى كل ذلك إذ كان قادراً أن يخفي القاهر عن وجه الأرض بكلمة واحدة أو إشارة منه لأمرائه وعساكره.

ومن دون شك أن من وضع هذه الرواية أراد من خلالها الإساءة إلى السلطان الظاهر، وإظهار أنه ختم حياته بمؤامرة دنيئة أدت إلى مقتله هو بدلاً من

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٠٤

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - ج ٢٧ - ص ٢٨٣

مقتل غريمه . لكن إذا كان السلطان الظاهر مات مسمومًا فإن ذلك تمّ بتدبير من بعض الأمراء الحاقدين عليه وليس بتدبير منه هو نفسه .

خامسًا: نظرة على أعمال الملك الظاهر

لم يكن الملك الظاهر رجلاً عادياً، بل كان يكتنز من العبقرية والحكمة والشجاعة الشيء الكثير، وكأنه وُلد ليكون ملكاً جباراً لا يُقهر، فقد كان هو السبب في القضاء على دولة الأيوبيين في مصر بعد أن قتل تورانشاه، ولعب دوراً كبيراً في تولية عز الدين أيبك السلطنة، ومن ثم في خطوة لاحقة قتل السلطان قطز وتوج نفسه ملكاً مكانه . وأول عمل قام به هو أنه رتب شؤون دولته وأقام المذاهب الأربعة « الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي »، ومنع عدا ذلك من المذاهب الإسلامية الأخرى، ومنذ ذلك الوقت انحصر الإسلام السلفي بهذه المذاهب الأربعة التي لاتزال مستمرة إلى اليوم^(١) . ورغم أن ذلك يعد منقصة بحقه لأنه لم يلحظ كامل الطيف الإسلامي الذي كان موجوداً آنذاك، إلا أنه ربما كان مكرهاً للسير في هذا الاتجاه بسبب غلبة الطابع السلفي على مصر والشرق منذ عهد صلاح الدين ومن جاء بعده .

لكن الجانب المهم في حياة الملك الظاهر هو ما يتعلق بالوجود الصليبي في الشرق، فقد كان هو السبب في الخلاص من الصليبيين، وقد التقط اللحظة التاريخية المناسبة والمتمثلة في هجوم المغول على أوروبا، وأدرك أنه لا نجدة صليبية ستأتي من ما وراء البحر إلى الشرق، ولذلك افتتح تلك الحرب ضد الإمارات الصليبية، وكان ينتقي أهدافه بعناية شديدة، حتى تمكن من تفتيت قوة الصليبيين، وكان محاطاً بجيش كبير من الجواسيس والعملاء الذين كانوا يزودونه بالمعلومة في ساعته عبر طيور البطائق « الحمام الزاجل » فكان يعرف كل ما يجري حوله، لكي يتمكن من اتخاذ القرار المناسب .

وكان كريماً على أمرائه وأعوانه يعاملهم بكل محبة وتقدير، ولذلك كان يجد من هؤلاء طاعة عمياء له .

(١) ذكر ابن تغري بردي في أحداث سنة ٦٦٣ فقال: « ثم ولي الملك الظاهر سنة ٦٦٣ في كل مذهب قاضياً مستقلاً بذاته، فصارت قضاة القضاة أربعة، وسبب ذلك كثرة توقف قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز في تنفيذ الأحكام، وكثرة الشكاوى بسبب ذلك، فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة شكا القاضي المذكور الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي في المجلس، وكان يكره القاضي تاج الدين المذكور، فقال أيدغدي بحضرة السلطان، يا تاج الدين، نترك مذهب الشافعي لك، ونولي معك من كل مذهب قاضياً، فقال الملك الظاهر إلى كلامه، فولى السلطان الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي قاضي الحنفية بالديار المصرية، وولى القاضي شرف الدين عمر السبكي المالكي قاضي القضاة المالكي، وولى الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ العماد الحنبلي قاضي القضاة الحنبلي، وفوض لكل واحد منهم أن يستنيب بالأعمال وغيرها، ثم فعل ذلك ببلاد الشام كله . - النجوم الزاهرة - ج ٧ - ص ١٢٢

وكان بالإضافة إلى ذلك ذا همّة عالية، وصبر لا ينفد في الشدائد، وخير شاهد على ذلك مسيره لقتال الأرمن ومسيره لقتال سلاجقة الروم. ولا يمكن تصوّر حجم معاناته وهو يتسلق جبال قليقية لقتال الأرمن، أو وهو يعبر الدروب لقتال سلاجقة الروم وحلفائهم المغول.

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نعتبر الملك الظاهريبيرس أعظم ملوك التُّرك الذين حكموا في بلادنا.

سادسًا: قتال الصليبيين بعد الملك الظاهر

كان الملك الظاهر قد أخذ البيعة في حياته لولده الملك السعيد محمد بركة خان، فلما توفي، بايعه الأمراء بالسلطنة، وكان القائم بتدبير دولته الأمير بدر الدين بيبيك الخزندار، الذي كان نائب السلطنة في عهد والده، وكان هذا من ذوي العقول، خيرًا دينيًا، كثير الصدقات، كما يقول ابن إياس، لكن الأمير بيبيك مرض وسلسل في المرض حتى مات أواخر سنة ٦٧٦، فلما مات طاش الملك السعيد واقتدى برأي الأوباش، فقبض على جماعة من الأمراء منهم الأمير سنقر الأشقر، والأمير بيسرى، وكانا جناحي والده الملك الظاهر، ثم قبض على جماعة من أمراء والده، ثم جعل الأمير أقسنقر الفارقاني نائب السلطنة عوضًا عن بيبيك، فأقام في نيابة السلطنة مدة يسيرة، ثم قبض عليه وسجنه في الإسكندرية وأرسل إليه من خنقه وهو في السجن.

واستمر الملك السعيد يفعل من هذه المساوئ حتى نفرت عنه قلوب العسكروتمنى كل أحد زواله^(١). فنقم عليه الباقون، وثاروا ضده، وأجبروه على أن يخلع نفسه من السلطنة وأن يتوجه إلى الكرك، فنزل على أمرهم، فخلع نفسه من السلطنة ورحل إلى الكرك فأقام بها مدة ثم مات ودفن في دمشق إلى جوار والده^(٢).

ومن ثم بويع بالسلطنة لأخيه الملك العادل سيف الدين سلامش في ربيع الأول سنة ٦٧٨، وكان عمره سبع سنين ونصف، وكان القائم بتدبير شؤون المملكة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي*، وكان يخطب له وللملك العادل سلامش على منابر مصر وأعمالها، وضربت السكة باسمهما، وكان قلاوون الألفي، في الحقيقة، هو السلطان، وليس للملك العادل سوى مجرد الاسم^(٣).

(١) بدائع الزهور في واقع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٣٤٣

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٣٤٦

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٣٤٦

وسعى قلاوون للتمهيد لنفسه، فعزل النواب من البلاد الشامية، وولى من يثق به من أتباعه، ثم قبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وأرسلهم إلى السجن في الإسكندرية، ومن ثم خلع الملك العادل وأرسله مع أخيه خضر إلى الكرك، فكانت مدة سلطنة العادل سلامش خمسة أشهر وأياماً^(١).
وتولى قلاوون السلطنة وسمي «الملك المنصور».

(١) بدايع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ١ - ص ٣٤٧
* «كان السلطان قلاوون من جنس القبقاق، أو القفجاق، وهم يشكلون دولة كازاخستان الحالية». وقد جلب إلى مصر وهو صغير، فاشتراه الأمير أقسنقر العادلي أحد مماليك الملك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار، فعرف من ذلك بالألفي» - السلوك - المقرئ، ج ٢ - ص ١٢٢

الفصل الرابع

السلطان قلاوون والصليبيون

بعد أن استقر السلطان قلاوون الألفي في السلطنة، وصل إليه سنة ٦٨٠ رُسل مملكة عكا وإمارة طرابلس الصليبية، يسألون تقرير الهدنة، والزيادة على الهدنة الظاهرية. فتقررت الهدنة بين السلطان وولده (الملك الصالح علي) معًا، وبين مقدم بيت الاستتار، وجميع الاستتارية بعكا، لمدة عشر سنين كوامل، وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة ثمانين وستمئة، وذلك على جميع بلاد السلطان، وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع والحصون، والمدن والبلاد والقرى، والمزارع والأراضي، والمواني والبحور، والمراسي والثغور، وسائر البلاد من الفرات إلى النوبة وعلى التجار المسافرين في البر والبحر، والسهل والجبل، في الليل والنهار، وعلى قلعة المرقب، وريض المرقب بحقوقه وحدوده^(١).

وعقد السلطان هدنة أخرى مع أمير طرابلس بوهيموند بن بوهيموند مدتها عشر سنين كوامل متواليات يتبع بعضها بعضًا، أولها يوم السبت ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٨٠ وآخرها سابع عشر ربيع بالأول سنة ٦٩٠، وذلك عن بلاد السلطان وما هو مجاور لطرابلس ومحدد لها من المملكة البعلبكية جميعها، وجبالها وقراها الساحلية والجبلية، وجبال الضنين والغضبين، ومما هو في جملتها، وعلى الفتوحات المستجدة وهي: حصن الأكراد وبلادها، وأفليس وبلادها، والقليعات وبلادها، وصافيتا وبلادها، وميعار* «شاكر» وبلادها، وأطليعا «الطليعي»* وبلادها، وحصن عكار وبلادها، ومرقية ومدينتها وبلادها، ومناصفاتها، وهي بلاد اللكمة، وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها، ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاستتار وبلده ومدينته، وبلاطنس وبلادها، وقرفيص وبلادها، وجبله واللاذقية وأنطاكية والسويدية وبلاد ذلك، وحصن بغراس، وحصن ديركوش وصهيون وبرزية، وحصون الدعوة وهي، مصيف وبلادها، والقدموس وبلادها، والكهف وبلادها، والخوابي وبلادها، والقليلة وبلادها، والعليقة وبلادها، والمنيقة وبلادها، والرصافة وبلادها. وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى، على يد السلطان ويد ولده، وعلى المواني والسواحل والأبراج وغير ذلك، وعلى بلاد الإبرنس، وعلى طرابلس وما هو داخل فيها، وأنفه، والبترون،

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٣٩
* ميعار شاكر، قرية تقع على بعد ١٧ كيلومترًا جنوب طرطوس، فيها برج أثري للصليبيين.
* أطليعا «الطليعي»، قرية تقع جنوب صافيتا وتتبع لها،

وجبيل، وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة، وعدتها إحدى وخمسون ناحية، وما هو للخيانة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلدًا، وعلى أن يستقربح اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجنایات والغلات وغيرها مناصفة. وعلى أن يكون على جسر أرتوسية*، من غلمان السلطان ليحفظ الحقوق، ستة عشر نفرًا وهم: المشد والشاهد والكاتب وثلاثة غلمان لهم، وعشرة رجالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسريوت يسكنونها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا، من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان، يؤخذ عليه الحقوق. ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس ولا غيره، إلا ويؤخذ الموجب عليها؛ وعلى أن البرنس لا يستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه، بناء يدفع ولا يمنع، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد، التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة، كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت أحدهما. ولا بتغييره. وتقررت الحال على ذلك وعادت رسل كل جهة إليها»^(١).

ويتبين من هذا النص أن الفتوحات المستجدة في عهد الملك الظاهر شملت قرية، ميعار شاكر، وكان للصليبيين فيها مركز يحكمون من خلاله كل القرى المحيطة بها من ناحية السهل وناحية الجبل، كما شملت الفتوحات، قرية الطليعي، وكان للصليبيين فيها مركز يحكمون من خلاله القرى المحيطة بهذه القرية كذلك.

وقد ورد في هدنة أخرى وقعها السلطان مع مملكة عكا يوم الخميس ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٢، ذكر البلاد التي تمّ ذكرها في الهدنة الأولى، وأضيف إليها العريمة وبلادها، وسلمية وبلادها، وتدمر وبلادها، وشميميس* وبلادها، والسويداء* وبلادها^(٢) وسوى ذلك من البلاد الأخرى التابعة للسلطان، وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت عليها الهدنة وهي: مدينة عكا وأراضيها وبساتينها وطواحينها، وما تقررها من بلاد في هذه الهدنة وعدتها بما فيها من مزارع ٧٣ ناحية خاصة للفرنج، وكذلك حيفا والكروم والبساتين التابعة لها، وكذلك مارينا بأرضها المعروف، ودير السياج ودير مار الياس يكون للفرنج، وصيدا وجميع ما لها للفرنج، ويكون لها من البلاد ١٥ ناحية، وعلى أن الفرنج لا يحددون في غير عكا

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٤٠
* جسر أرتوسية، لعل هذا الجسر كان على النهر الكبير الجنوبي الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط عند بلدة العريضة في منطقة سهل عكار شمال لبنان.

* السويداء، هي مدينة ومركز محافظة في جنوب سوريا، ولم يرد اسم السويداء في أي مرجع تاريخي إلا في هذا الصلح، وربما سميت السويداء بهذا الاسم بسبب طبيعة أرضها السوداء البركانية.

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٦٧

وعتليت وصيدا، سورًا ولا قلعة ولا برجًا ولا حصنًا قديمًا أو مستجدًا^(١).

غير أن هذه الهدنات لم تستمر طويلاً، وأول ما نقضه السلطان هو الهدنة مع بيت الاسبتار، فقرر منازلته حصن المرقب لأن الاسبتار فيه ساعدوا المغول في هجماتهم على حلب، فسار السلطان سنة ٦٨٤ إلى دمشق فوصلها في ١٢ محرم، ومن ثم سار منها ونزل على حصن المرقب وقاتله لمدة ٣٨ يومًا، حتى أخذه عنوة وأخرج من فيه من الصليبيين إلى طرابلس^(٢).

وكانت اللاذقية مناصفة بين التُّرك والصليبيين، وقد ورد ذكرها في هدنة طرابلس، لكن الصليبيين فيها قاموا بتصرفات تنقض الهدنة حيث منعوا تجارًا حلبيين من إرسال سلعهم التجارية عبر الميناء، واشتكى هؤلاء إلى السلطان، وكان الوجود الصليبي في هذه المدينة هو آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية، وسنحت الفرصة للسلطان لنقض الهدنة في صيف سنة ٦٨٥، إذ تعرضت أسوار اللاذقية لأضرار نتيجة زلزال حدث في تلك السنة، فأرسل الأمير حسام الدين طرناي إليها فحاصرها حتى استسلمت حاميتها بعد أن يُنسب من وصول المساعدة^(٣).

ومن ثم سار نحو قلعة صهيون فحاصرها حتى آيس الأمير سنقر الأشقر من النجاة، فطلب الأمان فأمنه وسار به إلى مصر، حيث استقبله قلاوون وعفا عنه^(٤).

وكانت إمارة طرابلس تعيش في أزمة فقد مات أميرها بوهيموند السابع في سنة ٦٨٦ ولم يكن له وريث سوى أخته «لوسيا» زوجة «نارجو توسي» الذي كان أميرًا لبحرية شارل أنجو*، وكانت وقتذاك تقيم في أبوليا، وكره نبلاء طرابلس دعوة هذه الأميرة لكي لا تصبح طرابلس ضمن ممتلكات شارل أنجو، ولذلك عرضوا الإمارة على «سيبيل» أميرة قليقية «أرمينيا الصغرى»، ولما كانت سيبيل غير قادرة على ترك إمارتها والمجيء إلى طرابلس، فقد قررت أن تجعل «بارثلميو» أسقف طرطوس، نائبًا عنها في هذه الإمارة، لكن النبلاء الجنوبيين لم يقبلوا بذلك وقرروا عزل الأسرة الحاكمة وإقامة «قومون common*» يتولى الحكم، وقام بأمر القومون «بارثولوميو أمبرياكو»، وكان من جنوة، غير أن البندقية، عدوة جنوة، لم تقبل بذلك وحرّضت البيوت المتحالفة معها، الدواية والاسبتارية والتوتون، على مساندة «لوسيا» صاحبة الحق الشرعي في

(١) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٦٨

(٢) السلوك إلى معرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقرئ - ج ٢ - ص ١٨٩
* قلعة شميميس، إحدى قلاع سوريا تقع شمال غربي مدينة السلمية.

(٣) المغول - سيد الباز العريبي - ص ٣١٢
* القومون common، حكم جماعي أو مشترك.

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٣ - ص ٣٥٥
* شارل الأول، ملك نابولي أو كارلو الأول أنجو

طرابلس، وهرع الفرسان الداوية الاستبارية والتيتوتون على القدوم إلى طرابلس، وعند ذلك أدرك الجنويون صعوبة الانفراد بالحكم، فوافقوا على دعوة «لوسيا» بعد أن اشترطوا أن يكون لهم شوارع إضافية في المدينة وأن يكون للقومون الحق في الإدارة^(١).

وكان قد قدم على السلطان رسولان من عكا فحذراه بأنه إذا صار للجنويين السيادة على طرابلس فسوف تصبح مصر تحت رحمتهم^(٢). ولذلك وجد السلطان أن الفرصة باتت مناسبة للإيقاع بالصلبيين في طرابلس، وكان هؤلاء قد نقضوا قواعد الصلح، ونكثوا أسباب الهدنة، كما يقول النويري^(٣)، فسار السلطان بالعساكر نحو سوريا مطلع سنة ٦٨٨، فوصل دمشق، في يوم ثالث عشر صفر، وكتب إلى النواب بالممالك الشامية، بتجهيز الجيوش وإنفاذ المجانيق وآلات الحصار، وتوجه من دمشق في العشرين من الشهر، ونازل طرابلس بالجيوش وحاصرها، ووالى الزحف والحصار والرمي بالمجانيق^(٤).

ولما كان للصلبيين السيطرة على البحر فقد كان بوسعهم أن يضمنوا وصول المؤن إليهم، لكن الاستحكامات البرية لم تستطع الصمود للقذائف المتدفقة من المجانيق، فتدمر برجان في الجنوب الشرقي للمدينة، وأدرك البنادقة أنه لا جدوى من المقاومة فانسحبوا، ولم يلبث الجنويون أن تبعوهم خوفاً من أن يأخذ البنادقة سفنهم، وترتب على انسحاب الإيطاليين أن وقع الاضطراب والفوضى، وحينها أمر السلطان قلاوون بالهجوم الشامل، فتدفقت العساكر إلى داخل المدينة، وهرب أمامهم إلى الميناء جموع العساكر والسكان، ولجأت الكونتيسة إلى سفينة قبرصية^(٥).

وكانت مدة المقام على طرابلس أربعة وثلاثين يوماً، ولما فتحت، فرت طائفة من الصليبيين إلى جزيرة تعرف بجزيرة النخالة، حيال طرابلس في البحر، لا يتوصل إليها إلا في المراكب، فكان من السعادة، كما يقول النويري، أن البحر انحزروا وناطرد عن طرابلس فظهرت للناس المخائض، فعبر الفارس والراجل إلى هذه الجزيرة، وأسروا وقتلوا من فيها، وغنموا ما كان معهم^(٦).

وكان جماعة من الصليبيين قد ركبوا في مركب وتوجهوا، فألقتهم الرياح إلى

(١) المغول - سيد البار العربي - ص ٣١٣

(٢) المغول - سيد البار العربي - ص ٣١٣

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ٣٢

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ٣٣

(٥) المغول - سيد البار العربي - ص ٣١٤

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ٣٣

الساحل، فأخذهم الغلمان. وقتل منهم خلق كثير وغنمت العساكر غنائم كثيرة. وكان السلطان أمر بإبقاء المدينة، وإنزال الجيش بها. فأشير عليه أن هدمها أولى من بقائها، فأمر بهدمها فهدمت، وكان عرض سورها بمقدار ما يسوق عليه ثلاثة فرسان بالخيول^(١).

ومن ثم سار السلطان قلاوون جنوبًا فأخذ، البترون، وأنفة، ولم يبق من أملاك طرابلس سوى، جبيل، التي ظل أميرها بطرس أمبرياكوس يحكمها، تحت مراقبة المماليك^(٢).

وهكذا عادت طرابلس بعد أن ظلت في الأسر الصليبي ١٨٥ سنة، لكنها عادت بوجه آخر، فقد كانت مدينة شيعية خالصة، فأصبحت مدينة سنية خالصة، وعلى ما يبدو فقد سكنها جماعة من عسكر السلطان وانضاف إليهم جماعة من تركمان المناطق المجاورة ولاسيما في عكار وكسروان. ومن ثم وفد إليها بعض المسيحيين من منطقة الجبّة، فأصبح فيها طائفة مسيحية صغيرة، كما وفد إليها علويون، في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين للميلاد، من بعض قرى عكار، فأصبح هناك طائفة علوية صغيرة فيها أيضًا.

وهكذا قامت طرابلس الحديثة القلقة التي تخبّطت ولاتزال في وحول الصراع الطائفي.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ٣٣

(٢) المغول - سيد الباز العريني - ص ٣١٤

الفصل الخامس

الأشرف خليل والصليبيون

عاد السلطان إلى مصر في شعبان سنة ٦٨٨، ومكث فيها فترة يقضي في شؤون دولته، فجاءه خبر بأن أهل عكا فعلوا أفعالاً تنقض الهدنة، فأرسل السلطان إلى نائب السلطنة بدمشق يأمره بتجهيز المجانيق وعدة السلاح لمحاصرة عكا^(١)، ومن ثم في شعبان سنة ٦٨٩، جاءه خبر بأن جماعة من الصليبيين في عكا قتلوا جماعة من تجار المسلمين كانوا قد قدموا للمتجرتمسكاً بالهدنة، وذلك في شعبان سنة ٦٨٩، وادعى أهل عكا أن ذلك إنما فعله الصليبيون الغرب، وأنه ليس برضاهم^(٢). فأهمه أمر عكا وتجهز لغزوها. وخرج لذلك، لكنه مرض في مطلع شوال من السنة وتوفي في الثالث الأخير منه، فجلس على تخت السلطنة من بعده ولده الأشرف صلاح الدين خليل، وبعد أن استقر ملكه، نهض نحو سوريا سنة ٦٩٠، فقصده دمشق واجتمع إليه الرجال وأدوات الحصار التي بلغت نحو مئة منجنيق من كل أنحاء الامبراطورية، وشملت قواته نحو ٦٠ ألف فارس، و١٦٠ ألف من الرجال، وعسكر هذا الجيش الضخم أمام سور عكا في نيسان من تلك السنة، وبدأت المجانيق تقذف السور بالحجارة الضخمة وبشكل مستمر، ولم يتحمل السور ما تعرض له، واندفع جيش الأشرف خليل نحو الداخل، ولم يستطع المدافعون عن عكا أن يستردوا ما احتله الجيش المصري من مواضع، فقتل الكثير من الصليبيين، والباقي هربوا بالمراكب إلى أوروبا، وقام الملك الأشرف بتهديم سور عكا كما هدم قلعتها^(٣).

وبعد سقوط عكا دخل الرعب في قلوب الصليبيين فأخلوا صور وصيذاء، وحيثما من غير قتال^(٤). وكان هؤلاء بعد موت صلاح الدين وانتهاء الهدنة، سنة ٥٩٣، قد خرجوا من عكا بجيشهم وقصدوا صيذاء فأخذوها، وعندما علم أسامة بن منقذ وكان أميراً على بيروت بذلك، خرج من المدينة بجماعته وأهله، فأخذها الصليبيون في ١٠ ذي الحجة من تلك السنة^(٥). وظلت المدينتان في أيديهما حتى فتحنا في ذلك الوقت.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ١٠٩

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ١١١

(٣) المغول - سيد الباز العربي - ص ٣١٧

(٤) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب - صالح بن يحيى - ص ٢٧

(٥) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب - صالح بن يحيى - ص ٢٥

وكان قد تأخر فتح عثليث وقلعة صيداء التي في البحر فعيّن السلطان سنجر الحلبي وسنجر الشجاعى لفتحهما. ثم توجه السلطان من عكا إلى دمشق، ففتحت عثليث وقلعة صيداء وعندما فرغ سنجر الشجاعى من خراب قلعة صيداء توجه على الخيل إلى دمشق فلما وصل إلى بيروت تلقاه صاحبها وخياله أحسن ملتقى ونزل في القلعة وأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة ففعلوا، وظنّوه شفقة عليهم، فلما صاروا بالقلعة قبض على الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق وذلك في نهار الأحد ٢٣ رجب سنة ٧٩٠.

ثم جهز سنجر الشجاعى علم الدين الداودى والجاكى إلى جبيل فأخذها مع قلعتها وكانت محكمة البناء.

ثم جهز سنجر الشجاعى أهل بيروت على دمشق ومنها أنفذهم إلى مصر بأجمعهم، فهلك منهم المشائخ والعجائز والنساء، ولما وصلوا إلى مصر أطلقهم السلطان وقال: «أما ني باق عليكم». وخيرهم بين العود إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص، فتوجهوا إلى قبرص بأجمعهم^(١).

ويقول ابن سباط: «لما فتح الأشرف خليل بن قلاوون بيروت استقرت الكنيسة جامعاً، وكانت عند الفرنج تعرف بكنيسة يوحنا، وشرفها الله تعالى، وصارت جامعاً وكان بها صُور، فقام أحد أمراء الغرب فيبيضا وأزال عنها الضر من آثار تلك الصور»^(٢).

ويذكر هنري غيز، أن المماليك هدموا كل بيوت الصليبيين في بيروت ودمروا كل صناعتهم، وتركوا كنيسة القديس يوحنا التي تمّ تحويلها إلى مسجد^(٣).

ولم يحاول الداوية الاحتفاظ بقلعة الحجاج «قلعة صنجيل» وطرطوس، ولم يبق سوى أرواد التي اجتمع فيها، كما يقول أبو الفداء، جمع كثير من الصليبيين وبنوا فيها سوراً وتحصنوا، وكانوا يطلعون منها ويغيرون على الساحل.

وطلب نائب طرابلس اسندمر الكرجي من السلطان بمصر إرسال الأسطول لقتال الصليبيين في أرواد، فعمرت الشواني وسارت من مصر في بحر الروم ووصلت إليها في المحرم من سنة ٧٠١، وجرى بينهم قتال شديد وانتصر الترك وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها، وعادوا إلى مصر بالأسرى والغنائم^(٤).

وبعد أن أصبحت البلاد في قبضة خليل بن قلاوون، أمر بهدم كل ما يقع على

(١) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب - صالح بن يحيى - ص ٢٨

(٢) تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط - ج ١ - ص ٥٠٩

(٣) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي - هنري غيز - ج ١ - ص ١٧

(٤) المختصر في تاريخ البشر - عماد الدين إسماعيل أبي الفداء - ج ٤ - ص ٤٧

الشاطئي من قلاع حتى لا يعود الصليبيون للنزول بها^(١). ومن ثم أسكن جماعة من جيشه في المدن التي حررها، وهذا ما يفسّر أن هذه المدن تسكنها غالبية سنية، باستثناء صور التي كانت كذلك، لكن «المتاولة» الشيعة الذين كانوا يشكلون جيش الأمير ظاهر العمر*، قد استولوا عليها عام ١٧٧٠ وجعلوها ميناء لهم^(٢). ومنذ ذلك الوقت أصبحت صور مدينة ذات غالبية شيعية.

(١) المغول - سيد الباز العريبي - ص ٣١٧

(٢) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - فولني - ج ١ - ص ٦٣
* ظاهر العمر، أمير عربي حكم شمال فلسطين وجنوب لبنان وشرق الأردن منذ عام ١٧٢١ واتخذ من عكا عاصمة له، وظل في الحكم حتى استشهد في الحملة التي أرسلها عليه التُّرك بقيادة أحمد باشا البوشناق - الجزائر عام ١٧٧٥.

الفصل السادس

الحملة على العلويين في جبل كسروان

آثر التُّرك إلا أن يتركوا بصمة سوداء لا تمحى من سجلهم أبد الدهر، وهذه هي طبيعة الجاهل فهو يؤدي بينما يظن أنه يفعل خيرًا، فقد كان هؤلاء مسكونين بالحقن الطائفي والجهل في أخلاق وطبائع الناس، وقد نظروا إلى سكان جبال كسروان الممتدة من طرابلس إلى دمشق نظرة استنكار، لأن أهلها رفضوا الخضوع لهم، وزاد من اهتمام هؤلاء بتلك الجبال بعد استيلائهم على طرابلس، حيث أنهم لم يتمكنوا من إرسال الولاة إلى تلك الأصقاع، بسبب امتناع أهلها وتمسكهم بحريتهم.

وكان الأمراء البحريون من بني الغرب*، من أكثر المُحرِّضين ضد أولئك السكان بسبب اختلاف المعتقد، فأمرء الغرب كانوا سُنيين مثل الترك، وكانوا على تماس مع كسروان بسبب تداخل مناطق سيطرتهم بتلك الجبال، ولذلك كانوا يواصلون إرسال الكتب إلى سلطان المماليك طالبين منه تجهيز الجيوش لإخضاع كسروان وتأديب أهلها. ويختلف مؤرخو التُّرك في تحديد طائفة أولئك السكان، فبعضهم يقول إنهم «دروز» مع وجود آخرين من المارقين، مثل ابن سباط الذي نقل عنه البطريق اسطفان الدويهي، ومنهم قال إنهم كانوا من «النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين» مثل عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، الذي قال ما نصه: «سارجمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظنيين وكانوا عصاة مارقين من الدين، فأحاطت العساكر بتلك الجبال المنيعه، وترجلوا عن خيولهم، وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين وطهرت الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس، وأمنت الطريق بعد ذلك، فإنهم كانوا يقطعون الطريق ويختطفون المسلمين «الترك» ويبيعونهم للكفار»^(١). ومنهم من قال إنهم روافض مثل ابن فضل الله العمري الذي قال في أحداث سنة ٧٠٥: «وفيها نازل نائب دمشق بعساكره جبل الجرد، وقهرهم وأذلهم وهم روافض

* سُموا أمراء الغرب لحكمهم منطقة عرفت بالغرب وهي سفوح الجبال التي تطل على مدينة بيروت وضواحيها الساحلية الجنوبية، ويزعمون أنهم من تنوخ وهذه القبيلة العربية برينة منهم، لأنهم من الترك. وقد تلاشى نفوذهم بعد اكتساح العثمانيين لدولة المماليك، لأنهم كانوا مع سلطان المماليك قانصوه الغوري في معركة مرج دابق.

(١) المختصر في تاريخ البشر - عماد الدين إسماعيل أبي الفداء - ج ٤ - ص ٥٢

فتكوا بالجيش وقت الهزيمة، وعملوا كل قبيح»^(١).

لكن في ظل غياب مصادر مستقلة عن حياة أولئك السكان وعن عقائدهم، فإنه يمكن القول إنهم كانوا مسلمين، وكان لديهم معتقدات تخالف معتقدات الحُكّام التُّرك وأتباعهم. ولأنهم كانوا حريصين على استقلالهم، فقد زاد خوف التُّرك منهم، وتأهبوا لخوض حرب «مقدسة» ضدهم بعد حربهم ضد الصليبيين.

ويذكر النويري في أحداث سنة ٦٩١، فيقول: «في شعبان من هذه السنة، توجه الأمير بدر الدين بيدرا بمعظم العساكر المصرية، وصحبته من الأمراء الأكابر، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين بكتوت العلّائي وغيرهم، وقصد جبال الكسروان. وأتاهم من جهة الساحل، الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا، والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما. والتقوا بالجبل، وحضر إلى الأمير بدر الدين بيدرا من أثني عزمه، وكسر حدّته. فحصل الفتور في أمرهم، حتى تمكنوا من بعض العسكر، في تلك الأوعار، ومضايق الجبال، فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المنهزم، وطمع أهل تلك الجبال، فاضطر الأمير بدر الدين إلى إطابة قلوبهم والإحسان إليهم. وخلق على جماعة من أكابرهم، فاشتطوا في الطلب، فأجابهم إلى ما التمسوه، من الإفراج عن جماعة منهم، كانوا قد اعتقلوا بدمشق، لذنوب وجرائم صدرت منهم. وحصل لأهل كسروان من القتل والنهب والظفر، ما لم يكن في حسابهم. وحصل للأمراء والعسكر من الألم لذلك، ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، ونسبوه إلى أنه إنما أهمل أمرهم، وفتح عن قتالهم، حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه، وأنه تبرطل منهم وأخذ جملة كثيرة، ولهج الناس بذلك»^(٢). وتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بالعساكر إلى دمشق. فتلقاه الملك الأشرف، وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام عليه. فلما خلا به، أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر، فمرض لذلك، حتى أشاع الناس أنه سقي. ثم عوفي في العشر الأوسط من شهر رمضان، فتصدّق السلطان بجملة كثيرة، شكرًا لله تعالى على عافيته، وأطلق جماعة كثيرة ممن كانوا في السجون. وتصدّق هو أيضًا بجملة، ونزل عن كثير مما كان قد اغتصبه من أملاك الناس، بالإيجار الذي هو على غير الوجه الشرعي. وجمع العلماء والقضاة والقراء والمشايخ، في العاشر من شهر رمضان، بالجامع بدمشق لقراءة الختمة. وأشعل الجامع في هذه الليلة، كما يشعل في نصف شعبان»^(٣).

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - ج ٢٧ - ص ٣٢٨

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ١٥١

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣١ - ص ١٥١

ونفهم من هذا النص أن السلطان المملوكي الأشرف خليل جهز من دمشق الأمير بدر الدين بيدرا على رأس جيش ضخم فيه جملة كبيرة من الأمراء ووجههم إلى جبال الجرد وكسروان، فصعدوا إلى تلك الجبال من ناحية دمشق على طريق بعلبك، البقاع، وجاءهم من جهة الساحل جيش آخر بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا، فلما التقت العساكر في تلك الجبال، تراجع قائدهم بيدرا عن القتال. وهناك من زعم أنه خاف من قوة الجبليين، وهناك من زعم أنه أخذ جملة من المال من أمراء الجبل لقاء عوده عنهم، فعاد بيدرا ومرض بدمشق، وأُشيع أن السلطان سقاه سمًا ثم شفي وعاد إلى طبيعته ما استدعى التُّرك إلى إقامة احتفال بالجامع بدمشق لقراءة الختمة بهذه المناسبة السعيدة.

كما نفهم من هذا النص أن التُّرك في دمشق كانوا يهاجمون تلك الجبال من نواحي بعلبك والبقاع وأنهم أسروا مجموعة من الرجال، فاشتراط الأمراء على بيدرا إطلاق سراحهم، كما أنهم قتلوا من عسكر التُّرك وأخذوا منهم أشياء كثيرة. ورغم أن النويري لا يوضح السبب الذي دفع الأشرف خليل إلى إرسال جيشه لقتال أهل كسروان.

لكن، بلا ريب، أن السبب هو الخلاف المذهبي، وهذا ما يُستشف من أقوال مؤرخي التُّرك الذين نسبوا سكان تلك الجبال إلى الإلحاد، وهذا يدل على أنهم كانوا يخالفونهم في العقيدة.

وقد همدت فورة التُّرك ضد أهل جبل كسروان فترة، لكن في سنة ٦٩٨، بدأت الحرب من جديد على شكل مناوشات بين الطرفين، فكان التُّرك يغزون الجبال فيعيد جيش الجبل فيغزو بلاد التُّرك في دمشق وطرابلس.

وكان الجبليون، كما يقول البطريق «أسطفان الدويهي»، قد أحموا حدودهم من أنطلياس* إلى قب الياس* في حصون وقلاع مانعة^(١).

ويقول ابن سباط: «في ذي الحجة سنة ٧٠٤ سافرتقي الدين ابن تيمية إلى الجبليين والكسروانيين، وكان صحبته الأمير بهاء الدين قراقوش بسبب الإصلاح، وأنهم يحضرون إلى الطاعة، وكان قد توجه إليهم من قبل الشريف* زين الدين ابن عدنان، وعادوا ولم يحصل اتفاق، فعندها جُردت العساكر، ثم اجتمعت الرجالة من بلاد الشام ولم تزل تزداد الجموع من كل ناحية إلى سلخ

(١) تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٢٨٨

* انطلياس، إحدى القرى اللبنانية من قضاء المتن المجاور لساحل البحر.

* قب الياس، قرية لبنانية في منطقة البقاع.

* الشريف زين الدين عدنان، هذا شريف عباسي وليس شريفًا علويًا، لأن التُّرك كانوا يميلون إلى العباسيين وليس إلى العلويين.

هذه السنة^(١).

ويقول صالح بن يحيى: «توجه أقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش يوم الاثنين ٢ محرم سنة ٧٠٥ وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين ألفاً، وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين، وتوجه نائب طرابلس اسندمر الكرجي ومعه شمس الدين سنقرجاه نائب صفد وكان قد نسب إلى نائب طرابلس مباطنتهم فجرّد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما ينفي عنه هذه الشناعة التي وقعت به*، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه»^(٢).

ويقول ابن سباط في أحداث سنة ٧٠٥ للهجرة: «وفي هذه السنة سار جمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام بعساكر الشام وغيرها، يوم الاثنين ثاني محرم، إلى جبال كسروان، وكان سكانها عصاة مارقين* من الدين، فأحاطت العساكر بتلك الجبال من كل الجهات، وقيل، إن العساكر كانوا نحو خمسين ألف فارس وراجل، ووصلوا إلى جبال جرد كسروان واحتوا على تلك الجبال وأخربوا القرى وقطعوا كرومها، ووطنوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً من خلق الله تعالى يصل إليها، فتمزقوا كل ممزق، وقتلوا وأسروا جميع من بها من الدرزية والكسروانيين وغيرهم من المارقين، وتطهرت تلك الجبال منهم، وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس، وأمنت الطرق بعد ذلك، فإنهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين «الترك» ويبيعونهم للكفار، ولم يسلم منهم إلا قليل، لأن منهم جماعة هربوا واحتموا بغار عظيم لم يستطع لأحد الوصول إليه أبداً، وكانوا نحو ثلاثمائة نفر، ولما عجز الجيش عنهم أمر نائب الشام أقوش الأفرم ببناء باب الغار وهدم عليه ردمًا عظيمًا، ووكل به أمير من أمرائه واستمر مدة شهر حتى مات جميع من فيه»^(٣). ويقول ابن سباط: «وأحرقت العساكر عين صوفر، وشمليخ وعين

(١) تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي - ج ٢ - ص ٥٨٧

(٢) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب - صالح بن يحيى - ص ٤٩

* إذا كان اسندمر الكرجي قد دخل في علاقات تعاون مع أمراء جبل كسروان، فأية شناعة يمثل هذا الفعل، لكن من وجهة نظر صالح بن يحيى الذي هو من أمراء بني الغرب، فإن العلاقة مع سكان كسروان كانت تمثل أفضع جريمة يمكن أن يرتكبها التركي المقيم في سواحل سوريا في ذلك الوقت.

(٣) تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر الغربي - ج ٢ - ص ٥٨٩

* كلمة، مارقين، الساقطة التي يستخدمها ابن سباط وأبو الفداء، للدلالة على سكان الجبال، إنما تعبر عن ثقافة ابن سباط وأبي الفداء القائمة على الحقد والإقصاء والكره، وهي ثقافة سادت بلادنا طوال الحكم التركي فيها، وابن سباط وصالح بن يحيى وأبو الفداء، كلهم من الترك. ونحن لا يسعنا إلا أن نعلق على حماقة أولئك الذين كتبوا التاريخ وفق أهوائهم، فمن شروط الكتابة في التاريخ أن يكون الكاتب منصفًا، وللأسف تخلو المرحلة التي ساد فيها الترك في بلادنا، من مؤرخ منصف باستثناء، المقرئ وابن خلدون وابن القلانسي، فهؤلاء نرى أنهم يستحقون التقدير، فلو كان ابن سباط وصالح بن يحيى وأبو الفداء وغيرهم ممن أروخوا لتلك الوقائع منصفين، لكانوا أخبرونا عن واقع سكان الجبال وعن وجهة نظرهم، وما هو سبب الخلاف الرئيسي بينهم وبين مملكة مماليك الترك، ولماذا لم نسمع عن هذا الخلاف قبل استعادة طرابلس، فلماذا لم يتعرض لهم السلطان الظاهر وقد رأينا أنه قد دخل في هذه الجبال عند إغارتها على طرابلس ولم يعترضه معترض من أهلها، ما يدل على أنهم كانوا مسلمين وموالين، فلو كانوا خطرين، كما يزعم ابن سباط

زونية وبطحوش وغيرها. وفي الثامن عشر من جمادى الآخرة أمروا بدمشق جماعة وأقطعوهم جبال الجرديين والكسروانيين، وهم علاء الدين البعلبكي، وسيف الدين بكتمر، وبدر الدين بكتاش، وحسام الدين لاجين، وعز الدين خطاب العراقي، وركبوا بالشرابيش*، ثم توجهوا لأجل عمارة الجبال وحفظ مينا البحر من جهة بيروت وتلك النواحي»^(١).

ويقول المطران اسطفان الدويهي: «أحاطت العساكر بتلك الجبال المنيعه وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات، ويقال، إن أمراء البلاد جمعوا عشرة آلاف نفر ولاقوا العساكر عند عين صوفر، وصارت بينهم وقعة عظيمة كانت الكسرة فيها على الأمراء، وهرب منهم جماعة بينهم عشرة أمراء بحريمهم وأطفالهم وأموالهم، وكانوا أكثر من ثلاثمئة نفر، فحاموا عن أنفسهم بالقتال، فلم يقدر الجيش عليهم، فبذلوا لهم الأمان فلم يقبلوا واجتمعوا في الغار الذي غربي نيبية، فأمر نائب دمشق أن يبني على الغار سداً من الحجر والجير، فعملوا ذلك، وهدموا على باب الغار تلاً عظيماً من التراب والحجر، وجعلوا عليه الأمير قطلو بك حارساً عليه لمدة أربعين يوماً، وهلكوا داخل الردم وهم فيه على ما قيل»^(٢).

وقد زعم ابن سباط، كما زعم غيره من مؤرخي التُّرك مثل أبي الفداء، أن الجبليين كانوا يقطعون الطريق ويختطفون التُّرك ويساعدون الصليبيين*، لكن كل ذلك مجرد أكاذيب فمتى كان للتُّرك طريق في تلك الأوعار والشواحق، أما إذا كانوا يقطعون الطريق الساحلي فهذا لأن الطريق كان في أملاكهم ومن حقهم أن يمنعوا كل أحد أن يمر في أرزاقهم من دون أذنهم، أما عن مساعدة هؤلاء السكان للصليبيين، فهذا أمر لا يمكن نفيه، كما لا يمكن إثباته، لكن إذا كان هناك تعاون فسببه أن الصليبيين كان لهم وجود في طرابلس وكانوا يمثلون قوة لا يمكن تجاهلها وقد تعاون معهم الأيوبيون بعد موت صلاح الدين، وأعطوهم بلاداً كان قد أخذها صلاح الدين منهم، فالتعاون مع الصليبيين ليس مذمة، لكن الحقد والجهل هو الذي دفع التُّرك في دمشق وفي عموم مملكة العبيد، آنذاك، إلى ارتكاب

وغيره، لكان السلطان الظاهر تنبيه لهم وحاربهم وأخضعهم كما فعل مع الإسماعيلية، أما أن يتم شن حرب إبادة ضد شعب بأكمله فهذا يشكل جريمة كبرى.

* شرابيش مفردتها «شربوش» وصفه المقريزي بأنه يشبه «التاج»، يبدو مثلث الشكل، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن يلف حوله قماش، وعندما كان المملوك يرقى إلى رتبة فارس، كان يلبس العمامة بين يدي السلطان، وكان هناك سوق بأكمله اسمه سوق الشرابيشيين حيث تصنع أغطية الرأس الخاصة بالأمراء، ومكان هذا السوق اليوم منطقة الغورية في القاهرة، وقد استعادت إحدى مدارس دمشق الاسم، يقول ابن بطوطة إنه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابية - ملامح القاهرة في ألف سنة - جمال الغيطاني - ص ٢٩ - وقول ابن سباط إنهم ركبوا بالشرابيش أي أنه تم تأميرهم على من كان معهم من الجند والعمال والفعلة.

(١) تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر الغربي - ج ٢ - ص ٥٩٠

(٢) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٢٨٧

هذه الجريمة التي لن يغفرها التاريخ لهم، لأنهم قضوا على شعب بأكمله عاش في تلك القرى والجبال منذ آلاف السنين، وكان فيه الشيوخ والرجال والنساء والأطفال وقد تمَّ إبادتهم بشكل كامل. وهذه الجريمة في فظاعتها تشابه تمامًا جريمة القضاء على طائفة «الكاثاري - الألبيجنسية» في جنوب فرنسا والتي أعطى إشارة الحرب فيها البابا انوسنت الثالث سنة ١٢٠٩، وانتهت باستسلام تولوز سنة ١٢١٥^(١)، حيث تمَّ القضاء على طائفة هائلة كانت تسكن مناطق شاسعة في ألي ولانجدويك وبروفانس في جنوب فرنسا.

وبالعودة إلى موضوعنا، يروي المطران الدويهي، فيقول: «وغزت الجيوش بلاد الكسروانيين فأحرقوا منها عين صوفروشمليخ وعين زوينة، وبطحوش، وغيرها من بلاد الجرد، وقد حاصروا هذه الجبال سبع سنين وعندما آيسوا من الدخول إليها، أشعلوا النار في العشب اليابس والأحراج من الجهات الأربع وظلت النار تشتعل فيها أربعة أشهر حتى هلك جميع من فيها إما من حرارة النار وشدة الدخان، وإما بالسيف لمن يريد أن يهرب»^(٢).

ويقول الدويهي أيضًا: «وكتب السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى العساكر يقول لهم: (كل من يقطع شجرة من أشجار الجبال يأخذ من ماله عشرة).

وقد ثبت أهل كسروان في الحرب سبع سنوات وقتل الكثير من التُّرك وخافوا من الهزيمة، وأشعلت النيران من أول يوم حزيران سنة ٧٠٥ والذين كانوا في حصن معراب* أصبحوا لحمًا مشويًا وعميانًا^(٣).

ويقول ابن سباط: «وكان أمراء الغرب برجالهم في هذه الفتوح، وقُتل منهم الأمير نجم الدين محمد وأخوه الأمير شهاب الدين أحمد ولدي الأمير جمال الدين حجي ابن محمد بن حجي ابن كرامة ابن بحتر التنوخي بقرية نبيية* من كسروان مجاور للغار المذكور، ويعرف بمغارة نبيية، سنة ٧٠٥^(٤).

ويقول المطران الدويهي: «وكان الوسواس بين الكسروانيين وبين أمراء الغرب لأجل الإيمان ومجاورة البلدان، ولأجل ذلك كان أمراء الغرب ثابتين في الحرب ضد

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٦ - ص ٨٧

* يمكن مراجعة ما كتبه ول ديورانت عن الحرب الصليبية على طائفة الكاثاري في فرنسا - في فصل «الإلحاد الألبيجنسي» صفحة ٧٥ - جزء ١٦ - كتاب قصة الحضارة.

(٢) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٢٨٨

(٣) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٢٨٩

* معراب، بلدة في قضاء كسروان توجد فيها آثار قديمة أهمها قلعة الكسروانيين الشيعية، ومعراب اليوم قرية مسيحية مارونية.

* نبييه، قرية من قرى المتن الشمالي، لبنان

(٤) تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر، ابن سباط الغربي - ج ٢ ص ٥٨٩

الجرديين، وقتل منهم الأمير نجم الدين محمد وأخوه الأمير شهاب الدين أحمد ولدا الأمير جمال الدين حجي بن كرامه بن بحترا التنوخي بقرية نيبه من كسروان بالقرب من مغارة نيبه وهو فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانة»^(١).

ويقول الدويهي أيضًا: «وفي سنة ٧٠٦ استقر التركمان في ساحل كسروان لحفظه، وكانت المأمورية تمتد من حدود انطلياس إلى مغارة الأسد، وإلى جسر المعاملتين التي تحت غزير، على حدود معاملة طرابلس، وكانوا يمنعون أن يمر أحد في ممر نهر الكلب إلا بعد حصوله على ورقة من المتولي أو من أمراء الغرب تسمح له بعبور الطريق، وكان التركمان يتناوبون على الحراسة فيجلس منهم جماعة مدة شهر ليل ونهار على هذا الممر ويأتي غيرهم في الشهر الثاني ويأتي غيرهم في الشهر الثالث ومن ثم يعود الأولون إلى الحراسة»^(٢).

وهؤلاء التركمان هم الذين عُرفوا بآل عساف والذين سكنوا في كسروان وعمروا في عينطورة وغزير، وكانت أرزاقهم بقرب نهر الكلب، وهم الذين عرفوا بالعامرة وزوق الخراب ومصبح ومكايل على أسامي مقدميهم، عامر وخربان ومصبح ومكايل، وعمروا عند عين شقيق برجًا وأنشأوا بساتين وجنينات عند الجوزات، وكان العسافيون يطلعون في الصيف إلى هناك»^(٣).

(١) تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٢٨٨

(٢) تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٢٩٠

(٣) تاريخ الأزمنة - البطريق اسطفان الدويهي - ص ٢٩٠

الفصل السابع

فتوى ابن تيمية وثورة العلويين في جبل لبنان

عندما زال الحُكمان الإسماعيلي والصليبي من جبل لبنان؛ ظهر العلويون كقوة بشرية كبيرة في مناطق صهيون وبلاطنس والمنيقة والعليقة والقدموس والخوابي وحصن الأكراد وغيرها من القلاع والحصون في ذلك الجبل، وقد تعرّف التُّرك في طرابلس على العلويين وعرفوهم عن قرب لأنهم أصبحوا حكامًا لهم، وعرفوا بعض معتقداتهم من عوامّهم، فأطلقوا عليهم اسم «النصيرية». ومن غير المعروف كيف اهتدى التُّرك إلى هذا الاسم، لكنه، حتمًا، ليس من إنتاجهم بل هو من موروثات الخلافات بين الشيعة أنفسهم.

وفي سنة ٧١٧ للهجرة، وجّه أحد التُّرك في طرابلس، ولعل هذا كان يشغل منصبًا كبيرًا، إلى من أسماهم العلماء ويقصد بهم المدعو «ابن تيمية»، الذي كان نديمًا للسلطان محمد بن قلاوون، يستفتيهم في أمر النصيرية «العلويين»، وقد أجاب ابن تيمية عن السؤال وقدم فتواه في العلويين. وقد أثبت النويري نص السؤال كما أثبت نص الفتوى، وقد عملنا على اختصار السؤال بسبب طوله، كما اختصرنا الفتوى بسبب طولها وركزنا على النقاط المهمة في كل منهما. ويقول نص السؤال:

«ما يقول السادة العلماء أئمة الدين في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا، وأن النصيري عندهم لا يصير نصيريًا مؤمنًا يجالسونه ويزوجونه من نسائهم، ويشربون معه الخمر ويطلعونه على أسرارهم حتى يخاطبه معلمه، وحقيقة الخطاب عندهم أن يخلفوه على كتمان دينه ومعرفة شيخه وأكابر أهل مذهبه، وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام، فهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب، وقد حقق أحوالهم كل من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم، ومن عامة الناس أيضًا في هذا الزمان، لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الفرنج المخذولين على البلاد الساحلية، فلما صارت بلاد الإسلام انكشف حالهم وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كثير جدًّا^(١). فهل يجوز للمسلم أن يزوجهم أو يتزوج منهم، أو هل يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين، وهل يجوز استخدامهم في

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٢

ثغور المسلمين وتسليمها إليهم، أو يجب على ولي الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من المسلمين الكفاة؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة وأموالهم فيء حلال أم لا؟ وهل يعد مجاهد النصيرية المذكورين مرابطاً؟ ويكون أجره كأجر المرابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرغ أكبر أم هذا أكثر أجراً؟ وهل يجب على من عرف المذكورين ومذهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم، وإظهار الإسلام بينهم فلعن الله تعالى أن يهدي بعضهم إلى الإسلام، وأن يجعل من ذريتهم وأولادهم ناساً مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم، أم يجوز التغافل عنهم والإهمال لهم، وما قدر أجر المجتهد على ذلك والمجاهد فيه، والمرابط له والعازم عليه»^(١).

وقد أجاب ابن تيمية على ذلك السؤال وقدم فتواه التي تنضح بالجهل والسخف وقلة العقل، حيث قال في فتواه: «هؤلاء القوم المسمون النصيرية أكفر من اليهود والنصارى بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد أعظم من ضرر الكفار المحاربين... ومن المعلوم أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين السواحل وانتصار النصارى، ثم أن التتار ما دخلوا ديار الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك الأمصار إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن منجم هولاكو الذي كان وزيره وهو النصير الطوسي كان وزيراً لهم بالموت، وهو الذي أمرهم بقتل الخليفة وبولاية هولاكو»^(٢). ولهم ألقاب معروفة، تارة يسمون الملاحدة، وتارة يسمون القرامطة، وتارة يسمون الباطنية، وتارة يسمون الإسماعيلية، وتارة يسمون النصيرية^(٣). وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين، ولا بشيء من الكتب المنزلة، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه، ولا بأن له ديناً أمر به، ولا أن له داراً يجري الناس فيها على أعمالهم غير هذه الدار^(٤). وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلهيين، وتارة يبنونه على قول المجوس الذين يعبدون النور، ويحتجون على ذلك من كلام النبوات، إما بقول مكذوب ينقلونه، كما ينقلون عن النبي أنه قال: أول ما خلق الله العقل، والحديث موضوع باتفاق أهل العلم والحديث، ولفظه أن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر، فيحرفون لفظه ويقولون أول ما خلق الله العقل ليوافق

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٣

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٥

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٥

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٦

قول المتفلسفة أتباع أرسطو في أن أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل^(١). وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا يجوز مناكحتهم ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم، ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين ولا يصلى عليهم، فإن الله تعالى نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين^(٢). وأما استخدام هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم، فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئب لرعي الغنم، فأنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمرهم^(٣). ويجب على الولاة قطعهم من دواوين المعاملة، ولا يتركون في ثغور ولا في غير ثغر، وضررهم في الثغور أشد^(٤). وأما إذا استخدموا وعملوا العمل المشروط عليهم فلهم إما المسمى أو أجرة المثل، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم فإلن عقد فاسد فلا يستحقون إلا قيمة عملهم، فإن لم يكونوا عملوا عملاً له قيمة فلا شيء لهم، لكن دماؤهم مباحة وكذلك أموالهم^(٥). وهؤلاء إذا أخذوا فأنهم يظهرون التوبة، إذ أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يُعرف ومن لا يُعرف، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم، ولا يتركون مجتمعين لا يمكنون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة. ويلزمون بشرائع الإسلام ويحال بينهم وبين معلميهم^(٦). ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد الإسلام^(٧).

هذه هي فتوى ابن تيمية، وأقل ما يُقال فيها إنها فتوى صادرة عن انسان جاهل بحقائق التاريخ والجغرافيا وبالدين والإيمان أيضاً، فهو يزعم أن العلويين هم الذين استدعوا الصليبيين من بلادهم ليغزوا الشرق، وسهّلوا لهم هذا الأمر، وهذه كذبة تدل دلالة قاطعة على أن قائلها جاهل بوقائع الحروب الصليبية وكيف بدأت ولماذا.

ويزعم ابن تيمية أيضاً أن الخواجة نصير الدين الطوسي، أو كما يسميه «نصير الطوسي» استخفاً به، كان من العلويين وأنه أمره لولاكو بقتل خليفة بغداد.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٦

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٧

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٨

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٨

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٨

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٩

(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٩

وهذا الكلام يدل على أن ابن تيمية كان جاهلاً بإخوانه في المذهب، فقد ذكر رشيد الدين الهمذاني، كما رأينا آنفاً، أن الخواجة نصير الدين الطوسي كان في حالة أسر عند ملك الإسماعيلية، وأنه هو الذي دفع هذا الملك إلى الاستسلام لهولاكو، وهذا يدل على أنه كان يخالفه في المذهب، وأيضاً لو كان نصير الدين الطوسي علوياً ولو كان له مقدرة على هولاكو فلماذا لم يمنعه من قتل الملك ركن الدين خورشاه؟

وأما قول ابن تيمية: «وظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين ولا بشيء من الكتب المنزلة ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه»، فهذا القول مرسل من قبله ليس له سند وبما يخالف مذهبه الذي يتحرى السند في رواية الأحاديث، فالمذهب السلفي الذي يتعبد به ابن تيمية، قائم على ما يُسمى السند الصحيح، وهناك علم لدى هذا المذهب يُدعى علم الجرح والتعديل لتقوية الأسناد وتضعيفها، فلماذا لم يضع ابن تيمية في فتواه الأسانيد الصحيحة على صحة قوله هذا عن العلويين من أنهم كفار لا يؤمنون بنبي ولا بكتاب منزل، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه... وهذا بهتان عظيم على العلويين، وقول باطل جملة وتفصيلاً.

أما أن ابن تيمية يعيب على العلويين أنهم يقولون إن الله أول ما خلق العقل وأنهم يذهبون بذلك مذهب الفلاسفة. فهذا قول مردود عليه، فهو قد قال آنفاً إن العلويين لا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه، فكيف يقول هنا إنهم يقولون، أول ما خلق الله العقل، وهذا دليل على أنهم يقرون بوجود الخالق. وأيضاً فنحن نسأل ما هي مشكلة ابن تيمية مع العقل، أليس الله يحاسب ويعاقب بالعقل، وأن المجنون لا حساب ولا عقاب عليه. وأيضاً فالعلويون لا يقولون إن العقل خلق الله، بل يقولون إن العقل هو أول مخلوقات الله، وهذا لا عيب فيه ولا إثم عليه. لكن ابن تيمية لا يستطيع أن يقدم العقل على النقل، لأنه لو فعل ذلك لهدم أساس مذهبه القائم على النقل.

وأما قوله: «اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا يجوز مناكرتهم» فنحن نسأل من هم هؤلاء العلماء الذين اجتمعوا واتفقوا على هذا الرأي؟ وأين كان اجتماعهم؟ ولماذا لم يذكر ابن تيمية سنده؟

وأما قول ابن تيمية: «إن دماء العلويين وأموالهم مباحة وحلال»، فهو قول يهدم أساس الأديان وأساس الشرائع، فالله تعالى نهى تماماً عن القتل والفساد في الأرض تحت أية حجة كانت، إلا في حالة دفع العدوان أو ما يُسمى «الحرب العادلة»، حيث يقول جلّ من قائل: ﴿لَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ سورة المائدة - آية ٣٢. وهذه الآية مطلقة تشمل كل الناس

على اختلاف أديانهم وعقائدهم ومذاهبهم، فلا يجوز أن يُقتل إنسان بريء مهما كان دينه أو مذهبه من غير أن يكون قد قتل إنساناً أو أحدث فساداً. ويقول جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة الحج - آية ١٧.

وأما قول ابن تيمية إن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين وأن الصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار، فهذا القول مردود على ابن تيمية وعلى أمثاله، لأن حروب الردة هي وصمة عار في تاريخ الإسلام، فقد قتل في تلك الحرب عدة آلاف من الصحابة ومثلهم وأكثر من القبائل العربية وخصوصاً بني حنيفة الذين هزموا المسلمين، كما يقول الواقدي: «نِيفًا على عشرين هزيمة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكادوا أن يقضوا عليهم مراراً»^(١). وفي النهاية ألجأ المسلمون بني حنيفة إلى الحصن ودخلوا عليهم وقتلوه في حديقة الحصن «حتى احمرت أرض الحديقة من الدماء»^(٢). «وأحصى من قتل من المسلمين ألفان ومائتا رجل»^(٣). وهذا داخل الحديقة وحدها، أما من قتل خارجها فكثير جداً. والإسلام لم يكن بحاجة إلى تلك الحرب المؤلمة والعبيثة لكي ينتشر والآية الكريمة تقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ سورة الفتح - آية ٢٨.

والإسلام دين وليس أيديولوجيا يتم فرضها على الناس بالقوة، كما فعل ستالين عندما فرض الشيوعية بالقوة على الناس في الاتحاد السوفييتي. إن الإسلام دعوة إلى الله تعالى، والدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة كما نصّت الآية الكريمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل - آية ١٢٥.

وبالتالي فإن فتوى ابن تيمية هي شهادة على جهله وفسوقه وتعدّيه على شرع الله تعالى والفترة التي فطر الناس عليها، وهي تكشف حجم الهوة السحيقة التي انحدر إليها الإسلام في تلك العصور المظلمة.

وبعد صدور تلك الفتوى قرر السلطان محمد بن قلاوون إقامة مساجد في قرى العلويين ومنعهم من الخطاب وفرض التسنن عليهم. وجاء ذلك فيما أسماه النويري «روك» المملكة الطرابلسية، وما أضيف إليها من الأعمال والقلاع والحصون والشغور، أي تحديد الإقطاعات ومدخول تلك الإقطاعات، حيث

(١) كتاب الردة - محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٣٢

(٢) كتاب الردة - محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٣٥

(٣) كتاب الردة - محمد بن عمر بن واقد الواقدي - ص ١٤٠

كُشفت النواحي ونُصب لتحريك ذلك وإتقانه القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية، ولما تكامل ذلك حضر القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية ومعه المكتوب إلى الأبواب السلطانية، وجلس القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن معه من المباشرين، وانتصبوا لقسمة الإقطاعات وتقرير الخواص، وإفراد جهات القلاع والحصون، فكمل ذلك في شهر رمضان سنة ٧١٧، وتوفر بسبب هذا الرُّوك ما أقيم عليه ستة أمراء أصحاب طبلخاناه وثلاثة أمراء أصحاب عشرات، وخمسون نفرًا من البحرية والحلقة.

ورُسم أن يُبنى في قرى النصيرية «العلويين» في كل قرية مسجد، ويُفرد من أراضي القرية رزقة* برسم المسجد، وأن يمنع النصيرية «العلويون» من الخطاب^(١).

ولما رسم ببناء المساجد بقرى النصيرية «العلويين»، كُتب مرسوم شريف سلطاني من إنشاء القاضي كمال الدين ابن الأمير جاء فيه بخصوص النصيرية «العلويين»، ما يلي: «ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبًا ولا خالط لهم لبًا، ولا أظهروا له بينهم شعارًا، ولا أقاموا له منارًا، بل يخالفون أحكامه، ويجهلون حلاله وحرامه، ويخلطون ذبائحهم بذبائح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين، وكل ذلك مما يجب ردعهم عنه شرعًا ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصلاً وفرعًا، وعند ذلك رغبتنا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مفخرة على ممر الأيام وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام ونمحو من أيماننا الشريفة ما كان على غيرها عارًا، ونسترجع للحق من الباطل ثوبًا طالما كان لديه معارًا، ونثبت في سيرة دولتنا الشريفة عوارف لاتزال مع الزمن تذكر، فلذلك رُسمَ بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري، أن يعمَ في بلاد النصيرية «العلويين» في كل قرية مسجد، وليطلق له من أرض القرية المذكورة قطعة أرض تقوم به، وبمن يكون فيه للقيام بمصالحه على حسب الكفاية، كما رُسمَ أيضًا بمنع النصيرية «العلويين» من الخطاب، وأن لا يمكنوا بعد ورود مرسومنا هذا من الخطاب جملة كافة وتؤخذ الشهادة على أكابرهم، ومشايخ قراهم بأن لا يعود أحد إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر به قوتل أشد مقاتلة»^(٢).

وبعد صدور ذلك المرسوم أرسل نائب طرابلس المباشرين إلى بلاد العلويين لكشف القرى وبناء المساجد فيها، واجتمعوا مع المشايخ لأخذ الأيمان عليهم بأن

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ١٩٦

* الرزقة، أرض توهب باسم السلطان وبأخذ الموهوب له من ديوان الروزنامة حجة «وثيقة» تثبت ملكيته المطلقة لهذه الأرض وأنها معفاة من الضرائب، ومن معانها الأرض توقف على المساجد ودار البر - معجم الألفاظ التاريخية في عصر المماليك - محمد أحمد دهمان - ص ٨٢

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢٠٠

يمنعوا الخطاب.

وقد حدثت من جراء ذلك حركة احتجاج واسعة في بلاد العلويين كان مركزها في ريف جبلة، وقاد تلك الحركة أحد العلويين الشجعان، والتفّ حوله مجموعة من الرجال المخلصين المصممين على قتال الترك. ويتحدث النويري عن هذا الثائر من غير أن يذكر اسمه، ولكنه يقدمه بصورة مضللة، كعادة مؤرخي الترك في الحديث عن خصومهم، حيث يقول: «في سابع عشر ذي الحجة سنة ٧١٧ ظهر رجل من أرض قرطياؤس* من عمل جبلة، فادعى أنه محمد بن الحسن المهدي، وقال للناس: إنه بينما هو يحرق إذ جاءه طائر أبيض فنقب جنبه، وأخرج روحه منه، ونقل إليه روح محمد بن الحسن، وصدقوه فيما ادعاه ودعاهم إلى طاعته، فاجتمع عليه طائفة من النصيرية «العلويين» تقدير خمسة آلاف رجل، وأمرهم بالسجود له ففعلوا، ورفع راية حمراء وجمع أصحابه ودخل بهم مدينة جبلة يوم الجمعة في ٢٢ شهر ذي الحجة، وفرّق جماعته ثلاث فرق عليها: فرقة أتت من قبلي البلد مما يلي الشرق، فخرج عليهم العسكر المقيم بجبلة فكسروهم وقتل منهم ١٢٤ رجلاً، وقتل من العسكر نفريسير، وأتت الفرقة الثانية من قبلي البلد مما يلي الغرب على جانب البحر، والفرقة الثالثة أتت من شرقي البلد لجهة الشمال، وكثروا على أهل البلد وكسروهم وهجموا على البلد ونهبوا الأموال وسبوا الحريم والأولاد وقتلوا جماعة من رؤوس المسلمين «الترك» بجبلة. وجمع هذا الخارجي «الثائر» ما انتهبه أصحابه من جبلة وقسمه عليهم بقريته^(١).

وجاء الأمير بدر الدين بكتوت مقدم العسكر باللاذقية إلى جبلة في آخر هذا اليوم وحماها، ومنع الخارجي «الثائر» من العود إليها، وعلم الأمير شهاب الدين قرطاي نائب طرابلس، فجرد العساكر وفيهم ألف فارس، والتقوا معه أي مع «الثائر» بقرية من عمل جبلة في الجبل، فاقتتلوا ساعة من النهار، وانجلت الحرب عن قتل الدعي «الثائر» ونحو ٦٠٠ من أصحابه، وتفرق بقية ذلك الجمع، ثم استأنفوا فأمنوا وعادوا إلى أماكنهم واستمروا على عمل فلاحتهم، وطفيت هذه الثائرة^(٢).

ويروي ابن فضل الله العمري هذه الحادثة بشكل مقتضب لكن بنفس طريقة النويري فيقول: «وظهر للنصيرية رجل زعم أنه المهدي، وكثر جمعه بناحية اللاذقية، وبلغوا ثلاثة آلاف، فتارة زعم أنه المهدي، ومرة قال، إنه علي بن أبي

* قرطياؤس، أخبرني أحد العارفين بتاريخ تلك المنطقة، أن قرطياؤس هي اليوم قرية «مزار القطرية»، وقرطياؤس اسم سوري آرامي، وتم تعريبه في القرون السابقة إلى اسم «قطرية» وهذه القرية تقع على بعد ١٥ كيلومتراً شرق مدينة اللاذقية.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢١٢

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ٢١٣

طالب، وتارة إنه محمد المصطفى، وإن الأمة كفر، وعاث في تلك الأرض، حتى انتدب له العسكر، فقتل من جمعه مائة وعشرون نصيرياً، وحدثت أمور، ثم قتل لا رحمه الله، وكان جبلياً خماراً جاهلاً»^(١).

وينقل المطران اسطفان الدويهي رواية ابن فضل الله العمري مع بعض التغيير الطفيف، فيقول: «في سنة ١٣١٧ للميلاد، ظهر في النصيرية (العلويين) في اللاذقية رجل زعم أنه المهدي، وتبعه نحو ثلاثة آلاف نفس، والبعض يقول، إنه المهدي المنتظر، وآخرون، محمد، وآخرون علي بن أبي طالب، فأضل الناس وانتدب له عسكر، فقتل منهم ١٢٠ نصيرياً «علوياً» وجرت أمور يطول شرحها، ثم قتل هو أيضاً وكان خبيثاً جاهلاً»^(٢).

وللأسف ليس ثمة ذكر لهذه الحادثة في تواريخ العلويين المكتوبة أو الشفوية، لنقف على الرأي المخالف لرأي الترك حول تلك الشخصية الكبيرة التي كان لها كل ذلك التأثير الكبيرين العلويين، ونحن لا نصدق رواية النويري ولا سواه حول ذلك الشخص من أنه ادعى أنه هو الإمام محمد بن الحسن المهدي، وأنه أضلّ الناس بخرافاته فصدقوه، كما لا نصدق رواية النويري، تحديداً، حول سير المعارك وأن العسكر التركي أخذ تلك الثائرة مباشرة، وأن خسائر العلويين كانت كبيرة مقارنة مع خسائر الترك، فلا شك أن هناك خفايا لم يذكرها النويري ولا سواه، وما خفي أعظم، كما يقال، وإلا كيف يمكن لشخص أن يجمع حوله خمسة آلاف رجل، كما يذكر النويري، وأن يندفع بهم نحو مدينة جبلة وأن يكسر العسكر التركي الموجود فيها وأن يقتل رؤوسهم ويسبي حريمهم ويأخذ أموالهم، فلا شك أن هذا الزعيم أقام زمناً يدعو أهله وإخوانه إلى الثورة على الترك حتى انتخت النفوس لدينها، ورفعوا السلاح وتخلوا عن الدنيا وآثروا الموت في سبيل الكرامة.

وهذه الواقعة هي من أهم الوقائع في تاريخ العلويين إذ بفضل تضحية أولئك الرجال فقد تمّ إيقاف مرسوم السلطان، إذ أدرك الترك أن الاستمرار في تطبيق المرسوم على العلويين قد يدفع إلى مزيد من المعارك ونزف الدماء، ولذلك آثروا السلام وتخلوا عن ذلك المشروع وتركوا العلويين يعيشون في قراهم كما يشاؤون بشرط التزامهم بدفع الضريبة والخضوع لحكم السلطان.

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - ج ٢٧ - ص ٣٣٨

(٢) تاريخ الأزمنة - البطريرك أسطفان الدويهي - ص ٣٠٠

الفصل الثامن

الإقطاع في العهد المملوكي

جرباً على العادة التي ورثها المماليك عن الأيوبيين والسلاجقة، فقد شرع السلاطين المماليك في منح الإقطاعات للأمرء من أجل أن يكون لهم دخل ثابت، كما قاموا بتوريثها لأبنائهم تشجيعاً لهم على استخلاف آبائهم في الجندية^(١).

وكان الإقطاع هو مصدر دخل سنوي ثابت للأمير أو الجندي بما يعادل رتبته الحربية، ويحصل على هذا الإقطاع من السلطان وديوان الجيش، وكان معظم الإقطاعات أراضي زراعية في جهات أهلة بالسكان يرد ذكرها في منشور الإقطاع^(٢). وكان صاحب الإقطاع يستغل إقطاعه كيف يشاء، وكان عليه أن يدفع العُشر في مقابل تملكه له^(٣).

ولم تضم الإقطاعات الغابات والمروج والقرى والجبال والصحارى، بل شملت الأراضي الصالحة للزراعة التي تعطي دخلاً من المال كل سنة^(٤).

وبسبب كثرة الإقطاع فقد أصبحت الملكية الفردية الخاصة غير المحمية، هامشية جداً، وتنحصر في الأراضي الزراعية داخل المدن وفي القرى وجوارها^(٥).

وكانت بلاد العلويين من أنطاكية حتى النهر الكبير الجنوبي قد أصبحت خاضعة لدولة المماليك، لكن هذا الخضوع لم يكن على سوية واحدة، ففي المناطق التي كانت تؤلف المملكة الإسماعيلية، ظل الحكام الإسماعيليون يمارسون دوراً كبيراً، فكانوا يأخذون دخل الحصون والقرى التابعة لهم مقابل أن يرسلوا الفدائيين لقتل أعداء السلطان^(٦).

لكن الإسماعيلية لم يصبحوا من ذوي الإقطاعات لكيلا تقوى شوكتهم ويزداد خطرهم على الدولة، كما أنهم لم يحصلوا على لقب «أمرء» بل ظلوا يحملون

(١) المماليك - سيد الباز العريبي - ص ١٦٨

(٢) المماليك - سيد الباز العريبي - ص ١٧١

(٣) التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية - مصطفى غازي مصطفى بدور - أطروحة دكتوراه - جامعة اليرموك - ص ٤٤

(٤) الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين - أ.ن. بولياك - ص ٦٠

(٥) التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية - مصطفى غازي مصطفى بدور - أطروحة دكتوراه - جامعة اليرموك - ص ٥٣

(٦) الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين - أ.ن. بولياك - ص ٥٠

* أتاك، معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية، والمراد به أبو الأمرء، وهو أكبر الأمرء المقدمين بعد النائب - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ١١

لقب «أتابك» * (١).

وفي المناطق التي كانت خاضعة لسيطرة الصليبيين واستعادها المماليك، فإن العلويين أصبحوا تابعين لنواب السلطان مباشرة، مثال على ذلك مناطق قلعة الحصن، والمرقب، وقلعة بلاطنس، وصهيون وباقي القلاع حتى أنطاكيا، حيث كان في كل قلعة من تلك القلاع نائب من قبل السلطان وقاض يوليه قاضي طرابلس^(٢). وكان في كل ناحية يوجد مقدم من السكان المحليين يتولى حفظ الأمن وجمع الضرائب من قرى ناحيته، لكن بسبب الطبيعة الجبلية لتلك البلاد، فإنه لم يشملها الإقطاع العسكري... وهكذا احتفظ الفلاحون بملكياتهم الزراعية.

(١) الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين - أ.ن. بولياك - ص ٥١

(٢) الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - ص ٢٦٧

الباب السادس

العثمانيون

تمهيد

حكم الأتراك العثمانيون بلادنا حقبة طويلة دامت أربعمئة عام، وكان هؤلاء يحكمون باسم الإسلام وفق المذهب الحنفي، وقد تعاملوا بطريقة سلبية مع الطوائف الشيعية وغير الشيعية، فلم يعترفوا بها، وأهملوها كل الإهمال، فلم يعينوا رجالاً منها في وظائف الدولة.

وكان العلويون فقراء معدمين يعتمدون على الطبيعة في حياتهم، فيفلحون ويزرعون أراضيهم التي كانت تأتيهم بغلال قليلة من القمح والذرة والزيت والعنب والتين. وكانت الدولة وراءهم فلم تكن تعفيهم من رسم أو ضريبة، أو خدمة عسكرية، ولكنها، في المقابل، لم تكن تقدم لهم شيئاً سوى الإزدراء وإطلاق الشتائم من موظفيها ضدهم.

وفي هذا الفصل سنتحدث عن الحكم العثماني لسوريا بشكل عام، مع التعرّيج على الحكم المصري وتناججه، ومن ثم سنفرد باقي البحث للحديث عن أثر الحكم العثماني على العلويين.

الفصل الأول

العلاقة بين العثمانيين والمماليك

١- علاقة الطرفين من الود إلى الصدام

كانت العلاقة بين دولة المماليك في مصر وسوريا وبين سلاطين مملكة الروم جيدة، بشكل عام، وقد حكم مصر مملوكان روميان هما: السلطان الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري، سنة ٨٦٥ للهجرة، والسلطان الظاهر أبو سعيد تمرغا الظاهري، سنة ٨٧٢، للهجرة.

وكان سلاطين مصر وسلاطين بلاد الروم يتهادون فيما بينهم، كما أنهم كانوا يتزوجون من بعضهم، فقد تزوج الملك الظاهر جقمق خوند زاده بنت أورخان بن محمد بن عثمان، ملك الروم، وبعد موته تزوجها الملك الأشرف برسباي، وماتت في عصمة برسباي حاجب الحجاب.

لكن لم تستمر الأمور على هذا المنوال، فقد ظهر تمرد في بلاد التركمان الواقعة اليوم شمال حلب، وكان هذا التمرد بقيادة رجل يدعى «سوار شاه» سنة ٨٧٢، وقد قتل المتمردون الكثير من العسكر المملوكي، حتى استطاع الأمير شبك الدوادار أن يقضي على هذا التمرد وألقى القبض على سوار شاه، حيث أرسله إلى القاهرة فأعدم سنة ٨٧٦، بعد أن قتل جماعة كثيرة من الأمراء، وكسر الأمراء ثلاث مرات، وانتهكت حرمة سلطان مصر وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة، وقد أشرف سوار شاه على أخذ حلب، ولولا لطف الله وأنه أخذل سوارًا لفستدت أمور المملكة جدًا^(١). ومن ثم قام بعده أخوه علي دولات وأعلن تمرده على سلاطين مصر وسوريا، وفي سنة ٨٨٩، خرج نائب حلب لقتاله، فأمدّه السلطان بايزيد الثاني العثماني بجمع كبير من عساكره، ووقعت بين الطرفين واقعة، انكسر فيها عسكر مصر وقتل نائب حلب، وجمع كبير من الأمراء، وكانت هذه الواقعة بداية تحرش سلاطين الروم بسلاطين المماليك.

وفي سنة ٨٩٠ حدثت معركة بين عسكر الروم والعسكر المصري في أرض حلب، وانتصر العسكر المصري وقتلوا من الروم جماعة كثيرة وأسروا أحمد بك هرسك قائد جند الروم.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن أبياس الحنفي - ج ٣ - ص ٧٨

وتوالى الصراعات في عهد السلاطين الذين جاؤوا بعد الأشرف قايتباي، وهم، ولده السلطان ناصر الدين محمد الذي حكم سنتين وثلاثة أشهر، ومن ثم جاء بعد السلطان الظاهر قانصوه ولم تطل مدته أكثر من سنة وثمانية أشهر، وتسلسل بعده الأشرف جان بلاط بن يشبك وسمي، السلطان العادل طومان باي، وحكم ستة أشهر.

وفي سنة ٩٠٦ تولى السلطنة الأشرف قانصوه الغوري*، ولم يكن هذا أسوأ ملوك الترك في مصر وسوريا، بل كان أتعسهم حظاً، لأن عدوه كان يزداد قوة بينما هو يزداد ضعفاً، وقد لا يكون مسؤولاً عما آلت إليه أمور السلطنة من ضعف، لكنه كان مطالباً ببناء جيش وأسطول قادرين على صد المعتدين، لاسيما أنه كان مطلعاً على مخططات الروم لغزو بلاده واستخلاصها منه.

وكان السلطان يلدرم «بايزيد الثاني» قد مات وخلفه ولده سليم شاه، وتابع هذا نهج والده الدموي في قتل الجيران. وتوتر الموقف بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان تركياً مثله لكنه كان شيعياً.

وفي سنة ٩٢١ للهجرة، ١٥١٤ للميلاد قاد السلطان سليم جيشه لقتال الشاه إسماعيل، وفي الطريق مرَّ على مرعش وكانت تابعة لعلاء الدولة وهو نائب مصر على البيرة، وأمر علاء الدولة أهل مرعش أن لا يبيعوا شيئاً لجيش السلطان، فهلك الكثير من رجالهم ودوابهم جوعاً^(١) فشق ذلك على السلطان وشكا ما وقع له إلى السلطان قانصوه الغوري، فقال، إن علاء الدولة لم يتصرف بأمره بل هو عاصٍ عليه، أنه إذا قتله يكون له شاكراً^(٢). وكتب السلطان الغوري إلى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله، فأحسَّ سليم بأن الغوري يكيد له، فلما رجع سليم من غزوته في بلاد فارس، أرسل القائد سنان باشا للانتقام من علاء الدولة، فواقعه وانتصر عليه وقتله مع أولاده، وأتى برؤوسهم إلى السلطان سليم الذي أرسلهم إلى الغوري^(٣). وسيطر سنان باشا على مملكة ذي القدرية التركمانية التي كانت تضم مرعش وبهسنى وخربوت، وما إليها^(٤). وقامت هذه المملكة سنة ٨٧٠، وكان

* قانصوه الغوري، كان السلطان قانصوه الغوري من مماليك الغور من أفغانستان، وكان وزيراً للسلطان طومان باي، فلما حنق المماليك على هذا السلطان وعزلوه، اختاروه ليكون سلطاناً مكانه، وتردد في القبول لأن عمره كان أكثر من ٦٠ سنة، وكان في الثمانين من عمره يوم صحت نية السلطان سليم العثماني على احتلال الشام ومصر، وكان الغوري لا يعرف على من يعتمد عليه من رجاله وأمرائه، غريب الأطوار، فكان ذلك من دواعي خروج الأمر عنه ووقوع الخلل في جيشه، وكان يعتقد بعلم الجفر، وقد ذكر أحد أدعياء هذا العلم أن الشريانيه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين، فصار يتطير من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف، ومنهم سيباي كافل الشام. خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٠٦

(١) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٠٧

(٢) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٠٨

(٣) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٠٨

(٤) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٠٨

سقوطها سبباً أساسياً لسقوط سوريا بعد ذلك في يد السلطان سليم.

وكان السلطان الأشرف قانصوه الغوري يتلمس خطر العثمانيين، فأرسل رسولاً إلى الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان يتلمس خطرهم أيضاً، وذلك بهدف التنسيق بين الجانبين لمواجهة هذا الخطر، حيث يذكر ابن إياس أنه «وفي يوم الأربعاء تاسع ربيع الآخر سنة ٩٢٢ حضر إلى الأبواب الشريفة العجمي الشنقجي نديم السلطان الذي كان توجه بأفياال إلى نائب الشام ونائب حلب، وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير مرة، فظهر أن السلطان كان أرسله إلى الشاه إسماعيل الصفوي في الخفية في خبر سر للسلطان بينه وبين الصفوي»^(١).

وبعد وصول هذا القاصد، بدأ السلطان يستعد للخروج إلى سوريا لملاقاة سليم شاه، وجمع جيشه وتوجه إلى الريدانية بقصد الخروج نحو سوريا، وكان معه الكثير من الأمراء وعلى رأسهم الأتابك سودون العجمي، والمقر السيفي أركماس أمير السلاح، والمقر الناصري محمد نجل المقام الشريف أمير آخور كبير*، والمقر السيفي سودون الدواداري رأس نوبة النوب، والمقر السيفي أنصباي من مصطفى حاجب الحجاب. وخرج صحبته الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب العباسي، والقضاة الأربعة: قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل، وقاضي القضاة الحنفي حسام الدين محمود بن الشحنة وقاضي القضاة المالكي محي الدين يحيى بن الدميري، وقاضي القضاة الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوح الشهير بابن النجار^(٢). وجعل السلطان الأشرف قانصوه الغوري بمصر قريبه الدوادار* طومان باي ليدبر شؤون البلاد في غيابه. وبينما كان السلطان في المخيم بالريدانية يستعد لساعة الانطلاق، ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب بأن ابن عثمان أرسل قاصداً إلى حلب، فعوّقه نائب حلب عنده وأخذ منه الكتاب وأرسله إلى السلطان فلما فضّه وقرأه، فإذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة منها أنه أرسل يقول له: «أنت والدي وأسألك الدعاء وإني ما زحفت على بلاد علي دولات إلا ياذنك وأنه كان باغياً عليّ وهو الذي أثار الفتنة القديمة بين والدي والسلطان قايتباي حتى جرى بينهما ما جرى، وهذا كان غاية الفساد في مملكتكم وكان قتله عين الصواب، وأما ابن سوار الذي ولي مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم في ذلك، وأما التجار الذين يجلبون الممالك الجراكسة فإني ما منعهم إنما هم تضرروا من

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٣٥

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٤١

* أمير آخور: هو المشرف على اصطبل السلطان وخبوله ويسكن باصطبل السلطان - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٢٠

* دوادار: هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويتولى أمرها مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور غير ذلك وفق ما يقتضيه الحال - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٧٧

معاملتكم في الذهب والفضة، فامتنعوا من جلب المماليك إليكم، وإن البلاد التي أخذتها من علي دولات أعيدها لكم وجميع ما يرومه السلطان قلناه»^(١).

وعندما رأى السلطان ذلك أحضر كبار الأمراء وقرأ عليهم الكتاب فانشرحت صدورهم وسر السلطان واستبشر بالصلح والعود إلى الأوطان عن قريب.

وسار السلطان نحو سوريا في ٢٢ ربيع الأول سنة ٩٢٢، ووصل إلى دمشق ثامن عشر جمادى الأولى، ولاقاه سيباي نائب دمشق إلى بحيرة طبرية، ودخل السلطان من باب النصر الذي بدمشق وزينت له المدينة، ومن ثم خرج منها واستقر في مصطبة السلطان وهي بالقابون الفوقاني*، وأقام هناك تسعة أيام ثم رحل نحو حمص. ثم رحل عنها وتوجه نحو حلب، وعندما وصلها، نادى للعسكر للرحيل والنزول على حيلان لقتال الباغي ابن عثمان، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون للقتال.

٢- معركة مرج دابق

ظلَّ السلطان الغوري يكذب في أمر ابن عثمان حتى جاءه مغلباي دوا دارسكين وهو في حال نحس، بزمط أقرع على رأسه، وهو لابس كبرعتيق دنس، وراكب على إكديش* هزيل، وقد نهب بركه*، وأخذت خيوله وقماشه، وأخبر أن ابن عثمان أبي من الصلح وقال له: قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق، وأخبر أنه وضعه في الحديد وقصد أن يحلق لحيته، وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدة ما لا خير فيه^(٢).

فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان، فركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء في العشرين من رجب سنة ٩٢٢، وصحبته الخليفة العباسي والقضاة الأربعة. وكان قدامه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب الآخرين. وتوجه هذا الجيش إلى حيلان فبات بها، فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب، رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق فأقام هناك إلى يوم الأحد ٢٥ رجب، فما شعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٤٥

* القابون، منطقة تقع شمال دمشق أصبحت اليوم من الضواحي

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٦٨

* إكديش، اسم الحصان الأعجمي في مقابل العرب، وكانت تجلب من بلاد الروم والترك، وغالبًا ما كانت مشقوقة الأنف

وهي صبورة على السير، وسريعة المشي - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ١٩

* البرك، لفظة فارسية معناها المتاع الخاص من ثياب وقماش السلاطين والأمراء - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ٣٢

فركب السلطان وتوجه إلى زغزغن وتل الفار، ورتب العساكر بنفسه^(١). وكان على الميمنة سيباي نائب دمشق وعلى الميسرة خيربك نائب حلب، وكان أول من برز إلى القتال الأتابك سودون العجمي وسيباي نائب دمشق، والمماليك القرانصة * دون المماليك الجلبان * فقتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة سناجق، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق. وهم ابن عثمان بالهرب أو بطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكانت النصر لعسكر مصر أولاً. ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان: لا تقتاتلوا واخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم. فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابك سودون العجمي قد قتل في المعركة، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام، فانهزم من في الميمنة من العسكر، ثم أن خيربك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس، ويقال إن خيربك نائب حلب كان موالساً على السلطان في الباطن، وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة^(٢).

وبقي السلطان واقفاً في نفر قليل من المماليك، وراح يستغيث للعسكر: يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلي رضاكم، فلم يسمع منه أحد قولاً وصاروا يتسحبون من حوله شيئاً بعد شيء، فالتفت للفقراء والمشايخ من حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر، فانطلق في قلبه جمرة نار لا تطفأ، وكان ذلك اليوم شديد الحر، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً، فلما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال، خاف الأمير تمر الزردكاش على السنجق فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم إلى السلطان وقال له: يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فأنج بنفسك واهرب إلى حلب، فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج أبطل شقته وأرخی حنكه، فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة ذهب، فشرب منه قليلاً وألقت فرسه على أنه يهرب، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره، وقيل فعقت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر، وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل

(١) بدايع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٦٨

* المماليك القرانصة، هم القديمون العجزة الموصولون بالديوان الشريف أصحاب الأزراق الثقال المتعینون إلى الأمرة يكونون في منزلة أمراء الخمسوات كان عدتهم قديماً مئة نفر، وأما الآن فدون ذلك ويسمون الوغالر - زبدة كشف المسالك - خليل بن شاهين الظاهري - ص ١١٨

* المماليك الجلبان: المماليك الذين جلبوا حديثاً - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٥٣

(٢) بدايع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٦٩

جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته^(١).

فلما أشيع بموته زحف عسكري ابن عثمان على من كان حول السلطان، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله. أما السلطان فمن حين مات لم يُعلم له خبر، ولا وقف له أحد على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلى، فكان الأرض قد انشقت وابتلعت في الحال، وزال ملكه وانتهى فكانه لم يكن^(٢).

٣ - دخول سليم شاه إلى حلب ودمشق

بعد أن انتهت المعركة اتجه سليم شاه إلى حلب فملكها من دون ممانع. وبايعه أهلها بحضور واليها خيربك. وأقام بميدان حلب وجاء الخليفة والقضاة الأربعة، لكن القاضي الحنفي ابن الشحنة هرب وتوجه إلى دمشق ودخلها في أنحس حال^(٣). وولي السلطان على حلب قراجا باشا، وسار في جيشه إلى حماة وحمص ففتحت له أبوابهما، وبايعه أهلها على الطاعة. وأرسل من قبله رسولا اسمه «مصلح ميزان» ليكشف له هل يسلم أهل دمشق أم يقاتلونه، فوصل هذا الرسول إلى القابون الفوقاني، كما يقول محمد كرد علي، ووصلته الأخبار أن أكابر دمشق ومشايخ الحارات اتفقوا على تسليمها.

وفي يوم التاسع والعشرين من شعبان سنة ٩٢٣ دخل نائب دمشق الجديد من قبل سليم خان واسمه يونس باشا، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم سليم خان وكذلك في سائر الجوامع، ثم تتابع دخول العسكر، وفي يوم السبت مستهل رمضان من تلك السنة وصل سليم خان إلى المصطبة السلطانية بأرض برزة في عساكر عظيمة^(٤). ومن ثم دخل دمشق، ونزل إليه نائب القلعة بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميراً من أمراء دمشق، وملك القلعة واحتوى على ما فيها من المال والسلاح^(٥).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٧٠

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٧١

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٧٤

(٤) خطط الشام محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢١٣

(٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٥٢

* قال فخر الدين ابن معن الأول في خطبته التي ألقاها أمام سليم شاه: «اللهم آدم دوام من اخترته للملك، وجعلته خليفة عهدك، وسلطنته على عبادك وأرضك، قلدته سنتك وفرضك، ناصر الشريعة النيرة الغراء، وقائد الأمة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين الإمام العادل، والذي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه أدام الله بقاءه في العز الدائم أبقاء، وخلد في الدنيا مجده ونعمه، ورفع إلى القيامة طالع سعده، وبلغه مأموله، أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد والنعم والتمهيد، أمين». - تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ١٧٦

وجاء أمراء الشام للقاء الغازي ومنهم الأمير فخر الدين المعني الأول أمير الشوف، فخطب أمامه بالنيابة عن أمراء البر خطبة جميلة استمال بها قلبه*، فأحسن إليه وخلع عليه وسماه «سلطان البر» وأفضل عليه وعلى رفاقه من الأمراء مثل الأمير جمال الدين الأرسلاني الذي جعله والياً على بلاد الغرب وجعل عساف التركماني أميراً على بلاد كسروان وبلاد جبيل^(١).

وقد وصلت أخبار الهزيمة إلى مصر، فسارع الأمراء إلى تولية الدوادار طومان باي سلطاناً جديداً، وتسمى باسم الملك الأشرف طومان باي، وكان له من العمر ثمانية وثلاثين سنة^(٢).

٤- القضاء على دولة المماليك في مصر

خرج سليم شاه من دمشق قاصداً التوجه نحو الديار المصرية، فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد مما حولها، فتسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع. ثم توجه نحو مصر، وفي ثمان عشرين ذي الحجة من سنة ٩٢٢ وردت الأخبار بأن طلائع جيش ابن عثمان قد وردت على «بركة الحاج»* فاضطربت أحوال عسكر مصر وغلقت أبواب القاهرة جميعها، وأمر السلطان طومان باي بالنفير، وركب العسكر قاطبة، ودقت الطبول والزمر حرياً، وصار السلطان طومان باي راكباً بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، وصف العسكر من الجبل الأحمر* إلى غيطان المطرية*.

وتوجه السلطان إلى الريدانية وأقام السواتر ووضع المدافع وسوى ذلك من آلات القتال، وأقام ابن عثمان ببركة الحاج يومين ومن ثم توجه نحو الريدانية، فلما

(١) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢١٤

* بركة الحاج، كان يجتمع فيها حجاج مصر قبل خروجهم إلى مكة، وذكر ابن إياس في أحداث سنة ٩٢٥ فقال: «وفي يوم الأحد ثامن عشرين المحرم، نزل الحاج بالبركة، وحضر المحمل الشريف صحبة القاضي بركات بن موسى المحتسب أمير الحاج. فتغدى في بركة الحاج، ثم توجه وبات في مدرسة السلطان الغوري، فلما طلع النهار ركب من هناك وطلع إلى عند ملك الأمراء وقابله، ونزل من هناك وشق القاهرة في موكب حفل». بدائع الزهور ج ٥، ص ٢٩٠، وذكر البركة ابن الجيعان باسم «بركة الجب» قال: «بركة الجب وهي بركة الحاج، مساحتها ٥٠٠ فداناً دخلها ٣٠٠٠ دينار، كانت باسم، قطا وبغا جركس»- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - ص ١٠

* الجبل الأحمر، جبل قريب من القاهرة به آثار كثيرة من أيام الفراعنة.

* المطرية، من قرى مصر عند الموضع الذي به شجر البلسان الذي يستخرج منه الدهن، والخاصية في البئر الذي يسقى منه الشجر، ويقال، إن المسيح اغتسل فيها، وفي جانبها الشمالي عين شمس القديمة مختلطة ببساتينها، رأيها ورأيت شجر البلسان وهو يشبه شجر الحناء والرمال أول ما ينشأ، ولها قوم يجروحونها ويستقطرون ماءها من سوقها في أنية لطيفة من زجاج ويجمعونه بجد واجتهاد عظيم - معجم البلدان - ياقوت الحموي الرومي - ج ٥ - ص ١٤٩، وقد ذكر ابن الجيعان المطرية فقال: «والمطرية مساحتها ١٨٥٠ فداناً وبها رزق ٦٤ فداناً دخلها ١٨٠٠٠ دينار، وكانت المطرية باسم ولد الأشرف شعبان وأصبحت أوقفاً- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - ص ١٠

(٢) بدائع الزهور في أخبار وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٠٥

وصلت طلائع جيشه إلى الجبل الأحمر، نادى السلطان بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيًا، وركب العسكر قاطبة وسد الفضاء.

وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين وقعة مهولة أعظم من الوقعة في مرج دابق، ثم أن العثمانية طرشوا عسكر المماليك بالبندق الرصاص، فقتل منهم ما لا يحصى عددهم، فانهزموا وثبت السلطان طومان باي في نفر قليل، فلما تكاثرت عليه العثمانية، ورأى العسكر قد قلّ من حوله، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى السنجق السلطاني* وولى واختفى^(١).

وملك ابن عثمان القاهرة عنوة وخُطب له على منابر مصر*. وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة، فلما يحضرونهم بين يدي ابن عثمان، يأمر بضرب أعناقهم. وكان كل من يرويه لابسا زمطًا* أحمر أو تخفيفة* على رأس يقولون له: أنت جركسي، فيقطعون رأسه، فلبست أولاد المماليك كلها عمائم، وأبطلوا لبس الزموط والتخافيف في مصر^(٢).

وفي صفر سنة ٩٢٣ قويت الإشاعات بأن السلطان طومان باي جمع بالصعيد من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان ببرّ الجيزة، فكثرت القيل والقال في ذلك ووقع الاضطراب في القاهرة بسبب ذلك. وخاف سليم شاه منه، فقرر المسير إليه لقتاله قبل أن يصل إلى القاهرة، فقطع النيل في ٦ ربيع الأول إلى برّ الجيزة، وأقام هناك إلى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول، فتلاقى عسكر ابن عثمان وعسكر طومان باي عند كوم الحمام، فكان بين الفريقين وقعة لم يسمع بمثلها، أعظم من الوقعة التي كانت في الريدانية.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٤٦

* قال الخطيب في خطبته: «وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، كاسر الجيشين. سلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا مبینًا، يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين»

«الناعورة». وقد وصفها ابن إياس أنها كانت تستخدم في مقام التاج عند السلاطين المماليك. وكانت التخفيفة الكبيرة بقرونها الطويلة نوعًا من أغطية الرأس الثقيلة. وقد اعتاد السلطان الغوري لبس تخفيفة صغيرة كلما وجد عذرًا يبيح له ذلك نظرًا لعدم مقدرته على ارتداء التخفيفة الكبيرة بقرونها. وفي أثناء الموكب السلطاني كان يرتدي السلطان «تخفيفة صغيرة ملساء». - دراسة تاريخية تحليلية لطرز الأزياء في العصر المملوكي ١ رهام يوسف أمين العناني - ص ٦٩.

* الزمط، هونوع آخر من العمامة، ويعترف دوزي في المعجم بأنه يجهل هذا اللباس، لكن ماير في كتابه «الملابس المملوكية» يوضح أنه غطاء الرأس، ويبدو أنه كان عمامة للفقراء، لكن في فترة معينة صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين. ثم أصبح الزمط جزءًا من الزي العسكري الشرقي، وعندما كان يصدر الأمر بمعاقبة أحد الأمراء كان يوضع على رأسه زمطًا قديمًا. - ملامح القاهرة في ألف سنة - جمال الغيطاني - ص ٣١.

* التخفيفة، هي عمامة صغيرة، وفي مناسبات خاصة كانت العادة أن يرتدي السلطان عمامة تسمى «التخفيفة الكبيرة»

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٥٠.

وانكسرت العثمانية غير مرة، وطردتهم الأتراك حتى ألحقوا أنفسهم في النيل، وكانت الكسرة أولاً عليهم، ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الأتراك وطرشهم الرماة بالبندق الرصاص، فهزموهم، وولى السلطان طومان باي مهزوماً^(١).

ويتضح من هذه الواقعة ومن وقعة الريدانية التي قبلها أن السبب الأساسي لهزيمة الجيش المملوكي هو افتقاره إلى البنادق التي ترمي الرصاص القاتل، كما كان عليه الحال في الجيش العثماني الذي كان مسلحاً بالبنادق الحديثة مما أعطاه القوة والتفوق، ونجح في قهر المماليك والقضاء على دولتهم. وتوجه السلطان طومان باي إلى نحو «تروجة» بالغربية فلاقاه حسن بن مرعي وابن أخيه شكر مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى «البوطة» فعزم حسن بن مرعي وشكر على السلطان طومان باي هناك، وكان حسن بن مرعي بينه وبين السلطان طومان باي صداقة قديمة فأركن له طومان باي ونزل عنده على سبيل الضيافة، ثم أن طومان باي أحضر إلى حسن بن مرعي وابن أخيه شكر مصحفاً شريفاً حلفهما عليه أنهما لا يخونانه ويغدرانه ولا يدلّسان عليه بشيء من أسباب المسك، فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك، فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باي ونزل عنده، فلما استقر احتاطت به العرب من كل جانب، وأرسل حسن بن مرعي أعلم السلطان سليم شاه بذلك، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه في الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان، فلما رأى من كان مع السلطان طومان باي من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا في البلاد، وتمت الحيلة على السلطان طومان باي، وخانه حسن بن مرعي* بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه^(٢). فلما أحضروا طومان باي بين يدي ابن عثمان، قام له وعاتبه ببعض كلمات، فلما خرج من قدامه توجهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطت به الانكشارية بالسيوف، فأقام هناك وهو مصفد بالحديد إلى يوم ثاني عشرين ربيع الأول من تلك السنة، وكان ذلك اليوم، كما يقول ابن إياس، يوم الخماسين، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر، فعُدوا بالسلطان طومان باي من برّ إنابة إلى بولاق، فطلعوا به من هناك وهو راكب على إكديش وهو في الحديد، فلما طلع من بولاق شقّ في المقس* وقدامه نحو أربع مائة عثماني ورماة بالنفط، فطلع من على سوق مرجوش وشق في القاهرة، فجعل يسلم على

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٧١

* يقول ابن إياس في موضع آخر من الكتاب: «وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب سنة ٩٢٣ أشيع أن حسن بن مرعي شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان، وكان قد بقي له إدلال على ابن عثمان من حين تحيل على السلطان طومان باي وقبض عليه، فلما قابل ابن عثمان قبض عليه وسجنه بالبرج الذي بالقلعة، وقبض على ابن عمه صقر، وقد شمت بحسن بن مرعي كل أحد من الناس لأنه سجن، فإنه كان سبباً لمسك السلطان طومان باي حتى شق، والمجازاة من جنس العمل - بدائع الزهور - ج ٥ - ص ١٩٧

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٧٥

الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدري ما يُصنع به، فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الإكديش وأرخوه له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة، وقال للناس الذين حوله: أقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات، فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأ الناس معه، ثم قال للمشا علي: اعمل شغلِكَ. فلما وضعوا الخيَّة في رقبته ورفعوا الحبل انقطع به وسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس، فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة^(١).

وبموت طومان باي تبددت مقاومة المماليك وانتهت واستقر الحكم العثماني بمصر، وأطلق سليم شاه على خير بك لقب «ملك الأمراء»، وجعله نائباً للسلطنة في مصر، وترك معه فرقة من عسكره قدرها خمسة آلاف فارس، ومن الرماة بالبندق الرصاص خمسمائة رام، وقرر من أمرائه شخصاً يقال له خير الدين باشا وجعله نائب القلعة، فيقيم بها ولا ينزل إلى المدينة.

ورحل ابن عثمان من القاهرة في شعبان سنة ٩٢٣، وكانت مدة إقامته ثمانية أشهر إلا أياماً. وأصبحت مصر نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في البلاد قاطبة. لكن ابن عثمان، كما يقول ابن إياس، انتهك حرمة مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويثم أطفالها وأسرى رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها، فلم يدخل إليها أحد من الخوارج ولا قط ملكها ولا جرى عليها ما جرى إلا في زمن البخت نصر البابلي، فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من البخت نصر*^(٢).

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ١٧٦
* المقس، قلعة أنشئت علي النيل كانت تسمى بقلعة المقسي،

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٢٠٧

* ما فعله ابن عثمان بمصري يشابه ما فعله صلاح الدين يوسف بن أيوب بها حنو القذة بالقذة والنعل بالنعل، مع فارق أن ابن عثمان جاء بجيشه وتحدي المماليك وانتصر عليهم في وقائع عديدة، أما يوسف بن أيوب فقد تمسك حتى تمكن، كما يقال، فادعى حبه وولاءه للدولة الفاطمية حتى وصل إلى منصب الوزارة وبدأ عند ذلك بمسلسل الهدم والنسف لأركان تلك الدولة وبمساعدة من معه من قومه الغز، حتى دمر تلك الدولة التي حنت عليه، وقتل أمراءها وأبطالها ويثم نساءها وخرَّب إرثها وحضارتها وبدد مكتباتها وتسبب بحدوث نكبة لمصر لاتزال تعاني منها حتى الوقت الحاضر. لكن ابن إياس التركي المغالي في حب بني جنسه تغاضى عن الشاهد القريب وذهب إلى أعماق التاريخ ليتحدث عن ما أسماها غزوة البخت نصر إلى مصر، مع أن هذا الملك البابلي لم يدخل مصر، بل إن خراب مصر جاء من قبل الليبيين اليافتيين «نسبة إلى يافث بن نوح»، كما تذكر مرويات ورق البردي التي عثر عليها في المعابد والأوابد القديمة في مصر.

٥- أفعال سليم شاه في سوريا

بعد عودته من مصر، قام سليم شاه بتعيين جان بردي الغزالي نائب حماة والياً على دمشق، وأضاف إلى هذا القدس وغزة وصفد والكرك، وأما حمص وطرابلس والمدن البحرية فجعلها بأيدي عمّاله من الأتراك^(١). وبقي أمراء ومقدمو المقاطعات كما كانوا في دولة المماليك، يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها، وكان هؤلاء يخضعون الخضوع التام لولاة المدن الأتراك، وإذا غضب الوالي على أمير أو مقدم يرسل له جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة ٩٣٠ مع أمير الشوف فخر الدين المعني الأول^(٢).

ولم يكن في بلاد العلويين أمراء محليون، بل كان هناك مقدمون، يتحكم الواحد منهم في مجموعة من القرى الصغيرة، وبالتالي لم نسمع عن أي منهم أنه لعب دوراً كبيراً في ذلك الوقت، كما كان عليه حال أمراء الشوف وكسروان وأغيرهم من أمراء سوريا.

وبشكل عام استمر جمع المال من قبل الأمراء والمقدمين من الشعب المغلوب على أمره، لكن لصالح خزينة العثمانيين هذه المرة.

ولم يتعرض سليم شاه لأي معلم ديني في سوريا، كما أنه لم يستهدف الطوائف الصغيرة، لأن هدفه لم يكن تطهير البلاد من المخالفين له في العقيدة، بل توسيع حدود دولته بما يضمن له دخول المزيد من الناس في طاعته وزيادة علوه في الأرض. لكنه من جانب آخر كان يحترم المزارات والمراقد الدينية و يذكر نوفل نعمة الله نوفل، أن السلطان سليم لما رجع من مصر إلى دمشق سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، «زار المراقد ومن الجملة ضريح محي الدين العربي فوجده بين الأشواك والأعشاب، فأمر ببناء تربة وجامع على ضريحه، فتم البناء بعد نحو شهرين، إذ صلى فيه في ٤ محرم سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م)»^(٣).

ويقول محمد كرد علي، «إن سليم شاه كان يعتقد بالاستمداد من أرواح الأنبياء العظام الطاهرة، وأرباب المقامات الشريفة، وأنه لم يغفل مدة إقامته في دمشق أن يزور قبور الصالحين، وأنه لما رأى قبر العارف بالله محي الدين بن عربي قد تداعى وخربت تربته أمر بتعميره على ما يجب، وأنشأ بجواره جامعاً على أجمل طراز، وعمّر زاوية بقبره، ووقف على ذلك عدة قرى ومزارع»^(٤).

(١) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢١٦

(٢) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢٢٤

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نعمة الله نوفل - ص ١٤٧

(٤) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢ - ص ٢١٤

ولما أقام السلطان سليم في سوريا رسم لقاضي القضاة الشافعي محب الدين بن فرفور، كما يقول ابن إياس، بأن يتقلد بمذهب الإمام أبي حنيفة وترك مذهب الإمام الشافعي، وأمر أن لا يحكم بسوريا غير قاضي قضاة حنفي لا غير، كما هي عادته في بلاد إسطنبول، وأبطل من سوريا المذاهب الثلاثة^(١). ما أدى إلى غلبة المذهب الحنفي على المذاهب الثلاثة الأخرى في سوريا.

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن إياس الحنفي - ج ٥ - ص ٢٤٣

الفصل الثاني

ولاية طرابلس

كان الملك الظاهر قد جعل بلاد مملكة الدعوة ملحقة بمملكة حماة الأيوبية، كما رأينا، وجعل الملك المنصور الأيوبي مشرفاً عليها، وبعد استعادة حصن الأكراد من يد الصليبيين ولّى الملك الظاهر على هذا الحصن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، ووضع معه حامية عسكرية لحماية المناطق المحررة من يد الصليبيين في تلك النواحي، لكن لم يستمر الأمر كذلك فبعد استعادة طرابلس على يد السلطان قلاوون الألفي، تمّ جعل طرابلس إيالة وألحقت ببلاد العلويين بها*، وانتقل النائب بحصن الأكراد إليها.

وقد عمد السلطان قلاوون إلى تدمير المدينة التي كان يسكنها الصليبيون وأمر ببناء مدينة جديدة مجاورة لنهر أبو علي، وعمر فيها، كما يقول النويري، حمامات وقياسر* ومساجد ومدارس للعلم. وأجريت المياه في دورها بقساطل، وعمرت دار السلطنة، ينزلها نائب السلطنة بالمملكة، وهي عالية مشرفة على المدينة^(١).

واستمر الأمير سيف الدين الطباخي في النيابة، إلى أن نقل إلى حلب، في عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون، في سنة إحدى وتسعين وستمائة. وولاه السلطان الأمير سيف الدين طغريل الإيغاني، فأقام أياماً، واستعفى فأعفاه السلطان الملك الأشرف. ورتب في النيابة، الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، فبقي في النيابة إلى الأيام العادلية الزينية كتبغا المنصوري، فعزل عنها في سنة أربع وتسعين وستمائة. ودفن بترتبه التي أنشأها، وهي بجوار حمامه بطرابلس وفوّضت النيابة بها بعده إلى الأمير سيف الدين كرت الحاجب، فلم تطل أيامه إلى أن كان من دخول المغول البلاد، فشهد الواقعة وعُدم، وربما استشهد رحمه الله تعالى، كما يقول النويري.

ثم فوضت النيابة بعد خروج المغول من الشام، إلى الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري، فتوجه إليها، وأقام بها، إلى سنة سبعمائة. واستعفى من النيابة

* كانت نيابة طرابلس المملوكية تشمل نيابات صغرى مثل حصن الأكراد وحصن عكار ونيابة بلاطس ونيابة صهيون واللاذقية، وست نيابات صغرى أخرى، ومراكز جماعة الإسماعيلية وهي، الرصافة، القدموس، الخواي، الكهف، المنيقة، العليقة، أما النيابات التابعة لطرابلس فعدها ست: طرطوس، جبة المنيطرة، والظنين، وبشري، وجبله، وأنفة - موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي - مفيد الزبيدي - ص ١٩٥

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - أحمد بن عبد الوهاب النويري - ج ٣١ - ص ٣٩

* قياسر، جمع قياسارية، وهي السوق الذي تباع فيه الأثواب والزراي والمطعومات وسوى ذلك من أنواع البضائع.

فأعفي، واستقر في جملة الأمراء بدمشق^(١).

وفوضت نيابة السلطنة إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجي المنصوري، فاستمر بها إلى سنة تسع وسبعمائة. وعمر بها حمامًا عظيمًا، أجمع التجار ومن يجوب البلاد، أنه ما عمر مثله في بلد من البلدان، وعمر قيسارية وطاحونًا. وأنشأ مماليكه بها مساكن حسنة البناء، تجري إليها المياه بالقنوات، وتجري في طباقها، وعمر أيضًا بعض القلعة، وأقام أبراجًا. وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس. وتمكن استدمر تمكّنًا كثيرًا، وتأمّر عدة من مماليكه، ثم نقل إلى حماه.

وفوض السلطان الملك الناصر نيابة المملكة الطرابلسية وما معها إلى الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحاجب، المعروف بالحلي فأقام بها إلى أن توفي في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة عشرو سبعمائة. وفوضت النيابة بها إلى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، فأقام بها إلى مستهل المحرم سنة اثني عشرة وسبعمائة وفارقها وتوجه إلى بلاد التتار.

وفوضت النيابة بعد أقوش الأفرم إلى الأمير سيف الدين كستاي الناصري، فقام بجولة لكشف المملكة الطرابلسية وما هو مضاف إليها من الحصون، وأظهر النزاهة عن قبول تقادم النواب، فكان من قدم له شيئًا من الخيل أو القماش عرضه وأمر بكتابته، وأعادته على من قدمه، ولما سمع نواب الحصون بذلك أكثروا من التقادم، وأرادوا بذلك التجمل عنده، وعلموا أن ذلك يعود إليهم، وكان من عزم على تقديمه شيء ضاعفه، واستعار بعضهم من بعض، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن وصل إلى ثغر لاذقية وهو آخر العمل، فقدم له الأمير بدر الدين بكتوت مقدم العسكر بالثغر مقدمة جليلة من الأقمشة والبخاتي*، وغير ذلك، وتجمل وظن أن ذلك يعاد إليه كما أعيد على غيره، فقبل جميع ذلك وقال: أنت خوشداشي* ولا يليق أن أرد عليك، ولما عاد من لاذقية مرّ على واد هناك به عدة من البخاتي للأمير بدر الدين بكتوت، فانتقى ثلاثين بخيتًا من خيارها، وأرسل إليه يقول: إنني مررت على جمالك وأخذت منها خمسة قطر لضرورة التقديم للسلطان، فأرسل ولدك لتقرير ثمنها وقبضه، ثم كتب إلى سائر من كان قد قدم له مقدمة يطلبها بجملتها، وكان من استعار من النواب قماشًا من صاحبه قد أعاده عليه، فاضطروا إلى إرسال قصّادهم إلى حماة وغيرها لابتياح عوض ما كانوا استعاروه، وكمّلوا تقادهم وأرسلوها إليه، وحصل لهم الضرر بذلك^(٢).

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - أحمد بن عبد الوهاب النويري - ج ٣١ - ص ٣٩

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ١٨٠

* البخاتي، البخت من الإبل لبخت نصر الملك الأشوري، وهو لفظ معرب، وثقيل عربي، والذكر بختي، والأنثى بختية، والبخاتي هي جمال طويلة الأعناق سريعة المشي أصلها من خراسان - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٣٠

ولم تطل مدته بعد ذلك ووعد الجميع في تركته، وكانت تركة طائلة، ومات في سنة ٧١٦ وورثه أخواه سيف الدين فجليس أمير سلاح، وسيف الدين أولاق، وزوجته^(١).

وفوض السلطان محمد بن قلاوون نيابة السلطنة في طرابلس إلى الأمير شهاب الدين بهادر قرطاي الصالحي العلائي، الذي كان يتولى نيابة حمص، فتوجه إلى طرابلس في السابع من شهر رجب سنة ٧١٦^(٢)، وأقام بهادر قرطاي بها إلى سنة ٧٢٦، حيث فوض السلطان النيابة إلى سيف الدين طينال الحاجب، فسار إليها في جمادى الآخرة من تلك السنة^(٣). وفوضت النيابة إلى سيف الدين جيبغا الذي قتل سنة ١٣٤٩^(٤). وفوضت النيابة بعده إلى السيفي سندمر، ثم إلى الأمير تكلمش، ثم جاء بعده منجك*.

وتوالى نواب المماليك بها إلى أن أخذ سليم شاه سوريا عام ١٥١٦ ميلادي - ٩٢٣ للهجرة. حيث عين على طرابلس ابن إدريس البديليسي*، لكن لم يطل مقامه بها، فبعد موت الغازي العثماني سنة ٩٢٦، بدأت الدولة بإبطال الإقطاع العسكري، وراحت تعمل على تلزيم مناصب الولايات للأثرياء مقابل مبلغ مقطوع يتم دفعه سنوياً، وكان من يريد أن يلتزم طرابلس فعليه أن يدفع للباب العالي مائة وخمسين كيساً، وكان عليه أن يقوم أيضاً بنفقات الجردة التي تقدر بسبعمائة

* خوشداشيه. لفظ فارسي معناه الزميل في الخدمة، والخوشداشيه هم الأمراء الذين نشأوا ممالك عند سيد واحد، نبئت بينهم رابطة الزمالة، وكان لهذه الرابطة أثرها في المماليك، فكانوا يجلبون من مختلف أسواق النخاسة، وليس بينهم رابطة سوى ما يحدث لأحدهم من أمور وشؤون مثل أن ينشأ عدد منهم عند سيد واحد - معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - ص ٦٩

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ١٨١

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٢ - ص ١٨١

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - ج ٣٣ - ص ١٥٣

(٤) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٣١٤

* أورد دفتر تحرير طرابلس رقم ٣٧٢ تاريخ ٩٢٦ للهجرة، ١٥٢٠ للميلاد، النواحي التابعة لطرابلس وهي، كورا، أنفة، بترون، جبيل، فتوح بني رحال، ظنية، بشر، زاوية، عرقا، عكار، صافيتا، ميعار، طرطوس، خوابي، قدموس، عليقة، منيقة، كهف، قليعة، مرقب، جبلة، بلاطنس، صهيون، لاذقية، بردية، وادي قنديل - قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ١٢

* لم يذكر نوفل نعمة الله نوفل ما هو اسم ابن إدريس البديليسي، لكن يبدو أنه اشتهر بهذا اللقب، حتى عرفه الناس به، أما والده فهو إدريس بن حسام الدين بن علي عرف بالبديليسي نسبة إلى بدليس التي هي بلدة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط. وقد شغل البديليسي العديد من المناصب المهمة في بلاطات دولة «الاق قوينلو» (الخروف الأبيض) في العراق، والدولة الصفوية خاصة وفي الدولة العثمانية، حيث افتتن السلطان العثماني بايزيد الثاني بأسلوب أدريس البارغ بأصول المكاتب الرسمية، وقد أوكل إليه بايزيد مهمة كتابة تاريخ الدولة العثمانية سنة ١٥٠٢ فأنتم المهمة بنجاح. وذلك في كتاب سماه «هشت بهشت» أي «الجنة الثمان». كما عهد إليه السلطان مناصب رسمية في الدولة العثمانية. - الدبلوماسية السياسية وأثرها في تثبيت النفوذ العثماني في شمال العراق «أدريس البديليسي» «نموذجاً» - بشرى ناصر هاشم الساعدي - ص ١٠

* أثرنا عدم ذكر باقي أسماء النواب منعاً من الإطالة.

وخمسين كيسًا، كما يقول Volney، والجردة هي القمح والشعير والأرز التي تذهب إلى قافلة الحجاج في البادية. وكان ملتزم طرابلس يعوّض خسائره من الأتاوات والمغارم والضرائب^(١).

وكان أول من ملك طرابلس بطريق الالتزام هو محمد آغا شعيب الذي كان يملك عرقا وراثته من أيام المماليك، وهو من أصل تركي مملوكي. وقد طمع منصور العسافي التركماني أمير بلاد كسروان وجبيل بإمارة طرابلس، فدفع آل سيفا التركمان في عكار إلى اختلاق فتنة مع آل شعيب ومن ثم أرسل جماعة من عسكره فقتلوا عدة أمراء وجماعة منهم في عرقا، وساعده في ذلك قرقمازين معن الأول أمير الشوف. ومن ثم أرسل منصور العسافي نفرًا من بني حبيش*، ومعهم خمسمائة مقاتل فكمنوا عند حارة الحصارنة* وعندما رأوا محمد آغا شعيب قد دخل إلى جامع طينال لحقوا به وقتلوه، وذلك سنة ١٥٢٨، وحصلوا من القاضي الشرعي في طرابلس على حكم براءة من دمه^(٢). وتواصل منصور العسافي مع الباب العالي وحصل على حق التزام إمارة طرابلس وأصبح أميرًا عليها. وقد طاب له المقام بها، وهكذا فقد ظل يوالي التزامها خمسين سنة متوالية.

وفي سنة ١٥٧٨ تم رفع شكوى إلى الباب العالي ضده لقتله ابن شعيب والي طرابلس وغيره كثيرين من سكان البلاد، فصدر أمر الدولة سنة ١٥٧٩ بعزله، وأن تكون طرابلس باشاوات. واستطاع أحد المقربين منه وهو يوسف آل سيفا، التزام طرابلس، وقد كان يحمل لقب باشا، وحكمها لمدة خمسة وأربعين عامًا، فلما توفي سنة ١٦٢٤، حضر أولاده: محمود من قلعة الحصن، وبُلك من عكار، وقاسم من جبلة، ثم رحل محمود وبلك وبقي قاسم في طرابلس محاولاً أن يصبح باشا عليها، فمكث فيها عدة أشهر، لكن تولاه مصطفى باشا بن إسكندر من قبل الصدر الأعظم حافظ باشا الوزير، وكان دخوله بلا رحمة لكثرة الظلم الذي صدر منه^(٣). وشغب عليه أولاد سيفا وعملوا على قتله، فجمع عسكره وساربه إليهم إلى مرقية إلى تحت قلعة المرقب حيث كان تجمع في هذه القلعة الأمير قاسم ابن سيفا، ويوسف آغا والشيخ علي بن حمادة وأتباعهم، فدفعوا للباشا عشرين ألفًا حتى أخذوا خاطره ورجع إلى طرابلس، واستمر إزعاج آل سيفا له، فاستنجد بالأمير فخر الدين ابن معن عليهم، فجمع الأمير جيشًا من السكمانية والعرب

(١) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - الرحالة الفرنسي فولني - ج ٢ - ص ١٦

* بنو حبيش من مشايخ لبنان الموارنة، قدموا إليه من هوزان في اليمن وسكنوا دير الأحمر.

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ١٥٥

* حارة الحصارنة، وتعرف أيضًا بحارة النصارى، عمارة شيدها أبناء بلدة حصرون من قضاء الحدث بشري في طرابلس وسكنوها فعرفت الحارة بهم.

(٣) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٤٩١

وأهل بلاده وزحف بهم من بيروت على البقاع واللبوة والهمل.

وكان الأمير سليمان بن سيف متحصناً في صافيتا ومعه نحو أربعة آلاف رجل، فلما بلغه قدوم الأمير أطلق الرجال وسار في نفر قليل إلى سلمية ملتجئاً عند الأمير مدلج البدوي، فقتل هناك، ثم أن أولاد سيف الآخرين طلبوا العفو من الأمير فخر الدين وأعطوه قلعتي الحصن والمرقب، فطاب خاطره عليهم ومنع منهم باشا طرابلس^(١).

وفي سنة ١٦٢٦ عزل حافظ أحمد الوزير مصطفى باشا وعين على أيالة طرابلس عمر باشا الدفتردار، وسار حافظ أحمد الوزير إلى العراق لقتال الفرس فانهزم، فتسلم الوزارة من بعده خليل باشا، فعزل عن طرابلس عمر باشا وأعطاه لإبراهيم باشا^(٢).

في سنة ١٦٢٧ دخلت طرابلس في حكم الأمير فخر الدين المعني^(٣)، ولم تطل مدته حيث حاربه الدولة وانتصرت عليه سنة ١٦٣٣، وأخذ إلى القسطنطينية وقتل هناك. ومن ثم عادت ولاية طرابلس إلى آل سيف حيث تولاه قاسم آل سيف ودعي قاسم باشا، وفي سنة ١٦٣٥ تولى طرابلس مصطفى باشا نيشانجي (حامل الختم)، فولى على جبيل والبترون والضنية الأمير علي سيف، وولى ما بقي من أمراء سيف على عكار وحصن الأكراد وصافيتا.

ثم عزل مصطفى باشا، وخلفه على طرابلس أحمد باشا، وعزل أحمد باشا سنة ١٦٣٦، وتولى عوضه شاهين باشا، فاشتكى على آل سيف بأنهم خربوا البلاد، فأرسل الأمير عساف للبasha خبراً وذخيرة مع معتمده استعطافاً لخاطره، فخلع البasha عليه وأعطاه الأمان، فقرب الأمير منه فأمر برفعه إلى قلعة الحصن وشنقه على بابها وقتل أتباعه ولم ينج منهم إلا نفر قليل، واستخدم البasha الأمير إسماعيل موسى الكردي من رأس نحاش* والشيخ علي حمادة بالاقتصاص من بني سيف فقبضا على قاسم باشا والأولاد والنساء وبحثا عن أموالهم في القرى والأديرة وكان ذلك آخر العهد بشأن هذه العائلة. ومن ثم أصبحت إيالة طرابلس بعد ذلك تحت ولاية حكام ترسلهم الدولة العلية رأساً^(٤).

وعندما آلت إيالة صيدا والشام كلها إلى أحمد باشا الجزائر البوشناق سنة ١٧٨٦، عين هذا على طرابلس مصطفى آغا القرق المسمى، مصطفى بربر، وذلك سنة

(١) تاريخ الأئمة - البطريك اسطفان الدويهي - ص ٤٩٤

(٢) تاريخ الأئمة - البطريك اسطفان الدويهي - ص ٤٩٥

* رأس نحاش، قرية في قضاء البترون - شمال لبنان

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ١٥٧

(٤) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأئمة - الأمير حيدر الشهابي - ج ١ - ص ٣٣٨

١٧٨٩، وكان من طرابلس نفسها، وفي سنة ١٨١٦ بينما كان أحد الأطباء من الإنكليز يتجول في جبال اللاذقية، هجم عليه بعض السكان من العلويين وقتلوه واستولوا على ما يملك من مال ومتاع، ولما بلغ الباب العالي الأمر بواسطة السفير الإنكليزي في الآستانة، صدرت الأوامر الشاهنشاهية بوجوب إلقاء القبض على «الأشقياء» الذين قتلوا الطبيب الإنكليزي المذكور، ولما لم تأت هذه الأوامر بنتيجة، بل واصل «الأشقياء» العبث بالأمن، وأضربوا عن دفع الأموال الأميرية، أرسل سليمان باشا عسكرياً لردّهم، وكلف مصطفى آغا بربر بمرافقة هذا العسكر، وحين وصل مصطفى آغا بربر مع الحملة لمراكز العلويين ضربهم بيد من حديد، واستولى على ممتلكاتهم وألقى القبض على سبعين رجلاً من أعيانهم وأعدمهم، وقطع رؤوسهم وحشاها تبناً* وأرسلها للوزير المذكور.

وهكذا خمدت الحركة نوعاً ما، لكنهم عادوا للعصيان ورفضوا دفع الضرائب المتوجبة عليهم للدولة، فعاد مصطفى آغا بربر إليهم وقتل منهم خمساً وأربعين رجلاً، فوقع الخوف في النفوس وأخذ الناس بدفع الأموال الأميرية^(١).

وكان ممن تسلم طرابلس محمد باشا (ميرميران) الذي توجه إلى اللاذقية ليحجي المال الأميري فظهر للناس هناك أنه ميال للمذهب العلوي فثاروا عليه وقتلوه سنة ١٨٢٣،^(٢) وفي سنة ١٨٢٦ تمّ تعيين أمين باشا^(٣)، وظل هذا في طرابلس حتى مجيء إبراهيم باشا إلى سوريا.

وبعد خروج الجيش المصري من سوريا، تمّ إلغاء ولاية طرابلس، وتمّ إلحاق المناطق التابعة لها بين ولايتي صيدا ودمشق، وعندما صدر قانون الولايات سنة ١٨٦٤، تمّ إلغاء ولاية صيدا وأصبحت مع طرابلس تابعتين لولاية سوريا^(٤). وظل الوضع كذلك حتى تمّ إنشاء ولاية بيروت سنة ١٨٨٨، حيث ألحق لواء طرابلس ولواء اللاذقية بتلك الولاية. واستمرت ولاية بيروت حتى انهارت الإمبراطورية العثمانية عام ١٩١٨.

(١) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٤٦

* أية وحشية هذه التي تدفع بمخلوق أن يقتل مخلوقاً آخر ويقطع رأسه ويخرج منه الدماغ ومن ثم يحشوه تبناً، ونحن لا نتحدث عن أمور جرت قبل التاريخ، بل عن حادثة فظيعة وقعت قريباً، على أناس أبرياء كل ذنبهم أنهم رفضوا دفع الضريبة.

(٢) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٤٦

(٣) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٦٥

(٤) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ١٤

- تعقيب :

يتضح مما تقدم أن طرابلس قد استقرت نيابة منذ أن استعادها السلطان قلاوون، وأن النواب تعاقبوا عليها من قبل السلاطين في القاهرة، الذين كانوا يعينون عليها من يرونه مناسباً أو من يكون مقرّباً منهم. واستمر الأمر كذلك في عهد العثمانيين، لكن هؤلاء باتوا يعينون على طرابلس وغيرها من المدن من يدفع لهم أكثر، ولم يكونوا يلتفتون إلى أصله ومنبته، ورغم أن الغالبية ممن حكم طرابلس كانوا من الأتراك ومن السنة تحديداً، لكن يظهرين هؤلاء والعلوي هو محمد باشا ميرميران، الذي زار اللاذقية وأظهر ميله إلى العلويين، كما يقول نوفل نعمة الله نوفل، فتعرض للقتل، ولم يوضح الراوي نوفل، السبب الذي من أجله تمّ قتل هذا الباشا ومن هي الجهة التي قتلتها، كما لم نعر على مصادر أخرى حول تلك الحادثة. لكن ربما أراد ميرميران أن يوّلّي أحد العلويين على لواء اللاذقية أو يجعل له نفوذاً في ذلك اللواء، فأزعج تصرفه المتنفذين فيها فقتلوه.

وبشكل عام فإن الباشاوات الذين كانوا يحصلون منصب إيالة طرابلس بالمال، كانوا يعملون على تحصيل المبلغ المدفوع من خلال الشعب الذي يحكمونه، ويذكر الرحالة الفرنسي فولني «VOLNEY» الذي زار مصر وسوريا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، في حديثه عن إيالة طرابلس: «إن أهل الإيالة لا يزرعون ولا يبنون بناء جديداً، بل إنهم يفضلون إدخار أموالهم بعيداً عن أنظار الباشا الذي كان يعتبر الشروع في تنفيذ أي مشروع زراعي أو عمراني دليلاً على وجود المال في حوزة صاحبه فيبادر مسرعاً إلى طلبه تحت التهديد، فإن أبي أو أنكر ضرب، وإن اعترف ضرب أيضاً ليعطي أكثر»^(١).

(١) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - فولني - ج ١ - ص ١٨

الفصل الثالث

مقاطعة صافيتا

كانت صافيتا تشكل مقاطعة تمتدّ من حدود قلعة الحصن شرقاً حتى ما يُسمى «نهر الخواري»، وهو الوادي الذي يقع وراء قرية «حباية»* من جهة الشمال، وحتى البحر المتوسط غرباً، ومن الجنوب مقاطعة عكار. وقد حكم هذه المقاطعة منذ بدء الاحتلال العثماني لبلادنا، ولادة من آل سيفا التركمان لمدة أكثر من قرن من الزمان، من ثم توالى عليها ولادة كان يعينهم باشاوات طرابلس، وكان هؤلاء يستعينون في إدارة تلك المقاطعة وجمع الضرائب فيها بمجموعة من المقدمين المحليين الذين كانوا موزعين في مناطق مختلفة.

ومن ثم استطاع الشيخ درويش بن الشيخ شبلي بن شمسین أن يلتزم جباية الضرائب وحماية الأمن في مقاطعة صافيتا منذ حوالي سنة ١٧٣٠ للميلاد، حيث تُظهر حجة التزام مبرمة بين الشيخ ملحم بن الشيخ حسين شمسین بأصالته عن نفسه ووكالته عن عمه الشيخ درويش شبلي شمسین وبين والي طرابلس مصطفى باشا. وذلك سنة ١١٥٦ للهجرة، ١٧٣٣ للميلاد^(١). بأن الشيخ درويش تولى، بموجب تلك الحجة ولمدة سنة كاملة، جباية الضرائب وحماية الأمن في مقاطعة صافيتا، لكن ربما لم يتابع الشيخ درويش في الالتزام لأن هناك حجة التزام مبرمة سنة ١١٧٦ للهجرة، ١٧٥٦ للميلاد، بين كل من المقدم رسلان بن المقدم سليمان بن المقدم علي بن المقدم حسن، والمقدم جنيد الأصيل عن نفسه والوكيل الشرعي عن شقيقه المقدم مقصود، والمقدم إبراهيم بن المقدم مدلج، والشيخ حسن بركات، والمقدم أحمد زيدان بن المقدم رسلان، وبين والي طرابلس محمد باشا^(٢).

وهذه الحجة تدل على أن هؤلاء المقدمين تولوا لمدة سنة كاملة جباية الضرائب من مقاطعة صافيتا وحماية الأمن والاستقرار فيها، وربما استمر هؤلاء سنوات عديدة أخرى في التزام مقاطعة صافيتا.

لكن منذ سبعينات القرن الثامن عشر يعود الالتزام إلى بيت شمسین، ويتجلى ذلك من خلال حجة التزام مبرمة بين الشيخ محفوض بن الشيخ درويش

* حباية، قرية صغيرة تقع على طريق دريكيش - طرطرس، تبعد عن دريكيش ١٢ كيلو متراً.

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٢١٧

(٢) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٢١٥

الشبلي، وبين الوالي محمد باشا سنة ١١٩٧ للهجرة، ١٧٧٦ للميلاد^(١)، يتولى فيها الشيخ محفوظ التزام جباية الضرائب وحماية الأمن في صافيتا لمدة سنة كاملة.

وبعد وفاة الشيخ محفوظ تولى ولده الشيخ صقر مكانه، وهناك حجة التزام مبرمة بين الشيخ صقرو وبين والي طرابلس عثمان بك الشديد «المرعي» سنة ١٢٠٣ للهجرة، ١٧٨٢ للميلاد^(٢). وهذه الحجة تبين أن الشيخ صقر تولى جباية الضرائب وحماية الأمن في صافيتا. وقد أظهر الشيخ صقر كفاءة عالية في إدارة مقاطعته، ورضيت عنه الدولة، وعززت موقفه، وكان له علاقات واسعة مع الأمراء والشيوخ في مختلف المناطق، ولاسيما مع الأمراء الشهابيين.

وفي هذا الخصوص كان الباشا أحمد الجزار قد غضب على الأمير يوسف الشهابي وذلك سنة ١٧٨٣ وأراد القصاص منه، فهرب الأمير نحو بلاد صافيتا، وحضر إليه الشيخ صقر المحفوظ حاكم بلاد صافيتا وأنزله في قرية سرستان*، وأقام هناك ثلاثة أيام فحضر إليه كتاب من المعلم ميخائيل السكروج الذي كان يومئذ مدبر الجزار وحضر معه إلى بيروت وكان الكتاب باسم سعد الخوري نائب الأمير يوسف يقول له فيه أن يرجع بمولاه الأمير وأن الوزير يطيب قلبه ويعيده إلى ولايته، فنهض الأمير يوسف من ساعته ورجع بمن معه، من بلاد العلويين إلى عكار ثم إلى الكورة^(٣)، وكان للشيخ صقر حصانة ولم يكن بوسع باشا طرابلس أن يعزله، وكل ما كان يستطيع فعله هو أن يقاتله.

ويذكر سميح وجيه الزين أن مصطفى آغا بربر باشا طرابلس كان قد نقم على الشيخ صقر لأنه تأخر عن تسليم المال الأميري المفروض على صافيتا، فقرر قتاله، حيث يقول في أحداث سنة ١٨٠٧: «أرسل (الباشا مصطفى آغا بربر) يستنجد بالأمير بشير الشهابي على قتال الشيخ صقر المحفوظ حاكم صافيتا، لتمنعه عن دفع المال الأميري المطلوب منه، فأرسل له الأمير بشير، الأمير عباس أسعد والأمير حيدر إسماعيل اللمعي وغيرهما من الأمراء مع عدد من العساكر، وزحف الجميع مع عسكر مصطفى بربر على صافيتا ونهبوها وأحرقوا الزرع وعندها خاف الشيخ صقر وأرسل يطلب الأمان فرضي عنه بربر ورجع الأمراء»^(٤).

وتوفي الشيخ صقر حوالي سنة ١٨١٤، وخلفه في حكم مقاطعة صافيتا ولده الشيخ دندش، وتوفي الشيخ دندش حوالي سنة ١٨٢٥، ومن ثم جاء بعده أخوه الشيخ

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٢١٧

(٢) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٢١٤

* سرستان، قرية تقع شمال غرب صافيتا.

(٣) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان - الأمير حيدر أحمد الشهابي - ج ٢ - ص ٨٤٥

(٤) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ٢٢٢

صافي، وقد قتل هذا الشيخ في المعركة بين الجيش العثماني والمصري في طرابلس كما سيأتي لاحقاً، فتولى صافيتا بعده أخوه الشيخ خضر بن صقر المحفوض، والذي بقي ملتزماً لها حتى انتهاء الحكم المصري.

ونورد فيما يلي حجتى التزام: الأولى بين الشيخ دندش ابن صقر المحفوض وبين والي طرابلس محمد باشا ميرميران، والثانية بين الشيخ خضر ابن صقر المحفوض وبين قائمقام طرابلس مصطفى بربر من قبل الوزير إبراهيم باشا المصري.

١- حجة التزام صافيتا للشيخ دندش ابن صقر المحفوض

«حضر فخر الأماثل والأقران الشيخ صافي صقر المحفوض الوكيل الشرعي عن شقيقه الشيخ دندش الثابت بالوكالة عنه فيما يأتي بيانه فيه بشهادة كل من علي ابن حسن وعلي ابن سليمان من أهالي صافيتا وقرر وأقر طائفاً مختاراً من غير إكراه ولا إجبار بأن موكله شقيقه المرقوم قد تعهد والتزم من عمدة الأماجد الأكارم حاوي المحامد والمكارم الحاج أحمد بك قائمقام سعادة أمير الأمراء كبير الكبرا الفخام صاحب ذيل العز والاحتشام حضرة الحاج محمد باشا المحتشم والي طرابلس الشام حالاً أدام الله تعالى دولته وإقباله وأبد سعادته وإجلاله وذلك بجميع مال ميري مقاطعة صافيتا من أيلة المحمية، مدة سنة كاملة ابتداءً من أول آذار الرومي مارت سنة تاريخه بمبلغ قدره من القروش الأسدية اثنتين وأربعين ألف قرش وسبعماية قرش وعشرون قرشاً وثلاثة أرباع القرش المعبر عنها بخمسة وثمانين كيساً ومائتي قرش وعشرين قرشاً وثلاثة أرباع القرش على أن يجبي الموكل المرقوم الأموال الأميرية من محالها حسب المعتاد من السنة المرقومة وذلك مما عدا مال أوقاف وتيما روم مستحفظات وضموم وعوايدات وجزى نصارى وجرم غليظ، وما يأتي من طرف الدولة العلية بموجب فرمان عالي وأن يورد المبلغ المرقوم في فتوح ميزان الحرير من السنة لخزينة طرابلس في دفعات وكلما أورد دفعة يأخذ بها وصول الخزينة العامة. وعند تمتة الدفع يحاسب على ما بيده من الوصولات ويأخذ تمسكه الممضي المختوم بإمضاء وختم الموكل المرقوم المتوج بإمضاء وختم مولانا الحاكم الشرعي المومى إليه المرصد في الخزينة العامة. ثم قرر الوكيل الموقوم بأن موكله شقيقه المرقوم قد تعهد بالتأمين والتطمين لأهل العهدة القاطنين فيها وللمارين وأبناء السبيل والمواشي السايمة فيها بمعنى إن صدر أدنى ضرر مما ذكر فالموكل مطالب بذلك والمواخذ بما هنالك تقريراً وإقراراً والتزاماً وتعهداً صحيحات مرعيات مقبولات من فخر الملة المسيحية الخواجة وهبة صدقة بوكالته في ذلك عن جناب القائم مقام قبولاً شرعياً وسطر بالطلب في ثالث شعبان المعظم سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، (سنة ١٨٢٣ للميلاد)»^(١)

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٢٢٠

٢- حجة التزام أبرمها الشيخ خضر صقر المحفوض مع قائم مقام طرابلس مصطفى
أغا بربر من قبل الوزير إبراهيم باشا
وهي كالتالي:

«مجلس الشرع الشريف بطرابلس الشام المحمية لدى متولية مولانا وسيدنا
الحاكم الشرعي سندروسي زاده السيد إبراهيم أفندي بها حالاً أدام الله إقباله،
حضر فخر أقرانه شيخ خضر السقر المحفوض، وقرر وأقر بالطوع والرضى
والاختيار من غير إكراه ولا إجبار بأنه قد تعهد والتزم جناب عمدة الأمجاد والأكارم
حاوي صنوف المحامد والمكارم بربر زاده السيد مصطفى أغا أدام الله تعالى إقباله
القائم مقام بطرابلس الشام حالاً من قبل سعادة الوزير الوقور الهمام الليث
الجسور صاحب الدولة والإقبال والسعادة والإجلال ولي النعم أفندينا المعظم
الحاج إبراهيم باشا أدام الله تعالى إقباله وذلك بجميع مال ميري مقاطعة صافيتا
من أعمال طرابلس الشام المحمية مدة سنة كاملة أولها، أذار الرومي، هارت سنة
سبع وأربعين ومائتين وألف، بمبلغ قدره من القروش الأُسدية، مائتا ألف قرش
بألف التسنية (التثنية) وأربعون ألف قرش وستمئة قرش وخمسة وعشرون
قرشاً، وعن مبلغ عبودية ثلاثون ألف قرش، وعن مال منزل وعوايدات خمسة
ألف قرش وستماية قرش وستون قرشاً تكون جملة الأموال الثلاث المحرر بها
ثلاث صكوك يامضاء وختم الملتمزم المتوجات يامضاء وختم مولانا وسيدنا الحاكم
الشرعي المومي إليه فقط مائتا ألف قرش وستة وسبعون ألف قرشاً، ومائة قرش
وتسعون قرشاً المعبر عنهما بخمس مائة كيس واثنين وخمسين كيساً ومائة
قرش وتسعون قرشاً، وذلك ما عدا مال أوقاف وتيما روم مستحفظات وجرم غليظ
وجزى نصارى وما يأتي به الأمر العالي حسبما بيده من الشرط نامه * الصادرة
له من جناب القائم مقام المومي إليه على أن يجبي الأموال الأميرية من محالها
حسب المعتاد ويورد المبلغ المرقوم بورود الأمر لطلب الأموال الأميرية كلما أورد
دفعة يأخذ بها وصولاً من الخزينة، وعند تنمة الدفع يحاسب على ما في يده من
الوصولات ويأخذ صكوكه المرقومة ثم تعهد بالتأمين والتطمين لأهل المقاطعة
والمارين بها، وأبناء السبيل مع سلوك الطرقات على المنهج القويم المستقيم
بمعنى إن صدر أدنى ضرر فهو المطالب بذلك والمؤاخذ بما هنالك تقريراً وإقراراً
وتعهداً والتزاماً مقبولات من المعلم وهبه صدقة لوكالته في ذلك وجرى ما يحويه
لدى مولانا وسيدنا الحاكم الشرعي فأمر بتسفيره فسطر في غرة ربيع الأول سنة
ثمانية وأربعين ومائتين وألف، ١٨٢٣ للميلاد.

شهود:

جناب عثمان أفندي كرامة زادة - جناب السيد خليل أفندي مرحبا باش
كاتب - السيد محمد ميقاتي - السيد محمد مخلص - السيد مصطفى

الجمال - سليمان الساييس - الحاج شاكوشامي - الشيخ محمد العادلي -
الحاج محمد خرما وغيرهم»^(١).

(١) الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي - أسد رستم - مجلد ٢ - ص ٢٤

الفصل الرابع

الفتح المصري لسوريا

١- الحملة العسكرية وأسبابها

بعد أن توسعت أملاك محمد علي باشا في مصر والسودان والجزيرة العربية راح يتطلع للسيطرة على سوريا وبناء دولة عربية كبيرة، وكان محمد علي يدين بالولاء للسلطان العثماني، لكن تنامي قوته جعله يفكر في التحرر من تلك التبعية. وكانت إيالة صيدا قد آلت سنة ١٨١٩ إلى عبد الله باشا الخزينة دار، ابن علي باشا مملوك أحمد الجزار، وسرعان ما أصبح عبد الله باشا من أقوى الولاة في سوريا وبات يلعب أدواراً كبيرة ويتطلع للسيطرة على كامل سوريا كما كان الأمر مع أحمد الجزار.

وكان محمد علي باشا قد فرض نظام الجندية في مصر الأمر الذي دفع الكثير من الفلاحين المصريين إلى الهرب نحو سوريا، حيث لجأ إلى عكا نحو ٦٠٠٠ شخص منهم، فطلب محمد علي من عبد الله باشا الذي كان يتولى عكا آنذاك، أن يعيد هؤلاء الهاربين إلى مصر، لكنه رفض وادعى أن المصريين هم من رعايا الدولة، ولهم الحق بالإقامة حيث شاؤوا ضمن الولايات العثمانية^(١)، وقد غضب محمد علي باشا من هذا الجواب، فكتب إلى عبد الله باشا أنه سيأتي بنفسه لإرجاعهم، وزيادة واحد عليهم، وقصد بذلك عبد الله باشا.

كما أن هذا الوالي كان قد استدان من محمد علي عشرة آلاف كيس، لتسديد الأموال الأميرية عن سنة ١٨٢٨، وعندما طالبه محمد علي بهذه الأموال، امتنع عن الدفع، ثم أن محمد علي أدخل لمصرتريية دود الحرير وكان يستورد بذوره من لبنان، وفي سنة ١٨٣١ منع عبد الله باشا إخراج بذور الحرير من لبنان بسبب استحكام الخلاف بينه وبين محمد علي. وكان محمد علي يتهم عبد الله باشا بأنه يشجع تحويل الحاصلات المصرية إلى طريق سيناء بدلاً من تصديرها عبر الموانئ المصرية^(٢).

وأرسل محمد علي إلى الدولة العثمانية يطلب تحويل ولاية سوريا إليه

(١) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٧٥

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، نوفل نوفل - ص ٢٧٥

لينتقم من عبد الله باشا، إلا أن «حالت أفندي» في الأستانة الذي كان يشغل منصب رئيس قلم التوقيع، كان يعاكس مقاصده، ويعطل مطالبته، فتجيبه الدولة تلميحا بأنها لا تقدر أن توجه عليه كل هذه الإيالات، وما زال يردد الكلام حتى ينس من النجاح والفوز بها قانونيا، فعزم على أخذها عنوة، وكان قد اتصل بأمرجل لبنان بشير الشهابي الذي أبدى مساعدته له. فجهز ثلاثين ألفا من العسكروسيّرها في ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٣١ على عكا براً، وأردفها بأسطوله بحراً، وجعل على إمارة الجيش ولده إبراهيم باشا، ولما وصل الجيش المصري إلى يافا كتب عبد الله باشا يستدعي الأمير بشير لنجدة، فأطلق الأمير النداء برجال بلاده أن يتهياؤا للسفر، فلما وصل إبراهيم باشا إلى عكا كتب يستدعي الأمير بشير، فلما أبطأ كتب إبراهيم باشا إلى أبيه شاكيًا من تباطؤ الأمير، فغضب محمد علي وكتب إليه يهدده بخراب دياره، وأنه يغرس موضعها تينًا، وذلك إذا تأخر عن نجدة ابنه^(١). وقبل أن يصل الكتاب المذكور اتجه الأمير بمائة فارس صوب عكا، فالتقى برسول محمد علي على الطريق ذاهبًا إليه، فأخذ منه الكتاب وقرأه وظل سائرًا في طريقه حتى بلغ صحراء عكا، فالتقته العساكر بالموسيقى وإطلاق البارود، ودخلوا بموكب حافل حتى نزل في السرداق المعدة له. وفي المساء استدعاه إبراهيم باشا والتقاء أحسن ملتقى وكتب إلى أبيه يخبره بطاعة الأمير وحضوره، فكتب محمد علي للأمير يقول: «بعد التحية والتسليم بمراسم الإعراز والتكريم والسؤال عن خاطركم أنه قد وردت إلينا كتابتكم العربية الحاوية خلوصيتكم المتضمنة سبب عاقبة حضوركم إلى معونة ولدنا إبراهيم باشا، فيا أمير، أنا عالم بخلوص محبتك لنا، لكن لما كانت الأخبار اليومية ترد لنا ولم نرَ فيها خبر حضورك لإعانة ولدنا المشار إليه ضاق صدري جدًا، وكتبت لك ذلك الكتاب السابق المتضمن تكدير خاطرنا عليك، وعندما بلغنا حضورك إلى معسكرنا، وطاعتك لنا، لم يبق للتكدير أثر، وتحققت محبتكم عندنا، وبما أن كلانا شيخان مسنان، ولا يليق بنا أن نتهاذى بالسلاح، فلذا واصل لحفيدكم الموجود معكم زوج طبنجات، وسيف ذهب يتقلد فيها بالصحة، ومنذ الآن فصاعدًا لا تخلونا من التذكّار مع ما يلزم، وهذا مأمولنا»^(٢).

وخاف عبد الله باشا من مغبة القتال ونصب ذات يوم بيارق بيض على أسوار عكا، فأوقف إبراهيم باشا القتال، فأرسل عبد الله باشا كتحذاه «وكيله» للتحديث في الصلح، لكن ورده فرمان من الدولة يشدد عزائمه

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٧٨

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٧٨

ويَعِدُّه بإرسال العساكر الوافرة لمعونتِه، فعَدَلَ عن الصلح، فأمر إبراهيم باشا بإطلاق النار الدائمة. أما الدولة فنشرت منشورًا سلطانيًا أعلنت به عصيان محمد علي وعزله عن حكومة مصر، وجهزت العساكر وأرسلتها من الآستانة تحت قيادة حسين باشا الذي كان انكشاري آغا^(١).

ويتحدث العلامة الشيخ حسين أحمد* عن تلك الأحداث فيقول: «وفي هذا العام صارت هوشة بين عساكر المصريين وعساكر الأتراك، وقُتِل من الفريقين خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله، وكان صاري عساكر المصريين إبراهيم باشا وكان والي مصر محمد علي باشا، وكان خروج إبراهيم باشا من مصر سنة ١٢٤٧ للهجرة - ١٨٣١ للميلاد، وامتد إلى ديرة عكا وكان في عكا رجل عنيد يقال له عبد الله باشا، فشرع المكاتبه إلى الدولة العلية، وكان الشوكتلي في ذلك الزمان السلطان محمود بن عبد الحميد. ساعته أمر بالسفر وشيخ العساكر إلى ديرة عربستان وأرسل باشات عدة منهم عثمان باشا وعلو باشا ومحمد باشا الغويدي، ومحمد باشا الشرخجي. وأما إبراهيم باشا فقد أقام الحصار على عكا ورماهم بالمدافع وكانت عكا لها سبعة أسوار محصنة بالمدافع، وبعث المذكور إلى طرابلس رجلاً يسمى مصطفى بربر فدخلها من غير قتال ولا دماء»^(٢).

ويقول نوفل نوفل: «صمدت عكا تحت وابل القنابل التي لم تكن تتوقف ليل نهار، وشدد إبراهيم باشا الحصار برراً، وأمر بحفر الخنادق، وعمل سوراً من التراب، وركب عليه المدافع، وأرسل كتائب من عسكره فاستولوا على صور وصيدا وببيروت، وأرسل لها محافظين، وأرسل مصطفى بربر إلى طرابلس متسلماً، ووجه معه عسكراً، وأمر الأمير بشير بإرسال ابنه الأمير خليل معه بألف نفر من أهل الجبل إلى طرابلس للمحافظة عليها من عسكر الدولة. وصدر أمر الدولة لمحمد باشا والي حلب لجمع العساكر وتسييرها لصد المصريين، فبعث الوالي المذكور عثمان باشا اللبيب بالعسكر، وأمره أن يستولي على السواحل البحرية ليشغل إبراهيم باشا عن أخذ عكا، وسار والي حلب محمد باشا بجيشه إلى حمص، وأرسل كتخداه «وكيله» إلى اللاذقية فاستولى عليها، ثم أمره أن يزحف على عكا، فجمع الكتخداه رجالاً من تلك المقاطعات وقابل المصريين فحاربهم وكسرهم، وأسر منهم كثيرين، فأنجدهم مصطفى بربر والي طرابلس والأمير خليل الشهابي،

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٧٩

* العلامة الشيخ حسين أحمد، كانت ولادته في عام ١٢٢٥ هـ - ١٨٠٨ م ووفاته في عام ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨ م وضريحه في قرية جورة الجواميس، كان عالماً وعرفانياً فريد عصره وإماماً يُقتدى به لكثرة علمه وشدة وضوح برهانه.

(٢) العلامة الشيخ حسين أحمد - كتاب مخطوط

فانكسر الكتخدا، وكان الأمير خليل الشهابي قد كتب إلى إبراهيم باشا يخبره بقدوم عثمان باشا، فنهض إبراهيم باشا بأربعة آلاف جندي وزحف بهم على طرابلس، وكان بعض أهلها قد كتبوا إلى عثمان باشا أن يجيء إليهم بعسكره، فيسلمونه المدينة، فأرسل إليهم يقول، إنه قادم إليهم، فوقع ذلك الكتاب بيد بربر، فقتل الرسل وقبض على القاضي والمفتي وبعض الأعيان، وسجنهم في القلعة»^(١).

ويقول الشيخ حسين أحمد: «ووصل عثمان باشا إلى اللاذقية ووصله بريد من قبل السلطان إلى أهل ديرة عريستان بأن يكونوا حالاً سعة ولدنا عثمان باشا، فقام أهل البلاد ولاقوه إلى طرطوس برجالهم، وكان بيت شمسين حكاماً على صافيتا وكان عليهم رجل يسمى الشيخ صافي صقر، وكان المذكور رجلاً شفوفاً يحب الفقراء والمساكين، وكان يمثل أمر العلماء في أمر الحكم، فحين وصول عثمان باشا إلى طرطوس طلب الشيخ صافي فلاقاه إلى طرطوس بجملة، وساروا إلى مدينة طرابلس فلما وصلوا قرب منها سكرت المدينة، فرموا عليها الحصار وضرب المدافع، وكان المذكور شجاعاً في الحرب، وزحف الفريقان على بعضهم واشتعلت المدافع والبواريد، فأصاب الشيخ صافي بندقية مدفع فاستشهد، رحمه الله، وشيخ والي طرابلس مكاتبة إلى إبراهيم باشا، ساعته فك الحصار عن مدينة عكا وجاء إلى طرابلس، فلما سمع عثمان باشا أن إبراهيم باشا دخل طرابلس هرب بالليل وترك الذخائر والمدافع، وشرّق إلى بلاد حمص وكانت باقية، فلما أحس إبراهيم باشا بهروب المذكور سار طلباً أثره حتى وصل إلى نواحي حمص، فلقي عساكر السلطان لا تعد ولا توصف، فلما رأى ذلك الحال رجع إلى عكا وشد الحصار عليها وزحف عليهم بالعساكر وأهل البلد ترميهم بالمدافع حتى ساوت القتلى رأس السور وهو لا يرجع إلى الوراء، وحين تساوى السور بالقتلى عبر الرجال على ظهور القتلى والمدافع تنزل على الأسوار كهبة البرد على الصفا حتى هدم الأسوار ودخل البلد كرهاً وقبض على عبد الله باشا، وأرسل إلى محمد علي»^(٢).

ويقول نوفل نوفل: «قدم عثمان باشا إلى قرب المنية وبصحبه أربعة آلاف

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨٠

(٢) العلامة الشيخ حسين أحمد - كتاب مخطوط.

* أرنبود، أرناؤوط وهؤلاء هم سكان ألبانيا والبلقان.

* هواره، قبيلة من بطون البرانس من بلاد المغرب، اختلف النسابة في أمرهم، فبعضهم يقولون إنهم من البربر، وبعضهم يقولون، إنهم من عاملة إحدى بطون قضاة، وتارة يقولون من ولد المسورين أوريج بن حنون بن المثنى بن المسور. وعند هؤلاء أن هواره وصنهاجة ولمطة وكزولة وهسكورة يعرف جميعهم بني ينهل، وأن المسور جدّهم جميعاً - تاريخ ابن خلدون،

ج ٦ - ص ١٨٢

مقاتل أرنبود* وهواره* وغيرهم من تلك المقاطعات، فخرج مصطفى بربر لقتاله بمئتي مقاتل من الطرابلسيين ومائتين من العسكر المصري النظامي، وابتدأ القتال فانكسر عسكر طرابلس، فأنجدهم الأمير خليل برجاله وبستمائة عسكري من المصريين، واحتدم القتال فانكسر عثمان باشا بعد ظفره، وعاد الأمير خليل ظافراً بعد أن قتل ثلاثين نفرًا من جيش الباشا، وفيهم الشيخ صافي صقر المحفوض من صافيتا»^(١).

ولما وصل إبراهيم باشا إلى طرابلس، فرعثمان باشا من المنية ليلاً نحو حمص، فأرسل إبراهيم باشا الأمير عبد الله لضبط ما تركه في المخيم، ونهض في أثره إلى حمص، ولعدم وجود المهمات اللازمة له فيها عرج منها على بعلبك، فعاد عثمان باشا في أثره فأدركه في قرية الزراعة (جنوبي حمص) وحاربه هناك فانكسر عثمان ورجع إلى حمص حيثما كان محمد باشا والي حلب.

وكتب إبراهيم يخبر الأمير بشير بالواقعة، فنهض الأمير من المعسكر تجاه عكا إلى بيت الدين ثم إلى زحلة، وكان قدمها عباس باشا حفيد محمد علي، ولحقه إبراهيم باشا، ومنها رحل الباشا إلى دير القمر، وأمر الأمير بشير بهدم دور مشايخ جن بلاط وعماد ونكد الذين ذهبوا لملاقاة وزراء الدولة في حمص فهدمت، وكذا دار قاضيهم، ورجع إبراهيم باشا إلى عكا^(٢).

وفي ٢٧ أيار سنة ١٨٣٢، أمر إبراهيم باشا باقتحام أسوار عكا مرة واحدة، وأطلق على المدينة النار بشكل دائم ففتحتها عنوة، وأعطى الأمان لعبد الله باشا فسلم له، ولما أقبل عليه صافحه، وطيب قلبه، وطمأنه على دمه وعرضه، وساربه إلى قصر البهجة، ثم أرسله بجرًا إلى الإسكندرية، وكتب يبشر الأمير بشير بفتحها، ثم أباح للعساكر أن تنهب بيوت الأهليين، ووصل عبد الله باشا أسيرًا إلى الإسكندرية، ومحمد علي موجود فيها، فزينت المدينة ورفعت الأعلام، وسر الناس، وأطلقت المدافع نيرانها، فلما تقابل عبد الله باشا مع محمد علي نهض له قائمًا، ومنعه من لثم أذياله، وأخذه بيده، وأجلسه إلى جانبه، وعزاه وقال له: «أترك من فكرك ما مضى فإنك عندي بمنزلة إبراهيم باشا ابني، فهو عيني اليمنى وأنت عيني اليسرى»، وأخذ يطارحه مثل هذا الكلام حتى اتصلا إلى طول مدة الحصار، فأظهر محمد علي عجبه من ذلك، فأجابه عبد الله باشا أنه لو بقي في أبراج عكا حجر على حجر لما خرج منها سالمًا، وإنه إنما تركها بعياله وليس مع

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر ووبر الشام -نوفل نوفل - ص ٢٨٠

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر ووبر الشام -نوفل نوفل - ص ٢٨٠

أحد منهم غير الثياب التي عليه، فصدر أمر محمد علي بتجهيز دار توافق الأسير الكريم، وزينها بالأثاث والرياش الفاخر، وأكثر من الملابس والحلي والحلل له ولنسائه وأولاده، وجعل له أن يحف به عند خروجه موكب شبيه بموكب محمد علي ذاته، إذ يسير أمامه حاملو البنادق والجوايشية بالعصي والجوكلانات وخلفه الفرسان ما لا ينقص عن محمد علي شيئاً»^(١).

وبعد فتح عكا اتجه إبراهيم باشا بعسكره لفتح دمشق، فامتعض الأمير بشير باطنًا، لظنه أن المهمة التي كان يقصدها محمد علي هي فتح عكا فقط، وعزم على إرسال عياله إلى حلب واغتنام الفرصة للفرار من إبراهيم باشا^(٢).

ويقول العلامة الشيخ حسين أحمد: «ترك إبراهيم باشا عكا وسار طالبًا مدينة الشام، فلما أحسوا به سارعوا بالإطاعة، ودخلها دون قتال، وحط فيها والي من قبله، وسار إلى حمص طالبًا مقابلة عساكر السلطان فلما وصل قرب منهم زحف العسكرون على بعضهم وصارت في ذلك الوقت هوشة عظيمة قتل فيها خلق كثير وهربت عساكر الترك وتركوا الخيام والذخائر والمدافع، وسار طالبًا أثرهم إلى مدينة حلب فدخلها وسار طالبًا أثرهم إلى بلاد الروم فاجتمعت عساكر السلطان في بلد قونية وأرسل وزير الصدارة ومعه عسكر كثير، واشتبك الحرب والتقت العساكر في بعضها حتى صارت وقعة تشييب الأطفال وانكسر عسكر السلطان ووقع القبض على وزير الصدارة، فعفا عنه إبراهيم باشا وشييعه إلى عند السلطان، فلما رأوا هذا الحال دخلوا في الصلاح خوفًا من أن يفنى عسكر المسلمين في بعضهم، فوقع القول من إبراهيم باشا، أنه لما أرجع لا أعطي السلطان البلاد العربية إلى سبع سنوات، فغضب السلطان وهو يقول، وزير من خدامي يقهرني ويأخذ ملكي رغماً عني، والله لأقتلنه وأقتل محمد علي وأخرب مصر وزحف بالعساكر، كل هذا وإبراهيم باشا لا يبالي وهو يزمجر، فقامت العلماء وأرباب الدولة إلى السلطان وقالوا: أفندم إذا عملتم هذا تفنى عساكر الإسلام وتشمت الأعداء ولكن هذا محمد علي والي مصر يقول: أنا تحت قدم مولانا السلطان حيث يعطي ديرة العربية إلى سبع سنوات ويؤديك أموالها. أفندم أحقن دماء الإسلام. فسكن غضب السلطان، وكتب حججًا إلى محمد علي بأن الديريات في يديه سبعة أعوام، فحين نفوذ الحجج إلى مصر بعث محمد علي يأمر إبراهيم باشا بالرجوع فرجع إبراهيم»^(٣).

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨١

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨٢

(٣) العلامة الشيخ حسين أحمد - كتاب مخطوط.

ويقول نوفل نوفل: «خرج علو باشا والي دمشق بعشرة آلاف مقاتل من أهاليها ومن الأكراد، والتقاء إبراهيم باشا قرب داريا، ووجه عرب الهنادي* على خيالة الأكراد، وأمر عسكره النظامي بمقابلة عسكر دمشق، وأن تطلق البنادق عليها في الجو، فلما التقى العسكران وأطلق المصريون عليهم نارا دائمة جزع الدماشقة وخافوا، لأنهم لم يعهدوا مثل ذلك من قبل، أما الهنادي فلحقوا الأكراد وقتلوا من أدركوه منهم، وفي المساء عقد الدماشقة مجلسا حافلا من الوجوه وأقروا فيه على التسليم، فأرسلوا لإبراهيم باشا نفرا منهم فيهم علي آغا خزينة عرمان محافظ القلعة، فطلبوا منه الأمان، فسلموه مفاتيح المدينة ورجعوا»^(١).

وكان إبراهيم باشا قد عرف بنوايا الأمير بشير وخاف من هروبه، ولذلك اصطحبه معه إلى دمشق، التي دخلها من بوابة الله ومعه الأمير وولده الأمير خليل، ولم يوقع بأحد ضررا، وأقام فيها إلى الخامس من صفر سنة ١٨٣٢، ومنها سافر إلى حمص ومعه بعض أعيان المدينة، وترك في دمشق بطرس كرامة كاتب الأمير بشير لترتيب مجلس الشورى، وأما علو باشا ففر إلى حمص هاربا، ووصل إبراهيم باشا إلى النبك فأمر الأمراء بشيرا وابنه خليلا وأمراء وادي التيم ومشايخ بلاد نابلس أن يلبثوا في دير عطية، ونهض هو بعسكره إلى بحيرة حمص قاصداً محمد باشا والي حلب القائم هناك منتظرا حسين باشا قادما بالجيش من الآستانة ولما التقى الجيشان ودارت الحرب قتل من عسكر والي حلب ثلاثة آلاف وأسروا ١١٥٠ رجلا منهم إبراهيم باشا وجعلهم في عسكره، واستولى على كل مهمات خصمه، ولم يقتل من عسكره إلا ثلاثمائة فقط، وبعد هذا أمر الأمير بالبقاء في حمص لوجود الطاعون في العسكر، وسار هو بمن معه يجد السير في أثر العسكر العثماني، أما محمد باشا فرجع بمن بقي معه من العسكر إلى حلب، والتقى بحسين باشا قادما من الآستانة بالعساكر السلطانية، وعاد بمن معه إلى حلب، فقفلت أبوابها دونهم، فساروا صوب أنطاكية.

أما إبراهيم باشا فعند اقترابه من حلب خرج الأهليون إليه، فدخلها واستلم

* عرب الهنادي، ينتسب عرب الهنادي إلى بني هلال، وكانوا يسكنون صعيد مصر، وفي سنة ١٨٠٩ حضروا إلى أراضي غزة. فلما عرف بهم متولي غزة محمد آغا أبو نبوت، ما رضى بحضورهم، وركب وسار إلى حيم فتلقوه بالترحاب، وكانوا سبع طوائف والكبير عليهم يسمى الشيخ حسن، فقدموا له سبعة تقادم وواحد وعشرين جملا محملة سمنا بحمولتها، فما قبلهم محمد آغا أبو نبوت، وطلب منهم بأن يقوموا من أرضه، وخوفهم بأن يطردهم بأي وجه كان وجرت بينه وبينهم مشاجرة كبيرة، ورجع من حيم على غير رضى، وبعد رجوعه إلى المدينة جمع عسكره وكبس عليهم، وقد كانوا تحذروا وفي وصوله انتشب الحرب بينهم فظفرت العرب وهزموا عسكر الترك ورموا محمد آغا أبو نبوت عن حصانه فأعطاه مملوكه حصانه، ففر هاربا عليه وقتل العرب المملوك، واستمروا في مكانهم - الغر الحسان - الأمير حيدر الشهابي، ص ٥٤٤.

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨٢

ما فيها من المهمات والذخائر، ومنها اتجه في أثر العسكر وحاربهم في أنطاكية، ثم في بوغاز بيلان، المدعو كولك بوغاز، فكسرههم، وأرسل يبشر الأمير بشير بانهزام الوزراء بعساكرهم، وأمره أن يرجع من حمص إلى بيت الدين فرجع^(١).

ولما علمت الدولة بتقدم المصريين زحف الصدر الأعظم رشيد باشا بالعساكر لمحاربتهم، فوصل إلى قونية، وهنالك وقعت الحرب المشهورة، وعند الظلام رأى رشيد باشا أن أكثر عسكره ولوا الأدبار فانتضى سيفه ودخل بين الجيوش يشجعهم على القتال، وما زال صائلاً حتى دخل بين الأعداء، وهو لم يدر، فعرفوه وقبضوا عليه وجأؤوا به إلى إبراهيم باشا، فقابله مقابلة وزير للصدر الأعظم، ثم أخلى سبيله فرجع إلى الآستانة، وكانت القتلى بين الجانبين عظيمة^(٢).

وبقي إبراهيم باشا في قونية حتى ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٣٣، ثم واصل زحفه فاحتل كوتاهية، لكن هذا الانتصار المفاجئ حين بلغ مسامع دول أوروبا، هبّت جميعها للوقوف في وجه محمد علي، ذلك أنها اقتنعت بأنه سيقضي على الرجل المريض، الدولة العثمانية، وبالتالي سوف تخسر هذه الدول مصالحها الاقتصادية وأطماعها، فتدخلت هذه الدول سريعاً، وأرغمت محمد علي على التوقف بزحفه وعلى أن يعقد صلحاً مع الدولة العثمانية وهو الصلح الذي عرف بـ «اتفاقية كوتاهية». وأصدر السلطان محمود الثاني خطاً شريعياً مؤرخاً في ١٦ أيار سنة ١٨٣٣ قضى بموجبه تأييد حكم محمد علي على مصر وجزيرة كريت ومنحه الحكم على سوريا، ومنطقة أدنة وتلقب إبراهيم باشا بشيخ الحرم المكي وجعله محصلاً لأقاليم أدنة، ووقع هذا الاتفاق البارون روسان بالنيابة عن السلطان محمود، وإبراهيم باشا بالنيابة عن والده محمد علي باشا، وقد تعهد محمد علي بأن يدفع للسلطان الأموال التي كان يدفعها الولاة السابقون لخزينة الدولة العثمانية على أن يسحب جنوده إلى البلاد التي وضعت تحت إدارته^(٣).

وهكذا توقفت الحملة العسكرية بعد أن حققت أهدافها بالسيطرة على سوريا وإحاقها بالدولة المصرية الناشئة.

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨٢

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٨٣

(٣) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٩٠

٢- الحكم المصري في سوريا

بعد أن أصبحت سوريا خالصة لمحمد علي، جعل ولده إبراهيم باشا حاكمًا عامًا عليها وقائدًا للجيش المصري فيها، واتخذ إبراهيم باشا، كما يقول عبد الرحمن الرافعي، مقره العام في أنطاكية لموقعها الحربي وقربها من التخوم الشمالية، وعين محمد شريف باشا، حاكمًا عامًا على سوريا، ولقب «حكمدار عربستان». وظل في معظم سنوات الحكم المصري يتولى إدارة الإيالات السورية جميعًا^(١)، وعين إبراهيم باشا لكل بلدة متسلمًا أو حاكمًا يتولى إدارتها، وجعل على إدارة الشؤون المالية يوحنا بك بحري* أحد أعيان السوريين، فصار صاحب النفوذ الأكبر في إدارة شؤون الحكومة وأحوالها المالية^(٢).

ويقول الشيخ حسين أحمد: «وضع إبراهيم باشا متسلمين في البلاد، وأمر بأن يعدّ الناس، فعدّوا، ورتب عليهم على كل رجل ستين غرشًا يسمونها إعانة خيرية من غير أموال الميري، وجمع سلاح البلاد حتى ما ترك في كل ديرة عربستان شيئًا يجرح غير سكين طباقية، وبدأ بتحسين المدن وعمارة القلاع»^(٣).

ويقول نوفل نوفل: «وَأَلَّفَ، إبراهيم باشا، في كل مدينة يزيد عدد سكانها عن ٢٠ ألفًا، مجلسًا يسمى «ديوان المشورة» يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و٢١ عضوًا ينتخبون من نبهاء «أعيان» البلدة وتجارها، وتنظر هذه المجالس في مصالح كل بلدة، ومطلوبات المال الأميري، وإليها ترفع الدعاوى»^(٤). لكن كانت القاعدة الأساسية في تلك المجالس هي مراعاة مصالح الأموال الأميرية «الضرائب»، وقلما كانت تتدخل في غير ذلك من الدعاوى التي لا تتعلق بتلك الأموال، ذلك أن بقية الدعاوى سواء كانت، حقوقية، أو، جزائية، أو، تجارية، فمرجعها القاضي الشرعي، على أن أكثر الدعاوى الحقوقية كانت تفصل ويبرم الحكم فيها بمعرفة رئيس الضابطة المسمى يومئذ «تفكجي باشي»*^(٥). ولم يكن يحق لأحد غير الأعضاء، الدخول

(١) عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - ص ٢٥٧

(٢) عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - ص ٢٥٨

(٣) العلامة الشيخ حسين أحمد - كتاب مخطوط

(٤) عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - ص ٢٥٨

* يوحنا بك البحري، هو يوحنا، أو، حنا بن ميخائيل بن عبود البحري، الحمصي الأصل، تخرّج على يد والده ميخائيل في ديوان عبد الله باشا العظم، سافر إلى مصر ثم رجع إلى دمشق مع إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢ وتوفي هناك سنة ١٨٤٣.

(٥) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر ووبر الشام- نوفل نوفل - ص ٢٩٥
* تفكجي باشي، كلمة مشتقة من تفنك، أي البارودة، والتفكجية مشاة من الوجاقات المهمة في الجيش التركي، ويعرفون

إليها ليسمع المفاوضات والمذاكرات الجارية فيها، وفي هذه المجالس كانت تُسمَع دعاوى الأراضي وأموال الأَطِيان*، المرتبة على الفدن*، ويبحث فيها عن ضائعات المال الأميري، وعائدات القرى، وتعطى المقاطعات والأقلام الالتزامية والرسوم الميرية بعد أن يقرّ مزاد بدلاتها على الراغبين، وكانت مذاكرات الأعضاء تكتب في جريدة بالضبط، ويعزى كل كلام لصاحبه، وفي رأس كل شهر ترسل تلك الجريدة إلى الشام، فيراجعها يوحنا بك البحري، وينقحها، وإذا وجد لأحد الأعضاء رأياً مخالفاً أو مضرّاً بالمال الأميري، اعترض عليه وضمّن الخسارة لصاحبه، لكن ذلك لم يقع إلا نادراً، لأن هذه القاعدة أوجبت على الأعضاء الاهتمام بإيفاء المال الأميري فوق حقه ولو تضرر الأهليون^(١).

ووحّد إبراهيم باشا الإدارة ووطّد سلطة الحكومة المركزية وأبطل سلطة الأمراء والرؤساء الإقطاعيين، وضرب على أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وبسط رواق الأمن في البلاد، وعامل الأهلين بالعدل والمساواة من غير تفریق بين الطبقات والمذاهب والأديان*^(٢). وأمر بتلزييم الخمرات وطرح ذلك في المزاد بين الراغبين^(٣).

وكان الإفرنج لا يدخلون الشام إلا متنكرين، فلما تولّاها إبراهيم باشا أباح لهم دخولها، فأخذ سيّاحهم بالتقاطر إليها، ونصبت الدول لها قناصل فيها، وأولهم كان لدولة الإنجليز، ونزلها كثيرون من تجارهم^(٤).

وتعيّن لكل رئيس إيالة، أو لواء، مباشراً مسيحياً هو رئيس الكتاب، والغالب فيه أن يكون من أهل تلك المدينة، ومن كان منهم خادماً قبل ذلك في مصر تلقن الإرشاد منها، وأول واجباته أن يطوف عند وصوله في قرى الموضع واحدة فأخرى، فيتحقق من الفلاحين عمّا كان يأخذ السلف ضرائب وزوائد،

بأنهم حملة البنادق ومصلحوها. وكان يرأسهم تفنكي باشي.

* الأَطِيان، الأراضي المحروثة الصالحة للزراعة

* الفدن والقدادين، مفردا فدان، مساحة من الأرض تتراوح بين ٦٠ و ١٥٠ دونماً حسب الأمكنة.

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٦

(٢) عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - ص ٢٥٨

* أكبر ميزة لإبراهيم باشا أنه أقام حكماً وطنياً في سوريا ينظر إلى جميع المواطنين من منظور واحد من دون تفریق بين أديانهم ومذاهبهم وذلك بخلاف ما كان يفعله التُرك الذين لم يستطيعوا التخلص من عقدة المذهبية والطائفية لديهم حتى اندثار دولتهم.

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٥

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٦

* ضريبة الفردة، هي التي تفرض على جميع الأشخاص بسعروا واحد بغض النظر عن جنس المكلف أو سنه أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

بعد أن يغرّهم بإلغاء ذلك، حتى إذا اعترفوا بكل ما كانوا يؤدون أثبت ذلك في الدفتر فحسب على القرية مالا مربوطاً، ثم أن الكاتب يحصي السكان في المدن والقرى، ويرتب عليهم مال الفردة*، بعد أن يقسمهم إلى عشرة أقسام، فيحملون كلاً على حسب قدرته من خمسة عشر قرشاً حتى الخمسمئة، وفوق ذلك لم يرفع الحكم المصري شيئاً من الضرائب القديمة سوى سلاماتية الكنائس، وهو مقدار يسير تدفعه الكنيسة إلى الخزنة كل سنة، وكذلك رسم العروسين، ذلك ما كان يتقاضاه الملتزمون ممن أراد الزواج من النصارى، ويستحيل السماح لأحد بالزواج إلا بعد دفع ما يفرضون عليهم، ومنع أيضاً عوائد القضاة والمفتين وغيرهم من ذوات المسلمين الذين كانوا يأخذون من الكنائس في شهر رمضان شموغاً يستضيئون بها في بيوتهم^(١).

ورغم المزايا الكثيرة للحكم المصري في سوريا، لكن كان ثمة مساوئ أهمها، قضية السخرة التي كانت من أشد الأضرار على الناس، سواء في المدن والقرى، الذين كانوا لا يستطيعون حماية دوابهم مهما كان مقامهم، ولو كانت الدابة في قلب الدار، لأن الضابطي (التفنجي) كان باستطاعته خلع الأبواب، وكسر الأقفال، ومهاجمة البيوت، فيأخذ الدابة جبراً، ويسلمها لمن أراد من الضباط والعسكر، ويجبر صاحبها على استئجار رجل يرافقها لأجل علفها وإرجاعها عند انتهاء حملها، وإلا إذا ضاعت فلا يطالب أخذها، وكان الفلاحون لسبب ذلك لا يأتون المدينة في كثير من الأيام خوفاً من السخرة، ليس فقط على دابته بل عليه ذاته، لأن الفلاحين كانوا يسخرون أيضاً ويعاملون بالجور والعنف والضرب والعذاب^(٢).

وأנקى من ذلك أنهم كانوا يخرجون الناس من بيوتهم لإسكان العساكر، وهؤلاء يطوفون دائماً من موضع لآخر، خصوصاً في مدن الساحل، وكثيراً ما عطلوا المدارس والمساجد وجعلوها عنابر لادخار المؤنة والمهمات، وكل هذا ليس شيئاً بالنسبة لجمع العساكر إذ لم يكن لهم فيه نظام مخصوص، ولا وقت معروف، بل متى صدرت الإرادة بجمعهم تدور العساكر في المدن والقرى فيقبضون على أي من يجدونه، وإذا وشي بأحد أنه مختبئ في أحد البيوت تهجم العساكر وتدخل ذلك البيت فجأة، وبهذا السبب تخلو المدن من سكانها، وتقف دورة الحياة، وكان الكثير من الشبان يقطعون السبابة من يدهم اليمنى، أو يقلعون العين اليسرى تخلصاً من الخدمة^(٣).

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٧

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٧

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٨

٣ - التمرد على الحكم المصري في سوريا

استبشر السوريون خيرًا بالحكم المصري، وظنوا أن عذاباتهم سوف تنتهي، لكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فسرعان ما تكشفت لهم مساوئ ذلك الحكم الذي لم يأخذهم بالرحمة بل زاد من عذاباتهم وآلامهم، وكانت الدولة العثمانية تحرّض الناس على الثورة، كما أن دول أوروبا وخاصة، بريطانيا وفرنسا، كانت تعمل على عرقلة خطط محمد علي في سوريا، ولذلك شبّت ثورات متعددة سنستعرضها فيما يلي:

أ. الثورة في فلسطين

ابتدأت الثورة على الحكم المصري في نابلس سنة ١٨٣٣، وما لبثت أن شملت كامل فلسطين، ومن ثم امتدّت إلى بلاد العلويين في سوريا، وإلى حوران. وكان إبراهيم باشا قد ذهب إلى نابلس بهدف ترتيب مال الإعانة الذي كان قد ابتدأ في تطبيقه في كل البلاد^(١)، فثار أهل تلك المنطقة عليه وحاربوه فغلبوه، وتولى قيادة الثورة الشيخ قاسم أحمد وسمع أهل المناطق المجاورة بما جرى، فانضموا إلى الثوار، وامتدت الثورة إلى دمشق لكن شريف باشا حكمدار عربستان تمكن من القضاء عليها^(٢)، ولحق الثوار بإبراهيم باشا الذي هرب إلى القدس والتجأ إلى دار الأفرنج وتحصن به^(٣). وسرعان ما علم والده محمد علي، فجاء بحرًا إلى يافا، لأن مراكب مصر الحربية كانت تسير آمنة في البحر المتوسط غير مكترثة بأسطول الدولة، وذلك لأن قبودان باشا*، الذي يدعى أحمد باشا القايقجي، خان الدولة إذ فرباً لأسطول العثماني إلى الإسكندرية وسلمه لمحمد علي^(٤). وكان الأمير بشير قد علم بانحصار إبراهيم باشا ومجيء أبيه إلى يافا، فبعث ولده أميناً لمقابلة محمد علي، فلما قابله أمره أن يبلغ أباه بوجوب جمع العساكر والسير بها سريعاً على بلاد صفد لقتال الثوار، فأرسل الأمير بشير يستدعي العساكر من اللاذقية حتى جنوب لبنان، فاجتمعت إليه الرجال سريعاً، فسار بهم حتى وصل إلى جسر الأوّلي*، وهناك حضر إليه أمر محمد علي بأن يرسل ابنه خليلًا لموافاة قائد الجيش سليم بك أوتوزير في طرابلس، ليذهباً ويؤدب عكار وصافيتا

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام- نوفل نوفل - ص ٢٨٤

(٢) تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين - ص ٢٩٤

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام- نوفل نوفل - ص ٢٨٤

* قبودان باشا، قائد الأسطول

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام- نوفل نوفل - ص ٢٨٤

* جسر الأوّلي، يقع على الطريق الذي يصل صيدا ببيروت.

وقلعة الحصن^(١)، أما الأمير بشير فقد طلب منه محمد علي بأن ينهض بعسكره لتأديب بلاد صفد، فسار حتى نزل على جسر القعيقعة، ولما علم الأهالي بمجيئه، جنحوا إلى السلم، وقدموا له الطاعة، فأرسل الأمير أفندي صاحب راشيا ليستلم قلعة صفد ويحصل المال المسلوب من اليهود.

ولما تبدد المتحزبون على إبراهيم باشا، وأطاعه القوم، أتى يافا واجتمع مع أبيه، فعاد هذا إلى إسكندرية. ولما وصل الأمير خليل إلى طرابلس التقاه سليم بك، فأمره بالقبض على خمسة وعشرين رجلاً من الطرابلسيين، وتمّ سجنهم في القلعة، ثم نهض الاثنان إلى عكار فقبضا على أسعد بك المرعب، وأسعد بك الشديد، وعلى اثنين من أولاد محمد بك القدور، وعلى بعض وجوه عكار الآخرين. ورجع الأمير خليل إلى بيت الدين، فأحضر سليم بك بكوات عكار ووجوهها المذكورين إلى طرابلس، وحاكمهم في مجلس الشورى، وحكم عليهم، لكنه أخلّى سبيلهم ليعود إلى القبض عليهم اقتداراً بالقوة العسكرية، ويرتب جزاءهم، لأن إحصارهم إلى طرابلس في المرة الأولى كان بالأمان، فلما عرفوا قصده أبوا الخروج فأجبرهم على ذلك، حتى إذا وصلوا إلى محلاتهم اختفوا في المغائر وثقوب الأرض، وكان لهم نسيب يقال له عوض بك ابن مصطفى بك أخي علي باشا الأسعد، فتعهد هذا لسليم بك بالقبض عليهم، فذهب معه إلى عكار وأخذ عسكراً وبدأ ينقب عليهم في مخابئهم ويحضرهم إلى البلدة واحداً فواحداً، فيرتب جزاءهم بالقتل، وعمّ بلاءه عبد الله آغا الحمود من الدنادشة أيضاً وبعض أولاده، ورمى رؤوسهم على جسر الشيخ عياش بين عكار والشعرا، وضبط أرزاق المقتولين وموجوداتهم ومواشيهم وأرسلها إلى طرابلس، وباعها في المزاد، وقيد أثمانها في دفاتر الواردات الميريّة بطريق المصادرة.

وبعد أن انتهى سليم بك من عمله في عكار وقلعة الحصن، عاد إلى طرابلس وعقد محاكمة للمسجونين في المجلس وأطلق سراح رجل أو اثنين منهم، وقطع رؤوس باقيهم في الملاحه^(٢).

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر ووبر الشام. نوفل نوفل - ص ٢٨٤

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر ووبر الشام - نوفل نوفل - ٢٨٥

ب. ثورة العلويين في جبال اللاذقية

شبّت الثورة في بلاد «النصيرية»، شرق اللاذقية، كما يقول عبد الرحمن الرافعي، في أكتوبر ١٨٣٤، وكانت أهم ثورة بعد فلسطين^(١). وكان ابتداءها أن النصيرية «العلويين» اعترضوا «آلياً»* من الخيالة النظامية كان ذاهباً من اللاذقية إلى حلب فألجأوه إلى التقهقر بعد أن فقد نحو نصف رجاله، ثم هاجموا مدينة اللاذقية وحاصروا المتسلم سعيد آغا العينتاي^(٢).

وكان إبراهيم باشا عائداً حينئذ من كرك الشوك فلما وصل الى المزيريب* بلغه خبر هذا الانتفاض، فأصدر أوامره الى امير المدفعية سليم بك «أوتزير» أن يقوم من طرابلس إلى اللاذقية لأجل تأديبهم، كما أنه أمر الأمير بشير أن يوجه قوة بقيادة أحد أولاده ليشتبك مع سليم بك في أعمال التأديب، فنهض الأمير خليل ومعه اللبنانيون من بيت الدين في ٢٠ تشرين أول، وانضم اليهم الأمراء الشهابيون فندي وجهجاه وسعد الدين وأحمد ومعهم رجال وادي التيم، فوصلوا الى طرابلس ومنها استأنفوا السير الى اللاذقية، ومن ثم زحفوا على بلاد النصيرية «العلويين» وخيموا في قرية البهلولة^(٣)، فترك الأهلون مواشيهم وغلالهم ومتاعهم، وفرّوا بأجمعهم فغنمها العساكر جميعاً، ثم أحرقوا خمس عشرة قرية وقطعوا أرزاقهم^(٤).

ثم وجه سليم بك فرقة من عسكره لتخريب غيرها من القرى فصددها الثوار صدمة شديدة وأكرهوها على الرجوع إلى مضاربها^(٥). فأرسل الأمير خليل ألف مقاتل من رجاله بقيادة الأمير جهجاه أحد أمراء حاصبيا، فانهزم العلويون، وحرقت العساكر ثلاثين قرية.

وفي اليوم الثاني نهض الامير خليل ورجاله ومعه الأمير أفندي شهاب حاكم راشيا والعرب الهنادي وبعض الفرسان المصرية، وتوقعوا مع الثوار في قرية منبایا، وكانت خسائر الفريقين بالرجال قليلة غير أن النصر كان حليف الجيش الذي

(١) عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - ص ٢٦٧

* آلي، هو تقسيم عسكري تركي يعد مقابلاً في وقته للواء المشاة، ويقابل اليوم بالفوج. فمثلاً كان الآلي في عهد محمد علي محدداً بأربعة آلاف جندي. ويكيبيديا - الموسوعة الحرة.

(٢) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عز الدين - مطبوعات الجامعة الأمريكية في بيروت.

* المزيريب، بلدة تقع في جنوب سوريا تتبع إدارتها محافظة درعا.

(٣) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عز الدين - ص ١٨٥

* البهلولة، بلدة ومركز ناحية يتبع لها مجموعة من القرى هي، العمرونية، برابشو، بدميون، عين اللبن، فدره، جبريون، الجنديرية، الكركيت، قبارصية، القرامه، روبسة قسيس، السفكون، الزوبار، الجبصينة، دغريون

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام. نوفل نوفل - ص ٢٨٥

(٥) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عز الدين - ص ١٨٦

حرق قرى عديدة^(١). ثم انتقلت العساكر إلى مقاطعة صهيون وكان سكانها قد اعتصموا في قلعتها وجاءتهم نجدة مؤلفة من نحو ألفي مقاتل من مقاطعة بيت الشلف، فحصلت بينهم وبين العسكر معركة فاز فيها العسكر على الثوار وهزمهم، ثم هاجم القلعة واستولى على ثلاثة من أبراجها، وطلب المحاصرون الباقون الأمان وكان الوقت ليلاً فكفّ العسكر عن قتالهم، فاغتنم المحاصرون الفرصة وانسحبوا من القلعة تحت ستار الليل وهربوا، وعند الصباح دخل العسكر القلعة واستولى على ما فيها^(٢). وعلى أثر ذلك حضر أهل مقاطعة ديروس «ديروس»* وسلموا، ثم انتقل العسكر إلى مقاطعة بيت الشلف* وشرعوا في حرق قرية عين التين، فبادر أهلها إلى التسليم، وحذا حذوهم أهالي مقاطعة المزيرعة*، وبيت عمار، والجها^(٣).

وقدم إلى اللاذقية عثمان الجبور كبير الكلبية وحميدوش كبير بني علي، لاجئين إلى القناصل ملتجئين مساعدتهم متعهدين أنهم يقدمون سلاح بلادهم^(٤). أما أهل بيت ياشوط* والسرماطة* والقراحلة*، فامتنعوا عن التسليم، ورابطوا على جسر نهر السن الواقع بين بانياس وجبلة، وكان الشيخ حسين السلطان قد جاء لمعاونة العسكر ومعه سبعون خيلاً من المتأولة «الشيعة»، فاعترضهم المربطون على الجسر، وقتلوا اثنين منهم واستولوا على بعض خيولهم، وأرسل الأمير بشير نجدة مؤلفة من خمسمائة مقاتل من أهل زحلة وبسكنتا، فتصدى لهم الثوار أنفسهم عند جسر السن أيضاً، وقتلوا منهم ستة وعشرين رجلاً

(١) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٦

(٢) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٦

* ديروس، كان هناك جبل يدعى جبل ديروس فيه مجموعة من القرى منها، ديروس، جوبة ديروس، باب جنة، بلوطة، بارودة، بشمانا، ديرتوما، مرج خوخة، أوبين، بلتعة.

* بيت الشلف، هم فخذ من عشيرة الكلبية ويسكنون في قرى في مشارف الحفة - عن العلويين ودولتهم المستقلة -

محمد هواش - ص ٩٢

* المزيرعة، بلدة ومركز ناحية يتبع لها مجموعة من القرى هي، بيت جيرو، ديرماما، الدراشية، ديفة، دوير الشلف، أمبراتو، جنجانة، كرم المعصرة، كمين، الليسونية، مرديدو، المصلا، مصيص، مليو، المشرفة، القاقعية، قويق، الرامة، طرجانو، الرجم، الرومية، رويسة، هليل، السراج، ياسنس، بطرنس، زنبورة، الشبل.

(٣) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٦

(٤) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٧

* بيت ياشوط، نسبة إلى جدهم ياشوط من عشيرة بني علي - تاريخ العلويين - ص ٣٥٠، وبيت ياشوط الآن، بلدة ومركز ناحية تضم مجموعة من القرى هي، بسمالخ، بشيلي، جوفين، حلبكو، حلة عارا، حراما، بيت عانا، عين قيطه، عين سالم، المنيزلة.

* السرامطة، يشمل وادي «السرامطة» حوالي سبع قرى وهي «الدالية» و«التلازق» و«القصبية» و«وادي القلع» و«الغويرسات» و«حرف الساري» و«السلمية».

* القراحلة، منطقة جبلية تضم مجموعة من القرى هي، حمام القراحلة، بشراغي، جيبول، درميبي، العريقب، دوير بسنديانة، بسنديانة، بسطوير، خرايب سالم.

من الزحلاويين وعشرة من البسكنتاويين، فأرسل الأمير خليل ثلاثمائة فارس لنجدة اللبنانيين بقيادة الأمير سعد الدين والأمير أحمد الشهابيين، ففر الثوار من وجههم إلى جبل الحمام^(١).

وفي اليوم التالي زحف العسكر إلى مقاطعاتهم فأعمل فيها النهب والحرق، وفعلوا مثل ذلك في مقاطعة القرداحة* التي كان مقدمها عثمان الجبور قد سلم للعسكر، لكن عجز عن تقديم جميع الأسلحة التي وعد بتسليمها^(٢). ثم ساروا إلى الشعرة* «مطل حمد» وحرقوا نحو خمسين قرية، ونزلوا في قرية الجديدة.

وكان إبراهيم باشا قد وصل إلى حمص قادماً من دمشق، فأبلغه سليم بك أمر خضوع الثوار، فأمر الباشا بتفرق العساكر، فأذن للأميرين سعد الدين وأحمد الشهابيين بالرجوع إلى أوطانهم، وفي أثناء عودتهم حصلت وقائع بينهم وبين النصيرية في وادي العيون وواد عميق شمالي صافيتا^(٣). أما الأمير خليل شهاب، فغادر بلاد النصيرية «العلويين» في ١٢ كانون أول، سنة ١٨٣٤، عن طريق جبلة فالمرقب، ومن ثم طرطوس، فطرابلس، ووصل إلى بيت الدين وتفرق رجاله إلى أوطانهم^(٤). وبقي سليم بك في بلاد النصيرية «العلويين» مع قسم من عساكره لإكمال جمع السلاح، واستتب الأمن بعد ذلك، وانتظم نحو أربعة آلاف رجل من أبناء تلك البلاد في سلك الجيش المصري^(٥).

ج - ثورة الدروز في حوران

بعد أن أوقع محمد علي بمشايخ الدروز في لبنان من آل نكد وآل جنبلاط وآل العماد الذين وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية، أضمر هؤلاء الانتقام، فساروا إلى حوران، وحرّضوا الدروز هناك على الثورة، وفي سنة ١٨٣٥ صدر أمر إبراهيم باشا بأخذ شبان من دروز حوران ووادي التيم للعسكر النظامي، فأبوا واعتصموا مع عرب تلك النواحي، فأرسل شريف بك حكمدار

(١) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٧

(٢) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٧

* القرداحة، ومن قراها، بني عيسى، بحوريا، بكراما، بشلأما، بسين، الديبة، ديروتان، عين العروس، حرف رضوة، جرماطي، كلماخو، مرج معيربان، المزان، نينتي، عوبنة الريحان، قللورية، قاموع، القرامة، رسيون، رويسة عفيف، رويسة بدرية، رويسة البستانة، سفرقية، سللورين، سلاغو، ديرونة، قويق، المتركبة، الميسة، مرج موسى. بسيقة الغربية، يصرأما، جوبة برغال، حرف المسيطرة، الفاخورة، بحمرا.

* الشعرة، جبل يطل على سهل الغاب، يدعى «مطل حمد» وفيه مقامات بني هاشم الشهيرة.

(٣) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٨

(٤) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٨

(٥) إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عزالدين - ص ١٨٨

عربستان «سوريا» عسكرياً من دمشق إلى اللجاة، التي تسمى «الوعرة» فقاتلوه وكسروه، وقتلوا منه كثيرين^(١)، ثم أرسل لهم قائداً يدعى محمد باشا بعسكر وافر فحاربوه وكسروه وقتلوا قائد ذلك الجيش وخلقاً كثيراً^(٢)، وكان دروز وادي التيم وإقليم البلان* ينجدونهم وفي مقدمتهم بطلم شبلبي العريان.

ولما بلغ إبراهيم باشا ذلك كتب إلى والده يخبره ملتصقاً عسكرياً من الأرناؤوط «الألبان»، لأن العسكر النظامي يتعذر عليه الحرب في الوعر، فأرسل له وزيراً يسمى مصطفى باشا بأربعة آلاف أرناؤوطي، فحارب الدروز في الوعر فلم يفز منهم بطائل، وكانوا ينشدونه الأغاني الحربية ومنها «برهوم ويش لك عندنا حوران والوعرة لنا»^(٣). وكانت نجدات إخوانهم في البداية، سرية، ثم صارت علانية، فأمر محمد علي ولده إبراهيم باشا أن يكتب للأمير بشير أن يبعث حفيده الأمير مجيد قاسم إلى جهات دمشق لصد دروز لبنان، ووادي التيم، ومنعهم عن نجدة دروز حوران، وأن يذهب حفيد الأمير بشير الأمير محمود خليل إلى حاصبيا لإرهاب دروز لبنان عن نجدة الوعر، وأن يقيم في السراي مع العسكر النظامي، فساروا حسب أمره، حتى إذا وصل الأمير مجيد إلى إقليم البلان شن الغارة على العصاة، فانهزموا وقتل منهم كثيرين.

أما الأمير محمود فنزل في السراي حسب الأمر، فجاءه العريان بجماعة من الوعر وحاصروه، ثم راسلوه في الخروج منها وأن لا يشارك العسكر المصري ولا يخاطبهم، فخرج بمن معه من اللبنانيين ودارت الحرب بين الطرفين، فانهزم الأمير محمود بقواته إلى البقاع، ولحقهم العريان وأعمل فيهم السلاح، فقتل منهم نحو ثلاثمائة وتشنت الباقون في البقاع، ورجع الأمير محمود إلى بتدين، والعريان إلى حاصبيا.

وكتب إبراهيم باشا، وهو في دمشق، إلى الأمير بشير يطلب منه أن يجمع أربعة آلاف مقاتل من النصاري، ويسلمهم السلاح، على أن يكون لهم ولذريتهم من بعدهم، وأن يبعث بهم مع الأمير خليل إلى حاصبيا لقتال الدروز، وسار هو بذاته إليها، فعرف ما جرى لعسكره، فجاء البقاع وجمع سلاحهم منها، وسار إلى المعلقة - زحلة، وجمع العسكر المشتت ورجع بهم

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام. نوفل نوفل - ص ٢٨٨

* عيخا، والأصح عيحا، بلدة لبنانية في قضاء راشيا

* إقليم البلان، يشمل منطقة قطنا جنوب غرب سوريا، ومناطق في الجولان السوري المحتل،

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٢

(٣) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٣

إلى راشيا، ووقعت الحرب مع الدروز في عيخا*، ولم يغلبهم^(١).

وفي ذات يوم بلغ عسكر الدروز أنه قادم من دمشق إلى عيحا علف لعسكر إبراهيم باشا فأرسل الشيخ حسن جنبلاط والشيخ ناصر الدين العماد نحو ٣٠٠ رجل لأخذها، ولما وصلوا إلى وادي يقال له (محسي) وجدوا قافلة العلف قادمة، فتسلّموها جبراً وإذا بمصطفى باشا قادماً بعسكره، فاشتعلت نار الحرب بينهم، فلما بلغ الشيخين ذلك انطلق إليه الشيخ ناصر الدين بثلاثمائة مقاتل وتبعه الشيخ حسن بأربعمائة وخمسين مقاتلاً، ولما أقبلوا على الأرناؤوط أضرموا عليهم نيران الوغى وبلغ إبراهيم باشا ذلك فحمل عليهم بشطرنج عسكره من ورائهم. ولما اشتد الحرب على الدروز انكفأوا إلى وادي آخر يسمى وادي (بكا) وإذا بإبراهيم باشا هاجماً عليهم بعسكره فأطلق عليهم النار الدائمة، وأطبقت العساكر من كل جانب، فانحاز الشيخ حسن برجاله إلى قلعة صخور في ذلك الوادي، وانحاز الشيخ ناصر الدين برجاله إلى قلعة أخرى أسفل الوادي وأحدثت العساكر من كل جانب وحملوا عليهم كالكواسر فصدمتهم الدروز صدمة صديد وتلقوهم بقلوب فطرت من حديد، وألح الفريقان كالأسد الضواري حتى اختلط الباري بالباري ووقع الرصاص على الرصاص، وسدّ على الدروز باب الخلاص، ولما نفذ الرصاص والبارود من جماعة الشيخ ناصر الدين صاح بهم أن اهجّموا على القوم بالجوارح، ومزّقوا منهم الأثارب والجوارح، فانتضوا الجوارح وهجموا على القوم فما كنت ترى إلا دماء مهركة وأشخاصاً ممزقة ورؤوساً طائرة وأعضاء متناثرة، ولما رأى الوزيران (إبراهيم باشا ومصطفى باشا) عسكرهما أوشك أن يولي الأدبار ويوسع الفرار جرّدا البواتر وهجما بقواتهما كالأسد القساور، فأخذوا يذبّحون الدروز كالغنم، ويقطعونهم تقطيع لحم على وضم، هذا والشيخ ناصر الدين مسّتل سيفه يفري به من يصل إليه حتى قتل خلقاً كثيراً من حواليه، ثم قتل ولم ينج من أصحابه سوى خمسين نفساً، وأما الشيخ حسن فلما أيقن أن لا نجاة له ولقومه إلا بالهرب فرّ من نجا منهم إلى شبعاء* وقد قتل من أصحابه ١٣٠ رجلاً^(٢)، وأما العريان فلم ينجد الشيخين بل ظل متربصاً بعسكر إبراهيم باشا، ثم تجمعت الدروز إلى شبعاء مذعورين، أما الأمير خليل فوصل بعسكره إلى حاصبيا، ولما بلغ الوزير قدومه كتب إليه أن يرسل ولده الأمير مسعوداً بشرذمة إلى جهة معلومة لأجل إشغال الدروز، ونهض في الغد بباقي عسكره من طريق أخرى،

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام- نوفل نوفل - ص ٢٨٩

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٤
* شبعاء، هي إحدى القرى اللبنانية في منطقة العرقوب من قرى قضاء حاصبيا في الجنوب.

ويزحفان بالعساكر معاً إلى شبعاً وقت الظهيرة، فنهض في الغد بعسكره قبل الوقت المعين قاصداً أن يفوز بالظفر وحده قبل وصول الوزير لينال المدح والفخر فالتقته فرقة من الدروز إلى مطلٍ وادٍ هناك وكمنوا والتقى الأمير مسعوداً فرقة أخرى واشتعلت نار الحرب، فحاصروه في قلعة صخور.

ولما أقبل الأمير خليل على ذلك الوادي صعد مقدمة عسكره إلى الدروز غير مرتبين، ولما بلغوا قمة ذلك الجبل اندفعت عليهم الدروز الكامنون وأطلقوا عليهم الرصاص وهم لا يشعرون فانكسروا ناكسين على أعقابهم مذعورين، وكسروا أصحابهم المتأخرين فقتل الشيخ فضل الخازن وسبعة عشر رجلاً، وغنمت الدروز أمتعتهم، وعند ذلك قدم الوزير بعسكره من الجهة المعينة وهجم بهم على الدروز فانهزموا وولوا مدبرين إلى الجبل.

فحينئذ رجعت الدروز عن الأمير مسعود، ودخل الوزير بعساكره إلى شبعاً وبات هناك، وأما العريان ففر بمئة فارس إلى حوران، ثم سار الأمير خليل إلى حاصبيا والوزير إلى دمشق، ولما وصل الأمير خليل إلى حاصبيا أخذت الدروز تسلم ورجعوا إلى أوطانهم مذلولين، وأما العريان فتركه أكثر فرسانه فالتزم أن يطلب الأمان من الوزير فأعطاه الأمان، فحضر إليه وجعله قائداً على ألف هواره^(١). وبعد تلك الحرب همدت الأحوال في سوريا بعض الشيء.

٤- وقعة نصيبين واستظهار إبراهيم باشا فيها

لم تكن الدول الأوروبية الاستعمارية مرتاحة لتكوين محمد علي دولة واسعة مترامية الأطراف، لكنها لم تكن أيضاً راغبة في قتاله، لكن حدث أمر جعل تلك الدول تغير موقفها وتعمل جاهدة على تقزيم محمد علي وإضعافه، ففي عام ١٨٣٩، توسطت الدولة العثمانية لدى فرنسا صديقة محمد علي لدفعه إلى تسليم ولايات عربستان وأدنة ومصر إليها، لكن فرنسا لم تستجب إلى تلك المطالب، وعند ذلك أصدر الصدر الأعظم رشيد باشا الأوامر إلى حافظ باشا أن يسير بالجيش لقتال إبراهيم باشا واستخلاص سوريا منه، فتقدم حافظ باشا بالجيش وعندما علم إبراهيم باشا به سار إليه والتقاه في سهل نرب (نصيبين) فدارت بين الطرفين معركة انهزم على إثرها إبراهيم باشا، وأراد قواد العساكر أن يتبعوه بالعساكر، فلم يأذن لهم حافظ باشا وقال: إن الاستظهار على عسكر قليل في هذا الوادي من البقعة لا يعد من فنون الحرب، وأمر بإرجاع العساكر إلى المخيم، وعندما علم إبراهيم باشا برجوع العساكر عادت عزيمته فتشدت بعد الوهن واليأس،

(١) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٥

وجمع عسكره وخرج بهم من الوادي وصعد إلى تل تجاه عسكر حافظ باشا وأخذ يطلق المدافع، فعطل أكثر مدافع العثمانيين، وفرق صفوفهم، ثم هجم عليهم هجمة هائلة، فانكسروا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم، ورجعوا إلى مرعش، وهذه الواقعة من أشهر الوقائع بين المصريين والدولة العثمانية ولم تصل أخبارها إلى الآستانة إلا بعد موت السلطان محمود الثاني بثمانية أيام^(١).

وفي رسالة مرسلة من إبراهيم باشا إلى محمد شريف باشا حاكم دار عريستان جاء فيها: «نبدي لجنابكم أنه نهار الاثنين الواقع في ٣ رجب سنة ١٢٥٥ توجهنّا بالعساكر المظفرة المصرية على أوردي (عسكر) اسلامبول، وكان وصولنا الساعة واحدة من النهار المذكور وبعد محاربتهم ساعتين تشتت أوردي اسلامبول وتركوا مدافعهم وبواريدهم وخيامهم وأركنوا إلى الفرار وبمنه تعالى قد رفعت هذه الغائلة، فبناء على ذلك اقتضى إفادة سعادتكم بذلك لكي بوصوله تجروا واجبات الأفراح والسرور وتعلنوا ذلك إلى كافة المدبرين والمستلمين بإيالة عرب ستان حكمادارية سعادتكم بناء أن تنضرب المدافع إعلاناً لمراسيم السرور وتشتغل الأهالي بإجراء مقتضيات الأفراح والحبور يكون معلوم جنابكم ذلك ١٥ رسة سنة ١٢٥٥»^(٢).

٥- بدء التمرد على الحكم المصري في سوريا

وصلت أخبار ذلك الانتصار الذي حققه إبراهيم باشا على العثمانيين إلى دول أوروبا، وأيقنت تلك الدول أن محمد علي سيقضي على الدولة العثمانية لا محالة، ولذلك تواصل قناصلها مع السلطان عبد المجيد الذي خلف أباه، ووعدوه بالمساعدة لتحجيم محمد علي وإضعافه، وكانت بريطانيا أكثر تلك الدول عدواناً على محمد علي لأنها كانت تعتقد أن نجاحه في القضاء على الدولة العثمانية الضعيفة وإقامة دولة فتية مكانها، سوف يبدد أحلامها في السيطرة على المنطقة التي هي قلب العالم من أجل إنجاح مشروعها الإمبراطوري العالمي.

وجهز السلطان عبد المجيد العساكر لذلك، واتفق مع إمبراطوري روسيا والنمسا، ومملكة إنكلترا، وملك بروسيا بأن تقدّم تلك الدول السفن اللازمة لتركيا لإيصال العساكر العثمانية إلى سوريا، وأن تسعفه تلك الدول في إخراج المصريين منها، ورفضت فرنسا الموافقة على ذلك، ولهذا علّق محمد علي

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر الشام - نوفل نوفل - ص ٢٩٠

(٢) الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي - أسد رستم - مجلد ٣ و ٤ - ص ٢٦٦

آماله بمساعدتها، فلم يُخرج عسكره من سوريا اختياراً^(١). بل قرراً لمواجهة وأمر بالتعبئة، فبدأت قواته الخاصة تسوق الشباب المصري من البيوت والجامعات إلى الجيش، وكان من جملة من تمّ سوقه مجموعة من الطلاب المسيحيين اللبنانيين وكانوا يدرسون الطب في القاهرة بموجب بعثة أرسلها الأمير بشير الشهابي، وذاع الخبر في سوريا أن محمد علي قبض على الشبان المسيحيين ليجنّدوا في عسكره النظامي، فخاف المسيحيون اللبنانيون واضطربوا ظانين أنه سيفعل بشبابهم هكذا، وفي غضون ذلك ذاعت أخبار قدوم عساكر مصرية إلى بعلبك وطرابلس، وورد مركب إلى بيروت مشحوناً من الثياب فذاع الخبر أن تلك الثياب مهيأة للشبان المسيحيين فازدادوا اضطراباً وتذمروا، ودار بينهم وبين الدروز لسان العصيان على إبراهيم باشا وكانت الدروز تهيجهم وتسهّل لهم الأمور وتشجّعهم بأخبار ظفرها بالنظام في حرب الوعرة^(٢).

فلما بلغ إبراهيم باشا اتفاقهم كتب إلى الأمير أن يجمع من النصارى السلاح الذي سلمهم إياه حين قتال الدروز في وادي التيم، فلما شعر أهل دير القمر بذلك كتبوا رسائل إلى مقاطعات البلاد يسألونهم في أمر تسليم السلاح فأجابوهم لا نسلم. وأرسل الأمير أحد قواده ليجمع سلاح نصارى المناصف* والشحار* فأرسل هؤلاء إلى نصارى دير القمر* يستشيرونهم فأجابوهم أن لا تسلّموا، فأرسلوا إليهم ثانياً أنه لا يمكننا المقاومة بدون إسعافكم، فهاجت نصارى دير القمر وانطلق منهم نحو مئة رجل ليطردوا ذلك القائد فلما بلغه قدومهم فرّ خائفاً واحتتمى عند الشيخ حمود النكدي، فرجعوا إلى دير القمر، وفي أول الليل بلغهم أن سليمان باشا الفرنسي قادم بعسكره من صيدا إلى دير القمر لجمع السلاح، فأخذهم الهوس ونهض منهم نحو مئتي رجل لصدّه^(٣). وتبعهم بعض رجال من بعدا* وقبضوا على جنود من الجيش المصري كانوا ذاهبين من دمشق إلى بيروت^(٤)، ثم أخذ الهوس رجلاً يكنى بأبي غانم البكاسيني الماروني وآخر يسمى أحمد داغر المتوالي واجتمع إليهما بعض أشخاص إلى حرش بيروت، وأخذوا ينهبون الطحين الوارد إلى عسكر بيروت،

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٤

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٦

* المناصف، ناحية تتبع قضاء الشوف تضم ١٨ قرية.

* الشحار، منطقة في جبل الشوف تضم عدة قرى منها قرية عبية التاريخية

* دير القمر، قرية تقع في منطقة الشوف، كانت عاصمة الأمراء المعنيين.

* بعدا، قرية في قضاء بعدا، لبنان

(٣) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٦

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٥

وقدم إلى حرش بيروت الشيخ فرنسيس أبو نادر الغسطاوي فجعلته العامة قائدهم فلقب «سر عسكر النصارى»^(١). فكتب الأمير بشير إلى بعض أمراء اللمعيين أن يتهددوا المتحصنين في الحرش وأن ينصحوهم، فتوجه الأمراء المذكورون إلى سن الفيل*، وشرعوا ينصحون العامة جهاراً ويخيفونهم من قوة الأمير، ولكنهم كانوا يشددون عزائمهم سرّاً^(٢).

وكان العامة في حالة غضب كبير من الحكومة المصرية لأنها أحدثت الزيادة في الضرائب، ولأنها كانت تفرض السخرة عليهم، وتشغلهم في الحفر وخاصة في مناجم الفحم الحجري في قرنايل*، وأيضاً لطلبها السلاح منهم، فلما عرف محمد علي بما جرى كتب إلى الأمير كي يعدل عن أخذ سلاح النصارى، فأرسل الأمير إليهم ابنه الأمير أميناً، فلما وصل استدعى وجوه العامة وشرع يسترضيهم، وبعد هذا أوعز إلى أربعة من أمراء الشهابيين بمخاطبتهم في الحرش فأجابوا أنهم لا يرجعون إلا بقبول شروطهم وهي: أن لا يدفعوا إلى الخزينة إلا ضريبة واحدة، وأن يطرد الأمير بشير بطرس كرامة* من ديوانه، وأن يكون في الديوان المذكور من كل طائفة اثنان، وأن يرفع عنهم السخرة والعمل في مناجم الفحم، وأن يبقى السلاح لهم^(٣).

ثم ذهب إلى الحرش جماعة من بني شهاب واللمع واعتصموا مع العامة، ومن ثم تفرقوا في البلاد لقطع الطرق على العسكر المصري، وانضم إليهم بعض بني خازن، ورجل ماروني من بكفيا اسمه (يوسف الشنتيري)، وقدم من حلب عثمان باشا في ثمانية آلاف مقاتل، وخيم في مرج عرجموش*، وجاء من طرابلس القائد علي بك بعساكره، وكان الشهابيون واللمعيون وبعض الجواسيس التابعين لدول أوروبية يشددون العامة ويحرضونهم على الثبات ضد المصريين، ويخبرونهم باتفاق الدول ضد محمد علي، وكانوا يقدمون لهم الرصاص والبارود^(٤). ثم نهض الأمراء ليحشدوا الرجال، وسار

(١) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٧

* سن الفيل، قرية في قضاء المتن، أصبحت من ضواحي بيروت.

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٥

* قرنايل، بلدة في قضاء بعيدا - لبنان

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٥

* بطرس كرامة، ١٧٧٤، ١٨٥١ هـ بطرس بن إبراهيم كرامة، معلم، من شعراء سوريا، مولده بجمص، اتصل بالأمير بشير الشهابي فكان كاتم أسرار، وكان يجيد التركية، فجعل مترجماً في «المابين الهمايوني Mabeyn-i hümayun» بالآستانة، فأقام إلى أن توفي فيها. له ديوان شعرومجموعة من الموشحات الأندلسية وغيرها - الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٢ - ص ٥٨

* عرجموش، قرية في قضاء بعلبك، لبنان

* زغرتا، مدينة تقع في شمال لبنان.

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٦

أبو سمرا بمئة فارس إلى طرابلس، ولحق به بعض بني الخازن وبني الصالح، وجاؤوا جميعاً إلى زغرتا*، فسار إليه يوسف بك شريف من طرابلس بأربعة آلاف مقاتل وحاربهم، فانكسر أبو سمرا وجماعته وهربوا إلى قرية إيعال*، ثم حاربهم مرة ثانية بعد ثلاثة أيام، فانكسر هو والعسكر المصري، وأعمل اللبنانيون في أقفيتهم السلاح، وأخذوا منهم مدفعاً وقتلوا خمسين نفرًا^(١).

ثم انفضّ اللبنانيون عن أبي سمرا، وسار بعشرين رجلاً من المتأولة إلى الضنية^(٢). ولما وصل إلى هناك جمع مشايخ بني رعد رجالهم ونهضوا على المتسلم عندهم، ويقال له إبراهيم السلطي، واستلموا المقاطعة، فلما بلغ الخبر إلى متسلم طرابلس أرسل جيشاً لقتالهم، فالتقوه في قرية بجعون*، وانتشب القتال بين الفريقين، فانكسر العسكر المصري، وقتل منه جماعة، وارتد إلى مرياطة*، وفي اليوم الثاني كرّ عليهم فحاربهم حتى انكسروا وتبددوا، وقتل منهم ثلاثون رجلاً، وأسرع عشرة رجال.

ثم توجه أبو سمرا إلى وادي موسى، فاجتمع إليه نحو مئة وخمسين نفرًا، فسار بهم إلى عكار وقتل متسلمها، ونهب أمتعته، وأخذ أربعة رؤوس من خيله، وحاصر جماعته في الريحانة عند شاطئ البارد، فهزمهم ونهب القرية، وانطلق إلى جرد عكار، وهناك انفضت جماعته فاخترأ في قرية مزيارة*^(٣). وسار الأمير محمود إلى معلقة الدامور*، بجماعة من برج البراجنة*، وأرسل يستدعي رجال الشحار والمناصف، وجمع الأمير علي اللمعي رجال المتن، وسار بهم إلى المريجيات* فقدم إليه الأمير خنجر الحرفوش وأخوه الأمير سليمان ومعهم جماعة، ونهض الأمراء الشهابيون واللمعيون بعسكر العامة من الحازمية والدكواني* لقتال المصريين، وتلاقوا بهم في الأشرفية فهزمهم العسكر المصري، وجدّ الأرناؤوط في طلبهم فتبددوا مخذولين^(٤).

وجاء من الآستانة المسترريتشارد وود Richard Wood الإنجليزي وكان يتكلم

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٦

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٣٩

* إيعال، قرية في قضاء زغرتا، لبنان

* بجعون، قرية في قضاء الضنية، لبنان

* مرياطة، بلدة في قضاء زغرتا - لبنان

* مزيارة، بلدة في قضاء زغرتا - لبنان

* الدامور، بلدة ساحلية في قضاء الشوف - لبنان

* المريجيات، بلدة في قضاء زحلة - البقاع - لبنان

* برج البراجنة، قرية في قضاء بعبدا - لبنان

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٨

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٦

* الدكواني، قرية في قضاء المتن - لبنان

العربية، فاجتمع بوجوه عامية الحرش، وأشار عليهم أن يكتبوا عرضاً للدولة العثمانية، وإلى سفراء النمسا وبريطانيا وفرنسا، يلتمسون به إنقاذهم من ولاية الدولة المصرية، فكتبوا وسلموه العرائض، فأرسلها إلى الأستانة^(١).

وكتب بحري بك الحمصي (مدير الحسابات في دمشق) إلى البطررك يوسف حبيش يلتمس منه أن ينصح الثائرين موضعاً لهم عاقبة العصيان، فأرسل البطررك المطران بطرس كرم الماروني والمطران اغاببوس الكاثوليكي ينصحان لهم، ولما بلغ الأمير بشير أحمد اللمعي ذلك كتب إلى المطران بطرس شروط مطالب السكر وهي، رفع السخرة، ورفع الحجز عن الصابون، وإبقاء السلاح، وتخفيف الإعانة، فأرسل المطران هذه الشروط إلى بحري بك فأجابه مادحاً إياه وأنه أرسل الشروط إلى إبراهيم باشا وأنه بعد عشرة أيام يحضر الجواب بالإيجاب^(٢).

وجاء عباس باشا بالأسطول إلى بيروت، ورجع الأميران مسعود ومجيد من صيدا، فلما رآهما اللبنانيون هربوا.

وجرت بعد ذلك وقائع بين عثمان باشا والأمراء الموجودين في الحازمية وعامية دير القمر ورجال المعلقة، انتهى الأمر فيها إلى انهزام اللبنانيين ورجوع الديرانين إلى بلدتهم طالبين الأمان، وهرب سائر الأمراء الثائرين، وعاد الشنتيري إلى بيته، وفر فرانسيس الخازن فاخترأ في كسروان^(٣). وبلغ عباس باشا تفرقهم فأمر الأمير بشير أن يقبض على المذنبين حسب أمر محمد علي، فقبض على أناس منهم، ومن جملتهم الأمير خنجر الحرفوش وأخوه، وستة رجال من المتأولة، فأودعهم الأمير عبد الله الحبس في غزير*، فلما عرف بهم أهل كسروان، انحدر منهم نحو مئة رجل وهجموا على الحبس، وأخرجوا الأميرين ومن معهم، وأخذوا أسلحة الحراس وأخذوا المحررين معهم إلى جونبة*. ثم نهض عباس باشا وسليمان باشا الفرنسي بالأسطول من بيروت ومعهما الأمير مجيد، فلما وصلوا إلى المكلس* أطلق الأمير خنجر وجماعته عليهم الرصاص، فأرسل الباشا عليهم أسكرا الأرناؤوط، ففر

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٦

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٠

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبلاد الشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٧

* غزير، قرية تقع في قضاء كسروان - لبنان

* جونبة، مدينة تقع شمال بيروت وهي مركز قضاء كسروان - لبنان

* المكلس، قرية في قضاء المتن - لبنان

* المنصورية، قرية في قضاء عاليه - لبنان

* بيت مري، قرية في قضاء المتن - لبنان

* دير القلعة، يقع دير القلعة على ارتفاع ٧٠٠ م. شرقي مدينة بيروت عند مدخل بلدة بيت مري

الأمير خنجر وتفرقت جماعته، ونهبت الأرنؤوط قرية المكلس وأحرقتها، وأحرق بعض المنصورية*، وبيت مري*، ودير القلعة*، وفي اليوم التالي نهبوا بعض بيوت وادي شحور*، وقتلوا خوري الكحالة*، ولما هرب بعض الأمراء وقع أكثرهم في يد جماعة الأمير بشير فألقوا عليهم القبض^(١).

وجاء الأمير مجيد إلى جبة بشرى لجمع السلاح، وأتى الأمير خليل إلى كسروان، والأمير أمين إلى المتن*، وأما عثمان باشا فاتجه إلى مكسه*، ومنها إلى بوارج* فأحرقها، ونهب قرية كفر سلوان*، ثم دخل المتن فجاء إليه الأمير أمين لجمع السلاح، فقدم إليه الشنتيري وبرأ ذاته من شركة العامية، فأمنه الأمير، وأبقى له سلاحه. وبعد حين طلبه الأمير بشير من ابنه الأمير أمين، فأرسله وأصحابه بالأمير حيدر اللمعي، والأمراء علي قايتباي، وعبد الله مراد، ومنصور مراد، وعلي فارس، فلما وصلوا إلى بيت الدين*، أطلق الأمير بشير الأمير منصور واعتقل الباقيين^(٢).

ثم أرسل الأمير بشير حفيده سعيداً بن خليل، ليجمع السلاح من الشويفات*، وأصحابه بجنود من بيت الدين، فقبضوا على المشايخ حمود وقاسم وعباس ناصيف من آل نكد، واستحضروهم إلى بيت الدين فحبسهم الأمير^(٣).

وأما الأمير خليل، فإنه جمع أسلحة كسروان بفضاظة عالية، حتى اضطر من كان أعزل أن يشتري سلاحاً ليقدمه، وقبض الأمير خليل على الشيخ نقولا الخازن وأرسله إلى بيت الدين، وأما الشيخ فرنسيس فصر من مخبئه إلى قبرص، وتبعه الأمير إسماعيل اللمعي وجماعة من مشايخ آل الخازن^(٤).

ثم استدعى الأمير بشير حفيده الأمير سعيداً، من الشويفات، وأرسل عوضه الأمير أمين أرسلان لتأديب أهل الغرب الأسفل والساحل، وللقبض

* وادي شحور، قرية في قضاء بعيدا - لبنان

* الكحالة، قرية في قضاء عاليه - لبنان

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٨

* المتن، أحد أقضية محافظة جبل لبنان،

* كفر سلوان، قرية في قضاء بعيدا - لبنان

* مكسة، قرية في قضاء زحلة - لبنان

* بوارج، قرية في قضاء زحلة - لبنان

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٨

* الشويفات، بلدة في قضاء جبل لبنان - لبنان

* بيت الدين، بلدة في قضاء الشوف - لبنان

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٨

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٩

على المذنبين، فقبض على حنا الخوري وشاهين الخوري من طائفة الروم (الأرثوذكس) وعلى جماعة آخرين، وأرسلهم إلى بيت الدين^(١).

ثم صدر أمر عباس باشا إلى الأمير أن يرسل الأسرى إلى مصر، فأرسلهم إلى صيدا وبيروت، ومن هنا أخذوا إلى عكا، ثم بحرًا إلى إسكندرية في مركبين، مقيدين أزواجًا، وكان عددهم ٥٧ رجلاً، بينهم أربعة أمراء من آل شهاب، وأربعة من اللمعيين، وثلاثة من المشايخ النكديين، وواحد من بني خازن، وسائرهم من العامة^(٢). ولما قدم المركبان على ميناء الإسكندرية، قدم الكومندور رتيبر الانجليزي بخمس بوارج كبار انجليزية يصحبها مركب نار، فأمر والي الإسكندرية أن يسرعوا بإدخال المركبين إلى الميناء، فأدخلوهما وأرسلوا الأسرى تلك الليلة إلى مصر ووضعوهم في القلعة، فأمر محمد علي بنفسيهم إلى بلاد سنار، وفي اليوم السادس من وصولهم إلى مصر سيّرههم بمركبين في النيل مقيدين كأول وأرسل معهم محافظًا ومعه جنود وأصحابه بأمر إلى والي الخرطوم، وبينما كانوا في السفر رثى عقلاؤهم سرًا ذلك المحافظ لكي يسلمهم أمر محمد علي لينظروا فحواه فسلمهم إياه وقد أضمر أنهم إذا وجدوا فيه ما يسؤهم يقتلون أولئك الجنود ويذهبون في البرية نحو اليمن، ففضّوا ختم ذلك الأمر وتلوه فإذا فيه ما يريحهم فاطمأنوا وظلوا سائرين إلى بلاد سنار^(٣). واتجهت السفن الإنجليزية من الإسكندرية نحو بيروت.

٦- دخول الدول الأوروبية في الحرب

في يوم الخميس آب ١٨٤٠، انتبه أهل بيروت من نومهم، فرأوا خمس بوارج حربية راسية أمام جمرك بيروت، وقريبة من البر، وفاتحة أفواه مدافعها، وأخذة بإجراء الإشارات مع قنصلية الإنجليز في بيروت بالشفرة، ورأوا قوارب البوارج تتحرك بملء الحرية على مقربة من البر، ثم خرج منها بعض الرجال المسلحين إلى البر، وشرعوا يلصقون على الجدران إعلانات مكتوبة باللغة الإنجليزية، فاندesh الناس من ذلك وصاروا يتساءلون ما عسى أن يكون هذا، فعرفوا أن تلك البوارج آتية من أوروبا عن طريق الإسكندرية، وأن لكل من الدول الخمس بارجة، ومقصدهن، جميعًا، إخراج المصريين من البلاد. وكان من جملة الخارجين إلى البر الكومندور الانجليزي ورتيبر، Warteper^(٤).

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٩

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٣٠٩

(٣) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ ص ١٠٤٤

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، نوفل نوفل ص ٣١٠

فأرسل يخاطب محمود بك متسلّم المدينة بالتسليم، فأبى قائلاً، إني مروّوس، فأعرض الأمر على مولاي إبراهيم باشا وأنتظر أمره وأفعل كما يشاء^(١). ثم كتب الكومندور كتاباً إلى اللبنانيين يبشرهم أنه قادم عمارة عثمانية يصحبها عمارة انجليزية ونمساوية وروسية وبروسية لاستنقاذ سوريا من ولاية الدولة المصرية^(٢).

ورجع محمود بك، وأمر فوراً بحفر الخنادق في شوارع بيروت، وهدم القناطر المعترضة في أعالي معابر المدينة ومسالكها وصمم على الحصار^(٣).

وعرف الأمير بشير بما كان وأن البوارج تعطي الناس سلاحاً، فكتب يهدد بالقتل كل من يخالط الأوروبيين أو يكلمهم، عملاً بإشارة إبراهيم باشا^(٤) فلما وقع أمره هذا بيد رجل انجليزي دفعه إلى رئيس العمارة الإنجليزية فأرسله إلى دولته^(٥). وارتاب الأمير بشير من أن تنخذل الدولة المصرية فأودع بعض مثمانته في دير بزمار* بكسروان، وفي رشميا* وعين تراز* ودير المخلص* عند صيداء^(٦). أما أعوانه فما انكفوا عن ظلم الناس والبغي عليهم، بجمع السلاح والخيول، والتغريم.

ولم يمض إلا أيام قلائل حتى ظهر الأسطول العثماني وصحبتة بوارج الدول، وعدة الجميع نحو أربعين سفينة، وكان في السفن العثمانية نحو خمسة آلاف وخمسمئة جندي، وفي الأوروبية نحو ألفين، فلما رآها الناس أيقنوا بالفرج، وخرج المختبئون، وهاج الكسروانيون على أعوان الأمير المأمورين على ردع الناس عن أخذ السلاح، ففر أولئك المأمورون هاربين، وجدّ القوم في أثرهم، فسلبوا سلاح من أدركوه منهم^(٧). ولما انطلقت السفائن التصق مركب نمساوي منها بالمراكب الخمسة وذهب سائرهما إلى جونبة، وعند المساء أطلقت السفن الستة المدافع على بيروت، فغطى دخانها الساحل، وانهدم

(١) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ ص ١٠٤٤

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - حيدر أحمد الشهابي - ص ١٠٤٤

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، نوفل نوفل. ص ٣١٠

(٤) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام - نوفل نوفل - ص ٣١١

(٥) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي ج ٣ - ص ١٠٤٤

(٦) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي ج ٣ - ص ١٠٤٤

* دير بزمار للأرمن الكاثوليك، يقع في منطقة كسروان، تأسس سنة ١٧٤٩.

* رشميا، قرية في قضاء عاليه في جبل لبنان

* عين تراز، قرية في قضاء عالية في محافظة جبل لبنان

* دير المخلص، يقع هذا الدير بالقرب من قرية جون اللبنانية، اقليم الخروب

(٧) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، نوفل نوفل - ص ٣١١

شيء من أبنيتها، ففرّ سليمان باشا الفرنسي إلى الحازمية*^(١). ولما وصل بقية الأسطول إلى جونية خرج منه أمراء السفن الأوروبية ونزل سليم باشا بجنده إلى البرومعهم الشيخ فرنسيس الخازن وخيموا عند شير الباطية*، ففرّ الأمير مسعود إلى ريفون* وهدم الكومندور الإنجليزي طريق نهر الكلب ليتعذر العبور على العسكر المصري،^(٢).

وكتب السر عسكر كتاباً إلى اللبنانيين يستدعيهم للقيام ضد العساكر المصرية، وكتب إلى سليمان باشا أن يسلم بيروت فلم يجبه، وفي الحال قدم إلى جونية سكان قرى كسروان الساحلية مستأمنين للسر عسكر فأعطاهم السلاح، وحينئذ ذهب ريتشارد وود الإنجليزي إلى غزير بخمسمئة جندي من العسكر العثماني يدعو الأمير عبد الله حسيناً إلى خدمة الدولة العثمانية، فلما شعر الأمير بقدمه فرّ من وجهه واختبأ خوفاً، فرجع إلى العسكر صباحاً وأرسل مركباً مشحوناً سلاحاً إلى جبيل والبترون، ولما وصل إلى ميناء جبيل قدمت إليه الناس لأخذ السلاح فأطلق رئيسه المدافع على القلعة وأخرج رجالاً منه إلى البر فهاجموا على القلعة ببسالة، فأطلقت الرجال الرصاص عليهم من القلعة فقتلوا منهم ثلاثة رجال فانكفأوا راجعين، أما الأمير مجيد ففرّ من عمشيت* إلى بركة اليمونة*.

وأما الأمير عبد الله فلما انسد في وجهه باب الهرب إلى بتدين حضر إلى جونية مسلماً على السر عسكر معتذراً عن النهوض للقتال ولبث في المعسكر معتزلاً الأعمال^(٣)، ثم أرسل عزت باشا والي صيدا أمراً إلى أبي سمرا غانم يدعو إليه، فحضر وأصبح معه نحو خمسمئة نفر من البترون، وفيهم متسلم جبيل، فأعطاه عزت باشا أربعة آلاف بندقية، وأرسله إلى جبيل ليوزعها على رجالها، فذهب إليها وجمع نحو أربعة آلاف رجل من جبيل والبترون وجبة بشري وسار بهم إلى اليمونة لمحاربة الأمير مجيد، ففرّ المذكور إلى عيناتا*، حيث كان العسكر المصري، فلحق به أبو سمرا إليها، وجرت بين الفريقين مواقع قتل فيها كثيرون من الطرفين، وفي آخر الأمر رجع أبو سمرا

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، نوفل نوفل ص ٣١١

* الحازمية، إحدى ضواحي بيروت تابعة لقضاء بعيدا

* شير الباطية، هوريف صخري مرتفع في أول محلة الكسليك قرب جونية

* ريفون، قرية تقع في قضاء كسروان

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام-نوفل نوفل- ص ٣١٢

(٣) الغرور الحسن في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٥

* عمشيت، قرية في منطقة جبيل

* يمونة، قرية في قضاء بعلبك في محافظة بعلبك الهرمل أغلب سكانها هم من المسلمين الشيعة.

* عيناتا، قرية في قضاء بعلبك

إلى الجبة^(١).

أما السنيورود الإنجليزي فقد توجه إلى الدامور وصيدا ووزع الأسلحة وفتح صيدا واستولى على العسكر المصري الذي كان فيها ورجع بهم إلى جونية^(٢).

وقدم إبراهيم باشا إلى بعلبك واستدعى إليه شريف باشا وبحري بك والأمير بشيروسألهم الرأي الأصوب، فأجابه الأمير قائلاً إنه عندي أن نرجع السلاح للنصارى والدروز ونرد لهم مال الإعانة فوافقه على ذلك شريف باشا وبحري بك وخالفهم إبراهيم باشا بقوله الرأي عندي إخراج السواحل لمنع الناس من الأفرنج، ورجع كل إلى مكانه^(٣).

وجهز إبراهيم باشا جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل منظم وأرناؤوط وجعل عليه عثمان باشا، وانضم إلى هذا الجيش الأمير الأمير خليل وبعض مشايخ الخوازنة، وأتى عثمان باشا إلى الحازمية وعند المساء ذهب إلى خارج بيروت لتدبير وقاية عسكره، وعند وصوله أطلقت مدافع المراكب فرجع إلى الحازمية ثم إلى المتن، واستدعى إليه الأمير مسعود من ريفون لثقتة ببساته ووجهه إلى ديك المحدي* محافظاً، ومعه الشيخ حسين تلحوق، ثم كتب السر عسكر إلى الأمير بشيرون يخاطبه بالتسليم وأرسل له فرماناً مع سفير يقول له، «إن سلمت للدولة قبل مرور ثمانية أيام طائناً تبقى والياً كما كنت بل تكون الولاية لك ولذريتك من بعدك وإلا فلا قبول لك». فأجاب الأمير معتذراً بوجود أولاده وحفدته بين عساكر إبراهيم باشا وكان مغترباً بأخبار الفرنسية أن مراكبهم قادمة لإسعاف محمد علي^(٤).

وأعطى السر عسكر التركي الكسروانيين سلاحاً وباروداً وأمرهم أن يصعدوا لقتال عثمان باشا، فتوجهوا وكانوا ألف رجل وأقاموا بين الصخور غربي العسكر المصري وأطلقوا عليه الرصاص خمسة عشر يوماً، ثم التمسوا من العسكر نجدة فأبى وأرسل نحو خمسمئة رجل من العسكر المنظم للمحافظة على غزير فنزلوا خارجها، وكان العسكر المصري يهجم عليه مبتعداً عن الصخور فقتل منه جماعة ومن اللبنانيين ثلاثة أشخاص، فسر السر عسكر ببساتهم في موقف الحرب، فكتب لهم كتاباً مضمونه الإقرار بشدة بأسهم وجهادهم وأنه أنعم عليهم بترك مال الكسروانيين على ثلاث سنين.

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام، نوفل نوفل - ص ٣١٢

(٢) الغرر الحسن في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٦

(٣) الغرر الحسن في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٦

(٤) الغرر الحسن في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٧

* ديك المحدي، قرية في قضاء المتن - لبنان

حينئذ قدم مشاخي الخوازنة الذين هربوا إلى قبرص.

أما إبراهيم باشا فلما بلغه تصلب الكسروانيين تجاه عثمان باشا، انطلق من المتن لمعونتته، وفي الغد أضرم نار الوغى على اللبنانيين وهجم عليهم فانهمزوا ووجدت العساكر في طلبهم في الفتوح وكسروان، وفرت سكان القرى العليا إلى السواحل وارتجت البلاد وتهيأت العساكر العثمانية للهرب بحرًا، فنهب إبراهيم باشا تلك القرى وقتل وأحرق، ثم رجع بالعساكر إلى وطاء الجوز*، وفي أثناء ذلك قدم عزت باشا واليًا على جميع الإيالات التي بيد محمد علي في سوريا^(١).

وأرسل سليم باشا السر عسكر، عمر بك النمساوي والأمير خنجر الحرفوش ليوزعا الأسلحة في بيت شباب*، فالتقاهما الأمير مسعود حفيد الأمير بشير، وحاربهما فرجعا إلى جونية، ونهض الأمير مسعود إلى بقليع* ليخبر إبراهيم باشا بذلك، فحضر الباشا إلى بحر صاف*، ومنها إلى بكفيا ليجمع السلاح الذي وزعه عمر بك، ففر الأهليون لخوفهم من بطشه، فدخلها عسكره ونهب وقتل وسبى وأحرق ثم أقام الأمير مسعود محافظًا، ورحل هو إلى بيت الدين^(٢).

ومضت الأيام الثمانية التي عينها السر عسكر لتسليم الأمير بشير وهو لم يذعن، فأمر الأمير بشير ملحم أن يوافيه إلى جونية، فحضر إليه ورحب به السر عسكر، وأنزله أحسن منزل، وفي اليوم الثالث أعطاه ألف نفر من الجند العثماني ومدفعين وأمره أن يتجه لقتال عثمان باشا في وطاء الجوز، فنهض الأمير بشير إلى هناك بالأمراء والعسكر اللبنانيين المجتمعين، وعند انتصاف الليل ورد أمر من إبراهيم باشا إلى عثمان باشا أن ينهض بالعساكر حالاً إلى البقاع، فقدم من عسكره قائد ومعه عسكري، وأخبر الأمير بشير عن ذلك الأمر، وأن عثمان باشا نبه على العسكر أن ينهض معه فجرًا، ولما هجم الصباح أضاعت مصايح العسكر وانطلق الوزير به، فهجم عليه اللبنانيون والترك وجدوا في أثره وأطلقوا الرصاص على المتأخرين وقتلوا ونهبوا وأسروا جماعة منهم طوعًا وجبرًا ولم يزالوا يطاردونه حتى بلغ ثغرة البندق فبات

* وطى الجوز، قرية في قضاء كسروان، لبنان

(١) الغر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٧

* بيت شباب، قرية في قضاء المتن، لبنان

* بقليع، قرية في قضاء المتن - لبنا

* بحر صاف، إحدى قرى قضاء المتن - لبنان

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣١٣

* ميروبا، قرية في قضاء كسروان، لبنان

كل في مكانه . وبلغ «وود» الإنجليزي الذي كان مدبر ذلك الانتصار فسرّ به وأشار على الوزير بأن يسلمه فرمان ولاية الأمير «بشير ملحم» على جبل لبنان ليتلوه على الأمير وأحزابه فسلمه إياه، فصعد حالاً إلى، ميروبا*، وتلاه على الحاضرين ثم عاد إلى جونية.

وفي أثناء ذلك انهزم متسلم بيروت محمود بك بالعسكر في ٧ تشرين الأول سنة ١٨٤٠ فاستلم عزت باشا وعسكر الإنجليز المدينة.

وأما عثمان باشا فقد انطلق في الغد بعسكره إلى المعلقة* ورجع اللبنانيون بعد طرده فرحين^(١).

وفي يوم الأحد ١٨ تشرين أول خرج المصريون من قلعة طرابلس بعد أن ألقوا النار في «الجبّة خانه»* ليحرقوها، لكن لم يحترق إلا موضع واحد لم يكن فيه إلا القليل من البارود، فهدم جانب من القلعة، ولم تصل النار إلى موضع البارود الرئيسي، وفي ذلك اليوم دخلها عبد القادر أفندي الحاج الذي كان منصوباً عليها متسلماً من قبل عزت باشا^(٢).

ولما بلغ إبراهيم باشا ما جرى لعسكر عثمان باشا، أرسل إلى الأمير بشير أن يوجه معه أحد أولاده إلى المتن فاعتذروا فحنق منهم ونهض بعسكره من بتدين إلى بقليع، وبلغ السر عسكر ذلك فأرسل لمحاربتة عمربك النمساوي بعسكر نظامي ولبناني في طريق بحرصاف، وأرسل الشيخ فرنسيس الخازن بعسكر لبناني إلى بحرصاف، وفي الغد قدم السر عسكر بمن بقي معه وسير أمامهم ثلاثة مدافع فالتقاهم إبراهيم باشا إلى درجة بحرصاف، وانتشب بينهم القتال فانكسر إبراهيم باشا بعسكره، ففر العسكر قدامهم حتى بلغ قرنايل، وقتل من الفريقين عدة قتلى، أما الأمير فلما بلغه الخبر نهض بمن معه من الشوير فلما وصل إلى أرض مرحاتا* وبلغه ذلك الانتصار، أبقى جماعته هناك وظل سائراً لمقابلة السر عسكر كي يهنئه، وأما إبراهيم باشا فانهزم وحده ماراً في صليما* يطلب الماء فلما ورده انفرد إلى قرنايل، فحضر إليه الأمير مسعود فأمره أن يكتب إلى جدّه ألا يبالي بما حدث، ثم تجمع إليه عسكره وفي الغد كتب إلى سليمان باشا أن ينهض بعسكره حالاً من الحازمية إلى البقاع، وأما هو فنهض قاصداً بتدين. ولما بلغ سليمان باشا

* المعلقة، قرية في قضاء زحلة، لبنان

(١) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٨

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام، نوفل نوفل - ص ٣١٤

* الجبّة خانه، هي مستودع البارود

* صليما، قرية في قضاء بعبد، لبنان

* مرحاتا، كانت منطقة ظهور الشوير تدعى قديماً مرحاتا وهي كلمة سريانية تعني المروحة،

ذلك الكتاب نهض حالاً ليلاً وترك خيامه ومؤونة العسكر بالعلف وأمتعة كثيرة والمهمات العسكرية ومرضى عسكره، وسرى بمن نهض معه فبلغ أهل الساحل قيامه فتوجهوا إلى الحازمية للغنائم، فنهبوا ما وجدوه.

فلما بلغ الأمير بشير خبر انهزام العساكر المصرية في كل مكان، عزم على التسليم إلى الدولة العثمانية وقرر التوجه إلى صيدا، فأظهر لبحري بك أنه متوجه إلى الشوف ليجمع الرجال وأخذ يتهيا للذهاب، وكتب إلى حفدته المحافظين في قرى المتن وكسروان أن يحضروا حالاً إلى بتدين. وكتب إلى حفيديه الأمير مسعود والأمير مجيد أن يخرجوا من بين عساكر الوزير «إبراهيم باشا» سرّاً ويحضروا إليه مسرعين^(١).

سار بحري بك قاصداً إبراهيم باشا فالتقى به عند عين زحلتا* آتياً بعسكره إلى بتدين فأخبره عن قيام الأمير فرجع بالعسكر وأمر بنهب تلك القرية لسماعه أصوات البارود فيها فنهبها العسكر وسبى بعض نساءها^(٢).

وفي تشرين الأول (أكتوبر) نهض الأمير بشير من بتدين بأولاده الثلاثة وزوجته وحفيده الأمير سعد وبمدبره وبعض المناصب ومعه ماله وأكثر نفائسه، (قيل كانت خزينته ١٨ ألف كيس من النقود الذهبي)، وعند ذلك تسابق أهل دير القمر وبعقلين على نهب ما تركه الأمير في السرايا من أسلحة ومأكّل وأمتعة رغماً عن الوكلاء الذين أقامهم الأمير قبل قيامه. وبات الأمير عند نهر الأولي وأرسل يخبر خالد باشا متسلم صيدا أنه قادم إليه طالباً الأمان، وعند الصباح نصبت له الخيام فقدمت إليه حفدته إلا الأمير مجيد الذي بقي في بلاد بعلبك بين العساكر المصرية وأخوه الأمير ملحم في بتدين، وفي اليوم الثالث دخل الأمير المدينة فاصطفت له العساكر بالموسيقى فتلقاه خالد بك بالإكرام، وأمره أن يتوجه بحراً إلى بيروت فتوجه هو وولده الأمير أمين وحفيده الأمير محمود وبعض المناصب والخدم لمواجهة عزت باشا السر عسكرولما بلغ فرضة بيروت أرسل له السر عسكر أن يختار بلاداً لإقامته ما عدا فرنسا وسوريا ومصر، فاختار جزيرة مالطا، فأذن له، وفي اليوم الخامس عاد إلى المركب مصحباً معه زوجته وأولاده وزوجة ولده الأمير قاسم والأمير خليل وحفيده الأمير رشيد قاسم، ومدبره بطرس كرامة، ونحو ٧٠ رجلاً من خدمه وخزينته ونفائسه، وفي الحال أقلع المركب به إلى مالطة. وبعد أحد عشر شهراً انتقل إلى القسطنطينية حيث

(١) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٩

* عين زحلتا، قرية في قضاء الشوف - لبنان

(٢) الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر الشهابي - ج ٣ - ص ١٠٤٩

أقام فيها إلى أن توفي سنة ١٨٥١.

وأقام إبراهيم باشا في المعلقة ينتظر أمر أبيه محمد علي، وفي أثناء ذلك ذهبت بعض السفن العثمانية لأخذ عكا، فلما وصلت إليها خرجت منها القوات المصرية من غير قتال^(١). وكان الكومندور ورتيبر الإنجليزي عندما ذهب إلى الإسكندرية، قد أخبر محمد علي بقرار الدول الخمس طالبًا منه أن يخلي البلاد التي تغلب عليها، ويرجعها إلى صاحبها وضرب له موعدًا بضعة أيام مهلة، فإن أخلاها في أثناءها تبقى له أيلة مصر ولأولاده من بعده على التوالي، وكذلك تبقى له عكا والطريق من العريش إليها إلى ساحل البحر، وذلك لأنه أخذها بسيفه، فإن أبي الجلاء خلال تلك الأيام تعطى له مهلة أخرى يطلب منه فيها إخلاء تلك البلاد بما فيها عكا أيضًا، فلا تبقى له إلا مصر وما إليها، فإن أصر على عدم الجلاء بعد مرور المهلة الثانية فالدول متفقة على إخراجها من ذات مصر بقوة السلاح، بحيث لا يبقى له موطن قدم في بر الشام، أو في بر مصر.

ومضى الأجل ولم يخرج عسكره من سوريا استنادًا إلى المأمول من فرنسا التي وعدته بالمساعدة، لكن لما حانت المهلة الثانية أتى إعلام من فرنسا إلى محمد علي باشا ينذره بأن فرنسا لا تريد أن تخاصم دول الأرض لأجله^(٢)، فلا يتكلن عليها في شيء من المساعدة، فلما وصل هذا لمحمد علي كتب إلى ابنه إبراهيم أن يرجع إلى مصر من غير قتال، فنهض بالعسكر وذهب إلى دمشق. وفي تلك الأيام أتى من دمشق إلى بيروت فردوس بك العظم أخو زوجة شريف باشا المصري حاكم دار عربستان ليخبر الوالي والسرعسكر بأمر صهره المشار إليه وإبقاؤه واليًا على الشام، فشعر بحري بك بذلك فأخبر إبراهيم باشا عند وصوله إلى الشام، وللحال أمر الباشا فحجر على شريف باشا، ولما سار نحو مصر برًا أصحب شريف باشا معه مقيّدًا في رجليه من تحت بطن الدابة التي ركبها.

وسار إبراهيم باشا بعسكره عن طريق القدم راجعًا إلى مصر، وانصرف كل إلى مكانه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٤١^(٣).

وهكذا انتهى الحكم المصري في سوريا نهاية مأساوية، لكنه ترك آثارًا عميقة كانت السبب الرئيس في بداية التغيير داخل الدولة العثمانية.

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣١٧

(٢) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - مرجع سابق - ص ٣٢٠

(٣) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - مرجع سابق - ص ٣١٨

الفصل الخامس

سوريا من جديد في قبضة العثمانيين

١- العودة إلى ظلم الناس

بعد انتهاء الحكم المصري، عادت الدولة العثمانية إلى سوريا، كما كان عليه الحال من قبل، وتزلف المسؤولون العثمانيون إلى السكان في البداية، وأظهروا أنهم متعاطفون معهم وسيعملون على تغيير الكثير من القوانين وسيبلغون الكثير من الضرائب، لكن ما إن استقرت لهم الأمور حتى عادوا إلى عادتهم القديمة وهي جمع الضرائب من دون رحمة من السكان، ذلك أن دفتردار الحكومة في الآستانة، جهز قائمة ضرائب وأرسلها إلى دفتردار دمشق، وقام هذا الأخير بإرسال الرسل إلى الولايات، ومنها طرابلس التي جاءها الرسول في ٣ أيار ١٨٤١، وهو مزود بقائمة الضرائب الجديدة المتوجبة منذ ذلك التاريخ على سكان الولاية. ونظرًا لجسامتها فقد لاقت هذه الترتيبات المالية الجديدة استياء عامًا لدى الشعب في طرابلس وكافة ملحقاتها^(١).

كما أن اللبنانيين في الشوف والمتن وكسروان وبلاد جبيل، كانوا قد رفضوا مشروع الضرائب الجديد، وهددوا بالثورة وأرسلوا عرائض الاحتجاج للباب العالي، كما أبدى سكان عكار اهتمامًا بالغًا بهذه القضية، وبذلوا كل ما في وسعهم للخلاص من فداحة الضرائب، وقاموا بمساندة العلويين في اللاذقية في ثورتهم ضد السلطات العثمانية^(٢).

وهكذا أدرك السوريون أن خلاصهم من الحكم المصري لم يأت لهم بالراحة، ولذلك بدأوا يفكرون بالخلاص بشكل نهائي من الاستعمار. كما أن الدولة العثمانية نفسها لم تستطع العودة إلى سوريا مثلما كان من قبل، لأنها ارتكبت خطأً استراتيجيًا فادحًا بالاعتماد على الدول الأوروبية التي كانت تعمل بكل جهدها لاستخلاص سوريا منها. ولذلك عندما طلب السلطان عبد المجيد تلك الدول لمساعدته ضد مصر، بادرت مسرعة، لا لكي تعيد سوريا خالصة إلى العثمانيين، بل لتتخذ لها وجودًا فيها.

وكان المسيحيون الذين تحرروا من التمييز وحكم الإقطاع أثناء الحكم

(١) تاريخ عكار- فاروق حبص - ص ١٠٦

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبص - ص ١٠٧

المصري، قد بدأوا يشعرون بوجودهم، وكان قد توفر لديهم السلاح، وعندما عاد الحكم العثماني عاد معه حكم الإقطاع، وراح إقطاعيو الدروز يطالبون بأن تعود أراضيهم لهم، وطالبوا الأمير بشير (الثالث) بتأييد دعواهم تلك لكنه رفض، كما أن المسيحيين رفضوا الإذعان لمطالبهم، ما أدى إلى وقوع قتال بين الطائفتين عام ١٨٤١.

وتدخلت فرنسا وبريطانيا لمنع العثمانيين من فرض سلطتهم على الجبل، الذي تم تقسيمه بضغط منهما إلى منطقتين: درزية ومسيحية، ولكل منطقة منهما قائم مقام يلحق به مجلس يمثل الطوائف الخمس «الدروز والوارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسنة»، واقتصرت تمثيل الشيعة في المجلس بمستشار، لعدم اعتراف العثمانيين بأنظمة شرعية خاصة بالشيعة^(١).

وقد أدى تقسيم الجبل إلى قائم مقامتين، مسيحية ودرزية، وتدخل الدول الأوروبية والدولة العثمانية في الشؤون الداخلية للطوائف، إلى كثير من أشكال الحقد والضغينة بين تلك الطوائف وخاصة بين المسيحيين والدروز، فاشتعلت الحرب من جديد عام ١٨٦٠، وسارعت الدول الأوروبية والدولة العثمانية إلى وأد الفتنة ومعاقبة المسؤولين عنها، وأنزلت فرنسا قواتها على سواحل لبنان في آب من ذلك العام، فخافت الدولة العثمانية من أن تتخذ فرنسا من تلك الأحداث ذريعة لتثبيت وجودها في سوريا، فسعت للتوصل إلى حل وسط يرضيها ويرضي دول أوروبا، فتألفت في بيروت لجنة دولية من ممثلي، فرنسا، وبريطانيا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا، والدولة العثمانية، واستمرت اجتماعاتها ما بين الخامس من تشرين أول ١٨٦٠، حتى الخامس من أيار ١٨٦١، وصدر النظام الجديد للجبل في ٩ حزيران ١٨٦١ وعرف بالنظام الأساس لتصرفية جبل لبنان، وجرى التوقيع الرسمي عليه في إستانبول^(٢).

وكان نظام المتصرفية بداية لمرحلة جديدة لأن جبل لبنان انتقل من الحكم العثماني المباشر إلى حكم ذاتي تشارك في تطبيقه الدول الأجنبية وفق نظام خاص، هو نظام المتصرفية، والذي أصبح لبنان على أساسه، سنجقاً مستقلاً يحكمه متصرف مسيحي يعاونه مجلس إدارة من جميع الطوائف اللبنانية^(٣). وكان نظام المتصرفية نواة أساسية في بناء دولة لبنان الكبير،

(١) تاريخ لبنان الطائفي - علي عبد فتوني - ص ٣٨

(٢) المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل - علي راغب حيدر أحمد - ص ٧٣

(٣) نحو تاريخ فكري - سياسي لشيعة لبنان - حسن غريب - ج ١ - ص ٢٢٠

كما نعرفه اليوم^(١).

٢- دولة إسماعيل خيربك في صافيتا

عندما عادت الدولة العثمانية إلى حكم سوريا فقد تخلت عن كل من تعاون مع المصريين ومنهم خضربن صقر المحفوض في صافيتا، وكانت قد ألغت ولاية طرابلس، وألحقت ألويتها الشمالية أي طرابلس واللاذقية بولاية سوريا، وأصبحت هذه الولاية هي التي تتصرف فيها.

وكان يتم جمع الضرائب في بلاد العلويين من خلال المقدمين في القرى، وكان في قرية اللقبة في قضاء العمرانية «مصياف» شيخ يدعى إسماعيل بن عثمان خيربك، وكان مشهوراً كزعيم لعشيرته «المتاورة»، وهو ينتهي بالنسب إلى قرية متور حيث كان يقيم أجداده من آل خيربك قبل انتقالهم إلى هناك^(٢). وكان متصرف حماة هولوباشا «العابد»، كما يذكر صاحب تاريخ العلويين، قد آخى العلويين، ومنهم شيخ عشيرة المتاورة الذي اكتسب بسبب ذلك شهرة وتوقفاً بين العلويين^(٣).

وقد طلب الشيخ إسماعيل من المتصرف أن يقطع له بلاد العلويين، فوافقه على ذلك، فانتقل الشيخ إسماعيل من اللقبة واستقر في قرية برمانه - الدريكيش واتخذها مقراً لحكمه سنة ١٨٥٤ وسمى نفسه «مشير الجبل»، وشكل لنفسه جيشاً من خمسة وعشرين ألف مقاتل، ورتب هذا الجيش برتب، فكان هو الزعيم، وبعده شخص يدعى «العقيد»، وبعد العقيد شخص يدعى «القنطرة»، وبعد ذلك «المقدمون»^(٤)، وأرسل أعوانه لفرض الأمن والاستقرار في عموم تلك البلاد، فضبطها وأحسن حكمها.

ويتحدث محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك في كتاب ولاية بيروت عن الشيخ إسماعيل بطريقة مضللة لتبرير ما فعلته الدولة بعد ذلك معه حيث يقولان: «وفي سنة ١٨٥٤ انتهز الشيخ إسماعيل فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب الروس، فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان وحشد حوله كثيراً من عشائر العلويين، ثم انتقل إلى صافيتا وسمى نفسه «مشير الجبل»^(٥)، وأخذ يشتغل بإدارة تلك الأصقاع على وجه شبيه بالاستقلال، وقد كانت الدولة يومئذ مرتبكة في الغوائل الخارجية، فرأت أن تجنح معه إلى

(١) نحو تاريخ فكري - سياسي لشبيعة لبنان - حسن غريب - ج ١ - ص ٢١٩

(٢) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هواش - ص ٨٥

(٣) تاريخ العلويين محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٩٣

(٤) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هواش - ص ٨٦

(٥) ولاية بيروت - محمد تميم بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٨

السلم وأقطعتة تلك الأنحاء ونصبته واليًا عليها»^(١).

وكما نرى فإن مؤلفي كتاب ولاية بيروت يزعمان أن الشيخ إسماعيل تملك بلاد العلويين بالقوة، وأن الدولة كانت مرتبكة في الغوائل الخارجية فرأت أن تجنح معه إلى السلم من أجل ذلك.

ويقول صاحبها هذا الكتاب أيضًا: «وما لبث الوالي الجديد إلا وأغرق في الترف، وتسرب إلى البذخ حتى كان قصره مختصر بلاط سلطاني»^(٢).

ولا شك أن هذا الكلام لا دليل عليه من الواقع، إذ لا يوجد في بلدة برمانه - دريكيش لأي أثر، في الوقت الحاضر، لذلك القصر، وأيضًا كيف استطاع الشيخ إسماعيل في سنة واحدة أن يشيد قصرًا وأن يجعله مثل قصور آل عثمان في إستانبول ١٩

ويقول صاحبها كتاب ولاية بيروت: «ورأى إسماعيل بك خضوع ١٢٠ ألفًا من سكان هذه الجبال لحكمه المطلق، ورأى في نفسه من البأس والقوة ما مكنه من جميع أماله، فرتحه ذلك السلطان وغرته تلك المكانة، فاستسلم إلى الطمع، ولذلك طلب من الدولة أن تقطعه قلعة حصن الأكراد*، يضيفها إلى ما في حوزته من البلاد، ونجح طلبه وأسعف، لكن نهض سنيو سوريا وأظهروا مخالفتهم على إقطاع تلك القلعة الخطيرة إلى العلويين، وجاهرُوا بالثورة والعصيان، وجرت بين الطائفتين حروب متعددة»^(٣).

«وكان يقود السنيين في تلك الحروب «عبود بك» الدندشلي. أما الدولة فقد آزرت السنيين*، وأمدتهم بخمسة آلاف جنديًا بقيادة طاهر باشا»^(٤).

وهنا يتبين خطأ الكاتبين، فبينما هما يقولان من قبل إن الشيخ إسماعيل فرض نفسه بالقوة على الدولة، لكنهما يعودان فيقولان هنا إنه طلب من

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك و محمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٨

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك و محمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك و محمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

* يشكل العلويون غالبية سكان قضاء قلعة حصن الأكراد، وفق مؤلفي كتاب «ولاية بيروت» في الحديث عن السكان في هذا القضاء عندما زارا تلك المنطقة عام ١٩١٥، حيث يقولان: «إن عدد المسلمين في هذا القضاء يشمل ثلثي مجموع السكان، ومن الخطأ الظن بهذا الجمع الذي يبلغ بعدده زهاء (٣٠,٠٠٠) نسمة، أنه متجانس، لأن من هؤلاء (٢٠٠٠ - ٣٠٠٠) سنيون، والباقي كلهم نصيريون، ثم يفترق السنيون إلى (دنادشة، وزعبية، وتركمان)، أما النصاري فيسكنون القرى الكائنة في أنحاء (وادي النصارى) وعددهم بقرب من ١٠,٠٠٠ نسمة.» ج ٢ - ص ٣٠٧ و ٣٠٩.

* مساندة الدولة العثمانية للسنيين ضد العلويين تدل على أنها لم تكن قد تخلصت من عقدة الطائفية والمذهبية رغم صدور قوانين قصر الزهور عام ١٨٣٩، والتي تعهد فيها السلطان عبد المجيد أن يساوي بين رعيته تحت ظل القانون من دون تمييز.

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك و محمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

الدولة أن تقطعه قلعة الحصن فوافقت على طلبه، فكيف توافق الدولة على طلبه إن لم يكن حاكماً شرعياً من قبلها، وإن لم يكن يدفع لها الضرائب المقررة في مواعيدها؟ وأيضاً فإن الكاتبين يخفيان السبب الحقيقي الذي دفع الدندشلية إلى التمرد، فزعموا أن الشيخ إسماعيل طلب من الدولة أن تقطعه قلعة حصن الأكراد ليضيفها إلى ما في يده، وأن الدولة وافقت على طلبه، وأن السنيين أظهروا مخالفتهم على إقطاع تلك القلعة الخطيرة إلى العلويين.

والحقيقة أن قلعة الحصن هي مجرد أثر تاريخي لا فائدة مادية منها، لكن بين قلعة الحصن وبين بلاد الشيخ إسماعيل في صافيتا يوجد جبل الشعرة الذي فيه أكثر من مئة قرية علوية، ومنذ أن بدأ الحكم العثماني لبلادنا فرض الدندشلية حكمهم على هذا الجبل وجعلوه إقطاعاً لهم يستعبدون سكانه العلويين، ولما رأوا أن هذا الإقطاع الثمين راح من يدهم إلى الشيخ إسماعيل بدأوا يثيرون القلاقل واتصلوا بالمتنفذين ممن هم على شاكلتهم في الداخل السوري، وأوصلوا صوتهم إلى السلطان في إستانبول، وتحدثوا عن حركة عصيان علوية واسعة يقودها الشيخ إسماعيل خيربك، مع أنه لم يكن عاصياً بمعنى الكلمة، فأصدر السلطان الأمر بقتل الشيخ إسماعيل.

وتظهر رسالة مرسلة من القنصل البريطاني العام عن طرابلس مور Moore إلى الوزير البريطاني المفوض في الدولة العثمانية كونت دي ملمبوري، بتاريخ ٢٧ تشرين الأول سنة ١٨٥٨ تفاصيل مهمة عن تلك الأحداث، تقول الرسالة: «أتشرف فأنبئكم بأنه قد حدثت منذ بضعة أسابيع قلاقل مهمة في جبال النصيرية نشأت عن الوسائل التي تذرعت بها الحكومة التركية لإخضاع أهاليها النازعين إلى الثورة وعن استيفاء الضرائب المتأخرة، إن الزعيم الأكبر في هذه الحركة هو إسماعيل خيربك الشهير، وقد أثارت عليه الحكومة التركية الأهالي المسلمين في النواحي المجاورة، وفي الوقت ذاته أرسلت عليه منذ خمسة عشر يوماً قوة من اللاذقية قوامها ثمانمائة من الجند النظامي، وأربعمائة غير نظامي بين فرسان ومشاة، فهاجمت أطراف بلاد النصيرية في حين أن قوة أخرى بقيادة مصطفى باشا زحفت من دمشق وهاجمتهم من جهة الشرق، فاشتبكت القوات التركية والنصيرية في واقعيتين فاز في الأولى الأتراك وفي الأخرى النصيرية، وقد غادر طاهر باشا أمس بيروت ومعه ستون جندياً نظامياً وهم بقية حامية الموقع المذكور، للانضمام إلى مصطفى باشا، وعدا ما تقدم فإن البارجة الحربية التركية غادرت طرابلس للاشتراك في تضيق حلقات الحملة على الثوار، وقد تلقيت هذا الصباح كتاباً من المستر «مرسر ألفيس Mercer Alves» قنصل، أتشرف بإرسال صورته إليكم في

طيه ومنه بيان أن خيربك قد رأى ذاته في موقف حرج فطلب إلى معتمدي إنكلترا تدخلهم لاتقاء الخطر، وكان أن تعجلت بإيقاف خورشيد باشا على طلب خيربك حباً بمصلحة الحكومة التركية المحاقة الآن بالمصائب من كل جهة، فاقتبلها دولته بروح الولاء ووعد بأن يقاضي خيربك بملاء النزاهة إذا استسلم مختاراً إلى السلطة العسكرية. وقد أبلغت القنصل، مرسر، المشار إليه نتيجة مساعي وأني مرسل لسيادتك في طيه نسخة من تعليماتي له»^(١).

ومن هذه الرسالة يتبين أن الشيخ إسماعيل عندما أدرك خطورة الموقف، حاول أن يحصل على المساعدة من الإنجليز، لكن القنصل العام موررفض تقديم المساعدة، وبدلاً من ذلك أخبر الوالي التركي خورشيد باشا بالأمر بزعم أن الدولة العثمانية واقعة بالمصائب ولا تتحمل فتنة أخرى، وقد وعد خورشيد باشا بتنظيم محاكمة عادلة للشيخ إسماعيل خيربك إذا استسلم من تلقاء نفسه إلى السلطة العسكرية.

وتظهر رسالة أخرى مرسلة في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٨٥٨ من القنصل «مرسر ألفيس» في بيروت إلى القنصل العام «مور» في طرابلس، أن الشيخ إسماعيل طلب منه مساندة بلاده له، لكن هذا القنصل رفض ذلك، وربما طالبه بالنزول على حكم الدولة العثمانية فوافق الشيخ إسماعيل على ذلك شريطة أن تتم محاكمة أعدائه مثله. وتقول الرسالة: «أتشرف بإيقافكم على بلاغ تلقيته الآن من إسماعيل خيربك وسأنتظر رأيكم فيه قبل مجاوبته عليه، لقد زارني المسيو نوفل (نسيب سليم) لدى عودته من صافيتا، إجابة لرغبة إسماعيل خيربك، ثم كان أن أرسل إلي هذا الأخير كتاباً مع فلاح مكرم، ومن المؤكد أن خيربك في مأزق ضيق، فالجنود التركية مستعدة لمهاجمته من كل جهة وجميع الأهالي المسلمين ثائرون عليه، أما المسيحيون فيمدحونه والظاهر أنه يحسن إدارة ناحيته بعض الإحسان، ويدفع دائماً المال الأميري، وهو يود أن تمد إليه يد المساعدة فتضمن له عدل حكومته في مقاضاته، وعرض أن يذهب إلى بيروت ويخضع للحكم إذا ما فعل أعداؤه مثله، وهو مطاع نافذ الكلمة في مواطنيه النصيرية، ولما كانت الجنود أو شكت أن تغزو بلاده وكان الوقت ثميناً فأنا أنتظر بذهاب الصبر أوامركم العاجلة لأعرف ما أقول أو أفعل»^(٢).

وكما رأينا فإن القنصل في بيروت مرسر أرسل رسالة إلى القنصل العام في

(١) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠ - ترجمة فليب وفريد الخازن - ج ١ - ص ٣٣٩

(٢) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية - فليب وفريد الخازن - ج ١ - ص ٣٤٠

طرابلس وجاءه الرد بأن عليه أن يبلغ خورشيد باشا في بيروت، عن رسالة الشيخ إسماعيل خيربك. وهذا ما تضمنته رسالة أخرى أرسلها القنصل مرسر ألفيس، إلى مور القنصل العام بتاريخ ٢٧ تشرين الأول سنة ١٨٥٨، تقول الرسالة: «إني ائتماراً بإشارتكم أطلعت خورشيد باشا بطريقة ودية على اقتراح خيربك فأجاب دولته بعد أن أفاض في بيان أعمال «البك» المذكور، أن عليه أن يفاوض طاهر باشا الموجود في طرابلس ويستسلم إليه فهو مخول ملء السلطة عن السر عسكرومنه بالقطع في أمره، وإذا ما جاء بيروت فإنه يسرع في النظر في قضيته ولا يسمح لأن يُظلم وزاد بأن لكم أن تبلغوا إسماعيل خيربك ما ذكر»^(١).

ويبدو أن قنصل إنجليزي آخر ويدعى «برانت Brant» قد سمع بالواقعة فأرسل رسالة إلى السير «ه. بولفر H. Bolver»، عن دمشق في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٨٥٨، تقول الرسالة: «أتشرف فأعلم سعادتكم بأن قد حدث منذ مدة خلاف مهم بين النصيرية الذين يرأسهم الشيخ إسماعيل خير بك، والدندشلية* وهي قبيلة إسلامية قوية يرأسها عبود آغا متوطنة ذات الناحية التي تقطن فيها النصيرية لكنها لا تعترف لها بالسيادة، فنشأ عن ذلك نزاع وقتال استمرت نارهما مستعرة بينهما مما جعل هذه البلاد في حالة قلق خطيرة، وقد أرسل طابور من المشاة إلى حمص لنشر سرادق الراحة في ذلك القضاء»^(٢).

وأرسل نفس القنصل رسالة أخرى في ٢٥ تشرين الأول، تقول الرسالة: «أتشرف فأخبر سعادتكم بأن قد ورد نبأ في ٢١ الجاري بحدوث قتال بين إسماعيل خيربك زعيم النصيرية، والدندشلية وكانت الجنود النظامية والباشبوزق* تناصر هؤلاء الأخيرين على نفقة الحكومة فقتل في هذه المعركة كثيرون، وفي ٢٢ الجاري أنفذ طابور آخر قوامه ستمائة رجل من المشاة وقوة أخرى من فرسان الباشبوزق يتراوح عددها بين المائتين إلى الثلاثمائة فارس بأمر الزعيم المشهور حسن يازجي، إن الجنود التي ترسل من بيروت مع القوات الموجودة في محل الحادثة بين منظمة وغير منظمة، يقدر عددها بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠، أما إسماعيل خيربك فيرجح أنه يستطيع أن يجمع زهاء

(١) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان - ج ١ - ص ٣٤١

(٢) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان - ج ١ - ص ٣٤١

* الدندشلية، قبيلة تسكن في تلكخ وبعض المناطق المحيطة بها. كان مؤسسها أحد القادة الأتراك الذين حصلوا على إقطاع واسع عند بدء الحكم العثماني لبلادنا، في تلك الناحية، ومن ثم أصبح أولاده وأحفاده زعماء إقطاعيين يقرضون سلطانهم وجبروتهم على الفلاحين الفقراء والمعدمين. وظل هؤلاء الإقطاعيون يمارسون ظلمهم حتى حدوث الإصلاح الزراعي.

* باشبوزق أو باشي بوزوق، نوع من العساكر الغير نظاميين في الجيش العثماني، وأغلبهم من الألبان والأكراد والشركس.

سنة آلاف رجل من قبيلته، ولربما انضمت إليه أيضًا بعض قبائل موالية له والمسيحيون أيضًا خوفًا من أن يحرق قراهم إذا أبوا مساعدته. إن النصيرية يظلمون كثيرًا المسيحيين وينهبونهم، كما ذكرت لكم في شهري نيسان وأيار من الربيع المنقضي، وكان أن طلبوا من الباشا أن يحميهم فلم يجبههم إلى طلبهم بحيث أمسوا غرضًا لاعتداءات النصيرية، ولا مناص لهم منهم بغير الانضمام إليهم مكرهين. ومن المرجح أن القوات الحكومية لا تقوى على قمع عصيان إسماعيل خيربك، ولربما أصابتها حطمة حتى إذا ما كسرت لا يُعلم إلى أية درجة تمتد الثورة، ومن المؤكد أن القوات التي بأمرة السرعسكر لا تكفي لإعادة مياه السكينة إلى مجاريها إذا لم تعزز كثيرًا»^(١).

وكما نرى فإن هذه الرسائل لم تحدد سبب اندلاع القتال بين الشيخ إسماعيل بك والدندشلية، لكنها تشير بوضوح أن الدولة العثمانية وقفت إلى جانب الدندشلية ضد العلويين في ذلك الخلاف وأرسلت القوات للقضاء على الشيخ إسماعيل.

كما تشير رسالة إلى أن الشيخ إسماعيل كان ملتزمًا بدفع الأموال للدولة العثمانية ولم يكن متمردًا عليها، وأنه كان يحسن إدارة مقاطعته وأن المسيحيين كانوا يمدحونه لإحسانه إليهم. كما تبين بعض هذه الرسائل أن الشيخ إسماعيل طلب مساعدة الإنجليز عبر وسيط مسيحي محلي يدعى «نوفل نسيب سليم»، وكان هذا، على ما يبدو، مقرَّبًا من الشيخ إسماعيل خيربك، لكن الإنجليز الذين كانوا على علاقة طيبة، آنذاك، بالدولة العثمانية، لم يشاؤوا أن يقدموا دعمًا للشيخ إسماعيل، لكي لا يفتحوا جرحًا في جسد الدولة العثمانية التي كانت آنذاك في موقف خطر بسبب التهديدات الروسية المستمرة لها، وكانت بريطانيا قد وقفت مع هذه الدولة ضد روسيا في حرب القرم التي استمرت ثلاث سنوات من عام ١٨٥٣ حتى عام ١٨٥٦ ولولا الدعم البريطاني والفرنسي الهائل للعثمانيين لكانت روسيا قد أخذت القسطنطينية. وأسقطت إمبراطورية بني عثمان من ذلك الوقت. ولهذا السبب كان من مصلحة الإنجليز أن يحافظوا على سلامة الدولة العثمانية لكي لا تستغل روسيا الموقف وتتدخل لتحقيق مصالحها. وبالتالي فالظروف الدولية لم تخدم الشيخ إسماعيل، وربما لم يكن هو قارئًا للواقع الدولي أو أنه لم يكن محاطًا بمستشارين يقدمون له الرأي المناسب، أو أنه لم يكن يسعى إلى الاستقلال الحقيقي، فلو أنه استنجد، آنذاك، بروسيا لكانت أنجده وهي التي كانت تبحث عن كل وسيلة لتقويض الدولة العثمانية.

(١) مجموعة المحررات السياسية عن سوريا ولبنان - مرجع سابق - ج ١ - ص ٣٤٢

لكنه بدلاً من ذلك ذهب إلى الإنجليز حلفاء العثمانيين لا لكي يساعده، على الأرجح، في تثبيت موقفه الاستقلالي، بل ليساعده في تثبيت علاقته مع العثمانيين، فتركه هؤلاء لمصيره ولم يهتموا به، فداهمته الجيوش العثمانية من كل جانب، وجدّ طاهر باشا في طلبه، كما يقول صاحب كتاب ولاية بيروت، حتى أدخله قرية «اللقبة» التي هي مسقط رأسه حيث قتله فيها أحد العلويين^(١).

لكن الرسائل القنصلية التي وقفنا عليها تقدم رواية مخالفة عن كيفية قتل الشيخ إسماعيل خيربك، ففي رسالة من القنصل برانت إلى، ه. بولفر عن دمشق بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٨٥٨ حيث تقول هذه الرسالة: «أتشرف فأنبئ سيادتكم بأن قد جيء بعد ظهر أمس إلى السراي برأسي إسماعيل خيربك وشقيقه نصيف بك، فعرضاً على أنظار أعضاء المجلس، إن رجال إسماعيل بك غادروه ولم يبق معه سوى توابعه فلبجاً إلى عين الكروم في قضاء صافيتا وهناك قاوم جنود مصطفى باشا فأحاطت به كالسوار وبعد مقاومة ضعيفة أسرم مع شقيقه وقطع رأسهما، وجاء في كتاب آخر أنه قتل برصاصة قبل أن تقطع رأسه، وروي أيضاً أن شقيقه البكروقد كان في جهة أخرى سقط في ذات اليوم ميتاً بينا هو يدخن قبيل القبض على شقيقه إسماعيل بك، على أن هذا الخبر غير ثابت وقد اتصل بي أن أصغر أشقائه لا يزال على قيد الحياة والذين قتلوا تركوا أولاداً بحيث أن العائلة ما برحت تحفظ مالها من الكلمة النافذة، ويوجد عائلة نصيرية أخرى شهيرة في القضاء المذكور تدعى سمسين «شمسين» فهذه انحازت إلى قواد السلطان ومن المرجح أن سيولي زعيمها حكم صافيتا مكافأة لها»^(٢).

وفي رسالة أخرى مرسلة من القنصل مرسر ألفيس في طرابلس إلى مور القنصل العام في القدس بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٨، تقول الرسالة: «أتشرف فأنبئكم بأن إسماعيل خيربك من صافيتا قُتل في الأسبوع الماضي في كرم العيون في مقرعته علي الشلي حيث كانا التجأ معاً عند دنو الجنود التي بأمر طاهر باشا منهما وكانت الحكومة العثمانية قد أباحت دم علي الشلي فرضي أن يقتل إسماعيل خيربك فيغنم عفوها وأموال القتيل، وعلى هذا الاتفاق طوقت الجنود دار علي الشلي لكنها جزعت من مهاجمته لحصانة موقعه وكان أن علي الشلي أخبر إسماعيل بك أن أشقائه قتلوا وبينما هو قيد تأثير هذا الخبر غدر به وأفرغ بندقيته في خاصرته وتعجل أحد رجاله بأن

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

(٢) مجموعة المحررات السياسية عن سوريا ولبنان - مرجع سابق - ج ١ - ص ٣٤٨

قطع رأسه ثم أن طاهر باشا أسر أولاده وكلهم صغار ففكر علي الشلي بأنهم إذا ما كبروا تذكروا دماً يستصرخهم إلى الثأر المنيم فاسترجعهم وقتلهم، وقد اتصل بي أن قد أرسل رأساً إسماعيل بك وشقيقه إلى دمشق، أما نساؤه فاقتسمهن علي الشلي وسائر رجاله، وهكذا كان ختام هذه المأساة يا حضرة السير. وأفكر أنه لو لم يصّر طاهر باشا على رفض مقابلي إصراراً كله عناد بل يكاد أن يكون مهيناً لكانت انتهت مسألة هذا المنكود الحظ بعد توسطكم له على غير هذا المنوال»^(١).

ويتبين من رسالة القنصل برانت إلى هـ. بولفر، أن العثمانيين جاؤوا برأس الشيخ إسماعيل مع رأس شقيقه ناصيف إلى السراي الحكومي في دمشق يوم ١٥ تشرين الثاني ١٨٥٨، وأن الجيش العثماني حاصره في قرية عين الكروم في قضاء صافيتا، وربما وقع القنصل في خطأ لأن عين الكروم موجودة في الملزق في منطقة سهل الغاب وليس في قضاء صافيتا، ويذكر برانت في رسالته أيضاً، أنه تم أسر الشيخ إسماعيل مع شقيقه وقطع رأساهما، ويذكر أيضاً أنه جاء في كتاب آخر أنه قتل برصاصة قبل أن تقطع رأسه، وأن أصغر أشقائه لا يزال على قيد الحياة والذين قتلوا تركوا أولاداً بحيث أن العائلة ما برحت تحفظ مالها من الكلمة النافذة، كما يذكر برانت، أن عشيرة شمسين قد ساندت الدولة العثمانية ضد الشيخ إسماعيل، وكان برانت يعتقد أن الدولة العثمانية ستضع قائد تلك العشيرة مكان الشيخ إسماعيل في صافيتا، لكن خاب توقعه فقد كان للدولة العثمانية ترتيب آخر للعلويين كما سيأتي بيانه لاحقاً.

أما رسالة القنصل مرسر ألفيس فتقول، إن الشيخ إسماعيل خير بك لجأ مع عمه علي الشلي إلى منزل هذا الأخير في قرية كرم العيون «عين الكروم» وكان طاهر باشا قد دنا منهما بجنوده وعند ذلك قام علي الشلي بقتل الشيخ إسماعيل كما قتل أولاده لكي لا يثأروا منه عندما يكبرون، وأخذ أموال الشيخ إسماعيل واقتسم نساءه مع رجاله.

وهكذا فإن القنصل مرسر ألفيس هو الذي ذكر وحده غدر علي الشلي بالشيخ إسماعيل، وأنه هو الذي قتله وقتل أولاده وأخذ نساءه وأمواله طمعاً في دنيا زائلة. ويتوافق كلام هذا القنصل بعض الشيء مع كلام صاحبي كتاب ولاية بيروت الذي قال إن الشيخ إسماعيل قُتل من قبل أحد العلويين في قريته. وكانت كل عشائر العلويين تخضع لحكم الشيخ إسماعيل، وكان هذا هو الحكم الوحيد الذي جمع كل العلويين تحت راية واحدة، ذلك أن من

(١) مجموعة المحررات السياسية عن سوريا ولبنان - مرجع سابق - ج ١ - ص ٣٥٠

أسباب ضعف العلويين أنهم لم يكونوا يخضعون لقيادة واحدة، كما كان عليه الحال عند الإخوة الدروز في جبل حوران. مما كان يسهّل على أعدائهم النيل منهم.

٣ - نظام الأسرات

يذكر محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك في كتاب ولاية بيروت، «أن الحكومة أخذت إدارة النصيريين، بعد قتل إسماعيل خيربك، على عهدها، وأسست في بلادهم الأسر الإدارية ومع هذا لم يخلص النصيريون من الظلم والتعسف، ولم تكن ثوراتهم في ١٨٣٤ و ١٨٧٠ إلا من سوء تلك الإدارة»^(١).

ومن هذا النص يتضح أن الدولة العثمانية قررت إلغاء نظام الالتزام من بلاد العلويين وألغت حكم المقاطعات، وابتدعت حكمًا جديدًا للعلويين أسندت مهمته لشيوخ العشائر، «وكان لكل عشيرة، كما يقول صاحب ولاية بيروت، بيت انحصرت فيه الرئاسة وانتقلت لأفراده بالإرث كابراً عن كابر ولا تزال تتسلسل، ولهؤلاء الرؤساء سلطة عظيمة وسيطرة قوية، ولكل من الرؤساء أقارب مربوطون به وعليه تكون رئاسته على أسرته وعلى عشيرته معاً»^(٢).

ويتبين من هذا النص، أن الزعامات العشائرية قديمة بين العلويين، لكن، وفق ما وقفنا عليه من حقائق فإنه لم يكن هناك زعامات عشائرية قبل ابتداء الحكم العشائري، ولم يكن هناك أسرمممة بالدين، لأن العلويين كانوا، في غالبيتهم، فقراء بحكم التمييز الذي تعرضوا له لقرون طويلة، لكن كان هناك عائلات مميزة دينياً نشأ فيها علماء أجلاء، وبالتالي، فالعائلات التي تمّ انتخابها لتتولى زعامة العشائر، لم تكن، في معظمها، مميزة ولم يكن لها قوة، بل إنها اكتسبت القوة والتميز بعد أن أسندت لها الدولة منصب الرئاسة وبعد أن وضعت تحت تصرفها القوة العمومية، وقد انحصر ذلك الحكم في ست عشائري «الحدادون، والخياطون، والنواصرة، والرسالنة، والمتاورة والشمسين». وشذت عشيرة «البشارغة»، التي تزعم الانتماء بالنسب إلى آل البيت، في مناطق القدموس، والشيخ بدر، والقليلة، وجبل، ورفضت النظام العشائري، وظل لها مقدمون ومشائخ، ومنها ظهرت حركة

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٣٨

* بنو حامد، قرية رأس الخشوفة، صافيتا، ينتسبون إلى عالم الفلك الشهير الشيخ يوسف مي، وأتقن عنه هذا الفن خليفته الولي العظيم الواسع الرحمة الشيخ محمد يوسف المشهور كأبيه في الزهد والعبادة والتفقه، الشيخ عبد الرحمن الخير، يقظة المسلمين العلويين، مجلة النهضة عام ١٩٣٧

* بنو جابر، قرية الطليعي، صافيتا - ينتسبون إلى الشيخ عباس جابر الذي كان مشهوراً بالعلم والعبادة، الشيخ عبد الرحمن الخير، يقظة المسلمين العلويين - مجلة النهضة - عام ١٩٣٧

المقاومة، بقيادة الشيخ صالح بن الشيخ علي سليمان - المريقب، ضد المحتل الفرنسي. وكانت رئاسة عشيرتي الحدادين والخياطين اللتين هما أكبر عشائر العلويين، كما يقول كتاب صاحب ولاية بيروت، منحصرة في بيتين، الأولى رئاستها في «بني حامد*» ورئاسة الثانية في «بني جابر*»، وكان للأسرة الأولى مقدار مئة من الأعضاء، والثانية لا يقل عدد أفرادها عن مئة وخمسين فردًا، ومجموع الأسر الست التي أحرزت الرئاسة على عشائر العلويين يقرب من ثلاثمئة فرد^(١).

وكانت الأملاك الموجودة في أيدي هؤلاء الأفراد تشمل نصف القضاء، وكان دخلهم الشهري وافرًا جدًا، فرؤساء الحدادين والخياطين منهم يتراوح دخلهم بين (١٠٠٠) و (٥٠٠) ليرة في السنة، ودخل كل من رؤساء المتاوردة والنواصرة والرسالة والشمسيين، لا يقل عن (٧٠٠ - ٨٠٠) ليرة^(٢).

وكان لهؤلاء الزعماء سلطة لا محدودة، فكل واحد منهم كان يحجي ويميت، ويعرّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وتلك السلطة التي كانت في أيديهم جعلتهم «مرجعًا للخلق في جميع شؤونهم، وهم مولجون بحل النزاع والخلاف الذي يحدث بين أناسهم بحسب العرف والعادات، وهذه القدرة جعلتهم على درجة عظيمة من المكانة وهم مع ذلك يנהجون سبل المجاملة ويتوسلون بما يربحون به قلوب أفراد عشيرتهم ولا يألون جهدًا بإكرام الناس وإعزازهم، وبهذا تسنى لهم توسيع دائرة السلطة حتى كانت لهم هذه المكانة، وهذا يدل على ما لهؤلاء الرؤساء من التضلع في إدارة الناس، وامتلاك مقاليدهم، ولا يبعد عنهم أيضًا التقرب إلى مأموري الحكومة والحلول بهم ليتمكنوا من تثبيت سلطتهم بموازرة القوة العمومية»^(٣).

ولأن عشيرتي الحدادين والخياطين هما الأكثرية بين العلويين، فقد كان زعماء هاتين العشيرتين يحملون لقب «أفندي»، أما زعماء باقي العشائر، فكل منهم كان يحمل لقب «أغا»^(٤).

ويذكر محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، أن رؤساء العشائر كانوا «مطبوعين على السخاء والكرم وإغاثة الفقراء والمساكين ولذلك ترون منازلهم مفتحة الأبواب لكل ذي حاجة، واعتادوا على بذل الأموال والعطايا على قدر ما تصل أيديهم إليه وأصبحت هذه العادة سجية مستقرة فيهم،

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٣٨

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ص ٣٣٨

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٣٩

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ص ٣٣٨

وهذا هو السبب الوحيد لعدم تراكم الثروة النقدية لديهم»^(١).

وربما كان ذلك حقيقة، لكن هؤلاء الرؤساء كان يكفي الواحد منهم ذلك الخضوع الهائل من أبناء عشيرته له، وانقيادهم إليه من دون تردد أو سؤال، وهم في حقيقة الأمر كانوا مثل ملوك الطوائف الذين أقامهم الإسكندر في بلاد فارس بعد سيطرته عليها، وقد سبّبوا أكبر أذى للعلويين، وساهموا في زرع الشقاق والتفرقة بين أبناء الشعب الواحد، ذلك أن العشائر العلوية ليست مثل العشائر المعروفة التي تنتسب إلى جدّ واحد، بل هي عشائر بالاسم فقط، فالعلويون هم شعب سوري، وهم لم يعرفوا الإسلام إلا كمذهب.

وينقل صاحبها ولاية بيروت عن المؤرخ البلجيكي الأب هنري لمنس، قوله: إن العلويين كانوا يدينون بدين النصرانية قبل الإسلام^(٢). لكنّ صاحبي ولاية بيروت لا يأخذان بهذا الرأي بل يقولان: «منذ أيام الرومان كان «النصيريون» موجودين، ولشدّ ما أمعنت النصرانية في الانتشار بين الوثنيين في سوريا، لكنها لم تستطع ولوج تلك الجبال على النصيريين، فكانوا في معزل عن تبشيرها. ويبرهن الكاتبان على صحة ما يدعيانه، أنه لا أثر لوجود الكنائس والبيع في بلاد النصيريين»^(٣). ويقولان أيضًا: «أغلب الظن أن المسلمين أيضًا لم يتمكنوا من اكتساح جميع هاتيك الشواهد في القرن السابع الميلادي، واسم النصيرية لم يدخل التاريخ إلا في القرن الحادي عشر الميلادي»^(٤). كما أنهما يقولان: «كانت اللغة السريانية متفشية بين النصيريين قبل مهاجرة الإسماعيليين في أوائل القرن الحادي عشر، ولم تزل بعض كلمات تلك اللغة موجودة إلى الآن»^(٥).

وما كتبه كاتبها ولاية بيروت يمثل عين الحقيقة لجهة أن العلويون لم يكونوا مسيحيين ولا يهودًا، بل كانوا، على الأغلب، «ميثرائيين»* مثل الديانة القديمة للدولة الرومانية. أما قولهما، إن اللغة السريانية كانت متفشية

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ص ٣٣٨

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٦

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٧

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٧

* الميثرائية، Mithraism، هي ديانة رومانية باطنية، تركز على الإله «ميثرا» تأثر هذا الدين بعبادة الإله الزرادشتي «ميثرا» كانت هذه الأسرار شائعة بين الجيش الروماني في الفترة من القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادي. وقد قضى المسيحيون على هذه الطائفة، التي كان مركزها روما، وكانت ذائعة الصيت في النصف الغربي من الإمبراطورية. وإلى الجنوب في شمال أفريقيا، وإلى الشمال حتى بريطانيا، وباتساع أقل في سوريا في الشرق». ويكيبيديا - الموسوعة الحرة.

(٥) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٠٩

بينهم قبل هجرة الإسماعيلية إلى بلادهم في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، فهو قول غير صحيح، لأنه لم تحدث هجرات إسماعيلية من بلاد أخرى إلى بلاد العلويين، كما مرّ معنا سابقاً، والصحيح أن العلويين تعربوا بعد تعريب الدواوين في سوريا خلال الحكم الأموي، وتركوا لغتهم الآرامية التي لم يبقَ منها سوى أسماء القرى والأماكن في جبالهم، كما أنهم تاهوا عن قبائلهم القديمة بسبب تقادم السنين واختلاف الدول، وانضاف إليهم بعض العرب الذين وفدوا من مناطق أخرى. وعلى الأغلب أن هذه التجمعات التي يطلق عليها اسم عشائر، نشأت بينهم بدءاً من القرن السادس الهجري، وربما كان بعضها يعبر عن تجمّع بشري في مكان معين، مثل البشارغة نسبة إلى بشرافي في جبلة^(١). والمتاورة منشأهم قرية «متور»^(٢)، والشمسيون هم فخذ من الحدادين ومقرهم في قضاء صافيتا^(٣). أو ربما كانت تعبر عن أهل الدين والشرعية، مثل الخياطين نسبة إلى الشيخ علي الخياط^(٤)، أي الناصح والمؤلف بين القلوب، لأن كلمة خياط تعني في اللغة «الناصح»^(٥)، وربما كانت تعبر عن أهل القوة والمكانة، مثل الحدادين نسبة إلى الشيخ محمد الحداد^(٦)، والحداد في اللغة، يدل على الرجل المهيب الذي يحتاج الناس إليه، كما يدل على صاحب الجند للحرب لأن النارب حرب وسلاحها الحديد^(٧). أو ربما كانت منسوبة إلى شخص معين مثل «النواصرة» نسبة إلى جدهم ناصر، و«الرسالنة» نسبة إلى جدهم رسلان، والاثنان ينتسبان إلى عشيرة الكلبيّة، وهي من أكبر العشائر وأهلها ساكنون في قلب البلاد العلوية^(٨).

ومن جانب آخر فإنه ليس كل المنتسبين إلى عشيرة معينة يعودون بالنسب إلى الجد الأول لهذه العشيرة، بل هناك من يعود بنسبه إلى جد آخر أو إلى مكان آخر، ومع ذلك فهو منسوب إلى تلك العشيرة التي هو الآن جزء منها. ومن هنا فإن العشائر العلوية تكاد أن تكون عشائر بالاسم فقط، أما في الحقيقة، فالعلويون شعب، والعشيرة، بمفاهيمها تلك، شيء طارئ

(١) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٥١

(٢) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٥٠

(٣) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هوش - ص ٨٥

(٤) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٥٠

(٥) تفسير الأحلام - ابن سيرين - ص ٢٥٣

(٦) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٥٠

(٧) تفسير الأحلام - ابن سيرين - ص ١٧٠

(٨) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٤٩

عليهم، ومع ذلك فقد تمّ تضخيم الحدث العشائري إلى أقصى درجة، حتى أصبحت عشيرة كل واحد من العلويين هي منتهى أحلامه وتطلعاته، وكان أيضًا يتم بدل قرى بقرى أخرى، كأن تكون هناك قرية خياطية قريبة من مناطق الحدادين، وقرية حدادية قريبة من مناطق الخياطين، فكان يتم بالاتفاق بين زعمي العشيرتين وبإشراف مباشر من السلطات العثمانية، إبدال هاتين القريتين، فتصبح القرية الحدادية خياطية والقرية الخياطية حدادية، وقد حدث الكثير من عمليات الإبدال تلك، وكانت القرى المبدلة تنتسب إلى العشيرة الجديدة وتصبح جزءًا لا يتجزأ منها.

ورغم أن الدولة العثمانية قد أقامت جهازًا إداريًا في عموم ولاياتها، منذ عام ١٨٦٠، يبدأ من المختار الذي يتولى إدارة القرية الصغيرة، إلى الوالي الذي يتولى إدارة الولاية، إلا أن نظام الأسرات ظل قائمًا من دون تغيير، إمعانًا من تلك الدولة في الجور والظلم ضد العلويين، ومن أجل تطويقهم إلى الأبد بذلك القيد الأثم.

وبعد زوال الحكم العثماني إلى غير رجعة، ورث الاحتلال الفرنسي لسوريا عام ١٩٢٠، هذا النظام، ولما رآه يناسب أهدافه في إحكام قبضته على العلويين فقد أبقاه كما هو من دون أي تغيير، وزاد عليه بأن قام المفاوض السامي الفرنسي في سوريا بإصدار قرار في ٢ أيلول، ١٩٢٠، أدمج بموجبه المناطق الساحلية والجبلية التي يقطنها العلويون في سنجقي اللاذقية وطرطوس لتشكيل بلاد واحدة منفصلة^(١). مما جعل للعلويين دولة مستقلة تحت رعاية الاحتلال الفرنسي، ورغم أن تلك الدولة لم تستمر بسبب عوامل مختلفة لا مجال للبحث فيها هنا. لكن الاحتلال الفرنسي جعل حكومة تلك الدولة من زعماء العشائر، مع ممثلين عن الطوائف الأخرى في الساحل. وظل الأمر كذلك حتى تمّ دمج الساحل مع سوريا عام ١٩٣٦.

(١) تاريخ سوريا تحت الانتداب الفرنسي - ستيفن هاملي لونغريغ - ص ١٦٠

الباب السابع

الإدارة والتحديث في الدولة العثمانية

الفصل الأول

الضرائب

مرّت عملية جمع الضرائب في سوريا أيام الدولة العثمانية بمرحلتين اثنتين نذكرهما كما يلي:

أولاً-الضرائب قبل عهد التنظيمات الإدارية

عندما استولى سليم شاه على سوريا أراد أن يجعل، كما يقول فولني، جباية الضرائب سهلة، فلم يفرض سوى ضريبة واحدة هي «الميري» أو الأميري، وهي ضريبة تُفرض على السكان، ولكي تجري الجباية بانتظام جعل لها السلطان دفترًا أو سجلًا عيّن به سهم كل قرية، أي أنه جعل الميري ثابتًا لنلا يجروأحد على العتب به^(١).

وبالإضافة إلى الأميري كان يوجد ما يسمى «جزية النصاري» وضريبة المواشي والجمارك، وهذه الضرائب تعود رسومها للدولة^(٢).

لكن الولاة الذين كانوا يشترتون مناصبهم عملوا على فرض ضرائب كثيرة مبتدعة وغير رسمية، وقدرت بعض المصادر أنه بلغ عدد هذه الضرائب في بعض العهود وفي بعض البلاد سبعا وتسعين ضريبة ورسمًا^(٣). وكان السبب في فرض كل هذ الضرائب، هو أن الوالي كان مسؤولاً عن النظام في الولاية، وعن الإنفاق على الجيش والموظفين العاملين برفقته^(٤). وكان يجب أن يجمع أكبر قدر من المال لحسابه، ولذلك تفنن الولاة في فرض الرسوم المختلفة ومنها رسم على أشجار الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة، ورسوم تفرض على الحاصلات التي تنقل من الحقول إلى المدن، ورسوم أخرى كانت تفرض على المحلات التجارية في المدن، ورسم زواج، ورسم عزوبية، ورسم عيادية^(٥)، ورسوم على الدودة القرمزية*، ورسوم قيمتها خمسة غروش على

(١) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر- فولني - ج ٢ - ص ٨٧

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٦٤

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٦٤

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٦٤

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٦٥

* الدودة القرمزية، حشرة قشرية يستخرج منها صباغ الكارمين القرمزي - ويكيبيديا.

كل من يربي من شجرات التوت أوقية بزرقرز^(١).

وقد ورد في عقد التزام صافيتا وعكار وجبة بشرى لعام ١٠٧٩ للهجرة، ١٦٨٣ للميلاد، الذي أبرمه خليل باشا والي طرابلس مع المقدم أحمد بن حمادة ما يلي: «فخر الأقران الشيخ أحمد بن حمادة، التزم من حضرة الدستور المفخم، حضرة خليل باشا والي طرابلس، ناحية صافيتا وعكار وجبة بشرى، وفوض إليه قبض جميع أموالها المعتادة صيفي وشتوي وخراج أشجار ومقطوع فدادين ورسم مغروخل ومشاهرة وعيدية وقدمية ورسم دوايب وفسالق تركمان وعرب ورسم كنائس ورسم جاموس وجرم وخيانة وسائر الرسومات والعوايد، ما عدا الجرم الغيظ مدة سنة كاملة ١٠٧٩ للهجرة بمبلغ خمس وستين ألف غرش منها ثلاثة وأربعين ألفاً من ناحية عكار»^(٢).

ويتبين من هذا النص أن الوالي كان يضمن عقود الالتزام التي كان يعقدها مع المقدمين الملتزمين للمقاطعات، جباية كل تلك الرسوم غير الشرعية وغير القانونية، وكان المقدم الملتزم يزيد عليها تكاليف أخرى لكي يجني أرباحاً هو الآخر. وكان التنافس المستمر بين الإقطاعيين على التزام جباية الضرائب، من أهم العوامل التي ساهمت في زيادة مقاديرها، ذلك أن الولاة استغلوا هذا التنافس لصالحهم وأخذوا يرفعون قيمة الضرائب بصورة تدريجية ومتوازنة مع أطماعهم وحبهم للمال^(٣).

وهكذا زادت التكاليف والأعباء على الفلاحين. ولم يقف جشع الولاة عند حد معين، بل لقد عمد بعضهم إلى استحداث ضريبة استقبال تفرض على الفلاحين لدى مرور الوالي في القرى ويطلب من مشايخ القرى استيفاءها من قراهم، ومع مرور الزمن أصبحت هذه الضريبة تؤخذ بصورة دائمة ومن غير مناسبة^(٤). وقد كان تعسف الإقطاعيين والملتزمين سبباً أساسياً في إفقار الفلاحين ومنهم العلويون، الذين هجر الكثير الزراعة، أو اكتفى ببعض المزروعات البسيطة.

ثانياً - الضرائب في عهد التنظيمات الإدارية:

لما جلس السلطان عبد المجيد على تخت السلطنة سنة ١٨٣٩ دخل إلى حجرة الخرقة النبوية الشريفة، وعاهد الله بقسم أن يصون دماء رعيته،

(١) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ٥

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ٩٢

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ٩٢

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ٩٣

وأعراضهم وأموالهم، وأن يحفظ ناموسهم، ثم أقسم بذلك على العلماء والوزراء، وأعلن ذلك بفرمان عال مؤرخ في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ للهجرة، ١٨٣٩ للميلاد، فتلى في الموضع المسمى «كلخانة» بالآستانة، وأرسلت صورته إلى سفراء الدول الأجنبية. وبعد ذلك بدأت أصول التسوية بين الرعية والترتيب الآيل إلى تنفيذ مؤدى العهد الهمايوني، فسُميت التنظيمات الخيرية، وكان من ما جاء فيها النص التالي، «ترتيب الأموال والعائدات الأميرية وكيفية تحصيلها بالسهولة وراحة الأهلىن بحيث يكون توزيعها على كل شخص بقدر احتمال له بطريقة الأعشار الشرعية»^(١).

وقد ألغيت الضرائب والبدع غير الرسمية التي كانت شائعة في ولايات الدولة العثمانية ومنها طرابلس، ونظمت الضرائب بموجب قوانين وأنظمة ضرائبية أصدرتها الدولة في دور الإصلاح والتجديد، وأصبحت ضرائب الأعشار، والويركو والبدل العسكري من الإيرادات الرئيسية، بالإضافة إلى إيرادات أخرى مثل رسوم الطابو، والمحاكم، والحاصلات المتفرقة^(٢).

وتم تنظيم الضرائب بموجب قوانين وأنظمة ضرائبية أصدرتها الدولة^(٣)، وتتمثل تلك الضرائب بما يلي:

١- العُشر

وهي ضريبة كان يتم استيفاؤها عن الأشجار المثمرة، وعن المطاحن، والمخازن، والاصطبلات، والمتابن، والزرائب^(٤)، وأيضاً على إنتاج النحل، وحاصلات المزروعات البعلية كالحبوب، وعلى إنتاج الحرير، وعلى موسم القطن، أما الحطب والفحم والخضار فقد أعفتها الدولة من دفع ضريبة العُشر^(٥).

وقد طرحت الدولة الأعشار للملتزمين بالمزاد العلني وكان لا بد للملتزم مهما بلغت درجة ثرائه من أن يعين مصرفياً في العاصمة كي يضمن دفع ما عليه من أموال للخزينة طبقاً لعقد الالتزام^(٦).

ومن ثم أصدرت الدولة عام ١٨٥٦ نظام إحالة الأعشار، وصيغ في سبع

(١) كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر والشام - نوفل نوفل - ص ٣١٩

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٦

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٠٧

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٠٧

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٠٨

(٦) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٦

وعشرين مادة، وأوضح هذا النظام أصول المزايدة وإحالة الأعشار والرسوم التي تحال وتلزم من قبل الدولة، وكيفية ربط المتعهدين والكفلاء بكفالات مالية، كما نص النظام على وجوب إجراء مزايدات الأعشار بصورة علنية، على أن يتم ذلك في مجلس القضاء أولاً، وتلزم قرى القضاء قرية قرية، ثم تجري المزايدة في مجلس اللواء ثانياً، وتلزم أقضية اللواء قضاء قضاء، ثم تجري المزايدة في مجلس إدارة الولاية، وتلزم الألوية لواء لواء^(١).

وأجاز النظام إحالة عدة أقضية للتمتع واحد على أن تكون تلك الأقضية ضمن لواء واحد، ومنع النظام إحالة أعشار لواءين للتمتع واحد، وأوضح النظام أن تلزيم الرسوم العادية يكون لسنة واحدة، أما رسوم الجمارك وأعشار الزيتون ورسوم صيد الأسماك فتكون لمدة سنتين. وحدد موعد ابتداء المزايدة في أول أيلول من كل عام، على أن تبدأ مزايدة الرسوم أولاً، وتستمر لرعاية أول كانون الثاني، أما مزايدة الأعشار فلرعاية نيسان من كل عام^(٢).

وكانت المزايدة على التزام أعشار قرية معينة تتم بصورة علنية عند حلول موسم الحصاد^(٣) وقد منع النظام أعضاء مجالس إدارة القضاء والاختيارية وسائر موظفي الإدارة من التعهد بأي التزام^(٤).

وقد عرف الملتزم بالعشار، وكان يعين في القرية نائباً عنه يسمى «رشاماً» أو «قولجياً» مهمته المحافظة على البيادر ومنع أصحاب الغلال من أخذ شيء من محصولهم أو نقله عن البيدر قبل استيفاء العشر منه^(٥).

وكان العشار يقوم بتحديد كمية المحصول بالتقدير وذلك من خلال الاستعانة بأشخاص عُرِفوا بمقدرتهم وعفتهم^(٦). وكان التخمين يتم بحضور الفلاح ومندوب عن المالك، وبعد الاتفاق على مقدار المحصول، يتم استيفاء العشر بصورة عينية، في أغلب الأحوال وبمقدار كيله عن كل شنبل من الحنطة والحبوب. علماً بأن الشنبل يساوي عشر كيلات، وبعد ذلك يتم تدوين مقدار المحصول لكل قرية في دفتر خاص يُعرف بدفتر تخمين الغلال، ويحمل هذا الدفتر توقيع وإمضاء الملتزم والفلاح والمقدر، ومصادقة

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٧

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٧

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١٠٩

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١٠٩

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١٠٩

(٦) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١٠٩

مختار القرية^(١).

وعلى الرغم من أن الأعشار كانت تعني أن يدفع الفلاح ١٠ بالمائة من محصوله للملتزم أو للدولة عيناً أو نقداً، إلا أنه كان يدفع في الواقع أكثر من ذلك، فقد زادت الدولة ضريبة العشر حتى أوصلتها إلى ١٢ بالمائة من أجل تنفيذ المشاريع الإصلاحية منذ عام ١٨٧٨، وكانت هذه الزيادة تدريجية إذ زيد على العشر ربع بالمائة من أجل دفع الغرامة إلى روسيا، ثم زيد في سنة ١٨٨٥ واحد بالمائة من أجل تأسيس مصرف زراعي ونصف بالمائة للمعارف، وفي سنة ١٨٩٧ زيد على العشر أيضاً نصف بالمائة باسم التجهيزات العسكرية^(٢).

٢- الويركو

الويركو، كلمة تركية تعني «جزية» أو «خراجاً» أو «مالاً أميرياً» ومصدر الكلمة «ويرمك» وتعني «الهبة أو المنحة»^(٣).

وقد تم إحداث هذه الضريبة بموجب قوانين خط كلخانة ١٨٣٩ التي جاء فيها: «يلزم بعد الآن أن يتعين على كل فرد من أهالي البلاد ويركو مناسب»^(٤).

ويقسم الويركو إلى قسمين:

أ- ويركو الأملاك:

بدأ تطبيق ويركو الأملاك منذ عام ١٨٤١ في ولايات سوريا، ومنها طرابلس، لكن في عام ١٨٦١ صدر نظام خاص به، وصيغ في اثني عشر بنداً، وقد خول هذا النظام أئمة ومخاتير القرى توزيع ضريبة الويركو على قراهم بموجب دفتر خاص تسجل فيه جميع بيوت القرية بشكل دقيق، ثم يجري بعد ذلك توزيع المبالغ التي قررها مجلس إدارة القضاء على أهالي القرية حسب قدرة كل منهم، على أن يتم ذلك بالعدل، ثم تسجل حصة كل منهم إزاء اسمه، وإذا وجد بعض البيوت مستثناة من الويركو بسبب فقر أصحابها، فتوضع إشارة إلى جانبها، ثم يختتم الدفتر من قبل الأئمة والمختارين، ويجري فحصه في مجلس القضاء ويختتم ثم يعاد إلى القرية للعمل بموجبه^(٥).

(١) تاريخ عكار فاروق حبلص - ص ١١٠

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٨

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١١٠

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٩

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٩

وطلب النظام من مختار القرية تسديد أموال الويركو إلى صندوق القضاء بعد الانتهاء من تحصيله^(١).

وقد تراوحت هذه الضريبة بين ٤ و ١٠ ألف، وكانت تستوفي عن الأبنية والأراضي الأميرية والمسقفات^(٢)، وكانت المزارع والمساكن المقامة فوق أراضٍ أميرية تدفع ضريبة سنوية بمعدل أربعة بالألف من أصل قيمتها التخمينية^(٣)، وأيضاً فقد كانت الأراضي الأميرية تدفع ضريبة سنوية بمقدار ٤ بالألف، من أصل قيمتها التخمينية، وكانت المنازل التي تزيد قيمتها عن عشرين ألف غرش، تدفع ضريبة سنوية بمقدار ٨ بالألف، أما المسقفات المعدّة للإيجار فكان يُفرض عليها ضريبة سنوية بمقدار ١٠ بالألف^(٤). وسنّت الدولة نظاماً خاصاً لتحصيل الويركو من طائفة «النور» أو ما يسمى «الغجر»* بالرغم من تعذر إقامتهم في منطقة واحدة، وقد قسمتهم إلى ثلاث فئات وأصناف حسب قدرتهم المالية، وجرى تحصيل الويركو من النور لقاء إعفاء المسلمين منهم من الخدمة العسكرية، وإعفاء غير المسلمين من دفع الإعانة العسكرية^(٥).

ب- ويركو التمتع:

كانت هذه الضريبة تجبى من التجار بمعدل ثلاثين ألف من مجموع الأرباح السنوية، ثم زيدت إلى أربعين ألف في عام ١٨٧٩، وشملت هذه الضريبة عام ١٨٨٥ أصحاب الرواتب والمهن والمقاولين مثل الأطباء والمهندسين والمتعهدين^(٦).

ولم يكن لهذه الضريبة أي مطرح عند العلويين، لأنهم لم يكونوا أو بعضهم تجاراً، كما لم يكن بينهم من حصل على شهادة تعليم ابتدائي بسبب غياب المدارس النظامية، وبشكل عام فإن هذه الضريبة، ولاسيما على أصحاب

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٦٩

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص ص ١١٠

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص ص ١١٠

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص ص ١١١

* الغجر، تطلق مفردة «غجر» على مجموعات بشرية تنتشر في بقاع متفرقة من الكرة الأرضية، وتتصف بسمات متقاربة أو متشابهة إلى حد بعيد، وأثبتت البراهين العلمية أن الهند هي الموطن الأصلي للغجر، ويكمن التاريخ الحقيقي في لغتهم، ويشكل الغجر في سوريا مجموعة متجانسة ذات سمات خاصة، ويتوزعون في المحافظات السورية الداخلية وفي السهول المحاذية للحدود اللبنانية. وينقسم الغجر في سوريا إلى قسمين هما: القرباط، والنور. ويحمل غجر سوريا بطاقات شخصية باعتبارهم مواطنين سوريين ويؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، بينما فضل البعض منهم عدم التسجيل في سجلات الدولة ليبقى تحت صفة «أجنبي» - الغجر، ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب - جمال حيدر - الصفحات ١٨، ٨٤، ٨٥.

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٠

(٦) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٧١

الرواتب والمهن والمقاولات، قد شملت عليه القوم من أبناء البكوات والأثرياء الأتراك أو الوطنيين الذين يعملون عند الأتراك. أما بخصوص ضرائب التجارة فإنها شملت فئات تحمل جنسيات أخرى، فقد كان الذين يزاولون مهنة التجارة كلهم من الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين، وأيضاً من المسيحيين الوطنيين واليهود والأرمن. ولم يكن بوسع المسلمين أن يزاولوا هذه المهنة بسبب العراقيل التي وضعتها الدولة في طريقها. وقد كان السلطان العثماني يؤثر الأجانب على رعايا دولته طمعاً في الربح^(١).

٣- ضريبة البديل العسكري:

وكانت تُسمى بالويركو المحدد أو المقطوع، وكان هذا البديل يستوفي من غير المسلمين باسم الإعانة العسكرية. وقد سنت الدولة قانوناً ينظم دفع البديل العسكري على عشرة أقساط تبدأ من شهر آذار كل عام^(٢). ولم تشمل هذه الضريبة العلويين الذين كانت تعدّهم الدولة طائفة إسلامية.

٤- ضريبة المسقفات:

بدأت الدولة العثمانية بجباية هذه الضريبة عام ١٨٥٨، وكان مقدارها خمسة في الألف من بيوت السكن التي لا تتجاوز قيمتها عشرين ألف قرش*، وثمانية في الألف من بيوت السكن التي تتجاوز قيمتها ذلك المقدار، وكذلك فرضت هذه الضريبة على البساتين والكروم المستنناة من الأعشار^(٣).

ولم تكن بيوت العلويين المصنوعة من الحجارة والطين بمعزل عن ضريبة المسقفات، فقد تمّ استيفاء الضريبة عن هذه البيوت التي وصفها، كتاب ولاية بيروت، بأنها أكوام من الحجارة*، وكان استيفاء الضريبة عن هذه البيوت التي هي بيوت بالاسم فقط، هو إمعان في إذلال العلويين.

(١) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - فولني - ج ٢ - ص ٩٧

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٧٣

* القرش، عملة فضية، والكلمة هي في الأصل تحريف للصفة اللاتينية «grossus»، التي كانت تنطبق على أنماط مختلفة من الدينار، وقد نقلت هذه الكلمة من الألمانية «Groschen»، ومن التركية انتقلت إلى العربية «قروش» والمفرد منها «قرش» - النقود المتداولة في مصر العثمانية - أحمد الصاوي - ص ٩٤.

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٣

* يتحدث كتاب ولاية بيروت عن الخطوط الداخلية لقريبة برمانه مركز قضاء صافيتا فيقول: «إن جميع البيوت في برمانه قائمة على ذروة تليجة الخضراء كأنها أكواخ بيضاء مبنية في رياض، ولا يعثر في هذه القصبه على بيوت قمرميدية، ولم تحصل تلك البيوت على شيء من الصنعة والترتيب، بل هي عبارة عن ركام حجرية يشغل كل منها مساحة لا تتجاوز بضعة عشر متراً مربعاً، ولا سيما البيوت التي تكون مجتمعة ومتصلة ببعضها مثنى وثلاث، فهي أنموذج للسقامة والعقامة التي تجلت في منازل هذه القصبه» - ولاية بيروت - ج ٢ - ص ٣٣٥

وفي عام ١٩١٢ كان يتم استيفاء ١٢ بالمائة ضريبة للمسقفات سواء كانت للسكن أو الإيجار، و ٩ بالمائة للطواحين والمعامل والبيوت المعدة للسكن المعمولة من الخشب واللبن^(١).

٥- ضريبة المعارف:

كانت هذه الضريبة تجبى بنسبة ٥ بالمائة من قسم المسقفات، وبعد ذلك تدفعها الحكومة إلى إدارة النافعة «مصلحة الأشغال العامة» لتقوم بإنفاقها على إنشاء وترميم المدارس.

وبموجب نظام المعارف العمومية الذي صدر في عام ١٨٦٩، أنشأت الدولة صندوقاً للمعارف، وكانت إيراداته عبارة عن المخصصات الأميرية والإعانات السنوية التي يدفعها أهالي الولاية مع تخصيصات الوقف والأقساط التي يدفعها طلاب المدارس العالية، وتصرف هذه الإيرادات في إنشاء المدارس الرشدية والإعدادية، وفي دفع رواتب المعلمين وغير ذلك من أوجه المصروفات^(٢). وقد أعفى الفقراء من ضريبة المعارف، ويذكر صاحب تاريخ عكار، أن نصف سكان عكار كانوا معفيين من هذه الضريبة^(٣).

ومن غير المعروف ما إذا كان العلويون يدفعون هذه الضريبة وهم لم يعرفوا المدارس حتى وقت متأخر من عهد الدولة العثمانية.

٦- ضريبة العمال المكلفين:

أصدرت الدولة العثمانية نظام الطرق والمعايير عام ١٨٦٩، وكلفت بموجبه الأفراد في المدن والقرى الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٦٠ سنة، وكذلك حيوانات الجروالعربات التي بها، بالعمل مدة عشرين يوماً في كل خمس سنوات^(٤). ويمكن بناءً لقرار مجلس إدارة الولاية، زيادة مدة العمل يوماً واحداً عن كل سنة، شرط أن لا يكون التكليف في أيام الحصاد والزراعة. كما أجاز ذلك النظام الإعفاء من هذه الخدمة شرط دفع بدل نقدي يساوي ستة عشر قرشاً عن كل سنة^(٥).

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٤

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٤

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١١٢

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٥

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلى - ص ١١٣

ومن غير المعروف تحت أي مسمى أوجدت الدولة العثمانية نظام السخرة هذا، فإذا كانت تقول إن الطرق التي يتم فتحها تخدم السكان، فإن هذه الطرق تخدم موظفيها وعمالها أيضًا، وبالتالي فإنه ليس من الإنصاف أبدًا تسخير الناس، الصغير والكبير، في الحفر والجرو والرصف من دون مقابل، لكن دولة مثل تلك الدولة كانت تفعل أي شيء في سبيل تحقيق مصالحها ولم تكن تهتم إلا بجمع المال من رعاياها الضعفاء.

٦- رسوم المواشي:

درجت الدولة العثمانية على استيفاء رسوم على المواشي الموجودة لدى المحكومين من قبلها، فكانت في البداية تأخذ هذا الرسم عينًا، وهو غنمة واحدة من كل عشرة أغنام، ولا يتقاضى شيئًا عن بقية الحيوانات.

وبعد أن تمَّ إعلان التنظيمات الخيرية في عهد محمود الثاني، كان هذا الرسم بقدر نتاج كل دابة، وصارت الرسوم تستوفي على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صارت تستوفي عن كل رأس من الغنم والماعز أربعة قروش، وعن الجاموس والبقر والأبل عشرة قروش، وصارت هذه الرسوم تترقى بنسبة أسعار المنتوجات إلى أن أصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن والماعز، وعشرين قرشًا عن كل رأس من الأبل^(١).

وكانت قُرى العلويين تعتمد، بشكل أساسي في معاشها، على تربية الماعز، بسبب الطبيعة الجبلية لتلك القرى، وأيضًا بسبب ندرة المراعي، فكان في كل قرية قطع كبير من الماعز، يتولى أخذه إلى المراعي في قنن الجبال رعاة متخصصون، وكانت تربية الأبقار وباقي المواشي محدودة.

ومن المرجح أن العلويين في الأجزاء الجنوبية من الجبال كانوا يدفعون الضريبة عن مواشيهم، أما إخوانهم في الأجزاء الشمالية، فكانوا يرفضون دفع الضرائب أيًا كان نوعها.

٧- الرسوم والجمارك:

في عام ١٨٦١ صدر نظام إيرادات الرسوم والجمارك، وبموجب هذا النظام تمَّ تحديد الرسوم التي تؤخذ عن كل أقة من القهوة بثمانين بارة*. أما رسوم الأخشاب التي تقطع من الأحراش الأميرية فهي ٢٠ بالمائة من قيمتها، أما

(١) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٨١

* البارة، هي أصغر وحدة نقدية في الدولة العثمانية، وكل أربعين بارة تساوي قرشًا واحدًا.

رسوم أخشاب الأحراش الخاصة فهي ١٠ بالمائة من قيمتها، ويستوفى هذا الرسم إما نقدًا وإما عينًا، وأما رسم صيد السمك فهو ٢٠ بالمائة من قيمة السمك المصطاد، وفرض رسم مبيع على ما يباع في الأسواق من المجوهرات والأواني الذهبية والفضية، وما يباع من الحيوانات بنسبة بارة واحدة عن كل قرش من سعر المبيع^(١). كما تم فرض رسوم على صناعة القطن والحريز^(٢).

واحتكرت الدولة بيع الدخان والملح، وأصدرت في عام ١٨٦٢ نظام إدارة الدخان الذي ينتج في الدولة العثمانية أمانة بصورة الانحصار - الاحتكار - وصيغ في خمسة وعشرين بندًا. وفي عام ١٨٦٩ صدر نظام تصدير الدخان إلى خارج الدولة العثمانية، وكانت الدولة قد أصدرت عام ١٨٦٧ قرارًا بتعديل رسم الدخان، وبموجبه أصبحت الرسوم التي تؤخذ من الدخان إما عينًا وهي نصف المحصول، أو نقدًا على النحو التالي:

- أ - كل أقة دخان لا تزيد قيمتها على ٧ قروش، يؤخذ عنها ٦ قروش نقدًا.
- ب - كل أقة تتراوح قيمتها بين ٨ قروش إلى ٢٠ قرشًا يؤخذ عنها رسم قدره ١٠٠ بالمائة بعد إسقاط ٢٠ بالمائة من الثمن.
- ج - كل أقة دخان يزيد ثمنها على ٢٠ قرشًا يؤخذ عنها رسم نقدي قدره ٢٤ قرشًا^(٣). أما الدخان الأجنبي المستورد، فقد فرضت عليه الدولة رسمًا يعادل ٧٥ بالمائة من قيمته الأصلية، على أن يدفع الرسم بالنقد الذهبي باعتبار الذهب المجيدي بمئة قرش^(٤).

وكان الملح نادرًا ولذلك فقد احتكرت الدولة عملية بيعه وتسويقه وأصدرت به عام ١٨٦٢ نظامًا خاصًا صيغ في ٣٢ بندًا، وبموجب هذا النظام منع استيراد الملح الأجنبي، وضبطت جميع ملاحات الدولة اعتبارًا من آذار ١٨٦٢، وأصبحت هذه الملاحات تدار من قبل إدارة أمانة الرسوم، وعُين لكل عدد مناسب منها مدير واحد، وأصبحت الدولة هي المنتج والبائع الوحيد للملح في جميع الولايات^(٥). وقد حدث بسبب تلك السياسة نقص شديد بالملح، عم مختلف بقاع سوريا ومنها بلاد العلويين، ومن أجل تأمينه كانت النسوة يذهبن إلى البحر ومع كل واحدة منهن قدر كبير تملأه بماء البحر وتضعه على موقد نار فيغلي ويتبخر الماء من أول النهار إلى آخره، وبعد أن

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٧

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٩

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٨

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٨

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٧٨

يتبخر كل الماء يبقى الملح راسبًا في قاع القدر فتجمعه المرأة وتحمله وتعود به مع القدر الكبير إلى عائلتها.

واستمر فقدان الملح إبان الاستعمار الفرنسي، حيث تمّ افتتاح إدارة للملح «ملاحه» في ناحية طرطوس، وكان يتجمع أمامها كل يوم مئات الأشخاص وتحدث مشاحنات بسبب الرغبة في الحصول على قدر ضئيل من الملح.

ثالثًا - كيفية تحصيل الضرائب

أصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٥٨ نظام استيفاء الويركو، وبيّنت فيه العقوبات التي يتعرض لها المكلف في حال تأخره عن أداء هذه الضريبة^(١).

وقد اعتبرت الدولة المختارين واسطتها الأولى في استيفاء الضريبة. وبعد أن تبين لها ظلم المختارين وتلاعبهم فيما فرضوا من ضرائب إضافية على الفلاحين، عدلت عن هذه الطريقة، وعهدت بمهمة تحصيل الضرائب إلى جنود الدرك «الزاندمة» الذين كانوا أشدّ ظلمًا على الفلاحين، خاصة أنهم كانوا يقيمون في القرية عدة أيام حتى إتمام جمع ضرائبها^(٢).

وفي سنة ١٨٧٦، صدر نظام الإدارة المالية، وصيغ في ٦٨ مادة ومادة مخصصة، واستهدف النظام بيان كيفية إدارة الأمور المالية في قرى وأقضية وألوية وولايات الدولة العثمانية. وتضمن الباب الأول من هذا النظام كيفية تحصيل أموال الدولة في القرى، وقد قسّمت الأموال التي يجب استيفاؤها من القرى إلى ثلاثة أنواع، هي: الويركو والبديل العسكري والأعشار والإيرادات الرسومية، وهذه يتم استيفاؤها من الأهالي بواسطة الملزمين أو بواسطة جباة الدولة^(٣).

أما الويركو فقد طلبت الدولة تحصيله من الأهالي بواسطة المختارين بعد تقسيمه بين الأهالي بالنظر إلى قدرة كل شخص منهم، كما طلب النظام من المكلفين دفع مال الويركو والبديل العسكري في أوقاتها المعينة، واعتبر النظام مختاري كل صنف من الأهالي، الواسطة الأولى لتحصيل أموال الدولة، وكلفهم إعلام أفراد طائفتهم من المكلفين عن موعد تأدية أموال الدولة قبل أسبوع من حلول الموعد المحدد لها، وطلب من المختارين أيضًا تسليم الأموال الأميرية إلى صندوق مال القضاء خلال ثلاثة أيام من تاريخ تحصيلها من المكلفين، وفي حالة حدوث نقص في الأموال أو تأخر في دفعها، يرسل مأمور من مركز القضاء لتحصيل الأموال الناقصة أو المتأخرة ويحقق في

(١) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١١٢

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١١٢

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٩٨

الموضوع أيضًا، وعلى المختار أن يحصل على سند «قبض» بالمبالغ التي قام بتسليمها إلى أمين صندوق القضاء، ومنع النظام جميع الموظفين من صرف أموال الدولة في القرية على سبيل القرض أو التعويض^(١).

وكان بعض المختارين يتلاعبون بالضريبة فيجمعونها ويصرفونها وفق أهوائهم، بالتعاون مع مسؤولي المال في القضاء، وقد نتج عن ذلك حدوث مشاكل عديدة في بعض قرى العلويين*.

٤- أثر ثورة العلويين على دفع الضرائب

لم تتمكن الدولة العثمانية من استيفاء الضرائب المستحقة لها في بلاد العلويين بالشكل المطلوب، منذ عام ١٨٤١ بسبب التمرد الذي كان موجودًا هناك، ولاسيما في جبال اللاذقية.

وأيضًا فإن الحكومة التي أقامها الشيخ إسماعيل خيربك، أعاقّت عملية جباية الضريبة من السكان لحساب الدولة العثمانية، لبعض الوقت. ولذلك تراكمت الضرائب على العلويين، وفي سنة ١٨٦٥ بلغت هذه الضرائب المتراكمة حوالي عشرة آلاف كيس^(٢).

وكان العلويون في بعض المناطق يقطعون الطريق وينهبون المال، وقد أرسلت حكومة ولاية سوريا العسكر إليهم المرة تلو الأخرى.

وفي عام ١٨٧٠ قاد والي سوريا راشد باشا حملة لقمع التمرد في جبال النصيرية «العلويين» وأحرق قرى بكاملها^(٣). وقد استطاعت الولاية تحصيل مبلغ

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٩٨

* هذا ما حدث لقرية حمّين التابعة لقضاء صافيتا التي تصرف أول مختار فيها بمال الضريبة، وصرفه على منفعه الشخصية لسنوات عديدة بالاتفاق مع إدارة المال في مركز القضاء في برمانه، وفي سنة ١٨٨٨ أنشأت الدولة العثمانية ولاية بيروت، وألحقت بلاد العلويين بها ومن ضمنها قضاء صافيتا، وتمّ تغيير الإدارة ومن بينها إدارة المال في برمانه، وقد اكتشفت إدارة المال الجديدة أن قرية «حمّين» لم تدفع الضريبة منذ أكثر من ١٥ سنة، وتواصلت الإدارة مع المختار فقال لهم، إن أهل القرية لا يعطونني وإنني كنت أخبر الإدارة السابقة لكن لم يستجيبوا إلى كلامي. فكتب مدير المال محضرًا بالواقعة وتمّ رفعه إلى الإدارة في مركز الولاية في بيروت، فصدر الأمر بالحجز على القرية تمهيدًا لبيعها، بناسها وعقاراتها وتاريخها، لمن يشتريها من الإقطاعيين. وعندما عرف أهل القرية بما حدث أسقط في أيديهم، وتضرعوا إلى الله تعالى أن يجد لهم مخرجًا مما أوقعهم به ذلك المختار، فسارع مشايخ القرية ووجهائها إلى طلب النجدة من الأغا محمد ملحم في قرية «بشمس» الذي كان معروفًا بالجدود والكرم وطيب السريرة، فلما «دخلوا عليه قالوا سلامًا قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ»، فلما أكلوا وشربوا، سألهم عن حاجتهم، فلما أخبروه أحضر لهم المبلغ المطلوب وكان «٢٥» خمسة وعشرين ليرة ذهبية عثمانية»، ففكّوا به أسر القرية، فرحمة الله الواسعة على الأغا محمد ملحم.

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٩٥

(٣) النهضة والأطراف - د. إياس حسن - ص ٢٤

تسعة آلاف قرش فقط من الضرائب المتراكمة^(١).

وحاول مدحت باشا أثناء ولايته على سوريا إصلاح الأوضاع في جبال العلويين، فجاء إلى حماة وطلب زعماء العلويين جميعًا، وكان بينهم المقدمون والمشايخ المعروفون وكانوا نحو خمسمائة نفس، ولما وصلوا استقبلهم في مقر حكومة حماة، ودعاهم ثانيًا لبيت نوري باشا وهو من أشرف حماة، وخطب فيهم خطبة وسألهم: «لماذا تبقون تجاه الحكومة في موقع العصاة، وأنتم مصرّون على عدم تأدية التكاليف الأميرية وعدم إيفاء الخدمة العسكرية، ولا تقبلون الأحكام القانونية وأنتم مصرّون على مخالفة الحكومة؟»^(٢).

وقد اتفق معهم على إجراء تحرير النفوس والأمولاك والأراضي وتنظيم الأموال الأميرية في الجبل ودفع قسم من البقايا المتراكمة عليهم والتي تبلغ قيمتها ١٥ مليون قرش^(٣). وفي مقابل ذلك وعدهم بإقامة متصرفية في بلادهم وأن يكون مقرها في الشيخ بدر، وأرسل اللوائح المفصلة إلى إستانبول بوجوب تشكيل لواء مستقل يشمل بلاد العلويين وتكون له صبغة خصوصية تشابه إدارة جبل لبنان، ومركزه الشيخ بدر^(٤).

ويقول صاحب كتاب تاريخ العلويين: «عندما عرف أشرف الشام وحماة بذلك أقاموا ضجة عظيمة على مدحت باشا وادعوا أنه لا ينوي إراحة الحكومة بل قصده إعلان استقلاله ضد الحكومة، وإنه يمثل دورًا شبيهًا بدور محمد علي باشا المصري، واتهم بأنه يسعى في استقلال سوريا وأنه ينوي تفريقها عن الدولة العثمانية، وأعظم دليل على نواياه كتاباته التي تطلب الإدارة المستقلة لجبل النصيرة ولوائحه المرسلة في هذا الموضوع. وقد اتخذت تلك اللوائح من الأسباب الخفية التي استلزمت نقل مدحت باشا واليًا على أزمير ومن ثم الحكم عليه بالنفي إلى الطائف وإعدامه غدًا»^(٥).

ويذكر محمد هوش أن الكونت «ده تورسي» الذي كان ملحقًا عسكريًا لدى السفارة الفرنسية في إستانبول وكان مقربًا من السلطان فيها، قد لعب دورًا لا يستهان به في عملية إبعاد مدحت باشا عن ولاية سوريا^(٦).

ومهما كان السبب وراء إقصاء مدحت باشا، فإن فكرة المتصرفية في بلاد

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٩٥

(٢) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٩٤

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٩٥

(٤) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٩٦

(٥) تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - ص ٣٩٧

(٦) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هوش - ص ٧٣

العلويين قد أجهضت، وفي المقابل فقد دأب أحمد حمدي باشا، الذي خلف مدحت باشا في حكم ولاية سوريا، على دفع الدولة العثمانية إلى إقامة ثكنات عسكرية في مواقع مختارة من بلاد العلويين لفرض الأمن والاستقرار فيها - على حد زعمه - فقد جاء في تقرير رفعه إلى الصدر الأعظم سنة ١٨٨٢ ما يلي: «في العام الماضي أثناء انشغال الولاية بإصلاح جبل الدروز، وقع صدام بين طائفتين في جبل النصيرية وظهرت بينهما بعض الحركات التي أدت إلى قتل النفوس وغصب الأموال وغير ذلك، من الأمور غير المرضية، ولما كانت مسألة جبل الدروز لم تنته، فقد اكتفت الولاية بإجراء بعض التحقيقات السطحية وأخذت من الطرفين سندات تعهد، وسوّيت الأمور بينهما بالمصالحة لإعادة الأمن إذ لم يكن بوسع الولاية أن تفعل أكثر من ذلك، وقد اعتاد نصيرية الشمال والجنوب على الخصام، ونتج عن ذلك مصادمات عنيفة كبيرة أسفرت عن حرق القرى ونهبها الأمر الذي اضطر الحكومة إلى سوق قوة عسكرية كافية للضرب على أيدي المتخاصمين وفرض هيبتها^(١). ولما كان استمرار الحال لا يتفق مع الحالة الحاضرة، وعلى فرض اعتماد هذا الأسلوب في القضاء على الفتنة، فلا يجب إهمال أمر الساحل السوري خاصة وهو يقع في نقطة هامة من أراضي الدولة العثمانية، كما أن اتباع الأسلوب العسكري يفسح المجال واسعاً أمام التأثيرات الضارة والفسائس الخارجية التي من الممكن أن يزداد تأثيرها مع توالي الوقائع الأمر الذي ينتج عنه محاذير عديدة»^(٢).

وبعد أن وصف الوالي أحمد حمدي باشا منطقة جبل العلويين وصفاً شاملاً من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية، اقترح إنشاء ثكنات عسكرية في المواقع الهامة لتوفير الأمن والهدوء لتلك الجبال^(٣).

بشكل عام فإن الدولة العثمانية لم تستطع حتى انهيارها أن تحكم العلويين بشكل صحيح، وظلت أموال الضرائب التي كانت تطالبهم بها سرباً تلاحقه، ووهماً لم تستطع أن تجعله واقعاً.

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٩٦

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٩٦

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٩٦

الفصل الثاني

نظام ملكية الأرض

أولاً - نظام الملكية قبل عهد التنظيمات

كانت الدولة العثمانية قبل عهد التنظيمات تعتمد على مفهوم الإقطاع العسكري بأنواعه المختلفة «الزعامت*، التيمار*، والسباهي*». فكان يتم توزيع الإقطاعات الزراعية على الولاة والقادة والرجال المقاتلين وكان هؤلاء يستخدمون الفلاحين في زراعة الأراضي وجني المحصول، وقد شهدت معظم أراضي سوريا هذا النوع من الإقطاع.

ولما كان في سوريا قبل استيلاء العثمانيين عليها عصبية إقطاعية محلية، اختلفت في مقومات عصبيتها، حيث وجدت عصبية «عنصرية» كالتركمان والأكراد، والعرب، وعصبية «مذهبية» كالإسماعيلية والعلويين والدروز والموارنة وغيرهم، وبما أن هذه العصبية كانت من «أدوات» الحكم المملوكي، فقد أقرتها الدولة العثمانية في مقاطعاتها^(١). وبذلك فقد أصبح هناك نوعان من الإقطاع: الأول، هو الإقطاع الحكومي المتمثل بالزعامات والتيمار والسباهي، والثاني، هو الإقطاع العرقي والطائفي المتمثل في المكونات العرقية والطائفية الموجودة في سوريا.

وقد أثبت الإقطاع الطائفي أنه أرسخ وأقوى من الإقطاع الحكومي. وقد تجلّى ذلك بشكل جلي في لبنان، حيث كانت قاعدة الإقطاع هناك الفلاحين الذين يفلحون الأرض أو يرعون الماشية، وعلى رأس النظام كان يوجد بيوت إقطاعية درزية ومارونية، يسمّون «مشايخ»، وكان الشيخ يدير مقاطعته،

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٢٤

* التيمار، هو إقطاع من الأرض يخصص لشخص بعينه أو لعدة أشخاص مشتركين بشروط معينة، ويدّر دخلاً سنوياً يقل عن عشرين أقة - قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٥٨

* الزعامات (زعامة). هي الأراضي الزراعية التي تقع وارداتها بين ٢٠ ألف أقة «أسير» وبين مئة ألف أقة «أسير» - قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٥٨

* السباهية، من الفرسان. كان يعطون عشرين بعض الأراضي على صورة إقطاع ويقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمعاونة الدولة في القتال، ويأتون على خيولهم والدولة تعطيهم الذخائر والمؤن - خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٢٩

* الأقة: هي أصغر وحدات النقود العثمانية، وقد ضربت أول أقة باسم «أورخان» سنة ١٣٢٨ للميلاد، وجاءت هذه العملة مماثلة للنقود التي ضربها التُّرك من قبل على مثال نقود الدولة الرومانية، وتعد كلمة أقة التي أطلقت على هذه العملة ترجمة لكلمة «Aspor» «أسير»، أي البيضاء الشائعة في الدولة الرومانية منذ القرن العاشر الميلادي، وكان ٩٠ في المئة من هذه العملة من الفضة، وكانت وزن ١,١٥٢ جرام - النقود المتداولة في مصر العثمانية أحمد الصاوي، ص ٧٩

ويلتزم بدفع الضرائب المترتبة عليها للأمير الجبل، الذي يتربع فوق هذا البناء الإقطاعي، ويلتزم هذا الأمير أمام باشا صيدا بدفع الضرائب المستحقة للدولة على المقاطعات التي يحكمها بنفسه أو بواسطة أتباعه من المقدمين والمشايخ الإقطاعيين^(١). ولم تشهد بلاد العلويين هذا النوع من الإقطاع الطائفي المتكامل، لأنه لم تظهر زعامة إقطاعية ذات نفوذ واسع كما كان حال بني معن وبني شهاب في بلاد الشوف، بل كان هناك بيوت في قرى متفرقة تتولى جباية الضرائب للولاة أو للملتزمين من البكوات الترك أو المحليين، الذين كانت تعينهم الدولة في مراكز قضية بلاد العلويين.

ثانياً - نظام ملكية الأرض في عهد التنظيمات

أصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٥٨ قانون الأراضي العثماني، وصيغ في ١٣٢ مادة وخاتمة، وقد قسمت الأراضي بموجبه إلى خمسة أنواع^(٢)، هي:

١- الأراضي الملك:

وهي الأراضي التي يملكها صاحبها ملكاً صحيحاً تاماً، ويستطيع وقفها أو عدم زراعتها مدة طويلة^(٣).

وقد جرى تقسيمها إلى أربعة أنواع: الأول، هو ما تم تخصيصه للسكن على أن لا تزيد مساحته عن نصف دونم (٥٠٠ م). والثاني، هو الأراضي التي كانت أميرية ثم أصبحت ملكاً شخصياً عن طريق الفرز والتملك الصحيح. أما النوع الثالث، فهو الأراضي العشرية التي جرى تملكها من قبل الدولة وتوزيعها على الأمراء والقادة العسكريين. والنوع الرابع، هو الأراضي التي تقرر إبقاؤها في يد أهلها الأصليين من غير المسلمين^(٤).

٢- الأراضي الموات:

حدّد قانون الأراضي العثماني الموات «البور» بأنها، المحلات الخالية التي لم تخصص من القديم لأهالي القرى والقصبات وتبعد عن القرية أو القصبة بدرجة لا تسمع بها صيحة الرجل الجهير من أقصى العمران كالجبال والصحارى والغابات والمراعي، والأراضي المزروعة التي تخلّى عنها زارعوها وبقيت من دون زرع، أو بقيت أو من دون مالكين لفترة طويلة من

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٢٥

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٣٠

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٥٦

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٣١

الوقت، ويمكن لصاحب الضرورة أن ينقب في هذه الأراضي أو يتخذ مزارع بإذن من المأمور مجاناً على أن رقبته عائدة إلى بيت المال^(١). وأباح القانون إحياء أو استملاك تلك الأراضي لإيجاد ممتلكات إضافية من خلال منحة سلطانية «تمليك» للإقطاعيين^(٢).

وكان سهل عكار، في معظمه، أرضاً مواتاً، وكانت الزراعة فيه تقتصر على التلال فقط دون سائر أقسامه المنبسطة على مساحات شاسعة والتي بقيت جرداء لقرون طويلة حتى أنها عُرفت بـ«لصحراء» في السجلات الرسمية^(٣)، وذلك رغم المجاري المائية التي تخترقه والتي يمكنها أن تزيد من خصوبته وقدرته الإنتاجية. ولعل السبب في عدم زراعته يعود إلى كثرة الأمطار التي تتساقط عليه في فصل الشتاء بالإضافة إلى خمسة عشر مجرى مائياً يصب فيه طيلة هذا الفصل دون أن تتابع سيرها إلى البحر، لذلك تصبح تربته مشبعة غير قادرة على امتصاص هذه الكميات من المياه التي تغرقه وتحوله إلى مستنقع طيلة فصل الشتاء، وكانت الأجزاء الشمالية من هذا السهل تسمى الأرض المغراق^(٤).

وقد بدأت صورة السهل بالتبدل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما عمد الزعماء الإقطاعيون من العكاكرة والدندشلية، إلى الحصول على منحة سلطانية لاستملاك أراضي السهل وإحيائها وزراعتها^(٥). وصارت الأراضي الجديدة تزرع بالقطن والحبوب والدخن والذرة، وتغل محاصيل كبيرة للإقطاعيين الذين لم يكونوا يعطون الفلاحين منها سوى الفتات. وكانت القرى العلوية في الأجزاء الشمالية منه تتبع، في معظمها، للعكاكرة من آل مرعب، حكام عكار، وقد ساهم سكان تلك القرى في استصلاح السهل. وبعد صدور قانون الإصلاح الزراعي رقم ١٦١ عهد الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٥٨، وجرى تطبيقه في سوريا عام ١٩٥٩، فقد تم توزيع الأراضي على أهالي تلك القرى الذين عادت لهم حريتهم بعدما ظلوا في أسر أولئك الطغاة لعقود طويلة.

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٥٣

(٢) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٥٢

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٤٥

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٤٦

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٤٧

٣ - الأراضي المَتروكة:

عرّف قانون الأراضي العثماني هذه الأراضي بأنها التي تترك لكل الناس أو لمن يقيمون في منطقة معينة لكي يستخدموه مشاركة فيما بينهم، وتحفظ الدولة بالملكية الخاصة لهذا النوع، إلا أنها لا تتعرض لحق استخدام الناس لتلك الأراضي، وينطوي تحت هذا النوع، الطرق، والأنهار، ومجاري المياه، والبحيرات، والمراعي المجاورة للأماكن المسكونة، والبيادر، وأراضي المستنقعات وأراضي الأسواق^(١).

وفي قرى العلويين كانت الأراضي المَتروكة قليلة نظراً لضيق هذه القرى ولتزام القرى فوق بعضها. فالطرق كانت عبارة عن ممرات ضيقة بالكاد يمر عليها الماشي والراكب، أما المراعي، فكانت محدودة جداً وغالباً ما كان الرعاة يسوقون قطعان الماشية لترعى في رؤوس الجبال التي لا يمكن استغلالها أو الاستفادة منها لوعورتها. أما البيادر فكانت كل أسرة أو حارة في قرية تتخذ لنفسها بيدراً لدرس الحبوب في موسم الحصاد وهو شهر حزيران «بؤونة» من كل سنة شمسية، وكانت هذه البيادر، في معظمها، صغيرة، والبيادر عبارة عن أرض مستوية مرصوفة بشكل جيد لكي تسهل عملية فصل الحبوب عن العصف بواسطة آلة المرح الخشبية.

ومن المؤكد أن الأراضي المَتروكة في قرى العلويين لم يتم تحديدها وتعيينها في سجلات الطابو خلال العهد العثماني، بل ظلت أماكن مَتروكة باتفاق الجماعة على ذلك، ولهذا كان من السهل لأيّ كان وضع اليد على هذه الأراضي المَتروكة أو بعضها.

٤ - الأراضي الموقوفة:

هي الأراضي التي حُبس ريعها لصرفه إما للمنافع العامة، وتُعرف عندئذ بالأوقاف الخيرية، كالمداين «المقابر» والجوامع، والمساجد، ومزارات الأولياء، والمدارس الدينية، والديارات، والكنائس^(٢). وإما منافع محددة ومحصورة

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٥١

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٥٧

* يطلق على الوقف الذري عدة مسميات منها: الوقف الأهلي، والوقف الخاص، والوقف العائلي، وتعريفه: هو ما جعل استحقاق الربع فيه للواقف نفسه أو لغيره من الأشخاص المعيّنين بالذات أو بالوصف سواء كانوا من الأقارب أو غيرهم. وذلك بأن يقول: وقفت أرضي على نفسي مدى حياتي ثم على أولادي من بعد وفاتي، فإذا انقرضت الذرية انصرف الوقف إلى جهة عامة لأن مال الوقف الذري أن يكون وقفاً خيرياً عاجلاً أو آجلاً - الوقف الإسلامي بين النظرية والتطبيق - عكرمة سعيد صبري - ص ١٠٥

بذرية الواقف، وعرفت عندئذ بالأوقاف الذرية^(١).*

وصدر نظام «إدارة الوقف» الذي ينظم كيفية مسك القيود وضبطها من قبل مديري الأوقاف، كما يبين كيفية محاسبة مدير الأوقاف، وكيفية الاستلام والتسليم بين المدير السابق والمدير اللاحق، ورؤية محاسبة متولي الأوقاف الذرية، وكيفية تحصيل ريع الأوقاف ومدخولاتها^(٢).

وكانت الأوقاف في مناطق العلويين كلها للمنافع العامة، أما الأوقاف الذرية فلم يكن لها وجود، ربما بسبب عوامل الفقر والحاجة التي كانت تطبع حياة العلويين. وكانت الأوقاف الخيرية عبارة عن أراض يتم وقفها لصالح مزار من المزارات، مثل أرض قرية حارة الوقف* التي تم وقفها لمقام السلطان محمود المجاور لها. وأيضاً أرض قرية بيت نعمان* التي وقفت لمقام الشيخ حسن الصويري المجاور لها.

وكان يتم وقف أرض لمزار معين، لكن تلك الأراضي لم تكن مجاورة للمزار، بل بعيدة عنه، كأن يكون هذا الوقف في مكان آخر غير المكان المتواجد فيه المزار. ولم يتم تسجيل تلك الأوقاف في دائرة الأوقاف العثمانية بسبب عدم اعتراف الدولة بالمذهب الجعفري وهو مذهب العلويين، ولذلك تعرضت تلك الأوقاف، في معظمها، للسرقة، من قبل أشخاص استغلوا لمنافعهم الشخصية ومنهم من بنى أبنية ومساكن فوقها.

لكن حتى الأوقاف التي تم تسجيلها في دوائر الأوقاف، في المدن والمناطق السورية الأخرى، فقد كانت تتعرض للسرقة، حيث كان يتم التواطؤ بين موظفي الأوقاف وبين نظار الأوقاف على تحويل الأوقاف إلى أملاك خاصة، فانقلب الكثير منها إلى حوانيت ودور للسكن، وسجلت في سجلات التملك ملكاً خاصاً لنظار الأوقاف، ثم انتقلت من بعدهم إلى ورثتهم^(٣).

٥- الأراضي الأميرية:

هي الأراضي التي تعود ملكيتها للدولة، وتُعطى للمتصرف بها لمدة غير محددة لقاء معجلة تسمى «طابو» دفعها للخزينة، فتحال الأرض لاسمه بموجب سند رسمي، وقد سنت الدولة قانون الأراضي من أجل تحديد وتعيين شروط

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ١٥٧

(٢) الوقف الإسلامي بين النظرية والتطبيق - عكرمة سعيد صبري - ص ٢١

* حارة الوقف، قرية تقع على طريق دريكيش - طرطوس، تبعد عن دريكيش ٨ كليومتراً.

* بيت نعمان، قرية تقع إلى جوار حصن سليمان

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - د. عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٥٠

التصرف بالأراضي المذكورة وفراغها وانتقالها مع مراعاة حقوق الخزينة^(١). والأراضي الأميرية مثل الأراضي الملك، لكن تختلف عنها، في أنه لا يحق للمتصرف التصرف بها أو وقفها إلا بعد الحصول على إذن مسبق، كذلك لا يحق له أن يوصي بها بعد مماته، ولا يحق له تركها، بدون عذر مقبول، مدة ثلاث سنوات، دون استثمار، حيث يضطر عند ذلك إلى دفع قيمتها، وإلا اعتبرت محلولة، حيث يجري بيعها بالمزاد العلني^(٢).

وقد سمحت الدولة بزراعة الأراضي التي يتصرف بها السكان ما يشاؤون، ويمنع على المتصرف أن يستغل تراب الأرض لصناعة القرميد أو اللبن ما لم يأخذ إذنًا مسبقًا من الأمور^(٣). وقد أجازت القوانين للمتصرف في الأراضي الأميرية والجاري التصرف بها بالطابو أن يتفرغ بإذن الأمور ولن يريد مجانًا أو لقاء بدل معلوم، ولا يعتبر الفراغ ساريًا ما لم يكن بموافقة الأمور^(٤).

وكانت الأراضي الأميرية تنتشر في السهول الساحلية والداخلية، ويذكر صاحب تاريخ عكار، أن معظم أراضي عكار كانت أميرية، لكن يندرج هذه الأراضي في المناطق المجاورة، في جبل لبنان وجبال العلويين حيث تعم الأراضي الملك، ويرجع الكاتب السبب في ذلك إلى خلفيات جغرافية وبشرية^(٥).

والواقع أن الأراضي الجبلية غير ذات أهمية مقارنة بالأراضي الخصبة الواقعة في السهول والتي تغلّ غلالاً وافرة ولاسيما من القمح والشعير وسائر أنواع الحبوب الأخرى، ولذلك فقد سلّمت الدولة مساحات واسعة من سهول سوريا لرجال مقربين منها بهدف الإمساك بالبلاد، أما أراضي البلاد الجبلية غير ذات الفائدة، فقد ظلت في أيدي أصحابها من السكان.

ثالثاً - إثبات الملكية العقارية

مرّت سندات الملكية بأشكال مختلفة إبان الحكم العثماني، وكانت وسيلة إثبات الملكية قبل عصر التنظيمات، هي «الحجة» وهي ورقة غير رسمية فيها شهادة شهود بانتقال الأرض من يد إلى يد، وفيها تعيين للحدود بشكل

(١) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٣١

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٥٩

(٣) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٣٥

(٤) قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - ص ٣٦

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٦٠

غير دقيق، وإذا ضاعت تلك الحجة فلم يكن يؤبه لها، لأن المهم، آنذاك، هو وضع اليد على الأرض واستغلالها، فإذا حدث خلاف كان أهم دليل على الملكية شهادة الشهود الشفوية من أهل القرية^(١).

وفي عام ١٨٦١ صدر قانون الطابو وتضمن «٣٣» مادة وذيلاً، وخوّل هذا القانون موظفي المالية والمحاسبين ومديري المال ومديري الأقضية، في الولاية صلاحية إحالة الأراضي الأميرية إلى طالبها، على أن يجري ذلك بالمرابطة العلنية، كما أوضح القانون الإجراءات التي ينبغي اتباعها لنقل ملكية الأرض من شخص إلى آخر، وحدد رسم التسجيل بـ ٥ بالمائة من قيمة الأرض بعد تقدير قيمتها^(٢).

واهتمت الدولة بتسجيل جميع الأراضي، ورصدت جوائز تشجيعية للذين يخبرون عن الأراضي المكتومة. وقد أطلق على دوائر تسجيل الأراضي «الدفر الخاقاني»، وبقيت ولاية بيروت تتبع دفر خاقاني دمشق منذ أن أصبحت ولاية عام ١٨٨٧، ولكن في سنة ١٨٩١ رأت الإدارة المركزية في إستانبول ضرورة الفصل بين الولاياتين في مصالح الطابو نظراً لكثرة مصالح الطابو في ولاية بيروت فأنشأت دفتراً خاقانياً مستقلاً في بيروت يخبر العاصمة مباشرة^(٣).

وبدأت الدولة بتطويب الأراضي في سوريا منذ عام ١٨٦٠، وذلك بموجب لأحة تعليمات الطابو التي صدرت عام ١٨٥٩، واستمرت العملية حتى آخر العهد العثماني ولم تنته، فأكمل الانتداب الفرنسي تسجيل الأراضي خلال فترة حكمه لسوريا^(٤).

ويعود سبب فشل الدولة العثمانية في إنجاز عملية الطابو إلى أن العلاقة كانت سيئة بينها والسكان الذين كانوا يعتقدون أن كل قانون جديد يهدف بالدرجة الأولى إلى زيادة الضرائب عليهم، ولذلك فقد عدلوا عن التعاون مع الدولة ورفضوا التصريح عن أراضيهم أو صرحوا عن قسم منها^(٥)، ورغم أن قانون الطابو قد صدر بهدف توزيع سندات طابو على جميع أصحاب الأراضي الأميرية، لكن المادة الأولى منه، أوكلت مهمة تنفيذه لكبار موظفي القائمات الذين كانوا من أبناء البكوات والباشوات^(٦). وقد سعى هؤلاء

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٣٣

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٣٤

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٣٥

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٣٦

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٦٧

(٦) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٦٧

إلى مساعدة أقاربهم وإصدار سندات طابو بأسمائهم، تقضي بتمليكهم الأراضي التي امتنع أصحابها عن التصريح عنها^(١). وكذلك فإن الأهالي كانوا يهربون من القرية عندما كان موظفو الطابو يفدون إليها لإجراء الكشف على عقاراتها.

وقد جاء في قانون الأراضي: «القرية ذات الأهالي لا يمكن إحالة أراضيها إلى شخص بالاستقلال يتخذها جفتلياً له، إنما إذا كان مجموع أهالي إحدى القرى يتفرقون بدون سبب وتصير مستحقة للطابو تحال أراضيها لعهددة شخص واحد»^(٢).

ولم يكن الإقطاعيون بحاجة إلى سبب لتوسيع ملكياتهم وزيادة دخلهم السنوي. ومن هنا كان هناك أراضي قرى بأكملها مسجلة باسم إقطاعي واحد أو مجموعة صغيرة من الإقطاعيين، فقد كان دنادشة عكار يمتلكون ٦٠ قرية في شمال سهل عكار^(٣). وكان عدد من عائلات دمشق المتنفذة كآل العضم والعايد والجزائري والأيوبي والقوتلي وغيرهم، يمتلكون عدداً كبيراً من القرى في الغوطة وفي غيرها من المناطق المحيطة بدمشق^(٤).

وأيضاً فإن قانون الطابو لم يحفل بتعيين مساحة الأرض قدر اهتمامه بتعيين حدودها، وقد أدى ذلك إلى نشوء المنازعات بين الأهالي حول إثبات الملكية وحدودها، وقد تفاقم هذا الأمر حتى اضطرروا إلى إصدار تعليماته بشأن تحديد الأراضي وضبطها: «بيورلدي (مرسوم) واميق باشا قائم مقام طرابلس بالنسبة إلى تحديد الأرض: قامت منازعات بين الأهالي بسبب أن السندات الشرعية الموجودة بيد أصحاب الأبنية والعقارات بعضها موضح فيه الحدود الأربعة وبعضها الآخر غير موضح فيه ذلك، لذلك مقتضى بعد الآن، جميع الحجج والسندات الشرعية التي يصير إعطاءها في الأملاك التي يصير بيعها من الواحد للآخر يتوضح بها حدودها الأربعة، كم ذراع مقدارها

(١) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٦٧

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٦٨

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٢٨٤

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٣٧

* ما فعله الدندشلية في قرى الشعرا وعكار من ظلم وتعد على الفلاحين الفقراء، يحتاج إلى بحث طويل. يقول صاحب كتاب ولاية بيروت: أما الدنادشة المقيمون في تلكلخ، فيقرب عددهم من مائتين وكلهم مسلمون وسنيون، وجميعهم يشتغلون بالزراعة في هذا القضاء، ودخلهم السنوي عظيم جداً، ويوجد بينهم من يبلغ دخله السنوي «٥٠٠٠ ليرة»، وأقلهم غناء لا يقل دخله عن «٢٠٠ ليرة في السنة، ولذلك يمكننا أن نعتبر تلكلخ بمثابة مستعمرة لتلك الأسرة الغنية، أما البدو من سكان هذه القصبية فهم بالمعنى الكامل خدام الدنادشة، والنصيريون أيضاً مثلهم، ولا نرى حاجة للإفصاح عن عبودية هؤلاء المتحركين بإرادة أولئك الأغوات المسيطرين ولا مقام لأولئك البدوين الرحالة ولا للنصيريين الفقراء في تلكلخ إذا لم يرض عنهم أسبادهم، ولهذا فالحياة في تلكلخ هي حياة الدنادشة فقط. - ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٠٧

عرضاً وطولاً ويصير جلب السندات الشرعية إلى المحاكم ومطالعتها والذين لا يكون موجود بيدهم سندات عتيقة شرعية فيصير صرف النظر عن إعطائهم حجج شرعية جديدة، بل بأول (بداية الأمر) يصير تحقيق وتدقيق أمرها بالمجلس المحلي»، في ٢١ جمادى ١٢٧١ هجري^(١).

وفي بلاد العلويين لم يكن الأمر مختلفاً، لكن على ما يبدو أن دائرة الطابولم تدخل إلى تلك البلاد إلا أيام الانتداب الفرنسي، ولا سيما أثناء وجود حكومة اللاذقية، وكان المخاتير في هذه القرى يحابون المتنفيين من رجال الحكم العشائري، فكان كل متنفي يسجل باسمه أراضي قرى بأكملها، ويصبح أصحابها الشرعيين عبيداً أجراء عنده، يفلحون الأرض ويزرعونها وفي الموسم يأخذ المتنفي الجزء الأكبر من الغلة.

وعندما جلا المحتل الفرنسي عام ١٩٤٦، ظلت تلك العائلات تجري على طقوسها حتى كانت الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨، والتي حققت الإنجاز الأعظم لها وهو إلغاء الإقطاع في سوريا، وتوزيع الأراضي على الفلاحين. وكان ذلك أكبر ضربة تنزل على الترك وعلى نظامهم البالي. ومنذ ذلك الوقت تمت القطيعة بشكل كامل مع العهد العثماني، وراحت العائلات الإقطاعية، التركية والمحلية، تلملم أذيالها وتنزوي بعيداً، لكن رغم ذلك فقد ظل لهؤلاء الإقطاعيين نوع من المهابة لدى أبناء القرى بسبب السنوات الطويلة من حكمهم المطلق لهم.

رابعاً- توريث الملكية العقارية

قام نظام المواريث في القانون العثماني على أساس الشرع الإسلامي، لكن بالنسبة للأرض، فقد ظل تطبيق الشرع غامضاً، لأن الملكية كانت قليلة بسبب أن الأرض كلها كانت بيد الإقطاعيين، وبعد إصدار قانون الأراضي عام ١٨٥٨ أصبح بالإمكان تملك الأرض وتوريثها.

وقد جعل القانون حق الأنثى مثل حق الذكر في ملكية الأرض الأميرية، لكن رغم ذلك، فإن القانون لم يجد سبيله إلى التطبيق بالشكل الأمثل وبما يؤدي إلى وصول كل ذي حق إلى حقه، لأنه صدر في عصر كان الإقطاع فاعلاً فيه، وكانت الأرض تشكل قاعدة للوجاهة الاجتماعية، حتى أمست هذه الأخيرة تعني اقتناء الأرض^(٢). وأيضاً كان هناك تقاليد عائلية حافظت

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ١٧٦

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ١٦٧

على وحدة الملكية، كعدم إعطاء الفتاة التي تتزوج من شخص من خارج العائلة، حصتها في الورثة وإجبارها على التنازل عن ملكيتها لقاء إعطائها مبلغاً من المال، وكذلك عدم إعطاء الزوجة البعيدة عن العائلة حصتها من ورثة زوجها، وإجبارها على التنازل عنها لأشقائه لقاء تعهدهم بمصاريفها ولوازمها طالما بقيت على قيد الحياة^(١)، الأمر الذي أشاع عدم توريث البنات في مناطق واسعة من سوريا ومنها بلاد العلويين.

ورغم أن نشأة تلك الحالة كانت في ظروف خاصة ولم تكن محصورة بمنطقة معينة، إلا أن هناك من الكتاب والنقاد من يتهم العلويين بأنهم يبخسون البنات حقوقهن المخصصة لهن في الشرع وذلك بعدم توريثهن من تركة آبائهن، ومن هؤلاء محمد علي أسبر الذي قال: «ونظرت فإذا نحن نعامل المرأة بالعوادات الجاهلية، فنحرمها الميراث، والله سبحانه يقول في الآية السادسة من سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. وقد نزلت هذه الآية المباركة ردّاً على النظام القبلي الجاهلي الذي كان لا يورث النساء»^(٢).

ومع التسليم بأن الشرع واجب التطبيق في هذه القضية، لكن العادات والتقاليد لاتزال تحول دون ذلك، وكأن الأمور بات من المسلمات التي لا يمكن مخالفتها.

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ١٧٠

(٢) عادتنا وتقاليدينا - محمد علي أسبر- ص ١٩

الفصل الثالث

التعليم

١- وضع التعليم قبل عهد التنظيمات

كّرّس التُّرك في سوريا ثقافة الجهل جرياً على عاداتهم. ويذكر الرحالة الفرنسي «Volney»، أن وباء الجهل كان عامّاً في سوريا في القرن الثامن عشر، وقد اعترى هذا الوباء أبناء الفرنج أنفسهم.

ومن الأقوال المأثورة في مرسيليا، إن الشاب الأوروبي الأصل المولود في الشرق، حامل كسلان لا يعرف سوى التكلم بعدة لغات. ويعزو الرحالة الفرنسي السبب الأساسي للجهل بقلّة وسائل التعليم، ولاسيما الافتقار إلى الكتب، فالكتب، كما يقول، كثيرة في أوروبا، وما من شيء أكثر انتشاراً من القراءة، وأما في سوريا فإنهم لا يعرفون سوى مجموعتي كتب إحداها في دير ماريوحنا - الشوير، والأخرى عند أحمد باشا الجزار في عكا، والأولى ناقصة من حيث الكمية والنوع، وأما الثانية فالذين رأوها قالوا إن عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة، وهي كل ما تسنى للجزار غنمه من جميع البلاد السورية^(١).

وفي ظل ذلك الجهل المطبق كان ثمة بصيص أمل يتمثل فيما يسمّى «الكتاتيب»، وهم المشايخ الذين كانوا يعلمون الأولاد مبادئ القراءة والكتابة. وكان التدريس يتم في غرفة واحدة، يجلس فيها الأولاد على الأرض، من الصباح حتى المساء^(٢). وكان إرسال الأولاد إلى الكتاتيب يبدأ في السنة السابعة أو الثامنة من أعمارهم، وكان العام الدراسي يقتصر على فصل الشتاء فقط، لكي لا يتعارض مع الأعمال الزراعية في فصلي الربيع والصيف^(٣). حيث يذهب الولد لمساعدة أهله في أعمال الزراعة، وكانت مدة التدريس تستغرق أربع سنوات يتخرج الطالب في نهايتها وقد ختم القرآن واستحق شيوخه البخشيش من الوالد الذي كان يقيم بالمناسبة احتفالاً حاشداً يحضره الأهل والأقارب والأصدقاء^(٤). وكانت طريقة التعليم أن يبدأ الولد بقراءة الحروف

(١) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - Volney - ج ٢ - ص ١٠٨

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبيلص - ص ٣٥٨

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبيلص - ص ٣٥٩

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبيلص - ص ٣٥٩

الهجائية حتى يحفظها، ثم يأخذ في تعلم المنقوط وغير المنقوط وعدد نقاط الحروف الهجائية (أ) لا شيء، (ب) نقطة من تحت (ت) نقطتان من فوق (ث) ثلاث نقط من فوق، وهكذا. ثم في معرفة الحركات والسكون، فيقول، ألف أنصب، ألف أخفض، ألف أرفع، ألف أجزم، وهكذا إلى الآخر. ثم الباء وباقي الحروف بهذا الترتيب، ثم الفتحتان، والكسرتان، والرفعتان، بهذا الترتيب، لكن المشايخ الذين كانوا يعلمون لم يكونوا ينطقون بما يدل على ذلك بلفظ صحيح، فيسمّون الكسر خفضاً والضم رفعاً، والسكون جزماً^(١).

أما تعلم الخط فكان كل ولد يحضر معه لوحاً من التنك الحديد، ويكتب عليه بمداد من تراب أبيض، ومن ثم كان التلاميذ يكتبون على الورق حتى يتعلموا كتابة الخط. في الوقت الذي كانوا يتابعون فيه حفظ القرآن جزءاً جزءاً حتى يكملوا ثلاثين جزءاً^(٢).

وقلما كان أولاد العلويين يتابعون تعليمهم بسبب الفقر وضيق ذات اليد والحاجة إليهم في أعمال الزراعة، لكن لا شك أن عدداً لا بأس به ممن تعلموا في الكتاتيب كان لهم دور كبير في حفظ الشرع واللغة العربية، وكان هناك قرى ساهمت في نشر العلوم مثل قرية «بيت الشيخ يونس»* التي أنشئت فيها أول مدرسة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكانت تستضيف طلاب العلم من كل أنحاء جبال العلويين، وكان يدرس فيها الشيخ علي القاضي*، وممن درس فيها الشيخ عبد الكريم الحاج*.

٢- التعليم في عهد التنظيمات

أخذت الدولة العثمانية في عهد التنظيمات بتطبيق النظم الحديثة على رعاياها وكان للتعليم نصيب من الاهتمام، وقد مهّدت الإدارة المصرية لسوريا بين ١٨٣١ و١٨٤٠ السبيل لظهور المدارس الحديثة، وذلك بفضل المدارس الابتدائية التي أنشأها إبراهيم باشا فيها على النمط الذي جرى تطبيقه في مصر^(٣).

(١) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ١٨٩

(٢) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ١٨٩

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٥٢

* بيت الشيخ يونس، قرية تقع غرب صافيتا بنحو ثلاثة كليومترات.

* الشيخ علي القاضي، المعروف بالشيخ علي بدرة» من قرية صهيون، صافيتا، وقد نسب لأمه لأنه ربي يتيمًا عند الشيخ يوسف مي، واستقدمه الشيخ يونس ياسين إلى قرية بيت الشيخ يونس حيث نصبه قاضياً ومعلماً ولهذا عرف هو وعائلته من بعده ببيت القاضي - بقطة المسلمين العلويين - الشيخ عبد الرحمن الخيزر - بحث منشور في مجلة النهضة لمؤسسها الدكتور وجيه محي الدين.

* الشيخ عبد الكريم الحاج، تولى التعليم الحكومي في مدرسة بجنين على عهد المتصرف ضيا باشا، كما تولى القضاء المذهبي في طرطوس في عهد الاحتلال الفرنسي، وله شعر عامر في مدح النبي وآل بيته الأطهار وأولياء عصره - بقطة

وفي سنة ١٨٦٩ أصدرت الدولة العثمانية «قانون المعارف» وصيغ في ١٩٨ مادة، وقسّم هذا القانون المدارس إلى خمسة أقسام هي: المدارس الابتدائية، والمدارس الرشدية، والمدارس الإعدادية، والمدارس السلطانية، والمدارس العالية^(١). ونص القانون على إلزامية التعليم في المدارس الابتدائية، وعلى وجوب وجود مدرسة في كل قرية، أو على الأقل في كل قريتين على أن يدفع أهل القرية نفقات إنشاء المدرسة ومخصصات المعلمين فيها^(٢). ونص القانون على أن تتضمن مناهج التعليم في المدرسة الابتدائية «العلوم الدينية، والقراءة والكتابة باللغة التركية، والحساب، والأشغال اليدوية، والتاريخ، والجغرافيا»^(٣).

على أن إلزامية التعليم كانت حبراً على ورق، ومجرد نظام اقتبس من الأنظمة الأوروبية دون دراسة لإمكانية الدولة العثمانية التي كانت تعاني آنذاك من ضائقة مالية كبيرة بسبب حرب القرم، ١٨٥٣-١٨٥٦، وما تبعها من ظروف صعبة عاشتها الدولة، ولذلك عندما تمّ إصدار قانون المعارف كان ينبغي إنشاء معاهد لإعداد المدرسين والمعلمين، وكان يجب على الدولة أن تقوم هي بإنشاء المدارس لأن تترك هذا الأمر إلى الأهالي، ولهذا لم تحدث نهضة علمية شاملة وظل السكان في معظمهم يعانون من جهل مطبق، وكانت بلاد العلويين من أكثر المناطق السورية تهمة، ولهذا ظلت قراهم بعيدة، بشكل شبه كامل، عن معالم الحضرة والتطور.

ويذكر «ولاية بيروت» أن لواء اللاذقية كان يعيش عيشة القرون الوسطى، وكان مهماً بالكلية، ولم يكن فيه مؤسسة يجدر أن تسمى «مدرسة»^(٤).

وربما كانت إدارة المعارف في اللواء تريد تطبيق إلزامية التعليم، لكنها كانت تصطدم بالواقع. وقد بحث مفتش المعارف في اللواء عن أسباب هذا الحال في تقريره الذي عرضه على مقام الولاية فقال: «لم تتمكن في هذه السنة ١٣٣٢ للهجرة ١٩١٠ للميلاد، من تطبيق قانون التدريبات الابتدائية، إذ يجب بموجب هذا القانون أن تؤسس المدارس الابتدائية في كل قرية، ثم يصار إلى قاعدة التحصيل الإلزامي، بيد أنه لم يمكن إعداد المعلمين القادرين الحائزين على الشروط الأهلية للمدارس التي كلفت نفقاتها ميزانية الدولة، وهذا السبب قضى بتعطيل أكثرها، ولو عمدنا لتحصيل النفقات

المسلمين العلويين - الشيخ عبد الرحمن الخيّر - بحث منشور في مجلة النهضة لمؤسسها الدكتور وجيه محي الدين.

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٥٦

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٥٤

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٥٤

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٠

من الأهالي لأجل تأسيس هاتيك المدارس لم تتمكن من إيجادها بسبب فقدان المعلمين، ولن يتحقق النفع الذي يتوخاه القانون، أما الإجماع على التحصيل، فلم يمكن تطبيقه بسبب ما أصاب الأهالي في السنة الماضية من ضنك المعيشة وضيق اليد، ثم أن الآباء والأولياء الذين تحقق عليهم المسؤولية إما هم في الخدمة العسكرية، وإما هم في الدرجة القصوى من الفقر والحاجة، ولهذا لا يمكن تطبيق الجزاء الذي رسمه القانون حتى أننا نرى كثيراً من الطلاب قصرت أيديهم عن الحصول على الكتب والدفاتر وغيرها من أدوات الدراسة، بسبب ارتفاع الأسعار، وأطفال المجاهدين والشهداء والفقراء الذين اعتادوا على شراء عشرين لوحاً من الورق بعشر بارات يعجزون عن شراء لوح واحد منه بعين الثمن»^(١).

ومن هذا التقرير يتضح أن الدولة لم تكن جادة في تطبيق إلزامية التعليم، لكن رغم ذلك، فقد بدأت تسعى لفتح المدارس في أرجائها، وفي مطلع القرن العشرين حصلت بعض قرى العلويين على فرصة التعليم، حيث تم إنشاء مدرسة في برمانه «دريكيش» مركز قضاء صافيتا عام ١٩١٠، ويذكر محمد رفيق بك، أن هذه المدرسة كان فيها، عندما زار برمانه عام ١٩١٦، ٤٥ طالباً من الذكور، و ٢٥ طالبة من الإناث^(٢). كما تم إنشاء مدرسة في قرية «الطليعي» وأخرى في قرية «الصفصافة»، والمعلم في الأولى لا بأس به، لكن معلم الثانية يؤثر عنه أنه غير أهل لها وليس بنشيط^(٣). كما تم إنشاء مدرسة في الكفرون، مركز قضاء حزور، ومدرسة في طرطوس، وأخرى في أرواد^(٤).

٣- البعثات التبشيرية

منذ منتصف القرن الثامن عشر، نشطت الإرساليات التبشيرية الأوروبية في سوريا مستغلة ضعف الدولة العثمانية، واستطاعت هذه الإرساليات أن تحصل على حقوق بإقامة مدارس ابتدائية، وكان الهدف هو نشر العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية التي لم تكن معروفة في الشرق. وقد تنبّهت الدولة العثمانية لخطر التبشير، لكنها لم تستطع أن تقف في وجه المبشرين علناً، خوفاً من الدول التي ينتمون إليها، بل لجأت إلى إقامة العراقيين أمامهم،

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٥١

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٠

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٠

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٦٠

وفرضت عليهم رقابة شديدة في جميع ولاياتها^(١).

وظل سكان جبال الساحل بعيدين عن النشاط التبشيري بحكم اختلاف العقيدة مع تلك الإرساليات التي كانت تستهدف مسيحي الشرق، لكن لم يبق الأمر كذلك، لأن المجلس الأمريكي للإرساليات التنصيرية للكنيسة المستقلة اتخذ قراراً بإرسال إرسالية تنصيرية إلى الدولة العثمانية نظراً لأهميتها باعتبارها متزعمة العالم الإسلامي. وتنفيذاً لذلك أبحر القسّان «بليني فيكس Blini Fix» و«ليفني بارستونز Levi Parstons» إلى أزمير، وفور ووصولهما أرسيا الدعائم التي مهدت لقدم مزيد من الإرساليات التنصيرية الأمريكية إلى الدولة العثمانية^(٢).

وفي عام ١٨٥٩ نهضت جمعية بروتستانتية أمريكية وأرسلت إلى اللاذقية وفداً برئاسة «مستردوتس Mr. Dots»، و«مستريتي Mr. Betty» لأجل تعميم البرتستانتية بين العلويين^(٣)، واستغل هؤلاء ضعف أولئك السكان وفقرهم وتهميشهم من قبل الدولة العثمانية، فتقربوا منهم بوسائلهم وهم يحاولون السيطرة على تلك الأنحاء، من خلال تكوين طائفة برتستانتية وإقامة مستوطنات على شاكلة المستوطنات الألمانية واليهودية في فلسطين أواخر ذلك القرن. وتمكنت تلك الهيئة من تأسيس أربعين مدرسة في قسبة اللاذقية، وبذلت كل ما يمكن بذله في طريق غايتها الدينية حتى تسنى لها تنصير ثلثة من فقراء العلويين، وقسم مهم من قريتي «بحمره وبجندره»^(٤).

وكان المبشرون يقدمون المساعدات الغذائية والخدمات الطبية والعلاجية، وبهذه الطرق كانوا يكسبون قلوب العلويين الضعفاء.

وقد شعر ضيا باشا* الذي كان متصرف اللاذقية، آنذاك، بخطورة هذه البعثة فأبلغ الدولة بذلك، لكن البعثة كانت قد حصلت على ترخيص من الباب العالي بمزاولة عملها، لذلك صدر التوجيه إليه للاهتمام بالعلويين، فاتصل بشيوخ العلويين وأطلعهم على حقيقة الأمر، فشكّل هؤلاء لجأناً وأرسلوهم إلى القرى العلوية المستهدفة بالتبشير، وعمد ضيا باشا إلى عشر

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٢٦٦

(٢) العلاقات العثمانية الأمريكية - ١٨٣٠-١٩١٨ - سلوى سعد الغالي - ص ٢٤٥

(٣) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٦٣

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٦٣

* «بحمرة وبجندره»: بحمرة معروفة، لكن بنجدرة غير معروفة وغير موجودة، وفي الحقيقة أن التبشير استهدف قرية بحمرة لكن المبشرين فشلوا في تحقيق هدفهم، وبقيت هذه القرية علوية.

* ضيا باشا، (ولد في ١٨٢٥ بأستانبول، وتوفي في ١٧ مايو ١٨٨٠ في أدنة) هو كاتب وشاعر تركي، اسمه الحقيقي «عبد الحميد ضياء الدين» هو واحد من رجال الدولة المهمن - ويكيبيديا.

* لم يوضح كتاب «ولاية بيروت» ما هي أسماء تلك القرى العشر.

قرى* في الجبل وأسّس في كل واحدة منها جامعًا ومدرسة، وبعث إليها الواعظين والمرشدين^(١).

ويقول الشيخ عبد الرحمن الخير، إن ضيا باشا: «قصرهمه على تمدين (العلويين) في جبال اللاذقية، وسلك إلى ذلك ثلاث طرق قديمة أولها تقريبه أهل العلم والتقى واحترامهم واستشارتهم، ثانيها العدل والصراحة في الحكم، ثالثها إنشاء ثمانين مدرسة أميرية في كل منها مسجد موزعة بين القرى الأهلة بالسكان كل ذلك على نفقة الحكومة وانتقائه المعلمين في تلك المدارس من خيرة المشايخ حيث يتسنى ذلك. لكن الخلاف العشائري المستفحل يومئذ في الشمال والحسد الذميم وقصرأيام المرحوم ضيا باشا كل هذه العوامل أدت إلى خنق فكرة ذلك الإداري المخلص والمحسن الكبير»^(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن الخير، إن ضيا باشا طلب من الشيخ العلامة أحمد علي القلع - نسبة إلى قلع الدالية - جيلة*، أن يؤلف له كتابًا يتضمن معلومات عن المذهب العلوي لكي يتم تعريف الشباب بدينهم، فوضع الشيخ أحمد هذا الكتاب وتمّ تعميمه على المدارس التي تمّ إنشاؤها^(٣).

ولكن لم تلبث تلك المدارس أن هُجرت بسبب غياب الاهتمام من الحكومة العثمانية، فالمدرسة تحتاج إلى المعلمين المؤهلين، ولم يكن ذلك متوفرًا*.

وفي مطلع القرن العشرين، أقرنظام المعارف في الدولة العثمانية تأسيس ١٧ مدرسة في جميع أنحاء لواء اللاذقية، غير أن فقدان المعلمين أوجب الاكتفاء بتأسيس ١١ مدرسة كلها تُدار بالوكالة^(٤)، ولم يكن لقرى الجبل نصيب في مدرسة من تلك المدارس.

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٦٣

(٢) مجلة «النهضة» لمؤسسها الدكتوروجيه محي الدين، بحث منشور في العدد ٣، كانون الثاني، وشباط، وأذار، عام ١٩٣٧، للشيخ عبد الرحمن الخير بعنوان «يقظة المسلمين العلويين».

(٣) مجلة «النهضة» لمؤسسها الدكتوروجيه محي الدين - بحث منشور بعنوان «يقظة المسلمين العلويين» الشيخ عبد الرحمن الخير - العدد - كانون ثاني وشباط وأذار عام ١٩٣٧.

* نبغ في الفقه واللغة الشيوخان العالمان محمد علي القلع وأخوه الشيخ أحمد علي، وقطن الشيخ أحمد علي القلع في قرية القطرية - اللاذقية وهناك وضع كتيبًا في الفقه المذهبي ليدرس في المدارس الأميرية تلبية لطلب متصرف اللاذقية، في ذلك الوقت، ضيا باشا - يقظة المسلمين العلويين، الشيخ عبد الرحمن الخير، بحث منشور في مجلة النهضة لمؤسسها الدكتوروجيه محي الدين.

* يبدو أن الدولة العثمانية لم تكن جادة في أمر إصلاح أوضاع العلويين بقدر اهتمامها بمنع الدول الكبرى من إيجاد مناطق نفوذ لها على أجزاء من أرضها، فتأسيس طائفة بروتستانتية في اللاذقية سيؤدي إلى اندفاع الولايات المتحدة لحمايتها. ولذلك أقدم العثمانيون على بناء المدارس والجوامع في بعض القرى العلوية، وطبعًا تمّ إهمال تلك المدارس، وربما لم يدرس بها أحد من العلويين، لأنه لو حدث ذلك لكان هناك متعلمون بينهم من ذلك الوقت، في حين أن التعليم الرسمي لم يبدأ بين العلويين بشكل جدّي إلا بعد استقلال سوريا عن فرنسا.

(٤) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٦٣

وظل المبشرون يسعون وراء أحلامهم من دون جدوى، لأن العلويين شعب يعتر بثقافته وتاريخه ودينه. وقد شاءت الظروف أن تقع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بين دول الوسط «ألمانيا، النمسا، الدولة العثمانية» و«الحلفاء: بريطانيا، فرنسا» ومن خلفهم الولايات المتحدة. وقد تعكرت العلاقات الأمريكية العثمانية وساءت مع زيادة الدعم الأمريكي للحلفاء في أوروبا مما أثار على النشاط التبشيري الأمريكي في سوريا وفي منطقة الساحل.

وعند اندلاع تلك الحرب كان المجلس الأمريكي للإرساليات* يشرف على سبع مراكز رئيسية و٢٥٦ مركزاً فرعياً في عموم أراضي الدولة العثمانية بقوى عاملة قدرها ١٧٤ أمريكياً، ونتيجة الحرب فقد تناقصت الجهود التنصيرية، وتمّ التخلي عن ستة مراكز في عام ١٩١٦^(١). وقبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب مباشرة «عام ١٩١٧» كتب المجلس الأمريكي للإرساليات التنصيرية تقريراً عن وجود ٢٤ رجلاً و١٦ زوجة و٥١ امرأة و١٧ طفلاً في الدولة العثمانية.

وبرحيل الدبلوماسيين الأمريكيين كان كثير من رجال الإرساليات يلحّون على حكومتهم من أجل أن ينسحبوا، وتمّ إغلاق أغلب الكنائس والمؤسسات التنصيرية، واستولت الدولة العثمانية على المنشآت التابعة للإرساليات مما أزعج الإرساليات والحكومة الأمريكية التي حصلت على تعهدات من الدولة العثمانية بأن هذه المنشآت سوف تُعاد عندما تسمح الظروف^(٢).

لكن بعد الحرب تبدّلت الأرض غير الأرض، فقد سقطت الدولة العثمانية، وجاء المستعمر الفرنسي إلى بلادنا، وجاء معه الآباء اليسوعيون «الجزويت» الذين كانوا يرافقون الاستعمار الفرنسي في مختلف مناطق العالم، بهدف نشر الكاثوليكية، وعملوا على تنصير العلويين في بعض مناطق قضاء صافيتا، وقد قبل بضع عشرات من هؤلاء لبعض الوقت، مظاهر المسيحية، الأمر الذي دفع «زعماء» العلويين إلى إيصال شكواهم إلى المفوض السامي الفرنسي في بيروت للاحتجاج^(٣). لكن لم يتحرك المفوض السامي، فثار العلويون على المنصرين ودمروا ما أقاموه من مراكز، ولم يبق لهم سوى كنيسة في قرية «التفاحة»*، أما باقي آثارهم في القرى الأخرى فقد تمّ محوها بالكامل.

(١) العلاقات العثمانية الأمريكية ١٨٣٠ - ١٩١٨ سلوى سعد الغالي - ص ٢٤٦
* منذ عام ١٨٧٠ تمّ تقسيم الإرساليات الأمريكية في الدولة العثمانية بين المجلس الأمريكي للإرساليات ومجلس الإرساليات المسيحية، ولكن تفوق إرساليات المجلس الأمريكي كان واضحاً. راجع كتاب - العلاقات العثمانية الأمريكية - سلوى سعد الغالي ص ٢٤٦

(٢) العلاقات الأمريكية العثمانية - ١٨٣٠ - ١٩١٨ - سلوى سعد الغالي - ص ٢٤٧

(٣) تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي - ستيفن هاملي لونغريغ - ص ٢٦٦
* قرية التفاحة، تقع على بعد ١٥ كليومتراً شمال دريكيش.

الفصل الرابع

المحاكم والقضاء

١- القضاء قبل عهد التنظيمات

منذ أن تكونت الدولة العثمانية حتى زوالها كان شيخ الإسلام وجميع المفتين والقضاة في جميع أنحاء الدولة يفتون ويحكمون وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي والإلزامي، وهو مذهب الأتراك الذي أخذوه عن الدولة العباسية.

وإذا جاز أن يتعدى هذا المذهب متعدياً، فلا يجوز إلا لبقية المذاهب الثلاثة وهي «الشافعي، والمالكي، والحنبلي» المقررة، أما المذهب الجعفري، فلم يكن معترفاً به من قبل الدولة، بل كان محظوراً^(١).

وكان قضاة الشرع يشكلون المحاكم العادية في تاريخ الخلافة العثمانية، وكان يرأس هذه المحاكم نواب الشرع الذين يعينهم شيخ الإسلام الذي كان يشرف على جميع المفتين وقضاة الشرع في السلطنة. وكان القضاء الشرعي يطبق الأحكام الشرعية وفقاً للمذهب الحنفي الرسمي مبدئياً، ثم كان هناك المحاكم المذهبية لغير المسلمين وهي التي كانت تنظم للنظر في مسائل الأحوال الشخصية المتعلقة باتباع هذه الطوائف^(٢).

وقضت قوانين الدولة أن يقترح قاضي عسكر الأناضول تعيين من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لتولي القضاء في الأيالات الشامية الأربع، فتصدر بذلك فرمانات «أوامر» رسمية من عاصمة السلطنة وأن يجلس للقضاء كل سنة وفي كل من حلب ودمشق وطرابلس والقدس (مولى خلافة) من علماء الأتراك ويقوم هو بدوره بتعيين من ينوب عنه في سائر مدن الأيالة التي ولي القضاء فيها. ولم يكن للقاضي رسوم معلومة ولا مرتب محدود، بل كان يجب على كل قاض أن يتقاضى عن كل دعوى ما يقدره هو من الأجر وإذا كان متورعاً فإنه لا يطلب أجراً معيناً بل يكتفي بما يعرضه أصحاب القضايا^(٣).

وكان القضاة في غالبيتهم يعيشون على الرشاوى، ويجعلون الحق باطلاً والباطل حقاً.

(١) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ٤٥

(٢) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ٤٦

(٣) العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - ص ٤٨

ويذكر عبد الغني النابلسي الدمشقي، الذي زار طرابلس في مطلع القرن الثامن عشر، نموذجًا من ذلك فيقول إن قضاة الشرع في طرابلس كانوا مرتشين «وإن الرجل إذا أراد أن يتزوج فيأتي إليهم، فيكتبوا في صدر ورقة بياض أذن مولانا (بعد أوصاف تحضرهم باردة، وقيود غير لازمة زائدة) القاضي بمدينة طرابلس لفلان الفلاني، ويسمّون رجلاً يعقد العقد إما من العلماء أو الجهلاء بأن يعقد عقد فلانة على فلان من غير مانع شرعي ويجعل القاضي إمضاءه في أعلى الورقة ويدفعونها لمن يريد أن يعقد العقد ويقبض القاضي مبلغًا من المال محددًا، على ذلك ما صدر عليه الوعد من غير تسجيل لذلك ولا العلم بتفاصيل ما هنالك»، «ومنها أن غالب ما يصدر عندهم يكتبونه من غير تسجيل فيفضي ذلك إلى ضياع حقوق الناس، فحسبنا الله ونعم الوكيل»^(١).

ولم يكن في طرابلس ولا في غيرها من ولايات الدولة محاكم مدنية، في مرحلة ما قبل التنظيمات، بل كانت جميع الدعاوى تبت بها المحاكم الشرعية باستثناء قضايا الأحوال الشخصية لغير المسلمين، التي كان يحق لهم المرافعة فيها لدى رؤسائهم الروحيين، وإذا تعذر حلّها أحييت إلى قاضي الشرع الإسلامي^(٢).

وقد شملت مهام المحاكم الشرعية، تدوين جميع المعاملات الرسمية العائدة للولاية كالفرمانات السلطانية ومراسيم تعيين الموظفين والولاية^(٣).

وبالإضافة إلى قضاة الشرع فقد أعطت الدولة العثمانية الإقطاعي «التيمارجي أو السباهي» حق إقامة القضاء بين الفلاحين، كل إقطاعي ضمن إقطاعه، ولما كان هؤلاء بأغليبيتهم الساحقة من الأميين وغير المطلعين على القضاء الإسلامي والشرعي، فقد كانت أحكامهم، في الغالب، موافقة لأهوائهم ورغباتهم الشخصية، وفي أحسن الأحوال، مراعية للأعراف المتبعة آنذاك ولقوانين ثابتة ومنصوصة^(٤).

ونظرًا لكثرة الإقطاعيين في كل مقاطعة، فقد كان كل إقطاعي يحكم في كل قضية تعرض أمامه بما يراه مناسبًا، وكانت الأحكام القضائية الإقطاعية في نفس القضية مختلفة بين إقطاع وآخر^(٥).

(١) المجالس المحاسنية - يحيى بن أبي الصفا بن أحمد ابن محاسن - ص ٧٩

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٠

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٠

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢١

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢١

أ. نواب الشرع

كان قضاة الشرع في مراكز الولايات يعينون، مع موافقة مدير القضاء أو القائم مقام، نواب شرع، لكي ينوبوا عنهم في إجراء أحكام القضاء، ويحددون مدة نيابتهم أحياناً، وكانوا يختارون هؤلاء من العائلات الإقطاعية البارزة، وفي ولاية طرابلس، كان قاضي الشرع يختار نوابه من العائلات الطرابلسية المشهورة مثل آل كرامي، وسلطان، ومحاسني، ونشار^(١).

وقد لجأ هؤلاء النواب أحياناً إلى تكليف بعض الأفندية من ذوي المعرفة، لسماع الدعاوى في مختلف المقاطعات التابعة للولاية. وتذكر سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس، أنه كان يوجد في صافيتا نائب شرع سنة ١٢٧٣ للهجرة^(٢).

وعلى الأغلب أن نواب الشرع كانوا من الأتراك أو من فقهاء الأحناف المحليين، وقلماً كان العلويون يلجأون إلى نائب الشرع إلا لتوثيق العقود، ولا سيما عقود الزواج، والبيع. أما الخلافات فقد كان يتم حلها، في الغالب، من قبل بعض الشيوخ مثل الشيخ عيد الخير الذي يلقب بـ (المحكمة المتنقلة) لاشتغاله بفصل الدعاوى صلحاً بين أبناء الجبال^(٣).

وكان نائب الشرع يحظى باحترام ملحوظ حيث تتم مخاطبته بتفخيم كبير: «مولانا عمدة العلماء الكرام، فضيتلو... الحاكم الشرعي»^(٤).

وقد عمدت الدولة العثمانية إلى إصلاح القضاء الشرعي، فأصدرت عام ١٨٥٥ نظام توجيه مناصب القضاء وضمنته ملحقاً من نظام توجيه مناصب النواب الذي صنفهم إلى خمسة أصناف من حيث كفاءتهم ورتبتهم، «القضاوات التي تكون بعيدة عن مراكز الولاية والتي تكون قائممقامية يعين فيها قضاة من الصنف الثالث، أي من القضاة الذين لم يسبق استخدامهم في الخدمات الشرعية، وإنما ظهرت قابليتهم واستعدادهم لدى الامتحان»^(٥). كما حددت مدة نيابة النائب الشرعي بسنتين، لا يعزل أثناءها ما لم ترد عليه شكوى من القائم مقام أو من أهالي المنطقة، وبعد انتهاء مدته يعزل ويجري تعيين خلف له^(٦).

(١) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٢

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٢

(٣) «يقظة المسلمين العلويين» الشيخ عبد الرحمن الخير - بحث منشور في مجلة النهضة لمؤسسها الدكتوروجيه محي الدين - العدد ٣، كانون الثاني، وشباط، وأذار ١٩٣٧.

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٢

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٣

(٦) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ١٢٣

ب. جلسات المحكمة وإصدار الأحكام الشرعية

يروي القنصل الفرنسي «هنري غيز» كيف كانت تجري المحاكمة أمام القاضي الشرعي فيقول: «كان القضاة يحكمون بناء على إدعاء شفوي. يحضر القاضي المتهم حالاً، فيحاول هذا الأخير تبرئة نفسه جهده عندما يبلغ الجرم المنسوب إليه، وعلى الفريق الذي يريد إثبات مدعاه أن يسمي عند ذاك شهوده، وبعد استماع أقوال الشهود يلفظ القاضي الحكم فيكون مبرماً، والذي يحكم عليه يدفع النفقات^(١).

وكان القاضي يسمع إلى أقوال الفريقين الجالسين القرفصاء قرب باب القاعة، بينما يكون هو ممدداً على سجادة وبضع وسائد، ثم يحيي وطيس النقاش، وفي بعض الأحيان يتكلم القاضي والمتداعون معاً، ويتعالى الكلام، وعلى الأصح الصراخ، دون أن يسمع أحدهما الآخر، فينهال الجنود على المتداعين بضرب قاس ليلزما الخشية والأدب، وعند ذاك يلفظ القاضي حكمه، فيخرج المتداعيان تحت ضرب الجنود ورفسهم لينفذ الحكم بلا هوادة*^(٢).

وكانت القوانين رغم صرامتها، لا تخيف إلا السارقين الضعفاء، أما الأقوياء فإنهم يخرقون حرمتها دائماً ولا يعاقبون في أكثر الأحيان، وكانت المحكمة تتم من دون وجود محامين ودونما تنظيم محضروا تدوين كلمة^(٣).

وكانت الأحكام تنظم بسرعة كلية، فلا يعوق إعدادها صعوبة فهم النزاع، وهكذا إذا كانت القضية تدرك بعض الشيء فمحاكم الأتراك أسرع إلى حلها من محاكم جميع الشعوب، بيد أن الطريقة التي تتبع في إحقاق الحق عاجلاً، كثيراً ما تؤدي إلى أخطاء مخيفة، فهناك أشخاص، في القسطنطينية على الأخص وفي مدن تركيا الكبرى عموماً، ليس لهم عمل إلا الشهادة بالزور، وقد جمعوا من جراء هذا العمل الدنيء السافل ثروة لا يستهان بها، وهكذا كانت العدالة تسير مغمضة العينين ولا تنطق غالباً إلا بالأباطيل^(٤).

وكانت جلسات القضايا تعقد في مركز المحكمة الشرعية أو في منزل القاضي أو المدعي إذا كان من أصحاب النفوذ^(٥).

(١) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي هنري غيز - ج ١ - ص ١١٨

(٢) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي هنري غيز - ج ١ - ص ١١٨
* يعلق القنصل هنري غيز على هذه المحاكمة بالقول: «إن الذين عرفوا أساليب المحاكمة في أفريقيا يسهل عليهم أن يتخيلوها في سوريا».

(٣) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي هنري غيز - ج ١ - ص ١١٩

(٤) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي - هنري غيز - ج ١ - ص ١١٩

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٢٧

وفي عهد التنظيمات عندما أصبح لكل قضاء مجلس دعاوى، أصبحت المحاكمة تعقد في سرايا مركز القضاء، وقد تم إقامة سرايا في صافيتا عندما كانت مركز القضاء، ومن ثم أقيم سرايا آخر في برمانه التي أصبحت مركز القضاء منذ عام ١٨٦٥، كما كان يوجد سرايا في بابنا مركز قضاء صهيون، وفي كل سرايا كان هناك محكمة، وقد أطلق على جلسة المحكمة «مجلس الشرع الشريف ومحفل الحكم المنيف»^(١). وكان يتم تدوين الحكم حال صدوره في سجل المحكمة حيث يعطى رقمًا مسلسلًا حسب تاريخ ومكان وروده في السجل دون مراعاة أي تصنيف للقضايا حسب نوعها، ولهذا كان يوجد في السجل الواحد أحكامًا مختلفة من طلاق وميراث وجنح وجنايات، وكان يحق لأطراف النزاع الحصول على نسخة من الحكم^(٢).

ورغم ذلك فإن المحكمة الرسمية كانت تصدر أحكامًا ضيزية، ولم تكن تعطي الحق لصاحبه إلا إذا كانت «واسطته» قوية، أو تعضده إحدى القنصليات. والالتجاء إلى البرطيل يزيد الخير خيرًا، إنه مركبة لا يُستغنى عنها، وهي بصورة خاصة، ضرورة للرؤساء الذين لا يتمتعون بحماية ما، ولا يستطيعون نظرًا لضعف نفوذهم أن يديروا دفعة هذه الدسائس لتجري الرياح بما يشتهون، وإن لم يفعلوا فقضاياهم لا تنتهي، وإذا انتهت فإنما ذلك يكون ببطء^(٣).

وكان باب التقاضي في صافيتا وفي سواها من الأقضية الأخرى التي يتبع لها العلويون، مفتوحًا للجميع، لكن نادرًا ما كان العلويون يذهبون إلى المحكمة، بسبب الحكم العشائري الذي ساد في بلادهم منذ عام ١٨٦١، حيث كان زعيم العشيرة يقيم الحدود ويفصل في القضايا المتعلقة بأتباع عشيرته، ويصدر حكمه المتضمن العقوبة، وكانت تلك العقوبة هي «التخييش» * فيقال «خيّشوه».

(١) تاريخ عكار - فاروق حبلص ص ١٢٧

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص ص ١٢٧

* يقول هنري غيز: «إن الأتراك هم شعب مناقضات، تلك هي وساس المحكمين والقضاة والأئمة، إنهم بعد أن يساموك في حل قضية، أو استبداد ملف، يرفضون قبض المبلغ مباشرة، بل يطلبون منك أن تضعه على الأرض ليستطيعوا الحلف فيما بعد أنهم لم يقبضوا شيئًا، لقد وجدوا المال المذكور على الأرض فالتقطوه، وهذا لا يمت إلى الإثم بصلة ما - بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - ج ١ - ص ١١٥

(٣) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - القنصل الفرنسي هنري غيز - ج ١ - ص ١١٤

* بموجب عقوبة «التخييش» كان يتم وضع المحكوم عليه في كيس خيش أو عدل، وربطه، ومن ثم ضربه على مختلف أعضاء جسده حتى يتم تحطيمه. وحكى لي من أثق به أنه تمّ معاينة شخص من إحدى قرى قضاء صافيتا بتلك العقوبة لسبب لا يستحق إنزال تلك العقوبة الوحشية به، لكن كان الهدف من وراء ذلك العقاب هو إيقاع الرعب في قلوب الناس من الزعيم ومن الجهات التي تقف خلفه وتحميه.

* المتنفدون في قرى العلويين كانوا من أبناء أو حلفاء الأسر العشائرية، فزعيم العشيرة كان يستعين بأعوان له لحكم مختلف قرى دولته، ولذلك كان مضطرًا لوضع مساعدين له في القرى البعيدة، وهؤلاء كانوا يجبون الضرائب ويحكمون الفلاحين في مناطقهم.

لكن إذا كان الخلاف بين فلاح فقير وبين أحد المتنفذين*، فإن هذا الأخير كان يرفع دعوى على الفلاح لدى المحكمة في مركز القضاء ويبرطل القاضي ويستحضر الشهود الذين يشهدون لصالحه زوراً وبهتاناً، وقد حدثت حالات كثيرة في قرى العلويين حيث كان يتم اتهام الفلاحين وسجنهم، بل حتى إعدامهم، صحيح أن الزعيم العشائري كان يقضي بين أبناء عشيرته، لكن بعض المتنفذين كانوا يخشون من أن يرق قلب الزعيم على الفلاح الذي كانوا يريدون معاقبته، لذلك كانوا يلجأون إلى نائب الشرع في مركز القضاء ويجلبون معهم شهود الزور ليحققوا مآربهم.

٢- تنظيم القضاء

بدأت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتحديث الإدارة فيها، ولاسيما القضاء، فقد نصّت التنظيمات الخيرية التي صدرت في عهد السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٦ على تحديث القضاء، فجاء فيها: «إنشاء محاكم مختلطة للفصل في القضايا المدنية والجنائية، أما الدعاوى الخاصة بالأحوال الشخصية والإرث فتحال إلى المحاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين وإلى المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين، أما جميع الدعاوى التي تحدث بين أهل الإسلام والمسيحيين وباقي التبعة غير المسلمة تجارية كانت أو جنائية فتحال إلى دواوين مختلطة، أما الدعاوى العائدة إلى الحقوق العادية فينبغي أن ترى شرعاً أو نظاماً بحضور الوالي وقاضي البلدة في مجالس الإيالات والألوية المختلطة أيضاً وتجري المحاكمات في هذه المحاكم والمجالس علناً»^(١).

وسرعان ما تمّ ترجمة هذا الخط الهمايوني على الأرض، فأوجدت الدولة مجلس دعاوى (محكمة) في كل ولاية ولواء وقضاء برئاسة نائب الشرع الإسلامي وعضوية ستة أعضاء نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من غير المسلمين^(٢).

وبموجب نظام ديوان الأحكام العدلية الصادر عام ١٨٦٩، قسّمت المحاكم النظامية إلى أربع درجات أولها، مجلس دعاوى القضاء، وأكد هذا النظام على وظائف وصلاحيات هذا المجلس وحصرها في الأمور الآتية: «رؤية ما يقع من الدعاوى القانونية والنظامية والتدقيق في الأمور الجزائية كالتقباحة والجنائية».

وقد منع هذا النظام مجلس الدعاوى من النظر في الدعاوى التي «تلزم رؤيتها في المحاكم الشرعية والدعاوى الخصوصية العائدة للأهالي غير المسلمين التي جرت

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ٢٧

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ١٢٣

العادة أن ترى بمعرفة إدارتهم الروحية، وكذلك لا تنظر في الدعاوى المتعلقة بأمور التجارة والتي ترى في المحاكم التجارية»^(١).

وبعد صدور نظام المحاكم النظامية عام ١٨٧٢، منع مجلس الدعاوى في الأقضية من النظر في الدعاوى التي تجاوزت قيمتها خمسة آلاف غرش، كما نص النظام نفسه على إمكانية تسوية الخلافات التي يمكن حلها صلحاً في مجلس اختيارية القرية، شرط أن لا تكون من نوع القبائح والجنح والجنايات^(٢).

لكن إعطاء رئاسة مجلس دعاوى القضاء لنائب الشرع الإسلامي أدى إلى هيمنة القضاء الشرعي على هذا المجلس الذي أريد من إيجاده تطبيق القوانين المدنية على جميع الرعايا من مختلف الطوائف.

وقد ورد في التقرير الذي قدمته مجموعة من العلماء إلى عالي باشا الصدر الأعظم عام ١٨٧٠ أن «مجالس تمييز الحقوق لما كانت تحت رئاسة حكام الشرع الشريف، فكما الدعاوى الشرعية تصير رؤيتها وفصلها لديهم، كذلك كانت المواد النظامية التي تحال إلى تلك المجالس ترى وتفصل بأمرهم أيضاً، وبذلك يجري حل تلك المشكلات من حيث إن أصل القوانين والنظامات الملكية ومرجعها هو الفقه، وكثير من الخصوصيات المرعية والأمور التي ينظر فيها بمقتضى النظام، يفصل ويحسم وفق المسائل الفقهية، والحال إن أعضاء مجالس تمييز الحقوق لا اطلاع لهم على مسائل علم الفقه، فإذا حكم حكام الشرع الشريف في تلك الفروع بمقتضى الأحكام الشرعية، ظن الأعضاء أنهم يفعلون ما يشاؤون خارجاً عن النظامات والقوانين الموضوعة وأسأؤوا بهم الظن»^(٣).

وكانت القوانين التي وضعتها الدولة لا تلاحظ مختلف مشاكل الحياة، ولذلك استمر حل تلك المشاكل بموجب القوانين الشرعية القديمة ومن أجل سد تلك الثغرات فقد أصدرت الدولة مجلة الأحكام العدلية عام ١٨٧٦ حتى يصار إلى النظر في القوانين الجارية على القواعد الفقهية بمقتضى احتياجات العصر، ولكي تكون هذه المجلة مرجعاً «لنواب الشرع وأعضاء المحاكم النظامية والمأمورين بالإدارة فيحصل لهم بمطالعتها انتساب إلى الشرع، ولدى الإيجاب تصير لهم ملكة بحسب الوسع، يقدرون بها على التوفيق ما بين الدعاوى والشرع الشريف»^(٤).

(١) تاريخ عكار- فاروق حبيلص - ص ١٢٣

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبيلص - ص ١٢٤

(٣) تاريخ عكار- فاروق حبيلص - ص ١٢٤

(٤) تاريخ عكار- فاروق حبيلص - ص ١٢٤

الفصل الخامس

التنظيم الإداري

- تمهيد

تغيّر التنظيم الإداري في الدولة العثمانية بعد صدور قانون تشكيل الولايات عام ١٨٦٤ الذي اشترك في وضعه كلّ من المصلحين مدحت باشا وفؤاد باشا، وصيغ هذا النظام في ٧٨ مادة ومادة مخصصة، وتتحدث المواد الخمس الأولى عن التقسيمات الإدارية وجاء فيها: «إن ممالك الدولة العثمانية تنقسم إلى دوائر يطلق على كل دائرة منها اسم ولاية يرأسها والٍ وتنقسم الألوية إلى أقضية يرأس كل منها قائمقام، وتنقسم الأقضية إلى نواح وقرى ومزارع، ويرأس الناحية موظف يعرف بمدير الناحية»^(١).

وكان العلويون موزعين بين لواءين هما، طرابلس واللاذقية، لكن كانت تابعيتهم لولاية سوريا التي أنشئت عام ١٨٦٤ بموجب القانون الجديد، وكان مركزها دمشق، وعندما أنشئت ولاية بيروت* عام ١٨٨٨، تمّ إلحاق لواء طرابلس واللاذقية بها.

ورغم وجود النية لدى القائمين على المشروع بالسير في الإصلاح حتى بلوغ الغاية المرجوة، إلا أن الدولة لم تكن قادرة على الخروج من العقلية النفعية، ذلك أنها نظرت إلى السكان على أساس الثروة المادية، واشترطت على المرشحين لشغل المناصب العليا، الوالي، المتصرف، القائمقام، أن يكونوا على درجة متصاعدة من الثراء حسب درجة الوظيفة ومكانتها^(٢).

ولم يكن في كل بلاد العلويين من يستطيع التقدّم لشغل هذه الوظائف، لأن غالبيتهم كانوا فلاحين وأجراء معدمين، ولهذا انحصر التقدم لتلك الوظائف بالطبقة الإقطاعية من الإقطاعيين الأتراك والمحليين. والوظائف التي تمّ إحداثها هي:

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٦٧

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٨٢

* كان السبب في إنشاء ولاية بيروت هو خوف الدولة العثمانية من زيادة الوجود الأوروبي في بيروت ومنتصرفية جبل لبنان.

١- الوالي

نصّت المادة السادسة من نظام الولايات على ما يلي: «نظارة أمور الولاية والمالية والضابطة وإجراء الأحكام الحقوقية تحال إلى والٍ منصوب من طرف الحضرة السلطانية الشريفة، وكما أن والي الولاية مأمور بتنفيذ جميع أوامر الدولة كذلك هو مأمور بإجراء ما هو داخل في حدود المأذونية المعينة له من أحكام ولايته الداخلية»^(١).

وقد اعتاد ولاة سوريا أن يبعثوا تقارير مفصلة إلى الباب العالي يبينون فيها تصرفات كبار موظفي الولاية ودسائس القناصل الأجانب في دمشق مع أهم الحوادث التي جرت في الولاية^(٢). وتضمن بعض هذه التقارير اقتراحات بإجراء إصلاحات في بلاد العلويين، ولكن الآستانة لم تكن تستجيب إلى هذه الاقتراحات بل كانت تعتمد أحياناً إلى إرسال تعليمات مضادة تماماً وتطلب من والي سوريا تنفيذ هذه التعليمات والأوامر حرفياً^(٣).

ومن هذا يتبين أن تهميش العلويين وإقصاءهم كان سياسة أصيلة لدى الدولة العثمانية وأنها لم تقلع عن هذه السياسة حتى زوالها.

٢- المتصرف

هو موظف عين بإرادة سلطانية وسمي «متصرفاً» وخوّل حق الإشراف على الأمور الملكية والمالية والأمن ضمن دائرة اللواء، وطلب منه تنفيذ الأوامر والتعليمات التي يرسلها إليه والي الولاية.

كما طلب منه أن يشرف على تصرفات ومعاملات موظفي اللواء وأن يخبر والي عن كل تصرف يعتبره مخالفاً للنظام، وهو مسؤول عن الأمن في اللواء، ويستطيع أن يسوق عساكر الضابطة من قضاء لآخر ويوزعها على الأقضية التابعة له بعد أخذ موافقة والي.

ولم يكن المتصرفون على قدر كبير من الخلق فقد وجد بينهم مرتشون ومغتصبون وسارقون^(٤).

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٨٣

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٨٧

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٨٧

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ٩٦

٣- القائمة مقام

عينت الدولة لكل قضاء قائم مقام يتولى النظر في الأمور الملكية والمالية والضابطة وينفذ أوامر الدولة وتعليمات الوالي التي ترده بواسطة متصرف اللواء الملحق به^(١). واشترطت الدولة على القائم مقامين معرفة اللغة العربية وخاصة الذين يخدمون في البلاد العربية^(٢).

وكان يُطلب من الراغب في التقدم إلى هذه الوظيفة التقدم بطلب إلى لجنة خاصة في مركز كل ولاية تعرف بلجنة انتخاب القائم مقامين يشرح فيها ترجمة حياته الكاملة، وبعد انتهاء مدة الطلبات يتم انتخاب أسماء القائم مقامين بالاقتراع السري بين أعضاء اللجنة، وتقدم أسماء الفائزين إلى الوالي الذي يرسل أسماء من وافق على انتخابهم إلى نظارة الداخلية حيث يعاد فحص الأوراق^(٣).

ورغم أن القانون نصّ على تعيين قائم مقام في كل قضاء، لكن لم يكن في الأقضية التي تتبع لها العلويون قائم مقام، سوى في جيلة*، وعكار، أما باقي الأقضية وهي «صافيتا، طرطوس، المرقب، حذور، الحصن، صهيون» فلم يكن فيها سوى مدراء ناحية. فكانت ناحية قضاء حذور في قرية الكفرون، وناحية قضاء صافيتا في قرية برمّانة، وناحية قضاء المرقب في بانياس، وناحية قضاء طرطوس في طرطوس، وناحية قضاء صهيون في «بابنا». ولعل السبب في وجود قائم مقام في جيلة هو أن ريف القضاء هو من العلويين، ولم يكن فيه مركز ناحية واحدة، ورغم اقتراح الولاة بإقامة نواح في ذلك القضاء، لكن لم يتحقق ذلك، لأن الدولة لم تكن لتجرؤ على إنشاء مركز إداري لها هناك خوفاً من استهدافه من قبل العلويين.

ويذكر محمد رفيق بك، أن الدولة باشرت، قبل عدة سنوات، بتشكيل ناحية في جهة الكلبية، فثار الجبليون هناك وأبوا على الحكومة هذا العمل فاضطرت إلى

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٠

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٠

(٣) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧١

* يذكر محمد بهجت بك ومحمد رفيق بك في حديثهما عن قضاء جيلة فيقولان، «ولا يوجد أثر للناحيات في هذا القضاء، ولا جرم أن إهمال أمر النصيريين الذين لا يفتأون يجاهرون السلطة العامة بالعصيان ويأبون أداء الضرائب وإفاء الجندية، لا ينطبق على حكمة الحكومة البتة. وأول ما يتحتم علينا تأمين الأمن، وترى الآراء المتضاربة بخصوص الوسائل التي يجب التذرع بها لحل هذه المعضلة الاجتماعية، فمهم من يقول إن هؤلاء الجبليين الذين وافقت مناعة جبالهم خشونة طباعهم فأوغلوا بالبغي والعصيان، وأصبحوا بعيدين عن قبول الانتظام والضبط يجب تبديلهم بقوم مفطورين على الهدوء والسكينة، ثم يقول أناس ممن لهم رابطة بهذه الأحوال، بوجوب تشكيل ناحيات في بني علي والقراحلة والكلبية والسمت القبلي، ليتسنى للحكومة أن تنفذ بسطوتها إلى أعماق هذه الجبال، وتضرب على أيدي أولئك الطغاة...، وأن الوسيلة لتخليص هؤلاء الجبليين من هذا المرض الاجتماعي هو تعبيد الطرق وتأسيس المدارس، فالطرق توصل القروي إلى أنحاء الساحل فيحتك بسكانه الهادئين، وبشاهد ما لديهم من الانتظام الحياتي، ويتمكن من بيع غلاله بقيمة عالية، ويرى الأرباح العظيمة فيشرع بتقدير قيمة الحياة». كتاب «ولاية بيروت» ج ٢ - ص ٤١٣

صرف النظر عنه بعدما أعدت المدير وأرسلته^(١).

٤- مدير الناحية

كانت وظيفة مدير الناحية إعلامية محضة فهو ينشر أنظمة وقوانين الدولة ويعلن أوامرها وتنبيهاتها في القرى التابعة لناحيته ويبلغ قائمقام القضاء بالتحقيقات التي يجريها مختير القرى فيما يختص بالولادات والوفيات والأراضي المكتومة ومنع مدير الناحية بموجب المادة ٥٠ من نظام الولايات من توقيع العقوبات الجزائية عن طريق السجن أو التوقيف، كما منع من النظر في الدعاوى والتدخل في اختصاصات مجالس اختيارية القرى^(٢).

٥- المختار

هو أصغر إداري في القضاء، وأكبر موظف في القرية، وإذا كان سكان القرية من طائفتين، يكون لكل منهما مختار شرط أن يتجاوز عدد بيوتها عشرين بيتاً^(٣). وفي قرى العلويين، فإن القرية المكونة من عشيرتين كان يتم تعيين مختار لكل عشيرة.

وكان يشترط في المختار أن يكون من تبعية الدولة العثمانية وأن يزيد سنه عن ثلاثين سنة، وأن يكون من الذين يدفعون ويركو سنوياً لا يقل عن مئة غرش^(٤). ويتم انتخاب المختار من بين أبناء القرية لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، وقد حصر القانون حق الاقتراع لانتخاب المختارين بالأشخاص الذين يدفعون ويركو سنوياً للدولة يزيد بمقداره عن خمسين غرشاً، على أن لا يقل عمر المقترع عن ثمانين سنة^(٥).

وكما نرى فإن المختار ومن ينتخبه ينبغي أن يكونوا من دافعي الضرائب.

وكان المختار يتلقى أوامره من مدير الناحية، وإذا كان لا يوجد مدير ناحية في القضاء فإنه كان يتلقى أوامره من القائمقام، ومن مهام المختار تبليغ أوراق الحجز والجلب والإحضار المرسلة من الحكومة بحق المطلوبين من أبناء قريته، وإعلام الدولة عن الولادات والوفيات الحاصلة في قريته، والإعلام عن أسماء ورثة المتوفى، وإبلاغ

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤١٢ و ٤١٣

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٠٠

(٣) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٧٧

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٧٧

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٧٧

الدولة عن حوادث القتل والخلافات، والمساعدة على تسليم الجناة والمجرمين، وإعطاء معلومات عن الأراضي المحلولة والمكتومة، والإنشاءات المستحدثة والمخالفات العقارية ضمن حدود قريته.

وبالإضافة إلى ذلك كان المختار واسطة الحكومة لتحصيل أموال الدولة في قريته. وبدأ تعيين المختارين في قرى العلويين منذ عام ١٨٦٥، وهناك قرى سبقت غيرها في تعيين مختار لها. وكانت مهام المختار في هذه القرى موزعة بين سلطتين: سلطة زعماء العشائر المباشرة، وسلطة الدولة، وكان على المختار أن يستجيب لمطالب السلطتين في آن معاً، وغالباً ما تكون سلطة الزعيم متقدمة على سلطة الدولة، لأنه بمثابة ملك على عشيرته.

وكان الزعيم هو الذي يعين المختارين في قرى عشيرته بعد إطلاع مسؤولي الدولة على ذلك، وكان المختار يجمع للزعيم الضريبة ويقدم له كشوفات دورية عن أوضاع قريته، وفي نفس الوقت كان يتابع مع الدولة ويقدم لها كشوفات عن أوضاع قريته لكي تبقى الدولة على اطلاع دائم على تفاصيل حياة التابعين لها. ولعب بعض المختارين أدواراً قدرة في بعض قرى العلويين ومنهم من تسبب في أذى كبير لأبناء قريته، حيث كان هؤلاء يحابون المتنفذين من الأفندية والأغوات على حساب الناس الفقراء.

٦- المفتي

أوجدت الدولة العثمانية وظيفة المفتي في ولاياتها، كي يكون المفتي إلى جانب قاضي الشرع الشريف، وكان المفتي يحمل لقب «أفندي». وفي عهد التنظيمات تمّ تعيين مفتٍ في مركز كل قضاء. وكان يوجد في «برمانه» مركز قضاء صافيتا مفت^(١). وقد كان المفتون إما من الأتراك أو من فقهاء الأحناف المحليين. ومن غير المعروف ما إذا كان المفتي في برمانه يقوم بمهامه، وهل كان العلويون هناك يتقدمون بأسئلة موجهة إليه. وربما كان وجوده شكلياً فقط، بخلاف أفضية أخرى مثل عكار الذي كان يشكل فيه السنة غالبية، حيث كان المفتي هناك يلعب دوراً كبيراً.

ويذكر فاروق حبلص، أن عائلة «الكيلاي» اختصت بوظيفة المفتي في عكار، واحتفظ رجالها بهذا المنصب منذ إحداثه في الولاية^(٢).

ولم يقتصر طلب الفتاوى على أبناء عكار فقط، بل غالباً ما كان طالبوها من

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٤٣

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٧٢

الأقضية المجاورة كالحصن وصافيتا^(١). ولم تقتصر هذه الطلبات على الفقراء فقط، إنما كان من طالبي الفتاوى البك والآغا والفلاح والعامل^(٢).

٧- مدير المال

أحدثت الدولة في مراكز الأقضية وظيفة «مدير المال» وسلّمتها إلى موظف مختص، عرف بمدير المال، وكان يتلقى التعليمات والأوامر المتعلقة بوظيفته من محاسب اللواء. ويحمل لقب «أفندي»^(٣).

وكان هؤلاء، كغيرهم من رجال الدولة، إما من الأتراك أو من السلالات الإقطاعية المحلية.

٨- أمين الصندوق

هو مدير الخزانة في القضاء، ويكون من فئة الأفندية، وهو يأتي بعد مدير المال من حيث الأهمية في الإدارة المالية في القضاء ويساعد مدير المال وأمين الصندوق مجموعة من الموظفين الرسميين يعرفون بالمأمورين، وهم مسؤولون مباشرة أمام مدير المال.

وكان المأمورون في قضاء صافيتا كلهم من أبناء القضاء، وكان عددهم، ٩٠ شخصاً^(٤)، وذلك عام ١٩١٥ وهو العام الذي زار فيه صاحباً كتاب ولاية بيروت ذلك القضاء.

وكان المأمورون يقومون بأعمال متنوعة، فمنهم كان الجباة الذين يقومون بتنظيم جداول «الويركو» لكل قرية على حدة، والتحصيلدار، وكان هؤلاء يتولون مهمة ختم الدفاتر والمصادقة عليها، بالإضافة إلى مختاري القرى الذين استخدموا أحياناً كثيرة في جباية ضرائب الأعشار^(٥).

٩- مدير التحريات

وهو المشرف على قلم التحريات في القضاء، والمسؤول عن تحرير جميع القيود والمكاتبات الرسمية التي يطلب إليه المحافظة عليها.

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٢

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٢

(٣) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٣

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهج بك - ج ٢ - ص ٣٤٣

(٥) تاريخ عكار- فاروق حبلص - ص ٧٣

وقد كان جميع مديري التحريرات في الأفضية الي يتبع لها العلويون، من خارج هذه الأفضية وكانوا من فئة الأفندية ^(١).

١٠- كاتب الطابو

وهو المسؤول عن إدارة دائرة قلم الطابو في كل قضاء، وهو مكلف بمراقبة عملية إعطاء سندات الملكية بعد إجراء الكشف على العقار وأخذ موافقة مجلس الإدارة في القضاء ^(٢).

(١) تاريخ عكار- فاروق حبلص- ٧٤

(٢) تاريخ عكار- فاروق حبلص- ٧٤

الفصل السادس

الهجرة إلى أمريكا

١- أسباب الهجرة

شهدت مناطق من سوريا، ولاسيما الأجزاء الجنوبية من جبال العلويين هجرة كثيفة إلى قارة أمريكا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وكان الدافع وراء هذه الهجرة هو الهروب من الجندية بالدرجة الأولى وكذلك البحث عن مستقبل أفضل.

وكانت قارة أمريكا بجزائها الشمالي والجنوبي قد بدأت تستقطب المهاجرين من مختلف مناطق العالم، ومنها بلاد سوريا، ومما سهّل من موضوع الهجرة هو أن الدولة العثمانية بدأت تعطي جوازات سفر لمن يطلبها من رعاياها.

وأول من هاجر من سوريا إلى الأرض الجديدة بضع عائلات من بيت لحم كانت حرفتهم في مهجرهم بيع المساج والصلبان وهياكل صغيرة لأعزاء الدين^(١). وكانت الهجرة قد بدأت منذ عام ١٨٨٥ بصورة خفيفة، ثم أخذت تتدرج بالتوسع حتى أصبحت في مطلع القرن العشرين على درجة هائلة^(٢). وقد هاجر من سوريا إلى البلاد المتحدة فقط سنة ١٩٠٥ (٤٨٢٢) وفي سنة ١٩٠٦ (٥٨٢٤) وفي سنة ١٩٠٧ (٥٨٨٠) وسنة ١٩٠٨ (٥٥٢٠) نسمة، فيكون مجموع ما فقدته سوريا في تلك السنين الأربع (٢٢٠٤٦)^(٣). ويقرب المهاجرون إلى أمريكا الجنوبية ومصر وأفريقيا الشمالية قريباً من ١٥٠٠٠ من النسّمات في السنة^(٤).

إن ألمانيا التي مساحتها (٥٤٠٠٠٠) كيلو متر مربع، وكان عدد سكانها عام ١٩١٠ (٧٠) مليون نسمة، لم تكن تفقد في كل سنة إلا بمقدار (٢٢) ألفاً من رعاياها، ولكن سوريا التي تملك من الأراضي ما يبلغ (٢٩٦٠٠٠) من الكيلومتر المربع، ولا تحتوي إلا على ثلاث ملايين من النسّمات كان يهاجر منها كل عام (٢٠) ألفاً من النسّمات^(٥).

(١) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٥

(٢) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٥

(٣) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٥

(٤) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٥

(٥) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٦

ويعزو محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك سبب الهجرة من سوريا إلى إهمال الدولة العثمانية ما جعلها تعجز عن إعالة ثلاثة ملايين من أبنائها، واضطر أهلها المطبوعون على الذكاء والعزم والمفطورون على استعداد كامل في الأمور الفكرية والتجارية، لأن ينقبوا في البلاد، ويرتادوا سبيل العيش، حتى أقوت القرى وأقفرت السهول وعطلت الأرض عن الزرع^(١).

وقد كثرت الكتابات في المهجرة فقال المحبّدون: أولى للمرء من أن يخلد إلى أرض جفت نعمها، ويرضى من العيش بأجرة زهيدة، ويقضي حياته جرّاً وزحفاً، أن يذهب إلى أمريكا ويشاهد ما هي الحياة المدنية، ويحصل على الثروة الطائلة، والوطن من البلاد ما يعيش فيه المرء ناعم البال، راغد العيش، سعيداً، وليت شعري هل يصدق من يقول «وطني الحبوب» لبقعة لم يرفيها وجه الراحة، ولم يكن له ولعائلته فيها أدنى سعادة، ثم لم يجد فيها أمناً ولا إنصافاً ولا عدلاً، إن كثيراً من السوريين الذين غادروا أوطانهم من المتربة وضنك المعيشة، أو لخلوها من الإنصاف والعدل، أصبحوا اليوم من أشهر التجار في نيويورك، أو شيكاغو، أو ريوديجانيرو، أو بوينس آيرس، وأن ما يملكه اليوم عشرة آلاف من السوريين من الأموال الطائلة المنقولة وغير المنقولة في مصر يقدر بثلاثين ألف ليرة إنجليزية، وأن مجموع ثروة السوريين في أمريكا وغيرها من البلاد لا يقل عن ٢٠٠ مليون ذهباً إنجليزياً^(٢).

وقال (آلن ماكلولن) أحد أطباء دائرة الصحة في الولايات المتحدة، في كتاب ألفه باحثاً فيه عن المهجرة: «إن أنجح المهاجرين بعد اليهود هم السوريون»^(٣).

إن السوريين ولاسيما أولاد السواحل منهم لا يزالون معروفين بالعزم والإقدام، ومشهورين في عالم التجارة بنجاحهم، والسوريون لهم أجمل الذكرى في عالم التجارة المصرية، وجميع المطبوعات هناك كادت أن تكون في أيديهم، وما عدا هذا فإن هؤلاء المهاجرين غير منقطعي العلاقة مع أوطانهم، وما زالت سوريا تتقاضى من أبنائها المهاجرين في كل سنة مقدار (١٤٠٨٠٠٠) ليرة بواسطة الشعبة البيروتية للمصرف «البنك» العثماني فقط^(٤).

على أن جميع الفوائد لا تصلح لتبرير المهجرة والتحبيد عليها، والأوطان لا ترقى وتعمّر إلا بهمة أولادها ومساعدتهم، أما النقود التي تدخل البلاد فأكثرها يصرف في تشييد القصور الشاهقة والأبنية الجسيمة إما في لبنان، أو جبل عامل، أو في

(١) ولاية بيروت محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٦

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٧

(٣) - ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ص ١٣٧

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٧

إحدى قصبات الساحل، وأكثر عائلات المهاجرين في سوريا تعيش عيشة الطير، رزق جديد في يوم جديد، فتدوم الحياة الزاهية ما دام الراتب الأمريكي متصلاً، أما إذا أبطأ ذلك المدد أو انقطع فلا بد لتلك السعادة أن تنقلب إلى شقاء، وتستحيل الرفاهية إلى الشظف في آنٍ واحد^(١).

٢- المهاجرون من قضاء صافيتا

هاجر الكثير من شباب قرى قضاء صافيتا من علويين ومسيحيين إلى قارة أمريكا، وكان المسيحيون يتجهون إلى أمريكا الشمالية، المكسيك والولايات المتحدة، أما العلويون فكانوا يتجهون إلى أمريكا الجنوبية، ولاسيما إلى البرازيل والأرجنتين والأكوادور. وكان نصف المهاجرين من العلويين والنصف الآخر من المسيحيين^(٢).

ويذكر محمد رفيق بك و بهجت بك، أن عدد المهاجرين من قضاء صافيتا إلى أمريكا يُقدَّر بعشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً من النسّمات^(٣). وكان هؤلاء يرسلون في كل سنة مقدار (١٥٠,٠٠٠) ليرة إلى عائلاتهم، وكانت الهجرة مقتصرة على الذكور فقط، ولم تسر إلى النساء^(٤).*

ويقول محمد بهجت بك: «إن هذه المبالغ أحدثت تبديلاً محسوساً في قرى النصارى، وكانت واسطة عمران، ولكن النصيريين لم يستفيدوا منها بشيء بل هم ينفقونها على أذواقهم ومشتهياتهم»^(٥).

والواقع أن العلويين لم يكونوا قادرين على تغيير واقعهم، مثلما كان يفعل المسيحيون، لأنهم كانوا واقعين تحت حكم مزدوج: الدولة العثمانية من جهة، والحكم العشائري من جهة أخرى، وكان من تظهر عليه النعمة منهم يتعرّض لأنواع شتى من البلايا من قبل ميليشيا الزعماء، حتى يعطيهم ماله، وكم من الرجال الذين تعرّضوا للأذى والذل فقط لأنهم رفعوا رؤوسهم وأعلنوا عن وجودهم.

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ١٣٧

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٢٩

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٤٣

* عدد المهاجرين من قضاء صافيتا كان ضخماً جداً بالنظر إلى مجموع السكان العام في القضاء، حيث يذكر كتاب ولاية بيروت، أن عدد سكان القضاء كان ٣٧,٩٣ ألف نسمة عام ١٩١٥، وهكذا يتضح للقارئ حجم المأساة التي حلت بقري العلويين التي أصبحت شبه خالية من الشباب من جراء الهجرة القسرية. راجع كتاب، ولاية بيروت، ج ٢، ص ٣٢٩

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٢٩

(٥) ولاية بيروت - محمد رفيق بك، ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٤٠

الفصل السابع

الزراعة

كانت الزراعة هي العمل الوحيد لمعظم سكان سوريا ومنهم العلويون، الذين كانوا فلاحين يعيشون على ما تنتجه لهم الأرض. وكانت الزراعة تعتمد على موسم الأمطار في الشتاء.

وكان القمح والذرة من أهم المواسم التي يعتمد عليها الفلاح، لكن كان هناك زراعات أخرى مهمة نذكر بعضها فيما يلي:

١- زراعة الزيتون

الزيتون هو نبتة متوسطة، وهو ينمو في الطبيعة حتى من دون وجود بذرة أو شتلة. وقد عرف الفينيقيون زراعة الزيتون منذ آلاف السنين، وتوجد بيّنات على أن هذه الزراعة كانت مزدهرة في عهد الملك الفرعوني «بيبي الثالث» حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد، إذ وجدت هناك مَعاصر للزيت من تلك العصور بمنتهى الدقة والإتقان^(١). ويؤكد وجود هذه المعاصر أن الشعوب القديمة كانت تزرع الزيتون وكانت تعرف كيفية استخراج الزيت من ثماره.

ولم تنقطع زراعة الزيتون يوماً من جبال العلويين، وخصوصاً في مناطق سيف البحر التي تشكّل بيئة مناسبة لهذه الشجرة المباركة، أما الجرد البعيدة من الشاطئ فكانت خالية في الماضي من الزيتون، وإن كان العلويون اليوم بدأوا بزراعته، وتوجد إلى الآن أشجار زيتون قديمة جداً منتشرة في قرى كثيرة، وهي تعود إلى أكثر من ثمانمائة سنة، ومنها ما هو أعمار من ذلك، ولا تزال تعطي محصولاً. والزيتون يعطي إنتاجاً كل سنتين مرة واحدة، لأنه يحتاج إلى مدة طويلة حتى يحزن كمية من الطاقة.

ويبدو أن العلويين عكفوا عن زراعة الزيتون في القرن السابع عشر حين تقدمت عليه شجرة التوت التي راج سوقها كثيراً بسبب الحاجة إليها لتربية دود الحرير، لكن عادت زراعة الزيتون إلى الازدهار، منذ بداية الحكم المصري لسوريا بفضل تشجيع محمد علي^(٢). ومن ثم اهتمت الدولة العثمانية بتوسيع زراعته، وأصدرت عام ١٨٦٢ نظاماً خاصاً يقضي بإعفاء غراس الزيتون المزروعة حديثاً

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة - ص ١٠١

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٤٢

من دفع ضريبة الأعشار ولمدة ثلاث سنوات اعتباراً من بدء الإنتاج^(١). ومنذ ذلك التاريخ بدأت زراعة الزيتون تتوسع في جبال الساحل حتى أضحت طاغية على المشهد الزراعي في تلك الجبال اليوم.

ونظراً لانتشار زراعة الزيتون فقد انتشرت المعاصر لاستخراج الزيت، وكانت هذه المعاصر تتبع الطرق البدائية، فكانت المعصرة تتألف من جرن حجري ضخم مثقوب في وسطه حيث تمر عصا خشبية غليظة يدور حولها حجر الكبس بواسطة حصان أو حمار، وكانت عملية استخراج الزيت تتم بواسطة خوص سميكة تُلقى في الجرن ثم تعصر باليد، وكان بعض معاصر الزيتون تُدار بواسطة الماء مثل مطاحن الحبوب^(٢).

٢- زراعة التوت

ازدهرت زراعة شجرة التوت في سوريا في القرن السابع عشر بعدما قام الأمير فخر الدين المعني الثاني بتشجيع زراعتها إبان حكمه لطرابلس وسوريا بهدف تربية دود الحرير، وكان قد عمر قرية القليعات في عكار ونصب في مرابعها أربعة عشر ألف نصابة توت، ونصب أيضاً بستاناً أكبر من ذلك في أرض الحيصنة*^(٣).

وكانت زراعة التوت قد لفتت انتباه تجار الحرير الفرنسيين في سوريا، وبرزت هذه الأهمية في نهاية القرن التاسع عشر عندما قَدِّمت مدينة ليون الأموال اللازمة لدعم هذه الزراعة وتطويرها، فكان نتيجة ذلك أن تكثفت زراعة التوت في سوريا كلها^(٤).

وقد أصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٧٢ نظاماً خاصاً يقضي بإعفاء أغراس التوت المستجدة من العشر ولمدة ثلاث سنوات اعتباراً من بدء المحصول شريطة أن يربي أصحابها دود الحرير أو يبيعوا أوراقها لمن يعمل بتربيته^(٥). كما قامت بتزويد الفلاحين بالبذور على أن يردوا لها من المحصول البذور اللازمة للزراعة في العام التالي^(٦).

وقد عكف العلويون على زراعة التوت، والكثير منهم قلع ما عنده من أشجار

(١) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٤٢

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ٢٢٤

* الحيصنة، قرية تقع في سهل عكار يسكنها علويون.

(٣) تاريخ الأزمنة - البطريرك اسطفان الدويهي - ص ٤٩٦

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٤٠

(٥) تاريخ عكار - فاروق حبص - ص ١٤٠

(٦) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هواش - ص ٢٠١٨

زيتون واستبدالها بهذه الشجرة، وأصبح لهم دخل ثابت من الحرير، لكن كانت المشكلة التي تعترضهم تتمثل في كيفية تأمين الجوامد الملائم للدود وخصوصاً عندما يكبر ويحتاج إلى مساحة واسعة، إذ لم يكن يملك الواحد منهم سوى بيت مكون من غرفة واحدة من الحجارة والطين، لكن مع ذلك كان يتم وضع الدود في هذا البيت مع العائلة، وكانت تربية الدود تتم في أشهر الربيع حيث تكون درجة الحرارة حوالي ٢٣ درجة بزيادة أو نقصان درجتين، لأن الحرارة العالية تجعل الديدان عرضة للإصابة بمرض الدبلان مما يجعل الشرائق غير متجانسة وبالتالي تكون خيطان الحرير رديئة^(١).

ومن المعروف أن المطر يقتل الدود، لذلك يجب المحافظة عليه ووضعه داخل البيوت، مع توفير التهوية المناسبة له. وتكون دودة القز في بداية أمرها بذرة، وفي أول الربيع تؤخذ كمية من البذور ويتم شدّها في خرقة وتجعل تحت ثدي امرأة ليصل إليها حرارة البدن إلى أسبوع، ثم ينثر هذا البذر على شيء من ورق التوت المقصوص بالمقراض فتتحرك الدودة وتأكل من ذلك الورق ثم لا تأكل ثلاثة أيام، ويقال إنها في النوبة الأولى، ثم ترجع إلى الأكل فتأكل أسبوعاً، ثم تترك الأكل ثلاثة أيام، ويقال إنها في النوبة الثانية، ثم تعود إلى الأكل لمدة أسبوع ثم تترك الأكل ثلاثة أيام. ويقال، إنها في النوبة الثالثة، وبعد النوبات الثلاث، يطلق لها العلف لتأكل أكلاً كثيراً وتسرع في عمل الفيلجة «القز» فيظهر عند ذلك على جسمها مثل نسج العنكبوت ويزداد شيئاً فشيئاً^(٢). فإذا مطر في هذا الوقت مطرتلين الفيلجة من رطوبة النداءة ويثقبها الدود ويخرج منها، وقد نبت لها جناحان فتطير ولا يحصل شيء من الإبريسم، أي «الحرير». وإذا فرغت الدودة من عمل الفيلجة عرضت على الشمس لتموت الدودة فيها، ويحصل من الفيلجة الإبريسم، «الحرير»^(٣). ويترك بعض الفيلجة ليثقبها الدود ويخرج ويبيض، ويبيضها يحفظ للسنة الآتية في ظرف نقي من الخزف أو الزجاج أو الثياب الإبريسمية^(٤).

وكان يتم جمع الشرائق عن أغصان الأشجار المقصوصة والمفروشة، وكانت تلك الشرائق تؤخذ إلى مصنع الحرير وهو عبارة عن دولاب يتواجد بالقرب من الينابيع والأنهار، حيث يتم وضع الشرائق في مصفاة داخل وعاء معدني كبير «جعية» فيها ماء، وتوقد تحته النار حتى يصل الماء إلى درجة الغليان، وتظل الشرائق في هذا الحوض مدة معينة، يلي ذلك عملية التمشيط ويكون وعاء الطبخ ملحق به من أعلاه جهاز به فرشاة لتفكيك الخيوط بطريقة أوتوماتيكية، وترفع

(١) تربية دودة الحرير - إبراهيم العشعوش - ص ٢٨

(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - الإمام زكريا بن محمود القزويني - ص ٣٦٨

(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - الإمام زكريا بن محمود القزويني - ص ٣٦٨

(٤) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات - الإمام زكريا بن محمود القزويني - ص ٣٦٨

المصفاة المحتوية على الشرانق من حوض الطبخ وتعرض للفرشاة أثناء دورانها، وبعد عدد معين من اللفات ترفع الفرشاة، فتفكك الشرانق ويعلق أول الخيط المكون لكل شرنقة في الفرشاة^(١). وعندما تصبح الخيوط قابلة لللف، تسحب عن الشرانق بواسطة دولاب كبير يبلغ محيطه ثلاثة أمتار وهو مصنوع من ألواح خشبية، وكان الدولاب يدار بواسطة الماء^(٢).

٣ - زراعة الحبوب

انتشرت زراعة الحبوب المختلفة في سوريا ومنها بلاد العلويين منذ أقدم العصور، وكان القمح يمثل المحصول الرئيسي ويتركز الغذاء عليه. وكان للذرة أيضاً نصيب كبير عند السكان، حيث كان يصنع منها ومن القمح، الخبز، كما كانت الذرة تضاف إلى أطباق الطعام القليلة آنذاك.

وقد شاهد محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، وهما في الطريق من برمانه «الدريكيش» إلى طرطوس، الحقول المزروعة بالذرة الصفراء أو البيضاء، في وادي الفوار، وشاهدوا أيضاً، «البنات النصيريات، النشيطات واقفات في وسط تلك الحقول ياحدى أيديهن عصية وفي الأخرى لوح من تنك ينقرنه لتنفير الطيور عن تلك الحقول»^(٣).

وكان يتم أخذ الحبوب إلى الطاحون لطحنها، وكان الطاحون يُدار بواسطة الماء، ولذلك انتشرت الطواحين بالقرب من الأنهار، وكان بعضها يتألف من حجر رحي واحد، وبعضها الآخر من حجرين، وقد جاء نظام ملكية المطاحن ملائماً لطبيعة النظام الإقطاعي، فكانت الطواحين مملوكة للإقطاعيين الذين كانوا حريصين على حيازتها لكي يتمكنوا من ممارسة المحسوبية على فلاحي القرى الضعفاء المضطرين لطحن مؤنتهم من الذرة والقمح فيها^(٤).

وكانت الرحلة إلى الطاحون تستغرق وقتاً وجهداً كبيراً من الفلاح الذي كان ينقل حبه على ظهر حمار، وكان هناك يقف منتظراً دوره، وأحياناً يبقى عدة أيام لكثرة المحتشدين ولقلة الطواحين.

وكان ناظر الطاحون مثل الملك، وكان من يصل إليه ينال حظوة ما بعدها حظوة، ولا يزال اسم «يوسف الجليس» خالداً رغم مضي زمن طويل على وفاته، وكان

(١) تربية ديدان الحرير - أحمد لطفي عبد السلام - ص ٦٧

(٢) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٢٢١

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٣٦٦

(٤) تاريخ عكار - فاروق حبلص - ص ٢٢٤

* سجنو، قرية فينيقية تقع على هضبة صغيرة في وادي نهريس.

هذا من بيت عون في قرية سجنو*، وكان يتولى العمل في طاحونة «الغابة» على ضفاف نهر قيس مقابل قرية بقعو*، وكانت هذه الطاحونة مملوكة للأفندية من آل محي الدين، في جورة الجواميس*، الذين كانوا بمثابة الذراع اليمنى لآل جابر في قرية الطليعي، ولا تزال بقايا تلك الطاحونة قائمة إلى اليوم، كما لا تزال الساقية التي كانت تمدها بالماء باقية، وهي عبارة عن ترعة ماء مأخوذة من نهر قيس بالقرب من منته «قيس وليلى» على طريق ساعين الشرقية* بقعو. وأيضاً على ضفاف نهر العروس أسفل قرية التوانين* هناك بقايا لطواحين عديدة كانت مملوكة لآل جابر في الطليعي.

٤- زراعة التبغ

انتشرت زراعة التبغ منذ القرن الثامن عشر في جبال اللاذقية، وكان يعدّ أهم محصول في تلك الجبال، وقد جلب هذا النبات من ربوع «الروملي»*^(١). والتبغ الذي كان يزرعه العلويون هناك له أوراق لينّة كبيرة وطويلة حمراء تضرب بلونها إلى الصفرة ورأته لطيفة ويسمونه «شك البنت».

ويقول محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك: «إن جميع محصول التبغ يُرسل إلى أسواق مصر، وقد حدث سنة ١٢٣٤ للهجرة، ١٨٨٦ للميلاد أنواء عظيمة في البحر لم يتمكن أرباب السفن من السفر، فبقي المحصول في أيدي أصحابه، وبما أنه لم يكن يوجد عندهم مستودعات، اضطر القرويون إلى تعليقه بسقوف بيوتهم، ثم وافاهم الشتاء فشرعوا يوقدون النار في تلك البيوت فأصاب الدخان قسماً من التبغ وبخره، واعتقد القرويون أنه فسد، وفي العام القادم أرسلوا محصولهم الجديد مع المحصول القديم إلى مصر، فأعجب المصريون بالقديم وظنّوه نوعاً جديداً وسمّوه «أبو ريحة» بسبب ما فيه من الرائحة الخاصة التي نشأت عن تبخيره، وطلبوا من تجار اللاذقية شراء كمية وافرة منه في الموسم الآتي، ومن ثم بدأ الفلاحون يبنون بيوتاً خاصة لأجل تبخير التبغ، وكانت تلك البيوت عبارة عن غرفة واحدة مستطيلة الشكل ولا يوجد فيها من المنافذ إلا باب في جهتها الغربية

* بقعو، قرية فينيقية قديمة، تقع إلى الشمال من ساعين الشرقية بحوالي ١ كلم.

* جورة الجواميس، قرية تقع على طريق الدريكيش - طرطوس،

* ساعين الشرقية، قرية فينيقية قديمة تقع في وادي نهر قيس، تبعد عن دريكيش مقدار ٧ كلم. فيها من الأسرار الشيء الكثير، وإلى الغرب منها هناك قرية أخرى تدعى ساعين الغربية.

* التوانين، قرية إلى جوار حصن العريمة الشهير.

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ ص ٤٥٢

* الروملي، كانت تشمل، بلغاريا، رومانيا، وجزءاً كبيراً من يوغسلافيا السابقة، وجزءاً من شمال اليونان - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك - ص ٣٣٣

على طول متر وعرض ٨٠ سنتمترًا، مركوزة في داخلها من الأرض إلى السقف أعمدة رفيعة تبعد عن بعضها مسافة نصف متر»^(١).

وهذه الأعمدة تنقسم إلى أربعة أقسام اعتبارًا من علو متر عن الأرض ثم تتصل هذه الأقسام بعوارض، وبهذا يكون داخل البيت عبارة عن أربع شبكات فوق بعضها، وهم ينشرون التبغ فوق تلك الشبكات ويبخرونه.

ويزهّر التبغ إما في أواخر تموز أو بداية شهر آب، فيعمدون إلى تلك الأزهار ويقطعونها بساقها ومعها الأوراق التي تحتها، ثم يقطعون من أسفل النبات ورقتين أيضًا، ويضمون الجميع بخيط ثم يربطون الخيط بعصا رفيعة لكي لا يتدلى ويعلقونه في الشبكة العليا من البيت. ثم لا تلبث تلك النبتة التي قطعت أزهارها بضعة عشريومًا إلا وتزهّر ثانية فيقطعونها على الكيفية الأولى ويعلقون الأوراق أيضًا، ثم بعد أسبوع من العملية الثانية يعمدون إلى ما بقي ويقطعون من أسفلها بالسكين، ويفرقون أوراقه إلى قسمين أو ثلاثة متساوية ويعلقونه أيضًا^(٢). وفي أول تشرين الأول يأتون من الأحراج بحشيش متوسط اليبوسة ويحرقونه في المواقد المعدة في تلك البيوت ويشرعون بالتبخير ببطء، ثم يثابرون على هذا العمل في كل يوم، ويأتون بحطب متوسط اليبوسة بشرط ألا يكون من شجر الصنوبر، ويرغب فيه أن يكون من الفصيلة البلوطية، يحرقونه في المواقد، ويوصدون الأبواب بصورة محكمة.

ويُعرض التبغ إلى دخان النار، ويجب في التبخير ألا يكون أثناء الطقس اليابس، لأنه يسود ورق التبغ ويجعل له رائحة كريهة، ولهذا يجب الامتناع عن التبخير إبان هبوب الرياح اليابسة كالرياح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية، ثم يجب ألا يكون الحطب يابسًا لكي لا يذهب اللهب بلين الأوراق، ولا يكون سببًا لحدوث الحريق، وأحسن الأزمان للتبخير هو الذي تهب فيه الرياح الغربية الرطبة وخصوصًا أيام المطر^(٣).

وكانت عملية التبخير تستمر لمدة ثمانية أشهر، لكن لم يكن كل محصول التبغ يتم تبخيره، بل كان يخضع لهذه العملية ذلك الذي يتم زراعته في الجبال.

أما النوع الثاني فهو ذاك الذي يتم زراعته في السهل فلم يكن يبخر، وكان يستخدم في صناعة لفائف التبغ «السجائر»^(٤).

وكان التبغ الذي يتم تبخيره يخصص للتصدير، وكان يستخدم الجزء الأكبر من

(١) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٢

(٢) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٣

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٣

(٤) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هواش - ص ٢١٧

هذا التبغ في بريطانيا وأمريكا لإعداد أنواع التبغ الخاصة بالغليون^(١). وقد ازداد الطلب على هذا النوع من التبغ قبل الحرب العالمية الأولى، فطلب التجار من المزارعين أن يسارعوا إلى زراعة دفعة ثانية في السهل، غير أن أوراق هذه الدفعة الثانية كانت من نوعية أقل جودة، وكان هناك قانون قد صدر عام ١٩١٤ يمنع زراعة دفعة ثانية من هذا المحصول غير أنه لم ينفذ بالمرّة^(٢).

وكان حاصل كل دونم (١٠٠٠) مترمربع من الأرض، يتراوح بين ٧٠ و١٠٠ أقة * من التبغ اليابس في كل سنة، وينفق على كل دونم في السنة مبلغ ١٠٠ غرش لأجل الحرث والغرس، و٥٠ غرشاً لأجل التبخير، ويتراوح ثمن الأقة بين ٤ و١٢ غرشاً، وبه يكون الدخل الخالص في السنة ٣٥٠ إلى ٤٠٠ غرش من كل دونم^(٣).

وكان لواء اللادقية يصدر في كل سنة نحواً من مليون أقة من هذا المحصول، وبه يكون الدخل السنوي (٤٠ - ٥٠) ألف ليرة^(٤).

وفي ١٦ ربيع الأول سنة ١٨٦٩ صدر نظام تصدير الدخان إلى خارج الدولة العثمانية^(٥).

ويذكر «فولني Volney» أن التجار كانوا يشحنون من مرفأ اللادقية من التبغ سنوياً إلى دمياط عشرين مركباً فيأتيهم بدلاً من ذلك الأرز الذي يقايضون عليه بالزيت والقطن في سوريا الداخلية^(٦).

(١) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هاش - ص ٢١٧

(٢) عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هاش - ص ٢١٨

* الأقة : معيار للوزن مقداره ١٢٤٨ جراماً في مصر، و١٢٨٢ جراماً في سوريا.

(٣) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٣

(٤) ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - ج ٢ - ص ٤٥٤

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٧٧

(٦) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - الرحالة الفرنسي Volney - ج ٢ - ص ١٩

الفصل الثامن

التجنيد

١- الأسباب التي دعت العثمانيين إلى التجنيد

كان العثمانيون يعتمدون على فرق الانكشارية، وهي الجيش الذي قامت عليه الفتوحات، والكلمة بلغة التُّرك «يكي جري» أي العسكر الجديد، وقد حرّف أهل سوريا ومصر هذه التسمية بلفظ «انكشارية».

وكان السلطان «أورخان» قد أسّس هذا الجيش من أولاد المسيحيين التابعين للدولة العثمانية مثل البوشناق والصرب والبلغار والألمان^(١). وكان عدد الانكشارية عند تأسيسهم ستة آلاف جندي، ثم جاوزوا المائة ألف وقائدهم العام «أغا» الانكشارية.

وكان في كل ولاية عثمانية حامية انكشارية أو أكثر للتدخل عند الحاجة، وكان يتم استخدامهم في مزارع أصحاب الإقطاع أو في حوانيت أرباب الصنائع، ويعيش أفراد هذا الجيش على أجره يومية طفيفة هي «أقجة» أو أسبر واحد لكل فرد في اليوم، وكان أغلب الانكشارية في الولايات من الفرسان وفي العاصمة من المشاة^(٢). وهذا هو الجيش الذي بقيت سوريا تحت رحمته أكثر من ثلاثمائة سنة ورأت سيئاته وتخريباته^(٣).

وكان لدى الدولة العثمانية أنواع أخرى من الجيوش الرديفة مثل «اللوند» أي العسكر الخفيف، و«الجبّه جي» أي العسكر المدرع، و«التفكجية» وهم جُند رُمّة، و«الشوريجية» وهم ضباط الانكشارية، يُعمل لهم الحساء أي الشورية في قدر خاص، ورتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد بعُرفنا إلى... غير ذلك من صنوف الجُند^(٤).

وقد سمحت الدولة للإقطاعيين بامتلاك قوة عسكرية للدفاع عن مصالحهم وعن مصالح الدولة، وهؤلاء كانوا في الغالب مرتزقة وغرباء^(٥).

(١) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ٢٥

(٢) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٢٧

(٣) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٢٨

(٤) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٢٩

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٣٩

وفي مطلع القرن الثامن عشر بدأت روسيا تظهر كقوة عظمى، وراحت تحاول مدّ نفوذها على أملاك جيرانها في الجنوب، الفرس والعثمانيين، وفي سنة ١٧٣٥ تولى عرش فارس القائد الأفغاني نادرشاه الذي أعلن الحرب على العثمانيين وكسّرهم وعقد مع الباب العالي صلحًا تنازل العثمانيون بموجبه عن جميع مكاسبهم في العراق حتى بغداد^(١). وقد اصطدم العثمانيون مع الروس آنذاك بسبب تنازله في جزيرة القرم، حيث هاجم الروس أملاك العثمانيين وسيطروا على مدينة آزوف سنة ١٧٣٥^(٢).

وكانت روسيا تتدخل في مملكة بولندا بهدف إضعافها والسيطرة عليها، وكان قد توفي الملك البولندي أوغست الثالث وسعت كاترينا الثانية إمبراطورة روسيا إلى وضع ستانسلاس بونيا تسكي ملكًا على بولندا باستعمال نفوذها في مجلس الأمة عند الانتخاب خلافا لما تعهدت به للدولة العثمانية، فتنبهت هذه الدولة للخطر وقررت أن تشغل روسيا بالحرب فأوعزت إلى خان القرم «كريم كراي» بإشغال الحرب مع روسيا، فاحتال على بعض القوزاق التابعين لروسيا ودفعهم على التعدي على أملاك الدولة العثمانية والإغارة على إحدى المدن التابعة لها وقتل بعض سكانها، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا، وأغار خان القرم كريم كراي على إقليم سربيا الجديدة الذي عمرته روسيا حديثًا خلافاً لاتفاق مع الدولة العثمانية بأن يبقى خرابًا ومنطقة فاصلة بين الدولتين^(٣).

وبادرت روسيا بإعلان الحرب وحاصر القائد الروسي «جالتسين» مدينة «بالطا» شوكرسيم، في الشمال الشرقي من بولندا الذي كان خاضعًا لسيطرة العثمانيين، وسار الوزير محمد أمين باشا ليفك الحصار عن المدينة فلم ينجح وتقهقر، فقتله السلطان، وأرسل قائدًا آخر يدعى مولدواني علي باشا، لكنه أيضًا فشل، ودخل القائد الروسي إلى المدينة وقام بتدميرها^(٤). وسارع المفتي إلى الإفتاء بضرورة الحرب ضد روسيا، وكان الجيش الروسي قد أنزل الهزيمة بالتتار الذين افتتحوا الحملة بقيادة كريم كراي، واستولى على خوتين^(٥).

وفي سنة ١٧٧٠ تقدم الروس عبر الأفلاق والبغدان إلى أن بلغوا نهر «الطونة» الدانوب، واحتلوا كيليا*، وبندر، وبرايل، وأخذوا من النبلاء الرومانيين يمين الولاء لكاترينا. وأرسل الروس أسطولهم لأول مرة إلى بحر إيجة بهدف إشغال

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٢٥

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٢٦

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٣٤

(٤) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٣٥

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٣٠

* كيليا، مدينة تقع في دلتا نهر الدانوب جنوب غرب أوكرانيا في منطقة بيساربيا.

الثورة في اليونان ودعم الثوار ضد الحكم العثماني، وأضرم الروس النار في الأسطول العثماني في خليج جشمة* على ساحل آسيا الصغرى، وأصبحت إستانبول في مرمى الروس لو كانوا يريدون، آنذاك، السيطرة عليها^(١).

وفي السنة التالية سيطر الروس على شبه جزيرة القرم بالكامل، واضطرت الدولة العثمانية أن تعقد هدنة مع روسيا في حزيران سنة ١٧٧٢^(٢).

وتجددت الحرب بين الدولتين سنة ١٧٧٤، وبعد عدة مناورات ومناوشات اجتاز الفلدمارشال رومانزوف نهر الطونة «الدانوب»، وسار قاصداً مدينة «فارنا»* والتقى مع الجيش الذي أرسله الصدر الأعظم من معسكره في مدينة «شوملا»* تحت قيادة الرئيس أفندي عبد الرزاق، فهزمه بالقرب من مدينة «قوزليجق»* وسار قاصداً معسكر الصدر الأعظم محسن زاده، فطلب الصدر الأعظم من رومانزوف المهادنة وتوقيف القتال^(٣). وتمّ توقيع صلح بين الدولتين في «قينارجة»*، جنوبي سلستريا، في ٢٢ تموز ١٧٧٤، تنازل فيه الباب العالي لصالح روسيا عن أعظم قلاع البحر الأسود «كُرج ويني قلعة»، و«يكي قلعة»، و«قين بروني» وتخلّى لروسيا عن قبرطاي الكبرى والصغرى في القوقاز*، وتمّ منح الأسطول الروسي حق المرور في الدردنيل، وأكره السلطان على الاعتراف باستقلال التتر في شبه جزيرة القرم، وعلى منح العفو العام وحرية العبادة لسكان البغدان* والأفلاق*^(٤).

وفي سنة ١٧٨٨ أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية مساعدة لروسيا،

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٣٠

* جشمة، هي مدينة شيشمي على بحر إيجة.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٣١

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٤١

* فارنا، varna، بلدة في بلغاريا على البحر الأسود - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٤١

* شوملا، Shumen، بلدة غرب بلدة فارنا، تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك - ص ٣٤١

* قوزليجق، بلدة تقع في رومانيا - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك - ص ٣٤١

* قينارجة، kajnarja، بلدة تقع إلى الجنوب من مدينة سلستريا في بلغاريا - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٤٢

- تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٢٥

* قبرطاي، إقليم في شمال شرق البحر الأسود - تاريخ الدولة العثمانية - محمد فريد بك - ص ٣٤٢

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٣١

* البغدان، إقليم يشكل جزءاً كبيراً من مولدوفا الحالية، أطلق العثمانيون عليه اسم البغدان نسبة إلى الحاكم الذي أنشأه، وهو «بغدان Bogdanof» في القرن الرابع عشر الميلادي.

* الأفلاق، فالاشيا Wallachia، نسبة إلى شعب الفلاخ Valach، وكان يشكل هذا الشعب مع البلغار في السابق مملكة بلغاريا - قصة الحضارة - ول ديورانت - ج ١٥ - ص ١٦١، وفالاشيا الآن تقع في رومانيا، في شمال نهر الدانوب وجنوب جبال الكريات، وأطلق العثمانيون عليها اسم الأفلاق وهو مأخوذ من اسمها «فالاشيا» - مجلة التراث العربي - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - العدد ١٠٣ لعام ٢٠٠٦

واتحدت جيوش الدولتين واستظهرت على الجيوش العثمانية، واستولى الروس على الأفلاق والبغدان وبسارابيا*، ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب، وأصبحت الدولة العثمانية في خطر عظيم.

وحدث أن توفي الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني سنة ١٧٩٠ وخلفه ولده ليوبولد الثاني، فانشغل هذا بالثورة الفرنسية، وتوقف الهجوم النمساوي الروسي^(١). ومع ذلك فقد اضطرت الدولة العثمانية إلى عقد معاهدة مع إمبراطورية النمسا بمدينة «استوا» التي تسمى في كتب الترك «زشتوي»، وبموجب المعاهدة احتفظت الدولة العثمانية بإمارات نهر الطونة «الدانوب» حتى أرسوره، وردت النمسا إلى الدولة العثمانية بلاد الصرب ومدينة بلغراد، لكن الدولة العثمانية في المقابل، منحت عفوًا عامًا عن اشتراك في الحرب إلى جانب النمسا من أهالي البوسنة والصرب والأفلاق والبغدان، بحيث يكون لهم الحق في الرجوع إلى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم ضد ملكهم صاحب السيادة عليهم «الخليفة الأعظم»، أو لإظهار ولائهم للحكومة الإمبراطورية المملوكية «النمسا»^(٢). وتنازلت الدولة العثمانية، بموجب المعاهدة للنمسا عن «بوكووين»*^(٣).

وتجدد القتال بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٧٩٢، وانتهى بصلح «ياسي» الذي بموجبه مدّت روسيا حدودها حتى نهر «الدينستر»* الذي أصبح منطقة الحدود بين الدولتين^(٤).

وبعد وقوع تلك الهزائم، سقط اعتبار الباب العالي في أعين الأوروبيين، وبدأ أن طرد العثمانيين من أوروبا بات مسألة وقت^(٥).

* بسارابيا، تقع غرب مدينة كونستنزا الرومانية على البحر الأسود، تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك - ٣٤٢

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٦٣

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٦٤

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ص ٣٦٥

* بوكووين»، هي بوكوفين «Bukovine» وهي إقليم يقع في أوكرانيا ورومانيا، وقد انتزع من النمسا سنة ١٩١٩ إثر الحرب العالمية الأولى التي خرجت النمسا منها خاسرة - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - ٣٦٥

(٤) تاريخ الدولة العثمانية - تيسير جبارة - ص ١٦٣

* الدينستر، نهر يفصل بين أوكرانيا ومولدافيا ويصب في البحر الأسود - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك - ص ٣٣٥.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٣١

٢- القضاء على الانكشارية وإنشاء جيش جديد

لم تكن الهزائم التي مُنيت بها الدولة العثمانية بسبب قلة الرجال، أو قلة العتاد لكن كانت بسبب أساليب القتال الفوضوية التي يتبعها الانكشارية والتي لم تعد تتلاءم مع أساليب القتال التي تتبعها الجيوش الحديثة المنظمة والمدرّبة والمسلحة كالجيشين الروسي والنمساوي اللذين خبرهما العثمانيون عن قرب. ولذلك بدأ التفكير لدى العثمانيين في إلغاء الانكشارية وإنشاء نظام عسكري جديد يكون على سوية الجيوش في أوروبا، وقد تولى السلطان محمود الثاني هذه المهمة الصعبة، فعمل بهدوء على تحقيق هدفه.

وكانت قد حدثت ثورة في اليونان سنة ١٨٢٤، وانتصر الثوار على فيالق الانكشارية، واستعان محمود الثاني بوالي مصر محمد علي الذي أرسل جيشه حتى تمكنت الدولة العثمانية من الانتصار سنة ١٨٢٧^(١). وفي ربيع عام ١٨٢٦، أصدر محمود الثاني أمره بإنشاء جيش نظامي جديد أطلق عليه اسم «مُعَلِّم اشكينجي» - الحرس المدرب - وبعث والي مصر محمد علي بالمدرّبين الذين اقتضاهم إنشاء هذا الجيش، واستطاع السلطان أن يكتسب إلى جانبه ضباط الانكشارية فأقروا خططه الإصلاحية، في حين ازدادت معارضة من دونهم من الجند^(٢).

وتَمَّ تحديد يوم ١٨ حزيران، يونيو موعداً لعرض الجيش الجديد في إسطنبول، ولكي يحول الانكشارية دون هذا العرض فقد شقوا عصا الطاعة قبل مواعده المحدد بثلاثة أيام، فأمر السلطان، وبموافقة شيخ الإسلام، بنشر الراية النبوية، وكأنه يريد قتال فئة من الكفار، وأوعز إلى الجيش بعد أن حشد على وجه السرعة، بتطويق الانكشارية في ساحة «آت ميدان» القائمة تجاه ثكناتهم^(٣)، ولفظ شيخ الإسلام اللعنة عليهم. ومن ثم دارت رحى حرب لم يسلم من هولها أحد من الانكشارية، وألقيت رايتهم ولباسهم المميز في الوحول وهدمت مساجدهم ومقاهيهم التي ألفوا غشيانها^(٤). وقد قتل في الواقعة الخيرية هذه، في إستانبول والولايات ستة آلاف رجل، ومنهم من غير اسمه ورسمه فتغاضت الدولة عنه^(٥). وحُلَّت الطريقة البكتاشية المتصلة بهم، كما حُلَّت فرق الإطفاء والحمالين ذات

(١) تاريخ الدولة العثمانية - تيسير جبارة - ص ١٦٩

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٤٠

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٤٠

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٤٠

(٥) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٢٨

الصلة الوثيقة بهم، ولم تغفل الدولة رجال المدفعية وحماة البسفور، فقضت على كل واحد منهم لمست فيه ميولاً رجعية أو ظنت به ذلك^(١).

٣- تطبيق التجنيد الإجباري

بعد القضاء على الانكشارية بدأت الدولة العثمانية بتطبيق نظام التجنيد على شباب البلاد التابعة لها ومنها سوريا، لكن لم يكد نظام التجنيد يسري في هذه الأخيرة حتى وقعت تحت حكم محمد علي باشا عام ١٨٣١، وبعد جلاء المصريين عنها أواخر عام ١٨٤٠، عادت الدولة إلى تطبيق أصول التجنيد الإجباري على شباب سوريا، وقد اتبعت في التجنيد أسلوب «القرعة الشرعية»^(٢)، فكان السلطان يبعث بفرمان القرعة في كل عام إلى مراكز الولايات حيث تجري مراسم خاصة عند قراءته، ويكون ذلك بحضور الوالي ومشير الجيش والقاضي والمفتي والأعيان والعلماء والوجهاء، وبعد تلاوة الفرمان يتلو المفتي والحاضرون دعاء للسلطان، ثم يعقد مجلس القرعة ويحضر الأفراد المكلفون الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية إلى المجلس، وبعد ذلك تجري القرعة^(٣).

وكان المتوفون والقائمون بالخدمة يبقون مقيدين في دفاتر أخذ العسكر، وكانت أعداد المكلفين في كل قضاء تضرب بمثلها وبثلاثة أمثالها حتى إذا جاء وقت القرعة أخذ من المئة خمسة وتسعون نفرًا، وأحياناً أخذ النصاب كاملاً^(٤).

وقد تسبب ذلك بضرر كبير للناس، كما تسبب بضرر للدولة من الناحيتين المادية والمعنوية، ذلك أن الدولة اتبعت نظام القرعة لكي لا تأخذ جميع الشباب إلى الجندية وبالتالي تقضي على الزراعة التي تحتاج إلى وجودهم للعمل في الأرض، لكن طريقة تنفيذ القرعة أفرغت البلاد من الشباب مما زاد من النقمة الشعبية على الحكم العثماني.

٤- الجيش الخامس (عربستان)

أنشأت الدولة العثمانية فيلقاً خاصاً في الجيش العثماني يدعى «الفيلق الخامس» - عربستان - وهو أحد فيالق الدولة الخمسة، وجلّ مجنديه من

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - ص ٥٤١

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٦

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٦

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٥٣

السوريين^(١). وجعلت مدينة دمشق مقراً لهذا الجيش. وكان «سر عسكر» -قائد- هذا الجيش يحمل رتبة «مشير» ويتقاضى راتباً شهرياً قدره ١٢٥ ليرة عثمانية^(٢).

وكان الجيش الخامس يقوم بالمناورات العسكرية والتدريب في صحراء الهامة القريبة من دمشق، أما تعيين الضباط ونقلهم فكان يتم بعد استشارة الصدر الأعظم^(٣). وتم تقسيم الجيش الخامس إلى أربع فرق من المشاة موزعة على ثمانية ألوية تنقسم بدورها إلى ١٦ «آلي»، و ٦٤ «طابوراً»^(٤). وكان في ولاية سوريا عام ١٨٧٨ عشرة طوابير عسكرية موزعة على ألوية الولاية ومن ضمنها لواء طرابلس واللاذقية، حيث كان يوجد في لواء طرابلس الطابور «٦٧» وفي اللاذقية الطابور «٦٨»^(٥).

وقد أخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن، كما يقول محمد كرد علي، مئات الضباط من أبناء سوريا خدموا الدولة خدمة صادقة^(٦).

٥- مُدة الخدمة العسكرية

نصت المادة الرابعة من قانون أخذ العسكر الصادر عام ١٨٨٦ على أن مدة الخدمة العسكرية، عشرون سنة كاملة، موزعة على النحو الآتي:

- الست سنوات الأولى من الخدمة النظامية تؤدي في السلك العسكري النظامي مع الاحتياط،.

- أما الثماني سنوات التي تليها فمختصة بالخدمة التي تؤدي بسلك الرديف،

- السنوات الست الباقية وتُنحصر بالخدمة التي تؤدي في سلك المستحفظ^(٧).

وكانت الدولة تتقاضى من غير المسلمين ضريبة سنوية تسمى «الإعانة العسكرية» لا قاعدة ولا أصول لها، وأيضاً شرّعت قبول البدل النقدي ممن لا يرغب الانتظام في السلك العسكري، فجعلته «٥٠» ليرة عثمانية. على أن يتدرب مدة خمسة أشهر في أحد المعسكرات، يعطى في نهايتها «تذكرة» أي شهادة تأدية

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٠

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٠

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٢

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٣

(٥) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٣

(٦) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٥ - ص ٣٠

(٧) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٩

خدمة^(١).

وكان التجنيد مطبقاً على العلويين باعتبارهم فرقة من الإسلام، وقد استطاعت ولاية سوريا أن تأخذ القرعة الشرعية من بعض نواحي جبال العلويين^(٢). وهي على الأغلب المناطق الجنوبية، أما المناطق الشمالية التابعة للواء اللاذقية، فقد وجدت الدولة صعوبة كبيرة في أخذ العسكر منها.

وكان العلويون يطلقون على التجنيد العثماني اسم «الرديف» فيقولون، ذهب فلان إلى الرديف، ولا يذكرون الأنواع الأخرى، وكان من يذهب إلى الرديف لا يعود، وكأن الرديف كان بمثابة الحكم بالموت، ويذكر المعمرّون، أنه قد عاد بعض الشباب بعد غياب سنوات عديدة، لكنهم كانوا يصلون إلى قراهم وهم عُراة بسبب سلبهم من قبل قُطاع الطرق.

٦- كيفية أخذ العسكر

عندما بدأت الدولة العثمانية بتطبيق قانون أخذ العسكر، اعتمدت على مشايخ ومخاتير القرى، فكان هؤلاء يبعثون أولاد الفلاحين إلى الجندية، ويستبقون أولادهم أو من يرضون عنهم عند أهاليهم، وكان للشيخ أو المختار اليد الطولى في هذا الأمر^(٣)، فقد كان موظفو دائرة التجنيد يذهبون إلى القرى ويحلّون ضيوفاً على المختار الذي يكرم وفادتهم، وهكذا استطاع المخاتير أن يؤثروا في موظفي التجنيد ويحولوا دون تطبيق القانون على قسم من الأهالي^(٤).

وكان السكان ومنهم العلويون في الأقضية التي خضعت للتجنيد، يسعون إلى تهريب أولادهم من الجندية عن طريق رشوة المختار بأن يتم إعطاؤه عقاراً أو مبلغاً من المال، فيبلغ موظفي التجنيد بأن الشاب المكلف قد توفي، في الوقت الذي يكون فيه هذا متزوجاً ولديه عائلة وأطفال أو أنه يتزوج بعد ذلك وينجب أطفالاً، وبالتالي يكتب موظفو التجنيد هذه المعلومات.

وقد أدت إفادات المخاتير غير الصحيحة إلى ظهور مشكلة مكتومي القيد، وقد استمر موضوع هؤلاء معلقاً خلال الانتداب الفرنسي، وبعد الاستقلال قامت بحلّه الدولة الوطنية وبما يحقق استقرار العائلات في قراها ومدنها.

(١) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز عوض - ص ١٥٤

(٢) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٤٨

(٣) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٥٢

(٤) الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - ص ١٥٢



المصادر والمراجع

- ١- الكامل في التاريخ - أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة ١٩٩٨
- ٢- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - العلامة عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة ١٩٩٢
- ٣- البداية والنهاية - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع الشافعي الدمشقي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - طبعة ١٩٩٧
- ٤- تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت لبنان - طبعة ١٩٨٥
- ٥- تاريخ اليعقوبي - محمد بن واضح اليعقوبي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
- ٦- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتي - دار الثقافة - بيروت - لبنان
- ٧- من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - المطبعة العمومية - بيروت - ١٩٠٥
- ٨- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب - جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفي سنة ٦٦٧ - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - مصر
- ٩- الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - الأمير حيدر أحمد الشهابي - مطبعة السلام - القاهرة - مصر ١٩٠٠
- ١٠- ولاية بيروت - محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك - دار لحد خاطر - بيروت - لبنان - طبعة ١٩٨٧

- ١١- كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام - نوفل نعمة الله نوفل - مطبعة جروس برس - طرابلس - لبنان - ١٩٩٠
- ١٢- تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً - سميح وجيه الزين- دار الأندلس - بيروت - لبنان -طبعة عام ١٩٦٩
- ١٣- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية - علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري - دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد.
- ١٤- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر - محي الدين بن عبد الظاهر - تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض - المملكة العربية السعودية
- ١٥- ذيل تاريخ دمشق - أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بـ«القلانسي» - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت- لبنان - ١٩٠٨
- ١٦- تاريخ الأعمال التي تم إنجازها وراء البحار (الحروب الصليبية) - وليم الصوري- ترجمة حسن حبشي - دار الإسراء للنشر والتوزيع - القاهرة - مصر
- ١٧- السلوك إلى معرفة دول الملوك - تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ العلوي - دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان - طبعة ١٩٩٧
- ١٨- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ العلوي - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية-لجنة إحياء التراث - القاهرة - مصر
- ١٩- بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي- الهيئة المصرية العامة للكتاب
- ٢٠- خطط الشام - محمد كرد علي - مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان
- ٢١- زبدة الحلب من تاريخ حلب - المولى صاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم الحلبي الحنفي- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

- ٢٢ - بغية الطلب في تاريخ حلب - صاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة - حققه د. سهيل زكار - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
- ٢٣ - نحو تاريخ فكري - سياسي لشيعة لبنان - حسن غريب - دار الكنوز الأدبية - بيروت لبنان - طبعة ٢٠٠٠
- ٢٤ - تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان
- ٢٥ - العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية - علي الزين - دار الفكر الحديث للطباعة والنشر - بيروت - لبنان
- ٢٦ - تاريخ عكار - فاروق حبلص - دار لحد خاطر - الدائرة - بيروت - لبنان ١٩٨٧
- ٢٧ - الحياة في مصر في العصر الروماني - نفتالي لويس - ترجمة فوزي مكاي - الناشر - المكتب المصري لتوزيع المنشورات - القاهرة
- ٢٨ - الأعلام الخطيرة في تاريخ أمراء الشام والجزيرة - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - دار إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع - دمشق - سوريا
- ٢٩ - الإدارة العثمانية في ولاية سوريا - عبد العزيز محمد عوض - دار المعارف - مصر
- ٣٠ - الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام - برنارد لويس - تعريب محمد العزب موسى - مكتبة مدبولي - القاهرة - مصر
- ٣١ - عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات - الإمام زكريا بن محمود القزويني - منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان
- ٣٢ - سفر نامه - ناصر خسرو علوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ٣٣ - مجلة النهضة لمؤسسها الدكتور وجيه محي الدين، الأعداد ٣، كانون الثاني، وشباط، وآذار ١٩٣٧

- ٣٤- المجالس المحاسبية في الرحلة الطرابلسية - يحيى بن أبي الصفا بن أحمد المعروف بابن محاسن - دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان
- ٣٥- عاداتنا وتقاليدينا - محمد علي أسبر
- ٣٦- مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٩١٠ - ترجمة فليب وفريد الخازن صاحبي جريدة الأرز - طبع في مطبعة «الصبر» - جونية - لبنان - ١٩١١
- ٣٧- المغول - سيد الباز العريني - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ١٩٨١
- ٣٨- جبل عامل في العهدين الصليبي والمملوكي - دراسة موجزة - دكتور محمد مخزوم
- ٣٩- الدولة الحمدانية - أحمد عدوان - منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع - ليبيا
- ٤٠- افتتاح الدعوة - القاضي النعمان بن حيون التميمي - الشركة التونسية للتوزيع
- ٤١- الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان - أ - ن - بولياك - منشورات دار المكشوف - ترجمة عاطف كرم - الطبعة الثانية عام ١٩٤٨ - بيروت - لبنان
- ٤٢ - الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن الشحنة - دار الكتاب العربي - سوريا
- ٤٣ - فتوح البلدان - الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٩٩١
- ٤٤ - فتوح الشام - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المتوفي سنة ٢٠٧ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
- ٤٥ - المغازي - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي - عالم الكتب - بيروت - لبنان

- ٤٦ - كتاب الفتوح- العلامة أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي- دار الأضواء بيروت
- ٤٧- قصة الحضارة - ول وايريل ديورانت - منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - جامعة الدول العربية
- ٤٨ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال -العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي- بيت الأفكار الدولية.
- ٤٩- ينابيع المودة - العلامة الشيخ سليمان بن الشيخ إبراهيم الحسيني البلخي القندوزي الحنفي - منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان
- ٥٠- سرور أهل الإيمان في علامات ظهور صاحب الزمان - السيد بهاء الدين علي بن عبد الكريم النيلي النجفي - منشورات دليل ما
- ٥١- إسهامات أسرة بني الخشاب في الحياة السياسية في مدينة حلب ما بين القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، والقرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي - منشورات مجلة الآداب - العدد ٩٩ - د، عبد المحسن حنون جبرة، و، د، سلام علي مزعل، و، د، مهند عبد الرضا حمدان - جامعة ذي قار- قسم التاريخ - جمهورية العراق
- ٥٢- معجم البلدان - الشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي- دار صادر - بيروت - لبنان
- ٥٣- الشام في صدر الإسلام - من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية - نجدة خماش - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق - سوريا
- ٥٤- تاريخ الأنطاكي المعروف بـ«صلة تاريخ أوتيا» - يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي - طباعة جروس برس - طرابلس - لبنان - ١٩٩٠
- ٥٥- أخبار الأيوبيين -المكين جرجس بن العميد -مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- مصر
- ٥٦- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق -أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - مصر.

- ٥٧- تجارب الأمم وتعاقب الهمم - أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.
- ٥٨- معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية - عمر رضا كحالة - مطبعة الترقى - دمشق - سوريا ١٩٦٠
- ٥٩- رحلة ابن جبیر - أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبیر الكناني - دار صادر - بيروت - لبنان.
- ٦٠- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
- ٦١- معاني الأخبار - الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت- لبنان
- ٦٢- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام - محمد سهيل طقوش - دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
- ٦٣- ديوان المؤيد في الدين - داعي الدعاة - تقديم وتحقيق محمد كامل حسين - دار الكاتب المصري - مصر القاهرة - سنة ١٩٤٩
- ٦٤- نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار - الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني - مؤسسة الأفكار الدولية - لبنان
- ٦٥- وسائل الشيعة ومستدرکها - الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي والحاج ميرزا الحسين النوري - مؤسسة النشر الإسلامي بقم المقدسة
- ٦٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلکان - دار صادر - بيروت - لبنان.
- ٦٧- المجالس المستنصرية - ابن عبد الرحمن الملطي - مكتبة مدبولي - القاهرة
- ٦٨- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى - محمد سهيل طقوش - دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.

- ٦٩- تاريخ فاتح العالم (جهان كشاي) في تاريخ منكوقآن، وهولاكو، والإسماعيلية - علاء الدين عطا ملك الجويني - المركز القومي للترجمة - القاهرة - مصر
- ٧٠- تاريخ الملك الظاهر - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد - دار فرانزشتايز - فيسبادن- ألمانيا - ١٩٨٣
- ٧١- مروج الذهب ومعادن الجوهر - أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - لبنان - ٢٠٠٥
- ٧٢- إقبال الأعمال - العالم العامل العابد الزاهد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسني الحسيني - منشورات مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان
- ٧٣- نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى سنة ٧٣٣ - منشورات - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- ٧٤- ذيل مرآة الزمان - قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن - الهند - عام ١٩٥٤
- ٧٥- ملامح القاهرة في ألف سنة - جمال الغيطاني - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - مصر - القاهرة ١٩٩٧
- ٧٦- دراسة تاريخية تحليلية لطرز الأزياء في العصر المملوكي - ريهام يوسف أمين العناني - مجلة الإسكندرية للتبادل العلمي - مجلد ٣٥ العدد ١- يناير - مارس ٢٠١٤
- ٧٧- التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية - الشيخ شرف الدين يحيى بن المقر ابن الجيعان - الناشر مكتبة الكليات الأزهرية - شارع الصناديقية الأزهر - القاهرة - ١٩٧٤
- ٧٨- سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر - الرحالة الفرنسي فولني - ترجمة حبيب السيوفي - المطبعة المخطّصية - دير المخلص قرب صيدا - لبنان

- ٧٩ - تاريخ العلويين - محمد أمين غالب الطويل - مطبعة الترقّي - اللاذقية - سوريا - عام ١٩٢٤
- ٨٠ - بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن - هنري غيز - ترجمة مارون عبود - دار المكشوف - بيروت - لبنان
- ٨١ - حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمدّ - أبو العباس أحمد العزفي السبتي - تخرّيج ودارسة محمد الشريف - منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي - دولة الإمارات العربية المتحدة - ١٩٩٩
- ٨٢ - الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - طبعة عام ١٩٨٦
- ٨٣ - تاريخ الأزمنة - البطريك اسطفان الدويهي - دار لحد خاطر - بيروت - لبنان
- ٨٤ - إبراهيم باشا في سوريا - سليمان أبو عز الدين - مطبوعات الجامعة الأمريكية - بيروت - لبنان.
- ٨٥ - الحروب الصليبية - إرنست باركر - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت لبنان
- ٨٦ - الإنجليز والحروب الصليبية - في الفترة من ١١٨٩ - ١٢٩١ - زينب عبد المجيد عبد القوي - دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية - القاهرة - مصر
- ٨٧ - تاريخ الحروب الصليبية - محمد سعيد عمران - دار المعرفة الجامعية
- ٨٨ - تاريخ بيروت وأخبار الأمراء الباحثين من بني الغرب - صالح بن يحيى - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - لبنان - ١٩٢٧
- ٨٩ - عصر محمد علي - عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف - القاهرة - مصر
- ٩٠ - النهضة والأطراف - د. إياس حسن - دار الفرقد - دمشق - سوريا
- ٩١ - المختصر في تاريخ البشر - عماد الدين إسماعيل أبي الفداء - المطبعة الحسينية المصرية - على نفقة السيد محمد عبد اللطيف الخطيب وشركاه.

- ٩٢ - موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي - مفيد الزيدي - دار أسامة للنشر والتوزيع - عمان - الأردن - ٢٠٠٩
- ٩٣ - تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط - هجيرة كراع - مذكرة ماستر - جامعة محمد خيضر - بسكرة - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - قسم العلوم الإنسانية - الجزائر
- ٩٤ - العلاقات الأمريكية العثمانية - ١٨٣٠ - ١٩١٨ - سلوى سعد الغالبي - مكتبة مبدولي ٢٠٠٢ - القاهرة - مصر
- ٩٥ - قانون الأراضي في الدولة العثمانية - خالد عبد القادر الجندي - Iksad publication- ISBN
- ٩٦ - تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي - ستيفن هاملي لونغريغ - دار الحقيقة - بيروت - لبنان.
- ٩٧ - الإقطاع في العصور الوسطى - كارل ستيفنسن - دار المعارف - القاهرة - مصر
- ٩٨ - التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية - مصطفى غازي مصطفى بدور - اطروحة دكتوراه - قسم الاقتصاد والمصارف الإسلامية - جامعة اليرموك - الفصل الدراسي - ٢٠١٥ - ٢٠١٦
- ٩٩ - الممالك - سيد الباز العريني - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان
- ١٠٠ - النقود المتداولة في مصر العثمانية - أحمد الصاوي - دار الحضارة العربية - القاهرة - مصر
- ١٠١ - المكايل والموازن الشرعية - علي جمعة محمد - دار القدس للنشر والإعلان - القاهرة - مصر
- ١٠٢ - تاريخ الدولة العثمانية - تيسير جبارة - الناشر عمادة البحث العلمي والدراسات العليا - جامعة القدس المفتوحة
- ١٠٣ - تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد بك المحامي - دار النفائس - القاهرة - مصر

١٠٤ - الدبلوماسية السياسية وأثرها في تثبيت النفوذ العثماني في شمال العراق
«أدريس البديسي» نموذجًا - بشرى ناصر هاشم الساعدي - الجامعة
المستنصرية - قسم التاريخ

١٠٥ - الزط وأثرهم - خالد الجبالي - كلية التربية للبنات - جامعة جازان
١٠٦ - الدولة الأموية - علا عبد العزيز أبو زيد - المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- القاهرة - مصر

١٠٧ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين أبي المحاسن
يوسف بن تغري بردي الأتابكي - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة
المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

١٠٨ - مفصل العرب واليهود في التاريخ - أحمد سوسة - دار الوراق للنشر -
لندن - دار الفرات للنشر والتوزيع - بيروت لبنان

١٠٩ - تاريخ هيرودوت - هيرودوت - الناشر المجمع الثقافي - أبو ظبي - دولة
الإمارات العربية المتحدة

١١٠ - فارس نامه - ابن البلخي - الدار الثقافية للنشر - القاهرة - مصر

١١١ - نشوء الدولة السلوقية وقيامها - حسن حمزة جواد - جامعة بغداد - كلية
الآداب - قسم التاريخ - ٢٠٠٨

١١٢ - تاريخ الدولة اليونانية والفارسية في العراق - علي ظريف الأعظمي -
الناشر مكتبة الثقافة الدينية - العراق

١١٣ - تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة - حسن عبد الوهاب
حسين - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - مصر

١١٤ - تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود - فراس سواح - دار علاء الدين
للنشر والتوزيع والترجمة - دمشق - سوريا

١١٥ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - خليل بن شاهين الظاهري
- طبع في باريس في المطبعة الجمهورية - سنة ١٨٩٤، اعتنى بتصحيحه

بولس راويس

- ١١٦- جامع التواريخ - رشيد الدين فضل الله الهمذاني - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الجمهورية العربية المتحدة
- ١١٧- تاريخ لبنان الطائفي - علي عبد فتوني - دار الفارابي - بيروت - لبنان
- ١١٨- الوقف الإسلامي بين النظرية والتطبيق - عكرمة سعيد صبري - دار النفائس للنشر والتوزيع - الاردن
- ١١٩- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي - محمد أحمد دهمان - دار الفكر - دمشق - سوريا
- ١٢٠- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان - سبط بن الجوزي - دار الرسالة العالمية - دمشق - سوريا
- ١٢١- تاريخ ابن سباط - حمزة بن أحمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي - دار جروس برس - طرابلس - لبنان
- ١٢٢- المسلمون الشيعة في كسروان وجبيل - علي راغب حيدر أحمد - دار الهادي للطباعة والنشر - بيروت - لبنان
- ١٢٣- تاريخ بيزنطة - جان كلود شينيه - دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت لبنان
- ١٢٤- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٧٦
- ١٢٥- الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي - أسد رستم - منشورات كلية العلوم والآداب - الجامعة الأمريكية في بيروت
- ١٢٦- عن العلويين ودولتهم المستقلة - محمد هوش - الشركة الجديدة للمطابع المتحدة - الدار البيضاء - المملكة المغربية - ١٩٩٧
- ١٢٧- تربية ديدان الحرير - أحمد لطفي عبد السلام - دار المعارف للطباعة والنشر - القاهرة - مصر
- ١٢٨- تربية دودة الحرير - إبراهيم العشعوش - وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي - قسم الإعلام - الجمهورية العربية السورية

- ١٢٩- تفسير الأحلام - ابن سيرين - دار كرم - دمشق - سوريا
- ١٣٠- كتاب الردّة - محمد بن عمر بن واقد الواقدي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان
- ١٣١- الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين - وفاء محمد علي - المكتب الجامعي الحديث - محطة الرمل الإسكندرية
- ١٣٢- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ابن فضل الله العمري - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
- ١٣٣- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج - الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب الشربيني - دار المعرفة - بيروت - لبنان - ١٩٩٧
- ١٣٤- المردانيون «المردة» - عادل إسماعيل - دار النشر للسياسة والتاريخ - بيروت - لبنان - عام ٢٠٠٠
- ١٣٥- تاريخ المواردنة ومسيحيي الشرق عبر العصور - عبد الله أبي عبد الله - مكتبة المهندس - طبعة أولى عام ١٩٩٧
- ١٣٦- التاريخ المنصوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان - أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي - منشورات مجمع اللغة العربي بدمشق - مطبعة الحجاز بدمشق - ١٩٨١
- ١٣٧- العلامة الشيخ حسين أحمد - كتاب مخطوط
- ١٣٨- العجر، ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب - جمال حيدر - الناشر المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب ٢٠٠٨
- ١٣٩- ديوان الشريف الرضي - تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو - وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية
- ١٤٠- ديوان المنتجب العاني - شرح وتحقيق - هاشم عثمان - منشورات مؤسسة النور للمطبوعات - بيروت - لبنان - ٢٠٠٢
- ١٤١- ديوان المتنبي - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ١٩٨٣

- ١٤٢ - مجلة التراث العربي - مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب -
دمشق - العدد ١٠٣ - عام ٢٠٠٦
- ١٤٣ - صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري
- ١٤٤ - صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج النيسابوري
- ١٤٥ - القرآن الكريم
- ١٤٦ - ويكيبيديا - الموسوعة الحرة - موقع الكتروني



شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net